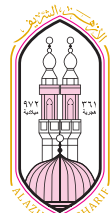


مجلس الشورى
العلمية



مَجَلَّةُ الْأَنْفَرِ

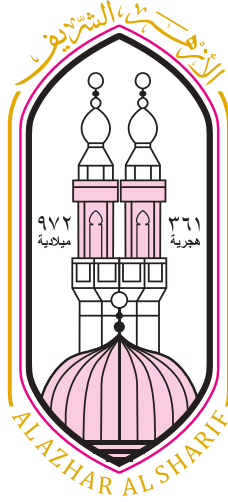
مَجَلَّةُ شَرْعِيَّةِ جَامِعَةِ

تصدر عن شيخ الأزهر في أول كل شهر عربي



المجلد السادس

السنة ١٣٥٤ هـ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www.azhar.eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سِقْفَةُ الصَّفَا الْعِلْمِيَّةِ

SAQIFAT AL-SAFAT TRUST

لبوان - ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

بُيُوتُ الْأَسْلَامِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصديرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

المجلد السادس

الحرم سنة ١٣٥٤

السنة السادسة

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفعة بخاري

لدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

داخل القطر المصري	٣٠
خارج القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد	}	داخل القطر ٢٠			
والسادونين ومعلمي المدارس					
الأولية والطلاب ومصالح الحكومة					
ومجالس المديرية					
للطلاب وأئمة المساجد	٣٠

نمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م

فاتحة السنة السادسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفتتح سنتنا الجديدة بحمد الله على ما وفقنا اليه من خدمة دينه الخفيف، مستمدين منه العون على متابعة خطواتنا في هذا السبيل، ومستلهمين حكمته الأزلية في كشف آياته، وتجليه بيناته، والدفاع عن أصول دينه القويم، والذيد عن حماه، على أكمل الأساليب وأجدرها مجلاله.

ولما كان مما ندب اليه الدين التحدث بفضل الله، فإننا نذكر أن ما قنابنا في سنتنا الماضية قد لقي ارتياحا عاما من قراء هذه المجلة، فكان هذا الارتياح مشجعا لنا على المضى في خطتنا، وممدا لنا بقوى معنوية ذلت لنا العقبات في طريقنا، وحافزا لنا على زيادة البذل من جهودنا، والإنفاق من أوقاننا. وإنا لنعدهم في هذه الفرصة بمضاعفة الجهد في العمل، وموالاته التحرى لاختيار الأصاح من البحوث، والأفضل من الموضوعات، حتى نبليغ بعون الله الى المثل الأعلى الذي يرجونه لنا ونرجوه لهذه المجلة التي هي معقد الأمل في نشر فضائل الاسلام وحججه الدامغة.

فإن الجامع الأزهر الذي قدر الله له أن يرفع علم الاسلام عاليا منذ نحو ألف سنة، قد قصد من نشر هذه المجلة أن يتيح لمن لم يسعده الحظ بالانخراط في سلك طلبته، أن يطلع وهو في عقر داره على أفضل ما تثمره قرائح أعلامه من شروح قيمة لكتاب الله وسنة رسوله، وبحوث ممتعة في شريعته، وحجج ساطعة في الدفاع عن أصوله، والمناخفة عن حقائقه. ولقد أصبح الاتصال الروحي بواسطة هذه المجلة بين الأزهر وبين المسلمين في كثير من البلاد النائية على وجه يبشر بقرب الوصول الى الغاية التي اليها قصدنا.

وإتنا لنعلم أن كل ما نبذله من طيبات نفوسنا وعقولنا ، فهو قليل في جانب ما نتوخاه من إحسان الدفاع في أكرم موقف من مواقف الحقيقة الإسلامية .
ولما كان العمل على نشر فضائل الاسلام بين المسلمين وغيرهم يقتضى أن يطلع من لا يعرف اللغة العربية على شىء من بحوث هذه المجلة ، فقد عنيت إدارة المعاهد بذلك وجعلت طائفة صالحة من مقالات المجلة والأحاديث النبوية تصدر فيها باللغة الانجليزية التى هي أكثر شيوعا بين المسلمين وغيرهم .

ومجلة نور الاسلام ترحب بكل بحث يرد اليها في الموضوعات المقررة لها من علماء الأقطار النائية ، توثيقا للترابط الأخوى بين المسلمين كافة على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، وتحقيقا لوحدة الوجهة والغاية بين أبناء الحنيفية السمحة .

ومتى ذكرنا الأزهر ومجلة الأزهر ، وجب علينا أن نذكر من له اليد البيضاء على الأزهر ومجلته ، ذلكم هو حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك « فؤاد الأول » ملك مصر ، حامي الدين ورافع لوائه ، فهو صاحب الفضل في هذه النهضة العظيمة ، فقد أغدق على هذا المعهد من فيض يديه ما جعله يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه بهذا النحو من السداد والكفاية . سدد الله خطاه وأيده بروح من عنده وحفظه ذخرا للعلم يرعاه بحمايته ، ويحوطه بعنايته ، قرر العين بولى عهده أمير الصعيد حضرة صاحب السمو الملكى « الأمير فاروق » ، بفضل الله وكرمه .
محمد فريد وهبى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرى الهجرة النبوية

إن فاتحة كل عام من أعوام السنة القمرية تثير في نفوسنا ذكرى الهجرة المحمدية من مكة إلى المدينة المنورة ، وتثير معها ذكريات أخرى لا آيات وعبر تزداد على مر الأحقاب عظمة ، وتكسب على نسبة تقدم العلوم وتتابع الحوادث جلالات وروعة .

لما شرف الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالاته إلى الناس كافة ، أخذ يدعو إلى الإسلام سرّاً ، فاتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً للاجتماع فيه بمن يؤمن به ، فكان يوافيه السابقون إلى قبول دعوته ، فيبلغهم ما ينزله الله عليه من الوحي . لبث على تلك الحال مدة ، ثم أمره الله أن يدعو إلى دينه عشيرته الأقربين ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس ، فدعاهم إليه وبشرهم وأنذرهم . فرد عليه جمهورهم بكلام لين إلا عمه أباهب ، فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن يجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه ذلتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال عمه أبو طالب : والله لمنعته ما بقينا ، وانصرف الجمع .

ثم أمر الله رسوله بأن يدعو الناس كافة واعداء إياه بأن يحفظه من كيد الكائدين فأنزل عليه قوله تعالى : « يأياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » وقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يفعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » ، فاضطلع صلى الله عليه وسلم بما حمله ربه من أعباء الرسالة أحسن اضطلاع ، فلم يدع وسيلة إلا قام بها ، فأغضب ذلك قريشا وهي قبيلته التي يعتزى إليها ، فشرعت في صده عما هو فيه من طريق المحاسنة أولاً ، ثم بالإغراء بالمال والجاه ثانياً ، فلما لم يرفع بمسؤولاتها رأساً ، ولم يقم لها وزناً ، عمدت إلى الاستهزاء به ،

والتشنيع عليه ، ثم الى اضطهاد واضطهاد الذين اتبعوه ، واستهترت في ذلك بما أمّلتها عليها جاهليتها .

فلما اشتد على المسلمين الأمر ، وضاق عليهم الخناق ، أذن الله لهم في التفرق في الأرض هرباً بدينهم ، وأشار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى الحبشة ، فخرجوا ولم يبق مع رسول الله إلا القليل .

في هذه الأثناء أسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجلاً شديداً مهيباً ، فكسب المسلمون بإسلامه قوة .

نخاف المشركون أن يفلت الأمر من أيديهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يعتمدوا على أقسى الوسائل في قمع حركتهم ، فرأوا أن يطلبوا الى عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم من ذكرنا آنفاً ، أن يسلموه لهم ، فلما أبوا عليهم ذلك قرروا مقاطعتهم ، واجتمع قاداتهم وكتبوا عهداً بذلك ووضعوه في جوف الكعبة ، فرأى عشيرته أن ينتقلوا الى شعب أبي طالب ، فدخلوه جميعاً ، وبقوا فيه ثلاث سنين حتى نفدت أقواتهم وأكلوا ورق الشجر ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما حل بأصحابه وعشيرته أمرهم بأن يهاجروا الى الحبشة ثانية ، فهاجر منهم اليها ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانى عشرة امرأة ، فأرسلت قريش وراءهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ليكيدوا لهم كيذاً عند النجاشى ، فلم يرفع بسعايتهم رأساً .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعب مع عشيرته ، وصل الى مكة وفد من نصارى نجران باليمن ، فلما رأوا أمارات النبوة عليه وما يتحمّله من الشدة في سبيل الدعوة الى دينه ، أدركوا أنه رسول الله حقاً فأمنوا به ، وكان عددهم عشرين رجلاً ، ورجعوا الى قومهم .

فلما نعى الى قريش أن رجلاً من أهل المدينة اتصلوا سرا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا على يده وأخذوا يدعون قومهم للإيمان به ، وأن المسلمين شرعوا يهاجرون

اليهم زرافات ووحدانا، سرا وعلانية، أدرك القرشيون أن الساعة قد أزفت لتنفيذ ما أضمره من قتل رسول الله وتفريق دمه في قبائلهم، فأوحى الله إليه بما يتنوه له من الشر، وأمره أن يهاجر إلى المدينة. فصعد النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، وخرج إليها هو وأبو بكر ليلا، فلما أدركهما الصبح اختفيا بغار موحش في الطريق، موقنين أن المشركين سيعتقبونهما، ولما أمنا الطلب خرجا منه وتابعا طريقهما حتى وصلا إلى المدينة، فاستقبلهما أهلها باحتفاء عظيم، وكان الإسلام قد استبحر فيها، فاتخذها صلى الله عليه وسلم مقرا لدعوته، وجعل أهلها أنصارا له، وقبلوا ثم أن يدافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم من يقصده بسوء ولو تألب عليه العالم كله.

هذه حوادث فذة في تاريخ الإنسانية لا يجوز إغفال النظر فيها، وبخاصة تحت ضوء العلوم الاجتماعية، فقد أبانت نواحي إذا جليت تجلت منها آيات بينات تستصغر بجانبها أكبر حوادث التاريخ، وتصبح من أقوى الأدلة على صحة الرسالة المحمدية. ونحن نبينها في ثلاثة فصول :

(أولها) ظهور دعوة عامة للأمم كافة، من بيئة لم تنضج بعد حتى لدعوة خاصة.
(ثانيها) تطوع طائفة لا يزيد عددها على بضعة ألوف للدفاع عنها حيال العالم كله ونجاحها في ذلك.

(ثالثها) تحقق ما وعده الكتاب الكريم هذه الطائفة من النصر ومن تبوء خلافة الله في الأرض.

فيحسن بنا أن نتولى النظر في هذه الآيات الثلاث، فنقول :

نجاح دعوة عامة في بيئة لم تنضج لدعوة خاصة :

قرر العلم الاجتماعي أن المجتمعات أول ما تنشأ تكون على حالة قبائل، متعددة متباينة في الأخلاق والعادات، فتبقى على ما هي عليه قرونا حتى يحدث لها بفعل عوامل التطور

ما يدفعها الى التوحد، فتنشأ منها أمة ساذجة، فلا تزال تعركها الحوادث، وتقوم من أودها، وتقوى من روابطها، قرونا أخرى حتى تصبح أمة مستحصدة العرى، قوية البنية، تصلح للكفاح والغلب. وعلى هذا الترتيب التدرجي تظهر فيها المبادئ والأصول الأدبية، فلم يشاهد قط أمة تتكون تكونا فجائيا على أكمل ما تكون قوة وصلابة، ولا أمة كانت مجردة من المبادئ والأصول، تنهض بغتة لتملئ على العالم أرفع الأصول وأكمل المبادئ، وتنجح في ذلك نجاحا لا يمرى بعده في سنين معدودة.

العالم كله يعلم أن العرب كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم على مثل ما كانوا عليه منذ أجيال كثيرة: قبائل متفرقة، وأوزاع متنافرة، لا يوحد كلهم دين، ولا تضم نشرهم جامعة، وكانت بينهم حروب متوارثة، وإحن وثارات قائمة على اعتبارات جاهلية موبقة، عاشوا كل تلك الأجيال على هذه الحال معتبرين ما كانوا فيه من مفاخرهم. لم يقم فيهم من يدعوهم لتوحيد كلمتهم، ولا لتحديد وجهتهم، وتعيين غايتهم، ولم يكن في طبيعة بلادهم، وقحولة بيئتهم، ما يضطرهم الى حياة مشتركة تم جنسهم كله. ولم يكونوا وهم في أمة مطبقة ليتأثروا بحاجات عقلية تدعوهم للنظر، وتجبرهم على التفكير، ثم تحفزهم الى تغيير ما هم فيه من الجمود على عقائد باطلة، وتقاليد ضارة.

فلما أرسل اليهم محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، أنكروه ولكن أى إنكار، وثاروا عليه ولكن أية ثورة، فرموا رسول الله بالافتراء والاختلاق، وبالسحر وقول الشعر، بل بالجنون. وقد حكى الله بعض ما واجهوا به الدعوة الاسلامية فقال تعالى: «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق». وقال تعالى: «وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير». وقال تعالى: «ويقولون:

أَنَّا لَنَارْكُو أَهْتَنَا لَشَاعِرُ مَجْنُونٍ » وقال تعالى : « وقال الذين كفروا هل نُدْلكُم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ، بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » وقال تعالى : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذي بَعثَ اللهُ رسولا ؟ إن كاد لَيُضِلَّنَا عن أَهْتَنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . » وقال تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . »

فكان الحق جل وعلا وهم في موقفهم هذا يداول لهم بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، ويضرب لهم الأمثال ، ويدعوهم للنظر والاعتبار ؛ فلم يزدادوا إلا عتوا واستكبارا ، ونفورا من الحق وإنكارا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم تكاد تذهب نفسه حسرات عليهم ، فيمده الله بالآيات تهديئة لقلبه ، وتأسية له بالرسل من قبله ، من مثل قوله تعالى : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » وقوله تعالى : « فَإِنْ كَذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رَسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

هذه كانت حال البيئته التي أرسل فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، من الاستعصاء عن قبول دعوته ، والتأدي في مناوئته ، حتى قررت قتله والتخلص منه ، فأطلعه الله على ما يبتوه له من الشر ، وأمره بالهجرة الى المدينة بعد أن لبث فيهم ثلاث عشرة سنة لا يألوهم نصحا ، وليس بعد هذا دليل على أن تلك البيئته لم تكن مستعدة لإحداث

أى انقلاب فى حالتها الاجتماعية والأدبية . وفى هذا الاستعصاء أكبر رد على الذين يقولون إن العرب كانوا على وشك تغيير ما هم عليه من الحالة النفسية ، فلما قام محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة فيهم اتبعوه وأيدوه .

تطوع طائفة للدفاع عنه الدعوة الإسلامية :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمد بعد أن ينس من قومه أن يعرض نفسه على القبائل التى كانت تأتى الى مكة للحج أيام الموسم ، فكانوا لا يأبهون لدعوته ، فاتفق أن قابل فيمن قابلهم رجالا من الأوس والخزرج سكان المدينة ، فاستحسنوا دعوته ووعدوه بعرض أمره على قومهم ، فخر خصيصا لهذه الدعوة فى العام التالى نحو سبعين رجلا منهم ، فاجتمعوا فى جنح الظلام فى شعب من شعاب مكة ، وقبلوا أن يدخلوا فى الاسلام ، وأن يدافعوا عنه ولو أدام ذلك الى مكافئة العالم أجمع ، وجر ذلك الى فنائهم جميعا . ثم قالوا وما لنا على هذا كله ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : لكم الجنة ، قالوا رضينا ، وانصرفوا على أن يهاجر اليهم هو ومن بقى بمكة معه من أصحابه ، وأن يستدعى من ذهب الى الحبشة منهم ليوافوا إخوانهم بالمدينة ، ثم انفضوا على ذلك .

هنا أربع آيات من أكبر ما استجلاه الناس من آيات الله فى خلقه :

(أولها) قبول قبيلتين من قبائل العرب اليمنية دعوة يقوم بها رجل من قبيلة عدنانية ، على ما كان بين هاتين القبيلتين من التنافس والتنافر فى تاريخهما كله ، ومعنى قبولهما دعوته خضوعهما لسلطانها ، وهذا ما كان ليحدث بين قبيلتين تمت إحداهما للأخرى بصلة القرابة ، فكيف به بين فريقين متنافسين ؟

(ثانيها) اضطلاع طائفة من الناس لا يزيد عدد آحادها على بضعة آلاف بعبء خطير يعرضها لمعاداة جميع قبائل العرب ، بله شعوب الأرض كافة .

(ثالثها) اطمئنان هذه الطائفة الى الاسلام الى حد معاداة العالم كله فى سبيله ، ولم تمض عليهم فيه حقبة من الدهر تكفى لأن تطيع نفسياتهم بطابعه ، وتحبب اليهم بذل أرواحهم فى نصرته . هذه طفرة لم يشاهد لها مثيل فى تاريخ النفسية الانسانية .

(رابعها) رضا هذه الطائفة بالجنة جزاء على هذه التضحية ، فلا الملك ولا سلطانها ، ولا الدنيا ولا ملذاتها كانت لديهم شيئاً يمكن أن يعوقهم من إجابتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

لا مشاحة في أن هذه آيات يجب أن يراها الناس ويتأملون فيها ، فإنها من أدل الدلائل على التأييد الإلهي لرسوله ، ومن أقوى الشواهد على أن النبوة أمر تحرق له سنن الكون ، وتخضع له قواه ونواميسه .

تحقق ما وعد الله به رسوله منه النصر :

إن شئت أن تشهد آية هي أكبر وأجل آيات الله في عباده ، فاشهد أن قام رجل في جماعات أمية ، في أحط دركات الجاهلية ، يدعوها لأن تجتمع على دين لا عهد لها بمثله ، يخلعها عن أكثر عاداتها ، ويمتلئها عن أثبت موروثاتها ، ويطبقها على نهج جديد لم تعهده في جميع أدوار تاريخها ، فينجح في ذلك نجاحاً لم يقدر مثله لمصلح كان قبله أو جاء بعده . تقول دائرة معارف لاروس في عرض كلامها عن الإصلاحات الاجتماعية : « إن المبادئ الجديدة والأصول الطريفة ، لا يمكن أن تسرى في نفسية أمة من الأمم بمجرد بثها فيها ، ولكن لابد من مرور أجيال متعاقبة عليها قبل أن ترسخ في نفسياتها وتصبح حالاً لها ، وتصدر أعمالها عنها » .

نقول : هذا ما قرره العلم ، ودلت عليه التجارب الإصلاحية في الأمم ، ولكن الدعوة الإسلامية ، على سمو أصولها عن كل الأصول المعروفة إلى اليوم ، قد قبلتها الطائفة التي انتدبت لحمايتها ، وقامت على سنتها طفرة ، فتأدت بها إلى السيادة على الأرض ، وهذا وحده من أكبر المعجزات في نظر العلم الاجتماعي ، لأنه ينقض أكبر ناموس فيه ، وهو ناموس التطورات التدريجية .

وقد أشار الكتاب نفسه إلى جلاله هذا الأمر ، فأضافه إلى محض قدرة العزيز العليم إكباراً لشأنه ، وإعظماً لخطره ، فقال تعالى : « واذكروا إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

وقال تعالى: «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» .

إننا نذكر كل هذه الحوادث الكبرى ، كلما عنت فرصة لذكرها ، لأن الأمر أكبر من أن تكفي فيه البحوث المستفيضة والتحليلات الدقيقة ، فغرابته وإعجازه يتجددان بزيادة مادة العلم ، وتوالى العبر العالمية . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

محمد فريد ومجدي

سحر البيان يقضى الحاجات

قال العتبي : قدم عبد الله بن زرارة الكلابي على معاوية وهو أمير للمؤمنين فقال : إني لم أزل أهرز ذوائب الرحال إليك ، فلم أجد معولا إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأسم المجاهل بالآثار ، يقودني إليك أمل ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يعذر ، وإذ بلغت فقطني (أى غسني) .

فقال له معاوية : احطط عن راحلتك .

ودخل كرز بن زفر بن الحرث على يزيد بن المهلب فقال : أصالح الله الأمير ! أنت أعظم من أن يستعان بك ويستعان عليك ، ولست تفعل من الخير شيئا إلا ويصغر عنك وأنت أكبر منه ، ولا العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل .

فقال له يزيد بن المهلب : سل حاجتك .

قال كرز : حملت عن عشيرتي عشر ديات .

قال يزيد : قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها .

وأتى رجل الى حاتم الطائي فقال : إنها وقعت بيني وبين قوم ديات فاحتملتها في مالي وأملى ، فقدمت مالي وكنت أنت أملى ، فان تحملها عنى قرب هم قد فرجته ، وغم كفيته ، ودين قضيته . وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك ، ولم أياس من غدك .

فحملها حاتم عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ١٧ —

أغراضه الاجتماعية — نظرة تمهيدية فى مقومات الاجتماع

الاجتماع كالبناء ، وإنما الفرق بينهما أن الأول مؤلف من أفراد أحياء ، والثانى من مواد جامدة ، وكلاهما بحاجة الى ما يربط وحداته بعضها ببعض ، ويجعل منها جسما واحدا . فالبناء بحاجة الى مادة ماسكة هى الملاط ، والثانى يستدعى وجود روابط أدبية بين الأفراد .

فكل مجتمع لا يصلح للحياة المشتركة ، إلا إذا وجدت بين أفراده روابط من ضروب شتى ، تجمع بينهم وتوجههم الى غرض واحد .

وقد وجدت هذه الروابط فى أول أدوار الاجتماع ، وكانت من السذاجة على قدر ما كان عليه الأجيال الأولى من البساطة . ولما كان الانسان لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعا بأفراد من نوعه ، كانت أولى تلك الروابط الحاجة المعاشية . فكان الأفراد يترابطون على القيام بها تحصيلًا للقوت ، ودفاعا عن الحوزة ضد الحيوانات الضارية ، وضد المغيرين عليهم من الجماعات المجاورة لهم . وكانوا كلما ارتقوا فى الأسباب ، زادت الروابط التى بينهم تركبًا ، وما زالت تتركب حتى بلغ الانسان شأوا بعيدا من المدنية ، فبلغت الروابط بينهم من التعقد بحيث يعوزها خبرة عظيمة بما يناسب الجيل من القيود والروابط . من هنا صارت الحاجة ماسة الى وجود علماء للاجتماع ليتعرفوا هذه الروابط ، ويتفخوا على أسباب توثقها ، وعلى تفككها ، ووسائل معالجتها ، حرصا على بنية الاجتماع من الانحلال .

جاء الاسلام فوجد انما قوة قد ترابطت فيما بينها على الحياة والفتح وتسخير الأُمم ؛ وكانت على عقائد خرافية تتفانى في الذب عنها ، فأتى بأرقى ما يمكن تصويره من روابط الاجتماع القائمة على أحكم الأصول الأدبية .

ولقد أثبت العلم أن روابط الاجتماع نفسها تتنازع الحياة كما تتنازعها الأحياء ، فلا يقدر النصر والبقاء إلا للأكثر كمالاً منها ، ويتلاشى الضعيف الملتاث منها بالأدواء ، حتى لا يبقى إلا الأصلح المحقق لناموس الارتقاء : « فأما الزبدُ فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

لقد أدهش الناس كلهم أن تقوم الأمة الاسلامية في أبعد بقاع المعمورة عن العمران ، فتلقى بنفسها في معمران المزاومات الاجتماعية ، وتجول في الأرض جولات تراث بها سيادة العالم كله ، وتحتك بالأُمم العريقة في الاجتماع فتنتزع منها السؤدد والسلطان ؛ أدهش الناس هذا فطفقوا يعللونه بضروب من العلل ، فمنهم من زعم أن أسباب هذا الفوز تنحصر في أن الاسلام دفع ذويه للجهاد ، ووعدهم عليه الجنة ، ومنهم من تخيل أن علته تفكك روابط الأُمم التي كانت معاصرة للمسلمين الأولين ، ويغيب عنهم كلهم أن هذا التبسط الاسلامي كان يصحبه ارتقاء يناسبه في جميع المعارف البشرية ، ومختلف الصنائع والفنون ، ويسايره توسع في العمران ، واستبحار في المدنية الفاضلة ، وكل هذا يبين أن ليست الأسباب المتقدمة هي وحدها التي جعلت الاسلام ينتشر في بقاع الأرض ، ولعم هذه الأُمم القوية الروابط ، ويحتل من نفوسها تلك المكانة السامية التي لم تصل إليها أية عقيدة أخرى .

إذ لو كان الدافع لهذه النهضة العظيمة هو حب الجهاد وحده ، لكان قصارى أمر المجتمع الاسلامي الأول أن يبلغ مداه ثم يتراجع ويمحى أثره ، كسكل نهضة حربية في الأرض ، وليس تاريخ التوسع الحربي لبختنصر والاسكندر المقدوني وجنكيزخان وتيمورلنك وغيرهم مما يعزب عن الأذهان .

نعم إن الرومانيين قاموا بما يقرب من الفتوح الاسلامية حتى دانت لهم الأرض ، ولكن كان ذلك في خلال ثمانية قرون لا في ثمانين سنة كما حدث للمسلمين بواسطة الاسلام ، مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن الفتوح الرومانية كانت تمثل العسف بجميع مظاهره ، فكانت الشعوب والأُم تحت نيرها لا تملك لنفسها صرفا ولا عدلا ، وكانت تعامل معاملة الأرقاء ، ولكن الفتوح الاسلامية كانت خيرا وبركة على المهودين ، وكان مبدأ المساواة مطبقا بين الكافة في أقصى حدوده ، وأخص معانيه ، حتى كان المهود يخاصم قاهره مهما كان عظيما الى القاضي فيقتص له منه ، غير معتد بجنسيته ولا كرم أرومته .

وأما ما تخيله معللو توسع المسلمين من أن السبب فيه كان تفكك روابط الأُم على عهده فقير معقول ، فإن الدولتين اللتين اصطدم بهما الاسلام في أول عهده ، وهما الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، كانتا حاصلتين على مقوماتهما الاجتماعية ، وكثيرا ما دخلتا في حروب طاحنة إحداهما ضد الأخرى ، ولم يؤثر ذلك في كيانيهما . فلما ظهرت الدولة الاسلامية وأدتها التقلبات الاجتماعية الى الدخول معهما في حرب ، قامت كل منهما بالدفاع عن نفسها على أكمل وجه .

لم يبق أمامنا إلا تعليل علمي واحد يمكن أن تفسر به مناعة المجتمع الاسلامي واستعصاؤه على جميع المحلات التي صادفها في اصطدامه بالمجتمعات العالمية ، وتغلبه عليها ، وهذا التعليل هو أن الروابط الاسلامية بين الآحاد كانت أرقى وأقوى من جميع روابط الجماعات التي نازعتها الحياة ، وأن تلك الروابط كانت تستمد وجودها من أعلى المبادئ الاجتماعية ، التي جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

هذا التعليل وحده هو الذي يفسر ثبات طائفة إسلامية صغيرة أمام جماعات تفوقها عددا أضغافا مضاعفة .

فالتنازع بين هذه الطائفة وبين تلك الجماعات كان في حقيقته تنازعا بين القوى

الأدبية لكل منهما ، تحقيقا لناموس الانتخاب الإلهى الذى نتيجه أن يكون الفوز للأصالح ، كما قال تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذِّكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » :

بقى علينا أن نستعرض الروابط الاجتماعية لتلك الجماعات ، وأن نقابلها بالروابط الاجتماعية للمسلمين ، لنرى رأى العين مصداق هذا الناموس الإلهى ، وشهادة الحوادث على أنه الحق الجدير بالاستمساك به ، فنقول :

كانت الروابط الاجتماعية للأمم الى عهد الاسلام تنحصر فى التعاون على تحصيل مقومات الحياة المادية بإثارة الحروب على المجاورين وشن الغارات عليهم ، فإذا كتب جماعة منها النصر جعلت همها تجريد المقهورين من أموالهم ، واستعباد رجالهم ونساءهم ، والأخذ بسنة العسف فى معاملتهم ، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة ، وغايتها تسويد الجنس الغالب على جميع الأجناس البشرية ، ولكن الروابط الاسلامية كانت أصولا أدبية هى أرفع ما يصل الى العقل من معنى العدل الإلهى ، فهى تقوم على هذه المبادئ :

(أولها) المساواة بين جميع الخلق لأن كلهم لآدم وآدم من تراب .
(ثانيها) أن التفاضل بينهم لا يبتنى على الفوارق من جنس ولون ولغة ، ولكن على الكمال النفسى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
(ثالثها) أن القبائل والشعوب خلقت لتتعارف وتعاون على الاضطلاع بأعباء الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر : « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

(رابعها) تسويد الحق فى جميع المواقف على القوة : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » .
(خامسها) العمل على إعلاء كلمة الله فى الأرض ، وهى العدل المطلق لا المصلحة المادية .

هذه روابط جامعة تصلح أن تضم الناس أجمعين ، وتمحو ما بينهم من أحقاد جاهلية ، وثارات قومية ، وتجعل العالم كله أمة واحدة فى ظل أكل الأصول الأديية ، ورعاية أكرم المبادئ العلوية .

فالفارق بين هذين النوعين من الروابط بعيد جدا ، أحدهما قائم على المصالح المادية ، والاعتبارات القومية ، والآخر مستمد من المبادئ الخالدة والأصول العامة . فالفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء .

إذ الداخل فى الرابطة الاسلامية يشعر بجلال الأصول التى يمثلها ويدافع عنها ، ويستلذ الاضطلاع بها والفناء فيها ، ويحس بروعة الحق الذى يتجلى عليه منها ، فهو لا يتكافل وأخاه طلبا لحطام الدنيا ورتوعا فى دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، ولكن مدفوعا لتحقيق أكمل المرامى الاجتماعية ، والوصول لأرفع المكانات الوجودية .

ولست فى حاجة بعد هذا أن أذكر لك أن الاجتماع الذى تكون روابطه من هذا الضرب يكون أفراد كاعضاء الجسد الواحد تتحرك بروح واحدة ، وتتأثر بشعور واحد ، ولا يجوز عليها ما يجوز على سواها من تنابذ آحادها وتناكرهم .

هذا هو التعليل العلمى المعقول لنشوء المجتمع الاسلامى ، وظهوره على جميع المجتمعات التى نازعته الوجود ، وحلوله محلها فى الزعامة العامة فى الأرض .

وهذا المجتمع الاسلامى بهذه المميزات يعتبر أول مجتمع بنى على المبادئ الأديية الخالدة ، والأصول العالمية العامة ، فيصلح أن ترث روابطه جميع الروابط الاجتماعية التى فرقت بين الشعوب وجعلتها شيعا يتربص بعضها الدوائر ببعض .

نعم إن الأمم لم تنضج كلها بعد لإحلال هذه الروابط الروحية محل الروابط المادية فى بنية مجتمعاتها ، ولكن المتأمل فى حركاتها الحاضرة يرى أنها تحاول أن تصل إليها ، فإن مساعى رجالها الأعلين فى استبدال تحكيم الحديد والنار بتحكيم الحق والعدل ، وفى إحداث تكافل عام بين الشعوب يقوم مقام التزام الحيوانى بينها ، كل هذه

المحاولات منها وإن كانت بطيئة تعتبر تمشيا نحو المبادئ الاسلامية، ولا بد من وصولها اليها بعد قطع أدوار كثيرة، والدخول في تطورات عديدة، وإذ ذاك تكون الفلسفة والعلوم قد كشفت عن القلوب والعقول حجباً كان أسدلتها عليها التعصب للموروثات، فتشهد من جمال الاسلام ما كانت لا تتخيله فيه، فيتم بذلك موعود الله في قوله تعالى: « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ».

فالأمة العالمية التي أسسها الاسلام في الصدر الأول من قوميات شتى، وحق ما بينها من الفوارق التي كانت تدعوها للتناحر والتفاني، هذه الأمة كانت وستكون الى أن تقوم الساعة مثالا حيا لما يجب أن يكون عليه العالم البشري في تأسيس بنيانه، وتشديد عمرانه، ومتى تم له ذلك تكون الانسانية قد قامت على السنة التي تناسب كرامتها، وتلائم مكانتها. ولا يزال الاسلام يدعو الأمم الى القيام على هذه السنة، ولا مناص لها من القيام عليها، مدفوعة بعوامل التطور كما دفعها الى الأخذ بأصول إسلامية كثيرة من قبل.

محمد فريز ومهدي

العناية بطلب العلم

روى أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام: لف العلم حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك. وروى أنه قال له أيضا: اجعل العلم مالك والأدب حليتك. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال إن كان يحسن به أن يعيish فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عروة بن الزبير لبنيه: يا بني اطلبوا العلم فإن تكونوا صغارا لا يحتاج اليكم، فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين لا يستغنى عنكم.

وروى عن أحد ملوك الهند أنه قال لولده وكان له أربعون ولدا: يا بني أكثروا من النظر في الكتب وازدادوا في كل يوم حرفا فان ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي.

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زراد أو وراق.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ. وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

لقد تقدم في الآيات السابقة ذكر قصة موسى وقومه مستوفاة مفصلة ، ونعلم أن القصص في القرآن الكريم ليس المقصود منه التسلية بذكر أخبار مضت أو مجرد العلم بالتاريخ ، وإنما يقصد منه عبرة المخاطبين ليهتدوا الى ما أراد الله منهم وأمرهم به . فلذا جاء في تضاعيف القصة حين ذكر جل شأنه عن موسى عليه السلام أنه اختار من قومه سبعين رجلا للميقات ، وأنهم تطوحت نفوسهم الى ما ليس من حقهم : فطلبوا الى موسى عليه السلام أن يرهم الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة حتى كانوا على شرف الموت ، فلجأ عليه السلام الى ربه يستغيثه ويسترحمه قائلا : « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أهلكنا بما فعل السفهاء منا » وقال في دعائه : فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، فأجابه عز وجل بأنه مالك الأمر كله وييده العذاب والرحمة يضعهما حيث شاء ، ووعد به أن سيكتب رحمته لمن يتقى الله ويعطف على عباده بالزكاة ويعمر قلبه بالايمان بالله ، الايمان بالله إيمانا صادقا بحيث يتبع ما أمر الله باتباعه ، وأقام الآيات أنه من عنده لا فرق عنده بين أن يأتيه أمر الله عن طريق هذا أو ذاك ، فإن هذا

هو المؤمن حقا، وهو الذى صدق إيمانه وجعل هواه تبعاً لأمر ربه؛ ومريضاته تعالى هى منتهى قصده لا كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض، أو كمن يقول: «إن أوتيتم هذا نخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا» فمثل هذا لا يسمى مؤمناً بالله ولا مسالماً نفسه لله، وكيف يكون مسالماً ومؤمناً وقد حكم هواه فى أمر مولاه؟ فلا جرم قال فى سياق تلك القصة: «فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يحدونه مكتوباً عندهم فى التوراة» الخ الآية. أى فأما من يأبى أن يذعن للحق إلا إن طابق هواه فلا يكون مؤمناً بالله. فمن الحق أن يختم تلك الآية بما يفيد حصر الفلاح فيمن اتبعه بقوله تعالى: «فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون» فإن هذا الأسلوب مفيد للحصر على ما هو معلوم لأهل البلاغة.

فحسن إذ انتهى الى هذا البيان أن يردفه بأمره تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم أنه رسول الله الى الناس جميعاً: لا فرق بين من كان على دين سابق كاليهود والنصارى، ومن كان قد انحرف عن دين الأنبياء بالكلية كالمشركين، فقال عز وجل مخاطباً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى ثنايا القصة: «قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأسمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون».

ثم عاد الى قصة موسى عليه الصلاة والسلام يكملها حتى وصل الى حادثة رفع الجبل فوق رؤوس قومه بنى إسرائيل وظنهم أنه واقع بهم، فأمرُوا فى هذه الحالة أن يأخذوا ما آتاهم الله إياه من تكاليف وأحكام بقوة وإقبال، وأن يذكروا ما فيه من تكاليف وتعاليم، فيعملوا بما أمرُوا لعلهم ينجون من غضب ربهم ويتقون عذابه.

وحينما وصل الى هذه الحالة من أخذ بنى إسرائيل بالآيات المحسوسة، ومن الرغب والرهب، وأنه قد وصل الأمر بهم الى أن سد عليهم باب المكابرة بتلك الآيات الظاهرة

الباهرة ، أقول حينما وصل الى هذا الحد لا يبعد أن نفسا تقول : « نعم هنا وضع الأمر واستبان ، ولم يبق طريق للشك في صحة هذا البرهان ، فمن أين لنا أن نؤتي آية بينة من جنس هذه الآيات ؟ إذاً لاستقمنا وقتنا بما طلب منا . أما ونحن لم يتجلى لنا الأمر كما تجلى لهم فلا حرج علينا إذا لم نتبع الرسل » . أقول : لا يبعد أن تتحرك نفوس للشغب ، وتتلهمس أن تؤتي من الآيات ما به تهتدى الى الايمان بربها والإذعان لرسله الذين أيدهم بحججه .

فجاءت هذه الآية الكريمة التي سقنا الكلام اليوم لتفسيرها ، لقطع معاذيرهم ، ودحض حججهم وإبطال شبهتهم ، مبينة أن آيات الله تعالى قد شملت جميع بني آدم من أصل خلقتهم وبدء تكوينهم ، فلم يغيب عن أحد منهم آيات الله في نفسه وفي تكوينه وأصل خلقته وأطوار وجوده وحالات قلبه ، فما من امرئ منهم إلا وقد بث الله في نفسه آيات ناطقة ودلائل شاهدة على أنه مربيوب للرب العلي القدير ، ومشمول في كل لحظة بإحسانه المتوالي وتربيته المستمرة من ساعة أن انفصل من ظهر أبيه الى أن يحل به الموت وينزل القبر الذي يواريه ، وإنه على نفسه لشاهد ، ولو التفت أية التفاتة لشهد ونطق بلسان مقاله فوق نطقه بلسان حاله أن ربه هو الله الواحد .

قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى : »

للمفسرين في تفسير هذه الآية طريقان : طريق المتأخرين من أصحاب النظر ، وطريق السلف المتبعين للأثر . وسنعرض لكلا الطريقتين ونبين أنهما لا تنافي بينهما ، وأن كلا منهما صحيح في نظر العقل ، لا ينافيه النقل ، وأن الآية قابلة لأفهام كلا المعنيين ، والله المستعان :

الطريق الأول ، وهو ما بنينا المقدمة السابقة على اعتباره ، أن هذا إرشاد الى ما وضعه جل وعز في نفوس بنى آدم من الدلائل الدالة على ربوبيته تعالى ، والتي أشير

اليها في قوله تعالى: « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وفصلت على عدة وجوه في عدة آيات كقوله تعالى: « فلينظر الإنسانُ مِم خلق؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » وكقوله عز وجل: « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين » وكذلك في قوله جل وجهه: « أفأرأيتم ما تُمنون . أن أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ثم امتنانه عليهم في تيسير غذائهم: طعامهم وشرابهم، كما في قوله تعالى: « أفأرأيتم ما تحرثون؟ أن أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » « أفأرأيتم الماء الذي تشربون . أن أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » وكقوله تعالى: « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبًا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبًا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم » .

فهل بعد هذه الآيات التي بها عز وجل في نفوس بني آدم من أصل تكوينهم وحالة استمرار وجودهم، مما فصله تعالى في كتابه لهم، وبما تركه لمجال أنظارهم بعد ما حثهم على التأمل في مجاري أحوالهم، يبقى واحد بلا أية دالة على أن ربه الذي خلقه يجب أن يذعن له بالطاعة ويسلمه جميع أمره؟ من ذا الذي يمدد بالأنفاس التي لا غنى له عنها لحظة من اللحظات؟ من ذا الذي يبقى دقات قلبه منتظبات متواليات ترسل عنصر الحياة إلى جميع أعضائه على نظام لا يدري كنهه، ولا يعرف وجهه؟ من ذا الذي يسعفه كل لحظة بعدد تفرز له مادة لا بد منها في صلاحية غذائه للاغتذاء بدل أن يبقى كتلة في معدته فلا تمتص أعضاؤه منه ما يصلح له؟ من ذا الذي ركب فيه أجهزة متقنة يقوم كل جهاز منها بما هيء له من الإحساس والحركة والتنفس وغير ذلك؟ من ذا الذي وهبه العقل الغريزي يدرك به ما ينفعه وما يضره، ويميز الحسن من القبيح

والخبيث من الطيب ؟ من ذا الذى سخر له هذا العالم ومكنه من الارتفاع بكنوزه ودفعه لاستغلال خيراته فى مصلحته ؟

أما إنه قد وضع فى الانسان من جلىّ الآيات ما يربو على آيات قوم موسى من نتق الجبل وقلق البحر وغيرها ، ولا يتوقف على إجابة النظر وتنبيه الفكر . وإن الانسان ليلمح هذا من نفسه ويعترف به طوعاً أو كرهاً ؛ ومن تعاصى على النظر فى حال الرضاء فهو البتة شاعره حال الشدة . وأى مخلوق يسلم فى هذه الحياة من تداول حالى الشدة والرخاء ، والسعادة والشقاء ، والصحة والمرض ، والإقامة والسفر ؟ فهو إن لم يلجأ الى ربه الذى يشعر بربو بيته من أعماق قلبه ويمجده فى قرارة نفسه ، إن لم يلجأ اليه اختياراً فهو لا بد لاجىء اليه اضطراراً « وإذا مس الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » .

ففى الحق إن الانسان شاهد على نفسه بما فطر عليه وما أودع فيه أن ربه الله ، فقد أشهده الله على نفسه من يوم أن أخذ ذرية من ظهر أبيه وأشعره بوجود نفسه أليس ربك الله ؟ قال : بلى . وقوله تعالى : « شهدنا » من تنمة كلام الذرية ، أى شهدنا على أنفسنا ، أو شهدنا هذه الحالة فى أنفسنا وقلنا بلسان حالنا بحسب ما شهدنا ورأيناه رأى الشهود والمعاينة . وقوله تعالى : « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » فى موضع التعليل لأشهدهم على أنفسهم ، أى أشهدهم حالتهم واستخلص منهم شهادتهم على أنفسهم لكيلا يقولوا يوم القيامة قد أخذنا على غرة وكنا فى غفلة من هذا .

ولقد اقتضت رحمته وهو أرحم الراحمين أن لا يدعهم ومجرد عقولهم ويؤاخذهم بمجرد ما ركب فى فطرتهم ، بل رحمهم بإرسال الرسل اليهم منبهين ، مبشرين ومنذرين ، معلمين وهادين ، مرشدين ومرمين ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقال عز وجل : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، ولو شاء أن يأخذهم بمجرد ما أودع فى فطرتهم ، وأن يطالبهم بالعمل بما تقضى به بصيرتهم وسليم عقولهم ، ما كان فى ذلك ظالماً ولا قامت عليه حجة ، فكيف وقد قوى العقل ، وأرشده بالآيات

البينات على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام فدعوه إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ؟

وكما قطع عليهم طريق الاحتجاج بالغفلة في الدنيا سدّ عليهم طريق التمسح بالآباء واعتلاهم بأنهم كانوا ذرية ضعفاء نشأوا في حجر آباء مشركين جهلاء ، فلهم العذر إذ سرى الشرك من آبائهم إليهم . أجل : سد في وجوههم هذا الطريق أيضا بما بين من أن آية كل امرئ منهم في نفسه ، لا يحتاج إلى أن يستمدّها من أبيه أو جده ، فكل امرئ على نفسه بصيرة ، وقد وهب من العقل والتمييز ما يستطيع التأمل به والتفكير ، كما أنه يرى ويسمع ويحس بدون وساطة أحد من آباءه ، فلا عذر لأحد في تقليد أحد لا أب ولا جد « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » فهذا هو قوله تعالى : « أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفهللكننا بما فعل المبطلون » . أي جعل الله في كل امرئ من ذرية نبي آدم آية في نفسه وأشهد على نفسه بما فطره عليه أن ربه الله فشهد واعترف حتى تقوم عليه الحجة ، فلا سبيل له أن يقول : لقد كنت في غفلة من هذا ، فقد كشف الله غطاءه بما نبه به على لسان رسله ، ولا سبيل له أن يقول : « لم يكن الشرك مني وإنما كان من أبي وجدى ، فهم هم الذين أشركوا ، ولقد نبت بين أيديهم ذرية ضعيفة فلقنوا ما درجوا عليه ، فهم المبطلون ولا ذنب لى » . نعم ليس له أن يعتل بهم ، فإنه قد أوتي من البصر والبصيرة ، ومن بث الآيات في نفسه وفي الآفاق حوله ، ما يستغنى به عن اللجأ إلى أحد ، فقد ترك الطريق السوى الذى بُصّر به ، واتبع طريق الغي الذى حذر منه ، فحقت عليه كلمة العذاب التى استوجبها لنفسه بنفسه ، كما حقت على آباءه من قبله ، فالهيج واضح ، والأعلام قائمة ، والآيات بينة ، وقد تبين الرشد من الغي .

فكلمة إنما للحصر ، ومعناها أن الذين أشركوا إنما هم الآباء ، وأما نحن فقد قلنا نعم ولنا العذر في أننا كنا ذرية ضعفاء أماهم ، فلعبوا بعقولنا وأضلونا السبيل . فقولهم :

أفهلكننا بما فعل المبطلون ، حجة لهم داحضة ، فقد أهلكوا بما فعلوا ، وأنمضوا عيون عقولهم عن النور الذى وهبوا ، فاستحقوا جزاء ما كسبوا .

وأما الطريق الثانى فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وهو ما عليه المتقدمون من المفسرين وأهل الأثر ، فقد روى ابن جرير وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول ما أهبط الله آدم مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها الى أن تقوم الساعة ، ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى . وكذلك روى عنه أنه قال : لما خلق الله آدم أخذ ذريته من ظهره مثل الذر فقبض قبضتين فقال لأصحاب اليمين : ادخلوا الجنة بسلام ، وقال للآخرين : ادخلوا النار ولا أبالي . وفى رواية عنه : لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ومصائبه ، واستخرج ذريته كالذر ، وأخذ ميثاقهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم . وكذلك روى الطبرى عن الضحاك ابن مزاحم أنه مات له ابن لسته أيام من ولادته فقال : يا جابر : إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابنى مجلس ومستول ، ففعلت الذى أمرنى ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عم يسأل ابنك ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم عليه السلام . فقلت : وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة ، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل

أهل النار يعملون» فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار .

وروى عن أبي بن كعب قال : جمعهم يوم القيامة جميعا ما هو كائن الى يوم القيامة ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، قال : فإنني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوني شيئا ، وسأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقى ، وسأنزل عليكم كتيبى ، قالوا : شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع عليهم أباهم آدم فنظر إليهم فرأى منهم الغنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال : رب لولا سويت بينهم ، قال : فاني أحب أن أشكر . قال : وفيهم الأنبياء عليهم السلام يومئذ مثل السرج . وخص الأنبياء بميثاق آخر : قال الله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . وهو الذى يقول تعالى ذكره : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » . وفى ذلك قال : « هذا نذير من النذر الأولى » يقول : أخذنا ميثاقه مع النذر الأولى . ومن ذلك قوله : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين . ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها » قال كان فى علمه يوم أقروا به من يصدق ومن يكذب . الى غير ذلك من روايات أطال فيها ابن جرير وغيره . ولقد سقنا منها طائفة كبيرة لنطلعك على كثرة الروايات فى هذا المعنى ، وفى كثرتها ما يشهد بقوتها .

وهذا يعطى أن الآية تشير الى قصة سابقة على وجودنا هذا المشاهد ، وأن المقصود منها تذكيرنا بعهد أقررنا به حتى يكون حجة علينا فى دار التكليف ، وليكون باعنا

لنفوسنا على الانقياد الى ما شرع الله لنا ، ولا سيما أنا قد سبق منا الإقرار بمقتضاه وعلمنا هذا الإقرار من أخبار رسل الله المصدقين من الله .

وقد اعترض المتأخرون على هذا الطريق ، وهم الذين سلكوا الطريق الأول ، بعده وجوه ، منها قوى وجهه ، ومنها ضعيف سخيف ، وهى كلها ضعيفها وقويها لا تبطل الطريق الثانى كما سيظهر لك من سردها مع الجواب عنها وردّها . وإن كان الطريق الأول واضح المحجة بين الحجة كما رأيت فيما سبق . لكن هذا لا يدل على بطلان غيره . كيف وقد درج عليه أكثر متقدمى المفسرين . ولا يمتنع أن تدل الآية على عدة معان كلها سائغ صحيح .

(١) قالوا : إن نص الآية « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » ولم يقل من آدم من ظهره ، فلو كان المعنى كما قلتم لكان الظاهر فى التعبير من آدم من ظهره . وجوابه أن أخذ الذرية من آدم منه ما هو مباشرة وهو أخذ ذريته لصلبه ، ومنه ما هو بواسطة بعضهم وهو أخذ أبناء ذريته . والآية لما سيقّت لبيان قيام الحجة على الحاضرين وقت نزولها وهم من ذرية الأبناء عبر بما ينطبق عليهم انطباقاً أولياً ؛ والحديث لما كان لتفصيل واقعة تشير إليها الآية غير معلومة لهم تعرض لبيان الحالة تمامها . وعلى ذلك يكون الأخذ قد حصل من ظهر آدم لأبناءه ثم تسلسل منهم الى آبائهم وأبناء آبائهم وهلم جرا . ومن هذا تأخذ جواب اعتراض آخر ، وهو أنهم قالوا فى اعتذارهم : إنما أشرك آبائنا من قبل . وهذا القول لا ينطبق على آدم عليه السلام فلم يكن منه شرك وحاشاه ، ولم يكن آباء بل أب واحد . فإن هذا معلوم الدفع مما سبق ، إذ الآية واردة أصالة حجة على المتأخرين من أبناء الذرية ، وقد سبق من آبائهم الشرك ؛ وهذا لا ينفى إشارتها الى قصة تامة فصلها الحديث المروى ؛ وليس بلام أن يصدر هذا القول من جميع المخاطبين ، وإنما صدوره ممن كان منهم الغفلة والشرك . وإنك إذا عرفت أن طبيعة الشرك قد تنشأ من عدم فهم المتأخرين مقاصد آبائهم المتقدمين كما روى أن بعض من عبده المتأخرون كانوا قوما

صالحين قام من شاهدوهم لهم بحق التعظيم فحسبه من تأخر من أبنائهم عبادة ، فهمت أن قولهم : إنما أشرك آبائنا من قبل ، قد يكون من ظنهم هذا في آبائهم ، إذ حملوا ما صدر من آبائهم على العبادة مع أنه لم يكن سوى تعظيم ودعاء لهم .

(٢) وقالوا إن هذا الميثاق لا نعلمه من أنفسنا اليوم ولا نشعر به فكيف يؤخذ حجة علينا في هذه الدار دار التكليف ؟ وأيضا لو كان قد حصل لكان منا من يذكره ولا أحد يجد من نفسه ما يشهد بهذا ، وقد أبطلنا التناسخ بمثل هذا الدليل ، إذ قلنا : لو كانت الأرواح سبق لها وجود في أبدان أخرى ثم تناسخت وحلت في هذه الأبدان لذكرنا ما كان منا في تلك الدورات الماضية ، فلو كانت هذه القصة صحيحة للزم صحة القول بالتناسخ قياسا عليها . وأيضا فالمقصود من ذلك الميثاق إن كان إقامة الحجة عليهم في ذلك اليوم ، لزم أن تكون تلك الحال السابقة حال تكليف ولا قائل به ؛ وإن كان إقامة الحجة عليهم في هذه الدار ، فمحل ذلك لو كانوا يشهدونها ولا شهود لهم بها . على أن لهم أن يعتذروا بأن الله منحنا شهودا علمنا به يومئذ وسلب منا ذلك الشهود في هذه الدار فلم نستطع الإقرار .

وجوابه أن المقصود من هذا الميثاق أن يكون حجة عليهم في هذه الدار ؛ وقولهم إنما لم نشهده من أنفسنا حتى تقوم علينا به الحجة ، ساقط ، فإنهم قد ركب فيهم من الأدلة الناصبة والآيات الساطعة ما لو تفكروا أقل تفكير خال عن الغواية والعماية لشهدوا اليوم بما شهدوا به يومئذ . ولقد زادهم على ذلك أن أرسل إليهم رسلا ينبئونهم بما كان منهم ويرشدونهم الى طريق التفسير الصحيح والاستدلال المنتج ، ولكنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، فتكون حجتهم على ربهم داحضة ، ومعذرتهم ساقطة ، والله الحجة البالغة . وأما أنهم لو كانوا قد أخذ عليهم ذلك الميثاق لذكروه وأن هذا الدليل هو الذى يبطل القول بالتناسخ فساقط أيضا ، لأنه لا يلزم أن كل ما حصل للمرء في حياته يكون مذكورا له . وهانحن أولاء يجرى لنا في عهد الطفولة الأولى ما لا يحصى من الحوادث الجسام ولا نذكر منها شيئا مع

اتصال الحياة وقرب الزمان ، فكيف بهذا الحادث القديم الزمان ؛ وبطلان التناسخ ليس موقوفا على هذا الدليل . وخلاصة ذلك أن هذا حصل وبقى منه ما في فطرة الانسان من كمال التدبير والصنع العجيب الذى ياجئه الى الاعتراف بربه ، وقد تقوى بإرشاد الأنبياء والرسل الى طريق استعمال الفكر ، ثم بأخبارهم وهم مصدقون من ربهم بوقوع هذه الحادثة ليكون للانسان من نفسه على نفسه شاهد .

(٣) وأما قولهم إن الذر لو أخذ في وقت واحد لضاق به الفضاء ، فمن الاعتراضات الواهية ، فإن ملكه لا يضيق بخلقه . وكذلك قولهم إن العقل لا يكون إلا بحياة ولا حياة إلا ببينة فكيف وسع ظهر آدم هذه الذرارى كلها ، فهو أوهى مما سبقه ، فإن العقل والفهم يعطيه الله لأصغر الأشياء أولاً كبرها وهو القادر المختار . والعجيب أن يحكم مثل هذا على عقول بعض القاصرين وهم يصدقون أن في النطفة التى يكون منها التخليق حيوانا صغيرا قد يحمل معه مكروب مرض وراثى ينتقل من الآباء الى الأبناء ، وربما كان انتقاله من الأجداد الى الأحفاد ولا تظهر له أعراض فى الوسائط من الآباء ؛ فتبارك الله يخلق ما يشاء .

والخلاصة أن الآية دالة صريحا على ما أودعه الله فى فطرة الناس من آيات تدل على أنهم مربوبون لرب عليم حكيم ، قادر قاهر ، يجب عليهم أن يخضعوا له ، وأن يدينوا بدينه الذى أرسل اليهم به الرسل مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بما يدل على تصديقه لهم ، فعليهم أن يطيعوه فيما بلغوهم عن ربهم « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وهى مع ذلك تشير الى ما كان من قصة أخذ الميثاق المعروف فى السنة المحدثين (يوم ألت بربكم) . ودلالاتها على المعنى الأول لا تنفى إشارتها الى المعنى الثانى . وحيث جاز وكثرت الطرق فى روايته فلا وجه لرده .

نسأل الله أن ينقى قلوبنا من الزينغ ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
ابراهيم الجبالى

المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة

« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

المحبة : ينبئك عنها قلبك أكثر مما تنبئك عنها الحدود والرسوم ؛ والشئ إنما يجد خلفائه واستتاره كي يظهر ويتبين ؛ فإذا كان الشئ ظاهرا جليا يعرفه جميع العقلاء لم يحتاج الى حد . المحبة : سر الله المحزون الذي تشفى به جميع الأدواء القومية ، والترىاق الذي تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية . المحبة هي أجمع وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس ، وإبادة أنواع التفنن فيها من العالم البشرى . وإذا تأكدت بين قوم أحلتهم محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع ما يكون في طريق الارتقاء ، ونقلتهم الى دائرة الأسرة الواحدة ، فكانوا كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد .

لوتمت المحبة بين الناس لما رأيت دما يسفك ، ولا عرضا يهتك ، ولا مالا يسرق ؛ ولما رأيت المحاكم الأهلية كالأسواق مزدحمة بكل أنواع القضايا ، ولا وجدت المحاكم الشرعية مكتظة بدعاوى الأقارب لميراثهم والزوجات لنفقاتهن .

لوتمت المحبة بين الناس لبات كل إنسان بين أسرته على أتم ما يكون من الصفاء وأكبر ما يتصور من النعيم ؛ ولكان عيش الناس في الدنيا أشبه شئ بعيش أهل الجنة في الجنة . وأظنك كثيرا ما تحركت منك الغبطة عند ما ترى ما بين الأسرة الفقيرة من المحبة التي جعلتهم يتقبلون في الهناء^(١) ولا يحسون بالشقاء .

(١) اشتهر في هذه الأيام التي كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس فيها بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناء لا هناء . وهذا من قصور الاطلاع . ففي كتاب الهمز لا بى زيد الأنصارى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك ووروده . وكذلك في كتاب الفلك المشحون ليونس المسكى المتوفى في القرن الثامن صفحة ١٦٣ ما يفيد ذلك أيضا . ومثل هذا قول الأديب الكبير ابن نباته :

هناء محاذك العزاء المقدما فعايس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك في حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هناء وتسليم تلا يوم أنسه نهاية مشغول أمان وتسهيل

وهو الذى قال إني قرأت مصاح الجوهري كله فلم أستفد منه غير كلمتين فقط . فانظر الى هذا والى ذلك التشديق الذى يكثر منه أولئك المتفهمون !

لوتمت المحبة بين الناس لمتت بينهم الرحمة : فانتفع الضعيف بالقوى ، والفقر بالغنى ، والصغير بالكبير ، والصعلوك بالأمر ، وامتلات الأرض خيرا وبركة .

وإجمال القول فى المحبة بعد ذلك كله أنه لولا الحب لم يتم نعيم لمتنع . وكيف ينعم الانسان بغير ما يحب . ولهذا ترى المغنين لا يكادون يغنون إلا بما يكون فيه ذكر الحب والمحبين ؛ ولا يجد الانسان سلوة لنفسه ولا نعيما بقلبه إلا بتلك الذكريات اللذيذة والأوقات السالفة التى قضاه فيها يحب ومع من يحب .

وبالجملة فراحة الانسان وسرور نفسه وبهجة روحه لا تكون إلا لذكر الحب ، وشرح الكامن فى الفؤاد المثير للعواطف ، مما له سلطان فوق العقل وسر يدق عن التعبير .

لهذا كله لم يرد فى الكتاب والسنة من الحث على شىء مثل ماورد فى المحبة ، علما منه صلى الله عليه وسلم بأنها أساس الخير وجماع الفضائل حتى جعلها شرطا فى الإيمان ، فقال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » . رواه مسلم .

فانظر كيف جعلها شرطا فى الإيمان ولم يكتف بذلك حتى أقسم عليه صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد فى الحث على المحبة والتحذير من التشاحن والتفرق ما لا يكاد يحصى . (وستسمع شيئا من ذلك) . وكأنه مرى الدين الذى لا يريد غيره .

وقد جاء فى الصحيح : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » .

وقال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » . وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . وقال مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم مذكرا إياه تلك اللنة الكبرى : « فإنّ

حسبك الله هو الذى ايدك بنصره وبالؤمنين وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

وقد أثنى على قوم بقوله عز وجل : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » وقال : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . وقد أمرنا بلين الكلام وإفشاء السلام ، ونهينا عن الخصام فوق ثلاثة أيام .

وقد جاء كل ذلك طلبا للمحبة ومحافظة على مبادئها ، رجاء أن تنتهى بالناس الى غايتها فيزول عنهم الشقاء وتم لهم السعادة . فإن استطعت أن تبيت وليس فى قلبك بغض لأحد فافعل . أزل ما فى قلبك من الحقد للناس كافة ، وتودد إليهم ليصفو عيشك وتطيب حياتك .

تحبب الى جيرانك وأقاربك بقدر ما يمكنك ، وابذل الوسع فى ذلك . (وأصل الحب التحاب) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . أخرجه البخارى ومسلم . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » . رواه البخارى ومسلم . وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ؛ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ؛ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . رواه مسلم . صالح أعداءك ، وأرح نفسك من غناء الفكر ، وقلبك من تدير السوء ، واربا بعمرك العزيز أن تصرفه فى طرق العناد وأسباب الفساد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم .

اسباب المحبة

المحبة : مر كوزة في النفوس ، ولا نعيم للقلوب إلا بها ، حتى إن من ليس له محبوب مخصوص تراه عند سماع النغمات أو هبوب النسيم يئن أنينا ويمجن حنيناً ، وربما بكى تلهفاً أو سرورا إذا كان رفيع الاستعداد رقيق الفؤاد .

وهذا النعيم الذي يجده ، وتلك اللذة التي يشعر بها ، ليس منشؤها التذاذ بالأصوات واستحسانا للنغمات ، بل من أجل أن ذلك حرك من نفسه ساكنا وهيج كامنا ، وإن كان لا يدري الى أى شىء يحن أو لماذا يئن ؛ ولكنه مقتضى الغريزة الانسانية والحكمة الربانية . وليس بلازم أن نأتى على كل ما فى الأمر من سر . فيمكنك أن تهيج تلك الغريزة من نفسك ، فإن أصل الحب التحاب . ولهذا ندبنا الدين الحنيف لكل ماعسى أن يكون وسيلة لذلك من زيارة بعضنا بعضا ، ومودة بعضنا بعضا ، وإهداء بعضنا بعضا ، ومصافحة بعضنا بعضا ، الى غير ذلك مما جاء فى السنة .

وقد قالوا : إن العشق فى أول أمره يكون اختياريا ثم يصير اضطراريا ؛ فهو بمنزلة الشراب تستطيع أن تشرب وألا تشرب ، ولكن لا تستطيع بعدُ ألا تسكر . ولعلك عاينت من الأسباب التي استعملتها لتحييب بعض القلوب إليك شيئا كثيرا .

وأما الأسباب الطبيعية للمحبة ، فأقواها التناسب بين الأرواح ، فإنها جنود مجنده ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . كما فى الحديث . وعلى قدر ذلك التناسب يكون الحب ، وما حُشِر المرء مع من أحب إلا لكونهما من واد واحد . ولهذا السبب قد تتعجب من محبة بعض الناس لبعض على غير معنى فيه ، غافلا عن هذا التشاكل الروحاني الذي هو أقوى الأسباب وإن كان أخفاها ، وهو السبب الذي لا يلحقه زوال ولا يعتريه اضمحلال ؛ وصاحبه هو المحبوب لذاته لا لعله ولا غرض .

وأما من أحبك لإحسانك إليه — والا حسان من أسباب المحبة — فقد تتغير محبته

إذا انقطع إحسانك عنه . وربما عاداك وأضررك إذا وجد في ذلك فائدة أكبر وثمرة أعظم متى كان خبيث الطبع لئيم النفس ، لأنه ما أحبك إلا لغرضه ، فهو مع الغرض حيث كان . ومحبة الأزواج والأصحاب تارة تكون من قبيل المحبة التي للأغراض وقضاء المآرب وتبادل المنافع وكثرة الفوائد ، وهي المحبة التي لا تدوم ؛ وتارة تكون للمناسبة بين النفوس ، فلا تزداد على مر الأيام وكثرة الحوادث إلا قوة ومتانة . وهذا مما ينبغي الالتفات إليه جدا فيما بين الزوجين حتى تكون بينهما ألفة طبيعية ومحبة ذاتية ، فلا يتطرق إليها انصداع ولا يلحقها انقطاع ، وإلا تعاملوا معاملة التجار اللئام ، وذهبوا الى المحاكم بعد قليل من الأيام .

ومما يلتحق بسبب التشاكل الذي شرحناه ما تراه من ميل الصانع الى الصانع ، والزارع الى الزارع ، حتى إن السارق يرتاح للسارق ، والفاسق يرتاح الى الفاسق ، لما بينهما من الصفات المشتركة . (شبيه الشيء منجذب إليه) ، بل ذلك في غير أفراد الانسان . وقد قالوا : « إن الطيور على أشكالها تقع » وإن كان كثيرا ما يفرق بينهم تنازع البقاء ، فيوقعهم في الشحناء والبغضاء . وأكثر الأسباب الواقعة بين الناس ما دعا اليه الغرض واقتضته الحاجة ، حتى قال أبو حيان النحوى :

لا ترجون دوام الخير من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعرض
ولا تظن امراً أسدى اليك يدا من أجل ذاتك بل أسداه للغرض
ولهذا لا تكاد ترى محبة صادقة ؛ غاية الأمر أن صاحب النفس الشريفة لا ينسى ودّاً ، ولا ينقض عهداً ، ولكنه كثيرا ما يفعل ذلك بمقتضى إحساسه الشريف ، ومروءته الفاضلة ، لا بمقتضى الألفة والمحبة .

وأهل تلك المحبة التي غايتها المنفعة الشخصية أكثر المحبين توددا اليك ، وترددا عليك ، ومسارعة الى امتثال أوامرك ، ولو كلفتهم نقل الصخور أو نطل البحور ، ما دامت اليك حاجاتهم ولديك غاياتهم ، حتى يخيل لك في تلك الأيام أنك ظفرت بأعظم الناس نفعا

وأرقهم طبعاً ، فإذا ظفروا بما أرادوه ، منك ولم يتوهوا لديك شيئاً يعود عليهم ، طاروا من حولك طيران الذباب الى من يبتغون عنده حاجتهم ، حتى إذا نالوا منه بغيتهم فعلوا فعلتهم . فعلى من يريد اتخاذ الأصدقاء أن يبحث عن جوهر النفوس وما لها من الصفات الذاتية والاستعدادات الطبيعية ، ولا يغتر بتلك الألوان البراقة التي يظهر بها الانسان على حسب الحاجة ، فإنه في ذلك أبرع من الحباء وأروغ من الثعلب (والانسان يجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات) .

هذا ومن أسباب المحبة الجمال الظاهري أو الباطني ، وبهذا السبب قد أحببنا الأزهار والأطيار ، والصور الجليلة والمنقوش البديعة ، فإن الجمال لا يختص بنوع الانسان أو جنس الحيوان ، بل جمال كل شيء في أن يصل الى كماله الذي يراد منه ، وغايته الممكنة له ؛ والجمال محبوب بالطبع لذاته ؛ ولهذا السبب بعينه قد أحببنا الكرماء والفضلاء والعلماء . وإياك أن تكون ممن يقصر الحب على الجمال الحسي والحسن الظاهري ، فتنكر محبة الله تعالى حبا وجدانيا ذوقيا ، فتكون من العامة لا من الخاصة الذين فهموا قوله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » حق الفهم فلم يحتاجوا فيه الى تجوز ولا تأويل .

على أن ذلك غريزة في الانسان وإن كانت تحتاج الى التهييج في بعض الناس الذين لم تقسد إنسانيتهم بالكلية . وإن الذي تجده من محبة العامة لعنترة وغيره من الشجعان ، وتقاني بعض الناس في محبة بعض العلماء والعظماء ، وارتياح النفس والتذاذها بسماع أخبار سيدنا عمر بن الخطاب في عدله ، أو سيدنا علي بن أبي طالب في شجاعته وعلمه وسرعة بديته وقوة حجته ، أو أخبار السموءل في وفائه ، أو حاتم الطائي في سخائه ، ليس إلا بمقتضى تلك الغريزة التي تُفَضِّلُ الجمال المعنوي على الجمال الحسي .

هذا وقد رأينا أن نسمعك بعض ما جاء في السنة مما يناسب هذا الموضوع ، فنقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يرحم الناس لا يرحمه الله » . رواه البخاري ومسلم . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من لم يوقر الكبير ، ويرحم الصغير ،

ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر». رواه أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه. وقال صلى الله عليه وسلم: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسألة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة». رواه الطبراني.

«لا تنزع الرحمة إلا من شقي». رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك، سره الله عز وجل يوم القيامة». رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تقبلون الصبيان وما تقبلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك». رواه البخاري ومسلم.

«دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دنا رجل إلى بئر فنزل فشرب منها وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه: فنزع أحد خفيه فسقاه، فشكر الله له فأدخله الجنة». رواه ابن حبان في صحيحه.

«من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة؛ ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة؛ والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم.

«لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة». رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى

بصوت رفيع فقال : « يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضضه ولو في جوف رحله » !

ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال : « ما أعظمك وما أعظم حرمتك ! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » . رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليعمر بالقوم الديار ويشمر لهم الأموال ، وما نظر اليهم منذ خلقهم بغضاً لهم . قيل وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : بصلتهم أرحامهم » رواه الحاكم والطبرانى بإسناد حسن .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلي صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير : أوصانى ألا أنظر الى من هو فوقى وأن أنظر الى من هو دونى ؛ وأوصانى بحب المساكين والافتقار منهم ؛ وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت ؛ وأوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ؛ وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا ؛ وأوصانى أن أكثر من « لا حول ولا قوة إلا بالله » فإنها كنز من كنوز الجنة » . رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكونوا إمعة : تقولون : إن أحسن الناس أحسناً وإن أساء الناس أسأناً ، ولا تكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظاهروا » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة : من البغى وقطيعة الرحم » . رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، رفعه ، قال : « للطابع معاق بقاءة العرش ، فإذا

اشتكت الرحم ، وعمل بالمعاصي ، واجترأ على الله ، بعث الله الطابع فيطبع على القلب فلا يعقل بعد ذلك شيئاً . رواه البيهقي والبخاري واللفظ له .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : « وجبت محبة للمتحابين في وللمتجالسين في وللمتزاورين في وللمتباذلين في » . رواه مالك بإسناد صحيح . وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله في حاجة العبد مادام في حاجة أخيه » . رواه الطبراني ورواه ثقات .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ؛ ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي .

وعن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « على كل مسلم صدقة . قيل : أرايت إن لم يجد . قال : يعمل بيديه فيمنفع نفسه ويتصدق . قال : أرايت إن لم يستطع . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : قيل له : أرايت إن لم يستطع . قال : يأمر بالمعروف ، أو الخير . قال : أرايت إن لم يفعل . قال : يمسك عن الشر فإنه له صدقة » . رواه البخاري ومسلم .

وسنعود للموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله
 يوسف الرموى
 من هيئة كبار العلماء

حسن البديهة

دخل المأمون يوما ديوان الانشاء فلقي غلاما صبيح الوجه مليح الطلعة قد وضع قلعه فوق أذنه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل في خدمتك : الحسن بن رجاء .

فقال المأمون : بحسن البديهة تتفاضل العقول ، ارفعوا هذا فوق مقامه .

حكم العمل على الفلسفة المادية

كتبنا مرارا في سقوط المذهب المادى وتدهوره الى الحضيض ، وصورنا بعض المعارك التى حدثت بينه وبين أركان العلم فى العالم الغربى ، ونرى أن الواجب يدعونا الى متابعة الكشف والإيضاح عن هذه المعارك الفلسفية ، فإن الدين فى العصر الحاضر لا يخدم بأحسن من دحض هذا المذهب الذى كان له يوما ما رواج لدى بعض العقول فتخليوه من العلم وما هو منه فى كثير ولا قليل .

راج المذهب المادى فى الثلاثة القرون السابقة على القرن العشرين رواجا عظيما ، وبلغ أوج سلطانه فى القرن التاسع عشر بعد ظهور مذهب لا مارك ومذهب دارون فى تحليل وجود الأنواع الحية . ولما دالت دولة هذين المذهبين بتوالى النقد العلمى عليهما ، كما بينا ذلك فى مقالات عديدة هنا ، أصيب المذهب المادى فى أحصن معاقله ، فانكشف لخصومه وجها لوجه ، فلم يثبت أمامهم . فإن صادفت له اليوم شيعة ، فإنما هى فلول تفرقت هنا وهناك ، ولم تبق لها دولة فى أية بيئة من بيئات العلم .

واليوم نأتى على أقوال فى مكافحة المذهب المادى منقول من كتاب (قواعد الفلسفة الطبيعية) Les bases de la philosophie naturaliste للأستاذ (أندرىه كريسون) André Cresson مدرس الفلسفة بجامعة ليون بفرنسا . قال تحت عنوان (الحياة والعلم) :

« لننتأمل فى كائن حى سواء أكان نباتا أم حيوانا يكون تركيبه على شىء من الدقة : فهل يدل مظهره على أنه من عمل طبيعة آلية غير مدركة ؟ إن تركيبه ليدل على غير هذا ، بل يدل على أنه إبداع صانع حكيم فكرفيه وأوجده ! كذلك كل ظواهر الحياة تلوح لرائيها من أول وهلة أنها ظواهر قصدت منها غايات معينة .

« فتأمل في الأعضاء المختلفة التي تعمل في مضمم الأغذية لدى أحد الحيوانات الثديية من الرتب العالية ، ترها قد ركبت بتناوب دقيق ، وحساب مقدر ، بحيث تتكافل كلها في إنتاج عملها الخاص بها .

« وإذا نظرنا الى أسنان الحيوانات المجتررة ظهر لنا جلينا أنها وضعت ملائمة لهرس الأعشاب ، وقد جعلت لها ألسنة صالحة لالتقاطها . وإذا استجلينا معداتها وجدنا أنها قد جهزت بالأجربة الضرورية التي يستطيع الحيوان أن يملأها بالأغذية التي تكفيه ، وأن يحترها منها ثانية ليعيد مضغها في وقت فراغه . وقد صُنعت لها الأمعاء طويلة لتمكن من امتصاص المتحصلات الغذائية المستخلصة من المواد النباتية . وعلى هذا النحو من التناسب والتلاؤم تقوم جميع أجزاء هذا الحيوان بحيث إذا أُتينا بضرر من أضراسها أمكننا وصف سائر ما يتبعه من الأعضاء الهضمية . فهل هذا التدبير مما يعقل أن يكون إذا لم تكن قد دعت اليه الغاية التي وجدت هذه الأعضاء لأدائها ؟ » وهذا القصد الظاهر في تكوين الكائنات يمتد الى أبعد مما ذكرنا ، فإن أعضاء أى كائن لم يخلق بعضها مناسبا للبعض الآخر فحسب ، ولكن قصد منها أيضا أن تحقق حفظ الأفراد وأنواعها في بيئة معينة أريد أن تكون على حالة مقصودة .

« تأمل في تركيب طائر جارح : أفلا تجد تركيبه قائما على الحالة التي يتخيلها فنان على الكعب في الصناعة ؟ إذ تجد أنه قد أوتى عظاما خفيفة وعلى جانب عظيم من الصلابة في وقت معا ، وترى له أجنحة واسعة وريشا قويا تسمح له بالطيران والسبح في الهواء بسرعة ، ومنقارا يصلح لتمزيق اللحم ، وباصرتين ناقبتين تكتشف الفريسة من بعد شاسع ، أفلم تجعل كل هذه الأعضاء بقصد أن تسمح لهذا الطائر أن يعيش على النحو الذي يعيش عليه منذ وُجد ؟ إننا لنشاهد هذه الأمور عينها لو عيننا بدراسة سمكة مفلطحة من جنس (السول) أو حيوانا يعيش في الماء واليابسة كالفقمة أو نباتا متسلقا كالالباب .

«وقصد المبدع الحكيم يظهر في الكائنات على أجلي ما يكون إذا درست الأعضاء التناسلية. فإن كل كائن حي مجهز بالأعضاء الضرورية التي تمكنه من إكثار آحاد نوعه، ومن هذه الأعضاء ما هي في أعلى درجات الإبداع الفنى. فترى اللبن الصالح لتغذية الصغار يتولد في الوقت المناسب في أنثى من الحيوانات الثديية، ويكون في أول أمره خفيفا، ثم يغلظ تدريجيا على نسبة تقدم الصغار في السن ونسبة حاجتها لزيادة المواد المغذية.

» كذلك ترى بعض الحبوب محوطة بزوائد قطنية بحيث تصلح لأن يحملها الهواء ويدفع بها الى ناحية بعيدة لتنبث فيها.

» وهناك نباتات لا يمكن إخصابها إلا بواسطة الحشرات، لذلك أبداع في تركيب زهورها بحيث إن الفراشة أو النحلة التي تسقط على زهرة منها لا يمكنها أن تدلى بخرطومها الى باطنها دون أن تتحمل بشيء من طلع أعضاء ذكورتها، فإذا انتقلت منها الى زهرة أخرى من التي تحتوى على أعضاء الانوثة، سقط ما على خرطومها على تلك الأعضاء فلقحتها. وقد أودعت هذه الأزهار مادة عسلية تستلذها الحشرات وتتطلبها بنهم شديد، أفلا يعتبر هذا التدبير برهانا قاطعا على أنه لم يوجد أى عضو من هذه الأعضاء إلا لحكمة سامية؟

» أيستطيع عاقل بعد أن يقف على كل هذه المشاهد أن يزعم بأن الكائنات الحية مخلوقات آلية لطبيعة لا تعى ولا تبصر؟

» فلاجل أن تتجنب الفلسفة الطبيعية أن تهتم بحق بأنها خيالية ساذجة، يجب عليها، بشرط أن لا تلجأ لغير أصولها الأولية، أن تفسر لنا ثلاثة أمور:

أولها - كيف تحفظ الحياة وجودها وتسرى من كل فرد الى أمثاله في الأنواع المختلفة؟
 ثانيا - كيف تكونت هذه المجاميع العضوية متناسبة ومترابطة لغاية مقصودة،
 حتى لقد دعيت هذه المجاميع بالميزات النوعية؟

نائها - كيف تولدت الحياة نفسها في الطبيعة الجامدة ، وهل يمكن تعليل تولدها بعلّة معقولة ؟ »

نقول نحن : إن إجابة الماديين على هذه المسائل غير منتظرة ، وقد سئلوا من قبل فكانت إجابتهم مفككة الأوصال ، متغلغلة في الخيال ، وليسوا هم اليوم بأحسن حالا مما كانوا عليه بالأمس . وقد سألهم الأستاذ (أندريه كريسون) عن علة تناسب الأعضاء وتكافلها في الحيوانات ، وعن العامل في وجودها على مقتضى أصولهم المقررة ، وبين عجزهم عن التعليل العلمي كما رأيت . فلم يبق علينا إلا أن نذكر مناقشته لهم في مسألة نشوء الحياة ، فإليك ما قال :

« كان الفلاسفة الأقدمون لا يرون في مسألة الحياة شيئا من الإعضال ، فقد كان كثير منهم يقبل نظرية التولد الذاتي للأحياء الدنيا بدون تحفظ ، فكان الفيلسوف اليوناني القديم (أمبيدوكل) يزعم أن الكائنات الحية تولدت من الأرض تولدا ذاتيا . وفي رأيه أن الذي تولد أولا كائنات مشوهة وأعضاء منعزلة ولم تتولد الأنواع المعروفة الآن إلا بعد هذا العهد . وكان الفيلسوف (لو كريس) اليوناني يقول إن الديدان تتولد من الوحل . وكان الرأي الشائع أن الفيران كبيرها وصغيرها تتولد في مخازن الأطعمة تولدا ذاتيا ، وأن القمل والبراغيث تتولد على هذه القاعدة في التراب . وهذا الرأي عينه هو الذي كان سائدا في القرن السابع عشر .

« ولكن حدث في القرن السابع عشر نفسه أن اعتراضا وجه الى نظرية التولد الذاتي ، فقد أثبت العالم (ريدى) بأن اللحوم التي تحمى من الذباب بواسطة قماش خفيف يوضع عليها لا تتولد عليها ديدان قط ، ولكن اللحوم التي يقع عليها الذباب ويضع عليها بويضاته تكون مرعا لتلك الديدان . قال ريدى : وهذا يثبت أن نظرية التولد الذاتي ليست بصحيحة ، فإن الحيوانات لا تتولد إلا حيث تكون البويضات التي تتولد منها قد وضعت فيها .

« في هذا العهد ظهر (باستور) فقرر أن الحى لا يمكن أن يتولد إلا من حى وقال : إن ذرات لا تحصى من التراب تسبح على وجه الاستمرار فى الهواء ، على كل ذرة منها عدد كبير من بويضات الميكروبات . ومتى وجدت هذه البويضات البيئة الملائمة لها فقس وتولدت منها تلك الأحياء فتأخذ فى التكاثر على النظام المعتاد . وقد برهن على صحة هذا الرأى بالتجارب البالغة حد الإتقان ، فكان يأتى بالأوانى فيطهرها على أتم ما يكون ، ثم يضع فيها مواد مختلفة معقمة أبلغ تعقيم ، وكان يعرضها للهواء غير المعقم فتتولد فيها الميكروبات ، ولكنه متى كان يعقم الأوانى ويقفلها بإحكام حتى لا يتسرب إليها الهواء ، كانت تلك المواد تمكث ما شاء الله أن تمكث دون أن تتولد فيها ميكروبات ، فإذا عاد فعرضها للهواء المشوب بالغبار تولدت فيها ميكروبات على نسبة مقادير ذلك الغبار . فظهر من هنا بالتجربة أن نظرية (بوشيه) غير صحيحة ، وأن الميكروبات لا تتولد تولدا ذاتيا ، ولكن من بويضات ميكروبات كانت عالقة بذرات ذلك الغبار . والمسألة باقية عند هذا الحد ، ولم يشاهد قط للآن حدوث حى إلا من حى » انتهى .

ونحن نسوق هذا كله للقضاء على شبهة من أغرب شبهات الملحدين ، وهى زعمهم أن جميع الكائنات حدثت بغير قصد .

إذ ليس أبعد فى الضلال من أن يفترض مفترض أن العين على دقة آلاتها وتناسب أجزائها ، لم تخلق فى الكائنات الحية لغرض مقصود ، ولكنها لما وجدت اتفاقا بدون قصد أمكن النظر بها والاستفادة منها فى شئون الحياة . وهكذا يقولون فى سائر الجوارح وأعضاء الهضم والإفراز والتناسل . فمثل هذا الهذر لا يمكن أن يعد فى باب الافتراضات العلمية ، ولكن يجب أن يقذف به الى حضيض الانحرافات العقلية . قال الفيلسوف الألمانى المشهور (أدورد هارتمان) خليفة (شوبنهاور) فى كتابه (المذهب الدارونى) : « إن الرأى الذى مقتضاه عدم وجود القصد فى الكون عند الدارونيين لا يقوم عليه دليل ، وهو من الأوهام التى لا أساس لها من العلم » .

وقال الأستاذ (فون باير) الألماني في كتابه (دحض مذهب دارون) :
 «إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لا يوجد قصد في الطبيعة وأن الكون
 لا تقوده إلا ضرورات عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك ،
 وهي أنى على العكس أرى جميع هذه الضرورات تكشف عن أغراض سامية » .
 هذا ولو شئنا الاستئناس بنبأت من أقطاب العلم والفلسفة على فساد رأى عدم
 وجود القصد في الخليقة لما كلفنا ذلك أكثر من النقل . ومتى ثبت وجود القصد
 في الكون فقد ثبت وجود المدبر الحكيم جل وعلا من طريق محسوس لا سبيل
 للجدل فيه مصداقا لقوله تعالى : « أنى الله شك فاطر السموات والأرض » .
 محمد فريبر وهبرى

الشجاعة في قول الحق

روى طاوس أن الحجاج سمع رجلا من اليمن رافعا صوته بالتلبية في الحرم المكي ، فطلبه ،
 فلما مثل في حضرته قال له : أنت من اليمن ؟ فقال : نعم . فقال له الحجاج : كيف خلقت محمد
 ابن يوسف ؟ (يعني أخاه وكان عامله على اليمن) فقال : خلفته عظيما جسيما خراجا ولاجا . قال :
 ليس عن هذا سألتك ، كيف خلقت سيرته في الناس ؟ قال : خلفته ظلوما غشوما ، عاصيا
 للخالق مطيعا للمخلوق . فازور الحجاج من ذلك وقال : ما حملك على هذا وأنت تعلم مكانته
 منى ؟ فقال له الأعرابي : أفتراه بمكانته منك أعز منى بمكانتي من الله تبارك وتعالى وأنا وافد
 بيته ، وقاض دينه ، ومصدق نبيه (صلى الله عليه وسلم) ؟ ! فوجم الحجاج ولم يجر جوابا حتى
 خرج الرجل بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى فتعلق بأستار السكبة فقال : بك أعوذ وإليك ألوذ ، فاجعل
 لى في اللهف الى جوارك والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخرين ، وغنى عما فى أيدي
 المستأثرين . اللهم فرجك القريب ، ومعروفك القديم وعادتك الحسنة !

بَابُ الْأَسْبُعِ لِلْفَتَاوَى

الاذن في النكاح

ورد الى إدارة المجلة ما ملخصه :

يستفتى حضرة الأستاذ الشيخ أحمد الروزبهاني الفرقاتي المدرس الحسبي في قرية فرقان « العراق » عن حكم حادثة وقعت ، وحاصلها ما يأتي :

جرى عقد نكاح بين اثنين شافعيين أحدهما وهو الزوج عن نفسه والثاني عن أخته البالغة وكان المتعاقدان قلدا مذهب أبي حنيفة في هذا العقد ولم يستأذن الأخ أخته قبل العقد ولم تحضر هي العقد ولكن لما بلغها الخبر سككت .

وقد قال أحد العلماء للأخ إن هذا النكاح لم ينعقد ، فزوجها هذا الأخ رجلا آخر بإذنها ، فأى العقدين صح : أهو الأول أم الثاني ؟

الجواب

مذهب الشافعية أن من نكح نكاحا مختلفا فيه بين الأئمة ، فإن قلد القائل بصحته منهم كان العقد صحيحا . وبما أن الذين تولوا صيغة العقد الأول كانوا قد قلدا الإمام أبا حنيفة في هذا العقد فينبغي أن يحكم في هذا النكاح مذهب أبي حنيفة رحمه الله . ومعلوم أن مثل هذا العقد عند الحنفية موقوف على إجازة الزوجة : فإن أجازته نفذ ، وإلا لم ينفذ . وقد قال الحنفية : إذا زوج أخته البالغة بغير إذنها ثم بلغها الخبر فسككت ، فإن كانت بكرة فسكوتهما إجازة للعقد ، وإن كانت ثيبا فلا يعتبر سكوتها إجازة .

فإن كانت الزوجة في هذه الحادثة بكرة نفذ العقد الأول وكان العقد الثاني باطلا ، وإن كانت ثيبا لم ينفذ العقد الأول وكان العقد الثاني صحيحا . والله الموفق للصواب .

يوسف المرصفي ، الحسيني سلطان

الشافعي

الشافعي

عبد السلام العسكري ، حسين البيوي

الحنفي

الحنفي

الحصة العشرية - والسماذ الكيماوى

ورود الى إدارة المجلة ما يأتى :

١ - كنت فى أحد المجالس فطرح على بساط البحث مسألة الحصة العشرية التى تتقاضاها الحكومة الانكليزية عندنا هل تحسب من الزكاة الواجبة فيما أخرجت الأرض أم لا وما وجه ذلك ؟ مع العلم أنها تتقاضى ضريبة أخرى على رقبة الأرض تسمى (ويركو) .

٢ - لقد استعمل الناس الآن السماذ الكيماوى وهذا يكلف أصحاب الأراضى نفقات وافرة ، فهل هذه الكلفة ترد نصاب الزكاة فيما سقت السماء الى نصاب ما سقى بالنواضح وما مائلها أعنى نصف العشر يجمع الكلفة فى كل ؟ أرجو أن تحيلوا هذين السؤالين الى لجنة الفتاوى فى مجلتكم راجيا الاجابة عنهما . والسلام .

توضيح السؤال الأول أن أصحاب الأراضى عندنا يزعمونها من مختلف الحبوب من حنطة وشعير الخ وخضار وما شا كلها من بطيخ وبندورة . والحكومة الأجنبية الانكليزية أو ما شا كلها من الحكومات الاستعمارية ترسل مقدرين أو تخمينين فيقدرون الناتج يأخذون منه العشر . ولا يخفى أن الحكومة الانكليزية ليست من أصحاب الزكاة الثمانية .

وقد أراد البعض أن يقول يمكن اعتبارهم من المؤلفة قلوبهم . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء كما لا يخفى على فضيلتكم . وميزانية الحكومة - كما هو معروف - تصرف على الموظفين وفى سبيل الطرق الخ . وعلى الجملة فقد اختلفت الأنظار فى ذلك . وأرجو أن تلاحظوا أن ضريبة الرقبة المعروفة فى كتب الفقه بالخراج أو فى اصطلاح اليوم (بالويركو) تستوفىها الحكومة علاوة على العشر المذكور ؛ وقد سئلت عن ذلك أثناء تجوالى فى القرى للوعظ والإرشاد فلم أقطع برأى فى الموضوع حتى أقف على رأى أستاذتى فى الأزهر المعمور .

توضيح السؤال الثانى — لقد ارتقى الناس فى شئونهم الزراعية كثيراً . وطبعاً يتبع ذلك كثرة النفقات عليها . فمثلاً مسألتنا هذه — السداد الكيماوى — تكلف الفلاح نفقات وافرة نظراً لأسعاره الغالية غير أنه يأتى بمحصول طيب، وبما أن الشارع الحكيم فرض العشر فيما سقت السماء لقلّة الكلفة ونصف العشر فيما سقى بالنواضح والنواعير وغيرها من الآلات الحديثة للكلفة، فهل يجوز أن تعتبر الكلفة علة ونأخذ نصف العشر من الحبوب وإن سقيت بماء السماء ؟ سعيد عبد الله صبرى
قليلة — فلسطين

الجواب

١ — مذهب الحنفية أن أرض مصر والشام خراجية وليست عشرية، وأنه لا يجب فيها إلا الخراج، فما يؤخذ منها خراج لا عشر سواء كان بعض الخارج منها أو غيره؛ وأن ما يؤخذ منها بتقدير الحكم على ما جاء فى الشق الأول من الاستفتاء إنما هو خراج مقاسمة، إذ الخارج قسمان: خراج وظيفة ويكون بما ثبتت فى الذمة من الدنانير والدراهم وغيرها من المكيالات والموزونات التى يقدرها الحاكم على الأرض فى كل عام؛ وخراج مقاسمة وهو ما كان يبيع بعض الخارج كالحبس والسدس والعشر ونحو ذلك. وإذاً يكون ما يأخذه الحكم من عشر الخارج على ما جاء فى السؤال أو (الورك) هو كل الواجب فى تلك الأرض، وليس فيها واجب آخر لا عشر ولا غيره، لأنه لا يجتمع عشر وخراج، وليس فى الأرض وظيفة إلا العشر والخراج.

٢ — مذهب الحنفية أن المدار فى وجوب العشر أو نصف العشر فى الأرض العشرية إنما هو على السقى وحده: فإن كانت الأرض العشرية تسقى بماء السماء أو سيجاً بلا آلة وجب فيها العشر، وإن كانت تسقى بالآلة ففيها نصف العشر بلا رفع مؤن الزرع وكلفه، وبلا إخراج البذر، لتصرفهم بوجوب العشر أو نصفه فى كل الخارج، فتمن الأسمدة الكيماوية لا تغير شيئاً من الواجب. والله الهادى الى سواء السبيل م
عبد السلام العسكري الحنفى، حسين البيومى الحنفى

آيات الله في الكون

إن تعرف آيات الله في الكون من أهم أغراض الاسلام، فانها تهدي العقل الى وجوه الاستفادة منها، والى العقائد الحقة، بطريق البرهان الواضح. لذلك نرى أن لا نخلى مجلة نور الاسلام من هذه المعارف الكونية، على قدر ما تتطلبه الحاجة الروحية والعقلية، فنقول :

لا نريد أن نبرح عالم الحشرات حتى نستفيد بما أودع فيه من بدائع الصنع التي تشحذ النظر والاعتبار، فإن الخالق جل وعز قد أمد هذه الكائنات الضعيفة من وسائل الحياة بما يخفى على من ينظر إليها نظرا سطحيا، وهو في الحقيقة من أفعال المعارف في تقويم النفس الإنسانية .

فن أعجب أحوالها، وأكثرها خفاء على جمهور الناس، تتابع استحالاتها الحيوية من بويضة الى دودة الى شرقة الى فراشة، وأن بين كل استحالة من هذه الاستحالات بونا بعيداً، حتى ليظن بعضها مقطوع الصلة ببعض، لشدة ما بينها من التباين في التركيب والمظهر والغاية .

ففي أول هذه الحالات وهي البويضة لا يكاد الباحث يجد فيها مظهرا من مظاهر الحياة، فهي لا تقترب عن حبة من الرمل . ولما تفرج هذه البويضة بعد أيام عن دودة، تجرد أمامك كائنا رخوا حقيرا شديد النهم يغوص في الوحل، أو يندس في الحشائش الرطبة .

فاذا جاء دور التشرنق وجدت أن هذه الدودة قد أحاطت نفسها بخيوط تخرجها من فيها تلف فيها نفسها لفا محكما من جميع جهاتها، بحيث لا تدع مقدار ثقب إبرة من جسمها دون أن تغطيه تغطية محكمة، حتى تصبح كأنها مومياء مصبرة لا حس بها ولا

حراك ، فتبقى على هذه الحالة أياما تستحيل في أثنائها الى سائل لا شكل له ، ثم تعود فتتشكل في صورة فراش لا نسبة بينه وبين صورة الدودة في شيء ، تطير في الجو ممثلة حياة ونشاطا . فهل تستطيع أن تقدر بعقلك كنه ما أودعها المبدع الحكيم من القوى الحسوية التي عملت على إحالة جثمان الدودة الى سائل ، ثم على إعادة تكوينها في صورة جديدة ؟

حقا إن هذه الاستحالات من أغرب ما هدى اليه البشر من آيات الله جل وعز . قال العلامة الطيبي ريومور Reaumur في هذا الصدد :

« كنا نعتبر ما يقال لنا آية لو أخبرنا مخبر بأن حيوانا من ذوات الأربع في حجم الدب أو الثور ينسلخ من جلده عند اقتراب الشتاء ويتخذ منه تابوتا لجثائه يسده من كل ناحية ويجعله من الصلابة بحيث لا تعدو عليه العوادي الطبيعية أو الحيوانية . فإذا كانت هذه الاستحالة لو حصلت تعتبر آية فإنها تحصل مصغرة في عالم الديدان ، فهي تنسلخ من جلدها لتتخذ منه تابوتا متينا ومقفلا من كل نواحيه »

لندع هذا الآن ولنذكر صفة أخرى عامة في الحشرات وهي سمو قواها العضلية عن قوانا بالنسبة لحجومها . فإذا أعطى الانسان من القوة العضلية بالنسبة لحجمه مثل ما للدودة منها استطاع أن يجر ٨٥٠ كيلو غراما ، على حين أنه لا يستطيع بالقوة الممنوحة له غير ٥٥ كيلو غراما .

ولو أعطى الانسان من قوة القفز مثل ما للبرغوث لاستطاع أن يقفز بالنسبة لحجمه الى ارتفاع ٧٥٠ قدما .

وقد حسبوا أنه لو كان الانسان قد منح صوتا يناسب حجمه قياسا على صوت الصرصر لوصل صوته الى بعد ٢٤٠٠ كيلو متر ، وهي المسافة التي تفصل باريز عن آسيا الصغرى . وإذا كان الانسان قد أوتي في صوته هذه القوة وعداه التحوط فعطس داخل بيته لسقط البيت عليه ودفنه في أنقاضه .

إننا معشر المصريين لنفخر بأن آباءنا أقاموا أهراماً شاهقة، على أن أعلاها لا يجاوز تسعين قامة محسوبة بقامة الرجل، على حين أن النمل الأبيض يبني مساكنه على ارتفاع ألف قامة بقامته، فهي تبزنا في تعلية مبانيها اثنتي عشرة مرة. أما عن متانة مبانيها فحدث ولا حرج، فلو صعد على سقفها عدة رجال لاحتملتهم، بل إن الثيران الوحشية قد تعلقوا أحياناً وتربض عليها.

أما قوة الهدم في هذه الحيوانات فتفوق كل تقدير، فإن النمل الأبيض قد أبان في هذا المجال عن قوة وسرعة تعتبر مدهشة للغاية، فقد شوهد أنه استطاع أن يثقب في ليلة واحدة قطعة من الخشب تبلغ طولها أكثر من خمسين سنتيمتراً. والحيوان المسمى سيركس قدرة على الثقب كبيرة حتى إنه ليثقب الرصاص كما شوهد ذلك في حرب القرم الروسية، فقد ثقب رصاص البنادق ومقذوفات المدافع. وقد شوهد أن أصغر الحشرات أجساداً هي دائماً أشدها قوة.

ومما يمتاز به الحشرات أن إناثها أقل جمالاً من ذكورها وأشدها كلباً على القتال والفتك بالأعداء. فبينما ترى ذكورها يسرحن ويمرحن تجد الإناث يغرن ويقاتلن بصبر وجلد لا حد لهما، وهذا على خلاف إناث البشر، فإنهن خلقن على وضع طبيعي لا يجعلهن يحتملن كثيراً من المشاق التي يحتملها الرجال.

ومن الطبائع المشتركة بين كثير من أجناسها الغناء لاستجلاب هوى الإناث، فإنها لا تفتأ تشدو وتترنم، بينما تكون الإناث دائبة على العمل في صمت.

وهناك نوع من الضفادع تنق تحت الماء فيخيل للقريب منها أنه يسمع أصوات نواقيس ترن عن بعد. وقد حدث ذلك مرات للعالم (لينيه) Linné فإنه قد اتفق له أن شهد هذه الظاهرة العجيبة مراراً. فقد روى أنه كان يسمع أصواتاً تشبه قرع النواقيس للضغمة تصل إليه من بعد يقدر بنصف ميل، على حين كان يجوار تلك الضفادع.

ومن أعجب الحشرات ما يسمى منها بالكوشنيل ، فإنها قبل أن تولد تموت أمهاتها وتستحيل الى قشرة جافة فتكون هذه القشرة مهدا لصغارها .

وقد امتاز كثير من الحشرات وبعض الحيوانات الأخرى بسرعة التناسل وكثرة النسل ، فإن دودة الحرير تضع ٧٠٠ بيضة في كل مرة .

وقد عد ما في بطروخ السمك المسمى (مورو) وهو الذي يؤخذ من كبده الزيت الطبي المعروف فوجد أنها ٦٨٧٨... بويضة تخرج من كل منها سمكة مشابهة لأحد جنسها . وقد عد ما في بطروخ السمك المسمى (هرنج) وهي ما يسمى عندنا بالرنجة فوجد أنه يشتمل على ١١٧٠٠٠ بويضة ، وما في بطروخ الجنس المسمى (برش) فوجد أن عدد بويضاته تبلغ ١٥٥٠٠٠ بويضة . ولم يعد عدد بويضات بطروخ الجنس المسمى (سومون) ١٩٠٠٠ بويضة .

ومما تتميز الحشرات به عنا أن بعضها يغتذى بما لو تعاطينا شيئا منه لمتنا تسمما ، وتعيش في جوف خاني لا نستطيع العيش فيه دقيقة واحدة . فمن الديدان ما تعيش فوق النبات المسمى بالشبرم وتغتذى به مع أن النقطة من عصارتها تلهب فئنا وتحرقه . وبعضها يفتذى بأهداب النبات المسمى بالأنجرة وهذا النبات لو وضع على بشرتنا لأحدث بها التهابات واحتقانات مؤلمة .

وقد بلغ بعض الحشرات من النهم الى حد لا يتصوره العقل ، فإن الدودة تأكل في كل أربع وعشرين ساعة ما يبلغ ضعف حجمها من الأغذية ولا يزيد جرمها إلا عشر وزنها . ولو سار الانسان سيرتها لوجب أن يأكل ٢٤٠ رطلا من الأغذية في كل أربع وعشرين ساعة ، وهذا ما لا يمكن تصوره .

والحشرة المسماة (أوستر) تعيش في معدات الخيول وتسرّب اليها من لحسها أجسادها . أما غذاؤها في تلك السجون المظلمة فالعصارة المعدية لتلك الخيول ، فتعيش في مجبوحة من الخلفض والدعة في تلك الغياهب الدامسة في جو غازي غير صالح للتنفس

مؤلف من غازات تتكون أثناء هضم الأغذية، وهي مؤلفة من الأزوت وحمض الكربون والأيدرون الكبريتي وكلها غازات مميّنة للإنسان ولسائر الأسرة الحيوانية ما عدا هذه الحشرة .

وتوجد حشرات لا تتم استحالاتها إلا إذا غيرت الأمكنة التي تعيش فيها، فالحشرة المسماة (تينيا) لا تبلغ أشدها إلا في معدة الإنسان . والترخينا لا تصل إلى غاية ارتقائها إلا إذا انتقلت من مأواها الأول وهو لحم الخنزير إلى مكانها الثاني الذي هو معدة الإنسان .

ومن الحشرات ديدان لا تغتذى إلا بالتراب ، وقد خلق الله معدتها بحيث تستطيع أن تستخلص منه كل ما يقوم أجسادها كأنه من نوع النبات . أما فضلاتها فهي أتربة جافة مجردة من بعض عناصرها الأولية .

إن هذه الكائنات في ضعف أجسادها ، وقصر حياتها ، مجال بعيد الأرجاء للنظر والتفكير في قدرة الخالق الحكيم ، وسعة سلطانه ، وعظمة إبداعه ، فقد جهد العلم قرونا طويلة في تعرف تركيبها ، ودرس طبائعها ، والتأمل في أطوارها ، ولم يفرغ بعد من حصر بدائعها ، بل كلما تعمق في بحثها ظهرت له آيات جديدة في أحوالها وشئونها ، وهي مع هذا أظهر مستجلى للإلهامات الإلهية ، التي كان يشكك الملاحدة الناس فيها منذ عهد بعيد . فقد ثبت علميا من تتبع الصناعات الدقيقة التي تقوم بها هذه الكائنات الضعيفة أنها لو تركت وشأنها لما تُصور أن تصدر منها هذه الصناعات الدقيقة التي يعجز عنها الإنسان العاقل ، لأنها تستدعي معارف واسعة بطبائع الأشياء ليست للإنسان نفسه ، وهذا مما لا سبيل إليه لدى كائنات ليس لكثير من أجناسها مخ ولا أعصاب ، ولا آلات تقوم مقامها للتفكير والتدبير ، فلو لم يتولها الخالق جل شأنه بالإلهام والهداية لما بقيت طرفة عين .

إذ لو لم يكن الإلهام الإلهي يتولى هذه الكائنات فما الذي كان ينبغي الطير بأنه

على وشك البيض وأن هذا البيض يحتاج للاحتضان أياما معدودة، وأن صغارها متى خرجت تحتاج لأغذية خفيفة مهضومة، وأنها في حاجة مستمرة للتدفئة، وأنها متى ترعرعت احتاجت للتدريب على الطيران. فترى الوالدين دائبين على جمع الأعواد الخفيفة ومواصلة الجهد لبناء عش على بعض الأفنان منها، فإذا تم نثر عليه من ريشهما ليكون البيض في مكان وثير منها، فإذا حان وقت البيض وضعت الأنثى في ذلك العش واحتضنتها، فإذا بدت لها حاجة تولى الذكر احتضانها، وهكذا دواليك حتى يتم تكون أجنحتها وإذا ذلك تكسر الأنثى البيض بمنقارها وتعمل على رفع القشور عنها، وتدأب هي والذكر على احتضانها، ويقولان تغذيتها بمواد خفيفة زقاني منقاريهما، ثم تسقيانها على هذه الصفة. ومن الذي ألهم هذه الفراخ قبول الغذاء من منقاري أبيها وازدراءه، ومتى اشتدت سواعدها وارتاشت أجنحتها أخذ أبيها في تدريبها على الطيران في دفعات متكررة حتى تتقنه فتستقل بأنفسها.

وليس هذا الذي رأيناه بأعيننا ونراه كل يوم، بأعجب من الإلهامات التي تتلقاها الحشرات الدنيا في بناء مساكنها، وحفر مسارها، والاحتياط لحاجاتها، والاحتياط لصغارها، فكل هذا يؤلف مجموعة من العلم لا تدع خيالا من شك لأعصى الناس قيادا في أن هذه الكائنات الضعيفة ما كانت لتوجد ولا لتعيش لولا أن الخالق جل شأنه يتولاها بالعناية والإلهام، شأنه في جميع العوالم المرئية وغير المرئية.

محمد فريد جبري

قرى الضيف

قال الأصمعي :

سئل أقرى أهل اليمامة للضيف : كيف ضبطتم القرى ؟ قال : باننا لا تتكلف ما ليس عندنا .
وقال الشاعر :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكننا وجه الكريم خصيب

حكم الصرف من أموال الزكاة

على المستشفيات ونحوها

حضرات الأفاضل كبار هيئة العلماء بالأزهر الشريف حرسهم الله .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإننا نرفع إليكم بحقائق واقعة نرجوكم الإفتاء
فيها ، لا زلتم للمسترشدين أهلا ، وهى :

١ - إن فى عدن مستشفى كبيرا هو المستشفى الأهلى تعالج فيه جميع المرضى
على اختلاف لغاتهم وأديانهم والمسلمون فيه هم الأكثرية الساحقة . والواقع أن مرضى
اليهود والمجوس والهندوس لا يعتمدون فى أقواتهم وأسباب راحتهم على المستشفى ،
بل إن جمعياتهم الخاصة تواسيهم وتوفر لهم القوت اللازم والملابس وغير ذلك من أسباب
الراحة ، وتشترى لهم حتى الأدوية التى لا توجد فى المستشفى ، مع أن المسلمين لا يواسيهم
أحد لا بالقوت ولا الثياب ولا شئ غيره ، بل لا مفر لهم من استعمال ما يقدمه المستشفى
وهو قوت لا يسمن ولا يغنى . وهكذا يذهب أكثر مرضى المسلمين ضحية الإهمال .
ومع هذا فالمستشفى يقوم بتكفين الموتى وغسلهم ودفنهم بصورة غير مرضية ؛
والكفن مثلا الذى يعطيه المستشفى يكون دائما غير كاف لستر الميت . وهكذا
فضلا عن الغسل والدفن .

٢ - النساء من أرباب العائلات الفقيرة يفضلن الموت على المعالجة أو التطبيب
فى المستشفى الأهلى بحجة أن الرواقات المعدة فى المستشفى لا تضمن لهم الراحة وحفظ
التقاليد والحجاب اللازم ، حيث يحشر سرير كل مريض بجانب الآخر . ولهذا ولما
سنعرضه على فضيلتكم يمكن تطبيب النساء وأرباب العائلات على أيدي الأطباء
والممرضات الماهرات بدلا عن تحمل الآلام ، والبقاء من دون علاج فى بيوتهن ، وقد
أودى بأرواح كثيرة وجعل النساء عرضة لدجل الدجالين والمشعوذين .

٣ - لا يوجد في عدن مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين . ولهذا انتهزت الفرصة جمعية التبشير الديناميكية وفتحت لبنات المسلمين مدرسة يتعلمن فيها القراءة والتطريز والخياطة ؛ وهناك يتشرن المبادئ المسيحية ويخرجن عن تعاليم الاسلام . ولهذا ترانا بحاجة ماسة الى تأسيس مدرسة للبنات في عدن نجلب هن المعلمات الصالحات المسلمات من الخارج ، وننقذ أمهات المستقبل من حالة إذا استمرت تقضى على العقائد الاسلامية قضاء مبرما .

مما ذكر يظهر لكم سادتي أن مسلمي عدن بحاجة الى مالية يصرفون أو يواسون منها المرضى من الفقراء في المستشفى الأهلي ، ويعمرون منها بيوتا خاصة للنساء وأرباب العائلات حول المستشفى ، تضمن لهم الراحة والسكينة ، وتحفظ لهم تقاليدهم الاسلامية ؛ وأيضا يقومون بتأسيس مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين اللاتي هن الآن تحت تأثير المبشرات المسيحيات .

المالية المنشودة غير متيسرة ؛ والأغنياء وأهل الثراء لا يتبرعون بالمال لهذه المشروعات الحيوية المهمة .

وهكذا أصبح المسلمون والمسلمات بحالة نعسة محتقرين في أعين الأجانب ، مع أن الطوائف الأخرى تقوم بكل هذه المشروعات والأعمال نحو أبناء وبنات ملتهم كالإفرنج واليهود والمجوس والهندوس . بل لسكل طائفة مستشفاهها ومدرستها وملاجئها الخاصة . أما نحن ونحن أهالي البلدة فلسنا إلا كالمشردين ومرضانا في الأزقة والمستشفيات بلا راع ولا ذى مروءة يواسيهم ، حالة والله تدمى القواد وتفقت الأكباد ؛

لما وصلت الحالة الى هذه الدرجة من الخذلان فكر جماعة من أهل الخير في تعيين لجنة إسلامية تؤلف من أغنياءها ووجهائها ، وقصد اللجنة هذه أن تأخذ قسطا من أموال الزكاة المفروضة على المقتردين من المسلمين حتى تجمع المال ليصرف في مصالح الفقراء والمساكين في هذه البلاد في حدود المشروعات الثلاثة المذكورة آنفا ولو تدريجيا .

فالرجاء من هيئة العلماء الأعلام في الأزهر الشريف أن يفتونا في المسألة . وهل يجوز أخذ الزكاة أو قسط منها لهذه الأغراض المهمة ؟

أرجو أن تنشروا السؤال مع الجواب على صفحات مجلة (نور الاسلام) التي كساها الله نورا على نور ، لما تنشرونه فيها من الدرر الغاليات ، والجواهر المشمات ، والحكم البالغات ، وقد طهرتموها من الحشو واللغو والهديان . جزاكم الله خيرا الجزاء ، ونفع بكم العباد ، آمين .

أحمد محمد العدني

الجواب

إن حال المسلمين اليوم يذيب الفؤاد ويفتت الكبد على ما شرحه السائل ! تخاذل وانحلال ، وتأخر واضمحلال ، واختلال واعتلال ، وهبوط وسقوط ، وجود وخمود الخ .

ولا غرو فقد اشتغل كل منهم بنفسه ، فلا يعنيه إلا منفعته الذاتية ، ومصلحته الشخصية ، فلا يهتم بأمر أخيه المسلم ، ولا يفكر في مصلحة أمته ولا منفعة مواطنيه ولا مجد بلاده . ضاقت الأنظار ، واختلت الأفكار ، وذهبت الرحمة من النفوس ، وأقفر القلوب من الإخلاص والرهوس من التفكير . وما كان ينبغي ذلك لقوم أمروا أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وكالجد الواحد إذا اشتكى منه عضواً لم له سائر الجسد . وقد كنا أرفع الأئمة على الإطلاق وأعزها ؛ وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجا لما يرون فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وما يتجلى فيه من ارتباط القلوب وتألف النفوس ، فقد أورثهم الإيمان المحبة التي جعلتهم إخوة يتراحمون عند الشدائد ، ويتعاطفون لدى الكوارث .

و « لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي » كما في الحديث الصحيح ، فأصبحنا وقد اشتغل كل بنفسه وصار لا يعنيه إلا شخصه ، فتقطعت الروابط بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلم يشاركهم في أية مصلحة يعود نفعها على الأمة . وقد غلبت عليه محبة الذات ، فتفتحت له

طرق الاحتيال فيما يعود على شخصه بما يجب من الشهوات مما يظنه سعادة وفلاحة ،
وخيل له أن ذلك استقلال ونهضة ورقٍ وتقدم ، فأضاع بذلك مصلحته ومصلحة أمته ،
وقضى على مجده ومجد بنى جلده . أو نقول : كانت النتيجة كهذه النزعة الحمقاء استقلال
الأفراد واستعباد الأمم . وإنها لنفثة مصدور ، فلتكلم فيما يريد السائل ، فنقول :

لا يسع العارف بروح الشريعة ونظرها البعيد وحكمها السامية إلا أن يفتي بجواز
صرف الزكاة في تلك المشروعات الخيرية التي ذكرها السائل ، فإن الشارع قد راعى
في مصارف الزكاة مصلحة الدين ، ومصلحة العباد ، وحاجة الفقراء والمضطرين والمحتاجين .
ولم يفت ذلك علماء الأمة وأئمتهم من السلف والخلف رضى الله عنهم ، فقد ذهب
كثير الى أنه يجوز أن يصرف سهم سبيل الله الى الحج وإعانة الحجاج من المسلمين .
يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن . واليه ذهب أحمد بن حنبل واسحق
ابن راهويه ، لأن الأمر على ما قال بعضهم من أن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الفزاة
فقط . وقد أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى
وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك ، لأن قوله : « وفي سبيل الله » عام
في الكل ، فلا يختص بصنف دون غيره .

على أن من ذكرهم السائل في سؤاله داخلون في الفقراء والمساكين ، فإن أولئك
المرضى الذين بين سوء حالهم وتلك السيدات اللاتي يلحقهن من الضرر ما ذكر
المستفتى هم من جملة الفقراء بلا شك . والجماعة التي تأخذ الزكاة لتقوم بتلك المصالح
وتنظمها وتجعلها على قاعدة ثابتة نافعة وترسم لها خطة تضمن لها البقاء والمنفعة ، هذه
الجماعة كأنها وكيلة عن أولئك الفقراء تقوم برعايتهم وإصلاح شئونهم نيابة عنهم حيث
تمذر قيامهم بذلك لأنفسهم . ولو فرضنا أن هناك فقيرا تمذر تسليمه الزكاة لجنونه
مثلا أو لغير ذلك لم نتوقف في جواز إعطاء الزكاة لولييه والقائم على أمره . فهكذا هنا .
والعبرة في الأمور كلها بمقاصدها وغاياتها .

هذا ما تقتضيه روح الشريعة وترشدنا اليه مرامها التي محورها الذي تدور عليه إنما هو الحقائق والمصالح . ولا يمكنني أن أفتي بغير هذا . غير أنني قبل إلقاء القلم لابد أن أوصي بانتقاء تلك الجماعة من المخلصين الأتقياء الذين يخافون الله ويراقبونه في السر والعلانية مع النظر البعيد والتدبير الحكيم . وليكن القانون في ذلك واضحاً جلياً غير قابل لتأويل المؤولين ولا احتيال المحتالين . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

« حكم أكل الكلب على مذهب المالكية »

وورد إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله : إنه جاء بمجلة نور الاسلام صفحة (٧٣٣) أن علماء المالكية رضى الله عنهم لهم قولان في أكل لحم الكلب : قول بالكراهة وقول بالحرمة ، وأن قاضي جبل عجلون الشرعي الشيخ عثمان الشنقيطي قال : إن القائلين بالكراهة ليس لهم وجود بالمذهب . فهل القول بالكراهة موجود بالمذهب ، وهل له اعتبار بين علمائه ؟

أفيدونا الجواب . أرجو أن يكون الجواب من حضرة الفاضل الشيخ يوسف الدجوى حسب طلب فضيلة قاضي شرع عجلون .
شريف محمد
نائب بالجيش العربي . عجلون

الجواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .
وبعد فالقولان المذكوران مذكوران بالمذهب بلاشك ، بل القول بالكراهة عند المالكية في كتب المتأخرين أشهر من القول بالحرمة . وقد اقتصر عليه العلامة الأمير في متن المجموع الذي هو من أعظم الكتب المعتبرة عندنا ، وصاحبه هو أمير العلماء الذي قال فيه قائلهم :

وإن يك ضاهاك في العلم قوم فأنعم بكل وأنت الأمير
وإن كان شمس الدين اللقاني وأشياخه يفتون بالحرمة لا بالكراهة . وأى غرابة في القول بالكراهة غير مارسخ في النفوس من استقذار الكلب أو اعتقاد نجاسته ؟

ولكن مذهب مالك يقرر أن كل حي طاهر، فالكلب عنده طاهر حتى فيه، ما لم يكن متلوثاً بالنجاسة، فنجاسته عرضية لا ذاتية.

أما القائلون بنجاسة الكلب فقد فهموا من النهي عن سؤره نجاسة عينه. وليس ذلك بلازم، لأن النهي له أسباب كثيرة. والنهي عن سؤره محمول على الكراهة عند المالكية. وكيف نستغرب القول بالكراهة بعد ما قرر بعض الأصوليين أن كل ما لم يرد تحريمه في الكتاب والسنة فهو غير محرم لأن الأصل في الأشياء الإباحة؟ ونحن نستصحب الأصل حتى يرد النص. وقد قال تعالى: «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير» الخ.

ولعل الشافعي رضى الله عنه قد فهم من الأمر بقتل الكلب في الحل والحرم مع النهي عن قتل الحيوانات المباحة ألا كل أن العلة في ذلك هو كونه محرماً. أما مالك رضى الله عنه فقد فهم أن علة الأمر بقتل الكلاب إنما هي التعمدي والإيذاء لا التحريم ولا النجاسة.

وللمجتهدين في المسائل الشرعية أنظار دقيقة ومدارك كثيرة. والأمر في الفروع هين والظن فيها كاف كما بيناه في مقالاتنا العديدة التي نشرتها المجلة. وماذا نريد بعد أن جعل الله لكل مجتهد أجراً أخطأ أم أصاب، و«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»؟ ولا معنى للجزم في مسألة الكلب بنفي أحد القولين.

وأكبر ظني أن المستنكر إنما يستمد استنكاره من النفور الطبيعي الذي نشأ عليه، والعقيدة التي رسخت في نفسه بمقتضى البيئة التي وجد فيها.

وقد بلغني أن فريقاً من الأوربيين يستطيعون لحم الكلب غاية الاستطابة. وهو عندهم بمنزلة الضأن عندنا. هذا ما تيسر في الوقت، وهو كاف إن شاء الله.

يوسف الرموى

من هيئة كبار العلماء

المدنية الفاضلة في الاسلام

إن من أخص صفات المدنية السامية أن يكون بين الناس في علاقات بعضهم ببعض، آداب عالية وعادات حسنة يتواضعون عليها فيما بينهم، ويراعونها أدق المراعاة، في تعاملهم وتخطيهم. هذه الصفات هي التي تميز الأمم المتحضرة عن القبائل المتبعية. والاسلام الذي استوفى جميع مقومات الأجساد والأرواح والاجتماع لم يغفل هذه الناحية من الأدب المدني، فوفاه حقه، فجاء أكل ما عرف في تاريخ المدنيات الى اليوم.

ومن أعجب ما يعرف عن الاسلام أنه كما عني بإحداث أكبر انقلاب شهده البشرية في الدين والاجتماع والعلوم والصنائع، عني كذلك بهذه الناحية من المظاهر المدنية التي تشف عن كمال الذوق، ورقة العواطف. فقد رغب في تحسين المظهر: من إجادة اللبس والتعطر، وقص الشعر والأظافر، ومراعاة قواعد النظافة، والتظرف في التعبير، والبشر والمهاشاة، ودعوة الناس بأحسن ألقابهم، وعدم مجابتهم بما يكرهون، وبدئهم بالسلام وحسن الإصغاء اليهم. وإنا لباسون هنا بعض ماسنه الاسلام من هذه السمات المدنية، موردين ما جاء في حقها من الأحاديث والآثار النبوية، وما نقل عن الصحابة والتابعين في الجرى عليها، فإنها معالم للمدنية الفاضلة، وأعلام للأدب الكاملة فنقول:

السلام والمصافحة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا يجيبوه حتى يبدأ بالسلام ». وفي هذا إشارة الى أن الكلام قبل السلام سوء أدب يستحق فاعله أن يجازى عليه بإغفال شأنه. وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم هذه السنة بعمله، فقد قال بعضهم: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستاذن، فقال رسول الله: ارجع وقل السلام عليكم وادخل.

وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم الى العمل بهذا الأدب حتى مع الأهل، فقد روى

جابر عنه أنه قال : « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته » . وهذا ظاهر ، فإن الإنسان إذا دخل بيته مسلماً فجدبر أن يكون ذلك أوجب للوئام والألفة بينه وبين أهله ، فإذا عسى أن يجد الشيطان ما ينزغ به بين أهل بيت هذا شأنهم من الصفاء ومراعاة الكرامة ؟

وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الحكمة في التوصية بإفشاء السلام بين المؤمنين هي تمكين أواصر التحاب بين آحادهم ، والتحاب بين الآحاد أساس الاجتماع الوثيق العرى ، المحقق لفائدة المجتمعين ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحابيتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أفشوا السلام بينكم » . وقد أذاع النبي صلى الله عليه وسلم : عادة المصافحة بين العرب وكانوا يعدونها من عادات الأعاجم . روى البراء بن عازب رضى الله عنه أنه دخل على النبي وهو يتوضأ فسلم فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ، فرد عليه ومديده اليه فصافحه ، فقال البراء : يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ، فقال له : إن المسلمين إذا التقيا فتصافحوا تحاتت ذنوبهما .

وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المؤمنان فتصافحاً قسمت بينهما سبعون مغفرة : تسع وستون لأحسنهما بشراً » . فانظر كيف ندب الى البشر عند المصافحة ، والبشر علامة الصفاء النفسى والإقبال القلبى . فيعسر على المتصافحين بعد هذا البشر وهذا الإقبال أن يتنازعا على تافه من الأمور ، فإن كان بينهما أمر ذو بال عمدا الى المياسرة والمحاسنة ، وحسما ما بينهما من خلاف على صفاء ومحبة .

وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم . ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك .

وسن النبي تحية الانصراف أيضا فقال : « إذا انتهى أحدكم الى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الأخيرة » .

وقد عنى النبي صلى الله عليه وسلم بأمر السلام حتى سن له نظاما على حسب ما يكون فيه الانسان من حال ، فقال : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير » .

قد ذكر البشير عرضا في أمر السلام ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أفرد بالتبويه ، فقد روى أبو هريرة أنه قال : « إن الله يحب السهل الطلق الوجه » وقال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . وقال معاذ بن جبل قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح » . فانظر كيف وضع لين الكلام وخفض الجناح في صف تلك الخصال العالية وجعله علما من أعلام الطريقة المثلى .

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخصلة تنويها فروى أنه قال : « أندرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : على الهين اللين السهل القريب » ، فإذا علم الناس أن النار حرمت على من هذه صفته فكيف لا يتنافسون في التخلق بها ، وكيف تروج في بيئتهم صفات أهل الجاهلية من الغشورة والغطرسة والجبرية .

ومن خلال المدنية الفاضلة التي سنّها الاسلام توقير الشيوخ والعطف على الأطفال ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من لم يوقر كبيرا ولم يرحم صغيرنا » . قال العلماء ومن تمام توقير الشيوخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالاذن . قال جابر رضى الله عنه : قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم ، فقال رسول الله : « فأين الكبير ؟ »

أما خصلة العطف على الصغير فأخوذة من الحديث المتقدم . وكان من عادته صلى الله عليه وسلم التلطف بالأطفال والعطف عليهم . جاء في سيرته الشريفة أنه كان يقدم من السفر فيتلقيهم الصبيان فيقف عليهم ، ثم يأمر بهم فيرفعون اليه ، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول

بعضهم لبعض : حملني رسول الله بين يديه وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم .

وروى عنه أنه كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي ، فيصيح به بعض من يراه ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ترموا الصبي بوله » فيدعه حتى يقضى بوله . ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، لئلا يروا أنه تأذى ببوله . فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد .

انظر الى هذا العطف البالغ أقصى غاياته حتى في حالة بول الصبي عليه ، فلا يريد أن يرفعه حتى لا يزجه وينغص على أهله . هذا والله مثل أعلى في هذا الباب ليس وراءه مذهب .

وقد استن أصحابه بسنته ، فأقبلوا على الصبية بوجوههم وقلوبهم وغمروهم في عطفهم وبرهم . روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استدعى رجلا ليوليه بعض عمله ، فيدنا هو يعد له كتاب الولاية إذ أقبل غلام له فأخذه عمر فقبله ، فقال له الرجل : أتقبل الصغار يا أمير المؤمنين ، فإني لم أقبل صغيرا قط . فالتفت إليه عمر وقال له : اذهب فلا حاجة لنا بك فإن من لم يرحم الصغير لا يرحم الكبير ، وأحجم عن توليته .

وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم توقيف الزائر ، وهو من سمات أهل المدنية الفاضلة ، خلافا لأهل البداوة أو القرية عهد بالحضارة ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ربما يزوره زائر وهو جالس على وسادة ولا يكون فيها سعة يجلس معه عليها ، فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس اليه ، فإن أبي عزم عليه حتى يفعل . وقد أمر أصحابه أن يستنوا بسنته . وروى أنه دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى اكتظ بهم المكان ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد محلا يجلس عند الباب ، فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه اليه ، وقال له : اجلس على هذا . فأخذه جرير ووضع على وجهه وجعل يقبله ويبكي ثم لفه ورمى به الى النبي وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني !

فنظر النبي يمينا وشمالا ثم قال : إذا أنا كم كريم قوم فأكرموه . وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما زاره وفد من النصارى فرش لهم عباة ليجلسوا عليها وقد اعتاد أهل المدينة اليوم أن يسموا تواضع الكبار للفقراء والمساكين ديموقراطية ، فترى وزراءهم وكبراءهم يختلطون بهم في الحفلات ويشاركونهم في الجلوس معهم في الدرجة الثالثة بالتراموايات . وقد سببهم الاسلام فجعل التواضع لأهله شرعة ، تحقيقا لمبدأ المساواة الذى كان هو أول من رفع علمه في الأرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تواضع لله رفعه . وقال : « لو كان المتواضع في قبر بئر لبعث الله اليه من يرفعه » وقال : « إن الله تعالى أوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » . وعن ابن أبي أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته .

وقد سن الاسلام الاستئذان ، وهو اليوم من الخلال التى تعد من مميزات أهل المدينة ، فتراهم يحرسون عليها ولا يتساحون فيها ، وأنت ترى أن الاسلام قد سنها لأهله منذ أجيال كثيرة ، قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم »

هذا غيض من فيض مما سنه الاسلام لأهله من سمات المدنية الفاضلة . وجملة ماورد عنها وعمل به منها يفوق ما عليه المتمدنون اليوم رقة ، ويبرزه لطفا . وفى ذلك دليل على أن الاسلام شرع ليكون ديناعاما يصلح لجميع العصور ، ويلائم أرقى الحالات العقلية والنفسية ، وليس بعد هذه السنن النبوية والعادات الاسلامية مذهب لمن يتطلب أقصى غايات المدنية . فإذا كانت نفوس لا تزال على صفات أهل الجاهلية من الكبر والجبرية ، والصلف والعنجهية ، فإن الزمان كفيل بردهم الى الصواب ، وإذ ذاك لا يجدون وراء هذا الدين مطلبا ، ولا عن طريقته المثلى متنكبا .

محمد فريز ومبرى

مآثر العرب في العلوم المدنية^(١)

لكتاب العرب وعلمائهم في صدر الاسلام من المآثر العديدة الخالدة في العلوم المدنية مثل الفلسفة والرياضة والعلوم الطبيعية بسبب تقدم الحضارة والثقافة الفكرية في هذه العصور ما جعل لهذه العلوم أثرا يذكر في تاريخ الأدب العربي على العموم، وجعل من علماء العرب أساتذة للغرب يقتفي أثرهم ويهتدى بنور أبحاثهم، ولو أن هذه العلوم كانت في الأصل دخيلة على علوم العرب أخذوها عن الإغريق وهذبوها بما يناسب الحضارة الاسلامية، وبقيت شطرا من الزمن في عداد الثمرات الغربية والتراث الأجنبي. وكان أول من اهتم بنقلها الى العربية علماء الشام المسيحيون وشاركهم في ذلك نفر قليل من العرب، إلا أنها ما لبثت أن احتضنها أمراءهم وتعهّدوا رجالها برعايتهم وحسن تقديرهم حتى خصبت تربتها وأينعت أيما إيناع، فأنتجت قرائحهم ثمرات طيبة لا يدانيها ما أنتجه غيرهم من الشعوب المتاخمة ذات الحضارات القديمة. بدأ ظهور حضارة الإغريق في الأدب السورى القديم منذ كانت بلادهم تقع تحت سيطرة الأمبراطورية الشرقية، وزاد تأثره بها بفضل العوامل السياسية التي ساعدت على اهتمام علمائهم بنقل المؤلفات الإغريقية الى اللغة العربية. وكذلك نشط علماء الدولة الفارسية في ترجمة كتب فلاسفة الإغريق بفضل رعاية ملوك الدولة الساسانية وتعضيدهم لدراسة الفلسفة والطب، فأسس خسرو أنوشروان في عام ٣٥٠ م مدرسة في « جنديسابور » بخوزستان لتعليم هذه العلوم، وقد قامت هذه المدرسة بواجبها خير قيام، وبقيت مزدهرة حتى أيام العباسيين، ومنها انتقلت القواعد الأساسية التي وضعها أرسطو للمنطق الى علماء المسلمين في البصرة، فكانت أساسا لقواعد النحو العربي.

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالماني الكبير

وكانت حران مهداً لنشأة علوم الرياضة والفلك التي استعملت كباقي العلوم الإغريقية سلاحاً في يد الوثنيين لمحاربة رسل المسيحية في الشام، وبقى الحرانيون متمسكين بعقائد أسلافهم حتى بعد دخول الاسلام وحكم العرب بقرون عديدة، ولقى الكثير من علماءهم الفلكيين والرياضيين رعاية كبيرة وتقديراً عظيماً في بلاط خلفاء الساميين ببغداد.

وفي أول حكم العباسيين بدأ بعض علماء الشام المسيحيين بترجمة المؤلفات الطبية الى اللغة العربية، الى أن جاء الخليفة المأمون فكان أكبر عضد وأشد ساعداً في هذه النهضة الأدبية الجديدة، وكان المأمون يعرف الحكمة والفلسفة الإغريقية ويقدرها قدرها، وكان مولعاً بها الى أبعد حد، فأسس لدراستها معهداً ببغداد وشيد الى جانبه دوراً كثيرة للكتب ومرصداً فلكياً.

وفي أثناء خلافته اشتغل كل من قوستا بن لوقه من بعلبك وحنين بن اسحق وابنه إسحق بالترجمة، فظهر اسم أولهم بين مشاهير المترجمين حوالي عام ٢٢٠ هـ خصوصاً بترجمته لمؤلفات أرسطو وبلوتارخ وإقليدس وتيودورو وهرون الإسكندري، وكذلك عرف قوستا بن لوقه مؤلفاً نابه الذكر. فله مؤلفات هامة في الموسيقى والفلك والرياضة تزهبها العلوم العربية. واشتهر حنين بن اسحق شهرة واسعة وذاع صيته، فنقلت مؤلفاته الى اللغات العبرية واللاتينية في العصور الوسطى، وولد حنين عام ١٩٤ هـ في الحيرة وطلب العلم في بغداد، ثم واصل دراسته في آسيا الصغرى حيث تعلم اللغة الإغريقية. وعند عودته اتخذ الخليفة المتوكل طبيباً خاصاً به، واهتم في حياته بترجمة مؤلفات أرسطو وأفلاطون، ولكن أهم ما أخرجته للعالم العربي هو ما ترجمه عن جالينوس من الكتب الطبية، ووضع مقدمة في الطب ورسائل عديدة في أبوابه المختلفة، وأكثر مؤلفاته انتشاراً هي رسالته في تاريخ التعاليم الفلسفية. وأما ابنه اسحق المتوفى سنة ٢٩٨ هـ فكان جل اهتمامه بمؤلفات أرسطو، ولم يهتم

كثيرا بترجمة جالينوس بل ترك ابن أخيه حبش يكمل ما بدأه منها، وكان كثيرا ما يعاونه في أثناء حياته .

وبفضل ما نقل إلى العربية من المؤلفات الأجنبية كالتى أتينا على ذكرها نشأت عند مؤلفي العرب فلسفة بدأت بظاهرة خلقية خاصة كما يتضح ذلك في مؤلفات الجاحظ الذى جعل جل اهتمامه الناحية العلمية الأدبية ، بينما اهتم معاصره يعقوب الكندى الملقب بحق فيلسوف العرب بالناحية الفلسفية العلمية البحتة ، وينحدر الكندى من أسرة عريقة في جنوب بلاد العرب كانت قد آلت إليها إمارة المقاطعات الوسطى ، وكان أبوه خاكما في الكوفة حيث ولد يعقوب الكندى ، وطلب العلم في البصرة وبغداد ، وأقام بالأخيرة تحت حكم المأمون ومن خلفه من خلفاء المسلمين الى أن حدث اضطهاد المعتزلة بواسطة الخليفة المتوكل ، فأصابه ضرر كبير ، وصودرت مكتبته ، وتوفى على أثر ذلك . ولقد أتى الكندى بمحصول وافر وإنتاج باهر في عالم الأدب ، فبلغت مؤلفاته ما يقرب من ٢٠٠ كتاب ، وشملت مؤلفاته جميع نواحي الفلسفة وسائر العلوم المدنية الأخرى مثل الموسيقى والفلك والهندسة والطب والتنجيم وعلوم الأحوال الجوية . وكان يظهر على كتابات الكندى في علوم الأخلاق وما وراء الطبيعة (العلل الأولية) ميل شديد نحو آراء الفيثاغورثيين والأفلاطونيين الفلسفية الجديدة ، إلا أن ذلك لم يمنعه من التعمق في دراسة فلسفة أرسطوطاليس حتى أطلق عليه بحق أنه أول أتباع أرسطو من علماء وفلاسفة الاسلام . وبالرغم من هذا وذاك فإنه قد لوحظ في بعض مؤلفاته محاولات جريئة ومجهودات موفقة لإيجاد صلة جامعة بين المشائين (البريباتيسمين) والأفلاطونيين منتحيا بذلك نحو من سبقه من فلاسفة الإغريق . وكانت تربيته الفلسفية لم تكن لتبلغ به شأوا بعيدا ، ولكن أثره في تلاميذه كان أكبر وأظهر في ناحية العلوم البحتة ، واشتهر من طلبة العلم لديه أبو معشر أكبر علماء التنجيم في عصره .

واهتم الفارابي كذلك بدراسة الفلسفة ، وبلغ منها مبلغا ظاهرا ، وهو ينحدر من أصل تركي ، وولد في بلاد ما وراء النهرين ، وطلب العلم في بغداد ، ووجد في بلاط الأمير الحمداني سيف الدولة ملجأ لا يظهر مؤلفاته ونشر فلسفته ، وتوفي بدمشق عام ٣٣٩ هـ وشمل إنتاجه الأدبي جميع مناحي فلسفة أرسطو التي أخرجها الى العربية بتعليقات قيمة أو في رسائل مستقلة ، ووضع مؤلفا جليلا للموازنة بين تعاليم أرسطو وأفلاطون . وبالرغم من اهتمامه الزائد بالفلسفة فإنه لم يغفل العلوم الأخرى ، وأظهر مؤلفاته ما كتبه في الدفاع عن كيمياء الذهب ضد الكندي الذي لم يرض بها كفن من الفنون .

وكانت مدينة البصرة منذ قديم الزمن مركز الأبحاث العلمية والنزعات الحرة ، وفيها تكونت قديما الأندية التي ظهر أثرها الفلسفي في مؤلفات الجاحظ ونظم بشار ، وفي البصرة تكونت في هذا العصر أيضا جماعة من أنصار الفلسفة عرفت أسماؤهم جميعا ، ولو أنه لم يظهر لأحدهم شخصية ممتازة ، اللهم إلا زيد بن رفاع الذي أسس فرعا لهذه الجمعية الفلسفية في بغداد عام ٣٧٣ هـ وكان الغرض من تأسيس هذه الجمعية الفلسفية هو نشر التعاليم الفلسفية بين أفراد الشعب ، ورسم القائمون بأمرها خططا تدريجية لتحقيق أغراض الجمعية التي أخفقت بسبب الأحوال السياسية ، وعلى الأخص بسبب التدهور الذي بدأ في أفق الحضارة العامة . وأما الرسائل التي وضعوها في مختلف أبواب العلوم والفلسفة فكانت ناجحة الى أبعد حد ، فانتشرت انتشارا واسعا وذاعت ذيوها عظيمًا حتى عمت جميع أنحاء الشرق ، ووصلت الى أسبانيا في أواخر القرن الرابع ، وبقيت كذلك موضع اهتمام الباحثين طويلا ، واقتبس منها الشاعر التركي المجيد لمعي في القرن السابع عشر كثيرا في منظوماته ، ونقل بعد ذلك في القرن التاسع عشر من الميلاد الى اللغة الهندوستانية . وتقع هذه الرسائل في ٥١ فصلا ، وتبحث في جميع أبواب الفلسفة ومباحث العلوم الطبيعية ، وكان الغرض الأول من وضعها هو

جعل هذه العلوم في متناول أفراد الشعب . ولقد نجح أفراد الجمعية الفلسفية في مهمتهم هذه الى حد بعيد .

وأما في العلوم الرياضية فقد كان أثر أفليدس ظاهرا فيما خلفه العرب من مؤلفات وأبحاث رياضية ، وكذلك نشطت همتهم وأخصبت قرائحهم في هذا المضمار بعد اتصالهم بمؤلفات الهنود الذين أخذوا عنهم طريقة الأرقام التي أخذوها بعد ذلك الأوربيون عن العرب وسموها باسمهم ، وبفضل هذه الطريقة تأسس علم الحساب وسهلت كل أنواع عمليات المحاسبة الابتدائية . ولقد انتفع العرب بهذه الطريقة في أبحاثهم عن علاقات الأرقام الفردية والمزدوجة والأرقام البسيطة والمربعة والمكعبة ، وساعدتهم على كشف كثير من غوامض نظرية الأرقام ، كما أخذوا عن الهنود مبادئ حساب المثلثات ووضعوا لهذا العلم أسسا محكمة وقواعد دقيقة ، واستخلصوا منها نتائج ونظريات لم يتعدها العلم الحديث إلا في السنوات الأخيرة .

وأقدم الرياضيين من علماء العرب المعروفين هو محمد الخوارزمي الذي اشتهر وذاع صيته في عصر المأمون حوالي عام ٢٠٥ هـ حيث قام بنشر دراسة وافية لكتاب بطليموس في الفلك والكتاب الهندي « سندهند » ، ولكن أهم مؤلفاته هو كتابه في علم الجبر حيث لاقى انتشارا عظيما وترجم الى اللاتينية ، وكان المرجع الأخير لعلم الحساب في أوروبا حتى عصر النهضة ، وبقي اسم الخوارزمي حتى اليوم بين أعلام العلوم الرياضية البارزين .

واهتم أولاد موسى بن شاكر المتوفى سنة ٢٥٩ هـ بعلوم الهندسة والفلك والصناعات الفنية وقياس السطوح ، ولهم فيها مؤلفات عديدة .

وامتاز الرياضي الكبير ثابت بن قرة بأبحاثه القيمة في نظرية الأرقام حتى أطلق عليه بحق كبير رياضي هذا العصر ، وولد ثابت بن قرة في حران عام ٢٢١ هـ وعاد اليها بعد أن أتم دراسته في بغداد ، وتوفى سنة ٢٨٨ هـ وله مؤلفات ورسائل عديدة في الرياضيات وأخرى في الطب والفلسفة .

وفي أواخر هذا العصر وضع محمد الكرخي مؤلفا في الحساب (الكافي في الحساب) نلخص فيه أهم ما وضعه المؤلفون السابقون في هذا العلم ، وأهداه الى وزير البويهديين بهاء الدولة نخر الملوك المتوفى سنة ٤٠٧ هـ .

نشطت قرائح العرب وشجذت همهم باتصالهم الفكرى بالآغريق وبالهنود ، فأخذوا عنهم من العلوم الفلكية مثل ما نقلوا عنهم من العلوم الرياضية . فى عام ١٥٢ هـ ظهر أحد الهنود فى بلاط الخليفة المنصور ومعه كتاب «سدهانتا» الذى وضعه «براهما جوبتا» سنة ٦٢٨ م فأمر الخليفة بنقله الى العربية وقام بدراسته وتنقيحه بعد ذلك الخوارزمى تلبية لرغبة الخليفة المأمون ، وأمر المأمون كذلك بتصحيح خرائط بطليموس الفلكية بعد الأرصاد التى قام بها فى بغداد ودمشق ، كما وضع طريقة للقياس بالدرجات . وتمكن العرب بعد ذلك من تحديد مواقع الأجرام السماوية ومداراتها بواسطة آلات القياس والرصد التى ابتكروها لذلك .

ووضع فى أوائل القرن الثالث من الهجرة أحمد الفرغانى كتابا فى العلوم الفلكية نقل بعد ذلك الى اللاتينية ، وكان يعتبر أهم المراجع فى العصور الوسطى فى أوروبا . وأهم علماء العرب فى الفلك والتنجيم هو بلاشك أبو معشر تلميذ الكندى ، ولد أبو معشر سنة ٢٧٢ هـ فى واسط ، ووضع علاوة على رسائله الهامة فى الفلك كتابا فى المجهود الأدبى للشعوب المتحضرة المعروفة فى ذاك الحين ، وكانت تغلب عليه فلسفة فيثاغورس التى أخذها عن أستاذه يعقوب الكندى .

انتهت مجهودات هذا العصر فى العلوم الفلكية وأبحاث التنجيم بالسفر الضخم الذى وضعه على بن أبى الرجال بشمال أفريقيا فى أوائل القرن الخامس من الهجرة ، ونقله علماء أوروبا الى اللغة اللاتينية سنة ١٥٥١ ميلادية .

وكذلك نرى فى علم الطب أن أثر كل من علوم الآغريق وعلوم الهنود يتلاقى فى بدء نشأته مع العلوم العربية ، ولقد سبق لنا الذكر بأن مؤلفات كل من أبوقراط

وجالينوس نقلت الى اللغة العربية منذ بدء نهضة الترجمة ، كما رأينا أن العلوم الطبية ازدهرت في مدينة «جنديسابور» بجانب فلسفة أرسطو، وأن الخليفة المنصور استدعى رئيس مستشفائها ليجعله طبيباً خاصاً به ، كما ثبت أن أحد الأطباء الهنود (منكا) كان موجوداً في بلاط هارون ومتمتعاً بثقة عالية وتقدير كبير ، وأن أهم مؤلفات الهنود في الطب (Sucruta) نقل أيضاً في هذا العصر الى اللغة العربية ، ولو أن هذه الترجمة لم تصل الى أيدينا .

وفي القرن الثالث من الهجرة اشتهر يحيى بن ماسويه بمؤلفاته الطبية العديدة ، ولد يحيى في جنديسابور وكان أبوه صيدلياً ، وطلب العلم في بغداد الى أن صار طبيباً خاصاً بالخليفة المأمون ومن خلفه حتى الخليفة الواثق ، وتوفي سنة ٢٤٣ هـ . وأهم مؤلفاته رسائله المهداة الى حنين بن اسحق ، ونقلت معظم كتبه الى اللغة العربية واللاتينية . ولم يفقه في الشهرة وسعة المعارف إلا أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي يعتبر بحق أكبر عبقرى ظهر في العصور الوسطى في فن العقاقير ، ولد أبو بكر بالري وطلب العلم في بغداد الى أن صار مديراً للمستشفى في مسقط رأسه ، وأخيراً مديراً لمستشفى بغداد ، إلا أنه لما وجد مدينة الخلافة القديمة قد فقدت كثيراً من أبنائها وعظمتها أثر الانتقال الى بلاط أمراء الفرس حيث تظهر مقدرته ونبوغه وينال حظه من الشهرة والصيت ، وأهدى الى منصور بن اسحق آل سامان أمير كرمان وخراسان أهم مؤلفاته الذي يدافع فيه عن كيمياء الذهب ، ولكنه لم يكن من وراء ذلك إلا جحوداً كبيراً ، إذ ضربه الأمير المذكور بسوطه ضربة أودت بنظره على أثر إخفاقه في نجاح بعض التجارب أمامه ، وبقي ضريحاً الى أن وافته المنية سنة ٣١١ هـ .

أما علوم كيمياء الذهب فازدهرت أبحاثها وكثر أنصارها في غضون القرن الثاني من الهجرة الى حد بعيد ، وأشهر من رفع لواءها في هذا العصر هو جابر بن حيان

وهو تلميذ الأمير الأموي خالد، ولا نعلم من أخباره إلا أنه كان يقيم في الكوفة، وأن شهرته بلغت أوج عظمتها حوالي عام ١٦٠ هـ .

وكانت تحيط بعلماء كيمياء الذهب في هذا العصر أسرار غامضة، ويعيشون في عزلة تامة، بالرغم من أنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً تاماً بصحة ما يذهبون إليه من النظريات والأبحاث ولقد انتفعت العلوم الطبيعية انتفاعاً كبيراً بفضل أبحاثهم التي كانوا يجرونها في طي الخفاء والكتمان سعياً وراء بعض الأغراض الخيالية .

خاتم النبیین

وضع حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الغفار الجيار تاريخاً للنبي صلى الله عليه وسلم على طراز جديد يحفز القارئ للقراءة حفزاً فيجد نفسه متنقلاً بين بحوث من ضروب شتى على حسب المناسبات، فتراه يسوق الكلام في السيرة، فإذا انتهى منه تكلم فيما يكون قد اقتضاه المقام من المباحث. مثال ذلك: لما تكلم في إصرار قريش على الكفر عقد فصولاً تكلم فيها عن ضلال الأمم وشياطين الانس والعقل والهوى الخ. مما يجعل الكتاب شائقاً جذاباً فنشكر له عمله الطيب، ونرجو له المثوبة عليه .

الفتح الى باني

صدر قسم شهر ذى الحجة من كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند احمد لواضعه الأستاذ المنضال الشيخ احمد عبد الرحمن البنا بحارة الروم .

استدراك

جاء في السطر الأخير من الصفحة ٦٥١ من الجزء العاشر للمجلد الخامس :
وإلينا يرجعون . والصواب : وإليه يرجعون

« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »

“ And how many signs there be of Allah’s being, unity and providence in the Heavens and the Earth which they will pass by and heed not ”

(*Baidawy’s Commentary.*)

He urged to the education of the heart by all possible means even by travelling :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

“ Have they not journeyed in the land ? And have they not hearts to understand with, or ears to hear with ? Nay, it is not their eyes that are blind but it is the hearts within the breasts that turn blind. ”

(*Baidawy’s Commentary.*)

The Prophet (on whom be Peace), called to meditation of The Lord’s handiwork and creation in such terms that he gave it priority over worship:

“ An hour’s meditation is better than a year’s devotion ”, says the Prophet.

The call to perfection throws the door wide open for progress, and a nation who is enjoined by its religion to seek the best in word and deed, will have the instinct of perfection roused in it and will attain in time to the highest degree of development. This comes as a natural consequence to the psychological state of the nation inspired by the inherent factors of religion. In no other nation has this result been so clearly shown as in the Moslem nation since its adoption of Islam. The material and moral progress attained by that nation was due entirely to the strength of its faith and its determination to carry out the injunctions of religion.

Outsiders who have studied the general aspects of Islam, have been induced to accord it great honour on account of its high principles. But they did not go deep enough in their study of Islam to appreciate the latent factors which were infused through all its injunctions and which have given rise to those finer qualities that true believers are required to cultivate. These factors to which we have alluded, depend on natural tendencies which dwell in the instincts of man. If these tendencies were properly nurtured and cultivated, they will lead to the greatest of social and moral reforms. The critic who studies Islam in the light of these facts will readily recognise the inherent value of that Religion and the truly ingenious methods calculated to revive the souls and arouse the dormant instincts of men. The rapid development of Moslem people in the earlier stages of Islam, is chiefly due to the cultivation of those natural tendencies. It is therefore our advice to those who study Islam not to let the modern scientific terminology debar them from a true appreciation of its inner principles. Modern philosophy ascribes all moral and material progress of nations to their sense of appreciation of what is called ' Idealism '. It maintains that the progress of a nation is commensurate with its consciousness of that ' Idealism '. Islam has not been bound by this nomenclature, but it has urged its followers to imbibe deeply of the sources which will arouse in them that consciousness. They were required to consider the handiwork of God and to meditate on the wonders of creation. Their attainment of knowledge and favour of God was made dependent on such meditation.

The Lord saith of true believers :

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

" Those who, standing, and sitting and reclining remember Allah ; and meditate on the creation of the Heavens and the Earth, saying : O our Lord ! Not in vain hast thou created this ; far be it from Thee ! So preserve us from the torment of hell fire . "

(*Baidawy's Commentary.*)

He reprimanded those who pass His signs by and pay no attention thereto :

and follow that which is best thereof. These are they whom Allah guideth unto His Religion, and these are men of understanding. ”

(*Baidawy's Commentary.*)

A people who set themselves to acquire wisdom in that fashion, unmindful of taking it even from their antagonists in religion, are certainly worthy to claim as their own the highest virtues and to succeed in attaining perfection where other people had failed .

The Prophet (Peace be on him) says :

“ Acquire wisdom no matter what source it issueth from. ”

In another tradition he says :

“ Acquire wisdom be it though from a polytheist. ”

For indeed the seeker of the ‘ best ’ does not disdain to hunt for it in all its possible sources just as the seeker of gold who does not refrain to look for it in earth mixed with dross and other inferior metals and exerts himself to extract it from them and produce it as pure unalloyed gold . He knows full well that gold is gold wherever it may be found, that its value is not depreciated by being mixed with other metals and that it should not be neglected on that account. And so it is with wisdom. It might get tainted in different nations with myths and superstitions but it should not be neglected on that account . It should be purified from such taints and be made use of in its pure and unadulterated form .

Nothing could be more forcible in urging to seek wisdom than the saying of the Prophet (Peace be on him) :

“ Wisdom is the lost treasure of the true believer, he taketh it wherever he findeth it. ”

The Tradition shows how indispensable wisdom is to man, and if wisdom is the quest of every true believer, how could he neglect to look for it in all its possible sources such as books, traditions or even hearsay ; and if he find it, he should grasp it without the least hesitation.

Yet wisdom in itself is worthy of being accorded every honour for it is a ray of the Divine Light shed on the souls of some favoured ones to impart it to mankind so as to guide them into the right path and throws open to them the door to salvation .

Islam, the Religion of perfection, has therefore insistently urged to the acquisition of wisdom which The Lord has extolled in the following terms :

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »

“ He giveth wisdom unto whom he pleaseth, and he who is given wisdom, hath much good given him. ”

and crown their efforts with success, for thus saith The Lord :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

“ And those who strive in Our Cause, surely will We guide them unto Our Ways for verily Allah favoureth the well-doers and rendereth them support. ”

(*Baidawy's Commentary.*)

The preceding verse implies that those who properly discharge the Divine injunctions by upholding the Word of God and following His Path, will be guided to the ways leading to Him or in other words to His favour in this world and the hereafter. There could be no higher purpose for the seeker of material and moral perfection, for this is indeed the true progress which man seeks and strives to achieve with all his power,

One may well imagine that a people who follow this Faith and seek perfection in word and deed are bound to realise the highest aims of material and spiritual life.

A people who are required to adopt the best of everything even in returning a greeting :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

“ If ye are greeted with a greeting, then answer ye with a better one or at least return it. ”

(*Baidawy's Commentary.*)

A people who are required to do that will be satisfied with nothing short of perfection which becomes a nature to them.

Yet more treasures has The Lord opened to those who seek perfection. He required them to open their hearts to knowledge and wisdom and acquire the best thereof for thus saith The Lord :

« فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ »

“ Announce glad tidings unto My servants who hearken unto exhortation

The Lord, be He praised, has connected the Divine blessings with the doing of good. He decreed that such blessings should be made dependent on it, for thus saith He :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

“ And when he (Joseph) had attained full strength and maturity, We bestowed on him judgment and knowledge, for thus do We recompense the well-doers.”

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

“Peace be on Abraham ! Thus do We recompense the well-doers.”

And :

« سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

“ Peace be on Moses and Aaron ! Surely, thus do We recompense the well-doers.”

And :

« سَلَامٌ عَلَىٰ إِيْلَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

“ Peace be on Eliasin (Elias) ; Surely, thus do We recompense the well-doers.”

It is established that all these Apostles of God had been accorded Divine support and given wisdom and knowledge which gave them superiority and leadership over all men.

Such is the reward of The Lord to well-doers, and indeed there could be no higher tribute than this paid to well-doing.

The Lord has promised to bring to fruition the works of well-doers

charity to the poor, but it also includes the proper discharge of all duties and pursuits of man. The Lord, be He exalted, has meant it in the preceding verse to cover all goodly actions and qualities. We therefore find it was repeated one hundred and eighty times throughout the Holy Koran.

Nor was that all; it was coupled with Religion itself to the exclusion of all other goodly qualities since it covers them all. The Lord saith :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »

“And who hath a better religion than he who resigneth himself unto Allah and doth good. »

(*Baidawy's Commentary.*)

Resignation unto Allah means faithfulness and surrender unto Him, and the doing of good includes all that is good in word and deed. Once these two attributes are possessed by man, he would ensure perfect life in this world and eternal salvation in the next.

The Lord has repeatedly spoken in many verses of the Holy Koran of his love for those who do good and of the support extended to them for thus saith The Lord :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »

“ Verily Allah loveth those who do good. ”

And :

« إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »

“ Verily the mercy of Allah is nigh unto those who do good. ”

And :

« وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ »

“ And announce glad tidings unto those who do good. ”

development, they will grow up to it and it will become a fixed characteristic of theirs which they cannot change. A direct effect of this instinct is that it engenders in the hearts an ambition to develop and perfect all that comes within the scope of their activities. The result of this in the community would be the maintenance of change from good to better until the nation attains to that high degree of civilisation to which humanity is destined by Providence.

Contrary to this would be the condition of communities in which this instinct has weakened under the influence of wrong teachings or false inherited traditions. The sense of moral perfection in such communities gradually diminishes until their very being is affected and they are rendered unfit to maintain their existence as a nation.

The most efficacious means to develop this instinct, is through religion, as religion intensifies its ardour in individuals and urges the community to its fuller realisation. And so it would lead to all classes of the community co-operating to attain the highest possible degree of progress, and a general tendency is thereby engendered to change from one condition to another and render the nation immune from the influence of inactivity which may assail it to its detriment. If it happens that this instinct should weaken or is overcome by factors of decadence and degeneration, the inculcation of this principle among the teachings of religion, would urge people to adopt what is best in everything, and to contend against those factors which have lead to their deterioration. Thus they would be urged by the drive of religion to rise from the lethargy into which they have fallen.

Islam has inculcated to follow all that is best in word and deed. The Lord has forcibly enjoined the proper discharge of duties and has assigned it the same place of honour as justice whose high function in the life of nations could not be denied.

The Lord saith :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

« Verily Allah enjoineth justice, the proper discharge of duties and giving to the kindred what they stand in need of; and forbiddeth the following of lustful desires, wickedness and oppression of men; He warneth you that haply ye may take heed. »

(*Baldawiy's Commentary.*)

We must here draw the reader's attention to the meaning of the word « Ihsan » in Arabic. The meaning of this word is not confined to

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD. (1)

XIII

CALL TO PERFECTION.

The law of progress in human communities depends on a natural instinct of man, or in other words on a tendency of his to choose what is best for his well-being. This instinct is born with man and grows with the development of his mind unless it is encountered by some obstacle which may impede its growth. If fathers and teachers carefully tend this instinct in young people and protect it from the external influences which deter its

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in « Nour-El-Islam »

“ While I was sleeping I saw the people parading before me wearing shirts, some of which reached as far as their breasts, and some less than that . Then ‘Umar b. Al-Khattab appeared before me wearing a shirt which trailed on the ground ”. When the Apostle of Allâh was asked what interpretation he gave to this, he replied : “ It is Religion ”.⁽¹⁾

CHAPTER 16.

Modesty is a feature of the Faith. We are informed by ‘Abdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik b. Anas through Ibn Shihâb, through Sâlim b. ‘Abdallâh, through his father : that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) once passed one of the Companions. who was admonishing his brother against *undue* modesty,⁽²⁾ and so the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said: “ Let him alone for modesty is a feature of the Faith. ”

أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ
وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ
وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ وَعَرَضَ
عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ
يَجْرُهُ. قَالَ وَفَا أَوَلَيْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَدِّينَ

بَابُ : الْحَيَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ
حدثنا عبد الله بن يوسف قال
أخبرنا مالك بن أنس عن ابن شهاب
عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على رجلٍ
من الأنصار وهو يعِظُ أخاهُ
في الحياء فقال رسولُ الله صلى الله
عليه وسلم : «دَعْنِي فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ
الْإِيمَانِ»

(1) The shirt conceals the nakedness just as Religion shields a man from hell-fire ; and the traces of the trailing shirt are like the good example set by a religious life

(2) A reserve which prevents a man from obtaining his due is to be avoided ; but just as faith prevents him from sinning : so does modesty, and hence modesty and faith go hand in hand (Ibn Hajar & Al-Aini).

b. Yahya Al-Mâzini, through his father through Abu Sa'id Al-Khudri (Allâh be pleased with him), from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

The people of Paradise shall enter into Paradise, and the people of Hell shall enter into Hell, then Allâh (be He exalted) will say : " Let out of Hell those who have in their hearts faith even as a grain of mustard-seed " Then shall they be let out from it, blackened *by the flames*: afterwards they shall be cast into the river of rain-water or life (Mâlik) is doubtful as to which), and forthwith they shall grow up like the purslain beside the water-course. Hast thou not seen how it springeth up with its yellow flowers intertwined ?

According to Wuhaib, who had it from 'amr : instead of Mâlik's hesitation, the reading " the river of life ", is confirmed ; and instead of " a mustard-seed of faith", a mustard-seed of good ",

2. We are informed by Muhammad b. Ubaidullâh, who had it from Ibraahim b. Sa'd, through Sâlih, through Ibn Shihâb, through Abn Umâmah b. Sahl that he heard Abu Sa'id Al-Khudri say:

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

ابن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى :

أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة أو الحياة - شك مالك - فيمنبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية ؟ قال وهيب حدثنا عمرو « الحياة » وقال « خردل من خير » .

٢ . حدثنا محمد بن عبيد الله قال : حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح عن أبي شهاب عن أنى أمامة بن سهل أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يئتنا

myself ". (1)

CHAPTER 14

To dread relapsing into unbelief as much as being cast into hell-fire is a feature of the Faith.

We are informed by Sulimân b. Harb, who had it from Shur'bah through Qatâdah, through Anas (Allâh be pleased with him) . from the Prophet (Allah bless him and give him peace) who said :

There are three things, which, if inherent in a man, will enable him to taste the sweetness of the Faith : to love Allâh and His Apostle more than aught else ; to love a man for naught but the sake of Allâh ; and to dread to relapse into unbelief after being saved from it by Allâh ; just as to dread being cast into hell-fire.

CHAPTER 15

Showing the Superiority (2) of the Faithful over each other through their works :

1. We are informed by Isma'il, who had it from Mâlik, through 'Amr

بَابُ : مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ
فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي
النَّارِ مِنَ الْإِيمَانِ .

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا
شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثَلَاثٌ
مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ :
مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا
بُحْبُوحَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ
فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ كَمَا
يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ .

بَابُ تَفَاضُلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ
فِي الْأَعْمَالِ

١ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ
حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ عَمْرِو

(1) "And therefore I need good works the most,"

(2) i.e. preference or priority.

CHAPTER 13.

On the Prophet's words (Allâh bless him and give him peace) : “ I am he amongst you that best knoweth Allâh. ” and that the knowledge of Allâh is the work of the heart,⁽¹⁾ as appeareth from the word of Allâh (be He exalted) : “ But He will call you to account for the work of your consciences ”.

We are informed by Muhammad b. Salâm who had it from Abdah, through Hishâm, through his father, through A'ishah, who said :

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), when he gave commands to the Faithful, only commanded them works of which they were consistently capable, *Once* they said to him : “ We are not on the same plane as thou, Apostle of Allâh since Allâh hath forgiven thee thy sins both past and to come ”⁽²⁾ then he waxed wroth until his wrath was seen on his countenance, and he said : “ He amongst you that best feareth and benoweth Allâh is

بَابٌ : قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ : أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ ، وَأَنَّ الْمَعْرِفَةَ

فِعْلُ الْقَلْبِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : وَلَكِنْ

يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ أَخْبَرَنَا

عَبْدَةُ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ

قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا

يُطِيقُونَ قَالُوا إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَغْضَبُ

حَتَّى يُعْرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ

إِنِّي أَتَقَاتُكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَنَا .

[1] Al-Bukhari quotes this here in reply to the Karrâmiah [an offshoot of the Murji'ites] who allege that verbal acceptance of the Faith is sufficient for this world, though it may be unacceptable in the next.

[2] “ and therefore we must multiply our good works, ”.

It was on this that we swore allegiance to him.

CHAPTER 12.

It is a feature of the Faith to flee from iniquity. (1)

We are informed by ‘Abdullah b. ‘Maslamah, through Mâlik, through ‘Abdur-Rahmân b. ‘Abdullâh b, Abdur-Râhmân b. Abu Sa’sa’ah, through his father, through Abu Sâid Al-Khudri that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

The time is near when the best wealth of a Muslim shall be a flock of sheep, which he leadeth to the mountain-tops and rain-lands, to which he betaketh himself for his faith’s sake, (2) to flee from iniquity.

وَلِإِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

بَابُ : مِنَ الدِّينِ الْفِرَارُ مِنَ الْفِتَنِ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ

الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ

أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ

خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ

الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُبُ بِهِ مِنْ

الْفِتَنِ.

(1) Goldziher's rendering as "riots or disturbances" followed by Houdas and Marçais, is not supported by Al-Karmani or Al-‘Aini. Goldziher refers to the case of Salamah b. Al-Akwâ, who fled to Ar-Rabadha during the insurrection against ‘Uthman in support of his view; but فتنة in the text need have no connection with عثمان, as the word has many meanings including : temptation, trial, sin, heresy, unbelief, error, intrigue, sedition, abomination, corruption and infatuation. Again the title of this book is "of the Faith", and presumably deals with matters of faith rather than politics.

On the other hand, the same Hadith is quoted by Al-Bukhari under the heading of "Civil Discord" where Goldzeher's rendering will hold.

(2) Not "with his faith" as Houdas and Marçais translate.

‘As idhullah b. ‘Abdullâh that :

‘Ubâdah b. As-Sâmit (Allâh be pleased with him), who witnessed the battle of Badr, and was one of the delegates on the occasion of the night of ‘Aqabah, ⁽¹⁾ stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said, while a group of his Companions was round him : “Swear allegiance to me that ye will not associate aught else with Allâh, that ye will no steal, commit adultery, kill your children, utter slander which ye have wantonly fabricated in your hearts, ⁽²⁾ nor violate what is right . He of you who fulfilleth this oath shall have his reward from Allâh; and he who infringeth any part of it, and hath his punishment in this life, shall have made sufficient atonement thereby; whereas he who infringeth any part of it, and then Allâh covereth up his sin, ⁽³⁾ is in Allâh’s hands to be pardoned if He willeth or punished if He willeth. ⁽⁴⁾

عَائِدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ عِبَادَةَ
ابْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ
شَهِيدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ
الْعَقَبَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ وَحَوْلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ :
بَايَعُونِي هَلَى أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ،
وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْ لَا دَكُمْ ، وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ
بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلَا
تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ
فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ
شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ
لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ
سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَاغَةً

(1) See footnote (1) page 30.

(2) بين ايديكم وارجلكم “between your hands and feet” is figurative for “in your hearts” or “within yourselves”. as the heart lies between the hands and the feet. (Al-‘Aini)

(3) i.e. his sin does not come to light, and so he escapes worldly punishment.

(4) Sprenger’s version of this Hadith, namely: “If ye transgress it [the oath], ye shall suffer the established punishments, and through these shall ye find atonement ; but if ye conceal the transgression until the Last Day, your fate shall be in the hand of God, ” is untenable, as not being in accordance with the doctrines implied by the Hadith. We are equally unable to follow Houdas and Marçais .

to taste the sweetness of the Faith : that Allah and His Apostle should be dearer to him than anything else ; that his love for his fellow-beings should be solely for Allâh's sake; (1) that he should dread to relapse into infidelity as much as he dreadeth to be cast into hell-fire.

CHAPTER 10

On the Love of the Ansâr (2)
being a sign of the Faith.

We are informed by Abul-walid who had it from Shu'bah who was told it by 'Abdullah b. 'Abdullah b. Jabr, who heard it from Anas, who heard the Prophet (Allâh bless him and give peace) say : It is a sign of the faith to love the Ansâr, and it is a sign of hypocrisy to hate them.

CHAPTER 11

We are informed by Abul-yamân, who had it from Shu'aib through Az-Zuhri, who receive it from Abu Idris

أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ
إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ
كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْذَفَ فِي النَّارِ .

باب : عَلَامَةُ الْإِيْمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ
حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ
قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ
قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ : آيَةُ الْإِيْمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ
وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ

باب : حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قَالَ أَخْبَرَنَا
شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ
قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ

(1) i. e. for no selfish or ulterior motive.

(2) the Ansar, or the first supporters of the Prophet. were so designated by him after the famous oath of allegiance of 'Aqabah; they were twelve in number—two from the tribe of Aws, and ten from that of Khazraj, 'Ubadah being of the latter. The term was also applied to their children, allies and dependents. Special love is commended for them in view of their great sacrifices in the Cause, as is seen in the Qurân, (Sûrah 7, verse 157) "Those who have believed in him, and supported him—these are they who shall attain the consummation."

(See also Surah 3 verse 29) : " If ye love Allah, then follow me and Allah will love you. "

(allah be pleased with him) that the Apostle of Allâh (Allah bless him and give him peace) said :

By him in whose hand is my soul, no one of you is a true believer unless I be dearer to him than his father and his children.

2. We are informed by Ya'qûb b. Ibrahim, who had it from Ibn 'Ulayyah, through 'Abdul-'Aziz b. Suhaib, through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace); we are also informed by Adam, who had it from Shu'bah, through Qatâdah, through Anas, who said that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : " No one of you is a true believer unless I be dearer to him than his father and his children, and all people. "

CHAPTER 9

On the Sweetness of the Faith.

We are informed by Muhammed b. Al-Muthannâ who was told it by 'Abdul-wahhâb Ath-thaqafi, who had it from Ayyûb, through Abu Qilâbah through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who Said:

There are three things, which, if inherent in a man, will enable him

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ.

٢ : حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ عَلِيَّةٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صَهَيْبٍ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ح وَحَدَّثَنَا آدَمُ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

بَابُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ:

(Allâh bless him and give him peace)
 " Which feature of Islam is the best?
 He replied : " that thou give food
 and pronounce the greeting upon
 those whom thou knowest and those
 whom thou knowest not. "

CHAPTER 7

It is a feature of the Faith that
 a man desire for his neighbour what
 he desireth for himself.

We are informed by musaddad
 who had it from Yahya, through
 Shu'bah, through Qatâdah, through
 Anas (Allâh be pleased with him)
 from the Prophet (Allâh bless him
 and give him peace): and also through
 Hussin Al-Mu'allim who was informed
 by Qatâdah through Anas, from the
 Prophet (Allâh bless him and give
 him peace), who said :

No one of you hath true faith
 until he desireth for his neighbour
 what he desireth for himself.

CHAPTER 8

Love for the Apostle (Allâh bless
 him and give him peace) is a feature
 of the Faith.

1. We are informed by Abul-
 Yamân, who had it from Shu'aib who
 received it from Abuz-Zinâd, through
 Al-A'rag, through Abu Hurairah

صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟
 قَالَ: تَطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى
 مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ.

بَابُ : مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ
 مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا بَحْيٌ عَنْ
 شُعْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ
 حُسَيْنِ الْمُعَلِّمِ قَالَ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ
 أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
 لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا
 يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

بَابُ : حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ.

١ : حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قَالَ أَخْبَرَنَا
 شُعَيْبٌ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنْ
 الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

CHAPTER 5

Showing which Muslim ⁽¹⁾ is the most worthy.

We are informed by Sa'id b. Yahyà b. Sa'id Al-Qurashi who had it from his father, who received it from Abu Burdah, b. 'Abdullāh b. Abu Burdah, through Abu Burdah, through Abu Mūsà (Allāh be pleased with him) who said :

When the Apostle of Allāh was asked which Muslim was the worthiest, he replied : "It is he from whose tongue and hand the Faithful are safe".

CHAPTER 6

Showing how the giving of food ⁽²⁾ is a feature of Islām.

We are informed by 'Amr b. Khàlid, who had it from Al-Laith, through Yazid, through Abul-Khair, through 'Abdullāh b. 'Amr (Allāh be pleased with them) that :

A man *once* asked the Prophet

بَابُ ٥. أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ
الْقُرَشِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو
بُرْدَةَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي
مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ
اللَّهِ أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ
الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ

بَابُ ٦: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ حَدَّثَنَا
الْلاِثُ عَنْ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ عَنْ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ

(1) Here الإسلام = أصحاب الإسلام hence Muslims. This is borne out by the reading in Muslim's Collection which runs "أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ" Al-Karmani's interpretation of Islām "features of Islam" is not in conformity with the answer to the question, which assigns the highest virtue to the Faithful and not to the features of the Faith.

(2) The omission of the recipient of the food is intentional, as all forms of hospitality are included, and even the feeding of animals.

CHAPTER 4.

Showing how a true Muslim is one from whose tongue and hand the Faithful are safe.

We are informed by Adam b. Abu Iyâs, who had it from Shu'bah, through 'Abdullah b. Abu-s-Safar and Ismâ'il. through Ash-Sha'bi through 'Abdullah b. 'Amr (Allah be pleased with them) from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said :

A true believer is one from whose tongue and hand the Faithful are safe; and a true Muhâjir ⁽¹⁾ is one who fleeth from what Allâh hath forbidden.

Relating two more *Isnâds*, Abu 'Abdullâh (Al-Bukhâri) states that he also received it from Abu Mu'âwiyah, who had it from Dâwûd, through 'Amir, who heard it from 'Abdullâh, from the Prophet (Allah bless him and give him peace); and also that he had it from 'Abdul-A'âlâ, through Dâwûd, through 'Amir, through 'Abdullah, from the Prophet (Allah bless him and give him peace).

باب الْمُسْلِمُ مِنَ سَلَامِ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ .

حدثنا آدم بن أبي إياس قال حدثنا
شعبة عن عبد الله بن أبي السفر وإسماعيل
عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو رضى الله
عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« الْمُسْلِمُ مِنَ سَلَامِ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا
نَهَى اللَّهُ عَنْهُ »

قال أبو عبد الله وقال أبو معاوية :
حدثنا داود عن عامر قال سمعت عبد الله
عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال عبد
الاعلى عن داود عن عامر عن عبد الله
عن النبي صلى الله عليه وسلم

(1) Muhâjir — a title given to emigrants who joined the Prophet in his Flight.

but he is righteous who believeth in Allâh, the Last Day, the Angels, the Book and the Prophets : who for the love of Him distributeth his wealth among his kindred, the orphans and the needy, the wayfarer, those who ask, and who spendeth it on the ransom of captives or slaves ; who performeth the *appointed* prayers ; who payeth the *prescribed* alms ; who are faithful to their pledges when they have given them ; and those who are patient in distress and affliction and the time of battle. These are they who are true believers and these are they who fear the Lord. ”(1)

And the verse : “ The true believers have attained the consummation ”. (2)

We are informed by ‘Abdullâh b. Muhammad, who had it from Abu ‘Amir Al-‘Aqadi, who received it from Suliman b, Bilâl, through ‘Abdullâh b. Dînâr, through Abu Sâlih, through Abu Hurairah (Allâh be pleased with him), from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

The Faith comprehendeth sixty and a few features ; one of these features is modesty .

الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى
الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرُّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا،
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ. قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - الْآيَةِ.

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا
أبو عامر العقدي قال حدثنا سليمان بن
بلال عن عبد الله بن دينار عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال :

الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ
شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ .

(1) Surah 2, verse 172.

(2) Surah 23, verse 1.

Mujâhid explained it as meaning :
 “ O Muhammad, We have enjoined
 upon thee and upon Noah one
 selfsame Faith. ”

Ibn ‘Abbâs explains *شريعة* as
 meaning ‘ way ’ and ‘ rule of conduct ’

CHAPTER 2.

Ibn ‘Abbâs explains *دَعَاؤُكُمْ* your
 supplication — as meaning “ your
 faith ” (1)

We are informed by ‘Ubaidullâh
 b. Mûsa, who had it from Hanzalah
 b. Abu Sufian, through ‘krimah b.
 Khâlîd, through Ibn ‘Umar (Allâh be
 pleased with them), who stated that
 the the Apostle of Allâh (Allâh bless
 him and give him peace) said :

Islâm is built on five pillars : the
 attestation that there is no deity but
 Allâh and that Muhammad is the
 Apostle of Allâh : the performance
 of the *appointed* prayers, the giving
 of the *prescribed* alms, the pilgrimage
 to *mecca*, and the the Ramadân fast .

CHAPTER 3.

An *exposition* of matters concern-
 ing the Faith, and the word of Allâh
 (be He exalted) : “ It is not *the*
whole of righteousness that ye turn
 your faces to the east and to the west,

أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمَ دِينًا وَاحِدًا .
 وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا :
 سَبِيلًا وَسُنَّةً .

بَابُ دَعَاؤِكُمْ إِيمَانَكُمْ
 حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى قَالَ أَخْبَرَنَا
 حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ عَنْ
 عِكْرَمَةَ بْنِ خَالِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةٍ
 أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ
 وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَالْحَجَّ
 وَصَوْمَ رَمَضَانَ .

بَابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ وَقَوْلِ اللَّهِ
 تَعَالَى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ
 قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ »

(1) Surah 25, verse 77. Ibn Battal points out that supplication leads to more intense faith.

Love in the cause of Allâh and hate in His cause are features of the Faith. And ‘Umar b. ‘Adul-‘Azîz wrote to ‘Adiyy b. ‘Adiyy : “ The Faith hath obligations, doctrines, restrictions, and commendable practices he who observeth them perfectly holdeth the Faith perfect, and he who doth not do so, hath not the Faith perfect. If I live, I shall expound them to you, so that ye may practise them ; and if I die, I shall not be anxious for your company”.

And Abraham said : “ But I ask this that my faith may be strengthened. ”⁽¹⁾

And Mu‘âdh said : “ Let us sit together for a while that we may increase our faith by meditation. ”

And Ibn Mas‘ûd said : “ Certainty is the whole of the Faith .

And Ibn ‘umar said : “ A man doth not attain unto the true essence of piety, ⁽²⁾ until he have cast away the doubt ingrained in his heart. ”

Referring to the verse beginning : “ He hath laid down for you the religion which He enjoined upon Noah’,

وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ
مِنَ الْإِيمَانِ . وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ : إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ
وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا ، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا
اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا
لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ ، فَإِنْ أَعِشَ
فَسَأُيِّدُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا ، وَإِنْ
أَمُتَ فَمَا أَنَا عَلَى مُعْتَبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ .
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : وَلَيْكُنْ لِي طَمَئِنَّةٌ قَلْبِي .
وَقَالَ مُعَاذٌ : اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً .
وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الْيَقِينُ الْإِيمَانُ
كُلُّهُ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ
التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي
الصَّدْرِ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : شَرَعَ لَكُمْ :

(1) See Ibn Hajar.

(2) Or “ faith ”.

Faith comprises word and deed.
It may increase or decrease .

Allâh (be He exalted) hath said :
“ That they may increase in faith
beyond the faith they hold, ⁽¹⁾

and : “ We have increased guidance
unto them, ” ⁽²⁾

and : “ Allâh will grant to them that
have walked in the right way
increased guidance, ” ⁽³⁾

and : “ To them that have walked in
the right way Allah will grant
increased guidance, and will reward
them for their piety. ” ⁽⁴⁾

and : “ That they who have believed
may increase in faith, ” ⁽⁵⁾

and His word : “ *Whenever a surh
is sent down, there are some of them
who say : ‘ Which of you hath had
his faith increased by this Surah ? ’*
It is they that have believed whose
faith hath been increased by it, ” ⁽⁶⁾

and His word (glorified be His
Name) : “ *When it was said to them :*
Fear them , it *only* increased their
faith ”, ⁽⁷⁾

and His word (be He exalted) :
“ It only increased their faith and
resignation. ” ⁽⁸⁾

وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ ،

وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ ،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لِيَزِدَّادُوا إِيْمَانَهُمْ

وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ،

وَبَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى
وَأَتَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ .

وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا .

وَقَوْلُهُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا . فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا .

وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا
وَتَسْلِيمًا .

(1) Surah 48, verse 4.

(2) Surah 18, verse 12.

(3) Surah 19, verse 78.

(4) Surah 47, verse 19.

(5) Surah 74, verse 3,

(6) Surah 9 , verse 125

(7) Surah 3 , verse 167 . The whole verse referred to in the Qur'an is : When certain
men said unto them : “ Now have the Meccans mustered against you, therefore fear them, ”
it only increased their faith.

(8) Surah 33, verse 22.

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

April, 1935.

جامع صحيح البخارى

ترجمه الى الانجليزية

الاستاذ ابراهيم محمد المومى

الاستاذ فى الآداب وعضو الجمعية الاسيوية الملكية ببريطانيا العظمى
والمحاضر بمدرسة التجارة العليا بمناشستر

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

LECTURER, HIGH SCHOOL OF COMMERCE, MANCHESTER.

BOOK II

IN THE NAME OF ALLAH THE
ALL-LOVING THE MOST MERCIFUL.

THE BOOK OF FAITH.

CHAPTER 1.

Of Faith, and the words of the
Prophet (Allâh bless him and give
him peace) : "Islam is built on five
pillars."

الكتاب الثانى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب الايمان

بَابُ الْإِيمَانِ وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِنِ الْإِسْلَامِ عَلَى خَمْسٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

١٨

تطور الأمم فى فهم خير الروابط الاجتماعية

كما أتى الاسلام على أقصى حدود المثل العليا للخصال التى تتعلق بالأفراد فلم يدع بعدها مرمى لرام ، كذلك فعل بالقواعد التى يقوم عليها صرح الاجتماع ، فوضعها على أكمل ما يصل اليه العقل من سمو الأغراض وشرف الغايات . وهذا أمر لا بد منه لدين هو آخر ما تتلقاه الانسانية من الوحي الإلهى .

وقد بدأنا من أول هذه السنة نكتب فى القسم الاجتماعى من مقاصد الاسلام ، فذكرنا فى مقدمتنا روابط الاجتماع المختلفة ، وأبنا أن أساسها الحاجات المادية ، فاستبدل بها الاسلام روابط روحانية قائمة على المبادئ الأدبية الراقية ، والأصول العلوية الخالدة ، فكانت الأمة الاسلامية أول أمة قامت على هذا السمى الإلهى القيم ، وهو سمو اجتماعى لم تصل اليه أمة الى اليوم ، بل هو المثل الأعلى لاجتماع عالمى يضم تحت ظلاله الجماعات البشرية بأسرها ، فتتعم فى بحبوخته بالأمن والسلام العام ، وتعيش مطمئنة عاملة على ترقية مواهبها ، وتنمية مواردها ، فإن اختلفت على شىء ردت الى أصول العدل المطلق ، والحق الصراح .

هذا مبدأ فى أعلى درجات السمو ، وفيه شفاء الانسانية المعذبة من منازعاتها المتوارثة ، فبم تذرع الاسلام لتحقيقه ، وهل يمكن أن يتفق الناس عليه فى يوم من الأيام ؟ دعا الاسلام الى هذه المبادئ ، وأكفى المطالبة بها ، وقام المسلمون بها خير قيام

محفوظين بالروح العالى الذى بثته شخصية النبى صلى الله عليه وسلم وسمو التعاليم التى أتى بها. وهذا فى ذاته يعتبر من أكبر معجزات الاسلام فى نظر علم الاجتماع ، فإن تأسيس رابطة اجتماعية من هذا الطراز فى بيئة لا تقوم روابط جماعاتها إلا على الأغراض المادية المستمدة من أخط الاعتبارات الجاهلية ، لا يمكن أن يسيغه العلم لولا أنه من الحوادث الواقعة . فالواجب على الباحث الاسلامى أن يعطى هذا الوطن حقه من البيان والتحقيق ، ليكون رامياً بذلك الى غرضين (أولهما) ما هو بسبيله من أن الروابط الاجتماعية التى أتى بها الاسلام هى المثل الأعلى الذى ستنتهى اليه الجماعات عند ما تبلغ غاية كمالها . (وثانيهما) التنويه بمعجزة علمية للاسلام بقدرها العلم كل التقدير ، ويقف أمامها حائراً لا يستطيع تحليلها من طريق الأسباب العادية .

والذى دعا الاسلام اليه وأقام جماعته عليه هو جملة ما فى الكتاب والسنة الصحيحة : من وجوب الاسلام لله ، وترك ما عليه الناس من العقائد الباطلة ، والعادات العاطلة ، وتحكيم العقل فى التفرقة بين ما هو حق وما هو باطل ، وتجريد النفس لا إدراك الكمال المطلق ، وترويضها على القيام على سنة العدل حتى حيل أعدائها ، والعمل بمكارم الأخلاق حتى فى منازعة خصومها ، وعلى ترك التعصب للنفس والأهل والأقربين فى تقدير التبعات ، وتقرير الواجبات ، وعلى البر والإحسان والتعاون ، وعلى محو الامتيازات ، وتساوى الطبقات ، والتوحد فى الوجهة والغاية ، الى آخر ما جاء به من ضروب الكمالات العالية .

تألفت أمة فى صدر الاسلام على هذه الأصول العلوية ، فكانت فذة فى كل وجه : فذة فى تركيبها ، فذة فى وجهتها ، فذة فى غايتها ، فذة فى جلاله آثارها . فإن شئت أن تحيط بكنهه الفارق بين ثمرات روابطها الاجتماعية ، وثمرات الروابط العادية التى تقوم عليها الجماعات البشرية ، فقارن بين الشأوالذى بلغته هذه الأمة وبين الشأوالذى انتهت اليه الأمم الأخرى من أول مادون فى التاريخ من التطورات الاجتماعية الى

اليوم، تجد بونا لا يمكن تقدير مدها بحال . فهذه أمة بلغت فى سنين معدودة من طيبات الوجود، وميزات الحياة ، وحقيقة السؤدد، ما لم تبلغه أمة قبلها ولا بعدها فى القرون الطوال ، فقطعت أدوارا من حياتها كانت كلها خيرا وبركة عليها وعلى العالم كله، وتركت آثارا لا يزال العالم يذكرها بها الى اليوم .

ولا عجب فإن أمة تتألف على هذه الأصول من الحقائق الإلهية لى أمة مختارة لإحداث أكبر الحوادث الأدبية والاجتماعية فى الأرض، تصلح أن ينتدبها الحق لرفع الآصار عن كواهل الأمم، وكسر المقاطر التى فى أعناقها، والأغلال التى فى أرجلها، وقد أدت ما طُلب اليها القيام به من هذا العمل العالمى، فكانت مصدر حياة للجماعات البشرية، ومقتبس نور لعقولها وقلوبها، فلاذت بها تستهدى بهديها، وتستمد من حياتها، أجيالا طوالا، وهى الى اليوم تشيد بذكرها، وتعترف بفضلها، وقد صرح بعض كبار رجالها بأن لانبجاة للعالم مما هو فيه اليوم من العلل الموبقة إلا بالأخذ بأصول الاسلام والقيام على سنته الإلهية .

هنا قد يعترض معترض فيقول : إن هذه الروابط التى تذكرها دينية محضة إن قبلت القيام عليها أمة فى دور من أدوار حماسها الاعتقادية، فلا يعقل أن تقوم عليها الأمم كافة وهى متجردة للعناية بأمورها المادية، وماضية فى تطوراتها العلمية والمدنية، وقد أصبح بينها وبين الشئون الروحية بعد المشرقين .

فنجيب هذا المعترض بأن الذى يريد أن يحكم على مستقبل الأحوال البشرية لا يجوز له أن يعتمد بما هى عليه فى عهد الراهن، فيحكم من ذلك أنها لن تبرحه قيد أنملة، فإن فى ذلك إنكارا لناموس التطور الاجتماعى، وحكما على الانسانية بعدم الترقى .

وقد مهد الاسلام لإقامة دولته بإصلاح العقلية الإنسانية، وتقوم نفسياتها، وتخليه الطريق للحق، بهدم كل حائل يقف فى وجهها من عقائد مبطلة، وعادات معطلة، وتقاليد بالية، وشهوات حيوانية متغلبة، فساغ له أن يجعل دولته أمرا واقعا بواسطة المدد الإلهى

المباشر في سنين معدودة . والمتأمل في تطورات الانسانية الآن برمتها يجدها تترسم هذه السبيل الاصلاحية عينها مدفوعة بناموس التطور الاجتماعي ، وعوامل الارتقاء الانساني ، فقد قام (بيكون) في القرن السابع عشر بوضع الأسلوب العلمي في المباحث العلمية ، ففرق بين المقررات التي تؤيدها المشاهدة والتجربة ، وبين الظنون والآراء العلمية ، فعَدَّ الأولى من لباب العلم الصحيح ، واعتبر الثانية افتراضات وقتية قد يقوم على بعضها الدليل من الواقع فيضم للأولى ، وقد يتضح من هذا الواقع نفسه مايدل على فساده فيلغظه الى عالم الخرافات الوهمية . ولم يهمل (بيكون) الى جانب هذا أن ينهج طريقة البحث ، ويبين حدود النظر ، ويحدد وجهات التفكير المنتج ، فكان لعمله هذا أكبر أثر في تقويم العقلية الانسانية بتحريرها من سلطان المسلمات التقليدية .

وقام على طريقة بيكون رجال فنظروا في المذاهب الإلحادية التي كانت تعتبر من مميزات الألمية . فلما أجروا عليها أسلوب التحييص العلمي اتضح لهم أنها مبنية على تحسكات نظرية لا تستند الى علم مقرر ، ولا الى رأى مرجح ، فأعلنوا أنها أدخل في عالم الظنون والأوهام من الخزعبلات الجاهلية التي يدعون أنهم تجردوا منها وترفعوا عنها . وانتدب رجال آخرون للبحث في خصائص الروح الانسانية محفوزين بما كشفه عالم في القرن الثامن عشر من وجود تيار حيوى في الانسان يؤثر به على غيره فيحدث له نوما صناعيا تتجلى بواسطته صفات للروح البشرية تستتر وراء الحالة الاعتيادية ، وتدل دلالة قاطعة بما تأتية من الخوارق على استقلال الروح عن الجسد ، وعلى أن لها حياة بعد هذه الحياة الأرضية . وقد سمي هذا الضرب من البحث بعلم التنويم المغناطيسى . وكان من أثر ظهور هذا العلم أن استبحر البحث في النفس وخصائصها حتى أصبح عدد المشتغلين به من العلماء يبلغ آلافا كثيرة في العالم كله .

أضف الى هذا ما وقر في صدر الناس أجمعين من أن الحروب بعد اختراع أسباب التدمير الحديثة أصبحت خطرا على المدنية . فألهم أهل البصر من كل أمة أن يعملوا

على تسويد الحق على القوة ، وأن يسعوا فى وضع نظام مقرر لحسم المنازعات الدولية
يكون مبنيًا على أصول العدل والنصفه ، لا على شهوات النفس البهيمية من التناحر
وسفك الدماء البشرية .

هذا الانتقال العالمى العام فى مجالات العقل والعلم والبحث ومحاولة التفاهم على أصول
العدل يعتبر تمشياً اضطرارياً تدريجياً نحو تحقيق المثل الأعلى الذى نصبه الاسلام للناس
فى سنين معدودة بفضل المدد الإلهى . وقد نوه القرآن بهذا العهد المنتظر فى آية محكمة
فقال تعالى : «سريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف
بربك أنه على كل شىء شهيد» .

هذا أمر لا بد منه رضى قصار النظر من الماديين أم سخطوا ، وكيف يكون
منه بد وكل ما فى الوجود من حركات عقلية ونفسية يدل على وشك حصوله ؟ فهل
يريد الماديون أن يتخيلوا أن هذه المواهب السامية التى تمتع بها الانسان تعجز عن
أن تصل به الى حال يتفق وحقائقها ، فيبقى جامداً فى عالم الحيوانية لا يبرحه وكل
ماركب فيه من عوامل يدفعه عنها ، ويهيب به للابتعاد منها ؟

نعم لقد عاش الانسان آماداً طويلة يخوض من شئونه فى حماة الجاهلية ، ويحمل
نيرها الثقيل على عاتقه ، وقد اعتاد الخضوع له حتى صار يقاتل زياداً عنه ، ولكن
مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن عوامل الارتقاء ما برحت تتولاه من يوم وجوده
وتسوقه الى التلطيف من خشونته ، والتهذيب من وحشيته يسيراً يسيراً وبدون شعور
منه حتى نقلته الى حالات بينها وبين ما كان عليه بون لا يستطيع تقدير مداه ، بل حتى
خيل له هو نفسه أنه لم يكن على تلك الوحشية فى عهد من عهوده قط .

فأين هو اليوم من ذلك العهد الذى كان فيه لا يعرف للحق اسماً ، ولا للعدل معنى ،
فكان يجرى فى تصرفاته على ما تدفعه اليه الحاجة غير معتد بعقل ولا عاطفة ؟
وأين هو من ذلك العهد الذى كان يعلق الرجل فيه جاجهم قتلاه فى عنقه يحماها
أين ذهب إدلالاً على شجاعته وعظيم بلائه ؟ !

وأين هو من ذلك العهد الذى كان فيه يحمل أبويه إذا طعنا فى السن الى مفازة
لا ماء فيها ولا نبات ليموتا على أسوأ حال ، متحلا بذلك من أعباء إقائتهما ؟ !
وأين هو من ذلك العهد الذى كان يسفك دم أسراه قربانا للوثن الذى يدين له ،
ويبالغ فى الاستكثار من ذلك ، حتى إن أهل مكسيكا الأصليين كانوا قد أقاموا لهم
معبدا على عهد اكتشاف الأوربيين لأمريكا ، فنجروا سبعين ألفا من أسراهم قربانا
لآلهتهم شكرا لها على ما منحتهم من القدرة على إتمام ذلك المعبد ؟ !
هذا كله كان ، ولم يزل حاصل لدى القبائل المتوحشة فى القارات الخمس ، فأين منه
الأمم المتمدنة وهى تبالغ فى تحرى الحق والعدل ، وتغرق فى التوفيق بين العاطفة
والعقل ، وتهلك على وجدان المثل العليا لغرائز النفس ، وتحاول أن تقرن العلم بالعمل
فى كل ما يهديها اليه البحث ؟ !
أليس المتأمل فى هذا الانتقال البعيد المدى يضطر أن يحكم بأن الإنسانية واصله
لا محالة الى ما ترمى اليه من المثل العليا ، وإن بعدت عليها الشقة ، ونأت عنها الغايات ؟
فالمسألة إذن مسألة وقت « ولتَعْمُرَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ » ؟ محمد فريد وجرى

بليغ العظات

قال بعض العظماء لحكيم من حكمائه : عظمى بعظة تنفى عنى الخيلاء ، وتزهدنى فى الدنيا ،
قال : فكر فى خلقك ، واذكر مبدأك ومصيرك ، فإذا فعلت ذلك صغرت عندك نفسك ، وعظم
بصغرها عندك عقلك ، فإن العقل أنفعهما لك عظما ، والنفس أزينهما لك صغرا .
قال ذلك العظيم : فإن كان شئ يعين على الأخلاق الحمودة فصفتك هذه . قال : صفتى دليل ،
وفهمك محجة ، والعلم عليّة ، والعمل مطية ، والاخلاص زمامها . نخذ لعقلك ما يزيّنه
من العلم ، وللعلم ما يصونه من العمل ، وللعلم ما يحققه من الاخلاص ، وأنت أنت . قال : صدقت .

التفسير

سورة الرعد

- ١ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(بسم الله الرحمن الرحيم السمر تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلبقوا ربكم توفنون).

وجهت إلى من عزيز عظيم رغبة في التعرض لتفسير قوله جل شأنه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» إذ كان فيها تنبيه المسامنين على ما كانوا فيه وما آلاوا إليه، مما يرجي أن يكون معه ذكرى نافعة لهم، والذكرى تنفع المؤمنين، بل لأنها تحوى من النواميس الاجتماعية ما يفيد كل أمة تزنها بمقدارها وتستضيء بنورها، فهي على وجازتها كوكب ساطع يشع النور الذي يهتدى به من فتح عينيه، ويسترشد بها من ألقى إليها السمع وهو شهيد.

ولما كانت الآية الكريمة في أوائل سورة الرعد، وقد جمعت هذه السورة من دلائل عظمة الخالق جل وعلا ما يملأ القلوب نورا وإيماناً، ويثلج الصدور ببرد اليقين، رأيت أن أعرض لتفسير السورة من أولها مستمداً من الله المعونة والتوفيق، والله المستعان.

ولنعرض لكلمة وجيزة جدا في تفسير البسملة ، إذ كان الكلام فيها قد تناوله العلماء الأجلاء بالبسط والتطويل ، حتى أفردوا بعضهم بمؤلفات قائمة بها واقفة عند حدها ، ولكن ليس مقامنا هذا مقام الإفاضة والإطالة ، وإنما هو مقام الاجتزاء بأقرب حدود الفائدة ، سهلها الله لنا ، ويسر لنا سبلها ، إنه سميع مجيب :

« بسم الله » الباء هنا للاستعانة ، وليست هي الباء التي تسمى باء الآلة مثل التي تذكر في قوله : كتب بالقلم أو قطعت بالسكين ، فإن معناها في المثالين المذكورين مقصور على أن مدخولها كلمتهم أو الشرط لما تعلقت به من الأفعال . وإنما هي لتبيين المستمد الأول والمنشأ الحقيقي للفعل الذي تعلقت به ، فهي بمثابة الباء التي تسمعها في الاستعالات التي من هذا القبيل — تسمع مثلاً بعض القضاة حين ينطق بالحكم يقول : « باسم الملك حكمت المحكمة بكذا » ومعناه أن القاضي كأنه يقول إني بحسب شخصي لا أملك على هؤلاء الخصوم نفياً ولا إثباتاً ، فإذا سلط عليهم ومكنت منهم فذلك إنما هو مستمد من صاحب السلطة العليا ، وإذا خضعوا لي فإنما هم قد خضعوا لها ، فالقوة التي مكنت بها من إصدار هذا الحكم إنما هي هذه الجهة . ومثلها يقول بعض الحكام لمن رأى منه إجراماً : « باسم القانون أقبض عليك » معناه : إني في سلطتي وهيمنتي عليك ووجوب خضوعك لي أستمد قوة من جهة لا قبل لك بمعارضتها والخروج عليها ، فهي الجهة التي لا تناوأ ، ومصدر الهيمنة التي يجب الخضوع أمامها وتسليم القيادة لمن التجأ إليها .

على هذا النحو نفهم معنى الباء في قول المبتدئ في أمر من الأمور : « باسم الله » فعناه : أشرع في عملي مستمداً القوة والتأييد للنفوذ فيه وإتمامه حسبما أريد من مصدر جميع القوى وواهب كل القدر ، ومسخر جميع العوالم ، ومدبر كل الأمور ، فأنا نافذ في فعلي بقدرة لا قبل لأحد بمعارضتها ولا الوقوف في وجهها . كيف وأنا أعمل عملي باسم الله واهب القوى والقدر ، ومسخر الشمس والقمر ، والمهيمن على جميع البشر ؟

أرأيت كيف تكون هذه البداءة شاذة من عزم صاحبها ، مثبتة من إرادته ، مؤيدة لقوته ؟ فهذا من حكمة طلب الشارع البدء بها في كل أمر خطير ذي بال .

ولعلك ترى أن هذا المعنى الذى شرحناه لا يكاد يتم باستعمال الباء إلا إذا قرنت بلفظ الاسم ، وأننا إذا أتينا بالباء بدون ذكر الاسم عقبها لا تفيد هذا المعنى الذى نشير اليه . واعتبر إن شئت أمثال هذه العبارات : « تجبى الأموال باسم فلان » « تجمع التبرعات باسم فقراء المدينة » « تجمع الاكتابات باسم الجمعية الخيرية » فإنك تجد المعنى فيها وفى أمثالها على ما شرحناه لك . ولا تنوهم أن معنى الباء هنا هو معنى اللام فى قولك إنها تجمع للفقراء أو للجمعية ، كلا ، فإن اللام يشار بها الى الغاية التى يقصد العمل من أجلها ، وأما الباء فإنها تشير الى أنه يستمد القوة فى مطالبته ، من تلك الجهة التى لها فى النفوس أثر خاص ، ولولاها ما استطاع أن يدور جبارا على الناس يستجديهم ويستندى أكتفهم ، فقد كان له من الحياء ما يمنعه أن يعرض وجهه على الناس بهذه الصورة ، إذ لولا أنه يجمع باسم الفقراء ويستمد القوة من الاستناد اليهم ، وأنه يصدد معونتهم ، ما كان له أن يتصدى للطلب من هؤلاء العظماء ، وما كان ليؤبه له أو يلتفت الى طلبه .

أرأيت أن زيادة لفظ (اسم) تفيد معنى لا يستفاد إذا لم تكن هذه الزيادة ؟ وعلى ذلك لا يكون هنا محل للقول إن الاستعانة بالذات لا بالاسم فكيف يقال : باسم الله ؟ ولم لم يقل بالله ؟ ولا حاجة أيضا الى البحث فى أن الاسم عين المسمى أو غيره ، فكل ذلك بمنزل عما يقصد فى مثل هذا التركيب ، فإن الغرض من ذكر الاسم فى مثل هذا هو الرجوع بالذهن الى ما وقر فى نفوس السامعين من تمجيد واحترام وقوة ورهبة لصاحب هذا الاسم ، وكأن لفظ الاسم الغرض منه تحضير المسمى فى نفس السامع بكل ما يتصل به من معانى التبجيل والتعظيم .

ولفظ الجلالة اسم للذات الأقدس الجامع لكل صفات الكمال : من صفات تنزيه

وصفات تمجيد ، فهو مشعر بالعظمة والقدرة والسلطان ، والقوة العظمى التي لا تجاريها قوة ولا تعارضها قوة ، فلا غرو أن اختير من بين أسمائه الحسنى للبدء به استمدادا للقوة والتأييد .

واختيار اسمي الرحمن الرحيم بعدها لأن المستعين يطلب العون من القوى المتين استرحاما لا استحقاقا ، فهو ينادى بلسان حاله : إني أطلب العون وأستمد القوة من الحول والطول من باب الاسترحام ، وهو الرحمن الرحيم الذي لا يضمن على من استرحمه برحمته . وأما هاتان الصيغتان (رحمن) (رحيم) فقد كثر الكلام في بيان الفرق بينهما ، واشتهر أن معنى الرحمن المنعم بالنعم الجليلة العظمى ، كنعمة الوجود والإيمان والتكريم وأمثال ذلك ؛ والرحيم المنعم بالنعم الدقيقة التي تعتبر كالتميم للأولى ، كتيسير عمل جزئي وتتميم حالة فرعية مما يتساهل في أمره . وعلى ذلك يكون ذكر الرحيم بعد ذكر الرحمن من باب التتميم ، ويكون البدء بالأثم ثم يكمل بما يفيد الاستغراق لكل النعم ، وأنه مصدر جميع النعم ما جل منها وما قل . وهو معنى حسن وإن كان يلوح أن أحسن منه أن يرجع في تفسير هاتين الصيغتين الى ما كثرت إرادته والإشارة اليه في استعمالتهما .

إن هاتين الصيغتين (فعلان وفعيل) من صيغ الصفة المشبهة ، أى أنهما يدلان على الذات باعتبار ثبوت وصف لها وقيامه بها . وهذا معنى غير ما يفيد صيغة فاعل ، وهو إيجاد الفعل وإحداثه ، إلا أن بين الصيغتين فرقا يظهر من استعمالهما ، فنجد لفظ فعلان يدل على ذات اتصفت بوصف يبدو عليها آثاره ، مثل قولك فرحان وغضبان وسكران وتعبان وأمثالها ؛ وصيغة فاعيل تدل على الذات المتصفة بوصف قد تأصل فيها تأصل للملكات الراسخة ، مثل كلمة كريم وبخيل وشحيح وشريف ونبييل ، فإنك تعبر بكريم مشيرا الى تأصل صفة الكرم فيه ورسوخها في نفسه بقطع النظر عن كونه يعطى أو لا يعطى ، ومثلها بخيل وشحيح ، حتى لقد يتبرع الشخص أمامك بشيء له خطر وتقول إنه رغمًا عن ذلك هو شحيح وبخيل وإنما يتبرع لغرض في النفس ظهر أو لم يظهر ، في حين أن

آخر لم يتبرع وتقول إنه مع هذا كريم وربما منعه مانع من التبرع كضيق ذات يده أو اشتغازه من الأسلوب الذي يستعطي به أو مماثل ذلك ، ولكنك لا تشير بكلمة فرحان أو غضبان الى شخص سجيته الفرح أو الغضب . ألا ترى الفرق بين قولك غضبان وغضوب مثلاً ؟ ألا ترى أنك تقول إنه غضبان مع أنه ليس بغضوب أو إنه ليس بغضبان مع أنه غضوب ؟ فلا بد لذلك من سبب وما مائل ذلك ، تريد أنه تبدو عليه آثار الغضب وليست ملكة الغضب متأصلة فيه ، وفعل وفعل أخوان .

إذا عرفنا هذا استطعنا أن ننزل عليهما ما نفهمه من صيغتي رحمن ورحيم ، فيكون معنى رحمن من تتجلى آثار رحمته وتبدو للعالم مظاهرها في كل أنحاء الوجود ، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وهو رب العالمين ، يتعهد الجميع بآثار إحسانه وفضله . ومعنى رحيم من كانت الرحمة فيه متأصلة راسخة ، لا من تكون الرحمة فيه معتملة متكلفة ، ويكون البدء بالرحمن لأنه دال على مظاهر الرحمة التي تبدو فتعرفها النفوس ، ثم يستدل بها وبتكررها على أن الإحسان والرحمة ثابتة راسخة كثبوت الملوك الراسخة في النفوس ، والله المثل الأعلى ، وإلا فهو لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ولكنهم التقريب في التمثيل للشرح والتوضيح ، ويكون تقديم الرحمن على الرحيم من باب تقديم الدليل على النتيجة ، فإن ظهور الآثار على كثرة أطراد دليل على تأصل الوصف عند صاحبه . ثم يكون اختيار وصفي الرحمة في البداية — على ما سبق تقريره — لتربية معنى التعلق النفسى بالمعونة الإلهية ، وأن يرجوها بمقدار ما يلاحظ رحمته عز وجل .

ولقد عرضنا لهذه الكلمة الموجزة في تفسير البسملة مع أن الكلام عليها كان يحق أن يكون في طائفة الكلام في التفسير على الإطلاق ، لأننا رأينا أننا بحاجة الى الكلام على الحروف التي تذكر في فواتح السور ، وكان أول ما عرض لنا في هذه الحروف ما نحن بصدد من تفسير سورة الرعد ، فرأينا أن يكون الكلام فيها مع نظيره ، إذ كل منهما مما أفرد عليه الكلام ، ونكتفي به مرة واحدة عن التكرار ، فنقول :

قال الله تعالى : « السمر » :

هذه الحروف الهجائية التي وقعت في أوائل السور قد أطل المفسرون فيها الكلام ، وحكوا فيها خلافاً متشعب الأُقوال . ونحن لا يسعنا أن نجزم بأمر في موضوع تشعبت الأُقوال فيه ودعّم كل فريق قوله بما ظهر له من الأدلة والحجج . وكيف استطاع الجزم فيما قامت فيه تلك المعارك قديماً وحديثاً ، ولو كان للجزم في هذا سبيل لما نشبت تلك المعارك الخلافية ، ودامت بين العلماء تلك الحقب المديدة . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نختار ما يظهر لنا اتضاح وجهه ، مع جواز أن يكون غير ما اخترناه أقرب إلى القبول عند غيرنا ، ولكل وجهة هو موليها . ولذلك فإننا سنفرغ الوسع في حكاية أصول المذاهب ومستنداتها بإيجاز ، ونردفها بما يعنّ لنا اختياره ، والله المستعان :

قد اختلف المفسرون أولاً على قولين : (الأول) أن المعنى المقصود منها سر استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه . و(الثاني) أن المقصود منها معلوم . فأما أصحاب القول الأول فاستندوا إلى أنها من المتشابه ، وأن الوقف على لفظ الجلالة في آية آل عمران : وهي قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، وقوله : « والراسخون في العلم » كلام مستأنف ، فإنه لو كان « والراسخون في العلم » عطفًا على لفظ الجلالة لما كان هناك وجه لمدحهم بالإيمان به المحسكى عنهم في قوله تعالى : « يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا » ، إذ لو كان المتشابه معلوماً لهم لكان إيمانهم به كإيمانهم بكل معلوم لهم فلم يكن فيه مزية خاصة توجب الثناء عليهم بالإيمان به ، بخلاف ما إذا آمنوا بكونه من عند الله وإن لم يفهموا معناه ، فإنه حينئذ يكون من باب الإيمان بالغيب الذي يعطى أنهم كسبت ثقتهم بما أنزل عليهم حتى آمنوا بما فهموا وبما لم يفهموا . وهذا لا يكون إلا من رسخ الإيمان السكلى في قلبه حتى صار يذعن لما لم يفهم استناداً إلى امتلاء قلبه بالإيمان بما فهم . وهذا على قياس أن الله تعالى كلّفنا بأشياء فهمنا حكمتها وسرها فقمنا بها وفعّلناها ، كالصلاة المحققة للعبودية والاستعانة بالله ، وكالكراهة التي تعطف قلوب الأُمة بعضها على بعض ، وكالصوم

الذى يكسر شهوة النفس فيعين على تهذيبها؛ ثم كلفنا مع هذا بأشياء لم نفهم سرها ولم نتبين حكمتها، مثل رى الجرات والسعى والاضطباع^(١) والهرولة في بعض الأماكن. والسرى في ذلك أن الامتثال فيما فهم معناه قد يكون منشؤه الافتناع بحكمته والسعى لتحصيلها، أما الامتثال فيما لم يفهم معناه فإنه يدل على الاتقياد والامتثال للأمر من حيث إنه صادر عن تجب طاعته، سواء أفهم الغرض منه أم لم يفهم، ثقة بأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير لنا كل الخير. ويشبه هذا قول بعضهم في حسن الطاعة وقوة المناصرة:

لا يسألون أخاه حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وقول بعضهم في وصف رجل بطاعة قومه له طاعة عمياء: « هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه ألف سيف لا يسألونه فيم غضب ». فكما أن الامتثال الصادق إنما يظهر حين الأمر بما لم يظهر وجه حكمته كذلك الإيمان الحقيقى إنما يظهر فى الإيمان بما خطبوا به ولم يتبينوا صريح معناه، فكان قصارى أمرهم أن يقولوا آمنا به كل من عند ربنا. وبه تظهر المقابلة بينهم وبين الذين فى قلوبهم زيغ، فإنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فلو كان ابتغاء تأويله من شأن الراسخين فى العلم ما نعى على مبتغيه بتسميته من أهل الزيغ.

وأىضا فإنهم استندوا الى أن الحكمة قد تقتضى اشتغال الكلام على ما لم يتجل معناه حتى تحس النفوس دائما بوجود ما خفى عنها فى طياته، فلا تزال تبحث فى دقائقه وتأمل فى أحنائه وتمظر فى أنثائه، فكما ازدادت نظرا ازدادت هدى وبصرا:

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

وقد جاء فى وصف على كرم الله وجهه للقرآن قوله: « هو الذى لا تنقض عجائبه ». ومعلوم أن وجود ما لم يفهم محرض للنفوس على الدأب فى الاستقصاء والسكد فى التتبع

(١) اضطباع الطائف بالبيت: أن يدخل الرءاء من تحت إبطه الايمن وينطى به الايسر كالرجل يريد ان يمالج أمرا فيتها له.

علما بأن أمامه سرا لا يزال خفيا، فهو يستطلع دائما ما حول ذلك السر . فهذه حكمة ثانية وهي الحث على إدامة التأمل والتفكير، وهي غير الحكمة الأولى التي هي اختبار الإذعان والإيمان بما لم يفهم، وأن ذلك من الإيمان بالغيب . وقد يقرب من هذا ما قاله بعضهم من أن المشركين كانوا يقول بعضهم لبعض : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه . فلما أنزلت السور مبدوءة بحروف لم يفهموا المراد منها ألجأهم ذلك الى الإصغاء، لحرص النفوس على تتبع ما لم تفهم، فهجم عليهم من البيان ما ملأ قلوبهم، وملك عليهم حواسهم فأسروا وبهروا من حيث لم يشعروا . وهذا حكمة للإتيان به، وهو غير كونه معنى مستعملا فيه، فلا يشتبه عليك هذا بذلك .

وأما أصحاب القول الثاني، وهو أن المقصود منها معلوم، فلهم مستند في التزام أنه معلوم، ولهم خلاف في تحديد المعنى المقصود . فأما مستندهم فهو أن القرآن جاء هدى وتبيانا ورحمة كما نطقت به الآيات المتعددة، وهذا لا يكون إلا فيما فهم معناه المقصود منه؛ وقد أمر بالتدبر فيه والاستنباط منه ولا يكون إلا إذا فهم معناه . وأيضا فهو بلسان عربي مبين ولا يظهر ذلك في غير ما يفهم؛ وقد تُحدى به المشركون وكيف يُتحدى بغير مفهوم . وأيضا فالمقصود من الكلام الإفهام، فلو جىء بغير مفهوم لكان عبثا، ولكان كخطابة المرء بغير لغته ولا وجه له .

وقد دفعت هذه الوجوه بأن كون القرآن في جملته هدى ورحمة وتبيانا وبلاغا وعرييا مبينا، الى غير ذلك من الصفات، مما لا يشك فيه مسلم، ولا يستدعى هذا أن يكون كل لفظ منه جاء للدلالة على معنى وضع له، بل قد يكون في الإتيان بما لم يفهم حكمة هي ما بينا في أوجه القول الأول، وناهيك بها حكمة، بل هي مما تؤكد الهدى والنور والرحمة . وهل بعد ما يحمل المعاند على الإصغاء، والغافل على الانتباه، والتأمل على الاستقصاء، هل بعد هذا من حكمة ؟

أما المعنى الذى يقصد منها على هذا القول فقد اختلفوا فيه : فمنهم من قال إنها أسماء

للسور البدوء بها، فطه اسم للسورة، ويس كذلك، وطس، ون، وهلم جرا، إلا أن بعض الأسماء مشترك بين عدة سور، كما وقعت تسمية أشخاص متعددين باسم محمد أو عبد الله مثلاً، فحتاج الى ما يميزها عن بقية السور المشاركة لها في هذا الاسم، شأن الأشخاص المتعددين يسمون باسم واحد مشترك بينها.

وقد استند أصحاب هذا القول الى أنها لو لم تكن أسماء للسور لكانت إما أسماء لمعاني خاصة وهو ما لم تساعده أوضاع اللغة، إذ ليست دالة على شيء أصلاً، وهو مما يؤدي للعبث وبالتأمل فيما سبق تعرف أنه يجوز أنها لم يفهم عين المقصود منها، ولا يكون ذلك عبثاً، بل أتى بها للحكمة السابقة، وهي الحمل على الإصغاء أو على مزيد التأمل والاستقصاء. ومنهم من قال: بل هي اسم للحروف الهجائية التي وضعت بإزائها، ويكون الغرض إفهام المخاطبين أن ما سيتلى عليهم مما أعجزهم إنما هو من جنس حروفهم التي يتخاطبون بها ويتداولونها، فلم يداها بما هو بعيد عن متناول قدرهم، بل جيئوا بما ألفوا وبهتوا بما عرفوا. فهل أعجزهم إلا هذا التأليف الذي بنوا أعمارهم على مزاولته، وأحيوا ما آثرهم بالتفاخر به؟ فكيف قعدت بهم القوة عن مجارة هذا الذي لم يتجاوز ما لو فهم ومعروفهم؟ فيكون المقصود منه مزيد تقريرهم بالعجز، عسائم ثور حميتهم فيتحرکوا لمحاكاته حتى يفتضحوا عجزاً ويمتلئوا بهراً.

أو أن الغرض من الإتيان بها الدلالة على انقطاع كلام والشروع في آخر، وقد كان من عادة العرب إذا انتهوا من كلام وأرادوا الشروع في آخر أتوا بشيء جديد يجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على انقطاع السابق والشروع في الجديد. وقيل: بل الغرض القسم بهذه الحروف لإظهار شرفها وفضلها، إذ هي مبنى كتبه المنزل وأساس الهدى والنور والرحمة المهداة، فمن حقها التنويه بقدرها.

وقيل: بل هذه الحروف إشارة الى أسمائه تعالى وصفاته، أو إشارة الى اسمه جل شأنه واسم رسله. فعلى الأول كأن الألف إشارة الى أحد، واللام إشارة الى لطيف،

ولم يمس إشارة الى مجيد أو منان ، والرء إشارة الى رحمن رحيم مثلاً ؛ أو كأن معناها أنا الله أعلم وأرى . وعلى الثانى تكون الألف إشارة الى لفظ الجلالة (الله) واللام إشارة الى جبريل ، ولم يمس إشارة الى محمد ، والرء إشارة الى الرحمة ، فكان المعنى : الله أرسل جبريل الى محمد رحمة بالأمة .

وهكذا تجد هذه الأقوال كأنها استلهم إشارى لا يبنى على قاعدة ثابتة .
والذى نختاره إما القول الأول وهو أنها مما استأثر الله بعلمه ، وحكمة الإتيان بها ما شرعناه ؛ وإما أنها اسم للحروف الهجائية تنبيهاً على أن الإعجاز ما جاء إلا من جنس ما تتناوله قدركم ، فيها عارضوه إذا تهياً لكم ، وحاشا أن تصل الى ذلك قدركم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا ومن اللطائف أن عددها بعد حذف المكرر أربعة عشر ، وذلك نصف عدد حروف المعجم على قول عدم الاعتداد باللام ألف ؛ وأنها فى تسع وعشرين سورة عدد حروف المعجم على القول الآخر ، وأنها تشتمل على نصف أصناف الحروف ، ففيها نصف حروف الهمس المجموعة فى قوله : « فثمة شخص سكت » ونصف الحروف الشديدة المجموعة فى قوله : « أجسد قط بكت » وكذا نصف حروف الاستملاء والإطباق والجر ، كما يعلم ذلك من فن التجويد .

قال تعالى : « تلك آيات الكتاب » :

اسم الإشارة واقع على آيات السورة الكريمة ومنها هذه الآية ، وذلك غير ممتنع ، ويجرى على نمطه ما يكون من بعض الشعراء ، إذ يضمن قصيدته أبيتاً فى وصفها وهى جزء من القصيدة ، فكانه يقال : إن ما يتلى عليك من الآيات التى هى حاضرة أمام مسمعك وقد شرع فى بعضها وأنت بصدد سماع البعض الآخر ، هى آيات الكتاب ، أى هذه هى الآيات الحقيقة بأن تسمى آيات ، فكانها استحوذت على الجنس كله بحيث منعت غيرها من أن يستحق التسمية بهذا الاسم ، على أسلوب قولهم : هذا هو الكلام ،

وأنت الرجل من بين الرجال ، يراد بذلك أنه استأثر بأن يكون هو الجنس لا غيره ، وذلك من أساليب المبالغة في الوصف بالسجالات .

والآيات جمع آية وهي في الأصل العلامة والأمرة ، تقول لرسولك : قل لفلان بآية ما بينك وبينه من كذا يطلب اليك أن تصنع كيت وكيت ، فتشير بالآية الى علامة تعرفها أنت وهو فقط وتجعل ذلك دليلاً على صدور الرسالة منك اليه ، وأن الرسول صادق في التبليغ عنك . وإنما سميت آيات الكتاب العزيز آيات لأنها علامات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإما كل آية منه وحدها علامة لا يحجازها وذلك في الآيات الطوال ، وإما كل آية انضمت الى آية أخرى أو آيتين أخريين معجزة ، فالحمد المعجز في القرآن هو الآية الطويلة ، أو الآيات الثلاث القصار التي تبلغ مقدار الآية الطويلة ، ومثلها الآيتان المتوسطتان في الطول بحيث تبلغان مقدار آية طويلة أو ثلاث آيات قصار . والكتاب في الأصل بمعنى المكتوب كاللباس بمعنى الملبوس ، وأصله من كتب بمعنى جمع يقال : كتب الأديم أي جمع بعضه الى بعض ، اشتهر عرفاً في جمع الحروف بعضها الى بعض ، وأطلق هنا على القرآن الكريم ، ولوقبل أن يكتب باعتبار ما يؤول اليه ، فإنه يصدد أن يكتب . وحاصل المعنى - والله أعلم - بعد أن قرع سمعهم بهذه الحروف التي توجب انتباههم وشدة تطلعهم بما تفجأ أسماعهم من الغريب عليهم ، أو بما تستفز قواهم من التحدى بجنس ما يعرفون ويألفون ، قال لهم : إن هذا الذي يتلى عليكم هو آيات الكتاب ، وهو الذي يستحق أن يسمى بالآيات وبالكتاب الحق الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قال تعالى : « والذي أنزل إليك من ربك الحق » :

الاسم الموصول مبتدأ والحق خبر . والمعنى أن الذي أنزل إليك من ربك الذي خلقك وسواك وأدبك ورباك وأعانك على ما ندبك اليه هو الحق لا يمدوه ولا يحيد عنه . وهذه الآية من التي قبلها إما بمنزلة الاستدراك ، كأنه لما قيل في الآية الأولى :

تلك آيات الكتاب وربما توهم منها نفى السجالات عما عداها من آيات الكتاب ، دفع هذا التوهم بأن الذى أنزل اليك من ربك كله الحق فلا مطعن . فى شئ منه . ويشبه هذا ما يروى عن أم البنين وقد سئلت أى بنيك أفضل ؟ فقالت : « ربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس : نسكتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ! » لم ترد بذلك الحيرة وجهل حالهم ، وإنما أرادت من أول الأمر أن تفيد التنهيص على أن لكل منهم من الفضل ما لا يحيط به الوصف ، وتنص على استحقاقه فضلا عظيما ؛ ثم عادت فنفت نقص أحد منهم عن أخيه ، وأجلت ذلك فقالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . وهذا أسلوب من الأساليب البلاغية التى لا يخفى مغزاها . ويصح أن تكون الآية بمنزلة التأكيد المقرر لمضمون سابقها ، ويكون المعنى : كيف لا تكون تلك هى آيات الكتاب البالغ من السجالات كل مبلغ مع أنها من المنزل عليك من ربك ولا ينزل عليك من ربك إلا الحق ؟ أو تكون الآية لوصفها بالسجالات البلاغى والاعجاز فى الأسلوب ، والآية التالية لبيان كمالها فى الحق والصدق ، وهو نوع آخر من صفات السجالات وأى كمال ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

هذا وجملة « والذى أنزل اليك من ربك الحق » جملة معرفة الطرفين تفيد قصر الحقيقة على ما أنزل على نبيينا صلى الله عليه وسلم ، ولا يلزم من هذا نفى الحقيقة عما أنزل على غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، لأن الغرض من هذا القصر إفادة أنه عريق فى الحقيقة والمباغة فى السجالات ، على حد قولهم : أنت الرجل ، على ما سبق تقريره . على أن حقيقته مستلزمة لحقيقة ما أنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . كيف وقد وصف القرآن بكونه مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ؟ قال تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » :

هذا من باب الزجر والتهديد والنمى على الأكثر من الناس أنهم دائما مغلوبون لهوهم ، فترى حبهم للعاجلة وتركهم للآخرة وكراهيتهم لما يقيد من تصرفاتهم ويكبح

من شهواتهم وميلهم الى الاسترسال في الهوى والاندفاع في بلوغ المآرب الخسيسة والشهوات الحيوانية ، كل أولئك يحملهم على الانصراف عن النظر الصحيح والتفكير الصادق الذى يتبينون به الرشد من الغي والهدى من الضلال . وطالما أفسد الهوى على الانسان تفكيره ، وكانت الميلول مقربة للبعيد ومبعدة للقريب ، فلا غرو أن يتضح الحق ويظهر السكّال فى الآيات ، ثم تنصرف النفوس عن الإيمان به تفاديا مما يحد حريتها ويقيد تصرفاتها ويحول بينها وبين خسيس لذائذها . هذا أمر مرجعه نقص فى طبائعها لاخفاء فى طرق هدايتها . أى فلا يهولنك أيها المتأمل المدعو للاستبصار كثرة الضالين الغاوين ، بل نقّ نفسك من الحوائل التى تصرف نظرك عن إدراك الهدى ، تجد الأمر واضحا جليا ، والكتاب بينا والصراط سويا .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لإدراك الهدى ، والسير على الصراط المستقيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

عهد المهدي لابنه موسى

لما أسند أمير المؤمنين المهدي ثالث خلفاء بنى العباس الى ابنه موسى ولاية خراسان ، قال له كلاما حسنا نجترى منه بما يأتي :

« أى بنى ! إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصبا ، ولمثنى أعطاف الرعية غاية ، فحسنك شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر . فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فان الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضاه ، وليس بكافيك من يسخطه عليك إثارك رضا من سواه .

» ثم اعلم أن الله تعالى فى كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، يجدد جبل الاسلام بدعواهم ، ويشيد أركان الدين بنصرتهم ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم فى حدائق نعمتك .

أى بنى ! ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل فيها ، واستجلب مودتها بالانصاف لها .

المحبة وأنواعها

ذكرنا لك شيئاً في العدد السابق عن المحبة وآثارها وفوائدها وما جاء فيها . واليوم نذكر لك أنواع المحبة ونتغلغل بك في حديثها (وأى حديث ألد من حديث المحبة ؟)
ولسنا نقول ما يقول ذلك القائل الذي يؤمله أنه لا يجد من يطارحه حديث المحبة :

ما بالديار أخو شوق نطارحه حديث نجد ولا خل نصافيه

ولنعد الى الموضوع فنقول :

من أنواع المحبة محبة الوالد لولده . وهي تسكاد تكون لا لغرض ولا علة ، لأنها من قبيل محبة الشخص لنفسه ، فإن في بقاء ابنه نوع بقاء له . وقد ينضم الى ذلك توهم المنفعة من الولد ، فهي طبيعية لا يشذ عنها إلا من خرج عن مقتضيات الطبيعة .

ومنها محبة الولد لوالده . وهي تسكاد تكون من قبيل محبة العلل والأغراض ، حتى إن من الأولاد من يفرح عند موت أبيه أو لا يتألم لما ترك وراءه من ثروة طائلة . ولعل ابن الفقير يحزن على أبيه أكثر من ابن الغنى . وأما ما تجده من احترام الأبناء للأباء والقيام بواجبهم فرجه في الغالب الى مزيد أدب ، أو حسن تربية ، أو دفع معرة وانتقاد ، أو توهم منفعة وحصول غاية ، لا الى مودة ومحبة . ولهذا ترى القرآن الشريف قد اعتنى بوصية الأبناء على الآباء شدة الاعتناء ، وترك الآباء ينساقون نحو الأبناء بسائق المحبة الطبيعية .

فيجب على الأولاد أن يقولوا في نفوسهم محبة آبائهم ، وأن يتفكروا فيما كان لهم من إحسان لا يسمح به غيرهم ، فيقابلوا المحبة بالمحبة والإحسان بالإحسان ، وأن يكرروا على مسامعهم ما جاءت به الآيات والأحاديث ، وما رسمته الأخلاق والآداب في ذلك .
ويلزمنا أن نكتفي منهم بهذا الحب التكملي ، حيث لم نظفر منهم بالحب الطبيعي ، وهو كافل للمراحة وكاف في الصفاء .

ولنذكر هنا ما ذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى : « وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » فنقول :

روى ابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رضا الله تعالى في رضا الوالدین ، وسخط الله تعالى في سخط الوالدین » . وقد صح أن رجلاً جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد معه ، فقال : أحى والدك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد . وما أحسن ما قال بعضهم :

غذوتك مولوداً ومُنْتَكَ يافعاً	تعلُّ بما أجني عليك وتنهلُ
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لستقمك إلا ساهراً أتملُ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طُرقت به دونى فعينى تهملُ
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجلُ
فلما بلغت السن والغاية التى	البها مدى ما كنت فيها أوملُ
جعلتَ جزائى غلظة وفضاظة	كأنك أنت النعم المتفضل
فليتكَ إذ لم ترع حق أبوتى	فعلت كما الجار المجاور يفعل
تراه محبباً للخلاف كأنه	برد على أهل الصواب موكلُ

وكان ذلك فيما يروى بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : للولد : « أنت ومالك لأبيك » . كذا رواه البيهقي في الدلائل ، والطبراني في الأوسط والصغير في قصة طويلة . وروى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » في قصة جرت له مع أعرابي كان أبوه يود عمر ابن الخطاب .

محبة الوُصْرَقاء :

ومنها محبة الأصدقاء . ولا بد للإنسان من صديق يأنس به ، ويلقى عليه بعض همومه ،

وقد خلق الانسان ضعيفا ، حتى إنه لا يستطيع أن يكتسب ما في صدره من فرح أو ترح ، وهو على نفسه أشق من الأثقال الحسية ، فإن هذه على جسمه وتلك على قلبه :

ولا بد من شكوى الى ذى صداقة يسليك أو ينسيك أو يتوجع
وقد قيل لبعض الحكماء : أخوك أحب اليك أم صديقك ؟ فقال : إني لا أحب
أخى إلا لكونه صديقى .

وكثيرا ما تسمعهم يقولون : إن الصديق محال الوجود . حتى إذا أردت أن تبالغ
فى أمر قلت : هو من رابع المستحيلات ، وأما الثلاثة فهى مقررة معروفة لا نزاع فيها :
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنفاء والخل الوفى
ويقول غيره :

سمعنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد فى الأنام
وأحسبـه محالا نتمقوه على وجه المجاز من الكلام
وهاك شيئا مما قالوه فى هذا الموضوع ، نرده لك تفكها أو تبصرة :

تغير إخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة وقد داخلتهم صروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطلع باب البـدل

* *

خذ من دنا وتجاف من بعدا لا تكرهن على الهوى أحدا
قدأ كثرت حواء ما ولدت فإذا جفا ولد نخذ ولدا

* *

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم تُرِنِ الأيام خلاً تسرنى مباديه إلا ساءنى فى العواقب

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

*
* *

إذا ماضع منك اليوم خل فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فإن الخل عبء أى عبء فهما اسطعت أن تلقيه فاطرح

*
* *

إذا قيل فى الدنيا خليل فقل نعم خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وإن قيل فى الدنيا جواد فقل نعم جواد ركوب لا جواد عطاء
الى غير ذلك وهو كثير . وسر ذلك أن الانسان يطلب صديقا لا يتغير بحال ،
ولا يتصف بعيب ، يقدمك على نفسه ، ويتحملك فى كل ما تأتى به ، كما قال قائلهم :

إن أخا الانسان من كان معه ومن يضر نفسه لينفعه
ومن إذا ريب الزمان صدعه شئت فيه شمله ليجمعه

ومن الغريب أنه يوجب ذلك على صديقه له ولا يوجب على نفسه لصديقه . ولكن
إذا كانت الصداقة مبنية على تشاكل فى الأرواح ، وصادفت مع هذا استعدادا حسنا ،
كانت الأمانة المطلوبة ، والبغية المرغوبة . وإذا تكمل إيمان المرء وجدت فيه
كل ما تحب من صفات الخير وسجايا الفضل ، حتى يقدمك على نفسه كما تحب ، فإنه إذا
وصل الى درجة الكمال كان من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .
ولا شئ يعلى الهمة ويعظم المروءة ويورث الرحمة ويغرس فى القلوب المحبة مثل
الايمان الكامل . فإذا اشتاقت نفسك الى ذلك الصديق فاطلبه بين المؤمنين ، فعسى
أن تجده فيهم ، فهم مظان وجوده .

على أنه يلزمك أن تكتفى من صديقك بفضيلة من الفضائل ، وتغتنفر له فى جانب
ذلك ما يكون منه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ولا تطلب أن يكون جامعا لكل فضل ، مبراً من كل نقص (وإذا كان من هذه صفاته ممن يدخل في عالم الوجود فاجتهد أن تكون أنت ذلك الانسان) .

فالخلاصة أنه يلزمك أن تعرف الطبائع البشرية ومقتضياتها ، ولا تطلب ما ليس في طبع الانسان ، وأن تكسفي ممن يكون صديقك بجهة من جهات الخير ، ثم تقبله بعد ذلك على ما فيه من عيب ، وتتحرز منه في الجهة الأخرى (جهة الشر الذي فيه) .
فاذا ظفرت بمن يغلب خيره على شره ، فقد ظفرت بالخير كله .

محبة الوطن :

حب الوطن يكاد يكون ألصق شيء بالنفوس ، حتى إنه ليلتحق بغرائرها المجدولة عليها . وقد قرن الله الخروج من الأوطان بالقتل فقال : « ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . فلولاً أن حب الوطن متأصل في النفوس ما جعل الخروج من الأوطان قرين القتل . وقال في آية أخرى حكاية عن بني إسرائيل : « وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » . ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه حنيناً الى وطنه الذي نشأ فيه ، وشوقاً الى تلك المعاهد التي ربي فيها ، وميلاً طبيعياً الى ذلك الصفاء الذي أخذ من قلبه محلاً لا تعفيه الدهور :

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
عهوداً مضت فيها فحنوا لذلك
ومحبة بلادك التي غمرتك بخيراتها ، ومحبة أمتك التي تسعد بسعادتها وتشقى بشقائها ليست في الحقيقة إلا محبة لنفسك .

وإن الأمة لا تكون أمة تتمتع بحقوق الأمم الحية ، وتأمن على نفسها من الانحلال والفناء في الأمم الأخرى ، إلا إذا رسخت فيها محبة الوطن .

وقد ندبك الدين الحنيف الى محبة الناس كلهم والرحمة بهم ، ولكن على درجات مخصوصة وحدود محدودة . والانسان الكامل هو من لا تختلط عليه الأمور ولا تشتبه

لديه الخيرات بالشرور ، فيعرف مراتب المخلوقات ونسبتها اليه ، ومقدار قربها وبعدها من خالقها ، فيعطى كل مرتبة حقها ، وكل درجة قسطها ، ملاحظا معاملته الله لهم ورحمته بهم ، وأنهم مخلوقاته ، فلا يجهل نسبتهم ، ولا يظلم رتبهم . ومن أحب الصانع واعتقد كماله ، أحب الصنعة لا محالة .

وللأشياء جهات وحيثيات يجب أن تراعى كلها في نظر الحكيم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » فن شاركك في الانسانية كان له عليك حق واحد وهو حق الانسانية ؛ ومن شاركك في الايمان أيضا فله عليك حق الانسانية وحق الايمان . فإن كان مع هذا أحد من ينتمى اليك بالقربة ، كان له عليك حق القربة أيضا . فإن انضم الى ذلك كونه جارا لك انضم الى تلك الحقوق حق رابع ، وهكذا . وأهل تلك الدرجات متفاوتون أيضا ، فمن كان أقرب اليك كان أعظم حقا عليك ، ومن كان ألصق بك من جيرانك كان أوجب مراعاة من غيره ؛ ومن صنع معك خيرا من أولئك الأقارب أو الجيران كان حقه عليك آكد ممن سواه : « من صنع معكم معروفا فكافئوه » « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . فإذا أهل وطنك لهم عليك حقوق كثيرة ، وواجبات عديدة ، على حسب ما شرحنا . ولعلك من أوسع الناس علما بهذا الموضوع (موضوع محبة الوطن) فلنقتصر منه على هذا .

ولكن لا بأس بعد ما تقدم أن نسوق اليك فائدة أخرى : وهى أن الانسان إذا لم يكن بين من يميل اليهم من أشكاله فهو غريب وإن كان فى وطنه ، فإن معاشرته من ليس بينك وبينه مناسبة أثقل على الأرواح من كل شئ . وقد قالوا : إن محي الروح بمجاسة الثقل الذى يباينك وتباينه ، وأنشدوا فى ذلك :

وما غربة الانسان فى البعد والنوى ولكنها فى قرب من ليس من شكلى
وإنى غريب بين بست^(١) وأهلها وإن كان فيها موطنى وبها أهلى

(١) بست بالفتح : واد بارض أدبل ، وبالضم : بلد بسجستان . كذا فى القاموس .

محبة الله عز وجل :

قد سبق لك أسباب المحبة ، وأن كل سبب منها يوجب المحبة على انفراده ، وإن كان بعضها أقوى من بعض . فإذا أمكن أن تجتمع هذه الأسباب كلها في شيء واحد ، وجب أن تكون محبته أتم أنواع المحبة وأكثرها وأشدّها ، ولا يتصور ذلك على الحقيقة إلا في الله تعالى ، كما ستعلم : « والذين آمنوا أشدّ حباً لله » . فإذا نظرت بعين التحقيق وصادفك نور التوفيق ، وجدت كل سبب من الأسباب المتقدمة يقضى عليك بحب الله تعالى ، بل إذا دقت النظر وأمعنت الفكر ، ورقت كثافة حجابك وعلوت عن أرض طبيعتك ، وترقيت عن درجة المحسوسات التي يشاركك فيها جميع الحيوانات ، إلى أفق قلبك ، وأشرقت عليك شمس بصيرتك ، وجدت المستحق للمحبة على الحقيقة إنما هو الله تعالى دون غيره .

فإذا كان الإحسان يقتضى محبة المحسن ، فلا إحسان كإحسانه تعالى : « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » فإحسانه عليك في إفاضة وجودك ، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكمالياتك : من عقلك ، وسمعك ، وبصرك ، وذوقك ، وجميع حواسك ، وصفاتك الظاهرة والباطنة ، وأنواع النعم الخارجة عن ذاتك ، مما تندفع به ضرورتك ، أو تزول حاجتك ، أو تتم به لذتك — هذه الاحسانات الفائضة ، والممن المتواترة ، لا تكاد تحصى أصنافها فضلاً عن جزئياتها . ولو نظرت إلى نعمه المودعة في الهواء أو الماء ، أو نور الشمس والقمر ، وخلق الليل والنهار ، لا تقطعت أثناء سيرك ولم تقز إلا بقدر يسير منها ، بل لا إحسان في الحقيقة إلا له تعالى ، فإن من أنعم عليك من الخلق بشيء ، فإنما يقصد نفع نفسه بارتفاع الصيت وجميل الثناء أو حسن الجزاء ، فهو في الحقيقة بائع أخرج من يده شيئاً ليعتاض عنه ما هو أعز منه عنده عاجلاً أو آجلاً . ولا يتصور الإحسان الحقيقي الذي لا يقصد به عوض إلا من الله تعالى . على أنه هو الذي سخر لك قلب ذلك المحسن ، وأودع فيه محبتك ، أو الشفقة عليك ، أو رجاء الخير

من الله، أو من الناس بمساعدته إياك. ولو شاء لعكس كل ذلك وصرف قلبه عنك، وألقى في روعه ما ينفره منك (والقلوب بين أصبغين من أصابع الرحمن) .

فإن كنت تحب أحدا لأجل إحسانه فاعرف المحسن الحقيقي ؛ ولا يكن نظرك كمنظر الحيوان يحب سائسه الذى يقدم له العلف ، ولا يحب مالكة الذى أمر السائس وأعطاه على ذلك أجرا .

وإن كنت تحب وجود نفسك وبقاءها وكما لها ، فأحب من أعطاك ذلك كله من غير أن تسأله . بل كان في تديرك من قبل وجودك ، وقد أعطاك من كمال الخلقة الظاهرية والباطنية ما لا يمكنك أن تهتدى إليه حتى تطلبه منه .

وإن كنت تحب أحدا من أجل صفاته الجليلة ونعوته الجميلة كما تحب الملوك العاملين أو الفضلاء الكاملين وإن لم ترج خيرهم والانتفاع بهم ، فأحب خالق الكمال والجمال الذى تنزه عن كل نقص ، واتصف بكل صفات الكمال ، التى لا يصل إليها العلم ، ولا يحيط بها العقل ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وإن كل من تحبه لهذا السبب فإنما تحبه لصفات معدودة وكالات معدودة . فلتكن واسع النظر ، نافذ البصيرة ، على الهمة ، عظيم العلم ، كبير الفهم ، حتى تحب من لا تعد صفاته ، ولا تنتهى كمالاته . ولا تكن كالصبيان لا يمكنهم أن يحبوا من طبقات الناس إلا أسفلها وأدناها ، دون أشرفها وأعلاها . وأنت مستعد لإدراك الجمال المعنوى والكمال الإلهى ، وهى خاصتك التى امتزت بها عن سائر الحيوان . وعلى قدر ذلك تلتحق بالملائكة ويتحقق فيك روح الانسانية .

وكل من بطلت فيه خاصة نوعه فليس فى الحقيقة من ذلك النوع ، لأن النوع لا يوجد بدون خاصته على الحقيقة ، فهيج من نفسك الشوق الى تلك المعارف التى هى ألد من كل شئ ، ولا تُمت تلك الحاسة الباطنية التى هى أعلى حواسك وأشرف مزاياك . فلهذا العلم عند ذوبها فوق اللذائذ كلها ، لأنها لا توجد إلا فى سماء الانسانية دون

أرض الحيوانية . والذائد مرتبة على حسب درجات العوالم ، ولذة العلم بعد ذلك على قدر ما تدرك من شرف المعلوم . فليس علمك بأسرار الملك وشئونه في مملكته كعلمك بأحوال رجل من السوقه . فإذاً يكون العلم بأشرف المعلومات ألد العلوم . وليس هناك أجل من الله تعالى الذي لا يثنى عليه حق ثنائه غيره ، ولا يحيط بكامله سواه .

فطهر قلبك من أدناس الرذائل كلها ، وهيته لغرس تلك المحبة التي هي أتم اللذات وأكبر السعادات ؛ وهي مطلب قلبك لو كان باقيا على صحته ، ومأرب روحك لو لم تتشعب بها الطرق وتظلمها الأهواء « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وإلا فأنت المخاطب بقول القائل :

لديك جمال الجامدات فهم بها إذا كنت ميالا الى الصور الخرس
هذا ويحمل بك ها هنا أن تعرف أن المحبة أنجع وسيلة الى تهذيب الأخلاق
وتكميل النفوس ، بل إن شئت فقل إنها تقلب الطباع وتغير الحقائق : فتجعل الشحيح من أسخى الأسخياء ، والجبان من أشجع الشجعان . فإذا اتفق لك أنك وصلت الى حد السكالم في محبة الله تعالى ومحبة رسوله ومحبة الكاملين من أمته ، سارعت اليك السكالات ، وترادفت عليك الخيرات ، وانطبعت في مرءاة قلبك صفاتهم ، فتبدلت منك الرذائل بالفضائل . وعلى قدر المحبة يكون انطباع صفات المحبوب في نفس المحب . وقد عرفوا المحبة بأنها استهلاك الصفات في الصفات ، وفناء الإرادات في الإرادات :

فلم تهوني ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتي
وقد عرفت أيضا بأنها نار تحرق من قلب المحب الميل الى ماسوى المحبوب :
وحّد القلب حبه فالتفتى لك شرك ولا أرى الاشراكا
وناهيك بمن وصل الى تلك الدرجة من محبة الله تعالى ومحبة رسوله : كيف تترادف عليه البركات ، وتغمره الفيوضات ، فيستحق من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واذ كر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » . واعرف شرف تلك المعية وما لذويها من الدرجة العلية . فالحب أكبر وسيلة من وسائل الخير والكمال . كما أنه أعظم ذرائع الفساد إن تعلق بغير ذلك . فهو ترياق نافع ، وسم نافع ، على حسب ما يتعلق به من المحبوبات . ويكفيك هذا التلميح . والله يتولى هداك

يوسف البرموي
من هيئة كبار العلماء

في الحث على بذل المال

قال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصطناع المعروف يقي مصارع السوء » وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الاخلاق ويبغض سفاسفها » .

وقال اكنم بن صيني حكيم العرب : « ذللوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها الى المحامد ، وعلموها المكارم ، ولا تقيموا على خلق تدمونه من غيركم ، وصلوا من رغب اليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر » أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغني وما كنت تعدو الذي تصنع

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسيخاء يأمره بالبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر . فرد عليه يقول : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » . وإني أكره أن أترك أمرا قد وقع ، لأمر لعله لا يقع » .

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر : « أيها الناس عليكم بالمعروف فان الله لا يعدم فاعله جوازيه ، وما ضعفت الناس عن أدائه قوى الله على جزائه » .

وقد أحسن الخطيئة حيث قال وفيه معنى قول خالد المتقدم :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : « من رزقه الله رزقا حسنا فلينفق منه سرا وجهرا حتى يكون أسعد الناس به » .

خطبة الأستاذ الأكبر في الجامع الأزهر

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي فزار العلماء وطلاب العلم في الجامع الأزهر ردا لزيارتهم له بمناسبة تقلده منصب المشيخة الجليلة ، فكان يوما تاريخيا مشهودا ، حضره بضعة ألوف من أهل العلم والطلبة والأهلين ، ونهض فضيلته بجوار الأداة المكبرة للصوت فألقى خطبة لا نبالغ إذا قلنا إنها أجمع خطبة طرقت مسامع الناس في بيان مكانة الأزهر من الجامعات الإسلامية ، ومحل أهله من حفظ الدين ، وفي تجلية أصول الاسلام الاولية ، وما اشتمل عليه القرآن من الحث على تناول جميع ما ثبت من الفتوحات العلمية ، وما يجب على العلماء من العمل على تطهير الدين مما ألصق به من البدع . ثم نبه فضيلته الى وجوب تغيير طريقة عرض المقررات الاسلامية بالباساحلة عصرية شائقة لتنجذب النفوس اليها قائلا : إن فيها ما يعتبر اليوم أحدث النظريات عند رجال القانون ، حتى إنها إذا اعتبرت جملة أغنت عن الاجتهاد في المسائل التي عرضت متى عمل أهل العلم على التخير منها .

ثم عرض فضيلة الأستاذ الأكبر حرية الرأي ، وحذر من اتهام الخصوم بالكفر والزندقه ، مقررًا أن تلك كانت سيرة سلف هذه الأمة ، إذ كانوا لا يكفرون إلا من ينكر نصا أو إجماعا . وقد رمى فضيلته بانفت الأنظار لهذا الأدب الى معالجة النفور الذي يظهر به دعاة الدين عند احتكاكهم بأصحاب الآراء الحديثة ، فيحدث من جراء ذلك تقاطع يعقبه تناكر نتيجته انقسام الأمة الى شطرين ، وليس هذا من مصلحة الاجتماع ولا مصلحة الأخلاق في شيء . ثم حض فضيلة الأستاذ الأكبر رجال الأزهر على القيام برسالة الاسلام للعالم أجمع قائلا : إنه لا يتسنى ذلك إلا بتعلم اللغات ، فإن الله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم . ووعد فضيلته بأنه سيعنى بهذه المسألة عنايته بتنقيف عقول الطلاب الأجانب .

ثم ختم فضيلته خطبته بالدعاء لجلالة الملك ، صاحب اليد البيضاء على الأزهر ، ولصاحب السمو أمير الصعيد ولي عهده المحبوب .

ولا يسع مجلة نور الاسلام وهي اللسان الرسمي للأزهر إلا أن تدون بين صفحاتها هذه الخطبة الجامعة التي وضع فيها فضيلة الأستاذ الأكبر أعلام الإصلاح الديني الذي كان ينشده أولو البصر من المسلمين منذ قرون طويلة ، واشتد التعطش له منذ نحو خمسين سنة ، فقامت الحوائل في وجوه الداعين اليه والعاملين عليه . واليوم قد قدر الحق سبحانه وتعالى لأقدر رجل في مصر على تحقيق هذه الأمنية أن يتولى قيادة هذه الحركة المباركة ، فها هو ذا يصدر

بما نذب اليه في وسط حشد ضخم من العلماء الاعلام والطلبة الانجباب ، وتلقف الصحف في مشارق الأرض ومغاربها أقواله داعية له بطول البقاء ، ولبرناجه الاصلاحى بالتوفيق والنجاح .

لا جرم أن هذا يعتبر فتحا جديدا من فتوح الاسلام ، ويوما تاريخيا من أيامه ، يفرح له رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم في الرفيق الأعلى ، ويستبشر به كل مسلم في الأرض . وفق الله مصلحننا العظيم لتنفيذ برناجه كاملا ، ومهد له السبيل اليه ، إنه ولى الكفاية ، وهو المستعان .

ولا يسع مجلة نور الاسلام في مفتتح هذا العهد الجديد إلا أن تبتهل الى الله بان يجعله حدا فاصلا بين دور الفتور الدينى الذى كنا فيه ودور النشاط الروحى الذى نصبو اليه .
والى القراء نص خطبة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ،
أطال الله أيامه ، وأمدده بروح منه :
محمد فريد وجدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

له الحمد على نعمه ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه .

وبعد : فقد رأيت واجبا على أن أزور الأزهر قبل بدء الدراسة لأحي علماء الأزهر والمعاهد ، وطلبة العلم فى الأزهر والمعاهد فى دارهم كما حيونى فى دارى . والأزهر دار خاصة لكل من ينتسب الى العلم ، ودار عامة للمسلمين . وقصدت أيضا إهداء النصيحة الى إخوانى العلماء وأبنائى الطلبة بنسيان ما قد يكون باقيا فى نفوسهم من ضغائن وإحن سببتها الحوادث الأخيرة التى تعرفونها ، لنستقبل الحياة العالمية فى صفاء ، ونقبل على العلم بقلوب مخلصه لله ورسوله ، نقية من دنس الغل والحقد ، عامرة بالايمان .

والأزهر مكان يستحق الاجلال ، فقد كان ولا يزال مصباحا تستضيء به جميع الأمم الاسلامية ، ومنبعها صافيا لمالوم الدين ، ومستودع فنون العربية وأسرارها ، وبعض العلوم العقلية .

وقد اضطلع بحمل عبء المعارف الاسلامية وغيرها، وخاصة بعد سقوط بغداد وضياع ذخائرها العلمية، وصار المشابة الأخيرة، والكعبة التي يؤمها طلاب العلم من جميع الأقطار. وما من بلد في مصر، بل وما من بلد في أي قطر من الأقطار الاسلامية إلا وهو مدين للأزهر بما يعرفه أهله من الدين الاسلامي، وبما بقي عندهم من علوم العربية. حمل الأزهر هذا العبء وأدى الأمانة كاملة، وله الفضل على المعاهد العلمية القائمة بجواره في مصر، فهو أستاذها، وهو شيخ هذه المعاهد جميعها.

نعم: قد استقلت عنه بعض المعاهد أخيراً. ولكنه لا يزال له نصيب عظيم من التثقيف في المعارف الاسلامية وفنون العربية في أكثر هذه المعاهد. فلكم أن تفخروا بتاريخ طويل كله مجد وعظمة لهذا المعهد الذي تنتسبون اليه: تاريخ ظهر فيه من الأئمة والعلماء والمؤلفين من خريجي الأزهر من لا يحصيهم العد، وقد كانوا سباقين للخيرات. وكلوا أمرهم الى الله جل شأنه، خففهم ورعاهم، وشرح صدورهم، وأنارع قلوبهم، فترسموا آثار الرسول الأكرم، صلوات الله عليه، وتخلقوا بأخلاقه، واعتصموا بهديه، وانتفع الناس بعلمهم وتأدبوا، وحلت آثارهم في البلاد جميعها كما يحل ضوء الشمس ونور القمر.

أولئك آباؤنا وأجدادنا في سلسلة النسب العلمي، رضى الله عنهم ونفعنا بهم. يجب أن نذكر هذا المجد ونفاخر به، ونحرص على الانتساب اليه كما يحرص الأشراف على أنسابهم؛ وأن نحافظ على هذا المجد، ونضيف اليه مجداً طارفاً، اقتداءً بأولئك الآباء والأجداد.

قد يسأل بعض الناس: ما فائدة الأزهر؟ أو ما هي رسالة الأزهر كما يقال اليوم؟ فأقول لهؤلاء: رسالة الأزهر هي حمل رسالة الاسلام. ومتى عرفت رسالة الاسلام عرفت رسالة الأزهر.

الاسلام دين جاء تهذيب البشر، ورفع مستوى الانسانية، والسمو بالنفوس

الى أرفع درجات العز والكرامة . قد طوح بالوسطاء بين الناس وربهم ، ووصل بين العبد وربّه ، ولم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى ، وقُدس العلم والعلماء ، وقرر في غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات . وما قرره في ذلك هو منتهى ما سمت اليه الحكمة ، ووصل اليه العقل . وأتى بتعاليم كلها ترجع الى تهذيب النفس ، وتلطيف الوجدان ، وأبان أصول الأخلاق ، وشرع حل التمتع بالطيبات . ولم يحرم إلا الخبائث ، ووضع حدودا تحمّد من طغيات النفوس ونزوات الشهوات ، ورسم أصول النظم الاجتماعية وأصول القوانين . قواعد كلها لخير البشر وسعادة المجتمع الانساني .

هذه صورة مصغرة جدا للدين الاسلامي . ورسالة الأزهر هي بيان الدين الاسلامي ، وشرح قواعده وأسراره . ومتى أدى هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيبا عظيما من السعادة والخير للجمعية الانسانية

في القرآن الكريم حث شديد على العلم ، وعلى معرفة الله ، وعلى تدبر ما في الكون ، وليس هناك علم يخرج موضوعه عن الخالق والمخلوق . فالدين الاسلامي يحث على تعلم جميع المعارف الحقة . وليس في المعارف الحقة الصحيحة المستقرة شيء يمكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها .

نعم : قد توجد معارف تناقض بعض ما وضعه العلماء في شرح القرآن والحديث والفقه وغيرها ، ولكننا لانهتم لهذا ، فليسر العلم في طريقه ، ولنصحح معارف الماضين ، لكن على شريطة أن يكون ما يخالف معارفنا ، من العلم البرهاني المستقر .

ولست أقصد بمحدثي هذا أن يكون الأزهر مدرسة طب أو هندسة ، أو كلية للكيمياء أو ما يشبه هذا . ولكنني أعني أن هناك علوما ومعارف لها صلة بالدين وثيقة ، تعين على فهمه ، وتبرهن على صحته ، ويدفع بها عنه الشبهات . هذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الديني أو يتعلم منها القدر الضروري لما يوجه اليه .

هذا وقد تغيرت في العالم طرق عرض السلع التجارية ، وأصبح الإعلان عنها ضروريا

لنشرها وترغيب الناس فيها . ولديكم الحوانيت القديمة وخازن التجارة الحديثة : وازنوا بينها تدرکوا ما في طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس اليها ، وما في طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر الناس عنها . وقد توجد في الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفاً ، وأعلى قيمة ، وأمتن مادة ، ومع ذلك هي في كساد .

وكما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم ، وأحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة في العلم ، وتنفي الملل والسأم .

حدثت هذه الطرق في إلقاء الدروس والمحاضرات ؛ وحدثت في تأليف الكتب أيضاً . وهذا المثل ينطبق علينا : ففي جميع الكتب التي تدرس في الأزهر ، وفي جميع العلوم التي تدرس في الأزهر أعلاق نفيسة لا تحتاج إلا الى تغيير طريقة العرض في الدرس والتأليف ، وفي الفقه الاسلامي نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون . وفي الفقه الاسلامي آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج ، وتحقق العدالة في أكل صورها . ولكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال والحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم .

على الأزهر أن يسهل فهم علومه على الناس ، وأن ييسر لهم هذه المعارف ، وأن يعرضها عرضاً حديثاً جذاباً مشوقاً .

ومسألة أخرى يجب أن يعنى الأزهر بها : تلك هي تطهير الدين الاسلامي من البدع وما أضيف اليه بسبب الجهل بأسراره ومقاصده . هناك آراء منشورة في كتب المذاهب وفي غير كتب المذاهب يحسن سترها ؛ ضناً بكرامة الفقه والدين .

ومن الواجب أن يعترف بأن المذاهب الاسلامية جملة تغنى عن الاجتهاد في المسائل التي عرضت من قبل متى تخير العلماء منها .

وأذكر قصة طريفة تجدونها في كتاب الولاية والقضاة لـ الكندي :

« كان في مصر قاض شافعي المذهب في عصر الامام الطحاوي ؛ وكان يتخير لأحكامه

ما يرى أنه محقق للعدل من آراء الأئمة ، ولا يتقيد بمذهب . وكان مرضى الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه في دينه وخلقه . سأل ذلك القاضي الامام الطحاوي عن رأيه في واقعة من الوقعات ، فقال الطحاوي : أتسألني عن رأيي أو عن رأي أبي حنيفة ؟ فقال القاضي : ولم هذا السؤال ؟ قال الطحاوي : ظننتك تحسبني مقلدا . فقال القاضي : ما يقلد إلا عصبى أو غبي ؟

فتخير الأحكام نوع من الاجتهاد ، ولكنه الاجتهاد الذي لم يغلق الناس أبوابه . إصلاح التعليم في الأزهر واجب اجتماعي ، لإصلاح الأمم الاسلامية في مختلف أقطارها وأجناسها ، وعلى كل مسلم أن يساهم فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا . وأنا أرجو الله سبحانه أن يوفق العلماء وطلاب العلم الى الاخلاص في النهوض بالأزهر ، فإن الاخلاص في ذلك إخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولدين الحق الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وجعله هداية عامة لجميع البشر .

امترام حرية الرأي :

ونصيحة أقدمها للعلماء وطلاب العلم في الأزهر راجيا تدبرها ، وهي احترام حرية الرأي ، والتخرج من الاتهام بالزندقة والكفر .

ولا أطالب بشيء يعد بدعة . ولا أحدث في الدين حدنا بهذه النصيحة . فهي موافقة للقواعد التي وضعها سلف الأمة رضى الله عنهم ، وترونها مبسوسة واضحة في كتب الأصول وفي جميع كتب الامام الغزالي .

وحاصلها - على ما أذكر - أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضروري منها : كالصلاة ، والزكاة ، وحرمة الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، والربا .

أما إنكار أن الاجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، فلا يوجب الكفر ، وما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إنهم في إنكاره مطلقا ؛ على شرط أن يكون الإنكار غير مصادم لنص أو إجماع .

على هذا أجمع الصحابة رضى الله عنهم؛ وأجمع عليه الأئمة، ولم يعرف أن بعضهم أثم بعضاً.

وإجمال القول أنه ما دام المسلم في دائرة القرآن لا يكذب شيئاً منه، ولا يكذب ما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم بطرق قاطعة، فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه بالكفر.

عرضت لهذه النصيحة لأنها تسهل على أهل الأزهر معاشرته الناس، والعمل بها يمكن من نشر الدعوة ومن الجدل بطرقه المقبولة، والعمل على خلافها منفر يحدث الشقاق ويورث العداوة.

أسأل الله أن يهبنا رشدًا، وأن يملأ قلوبنا خشية وهيبة من جلاله، ويملاًها عطفًا وشفقة ورحمة لعباده!

وإذا كانت مهمة الأزهر حمل رسالة الاسلام للعالم، فمن أول واجب على أهله أن يعدوا أنفسهم لتعلم اللغات: لغات الأمم الاسلامية وغير الأمم الاسلامية، والله لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم.

فليحقق الأزهر القدوة، وليرسل الى الناس رسلاً يفقهونهم في دينهم بلسانهم. وسأعنى بهذه المسألة كما أعنى بتثقيف إخواننا الذين أسماهم القانون «أغراباً» فإن لهم من الحقوق والحرية في هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد. وأرجو أن يفكروا طويلاً فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية والإرشاد وإسعاد المجتمع.

وخليق بنا أن نذكر ما لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم من منن وأياد بيضاء على المعاهد الدينية؛ وأن نسأل الله جلّت قدرته أن يسبغ عليه نعمة العافية، وبديم على هذه المعاهد خيره وبره؛ وأن يحفظ حضرة صاحب السمو الملكي أمير الصعيد ولى عهده المحبوب. والسلام عليكم ورحمة الله.

حقوق الجوار في الاسلام

لقد وضع الاسلام نظاما للاجتماع يجعل من الأمة الاسلامية جمعا أسرة واحدة مترابطة الأحاد ترابطا لا تنفصم له عروة ، ولا تنحل له حُمة . فشرع شرعة التعاون في الحياة لتذليل عقباتها ، وقطع مفازاتها ، وجعل ذلك أساسا لمدينته الفاضلة ، فقال تعالى : «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» . ثم لم يدع فضيلة من الفضائل التي تحقق معنى هذا التعاون إلا دعا إليها وحث عليها . ولا مشاحة في أن مراعاة حقوق الجوار من أمهات تلك الفضائل ، بل لو تحققت هي وحدها لجعلت الأمة كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضا ، لا يجد التداعي سبيلا إليه بحال من الأحوال . لذلك جاء في وجوب مراعاة هذه الحقوق من الأوامر ما يتفق وعظم خطره .

فأول حجة وضعه النبي صلى الله عليه وسلم في بناء صرح حقوق الجوار قوله : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » ومراده أنه لا يتم له إيمان حتى يتحقق فيه هذا الشرط ، وهذا أمر في منتهى الخطورة . فإن الإيمان غاية كل متدين وعليه يتوقف استحقاقه للكرامة في الدنيا والآخرة ، فإذا كان اكتمال هذا الإيمان يتوقف على أن يأمن جاره المؤمن أذاه ، فإنه لا شك منصرف بكليته للقيام بهذا الشرط ضنًا بنفسه وطلبًا لنجاتها .

قسم النبي صلى الله عليه وسلم الجيران الى ثلاثة أقسام فقال : « الجيران ثلاثة : جاره حق واحد ، وجارله حقان ، وجارله ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق : الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم . وأما الذي له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار وحق الاسلام . وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك » .

حقا إن هذا سمو في الآداب الاجتماعية ليس وراءه مذهب ، فإن تسرية حقوق الجوار حتى على المشركين لم يقل به قبل الاسلام مصلح في الأرض . ويفهم من هذا

أن الاسلام إنما يراعى في الآداب الاجتماعية ما يشمل الانسانية كلها، وهذا غاية ما ترمى اليه المدنية . فالانسان لا يخلو وهو يعيش في مدينة أن يكون له جيران من ذوى ملل مختلفة ، يبادلهم المعاملات ، فهل أبيض للمسلم معاملتهم وحرمت عليه مجاملتهم ؟ لا ، بل أوجب عليه الاسلام أن يسوى بينهم وبين إخوانه المسلمين فيها وقد حث النبي على مبادلة أهل الكتاب الزيارة وحضور أعراسهم وعاتمهم ، والأكل معهم حتى الإصهار اليهم . وقد وجد أصحاب الأديان من مجاورة المسلمين ما تلقاه القلة في وسط كثرة قائمة على أحكم أصول المدنية ، وأقوم سبل الانسانية .

قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا . فقال الخادم : كم تقول هذا ؟ فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه . فانظر كيف اعتبر ابن عمر اليهودى جارا ولم يفرق بينه وبين إخوانه في الدين ، بل انظر كيف أمر خادمه أن يبدأ به قبلهم . لا شك في أنه فعل ذلك حتى لا يسبق الى ذهن خادمه أن يستثنيه من حقوق الجوار ليهوديته ، فأمره أن يبدأ به ، ثم ذكر للخادم ما ورد عن النبي من التشديد في وجوب مراعاة هذه الآداب الاجتماعية .

ومن أشد ما يلفت المسلمين الى العناية بحقوق الجيران أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادتهم علامة على الإحسان والإساءة لمن أراد أن يعرف منزلته عند الله . روى عبد الله بن عمر فقال : « قال رجل : يا رسول الله كيف لى أن أعلم إذا أحسنت ، أو أسأت ؟ قال إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتم يقولون قد أسأت فقد أسأت » .

فتأمل في هذا وانظر هل يطيق رجل سمع هذا الحديث أن يسمع ذم جيرانه له دون أن يبلغ منه التأثير مبلغه ؟ وهل يتأثر منه ولا يحاول أن يحسن من سيرته حتى يستحق أن يمدحه جيرانه ؟

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أندرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عذته ، وإن مات تبع جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيتة ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشترت فأكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقشار قدرك إلا أن تغرف له منها . ثم قال : أندرون ما حق الجار؟ والذي نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » :

إن هذا حديث جامع في حقوق الجوار لم يترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها ، فلعل من الناس من يخيل اليه قياسا على حالة أهل المدينة اليوم أن هذه الحقوق لا تتفق والحياة الاجتماعية الراهنة ، وهو وهم باطل ، فإن هذه الحقوق طبيعية يؤدي إليها العقل لو ترك وشأنه ، وتقضى بها الانسانية لو تجردت من شبح الحيوانية ، وأثرة البهيمية . فإليك بيان ذلك خصلة خصلة :

أمن علو الهمة التي يجب أن يتحلى بها كل رجل أن يستعين بك جار لك على أمر نزل به فتأبى عليه الإعانة ، وأن يستنصرك على لص طرقه أو حيوان ضار داهمه فتؤليه ظهرك وتدعه فريسة لما ناب ، وأن يستقرضك دربهات يستعين بها على شأن من شئونه فتضن بها عليه ، وأن يفقر ويحوج أهله فلا تمدد بمعونة ، وأن يمرض ويحتاج للمواساة فلا تعود ، وأن يموت فتبخل عليه بخطوات قليلة ، وأن يناله ما يفرحه فلا تهنته بكلمة ، وأن يصاب بنازلة فتترفع عن تعزيتة ، وأن تستطيل عليه في البناء فتحجب عنه الهواء والشمس ، وأن تؤذيه فلا ترفع بتضرره وزنا ، وأن تخص أهلك بالطيبات من الرزق ولا تبالي به وبأولاده الصغار فلا تشركهم معك ؟ ثم لا يكفيك أن تعد هذا تقصيرا فتتأمل له حجة من مقتضيات الحياة العصرية ؟ هل الحياة العصرية

لا تستقيم إلا إذا كان قوامها التقاطع و غلاظ الكبد ، والشح المطاع ، وجود القلب وقلة الانسانية ؟

كان الأولى بك أن تقول : إن الحياة العصرية قد جهلت هذه الواجبات الأولى فوقعت في شر ما تجنيه الجماعات على نفسها ، وهو حقد الفقراء على الأغنياء ، وحسد المحر ومين للموهوبين ، وتوقع بعض الناس دوائر السوء ببعض ، واختار الثورة في نفوس أهل الفاقة على قلب النظام العام ، وهذه العلل كلها تشكو منها أوروبا المتمدنة جد الشكوى ، بل هي لم تهدد في كيانها بشيء كما تهدد من هذه الناحية .

وكما بين الاسلام حقوق الجوار على أتم وجه كما رأيت ، حرم إيذاء الجيران أشد تحريم وأبلغه ، حتى جعل هذا الإيذاء مبطلا للأعمال الصالحة ، فقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها . فقال عليه السلام : هي في النار .

ومن أبلغ ما يؤثر من الزجر عن إيذاء الجار قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أنت رميت كلب جارك فقد آذيته » ، فأخذ المسلمون بهذا الأدب وجروا على سنته ، فكانوا يتخرجون حتى من مقابلة أذى جيرانهم بمثله . فيروى أن رجلا جاء الى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إن لي جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علي . فقال له : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . ولم يشر عليه بالانتصاف لنفسه ، فإن التغابي عن أذى الجار ربما أداه للندم والرّعوى ، مصداقا لقوله تعالى : « أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ، ولكنه لو قابل جاره بالمثل كان ذلك صدعا في بناء المجتمع لا يلبث أن يتوسع بانضمام بعض الجيران الى أحدهما والبعض الآخر الى الثاني ، فحسما لمادة هذا التصدع رأى ابن مسعود أن يحصر الشر في أصغر دائرة فينصح المجنى عليه بالصبر . وقد اقتدى المسلمون فيه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه جاء رجل يوما يشكو جاره فقال له النبي : اصبر ، فجاءه ثانية وثالثة ، فكان يأمره بالصبر ، فلما جاءه

الرابعة، قال له : ا طرح متاعك في الطريق . ففعل الرجل ما أمره به ، فجعل الناس يمشون به ويسألونه عما نابه ، فيقال لهم : له جار يؤذيه ، فكانوا يقولون : لعنه الله ! فأثر ذلك في قلب جاره المشاكس ، فأتى صاحبه وقال له : رد متاعك فوالله لا أعود !

وروى الزهري أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يشكو جاره ، فأمر النبي أن ينادى على باب المسجد : « ألا إن أربعين دارا جار » قال الزهري : أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا ، وأوماً الى أربع جهات . وإنما جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا النداء جواباً على شكوى الرجل لأن فيه إيذانا بخطورة حرمة الجوار حتى إنها لتمتد الى أربعين دارا ، ومن يكلف بمراعاة حق أربعين لا يجوز له أن يضيق ذرعا بحق واحد . وهذا الضرب في الزجر من أبلغ أساليب التأديب التي لا تؤثر إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي تاريخ المسلمين أغرب الحوادث وأدعاها للاعتبار في مراعاة حقوق الجوار ، فقد روى أنه بلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داره في دين ركه ، وكان يجلس هو في ظل داره ، فقال : ما قت إذن بجرمة ظل داره إن باعها معدا . ودفع اليه ابن المقفع ثمن الدار قائلا له : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره ، ف قيل له : لو اقتنيت هرا ! فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر ف يهرب الى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي . هذا بعض ما يقال في حقوق الجوار في الإسلام ، فألق عليه نظرة عامة ثم قابل بينه وبين ما تراه وما تسمعه اليوم من أحوال الجيران . فأما تناكرهم فحدث عنه ولا حرج ، فقد يسكن عشرة عمارات واحدة فلا يعرف بعضهم بعضا ، فما ظنك بمن يسكنون عمارات أخرى ؟

وأما ضروب الأذى فيما لا يستطيع حصره ، فمن أصغره وأخفاه تربص الشبان خلف الشبايبك بالنظارات المعظمة ليروا ما يدور خلال دور الجيران مما لا يحبون كشفه

لأحد ، حتى ليضطروهم الى إقفال شبائيكهم وحرمان أنفسهم من شعاع الشمس ونورها الضروريين لصحة الأبدان . ومن أظهر الأذى وأضره إلقاء القمامات أمام أبواب الجيران ، وإطلاق العنان للأطفال وقت الهجير يقلقون راحة القائلين بضوضائهم ، ووقت الأصيل يثيرون التراب بكراتهم .

فإذا تركت المدن وانتقلت الى الأقاليم رأيت هذه الحال السيئة ، ولكن في شكل آخر ، وأظهره تناذب النسوة بسبب تناقض الأطفال ، وتداخل الرجال في هذه المنازعات ، فتارة يقف الأمر عند التشتام ، وطورا لا ينحسم الشر إلا بالتسلاكم . أما في الغيطان فإن حقوق المجاورة لا تراعى الى حد بعيد ، فيجور الجار على أرض جاره ، أو يترك ماشيته ترعى برسيمه في غفلته ، أو يماكسه في رى زرعه ، أو يسد عليه طريق الصرف لا لعذر غير حب المشاكسة . فهو لا يكلهم لوذ كروا بما ورد في الإسلام من وجوب مراعاة حقوق الجيران ، ووقفوا على هذه الوصايا القيمة التي لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم وجهاً من وجوه البيان إلا حلالها بها ، قلنا لوذ كروا بهذا كله لأترفهم أبلغ تأثير ، وقد عملت إدارة المعاهد الدينية في حدود ميزانيتها على تدارك هذا النقص ، فأرسلت بعشرات الوعاظ الى الأقاليم ، والآمال معقودة ، على إبلاغهم الى المؤمنين الكثيرة ليعم الناس النور الذي يحملونه اليهم ، والله ولي المحسنين محمد فريبر ومبرى

استدراك :

سقطت عند طبع خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر تعليقه عند التكلم في احترام حرية الرأي وهي إحالة القارئ الى ما ورد في كتاب التحرير للكمال بن الهمام صفحة ٣٠٣ من المجلد الثالث في هذه المسئلة .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

الطلاق - وكناياته

ورد الى ادارة المجلة هذا السؤال :

ما قول سادتنا علماء الشافعية في رجل أمر زوجته أن تطالب أحد أقاربها في دين لها فلم تجبه فقال لها : « على اليمين لا بد أن تطالبه » ثم طال بينهما النزاع في هذا الموضوع وغيره فضربها فصاحت ، فدخل عليهما بعض الناس فاشتد غضبه لذلك ، فقال لها : « أنت مطلقة » .

فهل يقع يمينه الأول طلاقاً ويلحقه الثاني لأنها ذهبت في الليلة الثانية غاضبة ، أم لا يقع إلا الطلاق الأخير ، مع العلم بأن اليمين الأول وما لحقه من الطلقة الثانية مسبوقان بطلقة رجعية ؟

عبد الله مسعود عثمان

الجواب

مذهب الشافعي أن قول الرجل لزوجته : يلزمني اليمين أو على اليمين ، لغو لا يلزم به شيء في الطلاق . وعليه فقول السائل : « على اليمين لا بد أن تطالبه » لغو . وأما قوله : « أنت مطلقة » فصرح يقع به طلقة رجعية . وحيث كان مسبوقاً بطلقة فلا يملك عليها بعد ذلك إلا طلقة واحدة .

يوسف المرصني مصطفى الشرييني

وورد ايضا :

رجل كان يقرأ في كتاب من كتب الفقه بحضرة زوجته هذه العبارة « والمعتدة قسبان متوفى عنها وغير متوفى عنها » فسأله زوجته بقولها : ما المراد بغير متوفى عنها ؟ فقال لها : « يعني المعتدة عن طلاق مثلك » ولم يقصد بقوله مثلك طلاقها وإنما قصد

أن يمزح معها . فهل لفظة « مثلك » في هذا المقام تعتبر صريحة في الطلاق فلا تحتاج الى نية الإيقاع ، وعلى ذلك يكون قد وقع عليه الطلاق ، أم تعتبر كناية فتحتاج الى نية الإيقاع ؟
أحد القراء

الجواب

من كنايات الطلاق في مذهب الشافعي قول الرجل لزوجته : « اعتدى أو استهزئي رحمك » لا حتماله الطلاق وغيره .

وعليه فقول السائل لزوجته جوابا لسؤالها له عن غير المتوفى عنها : « هي المعتدة عن طلاق مثلك » كناية طلاق لا صريح . وحيث كان قاصدا المزاح معها ولم يقصد الإيقاع فلا يقع به طلاق . وأما لفظ « مثلك » وحده فلايس بصريح ولا كناية .

يوسف المرصفي مصطفى الشرييني
الشافعي الشافعي

الصلاة والصوم لسكان القطبين

وجاء أيضا :

إذا كان في سكان القطبين التي فيها الليل ستة أشهر والنهار ستة أشهر من يعتنق الاسلام ، فكيف يؤدون الصلوات الخمس ، وكذا فريضة الصوم ؟

أحمد العارف قناوى

المدرس بمدرسة بخانس الازلامية

الجواب

مذهب الشافعي في البلاد التي يستمر فيها الليل ستة أشهر والنهار ستة أشهر ، أن أهلها تجب عليهم الصلوات الخمس وصوم رمضان والحج ، ويقعدون أوقاتها بأقرب البلاد اليهم من البلاد التي فيها ليل ونهار .

والأصل في ذلك ما روى مسلم عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله صلى الله

عليه وسلم الدجال ولبثه في الأرض أربعين يوما : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا فذلك اليوم الذي كسنة يكفيننا فيه صلاة يوم ، قال : « لا ، أقدر والله قدره » . ولا شك أن الأيام في تلك البلاد كأيام الدجال فيجرب عاينها حكمها .

يوسف المرصفي مصطفى الشرييني
الشافعي الشافعي

زكاة الذهب والفضة

وورد السؤال الآتي :

لدى نصاب أحد النقدين ، وقبل حولان الحول بشهر أجريت بيع جزء من الغلال المخرج عنها الزكاة في حينها وضممت ثمنه الى ما عندي من النقود ، وقد آن وقت إخراج زكاة المال في النصاب الذي حال عليه الحول ، فهل أخرج الزكاة عن النصاب الأصلي الذي حال عليه الحول ، أم أخرج عن الجميع ، مع العلم بأن ما أضيف جديدا لم يمس عليه أكثر من شهر فقط ؟

عبد القادر عبد الرحمن مكاوي
بمدرسة الفرق الأولية

الجواب

تجب الزكاة في الذهب والفضة إذا بلغ كل منهما نصابا ، وتجب فيما زاد على النصاب ولو يسيرا ، بحسابه ، بشرط الحول .

وعليه فمن كان مالكا لنصاب أحد النقدين ثم باع جزءا من الغلال أو غيرها ، ضم الثمن الى ما عنده من النصاب إن كان من جنسه ، ذهباً أو فضة ، وتجب فيه الزكاة بحسابه ولو كان أقل من نصاب ، أضمه الى النصاب الذي في ملكه من قبل ، لكن لا يجب إخراج زكاة ثمن الغلال إلا بعد أن يحول عليه حول من وقت دخوله في ملكه ، لا بحول النصاب الأول . وإخراج الزكاة عن الغلال وقت حصادها لا يمنع تعلق الزكاة بأثمانها إذا بيعت ، لأنها صارت جنسا آخر .

يوسف المرصفي مصطفى الشرييني
الشافعي الشافعي

في الميراث

وورد الى إدارة المجلة السؤال الآتى :

توفيت امرأة عن زوج وبنيتين من ذلك الزوج وأخت شقيقة وعمين شقيقين .
أملئ الإجابة .
عيد حميده إدريس

الجواب

المسألة من اثني عشر : للزوج الربع : ثلاثة ، وللبنتين الثلثان : ثمانية ، وللأخت الشقيقة الباقي تعصيبا ، لأنها عصبية مع البنت ؛ ولا شيء للأعمام .

يوسف المرصفي
الشافعي

حكم صلاة الجمعة في البيوت

وفي المساجد المتعددة

وجاء إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله :

يوجد ببلدنا أسرتان لهما مسجد واحد تقام فيه صلاة الجمعة ، وقد حصل بين الأسرتين شقاق أدى الى منع إحداها من أداء فريضة الجمعة في المسجد المذكور .
فأدت الأسرة الممنوعة فريضة الجمعة في ديوان لهم جعل للضيوف ، وانفقت كلتهم على أن يؤدوا دائما فريضة الجمعة في هذا المكان . فهل صلاتهم صحيحة أم باطلة ؟

محمد الليثي عيسى
الريس بالأقصر

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
وبعد : فمن شروط صحة الجمعة في مذهب مالك رضى الله عنه المسجد ، فلا تصح عنده

إقامتها في البيوت ولا في الفضاء ؛ ولا تقام في البلد الواحد إلا في مسجد واحد . فلو تعددت المساجد لم تصح إلا فيما أقيمت فيه أولا وهو المسمى بالعتيق عند المالكية . وقد أجاز إقامتها في مسجد آخر مع العتيق لأسباب مبسطة في كتب المذهب ، منها خوف حدوث فتنة بين طائفتين من أهل البلد لو اجتمعوا في المسجد العتيق ، فإذا يجوز لكل طائفة أن تصلي في مسجد على حدة ، وتصح الجمعة في المسجدين مادامت العداوة قائمة .

واخلاصة أن الأسرة التي منعت من إقامة الجمعة في مسجد البلد (في صورة الاستفتاء) إذا أمكنهم رد العائلة المانعة بطريق الحاكم أو بأية طريقة ودية بحيث تكون الفتنة مأمونة ، وجب عليهم سلوك هذا الطريق وصلوا معهم الجمعة . فإن عجزوا في المسألة تفصيل : حاصله أنهم إذا قدروا على إنشاء مسجد آخر بالبلد وجب عليهم إنشاؤه وسقطت عنهم الجمعة حتى يتموا . فإن عجزوا عن ذلك أيضا سقطت عنهم الجمعة بتاتا ، لأن من شروط وجوبها القدرة على المسجد .

هذا وقد علم مما قدمناه أن جمعهم التي أدوها في محل الضيوف باطلة ؛ ويجب عليهم قضاءها ظهرا ، وألا يعودوا إلى صلاتها فيه مرة أخرى ، لأن الإقدام على العبادة الباطلة لا يجوز شرعا . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه . يوسف الدجوي
من هيئة كبار العلماء

استكمال العرف

كتب أبو تمام الطائي إلى أحمد بن أبي دواد قاضي القضاة في زمن المعتصم :

اعلم وأنت المرء غير معلم	وافهم جعلت فداك غير مفهم
إن اصطناع العرف ما لم توله	مستكلا كالثوب ما لم يعلم
والشكر ما لم يستر بصنعة	كالخط نقرأه وليس بمعجم
ويفوتني في القول إكثار وقد	أسرجت في كرم الفعال فالجم

فتح المسلمين لاسبانيا

الفرق بين المسلمين وغيرهم في استعمار الممالك

أجمع مؤرخو الفرنجة على أن أوروبا فيما بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر للميلاد كانت قد وقعت في حالة من الجهالة كادت تقلبها الى بربرية مطلقة ، فإن العلوم التي أثمرتها الجهود اليونانية وورثها عنها الرومانيون فقاموا بحرقها بضعة قرون ، آل أمرها في القرون الوسطى المذكورة آنفا الى الذبول ، ولولا أنها كانت مدونة في الأسفار ومودعة في الخزائن ، لزال رسمها من لوحة الوجود . فعاش الناس طوال ذلك العهد في غيبة من الجهل ما كان يتخيل أشد الناظرين تفاؤلا أنها تنجذب عنهم في يوم من الأيام ، وإن تخيلوا ذلك فما كانوا ليتوقعوا أن النور يأتيهم من قبل أمة ليس بينها وبينهم أدنى صلة ، وهي الأمة العربية .

فلما قامت للإسلام دولة في القرن السابع الميلاد ، وشرعت هذه الدولة في أداء ما عهد اليها من إعلاء كلمة الله في الأرض ، بدأت بما جاورها من سورية ومصر والعراق العربي والعجمي وآسيا الصغرى والتركستان وما وراء النهر الى حدود الصين . فلما تم لها فتح هذه الأبواب العالمية في وجه الدعوة الاسلامية ، وانبعث منها نور الاسلام الى هذه الأقطار القصية ، بقي باب واحد الى قارة كانت من أنجب قارات الأرض وهي أوروبا ، وهي وإن كانت قد انتهت الى حالة برثى لها من القحولة العقلية كما قدمنا ، إلا أنه كان في خزائنها من علوم الأوائل ما ليس في غيرها مما تقضى حاجة العالم باستخراج دوائه ، والانتفاع بكنوزه . وقد تجلت سمو مبادئ الاسلام العلمية بعد الاستيلاء على تلك المذخورات العقلية تجليا باهرا ، فإنها بعد أن استخرجتها من خزائنها أخذت في ترجمتها والا لكباب على تدارسها ، فزادت في مادتها ، وضمت اليها ما هديت

اليه باجتهادها، وكان ذلك كله بعثا للتراث العلمى العالمى من الموات الذى كان فيه ، وبث حياة جديدة اليه أمدھا الاسلام بروح منه ، فأعادت للانسانية أنوار ثقافتھا العقلية ، ورونق حياتھا المدنية .

أجمع مؤرخو الفرنجة على أن علوم العرب وفنونهم التى كانت سببا فى قيام المدنية الحاضرة دخلت الى أوروبا من ناحيتين : من ناحية إسبانيا ، ومن ناحية إيطاليا . فلنذكر تاريخ فتح العرب لاسبانيا ، ثم نعبه بفتحهم فى جنوب إيطاليا وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط ، فنقول :

فتح المسلمين لاسبانيا فى القرن الاول للهجرة :

أمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان عامله على شمال أفريقيا موسى ابن نصير أن يفتح مملكة إسبانيا ، وهى التى يسميها العرب بالأندلس ، سنة ٩٣ هجرية ، فكلف موسى مولاه طارق بن زياد أن يجتاز إليها البحر على رأس اثني عشر ألفا من المقاتلة ، فسار بهم على السفن حتى وصل الى مضيق جبل سمى باسمه ، فاستقبله الكونت جوليان بالترحاب ، وكان له ممتلكات واسعة فى تلك الجهات ، وكان يحمل على ملك إسبانيا رودريك حقا عظيما ، وسلم اليه قلعة الجبل الأخضر بدون قتال . فلما بلغ الملك رودريك ذلك استشاط غضبا وزحف بنفسه على جيش المسلمين فى مائة ألف مقاتل . أما طارق بن زياد فتأهب لملاقاة عدوه ، ولأجل أن يحمل جيشه على الاستبسال أحرق السفن التى أقلتهم الى تلك السواحل قائلا لجنوده : العدو أمامكم والبحر وراءكم فاخترأوا لأنفسكم إحدى النهايتين . فلما وافهم الملك رودريك يجنوده صمدوا على أن يقاتلوا حتى يفوزوا أو يموتوا ، لأنهم كانوا قد فقدوا الأمل فى اللجأ الى سفنهم . فدارت رحى المعركة فى سهل غواداليط سبعة أيام متوالية صبر فيها المسلمون صبر الكرام ، وأبوا أشد البلاء حتى آتاهم الله النصر ، فاخترقوا جيش العدو ، وانضم اليهم (إياس) أسقف أشبيلية ، وكان من حزب الكونت جوليان ، ومن الواجدن على سياسة رودريك ،

فلم يسع الاسبانيون غير الهرب ، وحمل الغيظ قائدهم على أن يلقى بنفسه في نهر الوادي الكبير ، ففرق ، واستولى العرب على أسلاب ذلك الجيش ، ولم يتوان طارق طرفه عين في استغلال هذا النصر ، فأرسل كتابه تترى للاستيلاء على أمهات المدن ، فاستولى قواده على غرناطة وقرطبة وويرة وملقة وأستجه ، وسار هو بنفسه على عجل الى طليطلة ، وبلغت أخباره موسى بن نصير ، وربما خشى أن يتشتت جيشه الصغير في البلاد فيعطف عليه العدو فيبيده ، فكتب اليه يأمره بالوقوف حتى يلحق به ، فرأى طارق بثاقب نظره أنه لو أطاق رئيسه لضاعت من يده الفرصة الساححة ، إذ يسارع الاسبانيون الى انتخاب ملك جديد فيبعث فيهم أملا يحملهم على التآب عليه ، فرأى المصاحبة في عصيان هذا الأمر ، فسار حتى بلغ الى طليطلة ودخلها بلا قتال ، وترك بها حامية ، وتابع سيره الى الشمال ، خفضت له جميع البلاد التي خلفها وراءه .

ولما وافاه مولاه موسى بن نصير بجيش جديد فتح به مدينتي كرمونة وأشبيلية ، وانتهى الى مريدة فحاصرها ، وكان بها فرسان من قبيلة الوزيفوط الذين كانوا متغلبين على إسبانيا ، فلم يقو موسى على فتحها إلا بعد أن وصل اليه مدد من ابنه عبد العزيز يقدر بسبعة آلاف مقاتل . فلما تم له تدوينها سار ابنه عبد العزيز المذكور الى مرسية وضرب الجزية على الأمير تيودومير الغوطي الذي كان مستقلا بالأماة فيها . وسار تورا الى طليطلة ، بينما كان طارق بن زياد ينساح بجيوشه في إقليمي استريمادور ولوزيتانيا . فلما قابله الأمير عبد العزيز بن موسى ضربه بالدرة جزاء له على عصيانه أمر والده في الوقوف عند حد ما وصل اليه ، ثم أمر بتجريدته من رتبته في القيادة وسجنه . فلما بلغ أمير المؤمنين الوليد ما وقع على طارق من الإهانة ، أمر بإطلاق سراحه وإعادةه للقيادة كما كان ، فكان ذلك ترضية له على حسن بلائه وإخلاصه في أداء مهمته .

لما وقف أمر هذا التنازع عند هذا الحد عادت الجيوش الاسلامية إتمام فتح إسبانيا ، فاستولى موسى بن نصير على أقاليم أستورية ، واستولى طارق على البلاد التي

خلف نهر إبرة . ثم تعاون الاثنان على فتح سراقسطه بسبب قوة حاميتها وحصانة معاقها . فتم لهما بذلك فتح شبه جزيرة إسبانيا الى جبال البرانس .

ماذا كانت عليه اسبانيا قبل فتح المسلمين ؟

تقلبت إسبانيا في أدوار شتى من الحكم ، وتغلبت عليها جماعات مختلفة ككل أمة في مثل مكانها ، فندع كل هذا ونكتفي بما كانت عليه على عهد الفتح الاسلامي . ونرى أن ننقل ذلك عن مؤرخ أجنبي ليكون أبلغ في دلالاته على عظم الانقلاب الذي أحدثه الاسلام فيها في سنين معدودة ، حتى صارت مشرق النور على أوروبا في تلك الغياهب الحالكة :

قال المؤرخ الفرنسي الكبير (سديو) Sedeillot في كتابه (خلاصة تاريخ العرب)

ما تعريبه :

« غلب على شبه جزيرة إسبانيا قبل الهجرة الحمديدية بمائتين واثنين وعشرين سنة قبيلة تعرف بالويزيغوث Visigoths كان ملكهم يمتد الى طنجة وسبتة من مراكش ؛ وكانوا قد هزموا موسى بن نصير حين حاصر سبتة سنة (٦٤) للهجرة ، كما هزمه ثانية فيها الملك وزيتا الويزيغوثي سنة (٩١) حين دهمها مرة أخرى ؛ وكانت مملكة إسبانيا كثيرة الرجال واسعة الأقاليم ، ولكن الحكومة فيها كانت مختلة ، والأمة كانت تتألف من جماعات متعدية ؛ وكانوا واقعين جميعا تحت سلطان القسوس ، فكانوا يتقاضون منهم إتاوات باهظة ؛ وكانت الشريعة التي يحكمون بها مزيجاً من القانون الروماني وعوائد القبائل الجرمانية ، فكانت الأمة في حالة من التأخر بحيث لا تستطيع إمداد المملكة بمقوماتها ، وكان الرعايا مستعبدين لمهنتهم الزراعية ، وهي حالة تنزع من قلوبهم الوطنية والشعب ؛ وكان اضطهاد اليهود بالغاً أشده مما ملأ قلوبهم بالأحقاد والسخائم على حكومة البلاد » الخ .

الى اى مال آلت اسبانيا تحت حكم المسلمين ؟

تلك كانت حال إسبانيا قبل أن يحتلها المسلمون . فإن شئت أن تعرف ما آلت اليه حالتها بعد أن احتلها المسلمون فأليك ذلك منقولاً عن الأستاذ سديو المذكور آنفاً من كتابه (خلاصة تاريخ العرب) قال ما ملخصه :

« كان عرب إسبانيا متفوقين على الفرنج في العلوم والصنائع والأخلاق السكرية ، مما حجب لملوك قسطنطينة ونواره أن يقدموا الى قرطبة لاستشارة أطبائها الذين كانوا معروفين بتضلعمهم في هذه الصناعة .

« وكان هؤلاء العرب حيث وجدوا يبجلون الشيوخ ويتنافسون في إقامة معالم العدل ويغارون على مراعاة تطبيقه ، ويدينون بالمساواة العامة لاميزة لغنيهم على فقيرهم ، فلا يمنع فقر أحدهم أن يبلغ الى أرقى المراتب مادامت تؤهله لها صفاته الخاصة ، لا يعولون في إنزال الناس منازلهم من الكرامة على أحسابهم وأنسابهم ، ولكن على مميزاتهم العقلية وفضائلهم النفسية ، لأنهم كانوا يترسمون خطوات القرآن الذي يحضهم على اكتساب الفضائل والتوسع في الأعمال الصالحة ، وكان خلفاؤهم يحثونهم على العمل المنتج وعدم العدوان على الناس .

« والذي ساعد هؤلاء العرب على بلوغهم أبعد شأواً من العظمة اتساع دائرة العلوم والفنون لديهم ، وانتشار المعارف الفلاحية والصناعية فيهم ، لهذا ذاق جميعهم لذة العلم ، وتنافسوا في ابتكار ما يمتازون به من الأعمال النافعة .

« وكان من شروط القيام بمهمة القضاء فيهم أن يكون القضاة حاصلين على معارف واسعة ؛ وكانوا يكتبون على كل بناء اسم المهندس الذي شيده واسم الأمر بإقامته ، وقد عرف عنهم أنهم بلغوا رقياً عظيماً في فنون العمارة ؛ وكانوا يجزلون الثناء على كل ماهر في صناعته ، ويشيدون بذكره تنشيطاً لغيره ، وقد اقتفى الفرنج أثرهم في أساليب أنبنتهم وزخرفتها .

« وقد علم العرب في مدارسهم علوم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء الطبية والتاريخ الطبيعي ، وهو علم المواليذ الأرضية الثلاثة ، وحشروا الى مكتباتهم كتباً نقلوها الى لغتهم من علوم قدماء اليونانيين وفلاسفة الاسكندرية ، حتى إن (جوبرت) الذي تولى البابوية في آخر القرن العاشر كان قد أخذ بعض العلوم عن العرب فأظهرها لمعاصريه فأخذهم منها العجب واتهموه بالسحر من أجلها »

ارتقاء الفنون والصنائع في اسبانيا تحت حكم المسلمين :

يقول المؤرخ المذكور في هذا الصدد :

« وأما من ناحية الصنائع والفنون فإن عرب إسبانيا أخذوا ما عثروا عليه مما كان عند الرومان ، والفنيقيين فأمكنهم بواسطتها استخراج المعادن القابلة للطرق ، ومعدن الزئبق ، ولم يغفلوا حتى استخراج الياقوت من معادنه بقرب مدينتي ملقا وبجاديكاميريس وغاصوا في البحر فاستخرجوا منه المرجان واللؤلؤ ؛ وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والكتان والتيل ؛ وبلغوا أقصى الغايات في صناعة الأقمشة الحريرية والصوف . وكانت صناعتهم في عمل السيوف ونصال بقية الأسلحة مضرب الأمثال في كل مكان . فاشتهرت مدن إلتان هذه الصناعات ، فكان لا يمل على سلاح طليطلة ، ولا ينافس حرير غرناطة ، ولا نزاحم السروج والجلود الواردة من قرطبة ، ولا تجارى الأقمشة الصوفية التي كانت تصنع في قونسية . كما اشتهرت والنسة في صادراتها من الأفاويه والسكر . واشتغل العرب غير ذلك باستخراج الزيوت ودودة الصباغة والعنبر الخام والبلور المعدني وهو البلور المستخرج من الصخور ، والكبريت . ويظن أنهم استعملوا التحاويل في تجارتهم ، وهي التي تسمى الآن بالكيميات .

« وما يؤثر عن عرب إسبانيا أنهم عنوا أشد العناية بالفلاحة ، فبلغت الى درجة رفيعة جداً ، وأبدعوا في الري أيما إبداع ، وبدل عليه ما فعلوه في سهل (هوسطاه) الذي يقسمه نهر (طونة) الى قسمين ، فإنهم وقفوا تيار هذا النهر على بعد نحو فرسخين

من مصبه بواسطة سد، ثم اشتقوا منه سبعة جداول : ثلاثة في ناحية، وأربعة في الناحية الأخرى ؛ وجعلوا يفتحون كل فرع منها في يوم من أيام الأسبوع بحيث يرتفع الماء فيه الى المستوى المطلوب، ليرووا ما يريدون ريه من الأراضي العالية . ثم عمدوا الى كل جدول من هذه الجداول السبعة فاشتقوا منه جداول ثانوية يفتح كل منها في ساعة معينة بعد حصول الارتفاع في الجدول الرئيسى ، قاصدين بذلك أن يصل الماء الى أصغر مربع من الأرض . فكان كل جدول بفروعه الثانوية يشبه مروحة تتجه جداولها الى كل اتجاه . ولعدم انحدار سطح ذلك السهل انحدارا هندسيا تدرجيا جعلوا له مساقى صغيرة وقناطر متصلا بها مجار للمياه توزع على المزارع . ثم صنعوا لما لا يمكن سقيه بهذه الوسائل كلها سواقي حفظوا المياه الضرورية لها في حياض تستمد منها عند الحاجة . وجملة القول أنهم أبدعوا في هندسة الري بهذا السهل إبداعا استحق معه أن يلقب بإستان إسبانيا .

« وقد توصل العرب بفنونهم الزراعية المتقنة الى استغلال الأرض ثلاث مرات في السنة ؛ وأدخلوا الى إسبانيا زراعة الأرز والقطن والتوت وقصب السكر والنخل والفسقيق والموز ودوحة الكاميلياء، الحمراء والبيضاء، وأزهارا وبقولا لا تحصى نقلت كلها فيما بعد الى جميع البلاد الأوربية . »

ارتفاع العمران في إسبانيا تحت حكم المسلمين :

يقول المؤرخ المذكور أيضا في هذا الموطن :

« أما من الناحية العمرانية فكان في الجزء الذي يملكه المسلمون من إسبانيا ست عواصم ، وثمانون مدينة كبيرة، وثلاثمائة مدينة متوسطة ، وما لا يحصى من القرى والكفور والضياع .

« أما المباني فكان في قرطبة وحدها ٢٠٠٠٠٠ بيت و ٦٠٠ مسجد و ٥٠ مستشفى و ٨٠ كلية و ٩٠٠ حمام . وكان يسكنها مليون نسمة . وبالاقابلة تعلم أنها اليوم ليست على

ما كانت عليه أيام المسلمين ، ولا محل للاستغراب فإن الخلفاء تنافسوا في عمرانها وزخرفتها بما كانوا ينفقونه عليها من الأموال . ومع هذا فلا يزال محل الدهش من كثرة ما بذله العرب من الأموال على مبانيهم في إسبانيا ، فإن مسجد قرطبة الباقي للآن يضاهي في الفخامة للمسجد الأموي بدمشق . طوله ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدما ، وفي عرضه الأيمن ٣٨ صفحا ، وفي الأيسر ٢٩ صفحا وفيه ١٠٩٣ عمودا من المرمر ، وفيه من جهة الجنوب ١٩ بابا مبطنة بصفاق من نحاس التوج ، وهو النحاس الذي تصنع منه المدافع ، وأوسطها مرصع بصفاق الذهب ، وبأعلاه ثلاث أكر مذهبة فوقها رمانة من العسجد ، وله ٤٧٠٠ قنديل ، أحدها من الذهب الخالص وهو الموضوع في المحراب . وكان يصرف على هذا المسجد في كل عام ٢٤٠٠٠ رطل من الزيت و ١٢٠ رطلا من العنبر والعود والقاتلي . وكانت هذه المدينة تضاء بالمصابيح الى الصباح ؛ وكانت شوارعها تطيب بروائح الزهور ؛ وكانت في متزهاتها وميادينها المامة جوقات موسيقية تطرب الجمهور بأنغامها .

« أما مدينة زهرة التي كانت قائمة على بعد فراسخ قليلة من قرطبة فقد اشتهرت بقصر الخليفة عبد الرحمن الثالث على شاطئ نهر الوادي الكبير ، فقد كانت قباب هذا القصر مرفوعة على ٤٣٠٠ عمود من الرخام المحلى بأبداع النقوش ، وكانت أرضه مبلطة بالرخام المختلف الألوان على شكل يستوقف الأنظار ؛ وكانت حوائطه مبطنة بالرخام أيضا على تلك الصورة ، وسقوفه منقوشة باللازورد والذهب الخالص ؛ وكانت في غرفه فساق مياه عذبة تنصب في أحواض من الرخام الناصع البياض والبشم المتنوع الأشكال ؛ وكان يشاهد في قاعة جلوس الخليفة فسقية يخرج من وسطها صورة بجعة من ذهب معلقة فوق رأسها لؤلؤة عظيمة ؛ وكانت تلك البجعة من صنع مدينة القسطنطينية ، وأما اللؤلؤة فكان قد أهدها الى الخليفة الملك ليون أحد ملوك شمال إسبانيا ؛ وكانت حول القصر بسايتين واسعة في وسطها قصر منفرد ليستريح فيه الخليفة

بعد رجوعه من القنص ؛ وكان هذا القصر الأخير مبنيا على أعمدة من الرخام ذوات
تيجان محلاة بالذهب . وكانت تتبع في وسطه عين ماء في صفاء البلور وتنصب من قم
النافورة على هيئة سنبل القمح في إناء مستدير مصنوع من الفرفري .

« ومع كل هذا فلم يستنفد خلفاء إسبانيا جميع أموال الدولة في زخرفة المدن والقصور ،
بل أنفق بعضها أيضا في عمارات نافعة ؛ فقد بنى الخليفة الحاكم قناطر وفتح طرقا أنشأ
فيها محطات للسائحين ؛ وبنى في قرطبة مسجدا . وبالتأمل فيما أسلفناه يعلم أن عرب
إسبانيا كانوا في مقدمة الأمم في القرن الحادى عشر بعد الميلاد ، بل كانوا يفوقون
في مدنيّتهم جميع أمم أوروبا على الإطلاق » انتهى .

هذا ما نقلناه عن الأستاذ (سديو) العالم المؤرخ الفرنسى .

وبذلك فقد آتينا من يريد المقارنة بين حالتى إسبانيا تحت حكومتها الذاتية وحكومة
الاسلام بمواد يستطيع الاعتماد عليها لبناء حكم صحيح على سمو الروح الاسلامية فى سياسة
الأمم والبلدان . فإن كنت تعجب أن تتألف قبائل العرب الى أمة متحابّة فى سنين
معدودة ، فأعجب منه أن تتدب هذه الأمة الفتية لتملى على الشعوب أصول الحكمة
الإلهية مقترنة بمدنية فاضلة تتخذ مثالا أعلى لكل مدنية تقوم بعدها فى الأرض ؟

محمد فريبر وجبرى

فضل الافادة والاستفادة

دخل رجل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده
علما . فقال له : أنى لك هذا ؟

فقال الرجل : لم أمنع قط يا أمير المؤمنين علما أفيده ، ولم أحتقر علما أستفيده ، وكنت
إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته .

وقال عبد الله بن المبارك يصف عالما :

وفتاق أبكار الكلام المختم

وسيطت له الاكاديب بالبحم والدم

صموت إذا ما الصمت زين أهله

وعى ماوعى القرآن من كل حكمة

تاريخ العلوم المدنية في الادب العربي^(١)

ذكرنا في مقالنا السابق عن مآثر العرب في العلوم المدنية ما كان من أمر نشأة العلوم الفلسفية والرياضية وتطورها في أول عصور الأدب العربي وأثر ذلك في نهضة العلوم في الشرق والغرب .

بقيت الفلسفة كسائر العلوم المدنية بعد ذلك زمنا طويلا محل اضطهاد بعض علماء الاسلام السنيين بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها أنصارها ومحذوها ، لجعلها من العلوم المتداولة التي في متناول أفراد الشعب ، ونشرها بينهم ، ووضعها في مصاف العلوم العربية الأخرى ، ولم يستقر لها وجود إلا بفضل رعاية بعض الأمراء وحمائهم للقائمين بأمرها من العلماء المسلمين وغيرهم . وهكذا كانت الحال أيضا في ممالك الاسلام بالفرس وبالأندلس ، خفق علمها وارتفع شأنها على رؤس أشهر كتّاب الأدب العربي في هذا العصر على وجه الإطلاق ، فكان لهم أبعد أثر في اتجاه الثقافة الفكرية في أوروبا حيث انتشرت فيها التعاليم الفلسفية لأرسطو وغيره من علماء وفلاسفة الإغريق بفضل التراجم التي ظهرت على أيدي العرب في هذا العصر وما تقدمه .

وأشهر المؤلفين المعروفين في هذا المضمار بين علماء الاسلام المبرزين في هذا التاريخ هو بلا شك أبو الحسن بن سينا ، ولد بالقرب من مدينة بخارى عام ٣٧٨ هـ وقضى حياته في خدمة الأسرات الفارسية المالكة ، فدخل بلاط نوح بن منصور الساماني وهو في السابعة عشرة من عمره بعد أن تم على يديه شفاؤه ، وفقد أباه بعد ذلك بخمس سنوات ، فبدأ رحلاته وأقام طويلا في « جرجان » وبها وضع أشهر مؤلفاته « القانون

(١) مترجمة من الألمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربي » للمستشرق الألماني الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلان » .

في الطب » وتخرج عليه كثير من طلبة العلم ، ثم عين وزيرا لشمس الدولة في همدان ، واضطهده خلفه وأمر بحبسه ، ففر هاربا الى غريمه علاء الدولة في أصفهان ، وتوفي أثناء حملة أرسلت الى همدان عام ٤٢٨ هـ ، وكانت موهبته العبقريّة متعددة النواحي ، فكتب في الفلسفة رسائل كثيرة ، أهمها مؤلفاته في المنطق والطبيعة وفيما وراء الطبيعة (العلل الأولى) ، واهتم في أول نشأته بعلوم الفلك ، فتعرف بمواطنه البيروني وتعاونوا في العمل على تقدم هذا الفن ، ووضع فيه رسائل هامة ، ونقح الماجسطي الذي وضعه بطليموس ، ولكن شهرته بلغت أوجها في عالم الطب ، فكان كتابه في الطب هو أكبر حجة في العالم الاسلامي مدى قرون طويلة ، ولا يزال حتى الآن مرجعا عالميا خصوصا في بلاد الفرس ، وترجم هذا الكتاب منذ زمن بعيد الى اللغة اللاتينية ، فكان أهم المراجع في علم الطب في العصور الوسطى في جميع أنحاء القارة الأوروبية .

لم تقتصر مواهب ابن سينا على التأليف في العلوم البحتة ، بل تعددت الى نواح مختلفة كما أسلفنا ، فظهر تفوقه في نظم الشعر ، وله مقطوعات رائعة بكتلتا اللغتين العربية والفارسية .

ازدهرت الفلسفة في هذا العصر ازدهارا منقطع النظير على أيدي علماء العرب في بلاد الأندلس ، فظهر من مؤلفيهم عدد وافر بذوا إخوانهم في اللغة والدين في بلاد الشرق ، وقد يكون السبب الأول في ذلك تراحم أمراء الأندلس على تعضيد العلوم والآداب تراحهم في المضمار السياسي .

وأقدم فلاسفة الأندلس المعروفين هو محمد بن باديه المولود في «سرقوسة» وأقام في بدء القرن السادس من الهجرة بمدينة إشبيلية ، ثم انتقل منها الى بلاط المرابطين بمدينة فاس حيث مات مسموما بإيعاز من الطبيب المشهور أبي العلاء بن زهر في عام ٥٣٣ هـ . وله مؤلفات قيمة في الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية ، كما اشتهر كذلك في نظم الشعر .

وفي أثناء حكم المرابطين اشتهر محمد بن طفيل وذاع صيته ، وكان في أول الأمر يشغل منصب كاتب السركم غرناطة الى أن عين طبيباً خاصاً لأبي يعقوب يوسف ، وتوفي في حاشيته بمراكش سنة ٥٨١ هـ . وأشهر مؤلفاته روايته التي أسماها « حي بن يقظان » وفيها يفسر نشأة الفريجة البشرية تدريجياً في طفل ولد بجزيرة نائية وترك بها في عزلة تامة .

وأشهر فلاسفة الأندلس في هذا العصر هو بلا شك محمد بن رشد ، ولد بقرطبة عام ٥٢٠ هـ ، وبدأ حياته الدراسية بها . وفي سنة ٥٤٨ هـ أدخله محمد بن طفيل في بلاط حكام مراكش الذين عهدوا اليه بوضع أنظمة جديدة للتعليم العام . وفي سنة ٥٦٥ هـ عين قاضياً لمدينة إشبيلية ، ولكنه ما لبث أن ترك هذا المنصب مؤثراً العودة الى موطنه ومسقط رأسه بقرطبة . ولم يستقر به المقام طويلاً حتى استدعاه أبو يعقوب يوسف الى مراكش وجعله طبيباً خاصاً له ، ثم عين قاضياً لمدينة قرطبة الى أن ولي الحكم يعقوب بن يوسف ، فأمر بنفيه بسبب آرائه الفلسفية التي رمتها بالاحاد والزندقة ، ولكنه أفرج عنه بعد ذلك واستدعاه الى مراكش حيث وافته المنية في ٩ صفر سنة ٥٩٥ هـ . وأهم أعماله إحياء دراسات أرسطو ، ونشر ما وضع لها من تراجم قديمة مع تعليقات عليها وتفسير قيمة لها ، ولقد عرفت أوروبا المسيحية كيف تنفع من علم هذا الفيلسوف الكبير أكثر من انتفاع أهله ومواطنيه ، كما كانت الحال في أغلب علماء وفلاسفة هذا العصر الذين اليهم يرجع الفضل في إحياء العلوم ، ووضع أسس النهضة الفكرية التي ظهر أثرها بعد ذلك في جميع أنحاء القارة الأوروبية .

وآخر فلاسفة الاسلام في بلاد الأندلس هو عبد الحق بن سبعين ، وهو سليل أسرة غوطية ولد بمدينة « مورسيا » بإسبانيا ، وكانت تغلب على دراساته ومؤلفاته الفلسفية آثار العلوم الباطنية الخفية التي بلغ اهتمامه بها أن أسس طريقة خاصة . وفي أثناء إقامته بمدينة « سبتة » طلب اليه عبد الواحد زعيم الموحدين أن يتولى الرد على

بعض الأسئلة الفلسفية التي وضعها الأمبراطور فريديريك الصقلي ووجهها الى علماء بلاده ، فبذل مجهودا كبيرا في وضع الرد معلقا عليه بمعلومات قيمة في تاريخ الفلسفة ، فجاءت إجابته وافية ، وأحرزت إعجابا عاما واستحسانا كبيرا . وأخيرا رحل الى الشرق واهتم بأبحاثه في العلوم الباطنية الخفية ، وكان كلما تعمق في دراساته زادت هواجسه وعدم اطمئنانه ، الى أن توفي منتحرا بمكة المكرمة عام ٦٦٨ هـ .

ومن علماء هذا العصر المبرزين العالم المصرى جمال الدين محمد بن سالم ، وكان رسولا سياسيا لسلطان مصر « بيبرس » لدى بلاط « مانفريد » بن فريديريك الثانى وخليفته فى ملك صقلية . وضع جمال الدين مؤلفا قيما فى علم المنطق أسماه « الامبروريه » وأهداه الى ملك البلاد ، ثم أعاد نشره بعنوان آخر بعد عودته الى وطنه .

ومنذ القرن السابع من الهجرة بدأت الدراسات الفلسفية تهمل ، فلم تقم لها لذاتها قائمة تذكر بعد ذلك العصر ، ولو أن علم المنطق الشكلى وجد من العلماء من يأخذ بناصره للاستعانة به فى دراسة العلوم الدينية ، فظهر من العلماء أمثال على السكاكبي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ وله فى علم المنطق مؤلف قيم ، ومحمد السمرقندى الذى وضع فى فن الجدل والمناقشة مؤلفا بقى متسيطرا على مدارس التعليم قرونا طويلة ، فكان الحجة البالغة ، والمستند القوى ، والمرجع الأخير فى هذا المضمار .

وأما العلوم الرياضية البحتة والتطبيقية ، فاهتم بها من علماء هذا العصر نفر غير قليل من علماء المسلمين ، وظهرت لهم فيها مواهب عالية ، وأنتجت قرايحهم فى ضروبها المتعددة ماثر خالدة . وأول من اهتم بدراساتها فى أول القرن الخامس من الهجرة محمد بن الهيثم ، ويرجع أصله الى مدينة البصرة ، وما لبث أن ذاع صيته حتى استدعاه الخليفة الفاطمى الحَكَم الى مصر لتنظيم فيضان النيل طبقا لمشروع كان قد أعدده لذلك ، ولكنه لم يستطع تنفيذه ، ثم أسندت اليه إحدى الوظائف الادارية ، ولكنه لم يبق بها طويلا لآثاره غضب الخليفة ضده ، واختفى زمنا طويلا حتى توفي الخليفة عام ٤١١ هـ ، فأعيدت اليه

أمواله المصادرة ، واشتغل بالأبحاث العلمية والتأليف بقية حياته ، وله مصنفات عديدة في تصميم الآلات (علم الميخانيكا) والفلك وعلم الضوء والعدسات .

واشتهر كذلك في ميدان العلوم المدنية الشاعر الفارسي المجيد عمر الخيام بأبحاثه في العلوم الرياضية والطبيعية ، واشتغل بالعلوم الفلسفية وهو في خدمة ملك شاه السلطان السلجوقي ، وأدخل تعديلات هامة على التقويم الفارسي القديم لحساب السنين الشمسية ، ووضع مؤلفا قيما في علم الجبر ، وتوفي سنة ٥١٥ هـ .

وأشهر أعلام المؤلفين وعلماء هذا العصر على الإطلاق هو بلا جبال نصير الدين التوسي ، ولد بمدينة « توس » عام ٦٠٧ هـ وبدأ حياته العلمية في خدمة الأمير الاسماعيلي ركن الدين في « قهستان » ثم لحق بهولاكو أمبراطور المغول سنة ٦٥٤ هـ حيث أكرم وفادته وأعلى من شأنه ورافقه في غزواته وشيد له مرصدا في « مراغه » ، وتوفي عام ٦٧٢ هـ بمدينة بغداد . ولقد كانت مؤلفاته تشمل مواضيع مختلفة عديدة ، وظهرت مواهبه في ضروب شتى من العلوم المدنية والدينية . وأشهر مصنفاته وأوسعها ذيوها كتابه الذي وضعه في أصول العقائد ، وكتب في الفلسفة عدة رسائل باللغة العربية ، كما وضع مؤلفا في علم الأخلاق باللغة الفارسية ، واهتم كذلك بالرياضة والفلك ، فأخرج أهم المؤلفات القديمة بعد تعديلها وتنقيحها ، وهو أول من قام بدراسات واسعة في علم حساب المثلثات ، واليه يرجع الفضل في وضع أسس ثابتة له على أنه علم مستقل قائم بذاته ، ووضع نظاما خاصا لعلاج ابن سلطان قازان ، وأخيرا اهتم بالتنجيم كباقي علماء عصره ، فوضع كتابا فريدا في نوعه في قراءة المستقبل على الرمال .

وأما العلوم الطبية فبقيت في أغلب الأحوال خلال هذا العصر مقصورة على علماء اليهود والمسيحيين ، الذين كانت جهودهم النظرية لم تخرج عما وضعه أبقراط وجالينوس ، ولكنهم قاموا بأبحاث عملية كانت سببا في تقدم فن الطب تقدما محسوسا . وأول من اشتغل بدراسات الطب من علماء هذا العصر المعروفين هو المختار ابن بطلان ،

فاشتهر بمدينة بغداد في النصف الأول من القرن الخامس من الهجرة ، ثم غادرها في رحلة علمية الى مصر لملاقاة ابن رضوان لمساجلة علمية قامت بينهما ، ثم رحل من مصر الى القسطنطينية ومنها الى أنطاكية حيث توفي عام ٤٥٥ هـ .

واشتهرت أسرة ابن زهر في بلاد الأندلس ، وحملت لواء الطب ثلاثة أجيال متعاقبة أولهم أبو العلاء بن زهر ، وكان في خدمة المرابطين ، وتوفي بأشبيلية عام ٥٢٥ هـ ، وجاء بعده ابنه عبد الملك فبدأ حياته في خدمة المرابطين أيضاً ثم الموحدين ، وتوفي كذلك بأشبيلية سنة ٥٥٧ هـ . ثم خلفه ابنه محمد وكان طبيباً خاصاً ليعقوب المنصور ، وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ .

وأما الأطباء غير المسلمين فإن أشهر علمائهم في هذا العصر هو بلاشك الطبيب اليهودي موسى بن ميمون ، ولو أنه أحرز شهرته العالمية بما له من المآثر الخالدة على الديانة اليهودية ، ولد موسى بن ميمون بقرطبة عام ٥٣٤ هـ وطلب العلم على ابن طفيل وابن رشد ، ورحل الى مصر على أثر اضطهاد الأمير الموحدين عبد المؤمن للمسيحيين واليهود ، وأسس بها مدرسة لدراسة التلمود ، واتخذ بعد ذلك صلاح الدين طبيباً خاصاً له ، وظل حائزاً ثقته في هذا المنصب الى أن وافته المنية عام ٦٠١ هـ .

ونشط العلماء كذلك في هذا العصر بدراسات علم النبات للاستعانة به في الأبحاث الطبية ، فاشتهر منهم عبد الله بن بيطار المولود بمدينة ملقا ، وقام برحلات علمية الى مصر وآسيا الصغرى وبلاد الإغريق لدراسة طبيعة النباتات وخواصها ، وأخيراً التحق بخدمة الملك الكامل بدمشق ، فلما توفي الملك في عام ٦٣٥ هـ رحل الى القاهرة وأقام بها زمناً يسيراً ، ثم عاد الى دمشق حيث وافته المنية عام ٦٤٦ هـ .

واهتم كذلك العرب بالعلوم الزراعية ، فازدهرت بها بلاد الأندلس ، وبلغت من التقدم درجة لم تعرفها البلاد من قبل ، وأخصبت تربتها وزادت محاصيلها بفضل تكاتف العلم مع العمل ، وأشهر علماء العرب في هذا المضمار من الناحية العلمية العملية يحيى بن العوام

الذى ذاع صيته وبلغت شهرته أوجها في النصف الأول من القرن السادس من الهجرة ، فوضع مؤلفا جليلا في هذا العلم نقل بعد ذلك الى اللغة اللاتينية ، فكان حجة بالغة في عصره ، ومرجع كبار علماء أوروبا سنين طويلة .

والحاقا للدراسات الزراعية وضع أحمد التيفاشي المتوفى سنة ٦٥١ هـ كتابا قيما في علم الأحجار جاء فيه بمعلومات وافية عن معادن الأرض وعناصرها ؛ واشتهر هذا الكاتب أيضا بمؤلفه في الحب والحياة التناسلية الذى نقل الى اللغة اللاتينية وذاع ذبوعا واسعا .

وانتشرت كذلك في غضون هذا العصر مؤلفات عديدة في السحر والشعوذة والتفائل والتشاؤم ، حتى كادت تكون لها ناحية مستقلة في الأدب العربي ، الى أن وضع الكاتب الألمى عبد الرحيم الجوبرى كتابا في التنبيه على أضاليل هذه المسالك لتحذير العامة والخاصة من الوقوع في حبال من تصدوا للدفاع عنها ونصبوا أنفسهم للإيقاع بالناس والتغريب بعقولهم .

مشكلة الاحاديث النبوية وبيانها

هذا كتاب وضعه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي ، وقد كتب تحت اسمه : « يحتوى هذا الكتاب على الاحاديث النبوية التى استشكلتها العلوم الحديثة من طبية وجغرافية وفلكية وحسية الخ . وفيه بيانها بنفس العلوم الحديثة . وسيجد القارئ في الكتاب مقالا حيا للدفاع عن نصوص الدين المقدس ، ومثالا حيا للنقد الفلسفى العصرى . » وقد وفى الأستاذ بما اشترط ، فأثنى باحاديث في موضوعات شتى ، وتولى تفسير مؤداها والدفاع عنها والتوفيق بينها وبين العلوم الحديثة .

فنشكر لحضرة الأستاذ الفاضل غيرته على الدين ، وخوفه للزياد عن بيضته بأحسن ما يملك من بيان ، راجين له التوفيق والسداد .

حياة محمد

هذا اسم أول كتاب تناول الكلام في السيرة المحمدية على الأسلوب العصري الحديث، فكان لواقعه الدكتور محمد حسين هيكل بك فضل التجديد في هذه الناحية من البحث الذي يمس الاسلام من مكان قريب .

أول ما يستوقف الناظر في هذا الكتاب جمال مظهره ، وحسن تبويبه ، وتوفر فهرساته ، بحيث يستطيع القارئ أن يقف على أى موضوع أو بلد أو قبيلة أو حادثة أو معركة في الحين الذى يطلبه فيه ، دون أن ينفق فى ذلك وقتاً أو يتكلف بحثاً .

فإذا تصفح القارئ الكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعية الدكتور هيكل تجلياً باهراً ، تضطره بسحر بيانها أن يقتنى أثرها فى أدوار هذا التاريخ الحافل بالعظماء ، فتتمر به على صفحات أملاها الايمان الراسخ ، والفهم الناقب ، والغوص البعيد الغور ، مما لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر فى البيان والبحث العميق ، ولا نشط إذا حكمنا بأنها من الطرائف التى كتب لها الخلود .

ليس مؤدى هذا الإطراء أننا نوافق المؤلف على كل الآراء التى بسطها فى مقدمة كتابه ، كتعليقه أسباب الخصومة بين المسيحيين والمسلمين ، أو تقريره بأن الأوربيين لما فقدوا الروحانية هبوا يتلمسونها من المذاهب الهندية ؛ كما لا نوافقه أيضاً على كثير مما جاء فى صلب الكتاب من الأحكام الاجتماعية ، كقوله عن قريش إنها كانت أشبه بجمهورية حرة ، وكاعتداده فى دحض بعض الشبهات بقوله : « العظمة لا تخضع لقانون » ، فإن هذه الآراء والأحكام ، ولها أشباه فى الكتاب ، لا تمت الى العلم بصلة وبعضها بالخطاييات أشبه . بيد أن هذه الهنات لا تنقص من قيمة هذا الكتاب للمتع ، ولا نعرف أنه يخلو من أمثاله كتاب فى الأرض ، فهى لا تمنعنا أن نكيل الثناء للدكتور هيكل بغير حساب ، راجين أن يوفقه الله لإبراز ثمرات أخرى لألمعيته النيرة

في هذه الناحية من الدراسات الاسلامية، فهي في حاجة الى الكثير من أمثاله في هذا العصر .

وبعد فلا يجوز لنا أن نختم هذه الكلمة دون أن ننوه بتلك المقدمة القيمة التي تفضل بكتابتها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأ كبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر، إشادة بذكر هذا الكتاب، وقد اطلع على جزء منه قبل الطبع، فإنها قد جلت من أحوال النبوة والأنبياء، ومن خصائص خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، وكشفت من أسرار الاسلام وحكمة القرآن، وبيّنت من مذهب أهل العلم في البحث والنظر والاستقصاء، ما يجب على كل متصد لهذه البحوث الاسلامية أن يتفهمه، ويترسم طريقته. وأشد ما يأخذ بلب الإخصائي في هذه البحوث تلك الدائرة الواسعة التي خطها فضيلته للبحث عن حقيقة الاسلام، وهي دائرة شملت جميع المحاولات العلمية والفلسفية، وأطلقت عقل الباحث من تلك المناطق الضيقة التي كان يتخبط فيها ولا يستطيع أن يحصل ما يستطيع أن يقدمه للناس من غذاء روي يكتفون به عن تلمس غذاء غيره. وهذه أكبر خدمة يمكن أن يؤديها مصلح الاسلام في هذا العصر، بل هي الخطوة التجديدية التي ستكون، ولا محالة، سببا لظهوره على الدين كله. وإنا حرصا على هذا العهد العلمي الذي يعلنه إمام الدين اليوم، رأينا أن ننشر هذه المقدمة، لا خدمة لكتاب الدكتور هيكل، فقد قامت الجرائد اليومية قبانا بذلك، ولكن تدوينا لهذا العهد العلمي الخطير في مجلة الاسلام الرسمية م محمد فريد ومبري

*
* *

والى القارئ مقال حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأ كبر :

«منذ وجد الانسان على الأرض وهو مشوق الى تعرف ما في الكون المحيط به من سنن وخصائص، وكلما أمعن في المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذي قبل، وظهر له ضعفه وتضاءل غروره، ونبي الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود. فقد

جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحي العظمة الانسانية فيه ، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلّت قدرته في عقله وخلقه وعلمه . ولو أنهم استطاعوا الوصول الى شيء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ، وأمامهم جهاد طويل ، وبعد شاسع ، وطريق لا نهاية له .

«والنبوة هبة الله لا تنال بالكسب ؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح المستعد لها ، والفادر على حمائها ، الله أعلم حيث يجعل رسالته . ومحمد صلى الله عليه وسلم أُعِدَّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه : أحمره وأسوده ، إنسه وجنه ؛ وأُعدَّ لأن يحمل أكل رسالة وأكل دين ؛ ولأن يختم به الأنبياء والرسل ؛ وليكون شمس الهداية وحده الى أن تنفطر السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

«عصمة الأنبياء في التبليغ وأداء أمانة الوحي قضية فرغ العلماء منها ؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار في التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها . غير أن الوحي لا يلزم الأنبياء في كل عمل يصدر عنهم ، وفي كل قول يبدر منهم ؛ فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحيانا .

«أمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التي يتبعها في التبليغ وفي حماية الدعوة ، وترك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل ما يخص ذات الإله ووحدته ، وصفاته وكيفية عبادته ؛ ولم يسكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ؛ وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي ؛ فقد صار مبلغاً عن زبه داعياً اليه ، حامياً لتلك الدعوة ولحرية الداعين ، مدافعاً عنهم ؛ وأصبح حاكم الأمة الاسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيتها ، ومنظم جميع

الصلات والروابط فيها، وبينها وبين غيرها من الأمم . وقد أقام العدل في ذلك كله ، وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسوغ إمكان التأليف بينها ، وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر ، وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم في كل ما صدر عنه من قول أو فعل ، وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وينابيع البلاغة التي يطأطيء البلغاء رءوسهم أمامها لإجلالها وهيبته ؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله ، مرضى عنه من الله ومن المسلمين .

« كل هذه النواحي تستحق الدرس والتخصص ؛ وليس في مقدور شخص واحد أن يفحصها ، بل ليس في مكنة شخص واحد أن يوفى على الغاية في ناحية من هذه النواحي . » وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظماء : أضيف إليهما ما ليس منهما ، إما عن حب وهوى وحسن قصد ، وإما عن سوء قصد وحققد . غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئا كثير ضمته الوحي الإلهي ، وضمن حفظه الكتاب المطهر ؛ وشيئا كثيرا روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدثين . وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة ، وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها ، وأن تحلل التحليل العلمي الدقيق ، ملاحظا في ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعاد .

« وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسر لي أن أطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه . والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية ، غنى بآثاره فيها عن التعريف . وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة ، ومكنته ظروفه وطبيعته عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة ، وأوفى منهما على حظ عظيم . وناظر وجادل ، وهجم ودافع : في المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع ، وفي السياسة وغيرها ، فنضج عقله وكمل علمه ، واتسع اطلاعه وامتد أفقه ، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة ، وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه .

بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال في مقدمته : « لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد ؛ بل لعلنى أكون أدنى الى الحق إذا ذكرت بأنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تحوم من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فإذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتحصيل ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وهى ذى معنى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » . انتهى كلام الدكتور . ثم شرع فضيلة الأستاذ الأكبر يقول :

« أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأناب من يتبع الظن ، وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » ، وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن ، وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحننا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

« وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد سائر الدكتور غيره من العلماء فى هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سالف المسامحة . انظر كتب الكلام ترم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا ، إن أول واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية ،

أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبدهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف في المنطق. وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

« وقد جرى الامام الغزالي على الطريقة نفسها. وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء، ثم فكر وقدر، ورتب ووازن، وقرب وباعد، وعرض الأدلة وهذبها وحللها، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الاسلام حق، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء. وقد فعل هذا ليحافى التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستفيق المعتمد على الدليل والبرهان؛ ذلك الايمان الذي لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه.

« أنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألقته من العقائد، ثم البحث والنظر. فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم. والتجربة والاستقراء التام وليدا للملاحظة. فليس هناك جديد عندنا. ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعمل في الشرق، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة.

« هذا القانون العلمي في البحث معروف قديما وحديثا. والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير. ولا يتفاوت الناس كثيرا في معرفة القانون، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون.

« تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة في دمه وعقله، وأحمال البيئة في البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات، كيف يسهل عليه تطبيق القانون :

« هذا موضع الداء قديما وحديثا، وهو سبب تعدد المذاهب والآراء، وسبب تبدلها

وتنقلها من قطر الى قطر، ومن أمة الى أمة. والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياهن، وقل أن تجد فيها شيئا يصونه حرز أو يقيه حصن، بل سرى التبدل الى قواعد العلم التي لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعاً للشك. ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها. والآراء في الأمراض وأسبابها وطرق علاجها، وفي التغذية، لا تزال مطيعة للتبدل والتحول. وهكذا إذا أنعمنا النظر لا نجد أمناً لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافراً فيه. ولكن ما نسبة هذه الأشياء التي يتوافر فيها البرهان الى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأهواء، وتوجه الأذهان المريضة، وتفرضه السياسة، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة في مخالفة غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء؟ ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يوماً من الأيام الى الدخول في حى الحق وحصن اليقين، وهو الوحي الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة.

» نعود بعد هذا الى الدكتور هيكل وكتابه :

» يقول بعض علماء الكلام: إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الانسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهي لدقائق الوجود. وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرب الى العقل الانسانى طريق فهم ما كان غامضاً منهما، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقاً لقوله تعالى: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد». والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت الى العقل فهم إمكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة. وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها، وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طي الأبعاد. وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشيء طريف.

« ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبي أن أنبه الى تلك الحسنات إجمالاً ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ، ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً لا خلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما في الوحي المحمدي من هدى ونور ، وبما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئناً كل الاطمئنان الى أن هذا الدين المحمدي سينقذ البشر مما هم فيه من الخيرة ، وينشلهم من ظلمة المادة ويبصرهم بنور الايمان ، ويوجههم الى النور الإلهي ، فيدركون به سعة رحمته التي وسعت كل شيء ، وعظمة مجده الذي تسبح به السموات والأرض وكل شيء فيهما ، وعزته التي تتضاءل أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : « وأذهب أبعد مما تقدم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدي الانسانية طريقها الى الحياة الجديدة التي تلتمسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الاسلام ورسوله ، وتلتمس هذا النور في (تيوزوفية الهند) وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والانصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق . والتفكر الاسلامي ، على أنه تفكير علمي على الطريقة الحديثة في صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعي بمحت ، ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالكون وخالق الكون . ويقول : « لكن طلائع القضاء على الوثنية التي تتحكم في عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره ، والشورة الروحية التي انتشرت في العالم كله كأثر من آثاره » . انتهى كلام الدكتور .

ثم تابع فضيلة الأستاذ الأكرم ما هو بسبيله فقال :

« وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ، فإن ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ، ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأهمه قديما وحديثا ، ومن إنصاف بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أبدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا الى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم ، وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعا عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله . وكما نصره أول أمره الغرباء من البيئة التي نشأ فيها ، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غربيا وسيعود غربيا كما بدأ فطوبى للغرباء .

« وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هاد ومرشد ، وكان دينه أكمل دين بنص الوحي القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن ، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب . » وقد وفق الدكتور في تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض ، فجاء كتابه عقدا منضدا ، وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانا قويا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضى القلب ، يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره يبرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث .

« وفي الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب في بيان أغراضها .

« وأختم كلمتي هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه :
« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة
من أن تنزل على غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله » . ١٥ فبراير سنة ١٩٣٥ محمد مصطفى المراغى

CHAPTER 30.

Islam is a faith that is easy to practise and the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : The religion most acceptable unto Allâh is the true Faith of Islam that is easy to practise

We are informed by ʿAbdus-Salâm b. muttahir, who had it from ʿUmar b. ʿAli through Mâʿn b. Muhammad Al-Ghifârî, through Saʿîd b. Abu Saʿîd Al-Maqburi through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

Islâm is a religion easy to practise ; for no one can be too rigorous in the practice of it, without being overcome by it. Therefore be ye upright and moderate, and hope for you reward. Call to your aid the early morning and the evening prayers, and also some prayer in the night .

بَابُ : الدِّينُ يُسْرٌ وَقَوْلُ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْخَنِيفَةُ السَّهْلَةُ »

حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ مُطَهَّرٍ قَالَ :

حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ مَعْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ

الْغَفَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ

الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ

يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدَّدُوا

وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوِّ

وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَى » .

We are informed by Ismâ'il, who had it from Màlik, through Ibn Shihâb, through Humaid b. Abdur-Rahmân, through Abu Hurairah that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) said :

He who keepeth vigil during the nights of Ramadân , performing prayers of supererogation, from faith and devotion, shall have his former sins forgiven him .

CHAPTER 29.

To fast during the month of Ramadân out of devotion is a feature of the Faith .

We are informed by Ibn salâm, who had it from Muhammad b. Fudail, who received it from Yahya b. Sa'îd, through Abn Salamah, through Abu Hurairah, who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

He who keepeth the Ramadân fast , out of faith and devotion, shall have his former sins forgiven him .

حدثني مالك عن ابن شهاب عن محمد

ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ

لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »

باب : صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا

مِنَ الْإِيمَانِ .

حدثنا ابنُ سلام قال :

أخبرنا محمد بن فضيل قال : حدثنا

يحيى بن سعيد عن أبي سلمة عن أبي

هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا

وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

whom it was related by Abu Zura'h b. 'Amr b. Jarir, who heard it from Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

Allâh hath vouchsafed to him, who shall go forth *to war* in His cause with no other motive but faith in Him and belief in His Prophets, that He will send him home with the reward or booty he hath won ; or else He will let him enter Paradise .

But for the hardship I should cause my people, ⁽¹⁾ I should not remain behind the ranks,⁽²⁾ but should wish to be killed in the cause of Allah and then be raised from the dead, and then to be killed and be raised up again, and be killed at last .

CHAPTER 28.

On the fact that to watch voluntarily in prayer during the night's of Ramadân is a feature of the Faith.

قال حدثنا أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير قال سمعتُ أبا مُهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « انتدبَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَلِصَدِيقٍ رِئُوسِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّةٍ مَا قَعَدْتُ مُخَلْفَ سَرِيَّةٍ وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَُحْيَا ثُمَّ أَقْتُلُ ثُمَّ أَُحْيَا ثُمَّ أَقْتُلُ .. »

باب : تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ . حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ :

(1) by involving them in the hardship of allowing him to bear the brunt while they remained behind ,

(2) سرية — properly a body of troops not exceeding 400 in number.

breaketh it; and when he disputeth ,
he dissembleth .

Sufân's narration of this Hadith
is confirmed by Shu'bah through Al-
A'mash.

CHAPTER 26.

Watching in prayer through the
Night of Destiny ⁽¹⁾ is a feature of
the Faith.

We are informed by Abul-Yamân
who had it from Shu'aib, to whom it
was related by Abuz-Zinâd, through
Al-A'raj, through Abu Hurairah who
stated that the Apostle of Allah
(Allâh bless him and give him peace)
said :

He who Keepeth vigil on the
Night of Destiny out of faith and
devotion, shall have his former sins
forgiven him.

CHAPTER 27.

The Jihâd^[2] is a feature of the
Faith .

We are informed by Harami b.
Hafs, who had it from 'Abd-ul-Wâhid
who received it from 'Umârah, to

حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا
خَاصَمَ فَجَرَ » (تَابِعُهُ شُعْبَةُ عَنْ
الْأَعْمَشِ)

بَابُ : قِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ الْإِيمَانِ .
حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ
قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو الزُّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ يَقُمَ لَيْلَةَ
الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِهِ »

بَابُ : الْجِهَادُ مِنَ الْإِيمَانِ .

حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ حَفْصٍ قَالَ :
حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ قَالَ حَدَّثَنَا عُمَارَةُ

(1) ليلة القدر = one of the last ten nights of Ramadân, commonly reckoned as the seventh
from the end .

(2) الجهاد = War in defence of the Faith physical and moral .

CHAPTER 25.

On the signs of the hypocrite .

1. We are informed by Suleimân Abu-r-Rabi; who had it from Ismâ'il b. Ja'far, who recived it from Nâfi' b. Mâlik b. Abu 'Amir Abu Suhail, through his father, through Abu Hurairah from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

The marks of the hypocrite are three : whenever he speaketh, he lieth; when he maketh a promise he breaketh it; and when trust is put in him, he betrayeth it .

2. We are informed by Qabisah b. 'Uqbah, who had it from Sufiân, through Al-A'mash, through 'Abdullah b. Murrah, through Masruq, through 'Abdullâh b. 'Amr that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

There are four qualities, which, if inherent in a man, make him a perfect hypocrite ; and any man who hath in him one of these qualities, hath in him a quality of hypocrisy until he be rid of it. These are that: when trust is placed in him, he betrayeth it ; when he speaketh, he lieth ; when he maketh a pledge, he

بَابُ عَلَامَاتِ الْمُنَافِقِ

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ أَبُو الرَّبِيعِ قَالَ :
حَدَّثَنَا إسماعيل بن جعفر قال :
حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَبُو
سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ
ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ
أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُتُمِّنَ خَانَ . »

حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ قَالَ حَدَّثَنَا
سُفْيَانُ بْنُ الْأَعْمَشِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ مُرَّةَ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا
خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ
مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ
حَتَّى يَدْعَهَا : إِذَا أُتُمِّنَ خَانَ ، وَإِذَا

of Allâh said I, ' so would it be with the slayer, but what of him that is slain ? ' ' He purposed to kill his fellow. ' was the reply ”.

CHAPTER 24.

Showing that some iniquities are worse than others.

We are informed by Abul-Walid, who had it from Shu'bah; we are also informed by Bishr, who had it from Muhamimad, through Shu'bah, through Sulaimân, through Ibrâhim, through 'Alqamah, through 'Abdullâh, who said

When this verse ⁽¹⁾ was revealed: “ Those who truly believe and have not vitiated their faith with iniquity⁽²⁾ they shall have security and shall be guided aright”, the Companions of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : “ Which of us hath not committed iniquity ? ” then Allâh sent down the verse⁽³⁾ : “ Verily associating partners with Allâh is the great iniquity. ”

الْقَائِلُ فَمَا بَالُ الْمُقْتُولِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ
كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ

بَابُ : مُظْلَمٌ دُونَ مُظْلَمٍ

حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ قَالَ : حَدَّثَنَا
مُشْعَبٌ قَالَ وَحَدَّثَنِي بَشَرٌ قَالَ حَدَّثَنَا
مُحَمَّدٌ عَنْ مُشْعَبٍ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ
« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ »
قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ « إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

(1) Surah 6, verse 82.

(2) ظلم here according to the commentators = infidelity or idolatry.

(3) Surah 31, verse 12

heavy for them; and if ye do, then help them ' . ”

كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعَيْنُوهُمْ .»

CHAPTER 23.

On the Qur.ânic verse : “ And if two groups of true believers engage in strife, reconcile them ”—Allâh calling them true believers. ⁽¹⁾

We are informed by ,Abdur-Rahmân b. Al-Mubâarak, who had it from Hammâd b. Zaid, who received it from Ayyûb and Yûnus through Al-Ahnaf b, Qais, who said :

I was going to the help of a certain man ⁽²⁾ when I was met by Abn Bakrah, who said : “ Whither goest thou ? ” “ To the help of this man,” said I. “ Go back ”, said he , “ for I heard the Prophet of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say : ‘ If two believers fall upon each other with the sword, both the victor and the victim are in Hell.’ ‘O Apostle

بَابُ : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ.
حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمُبَارَكِ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ وَيُونُسُ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ الْأَحْمَفِ ابْنِ قَيْسٍ قَالَ : ذَهَبَتْ لَأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ فَلَقَيْتِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تَرِيدُ؟ قُلْتُ : أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ : ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسِيفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا

(1) to show that even when they have committed the sin of fighting, they are still true believers.

(2) Ali b. Abu Talib, the Prophet's cousin, on the day of “ the Camel ”.

We are informed by Sulimân b. Harb, who had it from Shu'bah, through Wâsil Al-Ahdab, through Al-Ma'rur who said :

One day I met at Ar-Rabadhah⁽¹⁾ Abu Dharr wearing a suit of clothes⁽²⁾ while his servant was wearing a similar one . When I questioned him about this he replied : “ Once I and another man were reviling one another and I referred to his mother in a way that brought him to shame . The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then said to me : ‘ Abu Dharr, thou hast brought this man to shame on account of his mother . Truly thou art a man imbued with the spirit of “ the Ignorance ”. Your servants are your brethren whom Allâh hath placed under your authority. So let him whose brother is under his authority feed him from what he eateth *himself* and clothe him with such clothes as he *himself* weareth . Place ye not upon them tasks too

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا
شعبة عن واصل الأحدب عن المعرور
قال لقيت أبا ذرٍّ بالربذة وعليه
حله وء غلامه حله فسألت عن
ذلك فقال : إنني سأبت رجلًا
فعيرته بأمه فقال لي النبي صلى الله
عليه وسلم : « يا أبا ذرٍّ أعيرته بأمه
إنك امرؤ فيك جاهلية ! إخوانكم
خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ،
فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
مما يأكل وليلبسه مما يلبس ،
ولا تكلّفوهم ما يغلبهم ، فإن

(1) A place 3 miles from Medina on the way to Mecca .

(2) حله = a new suit of good material consisting of two pieces, tunic and cloak (رداء وازار)

ingratitude to their husbands whose kindness they have demied . (1)

If thou spend thy life doing good to any one of them, and then she find the least thing from thee to displease her, she will say : “ I have never received any benefit from thee whatsoever.”

لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ
رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ
مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ .

CHAPTER 22.

On the fact of sins being a feature of the age of the Ignorance, and no sinner is considered to be an unbeliever through the commission of them, except in the case of the sin of infidelity, based on the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : “ Thou art a man imbued with the spirit of the Ignorance ; ” and the word of Allâh (be He exalted) : “ Allâh forgiveth not the association of aught with Him (2) but forgiveth all else to whom He pleaseth ”. (3)

بَابُ : الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ

وَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهَا بِإِذْنِ كِتَابِهَا

إِلَّا بِالشَّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ : إِنَّكَ أَمْرٌؤُ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ »

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ

لِمَنْ يَشَاءُ »

(1) See Al-‘Aini’s *Commentary on Bukhari* page 202 Vol . I Cairo.

(2) Ibn Hajar and Al-‘Aini maintain that شرك here is synonymous with كفر and accordingly may be translated “ disbelief in Him . ”

(3) Surah 4, Verse 41.

knowest and those whom thou knowest not .

وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ
لَمْ تَعْرِفْ»

CHAPTER 21.

On the ingratitude towards the husband, and on the fact that ingratitude is next worst after infidelity. (1) Containing a tradition transmitted by Abu Saïd Al-Khudri, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) .

بابُ كُفْرَانِ الْعَشِيرِ وَكُفْرِ دُونِ
كُفْرٍ، فِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ
اللَّهِ بْنُ مُسْلِمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ
ابْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ قَالَ :

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرَيْتُمُ
النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ ،
قِيلَ أَيْ يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ ؟ قَالَ : يَكْفُرْنَ
الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ .

We are informed by ‘Abullâh b. Maslamah, through Màlik through Zaid b. Aslam, through ‘Ata b. Yasar through Ibn ‘Abbâs that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

I was shown hell-fire and blold ! most of the souls in it were women who were there because of their ingratitude . When the Prophet was asked whether this meant disbelief in Allâh, he replied : “ No,

(1 Houdas & marçais' rendering of this heading as “ L'ingratitude peut être plus ou moins grand ”, does not convey the meaning .

This Hadith was also transmitted by Yûnus, Sâlih, Ma'mar, and Az-Zuhri's nephew, through Az-Zuhri.

وَرَوَاهُ يُنُسُ وَصَالِحٌ وَمَعْمَرٌ
وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيُّ عَنِ
الزُّهْرِيِّ .

CHAPTER 20.

To diffuse the greeting is a feature of Islam .

‘Ammar said : “ there are three features — if a man hath combined them in himself, he hath possessed the Faith entire : to impose justice upon oneself, to lavish the greeting on all people, and to give out of one's poverty .”

بَابُ : إِفْشَاءِ السَّلَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ .
وَقَالَ عَمَّارٌ : ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ
جَمَعَ الْإِيمَانَ : الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ،
وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ
الْإِقْتَارِ .

We are informed by Qutaibah who had it from Al-Laith, through Yazid b. Abu Habib, through Abul-Khair, through ‘Abullah b. ‘Amr that :

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ
يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ عَنْ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ
الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : « تَطْعِمُ الطَّعَامَ ،

A man once asked the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) which feature of Islam was the best. He replied : “ That thou give food and pronounce the greeting upon those whom thou

the most worthy of them, so I said :
 “ O Apostle of Allâh, what is thy
 objection to such a one ? for by
 Allâh I perceive in him a true
 believer ! ” “ Nay, a *professing*
 Muslim ! ” replied the Prophet. I was
 silent for a while, and then I was
 dimelled by my certainty of his
 sincerity, and I repeated my words
 saying : “ What is thy objection to
 such a one ? for by Allâh I perceive
 in him a true believer ! ” “ Nay, a
 professing Muslim ! ” repeated the
 Prophet. Again I was impelled by
 my certainty of his sincerity and
 repeated my words. Then the Apostle
 of Allâh (Allâh bless him and give
 him peace) again replied and said :
 “ O Sa'd, indeed I give to the one
 man when another is dearer to me,
 for fear that Allâh may cast him
 headlong into hell fire .” (1)

هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَّاهٍ إِلَيَّ لَا رَأْيَ
 مُؤْمِنًا. فَقَالَ : « أَوْ مُسْلِمًا » فَسَكَتُ
 قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعَدْتُ
 لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَّاهٍ
 إِلَيَّ لَا رَأْيَ مُؤْمِنًا، فَقَالَ « أَوْ مُسْلِمًا »
 ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعَدْتُ لِمَقَالَتِي
 وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
 ثُمَّ قَالَ : « يَا سَعْدُ إِنِّي لَا أُعْطِي الرَّجُلَ
 وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةً أَنْ
 أَنْ يَكْبَهُهُ اللَّهُ فِي النَّارِ »

[1] The purpose of this Hadith is to emphasise the difference between a professing Muslim and a true believer, and if Sa'd was categorical in his assertion of the man's sincerity, he was presuming to speak of matters of the heart known only to God. The Prophet's denial of a gift to Ju'ail the man referred to in the Hadith, was due to the Prophet's confidence in his faith, so that no gift from him was necessary to save him from relapsing and being cast into hell-fire, as might be the case with the other recipients of his gifts.

of Allâh (be He exalted) : “ The Bedouins said : ‘ We have believed’. Sey : ‘ Ye have not sincerely believed ’ . but say that ye have professed Islam . ” (1)

When the profession of faith is sincere, it must be according to His word (glorified be His Name) ‘ The true religion in the sight of Allâh is Islam, ’ (2) and again : “ Whosoever seeketh another religion than Islâm shall not have it accepted from him . ” (3)

We are informed by Abul-Yamân, who had it from Shu'aib, through Az-Zuhri, who received it from Amir b. Sa'd Ibn Abu Waqqâs, through Sa'd (Allâh be pleased with him) that :

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had just distributed gifts to a few people, while Sa'd was seated *with him*, and the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had omitted a man who seemed to me

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .
فَإِذَا كَانَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ
جَلَّ ذِكْرُهُ : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ » « وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب
عن الزُّهري قال أخبرني عامر بن سعد
ابن أبي وقاص عن سعد رضى الله عنه
أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم
أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ
رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً

(1) Surah 49, verse 14.

(2) Surah 3, verse 17.

(3) Surah 3, verse 79.

We are informed by Ahmed b. Yūnus and Mūsa b. Ismail, who both had it from Ibrahim b. Sa'd, who received it from Ibn Shihāb, through Sa'id b. Al-Musayyab, through Abu Hurairah that : The Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) was questioned as to which work was the most meritorious before Allāh, and he replied : " Faith in Allāh and His Apostle ". He was then asked what came next and replied : " The Jihād ⁽¹⁾ in the cause of Allāh ." He was again asked what came after that and replied : " A pilgrimage to Mecca sincerely performed ."

CHAPTER 19.

On the case where the profession of faith is insincere, and is made for the sake of peace, or through fear of death, based on the word

حدثنا احمد بن يونس وموسى بن
اسماعيل قالا حدثنا ابراهيم بن سعد قال
حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب
عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم سُئِلَ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟
فَقَالَ : إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟
قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟
قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ .

بَابٌ : إِذَا لَمْ يَكُنْ الْإِسْلَامُ

عَلَى الْحَقِيقَةِ وَكَانَ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ
أَوْ الْخَوْفِ مِنَ الْقَتْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(1) الجهاد Properly "endeavour" not to be confused with the idea of a " Holy War " in the sense of a crusade which has been wrongly associated with it ,

CHAPTER 18

On those who maintain that faith is works, ⁽¹⁾ as would appear from the word of Allâh (be He exalted) : “ This is the Paradise which ye have been given in heritage *as a reward* for your works . ” ⁽²⁾

A certain number of doctors have considered the word of Allâh (be He exalted) : “ By thy Lord, We shall call them all to account for their works ” ⁽³⁾ as meaning the profession of faith “ There is no deity but Allâh ”.

Allâh hath also said : “ To such a consummation let those who practise the Faith devote their efforts ”. ⁽⁴⁾

بَابُ مَنْ قَالَ إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ

الْعَمَلُ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»

وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «فَوَرَبِّكَ لَكُنْهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: عَنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَالَ: «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ»

(1) This chapter is intended to throw light on the controversy between the efficacy of faith and of works. The Murjites believed in justification by faith in the sense of “ profession of faith ” (الإيمان قول بلا عمل), and Al-Bukhârî refutes them here by interpreting عمل as إيمان that is to say , “ works ” as “ faith ”, but not merely “ profession of faith, ” since conscientious and not formal faith is the real main-spring of action. In reply to the contention that عمل means “ mere profession of faith, ” Al-Aini and An-Nawawi hold that God will call both faith and works into judgment, and the case for mere profession cannot be supported.

(2) Surâh 43, verse 72 .

(3) Susrâh 15 . verse 92.

(4) Surâh 37, verse 59.

CHAPTER 17.

On the Qur'ānic verse : “ If the Infidels repent, perform the appointed prayers and give the prescribed Alms, then let them go their way .”

We are informed by ‘Abdullāh b. Muhammad Al-Musnadi, who had it from Abu Rawh Al-Harami b. ‘Umārah, who received it from Shu‘bah, through Wāqid b. Muhammad, who heard it related by his father, through Ibn ‘Umar, that the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) said :

I have been commanded to fight against idolotors until they testify that there is no deity but Allāh, and that Muhammad is the Apostle of Allāh, perform the appointed prayers, and give the prescribed alms. When they do these, they shall have safeguarded their lives and property from me except for what is due to Islam . Their souls’ reckoning lieth with Allāh,

بَابٌ : فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلَّاهُمْ سَبِيلَهُمْ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُسْنَدِيُّ

قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحٍ الْحَرَمِيُّ بْنُ

عُمَارَةَ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ وَاقِدِ

ابْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ ابْنِ

عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى

يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ

يُحَدِّثُوا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ،

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ

عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا

بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ :

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

١٩

توجيه قوى الاجتماع الى الاصلاح لا الفساد

قامت قبل الاسلام أم توافرت فيها جميع أسباب القوة ، فلم تلبث أن اضطرتها سنن الاجتماع الى التبسط فى الأرض ، فبدأت بمن جاورها من الجماعات فأخضعتهم لسلطانها ، ثم أخذت توالى الفتوح وتنساح فى البلاد الى كل جهة طلبا للتوسع فى الملك ، والتضخم فى الثروة ، فكانت الطريقة التى تتبعها هى ما تمليه عليها القوة الغاشمة ، لأصول العدل ، ولا حدود الحق . فكانت تستولى على المدن فتدك عمرانها ، وتسلب أموالها ، وتستذل أهلها ، وتبيد خضرائها ، وتولى عليها من يسوم أصحابها الخسف . لقد كانت هذه سنة الفاتحين ، وقد أحسنت إيجازها ملكة سبأ إذ قالت حين أتاها كتاب سليمان كما حكاه الكتاب عنها فى قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » أى أن عادة المسالطين إذا دخلوا قرية فاتحين أتوا على عمرانها ، وأذلوا أعز أبنائها ، هذا دأبهم فى كل حين .

فأما إقامة الدليل على ذلك من التاريخ فيسور ، وهل التاريخ شئ غير ذكر تفاصيل الحوادث المروعة التى كان يرتكبها القاهرون ضد المقهورين ؟

إن أقرب الأمم الى بنا دولة الرومان ، فقد عرف من تاريخها أنها كانت تغير على المدائن فتجعل عاليها سافلها ، وتستعبد أهلها ، وتنقل سادتها وكبرائها الى رومية فتشدهم بدل الخيول فى عربة ملكية يجلس فيها الأباطور ورجال دولته ، فتسير بهم على هذا

النحو أمام الشعب حتى تمر بهم تحت أقواس النصر . أما رعايا هؤلاء القادة فكانوا يعاملون أسوأ معاملة : تضرب عليهم الأتاوات الفادحة ، ويولى عليهم من يسومونهم سوء العذاب ، حتى بادت تحت نير هذه المظالم جماعات وأسر لا حصر لها .

وأقرب من الرومانيين جنكيزخان ملك التتار ، فقد انساح بجنوده في الممالك الآسيوية فأخربها وجعل عامرها يبابا ، واتخذ أهلها خولا وعبيدا . وسار أولاده سيرته ، فكان منهم هولاكو الذي زحف على بغداد ، فأتى على كل عامر في طريقها ، وارتكب من ضروب العسف بالناس ما يقشعر له جلد الانسان ، وتنقبض له نفسه . فلما وصل الى بغداد وحال بينه وبينها نهر دجلة ، ألقى بكتب مكتبتها في النهر ، وجعلها قنطرة اجتاز عليها جنوده ، ثم دأب الخليفة المستعصم بالله في قصره ، فأمر بربطه في ذيل حصان فاره ، وألعبه بالسياط فركض ساحبا وراءه الخليفة على الدأماء ، فتحطمت عظامه ، وتمزقت أشلاؤه ، وما زال يطوف به على هذه الصورة حول قصره حتى صار جثة مشوهة هامدة ، ثم أمر بقتل خاصة الخليفة وجمع من أهل بيته ، ثم أوغل في شيعته سلبا ونهبها ، وأباح بغداد أياما لجنوده يرتكبون أشنع ما يؤثر عن قسوة الانسان على الانسان .

هذه كانت سيرة الجماعات البشرية عندما كانت تبلغ من القوة حدا تستطيع معه أن تغير على الأمم القريبة منها والبعيدة عنها ، ولم يعرف في تاريخ العالم أمة كانت تتورع عن هذه المآثم فتعامل مقهوريها بالرحمة والعطف ، بل كان الإيغال في الإيخان في المغوليين من المناقب التي تضاف الى مجد القادة والفاتحين .

فلما شرع الله الاسلام رفع هذا الإصر عن الخلق كما رفع عنهم جميع الأصار التي كانوا يرزحون تحتها تحقيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فكان مما وصى الله به في كتابه قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وقد كرر الله تعالى النهي عن الفساد في الأرض في آيات كثيرة ، وقد قرن تعالى هذه العادة الذميمة بخصال الفاسقين أى الخارجين عن حدود الشريعة بقوله : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون » ، حكم عليهم جل وعز بالخسران ، لأنهم إنما يبتغون من وراء نقضهم للعهود وقطعهم للوصلات وفسادهم في الأرض أن يربحوا ويثروا ، فقرر أن تلك الخصال تؤدي الى عكس ما يقصدون وهو الخسران المبين . فإن نقض العهد يصممهم بين الأمم بوصمة الخيانة فتتألب عليهم ، وقطع ذوى الرحم والمعاشرين يبعدهم عنهم في أشد الأوقات حاجة اليهم ، والفساد في الأرض يجر الى نضوب المعين الذى يستمدون ثروتهم منه ، فكيف لا يساورهم الخسران من حيث يدرون ولا يدرون ؟ وذكر الله الظالم الغاشم من الناس الذى أعد له شر مآل وعد من أخص صفاته الفساد في الأرض فقال تعالى : « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل (أى الزرع والولد) والله لا يحب الفساد » .

فكما لا يود الله لعباده الصالحين أن يسفكوا دماء الناس كذلك لا يود منهم أن يهلكوا الزرع لإجاعة الخصوم ، والمباغة في الانتقام منهم .

أين هذا التعليم الإلهي العالى من خيلاء (أتيل) ملك (الهونيين) بما يرتكبه من المظالم ضد المقيهورين ، حتى افتخر بأن العشب الأخضر لا ينبت حيث يطأ جواده ؟ هذا الملك سُلط على دواقي الرومانيين الشرقية والغربية فأخرب مدنها ، وانتهب ثرواتها سنة (٤٣٤) ميلادية .

حذر الله المسلمين أن يستنوا بسنة أهل الظلم في أخذ الشعوب بالقسوة والجبروت ، وتخريب العاصر من مدنها ، واضعاً لهم أصلاً عامياً يرجعون اليه ، وهو أن الفساد الذى يرتكبه المتغلبون في البلاد التى تقع في حوزتهم يفضي بهم الى عدم النجاح في شئونهم الخاصة ، خلافاً لما يتوهمه أولئك الفاتحون ، لأن الفساد يعدى كما تعدى الأمراض

الوبائية، خفير للأمم أن تجاور أمما صالحة للبقاء من أن تجاور أمما فى حالة تدهور وانحلال . وقد خلق الله الأمم لتتعارف وتتبادل مرافق الحياة، لالتناكر ويتربص بعضها الدوائر ببعض .

ويعرف الذين درسوا تاريخ الأمم أن الأمم المتغلبة أكثر ما أتاها الانحلال من الشعوب التى كانت فى حوزتها وسامتها سوء العذاب . فسورية التى كان الرومانيون يعاملونها أسوأ معاملة، سلم أهلها للمسلمين حين هاجوها، وتركوا الدفاع للجيش التى كانت تحتلها . ولما تصدى عمرو بن العاص لفتح مصر اتفق معه أهلها على التسليم مرانمة لإرادة قيصر الرومان . ولما نزل طارق بن زياد اسبانيا سلم له السكونت جوليان حصن الجزيرة الخضراء، وحذا حذوه بعض القادة . كان كل هذا لا يحصل لو كان الوزيفوطيون المتغلبون على البلاد لم يستنوا بسنة الإرهاق فى معاملة المقهورين .

وقد أوجز الله تعالى هذا الأصل فى قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكركر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »، أى الصالحون لىكل خير، ومنه الحكم وسياسة الشعوب .

من العجيب أن يكون هذا الأمر محلا للشك، أو يكون مما يخفى على العاقلين من الخلق : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار » ؟

وقد أوجز الله كل هذه الأصول العمرانية العالية فى كلمتين فقال تعالى : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .

ومما شدد الله فى التحذير منه على الخصوص إفساد ماتم إصلاحه فى العالم، لأن إرادة الشر فيه أظهر من إفساد ما لم يتم إصلاحه بعد، فقال تعالى : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفا وطعما، إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وزاد تنبيهه بعدم الفساد فى الأرض قوة بأن جعل النجاة فى الآخرة وقفا

على المتأدين بهذا الأُذْب الالهى فى معاملة المدن وأهلها فقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

علم الله سبحانه وتعالى أن المسلمين ستثول اليهم خلافة الله فى الأرض مصداقاً لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » فوجه إليهم الخطاب خاصة مع كل ما ورد فى هذا للناس عامة فقال تعالى : « فهل عسىتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ » جعل الله هذا التحذير فى قالب استفهام إنكارى ليكون أوقع فى النفس ، وأفعل فى القلب . ومعنى الآية فهل يتوقع منكم أيها المسلمون إن آتاكم الله الملك ، وكتب لكم التبسط فى الأرض ، أن تفسدوا فى الأرض وتمزقوا الروابط التى بينكم وبين ذوى قرباكم ومعاشريكم ؟

نزل هذا كله على المسلمين فتلقوه بقلوب صفت لقبول الحق ، فصار حالاهم لا يستطيعون عنه حولا . فلما دعتهم ضرورات الاجتماع للانسيح فى الأرض جعلوا شعارهم الرحمة والعدل ، والإصلاح فى الأرض . دخلوا سورية وكان بهم حاجة ماسة الى المقومات المادية ، فلم يسلبوا المتهورين شيئاً من أموالهم ولا عتادهم ، ولكن اكتفوا بما تكفى به كل حكومة رشيدة من ضرب الأتاوات المناسبة لحالتهم ، وجبوا منها بدون إرهاب ولا ظلم ، ونزحت الى تلك البلاد قبائل من العرب ، فسووا أهل البلاد بأنفسهم أمام القضاء ، تاركين لهم الحرية فى ديانتهم ، فلم يلبثوا أن قبلوا الاسلام ديناً لهم لما أثر فيهم من عدالة أهله ، واستقامة حكومتهم .

ثم افتتحوا مصر ، فجروا على شاكلتهم فى معاملة أهلها بالإحسان والرفق ، فلم يطل مقامهم بينهم حتى دخل المصريون فى دينهم أفواجا يجدوهم اليه مارأوه من سماحة المسلمين وسعة صدورهم ، ووقوفهم مع الحق .

ودخلوا بلاد الفرس فوجدوا أهلها شيعياً ، ومرافقها معطلة ، فأسسوا فيها حكومة

وحدت بينهم في المعاملة ، وساوت بينهم في الحقوق ، فاعتموا أن انتشر الإسلام فيهم ، حتى لم يعض عليهم بضغ عشرات من السنين حتى انقلب جمهورهم مسلمين يدافعون عن حرم الخيفية السمحة دفاعهم عن أنفسهم وأهلهم وأعز عزيز عندهم .

ودخلوا الأندلس فلم يجعلوا دينهم تجريد أهلها من أموالهم ، ونقل مذكوراتها الى بلادهم ، بل ساروا فيهم سيرة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، فأقبلوا عليهم بوجوههم وقلوبهم ، ومكنوا لهم في الأرض .

واقترحوا بعد الفرس ممالك التركستان حتى وصلوا الى حدود الصين ، جارين على سمت أسلافهم ، فدانت لهم البلاد ، وانتشر فيها الإسلام ، ولم يقف عند حد .

أسس المسلمون في كل هذه الممالك المدارس ومعاهد التربية ، وعكفوا على الدرس والبحث ، وبذلوا التعليم للكافة لا فرق بين مسلمهم وكافرهم ، حتى أصبحت مدنهم مراکز للعلم والفضل والفنون والصنائع ، وكانت لا تعرف شيئاً من ذلك من قبل .

فاشتهرت دمشق والقيروان ونيسابور وإربل وسمرقند وإشبيلية وقرطبة ومصر الى عشرات من أمثالها في جميع هذه الأمبراطورية التي لم يقيم ما يشبهها في الأرض .

فلم يحتكروا العلوم والصنائع لأنفسهم وبلادهم ، كما فعل الفاتحون قبلهم ، ولكنهم عموماً العلم في كل قطر حلوا به ، وأشركوا أهله معهم ، حتى عدوا أصحاب الأمم لسياسة الخلق .

هذا ما شهد به مؤرخو الفرنج ودونوه مجمعين عليه ، فكان كل هذا من آثار الروح العلوى الذى بثه الإسلام في قلوب أهله . فإن كانت كل أمة تفخر بعمل قامت به

في عقردارها ولقومها خاصة ، فإن المسلمين يفخرون بأنهم محدثو أكبر انقلاب في العالم أجمع ، فلم تنحصر هممتهم في بلادهم ، ولم تقتصر على ذويهم ، ولكنها عمت الدنيا بأسرها .

وإن كانت كل أمة تتمدح بغزوة أضافت بها ملكاً الى ملكها ، أو بدفاع مجيد دافعت به العدو عن حوزتها ، أو بدستور أسسته لذويها ، أو بثورة سوّت بها بين جميع

طبقاتها ، فإن المسلمين ليباهون بأنهم قاموا بكل ذلك مجتمعاً ، لا لحسابهم خاصة ولكن

لمجموع النوع البشري كافة . فما من علم يستهدى به الناس اليوم ، ولا صناعة ينتفعون بها ، ولا دستور يعيشون في ظلاله ، ولا مدنية ينعمون بحسناتها ، إلا والمسلمين يد في وضع أساسها أو بناء صرحها أو الدلالة على طريقها ، وهم يعتقدون أن الفضل في ذلك كله ليس لهم ، ولكن للدين الذي جعله الله نورا للناس يهدى به من يشاء الى طريقته المثلى « يأبىها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما » م
محمد فريد وجري

من جوامع الكلم في القرآن

قال الحارث الأعور : حدثني علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتاب الله فيه خير ما قبلكم ، ونبا ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . هو الذي لا تزيف به الأهواء ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، والذكر العظيم ، والصراط المستقيم . خذها اليك يا أعور . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، هم شر الخلق والخليقة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الزبانية لا تسرع الى فساق حملة القرآن منهم الى عبدة الاوثان ، فيشكون الى ربهم فيقول : ليس من علم كن لا يعلم » .

وقال الحسن : حملة القرآن ثلاثة نفر : رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر الى مصر يطلب به ما عند الناس ، ورجل حفظ حروفه وضيع حدوده ، واستدر به الولاة ، واستطال به على أهل بلده ، وقد كثرت هذا الضرب من حملة القرآن لا أكثرهم الله عز وجل ! ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه ، فسهر ليلته ، وهملت عيناه ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحزن ، ووالله لهذا الضرب من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر ، بهم يسقى الله الغيث ، وينزل النصر ، ويدفع البلاء .

التفسير

سورة الرعد

- ٢ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

قد اشتملت الآية السابقة على التنويه بالآيات المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم، وإبرازها في صورة أنها الحقيقة وحدها بأن تسمى آيات الكتاب وكأن غيرها لا يستحق التسمية بهذا الاسم، ثم على إثبات حقيقة ما أنزل إليه صلى الله عليه وسلم من ربه الذي أرسله وكلمه، ثم ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون بما ذكر من كمالها وحقيقتها مع قيام البرهان على إثبات هذه الحقيقة بأتم جلاء وأكمل وضوح. فجميل أن يردف هذه الدعوى التي اجتراء أكثر الناس على الكفر بها، بما يفيد حقيقتها، ويثبت أن الارتباب فيها ما جاء من ناحيتها ولا لضعف في دليلها أو هدايتها، وإنما نشأ من عمى بصائر الذين كفروا بها.

فقوله تعالى: « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » من باب إرداف الدعوى بدليلها، وتدعيمها ببرهانها. ذلك أن ارتياهم في صدقها لا يمكن أن يكون ناشئا عن استحالتها في ذاتها، إذ إمكانها الذاتي لا يقبل الشك ولا يرتاب فيه، فهي في نفسها ممكن من الممكنات بلا جدل ولا ريب، وإنما يكون الارتياب — لو فرض — ناشئا من توهم صعوبتها وعسر تحقيقها. وبعبارة أوضح يكون ناشئا من زعم تعاصيها على قدرة من نسب اليه تحقيقها، وإذا يقال لهم: وأين ما ارتبتم في حصوله لزعمكم قصور القدرة عن تحقيقه مما ترونه بأعينكم وتلمسونه بجواسمكم وترغمون على اعتقاده بما قام لديكم من أدلة لا تقبل النقص ولا يدخل عليها الريب؟ ألم يكن هذا الذي زعمتم نقص قدرته عن تحقيق ما ذكرنا هو الذي قامت قدرته بما هو أكبر وأعظم مما ترتابون فيه؟ ألم يكن هو الذي رفع السموات بغير عمد ترتكز عليه؟ « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » وإنكم لتجزمون بذلك، فما أنتم أولاء ترونها رأي العين، ويقوم على ذلك لديكم أوضح البراهين. فهل من كانت قدرته آتية على هذه المقدورات العظيمة يعجزه أن يقوم بما تنكرون من بعث وإعادة؟ وذلك هو ما سيقت هذه الآيات المتتالية لإثباته.

تعرف ذلك من قوله عز وجل بعد سوق تلك الآيات وتفصيلها: « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أإنا نخلق جديد ». وعلى ذلك يكون نسق الكلام هكذا: التنويه بالآيات التي أنزلها رب العالمين عليه صلى الله عليه وسلم هداية ونورا؛ ثم بيان أن كل ما أنزل اليه من ربه فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أول ذلك وأولاه بالتنبيه بعث الناس بعد موتهم ليلقوا جزاء ما قدموا؛ ثم النعي على أكثر الناس بتقاعدهم عن اليقين في دعوى قامت عليها البراهين، ولا ينكرها إلا من غلب عليه الانخداع بالآوهام، وقصور النظر عن الاهتداء بالبرهان ولو وضع له

وضوح العيان؛ ثم سرد تلك الآيات الباهرة والدلائل الظاهرة، مع الرجوع بها الى ما رآوه واستيقنته أنفسهم من مشاهدة أحوال السموات والأرض، والتفكر فيها أقل فكير. هذا قوله تعالى: «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» الآيات. ولقد عرض فيها لثلاثة أنواع من الأدلة، هي ما بين مشاهدات يدركها الحس وهو الغالب، ومعلومات بدليل يكاد يلحقها بالمشاهدات - (الأول) الأدلة السماوية، وذلك في قوله تعالى: «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها». و(الثاني) الأدلة المبنوثة في الأرض من ناحية تركيبها والظواهر المتجلية فيها المتواردة عليها، كإرسالها بأوتاد الجبال، وشقها بالأنهار، وكتوارد الليل والنهار. و(الثالث) الأدلة المأخوذة مما أنتجته الأرض من نبات مختلف الألوان والطعوم، مع اشتراكه في التغذية وتجاوره في الموقع؛ ومما ظهر في أجزائها من اختلاف في طبائعها وألوانها، مع تجاورها وتسليط ما يتوهم تأثيره فيها على جميع أجزائها بنسبة واحدة، وأن ذلك لم يمنع من تفارقها واختلافها، مما يدل على أن ذلك أثر صنع القادر المختار الحكيم العليم.

الدليل الأول السماوي وهو المذكور في قوله تعالى: «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها». ومعنى رفعها أوجدها مرتفعة، لا أنها كانت منخفضة فرفعها، وإنما خلقها من أول الأمر على هذه الرفة. وأدل شيء على أن رفعها بقدرته تعالى أنكم ترونها مرتفعة بلا عمد. وهذا لا يدع عند أحد ريباً في أن من رفعها كذلك قادر على ما هو أكبر من ذلك من إعادتك بعد إفنائكم «أأنتم أشد خلقاً أم السماء»، فكيف تهابون في ذلك وتقولون: إذا كنا تراباً إنا لنف خلق جديد؟ وعلى ذلك يكون الضمير في ترونها عائداً الى السموات وأنهم يرونها مرتفعة بلا عمد. ومنهم من أرجع الضمير الى عمدة باعتبار أنه جمع عمداء أو عمود كما جاء أديم وأدم وقصيم وقصم. ومعلوم أن فاعل وفعل حكمهما واحد في الغالب. ولكن الذي عليه الأكثر أنه اسم جمع لاجمع. وقد ذكر أصحاب هذا القول أن الكلام مبني على أن المعنى نفي رؤية العمدة أي رفعها بلا عمد

مرئية فلا ينافي أن لها عمدا غير مرئية . واستأنسوا اسكلامهم بأنه قد قرئ بغير عمد ترونه ، وأن الضمير حينئذ يرجع الى العمد باعتبار أنه اسم جمع لا الى السموات لأنها مؤنثة ، فتكون القراءة بتذكير الضمير مفسرة للقراءة بتأنيثه . وزعموا أن عدم رؤية العمد مع رؤية ما ارتفع عليه دليل على سعة قدرة القادر ، إذ لكل من المرتفع والعمد حكم يخالف حكم الآخر مع اتحادهما في الحقيقة الجسمية . وقد اختلف أصحاب هذا الرأي في تفسير العمد : فمنهم من زعم أنها عمد حقيقية من أجسام حاملة ، ورووا فيها روايات لم تصح ولا يعول عليها . ومنهم من فسر العمد بقدرة الله تعالى . وهو بعيد عن ظاهر التعبير بعدا كبيرا ، ولا مقتضى للتعبير عن القدرة الإلهية بالعمد مجازا ، مع أن إضافة الرفع الى القدرة ونفى العمد بالمرّة أبلغ في تقرير القدرة .

فالظاهر أن النفي راجع الى العمد ، وأنه ليس لها عمد ، ولو كان لها لرأيتموه . أى رفعها بغير عمد ، ودليل ذلك أنكم ترونها كذلك . وأما ما ذكروه من أنه رويت القراءة بالتذكير ، فإن المعنى على هذه الرواية أنكم ترون الرفع بلا عمد ؛ فالضمير عليها عائد على الرفع لا الى العمد .

والسموات عند أكثر العلماء الاسلاميين هي هذه الأجرام الفلكية المحيطة بنا المتحلية بلون الزرقة الصافية . وذلك ما يدل عليه ظواهر النصوص والأخبار الكثيرة . وبعضهم يرى أن هذا اللون ليس لون السموات ، فإنه يحدث من أسباب عدة : كأن يكون أجزاء بخارية جوية يسطع عليها شعاع ضوء الكواكب ويلبها طبقة مظلمة ، فيحصل من امتزاج الضوء الكوكبي بالأجزاء المظلمة لون متوسط بين البياض والسواد وهو لون الزرقة ؛ أو من تعاقب ذرات ذات ألوان متعددة ، فيحصل من امتزاجها ذلك اللون المخصوص ، فلا يلزم أن يكون هذا المرئي هو لون السماء .

ويمكن الرد على هذا الوجه بأن حدوث لون الزرقة لهذا السبب الذي ذكروه لا يمنع أن يحدث لسبب آخر ويكون هو لون السماء حقيقة ، فيكون كلا الأمرين في نظر العقل

محتتملا . وقد جاءت ظواهر النصوص مفيدة أن ما نراه هو السماء ، فلا موجب لصرفها عن ظاهرها .

وأصحاب هذا المذهب الثانى منهم من يفسر السموات بأنها الكواكب ؛ وكل ما ارتفع فهو سماء . ومنهم من يفسرها بأنها المناطق التى تسبح فيها الكواكب وهى أيضا مرتفعة . ولا يخفى عليك أن ظهور آتار القدرة إنما يكون فى رفع شىء ، ذى وجود ؛ أما المناطق الخالية التى لم تزد عن أنها فراغ تسبح فيه السموات فليس فى ارتفاعه وهو خلو أثر للقدرة ، ولا يقال إنا نراه مرتفعا .

وبعد : فالذى ينقدح فى الذهن وتطمئن اليه النفس ، هو أن هذا المرئى هو السماء ، وذلك ظاهر النصوص . فإذا قام الدليل العقلى على انتفاء ذلك ، وأثبت أنه ليس هناك سماء بالمعنى الجرمى المتعارف ، صح المصير الى التأويل ، وإلا كان التأويل والصرف عن الظاهر تشهيا بلا داع . ولتنبيه الى أنه فرق بين قيام الدليل العقلى على انتفاء السموات وبين عدم قيامه على وجودها ، فالأول يصلح صارفا للنصوص عن ظواهرها بخلاف الثانى . كما أن هناك فرقا بين الدليل الموجب للجزم والدليل المحصل للتخمين والظن ؛ فالأول يصلح لتأويل النصوص بخلاف الثانى .

قال تعالى : « ثم استوى على العرش » :

يقال كثيرا فى التعبير عن الأمور المعنوية : استقر الأمر فى نصابه ، واستقامت الأحوال ، واستوى على كرسى المملكة ؛ وليس للأمر المعنوية مقرر جسمى وحينئذ ومكان ، كما أنه ليس للأحوال قامة وامتداد يستقيم أو يعوج ؛ وقد يكون الملك لم يتخذ كرسيا مخصوصا بالمملكة يجلس عليه وإنما يجلس حيث أراد . ولكن هذه التعبيرات الغرض منها مفهوم ، وهو أن القلاقل والاضطرابات المخلة بالأمن أو النظام قد زالت ، وأن الرياسة للملك قد تحققت ولم يبق له معارض أو مشارك . يفهم هذا المعنى من له أدنى إلمام بمتعارف الناس فى مخاطباتهم ؛ فلا ينبغي أن يلتفت الى ما وقع فيه بعض

قصار النظر من أهل الظاهر الذين أهملوا قضية العقل الصريح والمنطق الصحيح :
 فزعموا أن للإله استواء حسيا على عرشه كاستوائنا في أمكنتنا . فلو كان الأمر
 كذلك لكان بحاجة الى ما يعتمد عليه ويستوى فيه ، ولكان العرش سابقا على وجوده
 حتى يستوى عليه لأول وجوده ، ولكان بحاجة في وجوده الى العرش الذي هو من
 مصنوعاته ، ولكان جسما يصح أن يجزأ وأن يركب ، فهو محتاج الى من يضم أجزائه
 بعضها الى بعض ؛ وكل هذه محالات ظاهرة الاستحالة ولا تتفق ومعنى الإلهية واستغنائها
 عن كل ما سواه واحتياج كل ما عداه اليه . وهي مخلة بمعنى وجوب الوجود الذي قام عليه
 البرهان القاطع . وعلى ذلك فتفسير استوى على العرش بالاستواء الحسى باطل قطعاً .
 وقد اختلف علماء التوحيد في مثل هذه التعبيرات : ففهم من يقول : هذا من التشابه
 نؤمن به وإن لم نفهم المعنى المراد منه على التعيين ، فالله مستو على العرش استواء لا نعلم
 حقيقته ، كما لا نعلم حقيقته تعالى وكنه ذاته . وأصحاب هذا المسلك هم السلف ؛ وطريقتهم
 أسلم . ومنهم من يفسرها بأقرب المعاني اليها وأنسبها بها في متعارف التخاطب ، ويقول :
 إن معنى الاستواء الاستيلاء وكمال النفوذ والانفراد بالتدبير وما يماثل ذلك ، ويقولون :
 إنها على طراز قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
 فليس معناه جلس على العراق ، وإنما معناه تم له أمر الحكم والنفوذ فيه . وهذه
 طريقة الخلف ، وهي أحكم ، لأنها تفسر بما يشبع شهوة العقول المتعاصية على التسليم
 بشيء دون أن تفهمه بجلاء ، وموافقة للتعبير المتعارف في مثل ذلك .
 وغاية الأمر يبقى الكلام في أمرين : (الأول) التعبير بصيغة استوى وقد توهم أنه
 لم يكن مستويا ثم استوى . و (الثاني) التعبير بكلمة ثم وقد توهم أن الاستواء متأخر
 على رفع السموات مع أن نفوذه جل شأنه في تدبير ملكه ثابت أزلا وأبدا .
 فأما الأول فمدفوع بأن صيغ الأفعال المسندة الى الحق جل جلاله ليس في معناها

الزمان ، وإنما تدل على حصول مضمونها ، إذ ليس الحق تعالى زمانيا ولا خاضعا لأحكام الزمان ، وذلك كما تسمعه كثيرا في كلامهم على قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء مقتدرا » « وكان الله بكل شيء محيطا » وأمثالها . فليس المعنى أنه كان كذلك ثم زال عنه ، حاش لله !

وأما الثاني فليس الترتيب المستفاد من ثم منصباً على مضمون الأمرين المتعاطفين بها ، وإنما هو ترتيب بين الأدلة المتعاطفة فكأنه استدلال أولاً بإيجاد السموات مرتفعة ، ثم انتقل الى مرتبة تليها في الاستدلال وهي الاستواء على عرش الملك وتتمام نفوذ التدبير والحكم .

ووجه الترتيب بين هذين الدليلين أن الأول وهو رفع السموات بغير عمد أمر واضح جلي لا يحتاج الى أكثر من الالتفات الى ما يقع عليه الحس والتأمل فيه أقل تأمل . وأما الثاني وهو استوائه على العرش فإنه محتاج الى فضل تأمل وإعمال فكير في الظواهر العالمية ليعلم خضوعها للمهيمن عليها ونفوذ حكمه فيها .

ولقد فصلها فيما يلي تفصيلا ما ، ونبه على أشياء يعلم بها غيرها ، حيث قال : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . أى أفلا ترى من هذا التسخير الكامل لمخلوقين هما من أعظم ما تقع عليه العين أن فاعل ذلك هو من نفذ حكمه في كل شيء ، ودان له كل شيء ، واستوى على عرش المملكة لا يشذ عليه شيء . وعلى ذلك يكون الدليل الأول من الوضوح بحيث يفتح كل عين مغلفة .

فإذا أخذ هذا الحكم على النفس مسالكها ، وأرغمها على الاعتراف بما عرض عليها ولم تجد مندوحة من الإقرار والإذعان ، دعيت الى التأمل العميق الذى يملؤها يقينا ، فقيل لها : وانتقل الى ما هو أعمق أثرا وأكمل نظرا ، لترى أنه مالك الأمر كله صاحب الملك والملكوت ، وأنه استوى على العرش بلا منازع ولا مشارك . ألا ترى كيف سخر لحكمه بحكمته أعظم الكواكب التى تتجلى لك ، فلا يستطيع شيء منها

الخروج عن تديره وتسخيره ؟ ألا ترينه قد سخر الشمس والقمر كل يجري بأمره في مستقره الى أجله الذى ضربه له ؟

وغير خاف أن الاستدلال الحكيم هو ما يبدأ فيه بالأمر الواضح ثم ينتقل الى ما هو أعمق منه وأدق ، وأن الدليل الدقيق قد يحتاج الى توضيح وتفصيل ، وهو ما ذكر في قوله عز شأنه : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » .

بقى الكلام فى نسبة الجرى الى الشمس والقمر مع قيام الدليل على أن المتحرك هو الأرض حول الشمس لا الشمس حول الأرض . ونقول فيه :

إنه بعد تسليم تمام الدليل فى ذلك وخلوه من المنوع ووصوله الى درجة اليقين ، وذلك ما لم يزعمه القائلون به ، فإن غاية أمرهم أنهم يقولون : إن الظاهر المناسب للمألوف والأقرب الى التخمين هو أن الأصغر يدور حول الأكبر ، ولا شك أن الأرض أصغر مرات كثيرة من الشمس فهى الأحق بأن تكون هى المتحركة . كما أن تكرار حركة البندول فى مسافة مرتفعة خالية من الهواء يعطى التخمين بأن الأرض هى المتحركة ، فقد ذكروا أن ذلك تخمين لا يقين .

ويمكن توجه المنع عليه بأن الله يفعل ما يشاء بقدرته لا يتقيد بالنواميس الظاهرة لنا ، فلا مانع عقلا من أن يتحرك الأكبر حول الأصغر أو الأصغر حول الأكبر ، وحركة البندول التى زعموها يجوز أن تنشأ عن سبب أثرى أو غيره مما يحيط بالأرض وإن لم ينكشف لنا ناموسه تمام الانكشاف .

وعلى فرض تمام الدليل يقينا فليس فى ذلك ما يعكر على المقصود من الآية الكريمة ، وذلك أن المقصود فيما تأتى به النبوات من توجيه النظر الى ما يجرى فى هذا العالم إنما هو التنبيه لمواضع العبرة بحسب ما يدركه الانسان ببادئ النظر ، ليم عليه الامتنان فى آيات الامتنان ، أو ليحصل الاذعان فى مقام الاستدلال وإقامة البرهان . ولا شك أن هذا يأتى برؤية الآثار الظاهرة مهما كان سببها والناموس الذى استتبعها ، وليس

المقصود شرح دقائق الصناعات والأسباب الخفية التي يتعاضى على جمهور المخاطبين فهم دقائقها، وإلا كان الخطاب بالشرائع مقصوراً على فئة تتحمل أذهانها فهم تلك الدقائق. انظر الى قوله تعالى: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج» فقد كان سؤالهم: ما السبب في أن القمر يبدو هلالاً صغيراً ثم يتزايد حتى يصير بدراً كاملاً؟ فكان جوابهم أن ذلك لكي يضبط الناس به مواقيتهم في مواعيدهم وأعمالهم الدينية والدينية، ومن أهم ذلك مواقيت الحج. فانظر كيف سألوا عن السبب فلم يجابوا الى ما طلبوا من أن ذلك ناشئ عن كون القمر لا ضوء له في ذاته وإنما يستفيد من مقابلة الشمس، وللأرض حيولة بينه وبينها تختلف أوضاعها باختلاف المنازل، وأمثال ذلك مما لايسهل إدراكه إلا على من مارس شيئاً من قواعد علم الهيئة. وما جاءت الشرائع لتعليم دقائق الصناعات وقواعد العلوم، بل اكتفى فيها بالدعوة الى إجادة النظر والتفكير، حتى يصلوا منها الى ما تسعه عقولهم، وتتوقف عليه مصالحهم، ويصح عليه دليلهم. وعلى طراز ذلك ما سيأتى في الآية القريبة «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ» فقد نبه الى مواضع العبرة ومثار المنفعة، ولم يشرح السبب الطبيعي.

إذا تقرر هذا نقول: إن موضع العبرة والاستدلال على كمال القدرة هو فيما يرونه بأنفسهم من ضبط حركات الشمس والقمر مسخرين لأمر الله كل يجري لأجل مسمى لا خلل فيه ولا اضطراب، فبذلك يضبطون مواقيتهم وينظمون شئونهم، وذلك بتسخير من ربهم، فله المنعة، وهو كامل القدرة. وما زال الناس في كل زمان وأوان يقولون: أشرقت الشمس أو غابت الشمس، اكتفاء في ذلك بظاهر ما يرون، ولا يقول أحد في مخاطباته العادية: دارت الأرض حول الشمس أو سامت نصف الأرض الشرقي أو الغربي جرم الشمس. فعلى هذا تكون الآية موجّهة نظر المكلفين الى ما يبدو لهم وتترتب عليه مصالحهم، وهذا هو ما يليق بالهداية والاعتبار.

هذا ولا يفوتنا قبل أن نتنقل من الكلام في هذه الآية أن ننبه على فساد الزعم

بأن حركة الأرض حول الشمس مذهب اهتدى إليه المتأخرون من علماء الهيئة بعد أن كان لا يعرفه أحد . فليس هذا الزعم من الصواب في شيء ، بل الحقيقة أن هذا مذهب قديم ، بل كان هو السائد على أغلب علماء الهيئة في زمن قديم ، ثم تغلب عليه رأى القائلين بأن الشمس هي الدائرة في الفلك المحيط بالأرض ، فانعمر المذهب الأول والقائلون به ، ثم تجدد انتصار المذهب القديم القائل بأن الأرض هي المتحركة . وكلا الفريقين يكتفى بقوة التخمين ولا يدعى الجزم واليقين ، وإنما أتباع الفريقين من أنصاف العلماء هم الذين يتغالون في نصرته متبوعينهم ، فيزعمون لهم أكثر مما يزعمون لأنفسهم ، فيجعلون ظنهم جزماً وتخمينهم يقيناً ، وذلك من ظلم العلم ، وهو شائع في كل زمان ، وما أكثره في زمننا هذا !

هذا ومما نلفت إليه نظر القارئ أنه قد جاء في هذه الآية « كل يجري لأجل مسمى » وجاء في آية أخرى « كل يجري إلى أجل مسمى » ف قيل إن المعنى في الآيتين واحد ، وإن اللام هنا بمعنى إلى ، وهو مطابق لما روى عن مجاهد أن الأجل المسمى هو عمر الدنيا ، وأنه ينتهى بما ذكر في قوله تعالى : « إذا الشمس كورت » وأمثاله . ولكن المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معنى الأجل المسمى : النازل المقدرة لهما ، والوقت المعين لسير كل منهما ، والدرجات الخاصة بهما ، وأن لكل منهما مداره حسبما اقتضته الحكمة الإلهية . ويلاحظ أن هذا أنسب بمعنى التسخير المذكور في قوله : « وسخر الشمس والقمر » أى جعل لكل منهما درجات لا يمدوها ، ومنازل خاصة ، ومقداراً معيناً يطابق الحكمة والمصلحة للرعية في نظامهما ، فيكون معنى اللام هنا غير معنى إلى . والمعنى كل يجري ملتزماً خطة معينة رسمت له لا يمدوها . وهذا هو الظاهر .

أردف هذا بقوله تعالى : « يدبر الأمر » أى هذا الذى تشاهدون من آثار صنعه وبديع حكمته ما تشاهدون ، هو الذى يدبر كل الأمور ، ويحكم التصريف في جميع العالم علويه وسفليه ، فهو الذى استوى على العرش ونفذ قدرته فى الملك والملايكوت . وبذلك يكون

قوله: «يدبر الأمر» بعد ذكر تسخير الشمس والقمر من باب قولهم: عود على بدء، بالنسبة لقوله: «ثم استوى على العرش» فكأن استواءه على العرش دليل على سعة قدرته، ويحتاج الى دليل يثبته هو ما تشاهدون من تسخير الشمس والقمر الذي تستفيدون منه أنه هو الذي يدبر الأمر، فهو المستوى على العرش، وهو صاحب التدبير والتصرف في الأمر كله، لا إله غيره.

أرأيت كيف ارتبطت الآيات بعضها ببعض حتى صارت كلاماً واحداً في حين أنها مفصلة تفصيلاً حكيماً لكل منها فائدته وجمال موقعه؟ كذلك يفصل الله آياته ويبينها مفصلة واضحة، تعطى فائدتها وتستكمل هدايتها، وترشد العقول السليمة من الرين الى ما فيه هداها. فقوله تعالى: «يفصل الآيات» تنويه بكمال الفائدة وعظم الجلال الذي اشتملت عليه تلك الآيات. وعلى ذلك يكون المراد بالآيات آيات الكتاب السابق التنويه بفضلها في أول الآية الكريمة «تلك آيات الكتاب». وقيل إن المراد الآيات الكونية التي أوجدها تعالى في العالم واضحة الدلالة على قدرته وأنه المتصرف في العالم بإبداع حكمته. والحقيقة أنه فصل كلاً من آيات الكتاب وآيات التكوين بما يهدي كل ناظر مسترشد. فالحمد لله حق حمده.

بقي معنى نحب أن نرشدك اليه، وهو أن معنى التدبير في اللغة النظر في دُبر الأمور وعواقبها ليختار منها أسماها عاقبة بعد التفكير. وهذا المعنى مستحيل بالنسبة اليه تعالى، إذ كل شيء معلوم له تعالى بالفعل بلا نظر ولا تفكير، وإنما المراد لازمه وهو الاتقان والإحكام، فإن شأن من يتأمل في عواقب الأمور أن يجيد صنعها، ولكنه تعالى غنى بعلمه الشامل عن التأمل والتفكير، فذلك شأن من لم يحيط علماً بما يتناوله صنعه، وحاشا له عز شأنه أن يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقوله تعالى: «لعلكم بلقاء ربكم توقنون»:

قد سبق لنا تفسير معنى «لعل» في مثل هذا المقام، ولكن لا نرى بأساً من إعادته

بإيجاز فنقول : إن معنى لعل في هذا ونحوه هو معنى اللام الغائية المفيدة للحكمة المترتبة على ما ذكرت لعل في سياقه . وغاية الأمر أن بينهما فرقاً في مواضع الاستعمال : فاللام تذكر في موضع التعليل المحتوم تأدية الفعل فيه للغاية . وأما لعل فتأتى في التعليل الذى يدخل فيه إرادة المكلف فى اغتنام فرصته فتحصل الغاية ، أو تقويتها على نفسه فلا تحصل . فكان التعليل فى لعل معناه : قد هيأنا لكم ما لو اغتنمتموه لأخذتم فأئدته فاعلمكم تغنمون ، فهذا موكول الى حسن اختياركم . فهو يبرزكم فى صورة من يرجى منه . وإلا فعنى الرجاء مستحيل على الله تعالى ، إذ بيده الأمر كله ، وهو الفعال لما يريد ، والعليم بما يكون .

هذا وترتيب الإيقان بقاء الله على تفصيل الآيات صحيح ، سواء أفسرت الآيات بآيات الكتاب التى أرشدت الى ما فى الكون من عظام آثار القدرة ، أم بالآيات الكونية التى يهدى تأملها الى جلال مبدعها . ولكن ردّ آخر الكلام الى أوله قد يرجح التفسير الأول .

نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا يقيناً وإيماناً ، إنه هو الكريم الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

الفخر بقلّة العدد مع الكرم

قال السموءل :

تعبيرنا أنا قليل عديدنا
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
فقلت لها إن الكرام قليل
عزیز وجار الأكثرين ذليل
وقال شاعر فى تعليل قلة الكرام :

بغات الطير أكثرها فراخا
وأما الباز مقلات نزور
المرأة المقلات والنزور : القليلة الأولاد .

الرحمة

أسمعناك فيما سبق شيئاً عن المحبة وأنواعها . ونريد اليوم أن نذكر لك شيئاً عن الرحمة كنتيجة للمحبة فنقول :

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ؛ وإن الله لا يحب شيئاً مثل ما يحب الرحمة والتواضع ؛ ولا يكره شيئاً مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد في الحديث الصحيح : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . وذكر مَنْ التى للعامل ها هنا لتغليب الأثر على غيره . وإياك أن تفهم من ذكرها أنك لست مأموراً إلا برحمة النوع الانساني فقط ، فإنك مأمور بالرحمة لكل ذى روح .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « في كبد كل رطبة صدقة » . وإذا كانت امرأة قد دخلت النار من أجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ، فلا غرو أن تدخل الجنة من أجل هرة ترحمها .

وقد ورد « إن الله رحيم ، وإنما يرحم من عباده الرحماء » ، ويقول الله تعالى في الحديث القدسي : « سبقت رحمتي غضبي » .

وليس ذلك الحنان الذى تراه في قلوب الآباء والأمهات في أفراد النوع الانساني وسائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوقاً اضطرارياً الى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التى تجدها من نفسك إذا رأيت مظلوماً ضعيفاً أو فقيراً بائساً ، إلا أثراً من آثار تلك الرحمة الإلهية .

ومواساة الإخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل الأعمال التى حث عليها الدين وندبت اليها الشريعة . وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التى قامت بها السموات والأرض . ولا محل ها هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك يجرى

البحار، وتفجير الأنهار، وتيسير الأنوار، وخلق الليل والنهار، وإنبات النبات، وبقية الآيات، وأنواع النعم المتواترات.

وقد قال تعالى: « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها » الخ .
وبالجملة ففبك من الانسانية على قدر ما فبك من الرحمة . وعلى قدر ما فبك من القسوة يكون بعدك من الله وانسلاخك من الانسانية ؛ فإنك لا تتكمل إلا إذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الأخلاق المرة بعد المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات . وأما ذلك القلب القاسى الذى لا ينفعل ولا يتأثر ، فإنه بعيد من الكمال جدا ، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه .

وإن من القلوب قلوبا كالحجارة أو أشد قسوة ؛ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقي فى الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة أن الإنسان قد ينحط الى دركات هى أسفل من كل المراتب التى فيها أنواع الحيوان ، وإذا لا يكون إنسانا إلا فى صورته .

وقد قال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان . وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . ويقول : « والعصر إن الإنسان لئى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .
ولا يمكنك أن تصل الى درجة الكمال إلا إذا لم تكن من ذوى القلوب القاسية والنفوس الجامحة .

واخلاصة أنه لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين فى إنسانيتهم ، فلم يفعلوا .
فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبنى نوعهم .
لومت الرحمة فى النفوس لما التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ، ولما فعلت بهم

ما لا تفعله أقوى الحيوانات بأضعفها . على أن الحيوان لا يفترس أبناء نوعه مهما كانت وحشيته وشرهته .

لوتّمت الرحمة في الأغنياء لما مقتتهم الفقراء ؛ ولوتّمت الرحمة في القضاة لما تأخّرت القضايا السنين الطوال ، ولأحقّ أربابها شديد النكال وعظيم الوبال . ولوتّمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك وأثنى عليك إخوانك . ولوتّمت الرحمة فيك لبذلت النصيح للعامة والخاصة إخلاصا لهم وإشفاقا عليهم (والدين النصيحة) . ولوتّمت فيك الرحمة لأشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتلى والمعافى ، والانسان وغير الانسان . بل نقول : لوتّمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون على أنفسهم فلا يورطونها في الهلكات ولا يجلبون عليها أعظم الآفات ، ويحرمونها من أفضل أنواع السعادات .

وإجمال القول أنه إذا استقام هذا الأصل للانسان في الدين ، استقام له سائرُه ، ففاز بخير الدنيا والآخرة . فأزل — يرحمك الله — من نفسك القسوة ، وكن رقيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكبّاد ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

وما أحسن قول ابن حجر المكي في هذا الموضوع :

ارحم عباد الله يرحمك الذي عم الخلائق جوده ونواله
فالراحمون لهم نصيب وافر من رحمة الرحمن جل جلاله
وتقول الحافظ ابن عساكر :

بادر الى الخير ياذا اللب مقننا ولا تكن عن قليل الخير محتشما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم فالشكريستوجب الإقبال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعمهم فإنما يرحم الرحمن من رحما
وقال غيره :

من يرحم الخلق فالرحمن يرحمه ويكشف الله عنه الضر والباسا

ففي صحيح البخارى جاء متصلا لا يرحم الله من لا يرحم الناس ولا بأس أن نذكر لك كلمة وجيزة عما جاء في السنة من الحث على الرحمة، فنقول: روى البخارى في الأدب المفرد وأحمد وأبو داود والترمذى وآخرون عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (لك أن تقرأ يرحمكم بالجزم جوابا للأمر، والرفع على أنه جملة دعائية). وروى الشيخان هذا الحديث عن أسامة بن زيد بلفظ « إنما يرحم الله من عباده الرحماء ». ومن ذلك ما رواه عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: « من لا يرحم لا يرحم ».

وروى أحمد عن جابر « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » . ومنها ما رواه الشيخان عن جرير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » وروى الامام أحمد وعبد بن حميد في مسنديهما والطبرانى وغيرهم بسند جيد عن ابن عمر موقوفا ومرفوعا « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » . وأخرج أبو داود والترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » .

وعنه أيضا قال : قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم . فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث بأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى

كان بلغ منى ، فنزل البئر فلا خفه ماء ثم أمسك بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له تعالى فغفر له . قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر . » أخرجه الشيخان في الصحيحين ومالك في الموطأ . وعن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش^(١) الأرض » أخرجه الشيخان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا في بعض أمره قال : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » . أخرجه أبو داود .

هذا وقد رأينا لأبي السعود عند قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وما النعمة إلا أثر من آثار الرحمة ، عبارة جليلة تروق ذوى الأفهام ، فأحببنا أن نذكرها لك في هذا المقام ، لتعرف نعم الله عليك ورحمته بك ، فتجعل شكر تلك النعم التي لا تحصى رحمة عباد الله ، والشفقة على خلق الله ، فسما تدين تدان ؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهالك عبارة أبي السعود :

« وإن تعدوا نعمة الله » التي أنعم بها عليكم « لا تحصوها » لا تطبقوا حصرها ولو إجمالا فإنها غير متناهية ، كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ، ممنواً بأصناف البلايا ، مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحيث لو تأملت له ألفيته متقلبا في نعم لا تحصى ، ومن لا تحصى ولا تعد ، كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطلة الإمكان . وإن كنت في ريب من ذلك فقد ر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم ، وأذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب

(١) خشاش الأرض : هوامها وحشراتنا .

العتاء، وفاز بكل مرام، ونال كل منال، وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموال، من غير نديزاحه، ولا شريك يساهمه. بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر. قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم، في حالة بلغت منها نفسه الخلقوم. فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه أو شربة ترويه، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأمالك بغير بدل يبقى عليه، ولا نفع يعود إليه؟ كلا، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كأثما ما كان، وليس في صفقته شائبة الخسران. فإذا تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بألف رتبة، مع أنهما في طرف الثمام، ينالهما متى شاء من الليالي والأيام. أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج، ولا خرج منه ما ولج، والحين قد حان، وأناه الموت من كل مكان، أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد. فإذا هو خير من أموال الدنيا بحملتها ومطالبها برمتها، مع أنه قد أبيع له كل آن من آتات الليالي والأيام، حال اليقظة والننام. هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء. وإن رمت العثور على حقيقة الحق، والوقوف على كل ما جل من السرّ ودقّ، فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايات الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار، ولا اطمأنّت به الدار، إلا في مطمودة العدم والبوار، ومهاوى الهلاك والدمار. لكن يفيض عليه من الجنب الأقدس، تعالى شأنه وتقدس، في كل زمان يمضي، وكل آن يمر وينقضي، من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير، ولا يعلم به إلا العليم الخبير. وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء، وإنما ذلك من جنب المبدأ الأول عز وجل. فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي، لا يتصور بقاءه على الوجود بعد تحققه بعلمته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ، لأن

الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجب . وأنت خير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تنهاى ما دخل تحت الوجود، لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالة في أن يكون الشيء واحدا موانع غير متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود . فارتفاع تلك الموانع التي لا تنتهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل آن من آتات وجوده، نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء، وكذلك في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء، وكذلك في كمالاته التابعة لوجوده . فاتضح أنه يفيض عليه كل آن بما لا تنتهى من وجوه شتى . فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك، لا تلاحظك العيون بأنظارها، ولا تطالعك العقول بأفكارها، شأنك لا يضاهى وإحسانك لا يتناهى . ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون . نسألك الهداية الى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصى ثناء عليك، لا إله إلا أنت، نستغفرك وتوب اليك . انتهى . ولنقتصر على هذا، ولعل فيه مقنعا وكفاية لمن أراد أن يسعد نفسه وتسعد به أمته .

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه بمنه وكرمه **يوسف الربوى**
من هيئة كبار العلماء

الاجمال في الطلب

قال العنابي : إن طلبت حاجة الى ذى سلطان فأجل في الطلب اليه ، وإياك والالحاح عليه ، فان الحاجة تكلم عرضك ، وتريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضا لما يأخذ منك ، ولعل الالحاح يجمع عليك إراقة ماء الوجه ، وحرمان النجاح ، فانه ربما مل المطلوب اليه حتى يستخف بالطالب . وقال شاعر :

إن كنت طالب حاجة فتجمل فيها بأحسن ما طلبت وأجل
إن الكريم اذا المروءة والنهى من ليس في حاجاته بمنقل

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

النظر الى الصور - الزنا بخاتنة الزوجة أو أمها

شرح آية - القصص الخيالية

ورد الى المجلة هذه الاسئلة :

- ١ - هل النظر الى الصور الفوتوغرافية الزيتية وصور الخيالة (السينماتوجراف) حرام أم مباح ؟
- ٢ - رجل تزوج بامرأة ثم زنى بخاتنها أو أمها أو عمتها: هل تحرم عليه ؟ وما قولكم في قول « ولا يحرم الحرام الحلال » ؟
- ٣ - عن شرح قول الله سبحانه وتعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وشرح قوله تعالى : « أنسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال » .
- ٤ - هل القصص الخيالية ضرب من الكذب الممنوع شرعا ؟

الجواب

١ - النظر الى الصور :

النظر الى الصور المصورة بشكل مخل بالآداب ومؤد الى ارتكاب ما لا يليق شرعا ، حرام . وإذا كان مع هذا اختلاط الرجال بالنساء فهو أشد حرمة ، كالموجود في دور الملاهي . أما الصور التي لا ظل لها من صور الانسان أو الحيوان مطلقا فلا شيء في النظر اليها . وأما الصور التي لها ظل فتصويرها حرام إن كانت صورة كاملة ، وإن كانت ناقصة فلا إن كانت لا تعيش مع ذلك النقص .

٢ - الزنا بخالة الزوجة أو أمها :

الزنا بغير الأم للزوجة وبنتها لا يحرم المرأة ، وإنما الذي يحرم عند الحنفية هو الزنا بأم المرأة وبنتها ، فعندهم وطء المرأة بالنكاح كوطئها زنا يوجب حرمة المصاهرة .

يعنى أن من زنى بامرأة حرم عليه أصولها وفروعها ، وحرمت هى على أصوله وفروعه ، كوطء امرأته . واستدلوا على ذلك بالسكتاب وهو قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء » قالوا : أى لا تطؤا ما وطئ آبؤكم ، لأن النكاح حقيقة فى الوطء مجاز فى العقد ، ولا وجه هنا للعدول عن الحقيقة الى المجاز بدون داع يدعو اليه ، فتقييد الوطء بالحلال زيادة على النص ، والزيادة نسخ ولا ينسخ السكتاب إلا بمكافئ له ، ولم يوجد . واستدلوا أيضا بالقياس — قالوا : إن العلة فى ثبوت حرمة المصاهرة المتقدمة هى الوطء من حيث كونه سببا للولد الذى هو جزء من الواطئ ومن الموطوءة ؛ وأما وصف الحل فلا أثر له فى التحريم فهو ملغى . وبيان إلغائه أن وطء الأمة المشتركة والمجوسية ووطء الحائض والنفساء ووطء المحرم والصائم كل ذلك حرام وتثبت به حرمة المصاهرة ، فالوطء الحرام يشارك الوطء الحلال فى المعنى المناسب لثبوت حرمة المصاهرة وهو كونه سببا لجزئية الموطوءة للواطئ وجزئية الواطئ للموطوءة ، الذى يجعل أصول الواطئ وفروعه كأصول الموطوءة وفروعها ، ويجعل أصول الموطوءة وفروعها كأصول الواطئ وفروعه . وبيان ذلك أن الولد جزء الواطئ : أما بعضه فهو جزء له حقيقة ، والبعض الثانى جزء له حكما ، بدليل إرثه منه وغير ذلك من الأحكام المترتبة على نسبته اليه بتمامه . وما قيل فى جزئية الولد للواطئ يقال فى جزئية الولد للموطوءة .

ومتى ثبتت جزئية الولد من كل منهما ثبتت جزئية بين الرجل ونفس المرأة ، لأن الولد جزء منها وجزء منه ، فيكون جزء المرأة جزء الرجل وجزء الرجل جزء المرأة .

نشأ من هذا أن صارت أم الموطوءة كأم الواطئ وبناتها كبناته ، وأن صار أبو الواطئ كأب الموطوءة وابنته كابنها ، وهذا كله بواسطة الوطء الذى أتى بجزئية

الولد . وكان مقتضى هذا أن تحرم المرأة نفسها ، لأن الاستمتاع بالجزء حرام ولكن أبيحت للضرورة ، لئلا يفسد باب الزواج . ومذهب الحنفية مذهب كثير من الصحابة رضى الله عنهم .

وأما الشافعية رضى الله عنهم فقالوا : إن الزنا لا يوجب حرمة المصاهرة . ومذهبهم أيضا مذهب جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . ومن أداتهم قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يحرم الحرام الحلال » . وقد أجاب الحنفية عن هذا بأجوبة — منها أننا نقول بموجب هذا الحديث ونقول : لا يحرم الحرام الحلال من جهة كونه حراما ، وما أثبتنا التحريم بالزنا من جهة كونه حراما ، وإنما أثبتنا التحريم به من جهة كونه سببا في الجزئية التي يترتب عليها التحريم في الوطاء الحلال .

شرح آية :

الهم^١ يطلق ويراد به القصد والإرادة مطلقا ؛ ويطلق ويراد به القصد الجازم الذي معه عقد القلب على الفعل عقدا ثابتا . فالهم المنسوب الى يوسف عليه الصلاة والسلام هو بالمعنى الأول . دليله حاله : من المهرب ، والجري الى الباب ؛ وقوله تعالى في شأنه : « إنه من عبادنا المخلصين » . والمراد المعنى الثانى من ههما . ودليله أيضا حالها . فالهم من قبله هو الميل الطبيعى الذى ليس معه عقد القلب على الفعل . والهم من قبلها ما معه ذلك العقد القلبي على الفعل ، والأول لا يدخل تحت التكليف .

وقال بعض المفسرين : الهم من قبله معناه الخاطر الذى يخطر على القلب وليس معه ميل طبيعى ؛ وأما من قبلها فهو القصد والعقد القلبي . وكل من المعنيين معنى للهم . والأدلة على إرادة المعنى الأول بالنسبة ليوسف عليه السلام حاله كما تقدم ، وعلى إرادة المعنى الثانى بالنسبة لها حالها .

وبناء على هذين الرأيين يكون جواب لولا محذوفا ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لجرى على مقتضى ميله الطبيعى وخاطره .

وقال بعض آخر من المفسرين : إن الهم المنسوب الى يوسف عليه السلام هو بمعنى الهم المنسوب اليها ، ولكن الهم المنسوب اليه منفي عنه بمقتضى قاعدة لولا ، لأن جواب لولا قوله تعالى : « هم بها » والواو داخلة على لولا ، ولولا ينفي جوابها لوجود شرطها ، والمعنى : ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . فيكون جواب لولا هو المتقدم على رأى الكوفيين المجيزين تقدم الجواب على الشرط ، وعلى رأى البصريين فالتقدم دليل الجواب . وعلى كل تفسير متعلق الهم هو المخالطة ، لأن الهم لا يتعلق بالذوات .

ومعنى الآية الموجودة في السؤال الثالث وهى قوله تعالى : « ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن » الى آخر الآية . المعنى — والله أعلم — أن الله سبحانه وتعالى نهى النساء عن إبداء محلات الزينة لكل شخص ، وعبر عن المحلات بالزينة للمبالغة فى النهى . والمراد المحلات المستورة فى العادة ، لأن الظاهرة تقدم حكمها من عدم النهى عن إبدائها ، مثل الكفين والقدمين والوجه .

والمحلات الخفية هى الرأس والرقبة والساق والزرع . هذه هى محلات الزينة الخفية . وقد استثنى الله سبحانه وتعالى أشخاصا لا تنهى المرأة عن إبداء تلك المحلات المذكورة لهم ، وهم البعولة أى الأزواج ، وآباء النساء ، وآباء البعولة ، وأبناء النساء ، وأبناء البعولة ، وأخوات النساء ، وبنو الإخوان ، وبنو الأخوات . واستثنى أيضا النساء اللواتى ينسبن اليهن بقوله تعالى : « أونسائهن » والنسبة بالصدقة والخدمة . قال المفسرون : والمراد المؤمنات لأن الكافرة لا تمتنع من إبداء أوصافها للرجال الأجانب الذى يقع فى الفتنة . واستثنى الله سبحانه وتعالى ماملكت أيمنهن من الإماء بقوله : « أو ماملكت أيمنهن » . قال بعض المفسرين : المراد « بما » الإماء فقط . وقال بذلك الحنفية وبعض الشافعية — قالوا : لأن الذكور من الممالك كالأجانب فالشهوة فيهم كاملة ، لأنهم ليسوا أزواجا ولا من المحارم ، ولا حرج فى عدم الإبداء لهم لأنهم يعملون خارج المنزل ، ومناط حل الإبداء لغير الزوج من المذكورات عدم الشهوة والضرورة .

وقيل المراد «بما» هم الذكور والإناث من المملوكين ، لعموم ما ، وهو مذهب جماعة من الصحابة . وظاهر كلام الألوسى في روح المعاني اختيار هذا .

واستثنى سبحانه وتعالى التابعين الذين لا إربة لهم في النساء . والتابعون هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم ؛ وغير أولى الإربة هم الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئاً من أمورهن ، بحيث لا تحذتهم أنفسهم بفاحشة ، ولا تحذتهم بوصفهن للأجانب .

واستثنى سبحانه وتعالى الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ؛ ومعنى لم يظهروا على عورات النساء ، المراد هنا — والله أعلم — لم يعرفوا منها العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها من أجزاء الجسم . وهذا معنى كنائى لأن المعنى الحقيقي لقوله تعالى : « لم يظهروا » لم يطلعوا ، وهذا ليس مراداً .

والطفل الذى حاله ما ذكر يعرفه جميع الناس ، فلا حاجة الى بيان سنه . وقد وصف الطفل وهو مفرد بالجمع وهو الذين ، لأنه محلى بأل الجنسية فيعم .

٤ — القصص الخيالية :

القصص الخيالية التى لا حقيقة لها إن كانت قصصاً لا تثير شهوة ، وليست مما يخل بالأداب الشرعية ، ولا تدعو الى ارتكاب محرم ، بل منها عبر لمن يتلوها ويسمعها ، ومنها مساعدة على تنمية العقل والفكر ، ومنها مساعدة على الابتعاد عما يضر وعلى الاقتراب مما ينفع ، ومنها تعليم كيف لا يخدع ، وكيف يعمل العمل الذى لا يرد لا تقانه ، هذه وإن كان ظاهرها الكذب لكن كذب لا يضر بل فيه تلك المصاحبة التى سمعتها ، ومنها إغاثة على تعلم صناعة الكتابة والشعر ، فهى جائزة كالمقامات للحربى وللهامذاني ، والموجودة فى كيلة ودمنة وغير ذلك مما لا فائدة فيه ، أو يخل بالأداب الشرعية ومثير للشهوة ، فهذه غير جائزة .

قنديل قنديل ، عبد السلام شرف

صلاة الليل

وورد الى إدارة المجلة ما يأتى :

١ - يوجد شخص ببلدتنا صالحجر مركز كفر الزيات غربية يدعى العلم ، وسمعتة يفتى الناس بقوله : إن المتنفل إذا زاد فى تنفله ليلا عن عشرين ركعة فإنه يأثم على هذه الزيادة وعمله مردود عليه لأنه زاد عن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستدلا على ذلك بأن النبي عليه الصلاة والسلام ورد عنه أنه صلى مرة ثمانى ركعات ، وفى رواية أخرى اثنتى عشرة ركعة ، وبمجموع ذلك عشرون ركعة . فهل هذه الدعوى توافق الشرع الشريف أم لا ؟ وإذا لم توافق الشرع فنطلب من فضيلتكم الاستدلال التام على بطلان ادعاء هذا الشخص مع البراهين الكافية .

٢ - وأيضا نطلب من فضيلتكم صحة لفظ حديث : « لا أخاف على أمتى من المسيح الدجال ولكن أخاف عليها من دجالين » الخ
ابراهيم محمد حسن فايد
من صالحجر غربية

الجواب

١ - صلاة الليل :

إن صلاة الليل مندوبة ، والكثرة من غير تحديد مشروعة . وهماهى ذى الأحاديث التى تفيد ذلك : عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « الصلاة فى جوف الليل » . وفى الترمذى عن بلال قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » . وفى ابن ماجه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » . وفى الطبرانى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا بد عن صلاة الليل ولو حاب شاة » . وفى ابن ماجه عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليضحك الى ثلاث : للصف فى الصلاة ، وللرجل يصلى فى جوف الليل ،

وللرجل يقابل السكتيبة « وفي أوسط الطبراني عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن شرف المؤمن قيام الليل ». وفي الترمذي عن عمرو بن عبسة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن » .

فهذه الأحاديث تدل على تأكيد استحباب قيام الليل ومشروعية الاستكثار من الصلاة فيه . واقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على ثمان ركعات أو على اثنتي عشرة ركعة لا يقضى بأن ما فوقها ليس بمشروع ما دامت هذه الزيادة من نوع العبادة ، لأنها مأمور بها ندبا بالأدلة المتقدمة غير المقيدة بعدد .

لفظ الحديث :

والجواب عن لفظ الحديث فنقول : المذكور في الجامع الصغير : « غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال : الأئمة المضلون » . قنديل قنديل ، عبد السلام شرف

النفقة على الزوجة والاولاد — خلف الوعد

القرض في الطعام

وورد الى ادارة المجلة هذه الاسئلة :

١ — رجل تجرد لعبادة الله سبحانه وتعالى ومشى في البلاد يعظ الناس ويرشدهم الى طاعة الله ويأخذ عليهم العهود على ذلك ، وترك زوجته وأولاده الإناث بلا نفقة ولا منفق ولا ملك لهم يعيشون منه ، بل تضطرم الحالة لأن يشتملوا عند الأجنب طلبا للمعيشة فضلا عن اشتياقهم اليه ليتمتعوا برؤيته ومؤانسته خصوصا زوجه ، وإن رزق شيئا أرسله اليهم وإلا فلا يهمهم حالهم . فهل تقوى هذا الرجل تعتبر من أسباب طلب الرزق

ويكون داخلا ضمن المتقين الذين قال الله فيهم: «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب» ولا حرج عليه، أم يكون مخالفا لما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من طلب السعى على المعاش والاكتساب والاحتراف، وما كان عليه السلف الصالح من الكد في طلب المعاش، ووجوب الانفاق على الأولاد المعسرين والزوج؟

٢ - اتفق قوم على أمر ينفذونه وقرءوا الفاتحة على ذلك ثم لم ينفذوا ذلك الأمر. فهل يلزمهم عن قراءة الفاتحة شيء من المكفرات لاعتبارها - كما يقولون - بأربعة وأربعين يمينا، أم يكون عدم تنفيذهم للأمر الذي اتفقوا عليه عدم وفاء بالعقود المأمو بها شرعا، ويلزمهم التوبة والاستغفار فقط؟

٣ - بدا صلاح زراعة فدان ذرة بملسكى فقطعناه وقشرناه ووجدت الناس في حالة احتياج للقوت وليس معهم نقود، فأقترضهم زراعة نصف الفدان الذرة حتى إذا قطعوا زراعة الذرة التي لهم يردون بدل ما اقترضوه منى كيلا يمثله كما اقترضوا. فهل يكون هذا القرض داخلا في الربا حيث إنه من الملعومات والى أجل، أم يكون قرضا حسنا وأوجر على ذلك؟ وإذا كان الأول فما الحيلة في الحل وقد صرفت زراعتى ناويا إعانة المحتاجين؟ أرجو الإفادة.

سيد محمد جاد
مأذون الشرع بكفر برى

الجواب

١ - النفقة على الزوجة والاولاد:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

نفقة الزوجة واجبة على زوجها، ونفقة الأولاد الذكور المعسرين واجبة على أبيهم الى بلوغهم قادرين على الكسب، ونفقة الإناث واجبة عليه أيضا الى أن يدخل الزوج بهن أو يدعى للدخول. والنفقة في النوعين واجبة بالإجماع.

ولا يُسقط وجوب النفقة غيبة من تجب عليه ، بل النفقة في ماله إن كان له مال حاضر ، وإلا أرسل إليهم من المال ما يكفي حوائجهم ويدفع عنهم الضرر ومذلة السؤال . فالذي يفارق بلده الى غيره ليعظ الناس ويأخذ عليهم العهد بالطاعة ناراكا زوجته وأولاده بلا نفقة ولا منفق ، آثم ، لأنه ترك النفقة الواجبة عليه شرعا ، وهو مع تلك الحالة لا يعد من المتقين ، لأن الوعد وأخذ العهد على الناس لا يرفع العصيان بترك النفقة عليهم مع قدرته عليها . والله أعلم .

٢ - خلف الوعد :

إذا اتفق جماعة على تنفيذ أمر وقرءوا الفاتحة على تنفيذه ولم ينفذوه ، فلا يلزمهم شيء من المكفرات عن قراءة الفاتحة ، وإنما يكون عدم تنفيذهم لذلك الأمر خلف وعد ، وخلف الوعد إن كان مقصودا حال الوعد كان محرما ، فيتوب منه ويستغفر ؛ وإن لم يكن مقصودا حال الوعد وحصل لغير عذر كان مكروها لا يذنبى ارتكابه ، وإن حصل لعذر فلا كراهة . والله أعلم .

٣ - القرض في الطعام :

إذا أقرض شخص غيره مقدارا من الطعام ذرة أو غيرها لينتفع به المقرض ويرد المقرض مثله كيلا أو وزنا عند يسره ، كان ذلك قرضا حسنا يثاب عليه المقرض حيث كان النفع للمقرض خاصة . والله أعلم . حسن على مرزوق على ادريس المالكي
بكلية الشريعة الاسلامية

عذاب القبر - شرح آيتين - أعلم المنبر وسيف الخطيب

الزناح وقت الدفن - وطء المرأة قبل الاغتسال منه الحيض - ترك صدقة الجماعة

ووردت هذه الاسئلة :

١ - هل يقع عذاب القبر على الروح فقط أم على الجسم أم عليهما ؟

- ٢ - ما معنى قول الله سبحانه وتعالى : « كل يوم هو في شأن » ؟
- ٣ - ما معنى قوله سبحانه وتعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » ؟
- ٤ - هل من الجائز رفع الأعلام حول المنبر وقت الخطبة ، وهل ورد شيء في الامساك بالسيف الخشب وقت الخطبة ؟
- ٥ - هل الأذان وقت دفن الميت مشروع ؟
- ٦ - هل يصح للرجل أن يجامع امرأته بعد انقطاع دم الحيض قبل الغسل ؟
- ٧ - ما حكمكم فيمن رأى جماعة ولم يصل معها وصلى منفردا ؟

الجواب

١ - عذاب القبر :

عذاب القبر للروح والجسم. والأدلة السمعية ظاهرة في ذلك ، منها قوله تعالى : « النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . وقال تعالى : « أَعْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا » وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أنه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ (محمد) فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد بذلك الله به مقعدا من الجنة — قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا . وأما الكافر والمنافق فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين . وفي الصحيحين أيضا أنه صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى : أما أحدهما فكان يشي بالنيمة ، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله » .

وفي الصحيحين أنه استعاذ من عذاب القبر . وقال عليه الصلاة والسلام وهو —
 في الصحيحين — قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا
 وفي الآخرة » نزلت في عذاب القبر ، إذ قيل له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول :
 ربي الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم « وعنه صلى الله عليه وسلم » القبر روضة من رياض
 الجنة أو حفرة من حفر النار « وكثير من الأحاديث الواردة في هذا المعنى وكلها يدل
 على أن من في القبر هو المعذب والموجود في القبر الجسم والجسم لا يعذب بدون روح
 تدرك الألم واللذة .

ولا مانع من جهة العقل يمنع من أن يخلق الله في الجسم حياة بقدر إدراك اللذة
 والألم ؛ وليس يلزم في الحياة البرزخية ما هو لازم في الحياة الدنيا من مشاهدة تحرك
 الجسم واضطرابه مثلاً .

٢ — شرح آية :

معنى قول الله سبحانه وتعالى : « كل يوم هو في شأن » والله أعلم — أنه سبحانه
 وتعالى له في كل لحظة شأن وحال من رزق وخلق وإماتة ، وإنبات زرع ، وإنماء شجر ،
 وإبلاغ ثمر منتهاه ، وإجابة سؤال سائل ، وغير ذلك من الشئون التي تقتضيها حكمته وعلى
 مقتضى علمه ، أي له شئون كثيرة ، ومنها إجابة ما تسألونه ، ليرتبط بقوله تعالى : « يسأله
 من في السموات والأرض » .

٣ — شرح آية :

معنى قوله سبحانه وتعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » والله أعلم — سنفرغ
 في جزائكم فقط بعد انتهاء شئون الدنيا المشار إليها بقوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » .
 وهذا المعنى وإن لم يكن هو المعنى الحقيقي للفراغ للشئ ، ولكن يجب المصير اليه على
 طريق المجاز ، لأن المعنى الحقيقي للفراغ للشئ يستحيل على الله سبحانه وتعالى ، لأن
 معناه التخلص من شئ ، من شاغل يشغل ، الى شئ آخر ، لأن الله لا يشغله شأن عن
 شأن ، وإنما اختير — والله أعلم — التعبير بالمجاز لما فيه من التهديد ما ليس في التعبير

بالحقيقة ، لأن الخبر إذا أخبر بأنه شرع في جزاء فقط يشبه ذلك الشروع ألا خذ في عمل بعد التخلص من عمل كان يشغله عن العمل الذي شرع فيه ، يسكون مهتدا لمن له ذلك الجزاء ، كأنه فرغ من كل شيء لأجل ذلك ، فإذا سمع هذا من يراد إخباره أقبل الطالح عن عمله وتمادى الصالح في عمله .

٤ - أعلام المنبر وسيف الخطيب :

رفع الأعلام حول المنبر وقت الخطبة لم يرد به نص من الشارع ولا أثر من الصحابة ، ولكن إن كان هذا لا يؤدي إلى اعتقاد أنه سنة فلا بأس به ، وأما الاتكاء على السيف وقت الخطبة فقد نص الحنفية في كتبهم على أنه مندوب في كل بلدة فتحت عنوة وغير مندوب في بلدة فتحت صلحا .

٥ - الأذان وقت الدفء :

ليس الأذان وقت إدخال الميت القبر مشروعا ، فهو بدعة ، فإن أدى إلى اعتقاد العوام سننيتها أو نذبه فهو مكروه ، لأنه يكون وسيلة إلى اعتقاد ما ليس بسنة سنة .

٦ - وطء المرأة قبل الاغتسال منه الحيض :

إذا انقطع دم الحيض لأكثر مدة الحيض (عشرة أيام) حل الوطء بدون غسل ، ويكون تاركا للمندوب فقط .

وإن انقطع لأقل من العشرة ، فإن انقطع لعادتها لا يحل وطؤها حتى تغتسل ، أو يمضي عليها وقت صلاة تكون الصلاة دينا في ذمتها .

وإن لأقل من العادة ينتظر مضي زمن العادة وتغتسل بعد ذلك أو تصير الصلاة دينا في ذمتها بعد مضي زمن العادة .

٧ - ترك الجماعة إلى الانفراد :

الجماعة سنة مؤكدة ، وقيل واجبة ؛ فمن ترك الجماعة بدون عذر مبيح للترك يأثم إن ترك الواجب أو السنة المؤكدة . قالوا : وإذا تمادى على ذلك عزره الحاكم .

قنديل قنديل عبد السلام شرف

مسألة في القراض

جاءنا من الكويت ما صورته بعد الديباجة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .
 أما بعد : فاقول العلماء الأعلام ، هدى الله بهم الأنام ، فيمن دفع كمية من الدراهم باسم القراض لعامل يعمل فيها على طريق المضاربة ، فاستمر العامل يعمل فيها قدر أربع عشرة سنة ، وكل سنة يدفع العامل لرب القراض قسطا من الدراهم . وفي يوم من الأيام جاء رب القراض للعامل وطلب منه أن يدفع له مبلغا من رأس المال ، فقال العامل : ليس عندي شيء أدفعه لك الآن ، فقال رب المال : أين ذهب المال ؟ فقال : عندي مال ولى على الناس ديون وللناس على أيضا ديون ، فطلب رب القراض من العامل أن يطلعه على الدفاتر ، فلجى العامل دعوته . فقاما من الدكان قاصدين البيت لأجل النظر فى الدفاتر ، فبينما رب القراض يمشى أمام العامل إذ وقع بصره على ابن العامل يحمل صرة من الدراهم ، فلما رآه أراد أن يتوارى عنه ، فأمسكه فى الحال وأخذ الصرة منه ، فقال الولد : هذه الدراهم أمانة لفلان وضعها عندنا وليست لنا ، فلما جاء العامل قال : هذه ٨٠٠ روبية لعمر و وضعها عندنا أمانة قبضت باسمه (عمر و) من خالد . فلما عُدَّت وجدوها ٩٠٠ روبية ، فسألوا العامل عن المائة الزائدة فقال : وضعتها عليها من الصندوق حين أردت إخراجها منه . فلما كشفوا على الدفتر وجدوا مقيدا فيه عندي لعمر و ٨٠٠ روبية مقبوضة من خالد ، فسكان قبضها من خالد ثابت عن الجميع : رب القراض وغيره .
 ومن الغدر رفع الأمر للحاكم ، فحجر عليه . وبعد الحجر عليه أقر (العامل) أمام رجلين من التجار الذين لهم عليه بعض الطلب : إنما هى عندي لا تنتفع بها ، وهم من المعتبرين . مع أنه ينكر ذلك ويقول : إنما كنت أقول : ما قدرت أن أنتفع بها .

هذا صورة الواقع . فهل تعين العامل الأمانة قبل الفلس يقبل فيختص بها دون الغرماء ، أم لا يقبل فيكون أسوة الغرماء ، مع أن الذي وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخارجة عن القراض ، ويكون الباقي من القراض إذا أضيف إلى الذي دفع لرب القراض باسم المصلحة خلال السنين الماضية يزيد على رأس المال بكثير ؟ وهل إقرار العامل بعد الحجر أمام الرجلين بقوله : هي عندي أنتفع بها ، يضر بالإقرار الأول أم لا ؟ أفتونا مأجورين ؟ أحمد بن محمد الغانم . الجبر الكويت - خليج فارس

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فقد نُص في مذهب مالك رضي الله عنه في باب القراض والفلس على ما يأتي :
أولاً — عامل القراض أمين فيما تحت يده من المال الذي يعمل فيه ولو لم يكن أميناً في الواقع ، لأن رب المال ائتمنه عليه ، فيده يد أمانة ، فليست كيد الغاصب . ولذلك كان مصداقاً يمين إذا ادعى تلف رأس المال أو خسارته ، إلا أن تشهد العادة بكذبه فلا يصدق .

ثانياً — من أقر بوديعة بعد تعيينها ، كأن قال : هذا المال وديعة بعد إفرازه ، فإن إقراره يقبل ويختص رب الوديعة بها فلا يخاصص فيها الغرماء . وإنما يقبل إقراره هذا إن شهدت بينة بأصلها : بأن قالت : نشهد أن فلاناً عنده وديعة لفلان ، وإن لم تعينها . ولا فرق في قبول الإقرار حينئذ بين أن يكون صادراً من المقر في حال صحته أو مرضه . فإن لم تشهد بينة بأصلها ، فإن كان إقراره قبل الفلس قبل ، سواء أكان في حال الصحة أو المرض ؛ وإن كان بعد الفلس فلا يقبل ، فلا يختص بها المقر له .

ثالثاً — يعمل في مذهب مالك بالقرائن . ومن ذلك الاعتماد عليها في حلف أولياء الدم أيمان القسامة . فإذا حلفوا استحقوا القصاص من القاتل . وقد مثلوا لذلك بما إذا وجد

شخص يجرى في زقاق ، ثم وجد بداخل هذا الزقاق شخص يتشحط في دمه ويقول :
دى عند فلان (يعنى ذلك الهارب) . فإن قوله هذا مع وجود الهارب بهذه الحالة
يعتبر لوثا (أى قرينة) على أن ضاربه هو هذا الشخص . فإذا مات المضرّوب حلف
أولياؤه أيمان القسامة ، معتمدين على هذه القرينة ، واستحقوا دم هذا المسمى .

ومن ذلك قولهم في اليمين : « واعتمد البات على ظن قوى » . أى أن الشخص يجوز له
أن يحلف على القطع معتمدا على ظن قوى . ومدار الظن القوى على القرائن المثيرة له .
ومن تتبّع السياسة الشرعية وما فيها من الحوادث ، كما يعلم بالاطلاع على تبصرة الحكام
لابن فرحون ، لا يتردد في أن القرائن مبني كثير من الأفضية الشرعية . ولابن القيم
كتاب قيم جدا في السياسة الشرعية أبان فيه صحة الحكم بالقرائن ، وأقام الدليل على ذلك
من السنة .

ولا غرو فدار الفروع على الظن الغالب ، والقرائن تفيده . والحكمة التي تقتضيها
روح الشريعة توجب مراعاة القرائن وعدم إهمالها ، إذ لولا ذلك لضاع كثير من الحقوق
واختل نظام المجتمع الانساني .

هذا ومنه يتضح أن عامل القراض في الحادثة المسئول عنها مصدق في إقراره
بالوديعة التي لعمر ووقد قبضها من يد خالد ، لأن إقراره كان قبل الحجر عليه . هذا هو
مقتضى كون يده يد أمانة على ما قررناه . غير أنه قد اكتنف ذلك الإقرار أمور تكاد
تقضى عليه بالاتهام فيه . بل هذه الأمور لا تدع الفقيه يتردد في أنه إقرار كاذب قصد به
الإساءة الى رب القراض باختزال جزء من ماله لنفسه . تلك الأمور هي :

أولاً — مسارعة ولد العامل حينما أحس بأن رب القراض سيطلع على ما في صندوق
التجارة من النقود من مسارعته الى أخذ هذه الصرة قبل فتح الصندوق . ولو كانت هذه
الصرة لمن أقرله العامل لم يدبر هذه الحيلة ، وكان يكفيهِ إن كان صادقا في أنها وديعة أن
ينبه عليها بعد فتح الصندوق ، لا سيما وهي مقيدة بدفاتر التجارة .

ثانيا - محاولة الاختفاء والهرب بها حينما رآه رب المال .

ثالثا - قول العامل بعد : « إنما هي عندي لأنتفع بها » مع ثبوت ذلك بشهادة المعتبرين كما جاء في الاستفتاء . وإنكاره صدور ذلك القول منه وتحويله الى قوله : « إنما قلت وما قدرت أن أنتفع بها » لا يفيد بعد شهادة المعتبرين بالعبارة الأولى .

رابعا - وجود ما في الصرة زائدا على ما أقر به العامل ودفاعه عن ذلك بقوله : « قد وضعت عليها مائة مما في الصندوق » مما يقوى الشبهة نحوه ، لأنه ما وضع عليها ذلك إلا بقصد اختلاسه لنفسه إن كان صادقا في أصل الوديعة .

لذلك نرى أنه إن شهدت بيعة بأن هذا العامل عنده وديعة لعمره وقبل إقراره واختص المقر له بها ؛ وإن لم تشهد بيعة بهذا فلا يقبل إقراره وإن كان قبل الحجر عليه لقيام القرائن على كذبه ، وتكون كبقية المال : للغرماء غير المقر له أن يتحصوا فيها . وقول المستفتي إن ما بيده يزيد على المطلوب منه ، وهو ما أشار إليه بقوله : « مع أن الذي وجد في يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخ » قوله هذا يفيد أن العامل لا يستحق الحجر عليه ، فإن مستحقه هو من أحاط الدين بماله بأن زاد على ماله أو ساواه . فهذا هو الذي يحجر عليه في التصرف للمحافظة على حقوق الدائنين . ولا يؤثر هذا القول في اتهام العامل في هذا الإقرار حيث لم تشهد بيعة بأصل الوديعة ؛ بل يقال إن هذه الوديعة إذا بطل الإقرار بها احتسبت من مال القراض ، وكان لربه أن يستكمل منها رأس ماله وما يخصه من الربح بعد أداء الديون التي لها علاقة بهذه التجارة .

وليعلم أنه لا عبرة بكتابة الوديعة في دفاتر التجارة بعد هذا الاتهام ، لأنه والحالة هذه لا يبعد أن تكون الكتابة مصطنعة من العامل قصد بها الحيلة على صحة إقراره بعد هذا .

نسأل الله أن يرزقنا الصدق في القول والعمل ، وأن يجنبنا مواقع الزلل بمنه

وكرمه

يوسف الرمهي

من هيئة كبار العلماء

زيارات فضيلة الاستاذ الاكبر

لأقسام الأزهر وكتباته

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر فزار أقسام الأزهر وكتباته في شهر مايو الماضي متفقدا أحوال الطلبة وسير الدروس فيها، فكان في زيارته هذه أكبر الأثر في بث روح النشاط في أصحاب الفضيلة المدرسين ، وبعث حياة جديدة في قلوب الطلبة الأتجباب . ومما يحسن أن ندونه في هذه المناسبة خطبة تكرم فضيلته بالقائم في القسم الثانوى بالمعهد الأزهرى حوت من عيون الحكم وشوارد النصائح ما يجب على كل طالب علم أن يجعله دستوراً لما هو بصدد من التلقى والتحصيل ، وقد قابلها جمهورهم بما هى جديرة به من القبول والا كبار . وترى مجلة نور الاسلام أن من أوجب واجباتها أن تدون هذه الكلمات القيمة بين صفحتها لتكون نصب أعين الطلبة في كل آن .

قال فضيلته عند نهاية زيارته للقسم الثانوى بالأزهر وهو في وسط الألو ف من مودعيه من علماء وطلاب :

« أردت ألا أخرج من بينكم دون أن ألقى اليكم نصحا هو نصح أب أنتم جميعا له أبناء ، لكم عليه حق الرعاية والحدب والا بثار ، وله عليكم حق الاجلال والمودة والاحترام . هذه الحقوق هى حقوق آبائكم عليكم ، وآباؤكم هم هؤلاء الأساتذة الذين يربون نفوسكم ، ويصيفون عقولكم صياغة نافعة لكم ولدينكم ووطنكم .

« للأساتذة حقوق على الطلبة ، ولهمؤلاء حقوق على أولئك ، ولكم أنتم أيضا حقوق بعضكم لبعض ، أما حقوقكم عند أساتذتكم فهم يعرفونها ويقومون بها جهدهم مخلصين مشكورين ، وأما حقوقكم نحوهم وحقوق بعضكم نحو بعض فهى التى أوصيكم بها ليكون بعضكم لبعض سندا معينا ، ورفيقا آمينا ، وابنا عارفا حقوق أبيه ومعامله ، وحافظا يده عنده .

« وأوصيكم أيضا بالتمسك بالدين القويم والخلق المتين ، فأنتم مهيثون لأن يكون منكم القاضى والمعلم ، والذى يعظ الناس في دينهم ويرشدكم في دنياهم ، وسلاح هذا كله هو العلم .

« والعلم علمان : علم نافع ، يوصلك الى ساحة الله ويصلك بأسباب رضاه ، وذلك هو الذى أدعوكم اليه ، وعلم شافع ، هو شافع لك فى أمر دنياك ، ينيلك ما تشتهى من زخرفها وعروض الربح فيها ، وذلك ما أدعوكم الى الحيد عنه .

« أحبوا الله يحبكم ، واعملوا فى رضاه ، واجعلوا كل ما وعيتم من علم وما سعيتم من عمل ، وما وسعتم من جهد ، وما همتم من تفكير ، اجعلوا كل ذلك خالصا لله وحده ، وذلك هو العلم النافع الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « من أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أرادها معا فعليه بالعلم » .

« هذه وصيتى لكم . وسيحسن عملكم فيها كما حسن استماعكم لها ، وعندئذ فأنتم أبنائى وأنا لكم أب راض مغبوط بكم .

« ولى عندكم كلمة أخيرة : هى أن يحسن امثالكم للقوانين التى تشمل معاهدكم ودروسكم وتنظيم أمركم ، مهما يكن اعتراضكم على هذه القوانين ، ومهما تكن شكواكم منها أو من بعضها .

« فهذه القوانين ما دامت قائمة ، يجب أن نعترف لها بجرمة هذه القانونية ، وأن نزل عند حكمها ، ونوليها من الحفاظ والامثال ما يجب أن يكون لقانون قائم » .

وقد قابل الطلبة كلمة فضيلته بالهتاف والدعاء . ثم ركب سيارته الى مكتب الرياسة . وجاء بعد ذلك الى الإدارة العامة وفد من علماء المعهد وأساتذته برياسة صاحب الفضيلة الشيخ الضرغاي لشكر فضيلته على هذه الزيارة .



فضيلة الاستاذ الأكبر يشكر

أحدث تولى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الجامع الأزهر سروراً عم جميع الاقطار الاسلامية ، لما علمه الناس جميعاً من نزوعه الى الاصلاح المرجو ، وكمال علمه بوجوه تحقيقه ، وبناءه على أقوم دعائمه . لذلك تجاوبت أصداء أصواتهم بتهنئة فضيلته من كل مكان ، وكان أهل الأقطار النائية من السابقين الى الاعراب عن شعورهم نحوه فى هذه المناسبة ، نجأت رسائلهم تترى حاملة أبلغ العبارات ، وأطيب التمنيات ، وصدرت جرائدهم تنافس جرائدنا فى إطراء فضيلته وذكر مناقبه ، حتى ليتمكن أن يقال إنه لم تحدث تولية كبرى منصبا ما أحدثته تولية الأستاذ الأكبر الحالى منصبه من الاستبشار الشامل ، والفرح العالمى العظيم .

وقد كان يود فضيلته أن يشكر لكل مهنئ تفضله ، لولا أن ذلك لاسبيل اليه . لذلك كلّفنا أن نعرب لحضراتهم عن تقدير فضيلته لشعورهم الطيب أكل تقدير ، وعن شكره لهم ما تفضلوا به من التهنئة والثناء الجليل ، ضارعا الى الله أن يوفقه لخدمة الاسلام الخدمة التى يرجوها هوله ويرجوها المسلمون ، وأن يعيد للآزهر مجده القديم تحت ضوء العلم الجديد .

وفضيلته يرجو أن يعتبر كل مهنئ له هذه الكلمة من الشكر كأنها موجهة اليه خاصة ، راجيا الله أن يوفقهم جميعا الى ما يحبه لهم من الخير العيم ، والوجود الكريم ، وأن يكافئهم على حسن ظنهم بما يكافى به المخلصين من عباده ، والغيورين من أوليائه . إنه ولى المؤمنين .

فضيلة الشكر

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » وقال سليمان التيمى : « إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته ، وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم » وقال محمد بن صالح الواقدي : دخلت على يحيى بن خالد البرمكى فقلت : إن ها هنا قوماء جاءوا يشكرون لك معروفا . فقال : يا محمد هؤلاء يشكرون معروفا فكيف لنا شكر شكرهم ؟

ذكري المولد النبوى

فى مثل هذا الشهر من كل عام يحتفل المسلمون فى جميع أقطار الأرض بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، قياما بحقه فى هدايتهم ، واعترافا بفضله فى بناء جماعتهم ، وتحقيق سعادتهم .

تقوم فى العالم الانسانى ذكريات كثيرة لرجالات يرى الناس أنهم مدينون لهم بعقيدة دينية ، أو بقاعدة فلسفية ، أو بحقيقة علمية ، أو بخطة سياسية ، أو برابطة اجتماعية ، أو بإصلاح فى مذهب ، أو بتجديد فى أمر من الأمور ، وقل أن تجد رجلا واحدا منهم جمع بين شأين أو ثلاثة من هذه الشؤون الانسانية ، إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع بينها جميعا ، فهو مؤسس الديانة العامة التى تسع الخلق كافة ، ومقوم الحكمة ، وواضع أكل أساليب العلم ، وأعدل طرق السياسة ، وأرقى ربط الاجتماع ، ومصلح جميع المذاهب ، ومجدد كل الأمور التى تهمل الانسانية . فالأمة التى تحتفل بذكرى ميلاده اليوم مدينة له بوجودها ، وبعقيدها ، وفلسفتها ، وعلمها ، وسياستها ، وروابطها ، ومذاهبها ، وكل أمر من أمورها . وعشر معشار هذه المزايا كلها فى الأمم السابقة كانت تحملها على تأليه مصلحيها ، ولكن لم يفت محمدا هذه النزعة البشرية ، فاحتاط لها أيما احتياط بأقواله وأعماله ، حتى حى أمته من أن تلتاث بهذه الخرافة ، فكان ذلك مما يضاف الى مناقبه ، ويزاد على ما أثره ، ويستنزل التعجب من بُعد نظره ، وثقوب فكره .

كان بعض من أرسل محمد اليهم يطلبون اليه أن يحدث لهم الآيات ، وقد غاب عنهم أنه هو نفسه أكبر آية لله فى خلقه ، فشكل آية بعده قليلة الخطر ، تخفى فى جانبه كما تخفى الكواكب بجانب القمر .

لقد عاشت على سطح الأرض أم ، ونبغ فيها رجال من كل صنف ، وحُفظت عنهم ذكريات لا تزال الأُم تعترف بحقهم عالياً ، فهل تصادف واحدا منهم يمكن أن توازن مناقبه مناقب محمد ، أو تقارن أعماله بأعماله ؟ اللهم لا ، ولا كرامة !

لندع الأنبياء والمرسلين ، فقد أمرنا أن نؤمن بهم ، وأن لا نفرق بينهم ، وهات لى المصلحين المقدمين ، والعباقرة المعدودين ، ممن سبقوا محمداً وأتوا بعده الى يومنا هذا . واعرض أمثالهم طريقة ، وأبعدهم صيتا ، ووازن بين عمله وعمل خاتم النبيين لتدرك أنك لا تستطيع الى ذلك سبيلا . وهل يوازن الدرهم بالقنطار ، أو البحر بالجدول ؟

استعرض أولاً كبار الفلاسفة والمشرعين عند اليونانيين الأقدمين ، واختار من انتهت اليهما الحكمة والزعامة منهم : أفلاطون وأرسطو ، فأنا لا أريد أن أذكر لك سقوط فلسفتيهما ، وأنهما أصبحتا من قبيل الأمور الأثرية في تاريخ العقلية الانسانية ، ولكنى أريد أن أذكرك بأن هذين العبقرين كانا يقرران في شريعتيهما أن العمال والصناع والموالى يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية ، لا لمخاطبات ما يمارسونه من الأعمال اليدوية ، فقارن بين هذا الأصل المبني على قاعدة بعيدة القرار في الإجحاف ، وبين الديموقراطية الاسلامية التي جعلت التمايز بالمزايا لا بالمال ولا بطبيعة الأعمال ، وساوت بين الكافة في الحقوق بصرف النظر عن الألوان والأجناس واللغات ، حتى ارتفع تحت ظلها الى منصات الزعامة العبيد السود وأصحاب المهن من كل صنف ، ومن كانوا لا يملكون بيت ليلة : « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » الحديث .

وهات من العباقرة القرييين مناديكارت ، فلا أود أن أحدثك عما صادفته فلسفته من النقد ، وما أصابها من السقوط ، ولكنى أذكر لك من مقرراته أنه كان يعد الحيوان آلة محضة ، مقودا بالفطرة الطبيعية ، وأنه مجرد من كل تعقل وإدراك . قابل هذا بما ورد في الاسلام عن الحيوان ، قال الله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون »

وفى الحديث الشريف : « عاتبوا الخليل فإنها تعتب » . فأين الحكم بأنها آلات لا تعقل من الحكم بأنها أم أمثال الأمم الإنسانية ، وأن لها عقلا تعقل به العتاب وتتجنب بسببه ما أوجبه ؟

وأما ما بقى قائما الى اليوم من مذهب ديكرت ، وهو تقديم الشك أمام كل بحث ، فقد سبقه الاسلام اليه ، فإنه حرم التقليد وحث على البحث وتعقل الأمور ، وجعل عمادها الدليل ، وهذا كله لا يمكن أن يكون إلا بتقديم الشك قبل الحكم على شئ .

ومن العبارة المحدثين (سيكون) واضع الأسلوب العلمى ، فقد اشتهر بتفرقته بين ما هو علم وما هو رأى ، وقرر بأن المعلوم لا يجوز رفعه الى درجة العلم الحق إلا إذا قام عليه دليل محسوس ، وما عدا ذلك فهو رأى . والرأى يُتمسك به حتى يقوم الدليل المحسوس على صحته فيضاف الى المقررات ، أو على فسادة فيقذف به الى عالم الأوهام والظنون . وقد سبقه الاسلام الى وضع هذا الأسلوب العلمى : فقرر أولاً أن أكثر ما عليه الناس أكاذيب وظنون ، فقال تعالى : « وإن تُطعْ أكثرَ مَنْ فى الأرض يُضلوك عن سبيل الله ، إن يتَّبِعُونَ إلا الظن وإنْ هم إلا يَخْرُصُونَ » وقال تعالى : « وما يتَّبِعْ أكثرُهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . فشكل ظن لا يسمى فى الاسلام علما ، لأن العلم فى اصطلاحه هو ما يكون دليله الحس أو ما اتصل بمقدماته بالحس .

ومن كبار المجددين فى العهد الحديث (أجوست كومت) مؤسس الفلسفة الوضعية ، وواضع علم الاجتماع . فأما الفلسفة الوضعية فقد سبقه الى أصولها علماء كثيرون تقدموه من أول أرسطو الى (سيكون) فليس له فيها من فضل إلا صبيها فى قالب مذهب . وأما علم الاجتماع فكسابقه أيضا درس موضوعاته علماء كثيرون وكان من أمثلهم ابن خلدون من مؤرخى المسلمين فى القرن السابع الهجرى حتى عد أنه واضع لهذا العلم . ولكن الواضع الأول لعلم الاجتماع البشرى الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه . وهذا العلم يقوم على أساس أن جميع الحوادث البشرية تابعة

لنواميس طبيعية مقررة لا تتخلف . وقد سبق الكتاب الكريم الناس كافة الى تقرير هذا الأساس الذى بنى عليه علم الاجتماع ، فقال تعالى : « سَنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » وقال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأُولَيْنِ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »

وقد عيب على (أجوست كومت) وضعه حدا لما يمكن أن يصل اليه الانسان من المعارف الكونية ، وعد مما لا يستطيع الانسان أن يبلغه إدراك نوع المادة التى تتألف منها الكواكب ، فلم يمس على وفاته خمس سنين حتى اخترعت آلة السبكتروسكوت وهى آلة تحليل الأشعة التى تصل الينا من الأجسام المختلفة ، والاستدلال بها على المواد التى تنعكس علينا تلك الأشعة منها ، وبتطبيقها على الأشعة التى تصل الينا من الكواكب عرف أنها مؤلفة من مواد لا تختلف فى شئ عن المواد الأرضية ، ففيها حديد ونحاس وقصدير الخ الخ ، فكان فى هذا الاكتشاف دحض للأصل الذى وضعه (أجوست كومت) . ولكن الاسلام لم يضع للمعلومات التى قد يكشفها الله للانسان حدا ، فإذا سئل مسلم عما يمكن أن يتأدى الى علم الانسان وما لا يمكن ، لم يستطع أن يضع لذلك حدا لقوله تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

هذا قصور أكبر العباقرة حيال التعاليم غير المحدودة التى أفيضت على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، نسوق مقتضياته على سبيل المثال لا الحصر ، إذ لو عينا بالأمر الثانى لما كفانا فيه مجلد ضخم .

ومن ناحية أخرى لو نظرنا الى الذكريات التى يحتفل بها لتجديد كبار العقول وأصحاب العبقريات ، لوجدناها نشرًا لصفحات مطوية من التاريخ ، لا دخل لها فى الحياة الراهنة . فهم أصحاب آراء ومذاهب اعتبرت فى زمانها طريفة ، وكانت مقدمة لآراء ومذاهب أرجح منها ، فعاشت هذه وذهبت تلك ، فبنوهُ بالأولى وبأصحابها باعتبار أنهم أول من أتى بمبادئها أو بمقدماتها ، لا على أنها حقائق مطلقة تبقى على الدهر ولا يبيلها الزمان .

فحمد هو الانسان الوحيد الذى يحتفل بذكراه على أن ما جاء به حق مطلق لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن تعاليمه هى الروح المدبر الذى يجب أن يقود حركات الجماعات البشرية، ويكيف كيانهما على النحو الذى كان يدعو اليه ويقرره. فإن فى الأرض أربعمائة مليون مسلم يرون حياتهم فى العود الى حظيرة التعاليم المحمدية، وليس فى العالم أمة ترى مثل هذا الرأى فى مصلح بينها وبينه أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد الناس أن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليمه بغير تعديل ولا تنقيح، ويرون أنها بالغة أقصى درجات السكال الى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قيمتها، ويطمس من لآلئها. وهذه مكانة لم تسم اليها أية تعاليم فى الأرض. فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به، ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشاً فيه، مما يجعل تعاليمه تستدعى الإصلاح والتهديب الى حدود بعيدة. لهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الإصلاحية، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة، وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل اليه السكافة من الثقافة العلمية، إلا التعاليم المحمدية، فإنها لا تزال جديدة كأنها صيغت فى هذا العصر، بل يُرى فيها ما لم تنضج العقول للعمل به، وإن كانت تدرك أنه سام السموكله. فن من الأمم المتمدنة اليوم تستطيع أن تسوى بين الأبيض والأسود، وبين المواطن الصميم والأجنبي الأعجم، وأن تبتعد عن العدوان فى الحرب على غير المحاربين، وأنت تراها تعد العدد لإهلاك النساء والولدان والمهرم والمرضى بالغازات السامة؟ إن كنت تعجب من الفرق بين هذين المذهبين فأزيدك عجباً فى هذا الموطن بأن الاسلام يحرم على الغزاة أن يقتلوا خدمة أعدائهم فى ساحة الوغى. أترى أبعد من هذا مدى فى احترام الحياة الانسانية، وأرق مذهباً فى حصر نار الحرب فى أضيق الحدود حتى لا ينقلب الأمر الى جاهلية جهلاء، تُنكر فيها المبادئ الأدبية، وتهدر الكرامة البشرية؟

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يرى أجنب عن هذا الدين في القرن العشرين وهم من الرجال الآخذين بأوفى حظ من العلوم الاجتماعية أن العالم كله لا ينتعش من كبوته إلا إذا أخذ بتعاليم الديانة الإسلامية، وأنه لا بد منته إلى هذه النتيجة في نحو قرنين من الزمان . قال بذلك كثير ، منهم برناردشو الفيلسوف الانجليزي ، وقد دوناه في مقالة سابقة هنا . فهل رأيت في كل ما رأيت مثل هذه الخصوصية لواحد من أصحاب المذاهب الإصلاحية ؟

هذا عجيب كل العجب ، وأعجب منه أن يوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو في صحراوات بلاد العرب بأن التعاليم التي جاء بها ستزداد ظهورا على مر الأجيال ، يتسوالى الآيات الدالة على صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وعلى بلوغها أقصى غايات السكال ، فقال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

أو ليس من العجب العاجب أن يطلب طالب بعد هذه الآيات البينات كلها دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأى دليل يبلغ في القوة والإقناع مبلغ هذا الدليل : رجل نهض في بقعة قاصية من الأرض لا عهد لأهلها بإصلاح اجتماعي ، ولا بكتاب سماوى ، فأخذ يدعوهم إلى دين وصفه بأنه دين الإنسانية كلها ، قائلا إنه يوحى إليه كتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه خاتم الأنبياء وما جاء به آخر ما يتفضل به الله على الناس من الوحي . فاستهزأ به قومه وسخروا منه ، فلم يرفع باستهزائهم رأسا ، فاستمدوا عليه واضطهدوه ، فلم يقم لاضطهادهم وزنا ، فهددوه بالقتل فلم تلن له قناة ، ولم تثن لهم صريمة ، واتبعه نفر من قومه فلقوا من ممالاتهم له ما يلقى أهل الحق من شيعة الباطل ، ثم هاجر إلى قوم آخرين وهاجر معه من آمن به ، فتألب عليه خصومه واستشاروا معهم من استشاروه من أحلافهم ، وتقصدا القضاء عليه وعلى من معه دفعات متوالية « سيهزم الجمعُ ويوئلون الدُّبُرُ » ، فنصره الله عليهم ،

ثم ما هى إلا سنون معدودة حتى عمت دعوته جزيرة العرب كلها ، فلم يستهوه التفرد بالسلطان ، ولم تستغوه فواتن الملك الى أن يغير من بساطته ، وطرز معيشته ، واستمر داعيا العالم كله الى دينه ، مبشرا قومه بأن الله سيعطيهم خلافة الأرض ، وزعامة الأمم ، ما داموا عاملين بكتاب الله وسنته : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . فاهى إلا سنون معدودة حتى تحقق هذا الوعد ، وإذا بالعرب الذين كانوا بالأُمس مضرب المثل فى الجاهلية والفرقة قد أصبحوا للعالم سادة ، ولشعوبه وأممه قادة ، فنظر الناس الى الدين الذى أبلغ أهله هذه المرتبة فإذا به مطمأن النفوس ، وسكن الإرواح ، وبلسم القلوب ، ونور العقول ، فدخلوا فيه أفواجا أفواجا ، بل ملايين ملايين ، فلم يمحض عليه جيل واحد حتى كان المؤذن فى مسجد المدينة يقول : حى على الفلاح ، فيتابعه زميله عند أسوار الصين بمثلا .

ثم تهادى الزمان ، وتطاولت الأيام ، وإذا بالأمم الاسلامية التى بليت بالفتور أجيالا ، تهب مذعورة على أبواب المدينة الأوربية وطبولها ، ففتحت أعينها فإذا هى حيال علوم عالية ، وفلسفات مغرية ، وآلات محيرة ، ومخترعات مدهشة ، فوجت برهة ، ثم أخذت تلقى بنظرها على ما تركته وراء ظهرها من تراث الآباء ، فإذا ما حيرها الساعة وأضاع رشدها ، وليد ما خلفه أولئك الآباء وثمره جهودهم ، فإن زيد عليه شئ فما اقتضاه الفرق بين العصرين ، والتباين بين العهدين ، فأصبحت لديهم العقيدة التى كادت تنزعزع ، يقينا لا يعتريه شك ، فى أن الفتور الذى كانوا فيه هو نتيجة لتعاميهم عن التعاليم التى أورثوها ، فأقبلوا عليها أيما إقبال ، ورأوا نجاحهم فى العود إليها على كل حال . وشجعهم الأجانب عنهم على هذه العقيدة بما كتبوه من تاريخ أسلافهم ، وما تبينوه من دراسة ديانتهم .

أريد الطالب دليلاً أسطع من هذا على النبوة ؟
 ألا سقياً ورعياً لكارلايل المؤرخ الفيلسوف الانجليزى الكبير ، لقد قال فى كتابه
 الأبطال وديانة الأبطال : « أريد دليلاً ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبنى لك
 داراً تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قروناً طويلة ، لا يعترها تصدع ،
 ولا يعتورها أقل تداع ؟ كذلك هل يطلب طالب الى مدعى النبوة دليلاً أقوى
 من أن ينشر ديناً بين ملايين من البشر يستمرون عليه قروناً طويلة ويتحمسون له
 تحمسا كبيراً ؟ فمحمد قال بأنه رسول من عند الله وبرهن على صدق قوله بدين نشره
 فى الناس أخذ به مئتان من الملايين ومضى عليهم فيه اثنا عشر قرناً ، وهم يحبون دينهم
 هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فإذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟
 « ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنك نوت ، فالحقيقية منها تتداول بين
 الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح
 أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق » . انتهى
 هذا حق ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين محمد فرير ومبرى

من أبلغ ما قيل فيمن لم يقبل النصح

من أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سبع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد
 رضى الله عنه بهم :
 « لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه ، كأنى أسمع جرسه ، وأبصر غبه ، ولكنكم أبيتم
 النصيحة ، فاجتنيتم الندامة ، وإنى لما رأيتمكم تهمون النصيح ، وتسفهون الحليم ، استشعرت
 بكم الياس ، وخفت عليكم البلاء ، والله ما منعكم الله التوبة ، ولا أخذكم على غرة ، ولقد
 أمهلكم حتى مل الواعظ ، وهزى الموعوظ ، وكنتم كأنما يعنى بما أتم فيه غيركم » .
 قوله : كأنى أسمع جرسه ، أى صوته . وأبصر غبه ، أى عاقبته .

أساطيل المسلمين وحرورهم البحرية

يعجب من لم يدرس تاريخ المسلمين كل العجب إذا قيل إن المسلمين اتخذوا الأساطيل ولم يمض على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنون قليلة فتحوا بها مدنا هندية وجزائر كثيرة في البحر الأبيض المتوسط . إن هذه النهضة محيرة للعقل لم يدون مثلها لأمة من أمم الأرض . فإن العرب عاشوا حياتهم كلها على اليابسة لم تتحرك لهم همّة الى ركوب البحر ، والتطوح على السفن الى بلاد يجهلونها كل الجهل . ولسكنهم لما دخلوا في الاسلام سرت فيهم روح منه قوية لا ترى للتبسط في الأرض حدا تقف عنده ، تحقيقا لمراد الله من إعلاء كلمة الحق في كل مكان يمكن أن يصل اليه داع إليها ، أو ينمي اليه خبر عنها .

أول ما شرع المسلمون في الغزو بحرا كان سنة ست عشرة هجرية ، فقد أرسل والى عمان أسطولا لفتح الهند ، فاستولى على جزيرة طنّاح القريبة من مدينة بومباي . وخرج من ناحية البحرين بجزيرة العرب أسطول آخر استولى في جزيرة كامبي على مدينة بارودا . وخرج أسطول ثالث الى مصاب نهر السند واستولى عليها .

وكان في الوقت نفسه يغزو عبد الله بن عامر سنة ثلاث وعشرين في خلافة عثمان ابن عفان بلاد كرمان وسجستان في شمال الهند . ثم حدثت بين جيوش كرمان والسند وقائع انتهت بفوز قائده عبد الرحمن بن سمرة عليها ، فاستولى على إقليم داور ومدينة بوست . وتغلب بعد ذلك المهلب بن أبي صفرة على ملك أفغانستان وألزمه دفع الجزية ، وكان ذلك سنة أربع وستين على عهد معاوية بن أبي سفيان . وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفي سنة تسع وستين محمد بن قاسم بجيوش الى شاطئ نهر السند ، واستولى على مدائن ديبيل ويرون وبهمن آباد وألور ، واقترب من جبال حملايا القائمة في شمال البلاد الهندية .

ولم يمض بعد ذلك غير قليل حتى كان قتيبة بن مسلم الذي ولاه الحجاج بن يوسف الثقة في فتح آسيا الوسطى قد دحر التركان واستولى على خوارزم وما وراء نهر جيحون ومعظم المملكة التتارية، وأحرق أصنام مدينة فرغانة ونخشب وبيكسند وبخارى وسمرقند ومدينة كشغر وأقصو وخوطان. ولما انتهى الى حدود الأمبراطورية الصينية أرسل الى عاهلها وفدا مؤلفا من اثني عشر رجلا، وصالحهم على دفع الجزية. وبعد ذلك توجه قتيبة بأسطول على نهر السند الى داخل البلاد الهندية، فلحق به جيش برى في أرض مكران، وانتشر في سهول مدينة كشمير، فثارت عليه مدن على شواطئ نهر السند فتغلب عليها. وما زالت الجيوش الاسلامية تجوس خلال الديار الهندية حتى وصلت الى نهر الكنجج الذي يقده الهندوس ويحجون اليه في كل عام.

وإنما استطرنا من ذكر الأساطيل الاسلامية التي بدأت تمخر عباب البحر من سنة ست عشرة هجرية للفتح ونشر كلمة الله في العالم الى ذكر الفتوح التي تمت في شمال الهند وفي داخلها، ليرى القارئ صورة مصغرة لحركة التضايف بين جيوش المسلمين البرية وأساطيلهم البحرية لا يدخل تلك الممالك الواسعة الأرجاء في حظيرة الأمبراطورية الاسلامية التي لم يشهد تاريخ الممالك ما يقرب منها في الاتساع والعظمة الدولية.

وأغرب ما في هذا الأمر أن تتمكن دولة فتية كالدولة الاسلامية لا عهد لها بلاك ولا حكومة من التبسط في فتوحاتها الى هذا الحد، وتستطيع أن تحتفظ بهذا الملك أجيالا لا بوسائل الإكراه والإغناء، ولكن بروح العدل والإنصاف والمثل الأعلى في الإحسان والرحمة. فكان أثر هذه السيرة الفضلى أن انتشرت في كل تلك البقاع اللغة العربية وآداب الاسلام، فلم يمض عليها سنون معدودة حتى أصبحت أمنع معاقل الاسلام، ومعشش حماة وأعلامه.

والله إن هذا من أعجب ما يتفق للانسان أن يقرأ في تاريخ البشر! وهو بإجماله وتفصيله معجزة خالدة لحمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

وأول من أمر بالغزو في البحر الأبيض المتوسط معاوية بن أبي سفيان أيام كان والياً عليها، فأمر بإعداد أسطول في سنة سبع وعشرين هجرية، ووجهه للفتح في البحر الأبيض المتوسط. فكان أول ما صادفه من جزره جزيرة قبرص، فقاتل حاميتها، وما زال بها حتى هزمها واستولى عليها فحرب عليها الجزية. وفي سنة تسع وعشرين استولى على جزيرة قريطش (أى كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس. كل هذا وهو وال على الشام. فلما آلت إليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أرسل أساطيله تترى سنة ستة وثلاثين، فخارب الرومانيين الشرقيين الذين كانت قاعدة ملكهم القسطنطينية، فأباد جزءاً من أسطول أمبراطورهم قسطنطين الثاني بعد حصره في خليج ايسالوق بسواحل إقليم ليسيا (Lycie) على سواحل الأناضول في سفح جبل فينكس

ثم توجهت رغبته الى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين، فجهز لذلك أسطولا قويا، فاقتحم الدردنيل حتى وصل الى ساحل بحر مرمره، فنزل جنوده غرب القسطنطينية ومكثوا يحاصرونها ست سنين. فاهتدى أمبراطورها الى وسيلة أحرق بها أساطيل المسلمين، فاضطرت جنودها أن تعود الى الشام، فسار يقتني أثرهم جيش روماني حتى أمن منهم على العاصمة والأناضول. فأغررت هذه الموقعة الأمبراطور بوسنثيان الثاني على أن يستولى على الشام، وكان ذلك سنة سبع وستين، وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، واتفق أنه كان مشتغلا بأمر الخلافات التي كان يثيرها مزاحموه، فرأى أن يرد الرومانيين بالحسن، فعاهدهم على ترك العداء. فلما استتب له الأمر رأى أن يسترد ما كان قد استولى عليه الرومانيون من الشام، فقاتلهم وانتصر عليهم، ورد الى حظيرة الاسلام ما كان قد انفصل عنهم من المدن والأقاليم. ولما كانت سنة ثلاث وسبعين أرسل عبد الملك بن مروان بأساطيله لفتح جزيرة صقلية (سيسيلى) فانتصرت عدة مرات على المدافعين عنها.

ولما تولى سليمان بن عبد الملك أخذ يرسل بالأساطيل لفتح القسطنطينية، واقتفى أثره عمر بن عبد العزيز، فكان الرومانيون يحتالون على إحراق تلك الأساطيل فتضطر الجيوش التي بها أن تعود برا، ولكنها في أثناء عودتها كانت تفتح مدنا وقلاعاً، فاستولوا على مدائن بسواحل بحر مرمرية، وأثرت مسألة إحراق الأساطيل في نفوس المسلمين، ورأوا أن يعاملوا خصومهم بالمثل. فسار مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش مغيرا به على آسيا الصغرى، فاستولى على مدن كثيرة منها، وما زال يتابع سيره حتى وصلت جنوده الى اسكودار وهي قرية حيال القسطنطينية، فأحرقوا سفن الرومانيين التي كانت بها وعادوا الى معسكرهم.

وكانت ثمرة اتخاذ المسلمين للأساطيل أن فتحوا بها جميع جزر البحر الأبيض، ومدنا كثيرة من البلاد اليونانية وسواحل إيطاليا.

ثمرة هذه الفتوحات على المسلمين وعلى العالم كله :

إن الأمر المحسوس الذي استدل منه المؤرخون على أن تبسط المسلمين في الفتوحات لم يكن القصد منه اجتياح الأمم وسلب مذخوراتها. إنهم قد عفوا عما في أيدي المهجورين ولم يتناولوا منهم سوى الجزية، وإنهم اقتبسوا كل ما صادفوه من علم نافع، وصناعة ذات فائدة عملية. فلو كان انسياحهم في الأرض ملحوظا فيه استلاب ما بأيدي المهجورين من مال وعتاد، لسلكوا طريقة الفاتحين قبلهم، فأحرقوا المدن بعد تجريدها من خيراتها، وقتلوا أهلها أو شردوهم في البلاد ليهلكوهم على أسوأ حال.

قال العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين): «إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مهجورهم إلا شيئا ضئيلا من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية».

وقال العلامة (سدبوت) Sédillot المؤرخ الفرنسي الكبير في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) فيما يتعلق باقتباس المسلمين للعلوم ما مؤداه :

«من تأمل في تاريخ غارة العرب على الشام ومصر تحقق أنهم كانوا ميالين الى كسب

العلوم وترقيتها . وقد تبين ذلك باقتباسهم لها واشتغالهم بها ، واثتلافهم بمن سكن سواحل جزيرتهم من جاليات الأمم التي لجأت هربا بدينها من الاضطهادات المذهبية ، وأشهرها جماعات النسطوريين النصرانية التي كانت على درجة عالية من العلم والمدنية . وهؤلاء كانوا قد أفادوا أهل الشام بعلومهم ومعارفهم ، ثم اضطروا تحت ضغط الاضطهاد الى الهرب منها الى السواحل العربية .

« وقد تبين ولع العرب بالعلوم أيضا من اقتباسهم أصول المعارف عند فتحهم لبلاد الفرس على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

« فلما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور سنة (١٣٥هـ) أظهر ميلا عظيما للعلوم الكونية ، فكان يستدعي العلماء من البلاد التي انضمت الى الأمبراطورية الاسلامية ، ويطلب اليهم ترجمة الكتب اليونانية ، ويفدق عليهم الأموال الطائلة .

« وقد سار خلفاؤه سيرته في نشر العلوم وترجمة كتبها عن اليونانية وغيرها ، وخاصة حفيديه المهدي وهرون الرشيد ، فقد أقبلوا على علماء النصرانية المنتشرين ببلاد من آسيا ، فاستقدموهم وأوعزوا اليهم بترجمة الكتب اليونانية والفارسية والسريانية الى العربية ، فاشتهر في عصرهما العالم الفلكي المسمى « ماشاء الله » ، فوضع الاسطرلاب ودائرته النحاسية ، وأحمد بن محمد النهاوندي الفارسي ، فكانا أقدم علماء الأرصاد في الدولة الاسلامية . وترجم حجازي بن يوسف كتاب إقليدس الى العربية فتقدمت في هذا العصر العلوم الفلكية والميكانيكية ، وكفى بالساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد الى ملك أوروبا شرلمان شاهدا على تقدم الفنون في ذلك العصر .

« فلما جاء المأمون وهو يشبه باغطوس لدى الرومانيين ، فأحاط نفسه بأعظم علماء الأرض ، وجعل بينه وبين ملوك القسطنطينية روابط حسنة بقصد تمكينه من عيون الكتب اليونانية ، فأنفق أموالا طائلة على ترجمة مؤلفات علماء الاسكندرية في عهد البطالسة ، وترجمة غيرها مما كان مدخرا في المكتبات الأجنبية حتى ما كان منها في مدينة أتيننا نفسها .

تاريخ الصوفية في الادب العربي^(١)

قامت الى جانب التعاليم الدينية وقواعد العبادات منذ بدء ظهور الاسلام وإبان نشأته الأولى طرق أخرى لعبودية لإظهار التقوى والصلاح والتقرب الى الله والإخلاص له والتفاني في حبه بوسائل شخصية عديدة لا ترتبط بأية رابطة بقواعد الدين الأصلية أو تنقيدها بتعاليمه الأساسية . وكانت الفكرة الأولى التي قامت عليها هذه الطرق وتطورت بمقتضاها تنحصر في تخليص الروح الخالدة من العناصر الجسمانية البائدة والأغراض الدنيوية الزائلة التي لا قيمة لها ولا وزن يجانب الإخلاص لله والتفاني في حبه وطاعته . وهذه الفكرة هي في الحقيقة قديمة بقدر قدم الانسان على وجه الأرض ، وظهرت في الأجيال المختلفة بصور متعددة وأشكال متباينة ، في مبادئ فلسفية لعبودية عتيقة ، وفي عقائد دينية لا تقع تحت حصر أو بيان .

ولكن أظهر ما ظهرت به الصوفية (وسميت كذلك بالنسبة للباس أتباع هذه الطريقة المكون من الصوف مبالغه في التقشف والتزهد) في الاسلام ، وأهم ما امتاز به علماء الديانة الاسلامية المتصوفون هو ركونهم الى الناحية العملية من هذه الوجهة الفلسفية ، بوضع الثقة المطلقة في الله تعالت قدرته ، وتوكلهم عليه في حركاتهم وسكناتهم ، والإخلاص في عبادته والتفاني في تقديسه ، مع نبذ كل المطامع الدنيوية واحتقار الأغراض المعاشية .

ولقد برز بينهم كثير من المتأدين الذين عالجوا هذا الموضوع وكتبوا فيه كتابات شتى في الوعظ والإرشاد ، مما جعل الباحث في تاريخ الأدب العربي لا يرضن بأن يفرد له فصلا خاصا بين فصول العلوم العربية التي ظهرت في بدء الحياة الفكرية

(١) مترجمة من الألمانية نقل عن كتاب « تاريخ الادب العربي » للمسشرق الألماني الكبير الاستاذ

الدكتور « بروكلان »

الاسلامية الرشيدة ، وتطورت تطورا ظاهرا بمرور الأعوام ، فكان لها أثر بالغ في حضارات الأمم المتاخمة وثقافتها ، بل وكان لها في أحيان عديدة نصيب كبير في نهضة العالم الغربي العلمية .

وأول بدء ظهور هذه الطريقة التعبدية في التاريخ المعروف ، في الكنيسة الرسمية حيث تسربت اليها بطريق مسيحي الشام ، الذين أخذوها عن الديانة الاغريقية ، بعد أن نشط تيارها الهادي . واجترفت الكنيسة الشرقية . والفكرة في جوهرها الأول ترجع الى الفلاسفة الأفلاطونية الجديدة التي تدعو الى ضرورة إنكار الدنيا وأغراضها والسعي وراء التقرب الى الله والتفاني في حبه بطريق الزهد والتصوف . وأول من ظهر من علماء الشام ناشراً لواء الدعوة الى هذه المبادئ ، والتعاليم الدينية هو (بارسودبلي) في القرن السادس من الميلاد .

انتشرت هذه التعاليم من مهدها ببلاد الشام عن طريق الكنيسة الاغريقية الى الكنيسة الغربية في العصور الوسطى ، كما تسربت كذلك الى الاسلام ، فأخذها عنهم علماء المسلمين الأولون ، فظهرت العلاقة القوية والرابطة الوثيقة في حركات الذكر عند متصوفي الاسلام القدماء ، وتلك التي كان يقوم بها أنصار هذه الطريقة في الشام . وكما كانت الشام مهداً لنشأة هذه الطرق الدينية وتطورها ، فإنها كانت كذلك مهداً لأنصارها من العلماء والمتأديين الذين كانوا أول من دافع عنها ، فعالجوا هذه الموضوعات الفلسفية بالبحث والتأليف .

وأول علماء الصوفيين الذين وصلتنا أخبارهم ومؤلفاتهم هو الحارث المحاسبي المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وهو وإن كان من أشد المتمسكين بقواعد الديانة الإسلامية والمحافظين على الروح السنيّة الحقة في جميع المسائل الأساسية إلا أنه كان يرى عدم ضرورة التقيد بالمراسيم التقليدية والاقتصار عليها كغيره من أعلام السنيين ، بل كان يذهب الى أبعد من ذلك ويرى وجوب حكم النفس والتسيطر عليها والزهد في أغراض الدنيا ومطامعها والتفاني في حب الله وطاعته .

وعلى هذه الصورة نشأت النواة التي شُيِّد عليها بناء الصوفية في الاسلام في مبدأ الأمر، إلا أنه سرعان ما تطورت ونبئت حولها عناصر غريبة من جهات مختلفة كانت سببا في تحولها تدريجيا عن الطريق المستقيم والعقيدة السليمة، ومن ذلك ما قام به العالم المصرى « ذو النون » المتوفى سنة ٢٤٥ هـ من دعاية واسعة لعلم كيمياء الذهب وأحلامه اللذيذة مجتهدا في إيجاد رابطة بينه وبين تعاليم الصوفية وقواعدها.

وأما في شرق البلاد الاسلامية فقد صادفت الصوفية في طريقها تيارات العقائد الهندية البوذية، فتأثرت بها الى حد بعيد، وكادت تودى بالصوفيين الى حد الإلحاد واعتناق المذاهب الإلشراكية، وظهرت هذه الأفكار بشكل واضح في أشهر الصوفيين في القرن الثالث من الهجرة (حسين الحلاج) وهو من أصل فارسى، وكان أستاذه «الجنيد» المتوفى سنة ٢٩٧ هـ متمسكا بالتعاليم السنية، ولو أنه كان يتجنب الجدل والحوار في مسائل العقائد الأصلية، ولكن الحلاج ارتأى أن لاداعى يدعو للتمسك بقواعد الاسلام الحقة، وظن أنه يملك مزايا غير طبيعية ومستحوذا على قوى خارقة للعادة، وتمكن من أن يجد من صغار العقول وضعاف العقيدة من يلتف حوله ويستمتع لهذيانه ويؤمن بما زعمه من أراجيف، ولكنه تمالى في أوهامه، فذهبت بلبه وصوابه، وتوهم أن الله عز وجل قد حل في جسمه، فسرعان ما ثارت عليه البلاد وانقلبت ضده بالحكم ولقى حتفه سنة ٣٠٩ هـ ببغداد، وبإعدامه اختفت هذه الأفكار الإلشراكية المتطرفة من تعاليم الصوفيين المجترئين الموجهة مباشرة الى رأى العام، فقبعوا في عقر دارهم من أطويلا، وكفوا بذلك الناس شر آرائهم المتطرفة، ووفروا عليهم بلبلة أفكارهم، ولم يظهر في القرن الرابع من الهجرة من آثار لهم في الأدب العربى إلا ما كان متفقا مع الصلاح والتقوى الحقيقية، ولم يخل الشعر في هذا العصر من أثر تعاليم تلك الطرق التى ترمى الى التفانى في العقائد الدينية فحسب.

بقيت العقائد السنية منتصرة ضد الصوفية المتطرفة منذ أواخر القرن الثالث

من الهجرة وطوال القرن الرابع ، فنبذ من الآراء والتعاليم كل ما لا يتفق مع كتاب الله والأحاديث النبوية في غير لبس أو غموض ، وبقيت الصوفية سائرة بهدوء في طريقها المسالم الى أن ظفرت في العصر الثاني من تاريخ الأدب العربي (أى ابتداء من القرن الخامس الهجرى) ببغيتها في النهضة الأدبية والدينية مما كان له من الأثر البعيد في تطور الحياة الدينية والأدب العربي ما لم يشهده غيرها من العلوم الدينية .

ففي أوائل القرن الخامس الهجرى نهض من علماء نيسابور عبد الكريم القشيري في عام ٤٣٧ هـ لإحياء العلوم الصوفية ، وبعث برسالة الى أنصار هذه الطريقة الدينية من العلماء المعاصرين يناشدهم لنصرة الطريقة وإحكام عرى التعارف بينهم وتبادل الآراء لتجديد التعاليم الصوفية التي كادت السنون تغير من معالمها وتذهب بأصولها الصحيحة ، ولم يكد القرن الخامس يوشك على الانتهاء حتى اهتم الغزالي بالاشتغال بأمور الصوفية ، ووجد فيها عوضا عما كان يصبو اليه في مستقبل حياته من أبحاث علمية . وفي القرن السادس من الهجرة انتشر علماء الصوفية بكثرة في أنحاء العالم الاسلامى شرقا وغربا ، ووضعوا كثيرا من القواعد الجديدة والتعاليم المختلفة في هذه الطريقة الدينية ، واشتغل كثير منهم بالتأليف ، فظهر في هذا الباب من عالم الأدب العربي ما يكفل تعليم النشء الحديث ، وإرشاد الأجيال المتأخرة الى ضروب الصوفية المختلفة وفلسفتها العميقة .

وكانت الشام لا تزال حتى هذا العصر مهدا لهذه الطريقة ومنبتا لعلومها ، واشتهر من علمائها في القرن السادس على الحكارى المتوفى سنة ٥٥٨ هـ بعد أن شيد خانقاه للمتصوفين على جبل حكار بجوار الموصل ، وقام برحلات واسعة للوعظ والارشاد ، وأسس طريقة العدوية التي بقيت نشيطة حتى القرن السابع الهجرى ، بفضل تعهد من خلفه من زعماء الصوفية في تلك البلاد ، وله في عالم الأدب كتاب يفصح فيه عن عقيدته ورسالة وصاية الى تلاميذه ، ولا زالت بعض الطرق الكردية المعروفة باسم « يزىدى » تحيييه وتزيد في تمجيده لا حياة مذهبهم وتوثيق عقيدتهم .

وفي بغداد اشتهر من علماء الصوفيين في هذا العصر عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ وهو مؤسس الطريقة الكبيرة المعروفة باسم القادرية، ولقد عرف كيف يتسلط على عقول أتباعه ومريديه، وحاز شهرة واسعة، وله في ميدان الأدب بضع مقدمات في الحياة الدينية السعيدة، وعدة رسائل أخرى في الوعظ والأدعية.

وهكذا سار معظم علماء الصوفية على هذا المنوال: متمسكين بجوهر الاسلام، محافظين على أصوله الأولية، غير خارجين على تعاليمه الأساسية، بل كان جل همهم وغاية أملمهم توثيق الحياة الدينية وترسيخها في عبادة الله والتفاني فيها، الى أن ظهر شهاب الدين السهروردي، وجاء بما تخطى به الحدود المباحة، وخرج على كتاب الله وسنة نبيه، وكان يحكي حياة درويش متجول، فكان يظهر تارة في بلاد الفرس وطورا في العراق الى أن نزل أخيرا بمدينة حلب ضيفا على بلاط الملك الظاهر بن صلاح الدين، وكان يجتهد في الإذاعة عن نفسه بأنه قادر على الإتيان بالمعجزات الخوارق، وكانت تظهر في تعاليمه وأفكاره علاوة على آثار الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، التي نشأت عنها الصوفية القديمة في الاسلام، بعض الآراء الايرانية العتيقة والعقائد الفارسية الشيعية عن الإمام المحتفي، وكان يسمى طريقته بطريقة النور، ولذا فإن الدراويش الذين جعلوه زعما لجماعتهم كانوا يطلقون على طريقتهم «النور بخشية» أي الذين يعطون النور. ولقد تذر السنيون كثيرا من تعاليمه الفاسدة وعقيدته السقيمة، وتمسكوا أخيرا من حمل السلطان على اضطهاده والحكم بإعدامه، فأعدم سنة ٥٨٧ هـ. وله في عالم الأدب بضع رسائل فلسفية علاوة على كتابه الذي يفسر فيه طريقته ويشرح تعاليمه الصوفية.

وأشهر علماء الصوفية في هذا العصر في البلاد الاسلامية الغربية هو أبو مدين الذي ظهر بمدينة تلمسان وتوفى بها عام ٥٩٨ هـ. ولا يزال كثير من الأهالي تحيي ذكراه وتجد اسمه، ولم يترك في الأدب العربي سوى القليل من الشعر، وبضع مجموعات في الحكم والأمثال.

وجاء من بعده على الشاذلى فأسس طريقة صوفية خاصة، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ، ولم يخلف للأدب العربي سوى رسالة في واجبات الطاعة لله، وبضع جل مأثورة في الأدعية.

وأكبر علماء الاسلام المتصوفين على الاطلاق هو بلاشك محي الدين محمد بن عربي، ولد بالمرسية سنة ٥٦٠ هـ وطلب العلم بمدينة اشبيلية ورحل الى بلاد الشرق عام ٥٩٨ هـ. وتنقل بين العراق وآسيا الصغرى الى أن استقر به المقام أخيراً بدمشق حيث توفى سنة ٦٣٨ هـ. ولقد ظهر تفوقه ونبوغه على زملائه من زعماء الصوفيين المتقدمين والمتأخرين بنوع خاص في عالم التأليف، فأتى بمحصول وافر في الأدب العربي، فقد وصلنا من مؤلفاته حوالى ١٥٠ كتاباً مستقلاً، وامتاز كتابه المسمى «الفتوحات المكية» بالأفكار العالية والفلسفة العميقة. وكثيراً ما كان يلجأ الى وضع تفاسير لا يوضح ما يكتبه بسبب صعوبة الموضوعات وتعقيد المسائل الفلسفية والدينية التي كان يعالجها.

ولما كانت الصوفية، وهى مدار بحثه الأول، أقرب الى المسائل الحسية من الموضوعات الفكرية، فإنه كان يلتمس مخرجاً للتعبير عن مشاعره بواسطة النظم، فكانت تفيض كتابانه بالأشعار، وله فى ذلك مقطوعات غاية فى الروعة والاحكام، وأهم قصائده هى تلك التى نظمها بحمكة المكرمة عام ٥٩٨ هـ فى التغنى بحب الله، وكانت تشبه من حيث الأسلوب مقطوعات حافظ، يستمع بين أشطارها رنين شهوة الغزل، ولذا فانه رأى نفسه مضطراً لوضع تفسير لها، ليدفع به لومة من يتهمة بالتغنى بالحب الدنيوى.

وله مؤلفات فلسفية عديدة تم عن مبلغ تأثره بالتفكير الاغريقى والهندي، وتضامن مع أحد علماء الهنود فى تنقيح وإعادة نشر الكتاب الهندي الكبير المعروف باسم «أمرتا كنند» الذى يبحث فى ارتباط العالم الصغير بالعالم الكبير والعلاقة بينهما، وكان قد قام بنقل هذا الكتاب من اللغة الفارسية الى العربية محمد السمرقندى سنة ٦١٥ هـ.

وكان كثير الاعتقاد فى الخرافات بشكل ظاهر، وربما كان ذلك نتيجة لتعمقه

في أبحانه الفلسفية، فكتب في القوة السحرية للحروف الهجائية، كما كتب عن الطرق المختلفة في التنبؤات والاستخارات القرآنية، ووضع كتابا بتنبؤاته عن مستقبل مصر. وكانت تعاليمه جريئة للغاية، وفلسفته عميقة جدا، بحيث إنه لم يقو على تأسيس مدرسة خاصة بها، ولم يجد من يستأنف عمله الفكري سوى تلميذه محمد القونوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ولكن مؤلفاته بقيت موضع اهتمام العلماء المسلمين ودراساتهم لعدة قرون بعد وفاته، حتى إننا نجد الحوار والجدل بينهم لم ينقطع حتى القرن الثاني عشر من الهجرة، فمنهم من حكم بالحلادة، ومنهم من اهتدى الى التوفيق بين تعاليمه والعقائد الدينية الصحيحة

بعض ما قيل في الحلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون المرء من غضب الله إذا غضب » .
وقال لقمان الحكيم : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : لا تعرف الحلم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت اليه .
وقال علي كرم الله وجهه : حلمك على السفية يكثر أنصارك عليه .
وقال الأحنف بن قيس : من لم يصبر على كلمة سمع كلمات . وقال : رب غيظ تجرعتة مخافة ما هو أشد منه .

وأسمع رجل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ما يكره ، فقال له : لا عليك ، إنما أردت أن يستغفرني الشيطان ، بعزة السلطان ، فأنا منك اليوم ما تناله متى غدا ، انصرف إذا شئت .
وقال شاعر :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان كاسفة لا ذل عجز ولكن ذل أحلام
وقال كعب بن زهير :
إذا أنت لم تعرض عن الجهل والحنأ أصبت حلياً أو أصابك جاهل

بيان من جمعية منع المسكرات

بالقطر المصرى

ورد الى إدارة هذه المجلة كتاب من بعض القراء يسألوننا فيه عن حقيقة الشراب الخالى من الكحول الذى استوردته جمعية منع المسكرات من أوروبا ليحل محل الاشربة الروحية ولا تكون فيه حرمتها ولا ضرورتها . فلم نر بدا من توجيه سؤال لحضرة الاستاذ الفاضل أحمد افندى غلوش رئيس هذه الجمعية فورد الينا منه البيان التالى . فنشكره على مبادرته بالاجابة ، وهو :

قد تسلمت كتابكم وعلمت منه أن إدارة مجلة نور الاسلام الغراء ورد اليها سؤال عن حكم شرب الشراب الذى استحضرناه من أوروبا وأسميناه بالرحيق ونشرنا عنه أنه من عصير العنب وأنه خال من الكحول ، وتطلبون معرفة حقيقةه للنظر فى هذا السؤال . فنتشرف بأن نقدم اليكم البيان التالى فى شأن ذلك الشراب فنقول :

إن جمعية منع المسكرات وإن كانت فى أصل نشأتها وتكوين هيئتها تستمد تعاليمها فى نشر دعوتها من الكتاب والسنة وأصول الدين الخفيف ، فإنها لما رأت فى هذا الزمن من طغيان المادة وتسلطها على كثير من الأنفس أرادت أن تتوسل أيضا بالذرائع المادية والوسائل العلمية لبلوغ غايتها وإقامة الحجة على صدق ما تدعو اليه : من وجوب نبذ الخمر ، وضرورة سن قانون يقضى بتحريم تداولها فى البلاد أو اقتنائها ، لثبوت أضرارها وعدم فائدتها ، وإقامة البيّنات على فساد من يزعم أن فى التبيذ والسوائل الكحولية المتخذة من الأعناب والثمرات غذاء للجسم أو صحة وعافية للبدن ، مما أثبت الكشف العلمى الحديث بطلانه . ولذلك عنى رجال جمعية منع المسكرات وخطباؤها وكتابها بأن يضمّنوا خطاباتهم ومحاضراتهم ومطبوعاتهم هذه الحقائق العلمية التى تؤيد

وجهة نظر الدين الاسلامي الحنيف في تحريمه الخمر قليلها وكثيرها على السواء، وأيا كان نوعها أو نوع العناصر التي اتخذت في الأصل منها، وإثبات صدق ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: وهو أن الخمر داء لا دواء.

واتفق أن الحكومة المصرية ندبت في عام ١٩٢٨ كاتب هذا البيان ليقوم بتمثيلها رسمياً لدى المؤتمر الدولي التاسع عشر الذي عقد في بلجيكا لمكافحة المسكرات، فسكان من بين المسائل التي عالجها ذلك المؤتمر مسألة الأُغْناب والفاكهة التي تنبت بكثرة عظيمة في بلدان أوروبا وأمريكا فوق حاجة أهاليها فيضطرهم الحال إلى عصر الزيادة وتحويلها خوراً وبيعها في الأسواق، وكثير من الزراع والصناع هناك لا يعتمدون في معيشتهم إلا على تحويل الأُغْناب والثمار خراً، فكان لا بد من النظر في مستقبل هؤلاء القوم فيما إذا استجيبَت دعوة المؤتمر وامتنع الناس عن تعاطي الخمر واجتنبوا. فانتهى المؤتمر إلى أنه في الوسع تحويل الفواكه والأُغْناب إلى عصير سائغ الشراب لذيذ الطعم، مغذٍ للجسم، مفيد في معالجة الكثير من الأسقام بحيث لا يقبل التخمر ولا التحول إلى كحول مما يفسد خواص الفاكهة والأُغْناب كما يحدث ذلك عند تحويلها خوراً ومشروبات مسكرة، وبذلك يتم التوفيق بين الدعوة إلى اجتناب الخمر وبين حاجة الزراع والصناع الذين يعيشون الآن ويرتقون من وراء صنعها وبيعها.

ولكن نشأت مسألة أخرى، وهي أن الناس درجوا طويلاً على تعاطي الخمر في مجالس سمرهم وأنسهم وأعيادهم وأفراحهم ومواسمهم واجتماعاتهم وولائمهم، فكيف السبيل إلى حملهم على إثثار العصير الطاهر الخالي من الكحول؟ فاستقر رأي المؤتمر حلاً لهذه المسألة على أن تعنى الجماعات والجمعيات الممثلة فيه بترويج هذا العصير والإعلان عنه وبث الدعاية له في الأقطار المختلفة التي يعمل في دائرتها كل منها، فإنه على قدر ما يباع من العصير الغير المسكر تقل حاجة أولئك الزراع والصناع إلى تحويل الأُغْناب والفاكهة خراً، ومتى قلت كمية ما يصنع من الخمر تلاشى المسكرات تدريجاً، ويعم

استعمال العصير الغير الكحولى بحكم أفضليته على الخمر، وبذلك يطمئن صانعوها والمنتفعون من ورائها الى مستقبل أمرهم ، ويمتنع تصديهم لحركة منع المسكرات .
وإذ كنت أمثل لدى المؤتمر جمعية منع المسكرات المصرية فوق تمثيل الحكومة المصرية لديه ، فلما عدت الى مصر عقب انفضاض جلسات المؤتمر سمعت أنا وجميعى للقيام بنصيبنا فى التطوع لترويج الفكرة المتفق عليها ، وتبيين فضل الشراب الخالى من الكحول على أى مسكر كان .

فلما كان عام ١٩٣٠ استحضرت الجمعية من فرنسا وسويسرا مقدارا من هذا العصير الصحى الطاهر الخالى من الكحول ، وقد أطلقنا عليه اسم « الرحيق » تيمنا بشراب أهل الجنة . وعلى الرغم من أن المعامل الكيماوية كانت قد أثبتت بتحليلها هذا الشراب خلوه من الكحول فقد أردنا أن نزداد وثوقا من هذه الحقيقة ، فقبل أن نعرض الرحيق على الناس أرسلنا زجاجة منه الى المعمل الكيماوى الذى تديره مصلحة الصحة البلدية بالاسكندرية ، وطلبنا اليه تحليله واستخراج إعلام رسمى بنتيجة مايدل عليه التحليل ، فأسفر هذا التحليل الرسمى عن خلو « الرحيق » من الكحول خلوا تاما وطهارته من المواد الضارة ، وأنه « عصير عنب لا يخالطه كحول ، وأنه فى حالة جيدة ، وله طعم جيد ورائحة ذكية ، ولا يوجد فيه مواد ضارة » (انظر صورة الكتاب الرسمى المرسل للجمعية من مدير الصحة البلدية فى ختام الكراسة الخاصة التى طبعتها الجمعية تبيانا لحقيقة الرحيق) .

واتفق أن كان المعرض الصناعى الزراعى قائما فى القاهرة حين ذلك ، فكانت فرصة حسنة سانحة لدى الجمعية لترويج الرحيق وإظهار فضله على المشروبات الكحولية والخمور المسكرة ، وإبطال حجة القائلين بأن فى شرب الخمر فوائد صحية ، وأنهم لا يشربونها إلا ابتغاء وجه الصحة ، مع أنه لا صحة فى الخمر ولا فائدة ترجى منها ، فضلا عما فيها من الضرر البالغ والإثم الكبير . وأما الرحيق فهو حقا خلاصة الفاكهة والأعشاب ،

فلا غول فيه ولا هم عنه ينزفون . فمن ابتغى بشرب الخمر صحة وعافية ظنا منه أنها تحتوى على خلاصة الفواكه والأعشاب ، فهو واهم مخدوع ، إذا ثبتت الاستقراءات العلمية الحديثة أن هذه الخلاصة قد ضاعت وتحوات أثناء عملية التخمير والتقطير الى كحول سام . وأما الرحيق فقد احتفظ بكل ما فى الفواكه والأعشاب من فائدة صحية وعلاجية دون أن يكون فى شربه أية حرمة ، خلوه من الكحول المسكر .

ولما كانت جمعية منع المسكرات لا تقصد الى التجارة ولا تبغى ربحا ماديا من ترويجها الرحيق ، بل كان كل قصدها وهما أن تعلن عن وجوده وفوائده وفضله على الخمر من كل ناحية من النواحي ، تضامنا منها فى ذلك مع المؤتمر الدولى لمكافحة الخمر وانتصارا لقضية الزراعة والصناع الذين يعيشون من تجارة الخمر وصنعها حتى لا يقوموا فى وجه المطالبين بتحريم الخمر إشفافا على أرزاقهم أن تضع ، فقد عهدت الجمعية الى بعض البيوت التجارية التى تبيع الماء كولات المجيزة على أن تتولى هى بيع « الرحيق » . ولم يبق الآن لدى الجمعية من هذا الشراب للبيع شئ ما .

ونلاحظ لحضرات القراء أن بعض زجاجات « الرحيق » قد بقيت لدى كاتب هذه السطور ، ولدى بعض أصحابه من أعضاء الجمعية ممن ابتاعوه لأنفسهم ، أعواما ثلاثة دون أن يلحقها فساد أو يتطرق اليها رجس الكحول . وما دامت الزجاجة محكمة القفل فإن ما تحتوى عليه من العصير يبقى صالحا للاستعمال زمنا غير محدود . وأما إذا بقيت الزجاجة مفتوحة معرضا مافى للهواء فإن الشراب يفسد كما يفسد الطعام تماما ، بمعنى أنه لا يصير خرا مسكرا بحال من الأحوال ، وإنما يصير طعاما فاسدا ليس غير .

ونحن نقدم الى فضيلتكم مع هذا كراسة كانت الجمعية قد طبعتها ونشرتها تبيانا وتفصيلا لحقيقة الرحيق ، وفيها نص كتاب حضرة مدير الصحة البلدية بالاسكندرية الدال على نتيجة تحليل هذا الشراب الطهور فى المعمل الطبى ، وخلوه من الكحول كما أسلفنا ذكره بالإيجاز .

وقصارى القول أن العلم الحديث قد أثبت حكمة الدين الحنيف، وأيده أيما تأييد في وجوب تحريم الخمر على الناس، لما أنها شديدة الخطر كبيرة الضرر، وأن ما ينسب إليها من المنافع لا يعدو ما يعود على صانعيها ومروجيها ومن اليهم من الكسب المادى، وأما شاربوها ومتعاطوها فلا يعود عليهم منها إلا الإثم الكبير والخسران المبين.

ولما كانت المناقشات العلمية التى دارت فى المؤتمر الدولى لمنع المسكرات والخطب التى أقيمت فيه حول الرحيق من النفاسة بمكان، وجدير بنا معشر المسلمين المعتزين بأصول ديننا أن نقف على الآراء العلمية التى تؤيد هذه المبادئ السامية وتناصرها، فنبذلوا أن رياسة تحرير نور الإسلام الغراء تسمح لنا أن نعرب ما قيل فى هذا الموضوع عن أصله الانكليزى، وتنشر خلاصته فى العدد القادم، إن شاء الله.

والله نسأل أن ينفع بكم وبعلمكم الاسلام والمسلمين

رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصرى

احمد غلوش

الكرم الحاتمى

كان عدى بن حاتم الطائى جوادا كأبيه، وقد أدرك الاسلام وأسلم. دخل عليه ابن دارة الشاعر يوما فقال له: إني قد مدحتك. قال عدى: أمسك حتى آتيك بمالى ثم امدحنى على حسبه، فاني أكره أن لا أعطيك ثمن ما تقول: لى ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء، وفرسى هذا حبس فى سبيل الله، فامدحنى على حسب ما أخبرتك، فقال:

تحن قلوصى فى معد وإيما	تلاقى الربيع فى ديار بنى ثعل
وأبقى اللبلى من عدى بن حاتم	حساما كنصل السيف سل من الخلل
أبوك جواد لا يشق غباره	وأنت جواد ليس تعذر بالعلل
فان تفعلوا شرا فثلكم اتقى	وإن تفعلوا خيرا فثلكم فعل

فلما انتهى الشاعر الى هذا البيت منعه حاتم أن يزيد عليه قائلا له: إن مالى لا يبلغ أكثر من هذا، وأعطاه المال.

تأسيس مدرسة بالزيتون

جاءنا من جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالزيتون
هذا النداء فنشره معاونة على نشر التعليم .

النبرة أيتها المحسنون !

نوجه نداءنا إليكم وأنتم أهل المروءة والبر والاحسان، لتشدوا أزرار الجمعية، وتعاضدوا مدرستها التي قامت على تربية اليتامى والمساكين، وتعليم مبادئ الدين الحنيف، وتحفيظ القرآن الكريم؛ والتي أضافت الى جانب هذا كثيرا من أعمال البر والإصلاح وفي مقدمتها قسم إلقاء المحاضرات الدينية الاجتماعية، وقسم ليلى لتعليم العمال مبادئ القراءة والكتابة والدين، وتخصيص شعبة من شعبها المحافظة على أبناء المسلمين من الوقوع في شرك أعداء الدين .

ولقد سعت الجمعية لدى حكومتنا الرشيدة حتى منحتها قطعة أرض مساحتها ١٦٤٢/٥ متراً بجمالية الزيتون لتقيم عليها بناء دارها، وقد تم تسامها يوم الأربعاء ٣ إبريل سنة ١٩٣٥ والآن وقد اعتزمت الجمعية أن تمضي في عملها وتشرع في بنائها مستمدة من الله العون ومنكم النجدة . فإننا نهيب بكم أيها المحسنون أن تعاضدوا الجمعية في هذا المشروع الديني العظيم الذي يتحتم على كل مسلم غيور أن يساهم فيه، فن وضع فيه حجرا بنى الله له قصرا، ومن ساهم في تأسيسها ضاعف الله له ثوابا .

فهللوا الى باب من أبواب البر وعمل من أعمال الخير، وأجيبوا داعي الله ورسوله
« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » وما أنفقتم
من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »

رئيس الجمعية
مصطفى ماهر باشا — مدير المنيا سابقا

التبرعات ترسل باسم رئيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالزيتون .

الانسان

تشریح — صحة — أدب — دين — لغة — أخلاق — اجتماع

هذا كتاب قد لم يؤلف أحد على مثاله ، وفق الى وضعه الاستاذ النابه الفاضل على فكرى رئيس المعيرين بدار الكتب المصرية . ألم فيه بكل ما يتعلق بالانسان من تشریح وصحة وأدب ودين ولغة وأخلاق واجتماع ، فجاء مجموعة قيمة لمعارف وشوارد لا يتفق وجودها فى معرض واحد . مثال ذلك : يذكر الهضم فيلم بذكر أعضائه من الوجهة التشريحية مستعينا بالصور ، ثم من الناحية الفيزيولوجية ، ثم بحكمة الخالق فى خلق الأعضاء العاملة فيه ، ثم يشفع ذلك بالنصائح الدينية المناسبة للتغذى من القرآن والسنة ، ثم بالقواعد الصحية ، ثم بالنصائح الأدبية ، ثم بالكلمات اللغوية ، ثم بالأمثال الفصيحة ، ثم بالأمثال العامة ، ثم بصنوف الأطعمة وقيمتها الغذائية ، ثم بما يتعلق بالطعام والهضم من الناحية الصحية ، ثم بالألفاظ الكتابية ثم بالحكم الشعرية . فهذا الاستيعاب لما يخص الموضوع الواحد جعل هذا الكتاب جذابا نافعا الى أقصى حد . وهو يقع فى أربعة أجزاء فى كل جزء أكثر من مائتى صفحة . فهنىء حضرة المؤلف بهذا التوفيق . وزجو أن يكافئه الله عليه بما هو أهله ، وأن يعينه على إبراز أمثال هذه الطرائف العلمية .

صفوة احياء علوم الدين

قام باستخراج هذه الصفوة من إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي حضرة الأستاذ الأصولى محمود افندى قراة المحامى . وإنه لكتاب كريم يجمع زبدة كتاب الامام فى نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الصغير . وقد وفى الأستاذ كل موضوع حقه بما يشكر عليه ، فسهل على القارئ الامام بصفوة هذا المؤلف الضخم فى زمن قصير ، وإنها لخدمة دينية يذكرها له المسلمون بالثناء الجليل ، فقد كان يتردد ذكر هذا الكتاب الاسلامى العظيم ولا يجد الناس وقتا لقراءته والانتفاع بما فيه ، فجاء تلخيص الأستاذ قراة له مسهلا عليهم الوصول الى بغيتهم من أقرب طريق . فجزاه الله عن الاسلام خيرا .

We are informed by 'Ali b. Al-Ja'd who had it from Shu'bah, through Abu Jamrah, who stated he used to sit⁽¹⁾ with Ibn 'Abbās, who used to invite him up on to his divan. Once he said : " Sojourn with me until I make over to thee a share of my property. " So I sojourned with him two months, after which he said : " When the deputation from the family of 'Abdul-Qais visited the the Prophet (Allāh bless him and give peace), he said : " Who are these people ? (or what is this deputation) ⁽²⁾. We are from the tribe of Rabī'ah, replied they, " Welcome to you, people (or deputation) who come without humiliation ⁽³⁾ or regret. " " O Apostle of Allāh," replied they, we can come to thee only in the sacred month ⁽⁴⁾ so long as there is between us and thee that miscreant tribe of Mudar. therefore prescribe unto us a decisive decree which we can communicate to those we have left behind us, by which we

إِنَّ وَفَدَ عَبْدُ الْقَيْسِ لِمَا أَنَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ الْقَوْمُ
أَوْ مَنْ الْوَفْدُ فَقَالُوا : « رَيْبَعَةٌ » قَالَ :
« مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا
وَلَا نَدَامَى ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا
لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ
الْحَرَامِ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ
مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ ، فَمُرْنَا بِأَمْرِ قَصْلٍ
نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ،
وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ
وَسَهَائِمٍ عَنْ أَرْبَعٍ : أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وَحَدِّهِ ، قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ
وَحَدِّهِ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ،
قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ

(1) as interpreter - according to another reading Abu Jamrah was versed in Persian and Arabic.

(2) The narrator here is in doubt as to which.

(3) i. e. without being forced by the humiliation of defeat.

(4) When fighting is forbidden — referring either to the month of Rajab, or to one of the four sacred months—Dhul-Qi'dah, Dhul-Hajjah, Al-Muharram, Rajab.

We are informed by Abu Naṣim who had it from Zakariyyā, through ḤAmir who heard An - Nuṣmān b. Bashīr state that he heard the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) say :

“ Clear is the lawful and clear is the forbidden; but between these two there are matters equivocal, not discerned by many ; so he that avoideth doubtful matters hath attained immunity from condemnation for his faith's and his honour's sake; but he who falleth into doubtful matters, is like a shepherd who grazes his sheep round a preserve which he almost entereth. Now, every King hath a preserve, and verily Allāh's preserve on earth is those things which he hath forbidden. Behold, in the body there is a certain piece of flesh - if it is sound the whole body is sound, and if it is corrupt the whole body is corrupt. Now this piece of flesh is the heart. ⁽¹⁾

CHAPTER 41.

The payment of the fifth part of the booty is a feature of the Faith.

يقولُ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « الحلالُ بينُ والحرامُ بينٌ وبينهما مُشبهاتٌ لا يعلمُها كثيرٌ من الناسِ ، فمن اتقى المُشبهاتِ استَبْرَأَ لدينه وعرضه ، ومن وقع في المُشبهاتِ كَرَعَ يَرَعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » :
بابٌ : أدَاءُ الْخُمْسِ مِنَ الْإِيمَانِ :
حدثنا عليُّ بنُ الجَعْدِ قال أخبرنا شُعْبَةُ عن أبي جَهْرَةَ قال : كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ : أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ ثُمَّ قَالَ :

(1) As being the seat of the intellect and the conscience.

Abu Abdullâh (Al-Bukhârî) adds that the Prophet placed all this among the articles of *perfect* faith.

CHAPTER 39.

We are informed by Ibrahim b. Hamzah, who had it from Ibrahim b. Sa'd through Sâlih through Ibn Shihâb through 'Ubaidullâh b. 'Abdullâh that he was told by 'Abdullâh b. 'Abbas that Abu Sufian related to him that Heraclius said to him :

“ I have asked thee whether they are increasing or decreasing, and thou hast asserted that they are increasing. Such is the course of faith until it reacheth its perfection.

I have asked thee whether any one hath renounced his faith out of aversion to it after having embraced it, and thou hast answered in the negative. So it is with faith; when its joy penetrateth the heart, no one renounceth it. ”

CHAPTER 40.

On the merit of him who seeketh immunity from condemnation for his religion's sake

فَقَالَ: « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ »
 قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كَلِمَةً مِنَ الْإِيمَانِ .

بَابُ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِزْمَةَ قَالَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ صَالِحٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَرَعَمْتُ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَمُوتَ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لَدَيْنَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَرَعَمْتُ أَنْ لَا ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ .

بَابُ فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ :
 حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ حَدَّثَنَا زَكْرِيَاءُ عَنْ هَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ

Him; for if thou dost not see Him, He seeth thee,” “When is the Hour?” asked the Angel He who is questioned knoweth no more about it than the questioner, but I shall tell thee of the signs of its coming : when a bondwoman giveth birth to her master;⁽¹⁾ when drivers of black camels ⁽²⁾ glory in palaces ⁽³⁾ *The time of the Hour* ⁽⁴⁾ is one of the five things known only to Allāh. The Prophet (Allāh bless him and give him peace) then recited the verse ⁽⁵⁾ “ Truly Allāh possesseth the knowledge of the Hour. ”

The Angel then departed, and the Prophet ordered him ⁽⁶⁾ to be brought back; but nothing was to be seen of him.

So he said: “ This is Gabriel, who hath come to teach the people their religion.”

قال: ما الا حَسَانُ ؟ قال: اَنْ تَعْبُدَ
اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَسْكُنْ تَرَاهُ
فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

قال: مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال: ما الْمَسْئُولُ عَنْهَا
بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ
أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَةُ رَبَّهَا ،
وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُيُوتِ
فِي الْبَنِيَانِ ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ،
ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنْ
اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » الْآيَةَ ، ثُمَّ
أَدْبَرَ فَمَالَ رُذُوهُ ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ،

[1] On the extension of Islam, and the conquest of non-Muslim lands, when the Muslims will make numbers of female captives, and have children by them, who will rule; Or the passage refers to kings having slave-mothers; or else to the corruption of morals which will result in such traffic in slave-mothers that sons may unwittingly buy their own mothers. Another suggestion is that sons may so ill-treat their mothers, that they become no better than slaves. (Al-Aini)

[2] Ibn Hajai suggests that black is considered by the Arabs as the worst colour for camels, the best being brown - hence “ a low type of camel-driver,” he also suggests “ obscure ” as the meaning of بيم (بيم) applied to the camel-drivers, in which case بيم will read بيم.

[3] Again referring to the Arab conquests, when the humble should rule.

[4] These words are missing from the text

[5] Surah 31, v. 34.

[6] The man in whose form the angel had appeared.

him peace) to the deputation of Abdul-Qais concerning faith; and the word of Allâh (be He exalted): "He who seeketh another religion than Islam shall not have it accepted by Him." (1)

We are informed by Musaddad who had it from Ismâ'il b. Ibrâhîm, who received it from Abu Hayyân Al-Taimi, through Abu Zurrah, through Abu Hurairah, who said :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) was one day sitting conspicuously⁽²⁾ before the people, when Gabriel⁽³⁾ come to him and said : "what is Faith ?" "Faith" replied he " is to believe in Allâh, His angels, in sceing Him in the hereafter, His prophets, and in the Resurrection. " The Angel said : " What is Islam ?" "Islam" replied he " is that thou shouldest worship Allâh and not associate aught with Him, perform the appointed prayers, give the prescribed alms, and fast in Ramadân. " what is well-doing ?" asked the Angel. " That thou shouldest worship Allâh as if thou sawest

الْقَيْسِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى :
«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» :

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ
ابْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّمِيمِيُّ
عَنْ أَبِي زُرَّعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا
لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ :

مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ
بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَبَلِقَائِهِ ، وَرُسُلِهِ ،
وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ .

قَالَ : مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ : الْإِسْلَامُ أَنْ
تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ ، وَتَقِيمَ
الصَّلَاةَ ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ،
وَتَصُومَ رَمَضَانَ .

(1) Surah 3, v. 79

(2) Before then the Prophet's attitude did not distinguish him from those with him ; in this case he sat on an elevated seat constructed for him, so that a stranger could distinguish him.

(3) Or according to another reading — " a man ", Gabriel appearing in that form

came out of his room to announce which was the Night of Destiny, when two Muslims began an altercation, so he said : “ I came out to announce to you the Night of Destiny, but such and such began an altercation, so that the exact night hath gone from me. Perchance this may be a blessing unto you. Seek it on the night before ⁽¹⁾ the twenty - seventh, the twenty-ninth and the twenty-fifth of *Ramadân* .”

يُخْبِرُ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ فَتَلَا حَى رَجُلَانِ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : « إِنِّي خَرَجْتُ
لَا أَخْبِرْكُمْ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ وَإِنَّهُ تَلَا حَى
فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ
يَكُونَنَّ خَيْرًا لَّكُمْ ، التَّمَسُّوهُمَا
فِي السَّبْعِ وَالْتَّسْعِ وَالْخَمْسِ »

CHAPTER 38.

On the Angel Gabriel questioning the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on faith, Islâm well-doing and the knowledge of when the Hour shall be; and the exposition of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) in answer to him. How he then said to his followers that Gabriel (peace be upon him) had come to teach them their religion, making of all this one religion; with the exposition of the Prophet (Allâh bless him and give

بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ
وَالْإِحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ ، وَبَيَانِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ مُتِمَّ قَالَ : جَاءَ
جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ
فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا ، وَمَا بَيْنَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ فَدِ عِبَرٍ

(1) The Muslims reckon the day as beginning at sunset.

having said : “ Only the true believer feareth *hypocrisy*, and no one feeletth himself secure from it but the hypocrite ;

And on the fact that we should beware of persisting in *hypocrisy* ⁽¹⁾ and unrepentant rebelliousness, as is clear from the word of Allāh ; “ And who have not persisted in what they have wittingly done amiss. ” ⁽²⁾

(1) We are informed by Muhammad b. ‘Ararah, who had it from Shu‘bah, through Zubaid, who said :

“ I asked Abu Wâ’il about the Murji-ites ⁽³⁾ and he replied that he had been informed by ‘Abdullāh that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said : ‘To revile a Muslim is an act of impiety, and to fight him is an act of infidelity. ’ ⁽⁴⁾”

2. We are informed by Qutaibah b. Sa‘īd, who had it from Ismâ‘īl b. Ja‘far, through Humaid, through Anas to whom it was related by ‘Ubâdah b. As-Sâmit that :

The Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) once

الْحَسَنَ : مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ - وَمَا يُحَذِّرُ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْفُتَاقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .

حدثنا محمد بن عرعرة . قال حدثنا
شعبة عن زبيد قال : سألت أبا وائل
عن المرجئة فقال حدثني عبد الله أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : «سبَّابُ
الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»

أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا
إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَنَسٍ
قَالَ أَخْبَرَنِي عَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ

(1) or “ strife ” (تَفَاقُصٌ) according to another reading

(2) Surah 3, v . 129

(3) The Murjiites believed that perfect faith could be held by sinners, their faith not being impaired by reprehensible actions, - and hence held that the end justifies the means. They accordingly neglected outward religious practices — monotheism and obedience to authority being considered sufficient.

(4) Al-Aini suggests that كُفْرٌ literally means the denial of the duties of Muslims to one another.

carat equal to Uhud, ⁽¹⁾ and he who attendeth the prayer over the body and then returneth before the burial, shall be rewarded with one carat.”

The narrator (Rawh) is supported by ‘Uthman Al-Mu’adhdhin, who had it from ‘Awf, through Muhammad through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him pæce) to the same effect.

كُلُّ فِرَاطٍ مِثْلُ أَحَدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرِجِعُ بِفِرَاطٍ . تَابَعَهُ عُثْمَانُ الْمُؤَدِّنُ قَالَ حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَهُ .

CHAPTER 37.

On the believer’s fear of losing the fruit of his works unwittingly; on At-Taimi’s words : “ Never have I contrasted my words with my deeds, but I have feared to be taxed with falsehood ;

on the words of Ibn Abu Mulaikah : “ I have known *during the latter part of their lives* thirty of the companions of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) all of whom were afraid of being taxed with hypocrisy, and yet no one of them ever claimed to possess the faith of Gabriel or of Michael on the report of Al-Hasan

بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبِطَ بِرَّكَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ النَّيْمِيُّ : مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا . وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ : أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يُخَافُ الذُّمَّاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِعْمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ . وَيَذْكُرُ عَنْ

(2) A mountain near Madinah, symbolical of the greatness of the reward.

mentioned the prescribed alms. " Is there any more enjoined upon me ?" asked the man, " No, unless thou do so voluntarily—, repeated the Apostle. The man then departed saying : "By Allâh, I shall neither add anything to this nor take anything away from it."

" Blessed is this man if he be true, " said the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace)

CHAPTER 36.

To follow funereal processions is a feature of the Faith.

We are informed by Ahmad b. Abdullâh b. Ali Al-Manjufi, who had it from Rawh, who received it from Awf, through Al-Hasan and Muhammad, through Abu Hurairah that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

" He who followeth the funeral of a Muslim from faith and devotion, remaining by the body until the prayers are said over it and the burial is completed, shall return with a double reward of two carats ⁽¹⁾ each

وسلم الزكاة ، قال : هل عَلَىَّ غَيْرُهَا؟
قال : لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ، قال فأذْبَرَ
الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ
عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ . قال رَسُولُ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم : « أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ »

باب : اتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ مِنَ الْإِيمَانِ :
حدثنا أحمد بن عبد الله بن علي المنجوفي
قال حدثنا روح قال حدثنا عوف عن
الحسن ومحمد عن أبي هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ اتَّبَعَ
جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا وَكَانَ
مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ
دَفْنِهَا فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيَّاطَيْنِ

[1] An ancient unit of measurement used here symbolically for "share "

him sincere devotion as Hanifites,⁽¹⁾ to perform the appointed prayers, and give the prescribed alms ; such is the right faith of Islam . ”

We are informed by Isma'il, who had it from Malik b. Anas, through his paternal uncle Abu Suhail b. Malik through his father that he heard Talhah b. 'Ubaidullah say :

“ A certain man from Najd once came to the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) with his hair dishevelled, his voice reverberating without our understanding what he was saying until he drew near, when we understood that he was asking questions about Islam, to which the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) was replying : “ It is five prayers during the day and night. ” Are there any more enjoined upon me ? ” asked the man. “ No, unless thou do so voluntarily . There is also the Ramadan fast, ” continued the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace). “ Is there any other fast enjoined upon me ? ” added the man. “ No, unless thou do so voluntarily, ” added the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace), who

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
الْقِيَمَةِ :

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك بن
أنس عن عمه أبي سهيل بن مالك عن
أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول:
جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من أهل نجد ثائر الرأس
يُسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول
حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال:
هل على غيرهما؟ قال: لا، إلا أن
تطوع، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: وصيام رمضان، قال: هل
على غيرهُ؟ قال: لا، إلا أن تطوع،
قال وذكر له رسول الله صلى الله عليه

[1] Followers of the true faith of Abraham.

2. We are informed by al-Hasan b. as-Sabbâh who heard it from Ja'far b. 'Awn, who had it from Abul-Umais who was told it by Qais b. Muslim, through Târiq b. Shihâb, through 'Umar b. al-Khattâb that :

A certain Jew said to him : "O. Commander of the Faithful, there is a verse in your Book, which you recite, the day of whose revelation we should have adopted as a festival, if it had been revealed to us Jewish people." "What verse is that ?" said Umar. "It is this" replied the Jew: 'This day have I perfected for you your religion, and have completed my blessing upon you, and have approved Islam as your faith.'

"We know that day" replied Umar, and the place in which it was revealed to the Prophet (Allâh bless him and give him peace), while he was standing on Mount 'Arafât on a Friday."

CHAPTER 35.

On the giving of the prescribed alms being a feature of Islam, and on the word of Allâh : "and yet naught else was enjoined upon them but that they should worship Allâh, offering to

حدثنا الحسن بن الصَّبَّاحِ سَمِعَ
جعفر بن عونٍ حدثنا أبو العَمِيسِ
أخبرنا قيس بن مُسْلِمٍ عَن طَارِقِ بْنِ
شِهَابٍ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا
مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا
مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَا تَخَذُنَا ذَلِكَ
الْيَوْمَ عِيدًا . قَالَ : أَيُّ آيَةٍ ؟ قَالَ :
« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا » .

قال عُمرُ : قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ
وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ .
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ بِعِرْفَةَ
يَوْمَ جُمُعَةٍ .

بَابُ : الزَّكَاةُ مِنَ الْإِسْلَامِ
وَقَوْلُهُ : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

Therefore if a man neglect anything of this perfection, he hath his faith imperfect .

1. We are informed by Muslim b. Ibrahim, who had it from Hisham to whom it was related by Qatâdah through Anas, from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said :

“ He shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allâh, and hath in his heart faith ⁽¹⁾ as the weight of a grain of barley ; and he shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allah, and hath in his heart faith as the weight of a grain of wheat ; and he shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allâh and hath in his heart as the weight of a mote .”

Abu ‘Abdullâh (al-Bukhârî) states that Abân said that he was informed by Qatâdah, who had it from Anas from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that : من إيمان (of faith) is to be read for من خير (of good).

تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ :

حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا

هشام قال حدثنا قتادة عن أنس عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : «يُخْرِجُ مِنَ

النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي

قَلْبِهِ وَزَنُّ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيُخْرِجُ

مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي

قَلْبِهِ وَزَنُّ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، وَيُخْرِجُ

مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي

قَلْبِهِ وَزَنُّ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَبَانُ

حدثنا قتادة حدثنا أنس عن النبي صلى

الله عليه وسلم : «من إيمانٍ مَكَانٌ : من خير .

[1] The rendering of “ faith ” for خير is in agreement with the *Isnâd* given at the end of this hadîth.

We are told by Muhammad b. al Muthanna, who had it from Yahia Hisham who was told it by his father through A'ishah that : the Prophet (Allāh bless him and give him peace) once went into A'ishah's apartment when a woman was with her, and he asked her who the woman was. A'ishah then said : " Such and such " praising the woman's assiduousness in prayer. " Stop " said the Prophet " Your duty is no more than that which ye can endure, for by Allāh, Allah will not weary until ye do.⁽¹⁾ The worship best pleasing to Him is that in which the worshipper is constant. "

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى
عن هشام قال أخبرني أبي عن عائشة
أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها
وعندها امرأة قال من هذه؟ قالت
فلانة تذكر من صلاتها قال: ممة عليكم
بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى
تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دأبوا
عليه صاحبته

CHAPTER 34.

On the increase and decrease of faith, and the word of Allah (be he exalted) : " We have increased guidance unto them " [2] and " that they who have beleived may increase in faith, [3] and the word of Allah (be He exalted) " this day have I perfected your faith unto you " [4]

باب زيادة الإيمان ونقصانه
وقول الله تعالى: «وَزِدْنَاكُمْ هُدًى»
«وَبَزَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا» وَقَالَ:
«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» فَإِذَا

(1) Commentators who have been puzzled by the attribution of weariness to God have explained this by suggesting that He will not grant any prayer abandoned through weariness ; حتى تملوا can be rendered " even if ye weary " (See Al-Aini and At-Taimi), or the passage can be rendered : " Allāh will not withhold His reward until ye abandon your worship. " (supported by a reading attributed to A'ishah — النواب)
[فأن الله لا يمل من العمل]

[حتى تملوا من العمل]
[2] Surah 18, v. 12,

[3] Surah 74, v. 3.

[4] Surah 5, verse 5.

informed by Zaid b. Aslam that Atâ b. Yasâr had told him that Abu Sa'îd Al-Khudri informed him that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

If a man ⁽¹⁾ embrace Islam, so his faith be sincere, Allah shall absolve him from every sin he hath committed heretofore ; and thereafter there shall be requital - for a single good deed tenfold up to seven hundredfold, and for a single bad deed only its equivalent, except Allâh remit it.

2. We are informed by Ishâq b. Mansur, who had it from Abudur-Razzâq, who received it from Ma'mar, through Hammâm, through Abû Hurairah who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said : If any of you embrace Islam sincerely, every good deed he doeth shall be accounted unto him as tenfold to seven hundredfold, and every bad deed as its equivalent.

CHAPTER 33.

The worship most pleasing to Allâh is that which is most constant.

أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ
أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
« إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ
يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا
وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ : الْحَسَنَةُ
بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ
وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ
اللَّهُ عَنْهَا »

حدثنا إسحاق بن منصور قال
حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر
عن همام عن أبي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحسن
أحدكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملها
تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة
ضعف، وكلُّ سيئة يعملها تُكتب
له بمثلها »

باب : أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ :

(1) Another reading is الكافر for العبد

congregations⁽¹⁾ bending in prayer, he said : " I call Allâh to witness that I have been praying with the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) facing Makkah. On hearing this, they turned, keeping the posture in which they were, towards the Ka'bah.

The Jews had been pleased at the Prophet's performing the prayer facing Jerusalem, and so likewise the Christians; but when he turned his face towards the Ka'bah, they showed their displeasure.

Zuhair states that he had it from Abu Ishâq through Al-Barâ' in this Hadith of his that some of the Faithful had died following the practice of praying towards Jerusalem before the qiblah had been changed, having been killed in battle. We did not know what to say about them, and so Allâh (be He exalted) sent down the verse " Allâh is not one who would allow your devotion to be fruitless."

CHAPTER 32

On the sincerity of a man's conversion to Islam.

1. Malik stated that he was

وَمَنْ رَأَى كُمُونَ فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ
صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَبْلَ مَكَّةَ، فَذَارُوا كَأْمُ قَبْلِ
الْبَيْتِ . وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ
إِذْ كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ
قَبْلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ. قَالَ زُهَيْرٌ:
حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ
هَذَا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ
تُحَوَّلَ رِجَالُهُ وَقَتِلُوا فَلَمْ نَذَرِ مَا نَقُولُ
فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ»

بَابُ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ :

قَالَ مَالِكٌ أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ

(1) The Banu Hārithah—the place now being known as " the Mosque of the two Qiblahs " (مسجد البين)

CHAPTER 31.

On prayer being a feature of the Faith, and on the word of Allâh (be He exalted): "Allâh is not one who would allow your devotion to be fruitless" - meaning your prayer by the Ka-bah *facing Jerusalem*.⁽¹⁾

We are informed by 'Amr b, Khalid, who had it from Zuhair, who received it from Abu Ishâq, through Al-Barâ that :

The Prophet, (Allâh bless him and give him peace) soon after he had arrived at Madinah lodged with his grandparents or as it was said⁽²⁾ - his maternal relatives among the Ansâr; and he used to pray for sixteen or seventeen months towards the Temple of Jerusalem, although he would have preferred that his qiblah⁽³⁾ should be the Ka-bah. The first prayer he performed in this latter direction was the afternoon prayer in which he was joined by a group of the Faithful. One of them went out, and passing by a

بَابُ : الصَّلَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَقَوْلُ

اللَّهِ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » يَعْنِي صَلَاتَكُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ .

حدثنا عمرو بن خالد قال حدثنا زهير

قال حدثنا أبو اسحاق عن البراء أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما

قدم المدينة نزل على أجداده - أوقال

أخواله - من الأنصار وأنه صلى قبل

يبيت المقدس ستة عشر شهرا

أو سبعة عشر شهرا ، وكان

يعجبه أن تكون قبلته قبل

البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها

صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج

رجل ممن صلى معه فرأى على أهل مسجد

(1) [Surah 2, v. 138]

According to Ibn Hajar. Commentators who have suggested لغير البيت have given to عند the meaning of "towards" for which there is no precedent, although their suggestion of غير البيت (i . e . Jerusalem) makes the meaning clearer .

(2) by Abu Ishâq.

(3) Point which a worshipper faces in prayer.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٠

مراعاة الحقوق الطبيعية فى الاشتراع ومعاملة الناس

الأمة الاسلامية بحكم المهمة التى عهد الله بها اليها ، وهى جعل كلمته هى العليا فى الأرض ، قُدِّرَ لها أن تبسط فى البلاد ، وأن تخلط الأمم ، وأن تمدد رواق سلطاتها على شعوب كثيرة تخالفها أصلا ولغة ودينا وعادات . وهذه الشعوب كلها كان لها نظم مقررة وقوانين محترمة وتقاليد خاصة ، فأخضعها جميعا لشرعية واحدة تطمئن اليها ، وتهادئ أوائرها تحت ظلها ، لا يعقل أن يكون إلا إذا كانت تلك الشرعية بالغة أرقى ما يدركه العقل من معنى العدل ، وما تطمح اليه النفس من نعمة المساواة ، وتتطلع اليه الطبيعة البشرية من الحرية الصحيحة ، وهذا ما لا سبيل اليه إلا إذا كان أساس تلك الشرعية الحقوق الطبيعية ، لا الحقوق التى تملبها المصالح المادية ، وتحدها الأثرة القومية ، وتحيفها العوامل المحلية .

أجل : فإن تلك الشعوب لأجل أن تدخل فى الوحدة التى فرضت عليها فرضا يجب أن لا تجد فى الحالة التى تدخل فيها ما يثير حميتها ، ويهيج أنفثها ، ويخرج كرامتها ، ويدفعها دفعا الى التخلص مما وقعت فيه ولو استنفدت فى سبيله قواها وثروتها . لأنه متى تأثر كل شعب بمثل هذه الروح من التمرد ، نتجت من ذلك فتوق يتعذر على قاهرها رتقها ، فيضطرون للإيفال فيها قتلا وسلبا ، ثم يلجأون الى أحد أمرين : إما الإمساك بمخنقها مهدديها بالحديد والنار ، وإما تركها وشأنها أشبه بجثة هامدة يؤول أمرها الى ما يؤول اليه .

هذا كان شأن الأمم الضعيفة عند ما كانت تقع تحت برائن أمة فاتحة . وهذا نفسه كان حال الشعوب التي حملت نير استعمار الرومان ، وهي الأمة التي كانت لها الرعامة في الأرض قبل المسلمين مباشرة . فقد كانت الشعوب تخضع لها رهبا لا رغبا ، وكانت كثيرا ما تتور عليها فتحدث بين الفريقين معارك تسيل الدماء فيها أنهارا . فلما أدرك الدولة الرومانية الوهن ، انفصلت تلك الشعوب عنها مُكِنَّة في أعماق قلبها أقسى ضروب الحقد عليها ، حتى إنه لما داهمتها القبائل المتوحشة التي كانت نازلة في أطرافها من الهونيين والفنداليين والبلغار وغيرهم ، لم تمتد إليها يد بمعونته ، ولا أمد لها قلب بعاطفة . وكان التاريخ أقسى عليها قلبا من الناس ، فقد جاء في دائرة معارف لاروس الكبرى عند ذكرها نظم الرومانيين :

« ماذا كانت نظم الرومان على وجه الإجمال ؟ كانت الوحشية والقسوة بعينيهما مرتبتين في صور قوانين . أما من جهة فضائل رومية مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة ، فهي بعينها فضائل قطاع الطرق والصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية ، فقد كان لا يرى فيها إلا شره مفرط للمال ، وحقد على الأجنبي ، وتجرد من عاطفة لرحمة الانسانية . أما العظمة في رومية والفضيلة فيها فكانتا مرادفتين لأعمال السوط والسيوف في العالم ، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر ، وعلى الأطفال والشيوخ بحجر عربات النصر » انتهى .

قارن هذا بحكم علم القرن العشرين في المسلمين ، قال العالم الكبير جوستاف لوبون في كتابه تاريخ العرب : « لم تر الأرض فاتحين أبر وأرحم من المسلمين » .

على أن لسان الحوادث في هذا الشأن كان أبلغ من لسان التاريخ ، فإن هذه الشعوب التي خضعت لحكم المسلمين فضلا عن أنها لم تثر عليهم ، ولم تبطن نية النكاية بهم ، قد تهافتت على الدخول في دينهم ، فأصبحت بلادها معاقل للاسلام ، ولم يمض عليها

غير سنين معدودة حتى نبغ فيها حفظه للغة ، وأئمة شريعته ، مما لم يحدث له مثيل في أى عهد من عهود البشر . فهل عهد في تاريخ أمة أن ينتدب لتحرير لسانها ، وبناء قواعده وجمع شوارده أعاجم لا تجمعهم والعربية أقل صلة ؟ ألم يكن إمام الحفاظ اللاغويين أبو عبيدة فارسيا ، وواضعا أصولها وقواعدها سيبويه والخليل بن احمد فارسيين أيضا ، ومهذبني نثرها وشعرها عبد الحميد وابن العميد وبشار وأبو نواس ومروان بن أبي حفصة وغيرهم فرسا ومن أجناس شتى ؟ ولا أعد لك أصحاب الأقوال الفقهية ، ومفسرى الكتاب الكريم ، وحفظه السنة النبوية ، فإن كثرتهم من أهل تلك الممالك التي فتحها الاسلام وضمها الى حوزته .

فما سبب هذا الأمر الجلل الذي لم تر البشرية ما يشبهه منذ تدوين التاريخ الى اليوم ؟

سببه سمو الشريعة الاسلامية سموا أذهل الشعوب عن قومياتها وتقاليدها وموروثاتها ، فألقت بنفسها بين يديها تستمددها روحا تحيا بها ، وتنعم بالوجود تحت سلطانها . ولم يكسب هذه الشريعة هذا السمو إلا قيامها على أساس الحقوق الطبيعية المجردة عن كل صبغة قومية وجنسية ، الرئيس والمرءوس فيها سيان ، والقوى والضعيف عندها متكافئان ، والسرى والصعلوك فيها صنوان .

لم يحدث في تاريخ العالم الانساني أن أمة توخت العدل المطلق في سن شريعتها فنظرت الى الناس من حيث هم أمثال في الانسانية لافضل لواحد منهم على آخر لأى اعتبار من الاعتبارات حتى ولو كان أجنبيا عنها يخالفها أصلا ودينا ولونا ولغة . لم توجد أمة سلكت هذا المسلك في وضع شريعتها حتى ولا بالنسبة لأحاديها المؤلفين لمجموعها إلا في أخريات القرن الثامن بعد الثورة الفرنسية وإعلانها حقوق الانسان ، ومحوها الطبقات الاجتماعية .

فقد كانت الأم تنقسم الى طبقات ، لكل طبقة حقوق تمتاز بها على من دونها ، حتى

ينتهى الأمر الى الدهاء وهم السواد الأعظم من الأمة فكانوا يعتبرون فى حكم العجاوات ، حتى كان أصحاب الأملاك يبيعون أراضيهم بمن عليها من العمال ، فيصبحون ملكا خالصا لمن اشترى الأرض التى هم عليها . وكان السيد يقتل الصعلوك فلا يعاقب على ما فعل ، فإذا تعقبته الحكومة لسبب من الأسباب تخلص مما فعل ببذل مال نزر لأسرة المقتول .

فلما أعلنت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان ، وشاعت هذه المبادئ فى العالم المتمدن ، فسر كل منها الإنسان بأنه الممدود من جماعتها لا الإنسان أيا كان ، فأصبحت بذلك الحقوق الطبيعية مقيدة بالقومية فى كل مكان . فانفردت الشريعة الإسلامية بميزة التعميم ، فهى تعتبر الإنسان من حيث هو إنسان لا من حيث هو خاضع لسلطانها أو داخل فى ملتها . وهذه من أدل الأدلة على أنها وحى إلهى لا وضع بشرى ، فقد دل الاستقراء على أن الارتقاء فى إقامة العدل لم يبلغ لدى البشر الى حد أن يعاملوا الأجانب عنهم معاملة لهم لأنفسهم ، ولا أن يسروا عليهم أصول الحقوق الطبيعية التى أدركتها عقولهم . ولكن الاسلام سبق العالم أجمع الى تطبيق هذه الحقوق الطبيعية على الكافة ، ولم تستثن أحدا حتى الأرقاء والأجانب عنه وعن جماعته ، فكان المثل الإلهى الأعلى الذى سينتهى اليه الناس كافة حين يبلغون من معارج الرقى الى ذروتها العليا ، فقال الله تعالى يوصى المسلمين باتباع هذه الطريقة فى معاملة الناس أجمعين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلوؤوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . ومعناها يأمر المؤمنين بكونوا جادين فى القيام بتطبيق أصول العدل ، وأدوا شهاداتهم فيما تستشهدون فيه مراعين وجه الله ، ولو على أنفسكم أو والديكم أو أقاربكم ، وإن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة محابة له لغناه ، ولا رحمة به لفقره ، فالله أولى بالنظر

الى حالى الغنى والفقير منكم ، فلا تتبعوا أهواءكم كراهة أن تعدلوا ، وإن تلوا ألسنتكم محاولين إخفاء معالم الحق ، أو تمتنعوا عن تأدية الشهادة فإن الله خبير بما تعملون ، يجازيكم عليه بما أنتم أهله .

وقد بين الله تعالى فى آية خاصة بأن مراعاة أصول هذا العدل المطلق تشمل الخلق كافة إلا الذين يقاتلون المسلمين من أجل دينهم ، ويعملون على إخراجهم من ديارهم اضطهاداً لهم وعدواناً عليهم ، فقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

فهو فى هذه الآية لا يوصى بمعاملتهم بالعدل المطلق فحسب ، ولكن يوصى أيضاً ببرهم والبر هوؤكد الصلوات التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وتوجد بينهم المحبة الصادقة والعطف ، وينتهى أمرها بالتوحيد بينهم فى الوجهة والغاية . وهذا أقصى ما يرى اليه الفلاسفة والمصلحون من الأحلام الاجتماعية . وقد أصاب الاسلام هذا المرمى فكانت نتيجة ذلك أن انقلبت الأمم التى كانت تقاتله الى أم صديقة له ، بل الى أم مؤمنة به ، فشهد العالم لأول مرة فى تاريخه تطورا لم يحدث له شبيه فى نفسيات الشعوب المتباينة أصولا ولغات وتقاليده ، إذ انحوت كلها الى أمة واحدة مؤلفة أكبر أمبراطورية عالمية تجرى وراء غاية واحدة هى المثل الأعلى لوجود إنسانى كريم يحقق خلافة الله فى الأرض . بدليل أن هذا الجثمان الاجتماعى الضخم لم يستخدم قواه الهائلة فى تجريد الأمم من طبيعتها ، ولكنه استخدمها فى حمل أعباء العلم والمدنية ففشروا هما عاليا فى كل بقعة امتد سيطرانه اليها ، فأدى رسالته التى نذبه الله لها على أكمل وجه . وقد شهد أعداؤه له بهذه الميزة ، فلم ينكر عليه واحد منهم أنه كان منقذ العالم من جهالة مطبقة ، وجاهلية متغلبة ، ومن حالة لو لم يتداركها الله به لا استعصى داؤها وعز عليها الشفاء .

كل هذا كان بفضل العدل المطلق الذي جعله الحق أساسا لشريعته العامة الخالدة .
فانظر كم كانت تنجو الأمم ، لوعممت تطبيق هذا العدل ، من ثورات أهلية ، ومن
كوارث استعمارية ، وكم كانت تقتصد من أموال لا تصرفها اليوم إلا على التسليح
خشية أن يبغي بعضها على بعض ؟

إذا أجدت الروية في هذا الأمر تبين لك أن الفيلسوف الانجليزي برناردشو
لم يغفل في قوله : إن أوروبا لا تتأهل من علمها التي تكاد تودى بها إلا إذا أخذت بأصول
الاسلام وعملت بها .

ومن أعجب العجائب أن يتخيل بعض متعصبة الكتاب الأوربيين أن الاسلام
قام على ظي السيوف ، هذا زعم يكذبه الواقع المحسوس وسنن الوجود نفسها ، فإن
كل ما قام على السيوف احتيج في حفظه الى السيوف ثم آل أمره الى الانهيار ، ولكن
الاسلام قام على أساس دعوة إصلاح عامة للأمم كافة ، وقد أثمر الثمرات التي تنتظر منها
فأحدث انقلابا عالميا نقل به الانسانية من حال تحجر كانت فيه الى حال حياة وحركة
تأدت بها الى ما تأدت اليه من الرقي والحضارة المتوثبة الى أبعد الغايات ، وأكمل
النهايات .

ولست أنكر أن السيف قد لعب دورا في إحداث هذا الانقلاب ، ولكنه لم يكن
السبب الرئيسي فيه . وهذه سنة كل انقلاب إصلاحي في الأرض حتى بين الأمة
الواحدة . فالأمة الانجليزية لم تصل الى ما وصلت اليه من التكامل الاجتماعي
والدستوري ، والأمة الفرنسية لم تستطع أن تعلن حقوق الانسان بمجرد الدعوة دون
الرجاء الى السيف ، فإذا كانت هذه حالة الأمة الواحدة في الانتقال من حال ل حال ،
أفتريد أن يحدث الاسلام انقلابا عالميا عاما دون أن ياجأ فيه الى السيف كأداة
من الأدوات الضرورية لإحداثه معاصرة لسنن الوجود ونظامه ؟

وهل يغيب عن أحد أن المسيحية نفسها - وهي التي تحرم استخدام السيف - لم يستتب لها السلطان الذي وصلت اليه إلا باستخدامه ؟

وإذا ذكرنا أن الانجليز والفرنسيين لجأوا الى السيف في أدوار من تاريخهم فليس معناه أن هاتين الأمتين كانتا تتناحran تحت دوافع وحشية بجحة ، ولكن معناه أن أشياح التقدم فبهما اضطرت اليه لحماية كلمة الاصلاح من عبث العابثين بها . كذلك المسلمون لم يدفعهم الى الحرب أى غرض غير حماية الدعوة الاسلامية من كيد السكاكين لها ، وقد أمروا أن ينشروها في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنها رسالة عامة الى البشر كافة ، في حين كانت الأمم فيه أحوج ما تكون اليها . وقد دلت الحوادث على أنها كانت خيرا وبركة على العالم كله ، وانفق أنصارها وخصوصها على أنه لولاها لتأدت البشرية الى أسوأ منقلب .

اخلاصة أن الاسلام لم يد رواق سيادته على الأمم التي تدين به اليوم إلا ببركة العدل المطلق الذي أوصى شيعته بالقيام عليه ، فوجدت تلك الأمم فيه ما تحلم به من حياة اجتماعية لا تشوبها شوائب الجنسيات المتنافرة ، والعصبية المتناظرة ، والطبقات المتحافدة ، بله ما آنتسته في أصوله من مطابقة العقل ، ومسابقة الدليل ، وفي آدابها من سمو ليس بعده غاية ، ولا وراءه مذهب ، فألقت بنفسها في جماعته ، ورأت الخير كل الخير في مناصرته ، والذود عن يبيضته .

ولا تزال الدعوة الاسلامية باقية ما بقيت السموات والأرض ، ولا يزال ولن يزال الدليل قائما على أن قبولها هو الدواء الشافي لأدواء الأمم ؟ محمد فريد ومهرى

كلمات بليغة

دخل خالد بن عبد الله القسرى على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين : من تكون الخلافة قد زانته ، فانت قد زنتها ، ومن تكون قد شرفته ، فانت قد شرفتها كما قال الشاعر :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

التفسير

سورة الرعد

- ٣ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ كُلُّ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فِي الْآلِ كُلِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

تقدم في الآية السابقة ذكر الدلائل في العالم العلوى في قوله عز من قائل : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم توفقون » . وسبق الكلام في تفسير ما انطوت عليه من الدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ، التى تملأ النفوس يقينا ، والقلوب إيمانا ، بعظم قدرة موجدها ، وباهر حكمة مبدعها ، وأنه على أن يعيد ما بدأ أقدر ، وبأن يتصرف فيكم بالجزاء على عملكم أجدر ، كما نشاهد ذلك فى ختمها بقوله تعالى : « لعلكم توفقون » . فهى تفرس فى النفس اليقين بعظيم قدرته فلا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وجليل حكمته فلا يترك الأمر فوضى

بينهم : يا كل قويمهم ضعيفهم ، ويخرج العبد على الحدود المحدودة له بدون أن يلتقي على ذلك جزاءه .

وهذه الآية التالية لبيان الدلائل التي اشتمل عليها العالم السفلي ، أى عالمنا هذا الأرضى : ينهنا على ما حوى من آثار القدرة الباهرة مما عسى أن نمر عليه غافلين فلا نتفكر فيه لطول مشاهدتنا وتكرر وقوع الأنظار . وقد جرت العادة بأن تعنى النفوس بما يفاجئها فتتأمل فيه أكثر من تأملها لما كثرت ملاستها . يشهد بذلك ما تراه من هلع النفوس وشدة تيقظها عند حصول الحوادث النادرة كالخسوف والكسوف ولو جزئيين ، وغفلتها عما هو أعظم منهما أثرا وأكبر مظهرا مما يحصل دائما متكررا كسلطان الليل والنهار ، وما ذاك إلا لأن كثرة التكرار تهون من أمر التيقظ والانتباه ، ولا كذلك مفاجأة الأمر النادر الوقوع .

والحكمة فى تقديم الدلائل العلوية أنها أول ما تتجه إليها النفوس بالتأمل غالبا ، بما يسطع من ضوئها ، وما يتجلى من سناها وسنائها ، فإن مظاهر العظمة متجلية فيها أيما تجل ، والاعتراف بالقدرة لمبدءها لا تتعاضى عنه نفس مهما ملكها العناد والمكابرة . والمخ إن شئت قوله تعالى : « أنتم أشد خلقا أم السماء » ؟ وختمها بقوله عز وجل : « لعلمكم بقاء ربكم توقنون » لما أن إنكارهم للبعث أو ارتيابهم فيه كان مبنيًا على استصعاب إعادة ما فنى وجمع ما بعث وتفرق ، فكأنه يقال لهم : أى الأمرين أهون : الإيجاد من كم العدم ، أم الإعادة بعد سبق الإيجاد ؟ وأى المخلوقين أشد استنادا الى عظيم القدرة « أنتم أشد خلقا أم السماء » ؟

ثم إن كل هذا باعتبار ما يبدو لعقل العباد ، وإلا فالكل بالقياس الى قدرته جل شأنه فى السهولة واليسر على حد سواء ، فلا يتعاضى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء .

قال تعالى : « وهو الذى مد الأرض » :

قدمنا في تفسير قوله تعالى : « الله الذي رفع السموات » أن معناه أوجدها مرفوعة لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ، وكذلك القول هنا في قوله تعالى : « وهو الذي مد الأرض » معناه أوجدها ممدودة مبسطة متسعة الأكناف مترامية الأطراف . وهذا في باب الامتنان يرشد الى ما فيها من سعة وبسط ، وذلك هو ما ينحصر المنتفع في انتفاعه . أما أن شكلها كرى أو غير كرى ، فلا دخل له في تقرير هذه المنة ، والكلام مسوق لبيان سعة ملكه وعظيم سلطانه ، وأنه خلق لكم ما خلق مما تشهدون بعظمته وأنه لا يكون إلا عن عظيم قدرة منشئه ، وليس مسوقا لشرح ماهيات الأكوان والبحث عن حقائقها وحقائق أشكالها ، فتلك أمور ترجع الى دقائق العلوم والصناعات ، وهي منوطة بالتفكير في المخلوقات ، واستقصاء ما يمكن من البحوث العقلية .

وقد دعا الله سبحانه وتعالى العقلاء الى البحث والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، وجعل لهم من إيتاء المنافع جذبا ، ومن شهوات العقول سائقا يستحفظهم على الدأب في التفكير حتى يصلوا الى ما تسعه عقولهم من أسرار هذا الكون وخفائيه ، سواء في ذلك الأرض والسماء ، وسواء في ذلك ما يحدث بالتجارب العملية ، وما هو ثابت لا يتغير من أشكال أرضية أو أوضاع فلسفية . فالشارع يدعوكم الى التفكير ، والفكر يهديكم الى إدراك ما تبغون . وكلما ازددتم تفكيرا وتمحيصا واعتدلتكم في فكركم بلا تطوح ولا جرى وراء الخيال ، وصلتم الى علم ما أردتم ، وانكشف لكم من هذا النظام ما يزيدكم إيمانا و يقينا .

فقوله تعالى : « وهو الذي مد الأرض » أى وسع أرجاءها ، وسلك لكم فيها سبلا ، وبث لكم فيها منافع . وكل ذلك دال على عظمة مبدعها الحكيم ، جل شأنه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره ! وهذا المعنى لا ينافي أن شكلها العام كرى حيث أثبتته دليل المشاهدة أو غيره ، أو حيث يلح من قوله تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » إذ يظهر منه أن التفاف كل منهما على الآخر وإخفاءه تحته يشبه لف

كودالعمامة على كور آخر منها، وهو قريب في الأجسام الكرية المستديرة . وأيا ما كان فليس المقصود هنا بيان الشكل ، وإنما المقصود بيان عظمة ما أبدعه بقدرته ، لنأخذ منه قدرته على تحقيق البعث الذى أنكروه ، وهو أهون عليه .

قال تعالى : « وجعل فيها رواسى وأنهارا » :

الرواسى : الجبال ، جمع راسٍ ، أصله صفة من الرسو وهو الاستقرار ، يقال رست السفينة أى استقرت بعد حركتها ، وفاعل إذا كان اسما أو صفة لما لا يعقل جمع على فواعل . وقد جاء فى آية أخرى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم » . وهذا يعطى شيئا من فائدة الجبال ، وهو منع الأرض من أن تُميد . وعللوا ذلك بأن الأرض قابلة للاضطراب والارتجاج مما يجعل الإقامة على ظهرها مقلقة غير مريحة ، فجعلت الجبال فيها لارسائها ومنعها أن تُميد بما حوت من ثقل ، وبما ركزت فى محال الله أعلم بحكمتها . ولا يقال إن نسبة الجبال الى الأرض كلاشى ، فكيف تثبتها ؟ لأننا نقول إن هذا لا يتوقف على ضخامة ولا غيرها ، ألا ترى الى حجر بسيط يوضع فى قعر السفينة فيمنعها أن تُميد . وإذا رددت هذا الى قانون حفظ التوازن نقول : وهذا أيضا مردود الى قانون علمه مبدعه ، سواء أعلمناه أم لم نعلمه ، وإذا لم يعلم الآن فلا يبعد أن يعلم فيما بعد . وكم من حقائق علمية انكشفت بعد أن كانت خفية .

وربما يقال : ولم جعلت الأرض بأصل خلقها مستعدة لأن تُميد ثم ثبتت بالجبال ، ولم تجعل من أول أمرها ثابتة بلا حاجة الى الجبال ؟ وهذا مدفوع بأن حكمة المبدع الحكيم اقتضت أن يرتبط أجزاء العالم بعضها ببعض بالتسبب والاستناد ، حتى كأنه كتلة واحدة أو جسم يحتاج بعضه الى بعض ، زيادة فى كمال الترابط . ألا ترى أنه كان يمكن أن يخلق الانسان جسما كاملا لا يحتاج الى غذاء ولا الى دواء ولا كساء ولا غطاء ، ولكنه خلقه بحاجة الى ذلك كله ليتم ارتباطه بالكون الذى هو جزء منه ، بل خلق أجزاء الانسان بحيث يحتاج بعضها الى بعض . وانظر الى الحواس والجوارح ؛ وانظر الى العضلات

والدم والدهن في الانسان؛ وانظر الى المعدة وباقي الجسم؛ وانظر الى المخ والأعصاب وهكذا: تجدد كل جزء قائما بعمل في الجسم الواحد، فكذلك الانسان مع الكائنات المحيطة به ينمفع بها في غذائه ودوائه، وتنفع به في عمرها وتحليلها وتركيبها. وهكذا يجتمع العالم في التفاعل مع تباعده في الوجود. وهذا صنع الحكيم العليم.

ومن فوائد الجبال غير هذا أنها مادة للعيون، ومنشأ مدد للأهوار، ولذلك تجد الجبال أكثر ما تذكر مقترنة بالأهوار، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا» في سورة النحل وفي سورة لقمان، وكما في قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ» الى غير ذلك. وقد علل ذلك الباحثون بأن مادة ماء العيون السحب، وأكثر ما تهطل على رؤوس الجبال، فنها ما يسيل في شعابها فيتخذ من ذلك مجارى وسبلا وأنهارا، ومنها ما تتشقق لها الجبال فتخزن فيها ثم تسلك فجاجا تحت الأرض حتى تتفجر من ناحية أخرى علمها العليم، واقتضتها حكمة الحكيم.

وأيضا ترى الجبال بسبب ارتفاعها أبرد جوا من الوهاد، كما تدل عليه المشاهدة، فيجتمع على سطحها من الثلوج والأنبجرة المنحلة الى الماء ما يسيل منه الأنهار فضلا عن تقطع السحاب على ذراها، فينحل الى مائته الأولى، وبذلك تشهد مناسبة ضم الأنهار الى الجبال.

ولعل من حكمة جعل الجبال فيها وجعل منابع الأنهار ومددها منها، ما ذكره بعض الباحثين من أن المياه النازحة منها تجرف مع انحدارها أجزاء طينية تصطدم في صخور تلاقبها، فتذوب وتسير مع الماء بانحداره العظيم، حتى تصل الى ما شاء الله أن تصل اليه، فترسب طميا صالحا للأنبات مخصبا منميا، وهذا كله من مظاهر الارتباط بين أجزاء هذا العالم، فنه ما عرفناه، ومنه ما لم نعرفه، والله بكل شيء عليم.

هذا والأنهار جمع نهر، وهو في الأصل مجرى الماء العظيم، وقد يطلق على الماء الجاري نفسه تجوزا، ولما يستعمل إلا في مجرى الماء العذب.

هذا ونزول الأنهار من الجبال على ما قررنا لا يعارض قوله تعالى : « وأترلنا من السماء ماء طهورا » ونحوه ، لأن المراد من السماء جهة العلو ، ولا شك أن الأمطار على ما قررناها هي المادة الأصلية للعيون والأنهار ، وهي نازلة من جهة العلو . ونبع بعض العيون من الأرض بدون استمداد من الأنهار ، كالعيون المجاورة للبحار لا يمنع ذلك ، فلم يكن المراد الحصر .

قال تعالى : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » :

هذا لبيان أثر آخر من آثار القدرة الباهرة ، هو كالنتيجة لما قبله من جعل الرواسي والأنهار فيها : ذاك أن الثمرات ما جاءت إلا عن أرض خصبة تغذيها مياه عذبة ، وقد عرفت أن الجبال تمد السهول في الغالب بالمادة الطينية الخصبة ، وأن الأنهار ترويه بالمياه العذبة ، فيتولد منها الثمرات من كل زوجين اثنين . ومعنى الزوج : الشيء المنضم الى غيره ليكون من ازدواجهما وانضمامهما ثمرة مقصودة منهما . فليس الزوج اسما للاثنتين ، بل الاثنان زوجان .

فالمرنى جعل فى الأرض من كل أنواع الثمرات ، وجعلها بحيث لا يتم الغرض المقصود منها إلا بانضمام زوج منها الى الآخر ، حتى يتم التماسك والتساند بينها ، ويظهر الارتباط الذى لا بد منه فى بقاء نوعها . فالمراد بالزوجين عنصرى التذكير والتأنيث فى الثمرات .

وقد أثبت الباحثون أن النبات محتو على عنصرين أحدهما للتذكير والآخر للتأنيث ، فالتوالد فيه كالتوالد فى فصائل الحيوانات يحتاج الى زوجين ذكر وأنثى . غاية الأمر أن بعض الأنواع قد تكون زهرته الواحدة بحيث يجتمع فيه الذكرو الأنثى ، وبعضها يكون فيه التذكير فى زهرة والتأنيث فى أخرى ، أو التذكير فى شجرة والتأنيث فى أخرى كما فى النخيل . فقوله تعالى : « زوجين » إشارة الى قانون الارتباط والتماسك الذى بثه الله فى العالم مبنيا على احتياج كل الى كل ، والله عليم حكيم .

أما قوله تعالى : « اثنين » بعد قوله : زوجين ، فلتأكيده المراد من كلمة زوجين ، وأنه ليس معنى الزوج فيه اثنين حتى يكون جعل من كل ثمرة أربعة ، بل المراد به الواحد المنضم الى ما يزاوجه . فأصل كل ثمرة اثنان ، كما أن أصل كل مولود من المولودات الأخرى اثنان . وزيادة من في قوله : « من كل الثمرات » لبيان أن قدرة الله تعالى صالحة لا ييجاد أنواع من الثمرات غير ما شاهدتم مما لا يدخل تحت الحصر . وها أنت ذاترى التجدد لا ينقطع في أنواعها حيناً فحيناً .

قال تعالى : « يغشى الليل النهار » :

أى يجعل الليل غاشياً للنهار أى ساتراً له : وقرئ يغشى بالتشديد وهو بمعناه ، إلا أنه قد يدل على التكرار ، والأول يدل على أصل الفعل . وهو كما يغشى الليل النهار كذلك يغشى النهار الليل أى يستره به ، إلا أن الستر بالليل أنسب ، فلذا اقتصر عليه ، واكتفى بأن عكسه معلوم منه .

ولا يخفى عليك أن في تعاقب الليل والنهار على الثمار عوناً على إنضاجها وإكمال صلاحها ، فلو جعل النهار والليل عليها سرمداً لما بدا صلاحها ، ولما تم إنضاجها . فتعلق الليل والنهار بهما تعلق التعم بما يحتاج اليه في تمامه ، وبذلك يظهر لك حسن الارتباط . ونظم الليل والنهار في سلك الآيات الأرضية لما ذكر ، ولأن مظهرها لنا في عالمنا الأرضى وإن كان المنشأ لهما من العالم السماوى العلوى ، فهما يلبساننا ويحيطان بنا وننتفع بهما ، إذ بيعتنا النهار الى الحركة في أعمالنا ومصالحنا ، ونسكن في الليل حتى نسترد قوتنا ، فهما لنا من الملابس التامة .

هذه الآيات الأرضية يمر عليها الناس وهم عنها غافلون ، لا يدرك ما فيها من آثار العظمة إلا المفكرون . فلذا أردفت بقوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وذلك لما سبق لك من أن كثرة تكرار النظر الى الشيء يضعف معنى التأمل فيه ، كما شرحنا ذلك بالمقارنة بين تأثير النفوس بظاهرة الكسوف والخسوف ولوجزئين ، وعدم

اكثرائها بدخول الليل أو طلوع النهار . فلا جرم قال هنا : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وأما العالم العلوى فإنك ترى أن الانسان لا يكاد يتطلع اليه ويملاً نظره فيه حتى يجد من نفسه اعترافا بعظمة مبدعه وباهر قدرته ، فينطلق لسانه بالتسبيح والتقديس لأول وهلة ، ولا يجد من نفسه في ذلك مكابرة . فلذا أردفها بقوله فيما سبق : « لعلمكم بقاء ربكم توقنون » . والتفكير إطالة النظر وإجالة البصيرة ودوام التأمل حتى يقف المرء على دقائق وأسرار لم تكن بادية له عند النظرة الأولى ، وهو الذى يعبر عنه علماء المنطق بعبارة : ترتيب أمور معلومة للتوصل بالنظر فيها الى علم ما لم يكن معلوما .

وقد ذكر بعض المفسرين أن أكثر ما تذكر الآيات الأرضية تردف بالحث على التفكير ، وذلك لأن بعض الناس يرد حدودها الى اتصالها بالحركات الفلكية والأوضاع الكوكبية ويقتصر على ذلك ، فإذا تفكر علم أن الأوضاع المذكورة لا يمكن أن تنتج هذا النظام المحكم الذى لا يكون إلا من عليم خبير قادر حكيم ، فإن وضع الأفلاك أو السكواكب بالنسبة الى الجسم الواحد ، واحد تقريبا ، فكيف جعل فى الحيوان جزءا هو عظم فى منتهى الصلابة ، وجزءا هو دم أو دهن فى منتهى الرقة ، وجعل بينهما أجزاء مختلفة الطبائع من أعصاب وعضلات ، وجزءا مغشيا للجميع مسكا لها ضامما لأجزائها هو الجلد ، وجعل الجميع على اختلاف طبائعهم يسند بعضهم بعضا ، ويخدم بعضهم بعضا . هل الفكر الصحيح يستريح إلا إذا رد ذلك الى القادر المختار ؟ وقد هدى الله تعالى الى باب الرشاد الواضح فى ذلك حيث أردف هذا بالآية التالية ، فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وهذه جملة أخرى مستأنفة لذكر نوع من أنواع الأدلة الأرضية ، وهى ما يتجدد أمام أنظارنا من حوادث متعاقبة ، بعد أن ذكر ما فيها من أمور ثابتة فى الآية السابقة ،

فقال تعالى: « وفي الأرض قطع متجاورات » أى بقاع كثيرة مختلفة، فمن خصب الى جذب، ومن صالح للزراع دون الشجر وصالح للشجر دون الزرع وصالح لهما معا، ومن حزن الى سهل، ومن رخوة الى صلب، ومن أحجار كريمة الى مواد نافهة، ومن ومن الخ، وكلها متجاورات. فمن الذى جعل فيها تلك المفارقات والمباينات: أنجاء هذا من الأفلاك والكواكب، أم جاء من طبيعة صالحة وأخرى فاسدة؟ فمن الذى جعل هذه صالحة والأخرى فاسدة، والمادة فى الجميع واحدة، والعوامل المتسلطة عليها واحدة؟ أفعل هذا التجاور مع اتحاد المادة الأصلية يحىء كل هذا التباعد؟ وهب أن ذلك مرجعه الى عوامل تسلطت عليها، فمن الذى سلط تلك العوامل حتى جاء هذا النظام البديع الذى حارت فيه العقول والألباب؟ وهل يستقر للفكر قرار وتطمئن النفوس اليه تمام الاطمئنان إلا إذا أسندت ذلك الى مدبر عالم حكيم مرشد؟ سبحانه ما خلقت هذا عبثا، وليس لغيرك أن يدرك كل الأسرار التى بثتها فى مصنوعاتك، فضلا عن أن يشاركك فى ملكك، سبحانه لا إله غيرك، ولا شريك لك فى ملكك!

وقوله: « متجاورات » أى متلاصقات لم تختلف بها الأقاليم ولم تتباعد بها المناطق. وكما فيها قطع متجاورات اختلفت صفاتها، تجد فيها قطعاً غير متجاورة اتحدت صفاتها. واكتفى بالأول عن الثانى مع فهمه منه لأنه أوضح دلالة. ألا ترى أنك حين ترى زهرة اشتملت أوراقها على ألوان عدة فى ورقة صغيرة دقيقة، أنطقك ذلك بالتسبيح للحي القيوم، ودعاك الى الاعتراف بالقدرة أكثر مما إذا رأيت نباتاً من نوع واحد فى منطقتين مختلفتين؟

وقوله: « وجنات من أعناب » بدأ بها من بين ما تثمر الأرض لاحتواء العنب على دقيق الصنع الإلهى: إذ ترى فيه من الاختلاف فى الطعم واللون، ومن الاحتواء على الثمرة التى قوامها ماء متجمع فى قشرة رقيقة قد يكون شفافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما فى باطنه، يتوسطه بذرة يابسة ذات لب هو منشأ النبات، وغلاف خشبي حوى الماء،

المقصود أن يتصل بذلك الالب ، الى غير ذلك مما فصله علماء النبات ، فيه من ذلك ما ينطق العقل قبل اللسان بالتحميد والتمجيد . ولذلك ورد في بعض الأخبار القدسية : « أنكفرون بي وأنا خالق العنب » ؟

ثم أردفها بالزرع وهو النبات المقابل للأشجار ، كنبات الحبوب والألياف ونحوها . وإفراد الزرع مع تنوعه مراعاة الى أن أصله بصيغة المصدر . ولعل توسيط الزرع بين جنات الأعناب والنخيل لتوجيه النظر الى ما يجري في كثير من الجنات من أنها تفصل بالأعناب ويتخللها الزرع يحيط بها النخيل ، كما في قوله تعالى : « وحففناها بنخل وجعلنا بينهما زراعا » كأن ذلك حين يجتمع على هذه الصفة تجدد فيه من دلائل القدرة الباهرة ما فيه .

وقوله : « ونخيل صنوان وغير صنوان » النخيل معروف ، والصنوان جمع صنو ، وهو الفرع الذي يجمعه وآخر أصل واحد . وأصله بمعنى المشل . ومنه قولهم : العم صنو الأب ، أى مثله فيما ينبغي له من التكريم .

قال تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » :

هذا موضع الاعتبار الواضح في الدلالة البينة : إذ كانت قطعها متجاورة وأصل مادة زرعها واحد ، وتسقى بماء واحد ، ثم تجيء متفاضلة فيما يؤكل منها : فمنها الحلو ، ومنها الحامض ، ومنها الحريف ، ومنها التافه ، ومنها الرطب ، ومنها اليابس ، ومنها ما يتخذ غذاء ، ومنها ما يتخذ دواء ، ومنها مالا تحصر آثارها المتباينة ، ولا يحاط بفوائدها العامة ، أو مضارها التي قد تقصد في بعض الأوقات . والإحاطة بذلك قلما تتفق ولا لعلماء النبات ، فلا تزال التجارب تكشف من غوامضها مالا يحصى .

ولما كانت هذه الآثار جلية واضحة والاعتراف بها لا يحتاج الى طويل تفكير ، بل يكفي فيه نظرة من عقل البصير ، أردفها بقوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » كأنه يشير الى أن من رأى هذا ولم يبادر بالاعتراف بقدرة مبدعه ، ليس جديرا

أن يسمى من العقلاء، فقد أهمل عقله، وأظهر جهله. وهذا في الآيات المتجددة في الثمار والزروع والنخيل والأعشاب موقظ للتأمل وحده، فكل جديد جدير بأن يسترعى النظر، بخلاف ما في الآية السابقة من الأمور الثابتة من الجبال والأنهار، وتغشية الليل النهار، فان ذلك محتاج الى التأمل والتفكير.

وأظنك تدرك من نفسك أن الثمرات ذكرت في الآية الأولى من جهة ما فيها من قانون ثابت، وهو قانون التزاوج المشترك في جميعها، وأنه من الخفاء بحيث يحتاج في الاهتداء اليه الى البحث والتفكير، فلذا أدرجه في الآية المختومة بقوله: «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون». وذكرت في هذه الآية من جهة ما يبدو فيها من الطعوم المختلفة والمراتب المتباينة والآثار المتفاضلة، وهي لا تحتاج الى تفكير، فحسن نظمها في الآية المختومة بقوله تعالى: «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون».

نسأل الله تعالى أن يهدي قلوبنا للإيمان واليقين من هذه الجهة، وأن يشرح صدورنا للتفكير حتى تطمئن الى الإيمان به كل الاطمئنان، والله المستعان. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالي

هما قيل في الليل

وصف أحد الادباء الليل فقال :

فيه تجم الاذهان ، وتنقطع الاشغال ، ويصح النظر ، وتؤلف الحكمة ، وتدر الخواطر ويتسع القلب . والليل أضوأ في مذاهب الفكر ، وأخفى لعمل البر ، وأعون على صدقة السر ، وتلاوة الذكر . ومدبرو الامور يختارون الليل على النهار فيما لم تصف فيه الاناة لرياضة التدبير ، وسياسة التقدير ، في دفع الملم ، وإمضاء المهم ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعاني ، وتقويم المباني ، وإظهار الحجج ، وإيضاح المنهج ، وإصابة نظم الكلام ، وتقريبه من الافهام .

الشجاعة

مقدمة في مطهر الأفهام :

كتبنا فيما سبق شيئاً عن المحبة وأنواعها، وشيئاً عن الرحمة وآثارها. وزيد اليوم أن نكتب لك شيئاً عن الشجاعة وفوائدها التي لا يحصيها العد. ولنقدم بين يدي ذاك كلمة إجمالية عن مكارم الأخلاق عموماً، فنقول : مكارم الأخلاق أوساط بين الإفراط والتفريط، فتى جاوزت نقطة الوسط فقد جاوزت الفضيلة. فالشجاعة مثلاً وسط بين الجبن الذي هو تفريط، والتهور الذي هو إفراط. والسخاء وسط بين البخل الذي هو تفريط، والتبذير الذي هو إفراط. فأياك والزيادة فيما تظنه فضيلة فتقع في الرذيلة (كلا طرفي كل الأمور ذميم).

حتى إن القوة الفكرية، وهي أشرف القوى ومدار الإنسانية، إذا زادت عن حدها، خرجت بك إلى رذيلة الخبث والدهاء، والمكر والحيلة. وليس الكفر والتهجم على مقام الألوهية واقتحام تلك المخاطر إلا رذيلة من رذائل القوة الفكرية. فرذائلها أقبح الرذائل، كما أن فضائلها أشرف الفضائل. وهكذا الحال في الفضائل والرذائل في القوة الشهوية والقوة الغضبية: على قدر ما ترتفع بفضائلها تنحط برذائلها على نسبة واحدة. فأعظم القوى الثلاث فضائل ورذائل، هي القوة الفكرية، ثم القوة الغضبية، ثم القوة الشهوية.

وكان نقطة الوسط التي نوهنا عنها هي الصراط المستقيم الذي أمرنا تعالى بطلب الهداية على سبيل الوجوب سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة : « اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم » .

ولا بد أن تكون قد سمعت أن الصراط أرق من الشعرة وأحد من السيف. ولعلك كنت تستغرب من ذلك وتصدق به تقليداً من غير أن تفهم له معنى ولا تذوق له سرا.

فاعلم أن نقطة الوسط عسرة جدا ، ولا يمكنك أن تقف عندها إلا إذا رزقت المعونة ومنحت التأييد ، فلا يكاد يهتدى إليها ثم يصبر عليها إلا الأنبياء والمرسلون وكل الرجال من ورثتهم « وقليل مالم » . فخفا هي أرق من الشعرة وأحد من السيف . وأحب منك الآن على عجل أن تصدق معي أن الصراط الأخرى على ما سمعت ، وتعلم أن كل شيء تراه في الآخرة إنما يمثل ما كان من أحوالك وأعمالك وأوصافك في الدنيا ، فإن الأرواح متى قوى سلطانها خفيت مقتضيات الأجسام ، فكان الحكم لها هو ما يكون في الآخرة ، كما أن الأجسام متى قوى سلطانها ظهرت مقتضياتها وخفيت مقتضيات الأرواح كما في الدنيا . فإذا سيرك بسرعة أو ببطء على ذلك الصراط هناك يمثل سيرك هنا على صراط الوسط في كل شيء ، الذي هو أرق من الشعرة وأحد من السيف ، وذلك الصراط يمثل هذا الصراط . ومتى قدرت على أن تسير عليه ها هنا أمكنك أن تسير عليه هناك ، والعكس بالعكس . وعلى قدر ما أنت عليه اليوم يكون حالك غدا ، حتى إذا كنت من المسارعين إلى الخيرات السابقين في الفضائل والكجالات ، كنت هناك طائرا لا سائرا .

ولنرجع الى ما تصدينا له اليوم من الكلام على الشجاعة فنقول :

الشجاعة ماهي :

الشجاعة : ملكة في النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة ، والخاوف الخطيرة ، للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة . أو نقول بعبارة أخرى : الشجاعة هي الإقدام تحت إشراف الحكمة ، للدفاع عما يجب الدفاع عنه : من نفس ، أو دين ، أو وطن ، أو غير ذلك ، وهي فضيلة من أسامي الفضائل . وإن شئت فقل إنها حارسه الفضائل كلها ، وأس السعادة في الدنيا والآخرة . وليس يخفى عليك مالها من الأثر في رقي الأمم وتقدم الممالك في هذه الحياة .

فكل أمة ضربت فيها بسهم وأخذت منها بأوفر نصيب ، أصبحت شائخة المجيد

عالية القدر فسيحة الملك، لا يعوزها نشر العمران، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها. وما من أمة أخللت الى الجبن وأهملت واجبها وفرطت في جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية، إلا صارت الى الذل والهوان، وباءت بالخيبة والخسران، لا تستطيع دفع الطامع عنها، ولا تقوى على حفظ كياناتها والذود عن حياضها، ولا تلبث إلا ريثما يتم اتفاق الدول القوية على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة.

كانت الشجاعة من المناقب التي امتاز بها العرب، وفاقوا غيرهم في الأخذ بنصرها والتمدح بآثارها، والافتخار بمزاياها، والازدهاء بمحاسنها، حتى بلغ من ذلك أن حض عليها الأسماء، وتباهى بها الكبراء والوضعاء في محاوراتهم وأشعارهم.

قال سيدنا أبو بكر خالد بن الوليد: « احرص على الموت توهب لك الحياة ».
وقال الشاعر:

محرمة أكفأل خيلى على القنا ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا قتل مسدبر وتندق منها فى الصدور صدورها
ويقول الآخر:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
ولهم غير ذلك من الأخبار والشواهد، مما يدل على أنها كانت ألزم لهم من ظلمهم، وأثبت عندهم من شخصهم.

ولا غرو ففى الفضيلة التي ليس بعدها فضيلة، والمزية التي ليس وراءها غاية. لذلك كانوا فى جاهليتهم ذوى شمم وحمية، وعزة وأنفة، يأبون الضيم، وينفرون من الذل، فلما سطع نور الاسلام فى بلادهم، وخفقت أعلامه على ديارهم، وأفاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يفيض، قاموا والشجاعة رائداهم، والاسلام قائدهم، ينشرون دين الله، ويعززون دعوة نبيه، فدانت لهم البلاد، وخضعت لهم أعناق الأكلسة،

فلم يمحض عليهم قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة في مملكتي الرومان والفرس ، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وأفريقية ونحو نصف أوروبا ، وهناك نشروا علومهم التي جاء بها الاسلام ، ومعارفهم التي أتى بها القراءان ، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم ، وأرقاهم مدنية وحضارة .

وهاك تاريخهم المجيد لا يزال ينبئ عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشاخص بفضل علمهم وشجاعتهم . وقد شهد لهم جوستاف لوبون بذلك في كتابه (حضارة العرب) وغيره من علماء الأوربيين وفلاسفتهم .

الأمة الى الشجاعة أحوج منها الى كثرة العدد ووفرة الأموال ، ذلك أن الأمم في اعتداء مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد ، كالأشخاص . فإذا لم يكن للأمة قسط وافر من الشجاعة وعامل قوى من الحمية والأنفة ، عرضت نفسها لالتهام الظالمين ، فسقطت في هوة سحيقة من الذل والاستعباد .

هب أن أمة لم تأخذ من الشجاعة بقسط ، وقد جمعت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخليل المسومة والأنعام والحراث ، وكان لديها العدد العديد من أبنائها : أفيعنى ذلك شيئا عند مداهمة خطب مدلمهم من جانب الأمم المغيرة والفرسان الفاتحين ؟ ! إن ما جمعته بلا شك يكون داعيا قويا وباعثا شديدا للتوارد على ذلك المنهل العذب الذي لم يرق عليه حارس الشجاعة .

عامة الامم الى الشجاعة في داخليةها :

إن الأمة كما تحتاج الى الشجاعة في رد الغارات ودفع الغوائل ، تحتاج إليها كذلك في إدارة شئونها واستقامة أمورها واعتدال نظامها وتنفيذ مصالحها . فالحاكم إن كان مقداما على تنفيذ ما يصدره من الأحكام وإقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الأمة لأوامره ، واطمأنت الى أحكامه ، وسارت معه في طريق الوفاق والوثاق .

وإن آمنت منه جبناً أو ظنت منه توانياً في إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين ، ساء رأيها فيه وملئت سخطاً عليه ، ففسدت الأحوال وعم الوبال .

الحاجة الى الشجاعة في نصرته المحي والقيام بالواجب :

ليس يخفى عليك أن العالم لا ينتفع بعلمه ، ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، إلا بالشجاعة والإقدام .

كذلك الطبيب لا يجزئ على قطع الأعضاء الفاسدة ، وجبر العظام الكسيرة ، وتضميد الجروح الخطيرة ، وإجراء تلك الأعمال الجراحية كلها ، إلا إذا ساعده باعث الشجاعة . وقس على هؤلاء غيرهم ممن لا يقومون بمهمهم ، ولا يسرعون الى عمل ما يناط بهم ، إلا إذا كانت الشجاعة أول خلاصهم ، وأجل أخلاقهم وأظهر سجاياهم . وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم في سعادة الأمم ورفعها وحضارتها ونعيمها كما قلنا . وهو ميدان فسيح لا يأتي عليه البيان ، ولكنه لا يغيب عن الأذهان .

وبعد : فيحسن بنا أن نذكر لك شيئاً من شجاعته صلى الله عليه وسلم حتى تقتدى به فتسعد سعادة لا شقاء بعدها : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

ويكفيك من ذلك أنه قام وحيداً فريداً يدعو الى الله ، وقريش على بكرة أبيها تناوئه بصنوف المناوأة ، بل العالم كله إذ ذاك كان ضد هذه الدعوة ، فلم يقل ذلك من عزمه ولا فتر من همته ، فكان يسفه أحلامهم ، ويسب آلهتهم بكل ما استطاع من قوة . وقد ذهبوا الى عمه أبي طالب مهددين متوعدين ، فقال له عمه : « يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » وليس يخفى عليك أن أبا طالب إذ ذاك كان نصيره الوحيد .

فانظر الى قوله له : فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فليس هناك أبلغ من هذا التهديد والتخويف من رجل لا ثقة له بغيره ، ولا تعويل على أحد

من الخلق سواه . فإذا قال له صلى الله عليه وسلم بعد هذا ؟ قال له : « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ومما ورد في شجاعته صلى الله عليه وسلم الخارقة للعادة ، ما رواه جابر رضى الله عنه إذ يقول :

« كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة ، فاخترطه فقال له : تخافني ! فقال له : لا . قال : من يمنعك مني ؟ قال : الله » رواه البخاري ومسلم . وفي بعض الروايات أن النبي لما قال له ذلك سقط السيف من يده فأخذه صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرجل : كن خير آخذ . فلما عفا عنه رجع الى قومه وهو يقول : جئكم من عند خير الناس .

ولقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ، الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا على فرس لأبي طلحة والسيف في عنقه وهو يقول : لم تراعوا .

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم المشهورة الضخمة (وكل مواقفه صلى الله عليه وسلم ضخمة) موقفه يوم حنين :

روى البخاري ومسلم وحكاه القرءان أيضا أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين . واتفق الشيخان على أنه صلى الله عليه وسلم كان راكبا بغلة . ولفظ مسلم من رواية العباس رضى الله عنه : فلما التقي المسلمون والكفار ، ولّى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أ كفهها ألا تسرع .

ولعمرك الله إن ذلك لفوق مانعده من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فرغته أصحابه ، وخصوصا إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المطهمة والفرسان المدربة . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكانه كان يلفتهم اليه وينبهم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه من البشر يستطيع ذلك أو قريبا منه ؟ ! ولكن لا عجب : فقد امتلأ قلبه ثقة بالله وتوكلا عليه ، عالما أنه اليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يُردك بخير فلا راد لفضله » .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تجبن أمام شهوتك عند ما يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عند ما يحتد سلطانها ويتحكم شيطانها . ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . رواه الشيخان . وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جرة الغضب التي تتقد في قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصابرها حتى خمدت كل الجنود ، ولم يظهر عليه شيء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمع به ، ولم تورطه في الهلكات .

وقد روى البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال : « أتحسبون الشدة في حمل الحجارة ؟ إنما الشدة أن يمتلي الرجل غيظا ثم يغلبه » .

وانظر إن شئت الى ما كان منه صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » . وهذا شيء لا يكاد يصدق العقل لو لا أن النبي من طراز آخر غير ما تعرف في الناس ، فإنه صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت الذي حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة

لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره صلى الله عليه وسلم .

وروى البخارى ومسلم والبيهقى فى الأدب وأبو داود والقاضى عياض فى الشفاء واللفظ له ، عن أنس رضى الله عنه قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال يا محمد : احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أهلك . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : المال مال الله وأنا عبده . ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي بمثل ما فعلت بى ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافى بالسيئة السيئة . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . وهو فى هذه الحادثة أيضا لم يعف عن هذا الجاهل فقط ، بل حمل له بعيره كما طلب . فكان فى ذلك ممتثلا قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وكم له من مثل ذلك صلى الله عليه وسلم .

وقد قالت السيدة عائشة فى بيان خلقه : « كان خلقه القراءان » ثم قرأت قوله تعالى : « قد أفلاح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » . الى آخر ما لا يمكننا تفصيله فى هذه الكلمة العجلى .

أسأل الله أن يرزقنا اتباعه ، والاقتداء به ، صلى الله عليه وسلم ، بمنه وكرمه .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

من هو الذبيح

ورد الى المجلة هذا السؤال :

أرجو الافادة عن من هو الذبيح من ولدى سيدنا ابراهيم الخليل : أهو إسماعيل أم اسحاق ؟

محمد يوسف محمد
دير البنات — مصر

الجواب

المشهور عند كثير من المحققين والمفسرين ، كالأمام الألويسى فى تفسيره ، اختيار أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام ، وذلك بشهادة الظاهر من نصوص آيات قرآنية وأحاديث نبوية ونصوص من التوراة .

أما الآيات القرآنية فمنها قوله تعالى : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » . وجه الاستدلال بهذه الآية أن إسماعيل وصف بأنه من الصابرين ، وقد حكى الله تعالى عن الذبيح الوعد بالصبر فى قوله تعالى : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . فكان الظاهر أن الذبيح هو اسماعيل . ومنها قوله تعالى : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . بيان ذلك أن بشارتها بمولود هو إسحاق يكون له ولد هو يعقوب يبعد أن الذبيح هو إسحاق ، إذ البشرى بولد الولد فرع طول حياة الولد ، فلا يناسب الأمر بذبحه .

وأما الأحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن الذبيحين » . بيانه أنه صلى الله عليه وسلم معلوم أنه من نسل إسماعيل لا إسحاق كما هو معروف فى سلسلة نسبه . ومنها أن أعرابيا قال له صلى الله عليه وسلم : يا ابن الذبيحين . فتبسم ولم ينكر عليه ذلك ، وإقراره

دليل على أن الذبيح إسماعيل . وأما التوراة ففيها أن الله تعالى امتحن إبراهيم فقال له : يا إبراهيم . فقال : لبيك ، فقال : خذ ابنك وحيدك الذي تحبه واحمله الى بلد العبادة ثم اجعله قربانا على أحد الجبال . وفي بعض روايات التوراة : بكرك الخ . بيانه أن الوحيد الذي يحبه والبكر هو إسماعيل كما تؤيده بقية نصوص التوراة ، إذ فيها أنه ولد له إسماعيل وهو ابن ست وثمانين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة . فظهر من هذه الأدلة أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وقد روى هذا القول عن كثير من الصحابة كعلي وابن عباس وأبي هريرة والتابعين كابن المسيب ، وتابعي التابعين كإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه .

محمد السيد أبوشوشه المالكي - عبد الله موسى المالكي

بكلية الشريعة الإسلامية

قضاء رمضان والنذر - الحلف كنزاً للتخلص من الضرر

مصرف الصرفة

ورود أيضا :

١ - ما قولكم فيمن أفطر أياما من رمضان لعذر شرعي وقد نذر أن يصوم ستة أيام من شوال وأراد صيام ما ذكر بعد الإفطار : هل المطلوب أولاً صيام القضاء أو النذر ، مع العلم بأن وقتها واسع لقضاء رمضان السنة كلها ، والستة الأيام سائر الشهر على ما هو مشهور ؟

٢ - ما قولكم فيمن يبيع الحشيشة والأفيون أو يتعاطاها ، وقد أخبر أحد ضباط الحكومة فدخل عليه ليفتش منزله ويضبط ما عنده ، ثم أبدل هذا بأن حلفه يمينا بالله أو طلاقا ثلاثا على أن لا يبيع ما ذكر ولا يتعاطاه : فهل إذا حلف ليدفع عن نفسه الحبس وغرامة المال لا يلزمه يمين لكونه مكرها قياسا على من أكره على الحلف على فعل طاعة أو على أن لا يشرب الخمر إذا عاد لما ذكر ، أو تلزمه اليمين ولا يعد إكراها فيحنت ؟

٣ - ما قولكم فيمن أراد أن يكفر عن يمين حنث فيها أو عن ظهار أو غيرها : هل يجوز له أن يعطى شخصا فقيرا معه ثمانية أولاد صغار فقراء يموئهم وهو وزوجه تمام العشرة كفارة يمينه ، أم لا يجوز إلا إعطاؤه هو فقط ، لأن نفقة ما ذكر واجبة عليه فهم أغنياء به ؟

محمد حسن رزق ناصر
من جزيرة شندويل

الجواب

١ - قضاء رمضان والنذر :

يصح للشخص أن يقدم أى الصيامين فى الفعل ، ولا يجب عليه تقديم واحد منهما بعينه .

نعم : الأفضل تقديم صيام النذر وتأخير قضاء رمضان لضيق وقت نذر ستة أيام من شوال بالنسبة لوقت رمضان ، إذ وقت الأول شوال ، ووقت الثانى الى شعبان ، والمضيق ولو بالإضافة الى غيره أولى بالتقديم . ويؤيد ذلك ما جاء فى نصوص المذهب : فقد قال خليل : « نذبه بدء بكتمتهم . أى يندب تقديم صوم مثل تمتع على قضاء رمضان . ومعلوم أن صيام التمتع يتأخر أداء أكثره بعد رجوع الحاج الى بلده ، وقد يتأخر رجوع الحاج الى بلده شهرا أو أزيد ، قال تعالى : « فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتكم » .

٢ - الحلف الكذب للتخلص من الضرر :

إذا أكره على يمين فى طاعة إثباتا كليصلين الظهر فى وقته ، أو نفيا كلا يشرب خمر أو لا يفش المسلمين أو لا يتعطى أفيونا أو حشيشا أو لا يبيعهما ، وقد فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، فالمنصوص فى مذهب المالكية قولان : قول بالحنث قياسا على الهازل ، ولأنه لا يعدم أكثر من الرضا . وقد رد بأنه قياس مع الفارق : إذ الهازل

لا يعدم الرضا بخلاف المكره . وقول بعدم الحث وهو الظاهر لما يأتي من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم : « لا طلاق في إغلاق » أى إكراه . أى طلاقه لغو لا تأثير له في الحث لأنه مذعور وهو لا يعتد بقوله ؛ ولقوله عليه السلام : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٣ - مصرف الصدقة :

يجوز لمن يكفر عن يمينه أو عن ظاهره أو غيرها أن يعطى هؤلاء الفقراء والدمهم وأهمهم من الكفارة أيا كان نوعها ، لأن المنصوص في المذهب أنه يشترط في الفقير الذي يعطى من الكفارة عدم وجود منفق ملىء ، وذلك يصدق بالألّا يكون له منفق أصلاً ، أو له منفق فقير . إذا علم هذا يعلم جواز إعطاء المكفر هؤلاء الفقراء الذين يموتهم والدم الفقير من الكفارة م

محمد السيد أبو شوشه المالكي — عبد الله موسى المالكي
بكلية الشريعة الإسلامية

البوظة

وورد ما ملخصه :

ما حكم البوظة : هل هي مسكرة فيحرم شرب قليلها وكثيرها ؟

عطية محمد عوض الله
المخادمة — قنا

الجواب

المنصوص في مذهب المالكية أن عصير الشعير والخنطة إذا ترك زمنا حتى اشتدت حموضته اشتدادا يوجب لمتعاطيه نشوة وطربا ، فهو نجس يحرم تعاطى القليل منه والكثير لأنه خمر وإن لم يكن من عصير العنب . ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح البخاري في كتاب الأشربة في باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل ، قال حدثني أحمد بن أبي رجا

حدثنا يحيى عن أبي حيان التيمى عن الشعبي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : خطب
عمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قد نزل تحريم الخمر وهى من خمسة
أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والعلس
محمد السيد أبوشوشه المالكي - عبد الله موسى المالكي
بكلية الشريعة الاسلامية

مخازن الغلات

وورد أيضا :

ما تقولون حفظكم الله فى المخازن التى تعدها البنوك فى البلاد لوضع الأقطان فيها
والحبوب على أن يضع صاحب الزرع زرعه فيها حتى ترتفع الأسعار، ويأخذ عند وضع
الزرع مقدارا من النقود، وعند ما يبيع زرعه يرد المبلغ الذى أخذه، ويرد مع كل مائة
قرش صاغ أربعة قروش صاغ زائدة على المبلغ المأخوذ، وكل ذلك غير أجره الأرضية
والخفراء ؟

محمد متولى خليل

إمام وخطيب بمسجد ججرة الجديدة — قلايوية

الجواب

مذهب الحنفية أن القرض ما تعطيه من مثلى لتتقاضاه . واستيفاءه بأخذ مثل
ما أخذ المستقرض . واشتراط الزيادة على ما أخذ باطل فيلغو الشرط ، ويجب الأصل
فقط . ومنه يعلم حكم ما جاء فى الاستفتاء المرافق ، وهو أنه لا تجب الأربعة الزائدة على
المائة ، لأنها فضل خال عن عوض يقابله ولم تكن فى نظير عمل ، فيلغو اشتراط دفعها
ويحرم على المعطى أخذها ، فإن أخذها لا يملكها وعليه ردها ، والله أعلم .

عبد الحفيظ الدفتار الحنفى - حسين البيومى الحنفى

بكلية الشريعة الاسلامية

بيع الشجر

وورد :

هل يجوز بيع أشجار اللبان والمر والصمغ بأنواعه التي توجد بكثرة في بلاد الصومال ؟

لفيف من أعضاء

نادى الإصلاح الاسلامى العربى

فى النواهى — عدن

الجواب

الشجر إن كان فى أرض مملوكة لشخص يجوز بيعه ويبيع ثمره، وكذا أرضه. وأما الأشجار الموجودة فى الجبال فليست مملوكة لأحد، وثمارها وصمغها مباحة، وهى لمن سيقته يده إليها، كالسكّاء والماء والنار. ونفس الأشجار لا يصح الاستيلاء عليها لأنها من المنافع العامة كالطريق والبحار والأنهار.

قنديل قنديل — عبد السلام شرف
بكلية الشريعة الاسلامية

الابراء مما فى الذمة

وورد أيضا :

ما قولكم فى رجل سرق حلى زوجته للتخلص منها وقال لها: لا أعطيك هذا المصاغ إلا بعد البراءة مما فى ذمتى من معجل الصداق ومؤخره وما يترتب على ذلك، وعلى ذلك أبرأته مضطرة للحصول على حلبيها: فهل هذه البراءة تسقط مما فى ذمته لها، أم لها الحق فى مطالبته ؟

غزالى محمد عز الدين
أبو حماد — بحطيط

الجواب

مذهب الحنفية أن كل من له دين على آخر سواء كان حالا أو مؤجلا، وكان أهلا

للتصرف ، يصح إبراءه إياه من دينه ، وحينئذ يسقط الدين وتبطل المطالبة به ، لا فرق في ذلك بين أن يكون الإبراء عن اضطرار وعدمه « مع قبول المبرء »

ومنه يعلم حكم ما جاء في الاستفتاء المرافق « رجل سرق حلى زوجته للتخلص منها وقال لها لا أعطيك هذا المصاغ إلا بعد البراءة مما في ذمتي من معجل الصداق ومؤخره وما يترتب على ذلك وعلى ذلك أبرأته مضطرة للحصول على حليها » وهو أن الإبراء صحيح ويسقط حقها في المطالبة بمعجل الصداق ومؤخره . والله أعلم .

عبد الحفيظ الدفتار الحنفى — حسين البيومى الحنفى

بكلية الشريعة الاسلامية

حكم صلاة الجمعة قبل الزوال

ورود أيضا :

ما قولكم دام فضلكم في إمام مسجد أدى صلاة الجمعة بعد صلاة العيد صباحا قبل الزوال ، فحينما انتهى من صلاة العيد أمر بالأذان وخطب خطبة الجمعة وصلّاها ، زعماء منه أنه خشى من أهل قريته ترك صلاة الجمعة في هذا اليوم بالنسبة لاشتغالهم باللهو واللعب : فما الحكم في ذلك شرعا على المذاهب الأربعة حكما شاملا ومفصلا ، لأنه ربما يكون مطلعا على حكم في مذهب خلاف مذهب الإمام مالك ، لأننى أعلم أنه في مذهب الإمام مالك لا يجوز إلا بعد الزوال ، وكذا لا يوجد في هذا المذهب في صلاة جمع التقديم مثل ذلك ؟ هذا جد علمنا . والله أعلم .

على حسين حمودى لوفيه
عمدة قومية محطة معمل القزاز

الجواب

نعم هناك مذهب آخر معتبر ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، يقول بجواز صلاة

الجمعة قبل الزوال مطلقا، أى سواء أكان اليوم يوم عيد أم لا، وسواء أكان هناك ضرورة أم لا.

وتفصيل القول فى ذلك أن مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وجامهير العلماء من الصحابة والتابعين أنه لا تجوز صلاة الجمعة إلا بعد الزوال، فمن صلاها قبله بطلت جمعة. ومذهب الإمام أحمد وإسحاق أن أول وقت صلاة الجمعة هو أول وقت صلاة العيد، بمعنى أنه يصح فعلها من أول وقت حل النافلة حينما ترتفع الشمس قدر رح عن الأفق فى نظر العين ولو لم يكن اليوم يوم عيد، ولكن الأفضل فعلها بعد الزوال خروجاً من الخلاف. فإن كان اليوم يوم عيد فهناك مذهب ثالث، وهو جواز الترخص بترك الجمعة بتاتا كغناء بالعيد، وهذا المذهب اعطاء وجماعة.

الأدلة:

استدل الجمهور بما فى البخارى عن عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة حين تميل الشمس؛ وبما أخرجه مسلم عن سلمة بن الأكوع: كنا نجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زالت الشمس؛ وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث مصعب بن عمير الى المدينة (قبل الهجرة) قال له: إذا مالت الشمس فصل بالناس الجمعة. وقد جرى العمل على ذلك منذ السلف، حتى قال ابن العربى: الإجماع على أنها لا تجب حتى تزول الشمس إلا ما نقل عن أحمد.

واستدل الامام أحمد بما روى عن عبد الله بن سيدان السامى: شهدت الجمعة مع أبى بكر فكانت خطبته وصلاته قبل نصف النهار؛ ثم شهدتها مع عمر فكانت خطبته وصلاته الى أن أقول: قد انتصف النهار؛ ثم شهدتها مع عثمان فكانت خطبته وصلاته الى أن أقول: قد زال النهار، فمأرايت أحدا عاب ذلك ولا أنكره اه رواه الدارقطنى وأحمد واحتج به. واحتج أيضا بما أخرج ابن أبى شيبه من طريق عبد الله بن سلمة قال: صلى بنا عبد الله بن مسعود الجمعة ضحى وقال: خشيت عليكم الحر. ومن طريق

سميد ابن سويد قال : صلى بنا معاوية الجمعة ضحى . وكذلك روى عن جابر وسعيد ابن أبي وقاص وسعيد بن زيد ولم ينكر عليهم أحد فكان كالأجماع .

واستدل عطاء ومن معه بما أخرج النسائي عن وهب بن كيسان قال : اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير ، فأخر الخروج حتى تعالى النهار ، ثم خرج فخطب ، ثم نزل فصلى ولم يصل للناس يوم الجمعة . فذكرت ذلك لابن عباس فقال : أصاب السنة .

وروى أبو داود عن عطاء : اجتمع يوم الجمعة ويوم الفطر على عهد ابن الزبير فقال : عيدان اجتماع في يوم واحد ، فجمعهما جميعا فصلاهما ركعتين بكرة لم يزد عليهما حتى صلى العصر . وهذان الحديثان رجلهما رجال الصحيح .

وأخرج النسائي وأحمد والحاكم وأبو داود وابن ماجه عن زيد بن أرقم رضى الله عنه وسأله معاوية : هل شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيدين اجتماعا ؟ قال : نعم صلى العيد أول النهار ثم رخص في الجمعة فقال : من شاء أن يجمع فليجمع . وفي إسناده إياس بن أبي رملة وهو مجهول .

وروى أبو داود وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد اجتمع في يومكم هذا عيدان فمن شاء أجزأه من الجمعة وإننا مجمعون . وفي إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال ، ولكن صحيح أحمد والدرقطنى إرساله .

مناقشة الأدلة :

أما ما استدلل به الجمهور فنوقش بأنه لا يدل على مدعاهم وبطلان ما ذهب إليه الامام أحمد ، إذ الحديث الأول والثاني لا يدلان إلا على وقوع فعلها بعد الزوال ولا تعرض فيهما لعدم جوازها قبل الزوال . وأما حديث مصعب بن عمير فدلالته على ذلك موقوفة على ثبوت مفهوم المخالفة وهو غير مسلم به ، بل الحق عدمه كما حقق في الأصول ؛ وقد قال تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » السورة ، ولم يقل أحد إن التسبيح غير مأثور به

قبل ذلك . وأما قول ابن العربي : الإجماع على أنها لا تجب قبل الزوال ، فلا يخفى ما فيه ، إذ كيف يكون هناك إجماع ويخفى على أحمد ذلك الامام الجليل ، لأنه لو علم أن هناك إجماعا لما وسعه مخالفته . وقد علمت أنه قال بثبوت قول أحمد إسحاق بن راهويه ومكانته لا تخفى . وقد نقل أيضا عن بعض الصحابة كما سبق .

ونوقش ما استدلل به الامام أحمد : فقد قال البخارى : إن ابن سيدان لا يتابع على حديثه . وقال فى الميزان : ابن سيدان مجهول لا حجية فى حديثه . نعم إن صح ما نقل عن ابن مسعود ومعاوية وجابر وسعد وسعيد كان كافيا فى إثبات ما ذهب اليه الامام أحمد ، ولكن قال القاضى : إن ما روى من هذا لم يصح منه شيء ، إلا ما عليه الجمهور .

وبالجملة فهذه المسألة مسألة اجتهادية ظنية فيها مجال واسع للبحث والنظر والترجيح ، ودين الاسلام دين يسر لا عسر فيه ، وليس اختلاف الأئمة إلا رحمة بالأمة وتوسعة على عباد الله حتى لا يقعوا فى الحرج بالالتزام رأى واحد . وقد نص علماء الأصول على أنه يجوز لغير المجتهد أن يقلد أى إمام فى أى مسألة متى توفرت الشروط . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه بعد غزوة الخندق : لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدركت صلاة العصر اثنين من الصحابة فى الطريق فقال أحدهما : إن المراد الأمر بالإسراع ، وحمل الثانى النهى على ظاهره فلم يصل إلا فى بنى قريظة . فلما أخبرا النبى صلى الله عليه وسلم بذلك لم يعب واحدا منهما . وقد استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعله بأسرى بدر فأشار عمر بالشدة وأشار أبو بكر باللين ، فدح النبى صلى الله عليه وسلم كلا منهما ، وشبهه عمر بنوح عليه السلام حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » . وشبهه أبو بكر بإبراهيم عليه السلام حيث قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . والله أعلم .

الزكاة

لا زكاة على من لم يملك نصيباً ، ولا زكاة على مالك النصاب فيما لا يملك

وجاءنا هذا السؤال :

ما قولكم دام فضلكم في رجل استقرض مالا من إنسان وتاجر فيه ، وفي آخر الحول لم يتحصل غير ما صرفه على نفسه وعياله ورأس المال : فهل تجب عليه زكاة رأس المال والحال أن رأس المال للغير لا له ؟

وفيما إذا كان لديه رأس مال مائة جنيه واستقرض مائتين عليها ، وفي آخر الحول قوم تجارته فوجدها ثلاثمائة : فهل تجب عليه زكاة الذي له ، أو الذي له والذي عليه ؟
عبد القادر رضوان

الجواب

أما في الصورة الأولى فلا زكاة عليه أصلاً ، لأنه لا يملك شيئاً ، ولا زكاة على شخص ما لم يملك نصيباً .

وأما في الصورة الثانية فتجب عليه زكاة مائة جنيه فقط ، لأن هذا هو القدر الذي يملكه ، وأما المائتان فقد اقترضهما من الغير فلا زكاة عليه فيهما لأنه لا يملكهما ، ولا زكاة على شخص فيما لا يملك . والله أعلم

محمد عبد الله يوسف
مدرس بكلية الشريعة

وجوب مصاحبة الاخيار

أحسن ما قيل في وجوب مصاحبة الاخيار ومقاطعة الأشرار :
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتزدى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

فى فلسفة الأخلاق

صلة الأخلاق بالنفس الناطقة — أثرها فى المجتمع الإنسانى العام

ليس بين ما يفتقر اليه الإنسان فى توثيق صلاته بالخالق أولاً ثم بالخلق ثانياً ، وفى تعرف طرفى الوجود وتلمس أعلى مراتبه مقرونا بمظهره الصادق جهد الطاقة ، وفى بلوغه منازل المخلصين الداعين الى الله والدالين به عليه ، ما له أوثق اتصال بالنفوس من صناعة الأخلاق . والأخلاق كما يقول علماء النفس : حلقة الاتصال بين الإنسان ووجوده فى كل صورة من صور حياته . ولم تكن تلك الصناعة منذ عهد الخليفة بالتكاليف ، ومنذ تناجت العقول بالحقائق ، إلا حفاظاً وثيقاً للنفوس أن تعصف بها أعاصير الشهوات ، وحجاباً صفيقاً للغرائز الطيبة أن تستغويها أعراض الرئيات ، بما يلبسها من غاشيات الطبيعة . والأخلاق فى كل ما تصدر عنه تستمد وجودها وقوتها من العادة أولاً ، ثم من المزاج ثانياً ، ثم من ترويض النفوس وتدريبها على سلوك الطريق السوى ثالثاً . وعلى مقدار مسابقة الأخلاق للعادات والأمزجة ووسائل التهذيب ، تكون قيمة الأفعال الصادرة عن الإنسان . ووسائل التهذيب هى المناط فى واقع أمرها لإسعاد النفوس وتركيز الأخلاق الفاضلة . أما الأمزجة والعادات التى تصدر عنها الأفعال فى إحدى حالتها فهى خاضعة لناموس بقاء الأصلح ، وهذا الناموس قد ثبت أنه ساد الأنظمة الوضعية جميعاً ، لكن ليس على طريقة أصحاب مذهب النشوء والارتقاء ، بل على معنى أن العقول والنفوس الناطقة مضطرة لأن تأخذ بالأجدى عليها من صور الحياة . وهذا مصداق قوله سبحانه عز من قائل : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

قد تواضع علماء الأخلاق ، وخاصة المتقدمين منهم ، على أن النفس الناطقة من حيث ما يصدر عنها من الأفعال مردها الى قوى ثلاث .

فأولى هذه القوى هى التى يكون بها النظر فى النتائج مرتبطة بمقدماتها من حيث صحتها وفسادها، واستخراج المجهولات من المعلومات .

(وثانيتها) القوة التى تصدر عنها الثورة الغضبية أو الحمية والنجدة، والكلف بالظفر والغلبة، والاحتياط بصنوف الكرامة للأسر والعشائر والجماعات والأفراد، والإيمان بكل الوسائل الممكنة فى حب التسلط والقهر والإذعان لشهوة الانتقام .

(وثالثتها) القوة التى بها إنارة الشهوة فى صنوفها المتنوعة فى الماء كل والمشارب وما إليها من ألوان استمتاع الجوارح . ويجب أن تبقى هذه القوى الثلاث متكافئة لتبقى متعادلة، وإلازم عن عدم تكافئها طغيان بعضها على بعض . على أن جمهرة من علماء النفس عقبوا على تلك النظرية الأخيرة بما يتفق وقاعدة (تنازع البقاء) حتى فى الأمور المعنوية مما سنوفيه قسطا من البحث غير قليل فى سوانح أخرى .

ومما لا سبيل الى إنكاره أن لقوام الأخلق وملاكها فى مجموعها قوى ثلاثا، هذه القوى فى حقيقتها نسبية، فتكون مقولة بالتشكيك قوة وضعفا وقلة وكثرة بالقياس الى ما ترجع اليه هذه القوى الثلاث من المزاج والعادة والتهذيب، على ماذهب اليه الكثير من علماء النفس الأقدمين .

هذه القوة ذات آلات ثلاث يختلف بعضها عن بعض اختلافا قويا نظرا لما يترتب على كل واحدة منها من الآثار، فثلا نرى الدماغ والقلب والكبد فى مجموعتها الآلية أدوات مباشرة لتلك القوى الثلاث التى هى عماد الأخلق وملاكها وعدتها وذخرها . فالقوة الغضبية أو السبعية لها من البدن جند يطيعها ويستجيب دعاءها، وهى الجوارح . وللقوة الناطقة أداة تعينها على تحقيق مرادها، ويعبرون عنها بالقوة الملكية، تلك الأداة من الجسم هى الدماغ . كذلك للقوة الشهوية أو البهيمية آلة تدير شئونها وهى الكبد . وغنى عن البيان أن عدد الفضائل ينبغى أن يكون بحسب إعداد هذه القوى وتأثيرها بها . فتى كانت حركة النفس الناطقة فى سيرها معتدلة رشيدة شيقة الى تعرف

النظريات الصحيحة من أشكالها المنتجة ترود الأمور بوسائلها وتأخذ الأشياء بأسبابها، نشأت عنها فضيلة العلم، وتلزمها أيضا فضيلة الحكمة. ومتى كانت حركة النفس الشهوية معتدلة في سيرها منقادة الى تدابير النفس العاقلة غير متعاصية عليها ولا ممعنة في الإصغاء الى هواها، نشأت عنها فضيلة العفة، وتلزمها فضيلة السخاء.

وإذا كانت حركة النفس السبعية معتدلة مستقيمة لداعية النفس العاقلة، فلا تتبرم ولا تتسخط، ولا تشكو ولا تهيج في غير حينها، ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها، نشأت عنها فضيلة الحلم، وتلزمها أيضا فضيلة الشجاعة. ولهذه الفضائل الثلاث اللازمة عن تلك الفضائل التي نشأت عن القوى الثلاث فضيلة هي فضلى الفضائل، ومرمى كل نابل، وهي المثل الأعلى للإنسان الكامل، وأعنى بها فضيلة العدالة - لذلك لم يبدُ عجبا أن يطبق الحكماء على أن الفضائل أربع، وهي الأجناس العالية لما عداها من الفضائل. وقد أكثر الأخلاقيون من الاشادة بخصائص هذه الأجناس الأربعة وما ينطوى تحتها من الأنواع، ثم بسطوا أسنتهم بحثا واستقصاء في تعرف أنواع هذه الأجناس وامتدادها، وأمراض النفوس وعلاجاتها، حتى قال صاحب كتاب (الذريعة في مكارم الشريعة): إن النفس إذا استعصى عليها أن تجمع بين هذه الفضائل كان خليقا بصاحبها أن يكون كالشجرة الجرداء تعترض الناس في غدواتهم وروحاتهم، فلا هم يستمرون ثمارها، ولا هم يتفقيثون وارف ظلها. وفي الحق أن تلك الأجناس العالية هي مميزات الانسان الكامل كما هو حال الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ثم من بعدهم خلفاؤهم من العلماء المخلصين والهداة المرشدين. ولعل هذا مصداق قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: « تخلقوا بأخلاق الله ». فمن التخلق بأخلاق الله العمل بحجاب الله ومراضيه في الحياتين العاجلة والآجلة.

ومن هذه الناحية قالوا في تعريف الحكمة: إنها فضيلة النفس الناطقة المميزة، وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة، وأن تعلم الأمور اللاهوتية والناسوتية،

وأن تميز بها بعض المعقولات عن البعض الآخر : أيها يجب أن يفعل ، وأيها يجب أن يهمل . كذلك قالوا في تعريف العفة إنها فضيلة في الحس الشهواني . وأظهر مظاهر هذه الفضيلة في الانسان أن يستطيع بها الغل من غرب شهوته ، أو أن يصرفها على الأقل تصرفا مقترنا بالرأى الذى يصيب غالبا حتى يكون طليقا من أسر الشهوات غير متعبد لسلطانها ، وإلا كان كما قال قائلهم :

رب مستور سبته شهوته قد عرى من ستره وانتهسكا
صاحب الشهوة عبد فإذا ملك الشهوة أضحى ملكا

وإذاً فيكون الحد الناقص للشجاعة أنها فضيلة النفس السبعية . وأظهر مظاهرها في الانسان أيضا انقيادها للنفس العاقلة ، على معنى أن تلقى تلك الفضيلة في نفسه حسن تصرف الأمور في عزم وحزم ، وأن يستبسل في جسام الخطوب في الليالى الحوالك في رأى يكون أقرب الى الصواب منه الى الخطأ ، مع البصر بحسن العاقبة وخير المنقلب ، وإذا تكون العدالة مجتمعة الى تلك الفضائل رابعة الأربع .

الخلق :

خير الحدود وأحسنها ضبطا وأدناها استقصاء : أنه حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تشتمل ثلاثة أقسام ، خلافا لما ذهب اليه صاحب التهذيب (الامام احمد بن مسكويه) .

(أولها) ما هو طبيعى راجع الى الحالة التكوينية المزاج العصبي ، كالانسان الذى يحركه أدنى شئ ، نحو غضب ، وبهيجه أقل سبب . كالانسان الذى يتأثر من أيسر شئ ، كالذى يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه ، كالذى يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شئ يعجبه ، كالذى يغمم ويحزن من أيسر شئ يبدوله .
(ثانيها) ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقاً .

(ونأثها) ما يكون بتلقين الملقن وإرشاد المرشد عن تبصر وحسن روية . وهذا هو المدد الأكبر في رأى جمهرة الأخلاقيين ، لأن إصلاح النفوس وتقويمها في حاجة أبدا الى الإرشاد ، حتى تبقى وظيفة الكتب السماوية جليلة الأثرجة العبر ، وحتى تظل المواعظ الحسنة والحكم البالغة باقية على وجه الزمن .

أما اختلاف الأقدمين في تعريف الخلق ، وذهاب طائفة من أهل التصوف الى بعض الآراء التى تفردوا بها ، والمقارنة بينها وبين الآراء الحديثة والتعقيب على الضعيف منها ، فوعدنا بتبيان كل ذلك والكشف عنه العدد التالى ، إن شاء الله م

عباس ط

التلطف فى الاحاح

دخل دعبل على أمير فقال :

أصلح الله الأمير ! إني لا أقول كما قال صاحب معن :

بأى الخلتين عليك أثنى فانى عند منصرفى مسول
أبا الحسنى وليس لها ضياء على فمن يصدق ما أقول
أم الأخرى ولست لها باهل وأنت لكل مكرمة فعول
ولكننى أقول :

ماذا أقول إذا أتيت معاشرى صفرا يدى من عند أروم مجزل
إن قلت أعطانى كذبت وإن أقل ضن الأمير بما له لم يجمل
ولأنت أعلم بالمكارم والعلى من أن أقول فعلت ما لم تفعل
فاختر لنفسك ما أقول فانى لا بد مخبرهم وإن لم أسأل
فقال له الأمير : قاتلك الله ! وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الاسلام والعلوم الحديثة

الطب وصيام شهر رمضان

الأستاذ الدكتور الكبير عبدالعزيز اسماعيل من الأطباء الذين عرفوا بسعة الاطلاع وثقوب البصر في صناعة التطبيب ، حتى أصبح مرجعا يعول على رأيه فيما استعصى من العلل وأشكل من أعراضها ، وهو مع تخصصه في هذا الفن النافع ينظر في الدين ويتأمل في أسرارهِ ، ويعنى بالتوفيق بين قواعده ومقرراته والعلوم ، وبخاصة فيما يتصل منها بالصحة والوقاية من الأمراض . وقد كتب في ذلك مقالات كثيرة ممتعة نرى من واجبنا أن نقلها هنا تباعا ليطلع عليها القراء الذين يهمهم أن يتحققوا بالدليل أن القراءان الكريم لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما ينفع الناس في دينهم ودنياهم إلا أحصاها ، وأنه سبق العلوم الى تقرير حقائق اعتبر اكتشافها فتحا جديدا في المعارف الانسانية . ولم يقصر بحثه على ما يتعلق بالصحة والمرض فحسب ، ولكنه عرض لمواضيع أخرى مما يتصل بوجود الانسان وتقلبه في أدوار التكون ، وغير ذلك مما يطمح الى معرفته القارئون . كل ذلك في عبارات بيّنة ، ولغة صحيحة ، وتدليل متين .

فنشكر لحضرة الدكتور النطاسي خدمته للدين ، ونرجوه متابعتها بعلمه الواسع وتجاربه النيرة . والى القراء أولى مقالانه ، وهي تحت عنوان (الطب وصيام شهر رمضان) قال حفظه الله :

من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان ، وهو من أركان الاسلام ، مضرّة تلحق بالصائم ، لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب . وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا اليه ليس من الصيام في شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو

المدة النهار كله وقت الإفطار، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضعة لقعات لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبيا في حالات كثيرة، ووقاية من حالات أكثر، وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمها، وستظهر مع تقدم العلوم، رأيت من الواجب على أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر، وإيضاح آيات قرآنية لأبين معناها الذي لا يظهر إلا لمن بحث عنها في نور الطب الحديث، وسأبدأ بالصيام .

الصيام :

للصيام فوائد في ثلاث جهات : (أولها) وأهمها الجهة الروحية، وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم . و (ثانيها) الجهة الأخلاقية، وهذه أتركها لعلماء الأخلاق، ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعود الإنسان النظام والقناعة، وطاعة الرؤساء، والصبر وكبح شهوات النفس، وحب الخير والصدقة، وغير ذلك من الفضائل . و (ثالثها) وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية، وهي محل بحثنا :

لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى، وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة .
فللعلاج يستعمل في :

١ — اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية .
وهنا ينجح الصيام وخصوصا عدم شرب الماء بين الأكلتين، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان . ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ — زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة، فالصيام هنا أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام، والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ — زيادة الضغط الذاتي، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات

النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ — البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، إذ أن السكر بهبط مع قلة السمن ، وبهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات في أقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ — التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ — أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ — التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصا إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين . وقد شوهد حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى إرشاد طبيب في كل مرض على حدة ، والصيام الذى كُتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصا الأمراض التى مر ذكرها تحت أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٧ .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الانسان تدريجا بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد الى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبيا أن

الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جدا قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأميننا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض . وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت فى أوروبا أكثر من الأول . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليل جدا فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الاسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الاسلام ، وهو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه الى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

فائدة الجوع

قيل لبعض الحكماء : أى وقت الطعام فيه أفضل ؟ قال : أما لمن قدر فاذا جاع ، وأما لمن لم يقدر فاذا وجد .
وقال الشاعر :

وعادة الجوع فاعلم عصمة وغنى وقد يزيدك جوعا عادة الشبع
وقال العتبي : قلت لرجل من أهل البادية : يا أخى إني لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فقهاءنا ، وعوامكم أظرف من عوامنا ، ومجانينكم أظرف من مجانيننا !
قال : وما تدري لم ذاك ؟ قلت : لا ، قال : من الجوع ، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته خلج جوفه ؟

وأحسن من ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم : « حسب الانسان من الطعام لقيات يضمن صلبه » .

أسرار التشريع الإسلامى وفلسفته

بحث فى الطلاق

(ا) التشريع الجديد الذى جرى التطبيق عليه فى محاكم الأحوال الشخصية متأثرا بسنة التدرج والانتقال (ب) الطلاق وأسرار إباحته (ج) جعل القراق بيد الرجل والحكمة فيه (د) ما فى حكم الطلاق مما به حل عقدة النكاح وأسرار ذلك (هـ) الكشف عن بعض المذاهب الإسلامية التى جرى عليها تطبيق بعض أحكام قانون الأحوال الشخصية من غير مذهب أبى حنيفة فى العهد الأخير .

الطلاق وأسباب إباحته :

هى (أولا) عدم تعطيل النسل المرغوب فيه، المندوب اليه على الرجل والمرأة، لأن المرأة قد تكون عقيما أو آيسا والرجل فقيرا لا قدرة له على الجمع بين اثنتين، فان لم يستبدل لم يكن مستعدا لأداء النسل؛ ولأن الرجل قد يكون هو العقيم أو به ما يمنع الخلوة بها كالعنة، فإن لم يفارق المرأة ليختص بها سواه تعطل نسلها عليها وفات عليها استعدادها له .

و (ثانيا) رفع الحرج عن الزوجين، لأنه قد يتصف أحدهما بسوء، فى خلقه وفساد فى تربته أو ضعف فى دينه، أو يكون بينهما تخالف فى الطباع وتضاد فى المقاصد، فتتنافر القلوب وتكلف بالبغضاء، فينعدم التآلف وتنتفى الإدارة. والزوجية إن لم تتألف على المحبة أو تدعّم بالموافقة، تداعت أركانها وانهار بناؤها، وانعكس المقصود منها، فصار الضرر - لولا الطلاق - محققا، والفساد أمرا واقعا، لأن العداوة تظهر فى أقبح مظاهرها فلا يأمن كلاهما الآخر على نفسه، ولا يعامله بلطف واحتشام، فيصير العيش ذميا، والحياة مريرة، وتقع ذرايرهما وأعقابهما السيئة الحظ فى حيرة وارتباك، وبُعد عن أحد الجانبين

مع اقتراب من الآخر، فتضطر الى المخادعة والنفاق، والنش والتدليس، فيصير ذلك خلقا وسجية مألوفة، فتقبح نعوتها ويسوء منقلبها. ولقد رأينا من الأزواج من هجر وطنه وهو عزيز، ومن فارق دينه وهو أعز، ومن قتل نفسه ولا شيء يعدلها، ومن أودى بصاحبه وهو جناية كبرى، تخلصا من قرين السوء والحياة الذميمة.

تدبرمى ما هو واقع الآن من إيثار كثير من أبناء الديانات الأخرى الطلاق المدني على الطلاق الشرعي إشفافا من ترتب آثار الزوجية، وحذرا من الوقوع في أخطار يقدرها هؤلاء، أقلها حدوث تنافر بين الزوجين، ولا يجد كلاهما الى التخلص من ضرره سبيلا. ولهذا اضطرت دول الى الاعتراف بهذا الزواج المدني، وجعلته أصلا من أصول مدنيته وإن خالف أصول دينها. على أن شركة روتر البرقية نقلت إلينا في أول ديسمبر سنة ١٩١٩م أن الإحصاء الحكومي بالولايات المتحدة أبان أن المحاكم في العشرين سنة الأخيرة قضت بإجراء ألف ألف طلاق (كذا). فقارن بحقك بيننا وبين غيرنا، وانظر الى آثار رحمة الله بنا، واشكر مولاك على ما أولاك من هذه النعم الجزيلة والمنة الحقة.

(نالسا) إن جعل الطلاق بيد الرجل وحده يقرب من بقاء الزوجية، ويبعد من زوالها قدر الاستطاعة، لأن الرجل فضلا على المرأة، ولأنه كلف بالإنفاق وإيتاء الصداق، فهو لذلك لا يقدم على الفراق ما وجد للتأخر عنه سبيلا، بخلاف المرأة لأنها قليلة التثبت في الأمور، وكثيرة الاضطراب في الآراء، سريعة السير مع الأهواء، ضعيفة بطبيعتها عن احتمال المسكاره، تفرح وتحزن بأحقر الأسباب (وقد تقول ما نسמע من بعضهن: زوج زوج والصداق فائدة). فإذا جعل الطلاق بإرادتها انهار بناء الاجتماع متى وجد خصام وتلاح، وإن جعل بيد كل من الرجل والمرأة كان الأمر أقطع والفراق أسرع، لأن المرأة كما رأينا في معزل عن الأمور التي بها بقاء الزوجية، والرجل يعلم ذلك ويأنف أن يكون الفراق منها، وقد تكون مثله في تلك الأنفة، فإذا ما وجد شقاق بينهما يسمى كلاهما الظن بصاحبه، ويخشى أن يفارقه، فيبادر هو بالفراق فرارا مما أنف منه.

على أن جعل الفراق بيد الرجل خاصة إنما يكون إذا أراد الرجل أن يتنازل عن حقوقه قبل المرأة ويوفى بها جميع حقها . أما إذا أراد كلاهما حل عقد النكاح ، واستردت المرأة ما ملكه الرجل من اختصاصه بها ، واسترد الرجل كل أو بعض ما جعل لها من المال في مقابلة ذلك الاختصاص ، فإن هذا يتوقف على رضاها كسائر العقود . وقد وضع بعض حملة الدين حق الفراق بيد المرأة أيضا إن اشترط ذلك في عقد الزواج ، وجرى عليه الآن كثير من العقود ، فليس على من خافت من بعائها سوء العشرة ، وتمسكت بهذا الشرط من بأس .

لكن حدث - ملاءمةً لسير التطورات ، ومسايرةً لاشتي الاعتبارات المتولدة عن الوقائع والحادثات - أن تشريعا وضع سنة ١٩٢٠ بمرسوم قانون رقم ٢٥ ، هذا التشريع أخذ في بعض مواده من آراء فقهاء ليسوا من فقهاء الحنفية ، ولكنها مبادئ فقهية عميقة الأثر في متابعة سير الحوادث ومماشاة الظروف القاهرة ، فقد كثرت الشكوى من بقاء قيد النكاح في أيدي الأزواج ، يتلاعب بها شرارهم ، ويجعل الزوجية في نظر المستهترين متاعا يستمتع به ذوو الغايات ، وسبيلا الى الانتقام بشتى الوسائل ، فوضعت المادة التاسعة من القانون المذكور ، وهي تبيح للزوجة أن تطلب التفريق إذا وجدت عيبا مستمكنا لا يمكن البرء منه ، أو يمكن بعد زمن طويل ، ولا يمكنها المقام معه إلا بضرر ، كالجنون والجدام ، سواء أكان ذلك العيب بالزوج قبل العقد ولم تعلم به ، أم حدث بعد العقد ولم ترض به . ثم جاء قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فأباح للزوجة أن تطلب الى القاضى التطليق على الزوج في حالات يُثبت من المادة السادسة الى المادة الحادية عشرة من هذا القانون في حالة تعمد إضرار الزوج بها . ثم أباح لها أن تطلب الى القاضى التطليق على زوجها عند غيبته في شرائطها المبينة من المادة الثانية عشرة الى الرابعة عشرة من هذا القانون . ذلك لأن الطلاق شرع في الاسلام لمكين الاثنين من التخلص من رابطة الزوجية اذا تحقق أن المعاشرة بالمعروف وأداء

حقوق الزوجية مستحيلة البقاء . والشقاق بين الزوجين مشار لا ضرار كثيرة لا يقتصر ضررها على الزوجين فحسب ، بل يجاوزهما الى ما خلق الله بينهما من ذرية ، وإلى كل من له بهما علاقة قرابة أو مصاهرة . وليس في أحكام مذهب أبي حنيفة ما يمكن الزوجة من التخلص ، وما يرجع الزوج عن غيه ، فيحتال كل في إيذاء الآخر قصد الانتقام ، فتطالب الزوجة بالنفقة ولا غرض لها إلا إحراج الزوج وتغريمه المال ، ويطلب الزوج بالطاعة ولا غرض له إلا أن يتمكن من إسقاط نفقتها ، وأن تناهها يده فيوقع بها ما شاء من ضروب العسف والجور .

هذا فضلا عما يتولد عن ذلك من إشكال في تنفيذ حكم الطاعة وتنفيذ الحبس بحكم النفقة ، وما قد يؤدي الى استمرار الشقاق من الجرائم والأحكام ، فرأت وزارة الحاقية من أجل ذلك أن المصلحة تدعو الى الأخذ بمذهب الامام مالك رضى الله عنه في أحكام الشقاق بين الزوجين المنصوص عنه بسورة النساء .

التطبيق لنفية الزوج أو الحبس :

كذلك قد يغيب الزوج عن زوجته مدة طويلة بلا عذر مقبول : لطلب العلم ، أو للتجارة ، أو لانقطاع المواصلات ، ثم هو لا يحمل زوجته اليه ولا هو يطلقها لتتخذ لها زوجا غيره . ومقام الزوجة على هذه الحال زمنا طويلا مع محافظتها على العفة والشرف أمر لا تتحملة الطبيعة في الأعم الأغلب ، وإن ترك لها الزوج مالا تستطيع الإنفاق منه . وقد يقترب الزوج من الجرائم ما يستحق عقوبة السجن الطويل ، فتقع زوجته في مثل ما وقعت فيه زوجة الغائب . وليس في أحكام مذهب أبي حنيفة ما تعالج به هذه الحالة ، ومعالجتها واجب اجتماعي محتم . ومذهب الامام مالك يميز التطبيق على الغائب الذي يترك زوجته ما تنفق منه على نفسها إذا طالت غيبته سنة فأكثر وتضررت الزوجة من بعده عنها ، بعد أن يضرب القاضي له أجلا ويعذر اليه بأنه إما أن يعمل على الإقامة معها أو ينقلها اليه أو يطلقها وإلا طلقها عليه القاضي هذا إذا أمكن وصول الرسائل اليه ، وإلا فيطلق القاضي عليه بلا ضرب أجل وإعذار .

من أجل ذلك شرعت المواد ١٢، ١٣، ١٤ من القانون المذكور إنها، لذلك العذاب الذي كان في بدى الزوج قبل زوجته يرهقها به أنى شاء .

أما أن الطلاق في عدده الثلاثي لا يقع إلا طلاق واحدة، وأن المنجز منه والمضاف والمعلق لا يقع، فذلك ما نفرد له بحثا خاصا في العدد التالي، إن شاء الله .

ما يحل عقد الزواج غير الطلاق :

الذي يحل عقدة النكاح سوى الطلاق أربعة أشياء : الخلع، والظهار، واللعان، والإيلاء .

أما الخلع فهو أن يخالف الرجل امرأته على شئ من المال، وهو أمر تنفر منه المروءة ولا يحمده الشرع، لأن ما أخذته من المال استحقته بتسليم نفسها اليه، ولذا أنكر الله ذلك بقوله : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » . وإنما أجازته الشريعة دفعا للضرر ومنعا للخصومة، لأنه قد يخشى الزوجان ألا يراعى أحكام الزوجية، فتسأل المرأة زوجها الطلاق فتسمح به نفسه لما يرى من عدم الألفة ولكنها تشح بما أعطى، فإن لم تفتد نفسها بشئ من مالها، وقع الضرر وحصل الشقاق، ولذا قال تعالى : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها » .

وأما الظهار : فهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمي مثلا . وكان حكمه في الجاهلية تحريمها الأبدى مع إمساكها، ولذا جعله الرءوف الرحيم منكرا وزورا، قال تعالى : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا » . وإيضاح هذين الوصفين أنه منكر لما فيه من التضيق والإساءة لمن أمر بالإحسان إليها، فإنها تحرم من التمتع بما تتمتع به الأزواج ولا نصير به أيمًا تملك أمر نفسها، وأنه زور لأنه إما أن يكون خبرا أو إنشاء، فإن كان خبرا كان كذبا صراحا إذ لا تشابه بينها وبين أمه حتى يطلق

اسم إحداهما على الأخرى ؛ وإن كان إنشاءً كان عقدا ضارا لم تلاحظ فيه مصاحبة ، ولم يقرره شارع ، ولا استنبطه حكيم .

لما تقدم رحم الله هذه الأمة وقضى بما أوضحه في قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلکم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » . وسر ذلك قسمان : سر المؤاخذة على هذا القول ، وسر جعل الكفارة ما علمت . أما سر المؤاخذة عليه فهو أن المظاهر ألزم نفسه بما لم يلزمه به أحد ، وصير ظهاره بمنزلة القسم ، فلم يتجاوز الله عن عمله بالكيفية ، ولكنه أحسن إليه فدفع عنه حرج الجاهلية . ولم يجعل التحريم عليه مؤبداً بل صيره مؤقتا يزول بالكفارة ، فإن الكفارات إنما شرعت لدفع الأثمة وتخليص المكلف لما يجده في نفسه من التأثم . وأما السر في جعل الكفارة ما علمت في الآية فهو أن يلزم فيها أن تكون خالصة من الوقوع فيما جعلت حدا عنه ، تأمل قوله تعالى : « ذلکم توعظون به » . ولا يكون كذلك إلا إذا كانت طاعة شاققة تشح النفس بها إن كانت مالية ، وتعاني فيها آلاما إن كانت بدنية .

وأما اللعان فهو أن يقسم من قذف زوجته بالزنا ليدفع عن نفسه حد القذف ، وتقسم هي على كذبه لتندراً عنها حد الزنا ، وقد كان شأن الجاهلية في الرجوع الى السكهان ، فنفي الإسلام ذلك لأمرين : (أحدهما) أن من أصوله هجر السكانة ونبد الميل إليها . (ثانيهما) أن الرجوع إليهم فيه ضرر عظيم لعدم القطع بصدقهم ؛ ومنع من أن يعامل الزوج معاملة الأجنبي فيكلف بأربعة شهداء أو يقام عليه الحد لسببين : (الأول) أن الزوج مجبول على الغيرة على ما في عصمته من التزام عليها ، وأنه مكلف شرعا بالحفاظ على حرمة من العار ، وعلى نسبه من الاختلاط . (الثاني) تعسر إثبات الزنا مع علمه بحال أهله وعدم قدرته على إسرار مثل هذا وكتامه ، فإن الزنا إنما يكون في خلوة ، ومعرفة الرجل

بأهله لا تضارعهما معرفة أجنبي بأجنبية حتماً ، وصبره على كتمان فجورها لا يطاق له ، قال الله تعالى في كتابه العزيز « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » . وسر ذلك أن شهاداته أقسام مؤكدة لدفع حد القذف الذي كان يقع لو لم تكن الملائعة ، وأن شهادتها تدرأ عنها حد الزنا الذي كان يصيبها لو لم تأت بها ، وقد قضت السنة بالفراق المؤبد بين من حالتهما كذلك . وسر هذا شيئان :

(الأول) أن صدر كليهما من حال صاحبه وما حصل من التهمة والقذف وإشاعة الفاحشة والملائعة امتلاً وحرًا ووعراً يميلان المودة والوفاء حراماً يستوجب العقوبة الحادة ، ويقضيان على مصالحيهما المشتركة التي كان من أجلها النكاح على هذا الوجه .

و (الثاني) زجر الزوجين وتحذيرهما من الوقوع في مثل هذه المعاملة السيئة العاقبة . وأما الإيلاء فهو أن يألو الرجل من امرأته أبداً أو مدة طويلة . وهذا عدوان بين وإجحاف جاهلي ، جعل الشرع له حداً محدوداً ، قال تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » . والسر في تعيين أربعة أشهر أمران : أولهما أن النفوس تتوق فيها للمباشرة قطعاً ولا تحتتمل البعد عنها فوق هذه المدة ، والعنف مدعو إليه مرغوب فيه . وثانيهما أن هذه المدة ثلث السنة ، وثلث الشيء يضبط به ما قل عن نصفه ، ونصف السنة كثير لا تحتتمل النفوس الصبر فيه على ما ذكرنا .

عباس طه
المحامي الشرعي

تكریم فضيلة الاستاذ الاكبر

لم يشهد الأزهريون يوما أغرّ محجلا كالיום الذي شهدوه بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأکبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخا للأزهر . ولم يشعر المسلمون فى بقاع الأرض كافة ، عند تقليد أى شيخ مشيخة الأزهر ، بمثل ما شعروا به من الارتياح والتفاؤل عند تقليد فضيلة الأستاذ الامام الحالى مشيخته الجليلة . فكان الناس قاطبة قد ألهموا أن هذا اليوم هو الحد الفاصل بين عهدين ، وأنه فاتحة حياة جديدة للإسلام تسرى فى جميع مظان الانتعاش من الأُمِّ الآخذة به ، فتدفعها فى طريقه السوى المعبد ، وتأخذ بيدها الى الغايات البعيدة من خيرى الدنيا والدين معا ، فتسترد مجدا تليدا ، وتستقبل عهدا من النهوض جديدا .

وكان الجوانح لم تطق حبس هذا الشعور الفياض فى سويداوات القلوب ، فبرز يتطلب مظهرا ماديا ، فتولدت فكرة الاحتفال بتكریم فضيلة الأستاذ الأکبر فى يوم مشهود ، وما هى إلا فترة مضت فى اتخاذ الأُهب لا قامته ، حتى شهدنا منظرا يأخذ باللب جلالا وروعة ، فشهدنا الناس فى مختلف طبقاتهم ، لا الأزهريين وحدهم ، يتدافعون ألوفاً ألوفاً بالمناكب مسرعين الى مكان الاحتفال قبل موعده بساعات . ولما اكتمل حشدُهم ، وانتظم عقدهم ، بدأ الاحتفال بقراءة آيات من الكتاب الكريم ، وما أتم القارئ قراءته حتى تحولت الأبصار الى منبر الخطابة ، فتعاقب الخطباء والشعراء عليه ، فلا أقول : فأخذت سيمول اللسن والبيان تتدفق نثرا وشعرا ، ولكنى أقول : فسرعت تيارات الشعور تنبجس من الصدور فتغمر الحاضرين ، ثم تسرى فى عالم الأثير الى كل دار وناد ، وتمخطى مصر الى العالم الاسلامى كله فى كل صقع ، وكانت أصوات الهتاف بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول معيد مجد الأزهر ، ثم لفضيلة الامام

المراغى، ترن في كل مكان . فلم يكن الاحتفال على هذا الوجه قاصرا على ألوف المجتمعين ، ولكنه شمل عشرات الملايين في مصر وخارجها ، فشارك المائتين فيه كل من يهتم بعظمة الاسلام في كل مكان يسرى تيار اللامسكى فيه .

فما رأينا احتفالا أخذ حظه منه الطفل الناعم في مهده ، والغاية المخدرة في عقر دارها ، والشيخ الفاني في محرابه ، قبل هذا الاحتفال الذي نصفه اليوم .

على أننا نلاحظ في هذا الاحتفال التكريمى الذى اكتسب صبغة عالمية ، معنى أدق وأسمى مما يدل عليه اسمه . ذلك أن المسلمين قاطبة قد أدركوا مما كتبه بعض كبار العقول في أوروبا ، وما قام به كثير من أهل الثقافة الحديثة في مصر وغيرها ، أن الاسلام أسس أكبر إمبراطورية في العالم ، وأقام على أنقاض المدينيات التى كانت آخذة في الانقراض مدنية فاضلة يتفق فيها العقل والعاطفة ، وتتآخى فيها مطالب الأرواح والأجساد ، وإنه لا يزال على ما كان عليه : فيه شفاء للأحاد والجماعات ، وبين دفتى كتابه قوة معنوية لا حد لها يمكن توجيهها لإزالة الداء العضال ، واستعادة المجد المضاع ، قلنا : أدرك المسلمون هذا منذ عشرات من السنين على درجات متفاوتة من التفصيل ، فأحبوا أن يروا المنقطعين لدراسة هذا الدين في طليعة الداعين لهذا العهد الذهبى للاسلام والمسلمين ، في عبارات تتفق وما ألفه المعاصرون ، وبأدلة مستمدة من لباب العلوم الحديثة ، وصفوة بحوثه المستفيضة . وكانوا يحملون كل هذه المطالب في عبارة وجوب إصلاح الأزهر ، وهم بطبيعة الحال لا يريدون من إصلاحه أن تنظم دروسه ، وأن ترتب حصصه ، ولا أن يشيد بنيانه ، ويوسع مكانه ، ولكنهم يريدون أن يدخل طلبة في دور التطور العقلى الذى دخل فيه الناس كافة ، وأن يدرسوا ما يدرسه أمثالهم من طلاب الجامعات الكبرى ، مادام الاسلام لا يضع للعلم حدا ، ولا يرسم لتطور العقل دائرة ، وما دام يدعو الآخذين به لأن يكونوا في طليعة العالم كله تأثرا بناموس الارتقاء ، وتصيدا للأحسن من كل شئ .

هذه كانت أمنية المسلمين في الأزهر بمصر وغيرها من الأقطار الإسلامية منذ عشرات السنين ، وقد كتبت جرائدكم فيها ما لا يحصى من المقالات ، حفظ الله فضل البدء في الإصلاح المرجو للمصلح السكبير المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكن روح التجديد لم تكن قد تولدت في البيئة الأزهرية ، فلم يسر إصلاحه بالسرعة المتعنة ، ولكنه لم يقف ، حتى انتهينا الى هذا العهد ، عهد اللاسلكي والأشعة الكونية والمستكشفات الحيرة للألباب ، فشعرت النفوس بحاجة ماسة للتجديد ، وخاصة في معقد آمال المسلمين من الناحية الروحية وهو الأزهر ، فكانت الضرورة قاضية بأن يتولاه رجل جمع الى العلم الغزير روح التجديد المتوثبة التي تمثل الاسلام بمعناه الصحيح ، ويعرف مقتضيات الزمان والمكان ليتقى القواطع والعوائير ، وأشعرت النفوس أن هذه الصفات كلها تتوافر في أخص تلاميذ الشيخ محمد عبده وهو الامام المراغي ، ورأى جلالة الملك حفظه الله ذلك ، فأسند اليه مشيخة الأزهر ، فانطلقت الألسن بالدعاء لجلالته ، واحتف الناس بزعيم التجديد يظهر له ما تكنه قلوبهم من حب ، وما تحيى به صدورهم من سرور ، فكان هذا الاحتفال الذي لم يسبق له مثيل .

ووالله ما أجمع الناس على حب الإمام المراغي وأطبقوا على التوله به الى هذا الحد إلا وهو لذلك أهل وبه قين ، فإن الله إذا أحب عبداً من عباده ألهم الناس حبه ، ثم لم يزل يؤيده ويحقق ظنون الناس فيه حتى يؤدي ما ندبه له من العمل العظيم .

ومجلة نور الاسلام تشارك الناس كافة في تقديرهم لفضيلة الأستاذ الأكبر ، وترى من واجبه تدين أكثر ما ألقى في ذلك اليوم المشهود من خطب بليغة ممتعة ، وما أنشد من قصائد بديعة موفقة ، تخليداً لها على الدهر ، راجية الله أن يمد في عمر الأستاذ الإمام لينعم بشمرة جهاده الكريم .

(ما قيل من الخطب والقصائد في ذلك الاحتفال)

بعد ما أتم قارئ الكتاب الكريم قراءته ، وقف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ورئيس لجنة الاحتفال فقال :

مضرات اصحاب السمو ، مضرات اصحاب الدولة والمعالى ، مضرات السادة :

أحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم أصدق الشكر على تلييتكم دعوتنا ، فبرهنتم بذلك على ما للأزهر من المنزلة الرفيعة في نفوسكم ، والمكانة السامية في قلوبكم ، وضاعفتم معنى التكریم الذى أرادہ الأزهيون لشيخهم من إقامة هذه الحفلة الكبرى ، إذ أعلنتم بهذا الاشتراك أن مقام المشيخة الإسلامية الذى يرقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى هو هو مقام الرياسة الدينية العظمى الذى يحيطه المصريون بمظاهر الاحترام والإجلال ، ويتوجه اليه المسلمون في شئون دينهم بأسمى الآمال ، كما يدل اشتراككم على أن مصر ممثلة في صفوة أولى الرأى من رجالها ، تعرف ما للأستاذ المراغى من أيداء يبضء على التعليم الدينى ، وجهود بارزة في سبيل إصلاح المعاهد الدينية وإعلاء شأنها . وإني باسم الأزهر وباسم لجنة الاحتفال التى شرفتني برياستها أرحب بكم ، وأحي من قلبى تلك الرابطة الوثيقة التى تربط الأزهر بهذا الوطن العزيز ، وبالعالم الإسلامى أجمع ، وأحي هذا الشعور النبيل الذى يتجلى نحو هذا المعهد الدينى الأكبر في جميع المناسبات .

مضرات السادة :

أنشئ الجامع الأزهر من نحو ألف عام ، وتاريخه في هذا الزمن الطويل يكاد يكون تاريخ الحياة العلمية والدينية والاجتماعية لمصر ولأسائر بلاد العام الإسلامى . إذ كان هو مصدر العلوم ومقر الدراسات لهذه البلاد جميعها ، ثم طرأت بعد ذلك طوارئ كان من أثرها هذا التحول في الحياة العامة وفي أساليب التعليم واتجاهاته ، وزخر تيار هذه الاتجاهات الجديدة وزاحت الأزهر بمالها من قوة الشئ الجديد ، وكاد الأزهر وسط هذا التطور العام ينفصل عن البيئة المصرية ، وتصبح تعاليمه السمحة مقصورة على رجاله ، وأوشك بفعل الزمن أن يصير وطننا مستقلا في قلب هذا الوطن ، وكادت فائدته تخفى على بعض الناس ، وشعر الأزهيون أنفسهم أنهم يتعدون عن شعب مهمتهم

الكبرى إرشاده وهدايته ، وينفصلون عن مجتمع عملهم في الحياة تهذيبه وثقيفه ، وإذ ذاك لاحت بارقة أمل خلال جهود المصلحين في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . ثم جاء عصر جلالة مولانا الملك المعظم ، فتوجهت عنايته السامية الى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية إصلاحا شاملا ، فوضعت له الأنظمة واللوائح الحالية ، وقسمت الدراسات العالية فيه على كليات تقوم كل واحدة منها بنوع من الدراسات الإسلامية والعربية ، على نمط جامعي خشي معه بعض الناس أن يتحول الأزهر عن تقاليده ومميزاته الى نظام المدارس المدنية ، لكنهم ما لبثوا أن شهدوا معجزة الأزهر تبرز أمام العيون واضحة جليلة ، فإذا العلوم والفنون الأزهرية التي استقرت في كتبنا القديمة تتحول الى دراسات عصرية منظمة محتفظة ، بطابع الأزهر في دقة البحث ، وعمق التحليل ، وإذا أساتذة العلوم المستحدثة في النظام الجديد المنتدبون لذلك من الجامعة المصرية والمدارس العالية يلقون محاضراتهم المختلفة في كلياته بجانب شيوخه ، وإذا عقول الطلاب تتسع للجديد الطريف وللقديم العتيق في ثوبه الجديد ، وبهذا أخذ الأزهر يسترد زعامته الأدبية والعلمية بعد أن نافسته معاهد استمدت حياتها منه .

وللأستاذ المراغى في تأسيس هذا النظام عظيم الفضل ، ولجهوده كبير الأثر في تكوينه .

أيها السادة :

أترك لحضرات الخطباء والشعراء بعدى تفصيل الكلام على فضل الأستاذ الأكبر وجيل أعماله ، وأختم كلمتي بالتوجه الى الله تعالى بالحمد والثناء على توفيقه وجميل رعايته ، وأضرع اليه جل شأنه أن يهب الأستاذ الأكبر التوفيق في عمله ، ويرزقه السداد والحزم في رأيه ، ليحقق بالأزهر وفي الأزهر ما ينشده العالم الاسلامي من إصلاح ، بفضل ما يسديه جلالة الملك المفدى من رعاية ، ويخص به الأزهر من عطف وعناية .

أدام الله جلالة الملك ذخرا للوطن العزيز ممتعا بالصحة الكاملة، وأبقاه حاميا للعلم والدين، وأقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب أمير الصعيد، أمين مـ

* *

جلال مشيخة الأزهر والأستاذ الأكبر

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المبجل الشيخ على سرور الزنكلوني المدرس بكلية أصول الدين فقال :

سادتي :

الأزهر كما تحدث عنه التاريخ، وكما تصورناه حين رحلنا اليه في نعومة الأظفار، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم، ويحجون اليه لطلب العلم، هو هذه الشخصية الكبرى البارزة في العالم، والتي ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين، والتي عاشت ألف سنة إلا قليلا وهي تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء في التاريخ، ولولا سر الله الخفي لتلاشى، فهو الذي حفظه، ولا يزال يحفظه ويحدد مجده الى اليوم .

إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذي تحيا عليه علوم الاسلام والقرءان، وهي أسس ما تستكمل به النفس الانسانية قواها . والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصا لله وحده . فإذا أملت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فله فيه نصيب كبير : دينه، وعلومه . وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون اليه بنية صادقة ليتفقهوا في دين الله ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون، لله فيه النصيب الأوفر، والله غيور على دينه، وعلى وحيه، وعلى هذا الشباب الغض الذي يجب الخير ولا يريد إلا الخير . ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر وثباته على كثرة ما نزل به من أحداث وغيره .

سادنى :

ماهى مشيخة الأ زهر ؟ لا أريد أن أتعرض الى مشيخة الأ زهر بالنظر الى ما ورثته عن العواصم الاسلامية من خلافة العلم والدين ، ولا الى ما قامت به من جلائل الأعمال فى عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة فى وجوه الظالمين ، فذلك للتاريخ وحده ، ولكنى أتحدث عنها الآن بالنظر الى طبيعتها ، الى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد .

إن مشيخة الأ زهر لهى القوة الدينية الكبرى ، التى تقوم بمعونة الأساتذة والطلاب على حراسة الدين وإحياء تعاليمه ، فإذا فكّر العقل تفكيراً مستقيماً ولم يلتفت الى زخارف الحياة الكاذبة ، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا فى كنف هذه الرعاية السامية ، لأن شرف الأشياء بشرف غاياتها ، ومشيخة الأ زهر تقوم على حراسة ما به تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ووظيفة الرسل إذا أدت على وجهها فكلها خير ، وكلها سعادة .

الى أن قال فضيلته :

أما الأستاذ الأ كبر فيكنى تكريم الله له ، فقد عرفه الناس عزيزاً مكرماً ، وتولى مشيخة الأ زهر للمرة الأولى وفارقها وهو أعز وأكرم . واليوم نجيبه مشيخة الأ زهر على قدر ، وهو يزداد عند الله وعند الناس وجاهة وجلالا . وإذا جاز فى عرف الأمم التكريم على ما يكون منحة من الله وفضلا ، فإننى أكرم أستاذنا المرافق مع المكرمين داعياً له وللأمة المصرية بالتوفيق والسداد .

وإنى قبل أن أبارح مكاني هذا أبتهل الى الله تعالى ، وأرجو أن تبتهلوا معى بقلب خالص ، أن يحفظ لنا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ويؤيد ملكه ويتم شفاءه ، وأن يجعل لنا من سمو ولى عهده الرجل الشعبى الموفق ، وأن يحقق الله بهما وبالشعب المصرى لمصر الآمال

ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ سليمان نوار المفتش بالمعاهد الدينية وأنشد هذه القصيدة :

تولت صروف الدهر واعتذر الدهر
فمالك لا تشدو وشدوك ساحر
ومثلك صداح إذا انكشف الدجى
أصداحة الدنيا للملحن صوتها
تنبيهه أمام العين غرنا به
نعم سطعت في الكون آى محمد
وسارت مع الأرواح شرقاً ومغرباً
وسارت بأمر الله والله عالم
مفاخر لم أحسد عليها محمداً
ولكن وحب المجد ملء جوانحي
أحب لنفسى أن تكون كما جد
وما الفخر بالأموال والمال زائل
ألا إن أخلاقاً أقامت مناراً
أمعجزة الأيام ما الشعر بالغ
فحدث عن الأسرار في فلك النهى
فأمرك غيب لا يزال محجبا
رويدك لم أبعد أنا ابن عقائد
لعمر الشعور الحى إن محمداً
إذا كان في أفق المعاهد طالعا
وكف جموح القول عن جمحاته

وعادت الى الاسلام أيامه الفـر
وحولك ما يهنا به الطائر الحـر
ومثلك من غنى لصدحته الطير
مكانك فوق الدوح قد طلع الفجر
تبارى شمع الشمس آياتها الزهر
وأعجزت الأقوام أعماله النضر
فما ردها بر وما عاقها بحر
فقر بها الاسلام وارتمد الكفر
فليس لمثل ذلك الخلق النكر
وليس لنفسى عن تطلبه صبر
تتبه به العليا ويحتفل الدهر
وكم ناله وغد وكم حازه غـر
تردد آيات المراغى هى الفخر
مداك وإن أوفى على الفلك الشعر
وخفف قلن يقوى على فهمك الفكر
وسرك أمر دونه السر والجهر
يجيش بها صدرى فيدفعها الصدر
عجيبة عصر حار فى أمرها العصر
سما شأنها والقدر يسمو به القدر
وأثنى عليها راغما وله العذر

تسير به الأعمال سير كواكب
إذا ما ظنون البر والفضل حومت
إذا ما ظنون الشر أرجف أهلها
هو الروح يسرى في المعاهد كلها
فللعدل بعث ناشط في ربوعها
يقولون قانون نظام إدارة
ألا إنما القانون دين وعفة
وقانوننا والحمد لله محكم
وليس سوى رأى المراعى وحكمه
دعونا لك للجلى وأنت كفيها
فسر ورضاء الله ربى لك الأجر

أضاءت بها الآفاق وانتظم السير
عليه رأيت الظن يسبقه البر
فسرعان ما يحو ظنونهم الخير
فتسرى بمسراه الزاهية والطهر
وللعلم والأخلاق في ساحها نشر
لوائح، ما هذا الباب، بل القشر
وعززة نفس لا يوهنها قسر
ولا يقبل التعديل من نصه سطر
وحكم المراعى العدل والرفق واليسر
فسر ورضاء الله ربى لك الأجر



رسالة الأزهر

ثم نهض حضرة الأستاذ المفضل صالح هاشم وكيل كلية اللغة العربية فألقى
هذه الكلمة :

مضرات السادة :

إننا حين نتحدث عن رسالة الأزهر إلى العالم نعتبرها بحق تفسيراً صادقاً لما اشتملت
عليه الدعوة الإسلامية التي فتح الوحي بأغراضها السامية تاريخ الإسلام . قد نهض بها
رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثها خلفاء من بعده، وظهرت مع طلائع الغزاة من
أبطال المسلمين على شواطئ البحار وفي أقاصى الأقاليم، وحملها المصلحون من صدور
السلف إلى الناس بمثل ما ابتدأت به : من التذرع بالإقناع، والتنزه عن الإكراه في الدين،
وتهيئة الاستعدادات البشرية للانتفاع بما تضمنته تلك الثقافة العليا لتعاليم الإسلام ،

من أدق أساليب الحكمة، وأفضل أوزان النظام والعدل، حتى أظل الناس رواق السلام، واستقرت كلمة التوحيد في أذن العالم.

وظلت هذه الدعوة الإسلامية تفتح أفعال القلوب وتغزو فلول الشبهات الباقية في عقائد البشر، حتى إذا استبحر العمران وتناثرت أطراف الخلافة، وتسرب إليها كثير من السلالات الدخيلة، وتحكمت العناصر الأجنبية في مقاليد الأمور، بطلت النخوة، وهنت الحمية الدينية، وتحللت الوثائق الواشجة في الدولة، وظهرت الفرق المختلفة، وتراخت عزائم القائمين بالبلاغ من حملة هذه الرسالة.

وهناك في أواسط القرن الرابع الهجري، وفي مواجهة هذه المشاكل المهددة لكيان ذلك البنيان الضخم من مجد الإسلام، دخل الفاطميون مصر، وبني الجامع الأزهر، ووضع بذلك أساس أول جامعة دينية كبرى في الشرق بأسره، بل في العالم أجمع، وما هو إلا أن مضت طفولته مع الزمن حتى شخصت إليه الأبصار، واستشرف المشفقون من أهل الملة نحوه بالرجاء، وترامت بركبائهم إلى رحابه مسالك الأمصار والبلدان، وأقبل المسلمون ينفرون إليه من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ويومئذ اضطلع الأزهر وحده بهذه الرسالة، وانتهت إليه هذه الوصاية الدينية، فاستقل ببلاغها، وألبس الداعين إليها من رجاله وتلاميذه ثوباً سابغاً من المهابة، وملاً صدور العالمين من الثقة بهم والتوقير لمسكاتهم إلى ما لا مطلب بعده ولا مستزاد معه، حتى صار الانتساب إليه عنواناً على الدين، وطريقاً إلى الرضا، ووسيلة إلى المنزلة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وحج إلى كعبته طلاب العلم من أقطار العالم، وتولى قيادة النهضتين الدينية والعلمية في المشرقين، وحفته عناية الملوك والسلاطين، ومضى ذكره مع مدار الشمس إلى الآفاق، والتمعت من جوانبه أشعة الهداية الربانية لمحاسن التأويل والتبصير

بمخارج السنة، والاحتفاظ بأثار الأوائل من أهل الفقه وحماة الملة، وأخذ هداية من كبار العلماء مكانهم من تاريخ العمران الاسلامى .

ولقد كان من عجائب ما ذكره الله فى علمه القديم من الصون لهذه الرسالة الأزهرية أن جعل ما نزل بالأمة الاسلامية من الكوارث مجدداً لشباب هذه الجامعة، وفتحاً لأبواب أخرى من الحياة فيها، فتلكم غارة التتار على بغداد وقد قطعت أوصال البلاد، وفتكت بكل مصون من ذخائر الأمة الاسلامية، قد جعلت جموع العلماء من كل مكان تنساب الى الأزهر، وهاجر كثير من كرائم العشائر الى القاهرة، ولجأ أصحاب المواهب والصناعات العلمية الى البلاد المصرية، فاحتفظت القاهرة بعد قليل بما كان متفرقاً فى الحواضر الاسلامية من ثقافة ومدنية وعلم. والأزهر قائم يدافع عن أركان الملة تهجم الملاحدة والمغوين من دخلاء الأمم، ويتجرد المصلحون من علمائه لتنقية جوانب الشريعة المحمدية من ابتداع أهل الزيغ وتدسيس الحشوة من المنافقين والمأجورين، ويصون لغة القرآن أن تذهب بها رطانات الغالبين وتودى بها أحداث الزمن، وأبلغ الأزهر فى أداء هذه الرسالة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم والتقرير لدقائق محاسنها والكشف عن أسرار مطابقتها لأرقى ما يتطلبه الاجتماع البشرى من الإصلاح الى حد جعل الفاتحين القاهرين من الكفار يعتنقون ديانة المقيورين، كما فعل جماعات من الأتراك إبّان دخولهم مصر. فكان ذلكم من أعظم مظاهر الانتصارات الخالدة للرسالة الاسلامية، التى يتقلد الأزهر ولايتها، ويحمل ما تعاضم طوائف المسلمين فى العالم من بلاغها .

والآن وهذه الجامعة الأزهرية تدخل فى دور جديد من التحول الإصلاحي، وتتهياً لمسيرة النشاط الحديث من المدينيات العصرية، وتنهض لا لبلاغ رسالتها الى العالم بأسره لا الى المسلمين وحدهم على نسق متجانس من الثقافة العالمية، الآن

يرتقب عن كسب خطوات هذه الجامعة فيما أعدد لها من مناهج ، وينتظر بين الغبطة والشماتة ما مستصل اليه من نجاح .

ترون حضراتكم أن العبء ثقیل ، وأن التبعة غليظة فادحة . ترون أيها السادة أن الأمر جد يتطلب العزم الصارم ، والخطوة الحازمة ، والجهود المتساندة ، والثورة العنيفة على ما عسى أن يكون باقيا من الجمول العقلي والانسكال على أحلام العاجزين ، فإننا مقبلون على امتحان لا ينفق في سوقه الزيف ، ولا تنفع معه الحيل ، ولا تقبل فيه إلا شفاعاة الإخلاص لدين الله ، والبر برسوله ، والمحاماة عن شريعته ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وإني ليسرني أن أنوه عن الاغتباط والتفاؤل بهذا العهد الجديد ، الذي يتولى قيادة الثقافة الإسلامية فيه ذلكم الامام المصلح الكبير ، الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى ، الذي يعتبر بحق مؤسس هذه النهضة الحاضرة ، وحارس بنيانها الراسخ ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، الذى تزدهر هذه الجامعة الأزهرية فى عهده بعصرها الذهبى . أيد الله ملكه وحرس أريكته ، وأقر عين جلالته وأعين رعيته بولى عهده المحبوب أمير الصعيد الأمير فاروق ، أبقاه الله !



ثم علا المنبر حضرة صاحب الفضيلة الشاعر الألمعى الشيخ عبد الجواد رمضان
فأنشد هذه القصيدة :

دَعَوْا بِاسْمِكَ الْآمَالُ فَهِيَ بِوَأْسَمُ	وَبَلَّوْا بِهِ الْأَرْوَاحُ وَهِيَ حَوَائِمُ
دَجَالِيْلُهُمْ حَتَّى إِذَا لَحَتْ أَصْبَحُوا	وَأَنْفُ الدِّيَاجِي وَالْحَوَادِثُ رَاغِمُ
هُوَ الدِّينُ ، فَادْعُ عَرْشَهُ بِعَزِيْمَةٍ	فَقَدْ وَهَنْتُ أَرْكَانَهُ وَالِدَعَائِمُ
وَمَا الْأَزْهَرُ الْمَعْمُورُ إِلَّا مَنَارُهُ	وَلَا أَهْلُهُ الْأَدْنَوْنَ إِلَّا الْعِمَامُ

مطالع يمن للزمان وأهله بها تسعد الدنيا وتدنو العظام

* *

فيا رجل الاسلام أدرك رجاله فقد أنكرتهم في الحياة المكارم
وفيهم ، بحمد الله ، غر أزاهر وفيهم بحار في العلوم خضارم
إذا عالجوا كانوا الشفاء وإن دعوا الى رد باغ فالذرا والمقدام
وكم لهمو - في الله - غر مواقف تنشق ربابها القرى والعواصم

* *

أولئك أجناد إذا جد جدّهم سمت بهمو للفرقدين العزائم
إذا ما المراغي قام تحت لوائهم فقد زارت في الغاب تلك الضياغم
فتى فتيّة الشرق الأولى تنجلي بهم غياهم ، والشرق بالخطب غائم
وصارم هذا الدين دين محمد وقد أسلمته في الجلالد الصوارم
فمن مبلغ أفناء يثرب أننا سلمنا ، على أن ليس في الناس سالم
وأن الذي شاد النبي محمد على حفظه شيخ المراغة قائم
تبوأ عرش الدين فاهتز ركنه وطاولت الجوزاء منه القوائم
وأمت شعوب الشرق نشوى قريرة تسام في تكريمه وتراجيم
قصاراه أن يدعو بها عمرية ترد وجوه الشرك وهي سوام
إذا ائتلفت في مصر أضواء شمسها سعت في هداها للكمال العوالم

* *

فؤاد ، أعز الله راية ملكه توالت على الاسلام منه مغنم
أحل علاه في ذرا متمنع فعاد اليه مجده المتقدم
فبورك مولى كل تاريخه حل فوشانيه مكروب وراجيه غانم
ولا زال للفاروق بسمة شارق على ثغره من طابع الملك خاتم

كلمة الطلبة

ثم قام حضرة الطالب الغيور الأستاذ الشيخ احمد حسن الباقوري فألقى هذه الخطبة:
مضرات أصحاب السمر، مضرات أصحاب الدولة والمعالى، أيتها السادة، مرحباً
بالاستاذ الاكبر:

أعريف أن الناس حين يحتشدون لتكریم عظیم راعهم منه ما دفعهم الى تكریمه
وتمجيدہ، إنما يحاولون أن ينتزعوا ما يبحش في صدورهم، وتنطوي عليه نفوسهم
من حب له وإعجاب به واطمئنان إليه، وأن يصوروا ذلك كله صورة صادقة كلها
إطراءً وثناءً.

ولكن شباب الأزهر بحكم خضوعهم لميزات الشباب، لا تعرف عواطفهم حداً
تقف عنده، ولا مشاعرهم غاية تنتهي إليها، فهم لذلك عاجزون عن تجلية ما يغمر
نفوسهم من غبطة بمآل الأزهر، ويعمر قلوبهم من حب للأستاذ الأکبر. بل إنهم
لأغنياً عن تجلية عاطفة وإظهار غبطة، بعد أن أرسلوه هتافاً مدوياً ملاً سمع الدهر،
وشمل جوانب الدنيا، فاهتزت له حتى جدران الحصون.

لا نقول إذن في هذا الحفل الحاشد ليطلع الناس منا على حب صادق، وسرور شامل
وولاء عظیم، فذلك ما تشهد له الحوادث، وتنطق به الوقائع، وذلك ما سيرويه الزمن
ويتحدث عنه التاريخ.

ولكننا ننهزها فرصة طالما تمنيناها فتأبّت، لنشهد الأمة ممثلة في عظامائها
وزعمائها وذوى الرأي فيها، أن شباب الأزهر لم يضطرب اضطراب البرى، تهافتا على
مستقبل ناعم، ولا إيثارا لعرض زائل. ولكنهم الوفاء لله ولدينه وللإنسانية، دفعهم
الى تقدير مهمتهم، وتعرف واجبهم، والاتصال بأمتهم، وقد كانوا اقتطعوا من هذه
الأمة وهم قطعة منها، وأبعدوا أو كادوا يبعدون عن نعمة دين الله وهم حماة هذا

الدين الكريم . فبهوایهم علیهم جلال غرسته فیهم العزة الاسلامیة ، ونشأتهم علیہ التریبة الأزهریة ، ثم هتفوا بالأستاذ المراغی رمزا للأزهر لاشیخا للأزهر فحسب . فالأستاذ المراغی فی رأینا — نحن شباب الأزهر — مبدءاً ترسله الحیاة فی منطقها عزیزا ، وتردده الدنیا فی حدیثها شایخا ، وتستشرف له النفوس البارة المخلصة ، لأنه أشده العقل ، بل غاية الانسانیة ، بل أمل الشریعة وهتاف الدین .

وإنها لأول ظاهرة رائعة تجلی فیها ذلك المبدء المقدس ، تلك الصیحة الحازمة تنزع الی إحياء الخلق من موت ساحق ، وترمی الی تطهیر الاسلام من هوی ضال .

صیحة ابتعثها الشیخ العظیم فی دستوره الهادی الوقور ، تحمل أسمى ما یدتغی المخلصون للأزهر من عزة ومنعة ، فاهتز لها المنبر ، ووعاها الحشد للتهلل ، ومشت بها الآمال الشهیة ، تتدافع فی القلوب غبطة ، وتترأى علی الوجوه بشراً ، وتشرق علی الأفواه بسمات ، یسمو معناها علی الشعر ، ویتأبی علی الخیال .

لقد شاء الله أن یدفع بالأمل الباسم ، فی أعقاب الیأس الحاطم ، وأن یرفعه عن نفوس كان قد لج بها الحزن الباکی ، وحطمها الألم العنیف ، فاستیقظت فیها الثقة ، وعاودها الايمان بأن الأزهر سوف یتصل بالحیاة أنبل الاتصال وأكمله ، یقاوم فی المجتمع الانسانی الشر ویصطلم منه الفساد ، ثم یشره بما فی الاسلام من سمو وطهر ، وعدالة وإقناع ، ومن ذلك یمهدیه الی حیث یستروح من دستور الله عزیزا ، وشرعته منیعة ، کل ما یستشرف له من مجد وسودد وكمال .

لعل فی الناس من یفهم الإصلاح معنی تستجیب به متع الدنیا ، ومظهرها تخف الیه لذائد الحیاة ، ولكن الشباب الأزهری الطامح لا یراه إلا تمکینا من فهم الاسلام روحا ساریا فی النفوس ، لا لفظا جاریا علی الشفاه ، حتی یتسنى له أن یؤدی رسالته كما یرید الأزهر ، وعلى ما یحب الله . فهو لذلك یقدر المصلحین ویهتف بهم ، ویدافع عنهم دفاعه عما قد ارتفع الی مکان العقيدة من نفسه .

يا صاحب الفضيلة :

هذه قلوبنا، بل هذه أرواحنا، تستبق عهدك عهدا جريئا بريئا، لا يحفزنا اليه إلا إخلاصُ لله، وإنصافُ للأزهر، ووفاءُ للإنسانية .

وإنا لنشهد الله ورسوله والمؤمنين على أن شباب الأزهر أول من يسلمك قياده راضيا، لتوجهه وجهه الخير والصلاح؛ وأول من يلبي دعوتك فينصر الخلق ويسوس الروح سياسة حكيمة حازمة، وأول من سيخلص للعلم ليبقى العلم عزيزا، وبحيا للأزهر ليستقبل الأزهر ألف عام أخرى، يفخر به الوطن العزيز، ويفزع اليه الشرق المهبض، ويعتز به الاسلام المفدى .

وفقمك الله، وسدد في سبيل الخير والاصلاح خطاكم؛ كما نضرع الى الله أن يحفظ جلالة ملك البلاد، وأن يقر عينيه بسمو ولي عهده المحبوب أمير الصعيد !

* *

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الشاعر المطبوع الشيخ محمد الأسمر فأنشد هذه القصيدة :

أين المعز الفاطمي وجوهر	بريان كيف اليوم صار الأزهر
عادت الى العمور روعة مجده	مما أقام رجاله والأعصر
وتلا لأت شمس الهدى في أفقه	فجلت محاسنه التي لا تنكر
من بعد ما خفيت معالمها بدت	حتى ليصرها الذي لا يبصر
والليل يغشى الكائنات فلا ترى	وتلوح في كنف الصباح وتظهر

* *

الأزهريون الغداة تفيثوا	لله نعمته التي لا تكفر
أحمد العقبي طلعت عليهم	حلمايرى رأى العيان وينظر
فتدققوا بحرا يعب عابه	من كل ناحية يجيش ويزخر
وظللت أسأل صاحبي متحيرا	ومن الحقيقة ما يرى فيحير

هل عاد (نابليون) عودة ظافر
 أو أنه (كسرى) وذا نـيروزه
 وسكنت ثم سمعت أصوات المنى
 وتقول : لا كسرى ولا أمثاله
 فشككت ثم نظرت نظرة فاحص
 وإذا الجلالة والمهابة منظر
 وإذا الهداية والرعاية كلاهما
 فاعرورقت عيني وأسبل دمعها
 واهالها أمنية قد حققت
 إجماع كل المسلمين ورغبة
 فقدمت أيمن مقدم وأجله
 وطلعت في أفق الحوادث كوكبا
 ورجعت دارك كرة أخرى وما
 ومشى بنوها في ركابك كلهم
 وتدافعوا كي يحملوك ورائهم
 هل جاءهم من قبل ذلك أنه
 مال الكواهل والبحار رويدكم
 خلوا الطريق لمن سيجمل عنكم
 ولن سيجعلكم رجالا مثله
 ولن لديه قلوبكم وعقولكم
 ولن يصوغكم نفوسا حرة
 ولن إذا بعض الحوادث أجلبت
 يلقى العواصف وهو أظهر ما يرى
 أو عاد من غزواته الا سكندر
 أو أنه ملك للممالك قيصر
 تدعو بأحسن ما سمعت وتجهز
 بل ذلكم شيخ الشيوخ الاكبر
 فإذا القوام السمهرى الأسمـر
 وإذا السباحة والوداعة مخـبر
 والمصلح المترقب المستنظر
 ومن السرور مدامع تتحدر
 ورؤى رأيناها فجئت تعبر
 ظلت بها كل المدائن تجار
 حتى لأصبح وهو ذكر يؤثر
 للغيث أعقبه السحاب الممطر
 أحلى مذاق الحلو وهو مكرر
 متهل متفائل مستبشر
 ما أبصروا من الجلال فشمروا
 حملت على بعض الكواهل أبحر
 خلوا الطريق لموجها لانفمروا
 أعباءكم ويحوطكم ويدبر
 والشبل يقتل ساعديه القصور
 يحلوها كما يشع الجوهر
 تتغير الدنيا ولا تتغير
 وإني يدافع عنكم ويزجر
 لا خائف حذر ولا متستر

أغنته عن حيل الضعيف عزيمة
والليث أبرز ما يكون مصاولا
(شيخ الشيوخ) ولا أزيدك بعدها
وأرى صغیر النفس إن يعثر به
فانهض بعبئك يا محمد إنه
واجعل بطانتك الكرام فانهم
وهم شذا لكم وهم نفحاتكم
ولكل كون كائنات مثله
الزهر فوق الروض زاه يانع
ولكل كون بعد ذاك لسانه
فاليوم من لغة الظلام وفي الضحى

* *

شيخ الشيوخ جرى القريض لغاية
فاعذر فلست بمن تفنيه قصيدة
أحيا بك الله الشريعة بعد ما
وحيت كعبته بمصر وصنيتها
لله بيت فوق مكة قائم
والأزهر المعمور روض مونق
أنت الرئيس له وأنت به أب
ماذا يقول الشعر فيك وما عسى
أعمالك البيضاء أكبر شاعر
وأرى اجتماع اليوم خير قصيدة

فيها المجلى في السباق مقصر
حق الثناء وإن مثلك يعذر
ظلت معاهدها خلاء تصفر
وسهرت حولها تشيد وتعمر
والأزهر المعمور بيت آخر
فيه يمينك نهـره المتفجر
حذب يطوف على بنيه ويسهر
يجرى به قلم البليغ ويسطر
يثنى عليك فما يقول الأسمر
الدهر منشدها ومصر النبر

خطبة فضيلة الأستاذ الأكبر

ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وسط عاصفة من الهمس والصفيق فألقى هذه الخطبة الجامعة التي تعتبر في ذاتها دستوراً علمياً سيقوم عليه الأزهري فيحقق الآمال فيه :

مضرات السادة الأعزاء :

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من السكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم ، وأشكر لخصرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم ، وعاطفة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلهم ، في شعرهم ونثرهم ، ولخصرات المدعويين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم .

ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنت لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف ، واعتبارها كلها موجهة الى الأزهري الشريف ، الذي تجلونه جميعاً ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الإسلامية في مصر وغيرها من البلاد .

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم ، فقد دل بالإشارة والتبع على معانٍ أسمى من غرض التكريم .

دل على أن الأزهري خرج عن عزلته التي طال أمدها ، ونهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملابساتها ، وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد . وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكري ، الذي نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن في الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها .

ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهري ، وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين . ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا

كتاب الهداية في الفلسفة في داره، على شرط أن نكتب الأمر لثلاثتهم الناس وبتهمونا بالزيف والزندقة. والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة، وتدرس الملل والنحل، وتقارن الديانات، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية.

ومن الحق أيها السادة علينا ألا ننسى في هذه المناسبة - والحديث حديث الأزهري والأزهريين - ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدى به في حياة الأزهري العامة، ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه. ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها، وصاح بالناس بذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق. ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ. ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده، قدس الله روحه وطيب ثراه! وقد مر على وفاته ثلاثون حولاً كاملة، ومن الوفاء بعد مضي هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهري، أن نجعل لذكره المكان الأول في هذا الحفل، فهو مشرق النور، وباعث الحياة، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظلم، والدوحة المباركة التي نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير.

الأزهري كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التي يدرس فيها الدين الإسلامي الذي أوجد أمماً من العدم، وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة، وكان له هذا الأثر الضخم في الأرض، فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية يمدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا في أدائها. وإنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه، وأجادوا معرفة لغته، وفهموا روح الاجتماع، واستعانوا بمعارف الماضين ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين أصوله وفروعه، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم، وتمكنهم من نشر الثقافة

الاسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية . هذا كله يحتاج الى جهود تتوافر عليه ،
والى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعاليم ، ويحتاج الى العزم والتصميم
على طي مراحل السير في هدوء ونظام ، وجد وصدق نية ، وكمال توجه الى الله ، وحب
للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

والمسلمين في الأزهر آمال من الحق أن يتنبه أهله لها :

أولاً - تعليم الأئمة الاسلامية المتأخرة في المعارف ، وهدايتها الى أصول الدين ،
والى فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة الفقه الاسلامي وتاريخ الاسلام ورجاله ، وقد كثر
تطلع هذه الأئمة الى الأزهر في هذه الأيام ، وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات ، واشتد
طلبها لعلماء الأزهر يرحلون اليها لأداء أمانة الدين ، وهي بيانه ونشره .

ثانياً - إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ،
وهي مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات . وقد حاول العلماء كشفها
فنقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية ، وعرضوا نتائج بعضها صحيح ، وكثير منها غير صادق .
وعذرم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة ، على أن بعضها متصل بالآخر كما
هو الحال في دراسة الأزهر . فإذا وفق الله أهل الأزهر الى التعمق في دراسة هذه
المجموعة دراسة قديمة وحديثة ، ودراسة المعارف المرتبطة بها ، وأتقنوا طرق العرض
الحديثة ، أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضاً صحيحاً صادقاً بلغة يفهمها أهل العصر
الحديث ، وإذا ذلك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والمضى ، ويطلعون العالم
على ما يهر الأنظار من آثار الأقدمين . وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى
أشرت اليه هو الذى يرجى لتحقيق هذا الأمل ، وأنه مدخر لأبنائه ، إن شاء الله .

ثالثاً - عرض الاسلام على الأئمة غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب نقي خال من
الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه ، ومن الفروض المتكيفة التى يأبأها
الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعاً — العمل على إزالة الفروق المذهبية، أو تضيق شقة الخلاف بينها، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق. ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى أسباب الخلاف، ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي، تتهدى الى الحق في أكثر الأوقات، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها، فحششت أهلها وخلفت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا تركز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا في الأصول والفروع، وتنتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين، وتنتج عنه سخف، مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح: إن ولد الشافعي كف، لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العائث وطول الاحي، حتى إن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسمى لإنشاء مساجد خاصة.

من الخير والحق أن تتدارك هذا، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقديم لما فيها من هداية ودعوة الى الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربّه، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشاً باشاً للحق، مستعداً لقبوله، عاطفاً على إخوانه في الانسانية، كارهاً للبغضاء والشحناء بين المسلمين. قد أنهم بأني تخيلت نخلت. ولا أبالي بهذه التهمة في سبيل رسم الحدود ولفت النظر اليها، وفضل الله واسع، وقدرته شاملة، وما ذلك على الله بعزيز.

الآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين في الأزهر، ترون أيها السادة أن العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل، فإنه في حاجة الى العون الصادق من كل من يقدر على العون: إما بالمال، أو بالعقل، أو بالمعارف والتجارب. وكل شيء يبذل في طريق تحقيق هذه الآمال هين إذا أنت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة.

ابها السادة :

أكرر لكم شكرى ، وأبعث من هذا المكان وفى هذا الجمع المبارك تحية الأزهري الى العالم الاسلامى ، والى دور العلم ومعاهده . وأنشرف برفع ولاء الأزهري الى مقام حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرش مصر الملك فؤاد الأول ، وصاحب الفضل العميم فى الأزهري فى العصر الحديث . أدام الله عزه ، ومتع جلالته بالصحة التامة والتوفيق الدائم ، وأقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد ولى العهد المحبوب . والسلام عليكم ورحمة الله .

أداء الحق مع رعاية الادب^(١)

عن ثؤلوة خادم الرشيد قال : جرى بين الرشيد و بنت عمه زبيدة كلام ، فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء ، فاختلفوا . فكتب الى البلدان فاستحضر علماءها اليه . فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا ، وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد ، قال : فسأله ، قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدنيني أمير المؤمنين ، فأدناه . قال : أتكلم على الأمان ؟ قال نعم . فأمر باحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فافرقها ، ففعل . فلما انتهى الى قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان» ، قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . فاشتد ذلك على هارون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك . فقال والله ، حتى فرغ من اليمين . قال : قل إنى أخاف مقام ربى . فقال ذلك . فقال يا أمير المؤمنين : فهى جنتان وليست بجنة واحدة . قال فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له بأقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرما .

(١) من كتاب أخلاق العلماء ، تأليف صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا .

أقول : هذا تصرف عال من جمال العلم روعى فيه الحق والأدب معا ، ترى الليث عرف وجه الفتوى وهو أن الطلاق لا يقع إذا كان الرشيد من يخاف مقام ربه ، ورأى في نفسه أنه لا يبيع لها أن يطلق الفتوى على علاتها حتى يتوثق من الشرط وهو خوف الله تعالى ، ويكون هذا بتحليف الرشيد حتى تطمئن نفس الامام الى أن فتواه صادفت حقا ، فصرف من في مجلس الخليفة حتى لا يكون تحايفه بمرأى منهم ، ولا تأخذ الرشيد نفسه كما قد همت حين أراد تحليفه لو لم يذكره بشرطه عليه أن له الامان منه حتى سكن . ثم لم تكن فتوى الامام خلجة نفس بل من القراء ان نفسه ، ولذلك أقرأه المصحف حتى آية : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فاطمان بذلك الرشيد وعرف أنه يمك حرمه على حل صحيح بنص قاطع من كلام الله . وهذه موهبة الحق في غالب أحوالها لا تنفك عن حسن الأدب عند من عقل وعرف .

قال يحيى بن عبد الصمد : خوصم موسى الهادى أمير المؤمنين الى أبى يوسف فى بستانه . فكان الحكم فى الظاهر لأمر المؤمنين ، وكان الامر على خلاف ذلك . فقال أمير المؤمنين لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى يتنازع إليك فيه ؟ قال : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق . فقال له موسى : وترى ذلك ؟ قال قد كان ابن ابى ليلي يراه . قال : فاردد البستان عليه .

أقول : وهذا أيضا ذوق خالص من القاضى أبى يوسف : عرف كيف يصل بالحق الذى رآه الى صاحبه من غير أن يحرج صاحب الدعوى الذى قامت له البينة وأظهر القضاء فى جانبه . وجاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان تضحيتهم :

جاء أصحاب الحديث الى الاعمش يوما ليسمعوا عليه ، فخرج إليهم . وقال : لولا أن فى منزلى من هو أبغض الى منكم ما خرجت إليكم .

وخرج سفيان بن عيينة المحدث الورع يوما الى من جاءه يسمع منه ، وهو ضجر ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس هو أبأ سعيد الخدرى ، وجالست عمرو بن دينار وجالس هو ابن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهرى وجالس هو أنس بن مالك حتى عد جماعة ، ثم أنا أجالسكم ؟ فقال له حدث فى المجلس : أنتصف يا أبأ محمد ؟ قال إن شاء الله تعالى . فقال : والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشد من شقائق بنا فأتطرق وأنشد قول أبى نواس :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

إيماء السالم من ألجم فاه بلجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاجة الحدث . وكان ذلك المحدث يحيى بن أكنم التميمى ، فقال سفيان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء ، يعنى السلاطين .

وقد صدقت فراسته ، فتولى يحيى قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ، ثم ترقى حتى ولاه المأمون قضاء القضاة وتدير أهل مملكته .

وعن علي بن حرملة التيمي عن أبي يوسف ، قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال ، فجاء أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فأنصرفت معه . فقال : يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة ، فإن أبا حنيفة خبزه مشوى ، وأنت تحتاج الى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي . فتفقدي أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجاسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدي . فجلست فلما أنصرف الناس دفع الى صرة ، وقال استمتع بهذه . فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، فقال لي الزم الحلقة وإذا نقدت هذه فاعلمني ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ثم كان يتعاهدني . وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت .

وجاء تحت عنوان أمانتهم :

كان ابن عمر يقول : إذا أخطأ العالم أن يقول : لا أدري ، فقد أصيبت مقالة .
عن يحيى بن سعد قال : سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر عن شيء فلم يكن عنده جواب . فقلت إني لأعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى يسأل عن شيء لا يكون عندك منه علم . فقال : أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بغير علم ، أو أحدث عن غير ثقة .

مطبوعات جديدة

من أخلاق العلماء :

هذا اسم كتاب طريف وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا . وزيد من كلمة طريف أنه لم ينسج على منواله ، فقد ألم فيه بذكر أربعمائة عالم ، وأثبت لكل منهم أحسن ما أثر عنه من الفضائل ، جاء الكتاب على هذا النمط أطروفة علمية أدبية جمعت في نحو ٣٥٠ صفحة ما تشئت في ألوف من الصفحات لا تتسنى قراءتها لعالم أو أديب ، وإن تسنت عز عليه أن يجمعها بين دفتي كتاب واحد مبوبة مرتبة يرجع إليها في أي وقت أراد . فاستحق بذلك فضيلة القاضي الكبير شكرا لا ينفد من العلماء والأدباء . جزاه الله عن العلم خير ما يجزي به أوليائه .

الاسلام والتجديد في مصر :

هذا كتاب وضعه الدكتور تشارلس آدمس الامريكى وقدم له حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ النابه الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، ونقله الى العربية حضرة الالمى الاستاذ عباس محمود أحد خريجي قسم الفلسفة من كلية الآداب بالجامعة المصرية . هذا الكتاب يدور حول إيراد تاريخ الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده باعتبار أنه واضع أساس التجديد الدينى فى مصر ، ويذكر جبهة العلماء والكتاب الذين يعتبرون جارين على جادته ، ومتوسمين آثار خطته ، فهو كتاب حافل بالمعلومات عن حركة التجديد العصرية ، مما لا يجوز أن يغفل الاطلاع عليه كل باحث فى الدين ، أو معنى بتاريخ نهضته الراهنة .

التجديد فى طرق الخطابة والوعظ الدينى :

هذه رسالة وضعها صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد على ملوك من وعظ وزارة الاوقاف عنى فيها بإيراد أكثر من مائة خطبة على طريقة التجديد التى يتطلبها المصلحون للخطب المنبرية من وجوب صوغ المواعظ فى قالب يألفه أهل العصر الحاضر ، وإعبارات خالية من السجع والتعقيد تؤثر فى نفوسهم . فنلفت نظر وزارة الاوقاف الى هذه الرسالة ، فانها معنية اليوم بمشروع يرمى الى هذا الغرض الشريف .

أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام :

هذه رسالة فذة فى نوعها وضعها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العامل بعلمه الشيخ طنطاوى جوهرى ، أتى فيها الاستاذ على فلسفته فى الحياة الاجتماعية للانسان ، وبسط آراءه فى الاصول والمبادئ التى يجب أن يتبعها الناس للوصول الى السلام العام والسعادة الحقة . وهذه الرسالة كجميع مؤلفات الاستاذ ملاءم بالافكار العميقة ، والنظرات البعيدة ، وحافلة بالوسائل التى يراها مؤدية بالأمر الى كمالها المنشود جسما وروحا .

أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم :

لصاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد حسين النجار منشئ المدرسة الاسلامية بأسبوط رسائل كثيرة فى المواضيع الاسلامية . والتى نحن بصدد تقريرها واحدة منها ، جمع فيها طائفة كبيرة من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، كتبها بلغة عصرية طلية تجذب القارئ للمطالعة . فنرجو

أن تعم رسالته جميع المدارس ، وتكثر في أيدي المدرسين وغيرهم ممن يعنون بالاقتداء بخاتم النبيين ليصلوا الى الكمال على طريقته المثلى .

الفاروق عمر بن الخطاب :

هذه رسالة في سيرة أمير المؤمنين الفاروق كتبها في لغة فصيحة وبأسلوب قيم حضرة الاستاذ دياب عثمان العرابي أحد خريجي دارالعلوم . وقد جعل إهداءها لحضرة صاحب السمو الملكي أمير الصعيد . فنشكر لحضرة المؤلف هذا الصنع الجميل ، فقد أتحف بحبي السيرة العمرية بمجموعة من تاريخ الفاروق لا يجدونها في غير هذه الرسالة .

محاسن الاسلام :

هذه رسالة كتبها الكاتبة الايطالية الدكتورة لورا فيتشا فاليري وعربها حضرة الاستاذ الفاضل طه فوزي افندي من موظفي محكمة الاستئناف بمصر . طالعنا هذه الرسالة فوجدنا حضرة الكاتبة الفاضلة قد أنصفت المسامين بما كتبه عن دينهم عن علم واطلاع . وإن مجرد سرد أبواب الرسالة يكفي في بيان غرضها منها . فاليك : محاسن الاسلام . سرعة انتشار الاسلام من صنع الحكمة الالهية . بساطة العقيدة الاسلامية . حكمة شعائر الاسلام . سمو الآداب الاسلامية وأثرها . الاسلام والمدنية . التصوف في الاسلام . الاسلام في علاقاته مع العلم . فشكرا للباحثة الفاضلة وشكرا للمعرب الغيور .

تيسير المنفعة بكتاب مفتاح كنوز السنة :

يذكر القراء أننا أئمتنا هنا بذكر كتاب للمستشرق الدكتور فنسك جعله فهرستا عاما للاهتداء الى الاحاديث النبوية الواردة في أربعة عشر كتابا من كتب السنة بحسب موضوعاتها ، وذكرنا أن حضرة الاستاذ الفاضل محمد افندي فؤاد عبد الباقي قد قام بترجمته . واليوم نقول : إن حضرة المترجم الفاضل رأى أن يضع لسكل كتاب من الكتب التي ليس فيها أبواب فهرستا خاصا يجعل لسكل منها فيه أرقاما مسلسلة مطابقة للأرقام التي وضعها لها المؤلف . وقد أصدر فهرستين منهما عن صحيح البخاري وجامع الترمذي ، فنشكر لحضرة المترجم الفاضل جهده . ونتمنى أن يثيبه عليه ثواب العاملين .

Correction of page 20.

CHAPTER 30.

On Islām being a religion whose burden is light ; and the words of the Prophet (Allah bless him and give him peace) : (The religion most acceptable unto Allah is the Hanifite ⁽¹⁾ Faith, whose burden is light.)

We are informed by Abd-us-Salam b. Mutahhar, who had it from Umar b. ‘Aly, through Ma‘n b. Muhammad Al Ghifari, through Sa‘id b. Abu Sa‘id Al-Maqburi, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allah bless him and give him peace) . who said :

Truly Islam is a religion whose burden is light, for no one can be too rigorous in the practice of it, without being overcome by it . Therefore be ye upright and moderate, and hope for your reward. Call to your aid the early morning and the evening prayers, and also some prayer in the night.

بَابُ الدِّينِ يُسْرٌ وَقَوْلُ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْهَنْفِيَّةُ السَّمْحَةُ :

حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ مُطَهَّرٍ قَالَ

حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ مَعْنُ بْنِ مُحَمَّدٍ

الْغِفَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَكِنْ يُشَادُّ

الدِّينَ أَحَدُهُ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدَّدُوا

وَقَارَبُوا وَأَبْشَرُوا وَاسْتَعِينُوا

بِالْعَزَاوَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ

الدُّلْجَةِ ،

(1) The Arabic حنيفية implies the Islamic faith, as originally revealed to Abraham ^{حنف} is literally “ to incline, ” and so refers to Abraham’s inclination to the truth, and his avoidance of error . (Ibn Hajar)

of Bani Sa'd b. Bakr .”

(Related also by Mûsa and ʿAli b. ʿAbdul-Hamid, through Sulaimân, through Thâbit, through Anas, from the Prophet (Allah bless him and give him peace) to this effect).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

اللَّهُمَّ نَعَمْ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ ،
وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَأَيْتُ مِنْ قَوْمِي ، وَأَنَا
ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ
بَكْرِ .

رواه موسى وعلي بن عبد الحميد

عن سليمان عن ثابت عن أنس عن النبي

صلى الله عليه وسلم بهذا

“ I am going to question thee, and I shall be searching in my questions, so do not take it ill of me. ”

“ Ask me whatsoever thou wilt.

“ I ask thee by thy Lord and the Lord of those who lived before thee, hath Allâh sent thee to all men?

“ Yea, I call Allâh to witness. ”

“ I adjure thee by Allâh, hath Allâh commanded thee to enjoin upon us the performance of the five appointed prayers in the day and night ? ”

“ Yea, I call Allâh to witness. ”

I adjure thee by Allâh, hath Allâh commanded thee to enjoin upon us to keep the fast during that month of the year ?

“ Yea, I call Allâh to witness. ”

“ I adjure thee by Allâh, hath Allâh commanded thee that those Alms be taken from our rich to be distributed among our poor ? ”

“ Yea, I call Allâh to witness. ”

“ I have believed ⁽¹⁾ in thy message ; I am the messenger of my fellow tribesmen whom I have left behind me, and my name is Dimâm b. Tha'labah, the brother of the tribe

« قَدْ أَجَبْتُكَ » فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي سَأَلْتُكَ
فَشَدَّدَ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدُ
عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ

فَقَالَ : « سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ »
فَقَالَ : أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ
قَبْلَكَ : اللَّهُ أَرَسَلَكَ إِلَى الْإِنْسَانِ كُلِّهِمْ ؟
فَقَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ »
قَالَ : أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ : اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ
تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ
وَاللَّيْلَةِ ؟

قَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ »
قَالَ : أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ : اللَّهُ أَمَرَكَ
أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ ؟
قَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ »
قَالَ : أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ : اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ
تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَانَا
فَتَقْسِمَهَا عَلَى فَقَرَانَا ؟

(1) It must be remarked that the man had asked the Prophet no questions on the unity of God or other doctrines nor had he demanded a miracle ; and therefore it is to be assumed that he was already a believer. (Ibn Hajar,)

ج. Yûsuf Al-Firabri and also by Muhammad b. Ism'âl Al-Bukhârî, who had it from 'Ubaidullâh b. Mûsa, through Sufiân, who said :

“ If a *hadith* hath been recited before a narrator, there is no objection to the reciter saying : “ He related to me . ”

Al-Bukhârî adds : “ I have heard Abu 'Asim state through Mâlik and Sufiân : ” Reciting before a master is as valid as the master's own recitation .

We are informed by 'Abdullâh b. Yûsuf who had it from Al-Laith, through Sa'id (Al-Mqburi) through Sharik b. 'Abdullâh b. Abu Namir that he heard Anas b. Mâlik say :

While we were sitting with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) in the mosque, a man came in on a camel, which he made to kneel in the mosque and then knee-haltered. Thereupon he said to them : “ Which of you is Muhammad ? ” The Prophet (Allah bless him and give him peace) was sitting in our midst in a recumbent posture . “ He is, we replied, ” this man with the white face, sitting recumbent.” Then the man said to him : “ O son of 'Abdu-l-Muttalib ”

“ Im a ready to answer thee, ” replied the Prophet .

وحدثنا محمد بن اسماعيل البخاري قال :
حدثنا عبيد الله بن موسى عن سفیان قال :
إِذَا قُرِئَ عَلَى الْمَحْدِّثِ فَلَا بَأْسَ أَنْ
يَقُولَ : « حَدَّثَنِي »

قال : وَسَمِعْتُ أَبَا عَاصِمٍ يَقُولُ عَنْ
عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ : « الْقِرَاءَةُ عَلَى
الْعَالِمِ وَقِرَاءَتُهُ سَوَاءٌ » .

حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا
الليث عن سعيد - هو الأقبري - عن شريك
ابن عبد الله بن أبي نعيم أنه سمع أنس
ابن مالك يقول :

بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ
عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاقَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ
ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : « أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ؟ » وَالنَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئٌ بَيْنَ
ظَهَرَيْنِهِمْ ، فَقَالْنَا : « هَذَا الرَّجُلُ الْإِبْيَضُ
الْمُتَّكِئُ » فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : « ابْنَ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ »

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

Dimâm asked the Prophet (Allâh bless him and give him peace) whether Allâh had commanded him to enjoin upon them the performance of the *appointed* prayers. The Prophet answered in the affirmative. Dimâm asserts that this is therefore equivalent to a recitation made to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) . Dimâm reported this to his fellow tribesmen, who approved it .

Mâlik took as evidence the legal deed which is read before people who then say : “ So and so hath called us to witness, ” while that hath only been recited to them . Likewise the Qur’ân is recited to a master, and the reciter saith : “ So and so heard me my recitation . ”⁽¹⁾

We are informed by Muhammad b. Salâm who had it from Muhammad b. Al-Hasan Al-Wâsiti, through ‘Awf, through Al-Hasan, who said :

“ It is not invalid to recite a *hadith* before a master. ”⁽²⁾

We are informed by Muhammad

أَنْ نُّصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:
فَمِنْهُمْ قِرَاءَةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَخْبَرَ ضَمَامُ قَوْمَهُ بِذَلِكَ فَاجْأَزَوْهُ.
وَاحْتِجَّ مَالِكٌ بِالصَّكِّ يُقْرَأُ عَلَى الْقَوْمِ
فَيَقُولُونَ: «أَشْهَدْنَا فُلَانٌ» وَيَقْرَأُ
ذَلِكَ قِرَاءَةً عَلَيْهِمْ، وَيَقْرَأُ عَلَى
الْمُقَرَّرِ فَيَقُولُ الْقَارِئُ: «أَقْرَأَنِي
فُلَانٌ».

حدثنا محمد بن سلام حدثنا محمد بن
الحسن الواسطي عن عوف عن الحسن
قال: « لا بأس بالقراءة على
العالم ».

وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْفَرَبْرِيُّ،

(1) The point is that just as the document is attested by people who have not read it themselves-but have only had it read out to them , so a *hadith* may be considered valid even when the transmitter has had it orally approved by a master .

(2) This type of tradition is termed *أثر* [*athar*] as being *معلق* [*Mu'allaq*] i. e. suspended, that is, related without the name of the Companion of the Prophet being given .

tree. ” (1)

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ

CHAPTER 49.

On what hath been said on Knowledge and the word of Allāh (be He exalted)

“ Say, O my Lord, let me grow in Knowledge. ” (2)

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ وَقَوْلُهُ

تَعَالَى: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»

بَابُ الْقِرَاءَةِ وَالْعَرْضِ عَلَى

(3)CHAPTER 49a.

The reciting and submitting of a *hadīth* to the instructing narrator ; (4)

Al Hasan, Ath-Thawri and Mālik consider recitation valid *for the purpose of transmission* ;

A certain doctor of Islam offered the *hadīth* of Dimām b. Tha'labah as an argument for the validity of merely reciting a *hadīth* to a professor

الْمُحَدِّثِ، وَرَأَى الْحَسَنُ وَالثَّوْرِيُّ

وَمَا لِكَ الْقِرَاءَةِ جَائِزَةً .

وَاحتجَّ بَعْضُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى

الْعَالِمِ بِحَدِيثِ ضَمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، قَالَ

لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَمَرَكَ

(1) Al-Bukhārī here repeats the *hadīth* in order to stress the view-point shown in the new heading, and also the fact that he had the *hadīth* from another source. (Al-Karmānī & Al-ʿAini) .

(2) Surah 20, verse 113.

(3) Al-Bukhārī here, in the accepted reading, omits the usual (باب) before this chapter, for which the commentators have offered no explanation. Al-Qastallānī and Al-ʿAini, however, mention it.

(4) The student of the *hadīth* recites from memory or submits his written copy of it to his Shaikh, who passes it and authorises him to transmit it on his authority. Al-Bukhārī's object here is to refute those who maintained that a tradition was valid only if received directly from the mouth of a narrator, but not if it had been merely submitted to him for approval .

but I was prevented by modesty from saying so. (1) At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : " It is the palm tree". (2)

CHAPTER 48.

On the Imâm's putting a question to his hearers in order to test the degree of their knowledge.

We are informed by Khâlid b. Makhlad, who had it from Sulaimân, who was told it by Abdullâh b. Dînâr, through Ibn 'Umar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said :

" There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim. Tell me which this tree is." The Faithful conjectured various trees of the desert. It occurred to me (said Abdullâh) that it was the palm-tree. At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : " It is the palm -

النَّخْلَةَ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: وَحَدَّثَنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»

بَابُ طَرَحِ الْإِمَامِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى

أَصْحَابِهِ لِيُخْتَبَرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ :

حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

«إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ

وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدَّثَنِي

مَا هِيَ» قَالَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ

الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي

أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدَّثَنَا مَا هِيَ

(1) as being the youngest of those present .

(2) The connection between the exposition and the hadith consists in the fact that Al-Bukhârî had obtained this hadith from three sources in which occur respectively the three terms : أَخْبَرَنِي ، حَدَّثَنِي (Al-Aini) .

‘Abdullâh (Ibn Mas‘ud) : “ I HAVE HEARD the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say so and so ; ” - on Hudhayfah’s having said : “ The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) TOLD US two hadîths : ”

On Abu-l-‘Aliyah’s reporting through Ibn ‘Abbâs from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on the message he REPORTS from his Lord (be He magnified and glorified) ; ” - on Anas stating from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : “ He REPORTS a message from his Lord (be He magnified and glorified) ; ” - and on Abu Hurairah’s relating from the Prophet (Allah bless him and give him peace) : “ He REPORTS a message from your Lord (be He magnified and glorified) . ”

We are informed by Qutaibah, who had it from Ismâil b. Ja‘far through ‘Abdullâh b. Dinâr, through Ibn ‘Umar who stated that :

The Apostle of Allah (Allâh bless him and give him peace) said : “ There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim . Tell me which this tree is ”. The Faithful conjectured various trees of the desert. It occurred to me (said ‘Abdullâh) that it was the palm-tree,

سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةً .
وَقَالَ حَدِيثُهُ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرَوِي
عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَالَ أَنَسٌ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَوِيهِ عَنْ رَبِّهِ
عَزَّ وَجَلَّ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَوِيهِ عَنْ
رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ .

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا إسماعيل بن جعفر
عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ
ورقها وإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ ، خَرَّتْ ثَوْنِي
مَا هِيَ » فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي ،
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا

and give him peace) fell behind us while we were on a journey together⁽¹⁾ He then caught us up when we were surprised by the hour of prayer as we were performing our ritual ablution. We therefore proceeded to wipe our feet. ⁽²⁾ At this the Prophet called out at the top of his voice : “ Woe unto your heels, for they shall bring you into danger of hell-fire. ” This he said two or three times .

فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا فَأَذْرَكْنَا وَقَدْ
أَرْهَقْتُمَا الصَّلَاةُ وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ
فَجَعَلَنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا؛ فَنَادَى
بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا.

CHAPTER 47.

On the term used by the narrator : “ We are informed, or “we are told ” , or “it is reported to us ; on Al-Humaidi’s having told us that according to Ibn ‘Uyaynah “ we are informed ” “ we are told ” “ it is reported to us, ” and “I have heard,” are all of the same value;—

On Ibn Mas‘ūd’s words : “ WE ARE INFORMED by the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) who is the Truthful and the Trustworthy,—

On Shaqīq’s words through

بَابُ قَوْلِ الْمُحَدِّثِ « حَدَّثَنَا »
أَوْ « أَخْبَرَنَا » وَ« أَنْبَأَنَا ».

وَقَالَ لَنَا الْحُمَيْدِيُّ: كَانَ عِنْدَ ابْنِ
عُمَيْيْنَةَ « حَدَّثَنَا » وَ« أَخْبَرَنَا » وَ« أَنْبَأَنَا »
و« سَمِعْتُ » وَاحِدًا.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: حَدَّثَنَا رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ
الْمَصْدُوقُ. وَقَالَ شَقِيقٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ:

(1) returning from Mekkah to Madinah.

(2) The Prophet perceived that in their hurry to be in time for the afternoon prayer they had omitted to wash their heels properly.

present said : " He hath heard his question and was displeased at it . " Another said : " Nay, he hath not heard it , " At last when the Prophet had finished his discourse, he said : " Where is (I suppose he said) ⁽¹⁾ the questioner about the coming of the Hour ? " " Here am I, O Apostle of Allāh , " replied the Bedouin, "When trust shall have disappeared," replied the Prophet, " then expect the Hour . " " In what way shall it disappear ? " asked the man. "When authority shall be in the hands of those who are unworthy of it , " replied the Prohet, " then expect the Hour . "

CHAPTER 46

On him who raiseth his voice in imparting Knowledge.

We are informed by Abu-n-Nu-mān Ḥarīm b. Al-Fadl, who had it from Abu Ḥawānah, through Abu Bishr through Yusuf b. Māhak, through Ḥabudullāh b. ḤAmr, who related that :

The Prophet (Allāh bless him

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى
إِذَا قَضَىٰ حَدِيثَهُ قَالَ : «أَبْنِ أَرَاهُ
السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟» قَالَ : هَآؤُنَا
يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : «فَإِذَا ضُيِّعَتِ
الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ : كَيْفَ
إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : «إِذَا وُضِعَ الْأَمْرُ
إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»

بَابُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْعِلْمِ :

حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ عَارِمُ بْنُ الْفَضْلِ

قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بَشْرٍ عَنْ

يُوسُفَ بْنِ مَا هَكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

قَالَ :

تَخَافَ عَنَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1) أَرَاهُ — Parenthesis by the narrator Muḥammad b. Fulaih.

Knowledge. (1)

CHAPTER 45.

On him who is questioned on Knowledge while he is engaged in his discourse, and concludeth his discourse before answering the question .

We are informed by Muhammad b. Sinan, who had it from Fulaih ; we are also informed by Ibrâhim b. Al-Mundhir, who received it from Muhammad b. Fulaih, to whom it was related by his father, who was told it by Hilâl b. 'Ali, through 'Ata' b. Yasâr, through Abu Hurairah, who said :

While the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was at a gathering, speaking to the people, a Bedouin came to him and said : "When shall be the Hour ? "

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) continuing his discourse, one of those

بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ
فِي حَدِيثِهِ فَأَتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ
السَّائِلَ :

حدثنا محمد بن سنان قال : حدثنا
فُلَيْحٌ (ح) وحدثني ابراهيم بن المنذر
قال : حدثنا محمد بن فُلَيْحٍ قال : حدثني
أبي قال : حدثني هلال بن علي عن عطاء
ابن يسار عن أبي هريرة قال :

بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسٍ
يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ :
مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَخَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ
الْقَوْمِ : سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ .

(1) Surah 20, verae 113. The omission of any Hadith here may be attributed to Al-Bukhârî's doubts as to its fulfilling the conditions of genuineness required by him ; or perhaps to his having left a blank with the object of filling it in later ; in fact Al-Bukhari used to write his headings first, and subsequently fill in the blanks with appropriate hadiths. (Ibn Hajar and Al-Aini)

pardon for your late governor, for he used to love to forgive.” He concluded by saying : “ I once went to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and said : ‘ I take the oath of allegiance to thee embrace Islam . He then imposed upon me the further condition of giving good counsel to every Muslim. I took the oath on this *condition*. By the Lord of this mosque, I am now giving you good counsel.’ He then invoked Allâh’s pardon and came down (from he pulpit).

الْعَفْو. ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَتَيْتُ
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : أَبَايَعُكَ
عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَشَرَطَ عَلَيَّ « وَالنُّصْحَ
لِكُلِّ مُسْلِمٍ » فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا ،
وَرَبِّ هَذَا الْمَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ
لَكُمْ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ .

CHAPTER 44.

On the merit of Knowledge and on the word of Allâh (be He exalted): “ Allâh shall raise those of you who have believed, and those to whom Knowledge hath been given to *different* degrees. ⁽¹⁾ Allâh knoweth full well what ye do ; ” and - His word (be He magnified and glorified): “ O my Lord , let me grow in

بَابُ فَضْلِ الْعِلْمِ وَقَوْلِ اللَّهِ
تَعَالَى : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :
« رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » .

1. Surah 58, verse 12. Al-Baidâwî and Ibn Hajar state that a difference of degree is implied, religious knowledge being preferred over belief.

the leaders of the Faithful, and to the common People ” In the words of Allâh (be He exalted) “ provided they be loyal to Allâh and His Apostle .” ⁽¹⁾

1. We are informed by Musaddad, who had it from Yahyâ, through Ismâ'il, who was told it by Qais b. Abu Hâzim, through Jarîr b. Abdullâh, who said :

“ I swore allegiance to the Apostle of Allâh (Allâh b'less him and give him peace) to perform the appointed prayers , to pay the prescribed alms, and to give good counsel to every Mnslim. „ ⁽²⁾

2. We are informed by Abu-n-Nu'mân, who had it from Abu Awânah, through zîâd b. 'Ilâqah , who stated that he heard Jarir, b. Abdullâh say on the day of Al-Mughîrah b. Shu'bah's death, when he had risen and and praised and glorified Allâh :

“ It is your duty to fear Allâh as being alone and having no partner, to be dignified and calm until there come to you a new governor, who shall surely comê to you immediately.’

He then added : “ Ask Allâh's

نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ »

حدثنا مسدد قال : حدثنا يحيى

عن اسماعيل قال : حدثني قيس بن أبي

حازم عن جرير بن عبد الله قال :

بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة

والنصح لكل مسلم .

حدثنا أبو النعمان قال : حدثنا أبو

عوانة عن زياد بن علاقة قال : سمعت

جرير بن عبد الله يقول يوم مات

الغيرة بن شعبة : قام فحمد الله وأثنى

عليه وقال : عليكم باتباع الله وحده

لا شريك له والوفاء والسكينة حتى

يأتيكم أمير فإنما يأتيكم الآن . ثم

قال :

استعفوا لا أمير لكم فإنه كان يحب

(1) Surah 9, v. 92.

(2) Even if the advice is detrimental to the giver of it.

to its motive. ”

2. We are informed by Hajjāj b. Minhāl who had it from Shu‘bah, who received it from ‘Adiyy b. Thâbit, who heard it from ‘Abdullāh b. Yazīd, through Abu Mas-ūd, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace) who said :

“ If a man spend aught upon his family through devotion to Allāh, it shall be accounted unto him as alms-givings . ”

3. We are informed by Al-Hakam b. Nâfi‘ who had it from Shu‘aib , through Az-Zuhri, to whom it was related by ‘Amir b. Sa‘d, through Sa‘d b. Abu Waqqâs, who informed him that the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) said :

“Verily nothing that thou spendest where by thou seekest the face of Allāh goeth unrewarded, even to the delicacies which thou placest in thy wife’s mouth.”

CHAPTER 43.

In the words of the Prophet (Allāh bless him and give him peace)
“ The corner-stone of religion is loyalty to Allāh, to his Apostle , to

فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ . »

حدثنا حجاج بن منهل قال حدثنا
شعبة قال : أخبرني عدي بن ثابت
قال سمعتُ عبد الله بن يزيد عن أبي
مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ
يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ . »

حدثنا الحكم بن نافع قال : أخبرنا
شعيب عن الزهري قال : حدثني عامر
ابن سعد عن سعد بن أبي وقاص أنه أخبره
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إِنَّكَ لَنْ تَنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ
اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهِمَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ
فِي أَمْرٍ أَنْتَ . »

باب قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« الَّذِينَ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَا أُمَّةَ
الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِذَا

faith, the ritual ablution, the appointed prayers, the prescribed alms the pilgrimage to *Makkah*, the *Ramadân* fast, and legal engagements, the word of Allâh (be He exalted) : “ Say, ‘ O Muhammed, : ’ Every man acteth after his own manner (that is to say, his intentions) ; whatsoever a man spendeth upon his kinsfolk out of devotion to Allâh shall be reckoned’ as almsgiving ; the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : “ But the way of righteousness requireth moreover the *Jihâd* and sincerity of motive . ”

1. We are informed by ‘Abdullâh b. Maslamah, who had it from Mâlik, through Yahya b. Sa’id, through Muhammad b. Ibrahim, through ‘Alqamah b. Waqass , through ‘Umar that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said:

“ Actions are judged by the intention and every man is requited according to what he intendeth ; and if any man flee ⁽¹⁾ unto Allâh and his Apostle his flight is so accounted, and if his flight be to obtain a worldly goal or unto a woman to marry her, then it is accounted to him according

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَأْنِهِ ، عَلَىٰ نِيَّتِهِ ، نَفَقَةَ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا صَدَقَةً ، وَقَالَ : وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ .

حدثنا عبدُ اللَّهِ بنُ مَسْلَمَةَ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ عَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْزَوِجُهَا

(1) From *Makkah* to *Madinah* to join the Prophet in the cause of Islam . See *Nūr-ul-Islam Review* Feb. 1935, p. 2

may enter Paradise. They then asked him about various kinds of drink ⁽¹⁾, and he gave them four commandments, and prohibited them four things. He commanded them to believe in Allâh alone, adding: ' Do ye know what belief in Allâh alone is ? ' Allâh and His Apostle know best, ' replied they . ' It is ' said he, ' to testify that there is no deity but Allâh and that Muhammad is the Apostle of Allâh, to perform the appointed prayers, to pay the prescribed alms to keep the Ramadan fast, and to give the fifth part of the booty. ' He then prohibited them four things jars gourds vats made from palmtrunks, and vessels smeared with pitch (or perhaps he said tar) ⁽²⁾ adding : ' Commit these commandments to memory, and communicaté them to those you have left behind you . '

CHAPTER 42.

On the tradition that action that actions are judged only by intentions; actions inspired by devotion to Allâh; and , every one is requited according to what he intendeth. - This includes

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ
الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تَعُطُوا
مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ
أَرْبَعٍ : عَنْ الْحَتَمَةِ وَالذُّبَابِ وَالْمَقِيرِ
وَالْمَزَفَةِ (وَرُبَّمَا قَالَ الْمَقِيرِ) وَقَالَ :
احْفَظُوهُمْ وَأَخْبِرُوا بِهِ مَنْ وَرَاءَكُمْ .

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ
وَالْحُسْبَةِ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى ،
فَدَخَلَ فِيهِ الْإِيمَانُ وَالْوُضُوءُ وَالصَّلَاةُ
وَالزَّكَاةُ وَالْحَجُّ وَالصَّوْمُ وَالْأَحْكَامُ ،

(1) or. the drinks contained in various vessels .

(2) Vessels of this kind produced rapid fermentation of the fruits (especially dates and raisins) steeped in them , and so might lead to unintentional intoxication.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢١

دعوته الى تعرف السنن الالهية فى الجماعات البشرية

الاسلام أَلْف أكبر مجتمع عهده الانسانية فى تاريخ حياتها الاجتماعية، وقد أقامه على الأصول الخالدة، والمبادئ العامة، وقد شرحنا هذه الميزة الاسلامية الجليلة فى مقال سابق، ونريد اليوم أن نقول إن الاسلام لم يكتبف بما فعل، ولكنه بسطه بسطا علميا، ودثمه على الأدلة الواقعية المستمدة من الحوادث العالمية.

فأول ما عمد اليه فى هذا الشأن الجلل أن يبين وحدة أصل النوع الانسانى، وتساوى الاحاد والجماعات فى الحقوق الطبيعية، وأن تخالف الناس فى البيئات والقوميات لا ينفى أن يتعاونوا على قطع مفاوز الحياة، وأن يتعارفوا ويتبادلوا المرافق الحيوية، قاضيا على الوم الشائع بين الأمم، وهو ما يخيّل الى كل منها أنها أعلى كعبا من غيرها. وقد جمع هذه الأصول الأولية كلها قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير». هذه الأصول الأولية هى أول ما طرّق من نوعها سمع الشعوب المنبثة فى الأرض، وصدم كبرياءها الجاهلية. فقد كان منها من يدعى أن أصولها تنتهى الى الآلهة، ومنها من يعتزى الى أبناء تلك الآلهة، ومنها من ينتسب الى الجبارة الأولين الذين دوخوا أم الأرض، ومنها من كان ينتمى الى بعض المرسلين أو الأنبياء والصديقين. فجاءت هذه الآية بمصاحبة من العلم هى نفس ماقررت المعارف الاجتماعية بعد نزول القرآن بأكثر من ألف سنة.

ثم إن الاسلام تولى هذه الأصول التي عليها مدارس سعادة المجتمعات بالبيان والشرح، وقواها بالأدلة المستمدة من الحوادث الماضية والراهنة، وهولاً جل أن يفتح للانسان مجالاً للنظر، ويوجد له ميزاناً للتقدير المستقر على قواعد صحيحة، كشف له سرّاً من أجل أسرار الاجتماع البشري، وهو أن للاجتماع سنناً إلهية لا تتخلف ولا تتبدل. فالأمة التي كتب لها النجاة من علل الاجتماع أو الشفاء منها عند الالتيات بها، تتعرف تلك السنن وتطبق أعمالها عليها؛ والأمة التي قدر عليها الاضطراب أو الفناء تغي عن هذه السنن، وتجري من أعمالها على غير هدى. قال الله تعالى: «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» وقال تعالى: «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلاً».

فكان هذا فتحة عظيمة في العلم، وأى فتح أعظم من أن يفهم الناس أن للعالم الانساني نظاماً مقرراً، وقانوناً مقدراً، لا تستطيع أن تعدوه الأم دون أن تصاب بما يستتبعه عدوانها من المثالات، وما يجره من الانحرافات، جزاءً وفاقا.

وكان من نتائج هذا العلم أن أصبح المسلمون حريصين على تلمس هذه السنن من مظانها حرصهم على بقاء وجودهم، وسلامة كيانههم. وقد دفع بهم هذا الحرص الى تحرى الصراط السوى في جميع أعمالهم ومعاملاتهم، وقيام بعضهم رقباء على بعض في سيرهم وتصرفاتهم ائتماراً بما رسمه الله لهم بقوله: «ولتكن منكم أمة (أى جماعة) يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون». وكيف يتساهلون في هذا الأمر والله تعالى يقول في قوم هالكين: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون».

هذا كله جعل من المسلمين أمة تقوم على جادة الحق، وتعمل على بث هذا الخلق في الأحاد، ويراقب بعضها بعضاً في القيام عليها، تفادياً من أن يصيبها ما أصاب الأمم قبلها.

هنا مجال لأهواء تتسرب الى النفوس فتوهمها بأنها بمنجاة من هذا الاليعاد ، وأنها مجرد انتسابها الى هذه الجماعة أو تلك تعامل من الله معاملة ممتازة الخ ، فقضى الله على كل هذه الأوهام بقوله تعالى : « ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزبه ولا يجِدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وبهذه الآية تجلت الحقيقة العلمية المقررة ، وهى أن نظام الكون يأبى المحاباة والمصانعة ، وأن سنن الله تسرى على الكافة على حد سواء ، كما نص عليه حديث قدسى كريم وهو : « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصانى ولو كان شريفا قرشيا » وقوله صلى الله عليه وسلم لابنته : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

بإسقاط وهم المحاباة أسقط الله تعالى من رؤوس صدر هذه الأمة وساس كانت آثارها وبالأعلى الأمم التى نبتت فيها ، وأخذ بضبع المسلمين الى نهضة قوية سريعة خالية من جميع العوامل التثبيطية ، حتى انطوت تحت أقدامها المساويف الشاسعة ، وجمعت بين طرفى الشرق والغرب بما هو أشبه بجولة رياضية .

من مجموع ما أنزل الله فى أمر الاجتماع نشأ فى هذه الأمة ضرب من الرقابة المتبادلة بين الأفراد والأفراد ، وبينهم وبين الهيئة الحاكمة فيهم . لأنه مادامت أخلاق الآحاد وأعمالهم تؤثر فى بنية اجتماعهم قوة أضعفا ، وماداموا هم مأمورين أن يأصروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ومادام كل عضو من جماعتهم مكلفا أن يعمل على درء ما يراه من المنكرات بيده أو بلسانه أو بقلبه ، مادام كل هذا قائما فكيف لا تنشأ بين الآحاد مراقبة قوية محكمة ؟ .

بهذا التركيب الاجتماعى البديع يصبح فى المجتمع الاسلامي أداة تعمل باستمرار وبغير شعور من الناس على إزالة كل ما يذب الى الجماعة من جرائم الفساد ، فلا يعتربها تحلل ولا ضعف ولا ارتسكاس . وإنما المدار على العمل بهذه الأصول الاسلامية ، لاعلى

الاعتقاد بها والجرى على نقيضها . وقد ثبت أن العمل بها قد أثمر للآخذين بالاسلام ثمرات من تأسيس الدولة والتبسط فى الأرض لم تصل الى مثلها أمة غيرها من الأمم التى سبقتها أو تلتها الى هذا العهد .

يصطدم بهذا الأصل هنا مبدأ من الإباحة سموه بالحرية الشخصية . ومؤدى هذا الأصل عند أهله أن للانسان كل الحرية فيما يعمل ما دام ضرره لا يقيق إلا به دون غيره ، وعدوا مما يدخل فى هذه الحرية تعاطى الخمر والاتجار فيها والزنا ما دام الطرفان متراضيين عليه ، والقمار فى دائرة معينة ، والربا ما دام لا يتجاوز حدا مقررًا ، وغير ذلك .

ولكن الاسلام مع احترامه لمبدأ الحرية الشخصية وتقديسه له ، يرى أنه لا يصح أن يسرى على هذه الآثام التى ذكرناها : فيرى أن الخمر والزنا والمقامرة والربا الخ لا يقتصر ضررها على آتياها فحسب ، ولكنه يتعداه الى أهله ومجتمعه .

وبنازع الاسلام المشترعين فيما هو أدق من هذه المسألة ، وهو أنه ليس مما ينطبق على مبدأ الحرية الشخصية أن يباح للانسان أن يأتي ما يضر بشخصه ، لأنه ما دام عضوا فى مجتمع فلا يجوز أن يضعفه بإضعاف نفسه .

ومن العجيب أن الاشتراع الوضعى يتفق مع الاسلام فى هذا التفسير لمبدأ الحرية الشخصية فى بعض الأمور دون بعض ، فكان بذلك مناقضا لنفسه فى أهم المبادئ الاشتراعية ، وأمسها بحياة المجتمع .

فهو يرى أن يبيع للانسان أن يتعاطى المسكر ، وأن يذمن عليه ، ولا يرى أن يبيع له أن يستعط الكوكابين ، ولا أن يحتقن بالمورفين ، بحجة أن فى عمله الأخير إضرارا بصحته مع أن فى تعاطى الخمر من الإضرار بها ما لا يقف عنده حد ، لاعليه وحده فحسب ، ولكن على أهله وبنيه وبنى جلدته أيضا . ويرى أن يبيع له الزنا والقمار ، ولا يبيع أن يتمخط أو أن يبصق فى الطريق بدعوى أن فى هذه العادة الأخيرة ضررا بغيره

من ناحية نشر عدوى ما عسى أن يكون لديه من الأمراض ، مع أن فى الزنا والقمار من الأضرار ما لا يقاس به ضرر البصق ، بل وما لا يقاس به ضرر الأوبئة الفتاكة . ولم نذهب بعيدا : أليس بين يدينا الإحصاءات ناطقة بأن ما تفعله الخمر بالأجساد والعقول يفوق ما تفعله شر الطواعين ، وجائحات الأوبئة ؟ فهذه المستشفيات غاصة بالمدمنين ، وهذه البيمارستانات مملأة بالمجانين ، بل وهذه الدور حافلة بالذين لم يقعد بهم المرض الى حد العجز المطلق ، ولا اختلال القوى العقلية الى درجة الجنون المطبق ، ولكنهم يعيشون على حال من سوء الأخلاق ، وفساد النفوس أضر على ذويهم وأبناء المجتمعات التى ينتمون اليها من أضرارهم الذين تؤويهم المصحات والسجون .

وهل نشر حب السرف والترف وتدهور الأخلاق وانحلال الأسر وضياع الثروات عامل أنكا أثرا من إباحة الزنا والقمار والتهتك الشنيع ؟ فالغرب الذى أصبحت علومه وصنائعه ومدنيته عاجزة عن رأب صدوعه ، ورتق فتوقه ، وتقويم عوجه ، ما أوصله الى هذه الحالة إلا ذبوع هذه الضروب من الفواحش فيه .

فالاسلام بوقوفه من مبدأ الحرية الشخصية عند الحد الذى يسمح به المنطق القويم ، والطبع السليم ، لا يقصد أن يكبل الحرية بقيود من حديد ، ولكنه يريد أن تكون حرية صالحة تنتج الآثار المنتظرة منها . أما الحرية التى تطلق الداعرين والفساقين والإباحيين ليرتكبوا تحت ستار هذا المبدأ الكريم ما يرفع عن مثله الحيوان الأعجم ويعود منه على الانسان البلاء المحتم ، هذه الحرية يعدها الاسلام إباحة بهيمية ، فلا يقرها ولا يتغاضى عنها ، بل يضرب عليها نطاقا من حديد .

فالحقوق الطبيعية التى يحترمها الاسلام ، هى الحقوق التى تعترف بها الانسانية الحقة ، وتقضيها الحياة الصحيحة ، وتستلزمها المدنية الفاضلة . وهو جار من هذا كله على سنة الله فى خليقته ، فإن هذه السنة لا تقلت من ميزانها الذرة ، ولا تخلص من محاسبتها الخطرة . وخير الشرائع الاجتماعية ، ما وافق شريعة الله الكونية .

فلاسلام احترم الحقوق الانسانية ، المستندة على الأوضاع الطبيعية ، ولم يحترم منها ما أوجده الهوى ، ولا ما ولدته الشهوة . وقد رعى من هذا الى تأليف مجتمع سليم فى نفسيته ، سليم فى عقليته ، سليم فى بنيته ، يجرى الى غاياته البعيدة ، كأنه جزء من الطبيعة لا خارج عليها ، ولا مدابر لها . وكل مجتمع يجعل هذه الطريقة وجهته يصل الى النهايات التى يقصدها ، خلافا للمجتمعات التى تبني وجودها على معاكسة السنن الالهية ، فإنها تصاب بجزاير آثامها ، ولا تزال تتعسف فى سيرها حتى تبيد غير مأسوف عليها : « قل سيروا فى الأرض ثم نظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

محمد فريبر وهبرى

أبلغ ما قيل فى الاعتذار عن الذنوب

قال خالد بن عبد الله اسليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين حين وجد عليه : يا أمير المؤمنين إن القدرة تذهب الحفيظة ، وأنت تجل عن العقوبة ، ونحن مقرون بالذنب ، فان تعف عنى فأهل ذلك أنت ، وإن تعاقبنى فأهل ذلك أنا .

وأمر معاوية بن أبى سفيان بمعاقبة روح بن زنباع . فقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع منى خسيصة أنت رفعتها ، أو تنقض منى مريرة أنت أبرمتها ، أو تشمت بى عدوا أنت وقتته ، إلا أتى حملك وصفحك عن خطئى وجهلى .

فقال معاوية : خليا عنه ، إذا أراد الله أمرا يسره .

وروى أن عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين وجد على رجل خفاه واطرحه ، ثم دعا به ليساله عن شىء ، فرآه شاحبا ناحلا . فقال له : متى اعتللت ؟ فقال الرجل : مامسنى سقم ، ولكنى جفوت نفسى إذ جفانى الامير ، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عنى أمير المؤمنين . فاعاده معاوية الى سابق منزله .

وروى الهيثم بن عدى : لما انهزم عبد الله بن على من الشام قدم على المنصور وقد منها ، فتكلموا عنده . ثم قام الحارث فقال : يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة ، وإنما نحن وفد توبة ، ابتلينا بفتنة استخفت كرمنا واستفزت حليمنا ، ونحن بما قدمنا معترفون ، وبما سلف منا معتذرون ، فان تعاقبنا فقد أجرنا ، وإن تعف عنا فظالمنا أحسنت الى من أساء منا . فقال المنصور للحرسى : هذا خطيبهم . وامر برد ضياعه عليه .

التفسير

سورة الرعد

- ٤ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَنْفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » .

لقد تجلّى في صدر السورة الكريمة من آيات ربك الكبرى ما يسد باب الارتباب ، ويقطع دابر الشك يرهان اليقين . تجلّت فيها قدرة العزيز القادر ، وحكمة العليم الحكيم ، في ملكوت السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسخير السحاب ، وإجراء الأنهار ، وتنويع الثمار ، وقد استمدت من غذاء واحد ، وسقيت بماء واحد ، ومع هذا كان منها الحلو والمر ، ومنها النافع والضار ، ومنها ما يصلح للغذاء ، وما يصلح للدواء . فكان من الواضح بالمكان العظيم أن من كانت هذه آثاره لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ؛ وأن من خلق السموات والأفلاك والكواكب والحيوان والنبات ، وأبدع فيها من الحكم ما يبدو لكل ناظر ، ويزداد جلاء عند كل تأمل ، فقد رته وحكمته وعلمه لا يصح أن تكون موضع ارتباب ولا محل

شك ؛ وأن من بقي عنده بعد ذلك ريب أو شك فقد أهمل قضية عقله ، وأعرض عن فطرته ، وحققت عليه كلمة الضلال ، لا يعرف الى الهدى طريقا ، ولا الهدى يصل اليه من سبيل . فمثل هؤلاء هم أعجوبة الزمان ، وشواذ بنى الانسان ، والمنحرفون عن مقتضى العقل ، والخارجون على قانون الفطر . وإن شئت فقل : هم الذين أُعطوا أسباب السعادة ، ومُكِّنوا من طريق النجاة وطيب الحياة ، فولوا عنها مدبرين ، وتنكبوا الطريق السوى ، وسلكوا مسالك الشياطين . فهل هناك أعجب من حال هؤلاء ؟ إن هذا هو العجب العجيب ، والغريب المحير للألباب !

فقوله تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » تراه من الآيات السابقة بمنزلة الثمرة من الشجرة . ذكر تعجبهم من أن يقدر الله على إعادتهم بعد أن ماتوا وصاروا ترابا ، ولم يكفهم تلك الآيات الكبرى الدالة على عظيم قدرته ، وواسع علمه ، وبديع حكمته . فأى الفريقين أحق بالعجب : هؤلاء الذين تبهرهم الآيات والدلائل ، وتتوافر على مطالوبهم جميع الوسائل ، فيمرون عليها معرضين ، ويتحIRON في أمر هو واضح كل الوضوح ، أم قدرته تعالى على إعادة ما أوجد بدءا ، وعلمه بتفصيل ما خلق وأنشأ ، وحكمته في أن يعيد الناس ليوم الجزاء الأوفى ليجزى كل امرئ بما سعى ؟

أما إن العجب العجيب هو في مظهرهم الذى كشف عن منتهى غباثتهم ، وانكشفت به مخازيهم ، فإن كان هناك عجب ، فالعجب من بقائهم في حماة الجهالة يعمهون ، وأنهم عن غيهم لا ينتهون ، بعد ما وضحت الأدلة التى تقطع ظلام الشك بنور اليقين .

فالمخاطب في قوله تعالى : « وإن تعجب » هو من يتأتى منه العجب ، وكأنه بدأ بذلك في سياق حكاية عجبهم من البعث بعد الموت ليقطلع عجبهم قبل نباته ، وليسد عليه طريق التطرق الى الآذان ، فضلا عن أن يتمكن من الأذهان . وكأنه قيل : هم يعجبون للإعادة بعد البدء ، وهم في عجبهم هذا أحق بأن يتعجب منهم ومن غفلاتهم ، وقد تجلت

البراهين أمام أعينهم . ويكون المعنى : إن تتعجب أيها المخاطب من شيء فأولى الأشياء بالاعجب هو هذه الحالة الشاذة . أو إن ترد أن تتعجب فما هو ذا شأنهم أمامك يشبعك عجباً ، فلا تبغ وراءه عجبياً . ويصح أن يكون الخطاب موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل : إن تعجب يا محمد من حال ، فالعجب هو ما بدا على قومك الذين عهدت فيهم سعة العقل وقوة المدارك ، لا يزالون بعد هذه الآيات في حيرة وتعجب يقولون : أنذا كنا تراباً أننا لنفي خلق جديد . ولا تعارض بين المعنيين .

ويلوح أن الوجه الأول أشد في النعي عليهم ، والتشنيع على فساد رأيهم . وترتيب الجزاء في قوله : « فعجب قولهم » على الشرط أى « إن تعجب » من جهة أن معنى « فعجب قولهم » أى فتعجب من قولهم الخ . أى إن أردت العجب فتعجب من هذا ، أو إن تعجبت من شيء ما في الوجود فتعجب من هذا ، فهو أحق شيء بالعجب . وإنما كان هذا عجباً لأن تعجبهم من حصول البعث لا يعدو أن يكون لتوقفه على القدرة أو على العلم بتفاصيل المعاد وذهاب جزئياته في كل مذهب ، أو خلفاء حكمته . فأما القدرة والعلم فكيف يخفى شأنهما عليهم وقد وضع الأمر بما تجلّى في العالم من آثار قدرته وواسع علمه وحكمته ؟ وأما الحكمة فهل يريدون أن يبقى هذا العالم فوضى تبعاً لشهواتهم وأهوائهم ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ؟ قوله : « أنذا كنا تراباً أننا لنفي خلق جديد » :

هذا مقول قولهم ، فحلّه نصب . أو هو بدل من قولهم على أنه بمعنى المقول ، فحلّه الرفع . والأول أوجه ، لأن التعجب فيه كأنه صرف إلى تلفظهم بهذه المنكرات ، أى أن نفس النطق بها والتفوه بها عجب أى عجب ، فما بالك بالجلّة نفسها . وهذا كما تقول لمخاطبك : أنا أعجب كيف أدّرت لسانك بهذه الكلمة ، وكيف نطق بها فوك ، بل كيف وردت على خاطرك ؟ وأمثال ذلك ، مبالغة في إنكار الكلمة نفسها .

وتكرير الاستفهام الإنكارى في العبارة المحكية عنهم ، لحكاية الإنكار المتكمن

من نفوسهم ، كأنهم قالوا : أنبعث بعد أن نكون ترابا ؟ أفنكون في خلق جديد بعد البلى ؟ والخلق : التكوين ، والجديد : ضد القديم ، وأصله من قولهم : ثوب جديد كأنما قد جده الحائك عن نول نسجه ، أى قطعه .

ولقد ساقوا تعجبهم بصورة تساعد نفوسهم على استنكار إعادتهم ، وذلك بصوغ العبارة الدالة على تجديد خلقهم بأسلوب يدل على رسوخهم في الجدة ، وذلك في قولهم : أننا لنفي خلق جديد ، وجعل ذلك في الوقت الذي كانوا فيه ترابا ، وذلك في قولهم : أنذا كنا ترابا ، وذلك ليظهر منشأ الاستبعاد والإنكار الذي يحاولون تقريره .

قال تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » :

أجل : إن من ارتاب في قدرة ربه على هذه الهزات الهيئات بالقياس الى عظيم قدرته ، ولم يسلم أنه قادر على أن يعيد ما بدأ خلقه ، فقد كفر بربه الذي خلقه فسواه ولم يك شيئا ، وعلمه ما علمه بعد أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ، وآتاه رزقه فنام ورباه وكان لا يملك شيئا ، أفمن يعترف بهذه النعم التي أفاضها الله عليه وهو لم يعمل لاستحقاقها شيئا ، يصح أن ينكر قدرة هذا الرب العظيم على الإعادة وهي أهون عليه ؟ أما إن الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه أو يتعجبون منه لهم هم الذين كفروا بربهم ، وأنكروا نعمه عليهم : من خلق وتربية ، ورزق وتنمية . فلو اعترفوا بالنعمة لما حام حول عقولهم هذه الشبهة . وأولئك الأغلال في أعناقهم ، تغل أعناقهم عن الالتفات الى باهر الآيات ونير البينات ، فهم بإعراضهم عن النظر في الآيات المحيطة بهم كن أخذ عنقه في غل ، فلا يستطيع الالتفات بمنة أو يسرة . والغل في العنق كالقيد في الرجل . وهذا كما قال تعالى في سورة يس : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مُّمّحُونَ » . فهو من باب تمثيل المعرض عن النظر في آيات الله بصورة من وضع الغل في عنقه فمنعه عن تحريك رأسه . والمقمح هو المعرض . وأصله

البعير يرد الماء فيرفع رأسه ويشمخ بأنفه فلا يتناول الماء وهو محتاج اليه وميسور لديه . وعلى ذلك يكون قوله : « وأولئك الأغلال في أعناقهم » وصفا لهم في الدنيا ، وهو المناسب لقوله : « كفروا بربههم » . وقيل إنه وصف لحلمهم في الآخرة كقوله تعالى : « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون في الحميم ثم في النار يُسجرون » . وهو المناسب لقوله تعالى بعد : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وأقول : إن المعنيين لا تعارض بينهما ، فلا مانع من إفادة الآية لسكليهما ، فهم في الدنيا محجوبون عن النظر والتفكير والاهتداء ، وفي الآخرة تكون الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ، ففي أعناقهم أغلال^(١) الدنيا وأغلال الآخرة .

وقوله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » نتيجة لازمة للجملتين قبله ، فإذا يكون حق الذين كفروا بربههم وغلت أعناقهم عن التفكير فلم يهتدوا ، وسحبوا بالأغلال في الحميم ، إلا أن يكونوا أصحاب النار هم فيها خالدون ؟

ومعنى أنهم أصحاب النار أنهم ملازموها لا ينفكون عنها ولا تنتهى صحبتهم لها ، كما يدل عليه التعبير بالجملة الاسمية « وأولئك أصحاب النار » دون مثل عبارة : وهم يصحبون النار ، مثلاً . وقوله : « هم فيها خالدون » أعيد الضمير لتكرار الإسناد ، تثبيتاً للخلود ، بتقريره مستقلاً بنفسه لا تابعاً للجملة قبله ، وليبيان انصباب الخلود فيها عليهم انصباباً مباشراً .

بقى الكلام في اختيار اسم الإشارة في التعبير عنهم دون الضمير ، وفي حكمة تكراره في الجمل الثلاث :

(١) ولا يقال إن هذا من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع ، لانا نقول : على تسليم منعه فلا خلاف في جواز عموم المجاز ويكون الاغلال هنا مستعملاً في كل ما يحول بين المرء ومراده من غل حسي في الآخرة ومعنوي في الدنيا وهو صوارف الشهوات والاهواء .

أما الأول فقد قرر علماء البلاغة أنه إذا ذكر شيء بصفات يستحق بها حكماً ، ثم أريد ترتيب الحكم على تلك الصفات ، فإنه يوثق في التعبير عنه باسم الإشارة ، كأن ذلك يحضره في الذهن متصفاً بالصفات التي سبقت له ، وكأنه ينصب أمام الذهن بحالته التي هو عليها ، فتشاهده النفس بصفاته ، فتوقع عليه الحكم من أجل تلك الصفات البادية عليه .

وأما التكرار فليتكسر حضوره في الذهن بتلك الصورة ، فيوقع عليه الحكم باستحقاق في كل مرة .

ونظيره وإن بعدت المسافة بين الفريقين قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » فإنه عبر عنهم بأولئك في الموضعين لبيان أن سبب استحقاقهم هذا الحكم هو تلك الصفات السابقة : من تقواهم ، وإيمانهم بالغيب ، وإقامتهم الصلاة ، وإتقانهم مما رزقهم الله ، وإيمانهم بما أنزل الله على رسوله وعلى الذين من قبله ، وإتقانهم بالآخرة وما أعد فيها .

قال تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب » :

كان شأنه صلى الله عليه وسلم مع قومه في قيامه بتبليغ رسالة ربه أن يدعو الناس لتوحيد الله وتمجيده ، وبأمرهم بطاعته وإفراده بالعبادة وحده ، وببين لهم واضح المحجة بقوى الحججة ، فمن اتبعه فقد اهتدى ، ومن أعرض عنه فإن له نكال الآخرة والأولى ، فكان حينما يمرضون عن النظر في الآيات البينة التي يجلوها على أبصارهم وبصائرهم ، يخوفهم عذاب الله في الآخرة وفي الدنيا ، فكانوا إذا خوفهم عذاب الآخرة أنكروا البعث والمعاد ، حتى يبهروهم بالأدلة التي تقطع شقشقتهم ، كما نراه في الآيات السابقة ، إذ تدرج من بيان دلائل القدرة والعلم والحكمة ، الى تقرير المعاد وتسفيه آراء من ارتاب فيه بعد ما وضح الصبح لذى عينين . وإذا خوفهم عذاب الدنيا استهزؤا به

وقالوا : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، بل تعنتوا وتمادوا في طغيانهم وقالوا : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الى قوله : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً » بل ازدادوا عتوا وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

كل هذا كان يحصل منهم وترتاح اليه أفئدتهم ، بل كانت نزعتهم أقرب الى الشر واستعجال الضر . فكان من عادة الحكمة الإلهية ألا يستخفها سخفهم ، ولا يؤثر فيها نزقهم وطيشهم ، ولكن الله يفعل ما يشاء مما يحتوى على عظيم الحكمة ومتقن التدبير ، وأرق أساليب التربية ، فهو يملئ لهم ويمهلهم حتى تزول النعرة عن نفوس بعضهم ، فيلوى على الآيات التي أنكرها وإذا بها تتلأأ أمام عينيه نورا ، وتكون شرته قد هدأت ، ونفسه قد سكنت ، فيلهمه الله ما فيه سعادته بعد طول شماس ، فيؤمن ويحسن إيمانه ، ويتمادي آخر في غيه وبهتانه ، فلعله إن لم يؤمن جاء من عقبه من يوحد الله ويعبده . وكم من مؤمن نبت من صلب كافر ، فإن مات على كفره فالله شديد العقاب ، كما قال تعالى : « وأملئ لهم إن كيدى متين » .

ولقد أبرز المولى جل وعلا سخافتهم على وجه يجب أن يتواري صاحبه من الخزي ، إذ حكى عنهم أنهم مولعون باستعجال السيئة ، وليس هذا من العقل في قليل ولا كثير ، فالعقل إنما ينتظر منه استعجال الخير لا استعجال الشر ، ثم قال : « قبل الحسنة » أى أنهم يطلبون إليك أن يسبق عذابهم رحمة الله التي هم مهيتون لنيلها لو كانوا يعقلون . ولو أن الأمر لم يسبق له سوابق لكان لهم بعض العذر ، أما وقد خلت المثالات من قبلهم ، وشاهدوا ديار وأثار من عتوا ممن قبلهم كعاد وثمود ، فما كان لهم من عذر في تعريض أنفسهم للإصابة بما أصاب من قبلهم ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم بطشا وأكبر قوة ، فأنفعهم ما كانوا فيه ، ولا دفع

عنهم عذاب الله . فأى سخافة تلك التى استحوذت على عقولهم فنعتهم أن يبصروا
مواقع الشر والخير ، فيتلمسوا لأنفسهم ما به يصلحون ؟

والمراد بالسيئة العذاب الديوى الذى كانوا يوعدون به ، والمراد بالحسنة ما كان الله
يعدهم به على لسان رسوله من الثواب والكرامة فى الآخرة ، والنصر والظفر والتمكين
لهم فى الملك فى الدنيا .

وقوله : « وقد خلت من قبلهم المثلثات » الجملة حالية . والمعنى : يستعجلونك بالضرر
ينزل بهم فى حال أنه قد أصاب من قبلهم ، وقد وصلت اليهم أنبأؤهم .

والمثلثات : جمع مثلة ، وهى العقوبة التى تترك صاحبها مثلاً فى التنكيل وعبرة لمن
يعتبر . وكان من أراد أن يوقع بشخص قال له : لأجعلنك مثل فلان ، فكأنه يضرب به
المثل فى النكال . وهذا فى الغالب إنما يقال على العقوبة الفاضحة ، كسمل العين ، وخلع
الأذن ، وتشويه الوجه ، وأمثالها مما يقال فيه : قتل فلان ومثل به . أو تسميتها مثلة لأنها
على قدر الجريمة . ومثلها كما يقال : واحدة بواحدة . والمعنى الأول أقرب .

وأما قوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » :
فهو رد عليهم ليلقمهم بذلك حجراً ، فهو يقول لهم : ما كان تصرف الله فى خلقه نابها
لأهوائكم ونازلاً على حكمكم ، وإنما الله تعالى فى خلقه شتون هو أعلم بحكمتها ،
فهو يغفر لبعض الناس مع ظلمهم ، وهو أعلم بعاقبة أمرهم ، ويشدد العقوبة على آخرين ،
وهو حكيم عليم فيما أنزله بهم ، فلا يغرنكم واسع إمهاله ، ولا تياسوا من رحمته .
وهكذا يجب أن يكون المرء فى كل حياته بين رجاء الله والخوف من عقابه « إن ربك
لشديد العقاب وإنه لغفور رحيم » . وهكذا يحمل بالربى الحكيم أن يراعى الحكمة
فى تربيته لا ما يملى عليه من غيره .

نسأله تعالى أن يشملنا بعفوه ومغفرته ، وأن يعننا برحمته التى وسعت كل شئ ،

أفعال العباد

والرد على الجبرية والمعتزلة وتحقيق الحق في ذلك

ورد إدارة المجلة أسئلة كثيرة من صاحب الإيمضاء، تقتصر منها اليوم على هذا السؤال الذى بهم كثيرا من الناس، وجوابه الذى أسهبنا فيه. قال السائل بعد الديباجة: نريد من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى أن يبين لنا ما هو الحق من مذهب الجبرية والمعتزلة والأشاعرة فيما يقع منا من أفعالنا، وأن يفيض القول فى ذلك إفاضة لا تدع فى قلوبنا شكاً، ولا فى نفوسنا حيرة. فإن هذه المسألة مشكلة غاية الإشكال. وكيف لا وقد ورد فى القرآن الكريم آيات تفيد أن الله سبحانه وتعالى خلقنا وما نعمل، وأنه يضل من يشاء ويهتدى من يشاء. ومن يضل الله فإله من هاد. وقد ورد به أيضاً عدة آيات أخرى تفيد أن الانسان هو الذى يشقى نفسه، وأن الخير منه تعالى، والشر من العبد.

فكيف نوفق بين هذه الآيات؟ وإذا كان المولى سبحانه وتعالى هو مدبر الأمور ومسير الخلائق حسب إرادته وأنى شاء، فلم يعاقبهم على ما اقترفوا من السيئات التى قدرها عليهم؟

عبد الرحمن عبد الفتاح
ناظر مدرسة نزلة احمد يونس

الجواب

الحمد لله. والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه. جاءتنا أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع، ولهذا رأينا أن نطلب فى الجواب ولا نختصر فيه، فنقول:

مذهب أهل السنة أن خالق أفعال العباد بعد اختيارهم وإرادتهم، هو الله تعالى،

ولا يصح أن يطلق اسم الخالق على غيره عز وجل ، ولكن للعبد تدخل فيه باختياره ، وهو أحد الأسباب التي يتوقف عليها وجوده ، بل هو أعظم حلقات سلسلة الوجود وأهمها ، على ما ستسمع بعد ، إن شاء الله .

وإنه ليكفي لنصرة مذهب أهل السنة وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البديهة ، وخالفوا المحسوس . فإن كل إنسان يفرق بفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ، وكل ما صادم الضرورة وناقض البديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه .

وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ولا يضربوا من ضربهم ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الانسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، وجمع العجائب والغرائب لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الانساني ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم : فترى المعتزلة قد غالوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا الى التعطيل بنفي الصفات ، وزلوا في هذه المسألة زلة لا تقال .

والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام . والروافض غالوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا الى الحلول والقول بالمعصية في غير الأنبياء .

والخوارج أفرطوا حتى كفروا بالذنوب . والمرجئة فرطوا حتى أغروا الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزنا ، الى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر الى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفي نقيض ، كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا . وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها . وكذلك اختلافهم في الوجود وفي الضوء (الى آخر ما يليهم عن أعظم المصائب وأكبر الألاعاب) .

ولا غرو فقد قال الله في حق الانسان : « إنه كان ظلوما جهولا » . وقال في بيان طيشه : « خلق الانسان من عجل » . « وكان الانسان عجولا » . وإن من ضعفه الذى خلق عليه جهله بضعفه (ولوعرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه) . وقد يفسد استعداد الانسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك . والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة . وقد قال تعالى في حق القراء ان الذى هو هدى ونور : « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » .

الرد على المعتزلة وبيان فساد مذهبهم :

أما المعتزلة فهم أعظم الناس جهلا ، وأكثفهم حجابا ، وأكبرهم جراءة على الله ، وأبعدهم عن إدراك ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ، وأشدهم مصادمة لصرائح النصوص ، وأكثرهم تأويلا لها .

ولو تأملوا قليلا لعلموا أن الموجودات تنقسم الى ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث هي ، كان عدما محضا . وقد عرف في أحكام الممكن أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد في قبضة الحق (وهكذا يجب أن يكون العبد مع الرب الذى شملت ربوبيته كل شيء ، ويجب له بمقتضى إلهيته أن يرجع اليه الأمر كله ، وألا يخرج عن حيطته وهيمنته شيء من الأشياء) أليس من أوضح الأدلة على ذلك أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريق ؟ ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الآخروية إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لهم ، فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة .

فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدي الى صراط مستقيم . وكم سمعوا

من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين، وكل ذلك واضح المعنى على المبني سافر الحيا غير مبرقع ولا محجوب. فهو على طرف الثمام المتناول. ولكنهم يبرون به فلا يرون ضوءه المتلالي، ولا يسمعون نداءه العالى، وكأن فى آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة. وكذلك مسألة السعادة الدنيوية. وانظرها إن شئت فى الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يسرون، والأذكىاء الذين قتلوا كل شىء بحثاً، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها وأدق خوافيها، وجميع مبادئها وغاية مراميها. فكأن لسان القدرة الإلهية يقول: أوجدت كل شىء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى، وجعلته واضحاً بيننا على جانبي الطريق الذى تمرّون فيه كل يوم تشاهدونه بأبصاركم، وترون من يقع ومن ينجو، ومن يرتفع ومن ينخفض. ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار، أو تتظلّوا بشىء من ظلال تلك الأشجار، أو تتوسلوا الى سعادتكم بشىء من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة، وكأنكم لا تبصرون أو لا تعقلون. أفلا تعرفون بذلك أنكم تحت قدرتنا وإرادتنا، ولن يمنعنا من ذلك جعل الأعلام واضحة، والطرق بينات، والدلائل ناطقات، ووجوه الأمور سافرات، ليكون ذلك أدل على قدرتنا، وأظهر فى بيان تصرفنا واختيارنا، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور، ونعطىكم الأبصار التى تحرق الستور، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور، فلا تسلكون أو لا تستطيعون، لتعلموا أن الله بكل شىء محيط، وأنه على كل شىء قدير، فأين تذهبون أيها المحجوبون، سنستدرجكم من حيث لا تعلمون، وإنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون، ويبدنا ملكوت كل شىء والينا ترجعون.

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخناق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردّها الله عز وجل فتنفذ مشيئة دون مشيئة الله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً».

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر حتى الملحدين والماديين، وإن كان لهم

عبارات أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمسكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، أو لم يساعدنا الحظ . الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله في خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، ورد كل شيء الى مقاييسهم الفاسدة وأفكارهم الضعيفة ، فنأشئ من جهلهم بالله وجهلهم بأنفسهم . فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك كنه علاقة الخالق بالخلق ، وأن يكون علمك بترتيب الأشياء وأسرارها وما يجب لها وما فيها من الحكم مساويا لعلم الله تعالى ، والفكر الانساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه .

وكان من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ، ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير . فليس له من العلم بالأشياء إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها . ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مشار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات :

قل لمن يفهم عنى ما أقول قصر القول فذا شرح يطول

ثم سر غامض من دونه قصرت والله أعناق الفحول

سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ، لا في ذاتك ولا في صفاتك ولا في أفعالك . وهكذا الألوهية يجب ألا يعرفها غيرها ، ولا يحيط بها سواها .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر في كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهمه ذلك ؟ ولوصح هذا لازم أن يكون استعداد الطفل لاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمة أو قريبا منه .

ولديك الوجدانيات التي نحس بها ونحن من نوع واحد ، لا يمكن صاحبها أن يفهمها لغيره . بل المحسوسات التي لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام

لم تذقه قط ولا ذقت ما يشبهه ، ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقاع ، ولا من خلق
أكمه تلك الألوان المختلفة ، وهكذا الأشياء كلها .

وأنت تعلم أن الحيوان البهيمن لا يبلغ بماله من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ،
وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه .
فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار
زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام وهو هو صحة ما فعل الخضر
بعد القطع ببطلانه .

ومما يجب الالتفات اليه أن الوم في هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر
كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله في إمداده بهدايته . وينبغي للانسان
في هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه ، من شدة الجهل ، وقلة العلم ، وتردده في الأمور ،
وحيرته في أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير
مما فرط منه .

وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه في كتابه العزيز بأنه ظالم جهول . وقد كان ينبغي
أن تعلم من التجربة المتكررة ، ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخالق
في معرفة الدقائق ، وخفيات الحكم ، ومحكمات الآراء ، ومعرفة عواقب الأمور ،
فكيف يكون التفاوت بين الخالق وخالقهم عز وجل ؟
ولنتنزل غاية التنزل فنقول :

لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل
في النصف الآخر . فما أتى الانسان في توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم
الله تعالى ، مع أن علمه الجملى بحكمة ربه كاف شاف . وإن علمه بكمال ربه في جميع أسمائه
الحسنى وصفاته العليا ، مع نقص العبد في كل شيء ، وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من
طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعا عن اتباع سنة إبليس حيث نازع ربه في حسن سجوده

لَا دَمَ . وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما وُلّا هم عن قبلتهم التي كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى للملائكة : « إني أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سألَه عن مثل هذا : أعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا .

وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجداله ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولننشد هنا قول الزمخشري :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهالاته يتقهم
مالم يتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم
وإنك لتعلم الفرق بين قدرتك التي لا تستطيع أن تخلق ذبابا ، وبين قدرته التي خلقت السموات والأرض وما لا يحصى من العوالم . فلتعلم أن الفرق بين علمك وعلمه كالفرق بين قدرتك وقدرته . وقد جاءتني هذه الآيات عفوا :

لما علمت بما للعلم من سعة وما لرب البرايا الحق من عظمه
عزلت عتلى فلم أقبل تحرصه فيما يظن للجهل أنه علمه
وعند ما قد بحثنا عن حقيقته قد استبان لنا ما فيه من تهمة

وأحسن طريق عندي أن تفكر في دقائق خلقتك العجيبة ، وما أودع في كل عضو من أعضائك من الأسرار ، وما نيظ به من الوظائف ، وما يكتشفه علماء الفزيولوجيا من ذلك حتى الآن مما أدهشهم . وكذلك علماء الحيوان والنبات والفلك ، حتى قال العلامة الشهير (هرشل) : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية لحكمته . فالجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) والرياضيون والطبيعون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده .

وقد أتينا على كثير من ذلك فيما كتبناه في هذه المجلة، خصوصاً في تفسير قوله تعالى :
« إن في السموات والأرض لايات للمؤمنين » فهل نشك في حكمته بعد ما شاهدنا
ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه ؟ فعلى العاقل أن يملأ قلبه بالفكر في المحكم لا في المتشابه ،
« وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .
وبعد : فلنقل كما قال بعضهم :

إننا نعلم أن لنا إلهاً لا شريك له ، فيجب بمقتضى ألوهيته ألا يخرج شيء عن محيطته
كما قال تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » . « ما من دابة إلا هو آخذ
بناصيتها » . ونعلم أن لنا أفعالا اختيارية لا نشك في أنها باختيارنا . فلنؤمن بأول
السلسلة وآخرها ، ولنضع ما بينهما .

ومع كونى أطلت ، أجد في نفسى باعثاً قويا أن أتكلم كلمة وجيزة في فعل الانسان
واختياره ، غير معرج على ما ذكره الأشاعرة في تفسير الكسب الذى أصبح مضرب
الأمثال في خفائه ، فيقال في كل شيء دقيق أو غير مفهوم : إنه أخفى من كسب الأشعرى .
فلهذا لا أريد أن أخوض بك تلك الغمرات التى قلما تخرج منها مقتنع النفس مطمئن
القلب ، فأقول وبالله التوفيق :

تقريب لمذهب أهل السنة

الذى هو وسط بين مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية بعبارة واضحة

من البدهى أننا نختار الفعل على الترك ، والترك على الفعل ، فترجح ما شئنا متمتعين
بالحرية . وقد كان يجب أن يكون هذا كافياً في الجزم بحريتنا واختيارنا . وقد تعلم
أن ما يعارض البدهى أو المحسوس يجب ألا يلتفت إليه ، ويكفى في سقوطه مصادمته
للبدئية كما قلنا في رد مذهب الجبرية .

ولسنا نشك في أن لنا تدخلاً في الفعل . فإذاً لنا شيء في العمل لا محالة ، وإن كنا
نعتقد أن ما ييسره الله كان وما لا فلا ، لأننا لا نستطيع أن نوجد جميع الأسباب التى

يتوقف عليها وجود الفعل ، فإن ذلك بيد الله وحده ، فهو المهيمن عليه ، والقادر على إيجاده وترتيبه . وكيف لا يكون لنا تدخل والأسباب الجمادية لها تدخل في الأشياء كما هو مذهب السلف المأخوذ من القرآن ؟ قال تعالى : « يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » . فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به في الآية الأخرى « فأحيا به الأرض بعد موتها » فالباء للسببية الظاهرة ، وإن كانت الأسباب غير مستقلة ولا قائمة بنفسها . والممكنات كلها كذلك ، ولكن لها خصائص في عالم الحكمة ، وإن كان المتأخرون لهم من العبارات ما يفيد سلب كل خاصة لها وفائدة ترجع إليها ، محافظة على توحيد الأفعال فيما ظنوا . ولكنهم وإن وفوا بحق القدرة قد أخلوا بحق الحكمة التي جعلت الأشياء مراتب وقضت بالتفاوت بينها ، فلم تجعل النار كالماء ، ولا السم كالترياق ، فسبحان من خلق فسوى ، وأعطى كل شئ خلقه ثم هدى ! فكيف لا يكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟

هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو ملىسكها ، فكيف لا يعطى ما أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟ ولماذا يجعلون من الأسباب التى يتوقف عليها الفعل نظر الانسان وإرادته واختياره وترجيحه ؟ هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل فى الفعل ما ليس للعاقل المختار ؟ اللهم إن ذلك غير معقول . فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضرورى للعلم الانسانى ، بل غير ممكن . فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للانسان ، ولا داخل فى متناول قدرته . فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء فى أدواره وما يترتب عليه لا نعرف من أمره إلا الظواهر التى لا تسمن ولا تغنى .

أما كيفية انقلابه أعضاء مختلفة : فيصبح عينا باصرة ، وأذنا سامعة ، وغما مدركا الخ فهذه أشياء لا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها . وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح

الواضحات من حيث أطواره المعروفة ، ولكن كيف تكون هذا النبات من التراب ، وكيف استحال التراب أزهارا بهية وأثمارا شهية ، فذلك مما لا سبيل الى الوصول إليه . وهكذا الأشياء كلها .

ومما يجب أن يلتفت إليه أن كل شيء نستطيع البحث فيه الى حد محدود . فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب في متاهات الخيال ، ونخبط في مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

وسر ذلك أن الانسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ، ثم ينتزع منه ما قدرله من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده . ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط ، وتارة يخطئ فيما يحدس ويتخيل . وقد قرروا أن الوهم كثيرا ما يغلب العقل ، وأن القضايا الوهمية كثيرا ما تشبه بالقضايا الضرورية . والحق الذي عرفناه بالعلم ثم بالتجربة ، أن السلطان الغالب على الناس في هذا العالم إنما هو سلطان الوهم لا سلطان العقل ، ولا يكاد يخلص من سلطان الوهم إلا الفذ بعد الفذ .

هذا ولا نزال نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التي يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل إليها الانسان تماما ، وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجعا .

فالعلم بكنهه الأشياء على ما هي عليه من كل وجه ، تختص بالله تعالى : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . وقد خلقت على حد محدود في عقلك ، كما خلقت على حد محدود في سمعك وبصرك .

ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجاوز قدرنا ولم نتعد طورنا ، لزال هذا العناء ، وذهب ذلك الشقاء . وهي حقيقة يجب أن تقرر وتكرر ، حتى تملأ الرءوس ، وتثبت في النفوس . ومن العجيب أنهم أطالوا القول في هذه المسألة (مسألة أفعال العباد) منجدين ومتهمين ، مشرقين ومغربين ، فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الاسلامية والمسيحية .

ولوثأملوا لعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها، فكل شيء من الأشياء عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته، فما بالنا نتجاوز قدرنا ثم نكثر من الصراخ والضوضاء؟ ولوتركنا كلام المتأخرين في هذه المسألة ورجعنا إلى سلفنا الصالح، لوجدنا كلامهم أدخل في باب الحقيقة، وأقرب إلى الذوق والافتتاح. فانظر إلى قولهم: «أمرين أمرين لا جبر ولا تفويض» يريدون أن العبد ليس بمستقل استقلالاً تاماً، ولا هو مجبر على ما يأتي ويذر. وهذا شيء نحس به ولا ننكره، وإن لم يمكننا تحديده كما قلنا.

وقد سأل الإمام علياً كرم الله وجهه شيخ بعد انصرافه من صفين، فقال: «أخبرني عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟» فقال: «والذي خلق الحبة وبرأ النسيمة ما وطننا موطناً ولا هبطنا وادياً ولا علونا تلة إلا بقضاء الله وقدره». فقال الشيخ: «عند الله أحسب عنائي ما أرى لي من الأمر شيئاً» فقال له: «مه أيها الشيخ: لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها مضطرين» فقال الشيخ: «فكيف ساقنا القضاء والقدر؟» قال: «ويحك! لعلك ظننت قضاء مجبراً وقدراً قاسراً. لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة من الله للمذنب، ولا محمداً لمحسن، ولما كان المحسن أولى بالمسء، ولا المسء أولى بالذم من المحسن. تلك مقالة جنود الشياطين وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب، إن الله أمر بتحذيراً، ونهى بتحذيراً، وكلف يسراً، لم يعص مغلوباً، ولم يطع مستكراً، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار».

وقال الإمام الرضا: «إن الله هو المالك لممالكهم، والقادر على ما أقدرهم، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً، وإن اختاروا معصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل ففعلوا فليس هو الذي أدخلهم فيه».

أقول : ولهذا كله ترى القراء ان ينسب الأفعال الى العبد تارة والى الله تارة أخرى ، نظرا للأمرين ، وتوفية للمقامين . وهكذا يجب فى الشريعة الحكيمة التى تعتبر الأسباب وتراعى المراتب ، ثم لا تلبس أن تلفتكَ الى الحقائق وما يجب اعتقاده فى حق الخالق ، الذى تستمد جميع المخلوقات منه ، ولا غنى للممكنات عنه ، بمقتضى إلهيته الشاملة ، وربوبيته التى تمد كل شىء وتحيط بكل شىء .

والخلاصة أن هنا غلظتين : (الأولى) ظنهم أن علم الله بالأشياء يوجهها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار . ولا أدري كيف يفهمون ذلك ، مع أن العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذاً يؤكد الاختيار ولا يعارضه . و(الثانية) إخراج الإرادة الانسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغوا فى البين . وقد اختصرنا لك الطريق ، وأهدينا إليك لباب التحقيق .

وبعد : فمن عرف الألوهية وعظمتها ، لم يطمع فى معرفة أسرارها ولا اكتناه حكمتها فى مخلوقاتها ، فإنه تعالى دبر العالم على حسب علمه لا على حسب علمك . وكل من عرف عظمة الربوبية لم يوجه اليها سؤالا ، ولم يتبع فى شأنها خيالا . وما جاءت المصائب كلها إلا من تقديس الانسان عقله القاصر ونفسه الجاهلة ، وعدم معرفة ربه . ولكن اقتضى قصور عقله أنه لا يدرك قصور عقله ، وجهل نفسه أنه لا يدرك جهل نفسه .

كلمة ختامية :

رأينا أن نختم كلمتنا هذه بما رواه البيهقي فى كتابه الأسماء والصفات عن عمرو ابن ميمون عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه لما بعث الله موسى وكله قال : اللهم أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت . وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تعصى ، فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله اليه : إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . فاتهى موسى . رواه البيهقي فى مجمع الزوائد وعزاه الى الطبرانى

وزاد فيه . فلما بعث الله عزيرا سأل الله مثل ما سأل موسى ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أنتستطيع أن تصرصرة من الشمس ؟ قال : لا ، قال : أنتستطيع أن تجيء بمكيال من الريح ؟ قال : لا ، قال : أنتستطيع أن تجيء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا ، قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . فقال عيسى عليه السلام : القدر سر الله تعالى فلا تتكلفوه .

وروى الطبرانى عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال : وجدت أطول الناس فيه حديثا أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثا أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شمع الشمس : كلما زاد فيه نظرا ازداد تحيرا . وقد قال تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » .

وسر ذلك أن الله قد خلق العوالم كلها كالشيء الواحد ، فلا يمكنك أن تحكم على شيء من الأشياء بالأحكام الصحيحة المحيطة إلا إذا أحطت خبرا بجميع العوالم وما بينها من العلاقات ، وما لها من المراتب ، وما فيها من الأسرار .

وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى رسالتنا تفسير قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل » بغير ما قاله المفسرون . ولعلها خير ما كتب فى هذا الموضوع فيما نظن ، والفضل لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، والموفق يكفيه القليل ، والمخذول لا يقنعه الكثير .

أسأل الله أن يعرفنا قصور عقولنا ، وعظمة ربنا ، وأن يقينا شر الفتنة ، وألا يكننا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

يوسف الدمجوى
من هيئة كبار العلماء

بَابُ الْأَسْبَاطِ وَالْفَتْاَوَى

معاملة التجار وما فيها من الربا

استفتاء موجه الى فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

لا يخفى على فضيلتكم أن المعاملات قد تطورت حتى تركزت على حالة غير التي كانت عليها في الأزمان السالفة ، فقد كان الرجل لا يقدم على شراء شيء إلا إذا حصل على ثمنه في يديه فيشتريه ويبيت مطمئنا لا يطالبه أحد . أما الآن فقد استساغ الكل الأخذ بالآجال ، فلا زارع ولا تاجر ولا موظف ولا ذو مهنة ، إلا وقد أصبح مدينا . ومن تساهله في الدين صار يتدأبن فيما لا ضرورة له ، حتى صار كل واحد يئن مما عليه . وهذه حال عمت القرى والأقاص ، فلا تجد بلدا إلا وهذا حاله .

وقد نشأت هذه الحالة من وجود البنوك في جميع أنحاء العالم ، وهم يمدون المصانع بالأموال لكي تتوسع في صناعاتها ، ومتى توسعت اضطرت لتصريف مصنوعاتها . ومع كثرتها لا تجد مشترين يشترونها نقدا ، فتبيعها بالآجال . وهكذا تفعل مع الزراع والتجار ، حتى توسعوا في أعمالهم ، واضطروا هم أيضا لترغيب الناس في شراء ما عندهم بالآجال ، فأصبح جميعهم مدينا ودائنا معا . ونشأت حالة لا مناص منها وهي التعامل على قاعدة الربا . وعليه صرنا في حاجة الى فتواكم على السؤالين الآتيين :

١ — هل ما يدفعه التاجر من الفوائد عند تأجيل دفع المستحق عليه يعد معاملة

بالربا ، ولو كان في حالة اضطرارية مرغمة له ؟

٢ — وهل يبيع كميالات الدين الذي له على الناس يعد معاملة بالربا ، مع العلم بأنه

يبيعها بأقل من قيمتها، وهو إنما يضطر الى ذلك لأنه هو الطريق الوحيد الذى يصونه من السقوط والإفلاس والخراب المحقق؟

نرجوكم الجواب عن ذلك ولكم من الله الأجر والثواب . والسلام عليكم ورحمة الله

عباس عوف

احد التجار بالسكة الجديدة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

لا يجوز تأخير الدين مع الزيادة فيه لأجل التأخير . وهو ربا الجاهلية الذى عناه النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بقوله : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

وقد ذكروا فى قوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون » فى سبب نزول الآية أن الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين ما يؤدى ، قال له صاحب الدين : زدني فى المال حتى أزيدك فى الأجل ، فربما فعلوا ذلك مرارا حتى يصير الدين أضعافاً مضاعفة ، فهى الله عز وجل عن ذلك ، ونزلت الآية .

وقد نص الفقهاء على أن هذه الزيادة ممتنعة ، سواء كانت فى القدر أو فى الصفة . بل نص الفقهاء على أنهما إذا اتفقا قبل انقضاء الأجل على أن يؤخره أجلاً ثانياً على أن يدفع له رهناً أو حميلاً ، كان ذلك فى معنى الزيادة ، وكان ممنوعاً ، لئلا يلزم عليه سلف جر نفعاً . بخلاف ما إذا اتفقا عند الأجل على أخذ الرهن أو الحميل على أن يؤخره بعد الأجل الأول ، فذلك جائز ، لأنه كابتداء سلف على رهن أو حميل .

وعلى الجملة فهى لا تجوز . وهى داخلة — كما نص الفقهاء — فى باب : أنظرنى أزدك .

ومسألة بيع الكمبيالات المؤجلة بأقل مما فيها محرمة أيضا ، لأنها داخلة في تلك القاعدة القائلة : كل سلف جر نفعا فهو حرام . وهذا قد أقرضه مائة مثلاً ليأخذها بعد سنة مائة وسبعة أو مائة وعشرة على حسب الاتفاق الذى بينهما على ما يئنه السائل . وليس ما ذكره من الاضطرار والارغام بمبيح الربا . ولو أجنبناه لأجل ذلك لكننا كمن يداوى الأمراض الحادة بالمخدرات التى تحدث تسكيناً وقتياً ، ثم يعود الألم بعد ذلك بأشد مما كان ، مع ما يستتبع هذا العلاج من أمراض جديدة هى أخطر من المرض الأصلي .

فالدواء الحقيقى لهذه الكوارث التى شرحها السائل وذكرها على طولها ليكون فيها عظة وعبرة ، إنما هو التفكير فى استئصال هذه الأمراض من جذورها : بالرجوع الى العمل بالشريعة وتعاليمها الحكيمة ، التى تقى كل من اتبعها من التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة .

فلندع ذلك البذخ الفارغ ، وذلك الظهور الكاذب ، ولنعلم أن الضرورى للانسان فى هذه الحياة قليل لا كثير . ولكن الناس يغلطون فى هذا غلطا فاحشا ، فتشتبه عليهم الحاجيات بل الكماليات بالضروريات . ومعلوم أن الكماليات لا حد لها ، بخلاف الضروريات ، فما أقلها وأهون أمرها !

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا لماذا يحتمل
هوّن على نفسك فالدهر دول غايته الموت وإن طال الأمل
وليت شعرى ماذا صنعوا بتلك الظواهر الخلابية مع تلك الأفكار المضنية ، والمؤلمات
المبكية !

لا تغترر بنعيمهم فحسومهم فى جنة وقلوبهم فى نار
وعندى أنه لو كانوا ذوى حزم ورشد لتخلصوا من تلك الورطات بأية طريقة ،

وعملوا على تطهير أموالهم وإراحة أنفسهم من تلك الرزايا ولو بالتصفية المؤلمة (وليتولوها طوعا قبل أن يتولوها غيرهم قهرا) .

ولا غرو فالمرضى يرضى بتر أحد أعضائه ليعيش مستريحاً من ألم المرض وانتشاره في جميع الأعضاء . ومدار الأمر فيما أراه على قوة العزيمة وتوطين النفس على الرضا بالقليل ، وسلوك سبيل الاقتصاد في كل ما يأتي ويذر . وإذا صدقت منه العزيمة في الرجوع الى الله والتوبة مما هو فيه ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » . ولأن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، خير من أن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ينهار به في نار جهنم .

وكم شقاء يتصور للناس بصورة السعادة « أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا » . وكم أناس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وما أحسن قول من قال :

إني أرى الدنيا وليدة فتنة	رعناء قد كبرت عن الترتيب
قد جاء منطقها ونص كتابها	بالزور من خلق ومن تهذيب
ألف التناحر نازلها وانتهت	من غير تأليف ولا تبويب
يزداد فيها العقل عن مقدورها	والعقل يذنبها من التخريب

وخلاصة القول أنه لا دواء إلا ما جاء به الشرع الشريف ، غير أن المضطر له حكم آخر فيما بينه وبين الله تعالى تقتضيه الرحمة الإلهية ، ولكن ذلك خارج عن حد الفتوى في تحديده وبيان مقداره . ولعل صاحبه أدري به من كل أحد ، ولكن عليه أن يقدر الضرورة بقدرها ، وألا يغش نفسه ، وأن يلتجئ الى الله تمام الالتجاء متضرعا باكيا حتى يرشده ويعينه ، ثم ينجيه من دسائس نفسه الأمارة بالسوء ، فإنها أخفى من ديب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، فليكن منها على حذر ، وليكن رجوعه دائما الى خالق القوى والقدر ، فإليه يرجع الأمر كله « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك

لها، وما يُمسك فلا مرسِلَ له من بعده، وهو العزيز الحكيم». «إن أحسنتم أحسنتم
لا أنفسكم وإن أسأتم فلها».

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين في دينهم ودنياهم، وأن يلبسهم الرجوع إلى العمل
بشريعهم حتى يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها، بمنه وكرمه **يوسف الرجوى**
من هيئة كبار العلماء

استيضاح لفتوى

وقفت على فتواكم في مجلة نور الاسلام على سؤال الأستاذ أحمد محمد العدنى
في صفحة ٥٤ من المجلد السادس لسنة ١٣٥٤ هـ وهي إجازة تكم صرف أموال الزكاة المفروضة
على الأغنياء إلى موازنة فقراء المستشفى من المسلمين، وجلب الأدوية لهم، وعمارة
أبنية بإزاء المستشفى المذكور للفقراء المذكورين، وعمارة مدرسة إسلامية تعدد
لتعليم البنات صونا لهن عن غشيان مدارس المبشرين مع جلب المعلمات المسلمات. فقد
جاء جوابكم على طبق السؤال مشيرا إلى مشاهدة الحال، صريحا في صرف الزكاة إلى
ما أفاده السائل وحكا مع شرطه في آخر تحرير الجواب، كما لا يخفى على ذوى الأبواب.
وبما أن لي بعض الإلمام بالعلوم الإسلامية، فلي في ذلك مقال ينبغى بيانه، ولا يسعنى
كتامنه، فأقول وبالله التوفيق:

لا يخفى عليكم أنه سبحانه وتعالى قد حصر الصدقات في ثمانية أصناف، تضمنهم قوله
تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب
والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل». وكذا قوله صلى الله عليه وسلم لسائله الزكاة:
«إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء،
فإن كنت في تلك الأصناف — أى الأجزاء — أعطيتك حقك». رواه أبو داود.

فعلم من الحصر بأنما في الآية أنها لا تصرف لغيرهم ، وهو مجمع عليه ، وإنما وقع الخلاف في استيفائهم : فذهب الشافعي رضي الله عنه : يجب استيعاب الأصناف إن قسم الامام وهناك عامل ، وإلا فالقسمة على سبعة ، فإن فقد بعض الأصناف رد على الموجودين منهم . ومذهب الشافعي أيضا : في سبيل الله : هم الغزاة المذكور الذين لا سهم لهم في ديوان المرتزة لاستعماله في الجهاد أغلب عرفا وشرعا ، بدليل قوله تعالى في غير موضع : « يقاتلون في سبيل الله » فحمل الإطلاق عليه ، وإن كان سبيل الله بالوضع هو الطريق الموصلة اليه وهو أعم . قال العلماء : ولعل اختصاصه بالجهاد لأنه طريق الى الشهادة الموصلة الى الله تعالى ، فهو أحق بإطلاق سبيل الله عليه .

ولا يجوز أيضا في مذهب الشافعي صرف الزكاة في عمارة المساجد وتكفين الموتى وغير ذلك من المصالح العامة . وإذا كان لا يجوز صرفها الى ما ذكر فلا يجوز صرفها أيضا الى ما أفاده السائل ، فإنه من باب أولى ، لأن غايته أنه من المصالح العامة ، فلا يجوز صرف شيء من النفي ، للمتطوع ، بل لو عدم النفي ، واضطررنا الى المرتزق ليكفيننا شر الكفار ، أعانه الأغنياء من أموالهم . كما لا يصرف النفي الى مصارف الزكاة .

وقول المجيب : « إن البنات والمرضى المذكورين من جملة الفقراء والمساكين ، وإن الجماعة التي تأخذ الزكاة كأنها وكالة عن أولئك الفقراء والمساكين » لا بأس به ، ولكن هذا متعذر حصوله عرفا وشرعا ، وذلك أن الجماعة المذكورة لا يجوز لها قبض الزكاة من الأغنياء وصرفها فيما ذكر إلا بإذن من الفقراء والمساكين ، بل ومن جميع المستحقين . ولا شك أن هذا الإذن متعذر ، وصرف المتعذر متعذر ، لأن كل أحد من المستحقين متشوف لخروج الزكاة ومراقب لأخذها ، ولا تسمع نفسه بتركها الى ما ذكر . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس » . رواه الحاكم بإسناد على شرط الشيخين . وحيث إن الأغنياء دفعوا زكاتهم على هذا الوجه للمتعذر ، لم تبرأ ذمهم عن الزكاة ، بل يبقى حق المستحقين عندهم ، لأن عملهم

مردود، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» متفق عليه. ولاحمد «من صنع أمراً على غير أمرنا فهو مردود». وقال في الفتح: وهذا الحديث معدود في أصول الاسلام وقاعدة من قواعده، فإن معناه «من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت اليه» اهـ.

وقول المجيب معللاً: «لو فرضنا أن هناك فقيراً تعذر تسليمه الزكاة لجنونه مثلاً أو لغير ذلك، لم نتوقف في جواز إعطاء الزكاة لوليه والقائم على أمره، فهكذا هنا». فنقول: إن هذا في غاية البعد، لأنه ليس كل فقير مجنوناً، وليس كل فقير مسلوب العبارة، وإنما جوز في حق المجنون ونحوه لفقد عبارته، ولأنه حجب عليه الشارع، فلم يكن عليه الحجر المذكور لكان مثل غيره. فشتان بين المقيس والمقيس عليه. وحيث إنى رأيت الجواب في غاية العموم بادرت ببيان هذا من باب التعاون على البر والتقوى، ونرجوكم البيان في مجلة نور الاسلام.

الفقيه خضر بن عبد الله عبد الرحيم الحسيني النجفي اللحجي

حول حرمة اليانصيب

ورد على المجلة هذا السؤال من الطالب المفكر الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي بالسنة الرابعة من القسم الثانوى بمعهد الزقازيق يقول ما ملخصه:

قرأت من مجلة نور الاسلام ما يفيد حرمة تداول أوراق اليانصيب، الربا إن ربحت أو للغرم إن خسرت. ولكن في نفسى من ذلك شبهة أريد إزالتها، فإنها تثير في نفسى حل تلك الأوراق وجواز بيعها وطيب كسبها. ذاك أن لتلك الأوراق فوائد عديدة، ومكانة في الأعمال الخيرية، فهذه الجمعيات الاسلامية العديدة إن طالبت

ذوى اليسار بالتبرع لم تجد لهم أثراً، وإن حثت الناس على الجود لم تلق منهم نصيراً. وأمام هذه الجمعيات أعمال كثيرة في حاجة للمال وفقر للجهود الموحدة. فهذه جمعيات المواساة الإسلامية أرادت أن تنشئ مستشفياتها العظيمة ولو مكثت سنين طويلة ما جمعت مالا يذكر. وهذه جمعيات الملاجئ والإسعاف وغيرها تشتكي من قلة المعين ونذرة المحسنين. فالأمر أمران: إما أن تعلق هذه الجمعيات، وإما أن تبحث عن مورد جديد تؤدي منه أعمالها، فلو حرمتنا اليا نصيب لضاعت هذه الجمعيات وذهب أثرها.

بقي أن اليا نصيب تعدونه بيعاً، وهذا هو سر الإشكال. فلو نظرنا إلى غرض تلك الجمعيات لرأيناه شريفاً، وهو حث الناس على التبرع للأعمال الخيرية بفرض مكافأة لبعضهم ليتسابقوا في الإحسان. وإذا نظرنا إلى مشتري اليا نصيب وجدناهم لا يمدون طائفتين: طائفة مثقفة تعلم غرض الجمعيات فتدفع القرش جوداً وإحساناً من غير انتظار لجزاء، وطائفة تدفع القرش وتنتظر حظها عسى أن تكون من المكافئين. فأى ضرر في ذلك والأمر لا يعدو أن يكون مكافأة؟

الجواب

قال الله تعالى: «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما». وقد كان الميسر المعروف إذ ذاك عبارة عن اجتماع قوم من فتيان العرب ورجالهم، يأتون بجزور ينحرونها، ويأتون بقداح لهم كانت معروفة عندهم، وهي الأ زلام أو الأ قلام، وكانت عشرة، لكل واحد منها اسم خاص: الفذ والتوأم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعل والمنيح والسفيح والوغد، فيضعون هذه الأ زلام في الرابة، وهي خريطة خاصة بوضع الأ زلام فيها، ويسلمونها لأمين يديرها حتى يختلط بعضها ببعض، ثم يد يد على غير هدى فيخرج قدحا منها باسم واحد، ثم آخر باسم آخر، حتى يخرج العشرة الأ قدح. وكان لكل قدح من السبعة الأ ول نصيب معلوم: فللفذ جزء، وللتوأم جزءان، وهكذا إلى المعلى يكون له

سبعة أجزاء . أما المنيع والسفيح والوغد ، فلا شيء لها بل أصحابها يغرمون ثمن الناقة المنحورة . وكان من عادتهم أن يتعففوا عن أكل لحم تلك الجذور ، بل يفرقونه على الفقراء إباءاً وشمماً ، فكان الكثير من الفقراء يلتفت حولهم حينما يلعبون تلك اللعبة انتظاراً لما يصيبهم منها .

فهذه هي المنافع التي ذكرها الله عز وجل بقوله : « ومنافع للناس » . فما كان يعود على اللاعبين من لحمها شيء ، بل يكتفون بلذة الظفر والفوز ، ومع ذلك حرمها الله عز وجل بعد ما أنصفها ببيان ما فيها من منافع وما فيها من إثم . فإثمها تجرده واضحا في الحفيظة والحق يدلان نفس المغلوب فيضمر الشر لمنافسه ، وقد يندفع إلى السرقة منه أو البطش به ، مع الحسرة على مادفع ، ومع اشتطاط الغالب في التيه والصلف والمباهاة .

وهذا أمر من شأنه أن يوقع العداوة والبغضاء بين نفوس المؤمنين ، كما قال تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » ومظهر الايمان هو ما ذكر في قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وقوله عليه السلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » فإذا نهوا عن ذلك الميسر وهو لا يعود عليهم منه شيء ، بل جميعه كان يصرف للفقراء ، فكيف تبجيحه وهو يعود بحظ وافر بلا مقابل على واحد من الياسرين على حساب الباقيين ؟

وقد قالوا في سبب تسميته بالميسر : إنه يجلب المال بيسر وسهولة بدون أن يقدم المستفيد ما يناسب ما استفاده من المال ولو بعض المناسبة ، أو من اليسار أي الغنى فإنه جالب له بلا حق بالنظر لفريق ، سالب له كذلك عند الباقيين . ولو رأيت بعض من أولعوا بالميسر من صغار النفوس من الموظفين مثلاً ، وقد رصد لهم باعة تلك الأوراق ينتظرون خروجهم من الدواوين أول يوم في الشهر ليأخذوا منهم ثمن ما باعوه لهم أثناء الشهر من

تلك الأوراق ، لفاضت نفسك عليهم حسرات ، إذ يكون أول ما يصرفه من رزقه ورزق عياله هو هذه النقود الملقاة على الأرض ، بل المقذوف بها في اليم ، وهي عرق جبينه ، ومخط آماله وآمال أسرته .

ولقد عرضنا في العدد الثامن من المجلد الأول من مجلة نور الاسلام لهذا الموضوع بتفصيل واف يوضح رجوع هذه المعاملة الى الميسر ، فنحجب أن يرجع اليه القارئ ليقنع كل اقتناع . ومما قلناه هناك : « إذا كان اليانصيب ميسرا فكيف أباحته القوانين الوضعية مع حظرها لعب الميسر ؟ وأقول : إن القوانين الوضعية لم تبجعه بإطلاق ، وإنما رخصت لبعض الجهات الخيرية القائمة بالمشروعات النافعة أن ترتكب هذا الأمر المحظور بأصله لتصل الى مساعدات من الجمهور الذي قصر عن إدراك قيم المصالح العامة ووجوب النهوض بها ومساعدتها . فهي تكاد تشبه الانتقام من تلك النفوس الجامدة على الأموال ، بابتزازها منها بتصوير أن في ذلك إعطاء لها . وكل من عرف ما يدور بخلد المقبلين على مشتري تلك الأوراق لا يخالجه شك في أنهم إنما يشترونها طمعا في مصادفة السعادة من غير طريقها المأمون » .

ولقد بينا في ذلك الموضوع أن الشارع أبان من طرق الترغيب في التبرع للخير والبر ما لو اتبع تمام الاتباع لأغنانا عن مثل هذا الابتداع . وعلى الجملة فالحلال بين والحرام بين .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالي

وصالة ابن صراحة الانصاري

أوصيكم بالله أول وهلة وأحسابكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وإن أتم أعوزتموا فتعففوا وإن كان فضل المال فيكم فافضلوا

مؤتمر تاريخ الاديان

بمناسبة قرب اجتماع مؤتمر تاريخ الأديان في بروكسل في سبتمبر الآتي .
وبمناسبة تولية حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم حفظه الله فضيلة الأستاذ
الأب كبر الشيوخ محمد مصطفى المراغي شيخاً للأزهر ، وهو العالم الإمام الكبير ، المعروف
بسمو مداركه وفهمه للإسلام فهما عالياً صحيحاً ناضجاً ، وفهمه للحياة الاجتماعية الحاضرة
فهماً لا يقل عن ذلك .

وبمناسبة الحاجة الملحة الآن لتوجيه القوى والجهود الى توطيد أركان السلام العام
ودرء خطر الحروب العامة المستقبلية بقدر الامكان . وبمناسبة ما هو منتشر الآن في أوروبا
من اذخالات عن الاسلام ونبي الاسلام وكتاب الاسلام مما لا ينطبق على الحقيقة ،
الأمر الذي لا يتناسب وروح التعاون بإخلاص بين الشرق والغرب .

بمناسبة كل ذلك ، أهيب بمؤتمر تاريخ الأديان أن يتوسع في مهمته نوعاً لهذه الظروف
المحيطة ، وأن يأخذ عن الاسلام وتاريخه فكرة جديدة من أعضائه المصريين
الأزهريين ، وأن يجعل ذلك دستوراً لفهم الحقيقة الاسلامية ينير به الرأي العام في أوروبا
لينقذها من شرين محيقين :

الأول : شر الجهل بفهم حقيقة ديانة يعتنقها أربعمائة مليون من الجمعية الانسانية
يحتكون بأوروبا احتكاك الجوار والخلطة والامتزاج والوحدة السياسية والاقتصادية ،
بينما هذا الدين صريح الحقيقة واضح المبادئ والتعاليم ، ليس فيه غموض ولا التواء ،
يدرسه المسلمون في معاهدهم دراسة علنية ، في أيدي المستشرقين لو أرادوا الخدمة العلمية
الحقة أن يقفوا عليه من معاهده الاختصاصية وقوفاً تاماً ، ولا سيما من أكبر تلك المعاهد
وأقدمها عهداً منذ ألف سنة ، وأكثرها تبجراً ودراسة لجميع مذاهب الفقه الاسلامي ،

وهو معهد الأزهر الشريف، ولأنه يقع فضلاً عن ذلك في أقرب البلدان الشرقية حضارة لأوروبا، وفي أعرق البلدان العربية فقهاً باللسان العربي الذي جاء به الدين الإسلامي. وقد ضم الأزهر الآن روحاً جديداً من الثقافة العامة إلى ثقافته الإسلامية، مما يوجب على الجماعات الأوروبية وأقسام اللاهوت فيها ومقارنة الأديان، أن يتلقنوا معارفهم الإسلامية عنه، فليست تلك المعارف بأقل شأنًا من سائر البحوث العلمية التي تؤخذ عن الاختصاصيين من أهلها.

الأمر الثاني الذي يجب أن تنقذ أوربامنه، الناشئ من سوء فهمها للحقيقة الإسلامية، هو ذلك الازدراء والظمن المنتشران في بعض بيئات أوروبا ضد الإسلام والمسلمين، والمقابل بالمثل في العالم الإسلامي. ولا شك في سوء عاقبة هذه الروح العدائية بين أمم وشعوب متجاوزة مشتبكة في المصالح والاستعمار، لاسيما والعالم الآن على شفا حرب مستعرة، توقدها السياسة، فتنفجر لها براكين العلم والكيمياء الجهنمية، بما لم تره الكرة الأرضية في تاريخها.

فيجب لذلك قبل حصول الخطر أن يصطلح الأخوان الغرب والشرق، ويكف الغرب عن ازدراء الشرق والإسلام، وتقف حركة التأليف المنتشرة في أوروبا بالظمن على الإسلام من المبشرين والمستعمرين والملحدين وجهلة المستشرقين، وتنشأ حركة تأليف عكسية تقرب الهوة بين الشرق والغرب، وترفع تلك البغضاء الشاحنة بين العالم الإسلامي والأوروبي، جذبا لأعنة السلام العالمي بأسباب هي في أيدينا الآن.

ولا شك أن مؤتمر تاريخ الأديان هو قوة من القوى، وعند الخطر تتجه القوى كلها إلى درئه، والمؤتمر صوت مقبول محترم ينفع ويسمع إذا علا وارتفع، ولا لوم عليه إذا خص الإسلام بهذه العناية في دورته هذه لمزيد احتكاك الإسلام بأوروبا في الوقت الحاضر.

فعلى أوروبا الآن بعد فشل تجاربها العديدة ومؤتمراتها المتنوعة لضمان السلام العالمى أن تخلع عنها الكبرياء والغطرسة ، اللذين كانت تنظر بهما للإسلام قتره صورة وحشية ، وأن تسعى فى فهم حقيقته عن أهله ، وأن تكف سفهاءها عن الطعن فيه ، وأن تتخذ منه جارا ونصيرا لمفاجآت الدهر المقبلة . ولها فى الأزهر وشيخه الحالى أعظم فرصة سانحة لحسن التفاهم العالمى والسلام .

محمد عبد السلام القبانى
المدرس بالأزهر

ما قيل فى اصطناع المعروف

قال الأحنف بن قيس : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئا افضل من اصطناع المعروف عند ذوى الاحساب »

وقال حكيم : « أحي معروفك بامانة ذكره ، وعظمه بالتصغير له » .

وقال حكيم آخر : « من تمام كرم المنعم التغافل عن حجبته ، والاقرار بالفضيلة لشاكر نعمته » .

وقال غيرهما : « للمعروف خصال ثلاث : تعجيله وتيسيره وتستره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بنحس المعروف حقه ، وسقط عنه الشكر » .

وقيل لمعاوية بن أبى سفيان : « أى الناس أحب اليك ؟ قال : من كانت له عندى يد صالحة ، قيل : فان لم تكن له ؟ قال : فمن كانت لى عنده يد صالحة » .

وقال ابن المبارك : « عن حميد عن الحسن قال : لأن أفضى حاجة لأخ لى أحب الى من عبادة سنة » .

وقال اسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد قال : « إن الله خلق خلقا من رحمته برحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون الحوائج للناس ، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن » .

وقالوا : « جهد المقل أفضل من غنى المكثر » .

دحض شبهات عن الاسلام

للأستاذ (أسياء بومان) العالم الجغرافي الأمريكي مؤلف عنوانه (العالم الجديد) أعاد طبعه وزاد عليه فصلاً جعله تحت عنوان (العالم الاسلامي)، وقد أفاض فيه في نواح سياسية واقتصادية واجتماعية لا نرى أن نساجله البحث فيها، ولكنه تعرض لناحية دينية لا نجد بدا من تصحيح نظره فيها. وإنا لناشرون هنا ما قاله في هذا الصدد، فإليك :

« قد وحد محمد القبائل العربية التي كانت في حالة تنازع مستمر، وأقنعها بأن تجتمع على غرض مشترك هو إعلان الحرب على العالم غير الاسلامي وتوسيع سلطان المسلمين. فضى على الاسلام ثلاثة عشر قرناً سمحت له فيها فرص كثيرة أن يمد رواق سلطانه على مساحات واسعة من الأرض وبين أمم مختلفة، فخفض لتعاليمه السموم والسود والصفير، وانتشر انتشاراً مخيفاً ليس بين أهل الشرق المزدحمين في بيئاتهم فحسب، ولكن بين سوداً وأواسط أفريقيا أيضاً. وسيطرة الاسلام بوجه عام على أتباعه خارقة للعادة الى حد أنه لا يوجد قط مسلمون تحولوا الى الديانة المسيحية. فنذ نشوئه لم يتأثر أتباعه بما طرأ على الممالك المجاورة له من الحالات المتعاقبة كال تقدم في الثقافة أو في السياسة، وكالتفكك والتضام، وكالتوسع والتقلص، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العالمية. »

« لم تعوز الاسلام الفرصة ليكتشف ضعف أقوى أعدائه ثم يكره فيقضى عليهم. وعلينا أن نتساءل : هل في تاريخ الاسلام أو في الموقف الحالي للعالم الاسلامي ما يعزز الخوف من أنه في مملكته الواسعة قد يعمل للقضاء على المدينة الغربية الراهنة؟ »

فأجاب الأستاذ أسياء على نفسه : « بأن ذلك يقع لو أمكن اتفاقهم وتوحيدهم، ولكن لقيام عقبات من ضروب شتى في وجوههم تمنع هذا الاتفاق، فإنه لا يخشى منهم عليها. »

هذا ما قاله الأستاذ أسياه ، وإن لنا فيه لكلاما ، فنقول :

يؤسفنا أن نرى عالما جغرافيا يعرض لدين عالمي يدين به نحو خمس سكان الأرض على هذا الوجه ، فيعطي للناس منه صورة لا تمت إليه بصلة من أية ناحية من النواحي . إن الذى يتلو العبارة التى نقلناها هنا عن كتاب (العالم الجديد) بخيل إليه أن الدعوة المحمدية كان مرماها الوحيد لتحقيق غاية حربية هى الإغارة على العالم غير الاسلامى ، وإخضاع أممه وشعوبه لحكم المسلمين . وهذه تهمة تنفّر من الاسلام كل من يطلع عليها ، ويمدده خطرا على المدنية الانسانية ، وعلى النظم الاجتماعية ، فهل يستطيع الأستاذ (أسياه) أن يدلل عليها من نصوص كتاب الاسلام ، أو من تاريخ رسوله ، أو من سيرة أصحابه ؟

وهل يصح أن يكون للدين الذى يقول كتابه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » غرض مادى يسعى لتحقيقه من وراء إذلال الأمم وإخضاعها لسلطان أهله ؟

إننا لعارضون هنا حقيقة الاسلام وأغراضه الاجتماعية السامية ليرى القارىء أين منها الأستاذ (أسياه) وغيره من الذين يكتبون عن الاسلام بغير بحث ولا تحقيق : الاسلام قبل كل شئ دين أنزل على فترة من الأديان ، وبأخرة من الزمان ، ليبالغ أهل الأرض آخر رسالة سماوية ، ويختتم دور الوحي بحقائق فيها سعادة الانسانية ، وشفائها من عللها الخلقية والاجتماعية . فجاءها بأصول هى على أعظم جانب من الخطورة ، فهمها السابقون الأولون وتخلقوا بها وقاموا بنشرها ، فدانت لهم الأرض . فإن كان بهول الأستاذ (أسياه) الدوى الكبير الذى أحدثه المسلمون فى العالم ، فهو أثر هذه الأصول لا أثر تلك الفتوح ، وهذا سر بقاء جميع الشعوب الاسلامية على عقيدتها طوال هذه الأحقاب ، لا تنتقل عنها الى عقائد أخرى ، لأنها ترى أن ما هى عليه ليس مما يستبدل به شئ ، آخر من أعراض هذه الحياة .

وقد كان يجب على الأستاذ (أسياه) أن ينظر ما هي تلك الأصول وما سر تمسك أهلها بها الى هذا الحد، لا أن يتعجل فيصف الاسلام بأنه أشبه باتفاق جنائي على تدوين العالم وإخضاعه لقوم مخصوصين .

أما ما يوصى به الاسلام كل آخذ به فهو :

١ — دعوة الناس كافة الى تعارف عام ماداموا إخوانا أبوهم آدم وأمههم حواء ، والإهابة بهم الى التعفية على الحزازات النفسية التي أوجدتها الأوهام القومية ، والفوارق الجنسية واللغوية ، وحملتهم على التحاقد والتناحر . قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح كلكم لآدم وآدم من تراب » .

٢ — والدعوة الى وحدة الدين . فإن الاسلام يقرر أن الله أوحى الى أنبيائه جميعا ديناً واحداً هو ما يتفق والفطرة التي فطر الناس عليها ، ويتلاءم والعقل الذي غرس في نفوسهم احترام أحكامه . ولكن قادة الأديان تناولوا هذا الدين بالشرح والتأويل متابعة لأهوائهم ، وإخضاعا للناس الى سلطانهم ، فاختلف عن أصله ، وذهبت كل أمة فيه مذهبا يبين ما عليه غيرها ، فبعدت بينهم شقة الخلاف ، فصار الناس يتبعون أوهاما وضعية ، لا حقائق إلهية . فكان الله يتدارك الانسانية بالرسول يبعثهم الى الأمم في فترات من الزمان ليهدها الى ما كانوا يختلفون فيه من الحق ، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ليعلمن للناس كافة حقائق أولية صرفهم عنها قادة الأديان استغلالا لجهالتهم ، وهذه الحقائق هي أن دين الله واحد ، وأن الأديان لم تتخالف إلا بسبب بني قاداتها ، وأن الاسلام هو ذلك الدين الفطري الأول في تقائه ، فهو ليس بشيء جديد يريد أن يكلف به الانسانية استغلالا للعاطفة الدينية . وأن الناس ماداموا قد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا وجب عليهم أن يرجعوا الى هذا الدين الفطري ويتخذوه إماما لهم ،

ومؤداه لا يخرج عما يجدونه منقوشا في صميم قلوبهم بالفطرة ، وما يدركونه ببداهة العقل ، وهو : أن يوحّدوا خالق السكون ولا يتناولوا ذاته بأفكارهم ، فانه يتعالى عن متناول العقول كما تعالى عن متناول الأبصار ، وأن يعتقدوا بجميع من أرسلهم الى الناس من رسل ، وما أنزل اليهم من كتب ، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، وأن يقيموا سلطان العقل ، فلا يستسلموا للأوهام ، ولا يعتقدوا شيئا إلا بدليل ، وأن يطلبوا الحق حيث كان ، وقيموا العدل ولو على أنفسهم ، وأن يتخلقوا بحمائل الخلال كالأحسان والرفق ، والسخاء والحياء ، والشجاعة والحلم والأناة الخ ، وأن يطمحوا الى معالي الأمور ويتجنبوا سفاسفها ، وأن يطلبوا العلم والحكمة حيث وجدوها ويعلموها للناس ، وأن يستعمروا الأرض ويحيوا مواتها ، وأن يتقنوا ما يصنعونه ويبلغوا به أقصى ما يمكن أن يبلغه من كمال ، وأن يرتقوا في الأسباب يأخذوا بالأصلح من كل شيء ، وأن يعملوا على نشر كلمة الله في الأرض .

الاسلام يقول إن هذا كله مؤدى كل دين أنزله الله الى العالم ، فإن كان من الأمم من خلط في عقائده ، وضل في مذاهبه ، واستسلم لأوهامه وأوهام غيره ، فليس ذلك من دينه الفطرى الذى غرسه في قلوب الناس كافة ، ولا من مولدات العقل فانه مفطور على نفي الخزعبلات ، ولكن من استسلامه لزعماء أمكنهم من ناصيته فطوحوا به الى حيث شاءوا من مهامه الأضاليل ، ومثاته الخرافات .

أما وقد دار الزمان ، وبلغ العقل رشده ، فان الله أرسل رسوله محمدا بالدين الأقدم وهو دين الفطرة البشرية ، ليهيب بالناس اليه تحت ضوء العقل ، وعلى هداية من العلم . هذه مراعى الاسلام ، وهى عينها مراعى كل فلسفة وعلم فى الأرض ، فمن أية النواحي يعاب أهل دين على تمسكهم بهذه الأصول التى تعتبر عالمية عامة لا قومية خاصة ؟ وأى اتفاق جنائى يمكن أن يلحظ فيها حتى يقوم مثل الأستاذ (أسياه) فى القرن العشرين فيعلن أن المسلمين يتربصون بالسوء بالانسانية ؟

ينزعج الأستاذ (أسياه) من أن المسلمين لم يتأثروا بما طرأ على الأمم المجاورة من الحالات المتعاقبة، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العامة. وإني لسأله: إن قوما على مثل ما ذكرته هنا من الأصول القويمة، والمبادئ العالية، وعدم التناقض بين العلم والعقيدة، كيف يعقل أن يتأثروا من أحوال متعاقبة طرأت على الممالك المجاورة من شكوك في الدين تحت تأثير العلم، ومن إلحاد فيه تحت مسولات الفلسفة المادية، ومن تولد المذاهب المتطرفة فيهم كالاشتراكية والشيوعية من سوء توزيع الثروة بينهم، مما مزق أحشاء الممالك وجعل أهلها شيعة، ومما مهدد المدنية العالمية بالخطوب الجسام؟

يجيب الأستاذ أسياه من ثبات حال المسلمين بإزاء جميع هذه التقلبات، ولكني أسأله: إذا كان قوم على مثل هذه المبادئ التي ذكرتها، لا يجدون مطعنا فيما هم يدينون به من الدين، ولا مغمزا في الأصول الاجتماعية والأدبية التي يوصى أهلها بها، بل يجدون أن كل ما أصابهم من محن، وما أصاب العالم من ثورات وانقلابات، أدلة محسوسة على صدق ما لديهم من تلك الأصول، أفيمكن أن تأثير هذه الانقلابات العالمية حولهم تثبتا لهم في عقيدتهم أم تشكيكاً لهم فيها؟

أما كان الأولى بالأستاذ (أسياه) أن يدرس علل هذا الثبات من المسلمين أمام التقلبات الخاصة والعامة ليرى السر فيه كما فعل قبله مواطنه الأستاذ الكبير (دريبر) فأودع كتابه (التنازع بين العلم والدين) ما أودع من ثمرات الدرس المستقل والفكر الحر والنظر الصحيح؟

على أن دريبر ليس الوحيد في دراسة الاسلام، فقد تقدمه (جوت) أكبر عباقرة الألمان فقال: «إذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه». وتقدمه أيضاً الفيلسوف الانجليزي الكبير (كارلايل) ومؤرخون وفلاسفة كثيرون وأقربهم منا (برناردشو) وقد بزغ جميعا بقوله: «إنه لو تولى العالم الأوروبي رجل كمحمد لشفاه من علله كافة، وإن العالم بدأ يفهم ما هو الاسلام، وإنه سيتم إسلام أوروبا عامة في قرنين من الزمان». أجل: ومن كان عنده دواء لنفسه وللعالم أجمع فإنه يفكر في اتخاذ الوسائل التي

توصله الى استعمال هذا الدواء والانتفاع به ، وهو ما تراه باديا اليوم في كل شعب من شعوب المسلمين .

يخشى الأستاذ (أسياه) من اتفاق المسلمين على مصير المدنية ، وفي هذه الخشية دلالة كبيرة على تجاهله تاريخ المسلمين . فليس مثله من يستطيع أن ينكر أن المسلمين في أول عهدهم أنقذوا المدنية العالمية من التلاشي ، وحفظوا العلم من الزوال . ألم يعلم أن العالم الانساني كله كان في إبان البعثة المحمدية في ظلام حالك من الجهل تحت حكم الطوائف الدينية ، وكان يجازى بالحرق كل من يجرأ على أى بحث حر أو إبداء أية نظرية ، أو القيام بترويج أى مذهب لم يكن مقررا من قبل ، وأن الكتب العلمية كانت قد كدست في خزائن مؤسدة ترتع فيها الحشرات ، وتؤخذ من عيون كتبها الصحف لاستعمالها في الحاجات العادية . فلما بعث الله المسلمين أخذوا يجمعون هذه الكتب ويترجمونها الى لغتهم ، ويزيدون عليها من مباحثهم ، وينشرونها في جميع أرجاء العالم ، وأنهم قد ألفوا بين مدينة اليونان والفرس والهند والرومان ، فأخذوا من كل منها أحسنه ، وأسسوا مدنية جديدة بزت جميع المدنيات التي سبقتها في الأرض رواء وروعة ؟ ويرى الأستاذ (أسياه) بعينى رأسه نابذة المسلمين تدرس في جامعات الغرب مع أبنائه جنبا الى جنب ، ويرى شعوب الاسلام تقتبس المدنية الحديثة ولا ترى حرجا إلا مما يرى أهل الغرب أنفسهم أنه خروج عليها يجب التصون منه .

فلا يخافن الأستاذ (أسياه) من المسلمين على هذه المدنية ، فإنهم كانوا السبب الأول في ازدهارها بعد ذبول طال عليها الأمد فيه ، بما أمدوها به من معارفهم ، وما زودوها به من صنائعهم . فلتن كان يخشى منهم على شيء منها ، فعلى العوج الذى بها ، وعلى العلل التي أزمنت في أحشائها ، وهذا يعتبر إصلاحا فيها لا إفسادا لها .

برؤى الأستاذ (أسياه) أن المسلمين قد توصلوا الى بسط رواق سلطانهم على مساحة عظيمة من الأرض .

نعم إن قوما يقومون على مثل ما قام عليه المسلمون من الأصول العالية والمبادئ القيمة لا يكونون جديرين لأن يبسطوا رواق سلطانهم على جزء عظيم من سطح الأرض فحسب ، ولكن يحق لهم أن يؤملوا أن يتوب الناس الى أصولهم ومبادئهم مسوقين بعوامل الترقى ، وهم لا يركنون الى هذه الآمال كما يركن أهل البطالة الى الأحلام المستحيلة ، ولكنهم يقررونها علميا ويشاركون في هذا الرأي رجال من أهل العلم الغربيين ممن لا يتهمون بحباية المسلمين وتلقهم .

فليهدأ بال الأستاذ (أسياه) وبال الذين يرون رأيه ، فإن المسلمين حمو العلم والمدنية أيام لا حاشى لهما ، وجروا بهما شوطا بعيدا في طريق الترقى والتكامل . وإذا عادت زعامة العالم إليهم كما كانت فسيكونون أبر الناس بهما وأكثرهم رعاية لهما .

هذا ما رأيانا أن نعقب به على كلمة الأستاذ (أسياه) وإن لنا لكلمات أخرى على أمثال هذه التهم التي لا يفتأ يرى المسلمين بها بعض المتكلمين عنهم وعن دينهم حتى يحق الله الحق بكلماته ، وهو خير الناصرين .

محمد فريد ومبرى

الأرض الخصبة أفضل المال

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان : إنما أنت هاتف بلسانك لا تنظر في أود الكلام ولا في استقامته ، فإن كنت تنظر في ذلك فأخبرني عن أفضل المال .

فقال : والله يا أمير المؤمنين إنى لأدع الكلام حتى يختمر في صدرى ثم أذهب به ، ولا ألطف فيه حتى أقيم أوده ، وأخبر متنه ، وإن أفضل المال لبرة سمراء في تربة غبراء ، أو نعجة صفراء في نبعة خضراء ، أو عين ثرارة في أرض خوارة .

قال معاوية : لله أنت فاين الذهب والفضة ؟

قال صعصعة : حجران يصطكان ، إن أقبلت عليهما نقدا ، وإن تركتهما لم يزيدا .
ونظر عبد الله بن عباس الى درهم بيد رجل فقال له : إنه ليس لك حتى يخرج من يدك .
يريد أنه لا ينتفع به حتى ينفقه ، ويستفيد غيره مكانه .

أسرار التشريع الإسلامى وفلسفته

وقفنا بحضورات القراء عند حدود متنوعة من البحث الفقهى، الذى يتلاقى مع ماسن فى البلاد من قوانين لها أوثق اتصال بالأحوال الشخصية ويجرى تطبيقها فى المحاكم الشرعية، إرادة أن نكشف لهم عن جانب من جنبات الفقه الإسلامى فى نوع من معاملات العباد بعضهم لبعض، يتصل به علم القضاء فى محاكم الأحوال الشخصية، ويفصل فيه على هدى مذاهب الأئمة المجتهدين، وآراء الفقهاء المشترعين.

والآن نريد أن نعرض ولو بإلمام يسير فى هذا الجعفر عن حكمة إرسال الرسل، تمهيدا للكلام فى الجعفر الثالث عن حكمة تشريع النكاح، ثم فى الرابع عن محرماته، وفى المبحث الخامس عن مباحاته، وفى الجعفر السادس عن اضطراب وقع فى آراء المشترعين فى الفقه الإسلامى بين جمهرة من علماء بعض العصور المستحدثة، وفى المبحث السابع عما أطبق عليه المشترعون فى أحكام النكاح بكافة فروعه، والثامن عن الأسرار فى مشروعية الطلاق بكافة مدلولاته بما وقع فيه من اصطلاحات متباينة فى حدودها وتفصيلها لدى الطوائف الإسلامية والفرق المسيحية، وأقوال أئمة علماء الفروع وما يفتقر اليه المبحث من مدد فى الأصول الأربعة، وعن المبحث التاسع فى أنواع الطلاق وجملة من البحوث لأصحاب الآراء الحديثة العصرية، وبعض فقهاء القانون المصرى وشطر غير قليل من مبادئ لأحكام صدرت فى بعض المحاكم الأوربية لها أوثق اتصال بموضوع الطلاق. فلنؤت القارئ بما وعدناه به فى مبحثنا الراهن من حكمة إرسال الرسل.

فالحكمة فى إرسال الرسل جميعهم إسعاد الناس، وإصلاح شئونهم الدنيوية والأخروية، وإيصالهم الى ما أرادهم لهم العلم الحكيم من السكال، وذلك لا يكون بدون

الرسالة التي تتلقاها الرسل عن باري النسمات ومدير الكائنات ليبلغوها الى الأمم، أداء للأمانة في أكمل حدودها وأبلغ مداها، وانتصافا لداعية الهداية في الخلق أن تتغلب بقهرها وسلطانها على داعية الشر المنبعث في ظلمة الشهوة الموزعة على أعضاء الجسم والحواس، ولكن لا تدرك حكمة إرسال الرسل إلا بفهم أمور أربعة:

الأول - أن الله جلت قدرته خلق الناس وركب فيهم شهوة باعثة على فعل ما ينبغي تركه، ونفرة حاملة على ترك ما ينبغي فعله، ومنعهم عقلا مضادا لهم، ووضع زمام الاختيار في أيديهم، وأمكنهم من فعل الطاعة والمعصية، فأدركهم التكليف الذي سره بعد ذلك أمران جليлан: أحدهما حظر المنكرات والقبائح، كنهت الله بما لا يليق بجلاله وعظمته، وإعراض النعم عليه عن شكر النعم، ومقابلة إنعامه بالإساءة، فإن ذلك يكون مباحا بغير التكليف، وإباحته باطلة قطعا. وثانيهما سعادة المكلفين، لأنهم بفعلهم الخير وتركهم الشر امتثالا لأمر الله تعالى ونهيه مع وجود الدواعي لأضدادها، يتمتعون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولكن تنازعت الدواعي هؤلاء المكلفين، وتدافعتهم الصوارف، ونالهم من النفس الأمانة بالسوء غناء عند إرادتهم اتباع العقل، ومن العقل الأمر الناهي تأنيب عندهم بمطوعة النفس، فأوقفهم التردد وأقعدتهم الحيرة، فكان من رحمة الله وقدرته أن يقوى التعريف العقلي بالتعريف الشرعي على ألسنة الرسل الكرام، لتقوى دواعي الخير فيميل اليه، وتضعف دواعي الشر فينأى عنه. ولولا ذلك لما سهل على أحد عصيان نفسه والعمل لسعادته، ولما عرف ما أريد له معرفته من شئون الله تعالى وصفاته، ولما كان لله على الناس حجة.

الثاني - أن النوع الإنساني بما فطره الله تعالى عليه مجبول على الاجتماع، فإن حاجاته الضرورية والكسالية تستدعي تساعد الأيدي العاملة، وتحمل على الصلة بين الأسرة والعشيرة، بل بين الأمة جميعها، بل بين العالم كله. بيد أنه قد تمكنت منه لذة الاستئثار

بالنافع ، فهو لا يسكاد يفتر عن السعى له بكل قوة وحيلة ، وتسلب عليه حب الرفعة التي لو رامها من وجوه الخير لكان ذلك مانعا لبعض الشر ، ولكنه سلك لها كل سبيل ، وطلبها باللباس الأفتدة لباس الرهبة لا الحرمة ، وهذان كافيان لهدم بناء الاجتماع الذي قام على أس الضرورة ، ولهذا أراد كثير من عقلاء الأمم حفظ المجتمع الانساني من خطرهما المحقق به ، فوضعوا أصولا للفضيلة وبيانا للارذيلة ، وأيدوا ما وضعوه بالبراهين العقلية ، ونادوا في الناس للأخذ به ، إلا أنهم لم يصلوا بذلك الى ما أمثلوا ، لأن تفاوت الناس في الإدراك ونفرتهم من الانقياد لغيرهم ، حلام على عدم احترام تلك الموضوعات والأخذ بها . ويعلم الله أن الناس بما يشاهدونه في أنفسهم من العجز والتسيير آونة الى غير مقصدهم ، يرون أنهم مهورون بقوة فوق قوتهم وقوة ما يحيط بهم من المشاهدات ، ومسировن بإرادة تصرفهم تصرفا لا يفقهون كنهه ، وأنهم مذعنون لهذا الذي فاق قوتهم وغلب إرادتهم وإن اختلفوا في فهم ما اتفقوا على الخنوع له . أتاهم الله تفضلا منه وإحسانا من هذه الجهة ، جهة الخضوع والاستكانة ، وأرسل إليهم هادين مميزين بخصائص في أنفسهم ، ومؤيدين بآيات باهرات ، ومعجزات قاهرات ، يؤوب بها عقل العاقل الى رشده ، وبرعوى بها الجاهل عن غيه ، وبني كل منهم الى قبول ما أتى به هؤلاء الرسل من الأنوار الغالبة للعقول ، الموضحة تينك القوة والإرادة ، الموقفة كلا عند حده ، الحافظة للمجتمع الانساني من التفرق والاضمحلال ، المرشدة لخيري الدنيا والآخرة .

الثالث — أن الناس وإن كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة إلا أنهم يجهلون حدود ما يستوجب السعادة فيها ، وشروط قبول الأعمال وحبوطها ، فإن لأعمال النفس تأثيرا في الأعمال الظاهرة . وعلل النفس كثيرة وخفية . فلا بد هنا من المرشد الروحاني الخبير بشئون الملأ الأعلى وشروط العروج إليه . والعقل وحده لا يستطيع أن يهتدى الى كل ذلك ، وحاجة البشر الى الأنبياء كحاجتهم الى الأطباء . ولذا لو لم يمن الله جل وعلا

على جميع عبادهم وخاصتهم بإرسال رساله بالبينات والهدى لينزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، لما سهل على أحد منهم معرفة حقيقة ما يحصل به صلاح معاده . ولذا قال الرؤوف الرحيم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

الرابع - أن هذا العالم الحادث التام الصنع والترتيب في دقيقه وجليله لا بد له من محدث عالم حكيم ، وأن هذا المحدث هو إله الخلق أجمعين ، والملك المطاع على الإطلاق الذي يب أن يكون له تكليف على عبادهم ، وأمر بالخير ونهى عن الشر ، ووعد على الطاعة ووعد على المعصية ، وذلك لا يكون إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب . فمن أنكر الرسالة فقد أنكر أن الله ملك مطاع ، وطعن في ذلك . ولهذا قال تعالى في منكرها : « وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

ولما كان إرسال الرسل في حاجة الى تبيان ما أرسلوا من أجله وما بلغوا له الرسالة عن ربهم ، كان يسيرا علينا أن نعرض لكثير مما جرى به التعامل في باب المعاملات الواقعة بين العباد ، وكيف أنهم يكونون أطرافاً متبادلة في العقود التي تقع في باب التصرفات الحاصلة شرعاً بين ذوى الأهلية . ولا مرية في أن القضاء في حدود الأحوال الشخصية من شتى التصرفات في باب المعاملات ، وأن نعرض لأشدها اتصالاً بها أولاً فأولاً . من أجل ذلك يجب أن نعرض لجمع النكاح وهو الجمع الذي يمت الى القضاء الشرعي ، لغالبية ما يقع من حادثات وخصومات في ساحة التقاضي ، وما يغمر عقول العامة من شهوات الانتقام فيذهبون لفورهم الى القضاء اختصاراً للطريق ، وهذا ما يشبع نهمة العامة .

أما النكاح في مباحثه وتعاريفه إجمالاً وتفصيلاً فهو يتنوع الى خمسة أنواع (١) النكاح وأسراره (٢) من حرم نكاحهن وأسرار هذا التحريم (٣) تعدد الزوجات والسريات وأسرار ذلك (٤) حقوق المرأة في الاسلام (٥) العلم بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم في النكاح وأسرارها .

فمن الأول : النكاح في الاصطلاح الذي تواضع عليه الفقهاء : عقد يستلزم حل الاستمتاع (ويستتبع تعاوناً على الحياة) وقد ورد فيه قوله تعالى : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تكثروا » وهو سنة من سنن سيد المرسلين ، قال الصادق الأمين : « النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني » بل هو من سنن الأنبياء السابقين ، قال تعالى وهو أصدق القائلين : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلناهم أزواجاً وذرية » . وقال في الرهبانية : « ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » . أما ترك سيدنا عيسى عليه السلام له فلمل السر فيه أن حاله كان يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة ، فأخذ بالحزم واحتاط لنفسه . وأما غيره من باقي الأنبياء فقد أخذوا بالعزم وجمعوا بين فضلى العبادة والنكاح .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة عزمه لا تمنعه كثرة نسائه عن التخلي للعبادة ، ولا يذوده أمر هذا العالم عن حضور قلبه مع إلهه ، فقد كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش زوجته ، ولهذا لا يجوز لنا أن نقيس أنفسنا عليه في الإكثار من النساء . وأما أسرار مشروعية النكاح وجعله من السنن التي نذب الله ورسوله إليها فهي : أولاً — إيجاد الولد الذي هو الأصل فيه ، والسر في خلق الشهوة في الذكر والأنثى ، لأنها تعين الذكر على إبراز البذر والأنثى على التمسك من الحثر ، فيكون بهذين اقتناص الولد ، كما يكون بالحلب الذي يلقى بالشبكة اقتناص الطير . ولهذا ينبغي أن نطلب الوكود من النساء ، ويعرف كون البكر ولوداً بأقاربها .

واعلم أن في الولد فضائل تستدعى تطلبه وتحمل على الرغبة فيه : (أولها) وجود خلف ينتفع به وترجى الرحمة بدعائه ، قال ، عليه الصلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(ثانيتها) تقديم فرط للآخرة ينتظر نفعه وتؤمل المغفرة به .

(ثالثتها) السعى في رضا نبينا الرحيم بنا بتكثير ما به زيادة قدره ونماء شرفه ،
للحديث السابق ، ولقوله عليه السلام : « تناكحوا تكثروا فإنني مباه بكم الأمم يوم
القيامة حتى بالسقط » .

(رابعتها) موافقة ذلك لإرادة الله من حصول النسل وعدم خلو هذا العالم من
الانس ، فإن العبد القادر على العمل إذا أعطاه سيده بذرا وآلة حرث وهياً له أرضاً
للزرع ووكّل به من يتقاضاه عليها فأدى ما أريد منه ، كان موافقاً لإرادة مولاه ومستجباً
بذلك رضا ، وإن قعد به كسله عن العمل بأن هجر تلك الأرض وعطل آلة الحرث وترك
البذر حتى فسد ودفع الموكل ببعض الجمل ، فقد خالف إرادة سيده واستدعى غضبه .
والله جل وعلا خلق النطفة في الفقار ، وهياً لها مجارى في الأثنيين ، وأوجد لها
مستودعاً في الرحم ، ثم قدر لها البروز الى عالم الشهادة ومكابدة شئون الحياة فيه .
على أن الله جل وعلا صرح بمراده من خلق هذه الأشياء على لسان أكرم الأنبياء ،
فقد قال كما سبق : « تناكحوا تناسلوا » فن تزوج كان ساعياً في إتمام ما أحب الله ،
ومن أعرض عن الزواج كان مضيعاً ما كره الله ضياعه ، وجانياً على مفطور الفطرة
ومفهوم الحكمة من خلق هذه الأعضاء ، ولهذا نهى عن التبتل عند عدم العذر الداعي
إليه ، وعن عضل الولي موليته عن النكاح .

ولما كان السراً الأكبر في النكاح الولد ، طلب الشارع أن تكون الزوج غير ذات
قربة قريبة وهي التي تكون في أول درجات الخوالة والعمومة ، كبنت الخال والخالّة ،
وبنت العم والعمة ، لثلايحي الولد ضاوياء (لضعف الشهوة) وأحق لغلبة الحمق على أمثاله .
وما كان تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب بنت جحش ابنة
عمه رضي الله تعالى عنها إلا لمصلحة تشريعية هي حل نكاح زوج المتبني كما سيجي .
إن شاء الله تعالى بأوضح بيان .

وثانياً — غض البصر ومراعاة العفة وكسر التوقان والتحرز من الشيطان ، قال عليه الصلاة والسلام : « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني » . وقال زاده الله صلاة وسلاما : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » ووجه ذلك أن الشهوة التي هي أقوى أسباب المعصية إذا هاجت ولم تجد من التقوى صاداً قوياً وضابطاً شديداً ، حملت على ارتكاب المحظورات ، والسقوط في الموبقات ، كما يقع كل حين من المتبتلين الطالبين رضوان الله . وإن عارضها صاد التقوى وحاجز الخوف من الله ، غض البصر وحفظ الفرج وبقي الفكر مسلطاً على القلب ، لأن المرء لا قدرة له على وقايته منه ، وحينئذ يتردد بالخطر المطلع عليه من يعلم السر وأخفى من أمور الواقع ما يستحى المرء من ذكره لدى أحسن الخلق ، وذلك بالموثمين منج لا سيما في الصلاة التي يجب أن يكون القلب فيها خالصاً لله تعالى ، ولذا قال ابن عباس رضي عنهما : « لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح » .

وثالثاً — إيناس النفس بالمجالسة والمحادثة ونحوهما ، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، ومن الحق الذي يخالف طبعها نفور ، فإذا سئمت المداومة على ما لا يوافقها من الطاعات استعصت ، وإذا روقت باللذات انقادت ، ولهذا ينبغي أن تكون الزوجة ذات جمال بروق ، وحديث يسر ، ومجالسة تحجب الهموم وتؤذن للمسرات . وقد أجزى للرجل كما أجزى للمرأة أن ينظر منها وجهها وكفيها بعد قصد النكاح وقبل الخطبة ، ليحصل الميل ويتم الائتناس ، قال عليه السلام المغيرة وقد خطب امرأة : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أي أن تدوم بينكما المودة والألفة . على أن الائتناس بالزوجة استراحة مشروعة . قال تعالى : « وخلق منها زوجها ليسكن إليها » رابعاً — تفريغ قلب الرجل عن تدير المنزل لما جرت به العادة من تبرع المرأة بذلك ، فيتدارك الرجل العلم والعمل ، فهي تقويه على طلب الآخرة والعمل لها ،

بتفريغ قلبه من تدبير المنزل وقضاء الحاجة بنفسها ، ومن دفع الشرور وطلب السلامة بعشرتها ، ولهذا يطلب أن تكون الزوجة ذات دين وحسب وعلم وأدب .

ولأجل فراغ القلب والتحسين أباح الشارع نكاح الأئمة عند خوف العنت وعدم القدرة على نكاح الحرة مع ما في إرداق الولد من نقص في الحياة القصيرة الفانية ، واقتحام الفاحشة من نقص في الحياة الطويلة الباقية التي تقصر الأعمال الطويلة إذا نسبت الى يوم من أيامها .

خامسا — رياضة النفس بالولاية على الأهل والولد ، والسعى في كسب الحلال للجميع ، وهدايتهم الى خيرى الدنيا والآخرة ، قال عليه السلام : «يوم من وال عادل خير من عبادة سبعين سنة» وقال : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وقال عليه السلام : «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة» .

والى هنا نجتزئ للقارىء بما أسلفنا في هذا الموضوع ، لأن الاسترسال فيه والتوافر عليه يتطلب من الوقت والبحوث المتنوعة ما لا يقدر بالشئ القليل ، إذا أضيف الى ذلك أننا سنتحرى في المستقبل البحوث القيمة في جميع أبواب المعاملات ، خصوصا ما كان منها متصلا أو ثوق اتصال بالأحوال الشخصية لدى الطوائف التي تخضع لجميع الشرائع المعمول بها لدى المحاكم ذوات الاختصاص ، وموعدا بذلك كله المباحث التالية ،

إن شاء الله م

عباس طه
المحامي

فضل القلم

قال أبو الفتح البستي :

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

استدراك على ما كتب في العدد الثالث

جاءنا من حضرات طلبة الأزهري ما يأتي :

خطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في أول عهد توليه المشيخة الجليلة ، وقد سمعنا تلك الخطبة ووعيناها فلم نسمع أنه نسب قوله : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم الخ » الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عزاه الى مأثور الحكم الاسلامية . فلما رجعنا الى المجلة علمنا انها نقات هذه الخطبة من أصل مطبوع اقتطع من جريدة يومية ، فأدركنا من أين تسرب التحريف في رواية هذا الحديث الموضوع .

استدراك آخر

جاء في بعض الفتاوى المنشورة في ذلك العدد قول شريك : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » منسوباً الى النبي صلى الله عليه وسلم . والحقيقة أنه من قول شريك القاضي لا من قول النبي صلى الله عليه وسلم كما نص على ذلك الشيخ عبد الرحمن الشيباني في كتابه (تمييز الطيب من الخبيث) . ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فليرجع الى كتاب الشيخ مرتضى الزبيدي شارح إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي عند كلامه على الأحاديث الموضوعة .

تصحيح خطأ

جاء بالسطر السابع من الصفحة ٣٠٢ من هذا العدد : « قل سيروا في الأرض ثم نظروا » والصواب : « ثم انظروا » .

تعليم اللغات في الأزهر

لما فكر مولاي فضيلة الأستاذ الأكبر في أن يتعلم الطلاب اللغات ، أردت أن أعرض عليه ما يعنّ لي في هذا الموضوع ، فأقول :

أول ما يتعلم الانسان ، لغته القومية ، ويجب عليه أن يحافظ عليها حتى لا يبتعد عن دينه وقوميته ويندرج في أخرى ، وقد تضطره البيئة والظروف التي تحيط به ، ويحفزه عامل الرقي وحب الاطلاع والتكامل ، أن يتعلم لغة أو عدة لغات .

حقا إن من يجد في تعلم لغة أجنبية ، يريد أن يخلق من نفسه إنسانا آخر يتصل بأهل تلك اللغة ، فيتعرف ما عندهم من آداب ، وعادات ، وعلوم ، وفنون . ومن يحرص على رقي أمته ينقل إليها النافع ويترك الضار .

وكأنما اللغات كائنات حية تتقارض وتبادل بعضها بعضا ، والاختلاط أكبر عامل في ذلك . والآن وقد اتصل العالم ببعضه ببعض ، وتطلع الدين الاسلامي أن يريهم آياته في الآفاق ، ويدلهم على مكائنه ، وأن ليس العيب فيه وإنما العيب في أهله ، وجب على الأزهرين أن يتعلموا اللغة غيرهم لينشروا الدين ، فيكونوا بذلك قد فتحوا فتحا مبينا ، وأعادوا لنا عصر المأمون .

وما لنا نذهب بعيدا وعصرنا هذا هو عصر التبادل الفكري ، لا تجد فيه مؤرخا ، أو كاتباً ، أو شاعرا ، أو فيلسوفا أو عالما ، إلا وهو يستعين بلغة أجنبية وبما يترجم إليها من سائر اللغات ، فيتجلى في نفسه معنى الجمال والشوق الى الكمال ، فيكتب وينظم ويعلم أمته الجمال ، ويهديها طريق الكمال .

ونحن إذا تعلمنا لغة حية ، اتسمت أمامنا آفاق الكون والتفكير ، وعرفنا أن الجمال مبثوث في الكون ، لم يقتصر على أمة أو لغة دون أخرى .
في تعلم أي لغة حية نجد ألوانا من التفكير لم يكن لنا بها سابق عهد : نجد فلسفة

وآدابا وعلوما وفنوننا، نجد كنوزا جمة، وافرة الثراء، بديعة الرواء، تهيبك قوة على قوة، وجبالا وكبالا. وإن شئت فقل حياة أخرى تنعم بها، وتطير في جوائها الفسيحة الزاهية الجميلة.

والناس إنما يتعلمون اللغات لما رُب شتى، فقد يتعلم الفرد منهم ليكون ترجمانا، أو ليظهر بمظهر الراقى، أو ليضم أدبا الى أدبه، أو علما الى علمه.

والأزهر اليوم يريد أن ينشر رسالته كاملة عامة، ولا يتسنى له أن يؤديها على وجهها إلا إذا تغذى بتلك اللغات وقبلها، وحافظ على لغته غير مفرط فيها.

يحتاج الأمر في الواقع الى الإخلاص، وحكمة الحكيم، والرسائل المتوالية التي نتخدمه وتكرز حياتها له، حتى يأتى بالثمرة المرجوة منه.

ولكى نرسم خطة مجدية يصح أن نتبعها، نقسم الأزهر تقسيمه الحالى، أعنى الى ابتدائى، وثانوى، وعال. وتتصور أن مشيرا يشير علينا بأن نعم تعليم أى لغة فى الأقسام جميعها؛ فهل نقبل ما يشير به بادئ الرأي، أو نترث قليلا؟

الواجب علينا أن نترث قليلا، لنرى الصواب فى أى جانب، فليس كل رأى صحيحا. وحقا إننا لو وافقنا هذا المشير على تعليم أى لغة من اللغات فى السنة الأولى من القسم العالى ابتداء من السنة التالية، لانهى الطالب منه وهو لا يعرف إلا شيئا وجيزا. وأما لو وافقناه على تعليم السنة الأولى من القسم الثانوى الى نهاية القسم العالى، فإننا نكون قد أصبنا فى هذه الموافقة، وتخرج الطالب وقد تمكن بعض التمكن من اللغة المراد تعليمها، إذ هو بذلك يكون قد أمضى سبع سنين على الأقل، وسأوى تلميذ الكفاءة، ولكنه ينقصه أنه لم يصطحب معه لغة أخرى.

إذا من الحزم والاقتصاد أن تتبع من يشير بتعليم السنة الأولى الابتدائية، حتى إذا انتقل الطالب الى السنة الأولى الثانوية اصطحب معه لغة أخرى. وهذا ما عني، عرضته على مولاي. وأرجو أن أكون قد قاربت. والله هو الموفق. رمضان محمد غنيم
من العلماء

نهضة الادب العربي

بين القديم والحديث

يتجه البحث الحديث في الأدب الى الجدة في مناحيه ، والى الثورة في مناهجه ، والى القوة في عناصره ، فأصاب من الجدة حظا وفيرا ، ودفعت به الثورة الى الهدم والبناء دفعا عنيفا ، ومكنت له قوة عناصره من الاستقامة أمام ما يعتوره من مدوجزر ، وتجاذب عاصف بين أولياء القديم الواقفين مع الماضي ، وأنصار الجديد (الثأرين) على ذلك الماضي ، استقامة إلا تكن أدنى الى الكمال المرجو فهي منه بسبب متين ، استقامة طبعته بطابع وسط بين الجمود والثورة الجالحة ، وإن شئت قلت طبعته بطابع ينهض به أن يكون على هذا السنن المستقيم .

والجدة والثورة والقوة ، ليست أشياء منفصلة عن طبيعة الحياة ، وإنما هي كامنة فيها كمون النار في الخشب ، يوربها الاحتكاك ، وتذكيها الأحداث ، وهي من عناصر الأدب الحى فى كل أمة ، وكل لغة ، وكل جيل . وهي كانت من أظهر مميزات الأدب العربى ، لاتصاله بالحياة اتصالا وثيقا دل عليه أخذه من أطوار الحياة بقدر ما أخذت منها الحياة . فهو أدب كان ضيقا فى موضوعاته ، محصورا فى حدوده ، حيث كانت الحياة التى نشأ فيها ضيقة محصورة ، وهو مع ذلك قوى رصين ، لأن تلك الحياة كانت قوية رصينة ، ولكنه بطبيعته كان مجددا نائرا ، حيث تجددت الحياة واثارت فى ظلال ألوية الثورة الاسلامية ، واتسع أفقه ، وترامت مطارحه ، لأن أفق الحياة العربية اتسع ، وميادنها استعظمت . كان فى أول نشوئه أدبا خاصا بالعرب ، يصور حياتهم فى بواديه ، وممالكهم فى جزيرتهم ، فأصبح أدبا عالميا يصور أفكار الأمم التى انضوت تحت راية الاسلام مدفوعا بقوة العرب الفتية ، ومصوِّرا بأسلوب العرب الجزل الرصين . فلما استضعف العرب وذهبت ريجهم ، ضعف الأدب ولان ، بل حقر واستخذى ، وعاد ضيقا أضيق مما كان ، فى ثوب مهمل ، وأسلوب مترهل كسيح ، لا ينهض بشئ ،

ولا ينهض به شيء ، وزاحمته الآداب المغلوبة فسبقته ، ووقف هو في ظل القرآن الكريم محتما ، ونفض عن كاهله العصبية القومية مستيئسا من نفعها ، ولجأ الى كنف الدين في صورة المُثل اللغوية وشيء قليل من النثر والشعر ، يقتضيه الحياة والعافية . والدين إلهي المصدر ، عالمي المشرع ، وإن كان عربي المظهر ، فأخذ الدين بيد الآداب الى مظهره ونقاه من غلس الاستعجاب ، وعربه تعريبا خالصا صافيا ، ووجهه الى تفكيره ومورده حيث تتلاقى الآداب كلها في باحة الانسانية الطليقة من أغلال العنصرية .

تجدد الأدب ، وثار ، وقوى ، ومشى مع النهضة ، وإن شئت قلت سبق النهضة ، وإن تشأ قلت كان من أقوى بواعث النهضة ، وأخذ من البحث سمتا إذا كان القدماء قد عرفوه أو عرفوا شيئا منه ، فقد ساعدتهم على تلك المعرفة طبيعة الحياة في عصرهم ، وبيئات الأدب عندهم ، وقوة الدولة العربية فيهم ، فكان لا بد أن يعرفوا ما عرفوا ، وكان حتما أن يعرفوا أكثر مما عرفوا .

أما نحن فكل أحوالنا وما أحاط ويحيط بنا من بعد البيئات العربية ، وتجاو عن الطبع العربي ، وجود في التفكير يسود جماعاتنا ، وفقر في المعارف العامة والخاصة ينتشر بيننا . كل ذلك يقعد بنا عن أن نعرف شيئا من هذا الذي عرفناه .

فكيف إذاً تجدد الأدب ؟ وكيف ثار ؟ وكيف قوى ؟

حديث هذا التجدد والثورة والقوة عجيب ، ولكنه سهل يسير لا عسر فيه ، فصلة الأدب بالحياة وثيقة ، والحياة تجددت في جميع أنحاء العالم ، واثارت ثورة جامعة جامعة ، وقويت واشتدت قناتها ، فلم يكن في طوق الأدب العربي أن يتخلف عنها في جده وثورته وقوته .

كان الأدب العربي في عهد ضعفه لا يخرج عن تمجيد رسالة في تهنئة ، أو تعزية أو مدح أو هجاء ، أو استعطاف وما يدور حول هذا المحور ، أو نظم قصيدة في حدود من المعاني لا تعدو معاني النثر في الرسائل ، على نمط من التسجيل ، وتحري فنون البديع تحريا يدخل بها الى الإلغاز والتعمية والتعقيد .

ولكن الأدب الآن في مذهب أهل العصر بحث وتحرير ، ففي البحث أسلوب علمي يستند الى صلة الحقائق بالحياة ، وفي التحرير أسلوب مذهب طليق من قيود الافتتان بالإغراب ، يجمع الى العناية بالقالب العناية بسمو المعنى ، بل العناية بالمعاني فيه أغلب وأظهر ، تأثرا بروح العصر .

وليس هذا الطرز من البحث جديدا كله على الأدب العربي ، فقد عرف الكثير منه في صور أبرع وأدق من الصور التي يعرفها الأدب الآن ، وجديدنا يستند في مبيعه الى ذلك القديم القوي قبل الركود والجمود ، ولكنه ليس محض التقليد أو هو تقليد الحر المفكر ، فهو صفوة الاجتهاد والابتكار .

هذه مؤلفات نهضتنا وبحوثها بين يديك ، فأنعم النظر في قراءتها ثم حدثني هل رأيت في تنسيقها وتناولها للمعلومات نهجا قديما ؟ أليست هذه المؤلفات الجديدة في أسلوبها هي التي حبيت إلينا القراءة والدرس ، والبحث والإنتاج ؟ وهل ينقص من تجديدها في بحوثنا وجود المادة (الخالم) في كتب الأقدمين ؟ وهل في وجود المعدن في باطن الأرض ما يسلب فضيلة الصائغ الماهر ؟ وهل للمعدن قيمة من دون الصياغة ؟ على أن البحث الحديث لم يقف دون الخلق والابتكار ، فقد خلق فكرا ، وابتكر موضوعات لها طابعها الخاص ، وجرى على قول بعض حذاق الأقدمين : « إذا رأيت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا ، فاعلم أنه لن يفلح » .

يقوم في نهضتنا الأدبية اتجاهان : اتجاه يؤمن بالقديم وجلاله ، فهو مستمسك به أشد الاستمسك ، ومع ذلك فهو مجدد ، مجدد في طرائق الأداء ، وتنظيم موضوعات الأدب وتقريبها ، واتجاه جديد ، أو هو يحاول أن يكون جديدا ، جديدا كله ، فهو نائر على القديم ، شاك فيه ، بل جاحد له . وأصحاب هذا الاتجاه يأبون الاستسلام ، ويرفضون رفضا شديدا قفل باب الاجتهاد ومناقشة القداى رأيهم فيما ارتأوه ، يضعون الأدب جملة وتفصيلا تحت محس البحث والنقد ، ويدأبون على فتنة قضاياها أشد الفتنة ، ويمتحنون نصوصه أعنف الامتحان ، وينقدون تاريخه أمر النقد .

يعرضون للأدب الجاهلي بالإنكار، وهم متفاوتون فيه، فبعضهم من ينكر إنكار عريضا لا يقف عند رسالة أو قصيدة، أو رجل، أو قبيلة. ومنهم من يتحرى البحث فينكر شيئا قد يصح إنكاره معتمدا على شيء من الأدلة التاريخية أو البيئية أو الطبيعية. وهؤلاء يصيبون في كثير، ويستفيد منهم الأدب كثيرا. فمن الحق ألا نرى بأبحاثهم، وأن ننتفع بها في دراسة الأدب على نهجهم، لأن هذا النهج هو الذي حدد لنا الأدب تحديدا خاصا، فأصبحنا نفهم من كلمة (الأدب) في هذا المقام الصور الراقية التي يحتفل بها ويدخل لون الخيال في تصويرها، ونعني بالخيال الاتساع في التصوير على النحو الذي يتراءى في الاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايةات من ألوان البلاغة. فبعض الجاهليين أدب خاص، وكثير من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أدب خاص، وشعر الاسلاميين القدماء والمحدثين وخطب الخلفاء، وزياد والحجاج، ونثر عبد الحميد، وابن المقفع، وقدامة بن جعفر، وكتابات الجاحظ، وابن سلام في النقد الأدبي، أدب خاص، وليس النحو والصرف والعروض وفقه اللغة أدبا خاصا، وكان الأقدمون يعتبرونها مع غيرها من الفنون داخلية في مفهوم الأدب، قال العلامة ابن خلدون: «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف .. من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها».

وهذا كما ترى تحديد واسع كان يفهمه الأقدمون من كلمة (الأدب). ولكن البحث الحديث جرى على التخصص، فلا يدخل في الأدب ما ليس منه، وإن اعترف أن الأديب في حاجة إلى أن يعرف شيئا كثيرا من معارف الحياة الجديدة والقديمة. وبعد ففي كلا الاتجاهين تجديد وتقليد: أولئك قلدوا في النظام وطرائق الأداء، وهؤلاء قلدوا مناحي المستشرقين في البحث والتسرع إلى الإنكار، وأولئك جددوا ديباجة الأدب وألوانه، وهؤلاء جددوا في موضوعاته وبحوثه. وسنبعث في المقالات الآتية فيما عس الاتجاهين، والتوفيق بيد الله

صادق إبراهيم عرجون

الادب العربي^(١)

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

بدأت ظواهر الانحلال والضعف تدب في العقائد الدينية ببلاد العرب في أواخر القرن السادس من الميلاذ ، ففقدت كثيرا من حدتها وسطوتها بين سكان الصحراء العربية من القبائل التي لم تسمح لهم حالة معيشتهم القاسية وكفاحهم المستمر في طلب القوت بالاستغراق في الحياة الدينية أو التعلق بأسبابها ، فإن ظروفهم المعيشية الشاقة انتزعت منهم فكرة انتظار العون السماوى ، كما سلبهم كفاحهم الدائم وراء الرزق كل الأغراض العليا في الحياة ، وجعلهم لا يرجون من الحياة سوى أسباب المعيشة الدنيوية ، وظهر أثر ذلك جليا فيما خلفوه من التراث الأدبى من شعر ونثر . وأما في مكة ، وكانت دائما أهم المراكز الدينية ، فلم تنأثر قيمة الأماكن المقدسة أو يقل فيها رونق الحفلات والطقوس الدينية ، إلا أن سكان هذا البلد كان جل همهم ما يجنونونه من وراء إقامة مثل هذه الحفلات من فوائد تجارية ، أى أن الناحية الدينية الخالصة كانت في نظرهم دائما في المرتبة الثانية ، فكان لا يقام لها وزن بجانب الناحية المادية الدنيوية .

استمرت الحال على ذلك طوال القرن السادس من الهجرة ، وفي بدء القرن السابع منه أيضا ، والعرب في تناحر مستمر وكفاح دائم ، والفكرة الدينية أبعد أن يكون لها في تخيلاتهم أى أثر ، الى أن ظهر محمد ، وجاءهم بوحي من عند ربه ، فتآخوا بعد التخاذل ، وتآلفوا بعد التفرق ، وبث بينهم تعاليم جمعت بين أغراضهم وبين أغراض الحياة الدينية العليا ، فعرفوا حياة الانسان قيمتها على الوجه الأكمل ، مما يساعد على رسالته المؤاخية بين مطالب الدين والدنيا على ضوء من العلم والهداية .

(١) مترجمة من الألمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للدكتور الألماني الكبير الاستاذ

الدكتور « برونكلان » .

حث القراءان على القراءة والتعلم ، فقلت الأمية ، وبذلك قرب بين العرب وزاد من تفاههم ، واتحت آثار الجاهلية الفاشمة ، وظهر أثر ذلك واضحا في الأدب العربي الذي يرجع الى هذا العهد والعصور التالية . وكانت رسالة محمد سببا مباشرا في استنهاض همم العرب لمتابعة العلوم الطبيعية والفلسفية والدينية ، ففتقت الأذهان وقُدحت القرائح ، وظهرت لهم على أثر ذلك أبحاث ممتعة وأعمال خالدة ، استضاء بنورها العالم طويلا ، ولا زالت حتى الآن ذخرا هاما يرجع اليه في كثير من العلوم والمعارف .

جاء القراءان كما أسلفنا يشمل ما قد يحتاج اليه الناس في حياتهم الدينية والدنيوية ، ويكفل لهم السعادة الجسدية والروحية ، واضعا أساسا دقيقا للمعاملات والشرائع ، ودستورا ممتازا للأنظمة الإدارية والسياسية ، ترناح اليه الأُمم والقبائل على تباعد أجناسها ، واختلاف لغاتها ، وتباين عاداتها وحضاراتها ، فهد الحياة للشعوب الاسلامية أجيالا طويلة ، دون أن يسرى في رابطتها الانحلال ، أو يتسرب الى عقيدتها الفساد ، رغما عن الحوادث العالمية الخطيرة التي أودت بأُمم كبيرة وحضارات عالية .

ولقد اهتم بحفظ القراءان نفر كبير من الصحابة ، كما عمل خلفاء الرسول على جمعه وترتيبه بمساعدة زيد بن ثابت كاتب النبي ، حتى إنه لا يدور بخلد أى إنسان الشك في سلامته من التحريف ، ولا تخالطه الريبة في صحته بأى حال من الأحوال ، رغما عن المنازعات العديدة التي كثرت عقب غزوات النبي وخلفاء الراشدين ، وفتوحاتهم في مشارق الأرض ومغاربها .

وهكذا بقى القراءان محفوظا بعيدا عن كل تغيير أو تحوير ، نظرا للاحترام الزائد والتبجيل الشديد الذى يحوطه من جانب المسلمين على تباين نحلهم ومذاهبهم ، اللهم إلا من اختلاف طفيف في القراءات ، يرجع الى تعدد اللهجات في البلاد العربية الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف ، دون أن يكون له أى أثر في جوهر القراءان من حيث المعنى أو الأسلوب .

رأينا فيما تقدم أثر القراءان في الأدب العربي على وجه العموم من الناحية المعنوية ، كما اتضح لنا أنه لولاه لما عرف العرب الأغراض العالية للحياة الانسانية في الدنيا ، فهدب من طبائعهم وأصلح من نفسياتهم ، فسلسلت تعبيراتهم ، ومرت أفكارهم ، وانسجمت ألفاظهم ودقت معانيها . وأظهر ما ظهر ذلك في الشعر . وكان النبي لا يميل اليه في أول الأمر لتبجح الشعراء الجاهليين ، وتهجمهم على كتاب الله ، وتكاليهم على مناظرته ، فلما أن استقر لرسول الله الأمر في المدينة ، اتخذ له من الشعراء أصحابا للرد على شعراء وفود قبائل العرب المؤمنين ، الذين كانوا يأتون اليه خاضعين له ، مولين بإياه قيادة أمرهم . وكانت تتبارى شعراؤهم في التمدح به وبرسالته . وأول من اتخذهُ رسول الله من الشعراء حسان بن ثابت ، وهو من قبيلة الخزرج من المدينة ، وكان قد بدأ حياته بصناعة الشعر واتخذها موردا لرزقه في بلاط أمراء الحيرة ودمشق ، ولما بلغه تألق نجم النبي في يثرب وانكسفت بجانبه أنوار الأمراء الآخرين ، ذهب اليه ونصب نفسه وموهبته الشعرية لخدمته ، فأحسن له رسول الله العطاء ، ولكنه لم يبلغ من الصيت والشهرة ما كان يصبو اليه ، وعمر طويلا بعد النبي ، وتوفي سنة ٥٤ هـ . ولم يعترف له معاصروه بفضل كبير على الأدب العربي ، إلا أن الأجيال المتأخرة قد عوضته بعض ما فقد من الشهرة إبان حياته ، فأظهرت في أشعاره من السمو المعنوي ما يفوق ما يعوزها من الجمال اللفظي ، وكانت عبارته اللغوية سهلة في غير كلفة ، مما جعلها في نظر معاصريه فارة لاشاعرية فيها ، ولكنها كانت بذلك سهلة الفهم على الأجيال المتأخرة .

ولقد اشتهر من الشعراء بعد حسان بن ثابت في هذا العهد اثنان من فطاحل شعراء العرب ، هما الأعشى وكعب بن زهير ، ولكل منهما شعر بديع في مدح النبي ، ولو أن أولهما مات وهو لم يدخل في الاسلام .

ولد الأعشى ميمون بن قيس من قبيلة قيس بن ثعلبة في المنفوحة باليمامة في وسط بلاد العرب ، وكان يرتزق من شعره مثل حسان بن ثابت ، إلا أنه كان أكثر منه

توفيقا، وكان كثير التجوال بين ربوع بلاد العرب، فجاها من أقصاها الى أقصاها : من حضرموت في الجنوب الى الحيرة في الشمال، وكان محل إكرام الولاة أينما حل لقصائده الرنانة في المدح، فلم يلبأ الى قصائد التهمك إلا نادرا . ولقد استفاد كثيرا من رحلاته في بلاد العرب، واقتبس كثيرا من علومهم ومعارفهم، كما اهتم بالمسائل الدينية، وكانت أساقفة نجران في جنوب بلاد العرب تبالغ في إكرام وفادته، وكان راويته مسيحيا من الحيرة، ولكن الأعشى لم يعتنق المسيحية، فلما بلغته شهرة النبي نظم قصيدة في مدحه جمعت كل محاسن فنون اللغة، وحازت إعجاب العلماء لعدة قرون، ولو أنها لم تبلغ من الشهرة والذيع ما بلغته قصائد حسان بن ثابت .

وأما كعب بن زهير فهو سليل أسرة عرفت بالشعر منذ القدم من قبيلة مزينة، وتجلت فيه الروح الشعرية القديمة بأجلى مظاهرها، فبذ سابقه في الشعر من حيث الطلاوة والرونق، وكان في أول أمره لايميل الى الإسلام لتقييده حريات الجاهلية الجارفة، فلما رأى أخاه بجيرا قد دخل الإسلام، نظم فيه قصيدة ملؤها السخرية والتهمك الجارح، فأغضب ذلك رسول الله فأهدر دمه، فاضطهده المؤمنون في كل ناحية، إلا أنه تمكن أخيرا من الوصول الى رسول الله، وألقى بين يديه قصيدة عصماء مطلعها (بانت سعاد) جمع فيها أحسن أساليب الشعر معنى وأجزلها لفظا، فرضى عنه الرسول وصفح عن زلته، ودخل في دين الله .

وأشهر شعراء العرب في عهد محمد هو بلا شك لبيد بن ربيعة، فقد تمثلت فيه الروح العربية القديمة بشكلها النبيل، فبرز بين شعراء عصره وامتاز عليهم جميعا . ولد لبيد من عائلة تليدة من بني جعفر أحد فروع قبيلة (هوازن) من بني عامر حوالي عام ٥٦٠ ميلادية، وكان أبوه كريبا باسطا للمحتاجين كلتا يديه، وتوفي في معركة وتركه صغيرا، فتولى تربيته عمه أبو البراء عامر الملقب (بملاعب الأسنه) لشجاعته، وكانت أمه تنحدر أيضا من أسرة عريقة في المجد والامارة، واشتغل بالشعر منذ نعومة أظفاره،

إلا أنه لم تعرف له قصائد هامة في ذلك الوقت خلّو شعره من الحوادث الهامة ، اللهم إلا من بعض الفتن والتنافس على رضا النعمان ملك الحيرة . ولما استقر الأمر لرسول الله في المدينة وبلغته رسالته ، جاء على رأس وفد من قبيلته لاظهار خضوعهم ودخولهم في الاسلام ، ومات أخوه بصاعقة من البرق على أثر نهكهم على دين الله ، فنظم فيه مراثيات غاية في الروعة والجمال . وأقام أخيراً بالمدينة فلم يبرحها الى الكوفة إلا في عهد خلافة عمر ، وعاش طويلاً ، فقبل إنه مات في أول حكم معاوية حوالى سنة ٤٠ هـ .

واشتغل ليبد كثيرا بالمسائل الدينية مثل النابغة والأعشى ، وكانت توضع منظوماته في المكان الأول بين شعراء العرب . وليس أدل على ذلك من أن إحدى قصائده وضعت ضمن المعلقات السبع .

وقد اشتهرت المراثى بين منظومات العرب منذ القدم شهرة كبيرة ، فوضع فيها أكثر شعراء العرب آيات خالدة غاية في الجمال والروعة ، ولقد امتاز عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الضرب من الشعر بظهور اثنين من فطاحل الشعراء ، ولكل منهما مراثيات من أبدع ما نظمته العرب ، وهما متمم بن نويرة والخنساء .

ومتمم بن نويرة هو ابن زعيم يربوع من قبيلة تميم ، وكان أخوه الأكبر مالك شاعرا أيضا ، وورث الزعامة عن أبيه ، ودخل هو (مالك) وقبيلته في الاسلام ، فاعتمده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لجباية أموال الزكاة ، ولكنه سرعان ما ارتد عن الاسلام بعد وفاة النبي ، وخرج عن طاعة الخليفة ، الى أن أخضعه خالد بن الوليد في معركة خرب فيها صريحا ، فرأه أخوه متمم بمرثية مؤثرة للغاية ، وجاء الى المدينة في عصر خلافة عمر ، فأكرمه واعترف بفضله .

واتتقلت بعده الزعامة في شعر الرثاء الى النساء ، فظهر نبوغهن وتفوقهن في هذه الناحية من الأدب العربي ، والى المراثى يرجع الفضل في شهرة أول شاعرة عربية وهى تماضر المعروفة باسم الخنساء ، ولدت في قبيلة بنى سليم حوالى سنة ٥٨٠ ميلادية ،

وقتل أخواها معاوية وصخر في زمن الجاهلية الوثنية ، فانكبت طول حياتها على نظم المرائي ، وأطلقت لنبوغها في الشعر العنان لرثائهما ، ولإستثارة قبيلتها للانتقام لهما ، وللإشادة بذكر من أطفأ جذوة حزنهما بالأخذ بئأرهما .

وجاءت الى المدينة وقد بلغت أوج شهرتها في عهد الخليفة عمر ، وكانت وقتئذ في الخمسين من عمرها ، فتعرفت بها عائشة أم المؤمنين ، وأمرتها بالسكف عن رثاء أخويها اللذين ماتا في الجاهلية ، وكان لها ابتتان ، ورثت إحداهما (أمره) موهبة أمها الشاعرية ، والاثنتين قطع شعرية جميلة حفظت حتى الوقت الحاضر .

وظهر كذلك من الشعراء عدد غير قليل أثناء الغزوات والفتوحات الاسلامية في عهد النبي وخلفائه الراشدين ، على أن هذا العصر كغيره من عصور الحروب على العموم لم يكن في صالح الشعر أو الأدب العربي ، فكان أثره في تاريخ العرب السياسي كبيراً الى أبعد حد ، إذ تمكن العرب بدافع تحمسهم لدين الله في وقت قصير من زلزلة الأمبراطورية الرومانية الشرقية ، وإخراجها من الشام وممتلكاتها الأفريقية ، وتقويض المملكة الفارسية . وبالرغم من ضعف الشعر وقلته في مثل هذه العصور السياسية ، فإن أثر هذا التقدم الوطني ظهر في المجهود الأدبي في ذلك الوقت ، فذاعت القصص واختلط فيها الخيال بالحقيقة ، وعزيت الى أبطال الغزوات قصائد ومقطوعات أدبية جميلة لم يعرف أصحابها الحقيقيون ، لاشتراك أغلبية الشعب في هذه النهضة الأدبية من نواحيها المتعددة ، فاختلفت بذلك الشخصيات البارزة في الفنون والآداب .

ومن شعراء عصر الغزوات الممتازين أبو محجن من قبيلة ثقيف ، وكان قد اشترك في الدفاع عن مدينة الطائف ضد المسلمين الفاتحين ، ودخل هو وعشيرته بعد ذلك بزمن قصير في الدين الاسلامي ، ولكنه بقي على كثير من عوائده القديمة ، فاستخدم موهبته الشعرية في مدح الجحش التي حررها الاسلام ، واشترك في حروب الفتوحات الاسلامية في الشمال ، وامتاز ببلائه في موقعة القادسية ضد الفرس ، فنفرت له شجاعته

إدمانه الخمر ، ولكنه سرعان ما أغضب الخليفة لعودته إليها ، فأمر بنفيه عام ١٦ هـ وتوفي في منفاه بعد ذلك بزمان قصير ، ولم يبق في شعره دليل على إسلامه ، كما أنه لم يظهر أثر لهذا العصر المملوء بالغزوات والفتوحات الإسلامية فيما تركه هذا الشاعر من المقطوعات ، بل كان أهم محتويات أشعاره وصف الخمر ومدحها على نحو ما جاء في شعر العصر الجاهلي الوثني .

واشتهر بعده أبو ذؤيب ، وامتاز عنه بشخصيته البارزة ، وموهبته الشعرية القوية ، وهو يعد أشهر شعراء الهذليين ، واشترك في غزوات الفتوحات الإسلامية ، وجاء إلى إفريقية عام ٢٣ هـ فمات أولاده الخمسة في مصر بمرض الطاعون ، فرتأهم بمرثية رائعة ، وتوفي بمصر وهو في طريقه إلى المدينة بصحبة عبد الله بن الزبير ، وكانا يقصدان الخليفة ليخبراه نبأ غزوة قرطاجنة .

وأما الشعر الهجائي وكان ذاغما في العصور القديمة ، وكثيرا ما استخدم في الجاهلية في نزاعات القبائل المختلفة إلى أن انحط إلى أدنى درجات التهديد الشخصي والانتفاع من وراء ذلك ماديًا ، فإنه انقرض بعد ذلك تدريجيا . ولعل أشهر من عرف من شعراء الهجاء في هذا العهد هو جوهر بن أوس الملقب بالخطيئة ، وكان يحب بلاد العرب مقذعا للناس بلسانه للنيل منهم ، ولولا الحزازات بين قبائل العرب وتحامل بعضهم على بعض لما حفظ شيء من هذا الشعر ولما بقيت مقطوعات من شعراء هذه الطبقة حتى العصر الحاضر .

فضل ر جحان العقل على الكلام

قال محمد بن الغار : دخل رجل على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين فتكلم بكلام أعجبه ، فاراد أن يختبره لينظر عقله ، فوجد كلامه أكثر من عقله ، فقال : فضل العقل على المنطق حكمة ، وفضل المنطق على العقل هجنة ، وخير الأمور ما صدق بعضها بعضا ، وأنشد :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم خلق مصور
فإن تر منه ما يروق فربما أمر مذاق العود والعود أخضر

آثار المدينة المنورة

هذا اسم كتاب نفيس وضعه حضرة الأستاذ السيد عبد القدوس الأنصاري الموظف بديوان إمارة المدينة وأستاذ الأدب بمدرسة العلوم الشرعية .

ألم المؤلف الفاضل في كتابه هذا بكل ما تقع عليه العين من آثار مدينة رسول الله صل الله عليه وسلم من الدور والقصور والحصون والمساجد والبلاطات (يريد الطرق المرصوفة بالأحجار) والأمكنة المشهورة والجبال والحرار (جمع حرة بفتح الحاء هي أرض ذات حجارة نخرة سوداء كأنها أحرقت بالنار) والأودية والآبار والعيون .

فكل هذه الأشياء يهتم زائر المدينة أن يعرفها ويعرف تواريخها ، فهذا الكتاب بمثابة دليل مفصل لها . وقد وضع بعناية وتدقيق عظيمين ، وقد حلى بالصور الفوتوغرافية مما زاد في قيمته العلمية .

ونحن نفتطف بعض ما كتبه عن مسجد قباء الذي يسمع عنه كثير من الناس ولا يعرفون له تاريخاً مع أنه أول مسجد بنى في الاسلام :

أسس هذا المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر الى المدينة ، بدأ فيه حين وصل قباء ، وهو مكان يبعد عن المدينة نحو أربعين دقيقة للماشي على قدميه ، وقد عاون النبي على بناء هذا المسجد بنفسه .

فلما رث بناؤه وأوشك يهدم جده عثمان بن عفان وزاد فيه . ولما ولي عمر بن عبد العزيز الاموى على المدينة من سنة ٨٧ الى ٩٣ هـ بالغ في تجميله وتوسيعه وأقام له مئذنة وجعل له رجة وأروقة .

وفي سنة (٥٥٥) جده رجل يقال له جمال الدين الأصفهاني . ثم جده رجال آخرون في سنة ٦٧١ و ٧٣٣ و ٨٤٠ و ٨٨١ هـ . وفي عهد الدولة العثمانية عمر عدة مرات كان آخرها على عهد السلطان محمود سنة ١٢٤٥ وعهد ابنه عبد المجيد .

شكل مسجد قباء مربع طول كل ضلع فيه أربعون متراً ، وعدد أساطينه تسع وعشرون ، وفيه محراب ومنبر من الرخام كان ملك مصر قايتباي أهداه للمسجد النبوي ليوضع مكان المنبر المحترق وذلك سنة (٨٨٨) . فلما أرسل السلطان مراد العثماني المنبر الحالي الى المسجد النبوي رفع منبر قايتباي ووضع بمسجد قباء .

لمسجد قباء رجة محصبة فيها قبة وبئر . ويقال إن هذه القبة رفعت في المكان الذي بركت فيه ناقة النبي صلى الله عليه وسلم .

وللقسم المسقف منه قباب وستة أروقة .

كان لمسجد قباء طريق معوج الى المدينة تكثر فيه الحفر والشقوق ، فشق أحد الولاة سنة ١٣٣٦ طريقا مستقيما واسعا وغرس على جانبيه نخلا وأثلا ، أخذ أرضه من أصحاب البساتين ، فلما ردت الحكومة اليهم أراضهم الداخلة فيه . لاشى ذلك الطريق فاضطر زائروه للسير في الطريق القديم ، ولكن في سنة ١٣٥١ أعاد فتح ذلك طريق الواسع عبد العزيز بن ابراهيم وكيل أمير المدينة بأن اشترى ما يدخل فيه من الأراض من ماله الخاص ووقفه لله تعالى .

مسجد الجمعة

وجاء في الكتاب المذكور تحت عنوان مسجد الجمعة كلام نلخصه فيما يأتي :
هذا أول مسجد صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمدينة ، وهو هذه الخصوصية يعتبر أثرا إسلاميا كبير القيمة .

يقع هذا المسجد في بطن وادي رانواء شرق الطريق الممهّد الى مسجد قباء ، يراه سالك هذا الطريق عن يساره في وهدة من الارض .

طول هذا المسجد ثمانية أمتار وعرضه أربعة أمتار ونصف متر وارتفاعه خمسة أمتار ونصف متر . وهو مبنى بالحجارة بناء جيدا ، وله قبة مبنية بالآجر الاحمر ، في داخلها أربع فتحات ، تمده بالنور والهواء . وله حظيرة في شمالها طولها ثمانية أمتار وعرضها ستة أمتار ، وارتفاعها متران .

وعلى جانبي باب المسجد حجران من الرخام الأبيض مستطيلان مثبتان في الجدار . وهما منقوشان بخط متداخل جدا قرأت منه : « أمر ببناء هذا المسجد أمير المؤمنين السلطان الملك المظفر السلطان بايزيد بتاريخ شوال سنة ٥٠٠ »

والسلطان بايزيد هذا من سلاطين آل عثمان تولى السلطنة ما بين عامي ٨٨٦ و ٩١٨ هجرية . وعليه فان بناء هذا المسجد قد مضى عليه أربعة قرون ونصف .

كان هذا المسجد في أول أمره واقعا في منازل بني سالم من الأنصار ، أما اليوم فهو في وسط نصف خال ، تقوم في شرقه أشجار من الطرفاء ، وغربه قطعة أرض جرداء ، وجنوبه إستان وشماله إستان آخر . وكان يعرف بثلاثة أسماء : مسجد الجمعة ، ومسجد الوادي ، ومسجد عاتكة ، ولما في الاسم الاول من قوة ودلالة على المسمى غلب إطلاقه على المسجد المذكور ، وبه يعرف الى اليوم .

مسجد المصلى أو مسجد الغمامة

وجاء في الكتاب المذكور أن هذا المسجد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيه العيدين وهو قائم في فضاء المناخة في المكان الذي صلى النبي صلى الله عليه وسلم العيدين ، وداوم على صلاة العيدين فيها لتسع الناس جميعا ، وما زال على ذلك حتى لقي ربه .

لا يعلم متى بنى هذا المسجد ومن بناه . وكل ما علم عنه ما رواه السهوي عن ابن شبة عن أبي غسان الكنانى أحد أصحاب مالك بن أنس أن المصلى كان مبنيًا بصفة مسجد في القرن الثاني الهجرى .

طوله ٢٦ مترا وعرضه ١٣ مترا وارتفاعه ١٢ مترا وسمك جدرانه متر ونصف متر .

اعتذار

نعتذر لحضرات القراء عن عدم إمكاننا نشر المقالة الثانية لحضرة الدكتور النطاسى عبد العزيز اسماعيل في هذا العدد بسبب تراحم المقالات ، وسنعود الى نشرها من العدد القادم وهو قريب الظهور ، ثم نوالى القراء بما يليها ، إن شاء الله .

في الملازم الانكليزية

من العدد الرابع

قد أعدنا في الصفحة ٨٤ نشر ما سبق نشره في الصفحة ٥٢ وفيها تعليق من المترجم واستدراك في الترجمة .

وسقطت كلمة « في » من قوله صلى الله عليه وسلم : « حتى ما تجعل في في امرأتك »

من السطر ١٤ من صفحة ٧١

وأغفل حضرة المترجم سهوا ترجمة « كتاب العلم بسم الله الرحمن الرحيم » من

“ I came riding on a she-ass at the time when I was approaching the age of puberty, - while the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was performing his prayers at Minâ without a wall to conceal him . I passed in front of part of the line of worshippers ; then I let the ass loose to graze, and entered the line without my action being disapproved.

2. I am informed by Muhammad b. Yûsuf who had it from Abu Mus-hir, who was told it by Muhammad b. Harb, who received it from Az-Zubaidi, through Az-Zuhri, through Mahmûd b. Ar-Rabî, who said :

“ I remember of the Prophet how he sprayed my face through his mouth with water taken from a bucket when I was five years old. ⁽¹⁾

« أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ أَتَانِ
وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الْإِحْتِلَامَ
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُصَلِّي بُعِنِي إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ فَرَرْتُ
بَيْنَ يَدَي بَعْضِ الصَّفِّ وَأَرْسَلْتُ
الْأَتَانَ تَرْتَعُ فَدَخَلْتُ فِي الصَّفِّ
فَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَ لَيَّ » .

حدثني محمد بن يوسف قال
حدثنا أبو مسهر قال حدثني محمد بن حرب
حدثني الزبيدي عن الزهري عن محمود
ابن الربيع قال :
« عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مَجْجَةً مَجْهَأِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ
سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ » .

(1) This hadîth is intended to show that the memory of a child of five is valid evidence. The Prophet's action may be attributed either to playfulness or to the wish to convey a blessing .

CHAPTER 5.

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا
خَضِرًا ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي
قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ .

On the words of the Prophet
(Allâh bless him and give him peace)

“O Allâh, teach him the Book.”⁽¹⁾

We are informed by Abu Ma'mar
who had it from 'Abdul-Wârith, who
was told it by Khâlîd, through
'Ikrimah, through Ibn 'Abbâs, who
said :

“ The Apostle of Allâh (Allâh
bless him and give him peace)
embraced me and said : ‘ O Allâh,
teach him the Book. ’ ”

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ » :

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ
الْوَارِثِ قَالَ حَدَّثَنَا خَالِدٌ عَنْ عِكْرَمَةَ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

صَمَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَقَالَ : « اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ »

CHAPTER 58.

At what age is a child's hearing
of the hadîth valid ? ⁽²⁾

1. We are informed by Ismâ'il b.
Abu Uwais, who had it from Mâlik,
through Ibn Shihâb, through
'Ubaiduliâh b. 'Abdullâh b. 'Utabah,
through 'Abdullâh b. 'Abbâs, who
Said :

بَابُ : مَتَى يَصِحُّ سَمَاعُ الصَّغِيرِ؟
حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ
قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ
عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ عَنْ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

(1) i. e. Give Ibn 'Abbas understanding of the Qur'ân .

(2) According to Ibn Hajar “ the validity of a child's hearing and understanding of
the hadîth with a view to transmitting it when he comes of age.

mention his story ? ” “ yes, I have heard the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) say : ‘ While Moses was in a company of Israelite notables, there came a man who said to him — Dost thou know anyone more learned than thyself ? - No — replied Moses.

But Allāh revealed to Moses the words:— Yea, it is Our servant Khadir.— Then Moses asked the way to him, and Allāh set the fish as a sign unto Moses, and it was said to him :- When thou locest the fish, return, for then thou shalt meet him. —

Moses followed the track of the fish in the sea,⁽¹⁾ and then his attendant said to him : — Behold ! when we took shelter by the rock, I forgot *about* the fish, and it was only Satan that made me forget to mention it *to thee*. That is what we were looking for ⁽²⁾— said Moses.

Thereupon they went back retracing their footsteps ; they found Khadir and there happened to them⁽³⁾ what Allāh (be He magnified and glorified) hath related in His Book.’

السَّبِيلَ إِلَى لَقِيَّتِهِ ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ قَالَ :
نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَقُولُ :

« بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ
تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ مُوسَى :
لَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدُنَا
خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ
فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ :
إِذَا فَتَقَدَّتْ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ
سَتَلْقَاهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ
فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ : أَرَأَيْتَ
إِذَا أَوْبَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ
أَنْ أَذْكُرَهُ ، قَالَ : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي

(1) Hadith commentators follow Al-Baida'awi in suggesting that they carried the fish with them, hence the phrase means “ watched for its disappearance into the sea ”.

(2) i. e. the disappearance of the fish, which was the sign predicted for the meeting with Khadir .

(3) i. e. Moses and Khadir .

by sea ⁽¹⁾ to Khadir ; ⁽²⁾

And the word of Allāh (be He exalted) : “ Shall I follow thee on condition that thou instruct me from what thou hast learnt for my guidance . ? ” ⁽³⁾

I am informed by Muhammad b. Ghurair Az-Zuhri, who had it from Yaḡūb b. Ibrāhīm, who was told it by his father through Sālīh, through Ibn Shihāb who atated that he was informed by ‘Ubaidullāh b. ‘Abdullāh through Ibn. ‘Abbās that :

he and Al-Hurr b. Qais b. Hisn Al-Fāzari were debating about the companion of Moses. Ibn ‘Abbās said: “ It is Khadir ”. As Ubayy b. Kaḇ passed by them, Ibn ‘Abbās called him and said : “ I and my friend here have been arguing about the Companion of Moses, regarding the way to meet whom Moses enquired. Hast thou heard the Prophet (Allāh bless him and give him peace)

إِلَى الْخَضِرِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : « هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا » :

حدثني محمد بن غزير الزهري قال

حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثني

أبي عن صالح عن ابن شهاب حدث

أن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن ابن

عباس أنه تمارى هو والحر بن

قيس بن حصن الفزاري في

صاحب موسى ، قال ابن عباس :

« هو خضر » فرَّ بهما ابنُ كعب

فدَّاهما ابنُ عباسٍ فقال : إني

تماريتُ أنا وصاحبي هَذَا في

صاحب موسى الَّذِي سَأَلَ مُوسَى

(5) According to Ibn Hajar Moses started his journey by land, but concluded it by sea upon meeting Al-Khidr.

(2) Also “Al-Khidr”. Many suggestions have been made as to his identity, all of which seem to be pure speculations. Various attempts have been made to connect “Khidr” “with greenness” as the etymology of his name suggests, the most accepted being his having drunk of the fountain of immortality and obtained perpetual youth. In any case “Al-Khidr” is only an agnomen, the other suggested names being Phineas, Elisha Balia b. Maikān (who lived in the time of Afridun, (one of the ancient Kings of Persia). or he may have been the brother of Elias. There is no certainty as to whether he was a saint or a prophet, or an angel, but his actions seem to suggest that he was more likely to have been a prophet acting under divine revelation .

(3) or “ instruct me in the well-guided Knowledge that thou hast received ”. Surah 18, Verse 65.

“ Steep yourselves in learning before becoming rulers. ”⁽¹⁾

Abu ‘Abdullah (Al-Bukhārī) adds : “ and after becoming rulers ; for the companions of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) studied in their old age. ”

We are informed by Al-Humaidi who had it from Sufiān, who was told it by Ismā‘īl b. Abu Khālid (differently from what we received from Az-Zuhri),⁽²⁾ who heard it from Qais b. Abu Hazim, from ‘Abdullāh b. Mas‘ūd, who stated that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said :

There should be no envy but in two cases : that of a man to whom Allāh hath given wealth, and empowered him to consume it aright, and that of a man to whom Allāh hath given wisdom, and he judgeth by it and teacheth it .

CHAPTER 59.

On what hath been said on the journey of Mosēs (Allāh bless him)

أَنْ تَسُوذُوا .

قال أبو عبد الله : وَبَعْدَ أَنْ تَسُوذُوا، وَقَدْ تَعَلَّمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِبَرِ سِنِهِمْ :
حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان قال حدثني اسماعيل بن أبي خالد (عَلَى غَيْرِ مَا حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ) قال سمعت قيس بن أبي حازم قال سمعت عبد الله بن مسعود قال قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »

بَابُ مَا ذُكِرَ فِي ذَهَابِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْبَعْرِ

(1) The word يَسُوذُ implies any form of authority or responsibility. Its derivative سُوْدُ includes the meanings of lord, master, owner, husband, governor, chief or nobleman.

(2) Al-Bukhārī reports Sufiān's transmission through Az-Zuhri in the Book of Tawhīd.

CHAPTER 57.

On the understanding in Knowledge.

We are informed by ʿAli, who had it from Sufiān, who was told by Ibn Abu Najih, through Mujāhid, who said :

I accompanied Ibn ʿUmar to Madīnah and heard him narrate only one hadīth from the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) namely: “ We were with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) when he was brought the pith of a palm-tree. ‘Among trees, said the Prophet, ‘ is one which is the parable of a Muslim ’.

I wished to say that it was the palm-tree ; but as I was the youngest present, I remained silent.

The Prophet (Allāh bless him and give him peace) then said : ‘ It is the palm-tree . ’

CHAPTER 58.

On emulation in Knowledge and widdom ; and the words of ʿUmar :

بَابُ الْفَهْمِ فِي الْعِلْمِ :

حدثنا عليُّ حدثنا سفيان قال قال

لي ابن أبي نجيح عن مجاهد قال :

« صحبتُ ابنَ عمرَ إلى المدينة فلم

أسمعهُ يحدثُ عن رسولِ الله صلى

الله عليه وسلم إلا حديثاً واحداً قال :

كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَأَتَانِي بِجُمَارٍ فَقَالَ : « إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ

شَجَرَةً مِثْلَهَا كَمِثْلِ الْمُسْلِمِ » فَأَرَدْتُ

أَنْ أَقُولَ : هِيَ النَّخْلَةُ ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ

الْقَوْمِ فَسَكَتُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هِيَ النَّخْلَةُ » .

بَابُ الْاِغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ

والْحِكْمَةِ ؛ وَقَالَ عُمَرُ : نَفَقَهُوَ قَبْلَ

adapt my exhortations to your case, just as the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to do with us, for fear of wearying us. ”

CHAPTER 56.

He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith .

We are informed by Saïd b. ʿUfair, who had it from Ibn Wahb, through Tûnus, through Ibn Shihâb, who said that Humaid b. ʿAbdur-Rahmân stated that he heard Murâwiyah say in the course of a sermon that he heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say :

He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith. I do but distribute *Knowledge*,⁽¹⁾ while Allâh giveth *the understanding of it*. This people shall not cease to walk in the way of Allâh, unharmed by their adversaries until the Day of Doom.⁽²⁾

وَلِيَّيَ أَنْخَوْلَكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا
كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا.

بَابُ : مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا
يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ :

حدثنا سعيد بن عفير قال حدثنا
ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب
قال قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت
معاوية خطيباً يقول سمعت النبي
صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي
الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي ،
وَلَنْ نَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ
لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » .

(1) by transmitting the Revelation equally amongst you. (Al-Qastallâni and Al-ʿAini)

(2) This hadith is taken by the doctors of Islâm as evidence of the inception of إجماع
(consensus of opinion) لا يجمع امتي على ضلالة (my people cannot be unanimous on an error)

weary us .

2 . We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Yahyâ b. Sa'îd, who was told it by Shu'bah, who received it from Abut-Tayyâh, through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

Make ye the way easy and make it not hard; Give ye glad tidings and estrange not. ^[1]

CHAPTER 55.

On him who appointeth fixed days for those who seek Knowledge.

We are informed by 'Uthmân b. Abu Shaibah, who had it from Jarîr, through Mansûr, through Abu Wâ'il, who said that :

'Abdullâh (Ibn Mas'ûd) used to instruct the people every Thursday . So when a certain man said to him: " O Abu 'Abdur-Rahmân, I would that thou shouldest give us instruction every day, " he said : " Indeed what prevents me from doing so is that I dislike to weary you; and therefore I

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا

يحيى بن سعيد قال حدثنا شعبة قال

حدثني أبو التَّيَّاحِ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

« يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا وَابَشِّرُوا وَلَا

تَنْفِرُوا » .

بَابُ مَنْ جَعَلَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَيَّامًا

مَعْلُومَةً :

حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال حدثنا

جريرٌ عن منصور عن أبي وائل قال :

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ

خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: « يَا أَبَا عَبْدِ

الرَّحْمَنِ لَوْ دِدْتُ أَنَّكَ ذَكَرْتَنَا كُلَّ

يَوْمٍ » قَالَ: « أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ

ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ،

(1) The connection of this hadîth with the " Knowledge " set out in the heading is implied, i. e. make the way of Knowledge easy to learners, and do not estrange people by unpalatable truths.

Ibn 'Abbas said that " Be ye Rabbânîs " (1) meaneth " Be ye wise and well-instructed in the Faith ;"

and it is said (Says Al-Bukhârî) that the Rabbânî is one who instructs people in the rudiments of Knowledge before proceeding to the theoretical questions.

CHAPTER 54

On how the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to adapt his exhortation and *his imparting* of Knowledge (2) to his hearers so that they should not be estranged from him.

1. We are informed by Muhammad b. Yûsuf, who had it from Sufiân, through Al-A'mash, through Abu Wâ'il, through Ibn Mas'ûd, who said that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to adapt his exhortations to us, by varying the days (3) through unwillingness to

وقال ابن عباس: «كونوا ربانين
حكما وفقهاء»
ويقال الرباني الذي يربي
الناس بصغار العلم قبل كباره .

بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْعِلْمِ
كَيْ لَا يَنْفِرُوا :

حدثنا محمد بن يوسف قال
أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي
وائل عن ابن مسعود قال :

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا
بِالْمَوْعِظَةِ فِي أَيَّامِ كَرَاهَةِ السَّامَةِ
عَلَيْنَا .

(1) الرباني is a teacher who has acquired scholarship, practice and piety , in other words one who has perfect Knowledge of things pertaining to God. Probably the word is of Hebrew origin meaning *rabbîn* .

(2) العلم (Knowledge) is here inserted by Al-Bukhârî in order to adapt the *hadith* to his title *Knowledge* ; and so doing he has placed the general in relation with the particular.

(3) According to Ibn Hajar and Al-Qastallânî.

servants as possess Knowledge fear Him; ⁽¹⁾ and His word: None can comprehend these parables but they that possess Knowledge, ⁽²⁾

and His word: "And they shall say, "Had we hearkened to the warning or had understanding of it we should not be among the children of the blazing Fire ;⁽³⁾

and His word: " Shall those who possess Knowledge and those who possess it not be held equal ? "; ⁽⁴⁾

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : " He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith; " and : " Knowledge is gained only by study ; " Abu Dharr said : " If you place a *Damascus* sword on this ", (pointing to the nape of his neck) " and then I thought that I could transmit a single word which I had heard from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) before you passed it through my neck, I should do so ; "

وَقَالَ: «وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»
وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا

كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

وَقَالَ: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي

الدِّينِ» وَ«إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَّعَلُّمِ»
وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: «لَوْ وَضَعْتُمُ

الصَّمَامَةَ عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ—

ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أَنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا
مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ
أَنْ تُجَبِّزُوا عَلَيَّ لَا أَنْفِذْتُهَا»

(1) Surah 35, verse 25.

(2) Surah 29, verse 42

(3) Surah 67, verse 10, i. e. " had we possessed Knowledge we should not have been in Hell ".

(4) Surah 39, verse 12.

property, and your honour must be held to be as sacred amongst you as this day, this month and this town-which ye hold sacred. Let him who beareth witness to these words communicate them to him that is absent, for it may be that the witness transmitteth to one who is more mindful of them than he.

CHAPTER 53.

Knowledge cometh before the word and before the deed, as appeareth from the word of Allâh (be He exalted): "Know thou that there is no deity but Allâh". (1) Thus Allâh hath placed Knowledge first;

The learned are the heirs of the Prophets, inheriting Knowledge. He who receiveth it, receiveth an abundant heritage;

He who followeth a road in the quest of Knowledge, to him will Allâh make smooth a road to Paradise;

The word of Allâh (glorified be His Name): "Only such of Allâh's

وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ
يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ
هَذَا، لِيَمْلِكِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ
عَسَى أَنْ يُبْلِغَ مَنْ هُوَ أَوْفَى لَهُ مِنْهُ» .

بَابٌ : الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ

لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ» فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ،

وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ
وَرِثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ
وَأَفْرِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ
عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،
وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: «إِنَّمَا يَخْشَى

اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ،

(1) Surah 47, verse 21. i.e. He began with the word "Know".

CHAPTER 52.

On the words of the Prophet :
 “ He to whom a *hadith* is transmitted
 may be more mindful of it than he
 who first heareth it.”

We are informed by Musaddad,
 who had it from Bishr, who was
 told it by Ibn ‘Awn, through Ibn
 Sîrîn, through ‘Abdur-Rahmân Ibn
 Abu Bakrah, through his father, who
 stated that :

The Prophet (Allâh bless him
 and give him peace) was seated on
 his camel-its halter or rein being held
 by a man-when he said : “ What
 day is this ? ” We were silent, as
 we thought that he was about to
 give it some other name . “ Is not
 to-day ” he continued, “ the day of
 the Courban sacrifice ? ” “ Yes ” we
 replied. “ What month is this ? ”
 asked he . We were again silent, as
 we thought he was about to give the
 month another name. “Is it not the
 month of Dhul-Hijjah ? ” he
 continued. “ Certainly ” we replied.
 He then said : “ So your blood, your

بَابُ مَقُولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« رُبُّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » :

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا بِيْشْرٌ قَالَ

حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ :

ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَعَدَ

عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ

أَوْ بِرِجْلِهِ ، قَالَ : « أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ »

فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ

سِوَى اسْمِهِ ، قَالَ : « أَلَيْسَ يَوْمَ

النَّحْرِ ؟ » قُلْنَا : « بَلَى » قَالَ : « فَإِنَّ

شَهْرَ هَذَا ؟ » فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ

سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ : « أَلَيْسَ

بِذِي الْحِجَّةِ ؟ » قُلْنَا : « بَلَى » قَالَ :

« فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

While the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was once sitting in the mosque in the company of the Faithful, three men came in. Two of them went up to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), while one withdrew. Then while the two stood listening to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), one of them, seeing a vacant place in the circle, sat down in it, and the other sat down behind the group. The third, however, departed on his way

When the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had finished his discourse, he said : “ Shall I speak to you about these three men ? One of them hath turned unto Allâh and Allâh hath turned unto him; the second hath shown modesty, so Allâh hath shown modesty unto him; (1) the third hath turned away, and Allâh hath turned away from him. ”

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ
مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ فَأَقْبَلَ
اِثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ فَوْقًا
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَأَمَّا
أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْخَلْقَةِ
فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ
خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَذْبَرَ ذَاهِبًا .
فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ
الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ
فَأَوَاهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا
فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ
فَاعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ . »

(1) i. e. will remit his punishment

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) once wrote a letter ⁽¹⁾ (or wished to do so), when he was told that a letter was not read *by those to whom it was addressed* unless it was sealed. He there - fore adopted a silver signet ring on which were engraved the words: " Muhammad the Apostle of Allâh. " I still seem to see the whiteness of the ring *gleaming* on his hand. When I (Shurban) asked Qatâdah who had said that the words engraved were " Muhammed the Apostle of Allâh, " he replied : " It is Anas. "

CHAPTER 51.

On him who taketh his seat in the place where the study-group ends, and on him who perceiving a vacant place in the circle, sitteth in it.

We are informed by Ismâ'il, who had it from mâlik, through Ishaq b. 'Abdullâh-Abu Talhah, who was told it by Abu Murrah, the bondman of 'Aqil b. Abu Talib, through Abu Wâqid Al-Laithî that :

فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا
مُخْتَوًى ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ
نَفْسُهُ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » كَأَنِّي
أَنْظَرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ ، فَقُلْتُ
لِقَتَادَةَ : « مَنْ قَالَ نَفْسُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ ؟ » قَالَ : « أَنَسٌ » .

بَابُ مَنْ قَعَدَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ
الْمَجْلِسُ وَمَنْ رَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلَقَةِ
فَجَلَسَ فِيهَا :

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك
عن اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة
أن أبا مرة مولى عقیل بن أبي طالب
أخبره عن أبي واقد الليثي

(1) Through an amanuensis,

the Prophet's command (Allah bless him and give him peace).

1. We are informed by Ismâ'il b. 'Abdullâh, who had it from Ibrâhim b. Sa'd through Sâlih, through Ibn Shihâb, through 'Ubaidullâh b. 'Abdullâh b. 'Utbah b. Mas'ûd that he was told by 'Abdullah b. Abbas that :

The Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) despatched a man with a letter of his, charging him to deliver it to the ruler of Bahrain. The latter (2) sent the letter on to Chosroes, who, after he had read it, tore it up.

I believe that Ibn Al-Musayyab said that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) called down upon the Persians the curse " May they be torn in pieces "

2. We are informed by Muhammad b. Maqtil Abul-Hasan, who had it from Abdullâh, who was told it by Shu'bah, through Qatadah, through Anas b. Malik, who said that :

حدثنا اسماعيل بن عبد الله قال :
حدثني ابراهيم بن سعد عن صالح عن
ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن
عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس
أخبره أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعث بكتابه رجلاً وأمره أن
يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم
البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه
مزقه ،

فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ :
فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ .

حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن
أخبرنا عبد الله قال أخبرنا شعبة عن

قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :
كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كِتَابًا (أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ)

(2) After reading the letter and accepting Islam.

CHAPTER 50.

On what is mentioned during the personal transmission of a hadîth and in written communication of Knowledge by the doctors to the people of other lands ; (1)

On Anas' statement that 'Uthmân caused copies to be made of the Qur'ân and sent them to the four points of the compass :

Abdullâh b. 'Umar, Yahyâ b. Sa'îd, and Mâlik declared both these forms of transmission to be valid ; -

and on the argument drawn by one of the doctors (2) of the Hijâz in favour of personal transmission from the tradition of the Prophet, (Allah bless him and give him peace) in which he handed to the company commander (3) a letter instructing him not to read it until he had reached such and such a place. When he reached the place, he read the letter to the people and informed them of

بَابُ مَا يُذَكَّرُ فِي الْمُنَاوَلَةِ
وَكِتَابِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ إِلَى الْبُلْدَانِ ،
وَقَالَ أَنَسٌ : نَسَخَ عُثْمَانُ
الْمَصَاحِفَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى الْأَفَاقِ .
وَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَيَحْيَى
ابْنُ سَعِيدٍ وَمَالِكٌ ذَلِكَ جَائِزًا .
وَاحْتَجَّ بَعْضُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي الْمُنَاوَلَةِ
بِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ
كَتَبَ لَا مِيرَ السَّرِيَّةِ كِتَابًا وَقَالَ : لَا
تَقْرَأُوهُ حَتَّى تَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا ،
فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمَكَانَ قَرَأَهُ عَلَى
النَّاسِ وَأَخْبَرَ الْمُؤَمَّمُ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(1) Abdullah b. Jahsh, the brother of Zainab, the Prophet's wife.

(2) In the case where the master hands his written copy to the pupil, or when the pupil submits a written copy to him, the master may authorise him verbally or tacitly to transmit it. A written communication may be delegated in the same way .

(3) Al-Bukhari's Shaikh, Al-Humaidi .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامي في العالم

٢٢

دعوته الى وجوب محافظة المجتمع على السمو الروحاني في جميع محاولاته الدنيوية

شرع الله الاسلام للناس ليكون دستوراً لهم يقومون عليه في أمورهم الدينية، وشئونهم الدنيوية، فإنه كما قرر في الناحية الأولى العقائد الواجب الأخذ بها، والعبادات المترتبة عليها، والأخلاق التي يجب التخلق بها، والأسلوب الذي ينبغي اتباعه في النظر والبحث والاستدلال بالاعتماد على العقل والعلم، والبعد عن الظنون والأهواء والأوهام، وعن التقليد الأعمى، كذلك قرر في الناحية الثانية الأصول التي يقوم عليها الاجتماع والواجبات المترتبة عليها، والحفاظ الضرورية لها، والأسلوب الذي يجب اتباعه في حفظ المجتمع سليماً من العلل، بريئاً من الخلل، قابلاً للدخول في كل الأقطار التي تدخل فيها الجماعات، والخروج منها حاصلاً على جميع ما تستتبعه من ترقى صوري ومعنوي، ومن تكمل ديني ومدني. هذا ما فهمه المسلمون الأولون من هذا الدين، وقد دل عليه قوله تعالى: «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم»، قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةً ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين». وقد وعدهم الله بسعادتي الحياتين وعدا صريحاً في قوله تعالى: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييّه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

فالاسلام تصدى من هذه الناحية لأمر جليل وهو التوفيق بين المصالح الدينية للمجتمع وبين مصالحه الدنيوية، بحيث تتكافل في إيصاله الى كماله المادي والأدبي، ولا تتناقض في دور من أدوار تطوره الفكري، فيصبح العلم عدواً للعقائد، ويصير

العقل منابذا للتقاليد الدينية، كما حدث في كل أمة تقدمت الأمة الاسلامية، وكما هو حادث اليوم أمام أعيننا في أمم كثيرة.

إن قيادة سفينة الحياة الاجتماعية في أمة في وسط هذه الشعاب القائمة من الحالات الانسانية المتعارضة، ودفعها في مضطرب تياراتها الثائرة، والتمسك من حفظ توازنها، وتأديتها سليمة الى شاطئ النجاة، يعتبر فوق قدرة البشر، لا لأن الأمر جد خطير في ذاته فحسب، ولكن لأنها سابقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشر. فهل سبق في تاريخه أن أمة من الأمم تألفت تألفا عالميا حول أصول عامة من الأخلاق والمبادئ، مهددة في سبيلها الفوارق القومية والجنسية واللغوية، فقامت على صراط الحق المستقيم، متحرية بحاب الله في جميع مآعمل، ومحاسبة نفسها على كل صغيرة وكبيرة من الانحراف عن هذه الجادة المثلى، فبسطت سلطانها على نحو نصف المعمورة مما لم يتسن لأمة قبلها ولا بعدها، وأسست مدنية فاضلة قامت على تلك الأصول الإلهية نفسها، مما أصبح أمره معترفا به من جميع مؤرخي العالم الإنساني اليوم؟

هذا أمر لم يسبق له مثيل، فإن مبدأ القومية والجنسية كان طاغيا على جميع الاعتبارات العامة في كل دولة تأسست قبل الدولة الاسلامية. وما جاء ذا صبغة عالمية من الدعوات الدينية قبل الاسلام طغت فيه النزعة الروحية على الحاجة المادية، وسأقت الأمم الى زهادة مطلقة، ومجافاة تامة للعلوم والفلسفة، وشدت العقل الى سلاسل من حديد ابنتى عليه جهل مطبق لازم أوروبا أكثر من ألف سنة (راجع كتاب المنازعة بين العلم والدين للأستاذ دريبر).

إذا تقرر هذا فإن في توفيق الاسلام بين روح السمو الديني وروح العمل الدنيوي والسكح المادي، يعتبر آية من آيات الوضع الإلهي.

هنا يمكن أن يعترض علينا معترض فيقول: إن ما تسمونه سموا دينيا كان في حقيقته عملا ماديا، فدينكم كان دينا ماديا محضا لا أثر للروح فيه إلا من الناحية العبادية المحضة، ولذلك تأدى بأهله الى ما تتأدى اليه كل التعاليم المادية من الرقي والمدنية.

ونحن نرد على هذا المعارض بأن اعتراضه يقوّى ما نستنزل عجب القارئ لأجله، وهو أن أمر التوفيق بين الأعمال الروحية والمادية متعذر الى حد بعيد حتى إنها لتظن مستحيلة كما يراها المعارض، ولكننا في سبيل إثبات أن المسلمين في عملهم الديني المحض كانوا يحافظون على السمو الديني الذي ليس وراءه مذهب، نسأله هذه المسائل وهي:

١ - ألم يثبت أن المسلمين كانوا في معاملتهم لأصحاب الأجناس المختلفة، حتى الذين خضعوا لسلطانهم والأرقاء، يحافظون على مبدأ المساواة في الحقوق، والعدل المطلق في الأحكام؟

٢ - أولم يعلنوا مقهورهم بأن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وأنه لا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى، أو بعمل صالح؟ حتى قال العلامة جوستاف لوبون الفرنسي في كتابه خلاصة تاريخ العرب: إن الانسانية لم تر متغلبين أبرها وأرحم من المسلمين؟

٣ - أولم يراعوا شروط العدل وعدم العدوان حتى في ميادين القتال ومناجزة الأقران، كما قال تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين». وقال تعالى: «ولا يجز منكم شنان قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى». وقد حرم عليهم قتل الأطفال والشيوخ والنساء ورجال الدين حتى خدمة أعدائهم المحاربين؟

٤ - أولم يدع الاسلام ذويه الى القيام بالقسط ولو على أنفسهم أو عشيرتهم أو آبائهم فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين».

٥ - أولم يعلن الاسلام على رؤوس الأَشهاد أن الحرب التي تقتضيها حماية الدعوة ونشرها لا يعتبر الموت فيها شهادة إلا إذا كانت نية المقاتل منصرفة الى إعلاء كلمة الله، لا الى غرض دنيوي، ولا غرض مادي، ولا للمباهاة بالشجاعة والنجدة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل

للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله، فن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الموطن كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى قائد جنوده ضد الفرس سعد بن أبي وقاص، وهو: «أما بعد فإنني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجديش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعدوهم، ولا عدتنا كعدوتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعملون ما يفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس، نجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم» .

ألا يرى القارئ في كل ما قدمناه أن الاسلام يحرص على أن يحافظ أهله على السمو الروحاني حتى في المواطن التي يتعمد فيها قادة الأمم أن يتناسوا هذا السمو ليشيروا في جنودهم أقصى ما يستطيعون إثارته من القوى الوحشية الثاوية في نفوسهم؟ تصفح تواريخ الفاتحين الأولين والمحدثين فهل ترى فيهم من يقول لسكره إنكم إن قاتلتم عدوكم طلبا للمصالح الدنيوية، أو مباهاة بالحمية، أو دفاعا عن العصبية، فقتلتم، لا تتالون درجة الشهادة التي يحرص عليها المؤمنون، فإنما كتبت هذه المسألة السامية للذين لا يقاتلون إلا لتكون كلمة الله هي العليا؟

إن المأثور في هذه المواطن أن يقول القواد جنودهم: هلموا الى أعدائكم فزقوم كل

ممزق، وبالفوا فى النكاية بهم ، واجعلوهم عبرة لمن تحدّثه نفسه أن يقف فى طريقكم ، الخ الح . أما ذكر تقوى الله ، والتنبيه بمراعاة العدل ، وعدم العدوان ، وتجريد النفس من جميع الأغراض الدنيوية ، والأهواء الذاتية ، وتمحيض القصد لآلاء كلمة الحق ، فهذا كله لم يرد على لسان قائد فى الأرض حتى الذين كانوا يحاربون لأغراض دينية ، بل إن المعارك الدينية قد امتازت بضروب من الوحشية يعجز عنها الوصف حتى ضربت بفظاعتها الأمثال (راجع تاريخ الحروب الدينية) .

يرى القارىء بعد هذا البيان أن شبهة خصوم الاسلام قد دحضت دحوضا لا قيام لها بعده ، وثبت أن هذا الدين يتشدد فى وجوب ملاحظة السمو الروحانى فى كل موطن حتى المواطن التى يسمح فيها القادة لجنودهم بارتكاب الأعمال الوحشية زيادة فى النكاية بالعدو والإيخان فيه ، وبثبوت هذه الحقيقة يثبت أن الاسلام انفرد من بين جميع النظم الاجتماعية بهذا الأدب العالى الذى لا عهد للبشرية به الى اليوم .

إننا ببياننا هذه الناحية من الاسلام قد كشفنا للقارىء عن معجزة علمية له لا نقول عجز عن مثلها المصلحون ، ولكننا نقول لم تدر فى خلدكم الى هذا العصر ، فإن ما هو ظاهر أمام الناس ظهور الشمس من نفسيات الجماعات أنها قائمة على مبدأ الأثرة القومية المحض ، وإنها لا تعتد فى تحقيق أحلامها من الفتح والتوسع بشبه أصل من أصول الرحمة أو العدل ، فقيام أمة قبل نحو أربعة عشر قرنا بتعاليم ديانة عامة على نظام يوفق بين مقتضيات الروح العلو ومقتضيات المادة على النحو الذى رأيت هنا ، يعتبر أمرا خارقا للعادة لا يكاد يتصوره العقل لولا نتائج الملموسة باليد .

إن جماعة المسلمين قد برهنوا فى أدوارهم كلها على أنهم رسل السلام والأمان ، وطلّاع العلم والحكمة ، ومقدمة المدنية الحققة فى الأرض .

يقول المؤرخ سديو الفرنسى فى كتابه تاريخ العرب : إن المسلمين نشروا العلم والحكمة والمدنية حيث وطئت أقدامهم . ويؤمّن على كلامه جميع الذين كتبوا عن المسلمين قديما

وحديثا، فقررُوا أنه لولا لم يقضى على التراث العلمى للأُم ، ولأفنى بعض الأُم بعضا من مواصلة الحرب . أفليس هذا من أدل الأدلة على أن المسلمين لم يكونوا يتحرون حياتهم وحدها، ولكن حياة الخلق كافة، على نظام من التكافل والتعاون فتن مقهورهم فأصبحوا بدون دعاية، من إخوانهم فى الدين، وانقلبوا من محارِبين لهم الى منافخين عنهم، ومن أعداء لملتهم، الى أولياء لها، بل أئمة يهدون الناس إليها ويعملون على إعلاء كلمتها، لا بالعمل لذلك وهم قعود فى أ كسار دورهم، ولكن بالرحلات البعيدة، والتضحيات التى لا تدخل ضروبها تحت حصر .

فإذا كان من أجل ما يدوِّنه العلم فى تاريخ أمة أن ينقلب أعداؤها الى أولياء يبادلون الحب والمودة، فإن من أكبر ما يسجله من الآيات فى تاريخ الانسانية أن ينقلب أعداء أمة الى أئمة يبذلون أنفسهم لإعلاء شأن دينها بين الخلق . محمد فريز ومبرى

أقوال البلغاء فى أطيب الكلام

قال أحد البلغاء : أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه .

وقال غيره : أبلغ الكلام ما يؤنس مسمعه ، ويؤليس مضيقه .

وقال سواهما : ليست البلاغة أن يطال عنان القلم أو سنانة ، أو يبسط رهان القول وميدانه ، بل هى أن يبلغ أمد المراد ، بالفاظ أعيان ، ومعان أفراد ، من حيث لا تزيد على الحاجة ، ولا فى إخلال يفضى الى الفاقة .

ووصف أهل البيان البليغ فقالوا : فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تحاسد فى التسابق الى خواطره ، والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله .

الى هذا يشير أبو تمام الطائى بقوله :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل

التفسير

سورة الرعد

- ٥ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَافِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) .

لقد كثرت ما نعتت المشركون وعاندوا ، وتجاوت لهم الآيات والعبر فعموا عنها وصبوا ، فأنكروا قدرة الله على البعث والحشر حتى ألقموا حجرا بما اعترفوا به : من أنه خالق السموات والأرض ، ومنبت الكلا والزرع ، ومنوع الثمار في أكلها ولونها وهي تسقى بماء واحد ونبتت في قطع متجاورات ، فإذا يعجزه بعد ذلك أن يعيد ما بدأ وهو أهون عليه ؟

ثم استشكلوا بأن تلك الأجزاء قد اختلط بعضها ببعض فكيف تكون القدرة

على تمييزها ورد كل جزء منها الى ما كان مركبا معه حتى تلتئم أجزاء الجسم الأصلية كما كانت، وأنى يكون ذلك؟ فلم يكن يليق بهم إلا التعجيب من سخافتهم وغبواتهم، والنعي عليهم بأنهم هم الذين كفروا بربهم الذى خلقهم، ووهبهم من النعم الواضحة ما وهبهم فعموا عنها ولم ينظروا اليها، فكان الأغلال فى أعناقهم فهم مقمّحون، لا ينظرون ما هو تحت أبصارهم، ولا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة، وذلك ما ذكره الله عز وجل فى قوله: « وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لى خلق جديد. أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم بعد أن حكى الله عنهم مآلاتهم وتلكوهم بغبواتهم، إذ يستعجلون لأنفسهم العذاب والسيئة قبل الحسنة، ولم ينفعهم النظر فيما أصاب من قبلهم من المثلالات التى حلت بأمر كانوا أشد منهم بطشا وأكبر قوة، وأن هذا لا يصدر إلا عن سفيه جاهل بمقدار نفسه وبمقدار اليد التى تملك ناصيته وتهيمن عليه، عاد الى ذكر طرف مما فتنوا به وعلقوا عليه إيمانهم، كأنما هم الغالبون يملون شروطهم على المغلوب، أو كأنما يطلب إليهم أمر ينتفع به الطالب، فهم يشترطون فيما يشترطون فيقولون: « لولا أنزل عليه آية من ربه » أو يقوله الذين كفروا منهم وتمكن الكفر من قلوبهم حتى عقدها عن أن تنظر فيما فيه صلاحها، وغامت الغشاوة على بصائرهم فلم يبصروا ما تجلى من الآيات التى يهتدى بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فجدوا تلك الآيات وأبوا إلا آيات يقترحونها ويعينونها، ويعرضون عما تجلى لهم مما هو أقوى منها، ولو أجيبوا الى ما طلبوا الجاء كل واحد يقول: هذا مقترح فلان ولا يقنعنى إلا أن تجيبنى لمقترحي، ولكانت الآيات لعبة تابعة لأهوائهم، ولو اتبع الحق أهواءهم ففسدت السموات والأرض. وها نحن أولا، نورد عليك طرفا من تعنتهم الذى حكاه الله عنهم فى اقتراحاتهم وتلاعبهم :

في سورة الفرقان : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » فقد أبوا الاعتراف بنبوة من يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ثم طلبوا أن ينزل معه ملك فيكون معه نذيراً ، ثم اقترح منهم مقترح أن يلقى إليه كنز من مال ؛ وقال آخر : تكون له جنة يأكل منها . وبقى بعد ذلك الباب الذي لا يمكن سده وهو تعلمهم بقولهم إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . فلو جىء لهم بكل ما طلبوا لبقى تعلمهم بأنه سحرهم ، كما تعلموا في قصة انشقاق القمر حتى سألوا القادسين من الآفاق فأخبروهم أنهم رأوه منشقاً على ما روى . ولقد كانوا يقولون قبل ذلك إن محمداً إن كان قد سحر أبصارنا فلم يقدر على أن يسحر جميع من في الأرض ، فلما أخبروهم بأنهم رأوا القمر منشقاً لوأرءوسهم وأعرضوا مستكبرين . وفي سورة الفرقان أيضاً : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أن نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » . ولقد رد عز وجل عليهم بقوله جل من قائل : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » فبين أنهم لو أنزلت عليهم الملائكة على صورتهم لهلكوا عن آخرهم ، فكان طلبهم هذا وبالاً عليهم ، فما أشبهه بما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها فيما مر في قوله تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات » : وقال تعالى في سورة الأنعام : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون » فهذا نظير قوله في الآية المذكورة آنفاً : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » إذ يهلكون على كفرهم ولا ينفعهم يومئذ إيمانهم ، فقد صار الإيمان عن عيان وإلجاء ، فلم ينجى عن ابتلاء العقول التي هي أعظم ما وهبه الله لبني الإنسان . ولو جاء الملك على صورة يمكن رؤيتها لكان على صورة رجل ، كما قال تعالى في سورة الأنعام : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون »

أى لجاء قولهم: يا كل الطعام ويمشى فى الأسواق، أو قولهم: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا .

وكذلك افترضوا أن ينزل كتاب من السماء معه ملائكة يشهدون بأنه من عند الله، فجاء قوله تعالى: « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » فكيف الوصول إلى إقناع هؤلاء وكلما جاءتهم آية تعملوا بأوهى المعاذير ؟

ولنجل لك ما حكاه الله عنهم فى سورة الإسراء، إذ يقول عز وجل: « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى باله والملائكة قبىلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ». هكذا كانت ألامعيهم، وهكذا كان تعنتهم، وهكذا كان عنادهم وإبائهم، فكانهم يأبون أن يؤمنوا برهم حتى يتجلى لهم، ويتنزل للعمل بأهوائهم . فلماذا كل هذا وقد وضح الصبح لذى عينين؟ وماذا يمنعهم من أن يؤمنوا لبشر اصطفاه الله واختاره لوحيه، وأيده بآياته الباهرة ومعجزاته القاهرة؟ فقد أبوا أن يعترفوا لله بهذا الحق: حق اختيار بشر للرسالة، كما قال تعالى: « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ». ومادروا أن الرسول لا يمكن انتفاع المرسل اليهم به إلا إن ناسبهم وأمكنهم أن يفهموا منه، وهم بشر لا ملائكة، ولو كانوا ملائكة لأرسل اليهم ملكا مثلهم: « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

هذا هو تصوير حال المشركين وإبائهم وعنادهم مع الأنبياء والمرسلين . وهذا هو جلاء الآيات لهم، ورد حججهم عليهم، حتى لم يبق لهم متمسك يسوغ الاعتماد عليه فى نظر عاقل، أفن حكمة القادر القاهر أن يجعل آياته تحت تصرفهم وألعوبة لأهوائهم، أم أن

العزة الإلهية تقتضى أن يعرض عن هدياتهم ويمضى الرسول في طريقه معرضاً عنهم غير آبه بهم، وأن يشد المولى عز وجل أزر نبيه ويأمره بالإعراض عن قوم عموا وصبوا، فيقول عندما يشرعون في محادثاتهم: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»؟

لقد بسطنا القول طويلاً في هذا الموضوع، وأطنبنا فيه أكثر مما تعودنا، وما حملنا على هذا الإسهاب والتوسع في الاستشهاد بآيات متماثلة من محكم آيات الكتاب إلا إبطال ما يتعلل به بعض الكتاب، إذ يزعمون أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يؤيد من قبل المولى عز وجل بمعجزة سوى القرآن، وكل آياته هي الكتاب العزيز، فلم يظهر على يده صلى الله عليه وسلم معجزة ما غير القرآن الكريم. ونحن نقول: كفى بالقرآن آية بل آيات كبرى، ومن ذا الذى ينكر أو يستهين بما احتوى عليه القرآن العزيز من باهر الآيات؟ إلا أنا نقول: إنه مع هذا قد ظهر على يده صلى الله عليه وسلم من الآيات الكونية والمعجزات الخارقة للعادة ما تواتر في جملته، وإن كانت آحاده آحاداً، وقد صحت الأسانيد بالكثير منها، وبلغت جملتها حد التواتر، كما مثله وجود حاتم وشجاعة على وأمثالها مما صار مجموع غير قابل للشك وإن كانت آحاد الحوادث لم يبلغ واحد منها حد التواتر. وأمارة التواتر أن يصل الأمر عند النفس إلى حد لا تقبل الشك أو التشكيك فيه، فلو أنه قيل لك: إن حاتماً كان بخيلاً أو إن علياً كان جباناً، لم تجد ما يدعوك إلى التفكير فيه، وإن كانت آحاد حوادثه لم تبلغ عندك مبلغ التواتر. وإذا أردت مثلاً مما يقع في عهدنا فهناك: لقد تواتر عند الحاضرين أن بعض الساسة كان من الدهاء بحيث لا يشق له غبار حتى أصبح لا يقبل تغيير العقيدة فيه، فلو قيل لك مثلاً: إن بسمارك السياسى كان رجلاً غيبياً قصير النظر، لآبت نفسك الاستماع له أو كلفت نفسك مؤنة الرد عليه، مع أن أشخاص حوادثه لم يثبت لديك منها شيء بعينه. ويسمى متواتر المعنى.

ولقد تواترت المعجزات في جملتها وإن كان بعضها آحاداً صحيح الإسناد.

فنبع الماء من بين أصابعه ، واختفأؤه عن أعين الباحثين عنه وهو أقرب الى مواقع أبصارهم ، وأمثالها ، من الآيات الكونية . بل من بعض وجوه الإعجاز في القرآن ما هو من الآيات الكونية ، كعلم أخبار الأمم الماضية ، وكالإخبار بالمستقبل فيقع كما هو ، كما في قوله تعالى : « السَّاعَةُ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ » مما جرت بشأنه المراهنة المشهورة بين أبي بكر وبعض الكفار . والأخذ على قلوب اليهود الذين نطقت الآية الكريمة بأنهم لن يتمنوا الموت أبداً آية كونية ، فلقد كانوا أحرص الناس على تلمس ما ينهض حجة لهم على محمد ، وما كان أهون عليهم من أن يقول قائل منهم : ليتنى أموت ، فلا يقدر أحد على ادعاء أن هذا قول لساني . كان هذا بهمهم ويعنيهم جد الغاية ، ولا سيما في الوقائع التي كانوا ينزلون فيها من معاقلمهم على حكم السيف ، إذ غدروا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، كما جرى لبني قريظة وبني النضير من اليهود .

واخلاصة أن أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم وأعظمها والدائم بذاته منها ، هو القرآن الكريم . ولكن هذا لا يمنع أن له معجزات كثيرة وردت بها الأخبار الصحيحة . أما ما في الآية التي معنا وأمثالها فقد تجلّى لك بما سبق موقعه وأنه قطع لتعللاتهم وتصويرهم بأنهم لا يؤثرون لطلباتهم ، ولا يعتنى بهذياتهم ، فليمض المصلح في إصلاحه ، وليدعهم لرهبهم ، فهو القادر على أن يذيقهم وبال أمرهم « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » . هذا وحين تتأمل في قوله تعالى : « ويقول » تجد أن هذا كان يتكرر منهم ، وكان عادة لهم وديننا . والتعبير عنهم بالذين كفروا تصويرهم بصورة من لا يرجى منه صلاح حال أو اعتراف بحق ، فقد سدت قلوبهم عن إدراك الهدى بما عقد عليها من الكفر . وكلمة (لولا) للطلب الشديد المصحوب بمحتم ، كأنهم جد حريصين على حصول تلك الآية ، ولم يكفهم ما بهرهم من جليل الآيات .

وكلمة (من ربه) لا يريدون بها إلا الهزؤ بدعواه أنه مرسل من ربه ، كأنهم يقولون :

إذا كان مرسلًا من ربه فلم لم يؤيده بإجابة ما نطلب ؟ لذلك كان الأمر يشتد عليه صلى الله عليه وسلم لمزيد حرصه على أن يؤمنوا أو يهتدوا ، وأن ينجح في مهمته وأداء رسالته ، فكان المقام مقام أن يهتدوا عليه ربه أمرهم ، ويرشده إلى ألا يكبر الأمر على نفسه ، فقال أولا : إنما أنت منذر ، أى ما كانت مهمتك أن تهديهم وتوصلهم بالفعل ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، وقد بلغت على الوجه المطلوب منك ، فلا عليك أن يؤمنوا أو يكفروا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . وقال له ثانيا : « ولكل قوم هاد » أى ما كان بدعا في الكون أن يحيى الرسول إلى قومه فيهديهم فيكون منهم المؤمن ومنهم المكذب ، بل هذه عادة الله في خلقه : يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فيكون من قومهم المكذبون والمصدقون ، فلك أسوة بإخوانك الرسل من قبلك . وعلى ذلك يكون معنى « هاد » أى رسول يرشدكم كعنى منذر . ومن المفسرين من يرى فى معنى الهادى الموصلى بالفعل ، ويقول : الهادى هو الله ، أى أن الله هو الذى يهتدى ويوصل إلى الخير . ولكن الوجه الأول أوجه ، فإن المولى جل وعلا لم يوصل بالفعل كل قوم ، فما زال من القدام من الناس مؤمن وكافر . إلا أن يراد أن الله هاد لكل قوم اهتدوا ، أى كل من حصلت له الهداية الإلهية فهدايتته من الله والله هو هاديه . وأصحاب هذا القول يرون أن لفظ الجلالة بعد هاد خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الله . ثم فى الوجه الأول فوق التأسى الذى شرحناه معنى أن لكل قوم هاديا يليق بقومه بحسب حالهم ، وأنت جئت لقومك على أتم الحالات التى تنتظر لهم وتناسبهم ، وجئت بالآيات اللاتئة بقومك وبالناس أجمعين .

قال تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار » :

هذا من تمام تسليته صلى الله عليه وسلم وتهوين أمرهم عليه ، وذلك ببيان أن الله عليم بخفى حالهم ، فلو علم فيهم خيرا لأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكنه أحاط بكل شئ ،

علما ، وعلم ما خفى وما ظهر ، وعلم نياتهم وما انطوت عليه قلوبهم . أليس يعلم الحمل قبل أن يتكون ، بل هو الذى يكونه حسبما أراد ، وعلم ويعلم من دقائق تكوينه وما يحيط به ما لا يعلم هو من نفسه ولا يعلمه أحد غيره جل شأنه ؟ فهو يعلم ما تحمل كل أنثى : أذكر هو أم أنثى ، أشقى هو أم سعيد ، أمكابر هو أم مسترشد ، فيعطى كل ذلك ما يليق به ويوافق الحكمة ومحكم التدبير ، فلا يسير وراء أوهام من أوهوا أو توهوا ، كيف وهو أعلم بهم من أنفسهم ، فلا غرو كان أليق شئ الإعراض عن مقترحهم ، فأعرض عنهم ، فنحن أعلم بهم من قبل ومن بعد .

وأردف ذلك بقوله : « وما تفيض الأرحام وما تزداد » لبيان أن سعة علمه جل شأنه لا تقتصر على ما حمل به أذكر أم أنثى الخ بل يعلم فوق ذلك ما غاضته الأرحام أرحام النساء ، أى نقصته من مادة كانت صالحة للتخليق فنقصتها الأرحام وغاضتها ، وما زادته الأرحام من مواد أضيفت الى ما قذف فيها من نطف فتكونت منها النطفة بشرا سويا .

وإن من رجع الى كلام أهل الذكر فى هذا الباب رأى فيه أن النطفة تقذف فى الرحم محتوية على عدة بويضات صالحة للتخليق فتدور حول بويضات من المرأة حتى يحترق بعض بويضات الرجل بعض بويضات نطفة المرأة فيذوب فيه ، وباقيها مما لم يرد الله تخليقه يكون بمعزل فيفسد ، فكان الأرحام غاضته أى انتقصته . ثم يكون من الأرحام إمداد لما صالح للتخليق منه فيزداد وينمو بأمر الله حتى يكتمل خلقا سويا ، ففى كل نطفة تخلق منها جنين غيض وازدياد . ويصح أن يكون معنى تفيض الأرحام أى ما يتلاشى فيها من النطف ، وما تزداد أى ما يتعدد فيها من الأجنة .

وعلى الجلالة فالآية قد نهبت على أدق شئ فى تكوينهم ، فكيف يعزب عن علمه حالهم وهو الذى كونهم : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ فلو علم فيهم خيرا منتظرا لأجابههم الى مطلبهم ، كما قال تعالى : « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » ولكسهم لا خير يرجى منهم كما قال عقبها : « ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

وكلمة (ما) في قوله : « ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزاد » يصح أن تكون مصدرية أى حمل وغيض وازدياد ، أو موصولة أى ما تحمله وما تفيضه وما تزيد ، أو استفهامية أى ماذا تحمل وماذا تفيض وماذا تزاد ؟ وتكون معلقة لفظ (يعلم) عن العمل كما يقوله علماء النحو .

ولفظ تغيض يستعمل لازما ومتعديا ، تقول : غاض الماء وغيضته أى نقص أو نقصته كما قال تعالى : « وغيض الماء » أى نقص وغيب فى الأرض . ويصح أن يكون تغيض الأرحام وتزاد ، أى فى الجنة كالمولود ناقصا والمولود كاملا ، أو فى المدة كالمولود لسبعة أشهر والمولود لتسعة والمولود لسنة أو أكثر ، أو فى العدد كالمولود منفردا أو متعددا اثنين أو ثلاثة أو أكثر . كل هذا يدل عليه تغيض وتزاد ، فوق ما سبق لك من انتقاص بعض ما يصلح للتخليق أو كله ، ومن ازدياد المادة الخلقية بما يمدّها من دم الأرحام . وغير خاف أن إسناد تغيض وتزاد الى الأرحام مجاز عقلى ، وإلا فالله هو الفاعل لكل شئ فى الحقيقة .

وقوله تعالى : « وكل شئ عنده بمقدار » تقرير لمضمون الجملة قبله ، وكأنه يقول : إنه مع إحاطة علمه بكل شئ جل أو قل ، فإنه بتقديره وحكمته قد رتب كل شئ حسبما يليق ، فإما كان الأمر فرطا ولا ابن المصادفة ، ولكن كل شئ خاضع لتدبير الحكيم العليم . فهذا كقوله تعالى : « إنا كل شئ خلقناه بقدر » فكل عرض وكل جوهر قد وضع حيث أراد الله ودبر بمقتضى الحكمة من الأزل ، فما كان لخلق أن يطمع فى تغيير أمر عما أراد الله العليم الحكيم ، فكل شئ له مرتبته الخاصة به ووقته المعين له ، وحاله اللاتئة به لا يكاد يجاوزه . ومعنى « عنده » أى فى علمه وحكمه . قال تعالى : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » :

تقرير بعد تقرير ، وتمثيت إثر تمثيت ، حتى يطمئن قلبه عليه السلام الى ما أراده الله عز وجل بهم ، ويهون عليه أمرهم ، وهو الذى كان أشد ما يكون حرصا على إيمانهم

وهذا ينهم، حتى إنه قد خاطبه عز وجل بقوله: «فلعلك باخع نفسك على آثارك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» يدفعه الى ذلك ما فطر عليه من رأفة ورحمة، وشغف بأن لا يفوت الايمان بالواحد القهار أحدا من خلق الله العقلاء. كيف وهم قومه وعشيرته، والأمر أوضح من أن يخفى؛ وهم ذوو عقول وفطن، لا يعذرون في تضییع ذلك الخير الجليل على أنفسهم. فالحق أن وقوفهم موقف العداء لأففسهم أمر يضيق له صدر الحليم، ولا سببا وهم عشيرته الأقربون. فلا بدع أن يتلو الكلام بعضه بعضا في تهوين أمرهم عليه صلى الله عليه وسلم، وتكریر القول في أن ذلك يجب رده الى علم الله وحكمته، فهو بهم أعلم، وهو عالم الغيب والشهادة، وهو الكبير المتعال، فلا هيمنة على الخلق ولا تصرف في شئونهم إلا للعالم بحالهم، وهو المنزه عما يتوهّمونه من أن دعوتهم سيعود نفع منها على أحد غيرهم. ثم مهما زعموا لأففسهم من عزة وعظمة فهم أهون عند الله من أن يلتفت الى شيء مما يدعونه لأففسهم، فهو الكبير الذي تخضع أمام عظمته كل رأس، وهو المتعال عما يصفونه به مما تفوه به ألسنتهم، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون !

وبعد أن وصف عز وجل نفسه بأنه الكبير المتعال، المنزه عما يحول بخواطرم أو تتفوه به ألسنتهم، عاد الى تعريفهم قدر أففسهم، وأنهم أمام قدرة القادر وعلم العليم لا شيء، فلا يفلت منهم أحد عن سلطانه وإحاطة علمه بكل شأنه، فقال تعالى: «سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وساربّ بالنهار» أى لقد خدعتم عن أففسكم، وتوهّمتم أنكم إذ تسرون القول بينكم وتستخفون عن الخلائق أمثالكم قد تخفى على الله خافية منكم، كلا! لقد طاش سهمكم، وخاب ظنكم الذي ظننتم بربكم، فسواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به، فالله عالم بكل أمر منكم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، بل يعلم ما تهجس به نفسكم من قبل أن يخطر ببالكم، بل قد علم كل ذلك من الأزل قبل أن تخلقوا. وكما يعلم السر والجر من أقوالكم

كذلك يعلم ماظهر وما استتر من أعمالكم ، فيعلم من هو مستخف بالليل يظن أنه قد خفي عن ربه كما خفي عن الخلائق مثله ، لا بل الاستتار بالليل والظهور بالنهار بالنسبة اليه على حد سواء ، فإذا سئى شيء غيبا أو استتارا أو إسرارا فهو بالنسبة اليكم أنتم ، وأما بالنسبة اليه جل شأنه فكل ذلك سواء . ومعنى مستخف أى مبالغ فى الاختفاء كأنه فوق اختفائه طالب للمزيد من الخفية ، كما يفهم من السين والتاء . ومعنى سارب أى ظاهر ، من قولهم : سرب أى ذهب فى سر به أى طريقه لا يبالي بشيء ، قال الشاعر يصف قومه بالعزة :

وكل أناس قاربوا قيد فخلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب
أى تركناه بلا قيد فهو يسير فى طريقه حيث أراد . ونكتة تقديم من أسر القول على من جهر به ، وتقديم من هو مستخف بالليل على سارب بالنهار ، أن المقصود تقرير شمول العلم ، ولا شك أن تعلقه بالسر والمستخفى أمكن فى هذا التقرير . ثم إن لفظ سارب عطف على من هو مستخف ، والمعنى : سواء من هو مستخف ومن هو سارب ، أو عطف على لفظ مستخف ويكون من عبارة عن شخصين ، أى سواء شخصان مستخف وسارب . وقد ورد له نظير فى اللغة ، ولكن الأول أقعد ، فإن الثانى يوم أن شخصا واحدا هو مستخف وسارب . ثم إرداف المستخفى بالليل وإرداف السارب بالنهار ، لتأكيد الاستخفاء والسروب ، فالليل أعون على الاستخفاء ، والنهار أجلى للسروب . قال تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » :

الضمير فى له وفى يديه وخلفه وفى يحفظونه راجع الى ما ذكر قبله فى قوله : « من أسر القول ومن جهر به ومن هو » الخ ، والمعنى : لذلك المذكور من السر والجاهر والمستخفى والسارب معقبات الخ ، أى كيف يظن أحد من أولئك أنه قد خفى أمره على الله وهو قد أحيط بملائكة يتعاقبون عليه ليلا ونهارا ، يحيطون به من بين يديه ومن خلفه ، يحصون عليه ما يعمل ، ويكتبون كل ما صدر منه ، ويحفظونه مما يحيط به وهو لا يدري من

أمرهم شيئاً، وهم من أمر الله أى من عالم الأمر، وهو عالم خفى مغيب عنا أعلمنا الله به بواسطة الوحي الإلهي يلقى على أنبيائه فيخبروننا به . أى إذا كان قد أحيط بمجموعة من الملائكة تتبعه وتتبع أعماله فتحصيها وتكتبها أولاً فأولاً وهو لا يدري من أمرهم شيئاً، فكيف يتوهم أنه سيمخفي علينا منه خافية ؟ فتكون المعقبات بمعنى أنها تتبعه وتتبعه أينما كان وحيثما وجد وعلى أى حال حصل ، من عقبه بالتشديد أى جاء على عقبه ، والمعنى تبعه ، وقد يقال عقبه بالتخفيف أيضاً بهذا المعنى ، فالتشديد للتكثير لا للتعمدية . أو المعنى أنها طوائف تتعاقب ويحصى بعضها بعقب بعض كما ورد « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » . وعلى كل حال فهو جمع معقبة بمعنى فئة معقبة ، أو جمع معقبة على أن التاء للمبالغة كراوية ، فلا يقال كيف جاء جمعه جمع تأنيث وليست الملائكة بمؤنثة .

ولا يقال : ما فائدة هؤلاء الملائكة المعقبين ، وما فائدة كتابتهم مع أنه تعالى محيط بكل شيء علماً ، ومحص ما يعمل العبد بلا حجة إلى الملائكة ولا إلى كتاباتهم ؟ لا نأخذ نقول : إنه تعالى قد أحكم نظام ملكه ، وربط كل شيء بسببه استكمالاً للنظام ، وهو غير محتاج في إيجاد شيء إلى سبب ما ، ولكنه السكال في النظام . ولو شاء لأضاء الكون بلا شمس ولا قمر ، وأوجد الزرع والضرع بلا حرث ولا استيلاد . ولو شاء لأغنانا في حياتنا عن الغذاء وعن الماء ، ولو شاء لأوجد كل شيء قائماً بنفسه غير مرتبط بغيره ، ولكنه أوجد الأشياء وباعد بينها في ذواتها ، وقارب بينها في ربطها بعضها ببعض ، وهو الحكيم العليم ، فهو قد ناط حفظ أعمال العباد وأقوالهم بملائكة معقبات مع استغنائهم عن الاستعانة بهم لحكمة يعلمها . ويكفي أن نؤمن بأنه الحكيم العليم ، سواء أخرجت لنا الحكمة بعينها أم خفيت عن أفهامنا . ومع ذلك ففي تدوين الأعمال والأقوال بأيدي حفظة كرام بررة كاتبين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قطع للمحل في الإنكار أو محاولة الاعتذار ، لئلا يكون لأحد

من الناس على الله حجة . وفي علم المكلف عن طريق الوحي الصادق بأن عليه حفظه يحصون عليه ما عمل عون له على مراقبة نفسه فيما يصدر عنه ، وتربية للملكة الحياء في نفسه ، ليتغلب على داعي شهوته وغضبه ، ويتلو ذلك الخوف من ربه .

وليس في هذا ما يتعاضى على العقل فهمه والإذعان له متى ورد عن الصادق الإخبار به ، فقدرة الله صالحة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وقد وصف المعقبات بثلاث صفات : (الأولى) أنها محيطة به من بين يديه ومن خلفه ، أى فلا يغيب عنها منه شيء ، ولا يخفى عليها منه شاردة ولا واردة . و (الثانية) أنهم يحفظونه أى فيحصون عليه ما عمل ، ويحفظونه من كل ما قد يمس به مما لا يدري به ، فحقه أن يحمد الله ويشكره على أن حفه بلطفه ، ومن شكر الله مراقبته فيما بهم به من شرفيتعد عنه ، أو ما ينويه من خير فيتمه ، فيكون يحفظونه أى يصونونه ، أو يحفظونه أى يحصون عليه ما عمل ، ويحفظون عنه كل ما صدر منه . و (الثالثة) أنهم من أمر الله أى أنهم من عالم الأمر الذى هو الخفى المغيب ، أو أنهم ما نصبوا أنفسهم بأنفسهم بل إنهم أقيموا فيما أقيموا فيه بأمر الله وإرادته . وعلى ذلك يكون قوله : « من أمر الله » ليس متعلقا يحفظونه على معنى أنهم يحولون بينه وبين أمر الله ، وإلا فأمر الله لا يبق منه شيء ، بل المعنى أن ذلك الحفظ من أمر الله أى بسبب أمر الله ، أو أنهم هم من أمر الله أى من عالم الأمر وعالم الغيب .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لشكر نعمائه ، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات

أعمالنا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
ابراهيم الجبالي

الشرك وعقوبته الاخروية

ورد الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأبر كتاب من حضرة محمد افندى زكى عبد الوهاب العفيفي بشبرا مصر يرجو فيه أن يجاب على سؤال له فى الشرك ، فاهتم فضيلته بالأمر وكلف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى ، ومدير هذه المجلة ، أن يضع كل منهما جوابا عليه ، كل على حسب وجهة نظره ، فصدع كل منهما بهذه الإشارة كما يراه القراء فى هذا العدد .

أما نص السؤال بعد الديباجة فهو :

« قبح الله الشرك وأوعد المشرك بعدم المغفرة والخلود فى النار ، فلماذا ، وما حكمة هذا العقاب الشديد ، وما حكمة كونه لا يغفر ، وكيف التصق بالخلق ، وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرر الله ذكره ومقته مقتنا عظيما فى آيات كثيرة فى القرآن ؟ ولماذا كان يغيب الشرك محمدا وغيره فحملهم ذلك على أن يحاربوه حروبا شعواء ؟ »
« وإذا كان المشرك لا يتفك عن إشراكه فما فائدة النصيح له ؟ »
« وما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ »

« وكيف نوفق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وبين قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فكيف يكون من هو رحمة للعالمين سببا فى عذابهم ؟ »
« ولوفرضا أن محمدا لم يبعث فى جزيرة العرب فماذا كان يضر ؟ وقد بعث وليس بها نهر ومات ولم يحفر بها نهر ، فما حكمة ذلك ؟ »
هذا هو الكتاب مجردا من حواشيه . فكان جواب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى عليه ما يلى :

الجواب

إننا نعجب كل العجب من أعماق قلوبنا لمثل هذه الأسئلة ، ولكن لا مندوحة لنا عن جوابها . وعلى الطبيب أن يداوى كل مريض يأتيه ، فنقول وبالله التوفيق :
لا يعرف قبح الشرك بالله وإجرام المشرك إلا كل من يعرف عظمة الله التى أدهشت العلماء ، حتى قال بعض الفلاسفة من فرط دهشته بعظمة الله الذى أبدع تلك العوالم ، التى لا يأتى عليها العد ولا يحيط بها الحد ، ولا يدرك كنه ما فيها من الأسرار

والعجائب إلا مبدعها العليم الحكيم ، قال ذلك الفيلسوف : « ليت شعري من ذلك الذى اجتراً عليك فسمك الله لأول مرة ؟ »

وقال سبنسر الانجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى يذهب إليها علم الطبيعة » .
ولاشك أن جرم من يتجرأ على العظيم أعظم من جرم من يتجرأ على غير العظيم ، وهكذا تتفاوت عظمة الجرم على حسب درجات تلك العظمة . فإذا المتجرى على أعظم العظماء هو أعظم المجرمين .

وأما قول السائل : « وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرهه الله ومقتنه مقتاً شنيعاً فى آيات كثيرة من القرآن » جوابه أنه يترتب عليه كل مفسدة يمجبها السمع وينفر منها الطبع ، وتقوض أركان العمران وتذل نوع الإنسان ، وتذهب بالفضائل وتأتى بجميع الرذائل . أما من عرف الإله الحق العادل الحكيم الذى يجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ، وهو الذى يقول : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ويقول : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ويقول : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . نقول : كل من يؤمن بهذا الإله الذى ذلك بعض صفاته وقليل من كماله ، لا يمكنه أن يظلم أحداً أو يتعدى على أحد الخ . وكل ما تراه اليوم مما تضج منه الإنسانية وتصرخ منه الأخلق وتنن له الفلاسفة والمصلحون ، فليس إلا نتيجة الشرك بالله والجهل بعلمه وقدرته .
فما زور المزورون ولا كذب الكاذبون ، ولا تلون السياسيون الخداعون ، ولا قتل الغاتلون ولا سرق السارقون ، ولا جار القضاة الظالمون ، ولا خان الخائنون ولا غصب الغاصبون ، ولا التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة . ولا استعبدتهم وتفننت

في ضروب الاستعباد لهم، ولا ضحك الأذكياء على الأغبياء ولا المتنورون على الجهلاء، ولا الأكابر على الأصاغر، ولا الأقوياء على الضعفاء: فلم يريدوا منهم إلا ما يريده رب الماشية من الماشية ورب الضيعة من الضيعة الخ، لم يقع ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه مما لا يخفى عليك، ولا حاجة بنا أن نسوقه إليك، إلا من عدم معرفة الله والإيمان بعدل الله، وهو نتيجة من نتائج الشرك الجلى أو الخفى، والعدول عن سنن الدين وأهل الدين « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ».

ولو رسخ الايمان في القلوب كما يريد الأنبياء، لتراحم الناس فيما بينهم، ولكانوا إخوة متحابين متضامنين، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ». بل قد يصل المؤمن من لباب ذلك الى حد أنه يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، ويخاف من أن يؤذى هرة فضلا عن إنسان، لأنه يعرف ما قال صلى الله عليه وسلم: « دخلت امرأة النار في هرة ». ثم يقول في حديث آخر: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ». ولو عمل الناس بتعاليم الأنبياء لكانوا على غاية الصفاء والهناء، ولعاشوا عيشة أهل الجنة في الجنة. فهذه هي الغاية التي يريد بها صلى الله عليه وسلم من الناس حتى جعلها شرطا في الايمان الكامل فقال: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». وقال: « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن! قيل: من يارسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه » الى غير ذلك وهو كثير.

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء لا تقاذب الإنسانية المعذبة ورفعها من حضيض الشقاء الى أوج السعادة، ولكن كل إنسان يأخذ من هذا المعين الصافي وذلك البلسم الشافي حسب ما قدر له وسمح به استعداداه.

أمدعوى الأوربيين إنقاذ الإنسانية من شقاءها، فهي دعوى كاذبة قصد بها التفرير وتوسيع الاستعمار، فكانت من وسائل تعذيب الإنسانية لا إنقاذها. ولعل السياسيين

هم أعرف الناس بذلك . وسر هذا كله أن الانسان لا يجب أولاً وبالذات إلا نفسه ، ولا يجب الأشياء إلا من أجلها ، فليس له هم بمقتضى طبيعه إلا ما يعود عليها بالمنفعة من قرب أو بعد ، ولا يسكاد يفكر في غير هذا أو يريد شيئاً سواه ، وكل ما يوصله الى ذلك فهو من بغيته وطلبته وإن خربت البلاد وهلكت العباد ، فهو وحش ضار يفترس أقرانه ويبيد بنى نوعه بلاشفقة ولارحمة ، وليس لديه قانون إلا قانون المنفعة الذاتية ولا دستور إلا دستور المصلحة الشخصية ، فهو في نظر الفلسفة الصحيحة أخط من الحيوان وأضر من الثعبان . ولذلك أباح الدين دم الحربى لأنه سقط عن رتبة الانسانية والتحق بالحيوانات المؤذية ، فكان الواجب للانسانية تطهير الأرض منه رحمة بها وشفقة عليها ، فلا غرو أن يهدر دمه ولا تراعى كرامته ، وهو الذى أضاعها بسوء سلوكه وفساد إنسانيته « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

أما خلوده في النار فلمعظم الجريمة كما قلنا . أو نقول ما قال كثير من العلماء : إنه كان ينوى الكفر بالله على التأييد . والعبرة عند الله ليس إلا بما تكنه النفوس وتنطوى عليه القلوب « إن الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » . أو نقول : إن هذا الرجل دأب على مساخط الله والعمل على فنون الرذائل حتى صارت ملكة راسخة فيه ، فالتحقت بالغرائز ، وصارت بكثرة التمرن واستحكام العادة كأنها جزء من تكوينه الخلقى واستعداده الطبيعى ، فلا سبيل لا تنزاعها منه إلا بفساد تكوينه واقتلاع غرائزه وانحرام طبيعته ، ولذلك يقول الله تعالى : « ولو رُدُّوا لمعادوا لما هُوتوا عنه » . ومن عرف تأثير العادات وتكوينها للملكات الخبيثة أو الصالحة في النفوس ، لم يستغرب ذلك . وإذاً نقول : إن هذا الرجل كله خبيث وقذارة روحانية هي أشد من قذارة الحسيات لدى من يدرك للروحانيات معنى أو يشم لها رائحة « إنما المشركون نجس » . فكيف يدخل حضرة الله المقدسة التى لا يدخلها إلا المقدسون أو يفوز بجنته المطهرة التى لا يفوز بها إلا الروحانيون ، أو يسمع لذيد المنجاة

التي لا يظفر بشرفها إلا المقربون ؟ لعمري إن الحكمة تأبى دخوله الجنة التي أعدت للمتقين وحرمت على الكافرين ، لأنهم ليسوا لها بأهل ! ولعمرك الحكمة المقدسة التي تأبى أن تضع الأشياء إلا في مواضعها لو دخلوا الجنة لكان هذا في نظر الحقائق بمنزلة من يأتي بشر الدواب فيدخلها حظيرة الملك ومحل خواصه ومجلس ندمائه (وأى عقل يسمح بوجود الحمير بحضرة الملك الكبير مع الوزير والأمر) ؟

ولا تعجب من هذا فإن الانسان قد ينحط الى أسفل دركات الحيوان فلا يكون إنسانا إلا بصورته وتخطيطه لا غير . وقد قال بعض الفلاسفة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » . وليس هناك تفاوت بين أفراد نوع من الأنواع مثل التفاوت الذي بين أفراد نوع الانسان ، الذي هو تجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات . وقد قال تعالى في حق أولئك المشركين الجاهلين الذين عموا عن الآيات وكفروا برب الأرض والسموات : « إنهم إلا كالأأنعام بل هم أضل سبيلا » وقال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

فهذا قول خالقهم العالم بما خلقوا عليه وانجذبوا اليه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . وسيقولون في الآخرة : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » .

هذا وللشيخ محي الدين بن العربي وابن تيمية وابن القيم كلام في الخلود في النار شدوا فيه عن الجمهور ، فلا حاجة لسوقه هنا أو التعرّيج عليه .

وأما قول السائل : « ما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ » فلا أدري ماذا يريد به ، فإن الفرق بينهما واضح من حيث التحديد والتعريف ، وكيف يشتبه من يظهر الكفر بمن يظهر الايمان ؟ وإن أراد الفرق بينهما في الدار الآخرة فلا فرق في استحقاق كل منهما العذاب الأليم . وقد قال الله : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » . فلندعه وما أراد .

وأما قوله : « وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشرأكه فما فائدة النصيح له ؟ » فهو عجيب ، فإننا نريد أولاً إقامة الحجّة عليه « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وثانياً علينا أن ندعو الناس جميعاً الى الخير والهدى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة » وما أودع في استعداد الاديان من الأسرار لا يعلمه إلا الله تعالى . فالواجب علينا أن ننصح كل من نقدر على نصيحته بالوسائل المختلفة ، عسى أن يكون فيه قابلية للخير « ولو في طبقة من طبقات أرضه السابعة » . فإذا لم ينتصح كنا معذورين ، وقامت عليه الحجّة .

وأما قوله : « وكيف نوفق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وبين : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » وكيف من يكون رحمة للعالمين يكون سبباً في عذابهم ؟ » فجوابه أن الطبيب رحمة وإن أعرض عنه المغفلون ، وأن النيل رحمة وإن لم ينتفع به الجاهلون أو غرق فيه المجازفون . بل نقول : إن النار رحمة كبرى ، وقد امتن الله علينا بها في قوله : « أفرايتم النار التي تـرزون » الى أن قال : « نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » . ولا ينافي ذلك أنها قد تكون نقمة على بعض الناس . وهذا في غاية الوضوح .

وكيف لا يكون رحمة للعالمين وقد جاء بسعادة الدنيا والآخرة : فأعطى الروح حظها من معرفة الله وما خلقت لأجله ، وأرشدتها الى ما تكون به في أعلى عليين وتصبح مع الملائكة المقربين ، وأعطى الجسم حظه من مشتهياته التي رسم لها طريقاً يؤمن شره ويرجى خيره « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وأما قوله تعالى : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » فهو جار على مقتضى العدل والحكمة ، فإن عدل الله يأتي أن يعذب الخلق من غير إنذار ولا دعوة للاستبصار .

وإنك لتعرف ذلك فى القوانين الوضعية ، فلاعقوبة إلا بعد سن القوانين وظهور التشريع ، ولكن من عارض القوانين بعد ظهورها ووقف فى وجه المصلحين وعرقل تشريع المشرعين ، كان مستحقا للعقوبة لا محالة .

وليت شعرى ماذا يرى السائل فيمن يخرج على الأطباء فيما يفرضونه من الحجر الصحى ، وبث التعاليم التى تنفع المرضى وتحمى الأصحاء ، وتعاقب كل من يقف فى سبيل الصحة العامة ، ونشر أعلامها بين ربوع الأمة ، حتى لا تنتشر الأوبئة الفتاك والأأمراض المهلكة ؟ وهل ترى أن من أعرض عن أسباب السعادة بعد الدعوة إليها وانغمس فى حمأة الشقاء بعد التحذير منها ، وأخذ يقاوم دعاة الإصلاح ويقف فى طريقهم ، هل تراه لمن لم تقم عليه الحجة ولم يعارض دعوة المصلحين ولا أعرض عن الحق بعد ما تبين ؟

وأما قول السائل : « لماذا كان يغيب الشريك محمدًا فكان يحاربه محاربة شعواء » فلا أرى له معنى بعد ما تقدم . ولتعلم حضرة السائل أن للفضائل أقواما يغادرون عليها ويبذلون فى سبيلها كل مرتخص وغال أكثر مما يحرص أهل المادة على المادة ، حتى إنهم ليهون عليهم بذل الأموال والأفئدة فى هذا السبيل : سبيل الله الذى من مات فيه كان مع النبیین والصديقين والشهداء والصالحين . ولكن أهل الدنيا لا يحسون بذلك ولا يذوقونه ، ولذلك لا يعترفون به « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » . وما هذا والله شأن المؤمن ، فإذا لم تكن عالما فكن مقلدا .

هذا وإنى استنكر منه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم باسمه المجرى كونه فى عصر تفنن أهله فى تعظيم الكبراء والعظماء ، فلا يستطيعون أن يذكروا أسماء الأمراء إلا بقلب الإيمارة ، ولا أسماء الملوك إلا بوصف الجلالة ، وإذا صدحت الموسيقى بالسلام الملكى فى الحفلات الرسمية قام الناس وقوا لإجلالا وتعظيما ، الى آخر ما تعرف ولا تنكر . فاذا كان هذا شعار العصر وشعوره فكيف نذكره صلى الله عليه وسلم بدون أدنى تعظيم

ولا توقير ، وقد قال الله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » ؟
ولكنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب
وأما قوله : « ولو فرضنا أن محمدا لم يبعث في جزيرة العرب فإذا كان يضرب » فهو على
دكا كته لا معنى له ، لأن الله يفعل ما يشاء ويختار من يشاء . ولو بعث من أمة
أخرى لجاء هذا السؤال أيضا . فهو سؤال دورى لا قيمة له . على أن الناس معادن
كمعادن الذهب والفضة كما في الحديث الصحيح ، وقد ورد أحاديث كثيرة في فضل
العرب ، وللعرب فضائل يعرفها من درس طباع الأمم وعاداتها . ومما لا شك فيه أن
الناس متفاوتون في الاستعداد تفاوتاً لا يعلمه إلا الله تعالى . فما اختار لرسالته سبحانه
وتعالى إلا أشرفهم نفساً وأعظمهم استعداداً كما قال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .
ولديك آثار المصلحين والعظماء والملوك والفلاسفة ، فهل يستطيع أحد أن يأتي
لنا بمثل تلك الآثار أو بتعاليم فيها تلك الأسرار ، التي رفعت الأمة العربية من حضيض
الجهل إلى أوج العلم ، وخرقت القوانين الطبيعية ؟ كما قال جوستاف لوبون الفرنسي
في حقهم ، وهو من أكبر فلاسفة أوروبا : « إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم
إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الحضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ
العرب فوصلوا إلى الاستقلال في جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحاً
أعدل ولا أرحم من العرب » . وكل هذا بفضل التربية النبوية والتعاليم المحمدية .
وقد أذكرني ذلك قول صاحب الهمزية في أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

وأما قوله : « إنه بعث بأرض الجزيرة ومات ولم يحفر بها نهرا » فنأشئ من تغافل
حب الماديات في نفس السائل ، فهي محور كل فضل عنده ، وهي المبدأ والمنتهى .
ولو أنصف لعرف أنه صلى الله عليه وسلم أجرى بها أنهر العلم الصحيح ، والعمل النافع
والأدب الجم ، والدين القويم ، والتربية التي أدهشت فلاسفة أوروبا . ولو قرأ السائل

(حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفرنسي، أو كتاب (دراير) الأمريكي، أو أقوال غيرهما ممن لا يحصى عدداً، لم يقل ما قال، بل لخلجل مما قال. وقد قلنا ولا نزال نقول: ماذا تريد منه صلى الله عليه وسلم بعد رفع الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، ومن دركات الدل الذي كانت فيه العرب إلى أعلى درجات العز، وتريتهم بأحسن التعاليم، وأخذهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب، حتى صار الواحد منهم أمة وحده بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية يأكل قوتهم ضعيفهم، ويثدنون بناتهم، إلى غير ذلك من الفظائع التي لا تفعلها الحيوانات، ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة في أقل قليل من الزمن، ثم ينشر ذلك النور في كل أنحاء الأرض؟ ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدر ذلك كله هو مثال الخير وشخص الكمال. والفضائل لا تفيض من الإنسان على غيره إلا على قدر رسوخه فيها.

إن مناط السعادة الحقة إنما هو تخليص أفراد النوع الإنساني من مخالب الشرور التي أحاطت بهم، وغرس مكارم الأخلاق في أعماق نفوسهم، ومراقبة الله تعالى في سرهم وعلايتهم، فإن ذلك جماع الخير وأساس السعادة.

ونبيننا صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق في ذلك كله، وهو برهان ساطع على نبوته، وأنه أكبر المصلحين لدى من يطلب البراهين الوجدانية من ذوى الفطر السليمة. وأما غيرهم فنحيلهم على ما كانت منه من البراهين الحسية والخوارق الكونية، إذ لا يعرفون مقدار الحقائق التي يدور عليها فلك السعادة من ارتفاع الإنسان إلى الأفق الملوكي، وترقية مقام البشر إلى أعلى عليين، ومعرفة الله تعالى، والكشف عن حقائق الأشياء، ورقة الإحساسات، وتنعيم الأرواح، بما تشرئب إليه من العالم الأعلى حتى تتم للإنسان المدنية الأرضية والمدنية السماوية. فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعي النبوة، وصفاته النفسانية، وكلماته الخلقية، وآثاره الخارجية،

التي ترقى الأمم وتسعد الشعوب ، وتجعلهم ملوكا في الأرض ملوكا في السماء ، كما كان ذلك للأمة الاسلامية حين تمسكها بدينها وشريعتها .

ولا غرو « فقد جاء ، كما قال بعض الفضلاء ، في باب التشريع الصالح لكل زمان ومكان ، الكافل للعدالة بأوسع معانيها بما لا يعرف مقداره إلا العظماء والحكماء .

ولعمري إن فلاسفة الأخلاق وعلماء النفس على شدة تبجحهم وكثرة ما قالوا ودونوا ، لم يأتوا بعشر معشار ما جاء به صلى الله عليه وسلم صافيا من الأدناس ، خالصا من شوائب الأوهام ، ممتلئا رحمة وحنانا بأبناء هذا النوع الضعيف . وهل وصلت أمة من الأمم الراقية كما يقولون الى الديموقراطية الحققة فسوت بين الشرق والغربي ، وقالت : لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى كما قال الاسلام ؟

ولعمري لو درست ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وما يؤثر عن الفلاسفة والمصلحين لوجدت الفرق شاسعا والبون بعيدا ، فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به ودرجة علمه في العهد الذي كان عائشا فيه ، مما يجعل تعاليمه تستدعي الإصلاح والتهديب الى حدود بعيدة . ولهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الإصلاحية ، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل اليه الناس من الثقافة العلمية ، ولكن التعاليم المحمدية لا تزال جديدة ملائمة لكل عصر بما فيها من الرونة ، وما تضمنته من الأسرار البديعة والإشارات الخفية ، والكليات التي يفنى الزمان ولا تنفى عجائبها ، بل يرى فيها ما لم تنضج العقول للعمل به واكتناه جميع أسرارها ومزاياها .

ولهذا اعتقد عقلاء النوع الانساني وعلماءهم أن الخير كل الخير في أن تؤخذ تعاليمه صلى الله عليه وسلم بغير تعديل ولا تنقيح ، ويرون أنها باللغة أقصى درجات الكمال الى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قدرها ويطمس من لآلئها . وها أنت ذا ترى الفرق شاسعا بين الأمم الاسلامية عند ما كانت عاملة بشريعتها وما كانت عليه

من التعاطف والتراحم والعزة والرفعة والوثام والاتحاد ، وبين ما منح عليه اليوم من التفرق والانقسام والضعمة والذلة والاكتفاء بالمظاهر الخلابه والظواهر السكاذبة والأقوال الفارغة دون الأعمال النافعة ، عند ما تركنا العمل بالشريعة واتبعنا القوانين الوضعية التي لا تعنى إلا بإصلاح الظواهر دون البواطن ، وبالأشكال دون الحقائق ، ولا يعنينا إلا حفظ أبهة الدولة وسيطرة الحكومة دون تربية الأفراد وإصلاح النفوس .
وكم عيب على الفلاسفة فيما قرروا من علم ودونوا من إصلاح .

وسنكتب مقالا خاصا في الفرق بين النبي والفيلسوف ، إن شاء الله تعالى .
ومن عجيب أمره صلى الله عليه وسلم تلك الحكمة البالغة ، والعلم الواسع ، والنظر البعيد الذي أحاط بمصالح الدنيا والآخرة . وما عهدنا عظيما من العطاء إلا وقد نبغ في ناحية من النواحي فشغلته عما عداها ، بخلافه صلى الله عليه وسلم مما دل على أنه خارق للعادة مؤيد من عند الله .

وقد قال المسيو (بلانشيه) العالم الفرنسى المشهور : « إن النبي محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى أنه أحيا شعبا ، وأنشأ أمبراطورية ، وأسس دينا » .

هذا وقد أصبحنا فى دور الانحطاط الذى يقضى فيه على الأمة شر القضاء ، فيُحتقر أنباؤها وأئمتها وعاداتها وآدابها ، ويحتقر بعضهم بعضا ، ولا تقدر إلا كلام الأجانب الذين فنيت فيهم فعلا ، واقتدت بهم عملا ، وإن تبرات منهم قولا .

فلنتل عليك زيادة على ما تقدم كلام بعض العظماء من أساطين العلم والفلسفة بأوربا فى شأن نبيك الذى عرفوا عظمتهم وجهلتها أنت ، أيها الشرقى المسلم الذى لم يعرف تاريخ آباءه وأسلافه الذين كانوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

ولو شئنا لذكرنا لك شهادة كثير من أولئك العلماء مثل (الكونت هنرى ديكستري) و (كلين تيلر) و (جوزف تومبسون) و (لوازون) و (ماركس دودس)

و (مودسلى) والفيلسوف (تولستوى) وغيرهم . ولكن نقتصر لك فى هذه العجالة على شهادة من سمح المقام بذكرهم . وإنى أرى من الدواء اللازم لهذا الجيل الحاضر والنشء الجديد أن هذه الشهادات يجب أن تقرر وتكرر حتى تملأ الرؤوس وتستقر فى النفوس ، فإنه جيل مفتون بكل ما جاء عن الأوربيين ، فلا يعرف غيرهم ولا يقدر سواهم ، فنقول :

شهادة برناردشو الانكليزى وهو من عظماء الانكليز :

« إننى أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لم النجاح فى حكمه ، ولقاده الى الخير وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وقال مؤلف كتاب (دراسات فى تاريخ الدين) : « ينبغى أى نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشاحنة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادراً على المقاومة مقدرة تامة » .

وقال المسيو (لبون) فى شأن القرآن الكريم :

« حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرناً التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف - ولو بعض الشئ - من أسلوبه الذى لا يزال غصاً كأن عهده بالوجود أمس » .

شهادة لامرتين الفرنسى الطائر الصيغ الفنى عنه التعريف :

قال : « أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا ، بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق . وإذا كان قوة الصمود والمرى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ

وسجل الخلود وكتاب الانسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التي تنفذ الى مكان بعيد وتبقى زمنا طويلا وتمشي في الحياة أبدا رحية . وهي لا ريب ففكرة قوية صدرت عن وجدان قوى . ولكي تكون تلك الفكرة قوية ينبغي أن يكون ظاهرها وباطنها الاخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسائله والوحي الذي تنزل عليه ، فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجراته وبأسه في لقاء مالفه من عبدة الأوثان ووثبته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته في وسط أعدائه ، وبهرة خصومه في قلب مكة ونواذيرها ومجامع أهلها ، وتقبله سخريه الساخرين وهزؤه بهزاء الهازئين ، وحميته في نشر رسالته ، ووثبته وتوافره عليها ، وحروبه التي كان جيشه فيها أقل من عدوه ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، واطمئنانه ورباطة جأشه في الهزائم ، وأناته وصبره حتى يحرز النصر ، وطماعيته وتطلعه الى إعلاء الكلمة ، وتأسيس العقيدة ، لا فتح الدول وإنشاء الأباطورية ، وإقامة القيصرية ، ونجواه التي لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه الى جواره مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضر خداعا أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضى في قلبه ، وهذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة على أن يرد الى الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة :

(الأولى) تدل على من هو الله . (الثانية) تنفي ما ألصق الوثنيون به .

الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة ، والأخرى فتحت طريقا جديدا الى الفكر ، ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والفائد ومسر الحرب وفاتح أقطار الفكر وراد الانسان الى العقل ، وناشر العقائد

المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة واحدة في السماء من ناحية الروح والفؤاد . فذلكم هو محمد . فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيما في جميعها غير هذا الرجل ؟ » انتهى كلام ذلك الرجل العظيم الذي لم يأكل الخقد قلبه ولا الجهل عقله . وحقا ليس بدرى العظيم غير العظيم .

فهكذا تكون معرفة العظمة الانسانية ؛ وهكذا يكون تحليل النفوس الكبيرة ؛ وهكذا تكون الموازين الصحيحة لوزن الرجال وعظائم الأعمال ، لا حفر الترع وردم الجسور وأمثالها من أعمال الهمم الأرضية ، التي لا تعرف إلا الماديات ، ولا تعيش إلا في الظلمات .

وقد جاءني هذه الأبيات عفوا وما أنا بالشاعر ، فقلت أخطب النبي صلى الله عليه وسلم :

إني أجمل مزايا	بهن قد صرت فردا
وسيرة تتلالا	تفوق مسكا وندا
إن سار غيرك هزلا	نراك قد صرت جدا
في حكمة واعتدال	فما تجاوزت حدا
مكن سواك وإن كا	ن أعظم الناس مجدا
في جل ما يرتئيه	لا بد أن يتعدي
من يدعى غير هذا	فإنني أتحدى

هذا ولا يفوتني أن أقول لحضرة السائل : إنك جاهل بجزيرة العرب وما هي عليه ، ولا سيما في ذلك التاريخ ، فإن طبيعتها خصوصا قبل الاتصال بالملك الأخرى كانت تأبى كل الإباء أن تحفر فيها الأنهار . فكان من العبث أن يحاول ذلك فيها وهي في ذلك

المعهد على ما علم المؤرخون والجغرافيون . ولذلك بقيت حتى الآن وقد مضى أربعة عشر قرناً وهي متأخرة في المشروعات الأرضية التي يريد لها السائل غاية التأخر . ولو شئنا لأًطلنا .

وبعد : فقد أرسل صلى الله عليه وسلم بما هو سبب لسعادة الدارين ومصلحة النشأتين ، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض بفساد استعداداته عن هذه السعادات الى تلك المهلك . ويكفي أن الناس قد وقفوا بسبب إرساله صلى الله عليه وسلم على علوم حجة وأسرار عالية وفضائل سامية ، مما أودع في كتابه الذي فيه بيان ما كان وما يكون عبارة وإشارة ، ثم ما جاء في سنته صلى الله عليه وسلم مما عجز عنه علماء النفس وأساتذة الاجتماع . وأى سعادة أعظم من التحلي بزينة العلم ؟

وعلى الجملة لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ، ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشة ، ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض . وكل خير في العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع في العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فيما بين الناس . والعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه . ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم لم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة ، انشقت سماءه ، وانتثرت كواكبه ، وكورت شمسهِ وخسف قره ، ونسفت جباله ، وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها . فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة .

ولو نظرت الى مادونه علماء شريعته من العلوم التي تنوء بها السفن فضلاً عن الإبل ، وما أنجبته تعاليمه من الفلاسفة التي يقدها الأوريون (وإنهم لأعرف هناك بعلامتنا منا هنا) لو عرفت ذلك لم تقل ما قلت ، ولم تكتب ما كتبت . ولنتل هنا قوله تعالى « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

هذا ولنا مقال يتصل ببعض هذا الموضوع في بيان مذهب المعتزلة والأشاعرة
والجبرية، فراجعهم .

أسأل الله أن يلهمنا الرشد ، ويقينا شر الفتنة ، ويرزقنا العلم الصحيح ،
والنظر الواسع ، بمنه وكرمه

بوصف الربوى
من هيئة كبار العلماء

* * *

وهذا ما كتبه مدير هذه المجلة :

تسألون عن حكمة إيمان الله المشرك بعدم المغفرة ، وبالخلود في النار الخ ، فيلوح
لنا أنكم تستعظمون أن تستوعب مكافئة الشرك الجزء الأكبر من جهود المرسلين ،
ويخيل إلينا أنكم ترون أن الشرك وإن كان في ذاته ضلالا إلا أنه لا يعد وكونه خطأ
عقليا بسيطا لا يستدعي أن يخلد صاحبه في النار ، وأن يطرد أبديا من رحمة الله . بل
ربما تسرب إليكم قول خصوم الأديان : بأن الأمم وهي في دور طفولتها لا تستطيع
أن تدرك الوحدة الإلهية ، وأن لابد لها من دور طويل الأمد تمضي فيه الوثنية ،
فكيف تعاقب بالخلود في النار أم لا تحصي لخضوعها لحالة لا تستطيع الافتكاك منها ؟
ويتبادر إلى ذهننا أيضا أنكم تستكبرون كذلك أن تحارب أمة لا شيء غير أنها
مشركة ، أفلم يكن أجدى عليها من ذلك أن تصرف هذه الجهود الجبارة والأموال
التي تنفق في جهادها ، في سبيل تعمير بلادها ، وإحياء مواتها ، ودفعها في طريق
الحياة دفعا رحيا . أما الشرك السائد فيها فيترك حتى يستنفد دوره تحت تأثير ثقافة
نيرة وتربية حكيمة ؟

يلوح لنا أن هذا روح سؤالكم ، وهو عينه قول خصوم الأديان المعاصرين ،
وهو بهذا الاعتبار يكون جديرا بالعناية ، ولا مناص من دحضه بأسلحة العلوم الحديثة
التي يخضع لها هؤلاء الخصوم ، فنقول :

أما أن الأمم في دور طفولتها لا تستطيع بحكم قصورها العقلي أن تدرك وحدة الذات الإلهية ، وأنه لا محيص من أن تمضي أول أدوارها في الوثنية ، فهذا القول سقط عن المرتبة العلمية ، بعد أن أثبت الأستاذ الألمانى الكبير (ماكس مولر) عمدة الباحثين في الأديان البشرية القديمة ومناشئها وتطوراتها ، أن الناس كانوا في أول عهودهم موحدين للذات الإلهية لا معبدتين للآلهة ، عاشوا على ذلك التوحيد دهرا طويلا ، ثم طرأت عليهم الوثنية بفعل زعمائهم الدينيين ، فقد سولوا لهم تعديد الآلهة للتأثير في عقولهم ليسهل قيادهم في أيديهم ، وليصرفوهم فيما يشتهون ، ويرتفعوا في نظرهم الى مرتبة خزنة الأسرار الإلهية ، ومهبط العلوم العلية . (ارجع الى كتاب الدين وترقيه للأستاذ ماكس مولر ، وكتاب اللاينية المستقبلية للفيلسوف الفرنسى جيو) .

هذا رأى العلم اليوم ، والأستاذ ماكس مولر لا هو من رجال الدين ، ولا من العلماء الاعتقاديين ، وإنما هو بجأته في تاريخ الأديان القديمة ومناشئها ، وقد وقف على هذا الاكتشاف الأثرى الخطير من طريق تتبع سلسلة الأديان بالاعتماد على الآثار والنقوش والكتابات ، لا من طريق التسوّم والظن . فيكون من أروع المعجزات العلمية للقرآن أن يوافق هذا الاكتشاف العلمى الخطير ما جاء فيه عن أصل الدين ، قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا » وقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة (أى متفقين على الفطرة ثم اختلفوا) ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فإذا تركنا هذا التحقيق العلمى جانباً ورجعنا الى معالجة هذه المسألة من ناحية أخرى ، رأينا أن مجرد النظر للإنسان في سذاجته الأولى يشعر بأنه كان لا يعتد بالسُلطان (أى السلطة) إلا في فرد لا في جماعة ، فكان لا يقبل الشركاء في سلطانه على أسرته ،

ولا الشركاء في سلطان رئيس قبيلته، فبدأ الفردية كان متغلبا على جميع مشاعره، فهل يعقل أن يعصى هذا الليل الطبيعي فيه بالنسبة لخالق الكون فيرضى له ما لا يرضاه لنفسه ولا لرئيسه؟ هذا ولو عنى الباحث بدراسة علم الأساطير الدينية (الميتولوجيا) فإنه يرى في وثنية الشعوب من آثار الصنعة، وخوادم الخيال، ما يقصر عنه الانسان في أول عهده، ويدل على أن كل ذلك حدث بعد عصور كثيرة من وجود الخليقة.

إذا تقرر هذا ثبت لدينا أن الشرك عصيان متعمد للفطرة التي فطر الله الناس عليها، واستسلام معيب من الجماعات لأفراد اغتصبوا حق القوامة الدينية عليها، فأخذوا يعملون عليها من التقاليد والعقائد ما يزيدها إيغالا في الوحشية، ومضيا في ارتباك العقلية، ليلهوها باخيلات والأباطيل، وينفردوا بالسيطرة على نفوسها وعواطفها، فيسوقوها للحصول على مجد حربي، أو مغنم مادي، حرصا على تحقيق مطامعهم، وتوفية لحاجات شهواتهم.

فأصبح الشرك على هذا النحو (أداة) في أيدي المتلاعبين بالأمم يأتونها باسمه بكل ما يناقض بداهة العقل، وكل ما يخالف حقائق الأشياء، ويشذ عن الموازين المنطقية.

وقد عاش الانسان من حياته الأرضية دهورا دهارير منقادا للقوام على عقائده انقيادا أعمى على هذا النحو. ولما كانت رحمة الخالق تأتي أب تبقية في هذه الحماة كان يوالى رسله اليه ترى، محاولين زحزحته عن موقفه، ولا سبيل لهم الى الوصول الى غايتهم إلا بمكاخفة عقيدته الرئيسية وهي الشرك، وهو كما قلنا كان الأداة الشيطانية في أيدي مغتصبى السلطان على عقله يصدونه به عن كل إصلاح اجتماعي وترق أدبي. ومن أراد دليلا محسوسا على خطر هذه الأداة، وعلى أن المرسلين وهم أرشد مصلحي الأمم، كانت دعوتهم تصطدم بهذه الأداة ولا تجد لها مساعا الى الأذهان مع وجودها، وأن أول ما كان يجب عليهم حيالها أن يبذلوا أبلغ جهودهم في تحطيمها، قلنا من أراد دليلا محسوسا على ذلك كله فليتما مل في العقبات التي قامت

في وجه الدعوة المحمدية وهي آخر الدعوات الإلهية ، ليرى أن الشرك كان هو وحده الحائل المنيع الذي قام في وجهها ، ولولا أن الله أراد إنفاذ إرادته فهدى لدينه قوما آخرين ، لصد الشرك العرب أجمعين عن هداية الاسلام ، ولبقوا الى اليوم فيما كانوا فيه . ولأجل أن يتحقق الباحث من مبلغ تأثير الشرك في صد أهله عن الأخذ بالتعاليم الحقّة ، والأصول الصحيحة نتلو عليه قوله تعالى : «عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » . وقوله تعالى : « ويقولون أثنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » .

إذا تأمل الباحث في هذا رأى أن أهل الجاهلية لم يصدم عن الأخذ بالمبادئ الحية التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الشرك . أفلا يكون من الحكمة أن يبدأ بمكافحة هذا الحائل القوى حتى يزول من طريق الدعوة ، لينفتح المجال للخير العام الذي ابتنت عليه هذه الدعوة ، لاسيما والتوحيد هو الفطرة التي فطرت العقلية الانسانية عليها كما ثبت ذلك علميا بفضل البحوث القيمة التي قام بها الأستاذ ما كس مولر ومن سار على طريقته من المنقبين في تاريخ الغريزة الدينية عند الجماعات الأولى للنوع الانساني ؟ وإذا صح هذا وثبت أن الشرك مشار لجميع الانحرافات الخلقية ، ومصدر لكل العادات الوحشية ، فكيف لا يكرر الله ذكره في كتابه ويمتته أشد المقت ، ويوعده عليه الآخذين به بأشد العذاب وأدومه ؟

كان الناظرون في تطور المعتقدات البشرية يظنون قبل هذا العهد كما قدمنا ذلك أن الانسان بدأ معددا للآلهة بحجة أنه لم يكن يدرك التوحيد ولا يتذوقه ، فكان الناس يتخيلون له عذرا في وثنيته ، ولكن ماذا يقولون وقد ثبت بالأدلة المحسوسة أنه بدأ حياته الدينية موحدا ، ثم استسلم لزعمائه فزينوا له التعدد فانقاد لهم . والذي يؤيد هذا

التقرير العلمى سرعة سريان الاسلام فى الأمم فى أول ظهوره ، حتى دخلت فيه أمم برمتها طواعية بدون دعوة ، وحتى بلغ أتباعه فى مدى قرن واحد نحو مائة مليون نسمة . ومما يؤيد ذلك أيضا سرعة انتشاره فى القبائل المجردة من أية ثقافة علمية ، فتراها ترك دعاة الملل الأخرى وتستغنى عن المغريات الكثيرة التى يبذلونها لها ، وتقبل على دعاة الاسلام على فقرهم وتقبل الاسلام دينها . حتى أن الكاردينال (لافيجرى) الفرنسى ذكر ذلك فى تقريره الذى قدمه للبابا ، وقال إن ستين مليوناً من الزنوج دخلوا فى الاسلام فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بدعوة بعض الشيوخ الفقراء والتجار . أليست هذه السهولة فى التفلت من الشرك والإقبال على التوحيد تدل على أن التوحيد هو الفطرة الأصلية ، فتقبله النفوس حتى الساذجة منها إذا قدم إليها ولم تكن ذات مصلحة ذاتية فى تأييده كما كانت عليه الحال عند أهل مكة .

إذا علمت كل هذا أفلا تقضى الحكمة أن يبدأ بالشرك وهو الداء الرئيسى فيجثث من النفوس لتخلو لما يثبت فيها من التعاليم الإلهية الرشيدة : من إقامة معالم العدل ، وتأسيس دولة الحق ، وإسقاط أولئك المتحكمين فى نفسيات الخلق ؟

رأيكم تقولون : إذا كان للمشرك لا ينفعك عن إشراكه فافائدة النصيح له ؟ كيف تقولون ذلك وقد رأيتم نجاح الدعوة المحمدية فى أمم برمتها ، ورأيتم نجاحها فى هذا العصر أيضا فى الأمم المشركة التى لا تمت الى المسامين بصلة ؟

وإذا كان هذا الشرك مخالفاً للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهو فى الوقت نفسه علة رئيسية لجميع ضروب الرذائل ، والآفة الحائلة دون جميع الفضائل ، أفلا يكون من الحكمة أن يشدد فى العقوبة المترتبة عليه ، لتفطن النفوس الى خطورته ، وتتنبه العقول الى شناعته ؟

ولست أستطيع أن أدل على أن الشرك مصدر لجميع الوحشيات التى يرتكبها

الانسان أبلغ من لفت النظر الى ما يحفظه التاريخ القريب عنها ، وما لا يزال ماثلاً أمام الأعين منها .

فما حفظه التاريخ القريب من ذلك أن استكشاف مكسيكا بأمريكا صادف مهرجاناً كان يقيمه أهلها للاحتفال بافتتاح معبد لهم . فما كان أشد دهش الرواد عند ما رأوا أن أولئك المحتفلين قد أعدوا من أسرى أعدادهم سبعين ألف نسمة ليريقوا دماءهم على مذبح ذلك المعبد . وقد أمضوا ما اعتزموه فساتل دماءهم أنهارا بين هتاف الشعب وتصفيقه ، وزمزمة رجال الدين وصلواتهم ؛ كل هذا كان تزلفاً للالهة وتلمساً لبركاتهما ؛ ومن عادة كثير من المشركين الى هذا اليوم ذبح زوجات من يتوفى منهم وبعض خدمه ، وقد عد الأستاذ (هربرت سبنسر) في كتابه أصول الاجتماع عدداً من القبائل لا تزال تجرى على هذه العادة .

وأشيع من هذه عادة إحراق الزوجة التي يموت عنها زوجها ، وكانت هذه العادة شائعة في الهند أيضاً ، وما توصل الانجليز الى إبطالها إلا بعد بذل جهود كثيرة .

ومن ضلالات المشركين اعتبارهم طائفة منهم أنجاساً منبوذين لا يمسونهم ولا يعاملونهم ، ومن يفعل شيئاً من ذلك يعد آثماً ويجب عليه أن يحرق ثيابه وأن يغتسل . وبذلك تجد عشرات الملايين من البشر في حالة يرثى لها يفترون الأرض ، ويتغذون من القمامات ، وهم أبغض الى إخوانهم في الدين والجنس من الكلاب الكلبة ، وأذل عندهم من فقع بيلقع .

وقد رأى الناس كيف خاب المصلحون الكبار في مساواة المنبوذين بإخوانهم في الدين لدى بعض الأمم ، ولم يكن الحائل دون هذا الإصلاح الواجب سوى ما عليه تلك الأمة من الشرك . وقد خاب مصلحوهم الى حد أن رماهم الغلاة بالأحجار وتقصدوهم بالقتل . فاضطر هؤلاء المصلحون الى لزوم الصمت ، وبقيت الحال على ما كانت عليه .

هذه العادات الوحشية لم توجد لها قلة الثقافة العقلية ، ولكن أوجدها الشرك ،
بدليل وجودها عند المثقفين من هذه الأمم ، وبدليل عدم وجودها لدى الجماعات
الاسلامية التي تقيم في بلاد هؤلاء المشركين وهي منهم جنسا ولغة وليست أرفع من
عامتهم علما ولا فهما .

تسائلنا قائلا : ما الفرق بين الشرك والمنافق ؟ وهذا سؤال لا يمت الى موضوعك
بسبب . فأما الشرك بالله فقد عرفته ، وأما النفاق فهو أن يبطن الانسان عقيدة أو رأيا
ويتظاهر بخلافها مجازاة لغيره ، أو مداراة له مداراة مشوبة بسوء النية .

أما التوفيق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله « وما كنا
معذيين حتى نبعث رسولا » ، فليس فيه كبير كلفة . فإن الله يقول إنه أرسل محمدا
صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، أى بأن يحيط عنهم الآصار التي حملوها أنفسهم ،
وبأن يهديهم الى منجاتهم بأحسن الأساليب وأكملها ، وبأن ييسر لهم الوصول
الى الكمالات العليا من أقرب الطرق وأقومها ، وبأخف التكاليف وأنفعها . وهذا
لا يتنافى وقوله تعالى : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » ، فإنها تذكر عدل الله
في أنه لا يعذب أمة على ما اقترفت حتى يبعث اليها رسولا ينهاها الى الطريق السوى ،
واخلق الأمثل .

ولعلمكم أردتم بقولكم إن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث وليس بأرض الجزيرة نهر
وانتقل الى عالم الآخرة ولم يخفر نهرها ، لعلمكم أردتم بقولكم هذا أن عنايته بمكافحة
الشرك استوعبت جهوده كلها فلم يجد وقتا لعمل ينفع الناس في حالتهم المعيشية .

فرد على هذا بقولنا إن النبي صلى الله عليه وسلم أنفق السنين القليلة التي لبثها بين
ظهر انى قومه في إحياء قلوبهم ، وبعث همهم ، واستنهاض عزائمهم ، ليعملوا لأرواحهم
وأجسادهم ، وقد بلغ الغاية القصوى من مراده ، فهب أصحابه من بعدهم فلاً والأرض
فضلاً وعدلاً ، وعلما وعمرانا ، ومدينة .

أما النهر الذى تذكرونه فمن المحال إحدائه فى البقعة التى بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم . فالأنهار لا يتحصل عليها بالحفر ، ولو كان الحفر هو الوسيلة لإيجادها لما وجدت شبرا مواتا فى الأرض .

فالأنهار إنما تفيض فيضانا من البحيرات ، والبحيرات تستمد مياهها من سيول زاعبة تنزل إليها من قنن جبال شامخة قائمة بجوارها . وهذه السيول تحدث من ذوبان الثلوج التى تتكون فوقها من الأمطار الغزيرة التى تسقط عليها . فإذا حميت عليها الشمس ذابت ونزلت على حالة سيول فتفيض الأنهار المشتقة من تلك البحيرات وتجرى لتغذية الأراضى التى تمر بها . وليس ببلاد العرب الشمالية جبال تصلح لتكوين البحيرات ، ولا فى قدرة أحد إيجادها بالصناعة .

هذا جواب ما سألتنا عنه ، والله يهدينا الى سواء الصراط م

محمد فريد وهبى

من وصايا عبد الله بن الحسن لابنه

أوصى عبد الله بن الحسن ولده فقال :

أى بنى : إني مؤد حق الله فى تاديبك ، فاد الى حق الله فى الاستماع منى ، أى بنى : كف عن الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا ، لأنه يرديك بمشورته . واعلم يا بنى أن رأيك إذا احتجت اليه وجدته ناعما ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك فانه حينئذ هواك . ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لاترديك ، وأن نتيجته لاتجنى عليك . وإياك ومعاداة الرجال ، فانك لن تعمد مكر حليم ، أو معاداة لئيم .

حرية الرأى فى الاسلام

شرع الله تعالى الاسلام ديناً للانسانية عاماً خالداً ، وجعله خاتم حلقات سلسلة الوحي المتلاحقة فى سجل التاريخ الانسانى من لدن آدم الى محمد صلوات الله عليه ، فكان هو الحلقة المكتملة لتنزيل الرحمة التشريعية الى الانسان فى هذه الأرض .

وقد شاءت حكمة الله أن تكون كل حلقة من حلقات التشريع الإلهى على قدر استعداد الجماعة التى تأتى لها فى تكوينها الطبعى والخلقى والاجتماعى ، وكأنا نظم الله الانسانية بالوحي عقدا اجتماعيا متماثل الحلقات فى كل جيل وقبيل ، وإن اختلفت فى الوضع والتصوير ، لتتفق مع وضع الأمة فى مكانها من الحياة « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » حتى إذا اكتملت الانسانية فى حقيقتها المطلقة ونهيات للوحدة الفكرية والاتجاه العقلى ، جاءها الاسلام مهيمنا على زمامها ، ليرشدها الى ما أعدت له من الكمال الذى يسمو بها عن حضيض الأرض الى ملكوت السماء .

ومن ثم كانت الشرائع السابقة إنما تخاطب عقلا خاصا محدودا خطايا خاصا محدودا ، لا يتعدى هذا الجيل من الناس الى غيره من الأجيال ، ولا هذا القبيل الى سواه من المجتمع ، ولا ذلك التشريع الى تشريع أوسع وأعمق ، لأن العقل الانسانى العام لم يكن صالحا حينئذ لهذا الخطاب العام . لكن الاسلام عمد الى هذا العقل الانسانى العام بعد أن تهيأ فى تكوينه الى الاضطلاع بعبد الحياة ، وخاطبه خطاب المرشد الى الطريق الأقوم ، وجعله قيبا على شئون الحياة كلها ، وأبى الاسلام أن يقبل سلطانا غير سلطان العقل ، وشدد النكير على الذين استسلموا لبلادة الحس ، وأناموا عقولهم عن النظر والتفكير ، فقال فى دستوره ناعيا عليهم ازدراء عقولهم وتشبثهم بالغباء فى اتباع آبائهم

على ضلالتهم » وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ». وقال في هذا الباب أيضا على مهيع آخر : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » فهذا التسفيه البالغ حد التحقير للمخاطبين أشد إيلا ما نفوسهم ، والأذع في أفئدتهم ، وقد مهد له القرآن بقضية من بدائه الفطر لا تختلف فيها العقول سيقى للتنبيه على موطن الخطأ العقلى فى مسلكهم ، حيث تعبدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة ، بله العبادة والتقديس . هم يعلمون أن الأصنام ليست لها أرجل تمشى بها ، ولا أيدي تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ، ولا آذان تسمع بها ، ولكن فى نقي هذا المعلوم بداهة على طريق الاستفهام إزاء على عقولهم بأبدع أسلوب « أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم » ؟ وقد أراد القرآن الكريم بهذا المبدأ السامى إيقاظ العقل وتنبيهه الى أداء مهمته وإبراء النفس الانسانية من مرض التقليد الأصم ، وتربية القوى الفكرية على الاعتداد بالنفس واستقلال الرأى وحرية التفكير ، ولذلك أثنى على الذين أيقظوا عقولهم وتفلمتوا من قيود التقليد الى ساحات النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وساروا بسير العلم غير ملتفتين إلا الى الحق فلم يقولوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ولا اعتذروا اعتذار العاجز الدليل « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل » فقال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار » .

هذا النوع من التشريع الفكرى من أهم ما معنى به القرآن الحكيم ، فردده كثير فى آيات بينات على أنحاء شتى ، تعظيما لقدرة الانسانية ، وإجلالا لمقام العقل العام ، فى حدود

تكبح من جماحه إذا تطلع الى تعدى طوره ، ومجاوزه حده . وهو يطلعنا على أخص خصائص الاسلام وأعظم مميزاته على الشرائع الأخرى إطلاقاً ، تلك الخصيصة هي أن الاسلام أقام من العقل الانسانى حارساً على الانسانية ، وملاك الانسانية الحياة لتكون حية نامية ، والنمو رقى فى مدارج السكال . وهو بهذه الروح الهادئة القوية ضمن لنفسه البقاء والهيمنة على ماسواه « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

فهم المسلمون الأولون الاسلام على هذا الأساس ، فعظموا حرية الرأى تعظيماً جعل منهم أمة ناهضة مدت سلطانها على أقطار الأرض فى زمن لا يمكن أن ينهض بهذا السلطان القاهر لو كانت الأمة القائمة على أمره حبيسة العقل مقيدة التفكير . وليس مبدأ الشورى الذى جاء به الاسلام وجعله مناط الثناء على المؤمنين فقال : « وأمرهم شورى بينهم » وأمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ليجعله دستوراً بينه وبين أمته فقال : « وشاورهم فى الأمر » إلا قاعدة من قواعد حرية الرأى وتقديسها ، فاستمع الرسول أمر ربه ، وجرى على هذا السنن فيما لم ينزل عليه وحى فيه . روى البخارى فى صحيحه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاء وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد اليهم أموالهم وسيبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معى من ترون ، وأحب الحديث الى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين . إما السبى ، وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم — وكان أنظرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف — فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد اليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإننا نختار سيبينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاءونا نائبين وإنى قد رأيت أن أرد اليهم سيبهم ، فمن أحب منكم أن يُطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما ينىء الله علينا فليفعل ، فقال الناس :

قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع اليينا عرفاؤكم أمركم ، فرجع الناس ، فكلهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا .

هذا الحديث الشريف يصور أقصى ما تبلغ اليه الأمم الناهضة من حرية الرأى ونظام النيابة الفاضلة ومحو الاستبداد . وفيه من الفوائد العظيمة التى تدنو منا فى عصرنا هذا ، عصر الحرية الفكرية واستقلال الرأى ، ما يجل عن الوصف . ولنتحدث منه فيما يمس موضوع (حرية الرأى) الذى عقدنا هذا المقال لأجله :

أول ما ينبذه القارئ من هذا الحديث قول النبي صلوات الله عليه لهؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام جددا : « معى من ترون ، وأحب الحديث الى أصدقه » ليشعرهم بقانون الاسلام العام ، وهو احترام الحقوق وتقديس حرية الرأى ، والتجافى عن روح الاستبداد ، والحكم الفردى ، فكأنه يقول : إن الأمر صار الى الأمة ، ولا بد من أخذ رأيها ، مع أنه لو فعل شيئا ما طرقت عين بمخالفته « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسأموا تسليما » ، ولكنه مشرع لدين عام خالد ، وهؤلاء تلاميذ مدرسته العظمى ، مدرسة الحياة ، والقائون بأمر هذا الدين من بعده ، فهم فى حاجة الى دروس فى التربية الاستقلالية ، والاعتداد بالنفس ، وحرية الرأى ، فرد اليهم الأمر ليعلم وافدو الاسلام روح التشريع فى الاسلام ، وليعلم حماة الاسلام مكانهم من الدين ، ومكان الدين منهم .

ثانيا — لم يشأ صلوات الله عليه أن يجبر هوازن بعد أن استأنى بها وقطع عذرها على قبول طائفة بعينها ، بل خيرهم بين إحدى الطائفتين : إما المال ، وإما السبي ، وفى ذلك من احترام الرأى ما لا يحتاج الى بيان .

ثالثا — عرّض الأمر على أصحابه ، وذكر لهم توبة إخوانهم ، وقال لهم : إني قد رأيت أن أرد عليهم سببهم ، ثم أطلق لهم حرية الرأى ، وأبان أنه لا يحكم إلا بما تطيب به

نفوسهم ، فقالوا قد طيننا ذلك ، أفترأه - وهو الرسول الأمين - قام الى سبى هوازن فردده اليهم اتسكالا على إجابة عامة من حشد المسلمين ، كيف ؟ ولعل فى غمار المسلمين من لم يؤبه له ، ولا يعرف رأيه فى هذا الجمع العظيم ، والمسلمون سواء أمام التشريع العام ، لكل مسلم رأيه ، ولكل رأى اعتباره ، لا ، لم يتفرد النبى برأيه ، ولكنه عمد الى أدق نظم حرية الراى ، وأحراها بالعدالة جفرى عليها : أمرهم أن يرجعوا الى أنفسهم ، ويتعرفوا منها الرضا ، أو الالباء ، وينضجوا رأيهم ، ويتفاوضوا مع نوابهم ، ثم يرفعوا اليه ما استقر عليه رأيهم .

نظام بلغ أسمى آيات (الديمقراطية) كما يقولون فى أمة حديثة ناشئة ، أليس هو أحدث ما تطمح اليه الأمم الناهضة لتعيش فى ظله ؟ فليتبصر الذين لا يعرفون من الاسلام إلا قشورا منثورة هنا وهناك ليست من الاسلام فى الصميم .

اشترع النبى صلى الله عليه وسلم هذه الشرعة النقية الطاهرة فى حرية الراى ، فاستن بسنته خلفاؤه الراشدون من بعده ، فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد ملكه المسلمون رقابهم وأموالهم ، وبايعوه بالخلافة بيعة رضا واطمئنان : خطب الناس أول ما خطبهم بعد مقام الخلافة فقال : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » . فكيف تكون إذن حرية الراى ؟!! خليفة يملك من أمر الناس ما لا يملكونه فى يومئذ ، ثم يرد اليهم أمر نفسه ويجعلهم ميزانا لأعماله ، ويطلب منهم العون إن أحسن ، والتقويم إن أساء . بهذا الروح ظفر أبو بكر رضى الله عنه بالعرب بعد أن ارتدت أقاصيها .

ولقد سرت هذه التعاليم فى المسلمين ، فكان من أثرها أن يقوم رجل من عرض المسلمين يقول لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب بعد قوله : من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه : « والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيفنا » فيقول عمر : الحمد لله الذى

جعل فى أمة محمد من يقوم عوج عمر ! إنما حمد الله عمر لأنه رأى فى الأمة روح الاعتداد بالنفس ساريا فاطمان على أنه يتأمر أمة لا تلين لها فى الحق قناة .

بل إن عمر رضى الله عنه بث فى الأمة حرية الراى بين كبيرها وصغيرها . روى ابن الجوزى أن عمر بن الخطاب قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى القصة ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال » فقالت امرأة من صف النساء طويلة فى أنفها فطس : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : لأن الله يقول : « وآتيتهم إحداهن فنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » فقال عمر : « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ » .

وإذا تأملنا فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى الرفيق الأعلى ولم يخلف على المسلمين رجلا بعينه ، وهذا كان ميسورا وحاسما ، علمنا أن ذلك أثر من آثار حرية الراى فى الاسلام . وأبو بكر رضى الله عنه لم يخلف عمر بن الخطاب إلا بعد أن فوض اليه المسلمون ذلك . روى ابن الجوزى « أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس اليه فقال : إنه قد نزل بي ماترون ، ولا أظننى إلا ميتا لما بي ، وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمرؤا عليكم من أحببتكم ، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر أن لا تختلفوا بعدى » فقاموا فى ذلك وخالوا عليه ، فلم تستقم لهم ، فرجعوا اليه ، فقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رأيك ، قال : فلعلكم تختلفون ، قالوا : لا ، قال : فعليكم عهد الله على الرضا ، قالوا : نعم ، قال : فأمهلونى حتى أنظر الله ولىدينه ولعباده .

فإذا كانت حرية الراى فى الاسلام تتجلى فى أخطر مسألة يدور عليها كيان الأمة ، ويترك لكل مسلم أن يقول فيها رأيه فى أخرج المواقف ، كانت أخرى أن تتمشى مع الأمة فى مراحلها التشريعية والاجتماعية . فأما التشريع فحسب القارىء الاطلاع على تاريخ فجر النهضة الاسلامية ليعلم كم كان من المجتهدين الذين لا يصدرون فى رأى إلا عن

كتاب الله أو سنة الرسول الصحيحة ، وحتى أن الأصوليين يختلفون فى أصحاب رسول الله : هل جميعهم مجتهدون ؟ وكتب الفقه والأصول مليئة بالفروع التى وقع فيها الخلاف بين الأئمة ، وما عاب أحد منهم على أحد اجتهاده ، ولا حجر عليه رأيه . فهذا مالك بن أنس إمام المدينة : قال له أبو جعفر المنصور : اجعل هذا العلم علما واحدا . فقال له مالك : « إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى البلاد فأفتى كل فى مصره بما رأى ، فلا أهل المدينة قول ، ولا أهل العراق قول » . وفى رواية أنه قال له : « إن أهل العراق لا يرضون علمنا » . فقال أبو جعفر : يضرب عليه عامتهم بالسيف ، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط ، فأبى مالك . فانظر الى إجلال مالك بن أنس — وهو من أجل أئمة المسلمين المقتدى بهم فى مشارق الأرض ومغاربها — لحرية الرأى وتجافيه عن خذلانها . خليفة مسلط يعرض عليه نشر علمه فى الأرض ولا يكون بين الناس غير رأيه فبأبى ، لأن لكل مجتهدى مصر من أمصار المسلمين رأيا أخذوه عن منبع الشريعة .

حرية الرأى أساس فهم عمومية الدين ، وهيمنته على سائر الأديان ، وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ، وأنه لا حاجة معها الى قانون آخر . قال العلامة ابن القيم : « ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالاتها ، وأنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، وعرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها مواضعها ، وحسن فهمه فيها ، لم يحتج معها الى سياسة غيرها البته » .

ومن البدهة بالمكان الأول أننا لا نغنى بحرية الرأى ما يفهم من كلمة (الفوضى) حتى يباح لكل متعلم فضلا عن شبه المتعلم أن يقول فى الشريعة برأيه ، وإنما نغنى أن العالم الثقة إذا فهم فى الشريعة فهما وساق بين يديه دليله ، فلا سبيل عليه ، ولا تحجير

على فضل الله م
صادق ابراهيم عمره

الاسلام والطب الحديث

٢

تفسير بعض الآيات وكلام عن الحياة

سورة البقرة: الآية ٢١ « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » :
الماء ضرورى لاستمرار الحياة والنمو ، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون شرب
الماء بضعة أيام مع أنه يعيش على الماء فقط مدة شهر أو أكثر . والنباتات والجرائم
وكل شئ . حتى يهلك من الجفاف ويحيا بالماء .

الآية ٦٠ « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا
مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو
أدنى بالذى هو خير ... الآية » .

هذه الآية الكريمة معناها - والله أعلم - أن اللحوم والأسماك والألبان الخ أفضل
فى التغذية من البقول والقمح والذرة . ومعنى الأفضلية ليس مقدار المواد الزلالية
الضرورية للجسم فى كل نوع ، لأن هذا يجب ألا يكون سببا مهما للأفضلية . فمثلا
المواد الزلالية فى اللحوم من ١٥ الى ٢٠ فى المائة ، وفى اللبن ٤ فى المائة ، وليس هذا معنى
الأفضلية ، لأن معناها أن اللبن غذاء مخفف وبتركيزه يصير مثل اللحوم ، وكذلك
اللحوم بإضافة ماء عليها تصير مخففة مثل اللبن ، ولكن معنى الأفضلية هى فى نوع
المواد الزلالية لا فى كميتها ، وأن كل جرام من المواد الزلالية فى اللحوم أفضل من
جرام من المواد الزلالية «Protiens» فى القمح والذرة الخ .

وقد اهتمت أخيرا لجنة الأبحاث بالانجلترا (Medical Research Committee)

الى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية
المكونة للأنسجة من أن تحترق . وبعد أبحاث كثيرة ظهرت لها فوائد عملية فى بعض

أمراض مثل البلاجرا ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان الآتى :

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

إن هذه النتيجة التى خلصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة طيبا إلا منذ سنوات قليلة . وكانت النظرية السائدة قبل ذلك أن الأطعمة وقيمتها بالنسبة للمواد الزلالية هى مسألة كمية لا مسألة نوع .

وقد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملكية بإنجلترا فى التقرير الثالث سنة ١٩٣٣ والأخير أن البقول (Cereals) يضر الإكثار منها بالأسنان ونموها ، حتى إن التقرير ينصح بعدم إعطائها مطلقا للأطفال ، وبالقلة منها للكبار ، ويقول إن الإكثار من البقول من أهم العوامل فى تسويس الأسنان .

الآية ١٦٣ « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » :

الروح مهما كانت حقيقتها هى هبة من عند الله ، ولكنها لا يظهر تأثيرها إلا فى نوع مخصوص من المادة ، وهذا النوع من المادة يختص بأن يكون فى حركة دائمة من التحويل Metabolism وهذا التغير الكيمائى الدائم فى كل خلايا الانسان وكل دابة لا يمكن علميا إلا إذا كان فيه ماء بتقدير يختلف حسب نوع الخلايا . وهناك بعض أجزاء من الجسم الحى يقل فيه الماء جدا ، وهذه أغلبها إفرازات متجمدة ليس فيها حياة مثل الأظافر ، وأعنى أنها ميتة ، وهذا أيضا معنى الآية الكريمة « وجعلنا من الماء كل شئ حى » . فليس المراد أن الماء سبب الحياة مطلقا ، ولكنه شرط أساسى فى المادة التى تظهر فيها الحياة ، وهناك فرق بين الاثنين . ومثل ذلك مثل المسرة (التلفون) . فإذا كان اثنان يتكلمان على مسافة طويلة فالسبب فى الصوت الذى يسمع

هو المتكلم من الناحية الأخرى، ولكن عدة المسرة شرط أساسى لسماع الكلام، حتى إذا طرأ عليها طارئ لا يمكن سماع أى شئ. كذلك الماء شرط أساسى لاستمرار الحياة فى الجسم، ولكن الحياة والروح هما مثل المتكلم شئ، آخر مطلقا لا تعرف حقيقته، ولكن تغيير المادة بفقد عنصر أساسى مثل الماء، الذى يؤدى الى الموت بالنسبة الى الجسم المادى، يمنع وجود الروح والحياة، وقلة الماء فيه تؤدى الى عدم وجود الروح والحياة، أى الموت بالنسبة الى الجسم المادى.

الآية ١٧١ : « يأيتها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » :

هذه الآية الكريمة تنص على ألا تؤكل الميتة ولا الدم، فالحيوان الميت لا يموت إلا لسبب مثل المرض أو الشيخوخة، فإن كان لمرض فما لا شك فيه أنه لا يزال فى الجسم نتيجة التسسم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار، فالجسم الميت فى هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذى مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال مضرًا بالانسان، وربما أدى الأكل منه الى الوفاة.

وكذلك الدم، فإنه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو الكرات الحمر خلايا حية، وفيه من إفرازات الجسم ما هو معد للإفراز بواسطة البول والعرق الخ. فالدم فى الحقيقة مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم، ولكن أغلبه مواد مضرّة ويجب أن تفرز، وإذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضاً كان أكل الدم أشد ضرراً، وكان بقاؤه فى أنسجة الحيوان قبل أكله مضرًا جداً لما فيه من مواد مضرّة تحدث تخمراً بسرعة فى أنسجة الحيوان مثل العضلات، فيكون لحمه غير صالح للأكل.

وأما إذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الأخرى، فتؤدى الى انحلال الكل. وانحلال أحد الأنسجة لا يأتى إلا لضعف طبيعى فيها، أو بمرض تدريجى غير منظور يحدث تغييرات فى لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم.

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يوميا في البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها بدون ضرر ظاهر . والجواب على ذلك أن ضرر التخمر يقل كثيراً في الأقاليم الباردة ويزيد في الأقاليم الحارة ، والدين الاسلامي أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التي يحدث التخمر فيها بسرعة مدهشة . إذاً فما لا شك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصنى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر ، بخلاف الحيوان المريض الميت المتخللة لحومه بالدم .

لحم الخنزير — إذا كان سليماً من الأمراض لا ضرر منه على ما نعلم الآن ، ولكن كثيراً ما يصاب بأمراض تضر الانسان إذا أكله ، فضرره أكثر من نفعه .

فتلأنحو خمسة في المائة من الخنازير في بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تركيتا) وهو نوع من الديدان خطر ، لأنه إذا أصيب به الانسان يحدث به تسماً عمومياً وإسهالاً مثل (الكوليرا) وقد يؤدي الى الوفاة . وأهم من ذلك أن لحم الخنزير المصاب لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة ، فعملية السلق البسيطة أو الشى لا تكفى ، ويجب غلى اللحوم مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها . وإذا كانت الإصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها ، لأن الحيوان يكون في حالة تسمم عمومي قبل الوفاة .

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامي في اجتناب الضرر الذي لا يمكن الوقاية منه إلا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هي الامتناع عن أكله .

ولهذا لم تشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين ، مع أنه ليس نادراً في أوروبا وأمريكا . ثم إن الخنزير سبب عدوى ديدان أخرى أقل ضرراً مثل (الأسكاريس) وأنواع من (التينيا) .

الآية ٢١٨ : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » :

الخمر أساسها مادة الكحول (الكسول) بكميات مختلفة . وهذه المادة توجد

بنسبة خفيفة في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية (الجلوكوز) مثل الموجود في العسل . ولها فوائد طيبة ، ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا ، فإن زاد عن ذلك أحدث ضررا ، خصوصا إذا كان التعاطى لمدة طويلة فانه يحدث التهابا مزمنيا في الأعصاب وفي الكلى ، وتصلبا في الشرايين ، وتحجرا في الكبد ، وضعفا في القلب .

ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ والجواب أن الكحول (الكثول) يختلف عن أغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا في قوة الارادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية . ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه ، وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش ، ولكن ضعف الإرادة يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر . وقد وصفها كاتب من أكبر الكتاب الانجليز في كتابه ، وكان يتعاطى الخمر ، فقال : « إنى لا أحس أنى في شعورى وإدراكى إلا إذا كنت متأثرا بالخمر ، ولكنى في هذا الوقت وأنا سكران لا أعرف نفسى الأولى » فكأنه في الحقيقة أضاع نفسه ، لأن عادة الخمر كانت شديدة ، حتى إنه في الأوقات التى لا يشرب فيها يشعر بكآبة وبؤس ولا يحس نفسه سعيدا ، وكأن شيئا مهماً ينقصه حتى إذا شرب شعر بالسعادة . ولكنه في هذه الحالة ليس طبيعيا بل هو مسكران . وقد مات في شبابه بالسل ، مع أنه لو عاش لم يبعد أن يكون أ كبر شاعر .

وهنا يلاحظ أن الخمر ، حتى قليلا ، لا يزيد قوة التفكير العميق بل يضعفها . وأما الملكات الأخرى مثل الموسيقى والشعر فربما ظهرت بوضوح من قليل من الخمر . وهذا معنى قوله تعالى : « وإيهما أ كبر من نفعهما » .

أما تأثير الخمر من الوجهة الأخلاقية والاقتصادية فليس محل بحثنا .

دكتور عبد العزيز اسماعيل

أسرار التشريع الإسلامى وفلسفته

خلق الله الانسان مؤلفا من طبيعتين متباينتين : إحداهما ملكية علوية ، والأخرى
جثمانية شهوانية ، فمن غلبت شهوته عقله التحق بصنف البهائم ، ومن غاب عقله شهوته
التحق بالملائكة . وقد شرع الله التكليف امتحانا خلقه ، ثم قرن بها بالزواج والعظات
لتكون عوناً لعقله على التغلب على دواعى الشهوات فيه .

فالتكليف الشرعية قاصرة على نوع الانسان كما قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة
على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان
ظلوماً جهولاً » وقد فسر أكثر العلماء الأمانة بالتكليف الشرعية . على أنه لم يقصد
من هذه التكليف تسخير الانسان أو تحميله مالا قبل له به ، ولكن أريد بها تطهيره
وتخليص جوهره من الكدور التى علقته به ، كما قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل
عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .
وقد عمل المسلمون الأوّلون بهذه التكليف فصحت عقولهم وأجسامهم ، وقويت
نفوسهم وإراداتهم ، وتقمصتهم روح علوية سموها بها على جميع الأمم المعاصرة لهم حتى
سادوا عليها وأصبحت لهم خلافة الله فى الأرض .

فإذا كانت هذه الكمالات ثمرة التكليف الإسلامية ، فكيف لا يحرص عليها
المسلمون ويعملون بها ويتدارسونها ويجعلون التواصى بها أمراً محمّلاً على كل منهم
فرداً فرداً ؟

هذا وقد تفضل الله على الانسان بهبات عظيمة جثمانية وروحانية ، ومتعه بخصائص
عالية صورية ومعنوية ، أفلم يكن من حقه عليه أن يشكره على هذه النعم الجليلة ، والعطايا
الجزيلة ، بالإقرار بفضلها ، والإخبار لعزته ، والخشية من جبروته ؟ لذلك وجب علينا أن

نقابل هذه الاسماء الالهية بالشكر الجميل ، وأن نفهم أن الأرواح قبل أن تدنس بالعالم الجسماني قد خضعت لربها فانطبع فيها الإقرار بالوحدانية ، فالواجب عليها أن تقرّ بها ، وأن تعترف بالعبودية لبارئها ، وأن تبقى حافظة لعهدا القديم بعد أن لا يستها تلك الأجسام البشرية وأحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم .

إذا فالعبادة لله أقدم غاية من غايات الأرواح ، وأسمى مقصد من مقاصدها ، وثمرة العبادة خلاص الانسان من أسر جثمانه ، وعروجه بروحه الى أرقى درجات السكّال من وجوده الصوري والروحاني . وهذه غاية يجب أن يعنى بها ، وتراض النفوس لبإلوانها ، فإنها أسمى الغايات على وجه الإطلاق .

وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين الاسلام والايمان فقال : « الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » قال : « والايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

والأحاديث صريحة في أن الأعمال الظاهرة للانسان من الايمان ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمالة الأذى عن الطريق » . وقوله لو قد عبد القيس : « آمركم بالايمان بالله وحده . أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب ، فلم أن هذه مع إيمان القلب هو الايمان . وفي المسند عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الاسلام علانية والايمان في القلب » . وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الى بعض بهذه الكلمات « من أصلح سريره أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن عمل لا آخرته كفاه الله أمره دنياه » . رواه ابن أبي الدنيا في الاخلاص .

وثبت عنه عليه السلام من وجوه متعددة أنه قال : « الحياء شعبة من الإيمان » . وهذا من حديث ابن عمر وابن مسعود وعمران بن الحصين . وقال أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه » وقال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! » قيل من يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » . وقال : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقال : « ما بعث الله من نبي إلا كان في أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته . ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمَنْ جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . وفي الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ورواه البخارى من حديث ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب الثوبه يرفع الناس اليه فيها أبصارهم وهو مؤمن » .

ثم إن علماء السنة قد اختلفوا فيما بينهم في : هل الايمان يزيد وينقص ، أو أنه لا يزيد ولا ينقص ؟ وتشعب البحث تشعبا أفضى الى كثرة من القول مستفيضة . ثم إننا كنا قطعنا مع القراء شوطا بعيدا في مشروعية النكاح وأسبابه ومن يجوز نكاحه ومن لا يجوز ، وقد بقي أن نتكلم عن حرم نكاحهن المحصورات في عشرين محرمة . كذلك كنا قد وعدنا حضرات القراء باستتمام البحث في حكمة إرسال الرسل . غير أن بحثنا الراهن لا يتسع لكل هذه التفاصيل . لذلك نستميحهم عذرا في الوقوف بهم عند هذا الحد اليوم من البحوث المتشعبة . وموعدنا بإتمام هذه البحوث في الأعداد المقبلة إن شاء الله .

عباس طه

تاريخ الالفاظ في اللغة العربية

كلمة (الادب) وأطوارها

هذا فن من العلم قد يكون جديداً على اللغة العربية ، أو على الأقل غير معروف في مباحثها ، وهي في أشد الحاجة اليه ، فيجب أن يوجد ، وأن يعرف ، لما له من عظيم النفع وجليل الفائدة في تحديد معاني الكلمات بأوقاتها التي استعملت فيها ، وتمييز أصل الوضع من طارئه ، ومولده ودخيله من عريبه ، وحقيقته من مجازه . وفي ذلك إرشاد الى أطوار الحياة في الأمة ، وانتقالها من درجة في المعارف الى درجة أخرى ، وليس في معاجم لغتنا ما يقوم هذا المقام .

فلو أن إنساناً عمد الى واحد منها كالقاموس ، أو لسان العرب ، أو صحاح الجوهري ، وما إليها ليعرف منه معنى كلمة من الكلمات ، لوجدها تتردد بين كثرة من المعاني إذا صح أن العرب عرفوها كلها كان ذلك دليلاً على ما لهذه اللغة الشريفة من الخصوبة في الأوضاع ، والثروة في المدلولات التي تداولها العرب في مختلف قبائلهم قبل اختلاطهم بغيرهم من الأمم .

ومن ثم يعرف المطلع عليها مقدار اتساع مناحي الحياة عند العرب ، لأن التعبير عن الشيء فرع معرفته ، فهم إذاً قد عرفوا كل ما عبروا عنه في لغتهم ، وهم قد عبروا عن كثير من المعاني الفكرية والاجتماعية في صور مختلفة تبين مقدار تفننهم فيها . واللغة الصحيحة من أصدق المقاييس على حياة الأمة .

ولكن هذه المعاني التي تذكرها تلك المعاجم اللغوية اختلطت بعض المولد والدخيل فيها بالعربي الصحيح اختلاطاً يصعب معه على المنتهي في عصرنا — بله المبتدى — أن يطمئن الى أن هذا المعنى عربي خالص ، لأنه لا يثق بأن العرب الخالص نطقوا بهذا اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى قبل أن يغمرهم الدخلاء .

أخذت بيدي كتاب القاموس، وهو من أهم كتب اللغة عندنا، لا كشف فيه عن معنى كلمة (الدين) فوجدته يقول: الدين: «الجزء» و«الاسلام» و«العادة» و«العبادة» و«المواظب من الأمطار» أو «اللين منها» و«الطاعة» و«الذل» و«الداء» و«الحساب» و«الفهر» و«الغلبة» و«الاستعلاء» و«السلطان» و«الملك» و«الحكم» و«السيرة» و«التدبير» و«التوحيد» و«اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به» و«الملّة» و«الورع» و«المعصية» و«الإكراه» و«من الأمطار ما يعاهد موضعاً فصار ذلك له عادة» و«الحال» و«القضاء». سبعة وعشرون معنى تردد بينها كلمة (الدين) وهي من الكلمات التي تكشف معانيها عن تاريخ الأمة من ناحية التفكير والاجتماع والأدب. وأنت ترى أن الفيروزبادي ذكر هذه المعاني دون تمييز بين ما حدث بعد الاسلام، وما وضع قبله، وإن كان بعض المعاني ينم عن تاريخه الإجمالي بنفسه، وأغلب تلك المعاني (ديني) شرعي، وبعضها يمكن القطع بأنه عربي جاهلي، وبعضها متردد بين العصور العربية، وهو أشقها وأحوجها إلى التأريخ.

وهذه أيضاً ألفاظ (المائدة والطعام) لو قرأها إنسان في تلك المعاجم لخرج منها بما يقلب تاريخ العرب من جهة الحضارة والبداءة، لأنها تبين عن أصناف وأذواق لا تعرفها البداءة، وهي من الحضارة في صميمها. بيد أن التاريخ القديم يأبى إلا أن يصور العرب أمة بدوية جاهلة لا تعرف إلا الناقة والجمال، والصحراء والجبل، وواد البنات، وشن الغارات، والظعن والارتحال.

نعم لا ننكر أن بعض المعاجم اللغوية نبه على أن بعض الكلمات معربة، أو دخيلة على العربية من الرومية أو الحبشية أو غيرها، وأن بعض العلماء ألفوا كتباً في بيان الدخيل من الكلمات على اللغة، ولكن هذا شيء قليل يجانب ما في هذه اللغة من ثروة لو خلصت لأبانت عن تاريخ العرب أحسن إبانة، وهو مع قلته لا يغني شيئاً

عن تاريخ الألفاظ ، لأن تلك الكتب لم تبين متى جاء ذلك اللفظ الدخيل ؟ وهل كان في اللغة ما يغني عنه ؟ حاجة اللغة العربية الى (فن تاريخ الألفاظ) وتتبع أطوارها ، واستعمالاتها كبيرة جدا ، فهو واجب عيني على المجمع اللغوي ، وفرض كفائي على الجماعات الأدبية المشتغلة بمحوث اللغة .

وإذا كان القدامى من أئمة اللغة لم يعنوا بهذا الطرز من البحث لأن الحاجة لم تكن عندهم ماسة اليه ، أو لأنهم كانوا على علم بتمييز الدخيل من العربي لقرب عهدهم باللغة في معاهد الجزيرة ، أو لأي سبب آخر ، فحاجتنا نحن اليه شديدة ، لأن الآداب الأجنبية التي تزاخم الأدب العربي عنيت به عناية شديدة ، ولأن هذا الفن يساعدنا مساعدة فعالة على الكشف عن تاريخ العرب الأدبي والاجتماعي والديني قبل الاسلام ، إذ الاعتماد على روايات التاريخ القصصية أصبح شيئا لا يمكن التعويل عليه في معرفة الحقائق ، ولأننا هوجنا من طريقه فأنكر بعض الباحثين أن يكون للعرب حياة أدبية قبل الاسلام ، لأن لغتهم لم تعرف كلمة (الأدب) إلا بعد مجيء الاسلام ، فلو كان لدينا هذا الفن قائم القواعد لتفادينا هذا الجدل العقيم ، وخطينا بالأدب العربي خطوة أوسع تبوئه مكانا عليا بين الآداب الناهضة الحية .

اتصلت نهضتنا بهضة الغرب ، فأخذنا عن المستشرقين كثيرا من مناهجهم في البحث ، وكان فيما أخذنا منهم تاريخ أدب اللغة طريقة ، لا مادة ، وهم قد بحثوا عن تاريخ الألفاظ ، فألمنا بشيء ضئيل منه دعت اليه ضرورة التقليد ، حصره الباحثون في كلمة (الأدب) ، ولكن في اتجاهين : اتجاه يحتمى بالقديم ويستعين به ، واتجاه يتأثر مناهج البحث الحديث طليقا من كل قيد . وسنجمال خلاصة المذهبين ، ثم نقفي بما بدا لنا من رأى ينتهى بهذه الكلمة الى وضعها التاريخي الصحيح .

يقول أنصار القديم : إن أول ما عرفت كلمة (الأدب) عند العرب في العصر الجاهلي جاءت مصدرا لأدب يأدب اللازم ، وهو من باب ضرب ، بمعنى صنع طعاما

يحتفل به ، ويدعوا اليه ، والاسم من ذلك (المأذبة) ولكنهم لا يذكرون شاهدا واحدا من كلام العرب الا فحاح فى العصر الاول ذكرت فيه كلمة (الأدب) بهذا المعنى ، ويكادون يجمعون على التشبث بقول طرفة بن العبد :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى (الأدب) فىنا ينتقر

وهو مروي فى ديوانه من قصيدته الرائية التى مطلعها :

أصحت اليوم أم شافتك هر ومن الحب جنون مستعر

وواضح أن بيت طرفة لا يثبت الدعوى بنصها - كما يقول الجدلون - وأقصى ما يفيد أنه (الأدب) اسم فاعل بمعنى الداعى الى الطعام هو الذى عرف من مادة (أدب) ويبقى البحث على حاله متشوقا الى معرفة : هل نطق عربى فى العصر الجاهلى بلفظ (الأدب) على أى معنى من المعانى التى عرفت لهذه الكلمة بعد ؟ .

يتخطى أولياء القديم من أساتيد النهضة الحديثة العصر الجاهلى عند هذا الحد مسرعين الى عصر صدر الاسلام وبنى أمية ، فتسمفهم النصوص ، ويجدون كلمة (الأدب) لبست ثوبا جديدا ، وأخذت معنى التهذيب والتعليم فى صيغ متعددة ، ويستشهدون على هذا المعنى الجديد لكلمة الأدب بحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض بني « يابى انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن (أدبك) . » وبقوله : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » . وبكلمة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد فى وصيته حين حضره الموت : « ثم انظر الى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم » .

وبروون عن عتبة بن ربيعة قوله لابنته هند أم معاوية ، وهو ينعت لها أباسفيان بن

حرب ليكون زوجها لها : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وقول هند لأبيها : « إني لأخلق هذا الوامقة ، وإني له لموافقة ، وإني لأخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي ، وقلة تلفتي » .
ثم يتوسعون في هذا المعنى نفسه الى أن يولدوا منه معنى آخر إن لم يكن هو فليس منه بعيد . وعرف الناس يجري على هذا المعنى المولد ، فيقولون : فلان (مؤدب) و (أديب) إذا كان ظريفا في خلقه ، لطيفا في عشرته ، وينشدون شاهدا له قول سالم ابن وابصة ، وهو شاعر أموى :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا ماجدا حرا
إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا
ويستظهرون أن الكلمة نقلت من هذا المعنى الى معناها (الفنى) أى المعنى الاصطلاحي الذى تعارفه الناس حين صار الأدب فنا مستقلا
صادق إبراهيم عرمرمره

بعض ما قيل فى الحسد

قال على أمير المؤمنين كرم الله وجهه : لا راحة لحسود ، ولا إزاء لمسلول ، ولا محب لسىء الخلق .
وقال الحسن البصرى : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، نفس دائم ، وحزن لازم ، وغم لا ينفد .
وقال معاوية : كل الناس أقدر أرضيهم إلا حاسد نعمة ، فانه لا يرضيه إلا زوالها .
وقال الشاعر :

كل العداوات قد ترضى إبانها إلا عداوة من عاداك من حسد
وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . فقيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . يقول الله فى بعض كتبه : الحسود عدو نعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راض بقسمتى .

مآثر العرب في علم التاريخ^(١)

انتهى العصر الأول من تاريخ الأدب العربي بانتهاء القرن الرابع من الهجرة، ثم تلاه عهد امتاز بوفرة التأليف في التاريخ وبتنوعها. ولعل السبب في ذلك يرجع الى اهتمام الأمراء بهذا الفرع من فنون الأدب، وبتعصيدهم للقائمين بأمره تعصيذا كاد يسوي بين منزلتهم ومنزلة الشعراء، فزاد بذلك عدد المؤرخين. على أن ذلك لم يمنع ظهور مؤرخين لم يكن تعصيدهم الأمراء هو الدافع لهم على مزاوله أعمالهم، بل كانوا يجدون في ذلك لأغراض علمية بحثية. ولم يكن إنتاج هؤلاء من حيث الوفرة أو القيمة أقل من أولئك. وإلى الأخيرين يرجع الفضل غالبا في جمع المصادر التاريخية الأولى ونشرها.

ولعل أهم ما امتاز به هذا العصر الجديد ظهور نوع جديد للتاريخ وهو وضع التراجم، ولو أن هذا النوع كانت توجد بذوره في مؤلفات الأولين أمثال علي المدائني. هذا إذا استثنينا ما جاء في تاريخ حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنه لم يخل منه عصر من العصور منذ بداية الأدب النثرى، وإن كان ذلك أقرب الى علم الحديث لصبغته الدينية.

تطور فن وضع التراجم في هذا العصر تطورا سريعا، وأصبح من مميزات الواضحة وخصوصا في شرق البلاد الإسلامية، حيث اقتنى المؤرخون أثر كتب الملوك الفارسيين. وكانت هذه التراجم توضع إبان حياة أبطالها، فكانت تكيل لهم أنواع المدح، وتفيض في تمديد مناقبهم، هذا الى إسراف واضعها في استخدام المحسنات اللفظية لإظهارها في ثوب جميل مونق مما قلل من قيمتها التاريخية، إلا أننا ندين لها بكثير من معلوماتنا عن الأحوال الداخلية في الدول المتتابعة وبلاط الملوك المختلفة، مما بخلت علينا به المؤلفات التاريخية.

(١) بقية ما نشر في الجزء السادس من المجلد الخامس من هذه المجلة مترجما عن الألمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربي » للمستشرق الألماني الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

وأول التراجم المعروفة من هذا النوع هي الترجمة التي وضعها محمد العتبي (أبو النصر) المتوفى سنة ٤٢٧ هـ في تاريخ السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي المتوفى سنة ٤٢١ هـ وهو الأمير الذي في عهده نظم الفردوسي الشاهنامه المشهورة .

وأما في الشرق فقد بدأ وضع التراجم محمد النسوي الفارسي الذي كتب تاريخ السلطان جلال الدين ما نكوبرتي (خوارزم شاه) وكان قد التحق بخدمته بعد أن غلبه المغول على أمره على ضفاف نهر السند عام ٦١٨ هـ وبقي في بطاقته حتى وفاته عام ٦٢٨ هـ ووضع بعد ذلك بعشر سنين ترجمته . وامتازت هذه الترجمة بدقتها التاريخية .

وأما في آسيا الصغرى فكانت شخصية صلاح الدين بارزة الى درجة أنها طبعت تاريخ تلك الناحية بطابعها الخاص ، فتوفر ثلاثة من كبار المؤرخين على وضع تاريخ ذلك المجاهد الكبير ، أولهم معاصره عماد الدين الكاتب الأصفهاني ، وكان في أول أمره في خدمة السلجوقيين في العراق ، ولما ساءت حاله بعد وفاة ولي نعمته الوزير ابن هبيرة اتصل بالأبوبيين في دمشق ، واكتسب صداقة صلاح الدين ، وارتقى بسرعة الى أن صار رئيسا لمجلس الدولة في عهد السلطان نور الدين . ولما ولي ابن نور الدين من بعده عزله من منصبه في عام ٥٦٩ هـ وأبعده عن البلاط ، فاجأ الى صلاح الدين وكان قد أسس له ملكا في مصر ، وأخذ في الزحف على سورية ، ورافقه في كل غزواته حتى وفاته في عام ٥٨٩ هـ ومن ثم اعتزل الحياة العامة واشتغل بالأدب الى أن وافته المنية سنة ٥٩٧ هـ . ومن أهم مؤلفاته تاريخ أولياء نعمته الأولين أمراء السلجوقيين ووزرائهم حيث نقل فيه الى العربية كتاب أنوشروان (شرف الدين) بعد اختصاره ، ثم وضع سفرا مكونا من سبعة أجزاء في تاريخ عصره لم يبق منه إلا الآن سوى جزء واحد .

أما غزوات صلاح الدين في فلسطين وسورية فقد أفرد لها سفرا خاصا . وأخيرا وضع كتابا في شعراء القرن السادس للهجرة إلخا لما كتبه النعماني ، ولكن مما يؤسف له أن كل مؤلفاته ملأى بعبارات كثيرة من التورية ومصوغة بأسلوب الدواوين السقيم .

وثاني مؤرخي صلاح الدين هو يوسف بن شداد بهاء الدين (الحلبى) وقد وضع مؤلفه بناء على مشاهداته الخاصة أيضا .

وبعد وفاة صلاح الدين احتفظ به ابنه الملك الظاهر في حلب في مثل منصبه الأول ، وبقى فيه في عهد الملك الظاهر الى أن ترك هذا الحكم في عام ٦٢٩ هـ واعتكف في داره . وأما ثالث مؤرخي صلاح الدين فهو الأستاذ دمشقى أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ فقد وضع كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين) في تاريخ صلاح الدين ونور الدين .

وفي عهد حكم صلاح الدين وضع أحد رجاله وكان وزيرا للحربية تاريخا نحاه منحنى الهجو لوزير اسمه قراقوش منتقدا أوامره الإدارية وتصرفاته المستهجنة . وقد لقي هذا الكتاب ذيوغا واسعا وانتشارا عظيما ، وكان له من الأثر البعيد ما جعل لاسم هذا الوزير صدى بعيد المدى ، فبقى ماثلا حتى اليوم في كثير من القصص والحكايات التركية والمصرية ، وتناوله التحريف فصار يعرف باسم قره قوز .

وكذلك وضع أسامة بن منقذ (أبو المظفر) في زمن صلاح الدين تاريخا مسمها بحياته جاءت فيه موضوعات شتى قيمة في تاريخ هذا العصر ، ولد أسامة في سنة ٤٨٨ هـ بمدينة شيزار في شمال سوريا فلما شب وكبر اضطره أمير تلك الولاية وكان من أقاربه ، فاضطر للرحيل الى دمشق حيث أقام بها ست سنوات في خدمة الحكومة ، ثم اضطر لترك عمله ومغادرة البلاد الى مصر لعدم مما لآلته للبلاط ، وعاش في مصر بضع سنين بعيدا عن الأعمال العامة الى أن اشترك في الحروب الصليبية في سنتى ٥٤٥ و ٥٤٨ هـ بمدينة عسقلان ، ومن ثم تابع سفره الى دمشق ، وأقام بها الى أن اشترك مع السلطان نور الدين في غزواته من سنة ٥٥٧ الى سنة ٥٦٠ هـ وأخيرا اعتكف في حصن حيفا في شمال سوريا حيث اهتم بالاستشغال بالأدبيات وعلى الأخص بتدوين تاريخ حياته الخاصة . وفي سنة ٥٧٠ هـ استدعاه صلاح الدين الى دمشق ولكنه لم يحظ بعطفه طويلا وتركه في دمشق عند ما نقل حاضرة ملكه الى القاهرة الى أن توفى هناك سنة ٥٨٤ هـ .

ظهر من بعده هؤلاء المؤرخين أبو الفتح البنداري الذي جعل كل همه إخراج صورة جديدة لتاريخ السلجوقيين الذي وضعه عماد الدين أول مؤرخي صلاح الدين مجتهدا في إصلاح أسلوبه السقيم . ثم جاء من بعده على الحسيني فاقتبس منه ملخصا وأضاف إليه تاريخ الأتابيك (الصدور العظام) حتى عام ٦٢٠ هـ . وحذا عدد كبير من المؤرخين حذو مؤرخي هذه الأسرة الذين تقدم ذكرهم . وأهم الكتب التي ظهرت في الغرب على هذا المثال ما وضعه عبد الواحد المراكشي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ في تاريخ الموحدين . أول من كتب في تاريخ بغداد من مؤرخي هذا العصر هو العالم المحدث الكبير أحمد الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وقد اعتنى في كتابه في تاريخ بغداد بالتقسيم الطبوغرافي مع مراعاة علم الحديث الذي كان يعتبر فيه حجة قوية .

واقفى أثره في تدوين تاريخ المدن على بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فوضع سفرا عظيم الشأن في تاريخ دمشق يقع في مقدمة ٨٠ جزءا لم يبق الدهر منه إلا مقطوعات متناثرة ، وقد عني فيه بتراجم العلماء عناية فائقة ، ولم يقتصر على ذكر علماء دمشق فحسب بل إنه لم يغفل ذكر العلماء الذين نزلوا ضيوفا على المدينة في أى وقت من الأوقات . ووضع ابنه القاسم المتوفى سنة ٦٠٠ هـ تاريخا لفلسطين جعل جل عنايته فيه ألا ما كن المقدسة بها وأهميتها الدينية .

ووضع أحمد بن العديم (العقيلي الحلبي) تاريخا مسهبها المدينة حلب في عشرة أجزاء ، وكان أهم ما عني به تاريخ العلماء أيضا بعد ترتيبهم حسب الحروف الهجائية . وكان أحمد ابن العديم قاضيا بمدينة حلب ، وعاش بها إلى أن سقطت في يد التتر في ٩ صفر سنة ٦٥٨ ففر هاربا إلى مصر إلى أن استدعاه «هولاكو» التتري وأُسند إليه منصب كبير قضاة سوريا . واشتغل في سنيه الأخيرة بوضع كتابه في الصورة التي نعرفها الآن . وقد أتى في كتابه هذا على تاريخ مدينة حلب بترتيب زمني حتى عام ٦٤١ هـ إلا أنه لم يسكد يتم تنسيقه حتى وافته المنية بمدينة القاهرة .

ووضع الشاعر عمارة الحكيمى (البنى) كتابا في تاريخ بلاد العرب الجنوبية . ولد عمارة في عام ٥١٥ هـ وتقابل وهو يؤدى فريضة الحج مع أمير مكة المكرمة فأعجب به كثيرا وأرسله سفيرا له في بلاط الفاطميين بالقاهرة ، وبقى بها الى أن دخلها صلاح الدين فانضوى تحت لوائه ، إلا أنه اشترك أخيرا في مؤامرة دبرت لإعادة آخر سلالة الفاطميين الى عرش أجداده بمساعدة الصليبيين ، فانكشف أمرهم وأعدم مع جميع المتآمرين في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ وكان قد وضع قبيل وفاته كتابا آخر في تاريخ الوزراء المصريين . وأما تاريخ مصر فقد وضعه في أول هذا العصر محمد المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ

في سفر عظيم لم يصلنا منه سوى جزء من أجزائه الأخيرة

واهتم كذلك ابراهيم بن واصف شاه (المصرى) في أواخر القرن السابع من الهجرة بوضع تاريخ مختصر لمصر مهد له بمقدمة استعارها من الخيال عن حالة مصر قبل الاسلام . ووضع على بن سعيد (المغربى) كتابا في تاريخ مصر لم يصلنا منه إلا شذرات متفرقة . ولد على بن سعيد في غرناطة وطلب العلم في أشبيلية ، ثم جاب بلاد الشرق بضعة سنين دخل بعدها في خدمة سلطان تونس عام ٦٥٢ هـ ثم عاود سياحته الى الشرق ، ولما كان في مدينة الاسكندرية باخته أعمال « هولاكو » التترى فزاره في أرمينيا . ويقول بعض المؤرخين إنه توفى في دمشق سنة ٦٧٣ هـ ويذهب بعض آخر الى أنه توفى في تونس سنة ٦٨٥ هـ . ويشمل كتابه تاريخ جميع البلاد الاسلامية الغربية .

وأما فى الأندلس فازدهرت العلوم التاريخية الى أقصى حد وتعددت مؤلفات المؤرخين حتى كفلت لنا الى يومنا هذا معلومات وافية عن تاريخ ذلك العصر الذهبى . ولحسن الحظ بقيت أغلب هذه المؤلفات حتى الوقت الحاضر على صورتها الأصلية . وفى مقدمة مؤرخى هذا العصر ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فى قرطبة وابن بشكوال المتوفى بقرطبة عام ٥٧٨ هـ وابن الأبار وهو من أهل أشبيلية وتوفى سنة ٦٥٨ هـ وظهرت كذلك مؤلفات عديدة فى شعراء الأندلس من وضع ابن خاقان

المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وقد اهتم كل من ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والبديع المتوفى سنة ٥٧٠ هـ بتدوين التاريخ السياسي لتلك البلاد، ولكن مما يدعو للأسف الشديد لم يبق الدهر من مؤلفاتهما إلا النزر اليسير. ووضع المدعو ابن الأذاري في أواخر القرن السادس من الهجرة تاريخاً للأندلس جعل أهم موضوعاته ما جاء في تاريخ شمال أفريقيا. ومن الوثائق التاريخية الهامة التي يرجع عهدها إلى هذا التاريخ أيضاً قصيدة ابن عبدون الشهيرة التي وضع لها ابن بدرون تفسيراً تاريخياً قيمياً. إلى أن جاء عماد الدين بن الأثير المصري ونقل هذا التفسير التاريخي بحذافيره، وأضاف إليه بعض الحوادث التاريخية الهامة حتى عام ٦٩٧ هـ.

وأما في التاريخ العام فإن كتاب الطبري، وسبق لنا ذكره، بقي في هذا العصر أيضاً من أقوى المصادر وأهم المراجع، ولو أنه ظهر في هذا العصر أيضاً عدة مؤلفات أخرى قيمة في التاريخ العام، نخص بالذكر منها السفر الجليل الذي وضعه الكاتب اللبق الثعالبي، ولم يصلنا منه سوى الجزء الخاص في تاريخ الفرس.

ووضع مؤرخ آخر — غير معروف اسمه — وهو من أنصار الفاطميين في القيروان في القرن السادس كتاباً أسماه (كتاب العيون) امتاز بإعلاء شأن الأمويين وتمجيدهم. ووضع حكيم بغداد وفيلسوفها الكبير ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ كتاباً في تاريخ العباسيين المتأخرين وأمرء الولايات المختلفة.

بقيت هذه الكتب أهم ما ظهر في هذا العصر في التاريخ العام إلى أن جاء عز الدين ابن الأثير وهو عالم كبير ينتمي إلى أسرة كريمة بالموصل، وتوفى بها سنة ٦٣٠ هـ وكان كتاب الطبري وقتئذ لا يتفق مع روح العصر العالمية لتفككه وسرده الوقائع التاريخية بدون ارتباط أو تعليق، فتناولوا عز الدين بن الأثير بالتهذيب حتى جعله وصفاً شيقاً متتابع الحوادث ملتئم البنيان، وكان يستعين بمراجعة المصادر الأصلية، فيدرسها ويمحصها ثم يلخصها ويدمجها بعضها ببعض في أسلوب لغوي منسجم متشبعاً مع نهضة الأدب

الجديدة . هذا الى أنه أضاف اليه مكملات عديدة مستعينا بمراجع أخرى مثل ما أورده في تاريخ ما قبل الاسلام من تقارير عن وقائع العرب القدماء وحروبهم ، وأخيرا استأنف إتمام هذا السفر الجليل حتى أتى على تدوين الحوادث التاريخية الى عام ٦٢٨ هـ . ومن أهم مؤلفات عز الدين بن الأثير كتابه (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ترجم فيه لما يقرب من ٧٥٠٠ من صحابة (رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

واشترك في وضع التاريخ العام في هذا العصر نفر قليل من العلماء المسيحيين أيضا مثل المسكين بن العميد المصري ، وكان يتقلد منصبا كبيرا في الدولة الأيوبية ، وتوفي بدمشق عام ٦٧٢ هـ وكتابه في التاريخ يشمل تاريخ العالم منذ بدء الخليقة الى ما قبل وفاته . كما وضع بطرس بن الرحيب (أبو شكر) كتابا مماثلا له في التاريخ العام أيضا .

وفي سوريا وضع رئيس أساقفة اليعاقبيين المتوفي سنة ٦٨٨ هـ كتابا قيما في التاريخ العام . ولم يقل اهتمام مؤرخي هذا العصر بتاريخ الأدب والعلوم عن اهتمامهم بالتاريخ السياسي أو التراجم المتنوعة ، فظهرت مؤلفات عديدة نخص منها بالذكر تاريخ العلماء الذي وضعه على القفطى الذي شمل جميع كتاب العلوم الطبيعية والفلسفية قبل وبعد الاسلام . ولد على القفطى بمدينة قفط بصعيد مصر عام ٥٦٨ هـ وأقام بمدينة حلب حتى سنة ٥٩٨ هـ وتولى هناك بعض الأعمال الادارية حتى وافته المنية سنة ٦٤٦ هـ ولم يمنعه اشتغاله بالأعمال العامة عن الدرس والتحصيل في شتى العلوم والآداب ، ويعتبر كتابه هذا من أهم المراجع التي لدينا لمعرفة مقدار ما نقله العرب عن اللغات الأجنبية وجمع ابن خلكان في موسوعته تراجم جميع مشاهير الاسلام في الأدب والسياسة . ولد ابن خلكان في أربلا سنة ٦٠٨ هـ وطلب العلم في حلب ودمشق ، وأسند اليه بعد ذلك منصب القضاء في مدينة القاهرة حيث بدأ بوضع كتابه المشهور ، إلا أنه اضطر الى ترك هذا العمل حين استدعى الى دمشق ليتقلد منصب كبير قضاة سوريا سنة ٦٥٩ هـ . انتهى

فى فلسفة الاخلاق

صلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

تواضع علماء الأخلاق الأقدمون على أن أصول الأخلاق كلها أربعة ، وهى :
الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة إذا أحكم تديرها وروعت شروطها ظفر الانسان
فى أدوار وجوده من الحياتين بالفوز الأ كبر . وقد أطبق علماء الأخلاق وعلماء
النفس على أن كل أصل من تلك الأصول الأربعة تنضوى تحته جزئيات متولدة عنه
هى فى واقع أمرها ملاك المجتمع وعماده ، وهى أسسه وعتاده . فالحكمة مثلا ينضوى
تحته الذكاء والتعقل ، وصفاء الذهن وسرعة الفهم وقوته ، والذكر وسهولة التعليم .
والحكمة هى العلم بالموجودات من حيث هى موجودة . وبالتالى العلم بالأموال اللاهوتية
ليكمل العلم بالحياتين : المعاش والمعاد . ومتى كان العلم برهانيا فلا سبيل الى الشك فى أن
ما يصدر عنه برهاني كذلك . فالذكاء وهو إحدى المنضويات تحت ما صدق الحكمة
هو سرعة انقذاح النتائج وسهولتها على النفس ، بحيث تكون مقدمات تلك النتائج
متصلة بالقضايا الصحيحة حملة كانت أو شرطية . والتعقل هو موافقة بحث النفس عن
الأشياء الموضوعة بقدر ما هى عليه . وصفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج
المطلوب ليكون سبيل الاستنتاج مستبيناً . وجوده الذهن أو قوته وحدته هى تأمل
النفس لما قد لزم عن المقدم بحيث إن وظيفة النفس تكون قائمة على تعرف قوة ما بين
التالى والمقدم من اللزوم . وسهولة التعلم هى حدة فى الفهم وصفاء فى النفس بها تدرك
الأموال النظرية . ثم يأتى دور الكلام عن المنضويات من الفضائل تحت فضيلة العفة
التي هى أصلها ومصدر وجودها : فهى الحياء والدعة والصبر والسخاء والحرية والقناعة
والدمانة والانتظام وحسن الهدى والمسألة والوقار والورع . فالحياء هو انحصار النفس
أو وقوفها عند حد معين مخافة إتيان القبائح حذار الذم والوقوع فى الناس على وجه

يطابق الواقع. والدعة هي سكون النفس عند حركة الشهوة المذلة، فإذا ما ثارت في النفس شهوة الانتقام أو التسلط أو الغلبة والظفر للجاء أو للمال أو للنفس ثورة تجاوز بصاحبها نقطة الهدف وحد الاعتدال، كان من الدعة الفل من غرب تلك النفوس الجائعة، وأن تقتل تلك الشهوة الثائرة في أنواعها المترامية في أطرافها. فالدعة أخص من العدالة، وهي نوع من الورع الذي يحبوه الله كثيرا من خاصة خلقه، فهي لا تفك عن الصبر على السكراته والمفزعات، وهي نوع من أنواع الرضا بالقضاء والقدر. والسخاء هو التوسط في الإعطاء، وهو أن ينفق المال فيما ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي. والحرية هي فضيلة للنفس بها يكتسب المال من وجهه ويعطى في وجهه، وتنع من اكتسابه من غير وجهه. والقناعة هي التساهل في المال كل والمشارب والزينة. وسنأتى على باقى المنصويات في فرصة أخرى.

وليست الأخلاق في حقيقة صورها المختلفة شيئا آخر غير جماع الخير وينبوع السعادات كلها. على أن كثيرا من علماء الأخلاق اختلفوا في تركيز الخلق أو تحوله اختلافا عظيما، فقال بعض الأقدمين منهم: إن الخلق خاص بالنفس غير الناطقة على معنى أنه غير قابل للتحويل والاتقال، والنفوس الناطقة من طبائعها أن تتحول وتنتقل بالقياس الى ما يعرض لها من تفاعل بما يقع تحت الحس والمشاهدات والعادات. ويذهب فريق منهم الى أن شيئا من الأخلاق ليس طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعي له، ذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق، فننتقل بالتأديب والمواظب البالغة إما سريعا أو بطيئا تبعا لقوة تفاعل النفوس أو ضعفها. وإن كان هذا الرأى الأخير هو المرضى لجمهرة من الأخلاقيين، وجرى عليه ابن حزم في مله ونحله، ونحانحوه الامام الغزالي، وتابعه كثير من السلف، واختاره (جالينوس) وحكاه ابن مسكويه عن إرسطاطليس. وحجة أصحاب هذا الرأى ما يقع لهم من مشاهدات مختلفة، وما يتفاعل به المجتمع من المشاهدات، وما يحيط بها من تطورات مختلفة وشتى الملبسات. ولأن الرأى

الأول من جهة أخرى يؤدي إلى إبطال وظيفة التمييز في العقل ، ثم إلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين ، ثم بالتالي ترك الأحداث والصبية وإلى ما يتفق أن يكونوا عليه دون سياسة ولا تعليم ، وهذا فضلا عن أنه ظاهر الشناعة والسخف جسد الظهور ، فهو من جهة أخرى يلقى بهذا الوجود وما فيه من مظاهر وما يحيط به من بواعث إلى قذفات الصدف وفروض الاتفاق ، ويحيل هذا المجتمع سوقا وضيفة من السلع تكون فيه الغلبة للقوى ، وتتحكم فيه أنواع من السلطان الظالمة مأخوذة بدواع من الشهوات في سائر مناحي الإنسان ، وهذا هو المعول الهادم لبناء هذا المجتمع . أما الرواقيون فيما ذهبوا إليه من شذوذ منقطع النظير ، وأما جماعة من المشائين وبعض آراء منسوبة إن صوابا وإن خطأ إلى (جالينوس) وأما ما ذهب إليه فريق من العندية وبعض فلاسفة الهند مما يتنافر مع النظريات السليمة التي تقوم عليها عمارة هذا الكون ، فوعدنا بتبيان ذلك كله والكشف عنه الأعداد التالية إن شاء الله

عباس ط

مجلة الأزهر

رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أن يغير اسم هذه المجلة ، فجعله (مجلة الأزهر) بدل (نور الاسلام) ، وهو عمل حكيم ، فإن في هذه التسمية الجديدة دلالة ذاتية على مصدر المجلة ، وبياناً لوجهتها وغايتها ، خلافاً للاسم القديم فإنه لا يفرق بينها وبين ما يصدره الأفراد من المجالات ، فتحتاج معها إلى التعريف والتمييز .

وقد ظهرت هذه المجلة من أول هذا العدد بهذا الاسم الجامع ، فنرجو الله أن يجعله فاتحة عهد جديد لها تنال فيه غاية ما قدر لها من ذبوع وانتشار ، وتؤدي للعالم الإسلامي كله ما يتطلع إليه من غذاء عقلي وروحي ، وما يرمى إليه من ثقافة عامة وارتقاء فكري .

محمد فريد وهدي

day : " O ye people " said he, " ye will estrange *men from the congregational prayer*; let the leader in prayer lighten it, for among the congregation are some who are sick, or weak, or have other duties. "

Translated by I. H. EI-MOUGY

فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمَئِذٍ ،
فَقَالَ : دَايِبُهَا النَّاسُ إِنْكُمْ مُتَفَرِّوْنَ
فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ
فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا
الْحَاجَةِ »

divorced his wives. ” “ No,” replied he. I then exclaimed : “ Allâh is greatest ! ” (1)

صلى الله عليه وسلم فقلتُ وَأَنَا قَائِمٌ :
أُطْلِقَتِ نِسَاءُكَ ؟ قَالَ : لَا ، فقلتُ :
اللهُ أَكْبَرُ !

CHAPTER 70.

On the anger shown by one exhorting or teaching, on perceiving something of which he disapproves.

1. We are informed by Muhammad b. Bathîr, who had it from Sufiân through Ibn Abu Khâlid, through Qais b. Abu Hâzim, through Abu Mas'ûd Al-Ansâri, who stated that :

A man (2) said : “ O Apostle of Allâh, I almost had to give up (3) the congregational prayer owing to the way in which a certain man (4) protracted it. ” I never saw the Prophet (Allâh bless him and give him peace) become more angry in an exhortation than he did on that

بَابُ الْغَضَبِ فِي الْمَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ

إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ :

حدثنا محمد بن كثير قال أخبرنا
سفيان عن ابن أبي خالد عن قيس بن
أبي حازم عن أبي مسعود الانصاري
قال :

قال رجلٌ : « يا رسول الله لا أكادُ
أذكرُ الصلاةَ ممَّا يُطوَّلُ بنا فلانٌ »
فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1) الله أكبر often used as an expression of surprise like “ Good Gracious ! ”. Umar here expresses his astonishment at Al-Ansâri having spread such a false rumour.

(2) Probably Hazm b. Abu Ka'b (Ibn Hajar).

(3) Or—“ I could not wait to the end ” (owing to physical weakness). See Al-Aini, Umdit-el-Qari, Muniriah Press, Cairo, vol. II, P. 106.

(4) i. e., Mu'âdh b. Jabal. The expression فلان is here used instead of the name in order that the complaint may be an impersonal one. ibid. P. 107

"I and a neighbour of mine who was one of the Ansâr were at the village of Bani-Umayyah b. Zaid, which is a part of the district of 'Awâli near Madinah. (1) We each took turns in going down to the Apostle of Allâh (Allah bless him and give him peace) he going down on one day and I on another. Whenever I went down I used to bring back to him the news of that day including Qur'anic revelations and other things. When he went down he did likewise. My friend the Ansari went down one day when it was his turn, and on returning he knocked at my door violently and asked if I was there. I was terrified and came out to him. He said: "Something serious hath happened". (2)

Umar (3) said: "I then went to see Hafsa and found her weeping. I asked her if the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had divorced them. "Not that I know of" replied she. At this I went to see the Prophet (Allâh bless him and give him peace), and without sitting down I asked him if he had

كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ
فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ
وَكَأَمَّا نَتَمَتَّأَوِبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَنْزِلُ يَوْمًا
وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ
بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ،
وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ
صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوَيْتُهُ
فَضْرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا فَقَالَ: أُمُّ
هُوَ؟ فَفَزَعْتُ فُخِرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ:
قَدْ حَدَّثَ أُمُّهُ عَظِيمٌ، قَالَ
فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ
تَبْكِي فَقُلْتُ: طَلَّقَكُنَّ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: لَا
أَدْرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ

(1) عوالى = Highlands i. e. the tableland overlooking Madinah from the East, From 3 to 8 miles distant from it.

(2) A rumour had gone abroad that the Prophet had divorced his wives, although as a matter of fact he had only left them temporarily.

(3) Hafsa's father.

Uqbah and the woman he had married also. Uqbah said to her : " I am not aware that thou suckledst me, nor didst thou ever tell me ". He then rode to the Apostle of Allāh (Allah bless him and give him peace) at Madīnah and put the question to him. The Apostle of Allāh (Allah bless him and give him peace) said : " How couldst thou consummate thy marriage with her after it had been said that thou wert her foster-brother?" Thereupon Uqbah put away his wife who married another husband. (1)

أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي زَوَّجَ بِهَا،
فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ : « مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ
أَرْضَعْتَنِي وَلَا أَخْبَرْتَنِي » فَرَكَبَ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ وَقَدْ
قِيلَ ؟ » فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ
زَوْجًا غَيْرَهُ .

CHAPTER 69.

On taking turns in the quest of Knowledge.

we are informed by Abu-l-Yamān who had it from Shu'ayb, through Az-Zukri; also Abu-'Abdullāh stated that he had it from Ibn Wahb, who received it from Yūnus, through Ibn Shihāb, through Ubaidullāh b. 'Abdullāh b. Abu Thawr, through 'Abdullāh b. 'Abbās, through 'Umar, who said :

بَابُ التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ :
حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ
عَنِ الزُّهْرِيِّ (ح) قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ
ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنَا يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ
عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ثَوْرٍ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ قَالَ :

(1) Two legal points arise from this hadith : first, that a woman may be admitted as single witness in cases where a man's evidence is not available or competent. Second, that association with the same foster-mother constitutes a prohibited degree of consanguinity in marriage.

prescribed alms, to keep the Ramadân fast, and to give the fifth part of the booty." He then forbade them *the use of* gourds, jars, and vessels smeared with pitch. ⁽³⁾

Shur'bah adds: " Perhaps he mentioned vats made from palmtrunks, and may have said " tarred " (instead of " smeared with pitch ").

Then the Prophet said : (Commit this to memory, and transmit it to those you have left behind you. ")

CHAPTER 68

On a journey undertaken *to obtain a decision* on a special case and to instruct one's people.

We are informed by Muhammad b. Muqâtil Abu-l-Hasan, who had it from Abdullâh, who was told it by 'Umar b. Sa'îd b. Abu Husain, who received it from Abdullâh b. Abu Mulaikah, through 'Uqbah b. Al-Harith that :

He had married a daughter of Abu Ihâb b. 'Aziz. A woman came to him and said that she had suckled

الله، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ،
وَصَوْمَ رَمَضَانَ، وَتَعْطُوا الْخُمْسَ
مِنَ الْمَغْنَمِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الدِّبَاءِ
وَالْحَنْثَمِ وَالْمَرْقَةِ، قَالَ شُعْبَةُ :
رُبَّمَا قَالَ النِّقِيرِ وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقْبِرِ .
قَالَ : أَحْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُمَنْ وَرَأَى كُمْ .

بَابُ الرَّحْلَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ النَّازِلَةِ
وَلَعَلِّمْ أَهْلَهُ :

حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن
قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا عمر
ابن سعيد بن أبي حسين قال حدثني عبد
الله بن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث :
أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةَ لَآبِي إِهَابِ بْنِ
عَزِيزٍ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : إِنِّي قَدْ

(1) Owing to the danger of intoxication arising from the rapid fermentation of juices contained in these vessels.

the Abdu-l-Qais visited the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said: "What is this deputation? (or what is this tribe?) They replied; "we are of the tribe of Rabi'hh. (1) " "Welcome to you, tribe! (or deputation!) who come without humiliation or regret. (2) " "We come to thee," replied they, from a distant region; and between us and thee there is that unbelieving tribe of Mudar, and so we can come to thee only during a sacred month. Therefore give us a commandment which we may transmit to those we have left behind us, and through which we may enter Paradise " He then commanded them to do four things and forbade them four things. He commanded them to believe in Allâh as being one (be He magnified and glorified). adding: "Do ye know what belief in Allâh as being one is?" "Allâh and His Apostle Know best," replied they. "It is," said he, "to testify that there is no deity but Allâh and that Muhammed is the Apostle of Allâh, to perform the appointed prayers, pay the

الْقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقَالَ: مَنْ الْوَقْدُ؟ (أَوْ مِنَ الْقَوْمِ؟)
قَالُوا: «رَبِيعَةٌ» فَقَالَ: مَرْحَبًا
بِالْقَوْمِ (أَوْ بِالْوَقْدِ) غَيْرَ خَزَايَا وَلَا
نَدَامَى، قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ
بَعِيدَةٍ وَيَبْنِنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْخَلْقُ
مِنْ كُفَّارٍ مُضَّرٍّ وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرِ حَرَامٍ، فَمَرَّنَا
بِأَمْرٍ نُنْخِزُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ
الْجَنَّةَ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاَهُمْ
عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ وَحَدُّهُ - قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ
مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحَدُّهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

(1) The 'Abdul-Qais are a branch of the clan Rabi'ah.

(2) i. e. without being constrained by the humiliation of defeat or by regret for the loss of opportunities to embrace Islâm. The Fact that they addressed the Prophet as *يا رسول الله* and referred to the Mudarites as *كفار* shows that they had already accepted Islâm.

it three times. Then it shall be said unto him : " Sleep in peace, for we now know that thou art indeed a true believer in him " As for the hypocrite - or the doubter (I do not know which of these words Asmâ used) , he shall say : (I do not know *what to say* ; " I have heard people say something and I have repeated it. "

CHAPTER 67.

On how the Prophet (Allâh bless him and give him peace) urged the deputation of *the tribe* of Abdul-Qais to preserve the Faith and the Knowledge, and to transmit them to those whom they had left behind ;

And on Mâlik b. Al-Huwairith having stated that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said to them : " Go back to your people and instruct them. "

We are informed by Muhammad b. Bash-shâr, who had it from Ghundar, to whom it was narrated by Shu-bah, through Abu Jamrah, who said :

I was *once* acting as interpreter between Ibn 'Abbas and the people, when he said that the deputation of

بِالْبَيْتَةِ وَالْهَدَىٰ فَاجِبْنَا وَاتَّبَعْنَا ،
هُوَ مُحَمَّدٌ - ثَلَاثًا ، فَيَقَالُ : نَمَّ صَالِحًا
قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ مُؤَقِّنًا بِهِ ،
وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ
(لَا أَدْرِي أَىِّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ)
فَيَقُولُ : لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ
يَقُولُونَ شَيْئًا فَقَاتَهُ .

بَابُ تَحْرِيطِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَفَدَّ عَبْدَ الْقَيْسِ عَلَى أَنْ يَحْفَظُوا
الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ وَيُنْخَبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ ،
وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ارْجِعُوا إِلَى
أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ » :

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا
غندر قال حدثنا شعبة عن أبي جرة قال :

كُنْتُ أُرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَبَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ إِنْ وَفَدَ عَبْدُ

it a sign of *Allah's wrath*. ? said I. She nodded her head as an answer in the affirmative I then stood up in prayer *behind the faithful* until I felt faint, so I began to pour water on my head.

After the prayer the Prophet (Allâh bless him and give him peace) praised,, and extolled Allâh (be He magnified & glorified) then said : ' There is nothing of what I have not been shown, but I have seen here and now, even Paradise and hell-fire It hath been revealed to me that ye shall be tried in your graves in the same way or nearly (I ⁽¹⁾ do not know which expression Asmâ used) as ye shall be tried *in the days of* the Antichrist. It shall, be said ⁽²⁾ unto each one of you: ' What dost thou know of this man ⁽³⁾ ? ' As for the true believer—or the faithful (I do not know which word Asmâ used), he shall say : ' It is Muhammad the Apostle of Allah, who came unto us with proofs of his mission and with the true Guidance. We accepted his message, and followed him. It is Muhammad the true believer shall say

السَّمَاءِ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ فَقَالَتْ :
سُبْحَانَ اللَّهِ ، قُلْتُ : آيَةٌ ، فَأَشَارَتْ
بِرَأْسِهَا أَيْ نَعَمْ ، فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّأَنِي
لِلْعَنَشِ فُجِعَلَتْ أَصْبُ عَلَى رَأْسِي
الْمَاءُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتَى عَلَيْهِ نَمَّ قَالَ :
وَمَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أَرَيْتُهُ إِلَّا
رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ،
فَأَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي
مُجُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبًا (لَا أَذْرِي
أَيُّ ذَلِكَ قَالَتْ أَنْسَاءُ) مِنْ فِتْنَةِ
الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ، يُقَالُ مَا عَلِمْتُكَ
بِهَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ
الْمُؤْمِنَةُ (لَا أَذْرِي بِأَيِّمَا قَالَتْ أَنْسَاءُ)
فَيَقُولُ : هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا

(1) Fâtimah who had it from Asmâ

(2) By the Angels of death Munkar and Nakir.

(3) The Prophet ; the Angels do not refer to him as such because they do not wish to prompt the dead man.

shaved my head before I slaughtered the victim." The Prophet signed with his hand indicating that there was no sin.

2 We are informed by Al-Makki b. Ibrahîm, who received it from Hamzah b. Abu Sufian, through Salim who heard it from Abu Hurairah, who had it from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said:

"Knowledge shall pass away,⁽¹⁾ and ignorance and tumult shall prevail, and *hari* ⁽²⁾ shall increase." The Apostle of Allah was asked what *hari* was, and replied by making a sign with his hand which he moved diagonally as if he meant killing.

3. We are informed by Mua b. Isma'il, who had it from Wuhaib, who was told it by Hisham, through Fatimah, through Asma, who said:

"I *once* went to 'A'ishah and found her praying. I said: What is the matter with the people?" ⁽³⁾ She pointed to the sky and muttered: Glory be to Allah', ⁽⁴⁾ and lo! the faithful were standing in prayer. 'Is

قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ : وَلَا حَرَجَ .

حدثنا المسكى بن ابراهيم قال
أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن سالم
قال سمعت أبا هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال :

« يُقْبَضُ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ ،
وَيَكْثُرُ الْهَرَجُ » قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ :
وَمَا الْهَرَجُ ؟ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ
فَحَرَفَهَا كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْقَتْلَ

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا
وهيب قال حدثنا هشام عن فاطمة عن
أسماء قالت :

أَتَيْتُ عَائِشَةَ وَهِيَ تُصَلِّي فَقُلْتُ :
مَا شَأْنُ النَّاسِ ؟ فَأَشَارَتْ إِلَى

(1) Owing to the death of the learned. (Ibn Hajar)

(2) Probably of Hebrew origin, through Ibn Hajar suggests Ethiopian,—meaning battle, tumult or slaughter.

(3) The people were in a state of panic owing to an eclipse of the sun, and were performing the prayers customary on such occasions.

(4) سبحان الله formula of apology used in an interrupted prayer, being "muttered" so as not to disturb it.

Prophet, " there is no sin ". Then there came up to him another who said : " I unwittingly slaughtered the victim before I threw the stones. " " Throw them " said the Prophet, " there is no sin ". So the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was never questioned as to whether anything should be done sooner or later but he answered : " Do so, there is no sin."

« اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ » فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ :
لَمْ أَشْعُرْ فَتَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ،
قَالَ : « اِرْمِ وَلَا حَرَجَ » فَمَا سَأَلَ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا
أُخِّرَ إِلَّا قَالَ : « افْعَلْ وَلَا حَرَجَ »

CHAPTER 66.

On one who giveth a fatwâ by a sign of the hand or the head.⁽¹⁾

1. We are informed by Mûsâ b. Isma'il, who had it from Wuhaib, who was told it by Ayyûb, through Ikrimah, through Ibn Abbas that :

the Prophet (Allah bless him and give him peace) was questioned on the occasion of his farewell pilgrimage by a man who said : " I slaughtered the victim before I threw the stones. " The Prophet gave a sign with his hand saying : " It is no sin . " Another man said : " I

بَابُ مَنْ أَجَابَ الْفَتْنَى بِإِشَارَةٍ
الْيَدِ وَالرَّأْسِ :

حدثنا موسى بن اسماعيل قال
حدثنا وهيب قال حدثنا أيوب عن
عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى
الله عليه وسلم سُئِلَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ :
ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ، فَأَوْ مَاءً يَدِهِ
قَالَ وَلَا حَرَجَ ، قَالَ : حَلَقْتُ

[1] Al- Bukhârî's practice is to proceed from the general to the particular; the title being a generalisation, of which the particular case given in the hadith is an illustration This explains why some heading are found without any following hadith.

“ While I was sleeping, a bowl of milk was brought me *in my dream* I drank until I did see the liquid flow from my finger-nails,⁽¹⁾ and then I gave the residue to ‘Umar b. Al-Khattâb. When they asked the Apostle of Allâh what interpretation he gave to it, he said : ‘ It is Knowledge.’ »

« يَمِنَا أَنَا نَأْتِمُ أَتَيْتُ بِقَدَحِ ابْنِ
فَشَرِبْتُ حَتَّى أَتَى لَأَرَى الرَّيَّ يَزْجُ
فِي أَظْفَارِي ، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، قَالُوا : فَمَا أَوْلَتْهُ
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْعِلْمَ »

CHAPTER 65.

On a fatwâ ⁽²⁾ given by one standing *on the back* of a mount or elsewhere.

We are informed by Ismaïl, who had it from Malik, through Ibn Shihab, through ‘Isa b. Tolhah b. ‘Ubaidullah, through ‘Abdullah b. ‘Amr b. Al-‘As that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) stood, on the occasion of the farewell pilgrimage at Mina, for the people to ask him questions. A man came up to him and said :

“ Unwittingly I shaved my head before I slaughtered *the victim* for sacrifice. “ Slaughter it ” said the

بَابُ الْمُتَنِيَا وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى الدَّابَّةِ
وغيرها :

حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك
عن ابن شهاب عن عيسى بن طلحة
ابن عبيد الله عن عبد الله بن عمرو بن
العاص : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِمْيَا
لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ ، فُجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : لَمْ
أَشْعُرُ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ ، فَقَالَ :

(2) Or preferably as a metaphor—I drank until I did feel satisfaction ooze from my finger-tips.

(2) A decision given on a matter of religious law or ritual.

Anas, who said: I will convey to you a hadith which no one will convey to you after me. (1) I heard the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) say:

“ Among the signs of the Hour is that Knowledge shall decrease and ignorance be diffused, that adultery shall be widespread, that women shall increase and men decrease until there shall be for fifty women one supporter. ”

« لَا حَدَّثَنَكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزَّنا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرَّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِحَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيمُ الْوَاحِدُ »

CHAPTER 64.

بَابُ فَضْلِ الْعِلْمِ:

On the excellence⁽²⁾ of Knowledge
We are informed by Sa'id b. 'Ufair, who had it from Al-Laith, who was told it by 'Uqail, through Ibn Shihāb, though Hamzah b. 'Abdullāh b. 'Umar that the last-named said that he heard the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) say :

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(1) i.e. I am the last of the Companions to have heard this utterance directly from the Prophet.

(2) The rendering of “ residue ” or “ excess ” given by some commentators is suggested by the expression used in this hadith *اعطيت فضلى*—I gave my residue to 'Umar. They base their contention on the fact that the title of the first Chapter of this book is the same (فضل العلم), and that, therefore, there would be no point in repeating the idea in a subsequent hadith. Al-Aini, however, considers that in the first chapter reference is to the merit of “ possessors of Knowledge ” but in this Chapter of “ Knowledge ” itself, especially as the Prophet himself interpreted *فضل* as “Knowledge”, indicating the “excellence” of Knowledge.

up the water at midday—instead of
 قَبِلَتِ الْمَاءَ —absorbs the water.

Al-Bukhâri defines قَاع as land
 which water covers *without remaining*
on it : and الْمُسْتَوِي as flat land. (1)

مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ

قَاعٌ يَعْلُوهُ الْمَاءُ ، وَالْمُسْتَوِي

الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ .

CHAPTER 63.

On the passing of Knowledge
 and the diffusion of ignorance ;

And the words of Rabî'ah : “ It
 is not right for one who possesseth
 any Knowledge to waste his life.” (2)

1. We are informed by 'Imrân
 b. Maisarah, who had it from 'Abdul-
 Wârith, through Abu-t-Tayyâh,
 through Anas, who stated that the
 Apostle of Allâh (Allâh bless him
 and give him peace) said :

“Among the signs of the Hour
 is that Knowledge shall pass away,
 and ignorance shall be established,(3)
 that wine shall be drunk *openly*, and
 adultery shall be widespread. ”

2. We are informed by Musaddad
 who had it from Yahyâ, through
 Shurbah, through Qatâdah, through

بَابُ رَفْعِ الْعِلْمِ وَظُهُورِ الْجَهْلِ،

وَقَالَ رَبِيعَةُ : لَا يَذْبَغِي لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَضَيِّعَ نَفْسَهُ :

حدثنا عمران بن ميسرة قال حدثنا

عبد الوارث عن أبي التياح عن أنس

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ

الْعِلْمُ ، وَيَنْتَبِثَ الْجَهْلُ ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ ،

وَيُظْهَرَ الزُّنَا .

حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن

شعبة عن قتادة عن أنس قال :

(1) Al-Bukhâri is in the habit of explaining corresponding expressions in the Qur-ân,
 namely مُقْتَضًى

(2) by failing to impart his knowledge.

(3) Or “ diffused ” according to Muslim

give him peace) who said :

“ The parable of the Guidance and the Knowledge that Allāh hath sent me *to preach* is that of the abundant rain which falleth on the land. Some of this land is fertile, and absorbeth the water so that it bringeth forth grass and herbs abundantly. Some of it is hard ⁽¹⁾ ground, and retaineth the water, so that Allāh turneth it to the use of men to drink, to water the cattle, and to grow crops. And some of it falleth on another kind which is only flat tableland that doth not catch the water nor bring forth plants. .

That is the parable of him who is enlightened in the Faith of Allāh, and of him who profiteth by that which I have been sent by Allāh *to preach* so that he acquireth Knowledge and imparteth it; and of him who is too proud to raise his head ⁽²⁾ to receive it; and of him who doth not accept the Guidance of Allāh which I was sent *to bring*. ⁽³⁾ According to Abu ‘Abdullāh (Al-Bukhari), Is-haq gives the variant وكان منها طائفة قبلت الماء one kind of it sucks

مُرَدَّة عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : -

« مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى
وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ
أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيعٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ
فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْمُشْبَّاتِ الْكَثِيرَ ،
وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ
فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا
وَزَرَعُوا ؛ وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ
آخَرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ
مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا ،

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَعَلَهُ فِي دِينِ اللَّهِ
وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ،
وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا
وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ .
قال أبو عبد الله قال اسحق : « وَكَانَ

(1) i.e. non-porous.

(2) Or—turned away from it. The reference here is to Muslims who do not trouble to receive the teachings of Islām or to impart them.

(3) These are the people who are called to Islām but reject it. [Al-Qastallāni].

No—replied Moses. But Allâh (be He magnified and glorified) revealed to Moses the word:— Yea, it is Our servant Khadir.—Then Moses asked the way to meet him, and Allâh set the fish as a sign unto Moses, and it was said to him:—When thou locest the fish, return, for then thou shalt meet him.

So Moses (Allâh bless him) followed the track of the fish in the sea, and then his attendant said to him:— Behold ! when we took shelter by the rock, I forgot about the fish, and it was only Satan that made me forget to mention it to thee. — That is what we were looking for. — said Moses. '

Thereupon they went back retracing their footsteps ; they found Khadir. and there happened to them what Allâh hath related in his Book."

CHAPTER 62.

On the merit of him who hath acquired Knowledge and imparteth it.

We are informed by Muhammad b. Al-*Alâ* who had it from Hammâd b. Usâmah, through Buraïd b. *Abdullâh*, through Abu Mûsa, from the Prophet (Allâh bless him and

إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ السَّمِيلَ إِلَى لُقَيْمِهِ فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْخُحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ إِذَا فَقَدْتَ الْخُحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، فَمَكَانَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْخُحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ قَتَى مُوسَى لِمُوسَى: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْفَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُحُوتَ وَمَا أَنَا بِنَبِيِّهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ.» قَالَ مُوسَى: «ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْتَغِي» فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ.

بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ :

حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبي

CHAPTER 59.

On setting out in search of Knowledge ; and how Jābir b. ʿAbdullāh made a month's journey to ʿAbdullāh b. Unais for the sake of a single hadīth.

We are informed by Abu-l-Qasim Khālid b. Khaliyy, who had it from Muhammad b. Harb, who stated that Al-Awzā'i received it from Az-Zuhri, through ʿUbaidullāh b. ʿAbdullāh b. ʿUtbah b. Masʿūd, through Ibn ʿAbbās that :

he and Al-Hurr b. Qais b. Hisn Al-Fazāri were debating about the companion of Moses, when Ubayy b. Ka'b passed by them, and Ibn ʿAbbās called him and said: "I and my friend here have been arguing about the companion of Moses, regarding the way to meet whom the latter inquired. Hast thou heard the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) mention his story ? " " Yes " replied Ubayy, I have heard the Prophet (Allāh bless him and give him peace) say: 'While Moses was in a company of Israelite notables, there came a man who said to him Dost thou know anyone more learned than thyself ? -

بَابُ الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَسِيرَةَ
شَهْرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ فِي حَدِيثٍ
وَاحِدٍ :
حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ خَالِدُ بْنُ خَلِيٍّ
قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ قَالَ
الْأَوْزَاعِيُّ أَخْبَرَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عُبَيْدِ
اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ
قَيْسِ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي صَاحِبِ
مُوسَى فَمَرَّ بِهِمَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ فَدَعَاهُ
ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ : إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا
وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى
الَّذِي سَأَلَ السَّيِّدَ إِلَى لُقَيْمِهِ ، هَلْ
سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ فَقَالَ أَبِي : نَعَمْ سَمِعْتُ
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ شَأْنَهُ
يَقُولُ : « بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامي في العالم

٢٣

دعوته الى العمل على إقامة العمران في الارض

يسوغ للباحث في الاسلام أن يلقيه بدين العمران ، فانه ماحل بأمة لإدفعها الى إقامة صرح العمران دفعا ، بهيئة أسبابه لها من العلم والعمل والتفكير ، وتعبيد سبيلها اليه من الحث على إحياء الموات ، وإقامة المنقض ، والإشادة بذكر الحياة الطيبة ، والجنات المعجبة ، والمياه الجارية ، والبركات المتواترة ، جزاء للقائمين على سنته في الحياة الدنيا ، يعجله لهم فيها ، ويعدم إذا انقلبوا الى ربهم بحياة أرفع منها ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كل هذا وهو جار على طريقته من الجمع بين البسطين : بسطة الروح وبسطة الجسم ، والتوفيق بين السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

ما كاد النبي صلى الله عليه وسلم ينتقل الى الرفيق الأعلى حتى انتدب المسلمون لتحقيق موعود الله من إعلاء كلمة الله في الأرض ، فانساحوا فيها لا عادين على أهلها ولكن داعين لهم الى الحق ، ولا هادمين لما شيدوه ولكن مكمليه وموجهيه الى وجهة الخير المحض ، تالين على العالم قوله تعالى : « يأيتها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

فما كانت إلا كومضة برق ، كما قال مؤرخو الغرب أنفسهم ، حتى انتهى المسلمون الى الصين ، وما لبثوا بعدها غير قليل حتى عمت دعوتهم القارات الخمس ، وانفتحت أمامها أبواب العالم التي كانت مؤصدة ، فسرت في أممها كافة روح لم تكن فيهم من قبل ، وكأنها كانت مندفعة في تهور فوقفت حيث تتسمع لتلك الصيحة التي رددت أصداءها بقاع الأرض .

وما هي إلا سنون معدودة حتى نبض عرق الحياة في الشام ومصر وكانتا جثتين هامدين تحت برائن الرومان ، ثم تلتهما العراق وفارس وكانتا تحت سلطان أهلها هيكلين عظميين لم يبق فيهما غير ذماء يوشك أن ينضب فتصبحا هشيما تذروه الرياح ، ثم ما لبثت الممالك القائمة بين فارس والصين والهند وسيبيريا أن أفاقت من غيبوبتها الطويلة ، وأدركت أن لها وجودا وأنها يجب أن تحيا حياة جديدة .

ثم ما كاد يفتح طارق بن زياد الأندلس وينشر فيها روح الحياة حتى تنهت الممالك الأوربية لما هي فيه من الخلافات المذهبية ، والحروب الجاهلية ، والجهالة المستحكمة ، فأخذت تنسم نسمات ذلك العالم الجديد ، وتعشو الى ضوئه وتستفيد من جواره .

كل هذه الأمم التي كانت كالجثث المصبرة ، أو الأجساد المسخرة ، هبت تتلمس الحياة وال عمران ، متأسية بما كانت تراه وتسمع به من أثر الاسلام في أهله ، من تمصير الأمصار ، وإشادة البلدان ، وتعبيد الطرق ، وإحياء الموات ، وتسهيل الاتصالات ، وإقامة المباني ، وتنشيط التجارات ، وبعث الصناعات ، واستخراج المعادن ، وبناء المستشفيات ودور العلم وبيوت الحكمة ، وتأسيس المكتبات وترجمة المؤلفات .

هذه الحركة المحيية التي كان مشارها بلاد المسلمين وصلت الى ما يجاورها من البلدان ومنهم الى من يليهم ، حتى عمت المعمور ، وتولد منها ما فيه العالم اليوم من علم ومدنية . ولولا أنه قد سبق لنا الاستشهاد بأقوال المؤرخين في هذه المواطن لأتينا على الشيء

الكثير منها، فلندعها طلبا للإيجاز راجين القراء أن يراجعوا ما كتبناه هنا تحت هذا العنوان .

فهل كانت هذه الحركة من النهوض العالمى العام بباعث من الاسلام ؟ إذا كان الأمر كذلك فما هى الآيات الدالة عليها من الكتاب ، والدلالات القاطعة عليها من الآثار ؟

قال الله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا (أى وأرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا) قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . » فى هذه الآية الكريمة حث على العمران وامتنان من الله على عباده بإيتائهم القدرة عليه . قال العلامة البيضاوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « واستعمركم فيها » : أى أقدركم على عمارتها وأمركم بها .

وقد أكرم الله تعالى فى آيات كثيرة من الكتاب شأن العمران ووصى المسلمين بأن يحافظوا عليه ، ويُعَنُوا به فقال جل وعز : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » ووصف الله الفاسقين فقال : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » . وعرف ألد خصوم الحق فى آية كريمة ، فذكر أن من أخلاقه : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد فى الكتاب الكريم من الآيات الناهية عن الفساد فى الأرض لاستوعبت صحفا كثيرة ، فلنكتف بما ذكرنا فان فيه لبلاغا للمتوسمين .

نعم إن الفساد ليس خاصا بالعمران ، فانه يشمل كل ضروب الأعمال التى توجب التصديق فى بناء الاجتماع ، والاضطراب فى نظام المعاملات ، والإخلال بالأمن ، والعدوان

على الضعفاء الخ، ولكن مما يندرج فى معناه هدم المباني وتحطيم المعالم، وتخريب المدائن، وإهلاك الحرث والنسل .

ومما يدل على أن الله تعالى يعتد بكل ذلك، امتنانه على بنى سبأ من اليمن بما وفقهم اليه من تشييد القرى والإكثار منها، والإشارة الى ما أسدى بعض القرى من بركاته فقال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها (قرى الشام) قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » فهذا نص صريح فى الإشادة بذكر العمران والتنبيه على أنه من فضل الله على عباده الصالحين . ومما يناسب هذا المقام قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حَظٍّ وأثْل وشئء من سدر قليل . ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » وفى هذه الآية إشارة من الحق سبحانه بأن الخصب والبركة وخفض العيش آية من آياته تستدعى الشكر لو اهبها . وفيها تنويه بالبلدة الطيبة إيذانا بأنها من النعم التى تجب المحافظة عليها والاعتداد بها . ثم انظر كيف أن الله جعل جزاء أهلها حين أعرضوا عن محابه وأقبلوا على مسكارهه أن أبدلهم بالخصب والتماء وبالبلدة الطيبة الحافلة بوسائل العمران ، أطلالا دارسة ، وبيئة لا تثمر لهم غير النباتات الجشبة . فكما جعل الخصب والعمران من النعم التى يجب استدامتها ، جعل القحولة والخراب من النقم التى يجب تجنبها .

ولفت الحق سبحانه وتعالى الناس الى أنه لا يهلك القرى لأنه يكره أشيعته التوسع فى العمران ، ولكنه يهلكها لحيد أهلها عن الصراط السوى وإسرافهم على أنفسهم ، واستخدام وسائل المتع المشروعة التى فتحتها عليهم فى الاستمتاع فى الشهوات ، فقال تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد بين الله تعالى فى موطن آخر أن العلة الحقيقية فى إهلاك القرى وإزالة

عمرانها ما جناها أهلها على أنفسهم من ناحية آدابهم وأخلاقهم، وأنه جل وعز أعذر اليهم بالنصح وإرسال النذر لعلمهم يشوبون الى رشدهم، فقال سبحانه: «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» .

فانظر كيف يشير الله تعالى الى أن أهول المساكن بسكانها، وحفوها بأهلها، من النعم التي يجب أن تستبقى بالقيام بحقها، وأن ما يناقض هذه الحالة من إقواء الدور من قطنها، وإفقارها من أصحابها، سببه البطر، والبطر فى هذا الموطن الاستخفاف بالنعمة وعدم الاعتداد بها .

ومن أقطع الدلائل على اعتداد الاسلام بالعمران وإكباره لشأنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى أصحابه حين يبعثهم للغزو عن هدم الدور وإحراق الزروع، إلا ما تقضى به حاجة حربية ماجة . وليس بعد هذا فيما نظن مرمى فى الاعتداد بالعمران، وفى الاحتفال بأمره .

بهذه الروح الكريمة انساح المسلمون فى الأرض فروا على مدن وأمصار وقرى لا تدخل تحت حصر فلم يمسوها بسوء، بل زادوا فى عمرانها، وأمروا بإشادة أمثالها، وعرفوا أن العمران لا يقوم إلا بحافز من الخصب، فعملوا على إحياء موات الأرض . ولما استتب لهم الأمر أمروا بترجمة الكتب اليونانية والسريانية والهندية فى الزراعة والعمارة وطبقوها على العمل . ولما كان لا يقوم العمران بلا صناعة تؤاتيه بالحاجات الضرورية له، لم يدعوا صناعة من الصناعات التي صادفوها فى البلاد المختلفة إلا تعلموها وحذقوها، وزادوها تحسينا وارتقاء .

وبما أن الصناعة فى حاجة مستمرة الى المواد الأولية فلم يقصروا فى هذه السبيل، فاحتفروا الأرض واستخرجوا كنوزها المعدنية، وأسسوا المصانع لسبكها وصنمها،

وكل هذا يحتاج الى إلمام شامل بالعلم الطبيعى ، فلم يَنُؤا فى تدارسه وتفهمه ونقل كتيبه القديمة الى العربية ، وبالغوا فى دراسة الجواهر وصفاتها ومميزاتها وكيفية تحليلها وتركيبها ، ووضعوا لذلك علما سموه بالكيمياء ، وعنه أخذ المعاصرون باسمه العربى . ولما كان هذا لا يغنى إلا بالتوسع فى العلوم الرياضية فقد تبسطوا فيها الى أبعد مما وصل اليه الكلدانيون واليونانيون القدماء والفرس ، حتى أدام التبجر فيها الى ابتكار علم جديد فيها سموه علم الجبر . وقد أخذ الأوربيون عنهم بهذا الاسم العربى .

لم يدع المسلمون علما ولا فنا ولا صناعة ولا ذريعة لتكميل صرح العمران إلا أخذوا بها وزادوها بجهودهم رقىا ، ولم تمض عليهم مئتا سنة حتى كانوا فى كل ناحية من نواحي النشاط العقلى والعملى أئمة يرجع الناس اليهم فيها . فلم يكونوا مجرد فاتحين ولكنهم كانوا معلمين ومصلحين أيضا . نزلوا الشام فعمرُوا مدنها ، وأحيوا مواتها ، وجعلوا عواصمها عواصم العلم والحكمة . وامتلكوا مصر فنشروا فيها العدل والإنصاف ، ورفقوا صنائعها وجعلوها تنافس أرقى الممالك الأرضية . وتولوا العراق وكان قبلهم تابعا للفرس ، فنقلوا إليه عاصمة الدولة ، فأبغوه الى مكانة من السؤدد لم يكن له حتى فى زمن الآشوريين والبابليين ، فكانت عاصمته بغداد سيدة العواصم كلها علما وصناعة ومدنية ، فاكتمت بالسكان حتى بلغوا فيها الى مليونى نسمة ، وهو عدد لم يسمع به فى بلد سواها حتى ولا أتينية ورومية فى إبان عزها وحضارتها التاريخية .

واجتازوا الأندلس فأسسوا فيها دولة كان لها الأثر البعيد فى نشر الثقافة العلمية حتى أصبحت جامعاتها تهب النور لمن يطلبه منها ولو كان أجنبيا عن الاسلام لا يمت الى دولته بأقل صلة . فكثرت فيها الطلاب الأوربيون يعبون من ممينها الصافى ، ويعودون الى بلادهم ينشرون العلم والمدنية . وكان ممن تعلم فيها سلفستر الذى تولى البابوية الرومانية . وقد بلغ من علو كعب الأندلس فى العمران والمدنية أن ملوك أوربا كانوا يقصدونها

للاستشفاء على أيدي أطبائها، فيقابلون بالكرام، ثم يعودون الى بلادهم مشيدين بذكر الحضارة الاسلامية.

وقد أثرت مدينة المسلمين في الأوربيين تأثيرا عميقا، حتى إنهم نقلوا كتب ابن رشد وابن زهر وابن سينا وغيرها الى لغاتهم وأخذوا يتدارسونها، فكانت سببا في إنهاضهم وهم في ليل دامس من الحكم المطلق، فهبوا يتطلبون الحياة تأثرين على نظمهم الجائرة، مجازفين بحياتهم في سبيل الحياة والحرية. فدام التنازع بينهم وبين الآخذين بمخنفهم قرونا حتى تم لهم النصر عليهم في القرن السادس عشر، فكان العهد الذي يسمونه عهد البعث الذي سبق عهد المدنية الأوروبية الحاضرة. فهذه المدنية التي فتنت العالم اليوم بعلومها وفنونها وصنائعها مدينة للمسلمين بوجودها كما رأيت، وكما يعترف به مؤرخوها في مؤلفاتهم المتداولة. وقد نقلنا الشيء الكثير من ذلك في مقالاتنا الماضية. فالفتوح الاسلامية لم تكن في حقيقتها إلا صوت الحق ينبه الغافلين، ويوقظ النائمين، ويستحثهم الحاكمين والمحكومين، الى تماس الحياة الصحيحة، والخروج مما هم فيه من التقاليد الموبقة، والرسوم المردية.

وقد أنجح الاسلام في تحمل هذه التبعة الى حد بعيد، فأحدث في العالم دويا امتاز به دون سائر الفتوح العالمية. فكان من أثره الخير العمم، بخلاف تلك الفتوح، فقد خلفت وراءها الخراب والدمار، حتى إنها أفنت أئما برمتها تحت كلال اضطهادات يقشعر لقرائها جلد الانسان.

أفلا يستحق بعد هذا البيان أن يلقب الاسلام بدين العمران، العمران العالمي

محمد فريد وجدي

العالم؟

النفس

سورة الرعد

- ٦ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَرَقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيَنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) « قد بينت الآيات السابقة أن الانسان في هذه الحياة محاط بعلمه تعالى ونفوذ قدرته، فلا يخفى عليه تعالى من أمره شيء: « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار »، ولا يفلت منه شيء، بل « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ». وقد سبق في العدد الماضي تفسير ذلك وما قاله فيه أئمة التفسير. وترى في هذه الآية الشريفة التي نحن بصددھا تقرير القاعدة الاجتماعية، وشرح القانون الإلهي الذي ارتضاه جل وعلا لسير هذا العالم الانساني في حياته التي اختارھا له عز وجل. فالانسان مع إحاطة علم الله بكل ما ظهر وخفي من شئونه، ومع خضوعه لأحكام القضاء والقدر المتسلطين عليه تسلطهما على كل عالم

من العوالم ، قد منحه عز وجل نوعا من الاختيار في أعماله ، وإطلاق التصرف ، يصنع ما يريد ويفعل ما يختار ، ولكن في دائرة لا تتجاوز علم الله وإرادته ، فهو يعمد الى اختيار ما يحلوه ويطيب في نفسه ويغلب عليه الميل اليه من خير أو شر حسب ما وهبه الله من قوة الارادة والاختيار ، ولكن ما يختاره في مستقبله ويميل اليه بإرادته ومشئته قد علمه عز وجل منه وأراد في الأزل ، وأراد أن يفعله باختياره ومحض إرادته ، لا أن يفعله مرغما مكرها مقهورا مجبرا : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . فإرادة الله الأزلية وعلمه الأزلي لم يخل باختياره ولم يسلب عنه مشيئته ، بل قد حققها . فإله قد أراد منه أن يفعل باختياره ، فحال أن يفعل مكرها ، وإلا لم يتحقق ما أراد الله من أن العبد يفعل بإرادته واختياره ، ولم يتحقق معنى (تشاءون) في قوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » فإرادة الله وعلمه الأزيان لا إخلال فيهما بإرادة العبد ومشئته ، بل هما محققان لها .

ولقد أبدع جل وعلا فيما سنه للانسان من نظامه الاجتماعي ، فربط المسببات بأسبابها ، وهده النجدين طريقى الخير والشر ، ونصب لكل منهما مغريات وبواعث تدعو اليه ، فأودع فيه الميل للشهوات ، واختلاس الفرص وحب الذات ، وأشرب نفسه الميل للعلى الغير وحب الانفراد بالطيبات ، مما يكون مدعاة للأناية والاستئثار ، وأعطاه من سلاح القوة ما يستطيع به التغلب على مزاحمه ومنافسه ، فتطغى بذلك فيه قوة الشهوة والغضب والأناية والأثرة ، ويميل الى الظلم والاستهتار والخلاعة والمجون .

ولكنه لم يدعه لهذه المهلكات تفتك به وتشقيه ، وتجعل حياته تعسة بما يتفشى فيه من تناحر وتطاحن ، وبما يوهن من عزيمته من خلود الى الدعة والراحة واستغراق في الشهوات واللذائذ ، بل عصمه أولاً بنعمة العقل والتمييز والإدراك ، حتى يبصر عاقبة كل فعل حلا مبدؤه وخبيث عاقبته ، فيعتبر ويزدجر بما مر عليه من تجارب ، وأمدّه نانيا بنعمة الشرائع تنزل من لدنه جل وعلا رحمة بالناس ، فتعين العقل على مغالبة العواطف التى تنتابه فتطمسه .

وقد جاءت الشرائع لسعادة الناس مناسبة لحالهم في كل عصر وأوان ، حتى كمل الانسان واستعد لتلقى أعظم وأدوم شريعة جامعة لمصلحته في كل طور وكل عصر ، وكفيلة بسعادته في الدنيا والآخرة ، ومنظمة لعلاقته بربه على أكل الوجوه وأتمها ، ومنظمة لعلاقة أفرادها بعضها ببعض ، سواء في الاجتماع الملاصق القريب وهو باب الأحوال الشخصية ، أو في المجتمع البعيد على اختلاف مراتب البعد من السياسة المدنية كالعاملات والحدود ، والسياسات الدولية كالمحالفات والعهود ، وصون كل أمة حياتها وحمايتها مصالحها .

جاءت الشريعة موقظة للعقل ، هادية له الى سبيل الخير ، مرشدة الى ما ينبغي عمله وما ينبغي تركه ، ببيان عاقبة كل فعل من خير أو شر ، حتى يتقوى سلطان العقل على سلطان الهوى ، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فجاء في الشريعة الغراء قصص الأمم الماضية وما انتابها وحقا بها من سوء أعمالها ، وعسد بالتفصيل ما أنعم الله به عليها وما مكن لها في ملكه ، وشرح ما أصابها حين استغرقت في لذائذها وشهواتها ، أو غلب عليها الغرور وانغمست في الشرور بطغيانها . كل ذلك جاء تفصيلا في غير ما آية من الكتاب العزيز ، ليكسر من حدة اعتداد الانسان بنفسه ، وتماديه في غروره ، ونسيانه أن الاعتدال في كل شيء هو مصدر بقاء بنيان الكون ، وأن الميل هو سبب التهدم والانهار .

وجاءت هذه الآية الكريمة جامعة لما تفرق في كثير غيرها من الآيات والعظات ، فهي من أجمع جوامع الكلم ، فقال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أجل حقا وصدقا : لقد جرت عادة الله في الأقوام والأمم أن من سلك للحياة سبيلها القويم ، ودأب على مراعاة قوانينها المنظمة ، فإنه إن كان في أول أمره في فقر وعدم فإن دأبه في عمله الصالح وجدّه في تحصيل خيرات الله التي وعدّها لمن أحسن عملا ، سيغيره به الله من فقر وعدم ومن وحدة ووحشة ، الى يسار وغنى ، الى عمران وكثرة ، الى راحة وهناءة .

انظر الى الأمم تبدأ بالبداءة والوحشية فتستمرى طعم العمل والجدة ، فلا تلبث أن تغدق عليها الخيرات والنعم . فإذا ما استمرت في سلوك هذا السبيل كانت كل يوم تزداد نموا ورغدا ، وهكذا حتى يدال لها على غيرها وتصبح في عز ومنعة ، فتصلح لأن تسود غيرها ، ويمكن الله لها في ملكه حتى تصبح مهممنة على كل أمة تتصل بها من لم يجد جدها ولم يسكد كدها ، ولم يرع قانون الاعتدال في أحواله مثلها . فإذا ما طغت تلك الأمة وحادت عن الجادة ، واستمرأت مرعى الشهوات الوخيم ، واستنامت للراحة والكسل ، وانغمست في اللذائذ التي تأكل الهم وتبرد العزائم ، وتميت الرجولة وتذيب النفوس ، ضاعت منعها ، واضمحلت حياتها ، وذهب ريمحها ، وأبدل بها الله من هو خير منها في استعمار الأرض والسيطرة على الحياة . وذلك ما ذكره الكثير في تفسير قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

ومثل الاسترسال في الشهوات ، الاندفاع في الطغیان ، والتمرد على بنى الانسان ، والمجافاة لقانون العدل والای نصاب ، والتمادى فى اغتيال الحقوق ، والاستئثار بالثمرات والخيرات اعتمادا على القدرة وقوة البطش . فهذا أيضا باب من أبواب الهلاك والدمار ، فإن أقرب نتائج انصراف هم العاملين المغلوبين عن استعمار الأرض واستثمارها ، فيعم الخراب القوى والضعيف ، وينزل مقت الله على الجميع .

وهكذا تجد الآية السكرية مقرررة هذه القاعدة الاجتماعية الصادقة ، وهى أن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغييرهم ما بأنفسهم من خير الى شر أو من شر الى خير ، وما كان الذى ذكرناه إلا أمثالا جزئية لما ينطوى تحت هذه القاعدة الشاملة الكلية .

تنقل بنظرك حيث شئت فى أم حاضرة تشاهدها ، أو ماضية تقرأ أخبارها ، تجد القاعدة مطردة ، وتجد نظام الكون دائم السير على نظام واحد ، لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين أمة وأمة ، وأن كل شىء قد ارتبط بسببه ارتباطا محكما لا يؤثر فيه غيره ،

وليس بلازم إذا رقت أمة في شيء أن ترقى في كل شيء ، ولا إذا انحطت في شيء أن تنحط في كل شيء ، وإنما اللازم أن ما وضعه الله عز وجل من ارتباط شأن من شئون الحياة بشأن آخر منها ، قد أحكم نظامه ، وأوثق رباطه فلا يُخلف من اتبعه ، سواء أكان من أبواب الخير أم من أبواب الشر .

لا تجد أمة جدت في إتقان صناعتها وضاعت عليها ثمرة إتقانها ، ولا أمة اجتهدت في ترقية زراعتها وخيب الله سعيها أو أخلفها خيرها وميرها ، ولا أمة هذبت أخلاقها وقوت خلق الصدق والأمانة بين أفرادها ، وكافأها الله على ذلك بضياح الثقة والطمانينة بين أفرادها بعضهم مع بعض ، أو ضاعت الثقة بها عند الأمم الأخرى المجاورة لها العارفة بأحوالها ، سواء أكانت فيما بينها وبين ربها قائمة بحقوق العبادة أم أخلت بشيء منها . ومن ذا الذي يقول إن أمة غلبت عليها شقوتها واستحوذت على عقولها شهوتها وأخذلت إلى السكينة والراحة واستعذبت الكسل واستمرأنه ثم اكتفت بأن قامت بمراسم العبادة قياما صوريا لم يتغلغل إلى قلوبها ، ولم يملك عليها وجدانها ملكا يضبط جوارحها ويهذب من أخلاقها ويبعدها عن مغاضب الله في الصدق والأمانة ، تكون هي الخاتمة للسيطرة على هذه الحياة ، وتمتلك التصرف في رقاب العباد ؟ لا ، لا :

فلا تطل ذكر المني فالمني رءوس أموال المقاليس

إن لكل طريق غاية يوصل إليها ، ولكل عمل ثمرة منتظرة منه ، ولكل خلق فائدة تترتب عليه ، ولكل سبب مسبب منوط به « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لا فرق في ذلك بين خيرات الدنيا والآخرة وشُرور الدنيا والآخرة ، فمن قام بعبادة ربه وأدى طاعته فقد سلم مما أعده الله للعصاة في الدار الآخرة . ولكن هل إذا أضاف إلى ذلك التواني والكسل وإهمال العمل ، تنال عليه أمطار الرزق وينهمر عليه غيث الخير ؟ لا ، لا ، كلا وألف كلا ! فكل مسبب مرتبط بسببه . بل إذا قال قائل إن ثمرة الإيمان الصحيح هو أن يتبع المؤمن ماسنه الله خلقه

من مراعاة حكمته في استخلافه لبني الانسان في أرضه ، يستعمرونها ويستثمرونها ، بما وهبهم من قوة ، وبما مكن لهم في الأرض ، وبما قال لهم في كتابه العزيز : « خاق لكم ما في الأرض جميعا » أقول : إذا قال قائل إن هذا من ثمرات الايمان الصحيح ، لم يكن في قوله بعيدا عن الصواب . فكلما أنك تقول : إن من قام بإتقان عمله التجارى ربح ولا يلزم أن تصح زراعته ؛ ومن قام باصلاح زراعته جنى ثماره ، وليس بلازم أن يحسن إدارة التجارة ؛ ومن حذق أساليب الصناعة ارتقت أعماله الصناعية وإن كان أجهل الناس بالزراعة والتجارة ، وهلم جرا ، فقل كذلك إن من حذق أسباب العمران ارتقى العمران على يديه ، ومن قام بواجب الدين أنابه الله في آخرته ، ومن أتقن الأمرين معا أحرز السعادتين ، ومن أهملهما معا خسر الصفتين ، ومن كان في حال ثم تبدل بها غيرها فقد أحرز نتيجه شرها أو خيرها « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لا فرق في الشر بين ما في الدنيا وما في الآخرة .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس وإن العدل الإلهى لعدل مطلق لا ينبغي أن ينتظر فيه أن يتعب امرؤ أو أمة ويجد ويكد ثم هو مع ذلك يحرم من الثمرات ، بينما آخر قد استنم وأخذ الى الدعة والكسل ثم هو مع ذلك يفوز . كلا كلا ! إنما ذلك يجرى فيما بين العباد عن ظلم واعتساف ، فإذا ما استمر ذلك في قوم وساد بينهم الظلم ولم يجدوا من يضع لهم حدا ينقذ الأمة من وخيم عواقبه ، فقد غيروا ما بأنفسهم ، فلا يلبثون أن يحل بهم من الخراب ما يحقق قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولا تنس أن الآية تقرر قاعدة اجتماعية أى حكما يتعلق بالانسان من حيث يجتمع هو وغيره في شئون الحياة ، يرشدك الى ذلك التعبير بلفظ قوم دون أحد أو انسان أو امرئ أو نحو ذلك ، فلا يقال : قد نرى رجلا صالحا قام بعمل واجتاحتته جائحة أو ما يشبه ذلك ، لأن هذه الأحوال على ندرتها ليست من أحكام الاجتماع العامة ، وإنما هي من الحوادث التى يريد الله لحكم قد نعلمها وقد لا نعلمها ، والله عليم حكيم .

وبعد : فان مضمون هذه الآية الكريمة لو فرض أنها لم ترد في كتاب الله الذي لم يفرط فيه من شيء ، لحق على الناس أن يفهموه من مشاهداتهم للأُمم المحيطة بهم ، بل من النظر في أحوالهم أنفسهم من ماض وحاضر ، فلا تكاد تجد أمة إلا وقد مرت بها أدوار انحطاط وارتفاع ، وانحلال وتماسك ، وكل ذلك تابع لما أصيبوا به أو دفعوا له من عوامل بقاء أو فناء ، وسعادة أو شقاء .

ومن ذا الذي يخفى عليه أدوار مصر في ارتفاعها وانخفاضها ، والعوامل التي أوجبت ذلك بحسب ما تعاقب عليها من أنواع الحكم الذي هو أكبر عامل في تكييف الأُمم ؟ بل نرى بأعيننا بعض قرى تعاقبت عليها أحوال متناقضة حسبما وقع فيه أهلها من عوامل الفناء أو البقاء .

لا أنسى بلدة رأيته قد امتازت في تنوع مزروعاتها واختيار أرق أصناف الزراعة التي تحتاج الى دقة وتنتج خيرا وفيرا ، فسألت عن سبب امتيازها بين جاراتها بهذه الأنواع ، ف قيل لي إن هذه البلدة قريبة من المدينة عاصمة المديرية كما ترى ، فكان ذلك مدعاة لا غواء أبنائها وتلهيهم بملاهيها ، وإسرافهم على أنفسهم في شهواتهم ، فلم يلبثوا أن ركبهم الديون حتى اكتسحتهم من أملاكهم وأصبحوا فيها غرباء ، فأشرفوا على الفاقة المهلكة وانزعت منهم أملاكهم للدائنين ، فأروا أن الزراعة المعتادة لا تنقذهم من هدمهم بعد ما ضاقت بهم أملاكهم التي كانت واسعة ، ففتقت لهم الحاجة أبواب الحيلة ، فتفتنوا في زراعات جديدة من البذور الغالية ، وعكفوا على تنميتها وترقية أصنافها ، فسدت عوزهم فذاقوا الذة الغنى ، فأكبوا على الأخذ بأسبابه ، فتراجعت حالهم . فقد كانوا أغنياء كلهم فاقتروا كلهم ، ثم أغناهم الله جميعا ، وكل ذلك بعوامله وأسبابه ، فقلت : صدق الله العظيم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وإن تعجب بعد ذلك فعجب أن تتضافر المشاهدات المتكررة والوحي الصادق على إثبات قاعدة لا تزيد التجارب إلا رسوخا ، ثم تدعو إليها مصلحة الأُمم ، وتجدد

مع ذلك ينصرفون عنها ولا يعملون بمقتضاها. فهل هذا إلا من عَمى القلوب؟ سبحانه
اللهم أنت تهدي من تشاء وتضل من تشاء، ومن يضل الله فماله من هاد « وإذا أراد
الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

أجل : لو لم يكن الأمر كذلك ، وأنه إذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، فبماذا
نعلل خروج الأمم العاقلة المبصرة على ما علمته علم اليقين ، وزادت به استبصارا بالتجارب
والمشاهدات في نفسها وفي غيرها ، ثم تتعين فيه مصلحتها ؟

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاء

في مثل هذه الأمم تجد الأفراد يتقاذفون الملامات ، وكل يتنصل مما أصابها
ويرى غيره بأنه سبب بلأثا . ولو أنصف كل امرئ من نفسه لعلم أنه بإصلاح حاله
وقيامه بواجبه حق قيامه يكون قد أكسب أمته خيرين : خيرا بزيادة عدد الصالحين
النافعين واحدا ، وخيرا بنقص عدد الفاسدين الشريرين واحدا ، وفي كل من زيادة
المصلحين ونقص المفسدين فائدة ومنفعة . فاللهم اهدنا صراطك المستقيم !

ترى من هذا أن الآية الكريمة محتملة لإفادة العموم في كل شئون الانسان ،
والحمل على العموم أغزر للفائدة . ويكون التناسب بينها وبين الآي السابقة أن الكلام
مبناه من أول السورة على بيان آيات الله الكونية الدالة على عظيم قدرته ، وبديع حكمته ،
وواسع علمه ، وباهر نظام تكوينه ، فسيقت آيات الشمس والقمر والزرع والنبات
وأمثالها ، وفصلت تلك الآيات بالتعجيب من حال المنكرين للبعث الآمنين مكر
الله ، والنعي عليهم ، وتسفيه أحلامهم في استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، وفي طلب
إنزال آية ، كأن لم يكفهم ما رأوا ، ثم العود الى تقرير الأدلة الناصعة على إحاطة علمه
جل شأنه بكل ما خفي وما ظهر ، وأن جنده محيطون بالعباد ، ولا يفلت من أمرهم شيء ،
ولا يصيبهم مما يحيطهم شيء . إلا ما قضى وقدر ، وأن أمره نافذ في جميع ملكه بلا
معارض ولا ممانع . ثم أردف ذلك ببيان أن نظام العالم في ارتباط أسبابه بسبباته نظام

مطرد، لا يختل عمارسم، ولا يغاير ما حكم، إلا أن تكون حكمة تقتضى أمرا معينا هو أعلم به وأمره موكل اليه، وإلا فاعدا ذلك من إنتاج كل عمل ما رتب عليه من خير أو شر أمر مطرد، فاحذروا أن يصيبكم ما أصاب المعوجين من خراب وهلاك، وارجوا من فضله ورحمته ما غنمه من قبلكم ممن أحسنوا السير، فلا السعادة ولا الشقاوة منشورتين فُرطا، ولا الأمور تجري على غير هدى، بل هو حكم بالغ ونظام كامل، فمن اتبع سبيل الهدى والاستقامة أدرك السعادة، ومن اعوج وضل ندم حيث لا ينفعه الندم «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وجهور المفسرين على أن المعنى: إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعات، وأنه لا ينزل عذاب الاستئصال والمقت إلا على العصاة. وهذا — على ما نرى — بعض ما تشمله الآية. وفي نظرنا دلالتها أوسع مما ذكره. والقاعدة على ما قررنا أبلغ، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: «وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال» فوقها مما قبلها يشبه ما يسميه علماء البديع (الاحتراس) فإنها تدفع ما قد يتوهم متوهم من أن العالم حينئذ خاضع لما يجري من العباد ويأتونه من خير أو شر، فأين قدرة الله وإطلاق مشيئته وإرادته؟ فجاءت هذه الآية لدفع هذا الوم ورد الأمر الى نصابه الحقيقي، ببيان أن من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل الله فاله من هاد، وما تشاءون إلا أن يشاء الله. وكون مشيئة الله أصلا لمشيئة العبد لا يقتلع ما للعبد من مشيئة، فله مشيئة واختيار يبتنى عليهما تكليفه، فيستحق الثواب والعقاب على ما أتى، وتربى فيه الهداية التشريعية لإرادة الخير لما فيه من النفع الدائم الخالد، وتنزع منه حب العاجلة حبا يضيع عليه الآخرة الآجلة. فهو مختار بلا شك، ومكلف أن يتخير ما فيه الخير الحقيقي لنفسه. وقد بين له الطريقين «وهديناه النجدين» «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننضيع أجر من أحسن عملا».

ومعنى الآية الكريمة أنه تعالى مع كونه قد ربط ما يصيب العباد من سعادة وشقاوة بما يصدر منهم من خير أو شر ، وأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فيستحقوا ما ينزله بهم من شقاء أو نعيم ، فإنه مع ذلك نافذ الإرادة في ملكه وفي خلقه ، فإذا أراد بقوم سوءاً أوقعه بهم لا يدفعه عنهم دافع ، فهو القاهر فوق عباده ، فاتقوا سطوته وخافوا غضبه ، فإنكم إذا تعرضتم لغضبه أنزل بكم ما تستحقون ، ولا يكون لكم من يلى من أمركم شيئاً ، ولا يرد عنكم سوءاً . فقلوه : « وما لهم من دونه من وال » أى لا يكون لهم حينئذ من يعصمهم من عذاب الله أو ينصرهم إن أراد بهم العذاب . نسأله تعالى النجاة من غضبه ، وأن يصيبنا برحمته !

قال تعالى : « هو الذى يرىكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » :

ما أحسن ما فى الآية الدالة على عظيم قدرته وأنه لا أراد لقضائه بهذه الآية الكريمة التى تربهم مظهرها من مظاهر القدرة لا قبل لهم باتقائه ولا الفرار منه ، ولا يعصمهم منه من دون الله من عاصم ! ذلك هو ما يرونه من الآيات السماوية تنقض على الناس من فوق رؤسهم من غير سابقة إنذار ، فإذا بها قد أصابتهم من حيث لا يشعرون ، فأين يفرون وبأى ملجأ يعصمون ؟ أفلم يروا الى البرق يفاجئهم فتختلف بهم النزعات ما بين خوف من رهبته وقوته ، وطمع فيما يبشره أن يتلوه من غيث ومطر ، فتلعب بقلوبهم العوامل المختلفة ، وتهتز جوانحهم رغبا ورهبا ، لا يملكون أن يدفعوا عن قلوبهم تلك الهزات فضلا عن أن يدفعوا مصدرها أن يصيبهم بالهلاك . فهل يبقى بعد هذا قلب لا يخضع لعظمة الله ويخشى سطوته ويرجو رحمته ؟ أمّا أن لكم أن تعترفوا بجزمكم ، وترجعوا الى الهدى الذى يبيحكم من ربكم ، وهو الذى ينشئ السحاب الثقال ؟ وقد علمتم أن ذلك مياه متجمعة فى الجو ، فلو كان الأمر قاصرا فى التصريف على ما عهدتم لكانت تلك المياه

بحاجة الى إناء سميك يحفظها، ومكان ثابت ترتكز عليه لثقلها، ولكن قدرته والنواميس التي بثها في ملكه دلائل على قدرته، أوسع من أن تقف عند ما تهودون، وأن تقتصر على ما تعتقدون، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فأين أنتم وماذا تظنون؟ .

وهو الذي يسبح الرعد بحمده بما يدل على عظمة مبدعه وواسع قدرة منشئه، فينطق كل قلب وكل لسان بتحميد منشئه وتمجيده، ذاك أن المرء متى رأى الأمر العظيم الذي يهوله، انطلق لسانه بتحميد مبدعه، بل قال إن هذا آية ناطقة بتمجيد فاعله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » فليس بلازم أن يكون التسبيح بالنطق اللساني، بل أين نطق لسان المقال من صدق لسان الحال؟ على أن التسبيح اللساني لا استحالة فيه، فلا نرى ما يمنع من الحمل عليه اذا صحت الرواية المعصومة بتفسيره به. وأنت ترى في هذا الذي قلنا ما يبين معنى التسبيح من الرعد، فهو إما بمعنى حمل العباد المشاهدين له السامعين لصوته على تسبيحه تعالى وتنزيهه، وإما بمعنى دلالاته على أنه جل شأنه منزّه عن كل عجز أو نقص، مستحق لكل ثناء وحمد، فيكون على الأول من باب المجاز العقلي، أي يسبح سامعوه، وعلى الثاني من باب المجاز اللاغوي، أي يدل على تنزيهه عز وجل. والباء في يسبح بحمده للمصاحبة، أي ينطق بتنزيهه تعالى عن كل ما يليق، تنزيها مصحوبا بالثناء عليه بصفات العظمة.

وقوله : « والملائكة من خيفته » أي وتسبح الملائكة خوفا منه تعالى، فانه لا يأمّن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ومن ذا الذي يعلم من عظمة الباري ما تعلمه الملائكة المقربون ولا يمتلئ هيبة وخشية؟ وهل لا يكون الخوف إلا من وقوع العذاب؟ ألا فليعلم أن خوف الرهبة ربما قتل وأهلك بمجرد. والملائكة هم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم بتصريف الكائنات العالمية موكلون، فما من عالم من بحار ورياح، وسحاب ورعد وبرق وزرع وحيوان، إلا وعليه ملائكة

مصرفون بأمر ربهم ، حافظون عليه كيانه وآثاره ، يحفظونه مما هو عرضة له بأمر ربهم ، كما سبق في تفسير « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وليس هذا عن حاجة المولى عز وجل اليهم ، حاش لله ! ولكنه نظام الملك كاملا ، وآثار العظمة باهرة .

قال تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » :

هذا من تنمة الدلائل السابقة التي تملأ النفوس رهبة وخشية ، ولعلها أشدها في إيجاب الحذر والخوف ، فالصواعق تنقض^١ على حين غفلة ، وتنزل على ما تصيبه بغتة فأين منها المفر وهي يصيب بها من يشاء ؟ ودع ما يتعملل به المتعمللون من نصب جاذبات الصواعق على ظهور البيوت ، يزعمون أن معدنا خاصا يجذب الصاعقة النازلة اليه فينجو باقي البيت ، فهب هذا فما الذي يعصم صاحب البيت في غدواته وروحاته ، بل ما الذي يعصم البيت من أن تكون الصاعقة قوية تستأصل الجاذب وما يحيط به ؟

يا للعجب ! كل هذه الدلائل الباهرة تتراءى لهم وتكرر أمامهم وهم يجادلون في الله جدال من يشك في قدرته وواسع علمه ، فهل بعد هذا من غفلة ؟ وهل غير هؤلاء القوم يرثي لهم ولما أصيبوا به في عقولهم ؟ أنما كفاهم كل هذا حتى لا يزالون يجادلون في الله وفي قدرته وهو شديد المحال ؟ أي شديد الحول عظيم القوة ، على أن اليم زائدة ، أو هو شديد الكيد عظيم التدبير ، من قولهم : تمحل لكذا ، أي تكلف استعمال الكيد واجتهد في الحيلة . والمراد بمثل هذا أن ذلك لا حقيقته ، فهو كقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فإن حقيقة المكر مستحيلة عليه تعالى ، والمراد لازمه وهو أخذهم على غرة من حيث لا يحتسبون ، فكذلك هنا : المراد وهو شديد الكيد بالإيقاع بهم وإحباط مساعيهم والتغلب عليهم بحالة خفية كما يفعل المتحلل المسكايد ، والمعنى فيهما متقارب .

هذا والبرق والرعد والصواعق ظواهر جوية معروفة لكل الناس ، ومعرفتها على

هذا الوجه كاف في الاعتبار والازدجار ، وفهم كلام العزيز الجبار . أما حقائقها وأسباب تكوينها فلها علوم آخر تكفلت بشرح ذلك شرحا وافيا ، فليرجع اليها من أراد استقصاءها . ولعل ماورد في بعض الروايات من تفسير الرعد بملك يسوق السحاب وأمثاله ، يقصد منه الشارع — إن صحت روايته — توجيه نظر السائل الى ما ينبغي أن يتجه اليه في الملاحظة عند رؤية البرق وسماع الرعد ، من أن يلتفت الى عظمة ملك الله وقوة سلطانه وبديع نظامه ، لملك عليه قلبه ، فينتقل من رؤية الآثار الى تسبيح مؤثرها العزيز الفهار ، فهو من باب ما يسمونه في علم البديع (أسلوب الحكيم) وهو تلقى السائل بغير ما يترقب تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له ، بل هو الذي ينبغي أن يرجع فيه الى تعليم النبوة . ونظير هذا قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » . سألوها عن السبب في أن الهلال يبدو صغيرا ثم يكبر ، فأجيبوا بالحكمة المترتبة على ذلك ، وهي أن يرتب الناس مواقيتهم ومصالحهم الدينية والدنيوية ، أما دقائق العلوم والصناعات فليست من مقاصد نظر النبوات ، وإنما يتوصل اليها الانسان بواسع تفكيره وثاقب نظره ، فيهتدى الى ما تحتاج اليه مصالحه في معيشته . وقد قدمنا لك أن لكل عالم من العوالم ملائكة موكلين بتصرفه وتديره وهم من أمر الله ، وليس ذلك لعجز عن أن يستقل بالأمر ، أو لاحتياج اليها في تدبير الملك ، بل لاستكمال النظام . كيف وهو رب كل شيء ، وخالق كل شيء ، والعالم بكل شيء ، وهو على كل شيء قدير ؟

نسأله تعالى أن يمن علينا بالهدى ، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيمتنعون أحسنه ، والله المستعان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالي

الاسلام والفلسفة

نظرة تاريخية :

كان العرب في جاهليتهم أمة بدوية رحالة تنتجع مساكب الغيث وتستوطن منابت الكلاً ، فشغلها هذه المشقة العنيفة في سبيل تحصيل المعاش وجلب القوت عن التأمل في أسرار الكون والطموح الى معرفة نشأته ومصيره ، ولم يحل بينهم وبين الإنتاج الفلسفى ضيق طبيعى في عقولهم ، وقصر فطرى في أذهانهم كما يزعم « أرنست رينان » في كتابه « خطب ومحاضرات » الذى رى فيه العقلية العربية بأقبح الصفات ، ووصمها بأشنع العيوب . وأسطع برهان على بطلان رأى « رينان » هو أن العقلية العربية استطاعت فيما بعد ، أى حين هيا لها الاسلام الفرص الملائمة ، أن تبرز في الفلسفة ، وأن تأتى في كل النواحي العقلية بالعجب العاجب كما يظهر ذلك من دراسة فلاسفة الاسلام .

أما أخلاقهم وطباعهم في ذلك العصر الجاهلى ، فقد كان كثير منها غاية في الغلظة والفسوة والبربرية . وأما تشريعاتهم فكان يكتنفها نوع من الهمجية لا يعرف له نظير إلا لدى الأمم المتوحشة . وأما دياناتهم فكانت وثنية ساذجة جافة لا روح فيها ولا حياة ، تسير فيها العبادة على نسق لا يسيغه العقل ولا يؤيده المنطق أو الذوق السليم . وعلى الجملة ، فقد كانت كل حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية مضطربة اضطراباً يؤذن بالخراب والدمار : يشتعل أوار الحرب بين القبيلتين ويستمر أعواماً طويلاً تزهق أثناءها مئات الأرواح وتيتم مئات الأطفال ، وتيتم مئات النساء ، كل ذلك من أجل سباق حصانين ، أو من جراء كلمة نافهة تخرج من فم شاب متسرع أو ما شا كل ذلك .

فلما أراد الله جل شأنه أن ينتقد هذا الشعب من تلك الوهدة السحيفة التي هوى فيها ، بعث اليه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مؤيدا بذلك الكتاب الفخم الذي يقول في وصفه العالم الفرنسى مؤلف كتاب « فى الدراسات الدينية » ما يلى : « كفى هذا الكتاب مجدا وجلالا أن الأربعة عشر قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالحياة أمس » .

بل هو الذى تحدى أعداءه على طول الخط أن يجاروا أقصر سورة منه فى ميدان الفصاحة والبلاغة اللتين كانتا كل مامتاز به العرب من موهبة ، فأعلنوا عجزهم ، وسلموا الراية لصاحب هذا الدين الجديد ، وأخذوا يأتعون بأمره ، وينتهون بنهيه ، وهو فى كلتا الحالتين لا ينطق عن الهوى ، ولا يصدر إلا عن وحى أو إلهام من أحكم الحاكمين وأعلم العالمين بالخير والمصلحة . فكان من الطبيعى أن تقودهم هذه الأوامر الإلهية الى النظام العمرانى ، والرفعة الاجتماعية ، والسكالم الأخلاقى ، وهذا هو الذى كان بالفعل ، فلم يكسد الاسلام ببسط جناحيه على جزيرة العرب حتى رأب صدوعها ، ولم شعثها ، وجمع متفرقها ، وأخذ يضرب بيد من حديد على كل أسباب النشل والشقاق من عادات العرب وتقاليدهم الممجة الأولى ، ونشر فيهم روح الديموقراطية والسلام ، وأعلن فيهم أن الاسلام قد سوى بين رفيهم ووضعهم ، وحرم عليهم التمسك بتلك العصبية البربرية . فلما تغلغل في نفوسهم هذه التعاليم ، خلقتهم خلقا جديدا ، وكونت منهم خير أمة صالحة لا للحياة فحسب ، بل لبسط سلطانها ونشر دينها على قارتى « آسيا وأفريقيا » وجزء عظيم من قارة « أوربا » ؛ ولولا ظروف خاصة ذكرها التاريخ السياسى لا كتسح الاسلام أمامه الديانات الأخرى ، ولأظل المعمورة بظلاله الوارفة .

ولما ازدهر الاسلام واستقر سلطان العرب وسرت فيهم روح المدنية ، وأخذوا يدونون حوادثهم ويقيدون معارفهم ، شأن الأمم الآخذة فى الرقى ، كان بدهيا أن يحدث

بين هذه المعارف المدونة شيء من الخلاف فى الرأى والتفكير ، لا سيما وأن القراءان قد أباح لهم التأمل والتفكر فى أسرار الكون ، بل طالبهم بهما ، وأوجهما عليهم كما سنشير الى ذلك عند ذكر أسباب تفلسف العرب .

اختلفت آراء المسلمين حول العرضيات والثانويات الاسلامية منذ ذلك الحين ، ولكنها كانت كلها اختلافات محصورة فى دائرة لا تتعداها ولا تخرج عليها ، وهى دائرة الخضوع للكتاب والسنة . غاية ما فى الأمر أن بعضهم يأخذ بظاهر الكتاب ، والبعض الآخر يبيع التأويل ، وهذا طبيعى مادام أن فى القراءان آيات محكمات ، وأخر متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله . فدعت هذه الحالة الجديدة الى الحاجة الماسة الى التأليف وتدوين تفسير القراءان ، والخوض فى أدلة وجود الله ووحدانيته وقدرته ، الى غير ذلك مما كوّن علم الكلام الذى كان له فيما بعد شأن عظيم فى تاريخ الحركة العقلية الانسانية .

ولما اتسعت فتوحات الاسلام واحتك العرب بالأجانب من الفرس والروم والهنود والمصريين ، واطلعوا على ما فى هذه الأمم من معارف وثقافات ، زادت معلوماتهم ، وشحذت أذهانهم التى فطرت على الحدة والتوقد ، ومنحت جانباً عظيماً من الذكاء والعبقرية ، فاجتمعت لديهم ثروة علمية ضخمة هيأت لهم فرصة البحث والتفكير والاستنتاج ، فبحثوا واستنتجوا ، ووازنوا بين ما ترجموه من فلسفة اليونان والهند والفرس ، وانتقوا منه أصلحه وأقربه الى العقل المستقيم ، ثم مزجوه بتعاليم دينهم ، فكوّنوا من هذا المزيج فلسفة مستقلة خاصة بهم ، للاسلام فيها جزء ، وللفلاسفة المعقولين من الأجانب جزء ، ولعقولهم الناضجة المستقيمة الباقى . وإذا فلم يكن فلاسفة العرب نقلة أو تراجعاً كما يقول المتعنتون ، وإنما كانوا ذوى آراء مستقلة ، وأصحاب فكر مبتدعة .

« أسباب تفلسف العرب »

السبب الاول - القرآنة:

لاريب أن كل من يلقي نظرة فاحصة على القرآن ، ويتأمل في آياته الدافعة الى التدبر والتفكير في شىء عظيم من الجّد ، يتضح له أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغافل الفلسفة في البيئات العربية ، بل هو أول كتاب سماوى فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضاً ، وأوجب عليهم التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود ، ليصلوا من هذا التفكير الى معرفة المبدع الأول والايمان به ، والتيقن بخلود الروح وبالعودة الى حياة أخرى تتحقق فيها عدالة الخالق بمجازاة الخير والشرير بما يستحقانه على عملهما . وهل الفلسفة الحققة شىء غير هذا ؟ وهل هناك فرق بين دعوة الفلسفة معتنقها الى التأمل في نشأة العالم ومصيره ، وفي عظمة الكون ونظام تسييره ، وبين هذه الآيات القرآنية التى تقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ؟ « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب » « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » .

تأمل كيف يدعو القرآن الناس الى التفكير فى سبيل الكواكب مدعنة لنظام رسمته لها قدرة الله العالمة ، ولو تعدته لاصطدم بعضها ببعض ، ولهوت كلها فى لحظة واحدة الى مكان سحيق . ثم تأمل كيف يلفت أذهانهم الى أن النبات لا ينبت

إلا بوساطة الماء ، ليفهمهم أن المسببات أسبابا ، والمعلولات عللا ناشئة عنها ومرتبة عليها ، وتلك هي جزئيات الفلسفة . بل انظر الى قول القرآن حين ينتقل بالناس من الأمر بالتفكير فى الكون العام الى التأمل فى النفس وما اشتملت عليه من خفايا وأسرار فيقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ .

السبب الثانى لتفلسف العرب — الترجمة :

أسلفنا أن القرآن هو العامل الأول الذى فتح للعرب باب البحوث الفلسفية المؤسسة على المنطق والتأمل ، فظهر لهم شئ من هذه البحوث يدور حول علوم الدين من توحيد وتفسير وفقه ، وخصوصا استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث ، ولم يحاولوا فى أول أمرهم أن يتغلغلوا فى غير ذلك من البحوث الفلسفية التى دفعت غيرهم اليها الحاجة الى اكتشاف الحقيقة المطلقة ، لأنهم كانوا فى غنى عن اكتشاف تلك الحقيقة بوساطة المجهود الانسانى ما داموا قد حصلوا على غايتهم منه بوساطة الوحي الصادق الأمين الذى كان ممثله ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يزال قائما بينهم أو قريب عهد بهم ، فاكثفوا بالبحث فيما قدمناه من علوم عما لا تدعوهم اليه الضرورة فى ذلك الحين .

ولا شك أن هذا طليعة ساخرة من طلائع الفلسفة ظهرت فى صور الاسلام وأخذت تنمو وتزايد الى أن بدى فى الترجمة عن الأجانب من يونان وفرنس ، بوساطة السريانين فى أواخر الدولة الأموية ، وهذه الترجمة وإن كانت قليلة وضعيفة إلا أنها أوجدت فى النفوس شيئا من الشغف بالفلسفة والمعارف الأجنبية .

ولما استولى بنو العباس على زمام الملك واستقر لهم الأمر ، شرع أبو جعفر المنصور بمشورة وزرائه من الفرنس فى الترجمة عن الهندية والفارسية واليونانية . وإذ كان هذا الخليفة عالما مفطورا على الميل الى الفلسفة من ناحية ، ورأى من ناحية أخرى أن أعظم الممالك وأجلها وأخلدها ما قام على أسس العلم ودعائم المعرفة ، فقد أجزل العطاء للعلماء

والمترجمين ، وقربهم من مجلسه ، وشجعهم بالاحترام والاحلال على السير في خطتهم ، وكانت هذه سنة حسنة سرت فيمن أتى بعده من الخلفاء ، فنجم عنها تضاعف حركة النقل وزيادة الانتاج في الترجمة والشرح والتعليق الى أن بلغت هذه الحركة أوجها في عهد الخليفة المأمون الذي أنشأ مكتبته الفخمة المعروفة في التاريخ بـ (دار الحكمة) ورأس عليها (حنين بن اسحاق) وكان من أكابر العلماء الذين تثقفوا بالمعارف الأجنبية ومن أكثرهم إنتاجا في الترجمة والشرح وكتابة التعليقات . ولا شك أن هذه الميزة العالمية العظمى هي التي حدثت للمأمون الى ترئيسه مكتبته مع مسيحيتها .

فلسفة المترجمين ومن أفضر عنهم :

كثير المترجمون في العصر العباسي كثرة تجعل إحصاء أسمائهم من الأمور المتعذرة ، ولم يكونوا هم ومن أخذ عنهم مجرد نقلة وحملة لثراث الأمم القديمة كما يزعم المتحاملون ، وإنما كانوا كما أسلفنا أصحاب آراء خاصة وأفكار مستقلة ، واستنباطات حرة ، وترجيحات مستقيمة من شأنها أن تدرجهم في عداد الفلاسفة .

أما ما أخذه عليهم خصوم العربية من أنهم لم يبتدعوا مذاهب فلسفية جديدة ، فإنه حق بالنسبة الى المترجمين ، ولكن له أسبابا ذكرها مؤرخو الفلسفة نوجزها فيما يلي :

١ - أن الكثرة الساحقة من هؤلاء الترجمة كانت مسيحية خاضعة لتعاليم الإنجيل والكنيسة التي كانت قد وصلت الى حد بعيد في اضطهاد الفكر الانساني وحصره في دائرة ضيقة لا يتعداها ، فتأثر المترجمون المسيحيون بهذا الضغط ولم يستطيعوا أن يطلقوا لأذهانهم أعنة التفكير الحر في ميادين الفلسفة الابتداعية .

٢ - ومن الأسباب المانعة لظهور مذاهب مستقلة لترجمة العرب ، هو أن أكثرهم كان يشتغل بالطب كهنة أساسية ، وأما الفلسفة فلم تكن إلا ثانوية ، فعاقبهم هذا الاعتبار عن الإبداع فيها .

٣ - يروى بعض مؤرخي الفلسفة أن من هذه الأسباب التي حالت بين المترجمين

وبين الابتداء ، هو أنهم كانوا جميعا في خدمة الخلفاء والأمراء ، وأن هؤلاء كانوا يتملقون الجامدين من الفقهاء والعامة ، فلم يكن يرضيهم أن يطلق المترجمون الأئمة لأفكارهم فتسير بحرية قد تشوكت الجامدين والمتعصبين . ونحن لا نستطيع أن نوافق على هذا السبب الأخير ، لأن العقيدة الاسلامية الخالصة من الخرافات لا تجزع من الفلسفة ولا تضطرب من صولتها ، بل لا تصطدم معها البتة ، وإذا فلم يكن الفقهاء في حاجة الى التماق أو الى الاسترضاء . وفوق ذلك ، فإن أجلاء الخلفاء كالمصور والمهدى والرشيد والمأمون كانوا أكبر من أن يتملقوا العامة بتأييد ما يعتقدون أنه باطل ، وهدم ما يؤمنون بأنه حق ونور .

ومهما يكن من الأمر ، فإن تراجمة العرب لم يبدعوا المذاهب مستقلة ، وإن كانوا قد برزوا فيما عدا ذلك تبريرا يستوجب الاحترام والاجلال .

الكتب المترجمة :

يلاحظ المطلع على أسماء الكتب التي ترجمت الى العربية عند إلقاء النظرة الأولى أن مؤلفات (أرسطو) لها المرتبة العليا بين المنقولات اليونانية . وقد علل بعض المؤرخين هذه الظاهرة بأن ابن المقفع قد نقل منطق (أرسطو) الى اللغة العربية في بادئ الأمر ، فلفت أنظار الناس الى منتجات هذا الفيلسوف ، فالوا اليها ، وطلبوا ترجمتها ، ولكن يظهر أن السبب في هذا هو أن هذه المنتجات (الأرسطوطاليسية) تتفق في كثير من الأحيان مع ميول العرب ومع بعض تعاليم الاسلام ، ولا سيما ما فيها من منطق واقعي ، وأخلاق عملية ، وسياسة اجتماعية ، ونظر صائب الى الحياة ، واعتبار الجسم الانساني كأحد عنصرى الوجود لا يصح إهماله ولا الاستهانة به . وهذه الأسباب هي التي وضعت كتب (أرسطو) في الدرجة الأولى من درجات الترجمة . واليك بعض هذه الكتب التي ترجمت في العصر العباسي من مؤلفات (أرسطو) خاصة :

ترجم حنين بن إسحاق شرح (تيمستوريوس) على الكتاب الحادى عشر من (ماوراء الطبيعة) وكذا كتاب (المقولات) وكتاب (الطبيعة) وكتاب (الأخلاق) . ونقل ابنه وتلميذه اسحاق بن حنين الى العربية من مؤلفات (أرسطو) : (ما بعد الطبيعة) وكتاب (النفس) وكتاب (العبارة) وكتاب (الكون والفساد) مع تفاسير مختلفة (للاسكندر الأفروديسى) و (فرفيوس) و (تيمستوريوس) و (أمينيوس) . ونقل ابن ناعمة الى العربية شرح يحيى النحوى على كتب : (الطبيعة) الأربعة لأرسطو . ونقل أبو بشر متى بن يونس من السريانية الى العربية كتابى : (البرهان) و (الشعر) . ونقل فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندى الى العربية الكتاب الثالث عشر من (ماوراء الطبيعة) وكتاب : (تحليل القياس) و (البرهان) و (شرح المقولات) ووضع كتابا فى ترتيب كتب (أرسطو) .

وقد أشرف المعلم الثانى (أبو نصر الفارابى) على ترجمة بعض الكتب التى سلف ذكرها . واختصر المنطق على نهج المتكلمين ، ووضع له مدخلا ، وشرح (المقولات) و (العبارة) و (تحليل القياس) و (البرهان) و (الجدل) و (الخطابة) وكتاب (الطبيعة) وكتاب (السماء والعالم) وغير ذلك مما يطول الكلام عليه .

سنقف بك اليوم عندما قدمناه إليك من نشوء الفلسفة ودورها بين أعطاف الاسلام ، ومن أمره العالى بالعطف عليها والعناية بها ، وسنحدثك فى الفصل المقبل عما أحدثته الترجمة الأجنبية فى العقلية العربية والمنتجات العربية من آثار بارزة النتائج لا فى الفلاسفة المسلمين وحدهم ، بل فى المتصوفين والمتكلمين والفقهاء ، كما سنحدثك عن مصير الفلسفة فى الغرب الاسلامى ، وعن محاولة الفلاسفة التقريب بين الفلسفة والدين

ومجهوداتهم فى ذلك ، إن شاء الله

الركنور محمد غنم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

محاريب المساجد

هل هي مذابح أهل الكتاب ؟

رأيت طائفتين من المسلمين مختلفتين : هل محاريب مساجد المسلمين هي مذابح أهل الكتاب المنهى عنها أم لا ؟ وسئلت عن ذلك فرأيت أن أكتب كلمة في هذا الموضوع بعد البحث والتحري ، فقلت :

قال ابن الأثير في النهاية : « المذبح واحد المذابح ، وهي المقاصير ، وقيل المحاريب » . وفي القاموس : « والمحراب : الغرفة ، وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الامام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، والأجمة ، وعنق الدابة » . والمذبح عند أهل الكتاب مقصورة يبلغ ارتفاعها مترا ونصف متر ذات أعمدة أربعة ليس بينها حواجز ، وفوقها سقف تحته خلاء يوضع فيه القرابين وبعض دم المسيح في اعتقادهم وبعض ماء المعمودية في الأعياد ، وبعد الصلاة يخرجها الكاهن ويوزعها على من في المعبد تبركا . وهذه المقصورة داخل حجرة فسيحة أمام المعبد يصعد إليها بسلم ذي درجات قليلة تسمى الهيكل لا يدخله إلا الكهنة وأرباب الخطايا الذين يريدون الاعتراف بذنوبهم للكاهن كي يطلب لهم المغفرة . فالمذابح المنهى عنها بما رواه البيهقي في السنن الكبرى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « اتقوا هذه المذابح » وما رواه ابن أبي شيبه عن موسى الجهنى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تزال هذه الأئمة - أو قال أمتي - بخير ما لم يتخذوا في مساجدكم مذابح كمذابح النصارى » هي المحاريب بالمعنى الخاص ، وهي الغرف التي تكون على شكل المقاصير في حجر الهيكل ، لأنها من شعائر دينهم وخاصة بكنائسهم كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إنما هي للسكنائس فلا تشبهوا بها » لا المحاريب بالمعنى العام لأنه لا يقول بذلك أحد . ولذا أتى النبي عليه الصلاة والسلام في حديث

عبد الله بن عمر باسم إشارة المحسوس وآل العهدية ، وفي حديث موسى الجهني بأداة التشبيه . وعبر فيهما بالمذابح التي هي محاريب بالمعنى الخاص ، ولم يعبر بالمحاريب التي هي أعم .

ويمثل هذه المذابح تمام المماثلة المقاصير التي تتخذ في المساجد وغيرها على قبور بعض أموات المسلمين داخل حجر القباب التي تشبه الهياكل ، فإنها مثل المذابح شكلا ووضعا . وكثيرا ما رأيت الجاهلات من المسلمات ينظفن هذه المقاصير بقلانس أولادهن وثيابهم ، ويضعن في تلك المقاصير ماء في إناء ويتركنه ليلة ثم يسقينه للعريض ويغسلنه به للاستشفاء والتبرك ، فهذه المقاصير هي المذابح المنهى عنها بالأحاديث المتقدمة .

وأما محاريب مساجد المسلمين المعروفة الآن ، فهي علامات غير مجوفة اتخذت في وسط حوائط المساجد القبلية بنحو جص ، أو تجاويف فيها منعطفة وهي الطاقات لتكون دليلا على جهة القبلة لمن لم يعرفها ، وتكون مبينة لمقام الإمام من المأمومين ، لأن السنة أن يقف الإمام إزاء وسط الصف . فهي مخالفة لمذابح أهل الكتاب شكلا ووضعا وغرضا ، كما يعلم ذلك من رؤية المحاريب في المساجد ، والمذابح في الكنائس ، فإنني رأيت ثلاثة مذابح في الكنيسة المرقسية بالاسكندرية على الشكل والوضع الذي بينته ، وعرفت الغرض منها من أحد الكهنة ، وعرفت منه ومن بعض كبار المسيحيين أنها في جميع الكنائس على هذا الوضع والشكل والقصد . فليست محاريب المساجد هي المذابح المنهى عنها ، لأنه ليس كل محراب مذبحا . والحكم عند الفقهاء بكرامة الصلاة داخلها لأنها مذابح كالمذابح النصرانية ، بل لما يترتب على ذلك من اختفاء الإمام عن المأمومين ، فتشتبه عليهم حركاته وسكناته ، ولئلا يكون هناك صورة فرقة في أكبر عبادة تقتضى الوحدة .

لا يقال إن النبي عليه الصلاة والسلام ترك وضع هذه العلامات في المسجد مع وجود المقتضى فتركها سنة وفعلا بدعة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام غرز خشبة في مسجد

قوم أسامة الجهنى بعد أن خطه لهم لتكون دليلا على جهة القبلة، فدل هذا على مشروعية وضع علامة عليها لإرشاد الضال، فهى من قبيل التعاون على البر ولا خصوصية للخشبة إلا بدليل

هذا على أنه لم يكن لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم محراب فى زمنه، وأحدثه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. وقد روى البيهقى فى السنن الكبرى عن وائل بن حجر قال: « حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ - أو: حين - نهض الى المسجد فدخل المحراب ثم رفع يديه الى التكبير ثم وضع يمينه على يسراه على صدره » فدل ذلك على أنه كان لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم محراب فى زمنه وتأويل المحراب فى الحديث بصدر المسجد وأشرف مكان فيه، غير ظاهر اللفظ، لأنه لا يقال فى اللغة دخل الشئ إلا إذا كان الشئ بحيث يمكن الدخول فيه والخروج منه، وصدر المسجد وأشرف مكان فيه ليس كذلك، وكان المناسب « نهض الى المسجد ووقف فى المحراب ».

فالمحراب الذى اتخذهُ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى حائط مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وجعله علامة ثابتة على جهة القبلة على الوصف الذى يراه المسلمون الآن مخالف لمذاهب أهل الكتاب من كل وجه كما يعلم بالمشاهدة، وليس بدعة، وكذلك محارِبُ مساجد المسلمين، فلا تدخل تحت النهى. أسأل الله التوفيق الى الصواب

عمر الجندى

مراقب معهد الاسكندرية

القبیح لا يدفع الاحسان

كان الحسن البصرى إمام المحدثين مع سعيد بن جبیر وهو من أجلاء علماء التابعين يشيعان جنازة، فسمع سعيد أصوات النوائح، فهم بالانصراف إنكارا لهذه المنكرات، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحا تركت له حسنا، أسرع ذلك فى دينك.

بَابُ الاسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

حكم تشريح الميت في الشريعة الاسلامية

ورد إدارة المجلة سؤال من سعادة رءوف باشا سكرتير الجمعية الاسلامية الهندية
بسيلان ملخصه استفتاء العلماء عن تشريح الميت . وقد قال فيه :

هل يسمح قانون شريعتنا الاسلامية بتشريح جثماننا أم لا ؟ ثم رجا إدارة المجلة أن
تجيبه على عجل . وقد أجاب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى بما يأتي :

الجواب

ليس عندنا في كتب الفقه نصوص شافية في هذا الموضوع . وقد يظن ظان أن ذلك
محرم لا تجيزه الشريعة التي كرمت الآدمي وحثت على إكرامه وأمرت بعدم إيذائه .
ولكن العارف بروح الشريعة وما تتوخاه من المصالح وترى اليه من الغايات يعلم
أنها توازن دائما بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة
ويوجبه النظر الصحيح . فيجب إذاً أن يكون نظرا بعيدا متمشيا مع المصلحة الراجحة
التي تتفق وروح الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان ، الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .
وإذا نقول :

من نظر الى أن التشريح قد يكون ضروريا في بعض الظروف كما إذا اتهم شخص
بالجناية على آخر وقد يبرأ من التهمة عند ما يُظهر التشريح أن ذلك الآخر غير
مجنى عليه . وقد ينجى على رجل ثم يلقى بعد الجناية عليه في بئر بقصد إخفاء الجريمة
وضياع الجناية ، الى غير ذلك مما هو معروف ، فضلا عما في التشريح من تقدم العلم الذي
تنتفع به الانسانية كلها ، وينقذ كثيرا ممن أشفى على الهلكة أو أحاطت به الآلام من
كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، الى غير ذلك مما لا داعي

للإطالة فيه . نقول : من نظر الى ذلك الإجمال وما يتبعه من التفصيل لم يسعه إلا أن يفتي بالجواز تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة . ومتى كان تشريح الميت بهذا القصد لم يكن إهانة له ولا منافيا لإكرامه . على أن هذا أولى بكثير فيما نراه مما قرره الفقهاء ونصوا عليه في كتبهم من أن الميت إذا ابتلع مالا شق بطنه لا إخراج منه ولو كان مالا قليلا ، ويقدره بعض المالكية بنصاب السرقة أى ربع دينار أو ثلاثة دراهم . وكلام الشافعية قريب من هذا . وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع في تقدير المال الذى يبتلعه . فإذا قسنا ذلك المال الضئيل على ما ذكرنا من الفوائد والمصالح ، وجدنا الجواز لدرء تلك المفسدات وتحصيل تلك المصالح أولى من الجواز لإخراج ذلك المال القليل . فهو قياس أولى فيما نراه .

استدراك لدبر منه :

غير أنا نرى أنه لا بد من الاحتياط فى ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة . فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير ، والله يتولى هدى الجميع .

ماذا يراد بولد الصلب

فى عبارة الواقفين ؟

وورد إدارة المجلة ما نصه :

ما قول العلماء الأخيار المالكية فى وقف أهلى محكوم بصحته ولزومه من حاكم شرعى حنفى من قضاة المسلمين ، وقفه واقف مالكى المذهب ، وشرط أن يكون النظر أولا لنفسه مدة حياته ، ثم للأرشد فالأرشد من أولاده لصلبه ، ثم للأرشد فالأرشد من المستحقين بالفعل الخ فمات الواقف المذكور وخلف ولدين ذكرين وتبعنا ناظرين على الوقف المذكور ، ثم مات أحدهما وخلف أولادا ذكورا وإناثا . فهل يقوم أولاد

الولد مقام أبيهم في نظارة الوقف المذكور مع ولد الواقف المذكور؟ وهل يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه، ولا يمنعه قول الواقف: من أولاده لصلابه؟ وهل قول الواقف: من أولاده لصلابه، يشمل ولد الصلب وولد الولد معا، أم لا يكون ولد الولد ولدا صليبا مع كونه من أولاد الظهور؟

أفتونا بنص صريح من معتمد مذهب الإمام مالك رحمه الله وآجركم الله آمين
حسين إبراهيم فرج الحباب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

قد صرح الواقف بأن نظارة الوقف تكون للأرشد فالأرشد، ورتب في الطبقات بتم، فجعل النظارة بعده لأولاد الصلب أولائهم للمستحقين من بعدهم ثانيا .
وحينئذ يجب أن يكون مراده أنه إذا وجد أولاد الصلب وتساووا في الأرشدية كانت النظارة بينهم . فإذا زاد أحدهم في الأرشدية اختص بالنظارة . فإذا مات أحدهم وترك أولادا كانت النظارة لأخوته من ولد الصلب، ولا تنتقل لأولاده لمجرد الزيادة في الرشد . ومن هذا يتضح أن ولد الصلب في السؤال يختص بالنظارة دون أولاد أخيه، وأن قول الواقف: من أولاده لصلابه، بمنعهم حيث لم يكونوا من أولاد الصلب، فإن أولاد الصلب هم من للواقف عليهم ولادة مباشرة، وهو معنى كونهم لصلبه، وأن مجرد زيادتهم في الرشد على ولد الصلب لا تقدمهم عليه، لأنها إنما تعتبر بين أفراد الطبقة الواحدة كما قلنا .

بيانه ذلك من كتب الفقه المأثور السائل :

قال الخرشي في شرح قول خليل «أو على بنيه دون بناته»: «وكذلك يبطل الوقف إذا وقفه على بنيه المذكور دون بناته الإناث» إلى أن قال: «وكلام المؤلف في بنيه وبناته

لصلبه ، فيصح وقفه على بنى بنيه دون بنات بنيه ، فهو لا يريد بنيه لصلبه إلا الطبقة الأولى من ذرية الواقف . وقال الصاوى فى الحاشية على أقرب المسالك للدردير عند قوله « وكره على بنيه دون بناته على الأصح » بعد نقل الخلاف فى المسألة ، قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، وأما بنو بنيه دون بنات بنيه فيصح وقفه اتفاقاً » فقابل أولاد الصلب بأولاد الأولاد . وهذا واضح جلى .

هذا وليلاحظ أن هذا الوقف على هذه الصورة التى ذكرها السائل لا يعتبر صحيحاً على مذهب مالك إلا إذا حكم الحاكم بصحته كما فى السؤال . ولولا ذلك لكان باطلاً على مذهب مالك لشرط الواقف النظر لنفسه .

فقد نص فى المذهب على أن الوقف يبطل بشرط النظر للواقف . ووجهه على ما ذكرنا أن فى ذلك جولان يده فيه وعدم حوز الموقوف عليه أو من يقوم مقامه ، ذلك الحوز الذى هو شرط فى تمام الوقف . وقد استثنوا من ذلك صوراً منها أن يحكم حاكم بصحته ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو معروف .

والخلاصة أن أولاد الصلب هم أولاد الواقف مباشرة ولا يدخل فيهم أولاد أولاده . وألفاظ الواقف تحمل على العرف إلا أن يصرح الواقف بما يخالفه كما نص عليه الأمير فى حاشيته على المجموع ، والشيخ حجازى عليه أيضاً . وحينئذ فأولاد الأولاد لا يزاحمون أولاد الواقف مباشرة فى النظر مادام واحد منهم موجوداً . ولا ينظر لتفوقهم فى الرشد على أولاد الصلب ، إذ لا حق لهم فيه مع وجود واحد منهم كما تفيده عبارة الواقف . وبهذا تبين جلياً أن أولاد الأولاد لا يقومون مقام أبيهم فى النظر على الوقف . وأنه لا يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، وأنه لا يشمل ولد الصلب ولد الولد .

ولعل فى هذا مقنعا وكفاية

يوسف الدهرى

من هيئة كبار العلماء

الاسلام والطب الحديث

— ٣ —

قال تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » البقرة — الآية ٢٢٢ :

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته الخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم الى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والمحيض ... الخ . وهذا النوع يسمى (excretion) .

فهذه الآية الكريمة علمت الانسان قبل أن يعرف شيئا عن أنواع الإفرازات أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة « فاعتزلوا النساء في المحيض » فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان ، والأعصاب تكون في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ، فالاختلاط الجنسى يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبى ، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية .

وهذا هو السبب فى أن الطبيب الإخصائى لا يكشف على مرضاه من النساء وقت المحيض .

* *

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » البقرة — الآية ٢٢٨ :

معنى الآية صريح ، وهو أنه في مدة ثلاثة أشهر تكون علامات الحمل قد ظهرت : من عدم وجود الطمث ، ومن الاضطرابات المعدية ، ومن كبر في الجزء الأسفل من البطن . وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة ، لأنه قبل ذلك بشهر يصعب جدا التثبت من الحمل حتى بواسطة الأطباء الاختصاصيين بل الكيمائيين ، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادي . نعم قد توجد حالات يصعب الجزم فيها بالحمل أو عدمه حتى بعد مضي أربعة أشهر أو خمسة أو أكثر من ذلك خصوصاً عند العوام ، ولكن هذه الأحوال نادرة ، حتى إنها لا يجوز أن تكون محل تشريع خاص . وقد رأيت حالات في الشهر التاسع اشتبه فيها الاختصاصيون ولم يتبين بسهولة بالأشعة ، فهذه النوازل لا تدخل تحت الأحكام العامة .



« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » .
البقرة — الآية ٢٣٣ :

مما لا شك فيه طبيياً أن لبن الأم أصح غذاء من كل أنواع اللبن الصناعي ومن اللبن العادي مهما عدل حتى يقرب من لبن الأم . وفائدة الرضاعة للأم مهمة ، لأن اللبن بالنسبة للأم إفراز لمواد بعضها يتزايد مدة الحمل لهذا الغرض . والرضاعة نفسها مفيدة للأعضاء التناسلية ، وتقلل من الاستعداد للحمل مدة الرضاعة عند البعض ، وهذا يمنع الحمل المبكر الذي ينهك القوى .

وأما مدة الرضاعة فهي موضوع فيه آراء كثيرة . ويجب أن نلاحظ صحة المولود وصحة الوالدة والظروف المحيطة بهما . ومما لا شك فيه أن مدة سنتين هي أقصى مدة للرضاعة ، أي بعد ذلك يجب أن يغذى الطفل بغذاء آخر زيادة عن اللبن .

وقد تغيرت النظريات الطبية في هذه المدة ، فقد كان الأطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحياناً سنتين ، ولكن آخر تقرير في سنة ١٩٣٣ عن فائدة

الرضاغة الطبيعية للجسم والأسنان يقول : إن المسدة يجب أن تكون فوق السنة ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين .

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ... » الخ الآية ٢٥٥ : هذا أبلغ وصف فى الاختلاف بين الذات الالهية وبين الانسان ، فبعد أن وصف الإله بأنه حى ، وصفه بأن صفة الحياة فيه تختلف اختلافا كلياً عن حياة الحيوانات ، لأن كل شئ يحتاج الى النوم والإله لا ينام أبداً . ولم يتقدم الطب فى معرفة كنه النوم وأسبابه كلها ، ولكن آخر الأبحاث يضع النوم صفة أساسية للأنسجة التى فيها الحياة ، فالتغيرات التى تحدث فى الأنسجة وقت الحركة هى سبب الاستراحة والنوم . وبالنوم تستعيد الأنسجة سيرتها الأولى كما كانت ، وهكذا . فالنوم ضرورى للحياة ، كما أن الحياة والحركة ضروريتان للنوم . وبالاختصار إن النوم أشبه شئ بالموت ، إلا أنه موت وقته ، فكأن الله تعالى يقول : إنه حى باق لا يموت . وإلا فلو جاز عليه النوم لجاز عليه الموت لأنه لا حياة بدون نوم .

وإذا علمنا أن ما كتب عن النوم وعن أسبابه فى الألفين من السنين الأخيرة يملاً مجلدات كثيرة حتى إن بعض الفلاسفة والأطباء فى أوقات مختلفة كتبوا عن إرشادات لمنع النوم لأنه مضيعة للوقت ولا فائدة منه ، ظهرت لنا حكمة الله ، وظهر لنا أن القرآن لا يأتى به الباطل أبداً ، لأنه وضع النوم شرطاً أساسياً لكل حى . وقد اتجهت الأفكار أخيراً — وجميع المشاهدات العلمية تؤكد هذا — الى أن النوم ناشئ من تغيرات كيميائية تحدث من الحركة فى الأنسجة ، فإذا استمرت هذه التغيرات ومنع النوم بالقوة ، أدت الى الموت .

أما إذا تركت وشأنها فأنها تؤدي الى النوم الذى يعيد التغيرات الكيميائية الى ما كانت عليه قبل الحركة . وهكذا تستمر الحالة بين الحياة نهاراً والموت الوقتى ليلاً .

« أوكلذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها

فأما الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم « الآية ٢٥٩ :

من غرائب النوم أن الانسان إذا نام وصحا من نومه لا يمكنه أن يعرف مقدار النوم أكان مدة قصيرة أم آجالا طويلة ، وعليه أن يعتمد على ما يقوله الناس له . وهذا معنى قوله تعالى : « فلما تبين له » لأنه بعد أن نام مائة عام لم يعرف الزمن الذي مر عليه إلا بالفحص وبسؤال الناس الذين حوله . ونوم الانسان مائة عام معجزة ككل المعجزات التي من صنع الله وهي تخلق كل المخلوقات . وسأشرح ذلك في تفسير آيات أخرى . والله لطيف بعباده يختار من طرق الشرح لعبيده ما يتناسب مع عقولهم . وهذا هو أيضا معنى قصة الطير التي أمر بها ابراهيم عليه السلام ، لأن إحياء الطير بعد موته لا يقل في الإعجاز عن خلق آدم أو عن إحياء جميع الموتى . ولكن منح الانسان لا يستطيع صدمات قوية ، إذ عند وقوعها إما أن ينتحر أو يذهب ليه . ولهذا كانت المعجزات في شكل سهل التناول ، مع أن أبسطها هو من مميزات القدرة الالهية ولا يتسنى للعالم كله أن يأتي به .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة - الآية ٢٧٨ :

هذه الآية التي تحرم الربا يترك تفسيرها لعلماء التشريع والاقتصاد ، ولكنني سأتكلم عن نقطة طبية واحدة ، وهي تأثير الانفعالات العصبية التي تحدث عند عدم تمكن المدين من الدفع . وكما شاهدنا حالات أدت الى ظهور البول السكري ، وزيادة ضغط الدم

والشلل ، وأرق قديؤدي الى الجنون ، لأن الاضطراب العصبي في هذه الظروف يزيد مادة الأدرنالين في الجسم ، وهذه تؤثر في الضغط الدموي وإفرازات البانكرياس . هذا الى أن هذه الانفعالات لا تتفق مع النفس المطمئنة التي يخاطبها الله بقوله : « يأتيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » والتي لا تكون إلا حيث يكون الإيمان الثابت .

وقد دلتنا الأزمة الأخيرة على أن الدائن لا يقل ضررا عن المدين ، فقد أفلس أناس كثيرون لأن مدينهم لم يؤديوا ديونهم ، وأكبر المصارف العقارية في العالم كانت في خطر الإفلاس وما زالت ، لأن الزارعين لم يؤديوا ما عليهم ، فاضطر مساهمو هذه المصارف الى أن يشاطروا المدينين في الحالة التي تدهوروا اليها .

وهكذا علمتنا الأزمة أن الدائن والمدين اذا استعملا الربا حق عليهما قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وأما الدائنون من الأفراد الذين يتعاملون بالربا أضعافا مضاعفة ، ويرتهنون أشياء ثابتة لا تنزل قيمتها مثل الذهب ، فضررهم من الوجهة الصحية شديد ، لأن الإثراء السريع يؤثر في الأعصاب أكثر من المصائب ، وذلك لأن الانسان عند حدوث المصيبة يعالج صدمتها بالأمل في زوالها أو التعويض عنها ، وهذه حكمة إلهية لا تقاوم الصدمات . وأما الانفعالات الناشئة من العلو دفعة واحدة فالانسان غير قادر عادة على اتقانها ، لأنه لا يتصور زوالها ، إذ لو تصور ذلك لذهبت سعادته وذهب سروره بها . وكثير من الأمراض العصبية غير العضوية ينشأ من مثل هذه الحالات .

أما الكسب الحلال مثل التجارة والزراعة ، فانه يأتي تدريجا . ومهما كان كثيرا في النهاية فان صاحبه يرقبه من يوم الى يوم ويتوقع الكسب يوما والخسارة يوما آخر . وبهذه الانفعالات الوقية المتكررة يقوى على احتمال الصدمات النهائية من الكسب

روح الاسلام والمذاهب الفلسفية

« وإذا كانت هذه الشرائع حقاً وداعية
الى النظر المؤدى الى معرفة الحق ، فانا معشر
المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهاني
الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد
الحق ، بل يوافقه ويشهد له »
(الفيلسوف ابن رشد)

« وليس في المعارف
الحقة الصحيحة المستقرة
شئ يمكن أن يناقض
أصول الدين ويهدمها »
(الأستاذ المراغى)

بلغ الفكر الانساني طورا ساميا من أطواره في الكشف عن حقائق الوجود ، ولا ندعى أنه منتهى شوطه ، بل لا يمكن لانسان أن يزعم أن للنشاط الفكرى نهاية لأن النهاية إنما تكون المحدود ، ومجال الفكر لا يعرف التحديد . وقد كانت هذه الحقيقة قبل الاسلام سببا في النفرة بين الدين والفكر ، وأخرى أن يقال بين المتدينين والمفكرين ، لأن الدين نبه على حقائق ، وندب القلوب الى اعتقادها ، فاستعصى سبر غورها على العقول ، وأبى الفكر الحر أن يقف أمامها ساهما واجما ، فشئ اليها في ثقة قوية ليكشف عنها ، فاتهض المتدينون لذوده عن مقامه بحجة أن الدين من وحي الله ، فهو سر من أسرار الله ليس للفكر فيه مجال ، فنجم حينئذ ذلك التدافع الدامى فى تاريخ الانسانية .

فلما جاء الاسلام قرر فى أولى حقائقه أنه إذا كان الدين من وحي الله فالفكر من فيض الله ، وبهذا وضع الاسلام قاعدة التآخى بين الفكر والدين ، فتصالحا فى ظله ، وأخذوا فى سبيل هداية الانسانية متعاونين على قيادة الوجود الى سعادة الخلود . ومن ثم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون الدين بفطرة نقية وفكر مذهب ، فلم تعوقهم عقبات الجدل الأجوف عن العمل الصادق فى نشر الدين فى أقطار

الأرض، ففتحوا الأقطار، ومصرفوا الأمصار، ولكن هذه الفطرة أصابها الحياة بالصدأ بعد إذ بعد العهد بنور الوحي، فاحتاجت في أخذها الدين وفهم حقائقه الى أداة من البحث، وكانت علوم الأوائل قد وصلت الى أيدي المسلمين، فلم يحجموا عن النظر فيها والاستعانة بها، لأنهم وجدوا من الاسلام ديناً آخى بين الفكر والدين، وهذه المؤاخاة هي روح الاسلام الخالدة.

وإذا كانت الفلسفة آية من آيات الفكر الانساني، فهي من صميم الاسلام، لأن الفلسفة ليست شيئاً أكثر من النظر في الموجودات، وتعرف صلتها بالخالق، وإبراز خصائصها. وهذا المعنى هو الحكمة في لسان العرب، والحكمة جعلها الله من أعظم مننه على أخصاء عباده، فقال تعالى: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

تناول مفكرو المسلمين علوم الغايبين ومذاهبهم الفلسفية بالنظر، وخاضوا خضمها، ودرسوا مذاهبها في الإلهيات والطبيعيات، والفلسكيات، وعلوم النبات والحيوان بمقول راجحة، لا ترد الحق، ولا تقبل الباطل، قال الفيلسوف ابن رشد: «ينبغي لنا أن نضرب بأيدينا الى كتبهم (الأوائل) فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صواباً قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه».

نعم لم يسلم فلاسفة الاسلام من النقد والتحامل في فترة قصيرة من الزمن، فشن بعضهم الغارة على أمراء الفكر، وقادة الرأي، ورموهم بالزندقة، ولكن ما لبثت هذه السحب أن تقشعت، تخلف المفكرون لنا ثروة علمية و ذخيرة أدبية يدوم لنا خمرها مادام أمر الفكر الانساني نافذا في الوجود.

عرضوا لأدق النظريات الفلسفية فبحثوها، وأثبتوا لهم فيها رأياً قوياً تكنفه الحجة الصادقة، ومحوطه البرهان المبين. فابن سينا لم يترك نظرية إلا درسها وكتب

فيها محققا نافدا ، والفارابي لقب لعظمته في البحث بالمعلم الثاني ، وابن رشد قالوا عنه إن كتب أرسطو ما كانت لتصل الى أيدي الناس لولاه ، وأبو حامد الغزالي الملقب بحجة الاسلام سبق (ديكارت) بتقرير نظرية الشك عند البحث حتى لا يسيطر التقليد على الذهن ، فقال في كتاب (ميزان العمل) : « ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً ، فإن من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة » .

هذا حال علماء الاسلام الأقدمين في فهم روح الاسلام ، وإقبالهم على دراسة المذاهب الفلسفية على اختلاف اتجاهاتها ، وبلوغهم فيها درجة جعلتهم أعلام الدنيا ، فاشأنا نحن ؟ وكيف فهمنا روح الاسلام ؟ وما موقفنا من دراسة ما جدّ في الحياة من مذاهب فلسفية قامت عليها حضارة العالم ؟ وكم في عداد المسلمين الآن من فيلسوف ؟ بل كم فيهم من مطلع على الفلسفة اطلاع المفكر الحر ؟ إن الجواب على ذلك مؤلم مؤسف ، ولكن علينا أن نجابه الحقيقة العريانة لنفهم أنفسنا ، ونفهم مكاننا الصحيح من ديننا وتاريخنا ، فذلك أجدى علينا من المراوغة والمداورة .

منذ خمدت الحركة الفلسفية الاسلامية في الأندلس ، وانتقلت الى أوروبا ، سارت مترسمة خطواتنا حيناً من الدهر ، ثم ارتقت فابتكرت مذاهب جديدة صعدت بها الى ذروة المجد ، وبقينا نحن متخلفين ، بل بقينا منكرين ساخطين ، فتأخر تفكيرنا وجدت قرأنا وأصابنا العقم ، فما نتيج شيئاً فيه ربحنا وعليه طابع ديننا .

جدّت مذاهب في بعضها هداية نحن أحق بالسبق إليها ، وفي بعضها إلحاد وزنغ نحن أحق بفهمها لنتقدها ونزيف باطلها ، وجدّت مذاهب في الطبيعة استخدمت بها أوروبا مرافق الوجود في السماء والأرض .

من الذي درس من المسلمين مذهب (دارون) في النشوء والارتقاء وطابق بينه وبين ما يقوله القرآن الكريم في أصل الانسان ؟ ومن الذي بحث نظرية الجاذبية

التي كشفها (نيوتن) وعرف صلتها بقول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » والله جل شأنه لا يمسك السماء والأرض كما يتصور الجاهلون ، وإنما يمسكهما بناموس الارتباط العام بين ذرات العالم أجمع ؟ ومن الذي درس من علماء الاسلام مذهب استحضر الأرواح وعرف صدقه من كذبه ، وقد ملأ دونه الدنيا ، وقلب كثيرا من الحقائق كان يدين بها الماديون ؟ ومن الذي درس مذهب (ديكارت) وعرف فرق ما بينه وبين مذهب الغزالي ؟ ومن الذي درس نظرية النسبية التي وضعها (انشتين) وعرف قيمتها ؟ ...

أنا لا أنكر أن أفرادا من أذكى المسلمين منتثرين هنا وهناك وجهوا أفكارهم هذا الاتجاه الصالح ، فدرسوا واطلعوا ، ولكنهم قليلون ، وهم مع قلتهم لم يبلغوا أن تكون لهم آراء تقوم الى جانب آراء فلاسفة الغرب كما كان لأسلافنا من الاستقلال الفكري ، ونحن لا نريد أن نقف من الحياة موقف المتفرج ، ولا موقف المقلد ، لأن ديننا وتاريخنا يبيان علينا ذلك الجحود ، ويحثنا على النظر والدرس : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ »

إن الأزهر ، وهو أعظم معاهد الاسلام ، يجب عليه أن يمد يده الى هذه المذاهب الحديثة ويدرسها ليخرج فيها فلاسفة يقودون الأمة الى مصراقي الفلاح ، وإنه لا فلاح لأمة جامدة التفكير . يقول الفيلسوف ابن رشد : « يجب علينا إن لقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك ، وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » . بهذا النحو من التفكير تقدم ابن رشد على الناس : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية

وأن تخلط الرجال وتشاركهم في الأعمال ؟

كتب الينا كاتب فاضل يقول : يرغب بعض الشبان اليوم أن تتعلم المرأة المصرية العلوم العالية ، وأن تخلط الرجل وتشاركه في الحياة العملية ، زعما منهم أن في هذه الخلطة والمشاركة فائدة لها والمجتمع ، ويرى غيرهم أن ليس لها ذلك ، فهل لكم أن تبينوا الحق في هذه القضية من النواحي الاجتماعية والأدبية والدينية ؟

ونحن نجيب حضرته بأن الاسلام لم يضع للنشاط العقلي للمرأة حدا ، فأباح لها أن تتوسع في العلوم ما أمكنتها الفرص من ذلك ، وما ساعدها عليه استعدادها ، ولم يمنعها أن تبث علمها في الناس ، ولم يحظر على الرجال الأخذ عنها ، بل روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة أم المؤمنين . وقد روت ما رآته من سنته ، وما وعته ذاكرتها من كلماته ، وأخذته الرجال ، وكانوا يقصدونها ليستزيدوها علما . وما كانت هي تضن عليهم بذلك .

ورويت لغيرها من نساءه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة أخذها عنهن المسلمون وعملوا بها .

واشتهر في التابعين نساء أخذن العلم وبرعن فيه ، منهن ابنة سعيد بن المسيب ، ومما روى عنها أنها لما تزوجت وبكرت زوجها خارجا ، سألته أين يذهب ؟ فقال لها الى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد .

فالمسلمون في الصدر الأول لم يروا بأسا من أن تتلقى المرأة العلوم العالية . فلما استبحر العلم فيهم ونبغ فيهم الأئمة أصحاب المذاهب ، لم يروا أحد منهم بأسا في تلقي المرأة العلوم العالية ، بل سمحوا لها أن تجتهد إن بلغت درجة الاجتهاد ، وجوز بعضهم أن تلي القضاء ، وأن تفتي المسلمين .

وقد دل تاريخ المسلمين في جميع أدوارهم أن نساء بلغن درجات عالية في الأدب وسائر العلوم ، ولم يوجد من أنكر ذلك عليهن على أى وجه من الوجوه .

أما مشاركتها للرجل في أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة والعلوم العصرية نفسها تنافيا ، وترى فيها خطرا عظيما على المجتمع .

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة ، التي اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع الانساني وتربيته ، تكلف ، فوق ما تعانيه من المشاق ، مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم في الشوارع والأزقة وهم في أشد الحاجة الى حمايتها ورعايتها .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم أن يضمنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية ، اللهم إلا هجما متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية ، فيجلس رجالهم لايعملون شيئا ويسرحون نساءهم ليجلبن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها ، وما يصطدنه من بعض الحيوانات الصغيرة ليقننوا بها ، كما تفعل الوحوش الضارية ، فهؤلاء لا يقيم لهم وزن ، ولا يعبأ بهم في استدلال .

وأما العلم فقد قال كلمته الأخيرة في هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها في كل مناسبة . وإنا نؤتي القارئ خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب النظام السياسي على مقتضى الفلسفة الوضعية للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسي ، واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران ، قال : « ينبغي أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية . وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملا ماديا ، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ليتفرغن

فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية : من حمل ووضعه وتربيته . ومن جهة أخرى فإنه لو سمح للنساء ، على ضعفهن ، أن يشتغلن خارج بيوتهن ، تعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال ، فلا ينلن بجانبهم إلا الحثالة التي يعفون عنها ، فيقعن في الفاقة ولا يجدن القوت إلا تبلفا . بله الضرر الفادح الذي يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة ، وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة » .

هذا رأى العلم الحق ، أما ما يكتب ضده وينقله عنهم المفتونون بالمظاهر منا ، فهو رأى جمهرة من قصصيين وكتاب إباحيين يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة ، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية ، وغرضهم من ذلك ترويح كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية ، والخروج مما رث وبلى من التقاليد الوراثية .

وقد أثرت هذه الكتابات في أوروبا والشرق بسبب أن الناس ميالون الى قراءة الأقاصيص ، والكتابات السطحية التي توافق غرائزهم الشهوانية ، فتكوّن رأى عام على أصالة هذه النظرية ، فاندفع الناس في تحقيقها اندفاعا جنونيا ، فهجر النساء الدور وأقبلوا على الأعمال الخارجية ، وكان من أثر هذا الاختلاط ذبوع عادات لا تتفق والحياة الصالحة ، كانت شرا مستطيرا على الزواج المشروع ، فكثر الأخدان والخدينات ، وطمت العلاقات الخائنة بين الجنسين ، وشاعت العزوبة بين الشبان ، وأصبح التبرج المخالف للذوق السليم عادة مألوفة ، واستهتر الناس في ذلك حتى أصبحوا يرون أن بروز النساء نصف عاريات ضرب من ضروب الأناقة ، ووجه من وجوه الظرف ، وحتى صار مما يروقهـم أن تصور لهم الجرائد اليومية التي يقرءونها صور الخليعات المتهتكات ، فيصرفوا في التأمل فيها وقتا ثمينا ، ويدعوها لأبنائهم وبناتهم غير خاشين أن ذلك يؤثر في آدابهم تأثيرا شنيعا .

ولكن الانسان متى اعتاد شيئا وألفه ترقى فيه وأبلغه الى أقصى أطواره ، فانهى

أمره بأن لا يقنع بالعرى النصفى ، فأوجد العرى الكامل فى بعض المسارح التى يتردد عليها . فهل وقف به التطور فى الخنا الى هذا الحد ؟ لا ، ولكنه أبى إلا أن يبلغ به الى ما بعده ، فابتكر مبدأ العرى فى الأحوال العادية لا على المسرح فحسب ، وأسس أنديته فى أكبر عواصم بلاد المسدينية يجتمع فيها رجال ونساء ، فيتجردون من ثيابهم ويمضون ساعات طويلة على تلك الحالة فى مخاصرات وألعاب رياضية ، وما تجر اليه من ضروب المنكرات ، ثم يلبس كل منهم ثيابه ويعود الى بيته .

نعم إن الحكومات تضيق الخناق على هذه الأنديته ، وتطارد أصحابها ، ولكنها عاجزة عن ملاقاتها ، وهى تزيد انتشارا يوما فيوما .

أفتظن أن تطورات الانسان فى هذا الباب تقف عند هذا الحد ؟ اللهم لا ، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان من حدوث قوارع جائحة ، ومثلات ما حقة ، يقتضيها هذا العمل الحيوانى البحت ، فيرد أصحابه عنه صاغرين : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

هذا ولو دقق الباحث فى شئون العالم ، وشخص علل المجتمعات العصرية تشخيصا علميا دقيقا ، لراى أن أكثر ما تشكو منه هذه المجتمعات من تدهور أدبى ، وتعدد اجتماعى ، واضطراب مالى ، منشؤه تسامحها فى تهتك النسوة ، وتركها حبالهن على غواربهن .

نعم إن من غرائز المرأة التصون ، ولكن الرجل لا يفتأ يخذعها بالمسؤوليات والمغريات ، ليميت هذه الغريزة فيها ، ويطوح بها الى ميدان الإباحة ، وقد أنجح فى إغوائها الى حد بعيد ، فهى اليوم تتبع خطواته ، ولكنه قد بدأ يتبرم بها ، حتى إن أشد المولعين بفتنتها أخذ يشهر بتهتكها ، ويبنى أقاصيصه على إغراقها فى تبذرها .

وقد خسرت المرأة من استسلامها لهذه الآراء الضالة كل مميزاتها ، ولم تستعص عنها شيئا مما وعداها به مضللوها .

كانت المرأة ممنوعة في سُر من العزة ، فأصبحت بهذا التهمك مبتذلة . والتهمك في حقيقته مبالغة في عرض النفس ، وكل معروض مهان كما لا يخفى . والاضراب عن الزواج مظهر من مظاهر هذا الهوان . فكان المرأة بكثرة عرضها نفسها على الرجال قد فقدت أعز شيء عليها وهو عرشها !

وكانت المرأة في الدار حاجة من حاجات النفس ، يسكن إليها الرجل ليروح عن نفسه ، فأصبح الرجال لكثرة اختلاطهم في الحياة العملية بالنساء يتطلبون وقتا يخلون فيه لأنفسهم بعيدين عنهن ، فكرهوا الزواج ، وأرادوا أن تكون بيوتهم خلوا منهن ، لأنه لم يبق معنى لاستمرار العيش معهن خارجا وداخلا !

وكانت المرأة تُدخِر لأداء أسمى مهمة في العالم وهي تربية الصغار ، وتلقينهم مبادئ الآداب ، وأصول الأخلاق . وقد أظن الفلاسفة والمربون في خطورة المدرسة البيتية ، فجردت المرأة بتأثير هذه التعاليم الفاسدة من وظيفتها الشريفة ، وأسندت إليها وظائف مبيدة لكرامتها النسوية في المراقص والمقاهي ودور التمثيل والسينما . وكسرت الإباحيون وراء كلمة الفنون الجميلة ، فأحدثوا انقلابا خطيرا في حياة المرأة ستجني الانسانية شروره أجيالا طويلة .

هنا يشور علينا نازر فيرفع عقيرته قائلا : أنتم تريدون أن تسجنوا المرأة ، وأن تذلوها ، وأن تستغلوا مواهبها ، وأن تسلبوها استقلالها ، وأن تجردوها من كل عمل تكسب به قوتها ، وتحتل به مكانها تحت الشمس .

كلمات جوفاء ! استخدمها هؤلاء الثائرون على نظام الطبيعة في استدراج النساء الى الحياة الإباحية ، ولا يزالون يستعملونها استر خطيئتهم الفادحة . ولكن على من كل هذه الثروة ؟ أعلى أرفع الناس عقولا من الفلاسفة والاجتماعيين ، أم على الذين يرون بأعينهم المخازي التي جنوها على مجتمعاتهم وضاعت فيها حيل المصلحين ؟ !

إن الناس يشهدون اليوم تدهورا خلقيا ، وانحطاطا أدبيا ، لم يرو تاريخ البشر له

مثيلاً ، فإذا كانت حياة النوع البشرى لا تقوم إلا بانغماسه في هذه المقاذر ، فأهونُ بها من حياة تموت معها جميع الغرائز الانسانية الكريمة : من الغيرة على العرض ، والحرص على الكرامة ، والترف عن الفحشاء ، والتزهد عن النقيصة !

لو كان الانسان خلق بهيما لعاش عيشة البهائم ، ولما ناز على هذه المقاذر ، ولكنه خلق إنساناً ، فهو كما يشعر بشهوات جنسية ، وأهواء نفسية ، كذلك يشعر بميزات معنوية لم يمنحها الحيوان ومنحها الانسان ، لتصدده عن النزوات البهيمية . فالانسان قد ينحط ، وينحط ، ويتغلغل في الانحطاط الى أبعد حد ، ولكنه لا يفقد مميزات المعنوية مهما أراد أن يفقدها ، فلا تزال به حتى تربيه تلك المقاذر على حقيقتها ، فيثور عليها ، ويدفعها عن نفسه في شئ كثير من العنف والجبرية .

ودليلنا على هذا أن الانسان كثيراً ما سقط في مهاوى الرذيلة حتى ظن أنه لن يخرج منها ، وأنها قتلت كل ما فيه من غرائز شريفة ، ولكنه لم يابث أن يفضيها عن عاتقه ، ويخرج منها يتطلب الحياة الصحيحة . لو كان الأمر جارياً على غير هذه السنة لما رأيت للفضائل دولة في الأرض بعد أن بلغت الرذيلة أقصى مداها في أدوار كثيرة من حياة البشرية .

فأما ما يشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها ، وسلبها استقلالها ، فتلك صيحات يقصد بها التهويل ، وطمس معالم الحقائق ، وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها ؟ وهل يطالبها المصالحون المعاصرون بنير ذلك ؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الانسان بما خلق له سجن له ، فكلنا إذاً مسجونون ، من أول المؤلف في مكتبته الى المعدن في منجمه . وإذا كان هذا يستقيم في الفهم فلتعتبر المرأة مسجونة كجميع أبناء نوعها ، إذ لا وجه لاستثنائها منهم .

أما استقلال المرأة فلا يعنى في علم الاجتماع شيئاً غير الشذوذ عن الربط الاجتماعية ، فإن المرأة خلقت لتكون زوجة ، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة ،

فلا معنى للاستقلال هنا مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين . ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا في الكلام عن الحب والمحاولات الغرامية واغتيابات الزوجية ، فهم يلوّحون بهذا الاستقلال للمرأة ليسوَّغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية ، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها . وإذا كان مملى النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون ، فعلى الاجتماع البشرى العفاء وسوء المنقلب .

ويقولون : أريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها ؟ ونقول نحن : لا ، فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية ، لأن الله خلق النساء على عدد الرجال مع تفاوت لا يعتد به هنا تارة وهناك تارة أخرى . ولكنكم أنتم بتسويلا تكملها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال ، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة كما قدمنا . وشيوع العزوبة يفضي الى وجود جيوش من النسوة لا يجدن القوت ، فيضطرون للعمل مع الرجال . والعمل مع الرجال يزيدكم إغراقا في العزوبة للأسباب التي لا نخفي على أحد . فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل في العمل الخارجى . نعم : هو إذلال لها أى إذلال ، فإنها لم تخلق لمتن كباثة أو كاتبة أو سائقة أو تومويل أو سمسارة أو حوزة الخ الخ ، ولكنها خلقت لتكون ربة بيت ، وأن هذا البيت لو كان كوخا حقيرا فهو أكرم لها ، وأحفظ لميزاتها من أن تكون باثة أو كاتبة أو سكرتيرة . ولسنا ننكر أن المجتمع مهما بالغ في المحافظة على النظام الطبيعى حيال النساء فسيوجد منهن من يعوزها القوت ، ولكن عدد المعوزات يكون قليلا يمكن الحكومة الرشيدة من تدير أعمالهن تليق بكرامتهن .

ولكنكم أيها الثائرون لا يعينكم قوت المرأة ، وإنما يعينكم أن تجدوا بطلات لا قاصيصكم من المائلات الميلات ، وما لكم والنساء العاملات التي تلفح وجوههن النار ؟ فليس مقصدكم المدافعة عن النساء ولكن إخراجهن من خدورهن ، وما إكثاركم من ذكر استقلالهن وحقوقهن إلا لستر لمبادئكم الاباحية .

وقد فطنت أوروبا وأمريكا لما يبتنى على عمل المرأة وحريتها المفرطة واستقلالها من المضار على الشئون الاقتصادية ، فأخذ مصاحوها يضعون حدا لعملها الخارجى ، ويدعونها للدخول فى خدرها ، وقد أخذت هذه التحولات شكلا عمليا فى كثير من الأمم الصناعية كالولايات المتحدة والمانيا وايطاليا ، ولا بد من أن تبلغ أقصى غاياتها فى مستقبل ليس بالبعيد .

هنا يسوغ لى أن أرفع صوتى عاليا ، مؤكدا أن الفطرة الانسانية الكريمة أحكم من أن تقع فى هذه الفخاخ الشيطانية ، فتدع هذه المدنية التى حصلتها ببذل جهود جبارة وفى قرون عديدة ، تنحل وتتلشى تحت تأثير السبب نفسه الذى حل ولاشئ المدنية الرومانية من قبل ، وهو تبرج النساء وطغيان الميول الإباحية . فإن عجز المصالحون عن قمع هذه الميول فليست هذه المدنية بأكرم على الله من المدنيات التى سبقتها ، فإنها تنوء تحت عللها القاتلة ، وتصبح كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وتحل محلها مدنية يعرف أهلها كيف يحافظون على الحدود التى حددها المبدع الحكيم للخلق : « ومن يتعمد حدود الله فقد ظلم نفسه »

محمد فريد وهبى

الوصية بالمرءة

كان عبد الملك بن مروان يقول : يا بنى أمية أحسابكم أعراضكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فإن الدم باق ما بقى الدهر . والله ما سرنى أنى هجيت بيت الأعرشى ولى طلاع الأرض ذهباً ! وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

يبيتون فى المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرنى يبتن خمائصا
والله ما يبالى من مدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرها ، وهما قول زهير :

هنالك إن يستخبوا المال يخبلوا وإن سألوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين الساحة والبذل

الإخلاص في القول والعمل

داعية السداد

لم تقم عمارة هذه الدنيا منذ عهد الخليفة بالوجود ، ومنذ تضافرت القوى على بناء الاجتماع وإنشاء مؤسسات الخير كأفضل ما يدل على عظم هذا الوجود من أثر ، إلا على إخلاص المخلصين . فبالإخلاص الجماعة ، وهو أول دور من أدوار الاجتماع ، يسعد المجتمع في آجله وعاجله . وبقدر ما يشيع الإخلاص في عمل العاملين له يكون النجاح والفلاح .

أسس الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم مجموعة صالحة كانت هدى ورحمة ، وبشيرا بإسعاد الخلق ، فقامت من بعدهم خلف على أقدامهم وصلوا سلسلة الاجتماع ، ثم تابعوا السير فأنشأوا بقوة ما حملوه من رسالات ، وأدوه من أمانات ، تراثا إلى الأمام مجيدا يتوارثه الأَخلاف عن الأسلاف ، ويستضيء به الأَعقاب ويتخذونه لهم شرعة ومنهاجا . أرايت شيئا في هذه الدنيا قام على غير الإخلاص ؟

لقد كان الإخلاص ولا يزال نورا يهتدى به الأئمة والرؤساء ، والزعماء وأولو الرأي من العلماء . والله سبحانه أبى إلا أن يفتح للمخلصين إلى الخير طريقا ، لأن الإخلاص معناه تمحيض القلب لله وتجريده عما عداه . من أجل ذلك لم يأخذ الله الناس بأعمالهم فحسب ، بل أخذهم أيضا بنوايا قلوبهم ، فإن كانت النية معقودة على الخير ثم اقترنت بعمله فعلا كان الأجر عليه مضاعفا . وهذا يفسر حديث ابن عباس عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله عز وجل قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك : فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها

الله عنده عشر حسنات إلى سبعةائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيدة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيدة واحدة » . (١)

ومما هو جدير بالتنويه أن الإخلاص فوق ما أعد الله له من مثوبة ومضاعفة إحسان ، يتعجل المثوبة في الدنيا ، كما يتعجل عكسه العقاب . فالخلصون يجرون بأعمالهم خيرا في الحياتين العاجلة والآخرة ، وهذا من الله سبحانه تمكين لقلوب المخلصين في الاطمئنان إلى الجزاء الأوفى ، وترغيب إلى من ينهج نهجهم في تلك المثوبة حتى تعم مجموعة من الخير أنواعا من العباد ، فيتضاءل الشر في القلوب والجوارح ، ويشيع الخير فيها فينمو العمل الصالح ، فتتوثق روابط الاجتماع ، وتتعاوض الجوارح ، وتتآخى القلوب . فما هلكت الأمم السابقة إلا لأنهم فقدوا نعمة الإخلاص ، وأعوذهم الصبر على المسكاره والويلات ، وأدركهم المعجز عن الإخلاص والوفاء لله ، فنشروا في آفاقهم الختل والخديعة ، والملق والرياء والمداورة ، فانهار بناء قوميتهم ، وتحلت منهم العزائم ، وضعفت في نفوسهم الآمال . وما حيت الأمم وكتب لها الوجود في صحيفة الخلود بآثارها ومناعة أخلاقها وقوة عقائدها وصحة ذوقها وسلامة منطقها ونضوج عقليتها إلا بالإخلاص . فالإخلاص وحده ملاك الخير وعتاده ، وقوته وسناده .

فإذا ترامت إليك الأنبياء بإخفاق الزعماء وذل العلماء ومهانة الرؤساء وفناء الكبراء في أمة من الأمم ، فلك أن تستخلص من آيات فسادهم وعنوان ضعفهم أنهم فقدوا الإخلاص في جميع مناحيه ، واتخذوا إلههم هواهم .

فالإخلاص حين يقترن بالأعمال وتتفاعل به النفوس المطمئنة ، ينشأ عنه تفاعل مطرد البقاء بين أجزاء المجتمع ، قال الله عز من قائل : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

تأريخ الألفاظ في اللغة العربية

كلمة (الأدب) وأطوارها

— ٢ —

عرضنا في المقال السابق الى رأى الباحثين العصريين من أنصار الماضى الذين جددوا فى طرائق الأداء ، وقلدوا فى الاتجاه والموضوعات . والتقليد فى الاتجاه تجديد فى الأدب العربى لأنه تقليد لباحثين جدد ليسوا من عصارة الفكر العربى ، ففهموا الأدب العربى طبقا لبيئتهم وطبيعة تفكيرهم ، فأحسنوا كثيرا فيما يتصل بالطبيعة العامة للتفكير الإنسانى ، ولكنهم أساءوا فيما يتصل بالطبيعة الخاصة بالعرب والاسلام بل بالشرق عامة .

وأما التقليد فى الموضوعات ففيه خير كثير ، وليس هو محض الخير . هو خير لأنه قائم على أساس من الحياة ، لأن قديمنا حتى بلغته وأساليبه ، وحتى بما أكسبه الاسلام من أفكار خالدة . وهو شر لأنه يقف بالعقول عند أدنى مراحل الحياة ، وهذا حكم بالعمى على الفكر الإنسانى يحجزه عن الخلق والابتكار ، وليس فى طبيعة الفكر الخضوع لهذه القيود التى ترفضها الحياة ، ويأبأها تطور الزمن .

وسنعرض فى هذا المقال الى رأى الباحثين العصريين الذين أغرموا بالثورة على الماضى ، ثورة جامحة فى كثير من الأحيان ، وثورة فيها شئ من الاعتدال فى بعض الأحيان . وهؤلاء مقلدون فى طرائقهم وموضوعاتهم لباحثى الغرب من المستشرقين ، وهم مجددون فى التطبيق لنظريات أولئك الباحثين ، أى فى إخضاع لغتنا وأساليبنا وتفكيرنا وطبيعتنا لتلك القوانين التى وضعها المستشرقون للأدب العربى .

أنصار هذا الاتجاه (النأثر) يأبون التسليم لتلك الشواهد القليلة التى ساقها الأولون فى بيان أطوار كلمة (الأدب) ويحاولون تتبع تاريخ الكلمة مستندين لأطوار الحياة

العربية وأوضاعها أكثر مما يستندون الى تلك النصوص التى يشكون فيها شكاً عريضاً ، وينكرونها إنكاراً جاحاً يقتلعها مع أشخاصها وقبائلها من وجه الأرض .

هذا الاتجاه على ما فيه من غلو وإفراط يسبح به فى عالم الخيال ، قد يكون مفيداً للأدب العربى فى توجيهه وجهة من الحياة يتطلبها الفكر العصرى ، ومفيداً أكثر فى تنبيه الأذهان الى إعداد العدة لدفع الهجوم ، ويفرط فى التشاؤم من يخشى على الأدب العربى من هذه الثورة فى البحث لأنها فى مقدمتها إنما تعتمد على الفرض والتخمين .

وقد اخترت بعد إنعام نظر وطول تفكير أن أمثل هذا رأى فى باحثين قد لا يخرج كلام غيرهما من أنصار هذا رأى عن كلامهما .

يقول الأستاذ المستشرق (نلينو) : إن كلمة « أدب » مشتقة من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أنها لم تشتق من المفرد وإنما اشتقت من الجمع ، فقال لقد جمعت « دأب » على « أداب » ثم قلبت فقلبت « أداب » كما جمعت بر ، ورثم ، على آبار ، وآرام ، وكثير استعمال (الآداب) جميعاً للدأب حتى نسى العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه مفردة (أدبا) لا (دأبا) وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعى القديم الى معانيه الأخرى المختلفة .

قال الدكتور طه حسين ناقداً لهذا رأى بعد سوقه فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) وظاهر أن رأى الأستاذ نلينو كراى غيره من أصحاب اللغة يعتمد فى أصله على الفرض ، فليس لدينا من النصوص أو القرائن العالمية الواضحة ما يبين لنا أن لفظ (الأدب) قد اشتق من (الأدب) بمعنى الدعوة الى الولاة ، أو قد اشتق من الآداب جمع دأب . نأخذ هذا النقد فى جانب البحث ، ونضيف اليه أسئلة لا يمكن أن يسلم هذا رأى ولو خلص من نقد الدكتور طه إلا إذا أجيب عنها ، فالأستاذ نلينو لم يقل متى كان هذا الاشتقاق حتى يعتمد عليه تاريخ الكلمة ؟ وكيف كان الاشتقاق من الجمع ؟

وما نظيره في لغة العرب ؟ وفي أى مذهب من مذاهب علماء اللغة كان الجمع أصلا من أصول الاشتقاق ؟ وفي أى عصر استعمل العرب هذه الكلمة بمعنى العادة ؟ وأى معنى من المعاني الأخرى كان أسبق في الانتقال إليه من هذا المعنى الطبيعي ؟ وما معنى كون هذا المعنى طبيعيا ؟ وإلى أى عصر يمتد قدم هذا المعنى الطبيعي ؟ وكيف خيل إلى العرب أنه جمع لا قلب فيه ؟ وكيف أخذوا مفردة أدبا ، لا دأبا ؟ هل كان ذلك بطريق تعليمي ، أو هى السليقة تخيلت وأخذت ؟ !

على أن التنظير بلفظ بئر ورثم الذى سنده الأستاذ نلينو رأيه ليس تاما من كل وجه ، لأن « بئر ورثم » وإن أقاما الشبهة في جانب القلب يبقى جانب الاشتقاق معها لا يسنده شيء ، وهو الأصل في البحث .

ويقول الدكتور طه حسين : إنه ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ الأدب وما يتصرف منه من الأفعال والأسماء قد كان معروفا أو مستعملا قبل الاسلام ... ويعمدى الدكتور طه هذا الحكم الى زمن صدر الاسلام ، ويرى أن حديث « أدبى ربى فأحسن تأديبى » لا يثبت حكما لغويا إلا إذا ثبت ثبوتنا لا يقبل الشك أو كان من الراجح على أقل تقدير أنه صح بلفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهو لا يحفل بالكلام المحمول على الخلفاء الأربعة مما يستشهد به مؤرخو الأدب ، بيد أنه يسلم أن هذه الكلمة (الأدب) كانت شائعة مستفيضة أيام بنى أمية ، وأن أول معنى استعملت فيه إنما هو التعليم ، ثم خلاص الى فرض افترضه كما افترض من قبله الأستاذ نلينو فقال بعد تمهيد في تأثير لغة قريش في لغات العرب وتأثيرها بها : فإذا لم نجد مادة الأدب في لغة قريش ، ولا في العبرانية ، ولا في السريانية ، فليس ما يمنع أن تكون هذه الكلمة قد دخلت في لغة قريش إبان العصر الأموى ، انتقلت إليها من إحدى اللغات التى ضاعت .

من هذا الفرض الطريف الذى فرضه الدكتور نفهم أنه يؤمن بأن العرب عرفوا

مادة (الأدب) في عصرهم الجاهلي القديم ، وإن كان هو لم يفصح عن المعنى الذي استعملت فيه المادة ، ولم يبين عن الصيغ التي تداولها أولئك العرب الأقدمون في إحدى اللغات العربية التي ضاعت ، ومنها انتقلت الى لغة قريش . وكذلك لم يصرح بالسبب في عدم معرفة لغة قريش لهذه المادة معرفة (ذاتية) تقتضيها دواعي التعبير ، أو معرفة مستعارة من إحدى أخواتها في العصر الجاهلي .

ونحن نؤمن هذا الإيمان بأن العرب عرفوا مادة (الأدب) في العصر الجاهلي ، ونؤمن إيماناً زائداً بأن لغة قريش لم تتخلف عن صواحباتها في هذه المعرفة .

وسنتحدث في مقال مستقل عن قيمة النصوص الأدبية المعزوة الى العصر الجاهلي واختلاف اللغات ، والحياة الأدبية لدى العرب ، وتوحد لغة الأدب في ظل لغة قريش قبل مجيء الاسلام ، ومناقشة دواعي الشك في تلك النصوص . وستعلم أن هذه الحياة الأدبية كانت إذ ذاك خصبة ممتعة قوية ، فيها من المعاني والمعارف ما يجعل وجود مادة الأدب في لغتهم يسيرا معقولاً ، لأن اللغة في حقيقتها ووجودها تعبير عن مظاهر الحياة ودواعيها . ولسنا نفهم أى مانع يحول دون صحة هذا البيت :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآداب فينا ينتقر

إذا جاءنا عن طريق الرواية الراجحة أن عربياً جاهلياً يقول الرواة إن اسمه طرفة ابن العبد قاله متمدحاً به ذا كرا مجد قومه بأخص صفات العرب وهى الكرم والجود ؟ وهو يهدينا الى أن العرب في عصرهم الأول عرفوا مادة الأدب بصيغة اسم الفاعل وبمعنى الدعوة الى الولائم .

وإذا قرأنا في بعض كتب الأدب المعتبرة عند أئمة الأدب أن امرأة عوف بن محم الشيباني أحد سادات العرب في الجاهلية تقدمت الى ابنتها حين أريد حملها الى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة بنصيحة الأم المجرية الى الفتاة الغريبة الحديثة العهد بحياة الزوجية وإدارة البيت فتقول فيها : أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل (أدب)

تركت لذلك منك . فليس من حرج يقف دون أن نفهم أن مادة الأدب جاءت مجيئاً آخر في صيغتها ومعناها ، فمن جهة الصيغة استوت نصاً في الموضوع — كما يقول الأصوليون — ومن ناحية المعنى فقد نحت نحواً جديداً غير الدعوة إلى الولائم ، وأصبحت تؤدي معنى التهذيب والتعليم وحسن الخلق .

وإذا حدثنا أبو الفرج في الأغاني أن المندر الأ كبر أهدى إلى أنوشروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأ كبر ابن أبي شمر الغساني ، فكتب إليه بصفقتها ، وقال في ثنايا كتابه : « قد أحكمها الأمور في الأدب » فلا علينا أن نجري هذا النص مجرى الشاهد المؤيد لحجة عرفان العرب الجاهليين هذه المادة وذهاهم بها مذاهب متنوعة . قد يكون بعض هذه القصص مصنوعاً موضوعاً ، ولكن تعددها يحميها من البطالان مرة واحدة ، وهي على الأقل تفيدنا أن العلماء والرواة كانوا مطمئنين إلى أن هذه المادة مما كانت تعرفه لغة العرب الأقدمين ، وهذا الاطمئنان لا تتمسك به كدليل على إثبات حكم لغوي ، وإنما هو سبيل إلى الحجة العامة ، وإن لم تعتمد على شاهد جزئي ، لأن ذبوع المادة اللغوية بصيغ كثيرة وتداولها على الألسنة يحتاج إلى زمن طويل يصقلها ويذيعها ويشهرها بعد ولادتها ، وأما قدرنا زمن واضع إحدى هذه الروايات الأدبية فلا بد من امتداده إلى الماضي بالنسبة للمفردات زمنياً كافياً لجعلها مألوفة الاستعمال ، وهو لا يقصر بها عن الامتداد إلى العصر الجاهلي ؟

صادق إبراهيم عربزاده

فضل الرجال بالأعمال

قال عبد الله بن المبارك : كل من ذكر لي عنه شيء وجدته دون ما ذكر عنه ، إلا حيوة ابن شريح وأبا عون .

ومما أثر عن حيوة هذا وخلفه في سجل مناقبه أنه قد يكون في الدرس فتاً في أمه فتقول له : قم يا حيوة ألق الشعر للدجاج فيقوم . وهذا أبلغ ما عرف من طاعة الأمهات .

كلمات حكيمه

لفضيلة الاستاذ الاكبر

خليق بهذه المجلة أن تنصّب كل كلمة تصدر من حضرة صاحب الفضيلة الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى فتدونها وتطرف بها قراءها، لأنها كلها، وإن تعددت مواضعها، ترمى لغرض واحد وهو الاصلاح الذى ينشده المسلمون فى بقاع الأرض كافة، ويرجون أن يبلغ كماله على عهده .

وإن فى الكلمة الموجزة التى ألقاها فضيلته فى الاحتفال بافتتاح المعهد الدينى الذى أنشأته جمعية المحافظة على القرآن الكريم بمدينة دمنهور لأصولا من الاصلاح الاجتماعى والأدبى يتعين على كل مسلم أن يقرأها ويتفهمها ويعمل على تحقيق أغراضها . قال حفظه الله :

صدق الله العظيم . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

إن الأمة الاسلامية قد عنيت بحفظ القرآن أدق عناية، وجاهدت فى هذا السبيل أقوم جهاد، حتى إنها حفظت روايته وعدد آياته وعدد كلماته وعدد حروفه، وحفظت ما نزل منه ليلا وما نزل منه نهارا، وما نزل فى السفر، وما نزل فى الإقامة، كما حفظت لهجاته، فأصبح القارئ يقرأ القرآن وليس يعتريه أدنى شك ولا يداخله أقل ريبه فى أن الذى يتلوه ويقرؤه هو الذى أنزله الله، وهو الذى قرأه الرسول على صحبه، وهو الذى وصل الينا لم يزد عليه شئ، ولم ينقص منه حرف، فحفظ من التحريف والتغيير، وكانت تلك العناية به مصداق قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولحفظ القرآن ثلاث درجات، كل درجة توصل الى ما بعدها . فالدرجة الأولى لحفظ

القرآن، حفظه في الصدور، وتجويد حروفه، وهى التى لأجلها فتح معهدكم. والدرجة الثانية فهم معانى القرآن وأسراره وحكمه ومراميه، وهذه التى تقوم على العناية بها للمعاهد الدينية، وحضرات أئمة المساجد، والوعاظ والمرشدين. والدرجة الثالثة هى العمل بما فى القرآن من أحكام، والتخلق بأخلاقه، وهذه هى الغاية القصوى، والدرجة العليا التى لأجلها بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أجلها أعد الثواب والعقاب وخلق الجنة والنار.

وهذه الدرجة هى التى تنتظم بها شئون المجتمع، وترقى الى أوج السعادة فى الدنيا والآخرة. وقد رأينا المسلمين فى الصدر الأول، أيام أن كانوا من هذه الدرجة فى الغاية القصوى، كيف استقام لهم أمرهم، وقويت كلمتهم، وملكوا البلاد والعباد. كل ذلك لتمسكهم بالدين، والعمل بالكتاب الكريم. فلما انحرف عنه أخلاقهم وصلوا الى ماترون من الذلة والمسكنة والضياع، حتى أصبحنا يُدبّر لنا أمرنا ونحن لا هون، ويُقضى فى شئوننا ونحن غافلون !

ولم تكن تلك الذلة لهم فإن الله قد كتب العزة للمؤمنين، حيث يقول : « ولله العزة ولرسوله والمؤمنين » ويقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يمكنهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

والعمل بالقرآن يقضى بالتخلق بأخلاقه، ومن أخلاقه الصدق، والصبر، والوفاء والزهد فى الترف، وإيثار التقشف على التوسع فى النعيم. وتلك الأخلاق اليوم مفقودة من بيننا، فمن ذا الذى يصبر على المكاره، ويحمل نفسه على مشاق الطاعات ؟ فنحن إذا أردنا أن نأخذ الناس الآن على التخلق بأخلاق القرآن لا بد لنا من جهاد وصبر طويل، وقد تمر أجيال قبل تنشئة نشء مستكمل للتخلق بهذه الأخلاق، ولكننا إذا شئنا

تقويم الأخلاق من الآن فلا بد لنا من أن نطالب الحكومة، ونطالبها بقوة أن تضع تشريعا حاسما لردع المفسدين، وزجر النفوس الجالحة عن الدين، وتستعمل السوط والدرّة، إذا دعت اليهما الحال.

كان لدينا وظيفة الحسبة، وهي وظيفة نافعة للأمة الإسلامية. كانت تؤدي لنا فائدة كبرى ونفعاً عظيماً. فيجب أن تعود، ويجب أن يعود السوط والدرّة. قد يقول فريق من الناس إنا متعصبون. فنحن نقول لهم: نعم نحن متعصبون. وليس ينجلنا أن نكون متعصبين، متعصبين للحق ضد الباطل، فالتعصب للدين تعصب للحق، تعصب للفضيلة ضد الرذيلة، وما يضيرنا أن نتعصب للحق وقد تعصب غيرنا للباطل! لقد مضى زمن كان يستحي فيه المسلم من أن يرى بالتعصب، وما زال ينكمش كلما سمع هذه الكلمة شيئا فشيئا، ويتراجع شبراً فشبراً فشبراً، حتى أخذ الغير مكانه واحتل موضعه. كل ذلك فراراً من التعصب.

وقد يقول فريق آخر إن هذا تأباه الحرية، ولكننا نقول لهم: لا خير في حرية تجعل من الشاب مخنثاً، ومن الفتاة شاباً، إنما نريد الرجل رجلاً كاملاً مستكمل الرجولة في استقامة وزاهة، ونريد الفتاة أنثى مستكملة الأنوثة، في عفة وطهارة. يأمر القرآن بالنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أصبحنا في حالة يرتكب فيها المنكر سرا وجهاراً، وليلاً ونهاراً، والله تعالى يقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَاهُمْ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فكل أمة يفسد فيها المنكر ولا تنتهي عنه، تستحق اللعنة كما لعنت الأمم السابقة. وكل أمة تفسد عن أمر ربها تستحق الدمار. قال الله تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» وإب الأمة الإسلامية قد راج فيها الفسق والضلال، فاستحققت هذا الوعيد وقد حاق بها أو كاد.

والأمراض التي انتابت الأمم الاسلامية، كلها من ضعف الايمان أو من عدمه .
إذا الايمان، ولا أريد أن أدخل بكم في المسائل العلمية فأعرفكم ما هو الايمان، ولكن
يكفى أن نستعرض مظاهره :

فالايان يقضى أن يقوم الانسان بما يطلبه منه، ويدفعه الى ما يوجهه عليه، ويكرهه
على أداء فرائضه . فتلك هي لوازم الايمان، وهي أداء الواجب تلبية للواجب، فإذا
انعدمت هذه اللوازم انعدم الايمان، على ما يقوله العلماء من أن انتفاء اللازم يقضى
بانتفاء الملزوم . فإذا قلنا إنا مؤمنون فعلى ضرب من التجوز، وإذا قلنا مسلمون
فعلى نوع من التساهل ! فالايان داع الى بذل النفس والمال، وإيثار مرضاة الله على
كل شيء، من متاع هذه الحياة الدنيا وزينتها . فكل من يكون الله أهون عليه
من نفسه فليس بمؤمن . وكل من يكون الله أهون عليه من ماله فليس بمؤمن . وكل
من يكون الله أهون عليه من ولده وزوجه وعشيرته فليس بمؤمن، ولينتظر ما ينزله
الله به من العقاب والنكال :

« قل إن كان آباؤكم وأبناءؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها
وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين . »

ثم قال فضيلته بعد إفاضة في هذا الموضوع وحث على الأخذ بمكارم الأخلاق
والتمسك بتعاليم الدين وآدابه :

أراني أطلت عليكم في هذا الموقف . (فارتفع الضجيج : زدنا زادك الله) .
ولكن قبل أن أختم كلمتي أحب أن أجيء عن مطلبين طلبهما منى حضرات خطباء
الجمعية :

أولهما أن تكون هذه الجمعية محل عطفي وموضع رعايتي . وإني أشرف بأن أكون

من خدم المحافظة على القرآن . ثم قال : وأصرح لكم بأنى أعد نفسى سعيدا بأن أكون من هذا اليوم عضوا فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم بدمهور . (فارتفعت الأصوات بالدعاء لفضيلته) .

وأما عن المطلب الثانى وهو إنشاء معهد دينى بدمهور ، أو قسم عام لتعليم الدين فيه ، فإنى أتمنى من صميم قواذى نشر المعاهد الدينية فى جميع البلاد ، ولكنكم تملكون أن هذا المطلب مرتبط بأرقام الميزانية ، والوعد مع التقيد بتلك الأرقام مجازفة ، ولاكنى أعدكم أن أنشئ لكم - إذا استطعت - معهدا دينيا ، أو قسما عاما للمستمعين . والسلام عليكم ورحمة الله .

تدبير المال

قال الماوردى رحمه الله :

« إن يسير المال مع حسن التقدير ، وإصابة التدبير ، أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير ، وفساد التقدير ، كالبذر فى الأرض إذا روى يسيره زكا ، وإن أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن على رضى الله عنه : السكال فى ثلاثة : العفة فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل لبعض الحكماء : فلان غنى . فقال لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره فى ماله ، فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمد منه قدر الكفاية ، فقد أدى حق المروءة فى نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يا بنى لا تكن على أحد كلا ، فانك تزداد ذلا ، واضرب فى الأرض عودا وبدءا ، ولا تأسف لمال كان فذهب ، ولا تعجز عن الطلب لو صب ولا نصب ، فهذا حال لازم . وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الأبية يرون ما وصل الى الانسان كسبا ، أفضل مما وصل اليه إرثا ، لأنه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجد الى غيره ، وفرق بينهما فى الفضل ظاهر .

فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك في المجتمع الانساني العام

ألمننا في البحث السابق بشيء غير قليل مما يتصل بالأخلاق التي يجب أن تكون في الانسان كأفضل مميزاته بل مقوماته، وأبنا ما يتألف منه قوام الأخلاق من أنواع وأقسام، وبخاصة ذلك الطابع الذي يطبع النفس بطابعها الخاص، ويروضها على أفضل المثل العليا وأعمقها أثرا في صميم هذا المجتمع.

وليس من شك في أن كل جسم من الأجسام له صورة تشخصه وتحدده، فلا يقبل صورة أخرى من نوع ما تعين عليه من الصورة الأولى إلا بعد مفارقتها لها.

فن المسلم به أن الجسم إذا قبل صورة من الصور كالتربيع أو التثليث مثلا، فلا يقبل شكلا آخر كالتدوير إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول، كما أنه إذا قبل صورة من النقوش أو الكتابة أو ما إليها، فلا يتأتى أن يقبل صورة أخرى كذلك. ولكن النفوس لا تجري على هذه السنة، فإنها تقبل جميع الصور حتى المتناقضة منها، ولا تمحو صورة أثر صورة أخرى. وهذا دليل على أنها من جوهر لطيف مبين لجوهر المادة. وأن طباع النفس وخلقتها تبين طباع الجسم وخواصه، وأنها أكرم جوهرها وأفضل طباعا من كل ما في هذا العالم من الأمور الجسمانية.

والنفس وإن كانت تتلقى كثيرا من مبادئ العلوم عن الجسم، لها من طبيعتها مبادئ أخرى، تلك هي المبادئ الشريفة، والمطالب العالية التي لا تمت إلى عالم الأجسام بأو هي سبب، وهي المبادئ التي تستنبط منها الأقيسة الصحيحة.

فثلا إذا حكمت النفس بأن ليس بين النقيضين واسطة فليس ذلك مأخوذا عن الحس. وكذلك إذا حكمت على الشيء بأنه صادق أو كاذب فلا يمكن أن يكون ذلك وحده مستفادا من الحس، ولكنه مستفاد مما تجده النفس بالقياس إلى المقدمات

والنتائج . ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيئا غير قليل من خطأ الحواس ، لأنه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه في مبادئ أفعالها وفيما ترد عليها أحكامها . فالبصر مثلا يجوز عليه أن يخطئ فيما يراه من قرب أو من بعد ، فأما خطؤه البعيد فقد يدرك الشمس مثلا صغيرة مقدارها عرض قدم وهي في واقع أمرها تماثل الأرض مليوناً وثلاثمائة مرة عند علماء الفلك بشهادة البرهان الرياضي .

وأما خطؤه في القريب فتشاله ضوء الشمس إذا وقع علينا من كوة صغيرة أو من مربعات صغار ، فإنه يدرك بها الضوء الواصل إلينا منها مستديرا ، فتدرك النفس العاقلة عليه ذلك الحكم وتغلطه في إدراكه ، وتعلم أنه ليس كما يراه .

ويخطئ البصر أيضا في حركة السفينة والشاطئ والنجوم والكواكب . ويخطئ في الأشجار المتراسة وفي النخيل ، وفيما هو متجانس الأبعاد حين يراها مختلفة في أوضاعها . ويخطئ أيضا في الأشياء التي تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق . ويخطئ أيضا في الأشياء الغائصة في الماء حتى يرى أن بعضها أكبر من مقداره ، ويرى بعضها معوجا وهو مستقيم ، فيستخرج العقل أسباب هذه كلها من مبادئ علمية ، ويحكم عليها أحكاما صحيحة .

وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس ، فالعقل هنا يرد هذه القضايا ويقف منها موقف المدافع الذائد عن بيمضته ، ثم هو يستخرج أسبابها ويحكم فيها أحكاما ظاهرة الصحة . والحاكم في الشيء ، المزيف له أو المصحح ، أفضل بكثير وأعلى رتبة من المحكوم عليه .

وعلى الإطلاق فإن النفس إذا علمت أن الحس صدق في تقديره أو كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس قطعا ، ثم إذا علمت أنها قد أدركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر ، ولكن من ذاتها ، لأنها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم أيضا إلى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهاية ، وليست تحتاج في إدراكها ذاتها

الى شىء آخر غير ذاتها . ولهذا قيل فى أواخر هذا العلم : إن العقل والعاقول والمعقول شىء واحد .

وإذ قد تبين من هذه الأشياء بياناً واضحاً أن النفس ليست بجسم ولا يجزء من جسم ولا حال من أحوال الجسم ، وأنها شىء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله ، فلا بد من أن نعرض لشىء غير قليل مما تصبو اليه النفوس ويدخل فى متناول عقليتها ، فنقول :

من المسلم به أن النفس شقيقة الى معالجة الفضائل مع نبوها عن الأفعال الجسمانية العالقة بعالم الأجسام . والفضائل لا يستطيع تحصيلها إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التى هى أضدادها ، وهى شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية . فإن الانسان الخير إذا علم أن هذه الأشياء ليست فضائل بل هى رذائل ، تجنبها وكره أن يوصف بها ، وإذا ظن أنها فضائل لزمها وصارت له عادة . وهكذا تصبو النفوس الخيرة الى كل معانى الخير ، وتنبو عن كل معانى الشر ، مما سنحاول تبياناه وعلله وبسط آراء الأخلاقيين فى تكوين صورة عليا من صورته فى العدد التالى ، إن شاء الله .

عباس ط

من حكم خالد بن يزيد

كان خالد بن يزيد بن معاوية ، وقد تولى الخلافة ثم استقال منها تورعاً ، عالماً كثير الدراسة للكتب ، وربما قال الشعر . فمن شعره قوله :

هل أنت منتفع	بعلمك مرة	والعلم نافع
ومن المشير عليك	بأى المسدد	أنت سامع
الموت حوض لا محاذ	فيه كل الخلق	شارع
ومن التقى فازرع	فانك حاصد	ما أنت زارع

الله جل جلاله

تعاليت يا رب ما أجلك ! خلقت الخلق ، وأجريت الرزق . بك ينمو الزرع
ويدر الضرع .

* *

سبحانك اللهم ما أوسع ملكك ، وما أعظم سلطانك ! السماء والأرض لك ،
والملائكة الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك .

* *

تباركت وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنيت ، الجن والإنس خلقك ،
والجسم والروح عملك .

* *

لا إله إلا أنت ، منحتنا بصائر لا تنكرك ، وأبصارا لا تدررك . يسبح الرعد بمحمدك ،
ويترنم الطائر بمجده . البحار لا تقر من خشيتك ، والجبال جامدة من هيبتك . ولقد
جرى التسميم بلطفك ، وتقلب كل مخلوق في رحمتك .

* *

تباركت تباركت ! لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض
بيناتك ؟ وكيف تدرك الروح بعض أسرارك ؟ ! فأنت الأول والآخر ، والظاهر
والباطن .

* *

تعاليت تعاليت ! آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجهدك الجاحد ووجوده شاهد
بوجودك ! !

سبحانك سبحانك ! بهر تنأ آلاؤك ، وغاب عنا لآلاؤك . ماء وحجر ، وأرض
وقر ، وزاحف وطائر ، وصاحح وباغم ، أنبت لنا من الأرض عجيا : نخيلا وأشجارا ،
وأزاهير وثمارا .

* *

رب : من أين للورد شذاه ؟! ومن أين للغصن عوده ولحاه ؟! ومن أين للثمار
طعومها المختلفة وأشكالها المتباينة ؟! من أين كل هذا يارب ؟! سائغ وغير سائغ ،
وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء !

* *

سبحانك سبحانك ! جلّت عظمتك ، أعجزت الانسان بالجبال والتمال ، بل أعجزت
الانسان بذات الانسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر ، وسمع وبصر ،
قلت للسان ذق ، وهو فلة لحم ، فذاق ، وقلت للعين أبصرى فأبصرت وهي ماء .

* *

سبحانك اللهم وهذا القلب الخافق بم يخفق ؟! أشهد أن لا إله إلا أنت ، عجزت
عقولنا عن الإحاطة ببعض ما خلقت ، فكيف تحيط بك ؟! سبحانك اللهم سبحانك !
هذه دنياك فكيف آخرتك ؟! وهذا شأن آثارك فكيف شأنك ؟! تقدست من إله
صدق ، وتعاليت من رب حق !

محمد الاسمر

موعظة جليلة

كتب رجل الى أبي العتاهية :

يا أبا اسحق إني	واثق منك بودك
فأعنى بابي أن	مت على عيبي برشدك
أطع الله بمجهدك	راغباً أو دون جهدك
أعط مولاك الذي	تطلب من طاعة عبدك

فاجابه بقوله :

فقيد العلم والدين

فاتنا أن ننعي لحضرات القراء المرحوم السيد محمد رشيد رضا في العدد الماضي ، وعذرنا أنه كان قد تم طبعه ولم يتأخر إلا انتظارا لطبع المزمعين الانجليزيتين ، فنسندرك ذلك اليوم ، وإن كان قد وصل نعيه الى المسلمين كافة في جميع بقاع المعمورة ، وقوبل بأسف شديد وأسى عظيم . ولا عجب فقد تجرد السيد رحمه الله لخدمة الاسلام ، ووقف له كل ما وهبه الله من علم وقوة وصبر ومثابرة ، وليس يؤسف الناس من وفاته خفوت صوت من أرفع الأصوات في الدفاع عن الاسلام فحسب ، ولكن من خلو مكان رفيع كان يشغله أيضا بين العاملين على تطهير عقول المسلمين من البدع التي اعتبرها عامتهم من الدين وليست منه في شيء .

نعم إن ثورة المرحوم السيد رشيد على البدع لا يوجد لها نظير إلا في أفراد من السلف الصالح ، فقد صمد لها صمودا أشفق عليه منه حتى الذين كانوا يشاطرونه رأيه من العارفين ، ولكنهم لم يؤتوا الشجاعة التي أوتيتها فباتوا يتوقعون له الشر المستطير . وقد لقي منه مآلوا لقيه سواه لصده عن السبيل ، ولكنه ثبت للمعارضين ، واستبسل في الكفاح أيما استبسال ، حتى استطاع بفضل إخلاصه وصبره أن يحدث في الصفوف المتراصة حياله ثغرة اقتحمها على مناوئيه وفي أثره جمهور غفير ممن كانوا لا يجرؤون على مواجهتها مجتمعين ، فاصبحنا وللسنة الصحيحة أنصار مجاهرون ، وحيال البدع خصوم مجاهدون .

فلو لم يكن لفقيد العلم والدين السيد رشيد غير هذا الموقف لخلد ذكره في تاريخ المسلمين . فما ظنك به وقد أسقط دولة التقليد ، تلك الدولة التي قضت على المسلمين بأن ينقسموا شطرين شطرا جمدوا على ما هم عليه من التقاليد المنافية لروح الدين ، وقوما مرقوا من الاسلام واتخذوا لهم طريقا غير طريق المؤمنين ، فلو كان دام سلطان التقليد لقضى على حزب التقليد أن يفنى في حزب الخارجين ، وهي كارثة جدير بكل من يعرف حقيقة الاسلام أن يذوب قلبه أسفا منها .

فكان السيد رشيد البطل المعلم في هذا الموطن الشريف ، تلتى فيه بصدوره كل ما يتلقاه المصالحون من الجامدين ، وكان لجهاده أثر بعيد في تبصير المسلمين بسماحة دينهم وبقاء باب الاجتهاد فيه مفتوحا الى يوم يبعثون .

فرحم الله هذا المجاهد الكبير رحمة واسعة ، وأجزل له من عطائه وأحسن قراه ، ورفع منزلته بين عباد المقيرين .

تصحيح أخطاء

ورد في مقالة بالعدد الممتاز لفضيلة الشيخ عبد الفتاح بدوى صفحة ٤٦ حديث منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم الخ » وقد نبهنا في الصفحة ٣٥٢ من الجزء الخامس بأنه من مآثور الحكم الاسلامية وليس بحديث .

وجاءنا استدراك على مقالة فضيلة الأستاذ ابراهيم عمار المنشورة في صفحة ١٠١ من العدد الممتاز ، بأنه اعتبر عبادة بن الصامت من الأرقاء ولم يكن رقيقا . واعتذر الأستاذ عن ذلك بأنه لم يعتبره رقيقا إذ قال : « وعبادة بن الصامت الذى كان أسود فاحما يرسل على رأس وفد ليضع مع المقوقس عظيم القبط في مصر شروط الصلح مع العرب » . وإنما خصه بالذكر لأن المقوقس أنف أولا أن يفاوضه لسواد جلده ثم اضطر لمفاوضته .

وأبلغنا فضيلة الشيخ عباس طه أنه سقط من مقالته المنشورة في الجزء الخامس تعليق ذكر فيه أنه استأنس فيما كتبه برأى المرحوم ابراهيم افندى على أخذنا من كتابه أسرار الشريعة الاسلامية .

وجاء في العدد السادس أيضا هذه الأخطاء :

صفحة	س	خط	صواب
٤٢٣	١٠	التي علقت	الذى علق
٤٢٨	١٣	خطينا	خطونا
٤٣٣	١٤	شيزار	شيزر
٤٣٣	١٩	حصن حيفا	حصن كيفا
٤٣٥	٩	واصف شاه	وصيف شاه
٤٣٧	٩	ابن الرحيب	ابن الراهب
٤٣٧	١٩	أربلا	إربل

الاسلام الصحيح

هذا اسم كتاب ألفه حضرة الأستاذ اللوذعي محمد إسعاف النشاشيبي من أعضاء المجمع العلمي العربي جاء في ختام مقدمته : « وبعد فهذا كتاب يثبت للمسلم دينه ، ويقوى إيمانه ويقينه ، ويحامي عن كتاب الله ، ويدعو الناس كافة الى هدى الله ، وقد استعان صاحبه بالله ، وهدى بالقرآن : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، واستظهر بالعربية : « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » ، فالعربية ترجمانه ، وبها تبيانه ، والعربية لسان هذا الدين »

أما أهم المباحث التي أفاض فيها فهي : الوهابية . الزيدية . الشيعة . الامامية . آل البيت . التفسير والعقل . الصلاة على النبي . هل في الاسلام طبقات . الاحاديث والمحدثون . وقد أجاد فيها كل الاجادة ، ووفى بما يطلب من عالم بصير في هذه المواطن . ويمتاز هذا الكتاب بكثرة تعليقاته ، ولكنها مفيدة للغاية ، وتقف التالى للكتاب على ما لا يتسنى الوقوف عليه إلا بعد إنفاق أوقات طويلة . فنشكر لحضرة المؤلف عمله الجليل ، ونرجو له التوفيق .

رسالة الحج - فلسفته وأسراره

هذه الرسالة كتبها أحد رجال السلك السياسى المصريين تحت اسم « دبلوماسى » وهى فى نظرنا من أحسن وأبلغ ما يمكن أن يكتبه كاتب عصرى مثقف العقل تنقيفا علميا ، وواقف على أسرار الاجتماع وعلوم النفس . وقد كتبها بلغة عربية فصيحة جمعت الى جزالة العروبة ، جمال الديباجة وسمو الأسلوب . فهى من الرسائل التى يحرص مقتنيها على قراءتها فى مجلس واحد ، وتطالبه نفسه أن يقرأها على غيره ، وإن فى ظهور مثل هذه الرسالة القيمة دافعا قويا لآهل الثقافة العصرية لأداء فريضة الحج . فنشكر دبلوماسينا الكريم راجين الله أن يكثر من أمثاله .

سوانح التجاريب

هذه حلقة جديدة من سلسلة دواوين عديدة أصدرها حضرة الشاعر النابه محمد افندى توفيق خالى بوزارة المعارف . وقد تصفحننا هذا الجزء فوجدناه كالأجزاء التى سبقته : سداه ولحمته الموضوعات الاجتماعية ، والشئون الوطنية ، حتى ليكاد يكون حضرة الشاعر المفضل متفرغا لها دون سواها ، ونعم ما اختار لنفسه . فنرجو الله أن يزيد توفيقا وتسديدا ، وأن ينفع المجتمع بما ينشئه من القصائد فى هذه الموضوعات المختارة .

hadith from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) such as is narrated by so and so. Az-Zubair replied : " Indeed I have never left the Prophet, but ⁽¹⁾ I have heard him say : ' Whoever falsely ascribeth sayings unto me, shall, surely take his seat in hell-fire.' "

3. We are informed by Abu Mamar who had it from Abdul-Wârith, through Abdul-Aziz that Anas said :

" What indeed preventeth me from transmitting to you much Hadith is that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : 'Whoever intentionally attributeth sayings unto me falsely, shall surely take his seat in hell-fire.' "

4. We are informed by Makki b. Ibrâhim, who had it from Yazid b. Abu Ubaid, through Salamah, who said that he heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say :

"Whosoever ascribeth unto me what I have not said shall surely take his place in hell- fire."

Translated by I. H. EI-MOUGY

إِنِّي لَا أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يُحَدِّثُ
فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَفَارِقْهُ
وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « مَنْ كَذَبَ
عَلَيَّ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

حدثنا أبو معمر قال حدثنا عبد
الوارث عن عبد العزيز قال أنس :
إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أَحَدِّثَكُمْ
حَدِيثًا كَذِبًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: « مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَّبِعُوا
مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

حدثنا مكى بن ابراهيم قال حدثنا
يزيد بن أبي عبيد عن سلمة قال سمعت
النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
« مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ
فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

[1] . i . e . Although he never left the prophet's side, he is afraid of repeating any utterance inaccurately .

hold sacred in this month. Behold ! Let him that is present transmit it to him that is absent. (Here Muhammad Ibn Sirin exclaimed : ' The words of the Apostle of Allâh—Allâh bless him and give him peace — have come true ; this *transmission of the Hadîth* hath come to pass ! ') *O ye people ! Have I delivered my message ? Have I delivered my message ?* "

CHAPTER 80.

On the sin of him who falsely ascribeth sayings to the Prophet (Allâh bless him and give him peace)

We are informed by 'Aly b. Al-Jad, who had it from Shu'bah, who received it from Mansur, who heard it from Rib'î b. Hirâsh, who heard 'Ali say that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : " Ascribe not sayings unto me falsely, for verily he who doth so shall enter hell-fire."

We are informed by Abu-l-Walid who had it from Shubah, through Jâmi b. Shaddâd, through Amir b. Abdullâh b. Az-Zubair, through his father, who stated that he *once* said to his father :

I never hear thee transmit any

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ (وكان محمد يقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان ذلك) أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ .

بَابُ إِنْهُمْ مَنْ كَذَبَ عَلَى النَّبِيِّ

صلى الله عليه وسلم :

حدثنا علي بن الجعد قال أخبرنا شعبة قال أخبرني منصور قال سمعت ربيع بن حراش يقول سمعت عليا يقول:

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلَيْسَ بِي النَّارَ » .

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن جامع بن شداد عن عامر بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال قلت للزبير:

and hath not permitted it to you. Moreover He hath only permitted it to him⁽¹⁾ for a portion of time in a day, after which its inviolability hath been restored to it to day as it was yesterday. Let him that is present communicate *this* to him that is absent.

On Ibn Shuraih's being asked what 'Amr's reply was, he said : " 'Amr replied : ' I understand the meaning of *this hadith* better than thou, O Abu Shuraih ; Makkah can never be the refuge of a rebel, nor the sanctuary of a murderer or a thief. ' " [2]

2. We are informed by 'Abdullâh b. 'Abdul-Wahhâb, who received it from Hammâd, through Ayyûb, through Muhammad, through Ibn Bakrah, through Abu Bakrah, who, - relating a *hadith* in which the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was mentioned - quoted from it : " So your blood and your property (Muhammad Ibn Sirîn added that he thought Ibn Abu Bakrah said : ' And your honour') must be held as sacred amongst you as this day which ye

عليه وسلم فيها فقولوا إن الله قد أذن
لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن
لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت
حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس،
وأيبلغ الشاهد الغائب »

فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ : مَا قَالَ
عَمْرُو؟ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَا
شُرَيْحٍ : لَا تُعَيِّدُ عَاصِيًّا وَلَا فَارًّا
بِدَمٍ وَلَا فَارًّا بِخُرْبَةٍ .

حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب
قال حدثنا حماد عن أيوب عن محمد
عن ابن أبي بكرة عن أبي بكرة، ذكر
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فَإِنَّ
دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ (قال محمد
وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ)

(1) ل is used here instead of له to stress the Prophet's specific privilege.

(2) Although 'Amr apparently agreed with and extended the moral of the *hadith*, he in reality evaded the point which was concerned with his violation of the Sanctuary by war-like operations. He further showed temerity in elaborating a *hadith* transmitted by Abu Shuraih directly from the Prophet.

CHAPTER 79.

بَابُ : لِيُبَلِّغَ الْعِلْمَ الشَّاهِدُ
الْغَائِبَ :

قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ قَالَ
حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ حَدَّثَنِي سَعِيدٌ عَنْ أَبِي
شَرِيحٍ أَنَّهُ قَالَ لَعَمْرُؤُا بِنِ سَعِيدٍ وَهُوَ
يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ :

اِئْذَنْ لِي أَيُّهَا الْاَمِيرُ اأَحْدِثْكَ
قَوْلًا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْغَدَّ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، سَمِعْتُهُ أَذُنَايَ
وَوَعَامُ قَلْبِي وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ
تَسَلَّمَ بِهِ : سَمِعَهُ اللَّهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ
مَنْ قَالَ : «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ
يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَجِلُّ لَامِرِي»
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ
بِهَا دَمًا وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ
أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

Let him that is present impart the Knowledge to him that is absent—transmitted by Ibn ‘Abbās, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace).

1. We are informed by ‘Abdullāh b. Yūsuf, who had it from Al-Laith, who received it from Sa‘īd, through Abu Shuraih, who said to ‘Amr b. Sa‘īd when he was sending troops to Makkah :

Allow me, O Amīr, to relate to thee an utterance made by the Prophet (Allāh bless him and give him peace) the day after the Conquest of Makkah, which my ears heard and my heart pondered upon while my eyes saw the Prophet as he was speaking it. He thanked Allāh and praised Him, and then said : “ Verily Makkah hath been sanctified by Allāh and not by men ; so it is not lawful for any man who believeth in Allāh and the Last Day to shed blood in it, nor to fell a tree in it. If any one giveth himself permission to do this , owing to the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) having fought in it, then say: ‘Surely Allāh hath permitted it to His Apostle

CHAPTER 78.

On him who heareth a thing which he hath not understood and so discusseth it *with his teacher* until he hath understood it.

We are informed by Sa'id b. Abu Mariam, who received it from Nāfi ' b. 'Umar, who had it from Ibn Abu Mulaikah that :

'A'ishah, the wife of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) never heard anything that she did not understand but she discussed it until she did ; and that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said: "Whosoever is called to account, shall suffer torture. " ⁽¹⁾ 'A'ishah said : " I then asked whether Allāh (be He exalted) had not said : 'His reckoning shall be made light.' " ⁽²⁾ " This, " replied the Prophet, 'is only referring to the reviewing *on the Day of Judgment*' ⁽³⁾ but he whose reckoning is examined' closely shall perish."

بَابُ مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَرَأَجَعَهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ :

حدثنا سعيد بن أبي مریم قال أخبرنا نافع بن عمر قال حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حُوسِبَ عَذِّبَ» قالت عائشة فقالت: «أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا»؟ قالت فقال: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوْثِرَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ».

(1) The mere fact of being called to account on the Day of Judgment and brought to shame is a torture in itself.

(2) Surah 84, Verse 8.

(3) العرض = (a) the placing on the Balance on Judgment Day (Ibn Hajar) or (b) the exposure of good and bad deeds or (c) as handed down by 'A'ishah—the indulgence after indictment (Al-Aini).

choose." He appointed a day for them, on which he went to meet them and gave them an exhortation, enjoining upon them certain commandments. Among the things he told them was: "No one among you shall be bereaved of three children but shall have a screen placed between her and Hell-fire." "And if there be only two?" asked a woman. "Even if they be only two", replied the Prophet.

Al-Bukhârî states that this Hadith was related to him by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Ghundra, who received it from Shu'bah, through Abdur-Rahmân b. Al-Asbahânî, through Dhakwân, through Abu Sa'îd Al-Khudri, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace); (1) and also through Abdur-Rahmân b. Al-Asbahânî, who heard it from Abu Hâzim, through Abu Hurairah, who said: "*Bereaved of three children who have not attained the age of discretion.*" (2)

لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ « فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا
لَقِيَهُنَّ فِيهِ. فَوَعَّظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ
فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: « مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ
تُقَدِّمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا
حِجَابًا مِنَ النَّارِ » فَقَالَتِ امْرَأَةٌ:
« وَاثْنَيْنِ؟ » فَقَالَ: « وَاثْنَيْنِ »

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا غندرة
قال حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن
الأصبهاني عن ذكوان عن أبي سعيد
الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم
بهذا، وعن عبد الرحمن بن الأصبهاني
قال سمعت أبا حازم عن أبي هريرة قال:
« ثَلَاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ » .

(1) This was added (a) to clear up the obscurity on the identity of Al-Asbahânî and (b) to add the remark transmitted through Abu Hurairah on the presumptive age of the children,—the earlier years of childhood especially endearing the child to its mother. The purpose of the hadith would appear to be to fortify mothers against the calamity of bereavement, and so to discourage the pagan customs of the excessive expression of grief. (See Al-Aini, Muniriâh ed., Cairo, Vol. II, P.135).

(2) الحِنْث properly "sin"—i.e. children dying before the age of responsibility, when sin can be imputed to them, are sinless and have Paradise as their natural destiny, besides being a screen against hell-fire for their parents. 'idid'.

b. Al As, who stated that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

Allâh shall not do away with Knowledge by snatching it away from men ; but He will do away with it by taking unto Him the learned, until when He hath not left one, men shall take unto themselves ignorant leaders who, on being questioned, shall give opinions without Knowledge, going astray themselves and leading others astray .

Al-Firabri stated that he had it from Abbâs who received it from Qutaibah, who was told it by Jarir, through Hishâm to the same effect.

CHAPTER 77.

Should a special day be set apart for the instruction of woman ?

We are informed by Adam, who had it from Shubah, who received it from Ibn Al-Asbahâni, who heard it from Abu Sâlih Dhakwân, through Abu Saïd Al-Khudri who said :

The women said to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) " The men have had the advantage over us in regard to thee ; so set aside for us a day that thou wilt

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« إِنْ أَلَّاهُ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْزَاعًا يَنْزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا »

قال الفربري حدثنا عباس قال حدثنا قتيبة حدثنا جريرون عن هشام نحوه .

باب هَلْ يُجْعَلُ لِلنِّسَاءِ يَوْمٌ عَلَى حِدَةٍ فِي الْعِلْمِ ؟

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة قال حدثني ابن الأصبهاني قال سمعت أبا صالح ذكوان يحدث عن أبي سعيد الخدري قال :

قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَلِّمْنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ

CHAPTER 76.

On how Knowledge shall pass away ;

And on ‘Umar b. ‘Abdul-‘Aziz having written to Abu Bakr b. Hazm: “ See thou what sayings of the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) are extant, and write them down ; for I have been dreading the disappearance of Knowledge and the passing of the learned. Do not accept any but sayings of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) . Let the Knowledge of the *Hadîth* be diffused, and let meetings be held so that he that is ignorant of it may be instructed ; for verily Knowledge shall not perish until it is kept secret. ”

Al-Bukhârî states that this,—namely the utterance of ‘Umar b. ‘Abdul-‘Aziz as far as the words “the passing of the learned ”—was related to him by Al-Alâ b. Abdul-Jabbâr, who had it from ‘Abdul-Aziz b. Muslim, through Abdullâh b. Dinâr.

We are informed by Ismâ‘îl b. Abu Uwais, who had it from Mâlik, through Hishâm b. ‘Urwah, through his father, through ‘Abdullâh b. Amr

بَابُ كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَكَيْفَ

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ

حَزْمٍ :

« انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارْتَبِطْ بِهِ، فَإِنِّي

خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ،

وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلْتَفْشُوا الْعِلْمَ وَلْتَجْلِسُوا

حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا

يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا »

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ

الْجَبَّارِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ بِذَلِكَ، يَعْنِي حَدِيثَ

عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ : ذَهَابَ الْعُلَمَاءُ :

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ

حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ

They accordingly proceeded one and all to take off and to throw their earrings and rings, which Bilāl collected in a fold of his garment .

Ismâ'il stated that he had it through Ayyûb, through 'Atâ', and through Ibn 'Abbâs that the latter said: "I testify of the Prophet (Allâh bless him and give him peace)"⁽¹⁾

CHAPTER 75.

On the zeal shown in the acquisition of the Hadith .

We are informed by 'Abdul-Azîz b. 'Abdullâh, who had it from Sulaimân, through 'Amr b. Abu 'Amr through Sa'id b. Abu Sa'id Al-Maqburi, through Abu Hurairah who stated that the question was once asked :⁽²⁾

" O Apostle of Allâh ! Who shall be the most blessed among men through thy intercession on the Day of Resurrection ? " " Indeed I have thought, O Abu Hurairah, " replied the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), " that no one would question me on this hadith before thee , for I have observed thy zeal for the Hadith. The most blessed of men through my intercession on the Day of Resurrection shall be he who hath said truly from his heart (or his soul): 'There is no deity but Allâh'."

Translated by I. H. EI-MOUGY

اَقْرَطَ وَاحْثَاتِمَ وَبِلَالٌ يَأْخُذُ فِي طَرْفِ ثَوْبِهِ .

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ عَطَاءٍ وَقَالَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

بَابُ الْحِرْصِ عَلَى الْحَدِيثِ :

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : قِيلَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ (أَوْ نَفْسِهِ) » .

(1) This is a gloss indicating that the hadith is معلق (disconnected) at this point, since Ismâ'il died the year Al-Bukhâri was born, and so cannot have come into contact with him .

2. By Abu Hurairah himself.

‘Amir adds: “We give thee this *saying* without desire for reward whereas for even less important matters journeys have been undertaken to Madinah.”⁽¹⁾

ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: «أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ
شَيْءٍ، قَدْ كَانَ يُرَكَّبُ فِيهَا دُونَهَا
إِلَى الْمَدِينَةِ.»

CHAPTER 74.

On the exhortation given by the imâm to woman and his instruction of them.

We are informed [by Sulaimân b. Harb who had it from Shur'bah, through Ayyub, who heard it from ‘Atâ, who heard it from Ibn ‘Abbâs, who said :

I testify of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) — or, ‘Atâ stated that he testified according to Ibn ‘Abbâs—that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) went out *from the men's ranks* accompanied by Bilâl; and as it occurred to him that he had not made his voice heard by the women, he gave them an exhortation and commanded them to give alms.⁽²⁾

بَابُ عِظَةِ الْأِمَامِ النِّسَاءِ

وَتَعْلِيمِهِنَّ :

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا
شعبة عن أيوب قال سمعت عطاء قال
سمعت ابن عباس قال :

أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَامٍ - أَوْ قَالَ عَطَاءٌ : أَشْهَدُ عَلَى ابْنِ
عَبَّاسٍ - أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَظَنَّ
أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ النِّسَاءَ فَوَعَّظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ
بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تُلْقِي

(1) In the early days of Islâm journeys were made to Madinah to obtain exact information on points of ritual and practice ; in later times after the expansion of Islaw, other Capitals gained equal rank with Madinah as sources of authority . Here Ash-Sha'bi (‘Amir) is answering an inquirer from Khurasân on the point of a man's relations with his female slave.

(2) الصدقة = both legal and voluntary alms.

CHAPTER 73

On instruction given by a man to his female slave and his household .

We are informed by Muhammad b. Sallâm, who had it from Al-Muhâribi, who was told it by Sâlih b. Hayyân, who stated that Amir Ash-Sharbi received it from Abu Burdah, through his father who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said:

Three sorts of men have double reward—a man from among the people of the Book who hath believed in his own Prophet and also in Muhammad (Allâh bless him and give him peace) ; the unemancipated slave who fulfilleth his duty to Allâh and to his masters; and *lastly* a man who, having a female slave in his house, educateth her with kindness in good morals, and likewise giveth her religious instruction, and then freeth her and marrieth her, — he also⁽¹⁾ shall have a double reward.

بَابُ تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ وَأَهْلَهُ:

حدثنا محمد - هو ابن سلام - حدثنا

المحاربى قال حدثنا صالح بن حيان

قال قال عامر الشعبي حدثنى أبو بردة

عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم:

«ثَلَاثَةٌ أَهْمُ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ

إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ،

وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا

فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ

تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَزَوَّجَهَا، فَلَهُ

أَجْرَانِ.»

1. Or according to Al-Karmâni the three categories are probably meant, the words being repeated owing to the length of the sentence. This is also explained as emphasising the fact that, although the *third* fulfils a fourfold duty, he has no more than the twofold reward; for, if the female slave is a member of his household, her moral education and religious instruction are no more than an ordinary obligation. (See Al-Aini, Vol. II, P. 119).

Prophet (Allāh bless him and give him peace) that:

Each time the Prophet made a pronouncement he repeated it thrice so that it might be well understood, and whenever he went to anyone's house⁽¹⁾ and greeted him, he used to repeat the greeting thrice .

3. We are informed by Musaddad, who had it from Abu 'Awānah, through Abu Bishr, through Yūsuf b. Mālik, through 'Abdullāh b. 'Amr, who said :

The Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) fell behind while we were on a journey together. He then caught us up when we were taken unawares by *the hour* of prayer — the afternoon prayer⁽²⁾—as we were performing our ritual ablution. We therefore had only begun to wipe our feet.⁽³⁾ At this *the prophet* called out at the top of his voice: "Woe unto your heels, for they will bring you into danger of hell-fire" This he said two or three times.

أَنَّهُ كَانَ إِذَا نَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا
ثَلَاثًا حَتَّى تَقُومَ عَنْهُ ، وَإِذَا أَتَى عَلَى
قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا .

حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة

عن أبي بشر عن يوسف بن ماهيم عن
عبد الله بن عمرو قال :

تَخَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ سَافَرْنَا فَأَذْرَكْنَا وَقَدْ
أَرْهَقْتْنَا الصَّلَاةُ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَنَحْنُ
نَتَوَضَّأُ ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا ،
فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ « وَيْلٌ لِّلْأَعْقَابِ
مِنَ النَّارِ » مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا .

(1) In the case of calling at a house (ائى على), the threefold greeting implies (a) asking permission to enter, (b) the salutation on entering and (c) the leave-taking. Another less acceptable interpretation is that if the three greetings made outside the house receive no response, the speaker departs. In the case of taking (ائى على) to mean passing anyone, the threefold greeting is made in case the first greetings are not heard. (See Al-ʿAini, Muniriah ed., Cairo, Vol. II, P.117).

2. The reference is, not to the time of the beginning of the afternoon prayer (about 3. p. m.), but to its conclusion (about 6 p. m.), when the period of the evening prayer begins.

3. According to Muslim rules of ritual ablution, the feet must be washed thoroughly with water three times before prayers, as well as the other members.

thrice in order to be *clearly* understood,

And on the Prophet's words :
 " And behold ! ⁽¹⁾ false witness, " which he kept repeating ; ⁽²⁾

And on the statement of Ibn 'Umar that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said thrice :
 " Have I conveyed my message ? " ⁽³⁾

1. We are informed by 'Abdah, who had it from 'Abdu-s-Samad, who received it from 'Abdullāh b. Al-Muthannā, who was told it by Thumāmah b. 'Abdullāh, through Anas, from the Prophet (Allāh bless him and give him peace) that :

Each time *the prophet* gave a greeting, he used to repeat it thrice, and whenever he made a pronouncement, he repeated it thrice.

2. We are informed by 'Abdah b. 'Abdullāh who had it from 'Abdu-s-Samad, who was told it by

'Abdullāh b. Al-Muthannā, who received it from Thumāmah b. Abdullāh, through Anas, from the

لِيُفْهَمَ عَنْهُ ، فَقَالَ : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا ،

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هَلْ بَلَغْتُ » ثَلَاثًا :

حَدَّثَنَا عَبْدَةُ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمَيَّةَ قَالَ حَدَّثَنَا ثُمَامَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا .

حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمَيَّةَ قَالَ حَدَّثَنَا ثُمَامَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(1) ألا — Here the expression is asseverative as explained by Al-Aini, Muniriah ed. Cairo, Vol. II, P. 115.

(2) The complete hadith runs :

أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ ثَلَاثًا . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ — وَجُلُوسٌ وَكَانَ مَتَكِّئًا — فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قَلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ .

(3) These words are near the conclusion of the Prophet's sermon in his Farewell Pilgrimage .

CHAPTER 71.

On him who kneels (in respect)
before the imâm or the traditionist.

We are informed by Abu-l-Yamân
who had it from Shu'aib, through
Az-Zuhri, who received it from Anas
b. Mâlik that :

As the Apostle of Allâh (Allâh
bless him and give him peace) was
going out of his house, 'Abdullâh b.
Hudhâfah arose and said : " Who is
my father ? " " Thy father ", replied
the Prophet, " is Hudhâfah ". Then
when the Prophet was importuned, he
said : " Ask on ! ". Thereupon 'Umar
fell on his knees saying : " We are
well-satisfied that Allâh is our Lord,
that Islâm is our faith, and that
Muhammad (Allâh bless him and
give him peace) is our Prophet. '
After that the Prophet held his
peace . (1)

بَابُ مَنْ بَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ
الْإِمَامِ أَوْ أَلْمَحَدَّثِ :
حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب
عن الزهري قال أخبرني أنس بن
مالك : أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم خرج فقام عبد الله بن حذافة
فقال : من أبي ؟ فقال : « أبوك
حذافة » ثم أكثر أن يقول :
« سلوني ! » فبرك عمر على رُكْبَتَيْهِ
فقال : « رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ
دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا »
فَسَكَتَ .

CHAPTER 72.

On him that repeateth a hadîth(2)

بَابُ مَنْ أَعَادَ الْحَدِيثَ ثَلَاثًا

(1) or — more appropriately the variant سَكَنَ was appeased .

(2) i.e., a religious pronouncement.

said the Prophet, " it is thine or thy brother's or the wolf's. "

لَا خِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ .

3. We are informed by Muhammad b. Al-*Alâ*, who had it from Abu Usamah, through Buraid, through Abu Burdah, through Abu Mûsa, who said that :

حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا
أبو أسامة عن بُرَيْدٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ
أَبِي مُوسَى قَالَ :

The Prophet was being questioned on certain things *in a way* which offended him, and when they became persistent, he became angry and said to the people : " Question me on what ye will ! ". A certain man⁽¹⁾ said : " Who is my father ? " "Thy father" replied the Prophet, " is Hudhâfah ". Then another man⁽²⁾ rose and said : " Who is my father, O Apostle of Allâh ? " "Thy father", he replied, " is Sâlim, the client of Shaibah ".

سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ
غَضَبَ ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ : « سَلُونِي عَمَّا
سِئْتُمْ » قَالَ رَجُلٌ : مَنْ أَبِي ؟ قَالَ :
أَبُوكَ حَدَافَةُ ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : مَنْ
أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « أَبُوكَ سَالِمٌ
مَوْلَى شَيْبَةَ » فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا فِي
وَجْهِهِ قَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَتُوبُ
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

Then when 'Umar saw the expression on the Prophet's face, he said: "O Apostle of Allah, we turn in repentance unto Allâh (be He magnified and glorified)".⁽³⁾

(1) 'Abdullâh b. Hudhâfah.

(2) Sa'd b. Sâlim the freedman of Shaibah b. Rabi'ah.

(3) The object of this hadith is to point the justification of a professor's anger at being asked inopportune questions by his students, a proceeding which is laid down as inadmissible.

2. We are informed by ‘Abdullâh b. Muhammad. who had it from Abu Amir, who was told it by Sulaimân b. Bilâl Al-Madîni, through Rabî‘ah b. Abu Abdu-r-Rahmân, through Yazid Al-Munba‘ith’s freedman, through Zaid b. Khâlîd Al-Juhani that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) was questioned by a man on lost property, so he said : “ Examine the string it is tied with (or perhaps he said “ its container ”) and its cover ; then advertise it for a year, and then make use of it; but if its owner comes to claim it, hand it over to him. ” ‘ If it is a she-camel that hath strayed ? ” asked the man.

At these words the Prophet became so indignant that his cheeks became red (or perhaps he said “ he became red in the face ”).⁽¹⁾ “ What hast thou to do with her ? ” replied the Prophet. “ She hath her store of drink with her, and she hath her feet so that she can go to the water and browse on the bushes . So leave her alone until her master finds her. ” And what if the animal strayed is a sheep ? ” asked the man. “ Then ”,

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا أبو عامر قال حدثنا سليمان بن بلال المدني عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن يزيد مولى المنبعث عن زيد بن خالد الجهني :

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ لَهُ رَجُلٌ عَنِ اللَّقْطَةِ فَقَالَ :

« اعْرِفْ وَكَأَنَّهَا (أَوْ قَالَ وَغِيَرَهَا) وَعِفْ أَصْهَارَهَا ثُمَّ اسْتَمِيعْ بِهَا فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ ، قَالَ : « فَضَالَةٌ الْإِبِلِ ؟ » فَقَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتَ وَجْنَتَاهُ (أَوْ قَالَ احْمَرَّ وَجْهَهُ) فَقَالَ : « وَمَالِكَ وَلَهَا ؟ مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا ، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ فَذَرُهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا » ، قَالَ « فَضَالَةُ الْغَنَمِ ؟ » قَالَ : « لَكَ أَوْ

(1) The Prophet's anger is explained by the fact that the first question applied only to portable property picked up — اللقطة — while the second question was off the point, the man having misunderstood him.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٤

دعوته الى تاسيس مدينة عالمية فاضلة

إن كلمتى "مدينة ودين" تعتبران فى عرف أهل العصر الحاضر متناقضتين ، فإن ذكرت الكلمة الأولى أيقظت فى ذهن سامعك الزخارف الفنية ، والمبدعات الصناعية ، والمتع المادية بما تنطوى عليه من المراقص والمسارح والملاعب . متع مطلقة من القيود إلا ما تحدده العادات ، مفتحة من الربط إلا ما توجبه الآداب المتفق عليها ، والتقاليد المعمول بها ، لا الآداب ولا التقاليد التى يقررها العلم ، وتحررها الفلسفة . وربما أيقظت فى ذهن سامعك مبدأ الإباحة أيضا ، ولكن فى حدود تلك الآداب المتفق عليها .

وإن ذكرت كلمة دين نهت فى نفس سامعك الزهد عن متع الحياة ، والتملص من علائق الدنيا ، ومكافحة الميول البدنية مكافحة لا هوادة فيها ، والنظر الى الزخارف والمبدعات السكالية نظراستخفاف وزرارة ، وتطهير النفس من كل رغبة مادية ، وإنكار حقوق الجسد لمصلحة الروح التى يجب أن تستوعب جميع القوى المعنوية .

هذان الاعتباران المتناقضان قد تغلبا على العقلية الانسانية فى أكثر الأمم ، وبعد العهد عليهما حتى لا يكاد الباحث يعثر على مبدأ نشوئهما ، وقد تقررا فى الأذهان الى حد أن أصبحا فى عداد البداهات العلمية ، وجاءت أقوال وأعمال حفظة الأديان مؤيدة لهما بحيث صار من المتعذر إعادة النظر فيهما .

ولكن القرن العشرين قد وضع كل المدركات البشرية فى الميزان ، حتى ما كان يعتبر منها من المقررات العلمية التى لا تقبل الشك ، وهل بعد الأصول الميكانيكية

والرياضية شيء في الرسوخ والاستقرار ؟ فقد جعلها العلم هي أيضا تحت التمهيد ، فلم يبق بعد هذا شيء يتعالى على إعادة النظر فيه .

ونحن نستفيد من هذه النزعة التجديدية فنعالج مسألة المدنية والدين تحت هذا الضوء الساطع ، فنقول : هل يمكن أن تتفق المدنية والدين ؟ وهل المدنية بطبيعتها تنافي الدين ؟

وقبل أن نخوض في هذا البحث ننظر في ماهية المدنية وماهية الدين ، حتى يكون حكمنا بإمكان اتفاقهما أو تنافيهما مؤسسا على أصول صحيحة ، ومقررات قوية . فها هي المدنية وما هو الدين ؟

إذا اعتبرت كلمة المدنية في أوسع معانيها دلت على مجموعة من الشئون تشمل المبادئ المقررة ، والعادات الشائعة بين الأفراد المؤلفين لمجتمع مستقل . وعليه فتوجد مدنيات بقدر ما وجد ويوجد من جماعات . ولكن ليست كل المدنيات تستحق هذا الاسم على إطلاقه . فكل منها يقرب أو يبتعد عن المثل الأعلى المدنية على نسب مختلفة . وهذا المثل الأعلى يتألف من اجتماع أصول بالغة أقصى درجات السمو ، مستمدة وجودها من صميم الروح الانساني في أصفى وأنزه ما تكون عليه ، ومنطبقة على العلم والفلسفة في أقصى ما تؤدي اليه .

فمن يوم أن وجد الناس على الأرض وألفوا الجماعات ، وجدت لديهم مدنيات تناسب أحوالهم ، ثم أخذت هذه المدنيات ترقى يسيرا يسيرا حتى وصلت الى ما نحن عليه اليوم ، فهل ما نحن عليه هو المثل الأعلى الذي ليس بعده مذهب ؟ هل الأصول التي تقوم عليها مدانيتنا بالغة أقصى درجات السمو ، ومستمدة وجودها من صميم الروح في أصفى وأنزه ما تكون عليه ؟ وهل هي منطبقة على العلم والفلسفة في أقصى ما تؤدي اليه ؟ إن أهل هذه المدنية أنفسهم لا يدعون ذلك ، ويرجون أن يهذبوا من أحوالهم لتصل الى المثل الأعلى .

بقى الدين ، فهل هو شىء غير المثل الأعلى الذى يتخيله الانسان المدنية ؟
نعم : إن التمدنين قد ساءت ظنونهم فى الأديان ، لما رأوه من سيرة زعمائها فى الأمم
التي خضعت لزعاماتهم ، ولما أدخل عليها من الآراء والتأويلات ، حتى يئسوا أن يوجد
واحد منها ينطبق عليه مميزات المثل الأعلى للمدينة .

إنهم لا ينكرون أن الأديان تعلم الرحمة والإيثار والبذل ، ولكنهم يقولون إنها
فى مقابل ذلك تبث عقائد تنافى أوليات العقل ، وبدايات النظر ، وتحرم على ذويها إجابة
الفكر فيها ، وتعادى العلم وتقف له كل مرصد ، علما منها أنه ينير البصائر وينفر الناس
من العقائد التي نصبوا أنفسهم قوائم عليها ، وتقيد الحريات الطبيعية ، وتضيق الخناق
على المذاهب الفلسفية والآراء المستقلة ، وقد فتك قادتها بألوف مؤلفة من خيرة
العلماء وجلة الفلاسفة ممن تجاسروا على بث تعاليمهم فى القرون الماضية .

وقد تأثروا من هذه المشاهد التاريخية الى درجة أنهم أصبحوا لا يعتقدون أن ديننا
فى الأرض يخلو من هذه العقبات الكأداء فى سبيل تقدم البشرية . ولذلك فهم
يبغضون الأديان جملة وإن كان عامتهم لا تزال تمسك بخيالات منها لا سلطان لها على
أعمالهم اليومية ، والسواد الأعظم منهم يعدون أنفسهم منها بالاسم دون الواقع .

فاذا أمكن إقامة الدليل على أن واحدا من الأديان تنطبق أصوله على مميزات المثل
الأعلى للمدينة ، فلا يوجد ما يمنع من إعلان اتفاق الدين الحق والمدينة .

ونحن معشر المسلمين نعلم أن الاسلام ينطبق على المثل الأعلى للمدينة ، ويزيد عليه
سموا ، فعلىنا وحدنا التدليل على ذلك ، والقيام بنشره فى الآفاق فى أسلوب من العلم
يرضاه التمدنون ، ويلتزم ومقرراتهم الفلسفية .

فالاسلام بمعناه اللغوى والاصطلاحي يدفع الانسان للتجرد من الأحوال البهيمية ،
والتخلق بالأخلاق الإلهية ، فى أسمى ما يتخيله العقل من نزاهة ورفعة روحية . وقد
قُدِّرت أصوله ومبادئه على هذا المعنى ، ليصل الانسان بالقيام عليها الى تحقيقه

في عالم الانسانية . فليس هو بعدو للعقل ولا للعالم ، بل هو يعتمد عليهما في التدليل على سموه ، وعلى أنه عام وخالد خلود الأصول الأولية ، والحقائق العلوية .

وقد أطلق كل المواهب الكريمة للنفس البشرية ، بعد أن قرران النفس نفحة إلهية ، إطلاقا لا يقف بها عند حد من توثباتها التكميلية ، فلم يضع للخير حدا ، ولا للعقل والعلم تحما ، ولم يعين للإحسان دائرة ، ولم يحصر العدل والرحمة في قبيل دون قبيل ، ولم يجعل للارتقاء الصوري والمعنوي مدى لا يتجاوزه ، ولم يعين للفضيلة أحوالا لا تتعدها . وشرطه في كل هذه الإطلاقات أن تكون غايتها الحق والخير ، والارتقاء الشخصي والاجتماعي .

وكما فتح الإسلام للنفس باب الارتقاء الروحاني على مصراعيه ، ووسع من مداها الى ما لا يصل اليه خيال المتخيل ، فتح كذلك لها باب الارتقاء المادي ، فلم يحرم عليها علما نافعا ، ولم يضع للعلوم حدودا ، واستنهض الهمم للشئون الصناعية ، والإبداعات الفنية ، إلا ما كان منها عاديا على الفضائل النفسية ، أو مثيرا للقوى الشهوانية . وعد الارتقاء في هذه المجالات العلمية والعملية فتوحا إلهية يثاب عليها الموفق لها ثواب العاملين على ترقية الانسانية .

هنا يسوغ لي ، وقد انتهيت الى هذا الحد ، أن لا أكتفي بالقول بأن المدنية والدين يجب أن يتفقا ، بل أعلن على رءوس الأَشهاد أن الدين هو ذروة المدنية ، وليس معنى هذا أن كل مدنية قائمة دين ، وأن كل دين قائم مدنية ، ولكن معناه أن المدنية التي تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها ، وطهارة مبادئها ، وحكمة حرياتها ، وسمو أغراض عوامها الخ ، هي غرض دين الحق الخالص من كل شائبة بشرية ، المؤدى الى أرفع السمالات الصورية والمعنوية .

أشعر وأنا أفضي بهذا التقرير أن معترضا يقاطعني قائلا : إن كان ما تقولونه يسوغ في عالم الخيال ، فلا يسوغ في عالم الحقيقة ، وليس له صورة في الواقع ، فإن

الإنسان في تسياره نحو التكمّل وهو على فطرته من تسلط العوامل الشهوانية عليه ، لا يستطيع أن يعيش على حالة من النزاهة والسمو لا يكون عليها إلا الأفاضل المفلحون على الفضائل . فالمدينة لا يمكن أن توجد إلا ملتانة بالذائل ، بل ولا تزداد ارتقاء وازدهارا إلا بحوافز قوية من الشهوات البهيمية . فإذا صح هذا ، وهو ما لا سبيل الى إنكاره ، وجب القطع بأن المدينة تنافي الدين منافاة لا وفاق معها .

نقول : إن هذا الاعتراض لا يضيرنا في شيء ، فإننا أثقنا الدليل على أن المدينة الفاضلة المنزهة عن الرذائل ، تتفق والدين الحق ، بل هي غايته المرجوة . وهذا القول لا يعني أن المدينيات التي ظهرت في العالم الانساني لم تك ملتانة بأقذار الشهوات البهيمية ، والانحرافات العقلية ، ولا يعني كذلك أن المدينيات المستقبلية تبلغ قبل تمام نضجها مبلغ الدين من النزاهة الروحية ، والطهارة القلبية .

ولكن هل يرى المعارض أن ليس للمدينة مثل أعلى تحاول الاقتراب منه على قدر الإمكان ؟

إن قال نعم ، قلنا وهذا المثل الأعلى هو الدين الحق كما قررنا . وإن قال لا ، قلنا هذا محال ، لأن جميع المحاولات البشرية مثلاً علياً تحاول القرب منها ، والوصول اليها ، وإلا استحال عليها الترقى عما هي عليه ، بل إن هذه المثل العليا تتألف لهذه المحاولات بنفسها باعتبار أنها الغايات النهائية لها ، فإن منعت موانع من الوصول اليها بقيت هي ماثلة نصب أعين العاملين ، تحفزهم لتحسين وسائلهم لبلوغها . والمدينة لا تشذ في هذا عن سائر المحاولات البشرية ، بل هي أدعاها للمثل العليا في كل عنصر من عناصرها العلمية والعملية . لذلك تجد جماهير من أعلم علماء انقطعوا لدراسات مختلفة تتعلق بها ، منها ما يتصل بأخلاق الأفراد وآدابهم ، ومنها ما يختص بأصنافهم وطبقاتهم ، ومنها ما يبحث في مقومات الاجتماع وما ينتجها من عوامل مضعفة وعوامل مقوية ، ومنها ما ينظر في البيئة وفواعلها ، وما يجب إصلاحه منها الخ .

وكل هذا يشعر بأن المدنية فى حاجة ماسة الى التقويم والتعديل فى كل شىء من أشياءها. وكل هؤلاء العلماء لا يفترضون فى أعمالهم أن المدنية لا تقوم إلا ملتانة بالشهوات والموبقات، كما لا يفترض علماء الصحة أن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا إلا مرضى على نسب مختلفة، ولكنهم يبحثون فى موضوعاتهم على أكل ما تكون الصحة عليه. فالذين يبحثون فى الأخلاق والآداب يأتون بالمثل العليا لها غير مبالين بإقبال الناس عليها أو إدبارهم عنها، منبهين الى خطر الاستعصاء عليها، ويمجرى مجراهم سواء ممن ينظرون فى شئون أخرى.

كذلك لا نستطيع، ونحن نبحت فى هل يمكن اتفاق الدين والمدنية، أن نفترض الحالات المرضية للمجتمعات فنبنى على ذلك رأيا علميا لا يلبث أن يظهر فسادَه تطور جديد للجماعات، أو انقلاب فكرى لا يحول فى خيال أحد، والمفاجآت فى العالم الانسانى لا تقف عند حد.

ظهر لنا مما مر كله أن المدنية الفاضلة لا تنافى الدين، بل الدين هو المثل الأعلى لأرقى مدنية، ونعنى بالدين الدين الإلهى الخالص من كل شائبة بشرية، لا الدين الذى تداولته الجماعات بالتحريف والتصحييف، والشرح والتأويل، حتى خرج عن حقيقته وأصبح هيكلًا حجرى غير قابل لماشاة التطورات التى تدخل فيها الانسانية فى كل مرحلة من مراحل حياتها العقلية والمادية.

وليس بين أيدي البشر من الأديان ما يحفظه الله على ثقائه الأول غير الدين الاسلامى. وقد رأيت مما ذكرناه عنه إجمالاً فى هذه المقالة، وما أفضنا فيه تفصيلاً فى مقالتنا السابقة، ما يكتفى لإثبات أنه المثل الأعلى لمدنية فاضلة إن لم تصل اليها الانسانية الى اليوم فستصل اليها لا محالة تحت تأثير التطورات الأدبية التى لا تفتأ تطرأ عليها.

ولا يقولن قائل : أُنِّي هذا ، والعالم يزداد كل يوم إغلا في حماة المقادر ، وإسفافا الى حضيض المناكر ؟

لأننا نقول : هذا صحيح ، ولكن تدهوره هذا يصحبه شعور قوى بالتقزز مما هو فيه ، يدل عليه القلق الذي يساوره في كل حركة من حركاته ، وروح السخط المستولية عليه حتى وهو في معمران لذاته ، وهذا أمر طبيعي من كائن كل ما فيه يدعو للتكامل ، وبهيبته خلافة الله في أرضه .

فكل ما يمكننا أن نقوله في أمر هذا التناقص أنه دور من أدوار الحياة ينتهي أمده ، ثم يحل محله دور جديد فيلبث حتى ينقضي عهده ، ثم يخلفه غيره ، وهلم جرا حتى تظهر الفطرة البشرية من أقذائها ، وإذ ذاك تسير الى السكال قُدُما لا يلوها عنه شيء حتى تصل اليه .

وفي أثناء هذه الانقلابات لا يفتأ الاسلام مثلاً أعلى للمدنية تقترب الانسانية منه يسيراً يسيراً حتى تبلغه ، وإذ ذاك تشعر النفوس بسعادتها الحقة ، فتعيش في أمان وسلام ، فاذا انقضت آجالها تابعت ترقياتها في عالم الروح المحض ، حيث تجدد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

محمد فريبر وهبرى

فضل الادب

قال شبيب بن شبة : اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل ، ودليل على المروءة ، وصاحب في الغربة ، ومؤنس في الوحشة ، وصلة في المجالس .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم اليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جالا .

وقال بعض الحكماء : اعلم أن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبتك المال ، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك .

التفسير

سورة الرعد

- ٧ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْنَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . »

قد رأينا في الآيات السابقة كيف تجلّت آيات الله الكونية على وجه لا يدع للريب مسلكا الى النفوس التي تبتغي الهدى وتنشد الحق وتريد الابتعاد عن مزللات الضلال ، فمن رفع السموات بغير عمد ، الى تسخير الشمس والقمر ، الى مد الأرض وبث الجبال والأنهار ، من الآيات الثابتة المستقرة ؛ ثم تجديد الزروع والثمار وتنويعها أنواعا مختلفة في الأكل والفوائد والآثار ، مع تجاور بقاءها واتحاد سقيها ، من الآيات المتجددة التي تحرك النفوس الجامدة .

ورأينا كيف كان أولئك العتاة الطغاة من الكافرين المكابرين لا يزالون في غباوتهم وبلادة أذهانهم يتعجبون كيف يقدر المنشيء على أن يعيد ما أنشأه ، وهو عجب يحق منه كل العجب ، فمن أراد أن يعجب فنهج يعجب .

ثم رأينا كيف كان حقهم يدفعهم الى استعجال السيئة تصيبهم ممن شاهدوا إيقاعه العذاب بمن هو أشد منهم بطشا وأكبر قوة ، ذلك العذاب الذي هو المثل الأقصى والجدير بأن يتمثل به من يستعرض أنواع العذاب وأشدّها .

ورأينا كذلك كيف عميت بصائر أولئك القوم فلم ينتفعوا بالآيات ترى على مرأى منهم ، بل أنكروا وجودها وطلبوا أن ينزل عليه آية من ربه ، مما جعل الحق في جوابهم أن يعرض عنهم وعن طلبهم وعن تعنتهم ، ويبين لهم قيمتهم وأنهم أحط قدرا من أن يكون الحق مسخرا لأهوائهم وأسیر رغباتهم ، أو أن يكون اهتداؤهم أمرا خطيرا لدى من يدعوهم حتى يقض مضجعه ويقلق راحته أن يفوته اقتناعهم ، فأمر الداعي عليه السلام أن يمضى في طريقه ولا يأبه بهم ولا يعتد بطلباتهم ، فقليل له : « إنما أنت منذر » فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وقد خلت البيّنات والنذر ، ولكل قوم هاد .

وقص عليه صلى الله عليه وسلم ما يُطمئن قواده ، ويهون أمرهم عليه ، ويعلاّ قلبهم روعة ، ويعرفهم مقدار أنفسهم في نظر الحق ، فذكر علمه تعالى بما دق وما جل ، وما خفي وما ظهر ، وإحاطته بخلجات الأعين وخطرات النفوس ، وإحاطته كل موجود بمظاهر القدرة وملائكة التصريف يحيطون به ، ويحصون عليه كل ما صدر منه ، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كل هذا تطيب لنفس الداعي صلى الله عليه وسلم وتهوين لأمرهم ، وإنذار لهم بأنهم لا يفلتون من قبضة الحق جل جلاله .

وقد أردف ذلك كله بتقرير القاعدة المروعة الآخذة بالقلوب ، وهي المذكورة

فى قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له » فما أجدرهم حينئذ أن تهتز أعصابهم وتلين قلوبهم ، ويثوب اليهم رشدهم ! ولكن أنى هذا وقد أغفلوا عقولهم ، وكرهوا الرشاد يأتهم على يد رجل منهم ، ووصل عنادهم بل كراهيتهم لمصلحتهم أن يقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ! فهل مثل هؤلاء ينفعهم إلا آيات التخويف والترهيب يصحبه شئ من التشويق والترغيب ؟ هذا هو ما ذكر فى الآية التالية وهى قوله : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » . وبهذا يكون قد جمع لهم الآيات المتنوعة التى تكفى كل آية منها لهداية أصلب الناس عودا وأشدهم عنادا ، فكيف وقد اجتمعت على ما رأيت من تنوعها ؟ إنهم بعد ذلك يجادلون فى الله ، ويتمحلون ويكيدون ، فليكيدوا ما شاءوا فهو شديد المحال والقوة والكيد .

بعد أن تتقرر الآيات والأدلة على هذا الوجه البرهاني ، وتكمل ناصعة لا يشوبها شائبة ولا يقاربها ريبة ، ييجئ دور تقرير النتيجة اللازمة قارة مستقرة لا زلزلة فيها ولا تردد . هذا هو قوله جل من قائل : « له دعوة الحق » . والضمير فى (له) لله سبحانه وتعالى ، ودعوة الحق من إضافة الموصوف للصفة مثل كلمة الحق . والدعوة بمعنى الدعاء أى الطلب ، أو بمعنى العبادة ، فانها إنما تكون لمن يرجى منه النفع ودفع الضر فيطلب منه ذلك .

فالمعنى على الأول أن من يريد أن يطلب الخير لنفسه أو دفع الضر عنها فحقه ألا يطلب ذلك إلا من الله ، فهو الكفيل بإجابة من دعاه ، والدعاء الحق لا ينبغي أن يوجه إلا اليه ، فكيف ينصرفون عنه ويدعون من لا يستجيب لهم بشئ من تلك الاصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن أن تملكه لغيرها ؟

والمعنى على الثانى : بعد أن رأيت من آيات ربوبيته ودلائل عزته وقدرته ما رأيت فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فله وحده العبادة الحقّة .

وعرفت أن تسمية العبادة دعوة ، لأن من يعبد إنما يعبد من يغنيه إذا استغاث ويحييه إذا دعا ، فالعبادة الحقّة لا تكون إلا لله ، والدعوة الحقّة لا ينبغي أن توجه إلا لله . وهذا الحصر مأخوذ من تقديم الخبر وهو « له » على المبتدأ وهو « دعوة الحق » . ويصح أن تكون إضافة دعوة للحق لأنها ملازمة للحق يصحبها ، ولا يشوبها بطلان ، فيكون المعنى أن الدعوة التى تصحب الحق والصحة وهى جديرة بالإجابة ، هى ما وجهت اليه جل شأنه ، أو الدعوة التى تصدر عن القلب صدورا حقيقيا وتهرع لها النفس منبعثة من أعماقها كدعوة الخوف الشديد ، لا تكاد تنبعث إلا موجهة اليه عز وجل ، كما قال تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضره » .

وهذه المعانى على تقاربها تجدها تفسير الدعوة بالطلب أشد مناسبة لما يأتى فى قوله : « والذين يَدْعُونَ من دونه لا يستجيبون لهم بشىء » وتفسيرها بالعبادة أشد مناسبة لما سبق من الآيات الدالة على تفرد تعالى بالربوبية وتصريف الكائنات ، فهو الأحق بأن يعبد .

وقولنا أشد تناسبا ، لأن فى كل من المعنيين مناسبة لكل من السابق واللاحق ، فالمعبود الحق هو من يجيب المضطر إذا دعاه ، وليس هو من لا يستجيب لداعيه بشىء ؛ والطلب الحق هو ما يوجه الى القادر القاهر ، الذى ظهرت آيات ربوبيته ، وبهرت دلائل قدرته . وأيضا الدعوة الحقّة والعبادة الحقّة هى ما لا يستحق والثبات ، وبعدت عن مصاحبة البطلان بوجه من الوجوه .

قال تعالى : « والذين يَدْعُونَ من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » :

الذين يدعون من دونه هم المعبودات التي كانوا يعبدونها : من أصنام ، وأوثان ، وكواكب ، وملائكة . والتعبير عنهم بلفظ الذين مع أنه للعقلاء وأكثر معبوداتهم أصنام لا تعقل ولا تعى ، من باب مجازاتهم في مزامعتهم ، فإنهم لما وجهوا اليهم العبادة وطلبوا منهم ما لا يطلب إلا ممن يعي ، كانوا في نظرهم من العقلاء الذين يعبر عنهم باسم الموصول الذي هو للعقلاء ، ليلقى التعبير الصورة التي في أذهانهم لتلك الأصنام . ولأن هذه الأصنام جعلت تماثيل لأفراد من الصالحين ابتدأت بإحياء ذكرهم ، ثم انقلب الأمر عليهم فعبدوهم . ولأن من المعبودات الملائكة وبعض الأنبياء ، فغلبوا على بقية الأصنام .

وضمير يدعون للمشركين والعائد على الموصول محذوف ، أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويطلبون منهم ، أو يعبدونهم ويتقربون اليهم ، لا ينتظر لهم منهم فائدة ، ولا تعود عليهم بهم عائدة ، فإنهم لا يسمعون دعاءهم ، ولو سمعوا ما قدروا على شيء ، فهم لا يحييئون لهم طلبا إلا كما يجيب الماء من بسط يديه إليه متضرعا ويقول له : يا ماء ! إلى ، أغثنى وأروني ! فإذا كان الماء في البئر أو في النهر يسمع تضرع من يتضرع إليه فيرتفع إليه من بئر إجابة لدعائه ، أو ينتقل إلى الطالب من نهره سماعا واستجابة ، فلينتظروا من معبوداتهم أنهم يستجيبون لهم . فيكون معنى بأسط كفيه إلى الماء ، أى بسط تضرع ودعاء . ويجوز أن يكون معنى بسط الكفين إلى الماء أى أخذه بكف مبسوطة ممدودة منشورة الأصابع ، فكيف تنقل هذه الكف الماء ليبلغ فاه والماء لا بد له من ممسك ضابط يحفظه أن يسيل ؟ ولعل الأول أبغى في تصوير حالهم ، وأنسب بما هم فيه من دعاء من لا يستجيب .

وكلمة ليبلغ فاه لتصوير اضطرابهم وهلعهم ، فإن كلمة ليبلغ فاه تعطى أنه على أشد ما يكون حرارة من الظما ، فهو يعالج ليبلغ الماء إلى فيه حتى يطفى لهيبه و يروى ظمأه . وهذا أشد في التصوير من قولك : ليصل إليه الماء ، أو ليحرزه ، أو ليناله ، أو نحو ذلك ،

فربما كان طلب الماء لبعض الشئون الكيالية ، أو من باب الاستعداد للطوارئ مثلا ، بخلاف كلمة ليبلغ فاه ، فانها تصوير لحالة الظم على أشدها ، وأنه يجِدْ لبلوغ غاية يسعى للوصول إليها . وقوله : « وما هو ببالغه » تصوير لليأس والحرمان المحيط به ، الموقع له في الحزن والكمد ، المقطع للأوصال والمحرق للكبد ، وذلك هو المقصود من سياق ذلك التمثيل ، فهو أحق بأن ينص عليه صراحة وإن كان لو سكت عنه لفهم من حال من يتضرع الى الماء أنه لا يجيبه ، ومن مد كفيه ونشر أصابعه ، أنه لا يصيبه ، فيكون من التصريح بالمقصود ، لأنه أبلغ في النكاية والتنكيل بهم .

وحاصل المعنى تصوير حالهم وقت اضطرارهم للمعونة والمساعدة — وما أكثر ذلك الوقت في الحياة — ودعائهم تلك الأصنام التي لا تغني ملهوها ولا تجيب مضطرا ، بل لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، بل لا تسمع ولا تعقل ولا تغني عنهم شيئا ، بصورة من قتله العطش وأهلكه الظم ، ورأى الماء أمامه يجري في نهره أو يستقر في بئر ، فوقف أمامه يتضرع اليه ويبسط اليه كفيه : أغثنى أيها الماء الجاري ، اعلُ إلى أيها الماء القار ، لقد هلكت شوقا إليك . وقد شغره فاه ليصل اليه الماء ، فلم يسمع الماء دعاءه ، ولم يعمل الى فيه ولم يستجب ندائه ! فكم تكون حسرته والماء أمامه وما هو ببالغ فيه .

ورؤية الماء تذكي غلة الصادى

أوبصورة من يحاول عبثا أن يتعلق الماء بأصابع منشورة ، ويلتف عليها حتى يبلغ فاه . وكلا الأمرين محاولة محال ، وضرب من ضروب الضلال . فلا غرو أن جاء بعده قوله جل شأنه : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

بقي أن نلفتك الى سر قوله تعالى : « بشيء » فإنها أدخل في المقصود من أن يقال : لا يجيبونهم الى طلبهم مثلا . ذاك أنه ربما يقال إنهم لم يجيبوا طلبهم ولكنهم عوضوهم عن ذلك ما هو خير منه ، أو أفادوهم إفادة أخرى تخفف عنهم ، أو نحو ذلك . فأما وقد قال : « لا يستجيبون لهم بشيء » فهو سد للباب في وجوههم ، وتقرير أنهم خسروا كل شيء ، فلم يُسْتَجَبْ لهم بشيء .

وقوله بعد ذلك: «إلا كباسط كفيه الى الماء» الخ. تجذ فيه من حسن الأسلوب ما يأخذ بالعقول، فكلمة إلا كأنها تفتح ذهن السامع الى أنهم قد حصل لهم استجابة ما، فيتلهف لمعرفة ما، ويريد أن يتلقفها، وإذابها الاستجابة المؤيسة تمام اليأس، هي استجابة من لا يسمع ولا يعقل ولا يفنى عنك شيئاً، فهي أشبه شئ بما يسميه علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم، أى إن كان من الماء لمن يدعوه استجابة فيكون من تلك الأصنام لهم استجابة. وقوله: «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» من باب تميم المعنى بذكر النتيجة اللازمة تجرى مجرى الأمثال العامة، فهي من الكلم المحكمة.

هذا وقوله تعالى: «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» إن أريد بالدعاء العبادة فظاهر، فإن عبادة الكافرين لاغية ما داموا على كفرهم، سواء أوجهوها الى الله تعالى مصحوبة بإشراكهم شركاءهم، أم وجهوها الى آلهتهم. وإن كان المراد بالدعاء الطلب فكذلك إذا وجهوا الطلب الى آلهتهم فقد دعوا من لا يستجيب لهم، أما إذا كان دعاؤهم موجها الى الله سبحانه وتعالى كدعائهم حين يمسه الضر، أو كدعاء المظلوم منهم، فقد يستجيب الله تعالى لهم بعض الدعاء وإن كانوا كافرين، فقد جاء قوله تعالى: «أم من يوجب المضطر إذا دعاه» وورد ما يفيد أن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً. وناهيك باستجابة الله دعوة إبليس إذ قال: «رب أنظرني الى يوم يبعثون». قال إنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم». ولا يدفع هذا بأن الله قد علم أنه من المنظرين سواء أدا أم لم يدع، لأن كل دعاء مستجاب هو من هذا القبيل: علم الله أن الداعي يدعو وأنه يستجيب له، وما كان الدعاء بغير شيئاً مما علمه الله في الأزل. فالدعاء كسائر الأسباب التي ناظ الله بها مسبباتها، فنقطع رقبة شخص مثلاً فزهقت روحه، قد علم الله من الأزل أنه سيقطع عنقه في هذه اللحظة فيموت. وهذا لا ينفي أن إزهاق الروح مترتب على الموت. فارتباط المسببات بأسبابها شئ، وعلم الله تعالى من الأزل

بما سيقع في الكون شيء آخر . وإنما المخلص أن المراد أن دعاء الكافرين في ضلال بالنسبة لما يتعلق بالآخرة ، مما يرتبط بالعبادة التي هي المقصود من سياق الآيات من أول السورة الى الآن .

قال تعالى : « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » :

أى والله وحده لاغيره معه ، ولاغيره دونه ، فتقديم الخبر لإفادة الحصر ، أى قصر الأفراد وهو قطع شركة الغير ، أو قصر القلب وهو قطع الحكم عن غيره تعالى أن يستقل به . « يسجد » أى يخضع وينقاد ويتطامن أمام عظمته ، ولا يكاد يرفع رأسه أمام عزته وكبريائه . فالمراد بالسجود الخضوع والانقياد والاستسلام والعجز عن المكابرة والمعاداة . « من في السموات والأرض » من الملائكة والثقلين الإنس والجن . وبدأ بمن في السموات لما وقر في النفوس من أنهم أعظم قوة وأشرف عقولا وأكمل هداية ، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن الواسطة في تبليغ الشرائع من لدنه جل جلاله الى الثقلين إنما تكون منهم . « وطوعا وكرها » أى طائعين وكارهين ، أى مختارين ومقهورين . فالسجود طوعا معروف وهو خضوع النفوس المختارة وتطامنها باختيار منها وعلم بما تفعل أمام العزة الإلهية . والسجود كرها هو انقيادها وقبولها لآثار التكوين الإلهية ، من وجود وعدم ، من صحة ومرض ، من نمو وذبول ، من زمان ومكان وأحوال ، فلا تتوجه القدرة بأمر من التكوينات الى شيء من الكائنات إلا خضع لقبوله لا يملك أن يأبى ولا أن يتأخر : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

ويصح أن يراد بالطوع ما يأتي من أفعال العبادة عن انشراح صدر وقبول نفس ، وبالكراه ما يبدو على المرء حين يمسه الضر من الالتجاء الى عظمة الله تعالى . والشعور بذلك كامن في نفسه خبائه الأهواء والضلالات ، فلا ينكشف لصاحبه إلا عند مس

الحاجات وحلول الضرورات ، وإحاطة الأحوال ، وتقلب الأحوال ، فينبعث
الشعور الفطري الكامن بين جنبيه ، فتدفعه الضرورة الى تلمس المساعدة والانتقاظ ،
فلا يجد ملجأ حقا إلا لجوءه الى ذى الملك والملكوت والعزة والجبروت . فمن لم تعطفه
النعمة ، دفعته النعمة ، ولكل نفس علاجها . وجوز بعضهم أن يراد بالكراهة حال بعض
من أسلم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ، أو حال بعض المنافقين .

ولعل الوجهين الأولين في تفسير الكراهة أقرب وأقعد ، بل الوجه الأول وهو
تفسيره بالانقياد والخضوع أمام القدرة الإلهية وقبول الآثار التكوينية ، أنسب
بقوله جل شأنه : « وظلالهم بالغدو والآصال » فإن سجود الظلال عبارة عن قبولها
ما سلط عليها من آثار التكوين ، فهي تنقبض وتنبسط تبعاً للناموس التكويني الذي
ربطت به ، من مواجهة الجسم لمنير قريب أو بعيد ، مرتفع أو منخفض ، متحرك
أو ساكن ، فإن سجود الظلال لا يظهر معناه إلا على هذا الوجه كما لا يخفى .

هذا ومن البين الواضح أن عطف « ظلالهم » على « من في السموات والأرض » لبيان
أن هذا الخضوع والانقياد قد شملهم وشمل كل ما يتصل بهم ، لا يفلت منه شيء
ولا يشذ عنه شأن ، حتى إن ظلالهم وهي أظهر شئونهم انفصالا عنهم تشاركتهم
في السجود والخضوع والانقياد لقدرته تعالى ، فأى شيء منهم يتعاضى على سلطانه ؟
وكلمة « بالغدو والآصال » لتقرير سجود تلك الظلال ، أى أفئدة كيف أن الغدو
وبكرة النهار يجلبها لكم متقلصة شيئا فشيئا ، ووقت الأصيل يظهرها نامية شيئا
فشيئا ؟ أفليس هذا كله من خضوع الكائنات بأسرها لنواميس تكوينه وآثار
قدرته ؟ أفلا توجوهون أبصاركم الى ما يقع كل ساعة أمامكم ، وتتأملوا فيه وفي أسبابه
وفي مكنون تلك الأسباب ، لتروا آيات ربكم متجلية في كل ما يقع عليه نظركم ؟

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وبعد : فما أظنك بحاجة الى أن نبين لك اتصال هذه الآية بما قبلها ، كيف وقد

اتضح لك أن قوله تعالى : « له دعوة الحق » توجيه للسامعين الى عبادة ربهم الذى تجلت لهم آيته فيما سبق من الآيات ، وأنهم يجب ألا يلتمسوا الخير إلا منه ، ولا يستدفعوا الشر إلا بعزته ، فهو وحده القادر القاهر ، وهو الذى تعنو له الجباه وتخضع أمام عظمتة كل الرؤوس طوعا وكرها ، بل يخضع له كل ما يتصل بتلك الرؤوس حتى الظلال ، فهو وحده الجدير بالعبادة ، وهو وحده الحقيق أن توجه اليه المطالب ، وأن تنزل أمام ساحة سلطانه الرغائب ، فهذه تكاد تكون من تمام الآية قبلها .

وقوله : « بالغدو والآصال » إما حال من الظلال ويكون تخصيصهما بالذكر لأن آثار التقصص والفيء تظهر في هذين الوقتين ، أو متعلق بيسجد ويكون المقصود الدوام ، كما يقال : بكرة وعشيا ويراد دائما ، فلا يحتاج لتوجيه تخصيص هذين الوقتين بالذكر لأنهما كناية عن الدوام .

والغدو جمع غداة وهى أول النهار . والآصال جمع أصيل ، وهو وقت ما بين العصر والمغرب ، أو هو جمع أصل جمع أصيل فيكون الآصال جمع جمع .

وهذه الآية من آيات السجديات ، فإن من تلاها وتدبر معناها ، وفهم أن كل ما فى الكون من شىء قد خضع وانقاد للقدرة الباهرة والعظمة القاهرة ، حتى معبوداتهم التى كانوا يعظمونها لا تخرج عن قهره وسلطانه ، بل حتى كل ما يتصل بها أو يتبعها فى الوجود ولو كان ظلالها . نقول من تدبر الآية وفهم هذا فقد امتلأ قلبه باستحضار العظمة الإلهية ، فيطلب منه ، بل لا يسهه إلا أن يختر ساجدا لله تعالى طوعا كما سجد كل شىء فى الوجود طوعا وكرها . ومن قبيل هذه الآية قوله عز من قائل : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » .

قال تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى

الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شئ ، وهو الواحد القهار .

أما وقد بلغت الحجة مبلغها ، وأتمت إفادة المقصود منها ، ووضح الصبح لذي عينين ، ولم يبق لأحد عذر في ريب أو مین ، فقد وجب الرجوع بهم الى مراجعة ما في نفوسهم ، واستخلاص العقيدة من مكنونات ضمائرهم ، وحملهم على الاعتراف بما يراودهم ، اعترافا ناشئا من قرارة أنفسهم وأعماق قلوبهم ، فلون الخطاب بسؤالهم عما لا يسعهم إنكاره ، ولا التلکؤ في الجواب عنه .

فأمر صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : من رب السموات والأرض . وهذا أمر لا يستطيعون المكابرة فيه ، ولا محاولة نسبة خلقه لآلهتهم « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يذكر الجواب الذي لا مفر لهم من أن يجيبوا به ولا ينتظر منهم النطق به أو السكوت محاولة ابتغاء المخلص من الحجة التي ملكت عليهم مسالكهم ، ومتى أجابهم به وهم معترفون ، أقروا لا محالة ، فقال : « قل الله » فإنهم سوف لا ينبس أحد منهم بكلمة معارضة .

ثم أمر أن ينتقل بهم الى ما يلزم هذا الاعتراف وما يترتب عليه الترتب الجلي ، وذلك قوله تعالى : « قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا » فستراهم حينئذ وقد دهشوا وحاروا ، من أخذ المسالك عليهم ، وسد طرق المراوغة في وجوههم ، وسيكون لسلطان حجتك ما يحيرهم ويهتهم ، أي إذا كان رب السموات والأرض هو الله وأنتم تعلمون وتعترفون ، أفترتب على علمكم واعترافكم هذا أن تعدلوا عن عبادته وتتخذوا من دونه أي متجاوزين عنه ، أولياء تريدون منهم أن يلوا أمركم فيمنحوكم النفع ويدفعوا عنكم الضر ، وهم على ما ترون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ما ، فكيف بلغ بكم الغباء أن تجعلوهم لكم أولياء ؟ !

وهل من عجز أن ينفع نفسه أو يدفع عنها الضر يستعين به غيره ، فيطلب منه جالب النفع اليه أو دفع الضر عنه ؟ فيكون الإنكار المستفاد من همزة الاستفهام في قوله : « أفأخذتم » موجهها الى ترتب هذا الاتخاذ على الاعتراف بأن رب السموات والأرض هو الله ، أى فهل يترتب على اعترافكم بربوبيته للسموات والأرض ، وهو بالضرورة رب ما فيهما ، أن تعدلوا عن الخضوع له وإخلاص العبادة والايمان له ، الى اتخاذ عاجز عن نفع نفسه ؟ وهل هذا يقع من عاقل بصير ؟ وهل هذا شأن مميز واع ؟ وهل يكون هذا إلا عمى وحمالة وسفها وغباوة ؟ فهل ترضون لأنفسكم أن تكونوا من الحمالة والعمية بهذه المثابة ؟ وهل ترضون لأنفسكم العمى والبله « قل هل يستوى الأعمى والبصير » ؟ فالمراد بالأعمى من عمى عن الحجة النافعة وقد تجلت له حتى لم يبق إلا أن ينظر فيرى ما ينفعه وما يضره . فلما أغمضوا أبصارهم وأهملوا عقولهم ولم ينتفعوا ببصائرهم ، كانوا كالعمى بل شرا منهم ، فللأعمى عذره لعدم قدرته ، وأما هؤلاء ، فقد أهملوا نعمة الله والعقل الذى وهبهم إياه ، فكان عليهم عمى ، ومع ذلك فقد اكتفى بسؤالهم عمالا يخفى جوابه على أحد ، وهو استواء الأعمى والبصير ، وفيه من التبكيت لهم والنعمى عليهم ما لا يقدر قدره ، لاسيما وهى حجة مستخلصة مما تكنه أنفسهم ، وتنطوى عليه قلوبهم ، وتعترف به ألسنتهم ، وهو أنه تعالى رب السموات والأرض ، فهو بالضرورة رب جميع ما فيهن ، والمهيمن على كل شئ ، وهو على كل شئ قدير .

والبصير طبعا المراد به من آمن بالله وانتفع بهدايته وأخلص له فى عبادته . ورأى بعضهم أن المراد بالأعمى معبوداتهم التى لا تسمع ولا تعقل ولا تفنى عنهم شيئا ، ويكون المراد بالبصير الإله الحق الذى وسع علمه كل شئ ، فى السموات والأرض . وزى الأول أظهر .

وقوله : « أم هل تستوى الظلمات والنور » ترق فى التقرير بتصوير حالهم وقد أعرضوا عن الحجج الظاهرة بحال من يتخبط فى الظلمات لا يدرى أين يتجه ، فقد

يحدّ السير وهو في الحقيقة إنما يسعى في طريق هلاكه ، وقد يعمود القهقري فيضيع تبعه سدى . وإنما كان هذا ترقيا في تصوير شنائعهم لأن الأعمى إذا كان في نور ربما وجد من يهديه الى الصراط السوى ، كما يحكى أن رجلا رأى أعمى يسير ليلا ومعه مصباح ، فقال : أنت أعمى فما انتفاعك بهذا المصباح تحمله ؟ فقال : أحمله لكي لا أضلّهم بأعمى قلب مثل ... ! وأما إذا عمّت الظلمات فقد أصبح الجميع حيارى يتخبطون ، فهم في بيداء يعمهون ، وفي طريقهم يعتسفون . فيكون إصرارهم على المسكارة وإجماعهم على رفض الهداية ، يجعلهم كلهم في الظلمات المتعددة : ظلمة الجهل ، وظلمة العناد ، وظلمة الكبرياء ، في ظلمة العقيدة الفاسدة ، وظلمة الأعمال الباطلة ، وظلمة الأخلاق السافلة ، وظلمة المعاملة الغاشمة . كل هذه وغيرها ظلمات بعضها فوق بعض ، بخلاف النور فهو طريق واحد سديد ، وصراط مستقيم ، لا تشعب فيه ولا عوج ، ولله در القائل :

العقل فن واحد وطريقه أدري فأرصدُ والجنون فنون

فالمراد بالظلمات والنور : الكفر الذي انغمسوا فيه ، والإيمان الذي يدعوهم اليه . ويكون التناسب بين هذا السؤال وما قبله ظاهرا ، فإذا أريد بالأعمى والبصير المعنى الثاني أى المعبودات الباطلة والمعبود الحق ، يكون التناسب من جهة أنه كما لم تستو آلهتكم الضعيفة العاجزة بالإله القادر ، كذلك لا تستوى طريقتكم المظلمة بطريقة الإيمان المنير للقلوب .

وأم هنا بمعنى بل التي للانتقال من سؤال الى سؤال آخر ، وليست هي التي للتعيين ، فتلك خاصة بوقوعها مع همزة الاستفهام ، ولا تجى ، معاقبة لهل كما قرر في علم العربية . وقوله : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » من باب تميم الحجة بالبحث عما عساه أن يكون قد اعترض سبيلهم حتى اشتبه الأمر فيه عليهم ، فهو يقول : إذا كان الأمر على ما ترى ، فإذا أوقعهم في هذا الضلال ياترى ؟ هل عثروا بشريك له في الخلق رأوا منه خلقا كخلق الله ، فلما شارك الله في الخلق جعلوه شريكا له

في العبادة ؟ كلا ، لا شريك له في الخلق ، فلم يخلق أحد شيئا ما ، لا تخلقه تعالى المنظم الكامل ولا خلقا ناقصا ، بل الله خالق كل شيء ، جل أو قل ، فإذا عساهم يعتذرون به ؟ إنك إذا سألتهم من خلق ؟ قالوا : الله ، وإذا سألتهم هل خلق غيره شيئا ؟ قالوا كلا ، فقل الله خالق كل شيء ، فستعبر بذلك عما يعتقدون ، كما عبرت فيما سبق إذ قلت لهم : من رب السموات والأرض ، وقلت لهم : « الله » فإذا يدعوه إلى هذا التلذذ ويوقعهم في هذه الخيرة والضلالة ، فالله خالق كل شيء ، وهم معترفون ، وهو الواحد في الخالقية ، وهو الواحد في الربوبية ، وهو الواحد في المعبودية الحقة ، وهو الواحد في كل شيء ، فأين تلك الآلهة والأرباب التي يزعمون ؟ أما إنه مع كونه هو الواحد ، فهو القهار ، تنفذ قدرته في كل شيء ، ولا يتعاضى على قدرته شيء ، فهم وما يعبدون مهجورون لعظمته خاضعون لسلطانه ، أذلاء أمام عزته وكبريائه ، فإن استمعوا وأمنوا فقد أحرزوا ما به يسعدون ، وفازوا بما يبتغون ، وإن أعرضوا فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلغت فأبلغت ، وهديت فأبنت ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل .

اللهم اهْدِنَا صراطك المستقيم ، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

براهم الجبالي

الادب

قال ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن الكرامة تزول بزوالها ، ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب .

وقال الأحنف بن قيس : رأس الأدب المنطق ، ولا خير في قول إلا بفعل ، ولا في مال إلا بجد ، ولا في صديق إلا بوفاء ، ولا في فقه إلا بورع ، ولا في صدق إلا بنية .

الفيلسوف والنبي

جاءنا هذا السؤال من صاحب الإمضاء ، قال بعد الديباجة : إننا نرى حكما عالية وقوانين صالحة للاجتماع والعمران لفلاسفة اليونان وغيرهم ، ونرى لهم بجانب ذلك معرفة بالله وثناء على الله . وقد جاء عن سقراط وأفلاطون وغيرهما شيء كثير من ذلك ، وقد كانوا قبل المسيح ، فلماذا لا نعتبرهم أنبياء ، وقد أسسوا مدنية فاضلة وتلاميذ صالحين ؟

نرجو من فضيلتكم بيان ذلك والإسهاب فيه كما هي عادتكم ، أبقاكم الله للعلم والدين ، وحفظكم للاسلام والمسلمين بمنه وكرمه
عبد الرحمن محمد
أستاذ بالمدارس

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار ، أعرف خلق الله بالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد سئلت مثل هذا السؤال منذ زمان بعيد من عظيم من عظماء المصريين ، فأجبتة بما اقتنع به إذ ذاك . واليوم نذكر لك خلاصة ذلك الجواب ، ثم نفيض في الموضوع إفاضة لا تدع في النفس شكاً ، ولا في الأمر ريباً ، فنقول وبالله التوفيق :

قلنا لذلك الباشا عند ماسألنا عن ذلك : إن هناك فروقا كثيرة بين النبي والفيلسوف ، منها أن الفيلسوف إذا نزلت به نازلة أو سئل عن معضلة ، فزع إلى فكره فشجذه وإلى نفسه فأيقظها ، وإلى معلوماته فاستعرضها ، عسى أن يعثر فيها على حل أو يظفر منها بجواب .

أما النبي فإنه على العكس من ذلك : يعتمد الى نفسه فيسكن من حركتها ، والى أفكاره فيهدى من ثورانها ، والى حواسه فيقلل من تعلقاتها ويبعدها عن محسوساتها ^(١) ، ثم ينتظر الوحي من الله والتلقى عن الملائكة الأعلى ، فإذا نزل عليه الوحي من عند الله صدع بذلك فى وضوح لا يمازجه تعقيد ، ولا يشوبه التواء عن المقصد ، ولا تحير فى الغاية ، ولا تحيل على إصابة الصواب ، ولا استعانة بتجربة أو التجاء الى مقدمات طويلة كثيرا ما تنحرف بالناس أو ينحرف فيها صاحبها عن التهج القويم والصراط المستقيم ، فيعدل به نظره القاصر وضعفه البشرى عن الحق ، وقد يوقعه فى شقاء بالغ من حيث لا يشعر ، فالتبى يروى عن رب المخلوقات المحيط بها ، العالم بأسرارها : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ولم يُعشَ عنها سواطع أنوار رأى حكمة قدسية لا يشوبها شوائب أنظار وأدناس أفكار فالسبيل المأمونة والجادة الواضحة ، إنما هى سبيل الأنبياء والمرسلين ، لا سبيل الفلاسفة التى ترى بك فى ظلمات الأوهام البشرية ، وشبهات التخيلات النفسية ، على ما ستسمع اليوم ، إن شاء الله .

ثم قلت لذلك العظيم : إن الفلاسفة أنفسهم لم يدعوا النبوة ، وربما كانوا غير قائلين بها ، فكيف ندعيا لهم وهم لم يدعوها لأنفسهم ؟ ثم إن للنبوة آيات لا بد منها : من صفات ذاتية ، ومعجزات حسية ومعنوية ، ونفوس جاوزت أطوار البشرية ، واستقرت فى تلك العوالم القدسية ، فهى لا تعرف غير الله ، ولا تحدث عما سوى الله إلا بما جاءها عن الله ، قد اتسع نظرها ، وتم نورها ، فعلمت من حقائق الأشياء ما لا يعلمه غيرها ، وعرفت من جلال الله ما لا يعرفها سواها . الى آخر ما قلت لذلك الباشا فى ذلك العهد .

(١) اشتهر الآن استعمال المحسات وتخطئة من يعبر بالمحسوسات وهو خطأ بين كما أوضح ذلك كل الايضاح صاحب الجاسوس . ولصاحب التخصص ما يفيد ذلك ايضا (راجع الجاسوس على القاموس) .

ولنبين ذلك الإجمال، ونذكر لك شيئاً من صفات النبوة وخصائصها التي جبل عليها الأنبياء، فنقول:

إن في ذات النبي نورا خلقيا في أصل تكوينه اقتضته درجة روحه الشريفة (وبين الأرواح من التفاوت في الدرجات واختلاف الاستعدادات ما لا يعلمه إلا الله تعالى). وبذلك النور لا يمكن تلك الذات التي خلقت على هذا الوجه إلا أن تكون على أكمل الفضائل. فهي مثلاً تقول الحق وتقدس ولو كان فيه حنفها وهلاكها، فإن ذلك من سجيته وطبيعته. وقد طلب المشركون منه صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة، فأبى وامتنع، ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحدة، فما زاده ذلك إلا تثبتاً ورسوخاً، لأن الذات الشريفة مطبوعة على قول الحق لا يتصور منها غيره.

ومن تلك الصفات التي جبل عليها النبي، الرحمة بجميع المخلوقات حتى الحيوان الأعجم، ولذلك جاء صلى الله عليه وسلم في باب التحذير من القسوة بما تعجب له، وأبان من جزاء الشفقة على خلق الله ما لا غاية وراءه، فذكر في الحديث الصحيح أن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها. وجاء في الصحاح أيضاً أن رجلاً مسرفاً على نفسه وجد كلباً يلهث من العطش فسقاه حتى أرواه فشكر الله له ذلك فغفر له. إلى غير ذلك مما ينبئك عما كانت تمتلئ به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرأفة والرحمة بجميع المخلوقات.

وهكذا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فهم أبر الناس بالناس، وأنفع الناس للناس. وأعظمهم في ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، حتى إن ما تراه من شدته صلى الله عليه وسلم على الكفار والمشركين، فندشوه إنما هو رحمته بهم وشفقته عليهم أن تجتاهم الشياطين فتأخذهم عن السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدى، فيشقون وتشق بهم الإنسانية، فكان حربه صلى الله عليه وسلم في الحقيقة حرباً لجند الشيطان الذي يريد أن يسلب الإنسان سعادته. إلى آخر ما لا يسع المقام تفصيله وبيان أسرارهِ.

ومما يجب أن نبينه هنا أن للأنبياء أذواقا في الأشياء لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله ، فإن أكثر من في الأرض لا يذوقون إلا الحسيات ، ولا ذوق لهم في المعنويات وما أودع في الأشياء من لطائف وأسرار . وقد يقرب اليك ذلك بعض التقريب ما ترى أو تسمع به من عشق أرباب النفوس الطاهرة لما على الأشياء ، وإيثارهم العلم والمعرفة على كل شيء ، لأنهم يذوقون من ذلك لذة تفوق كل لذة مادية ، وقد قال قائلمهم :

سهرى لتغنيج العلوم الذلى من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة أشهى من النغبات للعشاق
والذ من نقر الفتاة لدفعها نقرى لألقى الرمل عن أوراق
ولعلك ذقت من هذا شيئا ، فلا تطيل فيه .

ولا بد لنا في هذا المقام من أن نشير الى أن أرواح الأنبياء من طراز آخر في علمها وقوتها وكل صفاتها ، ولذلك تظهر عليها خوارق العادات ، من كشف المغيبات وظهور الآيات ، مثل ما حصل له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج . ومن ذلك ما يقال إن عيسى عليه السلام كان يمكث أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » فهو لا يحس بتلك المؤلمات إلا إذا رجع لهذا العالم وسادت عليه أحكامه وقوانينه ، أما مادام عند ربه فهو أرفع من أن تؤثر فيه تلك النواميس المعروفة ، أو تسيطر عليه هاتيك القوانين المشاهدة . الى غير ذلك من المعجزات الماثورة ، والخوارق المشهورة .

أما علمهم بحقائق الأشياء وما غيب عنا من أمور الآخرة وما يكون فيها ، فهو علم يشبه علمنا بالمبصرات بالبصر والمسموعات بالسمع ، بل حواسنا قد تخطئ ويقع الغلط والاشتباه في مدركتها ، بخلاف علمهم وما ينكشف لبصائرهم من الحقائق والمغيبات . ثم نلغتك بعد ذلك الى ما تعرفه من تفاوت الناس في العلم ، وأن ما يكون قطعيًا لبعض

الناس يكون ظنا لبعض آخر ، بل قد ينكره كل الإنكار لبعده ما بينه وبينه حتى لا يتأتى له أن يفهمه أو يسلمه .

وبالجملة فاستعداد الرسول أشرف استعداد ، وتكوينه أجل تكوين ، وبهذا كان مهيبا للرسالة والتلقى عن الملأ الأعلى ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . فليس قلبه كبقية القلوب ، وإنما هو قلب امتلاء بنور الله ، لكونه غارقا في عظمة الله ، مفعما بجلاله ، معرضا عما سواه .

وأين للفلاسفة ذلك النور الذي كان يرى به صلى الله عليه وسلم — كما في الحديث الصحيح — أصحابه ، في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، وفيه أنه رأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو يخفر خندق المدينة ، ورأى النجاشي بالحبشة حين مات وهو صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فخرج الى المصلى فصلى عليه ، الى غير ذلك .

ذلك كله من أجل ما أودع فيه من النور الساطع والاستعداد الرفيع الذي أهله لحرق العادات بطريقة لا يكاد يعرفها الماديون ولا يعقلها غير الروحانيين . وكيف يدركون ببشريتهم الظلمانية أسرار ملكاته النورانية ؟

ولنقرب لك الأمر بعض التقريب فنقول :

إن الروح من عالم آخر له نوااميس أخرى يستوى فيها القريب والبعيد والظاهر والخفي . على أننا رأينا في عالم الماديات من العجائب ما يسهل عليك التصديق بذلك عن بصيرة واقتناع بعد ما ورد في دينك وشريعتك ، فإن أشعة « روتنجن » تحوّل الأجسام الكثيفة المعتمدة الى أجسام لطيفة شفافة ، وتظهر ما يتخللها من العظام وغيرها ، وأشعة « أف » التي بواسطتها يمكن كشف المعادن في باطن الارض وإحراق البارود في باطن البواخر ومكامن الحصون ، فما بالك بأشعة الله الذي خلق أشعة روتنجن وأف وعلم الانسان ما لم يعلم ؟ فلا بد أن تعرف أن للأنبياء قوى روحانية اختصوا بها

فلا توجد في غيرهم . ولذلك سمع سليمان عليه السلام كلام النملة ، فما سمعه إلا بسمع الروح لا بسمع الجسم الطبيعي . (وكيف نستغرب ذلك وعلماء الحيوان الآن يشبثون للنحل وغيره حاسة لا توجد فينا ، وبذ كرون من أفاعيل النمل ما يعجب له الانسان العاقل ؟) وقد قال يعقوب عليه السلام : إني لأجد ريح يوسف ، فأحس بها وشمها من مسيرة أيام . فكيف يقاسون على غيرهم في شيء من الإحساس والعلم والإدراك ؟ ولا غرو فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي في حق عبده الذي تقرب اليه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » الخ .

وإجمال القول أن نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس في قواها الظاهرة والباطنة ، فنعوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النعوت والصفات التي في غيرهم ، ومتى كان الروح الفاعل والجسم القابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء . ولذا قيل إن صفات الأنبياء وقوام الذاتية من خوارق العادات ، وإنه لو أمكن الناس أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا في التصديق برسالتهم الى معجزة ، فان فضيلة الصدق والأمانة مثلاً إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة . وقد آمن كثير من الصعابة وغيرهم (حتى من الأوربيين) بمعجزة النعوت غير ملتفتين لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التي لا يعول عليها في إيمانه إلا العامة . وقد قال قائلهم في حقه صلى الله عليه وسلم :
لوم تكن فيه آيات مبينة كانت خلائقه تنبيك بالخبر

وقد ذكر فيلسوف الاسلام العلامة ابن خلدون في مقدمته أن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الإدراك الروحاني ، فينقطع منحطاً الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية ، وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية الفكرية ، وهذا في الأغلب هو من أن الإدراك البشري الجسماني اليه تنتهي مدارك العلماء

وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما خلق فيه من الاستعداد، فيتسع نطاق إدراكه عن الأليات، ويسرح في قضايا المشاهدات الباطنة، وكلها وجدانات لا حدود لها . وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدنية والمعارف الربانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملكية من الأفق الأعلى ، ليصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقه ، وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللحظة ، وهؤلاء هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ، بتلك الفطرة التي فطر وأعليها ، لا باكتساب ولا صناعة ، فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه ، عاجوا به على المدارك البشرية ، فتزولوا به إلى قواها لحكمة التبليغ اه وبهذا كله نعرف سر ما نوجبه لهم في علم التوحيد من أمهات الفضائل : كالآمانة ، والصدق ، والتبليغ ، والفطانة ، وما نحيله عليهم من السفاسف والدنايا التي تجوز على غيرهم .

وبعد : فهنا طريق قريب يعرفك ما بين الأنبياء والفلاسفة من الفرق الشاسع والبون البعيد ، وهو أن تقارن بين ما سمعته عنهم وما سمعته عن الفلاسفة ، ثم تحكم بعد ذلك ، فانظر مثلاً إلى مثل ما جاء في القرآن في تقرير علمه تعالى بكل شيء ، مثل قوله : « وعنده مفاتيح الغيب » الخ . « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن » الخ . « ما يكون من نجوى ثلاثة » الخ . ثم لقول الفلاسفة إنه لا يعلم الجزئيات ، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى كتاب كبير .

الفرقة:

أما الفلاسفة فليست لهم هذه المراتب العالية ، ولا ذلك الاستعداد الرفيع الذي يؤهلهم للأخذ من الملأ الأعلى ، فهم يقولون بأفكارهم وعقولهم ، ولهذا قد نجد لهم من الخطأ الشائن والهفوات المزرية ما يسقط إلا إنسان العادي فضلاً عن الفيلسوف .

ولسنا ننكر أن لهم حكما بليغة، إلا أن ذلك غير مقصور على من اشتهروا بالفلسفة، فكثيرا ما نجد للمجربين وذوى النفوس الكبيرة فى كل عصر ما يوازى حكمة أرسطو وأفلاطون. ولعلماء الأمة المحمدية وصالحائها من ذلك ما لا تسعه الدفاتر. ولعلمنا نورد شيئا منه ومن كلام الفلاسفة، ونقارن بينهما فى عدد آخر. وفلسفة هذا شأنها غير مأمونة ولا معصومة، فانها تعتمد اللبابة فى التعبير، والإغراب فى التفكير، وبهذا تعد فلسفة، ولو كانت مستمدة من منبع الشهوات والأهواء كفلسفة أبيقور وأتباعه. ولعلمنا نذكر شيئا منها بعد.

ولنفكهم الآن بشيء من فكاهاتهم أو ترهاتهم، فنقول:

بشئ من ترهات الفلاسفة وفكاهاتهم:

إن (فيثاغورس) من أكبر فلاسفة اليونان، وله أشياء نفيسة، ومع هذا فقد كان يقول: «إن ذنب من يقتل الذبابة أو الزنبور أو غيرها من الهوام مثل ذنب من يقتل إنسانا». ويزعم (انكسفوراس) أن السماء صنعت من حجارة كهذه الحجارة. وسبب ظنه ذلك أنه قد اتفق ذات يوم أن حجرا سقط من جهة السماء، فظن انكسفوراس أن السماء مصنوعة من حجارة، ثم أخذ يفكر فى علة لبقائها أبد الأبد فقال: «إن دوران الفلك أوجب بقاء تلك الصنعة بلا خلل بحيث لو اختل الدوران لحظة لفسد نظام السموات والأرض» فانظر الى ذلك الخيال الواسع ومجاراته الى حيث يريد! ويذكر عن أرسطيب الفيلسوف أن الملك بصق فى وجهه يوما من الأيام، فعيب عليه فى ذلك، فقال بفلسفته الحقاء: «إن الصياد يتحمل مشقة الصيد حتى يتبل بالبحر لصيد سمكة صغيرة، فكيف لا أتحمّل ريق الملك لصيد الحوت الكبير!» واتفق أيضا أنه ترجى الملك ديلنسى لبعض أصدقائه فردّه الملك ولم يقبل رجاءه، فخر أرسطيب على قدى الملك وقبيلهما، فاستقبح ذلك بعض من كان فى المجلس، فقال أرسطيب: «لا لوم فى ذلك علىّ إنما اللوم على الملك حيث وضع أذنيه فى قدميه».

ومن كلامه الذى لا أدرى أن أستحسنه أم تستقبحه قوله : « إن الحكيم لا ينبغي له أن يلقى يديه الى التهلكة لأجل حفظ وطنه فإن الدنيا كلها وطنه ، فليس من الإنصاف أن يخاطر بنفسه لأجل حماية المجانين » . وأكسينوقراط كان من عادته التى اقتضتها فلسفته تعطير أقدامه ، فسئل عن ذلك فقال : إن رائحة العطر الذى يوضع فى الرأس تطير فى الهواء ، بخلاف ما إذا عطرت الأقدام فإن الروائح تصعد الى الأفق . وذكروا فى تاريخ الفلاسفة أن أرسطيبي سافر الى مدينة فورنته وركب البحر فصادفته ريح عاصفة أحدثت الرعب فيه الى حد ممقوت إشفاقا من الهلاك ، فسخر منه إخوانه فى السفينة ولاموه وقالوا له : كيف نحن مع جهلنا لم يصادف قلوبنا ماصادف قلبك من الفزع والخوف وأنت من عظماء الفلاسفة ؟ فها هذا الرجل وما هذا الاضطراب ؟ فأجابهم بقوله : إن أنفسكم ونفسي ليسوا فى درجة واحدة بل شتان ما بين الذى أخسره وبين ماتخسرون . فانظر الى تلك الفلسفة المعكوسة التى تشقى صاحبها بلا شفقة ولا رحمة . لاجرم أن الجهل خير من تلك الفلسفة .

ثم انظر بعد ذلك الى ما جاء به الأنبياء من تعظيم الحياة الأخرى وما فيها من السعادة الأبدية ، وتحقير هذه الحياة الدنيا حتى جعلها القرآن متاعا وقتيا ، وجعل الآخرة هى دار القرار . حقرها صلى الله عليه وسلم حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، الى آخر ما جاء فى الكتاب والسنة ، وهو كثير .

ومما يجدر التنبيه عليه أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا فيما جاءوا به من العلم فى غير الأحكام الجزئية التى يقتضيها اختلاف العصور وتباين الاستعداد . أما الفلاسفة فلا يكادون يشبهون على رأى واحد ، بل يتخالفون ويتناقضون .

وقد كانت فلسفة أرسطو مقدسة عند الأوربيين ، حتى جاء الفيلسوف (راموس) فنقضها ، فقتلوه فى وقعة (سان برسامى سنة ١٥٧٢ م) وهى الواقعة التى قتل فيها كاثوليك فرنسا البروتستانت .

كلمة أفلاطون في أصناف الناس :

ولنختم موضوعنا هذا بما روى عن أفلاطون كبير فلاسفة اليونان ورئيس الحكماء الاشرافيين فنقول :

قسم أفلاطون الناس الى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) الجنود (٣) الصناع وأهل المهن . قال :

أما الأولون فهم المخلوقون للسيادة دون غيرهم ، وسماهم الصنف الذهبي . أما الجنود فهم حراس المملكة ، وأطلق عليهم الصنف الفضي . وأما الصناع فهم المخلوقون للصناعة العمياء ، ودعاهم الصنف الحديدي . أما العبيد فقال عنهم إنهم ماشية الأمة ، مثلهم كمثل البهائم السائمة . فانظر الى هذا وقارن بينه وبين من أوجب قتل الانسان إذا قتل الذبابة ، وما بينهما من التناقض ، فان أحدهما يحترم كل ذى روح ولو كان من أحقر الأشياء ، والآخر على العكس من ذلك فى أشرف نوع وأعلاه وهو نوع الانسان ، ولهذا كانت الفلسفة فى كل عصر مثار الشكوك والأوهام ، ومبعث الاختلاف والتنازع ، حتى قيل :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعى العالمين ضلال^(١)

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

حتى حرم بعضهم النظر فى كتب الفلسفة ، لأن ضررها أقرب من نفعها ، وشكها أكثر من يقينها . ثم قارن بعد ذلك كله بين كلام أفلاطون الذى يدعى بأفلاطون الإلهي « والذى أحترمه وأجله » وبين ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من احترام أفراد النوع الانساني ، وعقد المساواة بينهم ، وبث الديمقراطية الحققة فى الناس جميعا ، فلم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١) كان بعض اشياخنا يقرأ العالمين فى البيت بكسر اللام لا يفتحها .

وقد سمع صلى الله عليه وسلم أباً ذر يقول لعبده : « يا ابن السوداء » فنقم عليه ذلك وقال له : « إنك امرؤ فيك جاهلية » فأعتقه أبو ذر وصار من ذلك اليوم يسوى خادمه بنفسه ، حتى إنه إذا لبس حلة ألبسه مثلها . وقد جاء في تعظيم سلمان الفارسي وبلال وغيرهما شيء كثير . ومن ينظر في التاريخ يجد الموالى في الاسلام قد اعتلوا من المناصب السامية والمنازل العالية ما لا يسامى .

ولعلنا نعود للمعالجة هذا الموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله تعالى .

يوسف الرمزي
من هيئة كبار العلماء

شهادة الرجال للرجال

روى أن عبد الله بن عباس سئل عن أبي بكر رضى الله عنه فقال : كان والله خيراً كله مع الحدة التي كانت فيه . قالوا فأخبرنا عن عمر رضوان الله عليه ، فقال : كان والله كالطير الحذر الذي نصب فخ له فهو يخاف أن يقع فيه . قالوا فأخبرنا عن عثمان رضوان الله عليه ، فقال : كان والله صواماً قواماً . قالوا فأخبرنا عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال : كان والله ممن حوى علماً وحلماً ، حسبك من رجل أعزته سابقته ، وقدمته قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلما أشرف على شيء إلا ناله . قالوا : يقال إنه كان مجذوداً . قال : أنتم تقولونه . (أى ليس الأمر كذلك) .

وروى أن رجلاً أتى الحسن فقال يا أبا سعيد : إنهم يزعمون أنك تبغض علياً . فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : كان علي بن أبي طالب سهما صائبا من مراحمي الله على عدوه ، ورباني هذه الأمة ، وذا سابقتها ، وذا فضلها ، وذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بالنومة عن أمر الله ، ولا بالملولة في حق الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزاً ففاز منه برياض موقنة ، وأعلام بينة ، ذاك علي بن أبي طالب !

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، فقال عروة : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، إن هذا يؤتى أكله كل عام ، وأنت تؤتى أكلك كل يوم !

حَضُّ شَبَهَاتٍ عَنِ الْإِسْلَامِ

من العجب العاجب أنه لا يزال في العالم الغربي علماء يخطبون في فهم الإسلام ، ويتهمون به بما ليس فيه ، ويجهلون نفسية الشعوب الآخذة به ، بعد ما كتب فيه فلاسفتهم وعلماءهم ومؤرخوهم ما كتبوا من جليل البحوث ، ودقيق الدراسات . من ذلك ما نشرته جريدة كوكب الشرق المصرية لكاتب اسمه (أندرية هرفيه) ونحن نلخص آراءه هنا ونتبعها بملاحظاتنا عليها قال :

« لقد أثرت الديانة الإسلامية في ذويها تأثيرا عظيما بحيث جعلتهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم كأنهم أمة واحدة لهم مثلٌ عليا ، وتصورات واحدة ، وهم شديدو الاعتقاد في سمو عقائدهم ، ومتعصبون لها أكبر تعصب . فإن كان هذا التعصب لا يندر اليوم بخطر جلل فذلك لأن الشعوب الإسلامية قد أدركها الضعف والهرم . » وليس هذا الضعف الذي يشكو منه المسلمون إلا نتيجة جود العقائد الإسلامية وتضييقها على عقولهم الى حد أن أصيبت بالشلل .

« ومع هذا فالإسلام لا يزال يلعب دورا في تكييف الانسانية لا يصح إغفاله . فالثلاثمائة مليون من المسلمين في ازدياد مطرد ، بسبب التكاثر الطبيعي أولاً ، وبسبب دخول ألوف مؤلفة من أهل القبائل بفعل المبشرين بالإسلام .

وقد دخل أخيرا في الإسلام في الهند وحدها اثنا عشر مليوناً وأسلم أضعافهم في الصين وتركستان وسيبيريا والملايو .

« وفي الإمكان فهم عقلية المسلم وعدم التحامل عليه ، ونبذ الروايات الكاذبة التي تشيع عنه ، والقيام بخدمات مفيدة له . ولكن من السخف أن نتوهم أننا بذلك نستطيع أن نحكمه ، فإن بين المسلمين تضامنا عاما وإن تفرقت بيئاتهم ، فكل واحد منهم تهمه مصالح إخوانه المسلمين وإن بعدوا عنه مهما كانت أجناسهم ، فجميعهم يجمعهم

وطن أعظم من أوطانهم هو الاسلام، وعاصمته مكة، والحاكم فيه دون منازع نبي الاسلام وحده .

« إن تتابع القرون قد كيفت عقلية المسلمين وطبعها بعقائد الاسلام . ولما كانت هذه التعاليم هي عصارة العقل العربي ، وجب أن ندرس تاريخ العرب إن كنا نريد أن نفهم نفسية أى أمة من أمم العالم الاسلامى . ودراسة كهذه شاقة لوفرة موادها، والديانة الاسلامية محتجبة عنا بسبب تعدد المعتقدات المسلم بها، وكثرة الروايات وأخطاء الشراح فيها، وتحامل أعداء الاسلام عليه . ومع هذا فإن دراسة كهذه ضرورية لفهم نفسية المسلمين .

« إننا لا ندرى كيف فقد السوريون والمصريون والمراكشيون نشاطهم وقوة إدراكهم وروح الابتكار الذى كانوا عليه أيام سيادة اليونان والرومان بمجرد إسلامهم . وكيف نسى العرب تاريخهم الباهر واستسلموا للجهل والتفرق بعد أن كانوا وصلوا الى مدنية راقية ؟

« وإننا لم نفهم الى اليوم أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب ، ولم نفهم كذلك علل تدهور أمبراطورية الخلفاء ، وإصابتها بالشلل بسبب العقائد الدينية الجامدة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه ، وعوامل الأثر السيء الذى أبقى المسلمين بمعزل عن المدنية .

« وصلت بعض المؤلفات العلمية والفلسفية الموضوعة فى اللغة العربية أو المترجمة منها الى اللاتينية الى أوروبا ، فأعجب بها علماء القرون الوسطى على قلة بضاعتهم العلمية ، أعجبوا بتلك المؤلفات وتخيلوا أن العرب وصلوا الى درجة عالية من الثقافة العلمية . ولكننا عرفنا اليوم أن تلك المؤلفات لم تكن نتاج العقول العربية ، ولكنها ترجحات لمؤلفات يونانية قديمة ترجمها السوريون للعرب ترجمة لم يراعوا فيها الأمانة والدقة ، وما زال معظم المؤرخين ينخدعون بها ويدعون أنه كانت توجد حضارة عربية عالية

لا يمكن النزاع فيها ، والواقع أنه لا توجد مدينة عربية كما كانت توجد مدينة يونانية ولاينية ، إذا كانت الحضارة هي بذل الجهود الشخصية المبتكرة في سبيل التقدم العمراني .

« على أنه يمكن أن يقال إن هناك حضارة إسلامية ، ولكنها حضارة ليس للعرب ولا للإسلام فيها شيء ، هي حضارة الأمم التي دخلت في الإسلام ، فتأملت هذه الأمم تقدمها على الرغم من العرب ومن العقائد الإسلامية .

« والنجاح العظيم للفتوحات العربية لا يثبت لنا شيئاً ، فأمثال أتيل وجانكيزخان قد أخضعوا الشعوب ، ولكن المدينة ليست مدينة لهم ، فالشعب الظافر لا يمكن أن يترك أثره العمراني إلا إذا كان أكثر تمدناً من المتهورين .

« وقد هضم الاسبانيون وبربر أفريقيا الشمالية الحضارة اللاتينية ، ولكن العربي الفاتح بقي بربرياً ، وزاد فأخذ المدينة في الممالك التي قهرها وخنقها . والذي دفع بعض المؤرخين أن يعزوا للعرب مدينة هو أن المدينة اليونانية لم تمت فوراً في الممالك المقهورة ، إذ كانت حافلة بالحياة ، فبقيت ثلاثة أجيال تطلق قذائفها القوية من وراء الجبهة المحمدية .

« لقد كان على الأمم المقهورة أن تختار الإسلام أو المصير التعس ، أي أن تهلك ويصبح آحادها عبيداً . ولما كانت الأديان التي اصطدم بها الإسلام إما وثنية في حالة النزاع ، أو مسيحية لم ترسخ عقائدها بعد ، فضلت الشعوب المقهورة قبول الإسلام ديناً . « لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالاً تاماً . والشعوب التي بقيت تحت تأثير الحضارة اليونانية أو اللاتينية قد أصيبت تحت النير الإسلامي بالشلل ، ولم تستطع الأمم الغربية إنهاضها مع مابذلته من الجهود ، وذلك لأن عقلية هذه الشعوب قد شوهها الإسلام ، الإسلام الذي هو نتاج العقل العربي وعصارته .

« وقد كان العربي واقعيا لا يتصور شيئا أبعد مما تقع عليه حواسه . لذلك كان في الآداب كما كان في العلوم والفلسفة مجرد جامع لا مؤلف .

« يتولى الاسلام من يأخذه من المهد الى الاعد ، فلا يدع له أى مجال للتفكير أو النشاط ، ولا يدع له فرصة للحرية والإبداع . فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ، ولا تتيح لصاحبها إلا قدرا محدودا من الحركة .

« يحمل القول أن العربي استعمار كل شيء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن السمو الى تصور الفلاسفة العليا عمد الى تشويه كل شيء وجده في طريقه ، وإلى تحريفه وتبديسه ، وهذا هو سر تأخر الأمم الاسلامية وعجزها عن التخلص من الحالة البربرية التي تعيش فيها » .

هذا ما نشره المسيو (أندرية هرفيه) وهو أشبه بأقصوصة منه بدراسة علمية ، ولكنها أقصوصة من نوع مبتكر مبنى على إنكار الواقع ، وهو لذلك يتهم الذين شهدوا للاسلام من بناء العقل العصري بأنهم انخدعوا فعزوا للعرب ما هو لغيرهم من المفهولين ، ووصم الاسلام بنقائص ينطق كل نص من نصوصها ليس بأنه منها براء فحسب ، ولكن بأنه متحل بنقائضها من الأصول العليا .

ونحن نحصر آراءه في دائرة محدودة ، ثم نكر عليها بالرد خدمة للحق وللتاريخ معا ، فإليك :

- (١) إن التعاليم الاسلامية ليست بشيء غير عصارة العقل العربي .
- (٢) كان للشعوب التي سادها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جردتها منها السيادة الاسلامية .
- (٣) عقائد الاسلام جامدة تتحكم في كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية .
- (٤) العلم العربي لا يعمد ما ترجمه السوريون العرب ترجمة مشوهة انخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زورا .

- (٥) الحضارة التي يزعم أنها عربية هي في الواقع حضارة الشعوب التي وقعت تحت نيرهم، فتابعت سيرها على الرغم من العقائد الاسلامية الجامدة .
- (٦) نجاح العرب في فتوحاتهم العظيمة لا يعلى من قيمتهم، فإن الفاتحين من أمثال أتيل و جاكيز خان قد أخضعوا شعوبا كثيرة ولكنها ليست مدينة لهم بمدينة .
- (٧) لقد هضم الاسبان يون وبربر أفريقيا الشمالية الحضارة اللاتينية، ولكن العربي مع احتكاكه بتلك الحضارة بقي بربريا، وأخذ مدينة الشعوب التي ساد عليها .
- (٨) لقد كان على الأمم أن تسلم أو تبديد . وكانت إما على وثنية في حالة النزع أو على مسيحية غير أصيلة ، ففضلت هذه الأمم أن تسلم لتنجو من الهلاك .
- (٩) لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالا تاما، ولم تستطع الأمم الغربية فيما بعد إعادة الحياة اليها لأن الاسلام قد قضى عليها .
- (١٠) العربي لا يجيد التصور فلا يدرك فوق ماتدركه حواسه ، لذلك كان في الآداب كما كان في العلوم مجرد جامع لا مؤلف .
- (١١) الاسلام لا يدع الاخذ به أي مجال للحرية والابداع ، فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ولا تتيح لصاحبها إلا قدراً محدوداً من الحركة .
- (١٢) العربي استعار كل شيء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية ، وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن تصور الفلسفة العليا عمد الى تشويه وتبليس كل ما صادفه في طريقه ، وهذا سر تأخر الأمم الاسلامية .
- هذه آراء المسيو أندريه هرفيه ، فلو كان مما يفيد أن نقابلها بأبلغ عبارات الأسف مما نشهده فيها من قصر النظر ، ونكران الواقع ، ومحاولة طمس الحقائق ، وجهل تواريخ الأمم ، لمألأنا منها صحفا ، ولكننا نعلم أن الحكم للدليل القاطع ، فلنعمتد عليه في تفنيد هذه المفتريات ، ثم نكل أمرها للحق يدمنها ويذريها في الهواء ، شأنه مع كل

باطل : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »
 الشبهة الأولى - يقول المسيو أندريه هرفيه : إن التعاليم الاسلامية ليست بشيء
 سوى عصارة الفكر العربي .

هذه دعوى لا تستحق النظر ، وعذر المسيو أندريه فيها أنه لا يعرف أصول
 الاسلام ، ولا عقلية العرب على عهد جاهليتهم ، فنرى أن نبينهما له بإيجاز ، فنقول :
 (ا) كان العرب وثنيين يعبدون آلهة كثيرة ، زاعمين أنها تقرهم من الله زلفى ،
 وكانوا جامدين على وثنياتهم لا يبغيون عنها حولا .

(ب) وكانوا حريصين على تقليد آبائهم تقليدا أعمى ، لا يرون أن يجيلوا فيما هم عليه
 نظرا ، ولا أن يسمعوا فيه نقدا .

(ج) وكان لا يعينهم أن يفرقوا بين ما هو حق وما هو باطل من الأمور ، لأنهم
 كانوا لا يتوهمون للكون نظاما ، ولا يتخيلون لحوادثه ناموسا .
 (د) وكانوا يعتبرون الحق للقوة لا لصاحبه إن كان ضعيفا .

(هـ) وكانوا إباحيين لا يرون للشهوات حدودا ، إلا ما يفرضه عليهم العجز الطبيعي ،
 وما يحتمه الضعف الجثامى .

(و) وكانوا فوضى من الناحية الأدبية ، ليس لديهم أصول يردون أعمالهم اليها ،
 إلا ما أملت عليهم الحالة الجاهلية ، والسذاجة البدوية .

(ز) وكانوا مستريحين الى الجهل والأمية ، ومستنيين الى ما كانوا عليه من الحالة
 البدوية ونصف البدوية ، حتى اعتبروها للثل الأعلى .

(ح) وكانوا لا يعرفون للعدل حدودا إلا ما تقرره التقاليد المبنية على أصول
 مناسبة للحالة القبلية التي كانوا عليها .

(ط) وكانوا لا يقيمون للمساواة وزنا لا بين الأقوياء والضعفاء ، والأثرياء
 والفقراء فحسب ، ولكن بين البيوتات والجماعات أيضا لاعتبارات تواضعوا عليها
 ليست من الحق في شيء .

هذه هي الأصول التي تنزلت منها عصارة الفكر العربي قبل البعثة المحمدية ، وقد جاء الاسلام بنقائضها :

فأمر بتوحيد الله وتنزيهه ، وأسقط الوسطاء والشفعاء ، وأخلى ما بينه وبين خلقه ، ونهى عن التقليد بدون نظر ولا دليل ، ودعا الى التفرقة بين الحق والباطل ، والى العلم والفكر ، والى التقيد بنواميس الأخلاق ، والى تجريد العمل لله وحده فى جميع المقاصد ، وحرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأهاب بالناس الى لزوم النظام فى كل شىء ، مقررًا أنه خلق كل كائن بقدر ، والى الاجتماع والائتلاف تحقيقًا للوحدة الانسانية والعمل على تميمهما بين الناس حتى تصبح عالمية ، والى الحياة الحضرية الفاضلة وما تقتضيه من تعاطف وترادف وإحسان ، والى محق الفوارق الجنسية واللونية واللغوية ، مقررًا أن الكل أبوم آدم وأمه حواء ، وأن لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، والى العلم والحكمة بأقصى ما تستطيعه القدرة البشرية معلقا عليهما سعادة الحياتين ، والى العدل المطلق بين الناس كافة مؤمنهم وكافرهم عريهم وأعجمهم ، والى القيام بالقسط والشهادة لله ولو على النفس والأقرباء والوالدين ، والى المساواة بين الخلق مهما كانت نحلهم وبيئاتهم ، والى تطلب الرقى الصورى والمعنوى من جميع مظاهرها ، وعدم الجمود على حال واحدة .

ثم هو مع هذا كله قد دعا الناس الى وحدة عالمية ، والى ديانة فطرية عامة تسع الناس كافة فى كل زمان ومكان . (راجع القرآن الكريم)

لا مشاحة فى أن هذا كله ليس بعصارة الفكر العربى ، ولا يمت اليه بأذى صلة ، ولا هو بعصارة أرقى أمة كانت قائمة على عهد البعثة المحمدية أو قبل عهدها ، بل ولا عصارة أرقى أمة من الأمم العصرية كما يرى القارىء بأقل تأمل ، فاذا تقرر هذا فقد سقطت أولى شبهات المسيو أندرى هرفيه ، وأصبح بينها وبين الواقع المحسوس بعد المشرقين ، بل أبعد منه بما لا يستطاع تقديره .

الشبهة الثانية - يقول المسيو أندريه : كان للشعوب التي سادها اليونانيون والرومانيون نشاط ، وقوة إدراك ، وروح ابتكار ، جردتها منها السيادة الاسلامية . اللهم إن هذا منافض لبدايات التاريخ مناقضة صارخة .

وذلك أن البلاد التي فتحها المسلمون وكان يسود فيها آثار من المدنية اليونانية والرومانية هي سورية ومصر وشمال أفريقيا كله والأندلس . فأما سورية فكانت تعاني من عنت الرومانيين في الحكم ، ومن اضطهادهم لها في الدين ، ما أفردت له صحف سوداء في التاريخ ، حتى حمل ذلك مئات الألوف من اليهود واليعاقبة والنساطرة أن يلبأوا الى بلاد العرب هرباً من الجور الذي كان حائفاً بهم ، وفي هؤلاء علماء أعلام استخدمهم العرب فيما بعد في ترجمة العلوم ، وأحسنوا مكافأتهم ، وحموهم شرور الاضطهاد ، وقربهم الخلفاء منهم حتى كانوا من أخص بطاناتهم ، وعولوا عليهم في الطب والعلوم الطبيعية والرياضية ، وخلدوا ذكرهم في مؤلفاتهم التاريخية .

وأما مصر فقد كانت كما يقول المسيو جول لا بوم على عهد الرومانيين ، كالجنة المصبرة ، فبعد أن قتلوا من أهلها نحو ثمانمائة ألف نسمة لاعتناقهم المسيحية بقصد إبادتهم ، عادوا بعد أن تنصروا هم فاضطهدوهم لمخالفتهم لهم في المذاهب ، وأرهبوهم بالضرائب والأتاوات ، حتى نصبت خيراتهم ، ووجد نشاطهم ، وتحجرت عقولهم . فلما انتدب العرب لفتحها رمى المصريون بأنفسهم بين أيديهم ، وعاونوهم على التخلص من نير مستعبيدهم . أليس هذا التواطؤ وحده أدل دليل على ما كان يعانيه المصريون من عسف الرومانيين وظلمهم وهم أبناء دين واحد ؟ فلو كان المصريين نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار أفاضتها عليهم المدنية الرومانية لما سمحت نفوسهم أن يجازوا أصحابها بمالاة أعدائهم عليهم .

أما شمال أفريقيا الذي استولى عليه المسلمون . ركة حربية تشبه رياضة عسكرية ، فقد كان أهله من البربر رازحين كالمصريين تحت نير الاستعمار الروماني ، بل كانوا أتمس

منهم حالا ، فإنه كان للمصريين ذمء من مدينتهم القديمة ، وأما أولئك فكانوا مجردين من مثل هذا الذمء أيضا ، لأنهم لم تكن قُدْمة مدنية ولا وراثة أدبية ، فكانوا على ما هم عليه اليوم من البداوة المتأصلة في نفوسهم ، اللهم إلا جماعات عايشة الرومانيين واليونانيين في المدن التي أسسوها في بلادهم وكان حظهم معهم حظ العبيد من سادتهم . فإذا كان المصريون قد برموا بسادتهم الرومانيين الى حد أنهم مالا والعرب على تسليمهم بلادهم ، فهل يعقل أن يكون بربر شمال أفريقيا أحسن حالا منهم ؟ وهذه الأصقاع من أفريقيا ظلت خاملة الذكر لا يسمع عنها شيء يعتد به التاريخ حتى ملكها المسلمون ، فدخلت تحت ظل الاسلام في دور جديد ، فتألفت فيها خلافة مدت سلطانها على مصر نفسها ، وكانت لها وللجزائر وتونس أساطيل تهيبها أساطيل أوروبا قرونا طويلة .

وأما الأندلس فقد كانت في عهدها الأخير تسودها قبيلة الوزيفو ، وكانت عدوة للمدنية الرومانية لم تدع معلما من معالمها إلا هدمته ، وجرت في حكم البلاد على طريقة الجور والاستبداد المفرطين . وقد دخلها المسلمون بتواطئ بينهم وبين الناقين على حكومة المغتصبين . وما كادت تطوؤها أقدامهم حتى أصلحوا إدارتها ، وأحسنوا سياستها ، وأسسوا فيها المدارس والجامعات ، وأقاموا المباني والعمارات ، ونشطوا الزراعات والتجارات ، وأحيوا الفنون والصناعات ، حتى أصبحت مضرِب المثل في العمران والمدنية الى اليوم .

أليس من غرائب التعصب أن ينكر المسيو أندريه كل هذه الآثار الناطقة ويدعي أن سيادة المسلمين أخذت نشاط الشعوب في البلاد التي احتلتها ؟ ! ألم ير أن الشرق الاسلامي لبث متفوقا على الغرب في كل مجال الى نحو ثلاثمائة سنة ؟ فإذا كانت اسبانيا قد نجحت في التخلص من حكم المسلمين بسبب انقسامهم على أنفسهم فقد استعاض المسلمون من ذلك بفتح شرق أوروبا ، وما زالوا ظاهرين حتى وصلوا الى وسط تلك القارة

وهددوا رومية نفسها ، وحافظوا على فتوحاتهم فيها قرونا . وما ضرهم إلا فترة من السكون اعترتهم بعد عراك طويل للحوادث دام ألف سنة ، باغوا في خلالها قلة المجد ، وآلت اليهم فيها زعامة الأرض في السياسة والعلم والفنون والأدب . فهل يسمح المسيو أندريه لنفسه أن يعتقد أن عصارة الفكر العربي الجاهلي تُمكن الآخذين بها من الاستيلاء على الزعامة العالمية طوال تلك المسدة الطويلة من الزمن ؟ فأين كانت عصارة الفكر اليوناني الروماني لتقاوم هذه الحركة الجاهلية في الأرض ؟ ألم يعلم أنها كانت قد جفت وتطايرت ذراتها في الهواء حتى جاء المسلمون فأعادوا تقطيرها ثانية ، وزادوا عليها من فيض جهودهم ما ضمن لها البقاء والنماء ما شاء الله لها أن تبقى وتنمو وتؤتي ثمراتها للخلق ؟

من العبث أن أستشهد هنا بأقوال المؤرخين من أبناء الفرنجة ، فهم في نظر المسيو أندريه هرفيه قد خدعوا فطنوا المدنية التي كانت عليها الأمم التي سادها المسلمون مدنية عربية ، والحقيقة أنها كانت يونانية أو رومانية . إذا صح هذا كان المسيو أندريه هرفيه الذي ليس بمؤرخ قد أتى المكابرين في التاريخ بوسيلة فذة لا تكلفهم أقل عناء ، وهي خرق إجماع المؤرخين !

بنج ! لو كانت هذه وسيلة من وسائل التمهيص لسهل على كل مكابر أن يثبت مدعاه برأيه الخاص ، فلا تصبح للحوادث التاريخية قيمة ، ولا يكون الإجماع أصلا من أصول التحقيق ، ويمتنع الاستشهاد بالتاريخ .

يقول المسيو أندريه هرفيه : إنه كان للشعوب التي أخضعها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جردتها منها السيادة الاسلامية . فكيف يعقل هذا الكلام والصفات التي يذكرها لم تكن لليونانيين والرومانيين أنفسهم في العهد الذي ظهر فيه الاسلام ؟

فهل يعقل أن يكون شيء منها المستعمراتهم التي امتصوا دماها وتركوها جثة هامدة ؟

ألم يجمع المؤرخون على أن أوروبا كلها كانت في ظلام حالك من القرن الرابع الى القرن الخامس عشر ، حتى لم ينبغ فيها في مدى هذه العشرة القرون عالم واحد ، وهو العهد الذي يعرف عندهم بالقرون الوسطى ؟ فليد لنا المسيو أندريه هرفيه عن النشاط وقوة الإدراك وروح الابتكار التي بذكرها لثري أين كانت ثاوية من ثنايا هذه الغياهب المتلبدة .

لا مشاحة في أن هذا خرق ثان لا يجمع المؤرخين يتحمل منه المسيو أندريه هرفيه تبعة فادحة ، أقل ما فيها أن لا يكون لأقواله أية صبغة جدية ، ولا أقول علمية .



بقيت عشر شبهات تتولى دحضها في المقالة التالية ، إن شاء الله .

محمد فريز ومجدي

وجوه البلاغة

قالوا إن البلاغة تكون على أربعة أوجه : تكون باللفظ والخط والاشارة والدلالة ، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان ، وموضع لا يجوز فيه غيره .
فأما الخط والاشارة ففهومان عند الخاصة وأكثر العامة ، وأما الدلالة فكل شيء ذلك على شيء فقد أخبرك به ، كما قال الحكيم : أشهد أن السموات والأرض آيات دالات ، وشواهد قائنات ، كل يؤدي عنك الحجة ، ويشهد لك بالربوبية .
وقال آخر : سل الأرض من غرس أشجارك ، وشق أنهارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجيب إخبارا ، أجابتك اعتبارا .

ومن الثناء بالدلالة لا باللفظ من الشعر قول الشاعر :

لقد جئت أبغى لنفسى مجيرا فجئت الجبال وجئت البحورا
فقال لي البحر إذ جئته فكيف يجير ضريو ضريرا
ومثله قول نصيب بن رباح :

فعاوجوا فانتوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أنئت عليك الحقايب
الثناء هنا كله بالدلالة لا باللفظ .

تأريخ الالفاظ في اللغة العربية

كلمة (الأدب) وأطوارها

فرغنا في المقالين السابقين من عرض آراء الباحثين في تأريخ كلمة « الأدب » ، ولفتنا نظر القارئ الكريم الى ما في مذهب أنصار القديم من قصور في البحث والاستدلال ، والى ما في مذهب أولياء الجديد من تطرف يتسع أحيانا حتى ليوشك أن يكون نهورا ، ولم نكتفم فضلا لأحد المذاهبين .

وفي هذا المقال الذي سنهني به الموضوع نحاول أن نوجه البحث الى شيء من الأدلة على أن مادة « الأدب » كانت معروفة عند العرب بصيغ مختلفة في العصر الجاهلي ، وفي عصر صدر الاسلام ، ومعروفة بهذا المعنى (الفنى) الاصطلاحي الذي عرف لها في أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسي .

والواقع أن الاعتماد على النصوص الأدبية من الخطب والأشعار في العصر الجاهلي لا يفيدنا كثيرا في إثبات استعمال كلمة الأدب في معناها الاصطلاحي (الفنى) لأنه ليس لدينا نص صريح يثبت لنا ذلك . ونبادر الى القول بأننا نقصد بالمعنى (الفنى) ما كان يقصده شيوخ المؤددين في العصر العباسي كالمفضل الضبي ، والمبرد ، وثعالب ، والكسائي ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، وخلف الأحمر وأضرابهم ، من حفظ الغريب والنحو والصرف وأيام العرب وما قيل من شعر ونثر ... الخ ، ولا يمكن أن نقصد الى هذا المعنى المتعارف بيننا الآن ، وهو الذي سميناه أدبا خاصا في المقال السابق ، لأن هذا معنى مستحدث ، أو هو تخصيص للعام ، كما يقول العلماء .

هدانا البحث الى عبارة في « أساس البلاغة » للزخشرى ، ولم أر أحدا من الباحثين تعرض لها ، لأنها لم تذكر في مادتها ، بل ذكرت عرضا في مادة أخرى ، هذه العبارة قد تقلب نظرية بعض المستشرقين وأشياهم من الباحثين في الأدب العربي ، الشاكين

في معارف العرب الأدبية، إذا عني بها المنصفون عناية جدية، وتتبعوا مصادرها وتاريخها.

قال صاحب (الأساس): « وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وتقول: فلان يغرب كلامه، ويغرب فيه، وفي كلامه غرابه، وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة: أي غمضت فهي غريبة، ومنه مصنف الغريب، وقول الأعرابي: « ليس هذا بغريب، ولكنكم في الأدب غرباء. »

ونحن وإن كنا بعيدين عن معرفة من يكون ذلك الأعرابي، وهل هو جاهلي أو إسلامي؟ لكن سياق عبارة الأساس يفيد أن الكلمة عني بها « الأدب » بمعنى معرفة الكلام الغامض، وهو كما قلنا معنى اصطلاحى عرف في أواخر الدولة الأموية وصدر العباسية.

ولا سبيل الى القول بأن الكلمة مولدة لا تثبت حكماً لغوياً، لأن المعاجم اللغوية يفرض فيها غالباً عدم التعرض للمولد من الألفاظ دون إشارة أو فهم من السياق. والزخشرى بخصوصه لم يهده منه ذكر المولد دون تنبيه عليه، وفي أساسه مزبة يفوق بها المعاجم اللغوية، وتجعله نواة صالحة لفن تأريخ الألفاظ، ذلك أنه يتتبع أطوار استعمالات الكلمة في حقيقتها ومجازها، وقد يغلو في التوسع بالمجاز فيعتبر كل استعمال جاء بعد الاستعمال الأول مجازاً. ولعل هذا يرجع حصراً الحقيقة في الاستعمال الجاهلي غالباً، كما يتبين المتتبع له.

يخف بعض الشيء هذا العسر الذى يجده الباحث حين يعرض الى بحث أدبي أولغوى في العصر الجاهلي، إذا جزنا ذلك العصر الى ما بعده من عصر صدر الاسلام، حيث تبدأ الحياة العربية فى الجدة والاتساع، وحيث تأخذ اتجاهها منظمًا. فالنصوص الأدبية، تحفظ لأن الناس حينئذٍ حراس على الحفظ لداعى الدين واللغة والعصبية، وتذاع وتقيّد لأن الحياة الجديدة تتطلب تلك الإذاعة، وذلك التقيّد، وحيث

أصبحت الرواية فنا مستقلا له أصوله وقواعده يستبىق الرواة فى ميدانه الى النقد والنحىص .

يحدثنا أبو الفرج فى الأغانى أن عمر بن الخطاب ردا بن الزبمرى وصاحبه على حسان ابن ثابت فأسمعهما من شعره كما أسمعاه حتى اشتقى منهما فى ملا من الناس ، ثم قال عمر ابن الخطاب على مشهد ممن حضره : « إنى كنت نهيتكم أن تذكروا بما كان بين المسلمين والمشرىكين شيئا دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيىح فيما بينكم ، فأما إذا أبوا فأكتبوه ، واحتفظوا به » فدوّنوا ذلك عندهم . قال أبو الفرج : « قال خلاد بن محمد : فأدرىكته والله وإن الأنصار لتجده عندها إذا خافت بلاءه »

نزل القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم وتدارسه مع أصحابه ، وتحدث اليهم فى شرح ما غمض من أحكامه ، وتبيين ما أجل فى آيه ، والنبى صلوات الله عليه شرّع فيما لم ينزل به عليه قرآن مما أذن الله له أن يحدث به عنه ، ويشرعه لأمته وحيّا غير وحي التلاوة والقرآن ، والصحابه وهم فى كثرة الألوف انتشروا فى أرجاء الأرض يعلمون الناس آداب هذا الدين الكريم وشرائعه ، وهم ما فتئوا يسألون ، ويسألون ويتحاورون ويبحثون . وجماعات من العرب بقيت مع الماضى ما برحت تذكره وتتغنّى به ، وتكثر من الحديث عن أيام جاهليتها ، وما قيل فيها من منظوم ومنثور ، فكان القرآن الحكيم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ومأثور أصحابه وخلفائه وما تخلف من أدب العرب فى جاهليتهم وتحدث به من أدركوا الاسلام منهم ، هى مادة البرنامج الحديث لتلك المدرسة الأدبية العربية الاسلامية الجديدة التى أسسها الاسلام .

فى أيها وجد الأدب حجته تلقاها واثقا بها مطمئنا إليها ، فإذا لم يجد البحث فى القرآن الكريم نصا يثبت مادة « الأدب » فليس ذلك سببا ينهض للدلالة على عدم عرفان لغة العرب لهذه المادة قبل الاسلام ، لأن القرآن لم يجمع ألفاظ اللغة كلها ، وليس هو معجما للغة حتى يفرض فيه النص على كل مادة لغوية .

وإذا وطىء، لأنصار البحث (الناثر) أن يجدوا منفذا الى التشكيك فى صحة بعض النصوص الأدبية فى العصر الجاهلى، فليس من السهل التسليم لهذا التشكيك فى عصر صدر الاسلام.

وحديث «أدبى ربى فأحسن تأديبى» وإن لم يرتفع فى متنه الى الصحة القاطعة لكنه لم ينزل عند ثقات المحدثين الى الوضاعة السكاذبة، وعدم ثبوته بلفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يمنع الاحتجاج به فى إثبات وجود مادة «الأدب» فى صدر الاسلام، لأنه على فرض أن الراوى رواه بالمعنى وعبر عنه بعبارة من عنده، فهو لم يفتجر ألفاظه افتجارا، وإنما المعقول أن يكون التعبير عنه بألفاظ معروفة متداولة فيما بينهم، وذلك يكفى لإثبات وجود مادة «الأدب» فى صدر الاسلام، وهذا النص لا ينتشبت به تشبث الغريق بعود الخلفاء، وإنما نستأنس به استئناس الغريب ببلد سمع لحن قومه وبلده.

والحديث مروي فى مقدمة «النهاية» لابن الأثير فى سياق يختلف به معناه عما يفهمه كثير من الباحثين، فإنهم يفهمون منه: التعليم والتخلق والتهذيب، وسياق ابن الأثير يفيد أنه يراد منه بعض المعنى الاصطلاحى (الفنى) للكلمة. وعبارته: «وقد عرفت أيدك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نطقا، وأسدقهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم الى طرق الصواب، تأييدا إلهيا ولطفا سماويا، وعناية ربانية ورعاية روحانية، حتى لقد قال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وقد بنى نهج: يا رسول الله نحن بنو أب واحد وزناك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال: أدبى ربى فأحسن تأديبى، وربيت فى بنى سعد».

ولو قدرنا عدم صحة هذا الحديث بلفظه فليس ذلك بمضير للبحث، لأننا عثرنا على حديث يرتفع بنصه الى مقام الصحة عند الثقات رواه الترمذى فى سننه وهو قول النبى

صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن » وهو يذهب بالمادة مذهبا آخر في صيغتها ومعناها ، لأنه يذكر كلمة « أدب » وهي نص في موضع النزاع — كما يقولون — ويستعملها بمعنى التهذيب والتربية الخلقية ، وهذا أقرب المعاني الى المعنى (الفنى) الاصطلاحي .

وهذا حديث ثان لا ينزل عن مرتبة الصحة الراجحة ، يرويه أصحاب الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن هذا القرآن مأدبة لله تعالى ، فتمعنوا مأدبته ما استطعتم وإن أصفر البيوت لبيت أصفر من كتاب الله » . قال السيد المرتضى في أماليه شارحا لهذا الحديث : « للمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ، ويدعو اليه الناس ، فشبه النبي صلى الله عليه وسلم ما يكتسبه الانسان من خير القرآن ونفعه وعائده إذا قرأه وحفظه بما يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به ، يقال قد أدب الرجل يأدب فهو أدب إذا دعا الناس الى طعامه وشرايه ، ويقال للمأدبة المدعاة ، وذكر خلف الأحمر : أنه يقال فيه أيضا مأدبة بفتح الدال : قال طرفة العبدى :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الآدب فينا ينتقر
وقال الهذلى يصف عقابا :

كأن قلوب الطير في جوف وكرها نوى القسب ملق عند بعض المآدب
أراد جمع مأدبة . وقد روى هذا الحديث بفتح المأدبة ، وقال الأحمر : المراد بهذه اللفظة مع الفتح هو المراد بها مع الضم ، وقال غيره : المأدبة بفتح الدال مفعلة من الأدب معناه أن الله تعالى أنزل القرآن أدبا للخلق وتقويما لهم .

فأنت تراه قد صرف الكلام وأداره كله على لفظة « المأدبة » من الحديث ، وهذا يدلنا على عراقة هذه المادة في لغة العرب ، وأنها صحيحة الورود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أن شيئا من الشك أو الضعف لا بس هذا الحديث بنصه لنبه عليه

الثقات ، وكان السيد المرتضى يشير اليه على الأقل في صدد نقل أقوال العلماء في معنى المأدبة وتفسيرها .

وهذا حديث ثالث يرويه صاحب الأغاني وكتب السير في قصة مقتل أبي جهل يوم بدر : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصف لأصحابه أبا جهل بصفة تميزه من بين قتلى المشركين فقال : « انظروا إن خفي عليكم في القتلى الى أثر جرح بركبته فأني ازدهمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشب — أو أشف — منه ييسير ، فدفعته على ركبته نخدش في إحداهما خدشا لم يزل أثره فيها بعد » . وهذا الحديث يجري ذكره في هذا البحث مجرى الشاهد الأدبي الذي يعتضد بغيره .

وأما الكلام المأثور عن الخلفاء وعلماء الصحابة وأدبائهم فلا يكفي لرفضه أو الشك فيه هذا الكلام المجمل الذي لا يستند الى حجة . ونحن إذا قرأنا كثرة النصوص التي استعملت فيها هذه المادة أيام الخلفاء وعصر الصحابة ، أحسنا إحساسا لا يخلو من قوة بأن مادة الأدب كانت معروفة لهذا العهد متداولة في معانيها المختلفة . ومن ثم ترجع من طريق الصقل الزمني الى العصر الجاهلي دون أن يستطيع البحث تحديد الوقت الذي ظهرت فيه من ذلك العصر ، لأن النصوص القاطعة تعوزنا لإثبات أولية هذه المادة ، غير أنني أؤمن بإيماناً قويا أنها اتصل اتصالاً وثيقاً بحضارات العرب في اليمن والعراق والشام ، ومكة ويثرب ، وقد يصح أن يكون عرب البوادي ظلوا بعيدين عن تداولها ماداموا في عزلتهم ، أما بعد نشأة تلك المجتمعات الأدبية في أسواق العرب وأنديتهم وحول البيت الحرام ، فبعيد ألا يكونوا قد عرفوها وتداولوها فيما بينهم ؟

صادق إبراهيم عرب

الاسلام والطب الحديث

بحوث دينية علمية

— ٤ —

قال تعالى : « تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ » آل عمران الآية ٢٧
 قيل في تفسير ذلك : إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة هي حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة ، فهو خلق حي من حي ، فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

فإذا قيل إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حي من ميت فهذا صحيح ، ولكنه ليس المقصود من الآية ، والله أعلم ، لأنها تشير الى أن الخلق شئ عادي يحصل يوميا بدليل ورودها بعد « تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ » بالتعاقب ، وهذا شئ اعتيادي . فالله يضرب لنا مثلا نشاهده يوميا ودائما .

والتفسير الحقيقي هو « إخراج الحي من الميت » كما يحصل يوميا من أن الحي ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره والغذاء شئ ميت ، ولا شك في أن القدرة على تحويل الشئ الميت الذى يأكله الى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحي من الجسم الميت . وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن « النعجة » مثلا تتغذى بالنبات ، وتحوّل الى لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوّل الى جسمه الحي . وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات مثل اللبن (وإف شتت فلهوم الحيوانات أيضا والنباتات) فإن اللبن سائل ليس فيه شئ ، حي (بخلاف النطفة فإن

فيها حيوانات حية) ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، والله أعلم بمراده (١) .

* *

قال تعالى : « ورسولاً الى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرى الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » الآية ٤٩

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية ٥٩

« بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين » الآية ١٢٥

لقد وضعت هذه الآيات بعضها مع بعض لأنها من نوع واحد في إظهار قدرة الله بالنسبة للإنسان ، وقد اعترض على عمل الطين بشكل الطير ، لأنه لا لزوم لذلك مادام الله قادراً على إحيائه الخ . والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية ، لأن الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس ، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه ، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد فى أن يردّه الى شىء يعرفه ، فإن لم يمكن بقى متحيراً ، وإن تكرر ذلك أدى الى اضطراب فى الأعصاب فديكون خطراً . وهنا يلحظ لطف الله فى أنه لا يظهر قدرته للإنسان إلا بطريق التدرج ، وهذا يلاحظ فى كل المعجزات على الإطلاق ، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، سواء أكان فى شكل الطير أم لم يكن . وكذلك لاداعى للنفع لأن طريقة الإرادة الإلهية هى « كن فيكون » ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة ، لأن الطين إذا كان

(١) تنشر ما ذكره الدكتور على أنه رأى له . وقد قيل إن معناه يخرج الإنسان الحى حياة علمية وقلبية من رجل يعتبر ميتاً لتجرده من هذه المواهب ، ويخرج المجرد من هذه الحياة الروحية من رجل حاصل عليها على أكمل حال .

بشكل الطير يشته فيه الانسان بالطير الحقيقي ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق ، وبعدها ينفخ فيه .

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث في أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك ، فعند وجود الروح في هذا الهيكل الطيني تكون الصدمة قد انكسرت حدثها بانتظار حدوث شيء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقا في وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب في حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ، ولهذا يشته فيها الناظر . وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة لأننا نراها على أيدي أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذي فقد بصره بفقد العين نهائيا ، وبين إبراء الأعمى المصاب بالمستيريا الخ مثلا ، يشبه الفرق بين الطين الذي في شكل الطير والطير الحقيقي ، ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الانسان بذلك قدرته تدريجيا ، فالانسان أولا يشك ويقول ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التي ليست فوق قدرة الانسان ، وربما كانت شيئا غير عادى ، ولكن الله يقول بعد ذلك : وأحي الموتى ، لكي لا يدع مجالا للشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها في تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خالق من نطفة الأم فقط ، وفي العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفة الأب والأم . ولكن الطريقة التي ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عند ما افتنوا بصحة المعجزات الأخرى التي أتى بها المسيح . وقد وصلوا الى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط ، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل

عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبدا إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله ، فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة الى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الانسان كما بينا .

وهنا يظهر جليا معنى قوله تعالى : « بخمسة آلاف من الملائكة » الآية ، وهي التي طعن فيها أيضا بدعوى أنه ما دام الله تعالى يريد نصرتهم فذلك لا بد أن يحدث بدون حاجة الى إرسال ملائكة ، ولكن إرسال هذه المساعدة وتعيين عددها الخ هو لتقريب طريقة النصر لفهم الانسان ، فلا يقع في الحيرة ، وأما عمل الله فهو فوق إدراكنا ، ولا يمكننا أن نفهم منه إلا « كن فيكون » .

وكذلك الحال في عصا موسى التي استعملها مع الساحرين وشق بها البحر لتخفيف وقع الصدمة على الحاضرين ، فهذه الحال لا تختلف ، في رأى العين ، عن عصا الساحر ، ولكن أثرها يختلف اختلافا كليا .

وكذا حمل امرأة سيدنا زكريا ، التي ذكرها القرآن في سورة مريم ليمهد بها لقصة سيدنا عيسى : لا تقل في الإعجاز عن كل المعجزات ، ولكنها ملطفة لأن الناس كثيرا ما يشاهدون العاقر تعالج وتلد وكذلك الشيخ الكبير ، ولكن عقمها كان لسبب حقيق كالذي فقد رجله ، ولكن الله جلت قدرته أراد اللطف بعباده .

ولمنع التكرار سأورد هنا آيات من مريم لعلاقتها بسيدنا عيسى : قال الله تعالى : « فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لا أهاب لك غلام زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين » . وهذه المعجزة كما قلنا لطف الله فيها بمريم فأراها مـاكفا في شكل بشر ، وقال لها سأهب لك غلاما ، فأجابت بأن هذا غير ممكن لأنه لم يمسنها بشر ، ولكن رؤية الملك والظروف المحيطة برويته أوجدت عندها بعض الشك في أنها ربما حملت ولكن بطريقة غير عادية ، وهذا ليهيء عقلها لاحتمال صدمة الحمل عند ما يحصل .

«والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»: هذا ليهي، أفكار الناس ويقلل من صدمة المعجزة، وكأن الله تعالى يقول لنا إن النفخ أخذ مكان نقطة الرجل مع أن تمثّل الملك بالبشر ليس إلا مثل تشكيل الطين بالطير، و«النفخ» في حكاية سيدنا عيسى ليس إلا كالنفخ في الطين، وكل ذلك لتقريب فهم المعجزة.

والحقيقة أن سيدنا عيسى خلق من نقطة السيدة مريم، والجزء الآخر الذي يمثل الرجل خلق بإذن الله وقدرته، ولا يمكننا أن نعرف أكثر من ذلك «كن فيكون» وأهمية الحادث هي ليست في خلق إنسان لأن الآلاف تولد يوميا، ولكن الأهمية هي في أن السنن التي خلقها الله وكفل لها الاستمرار وعدم التبديل، والتي وجدها العالم كله ويسميا الطبيعيون الطبيعة «ولن تجد لسنة الله تبديلا» قد بدلت، وهذا لا يكون ولا يمكن أن يكون، إلا بالقدره الإلهية التي تضع جميع السنن، أي أن سيدنا عيسى خلق بسنة جديدة، خلفه بمثابة «بدء الخلق» تماما، وهذا هو السبب في أن ولادته وحياته كانت صدمة شديدة للذين كانوا في عصر ولادته من الناس، وللذين جاءوا من بعدهم، حتى إن أمما فتنت وقالت إنه ليس بشرا مثل آدم بل هو ابن الله، وأن ولادته مع ما صحبها من الملطفات قسمت الأمم شيعا، ولكن هذه إرادة المولى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة». دكتور عبد العزيز اسماعيل

الرضا بالظاهر من المودة

ارض من المرء في مودته	بما يؤدي اليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحدا	يصح منه غدا سرائره
يوشك أن لا يتم وصل أخ	في كل زلاته تنافره
إن ساءني صاحبي احتملت وإن	سر فاني أخوه شاكره
أصفح عن ذنبه وإن طلب العذ	ر فاني عليه عاذره

فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك في المجتمع الانساني

نريد في هذا البحث أن نعرض ولو لمأما الى شوق النفس وما يصدر عنها من الأفعال المميزة لها عن النفوس غير الناطقة ، فشوق النفس الى العلوم والمعارف فضيلة من فضائلها ، بل هي الفضيلة العظمى التي أربت على كل فضيلة ، منذ قيام البشرية في الأرض بعبء التكليف .

وعلى مقدار طلب الانسان لهذه الفضيلة واستلهاام الأصلاح منها في شتى مناحيها والتغلب على العوائق التي تقطعه عنها ، يكون نجاحه فيها . وقد أبتنا في البحث السابق ما هي تلك العوائق التي تقف عقبة في سبيل النهوض بهذه الفضيلة .

وبدهي أن الفضائل من حيث هي كذلك لا يستطيع تحصيلها إلا بعد أن تخلص النفوس من الرذائل التي هي أضداد تلك الفضائل وتقاؤها ، وهي شهواتها الثائرة الجسدية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية . ذلك لأن الغرض المقصود من وجود الانسان حين يتوجه اليه هو ما يجب أن يسمى الشخص به خيراً أو سعيدا . أما من عاقته العوائق وصرفته الصوارف عن بلوغ ما يحصله من مميزات الانسان الذي يحمل النفس الناطقة ، فهو الشرير أو الشقي .

فالمميزات إذاً هي التي تحصل للانسان بإرادته وفعله واختياره وسعيه في الأمور التي من أجلها وجد الانسان وقام بمهمة عمارة الكون وتحري أفضل برامج الحياة . وقد قسم الفلاسفة الأولون الأخلاق الى أقسام شتى ، فمنها ما هي شريفة ، وسيأتى طرف ، ومنها ما هي ممدوحة ، ومنها ما هي بالقوة كذلك .

ولقد سبق لنا أن أبتنا لحضرات القراء أن كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل لا يشاركه فيه غيره من الموجودات . وهذا الحكم مستمر في الأمور العلوية

والسفلية كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوانات والنبات والمعادن . ولكن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة العاقلة ، فكل من كان تمييزه أصبح ورويته أصدق واختياره أفضل ، كان أكمل في إنسانيته وأبلغ في معقوليته وأفعل فيما يترتب عليها من الآثار .

وكما أن السيف والمنشار مثلا ، وإن صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص وهو القطع بالقياس الى كل واحد منهما منفردا عن صاحبه ، يختلفان في كيفية القطع وسرعته وبلوغ الغاية منه على أكمل وجوها ، فكذلك الانسان بالقياس الى ما دونه من بنى جنسه ، وكذلك الشأن في الفرس والبازي وسائر الحيوانات ، فإن أفضل الأفراس ما كان أسرع حركة وعدوا وأشد نشاطا وتيقظا لما يريد الفارس منه من طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات وخفة العدو والنشاط ، فكذلك الناس أفضلهم من كان حريصا على أفعاله الخاصة به وأشد تمسكا بشرائط جوهره الذي تميز به عن الموجودات . وإذا يكون من الأحرى بكل ذى مسكة من العقل أن يحرص الحرص كله على الاستمساك بأسباب الخير ومصادره ، وأن يفر بدينه وعرضه وخلقه من أسباب الشر وبواعثه ليستكمل من الحياتين أوفر حظ وأوفى نصيب ، فإن الحيوان كالفرس مثلا إذا بدا منه تقصير عن الحد الذي يحفظ له نعت الفرسية وانحط عن الفضل المتم لهايته بحيث لم تظهر مميزاته اللاصقة به على أكملها وأتم وجوها ، انحدر الى مرتبة الجر وكان خليقا أن يؤخذ بالأفكاف ، وأن يساق بالعصا كما تساق الجر .

وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت عن أداء ما يحفظ لها نعوتها انحطت عن مراتبها الى ما دونها واستعملت استعمالا يتفق وما هبطت اليه من غير مستواها الموجهة اليه . فالانسان إذا نقصت أفعاله وقصر فيما خلق له وقامت في وجهه الصوارف لفعله الصادر عنه باختياره بحيث تكون أفعاله الصادرة عن رويته غير بالغة حد الانسانية المهدبة العاقلة ، انحط الى مرتبة البهائم والتحق بأصناف ليست من صفته . أما إذا صدرت عنه تلك الأفعال مضادة لأنواع الخير بحيث تكون مظاهر

من الشر ومجموعة غير صالحة من الرذائل التي من شأنها أن تصرفه عما عرض له من تركية نفسه وصقلها في قالب من الخير ينتهى به الى الملك الرفيع والجاه المنيع والسرور السرمدى والعيش الرضى، وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات الوقتية التي لا ثبات لها، كان خليقا بالملت من خالقه، حقيقا بالرئاء له.

وإذا تجلى للناظر أن سعادة كل إنسان تكون بالقياس الى ما يصدر عنه من الأفعال المميزة للإنسان والتي هي جزء من مقوماته، وأن لهذه السعادة المترتبة عما يصدر عنه من الأفعال مراتب كثيرة بحسب الروية والروى فيه، ولذلك قيل: أفضل الروية ما كان في أفضل مروى، ثم ينزل رتبة فرتبة الى أن ينتهى الى النظر في الأمور الممكنة من العالم الحسى، فيكون الناظر في هذه الأشياء قد استخدم رويته والصورة المميزة له التي بها صار سعيدا مستأهلا للملك الأبدى والنعيم السرمدى بالقياس الى أشياء دنيئة وأمور تافهة لا ثبات لها ولا ظل لها من الحقيقة، فقد تبين أن هناك أجناسا من السعادات على الجملة، وأن أجناسا من الشقاوات على الجملة، تنحل هذه وتلك الى جزئيات بحسب ما يصدر عن الانسان من العوامل الموجبة أو السالبة، وبحسب ما تتفاعل به نفسه منساقا بعوامل الخير أو بدوافع الشر، وكل ميسر لما خلق له، وأن الخيرات والشرور في الأفعال الارادية هي إما باختيار الأفضل والعمل به، وإما باختيار الأدنى والميل اليه. ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكانها التي في النفس كثيرة ولم يكن في طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها، وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم، ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة وأن يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقيين له، فتكون الخيرات مشتركة والسعادة معروضة بينهم فيتوزعونها. ولأجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا، لأن كل واحد يرى كما له عند الآخر، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته، فيكون إذاً كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن، وقوام الانسان بتمام أعضاء بدنه. بحسب

الاسلام والمسيحية

اطلعنا في المجلة الاسلامية التي تصدر بلندن باللغة
الانجليزية على محاضرة تحت هذا العنوان، فرأينا نقلها الى العربية
لما حوته من المعلومات القيمة عن المدنية المتأصلة التي أوجدها
الاسلام، فإليك :

يتناول الموضوع الذي سأتكلم فيه الليلة، المقارنة بين دينين، والمقارنات، كما تعلمون،
من الأشياء غير المرغوب فيها والتي تكتنفها المصاعب. ولكن كثيرين من المسيحيين
قد قاموا فعلاً بالمقارنة بين الدين الاسلامي والدين المسيحي، فكانت الصورة التي صوروها
عن الاسلام ناقصة، وكان من الإيصال أن أسهب ولو قليلاً في جلاء الحقيقة
في هذه المحاضرة.

جاء الدين الاسلامي في القرن السابع بعد الميلاد وكانت المسيحية إذ ذاك، على حد
قول سير وليم موير، واهنة فاسدة عاجزة من جراء الشقاق والانشقاق بين معتنقيها،
وكانت قد استعاضت عن التعاليم القديمة الصحيحة بالخرافات والخزعبلات الصبائية،
وكان العالم المتمدن في ذلك الوقت على حافة الدمار، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متعفنة
لا تقوى على الوقوف، وكانت بلاد العرب أقدم بقعة في عالم مظلم، كان يسكنها شعب
لا يعرف قانوناً سماوياً ولا دنيوياً، ولا يفتأ يلجأ في كل حين الى ضروب من الفتك
وسفك الدماء.

وولد محمد، رسول الدين الاسلامي في هذا الشعب، وعرف فضله في داخل بلاده
وفي خارجها على السواء، فقد أصبح لبلاد العرب تحت زعامته دين واحد وقانون واحد،
ثم انتشر هذا الدين وهذا القانون من بلاد العرب الى العالم شرقاً وجنوباً. قال كارليل :

« إنه لم يمت قرن على ظهور الاسلام حتى أخذ يتألق نجم بلاد العرب ويضىء شطرا كبيرا من العالم ثم ظل كذلك عصورا طويلة ».

إنكم تعرفون أنه لما جاء الاسلام كانت المسيحية مستندة الى سلطان الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت قائمة على التقاليد الجيدة لليهودية واليونانية والرومانية . ولكن الاسلام على الرغم من ذلك ، كان يتقدم في كل ناحية وصوب ، فنقص نفوذ المسيحية وأصبح للمسلمين في جميع أنحاء العالم مقام خطير ، ولم تستطع المسيحية منافسة الاسلام لا في السياسة ولا في الإدارة ولا في الثقافة العلمية ، على الرغم من أن المسيحية كانت الوارثة الوحيدة لثلاث مدنيات عظيمة . ومن سوء الحظ أننا نجد هذا الماضي المجيد مدفونا في بطون التاريخ لا يلم به كثير من المسلمين ولا غير المسلمين ، حتى ليحسب الانسان العادى أنه يستحيل على الاسلام أن ينافس المسيحية في معتك الحياة في أى وقت من الأوقات .

إن آلافا من وعاظ المسيحية الغيورين الذين يقررون بأن الحياة الدنيا حياة غواية وغرور ، يحاولون في هذه الأيام إقناع الناس بتفوق المسيحية على الاسلام ، مستندين في ذلك الى المدنية الراهنة المتصلة ، صبح ذلك أو لم يصح ، بالديانة المسيحية ، كأن الاسلام لم يكن له من التاريخ المجيد ما يفاخر به سواه . ولقد وضعت مئات من الكتب في أن الاسلام لا يصلح دينا لمجتمع متمددين ، كأن الاسلام لم تكن له مدنية ، وكأن المسيحيين كانوا دائما ، كما هم اليوم ، متمدنين ، وكأن الحضارة الحالية لم تك إلا ثمرة التعاالم المسيحية .

لذلك أرى أن أطلعكم على شىء من ماضى الاسلام ، وأن أذكركم ببعض الظواهر الواضحة للعصلات التى تربط المسيحية بالمدنية الحاضرة . إذن فلنخلق معا فوق التاريخ القديم لنشهد شيئا من مجد الحضارة الاسلامية . ولتهبط ، كما هبط السندباد البحرى ، على شاطئ دجلة ببغداد المعروفة في كتاب ألف ليلة : كانت بغداد في العصر العباسى

عاصمة الاسلام ، وعين العراق ، ومقر الأمبراطورية ، وموطن الجلال والفن والثقافة . وكان المنصور فسيح التصور ، سليم التصرف في حكومته ، كما كان كذلك أيضا في عضده ورعايته للفنون . ومما يحكى عنه أنه دعى مرة أمام قاضى المدينة بناء على طلب أصحاب الجلال ، فحضر بنفسه اعترافا بساواة الناس جميعا أمام القانون ، ولم يكن في صحبته غير أمينه ، ثم وقف أمام القاضى كأحد المتقاضين العاديين فلم ينهض القاضى للقائه . وجاء الحكم في صالح المدعين ، فكافأ المنصور القاضى اعترافا بنزاهته ، وإكباراً لحرية القضاء . هذا الملك هو الذى عمل على جعل بغداد مركز العلم والثقافة ، وأسس بها قسما لترجمة المؤلفات العلمية الى اللغة العربية .

ونسج هارون الرشيد على منوال جده بقدرة وكفاية ، فاعترف له المؤرخون بأنه من أعظم الحكام في جميع العصور . وكان الموسيقى ابراهيم الموصلى وجبرائيل الطيب من بين الرجال البارزين الذين ازدهر بهم عصره ، وكان الرشيد نفسه شاعرا ، فكان يميل بطبعه الى الشعراء ويكافئهم . ولقد أنشأ المواصلات بين بلاده والبلاد الغربية ، وبين بلاده وبلاد الشرق الأقصى . وكان أول من قبل في بلاطه السفراء من أمبراطور الصين ومن شارلمان ، وتمد الساعة العجيبة التى أهداها الى شارلمان عملا عجيبا من أعمال الميكانيكا حتى في وقتنا هذا .

أما خلافة المأمون فقد كانت عصرا من أبهى عصور التاريخ العربى ، إذ قد خلفت سنو حكمه العشرون آثارا باقية من التقدم الفكرى للمسلمين في جميع نواحي التفكير ، فلم يقتصر تقدم العرب على فرع من فروع العلم أو الآداب ، بل كان شاملا الفلسفة النظرية والآداب والعلوم والرياضة والفلك والطب وغير ذلك . وقد أخذت أسبانيا العربية والقسطنطينية المسيحية عن العرب هذا الميراث المجيد ، ثم أخذته عن هؤلاء أوروبا الحديثة .

ويجب أن لا ننسى للمأمون حسنة من حسنات شهرته الخالدة ، ألا وهى تسامحه

وحكمته السياسية . فقد أقام مجلسا للحكومة أو برلمانا مكونا من ممثلين يمثلون جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين وصابئين وشيعة زرواستر وهندوس ، وكانت في أيامه تراعى الحرية الدينية والفكرية مراعاة تامة ، فكانت توجد نحو أحد عشر ألف كنيسة مسيحية ومئات من المعابد اليهودية ، فلم يحاول قط مصادرته موارد ها أو تجريد قسيسها من حقوقهم وامتيازاتهم .

وكان يشرف على الترجمة من الإغريقية والسريانية والسكلدانية كوستا بن لوقا ، وكان يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة بحبي بن هارون ، ومن السنسكريتية دوبان البرهمي . ولقد قاس العرب حجم الأرض لما كانت أوروبا المسيحية تؤكد أنها منبسطة . واخترع أبو الحسن المنظار المقرب (التاسكوب) وأقام المأمون أول مرصد بالشماسية بسهولة تدمر .

والعرب هم مخترعو الإبرة المغناطيسية (البوصلة) التي أمكنتهم من السفر الى كاتي وجزر الملايا لاسيما جاوه وباتافيا حيث نجد الآن ذرية العرب . ووصلوا جنوبا الى مدغشقر واستعمروا أفريقية الشرقية حيث نجد بقايا أباطوريتهم القوية في سلطنة دار السلام . ووصلوا شرقا الى مولتان في الهند وغربا الى اسبانيا وجنوب فرنسا واستولوا على صقلية ومالطة ، ولا تزال آثارهم بها الى الآن .

وفي عصر الخلفاء العباسيين تفوق العرب في جميع الصناعات وشجعها خلفاؤهم ، فكانت بالبصرة مصانع الزجاج والصابون ذات شهرة عالمية بزت مصانع البندقية المنافسة لها في ذلك الزمن . وقد أنشأ المعتصم مصانع جديدة في بغداد وسامرا وغيرهما من المدن الهامة . وكان العرب يستقدمون العمال المصريين لصنع الورق في بغداد في الحين الذي كانت فيه المصانع الملكية لصناعة التطريز والزركشة بخيوط الذهب والفضة تزدهر في أصفهان وتبريز . أما سمرقند وبخارى ودمشق وخراسان وشيراز ، فقد كانت معروفة بأنوالها لنسيج الحرير والساتان والسجاجيد .

وكانت الأمبراطورية العربية غنية أيضا بما تنتجه من المواد الأولية ؛ كالقمح والشعير والأرز والبلح والفاكهة بمختلف أنواعها . أما القطن فكان يزرع في حلب ويبروت وكيلات وصور ، كما كان يزرع قصب السكر ويكرر في الأهواز وفارس . وأنشئت الجامعات والمستشفيات في جميع البلدان الكبيرة حيث كان التعليم والعلاج مجانا للفقراء . فبنى نظام الملك الجامعة النظامية ، وبنى المستنصر بالله الجامعة المستنصرية كما يعرف ذلك طلبة التاريخ .

ولقد ازدهرت أسبانيا تحت حكم الأمويين ، وليس في الامكان سرد أعمالهم التي كانت جرثومة الثقافة العالمية سردا وافيا ، ولكنى سأكتفى بسرد قليل من الحقائق لتعلموا الى أى مدى نحن مدينون لهم اليوم :

لقد وضع الرازى كتابا شاملا عن الجدرى ، وكان الجزء التاسع من هذا الكتاب العظيم المرجع الذى يرجع اليه الأساتذة في إلقاء محاضراتهم بالجامعات الأوروبية . وتعلمون طبعا أن أعظم اسم في الطب العربى هو اسم ابن سينا المعداد أحد أعظم الأطباء والفلاسفة في كل العصور ، إذ كان كاتباً مكثراً ، وكان في الوقت نفسه عميقاً فيما يكتب . ومن بين كتبه نشير الى :

- | | |
|-------------------------|------------------------------------|
| (أ) نفع وفوائد العلوم | (هـ) ملخص أقليدس |
| (ب) الصحة والأدوية | (و) الطبيعة وما وراء الطبيعة |
| (ج) مشاهدات فلكية | (ز) دائرة معارف في عشرين مجلدا . |
| (د) النظرية الرياضية | |

ووضع أبو القاسم الزهراوى فصلا عن الجراحة ضمنه من التفاصيل ما يجعله في مقدمة السابقين في هذا العلم .

وفي الحين الذى كانت المسيحية تضطهد علماء الكيمياء وترميهم بالسحر والشعوذة ، كان العرب يتقدمون في هذا العلم ، فظهر أبو موسى جابر بن حيان أبو الكيمياء

العربية، فاكشف حمض الأزوتيك والماء الملكي^(١) كما زاد أيضا باكتشافه ما كان معلوما من طبيعة المعادن عند علماء الإغريق . واكتشف أبو بكر الرازي حمض الكبريتيك . ووضع العرب أساس الكيمياء والصيدلة . قال الأستاذ هلمياراد عن هذه البحوث :

« استنبط العرب من المعلومات الأولية التي كان يطلق عليها اسم الكيمياء في مدرسة الاسكندرية ، علما بأصول أبانوا فيه المرة الأولى للعلاقة الصحيحة بين الحقائق التجريبية والنظرية ، فاعترف الناس بفائدة التطبيق العملي لعلم الكيمياء ، وابتدأت أوروبا أبحاثها الكيميائية على أساس سليم من الحقائق والنظريات . وكان أتباع النبي هم أصحاب الفضل على أجدادنا ، فلنبادر بالاعتراف لهم بالجميل . »

وتوصل العرب الى صناعة الثلج التي لم تكن معروفة في أوروبا حتى النصف الأخير من القرن السادس عشر .

وكانت تتقدم الرياضة بفضل أبحاث واكتشافات العرب الذين أخذوا الطريقة العشرية عن الهند ، فزادوا عليها وتقحوها . فالجبر مدين بتقدمه الى العرب ، حتى إن ابن موسى في القرن التاسع تمكن من استبدال الأوتار بالمستقيمت في علم حساب المثلثات ، واكتشف المعادلات ذات الدرجة الثانية . وكتب الكندي مائتي مؤلف في موضوعات مختلفة مثل الحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية وعلم الأبصار والطب . ولقد ظلت جداول أبي معشر وأبي وفا المرجع الأساسي في علم الفلك . كما أن أول مرصد أنشئ في أوروبا كان مرصد إشبيلية تحت إشراف جابر ابن حيان سنة ١١٩٦ . وفي القرن العاشر أنجبت مدرسة القاهرة ابن يونس الفلكي العظيم الذي أتم عمله ابن النبطي ، وكان من مشاهير علم الفلك أيضا .

وذهب الرحالة البيروني الى بلاد الهند وعاش بين أهلها وتعلم لغتهم وعلومهم وآدابهم

(١) مزيج مكون من حمض الأزوتيك والسكرورايدريك يذيب الذهب .

وفلسفتهم وعاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم وديانتههم وأساطيرهم ، كما درس أحوال البلاد الجغرافية والطبيعية ، وضمن تلك المعلومات كتابا اقتبس فيه نبذا من شعر هو ميروس وفلسفة أفلاطون وغيرهما من رجال الأدب والفلسفة الإغريقية . ثم إنه الى ذلك كان يكتب ويحاضر في الفلك والرياضة والتقاويم والطبيعة . وجاء بعده عالم قد لا يقل عنه في المسكنة يدعى ناصر خسرو الذى يعد كتابه المسمى « السفرنامه » أمتع كتاب من نوعه ، فقد زار صاحبه أغلب جهات العالم التى كانت معروفة في أيامه .

أما في التاريخ فإن أسماء المسعودى والطبرى وابن الأثير دائمة التأتق . ولم يكن أبو بكر محمد بن يحيى مؤرخا شهيرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ومن رجال العلم أيضا ، فضلا عما أحرزه من التفوق في الموسيقى ، وقد استطاع إدخال سلم موسيقى يمكن أن يستفيد منه كل شعب . ويمكننا اعتباره الأساس الذى تنبنى عليه الموسيقى في العصر الحالى .

ويجىء اسم ابن رشد العظيم في مقدمة علماء الفقه . وابن رشد هذا سليل أسرة من مشاهير القضاة . وكان رئيس القضاة في كل من إشبيلية وقرطبة على الترتيب . وكان صديقا لابن الطفيل المعروف بعلمه الواسع .

هذا قليل من دلائل المدنية الاسلامية الأولى ، أسرده على سبيل المثال ، ولكنى أرانى مقصرا إذا أنا أهملت الإشارة الى ما قام به النساء المسلمات .
« البقية في العدد التالى »

الكرم واللؤم

قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به » .

معنى هذا الكلام الثمين أن أولى الأمور بالإنسان خصال نفسه ، فإن كان هو كريما وآباؤه لثام ، لم يضره ذلك ويوصف بالكرم . وإن كان لثيما وآباؤه كرام ، لم ينفعه ذلك ويوصم باللؤم . وهذا حق ويطابق قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

تشریح الاموات

كتبنا في العدد السابع من هذه المجلة رأينا في حكم تشریح الميت ، ووازانين ما يترتب عليه من المصالح والمفاسد ، ثم رأينا أن المصلحة أرجح من المفسدة ، وكثيرا ما يكون في التشریح درء مفسدة كبرى مثل دفع تهمة اتهم بها رجل من المسلمين ظلما ، فأبان التشریح أن الميت غير مجنى عليه مثلا ، الى غير ذلك مما هو معروف . وقلنا إن الجواز هنا أولى مما ذكره فيما إذا ابتلع الميت مالا ، حيث أجازوا شق بطنه وإخراج المال منه إذا بلغ نصاب السرقة أو نصاب الزكاة . فجاءنا من بعض الأفاضل انتقاد على ذلك ، وأنه يجر الى توسعهم في أذية الميت وإهاتته .

ونقول لحضرتة ولكل من يدور هذا الخيال بمخاطره : إننا حذرنا من ذلك التوسع في آخر ما كتبناه ، فقلنا مستدرकिन على ما قررناه ووجهناه ما نصه : « غير أنا نرى أنه لا بد من الاحتياط في ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة ، فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن النافذ بصير والمهيمن قدير » .

على أننا صرحنا بأن ذلك مبنى على قياسنا مسألة التشریح على مسألة المال الذي ابتاعه الميت . فإن كان ذلك القياس صحيحا فله الحمد على توفيقه ، وإن كان غير صحيح في نظر الفضلاء فهو مردود على مرتثيه . ولا شيء علينا بعد أن نبين أن هذا هو رأينا الخاص . وقد احتطنا في المسألة فحذرنا من التوسع في ذلك . فإن كان هناك من لا يصغى الى التحذير أو يخطئ في التطبيق ، فلا ذنب علينا . وكثيراً ما أخطأ المخطئون في آيات الله وسنة رسول الله .

أما من لم يبال بما يكتبه العلماء ، فهو سادر في غلوائه ، غير ملتفت إلا الى آرائه وأهوائه ، سواء أمنعنا أم أبجنا ، كتبنا أم سكنتنا ، ضيقنا أم وسعنا ، فإنه بمعزل عن ذلك كله .

وإنا لنكتب ما نكتب ونحن عالمون أنه لا ينتفع به إلا من وفقه الله تعالى . وقد قلنا في بعض ما كتبناه بهذه المجلة مانصه :

« إنا نرى من الاخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار . وإذا رجحنا شيئا فإننا نكتب عن رأينا أو رأى فريق من علمائنا ، واخير كله في التوسط والاعتدال ، والشركه في الإفراط والتفريط . وبعد : فنشكر لحضرة الفاضل غيرته وإخلاصه ، ونوافقه على أن الأطباء الآن توسعوا غاية التوسع بلا مبالاة بكرامة الميت ولا مراقبة لله تعالى .

مع أنه قد ورد عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه مالك وأبو داود وابن ماجه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يجلس أحدكم على جرة فتحرق ثيابه فتخلص الى جلده ، خير له من أن يجلس على قبر » رواه مسلم وأبو داود والنسائي . وعن عمرو بن حزم قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم متكئا على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب هذا القبر » رواه الإمام أحمد .

وسر ذلك أن الروح تدرك ما يفعل يجسدها وتتألم له ، ولكن الشريعة بعد ذلك توازن دائما بين المصلحة والمفسدة فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب ألا نكون جامدين ، كما يجب أن نكون محتاطين . والله يتولى هدى الجميع .

يوسف الدمجى

من هيئة كبار العلماء

(مجلة الأزهر) نقول في هذه المناسبة إنه قد وردت إلينا مقالة من حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الوهاب بحيرى من كلية الشريعة يستدرك على مقالة فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى سننشرها في العدد القادم ، إن شاء الله .

أسرار التشريع الإسلامى وفلسفته

البيع

أطبق جمهور الفقهاء على أن البيع يتألف من أركان ثلاثة: صيغة تصور العقد ويتأدى بها، والعاقدة، والمعقود عليه .

فالصيغة هي إيجاب من أحد المتبايعين وقبول من الآخر ، وقد يكون ذلك بلفظ صريح ، وقد يكون بلفظ كنهائى ، وأغراض ذلك كثيرة: منها أن الصيغة فى حقيقة شأنها تدل على الرضا المعنوى المعتبر شرطاً فى صحة البيع ، لكن لما كان اللفظ الصريح أقطع لشوائب الخصومات ، كان أجدر بالنظر من الكنهائى . ومنها أن الله سبحانه أحل البيع والشراء لأنه كما أسلفنا أول عناصر التعامل لمساس حاجة البشر إليه فى مبادلاتهم

أما العاقدة وهو كلا المتبايعين والشرط الثانى من شروط صحة العقد ، فقد اشترط فيه التكليف ، إذ لا يمكن للصبي أن يباشر العقد مباشرة تجعله بمنجاة من تطرق الفساد الى ما تم التعاقد عليه ، ويجرى هذا المجرى المحجور عليه .

وأما التعاقد عليه وهو الركن الثالث والأخير من أركان البيع ، فقد اشترط فى صحته الفقهاء شروطاً كثيرة : منها أن يكون ظاهراً للعين من شأنه الانتفاع به لمن ملكه ، وأن يكون مملوكاً للعاقدة أو مأذوناً له فيه ، وأن يكون مقدوراً على تسليمه شرعاً ، وأن يكون معلوم القدر والوصف والعين ، وأن يكون مقبوضاً إن ملك بمعاوضة ، فإن الخمر أو الجيفة مثلاً لا يمكن اعتبارهما داخليين فى مسمى البيع ومدلوله ، لأن فى الاتجار بهما شناعة وجناية على الأخلاق . من أجل ذلك اقتضت حكمة البديع الأعلى النهى عن التكسب بالأنجاس وإن كان بعض الفقهاء أباح بيع الكلب والسرجين إذا مست الحاجة الى ثمنهما ، وما لا منفعة منه مظنونة أو متيقنة كالحشرات والهوم والوحوش التى لا تقع

في الشباك، فلا يطلبه — كما قال بعض الأثبات من علماء الفروع — إلا أحد رجلين : رجل لا يعرف في تصرفاته الصادرة عنه نفعا ولا ضرا، بل يتخذ جشعه الأشعبي مقياسا لربحه في كل ما يصدر عنه من تصرفات؛ ورجل نظر في نفسه الى فائدة ضمنية لم يفصح عنها في مجلس العقد، فالأول لم يكن على بينة من تصرفه، والثاني مشرف لاحالة على الخيبة والندامة. وإن أمكن الانتفاع به على وجه صحيح كالطيور الحسنة الصورة أو الطيور ذوات الأصوات الشجية، جاز بيعها، لأن التفرج من بلابل الصدور من الأغراض المقصودة بالمباحة. كما يحرم لو كان من آلات العزف واللهو لأنها مظنة الانصراف عن الاشتغال بالشئون الرئيسية في الحياة، لأن جريان العقد ببيعه وحل اقتنائه يحمل الناس على المعاصي ويدرهم من خطايرها، فالمرء لا يمكن مملوكا للعافد ولا مأذونا له فيه لا يصح تملكه شرعا لفقدان رضا المالك بذلك حين البيع. وغير المقدور على تسليمه شرعا كالمرهون وكالصغير من غير أمه، أو حسا كالأبق والسماك في الماء، لا يمكن تحقيق عقد البيع فيه. وما لم يكن معلوم العين لا يمكن أن يدخل فيما صدق البيع شرعا كبيع شاة غير معينة في قطيع أو غيرها، وكذلك ما كان مجهول القدر كبيع زنة هذه الحقيبة ذهباً وهي مجهولة الوزن أو الوصف، فإن في ذلك كله إيهاماً يفضى في نتائجه الى سلسلة من الخصومات. وقصارى القول في ذلك أن ما كان قاطعاً للنزاع المترتب على التعاقد يجب أن يكون ظاهراً للعيان مقطوعاً بوضوحه، وقد ضرب الشارع له حداً وهو التفرق من مجلس العقد. والسر في وجوبه أنه جعل لتمييز حق كل من المتبادلين ورفع خيارها في رد أحد العوضين. فلو لا ذلك لأضر أحدهما بالآخر، ولوقف كل عن التصرف فيما بيده خشية أن يرجع الآخر عليه، فإن الشارع اعتبره فعلاً وهو (التفرق) لا قولاً ولا معاطاة، فإن القول لا يصحح في ذاته أن يكون دلالة قوية قاطعة في المراد بالنسبة لهذا العقد، إذ المساومة لا يمكن خلوها منه إظهاراً للرغبة القوية في المساومة، وما يدل على إيجاب العقد غير ميسور، ولا يمكن التعاطي في العقد لعدم صلاحيته أيضاً، فإن المشتري لاهالة

أخذ ما يطلبه ليحاول التصرف فيه على وجه من أوجه التصرف ، والتميز بين الآخذين عسير كما لا يخفى ، وظاهر مما تقدم أن إبطائه أكثر من مجلس العقد غير ملائم لمصلحة المتبايعين ، فإن كثيرا من السلع يراد الانتفاع به حين البيع بأن تكون فائده معجلة أو يكون الإبطاء فى استعماله فيه مظنة التلف والهلاك على من بيده . على أن العادة قضت فيما قضت باجتماع العاقدين للعقد فى مجلسه ثم تفرقهما بعده . والناس يرون فى الأعم الأغلب رد المبيع بعد التفرق من مجلس العقد لكثرة ما يداخل النفوس من حب الظلم .

ومن أجل أن التفرق من مجلس العقد كان حدا فاصلا بين الاستمرار فى تنفيذ البيع وبين الرجوع عنه ، وأن مجلس العقد هو محل الخيار كما بينا ، نهى الشارع عن التسلل هربا من الإقالة وفرارا من الاستعفاء ، فإن فى ذلك قلبا للأوضاع المتفق عليها .

عباس طه المحامى

علامات العقل فى الانسان

نظم أحد الشعراء العلامات التى يوزن بها عقل الانسان لدى مخاطبيه فيحكمون له أو عليه وهى :

يعرف عقل المرء فى أربع	مشيته أولها والخورك
ودور عينيه وألفاظه	يعد عليهن يدور الفلك
وربما أخلفن إلا التى	آخرها منهن سميت لك
هذى دليـلات على عقله	والعقل فى أركانه كالملك
إن صح صح المرء من بعده	ويهلك المرء إذا ما هلك
فانظر الى مخـرج تدييره	وعقله ليس الى ما انتهـك
فربما خلط أهل الحـجـجا	وقد يكون النوك فى ذى النـسـك
فان إمام سال عن فاضل	فادلل على العاقل لا أم لك

هندي يدعى المعجزات

كتب الينا قارئ فاضل بان إحدى الجرائد ذكرت أن في جبال سائبورا بالهند رجلا هندوسيا يدعى النبوة ويحدث المعجزات . من ذلك أن قرية سادهو كانت في خطر من الجفاف فاهرع أهلها يستنجدون به ، فقام معهم ووضع قدميه في قاع النهر ففاض الماء من تحتها وزال خطر القحط بل خطر الموت ظمأ .

نقل الينا ذلك الفاضل هذا الخبر ، ورجانا أن نبدي رأينا فيه . ورأينا هو أن هذا الخبر مختلف روجه أتباع ذلك المنبئ كما يروج أتباع كل نحلة المعجزات عن صاحبها ، وزاده رواة الأخبار مبالغة لاهاء قرائهم بطرائف الأخبار كما هي عادتهم غير متخرجين من نشر الخزعبلات بين الناس .

لانه لو صح أن رجلا يأتي المعجزات في هذا العصر لحملت أخباره التلغرافات ، ولأمه الباحثون من كل حذب ، ولكتبوا عنه الكتابات الضافية في الصحف ، شأنهم في كل أمر يهم العلم الوقوف عليه .

إن مكاتب الصحف الانجليزية في الهند ينقلون الى جرائدهم كل شيء حتى النافه من أخبار الألعاب الرياضية ، أفهمون أخبار مواطنيهم بظهور نبى جديد قد تكون له تعاليم ضارة بالحالة الراهنة في الهند ؟

ونحن نطلع باستمرار على ما يمجذ من الحوادث العالمية في الشؤون النفسية وترد إلينا مجلات خاصة باستيعاب هذه الحوادث في كل مظان حدوثها ، فلم نصادف ورود أى نبا فيها عن صانع المعجزات في قرية سادهو الهندية . وبيننا وبين مسلمى العالم اتصال فيما يتعلق بالأأمور الاعتقادية ، فلم يرد إلينا من بلاد الهند ما يشعرونا بوجود داعية من ذلك الطراز .

فاذا أردتم زيادة التحرى عن هذا الأمر فوجهوا رجاء الى كاتب ذلك الفصل في الجريدة التى ذكرتموها ليخبركم عن اسم الجريدة الأوربية أو الهندية التى اطلع فيها على ذلك الخبر ، ليكنكم أو يمكننا الاطلاع عليه والوقوف على قيمته الحقيقية .

أما تعليقنا على خبر مقطوع السند وارد في فصل يكتب عادة لترويج نفوس القراء قبل التثبت من صحته ، فليس من الحكمة فى شيء . وفى هذه المناسبة نرجو كاتبي أمثال هذه الحوادث فى الجرائد أن يذكروا مصادرهما ، وأن ينقلوها على علاقتها مجردة من المبالغات .

الى رحمة الله

في الحادى والعشرين من شهر رجب الماضى ، استأثرت رحمة الله بالأستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد بخت المطيعى ، فقضى مبكيا من مئات الألوف من العلماء والطلاب في جميع بلاد المسلمين كانوا يرون فيه المثل الأعلى للاطلاع الواسع والافادة والفتيا .

حصل رحمه الله العلم بالأزهر فخرج في علوم الشريعة والعربية ، ونال فيها شهادة من الدرجة الأولى سنة ١٢٩٣ للهجرة أى منذ نحو اثنتين وستين سنة ، وأكّب من ذلك العهد على التدريس والافادة بهمة يندر أن يصادف لها مثيل في حياة العلماء العاملين . ثم ندب للاشتغال في القضاء فتنقل في وظائفه حتى بلغ أعلى درجاته ، مظهرا في كل منها من الكفاية ما لا يكون إلا للعلماء الراسخين .

فلما بلغ السن القانونية لوظائف الحكومة ، ترك الاشتغال بالقضاء ، وعكف على الدرس والتدريس والافتاء . فكانت داره ماثبة للمستفتين والمستفيدين ، وكان لا يبخل على أحد بالفتيا ، حتى إذا كان بعيدا عنه تكلف له كتابة الفتوى وأرسلها اليه بالبريد .

وكانت شهرته قد تجاوزت مصر الى العالم الاسلامى كله ، فكانت ترد اليه الاستفتاءات تترى في مختلف المسائل ، ومنها مشاكل تحتاج الى مراجعات كثيرة مضية ، فكان لا يرضى بنفسه عن القيام بها فيحررها ويرسل بها للمستفتين .

ومما انفرد به أنه كان قد استخدم كتابا لنقل فتاواه وتولى إرسالها الى طلابها في مختلف الأقطار ، متحملا مكافاتهم شهريا وأجر ما يرسله بالبريد من الكتب والرسائل .

وقد عرف رحمه الله بالزطامة في علم الأصول ، فكان يرجع اليه جلة العلماء فيما يشكل من مسائله ، ويصادفون لديه لكل مشكلة حلا كأنها مرت به من قبل فعالجها واتهى الى ما يحسن السكوت عليه من أمرها .

فاذا كان العالم الاسلامى بأسره يبكيه اليوم ، فانما يبكي علما من أعلام العلوم الاسلامية قل من يسد الفراغ الذى تركه في صفوف أقطابها العاملين .

فرحمه الله رحمة ترفعه الى مقاوم الكرامة عنده ، وأفرغ على مريديه وتلاميذه صبورا ، وعوضهم عنه خيرا إنه ولى المؤمنين !

مطبوعات جديدة

تفصيل آيات القرآن الكريم

للأوربيين وبخاصة البجائين منهم عناية عظيمة بالاقتصاد في الوقت ، فلذلك تراهم يعمدون الى تذييل كتبهم بالفهرستات والمعاجم لسهولة الرجوع الى ما يريدون منها مما يختص بالموضوعات والأماكن والأعلام وغيرها . وقد قرطنا هنا قبل عدة شهور ما وضعه المستشرق فنسنت من الفهرست العام لأربعة عشر مرجعا من مراجع السنة ، وقد نقله الى العربية حضرة الأستاذ الغيور محمد افندى فؤاد عبد الباقي ، فأوجد به المشتغلين بالأحاديث وسيلة يستخرجون بها أى حديث يطلبونه لمعرفة تخريجهم في دقائق معدودة .

وقد أتخفنا اليوم الأستاذ المذكور أننا بترجمة عامة للآيات القرآنية الكريمة وضعه المسيو (جول لا بوم) الفرنسى ، يجد فيه الانسان الآيات الواردة في المواضيع المنوعة مجموعة في حيز واحد ، فإذا أراد مستطلع أن يعرف ما ورد من الآيات في الأخلاق أو في البيع والشراء أو في الروح أو في غيرها ، يجد كل ما ورد في هذه الموضوعات مجمعا على حدة .

إن هذا الكتاب كان حاجة للمؤلفين والباحثين والكتابيين منذ زمان طويل ، وقد وضعه الأوربيون منذ عشرات من السنين ، وأعوزنا مثله حتى انتدب الأستاذ محمد افندى فؤاد عبد الباقي على نقله الى العربية ، فأضاف الى خدمته للحديث خدمة للكتاب الكريم أجل من الأولى ، فاستحق الشكر العظيم .

وقد التزمت طبعه مكتبة عيسى البابي الحلبي فشاطرت المترجم في هذه الخدمة الجليلة .

الفتح الربانى

هو علم على كتاب جمع فيه حضرة الأستاذ الشيخ احمد الساعاتى مسند الامام احمد بن حنبل ورتبه على أبواب بحيث يسهل البحث فيها ، وهو يصدره كراسات كل شهر . وقد صدر منه القسم الأول من الجزء الثالث . فنشكر له هذا العمل القيم ، ونرجو له الانتشار . عنوان الاستاذ بحارة الروم بالغورية بالقاهرة .

received it from Al-Hakam, who heard it from Sa'îd b. Jubair, through Ibn 'Abbâs, who stated :

I was once spending the night in the house of my maternal aunt Maymûnah bint Al-Hârith, a wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace), when he was with her on the night set apart for her. Having performed the evening-prayer in the mosque he went to his quarters, where he prayed four rak'as and then went to sleep, Later he rose and said: " Is the dear lad asleep ? " — or words to that effect.⁽¹⁾ Then he stood up to pray, and I stood on his left ; but he placed me on his right. He first prayed five rak'as and after that two. He then fell into such a deep sleep that I heard him snoring. Last of all he went to the morning-prayer.

Translated by I. H. EI-MOUGY

عن ابن عباس قال :

بِتْ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ بَنَتْ
الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا فَصَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِشَاءَ ثُمَّ جَاءَ إِلَى مَنْزِلِهِ
فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ نَامَ ثُمَّ قَامَ
ثُمَّ قَالَ : « نَامَ الْغُلَامُ ؟ » - أَوْ كَلِمَةً
تُشَبِّهُهَا - ثُمَّ قَامَ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ
فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ ، فَصَلَّى خَمْسَ
رَكَعَاتٍ ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ نَامَ
حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ أَوْ خَطِيطَهُ ، ثُمَّ
خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ .

(1) The lad in question is Ibn Abbâs himself the narrator of the hadith; he is not certain as to the exact expression used. He is supposed to have been sent by his father to report on the way the Prophet spent his nights. This forms the connection between the hadith and its title. (Al-Aini, ibid. p. 180.)

apartments ⁽¹⁾ unto prayer, for many a woman richly clad in this world shall be naked in the next ⁽²⁾

CHAPTER 83.

On Knowledge as the subject of social conversation at night.

We are informed by Sa'id b. 'Ufair, who had it from Al-Laith, who received it from 'Abd-ur-Rahmân b. Khâlid, through Ibn Shihâb, through Sâlim and Abu Bakr b. Sulaimân b. Abu Hathmah that 'Abdullâh b. 'Umar said :

Once towards the end of his life the Prophet, (Allâh bless him and give him peace) after he had led the evening-prayer with us and given the final salutation, rose and said: "Know ye what night this is ? Verily a hundred years hence there shall no longer be on the surface of the earth any one of those living now." ⁽³⁾

2. We are informed by Adam, who had it from Shu'bah, who

باب السَّمَرِ فِي الْعِلْمِ :

حدثنا سعيد بن عُفَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي

الليث قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمٍ وَأَبِي بَكْرٍ بْنِ

سُلَيْمَانَ ابْنِ أَبِي حَكْمَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ

عُمَرَ قَالَ :

صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ

فَقَالَ : « أَرَأَيْتَكُمْ لَيَلَتَكُمْ هَذِهِ ؟

فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى

مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ »

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة قال

حدثنا الحكم قال سمعت سعيد بن جبیر

(1) i.e. The Prophet's wives. This hadith implies that prayer must be resorted to, whenever dreams of evil come upon the sleeper. The Prophet was sleeping that night in Umm-Salamah's apartment, and so it fell to her to waken the rest.

(2) i.e. only good works in this world can stand her in good stead in the next.

(3) Or—according to some Commentators "Any one of those present here." The Prophet himself died a month later. His object was to call attention to the shortness of life, and the need for good works.

writing "(1)

CHAPTER 82

On the imparting of Knowledge

and preaching during the night.

We are informed by Sadaqah, who had it from Ibn 'Uyaynah, through Ma'mar, through Az-Zuhri, through Hind, through Umm-Salamah, Amr and Yahyâ b. Sa'îd, through Az-Zuhri, through Hind, through Umm-Salamah, who said :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) awoke one night and said : " Allâh be praised ! How many a tribulation hath been sent down(2) this night, but how many a treasure(3) hath been opened ! Awaken the ladies of these

بَابُ الْعِلْمِ وَالْعِظَةِ بِاللَّيْلِ :

حدثنا صدقة أخبرنا ابن عيينة عن
معمر عن الزهري عن هند عن أم سلمة،
وعمر بن يحيى بن سعيد عن الزهري
عن هند عن أم سلمة قالت :

استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم
ذات ليلة فقال : « سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَاذَا
أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفَتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ
مِنَ الْخَزَائِنِ ! أَيقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحَجَرِ
فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي
الْآخِرَةِ »

(1). As regards writing, it is evident that the prophet was too ill to do more than give directions, as is testified by 'Umar's remark. It is thought that he may have intended to commit to writing the names of his successors, or to make some testamentary disposition, but at the same time he is supposed to have believed that writing would have defeated the principle of اجتهاد (initiative in theological inquiry) or the شورى (democratic consultation); it is also alleged that he had Abu Bakr in mind as indicated by 'Aa'isha's hadith which states that he preferred Abu Bakr. 'Umar's point of view seems to have been that the words of a dying man might be equivocal and arouse controversy whereas the already extant word of God remained unchallengeable. It is clear that the Prophet did not repudiate this view, as he lived four days longer and raised no objection to it.

(2) i.e. revealed from the Tab'et of Divine Decrees to the Prophet in his dream.

(3) Either figuratively in the sense of mercy, or literally in the sense of treasures or, historically of the treasures of Byzantium & Persia as foreseen by the Prophet would eventuate through the victorious wars with those empires.

b. Sulaimân, who had it from Ibn Wahb, who received from Yûnus, through Ibn Shihâb, through 'Ubaidullâh b. 'Abdullâh, through Ibn 'Abbâs, who stated that :

When the agony of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) became more intense, he said "Bring me writing-materials that I may have committed to writing for you what will preserve you from going astray hereafter." Then 'Umar said : "Surely the Prophet (Allâh bless him and give him peace) is overcome by pain; we have the Book of Allâh--it sufficeth for us. " There arose a dissension among the Companions and there followed an uproar. " Rise and leave me ", said the Prophet, " It is not seemly that there should be a quarrel in my presence. "

Ibn 'Abbâs (on relating this to 'Ubaidullâh) went out saying: "It was a great calamity indeed that any hinderance should have come between the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and his

ابن وهب قال أخبرني يونس عن
ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله
عن ابن عباس قال :

لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَجَعَهُ قَالَ : « ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ
لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ » قَالَ عُمَرُ :
« إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَهُ
الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا
فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ ، قَالَ : « قَوْمُوا
عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ » .
فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : « إِنَّ الرِّزِيَّةَ
كُلَّ الرِّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ كِتَابِهِ »

O Apostle of Allāh' " Write it ⁽¹⁾ down for Abu so and so, " ⁽²⁾ replied the Prophet. A Quraishite ⁽³⁾ interrupted : " Make an exception for the idhkhir, ⁽⁴⁾ O Apostle of Allāh, for our houses and our graves, " "Except the idhkhir." said the Prophet (Allāh bless him and give him peace) twice.

3. We are informed by 'Ali b. 'Abdullāh, who had it from Sufiān, who received it from 'Amr who was told it by Wahb b. Munabbih, through his brother ⁽⁵⁾, who stated that he heard Abu Hurairah say :

"There is none of the Companions of the Prophet (Allāh bless him and give him peace) that hath retained more of this Hadīth than I, unless it be 'Abdullāh b. 'Amr,—for he used to write it down, whilst I did not.

Masmar, as fellow-witness with Wahb b. Munabbih, confirms this narration through Hammām, Wahb's brother, through Abu Hurairah.

4. We are informed by Yahyā

لَا بِي فُلَانٍ، فَقَالَ رَجُلٌ مِّنْ قُرَيْشٍ :
«إِلَّا الْإِذْخِرَ يَارَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّا
نَجْعَلُهُ فِي بُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا» فَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِلَّا الْإِذْخِرَ،
إِلَّا الْإِذْخِرَ»

حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا
عمرو قال أخبرني وهب بن منبه عن
أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول :
« مَا مِنْ أَمْعَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ،
فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ ،
تَابَعُهُ مَعْمَرٌ عَنْ هَمَامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
حدثنا يحيى بن سلمان قال حدثني

(1) At the end of the hadith this sentence occurs in some of the copies :

(فقيل لأبي عبد الله : أى شيء كتب له ؟ قال كتب له هذه الخطبة)

= Al - Bukhari , on being asked what it was that was written down for him , replied that it was this speech of the prophet .

(2) . His name was 'Abu shah .

(3) Abbas b. Abdul - Muttalib by name .

(4) a - kind of aromatic rush (schoenanthum) used for roofing houses and strewing in graves

(5) . i . e . Hammām p . Munabbih .

informed of this, he mounted his camel and addressed them thus :

“Verily Allāh hath kept Makkah inviolate from bloodshed — or *the people of the Elephant*, ⁽¹⁾(Al-Bukhâri is uncertain as to which of these two words) and He gave to the Apostle of Allāh and the Faithful power to invade this City. But I say unto you, fighting in Makkah was not made lawful for anyone before me, nor shall it be for anyone after me ; nevertheless it was made lawful unto me only for a space in one day . Now, in this very hour it is again inviolate; its thorns shall not be uprooted, nor its trees cut down ; that which is lost in it shall not be picked up except by him that will make it known.⁽²⁾ Whosoever hath a kinsman murdered shall choose the better of two considerations - either to receive blood-money, or retribution.” ⁽³⁾

A man from Al-Yaman then came up and said : “Write it down for me,

« إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْقَتْلَ —

أَوْ الْفِيلَ — (شَكََّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ) وَسَلَّطَ

عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَالْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ

قَبْلِي وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، أَلَا

وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، أَلَا

وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ لَا يُخْتَلَى

شَوْكُهَا وَلَا يُمَضَّدُ شَجَرُهَا وَلَا

تُلْتَقِطُ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ ، فَمَنْ

قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ : إِمَّا أَنْ

يُعْقَلَ وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ الْقَتِيلِ »

فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ :

« اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ » فَقَالَ : « اكْتُبُوا »

(1) The occasion when Abrahah the Abyssinian Viceroy of Al-Yaman marched against Makkah with a large army including one or more elephants, and was miraculously routed by birds dropping stones.

(2) In other places than Makkah the finder may keep the property after advertising it for a year, while in Makkah the finder never has any claim to it, but must advertise it continually—owing to the fact that pilgrims who lose property in it may not return for an indefinite time. Everything within the City shares in its sanctity. (Al-A'ini idid. P. 166).

(3) (قال أبو عبد الله فيقال يقاد بالهاف) Al-Bukhâri states in an addendum that the correct reading is يقاد and not يقادى, since the latter is synonymous with يعقل, and would not make sense.

asked 'Ali : " Have ye⁽¹⁾ a written record of the *Hadith* ?" He answered: " No, none but the Book of Allāh, or the understanding which may be given to any Muslim, ⁽²⁾ or what is contained in this roll." "What is in it ? " asked Abu Juhaifah. " In this roll " replied 'Ali, " there are the laws of blood-money, of the liberation of captives, and of the fact that a Muslim shall not be put to death for the life of an infidel." ⁽³⁾

2. We are informed by Abu Nu'aim Al-Fadl b. Dukain, who had it from Shaibān, through Yahyā, through Abu Salamah, through Abu Hurairah that the tribe of Khuzā'ah had killed a man of the Bani-Laith in revenge for the murder of one of them, in the year of the capture of Makkah. When the Prophet (Allāh bless him and give him peace) was

إِعْلِيَّ « هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ ؟ » قَالَ لَا
إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهِ رَجُلٌ
مُسْلِمٌ أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ؟ قَالَ
قُلْتُ « فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ؟ » قَالَ:
الْعَقْلُ، وَفَكَالُ الْأَسِيرِ، وَلَا يُقْتَلُ
مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ،

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ
قَالَ حَدَّثَنَا شَيْبَانُ عَنْ يَحْيَى عَنْ أَبِي سَلَمَةَ
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ خُزَاعَةَ قَتَلُوا رَجُلًا
مِنْ بَنِي لَيْثٍ لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتِيلٍ
مِنْهُمْ قَتَلُوهُ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَكِبَ رَاكِبَهُ فَخَطَبَ فَقَالَ :

(1) Either the Prophet's household, or the second person plural addressed to 'Ali as a form of respect. If the latter, this *hadith* may be taken to contradict the Shi'ite contention that the Prophet had confided to 'Ali secrets which he withheld from the rest of the Faithful. (Ibn Hajar, Al-Khashab's ed. Vol.1., p. 146, Cairo, 1319 A.H.)

(2) i.e. to deduce inferences not explicit in the Qur'an.

(3) These words لا يقتل مسلم بكافر were first said by the Prophet in his oration on the day of the Conquest of Makkah, and were intended to obliterate any blood-feuds that subsisted between his converts and their enemies of the Jāhiliyyah—that is, those who were still infidels at the time of the feud with the future converts. The Prophet's words were:

(الَا إِنْ كُلِّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو
عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ)

The case also applies to unbelievers who had made a pact with the Muslims giving them this immunity for its duration, but excluding the hostile infidels who were in a state of war with the Prophet. The Hanafi doctors are agreed that since a Muslim who steals the property of an infidel is subject to the ordinary laws, so is a Muslim guilty of the murder of an infidel. (Al-A'ini, Vol.11. page 162, Muniriyyah ed., Cairo.)

5. We are informed by Mûsa, who had it from Abu 'Awânah, through Abu Hasin, through Abu Sâlih, through Abu Hurirah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

" Give your children my name but not my surname. ⁽¹⁾

Whosoever hath seen me in a dream, hath seen me in reality, for Satan cannot assume my form. ⁽²⁾

Whosoever falsely ascribeth sayings unto me intentionally , shall surely take his seat in hell-fire. "

حدثنا موسى قال حدثنا أبو عوانة
عن أبي حصين عن أبي صالح عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال :

« تَسَمُّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْتُمُوْا
بِكُنْيَتِي . وَمَنْ رَأَى نِي فِي الْمَنَامِ
فَقَدْ رَأَى نِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ
فِي صُوْرَتِي ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا
فَلْيَتَّبِعُوْا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

CHAPTER 81

On the writing down of the Hadith.

1. We are informed by Muhammad b. Salâm, who had it from Wakî, through Sufiân, through Mutarrif, through Ash-Sha'bi, through Abu Juhaifah, who stated that he

بَابُ كِتَابَةِ الْعِلْمِ :

حدثنا محمد بن سلام قال أخبرنا
وكيع عن سفيان عن مطرف عن
الشمعي عن أبي جحيفة قال قلتُ

(1) The Prophet's name was Muhammad, his agnomen was Abul-Qâsim. The Jews used to mock the Prophet by calling their children " Abul-Qâsim ". Then when they called them, the Prophet might think his own name was being called, when they would reply that they did not mean him. Hence this prohibition in the hadith. (Al-Aini, ibid.p.156.)

(2) Muslim doctors of theology deduce from this hadith the doctrine of the validity of revelation in true vision. (Al-Aini, idid.)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٥

زيادة بيان فى مبحث المدنية الفاضلة والاسلام

يُنَا فِيمَا كَتَبْنَاهُ فِي الْعَدَدِ السَّابِقِ تَحْتَ عُنْوَانِ الْإِسْلَامِ يَدْعُو لِتَأْسِيسِ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ ، أَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ وَالْمَدِينَةَ الْفَاضِلَةَ يَتَّفِقَانِ فِي الْمَبْدَأِ وَالْغَايَةِ ، وَضَاقَ الْمَقَامُ عَنْ اسْتِيعَابِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ . وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْمَدِينَةِ مِنَ الشُّثُونِ الَّتِي تُعْتَبَرُ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْخَطُورَةِ لِإِفْتِتَانِ النَّاسِ بِهَا افْتِتَانًا سَحَرِيًّا يَسْلُبُهُمْ إِرَادَتَهُمْ وَيُدْفَعُهُمْ فِي سَبِيلِ مَخْوَفَةٍ بِالْأَخْطَارِ دَفْعًا آلِيًّا ، وَنَظَرًا لِأَنَّ الْعَقِبَةَ الْكَأْدَاءُ أَمَامَ الدِّينِ هُوَ مَا يَفْهَمُهُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَى الْمَدِينَةِ ، وَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نُوفِيَ هَذِهِ النَّاحِيَةُ مِنَ الْبَحْثِ حَقًّا مِنَ التَّحْقِيقِ .

وَالْيَوْمَ نَعْرِضُ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ جَدِيدٍ مَتَوَخِينَ تَحْلِيلَ شَبَاهَةِ الرَّئِيسِيَّةِ تَحْلِيلًا دَقِيقًا ، وَحَلْمًا حَلًّا عُلْمِيًّا ، لِأَنَّ بَقَاءَهَا مَائِلَةٌ فِي بَعْضِ الْأَذْهَانِ عَلَى حَالَةِ شَبَاهَاتٍ لَا تُقْبَلُ الدَّحْضُ ، وَكَامَنَةٌ فِي نَفْسِيَّةِ الدَّهْمَاءِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِالْأَسْتِثْمِ ، يُجْعَلُ كُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ سُلْطَانَتِهَا عَيْثًا مُحْضًا . وَمَا أَشْهُمُ الْمُدَافِعُونَ عَنِ الْأَدْيَانِ بِأَشَدِّ مِنْ كِرَاهَتِهِمْ مُوَاجَهَةَ الْإِعْتِرَاضَاتِ ، وَاتَّقَاهُمَا بِالْحَيْدِ عَنْ طَرِيقِهَا ، وَتَرَكْهَا تَفْتَكُ بِالْأَنْفُوسِ وَالْقُلُوبِ فَتَكَا ذَرِيْعًا كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ مُحْسُوسٌ .

رَأَى الْقَارِئُ ، مِمَّا كَتَبْنَاهُ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ أَنَّنَا دَلَّلْنَا عَلَى أَنَّ الدِّينَ الْحَقَّ هُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِمَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ جَدِيدَةٍ بِالنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ الْكَرِيمِ ، وَسَلَكْنَا لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ النُّتِيجَةِ

طريقا واضحا للعالم لا ينكره متأمل . ولكننا في هذه التتمة نريد أن نبليغ هذه الغاية عنها باقتحام معادل الآراء المخالفة ، وشق طريق لهذه الحقيقة الكبرى من خلال خطوطها الدفاعية ، مثيرين بذلك كل ما عندها من قوى وأسلحة ، ليكون نجاحنا في تطويقها بمعونة الله دليلا عمليا على أن تلك القوى المعارضة لا تقوى على حماية مواقعها ، فإذا لم نفعل ذلك خشيئنا أن يبقى في بعض النفوس بقية من المزاعم السابقة .

الآن نبدأ بإيراد ما تصدينا له من هذه المحاولة العلمية فنقول :

إذا كانت المدنية ثمرة الجهود التي يبذلها الإنسان لتحسين حياته المادية ، وتسهيل محاولاته المعاشية ، والذهاب في ترقية وسائله الحيوية ، وحاجاته الأدبية والفنية ، إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه تحت ضوء العلوم والصناعات المختلفة ، فما الذي أوجد ما يتخيله بعضهم من التناقض بين الدين والمدنية ؟

ليس في المدنية الصحيحة كما رأيت من مقالنا السابق ما يناقض الدين الحق أو يقف في سبيله ، اللهم إلا فيما تفرقه من مذهب فلسفي يرى غير ما يقرره الدين في مسائل الاعتقادات ، وهذا الخلاف مرده العلم ، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق في شيء ، فلا يلبث هذا الخلاف العارض أن ينحسم ، أو يبقى مقصورا على طائفة ، لا يؤثر شذوذها على السواد الأعظم من الناس .

وإذا كان الأمر على ما ترى ، فما الذي أوجد هذه الهوة السحيقة بين الدين والمدنية في نظر بعض الأخذين بمبادئ الحياة العصرية اليوم ؟

أوجدها خطأ جليل تسرب إلى عقولهم ولم يفتنوا إليه ، وهو أنهم خلطوا بين المدنية بمعناها الصحيحة ، وبين ما أوجده أهل الإباحة من التبعديات المتنوعة على العلم والفلسفة والأخلاق الفاضلة ، تحت ظل الحرية الشخصية وألصقوه بالمدنية . ومصدر هذا الخطأ الفاحش هو ما يراه الناس بأعينهم اليوم في جرى الأمم المتمدنة قاطبة وراء المتع النفسية من مأكل ومشرب وملبس ومنظر غير متقيدين فيها بغير ما توجيه عليهم

تقاليد من العرف تواضعوا على مراعاتها فى المشية والقعدة والسلام والكلام وتناول الشراب والطعام، أما ما وراء ذلك من مخالفة ما يأتونه لأصول العلم والآداب الصحيحة فلا يكثر له أحد، ولا يعتبرونه أمرا يذنبى أن يؤبه له. فالعلم يحرم كل ما يحرمه الدين على مقتضى وجهة نظره الخاصة، فيحرم الخمر والميسر والتبرج والتهتك والزنى والمناظر المثيرة للشهوات، والسماع المميت للقلوب، والتواضع على تقاليد تعتبر أدبية وليست من الآداب الصحيحة فى شىء الخ. ولكن الذين يعتبرون أنفسهم متمدنين لا يقيمون للعلم وزنا، ولا يعتمدون على مقرراته فيما هم مدفوعون اليه من إشباع أهوائهم النفسية، وملاذم الجسدانية. فهذه المدنية على هذا النحو ليست علمية، ولا هى ثمرة أى مذهب فلسفى حتى ولا المذهب المادى نفسه، فإن الملاحدة وإن كانوا يكفرون بالأمور الاعتقادية إلا أنهم لا يبيحون لأحد أن يخرج على مقررات العلم فى شىء مما يختص بسيرته فى نفسه أو حىال غيره.

فهذه الانحرافات الخلقية التى يسميها السطحيون مدنية، محكوم عليها بالتلاشى أو على القليل ببقائها موصومة بأنها خروج على العلم وعدوان على الحكمة.

وإذ ثبت هذا فإن هناك مدنية تتفق والعلم، ومتى اتفقت والعلم فقد اتفقت والدين لأن العلم الصحيح لا يعقل أن يخالف الدين الحق على أى وجه من الوجوه.

فالنزاع القائم الآن هو بين المدنية والعلم أكثر مما هو بين المدنية والدين، وموضوعه: هل لوقام الناس على ما يوصى به العلم من كبج جماع الأهواء النفسية، والإباحيات البهيمية، والاعتدال فى توفية المطالب الجسدانية، لا يؤثر ذلك فى إضعاف العوامل المنشطة للمدنية؟ ووجه الشبهة أن الناس متى لزموا حدود الحكمة فى مطعمهم ومشربهم، وامتنعوا عن كل ما يقرر العلم ضرره بصحتهم وعقولهم، ولم يخرجوا فى ملاهيمهم وملاعبهم واجتماعاتهم عما رسمه لهم من آداب وتقاليد، صيانة لأموالهم وأخلاقهم وأعراضهم، بطلت المعايرة والمقاسمة، والمخاصرة والمكاثرة، وهذه الأمور كلها وإن

كانت تستنزف الأموال ، وتبديد الآداب والأخلاق ، وتفسد القلوب ، وتهتك الأعراس ، إلا أنها تدفع الصناع للإتقان ، والفنانين للإبداع ، والكتاب والشعراء للإنتاج ، وتلهب النفوس كافة الى التبارى لنيل المال الذى يوصلهم الى استيفاء جميع ضروب المشتهيات ، والمال لا يوصل اليه إلا بالعمل والدأب والإتقان والابتكار ، فيكون من وراء هذا التهم الثائر لتحصيل المآرب المتنوعة ، دوافع حافزة للتقدم فى جميع نواحي النشاط العقلى والعملى .

ولكن لو اكتفى الناس بتحصيل العيش فى حدود الاعتدال ، ووقفوا عن المشتهيات عند ما هو مقرر منها فى العلم ، خمدت فى نفوسهم هذه النار المتأججة وراء المآرب الإفراطية ، وتبع تخودها تصوح زهرة المدنية ، وبطلان سحرها لفاتن الخلاب ، وربما أدى ذلك كله الى ارتكاس النوع البشرى الى عهد الفتور والظلام .

ويزيدون على هذا قولهم إنه مما يقوى حجتهم أن العلماء والفلاسفة أنفسهم لا يعملون بما ينصحون به الناس ، فهم يشربون الخمر ويقامرون ويفسقون ، ويرتكبون كل ما يرتكبه الجاهلون من العدوان على الآداب العلمية الصحيحة ، والأخلاق الفلسفية السليمة . يقول المعارضون : أتريد دليلا بعد هذا على أن العالم لا يرق إلا مدفوعا بجوافز من الشهوات مطلقة العنان ، راكبة رأسها لا تبالى فى غلواتها بقانون أدبى ، ولا ترتبط بعهد علمى على النحو الذى هى عليه الآن ؟

هذه شبهة يثيرها الإباحيون على كل من يتصدى للإصلاح الأدبى العام باسم العلم والفلسفة والدين ، وهى شبهة مبنية على قصر نظر يؤسف له أشد الأسف ، وإنا نبين ذلك فى كلمتين فنقول :

إن الذين يرفعون صرح المدنية ويشيدونه ليسوا هم من تقع عليهم عينك من المترفين الإباحيين ، الذين يأكلون ويشربون ويمرحون ، ولكنهم طبقة من الناس شغلهم ما هم فيه من العمل المتواصل ، لا أقول عن اللهو والقصف ، ولكن عن حاجاتهم الضرورية ،

فهم يصلون الليل بالنهار دأبا على ما هم فيه، كأن قيم الوجود سخرهم له، فهم قانون فيه لا يستطيعون عنه تحولا. فجمهور الذين يضعون العلوم، ويرتأون النظريات، ويقررون المبادئ الأولية، من العلماء والفلاسفة لا يكادون يجدون في عمرهم وقتا للاشتغال بغير ما هم فيه، وأكثرهم عاشوا في فاقة لاذعة، أغنياء بما اختارهم الله له من الأعمال الخالدة. وجميع العباقرة الفنانين الذين وضعوا المثل العليا للفنون الجميلة والآداب العالية مرضى لا يكادون يسيغون طعاما ولا شرابا، ولا يستريحون لأنفسهم لهوا من هول ما هم فيه. وهؤلاء جميعا مدفوعون بقوة قاهرة لعمل ما يعملون غير ناظرين لما يجره عليهم من الربح الوفير، وكثير منهم بذل في عمله ماله كله وبات محتاجا لشروى نكير.

فالمدينة ليست مدينة للذين يتمتعون بطيباتها ويسرفون، ولكنها مدينة لتلك الطبقة من الأفاضال المنمزين الذين يبدعون فيما يعملون، ولا يعبأون بالمعجبين واللاحين، بل إنهم بدأبون على ما هم فيه ولو لحقهم بسببه أذى من الجامدين والمتعصبين.

والمدينة لا تنصوح زهرتها إن راعى أهلها الآداب العلمية، ولكنها تزداد بهجة وتأرجا، وتكتسب سطوعا وتألقا، فيتوحد فيها الحق والجمال، ويتآخى الإبداع والجلال، وتصبح الحياة جنة وارفة الظلال، يحد فيها الخائف أمنا، والمحتاج عونا، والضعيف ركنا، لا كما هي عليه الآن نار موقدة تلهج وجوه المستمتعين بها والمحرومين منها على حدسوى.

فأما الأولون فلا أنهم لا يضعون لمطامعهم حدا، فهم مندفعون في تيارها اندفاعا جنوبيا، لا يبالون بما يصيب المجموع من جراء إفراطهم، ولا بما يثيره إغراقهم من مقتضياته حولهم، من الطبيعة تارة ومن المعاشين لهم تارة أخرى. فأما الطبيعة فقد قامت على العدل المطلق، فهي تناسب المعتدين فيها على الذرة، فيجدون آثار عدلها في صحتهم وأموالهم وأولادهم، وأما المعاشون لهم فيضطرون لمقاومة هذا الاندفاع منهم، بالاثمار بهم ليقفوا عند حدم. وما ثمره هذا الاثمار إلا مبادئ متطرفة يدنون لها

وعدوانات موبقة ينتوون القيام بها ، ليس ضد مناظرهم وحدهم ، ولكن ضد النظم القائمة ، والمذاهب السائدة أيضا ، مما جعل المجتمعات المتمدنة أشبه بمرجل مؤصدة ، تغلى على تناير موقدة ، تهدد بالانفجار فى كل آونة .

فهل هذا كله إلا ثمرة انحلال خلقى ليس له ما يحفظه فى حدوده الطبيعية من عقيدة راسخة ، أو مثل أعلى ، أو وازع من أى ضرب كان ؟

فالذين يزعمون أن المدنية لا تزدهر إلا بحوافز من الميول الإباحية التى عليها الناس اليوم يخطئون خطأ جما ، ويرتكبون شططا فاحشا . فإذا كان يغرم أن فى المدنية من المناعة ما يحفظها من توالى أمثال هذه الكوارث عليها ، فإنهم يتغافلون عن تاريخ المدنية البائدة .

وإذا سامناهم بقدرة هذه المناعة ، فأى مصلحة للنوع البشرى فى أن يبقى على هذا النحو من الحياة المضطربة ، والميول المضطربة ، والسأم الذى أصبح يغرى بعض النفوس المريضة بنسف الكرة الأرضية لو استطاعت الى ذلك سبيلا . ألم يقل الفيلسوف الكبير روبرت دوهارتمن ^(١) خليفة شو بنهور زعيم المذهب التشاؤمى إن الحياة الأرضية مادامت لا تعدو لفساد تركيبها هذه الحالة الشنيعة فليس لها إلا حل واحد ، وهو أنه متى وصل الانسان فى مستقبل الأيام الى ابتكار مادة مدمرة قوية تصلح لنسف الكرة الأرضية ، فإنه ناسفها بها لا محالة ليرتاح العالم من حياة كلها شرور وآثام ، ومصائب وأهوال .

نَحْجِ نَحْجِ ! إن مدنية تولد مثل هذا القول على لسان قطب من أقطاب الفاسفة لهى مدنية فى حاجة الى مثل أعلى ينظم حركتها ويرأب صدوعها ، وإلا لحقها ما لحق سواها وأصبحت أحاديث .

محمد فرير ومبرى

التفسير

سورة الرعد

- ٨ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْسُكُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَجْرًا خَيْرًا ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ يَسْتَعِيبُونَ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَقَالُوا لَا تَنْفَعُ بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْخَلْقُ كَمَنْ هُوَ أَهْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . »

قد سبق في الآيات المتقدمة تقرير الحجة البالغة بما لا يدع للشك مجالاً ولا للشك موقفاً ، ولم يبق إلا أن يكون من عرضت عليه تلك الأدلة الناصعة والشموس الساطعة أعمى لا يبصر وغيباً لا يهتدى ، فثله لا ينفعه النور مهما تجلى ، ولا تفيد الشمس مهما سطعت . ولكن من ذا الذي يأبه له أو يعتد به وما هو إلا عدو لنفسه ، عرضت عليه المنافع السكاملة ودعى لا غتناها فأبى عليه غباؤه إلا أن يعرض عنها ، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟

فبعد أن قرر جل شأنه الأدلة ناصعة على قدرته تعالى وتبين الحق لذى عينين ، ولم يبق إلا إعراض المحروم واكتفاؤه بالدون ، ضرب جل وعلا مثلاً للحق المدعو اليه والباطل المنفر عنه ، ليتجلى حال حسن الاختيار وسوئه ، وما يصيب من أبصر واهتدى ومن عمى فضل ، وذلك ما سيذكر في الآية التالية : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » .

فالأية التي معنا وهي قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » الى قوله : « كذلك يضرب الله الأمثال » بيان لحال الحق والباطل اللذين انكشف أمرهما وتبين حالهما بما قام عليهما من الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، يعطينا ذلك البيان حالهما في ذاتهما من البقاء والفناء ، ومن الغناء وعدم الغناء .

ولقد جاء تمثيلهما على هذا الوجه من أروع أنواع التمثيل وأبدعه ، فلقد أبرزهما في صورتين يراها الناس رؤية متكررة ، وقد اقترن في كل منهما أنفع شيء ، بأتفه ، وأعلى شيء ، بأخسه ، فن ذا الذي يخفى عليه ما في الماء من المنافع الجلّي ، وهو قد احتاج اليه كل شيء ، واستندت اليه حياة كل حي ، وأن الزبد المقترن به يحسب شيئاً وما هو بشيء ؟ ومن ذا الذي يخفى عليه أن الماء باق يحتفظ به ، إما في أوديته وأنهاره ، وإما في مسالكه في ينابيع الأرض تتفجر به العيون في مواضع الحاجة حيث تستفاد منه الفوائد ؟ ومن ذا الذي يخفى عليه أن الزبد الذي يعلوه ويحاول منظره أن يجتذب العيون لا تكاد تتنبه اليه النفوس أو تتجه اليه الأفكار ، فهو والعدم أمام النفوس سواء ؟ فهل رأيت من تشبيه الحق والباطل ، وهل رأيت أن شأن الباطل كشأن الزبد في محاولة أن يطفو على وجه الماء وهو لا يستحق أن يكون له موطن ، وأنه يحاول مجارة الماء حيث جرى وهو أحقر من أن يكون له قرين ؟ فالحق مع الباطل كالماء مع الزبد : في النفع وعدمه ، في المسيرة بدون استحقاق ، في محاولة الاستعلاء وليس

له بأهل ، في الثبات والزوال ، في تمرضه للأنظار يسترعيا وإعراضها عنه احتقارا وعدم اهتمام .

ومن دقائق هذا التمثيل البديع أن كلاما من الحق المضروب له المثل والماء الممثل به يتنزل من السماء ، فالحق أمره ظاهر ، وتنزل الماء من السماء إما على معنى تنزله من جهة العلو ، أو على أن المراد بالسماء السحاب ، أو لأن المطر الذي تسيل به الأودية والأنهار يتصعد في الأصل بخارا من البحار بواسطة أشعة الشمس وحرارتها ، فهو مستند الى آثار الأفلاك العلوية . وكذلك يشتركان في أن كلامهما يأخذ منه ما صادفه وتلقاه بقدر احتمالهما ، فالأودية تأخذ من الماء بحسب سعتها ، والقلوب تأخذ من الحق بحسب استعدادها وقوة احتمالها . وأيضا يشتركان في أن الماء منه ما يظهر أثره ومنفعته فيما أصابه حالا ، كالأرض المستعدة للإنبات ينزل عليها الماء فتنبت الكلا والعشب الكثير ، ومنه ما يختزن في الأرض فتتمسكه للناس ينتفعون به « فشربوا وسقوا وزرعوا » ، والحق منه ما ينتفع به صاحبه حالا فيعمل بمقتضاه في تحقيق عقيدته وتصحيح أعماله وتحسين أخلاقه ، ومنه ما يختزنه ليعلمه الناس فينتفعون كما انتفع ، وربما عملوا به أكثر مما عمل . روى البخاري في صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منه نقيمة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . ولقد ترى هذه المعاني مستفادة من قوله تعالى : « فسالت أودية بقدرها » فإن من الأودية ما يسيل بمقدار ما تروى أرضه فينبت به الكلا والعشب ، ومنها ما يمسك الماء الذي سال فيه لينتفع به الناس شربا وسقى دواب وزرع ، ومنها ما يتسرب منه الينابيع فتنتقل الى بقاع أخرى تنتفع بذلك الماء ، وشأن الحق كذلك منه ما ينتفع به

صاحبه ويقتصر نفعه عليه ، ومنه ما يمسك العلم ليحفظه للمتعلمين ينتفعون ، ومنه ما ينتقل منه العلم الى العلماء فينقلونه الى المتعلمين والمنفعين كالينابيع النافلة للماء ، وهكذا يكمل وجه الشبه بين الحق والماء بقوله : « فسالت أودية بقدرها » .

واحتال السيل للزبد الذى يطفو ويربو على غير طائل مثل احتمال الهدى للشبهات يتعلق بها المحرومون من المنفعة تاركين ما هو أولى بالاستمسك الى مالا طائل تحته ولا انتفاع به ، فما أشبههم بالأطفال الذين يروقههم حباب الماء قد اجتمع حتى أراهم لونا أبيض يأخذ بأبصارهم فاشتغلوا به فلم يحصلوا منه على ما ينفع غلة أو يروى من ظأ وقد قتلهم العطش حتى أهلكهم ، ولكنه استعدادهم وغفلة نفوسهم عما ينفعهم .

والزبد إما أن يكون هو تلك الفقائيع المنتفخة بلا جدوى ، أو هو الغشاء والوضر الذى يحتمله الماء معه فينتفخ به ويربو عن مقداره ، وفى هذا الانتفاخ ذهاب منافعه . ثم هل تنبئت الى ما افتتح به ضرب هذا المثل مما يعقد أتم اتصال بينه وبين الآيات السابقة المشتملة على أدلة قدرته وبراهين سلطانه ؟ فقد ذكر فى أوله قوله جل من قائل : « أنزل من السماء ماء » فكأنه بهذا الافتتاح جملة بسبب قوى من سابقه وكأنه من تتمته ، مع أنه قد سبق لبيان حال الحق والباطل فى ذاتهما ، وفى أوصافهما من دوام وذهاب ، ومن انتفاع وبوار ، ومن أن هذا حقه الاستمسك به وذاك لا يلتفت اليه إلا الأغبياء البلاء .

فانظر الى هذا التجلى البليغ فى الأسلوب البديع ، ينتقل بك الى نتيجة مترتبة على ماسبق بعبارة كأنها من ضمن ما كان الكلام فيه ، من سوق الدلائل والبراهين على القدرة والسلطان ، فيا لله ما أعجب وما أبدع ، تبارك الله رب العالمين !

وقد أردف هذا المثل بمثل ثان لا يقل عنه فى تقرير الغرض المسوق له من بيان حال الحق والباطل ، وذلك ما تشهد فى قوله تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » أى وإن مثل ذلك الزبد الذى ترونه على سطح الماء الذى تسيل به

الأودية زيد مما عمله أيديكم ويناله صنعكم ، أرايتكم تلك المعادن التي تستخرجونها من الأرض تبتغون بها إحراز حلالكم كالذهب والفضة ، أو تحصيل منافعكم كالحديد والنحاس والرصاص : ألسنتم تعمدون الى تنقيتها من أوضارها ، وتطهيرها من الدنس الذي يعلق بها ، فتوقدون عليها وهي في النار حتى تذيبها لتبعدوا تلك الأوضار عنها وتطهروها منها ، فتصفو لكم ويكمل بها انتفاعكم ؟ ألا فاعلموا أن الحق الخالص الصافي في تقائه هو كتلك المعادن بعد تصفيتها ، فمن تحلى منكم بشئ منه فهو كمن تحلى بتلك الجواهر بعد تصفيتها ، ومن انتفع به في تهذيب نفسه وتصحيح عمله وإقامة العدل بينه وبين قومه وتكميل أسباب السعادة في دنياء وآخرته ، فثله كمثل من انتفع بتلك المعادن المصفاة المستخلصة من بين تلك الأوضار ، ومن تعلق بتلك الأباطيل واستمسك بشبه لا طائل تحتها وأخلاق لذلك الوقوف عندها ، وبادرة من الرأي والهوى عنت له بلا تمحيص ولا تصفية ، فهو أشبه شئ بمن تعلق بتلك النفايات ، ووقفت به همته عند تلك الأوضار ، فلم يستصف لنفسه جوهرًا نقيًا ، ولم يستخلص تلك المعادن الجميلة والنافعة مما يذهب بهاءها أو يضعف النفع بها . وكما تتفاوت المعادن بالتصفية فتفاوتا يجعل زنة الدرهم من أحدها بعد تصفيته أغلى من القناطر المقنطرة من ذلك الجنس عينه بدون تصفية . ألا ترى الحديد مثلاً وهو لا تزال تدخل عليه النار فيصفي وينقى حتى تخرج منه أدق آلات الجراحة فيساوى ثمن القطعة الدقيقة أمثال زنتها من الذهب أو قناطر مقنطرة من نفس الحديد المستخدم في الحراثة أو قضبان البنائات ونحوها ؟ فما فائدة ذلك الغناء إلا نقصان قيمة ما اتصل به من نفيس الجوهر ، فهل من يتعلق بتلك النفايات يكون شأنه وشأن من صفي جواهره سواء ؟

ولقد نوع فيما يوقد عليه في النار بإبراز نوعين أساسيين من مقاصده : أحدهما ما يتخذ للحلى والزينة ؛ والثاني ما يتخذ للمنفعة والفائدة ، وكلاهما لا يصل المرء الى مبتغاه منه إلا بعد أن ينقيه من زبده وأوضاره وخبثه . فهذا مثال الحق الذي لا يصل اليه صاحبه

إلا بعد أن يخلصه من آفات الهوى ونزعات الضلال ونزغات الشياطين ، تلابسه فتعكر جوهره ، وتضيع نفاسته ، وتذهب بمنفعته ، فإذا ما صفي من ذلك فهو النفيس الجليل وهو النافع المفيد ، وإذا ما بقي فيه فقد أذهب رونقه وأضاع فائدته . فهذا شأن الزبد إذا اختلط بالمعدن ، فكيف بالزبد وحده ؟ وما حال من تمسك به نابذا المعدن وراء ظهره ؟ أفلا يكون مثلاً للغباوة والبلاهة ؟ أليس يصدق عليه أنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ وهل يرضى بذلك إلا مأفون قد حيل بينه وبين عقله ، وختم الله على قلبه وعلى سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ؟

أما وقد تبين لك أمر الزبد مع الماء في البقاء والفناء ، والمنفعة وعدم الغناء ، وحال الزبد مع المعادن في ذهابه برونقها ، وإضاعته لمنفعتها لمجرد اختلاطه بها ، فضلاً عن أن يكون له منفعة في ذاته ، فلا جرم كان هذا أوضح مثل يبين قيمة كل منهما في نظر العقل بإبرازهما في صورة ما تبينه الحس . فجاءت جملة « كذلك يضرب الله الحق والباطل » بعد أن مهد لها الكلام السابق ، واستشرقتها النفوس حتى كادت تنطق بها ، وظهرت بعد أن تهيات العقول لقبولها ، فكانت مما يلاحق معناه لفظه ، وعادت على المثل المضروب بزيادة الانتباه وإتقان التأمل فيه ، وكلما كررت فيه النظر ، جلا لك العبر . ثم قال تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » فتستخرج منه الحكم المقصود في كل منها ليظهر لك حال الاختيار الموجه الى كل منهما حسناً وقبحاً ، ورشداً وغياً .

ولقد جرت هذه الجملة الشريفة مجرى الأمثال ، فكثيراً ما يستعين بها المتكلم في شتى الأغراض فيجد فيها نعم العون على إيضاح مقصده ونصرة حجته . وأصل الجُفَاء المرمى المطروح ، يقال : جفا الوادي غثاءه إذا نبذه وطرحه . والجفاء بالفتح مصدر منه ، فإذا انضم المطروح بعضه الى بعض سمي ذلك المنضم جفاء بالضم . ومعنى المكث في الأرض البقاء فيها معدداً للانتفاع به . وإنما يمكث في الأرض الشيء المحتفظ به المصون لفائدته .

قال تعالى : « كذلك يضرب الله الأمثال » :

أجل : إن هذا هو البيان حقا ، فقد جلا لنا حال الحق والباطل بصورة ما يشبههما تمام الشبه في القيمة والفائدة مما عرفته النفوس وأصبح حكمه لديها ضروريا ، فلم يبق إلا أن يضحك المرء من نفسه كيف بلغ به حقه وضلاله حتى ألحقه بالأطفال الذين لا يفرقون بين التمرة والجرة . وكان ذلك بعد أن أقام البرهان تلو البرهان ، والدليل يدعمه الدليل من أول السورة الى هنا ، حتى ارتفع الشك باليقين ، ووضح الصبح لذى عينين ، ولم يبق سوى « أن يرى مبصر ويسمع واعى » .

وهذه الآية مدعاة لتكرار التأمل في المثل ورجع البصر اليه ، فإنه :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

واسم الإشارة في قوله تعالى : « كذلك » راجع الى المثل المذكور ، أى على هذا النمط البديع الذى تجلى لك فجلى من المعانى الغزيرة ما ملأ قلبك اقتناعا تكون الأمثال التى يضربها الله للناس ، فإياك للتسليم والتفككة ، وما كانت مقصرة عن أداء ما سيقته لأدائه ، وما كان بينها وبين المعنى المراد جفوة أو نبوة . وثمرة مثل هذه الكلمة حث المخاطبين على الإصغاء ومزيد التأمل لتكمل منفعتهم منها .

قال تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » :

اعلم أن ما تقدم فى الآيات السابقة من تقرير الحجج وإقامة الأدلة وضرب الأمثال ، لم يكن المقصود منه تقرير نظريات فلسفية ، ومجرد تحقيق لمسائل علمية نظرية ، وإنما هو الوصول لترقية النفوس والأخذ بها فى طريق العمل الى ما فيه سعادتها ونجاتها من شقوتها ، فبعد أن تجلى الحق وظهر الصدق واتضح الأمر بضرب المثل ، وصل الى المقصود من ذلك كله وهو بيان حال المدعويين : من أقبل منهم واستجاب لربه ،

ومن أعرض عنه ولم يستجب لدعوته . فكأنه يقال لهم : حذار من أن تظنوا أن الأمر مقصور على مجرد تقرير النظريات فتحدثكم أنفسكم بالراوغة قائلين فليكن ما يكون فإنا لنا ولهذا كله ، سواء أ كان الحق في هذا الجانب أوفى ذاك ، فإنما يعنيننا صالحنا وما يخلصنا ، وتلك المعركة الجدلية لا نريد أن نزع بنفوسنا في ميدانها . فسد في وجوههم طريق هذه التعملات ، وقيل لهم لابل الأمر إنما يعينكم أنتم ، وإليكم يساق الحديث ، ومن أجلكم وحدكم كانت هذه المعمة ، فهي إمالكم وإما عليكم ولا مفر ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . فيكون قوله تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » من باب جنى الثمرة بعد كبير الاعمال في إنشاء الزرعة .

والحسنى تأنيث الأُحسن ، أى أحسن المثوبات وأفضلها ، وأخلصها من شوائب النقص والتغنيص ، يشهد بذلك اختيار لفظ « الحسنى » الذى هو مؤنث أفعّل التفضيل مع إطلاقه عن بيان جهة الحسن فيه ، فينصرف الى الأُكمل .

وقوله : « والذين لم يستجيبوا له » حين يسمعها السامع يكاد ينطق بقوله لهم السوأتى ، فترك للسامع ما يكاد ينطق به بنفسه ، وأخذ فى أسلوب آخر يقرر له ما خطر بباله ويبين مقدار سوئه ، وهو أنه سوء يرجع بما فى الدنيا كلها من متع ولذائذ وفوائد ومنافع ، فلو اجتمع لأحدم كل ما فى الدنيا دفعة واحدة ومثله معه يتقلب فى اللذائذ والمنافع ، ويحظى الثمار والفوائد ، وتكون كلها (جميعا) أى مجتمعة ، ما أغناه ذلك عما يلاق شيئا ، ولبذله كله يبغى النجاة مما هو فيه . فهذا التصوير من أروع أنواع التصوير فى تقدير تلك السوأتى التى فهمها المخاطب ، وفيها أحسن مقابلة وأتمها ، فقد ترك للسامع ما التقطه بفهمه ، وأتى له بما يقرره ويبين مقداره . وإنه لحق وصدق ، فإن تلك الأمور التى يحجب المرء فى الحياة إنما أحبها من أجل ما يصل اليه من متعها ، فإذا كان قد استولى عليه البلاء حتى أذهله عن أن ينظر إليها أو يستمتع بها ، فما الذى أفاده من اجتماعها فى حوزته ، وهل يكسب من ورائها إلا زيادة حسرتها ؟ وعلى ذلك يكون فى قوله « لو أن

لهم « الخ ، مقابلة للحسنى بما قررتة فى نفس السامع ، كقولهم : من باب إثبات الشئ .
بيينة . والافتداء بذل عزيز من مال وغيره لتخليص ما هو أعز منه .

وقوله تعالى : « أولئك لهم سوء الحساب » تصرّح بالمعنى المستفاد ، فيزيده تمكيناً
فى النفس . والتعبير بأولئك للإشارة الى أنهم كانوا أعرض عنهم ثم عاد يلفت النظر
إليهم ويحقر منزلتهم بإبعادهم عن حظيرة الخطاب ، وذلك باسم إشارة البعيد .

وقوله : « وبئس المهاد » — أى مهادم — تطبيق للعذاب والسوء عليهم من جميع
النواحي ، فكأنه أصابهم من أعلام ومن أسفلهم ، وأى صعوبة تلك الصعوبة التى
ارتكزوا عليها ، فحينما قلبوا فهمى متمكنة منهم وهم متمكنون منها ، مع أن أصل المهاد
ما مهد للمرء ليستريح فيه ، ومنه مهد الصبى ، وقولهم : مهد الطريق أى ألائها . فإذا كان
هذا شأن مهادم ، فما شأن ما يحيط بهم ؟ وتلمح تلك الإحاطة من قوله : « مأواهم جهنم »
فإنها قد أحاطت بهم إذ أووا إليها ، بل تزداد الإحاطة حين تنظر الى قوله : « أولئك
لهم سوء الحساب » فإن للحساب العسير حزافى النفوس وتقطيعاً للأحشاء من الداخل ،
فكان إحاطة السوأى بهم لم تقتصر على أن شملتهم من ظاهرهم ، لابل تخللتهم فى قلوبهم
وضمائرهم وقرارة نفوسهم . ومن ذا الذى ينكر ما للحساب العسير من الوخز فى الضمير ؟
قال المفسرون : وسوء الحساب أن يحاسبوا على جميع ذنوبهم لا يغفر لهم منها شئ ،
وأنهم لا تقبل حسناتهم ، فأنهم ما فعلوها ابتغاء مرضاة الله ، وكيف يبتغون رضاه
وهم ما استجابوا له ولا آمنوا به ولا برسله ؟

هذا وإذا تأملت تلك الجزاءات وجدتها جزاء وفاقاً لما اجتروا من السيئات ،
فقد أعرضوا عن السعادة الحقيقية اكتفاء بتلك اللذائذ التى استولت عليهم ، فكان
من حق جزائهم أن يبتلوا بما تتلاشى أمامه لذائذ الدنيا كلها مجتمعة ومثلها معها ،
وأعرضوا بأفكارهم واستناموا هادئين وادعين لم تشغل الآيات والنذر من قلوبهم محلاً ،
فكان من جزائهم أن يبتلوا بسوء الحساب يفاق بالهم ويشغل عقولهم ، فلا يجدون

لأنفسهم هدوءاً ، ولا لأفكارهم راحة ، وكيف يستريح من نقوش الحساب عسيرا ؟
ثم أووا الى فرشهم واستكنوا في حصونهم تمنعهم من العوادي ويترفون فيها ، فعوقبوا
على ذلك بإيوائهم الى جهنم ، وإلجائهم الى مهاد يقض مضجعهم ، وبحول بينهم وبين كل
راحة ، وذلك جزاء من استراح الى الدعة ، وفوت على نفسه عيشة ذات سعة .

كيف يكون هؤلاء عقول يفقهون بها ، أو آذان يسمعون بها ، أو عيون يبصرون
بها ؟ وكيف يستوى هؤلاء ومن رأى الحق فعرفه ، واستمع الى القول فاتبع أحسنه
« أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .
نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا حسن الذكرى ، وأن يبصر قلوبنا بالحق ،
ويجنبنا متابعة الهوى ، وأن يجعل رائدنا الرشيد والهدى ، إنه ولى التوفيق ، وهو حسبنا
ونعم الوكيل ! وصلى الله على سيدنا محمد الهادى البشير النذير ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
ابراهيم الجبالى

التثبت فى العلم

قيل لمصقلة : ما أكثر شكك ! قال : محاماة عن اليقين .
وسأل شعبة أيوب السخيتاني عن حديث فقال : أشك فيه : فقال شعبة : شكك أحب الى
من يقينى .
وقال أيوب : إن من أصحابى من أرتجى بركة دعائه ولا أقبل حديثه .
وسأل ابراهيم النخعي عامرا الشعبي عن مسألة فقال : لا أدري . فقال ابراهيم : هذا والله
العلم ، سئل عما لا يدري فقال لا أدري .
وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من سئل عما لا يدري فقال لا أدري فقد أحرز
نصف العلم .
وقال مالك بن أنس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .

حكمة الصيام

افترحت جريدة الأهرام على نخبة من رجال الدين أن يوافيها كل منهم برأيه في حكمة الصيام ، فلبوا كلهم دعوتها وكان في طليعتهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، فرأينا أن نثبت مقالته في مجلة الأزهر، ضنا بها على الضياع ، واحتفاظا بما احتوته من كلام طريف في فوائد الصيام ، وقد أتى فيها على إيجازها بأبلغ ما يمكن أن يقال في هذا الباب . قال حفظه الله :

يستقبل المسلمون في هذا اليوم شهر رمضان وقد كتب الله فيه الصيام كما كتبه على الأمم السابقة « يأبها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات » وفيه ابتداء الله إنزال القرآن على النبي الأمين محمد بن عبد الله ، صلوات الله متتابعة عليه ، وعلى آله وصحبه وسلامه .

فرمضان يجيء كل عام حاملا معه أطيب الذكريات وأحسنها ، ذكريات أوائل الدين الذي أكمله الله وأتم به النعمة ، وارتضاه للعالم ديناً ، وسماه هدى وفرقاناً ، وجعله آيات بينات ، ووضع فيه أسس نظام دائم للبشر لا يتغير ولا يتبدل ، وجعله ميزان الأعمال ، ودعامة الحق وقانون الأسر ، وغذاء الروح ولذة العقل ، ومتعة النفس وشفاء الصدور . وذكريات فريضة الصوم أحد الأركان الخمسة للإسلام ، وعلاج النفوس الجامحة ، وعماد الخلق الانساني ، والقوام على كبح الشهوات وطفيان الصفات الحيوانية البهيمية على النفس الانسانية .

في هذا الشهر نعمتان : نعمة القرآن الكريم ، ونعمة الصوم . نعمة العلم والنور والهداية ، ونعمة الوسيلة لتقبل هذا الفيض . فبالصوم تراض النفس وتسكن الى الحق وتهش لقبوله ، وتبعد عن رذائل الجسم وتيارات الشهوات المختلفة ، من بغض وحقد

وحب للانتقام وميل الى إرضاء غريزة الشهوة للطعام والشراب ، وما الى ذلك ؛ وترقى الى أفقها السماوى الروحانى مستعدة لتلقى الفيض الإلهى وتفهم معانى الآيات وما فيها من عبر وعظات .

والصوم ، كما هو معروف ، كفٌّ عن شهوات البدن ، وصبر على مضض ترك هذه الشهوات . فهو معين على تقوية الإرادة ، وفيه تعويد على احتمال المشاق والأذى ، وتعويد على عدم انزعاج النفس بترك ما ألفته ومخالفة ما اعتادته ، فهمى تقبل طعام الصباح فى المساء وطعام المساء فى الصباح ، وتصبر على الظمأ فى المهاجرة وعلى الجوع فى القر ، لتألف الصدمات إذا ما انتابتها ، والحوادث تقع مفاجئة وعلى غير توقع .

فالصوم أكبر وسائل تربية ملكة الصبر ، وملكة الصبر أم الملكات الأخلاقية ، فلا يقوى على التنقل والكفاح فى الحياة إلا صابر ، ولا يغالب الأيام إلا صابر ، ولا يصل الى الحقائق العلمية إلا صابر ، ولا يستطيع كشف أسرار الوجود بالبحث والتفكير إلا صابر ، ولا يحود بماله ونفسه إلا صابر ، ولا يعبد الله حق عبادته إلا صابر . ولذلك قيل : الصبر نصف الإيمان . وذكر الصبر فى القرآن ووصى به أكثر من سبعين مرة .

وهذه بعض آيات القرآن الكريم فى الصبر :

« إِنَّمَا يُؤَيِّتُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » « وجعلنا منهم أئمة يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لما صَبَرُوا » « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا » « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالْعَصْلَةِ إِنْ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

فى الصوم هذه الفائدة الجليلة ، وفيه تذكير بحالة الفقراء والمعوزين ، وشعور بمثل ما يلقاه الجائع المعدم من الألم عند المسغبة ، وما يجده الظمآن من لهيب العطش عند فقد

الماء، فيدفعه هذا الشعور الى البر والعطف، الى الرحمة ومواساة الفقراء والمساكين . وقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام كل ليلة في رمضان، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة .

في الصوم هذا، وفيه تذكير بالنعمة، فإن الاستمرار على الشيء قد ينسى مصدره وينسى مقدار ما فيه من النعمة، فإذا انقطع الاستمرار عاد الانسان الى التذكير . فالجوع يذكر النعمة بالغذاء، والعطش يذكر النعمة بالماء . وذكر هذه النعمة لا ينفك عن شكرها، فيقبل العبد على الطاعات، ويحافى ما نهى الله عنه من المحرمات، وإلى هذا الإشارة بقوله جل شأنه : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . هذا الذي ذكرناه جعل الصوم ركنا من أركان الاسلام الخمسة، وجعل الله سبحانه يشرفه بالاضافة اليه، فقد ورد في الحديث الشريف « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي » .

والصوم كما لا يخفى عبادة سرية لا يطلع عليها أحد إلا علام الغيوب، فإذا وجدت حقيقة فقد وجدت خالية من الرياء لا يشوبها ما يشوب غيرها من العبادات البدنية والمالية، فهي خالصة لله لا تجرى بمرأى من الخلق، فهو لله وحده، وهو الذى يجزى به ويعلم مقدار ثوابه وتضاعيف حسناته، وإذا كان نوعا من الصبر فليس هناك عدو ولا حساب فى ثوابه « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقد ينال العابد بغير الصوم جزاء من الخلق، ولكن العابد بالصوم الذى هو سر من الأسرار كما قلنا ليس له جزاء إلا من الله .

ومن حق هذه العبادة — لتكون كاملة مقبولة عند الله — كف الجوارح عن الآثام : بغض البصر، وحفظ اللسان عن اللغو والكذب والغيبة والنميمة والنهش والجلفاء

والخصومة والمراء، وكف السمع عن الإصغاء الى ما هو مكروه، والاقتصاد فيما هو مباح من طعام وشراب . وقد جاء في الحديث الشريف « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ومعنى ذلك أن الله لا يقبل صومه لأنه قد أصبح جسما بلا روح حيث لم تترتب عليه آثاره الصالحة ، فلم يبق منه إلا ترك الطعام والشراب ، والله في غنى عن ترك الطعام والشراب ، لأنه إنما يريد من العبد التقوى والآثار الصالحة المترتبة على العبادات . ونظير ذلك قول الله تبارك وتعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » والتقوى هي الغاية من الصوم كما قال : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وتهنئني بشهر الصوم أبعث بها الى كل مسلم ، ضارعا الى الله جلّت قدرته أن يشمل المسلمين بعونه وتوفيقه ، وأن يؤيدهم بروح منه ، ويوفقههم الى العمل بشريعته وإحياء دينه ، وأن يخلق منهم تلك الأمة التي وصفها بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

محمد مصطفى المراغى

تعظيم شأن العلم

قال الأحنف بن قيس : كاد العلماء أن يكونوا أربابا ، وكل عز لم يكسب بعلم فالى ذل يصير . وقال أبو قلابة : مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء ، من تركها ضل ، ومن غابت عنه تحير .

وقال سفيان بن عيينة : إنما العالم مثل السراج من جاءه اقتبس من علمه ولا ينقصه شيئا ، كما لا ينقص القابس من نور السراج شيئا . وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه . قال : كفافك بترك طلب العلم إضاعة له .

نحز شبهات عن الاسلام

نشرنا في العدد الماضي خلاصة مقالة للكاتب الفرنسي أندريه هرفيه، ثم أوجزناها في اثنتي عشرة شبهة رددنا منها على شبهتين وزد اليوم على عدد آخر منها .

الشبهة الثالثة: يقول المسيو أندريه هرفيه: إن عقائد الاسلام جامدة تتحكم في كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية .

نقول: أتى الكاتب بهذه الوصمة مضمنة في عبارة ينقض بعضها بعضا، وهي: «إننا في الواقع لا نعرف حتى اليوم أسباب التوسع السريع في فتوحات العرب، ولم نفهم كيف تدهورت أمبراطورية الخلفاء وتمزقت أوصالها، والأسباب التي أدت إلى هذا التدهور. نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التي تتحكم في كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية، وكل مظهر من مظاهر نشاطه» .

فهو يعترف بأنه لم يعرف أسباب التوسع السريع في فتوحات العرب، ولم يعرف أسباب تدهور أمبراطورية الخلفاء، ونحن إلى هنا لا نجد وجها لمؤاخذته، وكيف نؤاخذ من يعترف بجبهه أمور معينة؟ ولكنه عاذ فقال: «نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التي تتحكم في كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية، وكل مظهر من مظاهر نشاطه» . فكيف نوفق بين اعترافه بجبهه أسباب النهوض والتدهور للأمبراطورية الإسلامية في أول عبارته، وبين تأكيده بأن تلك الأسباب أوجدتها العقائد الإسلامية الجامدة؟

وإننا لسائلو المسيو أندريه هرفيه قائلين: إنه يعترف هنا بأن العرب كانت لهم فتوحات واسعة سريعة، فكيف تسنت لهم وتمت على أيديهم، وهم تحت سلطان عقائد جامدة تصيب أصحابها بالموت والشلل؟

ويعترف أيضا بأن العرب أسسوا أمبراطورية عظيمة ، فكيف أمكنهم تأسيسها وحفظها قرونا عديدة وهم يدينون لعقائد جامدة توجب على الآخذين بها الموت والشلل ؟ ولا يخفاه أن القيام ببناء أمبراطورية يقتضى أصولا وقواعد تقام عليها ، وحوافظ تحفظ بها ، فكيف ساغ للعرب ذلك وهم مصابون بالموت والشلل بسبب عقائدهم الجامدة العقيمة ؟

ويقول المسيو أندريه : إن العقائد الاسلامية تتحكم فى كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه .

ولكن هذا التحكم على إطلاقه لا يعتبر عيبا فى ذاته ، لأن هذا الوصف نفسه ينطبق على علم الأخلاق وعلى دستور الآداب ، فتعميده للإسلام بهذا الوصف وحده لا يغنى شيئا فى القدر فيه . والحقيقة أنه يريد أن يقول إن الاسلام على ما هو عليه من العقائد الجامدة الموجبة للشلل والموت يتحكم فى كل نواحي الحياة اليومية لمتبعيه .

ولكنه لم يبين لنا ما هى تلك العقائد الجامدة فيه . اهله اكتفى بقوله إن التعاليم الاسلامية لم تكن شيئا غير مصاصة العقل العربى ، وهو ما رددنا عليه فى العدد السابق . إن كان الأمر كما يقول فلم لم يوصل العقل العربى أهله على عهد جاهليتهم الى الاجتماع على حالة أمة ، ولم لم يدفعهم الى الفتوحات الواسعة السريعة ، والى تأسيس أمبراطورية عظيمة كالتى كانت للخلفاء وبقيت عهدا طويلا ؟

مهّد المسيو أندريه لشبهته هذه بأنه يحهل الأسباب التى دعت العرب للتوسع السريع ، والأسباب التى قضت على أمبراطوريتهم بالتدهور ، فكان يجب عليه أن يعرف هذه الأسباب قبل أن يتصدى للتشهير بتعاليم يدين بها نحو ربع سكان الكرة الأرضية ، ولا تزال تدخل ، كما يقول هو نفسه ، الملايين الكثيرة الى حظيرتها فى كل عام .

لا جرم أن هذا الموضوع جدير بالبحث ، فإن أمة كالأمة العربية عاشت آلافا من السنين على الحالة القبلية ، تنقلب فى سنين معدودة الى أمة شديدة التماسك ،

قوية الترابط ، فتنهض نهضة قوية تبني لنفسها بها أمبراطورية لا تشبهها في السعة وتراى الأطراف أمبراطورية في العالم حتى ولا في هذا العهد ، وتستطيع أن تحتفظ بها قرونا طويلة ، قلنا إن أمة كانت على تلك الحال من التفكك ، ثم آلت الى ما آلت اليه في سنين معدودة ، وتغلبت على أم كانت على جانب عظيم من النظام الاجتماعى والمدنية ، لا يعقل أن تكون قد وصلت الى هذا المستوى الرفيع وهى مجردة من أصول قوية ، ومبادئ قوية .

كان يجب على المسيو أندريه هرفيه وهو يعالج مسألة خطيرة كالتى هو بصددها أن يعرف أن اجتماع القبائل المتعادية وقيامها على حالة أمة شديدة التماسك ، متناسية ما كان بينها من الثارات والاحن ، لا يمكن أن يكون ثمرة دعوة ساذجة ، أو بدافع أهواء طائشة ، بدليل أن أمثال هذه الانقلابات فى تاريخ المجتمعات لم تتم إلا بعد حدوث تطور عظيم فى نفسيات الآحاد اقتضته أمور جسام ، وقوارع عظام ، وتولت بناء الوحدات الاجتماعية الجديدة أصول ومبادئ كان مثلها بين الأفراد والجماعات مثل الملاط بين الأحجار إذا أريد تحويلها الى قصور مشيدة . وفوق هذا فإن هذا التحويل يحتاج لمدير خبير بأصول البناء وأسرار تماسكه ، حتى لا ينهار على نفسه من أى ارتجاج يصيبه .

فهل يكفى فى تحليل قيام الوحدة العربية أن يقال إنها ثمرة تعاليم هى مصاصة العقل العربى الجاهلى ، وأن هذه المصاصة كما وحدت الأمة العربية دفعها لتكوين أمبراطورية عظيمة يحار المسيو أندريه هرفيه فى وجودها وأسباب فهم انحلالها ؟

أم هل يكفى فى تحليل قيامها أن يقال إن هذه التعاليم عقائد جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية ، ولا تزال به حتى تصيبه بالشلل والموت ؟

فهل حدوث هذه الآفة الكبرى وهى الوحدة العربية مع ما تقتضيه من تطور يبعث عليها ، وأصول ومبادئ تقيم صرحها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تصيب الآخذين بها بالشلل والموت ؟

وهل الانسياح في الأرض ، والقيام بفتوحات لا عهد للعالم بمثلها ، وتأليف
أمبراطورية لم يعهد النوع الانساني أوسع منها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تستولى على
عقلية أهلها فتصيبهم بالشلل والموت ؟

وهل دخول مئات الملايين في هذا الدين ، وتوالى انتشاره في جميع قارات الأرض
متغلبا بدون دعوة على جميع الملل المنافسة له ذات الدعاة الذين ينفقون عشرات الملايين
من الجنيهات كل سنة ، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسا
في الحياة وتصيبهم بالشلل والموت ؟

إنى أكاد أظن أن المسيو أندريه هرفيه يمزح فيما يقول ، أو هو غريب عن البحوث
الاجتماعية لا يدري عن أصول الاجتماع شيئا ، وهذا هو الأرجح .

وكما أنه غريب عن البحوث الاجتماعية كذلك هو غريب عن المسائل النفسية
لا يضرب بأقل سهم فيها . فقد عرف الاسلام بأنه مصاصة العقل العربي الجاهلي
ووصف تعاليمه بالجمود وبأنها نوجب على الآخذ بها الشلل والموت . وسبق له في أول
مقالته أن قال : « أثرت الديانة الاسلامية على المسلمين تأثيرا بدرجة جعلت الأمم
الاسلامية أشبه بأمة واحدة مؤلفة من أقطار متنوعة صهرت في بوتقة واحدة .
فالملل العليا الاسلامية واحدة عند المسلمين ، وتصوراتهم الفلسفية كذلك واحدة . وهم
متمسكون تمسكا شديدا باعتقادهم القوي في سمو عقائدهم الاسلامية المقدسة الخ » .

نقول : يمكننا أن نعقل وجود ديانة ذات تعاليم جامدة موجبة للشلل والموت ،
وأن نفهم أن الآخذين بها يتخيلون في عقائدها السمو ، ويتمسكون بها كل التمسك
بحكم وراثتهم لها عن آبائهم ، ووقوعهم تحت سلطان التقاليد الأعمى لأوائلهم . ولكن
هل نعقل أن يكون لمثل هذه الديانة قوة انتشار ذاتية بحيث تتغلب بدون دعاة على
ديانات يعتقد المسيو أندريه هرفيه أنها في أعلى درجات السمو ، ولها دعاة يستندون
الى أقوى دول الأرض ، ويفرون الناس على الدخول فيها بالهيل والهيلمان ؟

اللهم إن هذا غير معقول .

فإن قال المسيو أندريه إن الذين يدخلون في دياتكم هذه طوائف من أم ليست على درجة من الثقافة العقلية تجعلها تميز بين الغث والسمين ، قلنا : فما ظنك بالأوربيين وقد دخل منهم فيها ألوف ، وقد بدأ غيرهم يعرفون فضائلهم ويقدرونها قدرها ، بل ما ظنك بكبار الفلاسفة والمفكرين أمثال كارلايل وجوت ولا مرتين وبرنارد شو وسديو وعدد لا يحصى من كبار العقول وقد شهدوا للإسلام بسمو العقائد ، وأصالة الأصول ، وشرف المقاصد ، وبعد الغايات ، والكفاية التامة لحاجات العالم الانساني الروحية والمادية في كل زمان ومكان !

إن ساغ للمسيو أندريه أن يقول جزافا إن هؤلاء العلماء قد وهوا فنسبوا مدينة المتهورين للعرب الفاهرين ، كما ادعى ذلك ، وسنبتته ونرد عليه ، فهل وهوا أيضا في نسبة السمو لهذا الدين وكتابه بين أيديهم يتلون ويتدبرون آياته ، ويتأملون في دينانه ؟ أما كان يجب على المسيو أندريه هرفيه قبل أن يكتب ما كتب عن دين هو آية الله الكبرى في الأرض ، أن يقرأ ما كتبه أعلام العلم والفلسفة فيه ليعدل ولو بعض العدل في الحكم عليه ، بدل أن يصفه بما وصف فجنى على نفسه شر ما يجنيه كاتب عليها ، لأن شيوع البحوث الاسلامية واستفاضة الأقوال عنها جعل أكثر الناس يرون في أمثال كتابات المسيو أندريه هرفيه رجوعا الى تضليلات القرون الوسطى حيث كان يأتي كاتب بالساقط من القول طعنا في دين فيصدقه جميع القارئین ، ويزيدون عليه ، وينقلونه مثقلا بالمضاعفات من كل ضرب !

لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن اليوم في عهد آخر يسوغ فيه لمثل الفيلسوف الكبير (برناردشو) أن يقول : إنه لا يمتنع على أوربا قرنان حتى تدخل جميع شعوبها في الاسلام . نكتفي بدحض هذه الشبهة اليوم تاركين ما بقي منها للشهور المقبلة إن شاء الله .

محمد فريد ومبرى

رؤية الهلال

عند الغروب وبعد الفجر

رفع إلى بعض التونسيين الأزهريين سؤالاً يقول فيه :

ما حكم الله إذا شهد شاهدان عند القاضي بأنهما رأيا هلال شوال عند غروب التاسع والعشرين من شهر رمضان ، فحكم القاضي بانهاء شهر الصوم ، ولكن رآه آخرون بعد الفجر من تلك الليلة فصاموا ولم يفطروا معتقدين أن الشهر ثلاثون لا تسعة وعشرون ؟
أبو القاسم التونسي الأزهري

الجواب

جاءنا هذا السؤال منذ زمان . وجاءنا اليوم سؤال بمعناه من بعض أسانذة المدراس ؛ وقد طلب منا التوسع في الجواب ونشره بمجلة الأزهري ، فنقول وبالله التوفيق غير معمولين على ظواهر المنقولات ، ولا ما يفيد كثير من العبارات ، وإنما نكتب ما يملية علينا روح الشريعة السامى ، ونظرها البعيد :

من المعلوم أن الاسلام يسرّ سمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا . فهو يسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهدهم ، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد . بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى التكوين والتباين فى الدرجات والاختلاف فى الآراء . والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى . ولم يتفق فى أفراد نوع من الأنواع من التفاوت مثل ما اتفق بين أفراد نوع الانسان . والشارع الحكيم عز وجل يعلم ذلك كله من خلقه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

والله يريد أن تكون هداية الاسلام عامة، ورايته شاملة لكل من فيه مثقال ذرة من خير. وقد عرفنا أنه لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب. وقد جعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب، فلم يكتف برفع الإثم عن المخطئ بل جعل له أجراً. ولهذا لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئاً لمن صلى العصر في الطريق، ولا لمن أخر الصلاة الى بنى قريظة. ولم يلم على إمام السرية الذي كان يقرأ لهم سورة الإخلاص دائماً، ولا قال له إن الصبح يطلب فيها التطويل وإن الظهر تليها. الى آخر ما قرره الفقهاء، بل قال أخبروه أن الله يحبه كما في الحديث الصحيح، الى آخر ما هو كثير ومعروف من السنة النبوية، والملة المحمدية.

وكانه صلى الله عليه وسلم لا يريد منا إلا عدم الخروج على الله ورسوله، ولا يكلفنا إلا أن نخلص النيات لله تعالى ونأتي الله بقلب سليم. فالدين الاسلامي لا يتعمق تعمق الجاهلين، ولا يتصلب تصلب الجامدين، ولا يحب فضال المتعصبين، ولا تشدق المتفهبين ولا تنازع الثرثارين. وما كان شيء أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفرقة والانقسام.

وكان المقصود الأسمى من بعثته صلى الله عليه وسلم إنما هو الوئام وإيجاد الألفة والمحبة بين المؤمنين وعدم التفرق فيما بينهم «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

وقد شرع لذلك وسائل كثيرة، حتى جعل المصافحة مكفرة للذنوب، وأمر بإفشاء السلام، وندب الى التهادى. ولم يبالغ في شيء ما بالغ في حرمة المسلم كما هو معروف حتى جعله أعظم حرمة من الكعبة، كما في حديث ابن مالك وغيره. ولولا تلك الأنظار السامية، وذلك التسامح البالغ والرفق المتناهي، لم يكن الاسلام دين الأمم كلها، ولم يصلح إلا لقوم جامدين وطائفة مخصوصين.

اعتبار الاسلام للمخالفين :

ولكنه مع هذا كله لا يعتبر إلا الحقائق متى ظهرت ، ولا يعدل عن الواقع متى تبين . فهو دين الحق والعلم ، كما أنه دين الرحمة والحكمة . فتى عرفنا الحقيقة بأى وسيلة من الوسائل لم نعدل عنها . ومتى قام البرهان على شىء من الأشياء وجب المصير اليه والتمويل عليه . فهو أكبر أنصار العلم ، وأعظم دعاة الحقيقة ، ولكنه لا يجب التمنع للمقوت ولا الفلسفة الخلقاء .

والخلاصة أن الدين الاسلامى لا يعدل عما يوجبه الدليل وتقوم عليه الحجة . فهو دين البرهان ودين البيان ، ودين الحقائق والدقائق ، ودين العامة والخاصة ، بأساليب وأسرار تبهر العقلاء وتدهش العلماء . فإذا تبين هذا علمنا أن القاضى الذى حكم على مقتضى بيعة المساء لا شىء عليه بعد أن يعتقد أنهم صادقون فيما شهدوا به ، فان كانوا كاذبين فى الواقع متمعدين لذلك فعليهم ما يستحقون من جزاء الكاذبين المضلين . وليس على من اتبع حكم القاضى فى ذلك شىء متى انقذ فى ذهنه صدق الشهود ولم يقدع برهان على كذبهم . وكذلك نقول : من رأى القمر بعد الفجر لا شىء عليه ما دام يعتقد أن الشهر باق وأن اليوم من رمضان . وكذلك يجب الصوم على من صدقه واعتقد أن البيعة الأخرى كاذبة عمداً أو خطأ . ولا يمكننا أن نفى بأن أحداً يخالف اعتقاده فى هذا ، وإن كان عليه أن يبحث عما هو الواقع فى نفس الأمر بقدر ما يستطيع . وكيف نلزمه بالفطر وهو يعتقد أن اليوم من رمضان ، أو نوجب عليه الصوم وهو يعتقد أنه يوم عيد ؟ ولا يسعنا أن نقرر إلا أن كلا يتبع ما يعتقد ولا يعدل عنه وأنه إذا خالفه كان منتهكاً لحرمه الدين فيما يعتقد . ولم يكلفنا الله بإصابة الواقع ، وإنما كلفنا بالعمل باعتقادنا ، وقد اعتبرنا ما يقرره الفلكيون فى حساب الأوقات وأمر القبلة وغير ذلك ، وقلنا فى كتبنا الفقهية :

قطب السما اجعل حدو أذن يسرى بمصر والعراق حدو الأخرى

الى غير ذلك . وقد أكثر الله من ذكر الشمس والقمر وسيرهما المنتظم فقال :
 « الشمس والقمر بحسبان » ، « والقمر قدرناه منازل » ، « هو الذى جعل الشمس
 ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

ومعرفة علم الفلك من فروض الكفاية على حد محدود ، فلم تهمل الشريعة
 ذلك بالكلية . وسر ذلك أن عندنا أشياء يمكننا الوصول إليها وأشياء ليست كذلك ،
 فما كان من قبيل المغيبات والحوادث المستقبلات ، فلا نخوض فيه لثلاث تقع فى الغلط
 والجهل ، وننقاد بغريزة الوم والخيال الى مهامه لا نحسن السير فيها ، ولا الوقوف
 على خوافيها . وإن صح أن نقول إن ذلك كله من قبيل الأسباب والمسببات . ولكن
 لما أله بعض الناس الكواكب نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخوض
 فى النجوم خوفا من الوقوف معها والانتقطاع إليها .

فهذا ما نهينا عنه حرصا على أوقاتنا ، وضنا بمقولنا عن المذاق التى لا علم فيها
 ولا ضرورة إليها . أما ما يكون من قبيل الحسيات التى عرفنا من مشاهدتها المتكررة
 أنها من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتغير ، فهذه لا بد منها ، ولا يمكننا العدول عنها . فإن
 الحقيقة لا يصح فى نظر الدين الصحيح إغفالها ، ولا القول بما ينافيها ، وإلا كنا قائلين
 بأن الدين يعادى العلم ، وهو ما تتحاشى عنه ونهوى الدين منه . فإن كان هناك دين
 يعادى العلم فليس هو الاسلام الذى حث على الفكر ، ودعا الى النظر فى ملكوت
 السموات والأرض .

وبعد : فيجوز غلط الشهود فى الرؤية ، ويجوز تعمد الكذب ، وكثير من
 الناس يتخيل ثم يخال . فعلى القاضى أن يتحرى غاية التحرى ، ويتيقظ لأمثال هذه
 الدقائق حتى يؤدى ما يجب لنفسه والمسلمين .

غير أن لنا كلمة مع شهود الفجر ، وقد قال المدافعون عنهم إنه لا تمكن رؤية القمر
 بعد الغروب وبعد الفجر من تلك الليلة وهو ما نخاله صحيحا . ولكن نقول : كيف رأوه

بعد الفجر ليلة ثلاثين والمحاق لا بد منه باعترافهم ؟ وإذا كان هذا الفريق يرى أنه لا بد من المحاق فكيف يسلم رؤية القمر بعد الفجر يوم الثلاثين ؟ وهل لا يجد في ذلك تنافيا بينه وبين المحاق الذي أوجبه ؟ يجب أن يحرر هذا المقام تحريرا يثلج له الصدر وتطمئن اليه النفس . وقد تكلمت مع بعض الفلكيين عندنا بمصر فقال : إنه لا يمكن أحدا أن يرى الهلال بعد الفجر بالعين المجردة في ليلة ثلاثين ، فليحرر ذلك من هو أقدر مني على تحريره والدين النصيحة . وليس قصدي أن أحقق المسألة الفلكية عند أربابها ، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن الحقيقة متى تبينت ولو على يد كافر ، وجب اتباعها في الدين الاسلامي ، ولا يصح غير هذا . ومن المحتمل أن يكون المرئي نجما من النجوم ظنوه قمر ، أو عرض لهم الخطأ في ذلك بأي سبب من الأسباب الكثيرة .

وبعد ذلك فلست أدري بماذا ترجح إحدى الشهادتين على الأخرى واحتمال الصدق والكذب قائم في كل منهما ، فعلام هذا التنازع وهذه الضوضاء ؟ فأرجو أن يتحرى الفريقان الانصاف ويدعوا التعسف فيما بينهم ، ولا يتنازعا فيفسلوا وتذهب ربحهم . وهي كلمة ساقى إليها حب الوثام وبغض الانقسام . وكل ما أخشاه هو أن يقول المتعذلقون أو الملحدون : إن الدين يعادي العلم ، وهي التهمة التي تلقفها بعض الشبان الأغرار من المسلمين عن ملحدى الأوربيين . وذلك إن صح فهو في دين غير دين الاسلام كما قلنا . ولا يبعد أن يقوم بعض الناس فيمارضنا ببعض الظواهر من كلام الفقهاء غير راجع الى ذوق الشريعة وما ترمى اليه من أسرار سامية وأنظار بعيدة ، وما يجب لها من الصون عن تمريرها لقالة الجامدين أو طعن الملحدين . (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) .

ولسنا نتكلم إلا بما نعرفه من روح الشريعة الحكيمة المطهرة ، ولعل الله يهدي به كثيرا من عباده المتصفين بالمخلصين .

والموضوع بقية ، وسنعود اليه في العدد التالي إن شاء الله .
يوسف الربوي
من هيئة كبار العلماء

الاسلام والفلسفة

- ٢ -

أثر الترجمة الى العربية :

يعرف التاريخ أن الأمة العربية وثبتت الى الأمام بعد الاسلام وثبتت هائلتين : إحداهما على أثر إشعاع القرآن في جنباتها ، فأثارها بعد ظلمة ، وهداها بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، لأنه أضاف الى لغتها ألفاظا جديدة وتعبيرات فنية وعلمية لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ففتح بذلك بابا عظيما للثراء اللغوي . وقبل كل هذائمه القرآن على وجوب النظر في الكون العام ، وفي النفس الانسانية ، وفي الأسباب والمسببات كما أسلفنا ، فكان مصباحا أثار لمعتنقيه سبيل الحكمة والفلسفة ، فأخذوا ينتجعونها ويتطلعون اليهما في شوق وشغف ، حتى فازوا منهما بمحظ وافر .

هذه هي الوثبة الأولى ، أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة الهندية والمعارف اليونانية والثقافة الفارسية .

بهذا كله استنار المسلمون ، وعلى أسرارهم وقفوا ، وبما فيه من خير تهذبوا وتأدبوا ، ولكن بعد أن مزجوه بتعاليم دينهم مزجا جعله صالحا للحياة والخلود . ولم يختص هذا الأثر الفلسفي طائفة من العرب دون طائفة ، بل شمل جميع الطوائف على اختلاف مناحيها وتباين نزعاتها .

ونحن إذا غادرنا الفلاسفة الى الشعراء والكتّاب ، وجدنا قصائدهم وأسفارهم قد امتلأت بأنواع المعارف ، وفاضت على جوانبها ألوان الثقافة من كل مكان . وإذا تركنا الكتاب والشعراء جانباً ثم عرجنا على الفقهاء والمفسرين وشراح الحديث النبوي ، وجدناهم يستغمدون المنطق في تأويلهم للقرآن وشرحهم للحديث

واستنباطهم للأحكام الفقهية، مما جعل تلك الأحكام تفوز بأكبر قسط من الاحترام والإجلال في نظر علماء الغرب المحدثين .

عرف العرب بفضل هذه الترجمة مبدأ الحياة الفلسفية عند هذه الأمم، وتتبعوا أطوار تفكيراتهم ومذاهبهم، فكان لهذا التاريخ المرتب بعرضه على بعض أثر بعيد الغور في العقلية العربية، وإن كانت قد صحبت هذه الحقائق النافعة كمية من الخرافات والأوهام الباطلة، كاعتقادهم مثلاً أن « أمبيدوكليس » كان تلميذاً لداود أو سليمان، وأن « فيثاغورس » تخرج في مدرسة « سليمان بن داود » ولكن ثمين هذه المعارف كان أكثر من مئات أضعاف غنها، وما فيها من أساطير كان ذرة إلى جانب أطوار ما فيها من حقائق .

ولولا نكبة الأمم العربية على أيدي « التتار » لشاهد العالم الحديث الآن في بغداد مكتبة حافلة بأهم ما أنتجته العقلية البشرية في جميع أنحاء المعمورة إلى عصرهم .

هيات هذه الترجمة تلك المواهب الكامنة في رؤوس المسلمين إلى البروز في عالم الواقعات، فبرزت بهيئة أدهشت المؤرخين والباحثين، كما سنشير إلى ذلك عند الكلام على فلاسفة الاسلام . غير أن هذه الترجمة — فيما روى التاريخ — كانت قاصرة على الحكمة والفلسفة والطب والفلك والرياضة والموسيقى، فلم تتناول الأدب اليوناني، ويعزو المؤرخون نفور المسلمين من أدب اليونان إلى ما اشتمل عليه من أساطير وثنية. هذا هو حال الفلسفة في الشرق، أما في الغرب، فقد كان لها شأن آخر يفاير هذا الشأن تمام المغايرة، في نشأتها وفي كيفية نضوجها، ثم في نظرة الناس إليها وفي حظها . واليك البيان :

كانت قرطبة تتخذ بغداد مثلاً أعلى تسير على نمودجه وتنسج على منواله في كل شيء، وكانت تغالى مغالاة شديدة في احتذاء خطواتها، فلما ترامت الأخبار من الشرق إلى خلفاء الأندلس بأن بغداد قد أضحت كمبة العلم وعاصمة الثقافة الانسانية،

عز على أولئك الخلفاء أن يقفوا جامدين ، وأنذادهم يسرون ، فبعثوا رسلاً أذكيا أكفاء مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أم ما تتباهى به بغداد من درر العلم وجواهر المعرفة الفلسفية ، فذهب أولئك الرسل ، وبذلوا المال بسخاء ، فعادوا من « دار الحكمة » وقد نقلوا أكثر ما قدمناه اليك من كتب « أرسطو » المترجمة في بغداد ، وسلموها الى الخلفاء الذين حفظوها بين سحورهم ونحورهم ، ضنابها وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها ، فذاعت في ربوع الأندلس ، ثم تخطت البحر الأبيض الى شمال أفريقيا ، وكان من نتائج ذلك أن تكون في ظلالها الوارفة أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن ميمون وغيرهم من العباقرة والموهوبين . وكانت أبناء أولئك الفلاسفة تتصل بالخلفاء فلا يلاقون منهم إلا كل إعزاز وإجلال ، فزاد هذا في تشجيعهم ، وضاعف من نشاطهم واجتهادهم ، فسطعت أضواء مواهبهم وكثرت منتجاتهم ، وبرزت مبتكراتهم ، كما سنبين ذلك في حديثنا عن أشهرهم ، وهو ابن رشد .

يرى بعض الفرنجة أن الفلسفة الاسلامية الغريبة كانت أخصب من أختها الشرقية ، ويرجمون هذا الفرق الى علة البيئته الطبيعية التي هي في الأندلس أخصب منها في بغداد . ونحن أولا ، لا نسلم بأن الفارابي — وله ما استراه من إبداع في العقول العشرة وفي غيرها من المناحي الفلسفية ، ولا بأن ابن سينا ، وله تلك المبتكرات في النفوس الفلكية وفي النفس الانسانية وفي مصادر المعرفة البشرية وفي غير ذلك — لا نسلم بأن هذين الفيلسوفين أقل قيمة من ابن رشد . على أننا لو سلطنا بهذا لم نعره الى ذلك السبب الذي عزاه اليه الغريون ، وإنما نعرزه الى التقدم الزمني ، والى نضوج الفلسفة الاسلامية ، والى اطلاع ابن رشد على ما كتبه الكندي والفارابي وابن سينا وعلى ردود أمثال الامام الغزالي عليهم ، وما نجم عن ذلك من توضيح المشاكل وتصفية المجادلات .

ومهما يكن من الأمر ، فقد ظلت الفلسفة في الغرب مستمتعة بعطف الملوك وتشجيعهم ، حتى خلف من بعدهم خلف ضيق العقل ، محصور الذهن يمكن أن يقع في قبضة خداع ذوى الأغراض السيئة كالتخليفة المنصور الأندلسى الذى دس عنده جماعة من الخبثاء لابن رشد ، فأوقع به شر إيقاع ، وأمر بإحراق كتبه ، بل بإحراق كل كتب الفلسفة من غير استثناء . ولولا أن قيض الله لحفظ هذه الكتب القيمة تلاميذ ابن رشد من اليهود ، لأصبحت الآن في خبر كان ، كما سنفصل ذلك فيما بعد .

لما نفي ابن رشد فر تلاميذه من اليهود بكتبه ونقلوها الى العبرية ثم نشروها بين الأوربيين ، فنقلها هؤلاء الى لغاتهم المختلفة ، فكانت مبعث حياتهم العلمية ، ومصدر معرفتهم الفلسفية ، ومطلع شمس نهضتهم العقلية ، كما صرح بذلك علماءهم وفلاسفتهم . أما الظاهرة العامة لجميع فلاسفة الاسلام من شرقيين وغربيين ، فهي محاولة تضيق هوة الخلاف بقدر الإمكان بين الدين والفلسفة ، فاجهود الفارابى في العقول العشرة إلا ليوفق بين عقيدة خلق الله للكون وبين القواعد اليونانية الثلاث :

(١) « الكامل من كل وجه لا يصدر عنه إلا كامل » . (٢) « الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد » . (٣) « العدم لا ينتج وجودا » .

قرر القرآن في مواضع كثيرة أن الله هو خالق كل شيء ، وأعلنت القاعدة اليونانية القديمة أن صدور الكثرة عن الواحد محال ، لأن هذا الصدور يقتضى إما تكثر الواحد أو توحيد الكثرة ، وكلاهما محال . وإذا فصدور العالم للتكثر عن الإله الواحد غير ممكن . وقررت القاعدة الثانية أن الإله كامل والعالم ناقص ، ولا يمكن أن يصدر الثانى عن الأول إلا إذا نقص الأول أو كل الثانى ، وكلاهما محال ، لأن نقص الإله يناقى ألوهيته ، وكمال العالم يناقض الواقع المشاهد . وإذا فلا يمكن أن يكون الإله هو مبدع العالم . وصرحت القاعدة الثالثة بأن إنشاء الله العالم غير ممكن ، لأن الانشاء هو خلق من عدم ، ومن المستحيل أن ينشأ الوجود من عدم .

فلما رأى الفارابي هذه القواعد ووجد أرسطو - وهو في نظره المثل الأعلى - يؤمن ، لم يسهه إلا أن يسلك الممكن وغير الممكن من الوسائل ، ليوفق بين القرآن وبين تلك القواعد ، فأجهد عقله حتى نظم مسألة العقول العشرة التي قرر فيها أن العقل الأول صدر عن الله صدور المعلول عن علته ، وهو واحد ، فلا مانع من صدوره عن الواحد ، وهو كامل ، فلا بأس بصدوره عن الكامل ، وهو معلول للقديم فلم ينشأ عن عدم . ثم تدرج الى تأثير العقل الأول فيما بعده من عقول حتى وصل الى العقل العاشر المؤثر في فلك القمر . وهذا الأخير هو منشئ العوالم الدنيا ، ولا ضير في ذلك ، لأن فلك القمر ليس واحدا من كل وجه . فلا مانع من أن تصدر عنه الكثرة ، وليس كاملا من كل وجه ، فلا مانع من أن يصدر عنه العالم الناقص ، وبهذا التكلف حسب الفارابي أنه نجح في التوفيق بين الاسلام والفلسفة اليونانية ، مع أنى أنا اعتقد أن « أمينيوس ساكاس » و « أفلوطين » قد وفقا في هذا الشأن وهما ليسا مسلمين - الى ما لم يوفق اليه الفارابي ، حيث قررا أن لا مانع من صدور الكثرة عن الواحد مع احتفاظه بوحدايته ، كما يوفق من المصباح الواحد مائة مصباح ، وكما يكون الأستاذ مائة تلميذ بعلمه ، وكذلك لا مانع من صدور الناقص عن الكامل ، لأن الكمال الأعلى لا يقوى شيء مما هو دونه على نقصه ، وإلا لقويت الغازورات الملقاة على الأرض على إنقاص أو تدنيس أشعة الشمس المنسكبة عليها . أما كون العدم لا ينتج وجودا فانهما قررا فيه أن نورا صدر عن الله وأخذ يبتعد عن مصدره قليلا قليلا ، وبقدر هذا البعد تلحقه الظلمة حتى إذا تنهى في هذا البعد صار مادة مظلمة ، منها تكون العالم الناقص ، وإذا فالمادة حادثة صادرة عن الله صدور المخلوق عن الخالق .

فلو أن الفارابي وفق الى مثل هذه الردود ، لكان أكثر قربا الى الاسلام ، ولكن الذي هوى به في هذا هو أنه قدس تلك القواعد اليونانية ، ورفعها عن مواطن النقد

والتجريح، وجعلها هي المركز الثابت الذي يجب سحب الاسلام اليه . ولو كان عكس لنجح في الملاءمة بين الدين وتلك القواعد .

أما « ساكس » و « أفلوطين » فقد اعتبراهما نظريات قابلة للنقد والنقض والهدم ، وجعلنا المركز الثابت هو المنطق المستقيم ، وأخذنا يجذبنا اليه كل تلك النظريات القديمة ، فما اتفق منها مع المنطق احتراماه وأجلاه ، وما نبأ عنه ألقيا به في مكان سحيق من الإهمال والإغضاء .

وكذلك لم يكن عناء ابن سينا وتمحله مسألة علم الله للجزئيات عن طريق النفوس الفلكية إلا ليوفق بين الاسلام الذي يجزم بأن الله « يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » وبين قول « أرسطو » : إن الله ترفع عن العلم بالعالم ، لأن علم الكامل بالناقص ينقصه . فأراد ابن سينا أن يتمحل وساطة النفوس الفلكية بين الله الكامل وبين العالم الناقص ، لكي ينتفي العلم المباشر الذي هو منشأ النقص عند « أرسطو » ، وحسب أن هذا التكلف يحقق غايته من التوفيق بين الاسلام و « أرسطو » فأخفق .

أما ابن رشد فأماننا كتابه الشهير المسمى : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وهو أكبر برهان على ما نقول من محاولة جميع هؤلاء الفلاسفة التقريب بين الفلسفة والدين ، ولكنه تقريب خاضع دائماً لقاعدتهم المعكوسة التي قدمناها اليك .

على أن هذا لا يمنع من أن لهم جهوداً محترمة وفلسفات قيمة سنحدثك عنها في فصول آتية ، إن شاء الله .

الدكتور محمد غنم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

أسلوب القرآن الحكيم

وأثره في الادب

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة للدلالة على صدق رسالته ، ودستورا أبديا جامعا لطرائق السعادة التشريعية للأمة الاسلامية ، وقد لقي من عناد العرب — وهم يومئذ غطارفة البلاغة — ما لم يلقه كتاب قبله ، فتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، وسخر منهم ، وأنبأهم بعجزهم وعجز الحياة كلها لو تظاهرت على مباراته أن تأتي بكتاب مثله ، في حكمه وأحكامه ، وأسلوبه وبراعته : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

أما الإعجاز التشريعي والاجتماعي فقد تكفلت ببيانها الحياة ، وقام بشرحه العلم ، وتولى الفكر الانساني تبليغه الى الناس أجمعين .

وأما الإعجاز البلاغي فهو الذي يعنى الأديب العربي ، ليعرف به مدى تأثير أسلوب القرآن في الأساليب الأدبية وفوقه عليها ، ولهذا الغرض قامت علوم البلاغة العربية لتقرب الى الأذهان فهم الجمال الفني في القرآن الحكيم .

كان القرآن ولا يزال صورة جديدة من الأدب الحى الرائع فى نظر الفحول من مصافح العرب وفصحائهم ، بعد أن جالوا فى مسارحه ، وتفتّشوا ظلاله ، وأشربوا حبه ، وتفهموا أسلوبه ، واهتدوا بهديه ، وآمنوا بتعاليمه وأحكامه ، فاتخذوه مثلهم الأعلى فى السمو الأدبى ، يتأثرون أثره ، ويستنون سنته ، فاتجهوا بالأدب اتجاها جديدا فى عباراته وأسلوبه ومعانيه وروحه ، وكان من أثر ذلك أن استحدثت ألفاظ جديدة لمعان مستحدثة ، وأميتت ألفاظ لم تكن متناسبة مع الحياة الجديدة ، واستبدلت

بالكلمات الكزة الجافية التي كانت تلائم الحياة الجاهلية، كلمات رقيقة عذبة، لها حلاوة في الأسماع وأنس في القلوب، وانتهجت مناهج في الدين والعلم والسياسة والاجتماع والأخلاق طلبت العبارة عنها، وأداءها أداء يتفق وطبيعتها الناشئة، كل ذلك وجوده في القرآن يصفه ويتحدث عنه أحسن الحديث، فما كان عليهم إلا أن يخذلوا حذوه ويأخذوا إخذله.

كان العرب يحفلون بالشعر ويمتزون به، فبلغ عندهم من ناحية الأسلوب ومثانة العبارة غاية لن يستطيع أحد بعدهم أن يدنو منها. أما النثر فكان حظهم أو حظ ما وصلنا منه ضئيلاً بالنسبة للشعر، فجموعة الخطب والوصايا والمحاورات التي بين أيدينا من نثر العرب قبل الإسلام تشبه أن تكون صورة واحدة قليلة التنوع خالية من المعاني الإصلاحيّة التي تحتاج إليها الأمم في تكوينها الاجتماعي، وهي على ما فيها من هذا النقص تشتمل على كثير من وحشى الألفاظ وغريبها، فلما حل القرآن من نفوسهم محل الجلال والعظمة، طرخوا من أيديهم زمام ذلك النثر، وتركوه حيث ولد في البوادي، فلم يبق منه إلا الشيء القليل، وعكفوا على القرآن يقتبسون من أسلوبه، وبوشحون خطبهم ورسائلهم بآياته، ويتكلمون في موضوعات لم يكن لهم فيها من قبل مجال، وظهر أثر أسلوب القرآن في النثر ظهوراً بيناً، تفرّؤه في خطب الخلفاء الراشدين وخطباء الإسلام.

أما الشعر فكان نقد القرآن بالنسبة إليه موجهاً إلى الشعراء أنفسهم الذين اتخذوا هذا الفن الجميل مطية إلى الإقذاع في الهجاء، والكذب في المدح والثناء، والفحش في مغازلة النساء، وتأريث العداوة والبغضاء، فقال تعالى: « والشعراء يتَّبِعُهم الغاوون أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » ولم يمسّ نقد القرآن الشعرَ باعتباره فناً من فنون التعبير عن الحياة، ولكنه كان استصلاحاً له مما ورطه فيه الشعراء. ولذلك استثنى نوعاً منهم يستطيعون بشاعريتهم الطاهرة النقية أن يسموا

بالفن عن سفاسف الأمور ودينثاتها، فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وقد أفاد الشعر من هذا النقد المباشر فائدة لم تكن كفائدة النثر، ولعل ذلك راجع الى
نفوس الشعراء وما طبعوا عليه في تلك البيئات التي كانت تسودها العصبية وما يصاحبها
من الشرور الخلقية ، ولما يمض زمن يسير حتى عادت جذعة في عصر الأمويين ،
فعادوا لما كانوا عليه ، وعاد الشعر الى حالته الأولى ، ولكنه تأثر كثيرا بأسلوب
القرآن في لين عبارته وحلاوة كلماته وسلاسة أسلوبه ولطف استعاراته .

ومهما يكن فإن النثر كان أشد نوعي الأدب تأثرا بالقرآن ، لأن الحقائق العملية
والعملية التي يقوم عليها إصلاح الأمم ، والتي جاء بها القرآن لا يستطيع الشعر
أن يصورها تصويرا كاملا ، وهو حافظ لجلاله وروعته وموسيقية وزنه ، فتطامن أمام
النثر الأدبي في صدر الاسلام ، وخفت صوته قليلا ، وعلا صوت النثر جهوريا .

فارق القرآن الحكيم الشعر الموزون المقتفى بأسلوبه ، وأبى الله تعالى أن يعلم خاتم رسله
الى الانسانية الشعر ، فقال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . والذي يظهر لنا
في تحليل ذلك أن قيود القافية والوزن في الشعر تحول بينه وبين أن يكون أداة
لتبليغ رسالة سماوية عامة الى كافة الخلق في أقطار الأرض على اختلاف ألسنتهم
وأفكارهم وطبائعهم وبيئاتهم وأحوالهم في المعاش والمعاد .

فالقرآن حاور وجادل ، وهدم وبني ، ووعظ وزجر ، ووعد وأوعد ، وهدد ورغب ،
ووصف وصور ووقص ، وأمر ونهى ، بأسلوب مختلف باختلاف مقام الكلام والمحاطين ،
وإن اتحد في تساميه عن طوق البشر ، وهو يردد المعنى الواحد بطرق كثيرة ، ليبليغ به
الى منافذ القلوب .

فانظر الى تمثيله حال الكافرين الذين يعملون في هذه الدنيا من الخير والبر ما يحجب
الكفر نفعه وفائدته عنهم ، لأنهم أبوا الانقياد لله تعالى وهو مصدر كل خير وبر وإنعام ،

قال عز وجل: « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » .

فتأمل التشبيه به وما أجرى عليه من الوصف المقيد ، ثم التعقيب بعجزهم عما كسبوه لأنفسهم ، تدرك بدهاة أن حالهم هذا هو الضلال البعيد .

وقال في آية أخرى: « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور » .

هذا التنويع في التمثيل من أسرار الإعجاز في القرآن ، فهناك مثل أعمالهم برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وهنا مثلها بسراب يظنه الظمآن ماء حتى إذا جاءه ليرى منه ظمأه لم يجده شيئا ، وهو أصدق تمثيل لحال الكافر مع أعماله التي يرجو منها النفع فلا يجده عند الحاجة إليه . أما التمثيل الثاني فهو أعجب وأبدع وأبلغ ، وهو تصوير امتاز به القرآن ، واستحدثه ، لأنه طرز غير معهود في أساليب العرب وتشبيهاتهم ، على خلاف الضربين الأولين فإنهما معهودان ، وجرى بهما العرف الكلامي في لغة العرب . لكن التمثيل بالظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، لم يألفه العرب ، ولا هو مما تساعد عليه يبتهم ، وفي قوله جل شأنه « ظلمات بعضها فوق بعض » بيان للمقصود من التمثيل ، مع أن التمثيل أفاده للدلالة على أن حالة الكافر مهما عمل من البر والخير مغلقة الأبواب على نور الرحمة الإلهية تغليقا لا يجعل له طريقا إلى خيط من الكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين . وقد أكد هذا أبلغ تأكيد بقوله: « إذا أخرج يده لم يكد يراها » . ثم ختم الآية بما يلائم التشبيهين ويرد الأمر إلى جلال الله وهدايته ، طمأنة للمؤمنين وتبكيته للكافرين .

أما مقام القرآن من منشور الكلام فهو في الذروة لا يطاوله كلام ، ولا يجاريه

أسلوب ، بلاغة باهرة ، وفصاحة بارعة ، وقول فصل ، وآيات إعجاز ، في حلاوة وطلاوة وجزالة ونصاعة ، وبيان فائق ، وتعبير رائع . بيد أن العلماء اختلفوا في وصف أسلوب القرآن : هل يصفونه بأوصاف كلام البشر ويبين عنه بالإعجاز مع الاتفاق في أصل النوعية ، أو يخرجونه عن نوع كلام الناس بته ، فيكون نوعا من الكلام مستقلا ؟ ذهب المتكلمون الى أنه خارج عن أسلوب كلام العرب ، فلا يقال له مرسل ، ولا مسجوع ، وشددوا في نفي السجع ، وأقاموا على هذا النفي أدلة على نهجهم وطريقهم ، فقال القاضي أبو بكر الباقلاني : « لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقس بذلك إعجاز ولأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع »

وذهب الى هذا المذهب العلامة ابن خلدون فقال في المقدمة : « وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ، ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » وقال : « قد فصلنا الآيات » ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزام فيها ما يلتزمه السجع .

وذهب جماعة من علماء البلاغة والأدب الى أن أسلوب القرآن وإن سما الى ذروة الإعجاز لكنه لا يخرج عن جنس منثور الكلام ، قال ابن الأثير في « اللؤلؤ السائر » : لو كان السجع مذموماً لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر . وقال أبو هلال العسكري في « الصناعتين » : ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج ،

ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أواسط الآيات، فضلا عما تزوج في الفواصل منه . والذي يترجح عند البحث من هذين المذهبين إنما هو مذهب الأدباء . والبيان بالإيجاز كما تسمع :

لم يقل أحد إن القرآن كله سجع ، ووجود السجع في بعض سورته لا يجعله داخلا في أساليب كلام البشر دخولا يستوى به معها ، ومن الذي يستطيع أن يزعم أن أسلوب السجع كله واحد في بلاغته ؟ أفلا يجوز أن يوجد من كلام الناس كلام مسجوع يتفاوت فيما بينه في البلاغة تفاوتاً عظيماً ؟ ولم لا يكون في أسلوب القرآن سجع يسمو على طوق البشر مع كونه أشبه في ظاهر نسجه بكلامهم ، ويكون ذلك أبلى في الإعجاز ؟

أما أن السجع من الكلام يتبع فيه المعنى اللفظ ، فليس هذا الإلزام لازماً ، لأنه قد يصح في أسجاع الصنعة والتكافؤ ولا ينطبق على السجع المطبوع ، لأنه يجري على سنن الكلام المطلق ، فيقع فيه اللفظ تابعا للمعنى . قال ابن الأثير « في المثل السائر » : فإذا صنى الكلام المسجوع من الغنائية والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ . ولست أدري كيف ساغ هذا الإلزام في كلام القادر الحكيم ؟

وخلاصة الرأي أن القرآن الحكيم من جنس منشور الكلام في لفظه وعباراته ، ولكنه مبين لكلام الخلق في نظمه وأسلوبه ، فهو من المنشور الجامع لأرقى فنونه ، وأبلغ أنواعه ، ففيه سجع يقتضيه المقام وترسل يبلغ غاية المرام ، وهو في كليهما معجز خارج عن طوق البشر .

صادق إبراهيم عربزاده

فتوى المرحوم الشيخ بخيت في تشريح الميت

اطلعت على فتوى الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى ، في تشريح الميت في العدد السابع من مجلة الأزهر الفراء . ولما كان التشريح قد توسع فيه الأطباء المصريون توسعا غير معقول ، ولم يراعوا أن حرمة المؤمن ميتا حرمته حيا ، فنطلب من الأستاذ الجليل الشيخ الدجوى أن يتكرم علينا بالإفاضة في الموضوع ثانيا حتى تطمئن القلوب ، ويعلم الأطباء جميعا أن التشريح أمر خطير لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة القصوى ، والحاجة الملحة . وحبذا لو سأل الأطباء الذين يخافون الله عن تحديد مواضع الضرورة التي يتوقف عليها تقدم الطب ، وعمّا إذا كان يمكن الاستغناء بتشريح بعض الحيوانات المقاربة للإنسان في الخلقة عن تشريح الإنسان نفسه . وإنا لا ندرى ما يفعله الأوربيون في بلادهم : هل يكثر التشريح عندهم كثرته عندنا ، مع ملاحظة أنهم أبرع من المصريين في فن الطب ؟ وهل يستهينون بحرمة الميت استهانتنا بحرمة أمواتنا ؟ وهل الضرورات التي تلجئهم الى تشريح الميت مثل الضرورات التي يتعلل بها أطباؤنا ؟

فارجو من مولانا الجليل الشيخ الدجوى أن يبين لنا هذا الموضوع بيانا شافيا ، وأن يفيض فيه بما يشرح الصدور ، ويطمئن القلوب كمادته في جميع فتاواه ، كما نرجو من الأطباء الذين يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أن يبينوا لنا الى أى حد يتوقف تقدم الطب على التشريح .

وإني أرى من الواجب على شرعا أن أسطر للقراء فتوى الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت رحمه الله في شأن تشريح الميت حينما سألته عن حكمه في دين الاسلام . ونسأل الله أن يوفقنا للعمل الصالح ، والقول السديد . محمد عبد الوهاب بحيرى
بكلية الشريعة

نص الفتوى :

وأما حكم التشریح في الاسلام ، فنقول :

إن من ضروريات التشریح فتح بطن الميت ، وقال ابن قدامة في المغنى في حكم فتح بطن الميت في الجزء الثاني صفحة ٤١٣ ما نصه :

« والمرأة إذا ماتت وفي بطنها ولد لا يتحرك فلا يشق بطنها ، ويسطو عليه القوابل فيخرجنه » - قال الشارح :

« معنى يسطو القوابل أن يدخلن أيديهن في فرجها ، فيخرجن الولد من مخرجها ، والمذهب أنه لا يشق بطن الميتة لإخراج ولدها ، مسلمة كانت أو ذمية ، وتخرجها القوابل إن علمت حياته بحركة ، وإن لم يوجد نساء لم يسط الرجال عليه ، وترك أمه حتى يتيقن موته ، ثم تدفن . ومذهب مالك وإسحاق قريب من هذا .

ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا ، وهو مذهب الشافعي لأنه إتلاف جزء من الميت لا بقاء حي ، فجاز كما لو خرج بعضه حيا ، ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ، ولأنه يشق لإخراج المال منه فلا بقاء الحي أولى .

ولنا أن هذا الولد لا يعيش عادة ولا يتحقق أنه يحيا ، فلا يجوز هتك حرمة متيقنة لأمر موهوم ، وقد قال عليه السلام : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحي » رواه أبو داود ، وفيه مثله وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة »
ثم قال :

« وإن بلع الميت مالا لم يخل من أن يكون له أو لغيره ، فإن كان له لم يشق بطنه لأنه استهلكه في حياته . ويحتمل أنه إن كان يسيرا ترك ، وإن كثرت قيمته شق بطنه وأخرج ، لأن فيه حفظ المال عن الضياع ، ونفع الورثة الذين تعلق حقهم بماله بمرضه . وإن كان المال لغيره ابتلعه بإذنه فهو كما له لأن صاحبه أذن في إتلافه . وإن بلعه غصبا ففیه وجهان : أحدهما : لا يشق بطنه ، ويغرم من تركته ، لأنه إذا لم يشق

من أجل الولد المرجو حياته فن أجل المال أولى . والثاني : يشق إن كان كثيرا لأن فيه دفع الضرر عن المالك برد ماله اليه ، وعن الميت بإبراء ذمته ، وعن الورثة بحفظ التركة لهم . ويفارق الجنين من وجهين : أحدهما أنه لا يتحقق حياته ، والثاني أنه ما حصل بجنائته . فعلى هذا الوجه إذا بلى جسده وغلب على الظن ظهور المال وتخلصه من أعضاء الميت ، جاز نبشه وإخراجه .

وقد روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذا قبر أبي رغال وآية ذلك أن معه غصنا من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه » فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن .

ولو كان في أذن الميت حلق أو في إصبعه خاتم أخذ ، فإن صعب أخذه بُرد وأخذ لأن تركه تضييع للمال ، وإن وقع في القبر ماله قيمة نبش وأخرج .

وقال أحمد : إذا نسي الفحار مسحاته في القبر جاز أن ينبش عليها . وقال في الشيء يسقط في القبر مثل الفأس والدرام : ينبش ، قال : إذا كان له قيمة ، يعني ينبش ، قيل فإن أعطاه أولياء الميت ؟ قال : إن أعطوه حقه أي شيء يريد ؟

وقد روى أن المغيرة بن شعبه رضى الله عنه طرح خاتمه في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خاتمي ، ففتح موضع فيه فأخذه ، وكان يقول : أنا أقربكم عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم «

ولأنه قال في المذهب لأبي إسحاق الشيرازي في صفحة ٣٠٠ من الجزء الخامس : « وإن وقع في القبر مال لا أدى فطالب به صاحبه ، نبش القبر ، لما روى أن المغيرة بن شعبه رضى الله عنه طرح خاتمه في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خاتمي ، ففتح موضع فيه فأخذه ، وكان يقول : أنا أقربكم عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأنه يمكن رد المال الى صاحبه من غير ضرر ، فوجب رده عليه . وإن بلغ الميت جوهرة لغيره وطالب بها صاحبها ، شق جوفه وردت الجوهرة . وإن كانت الجوهرة له ففيه وجهان :

أحدهما : يشق لأنها صارت للورثة فهي كجوهرة الأجنبي . الثاني : لا يجب لأنه استهلكها في حياته فلم يتعلق بها حق الورثة »

قال شارحه النووى فى المجموع :

« أما إذا بلع جوهرة لغيره أو غيرها فطريقان : الصحيح منهما وبه قطع المصنف والأصحاب فى معظم الطرق أنه إذا كان طلبها صاحبها شق جوفه ورددت الى صاحبها . والطريق الثانى : فيه وجهان ممن حكاه المتولى والبعوى والشائى أصحهما هذا . والثانى : لا يشق بل يجب قيمتها فى تركته لحديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه أبو داود بإسناد صحيح إلا رجلا واحدا وهو سعد بن سعيد الأنصارى أخو يحيى بن سعيد الأنصارى ، فضمفه أحمد ابن حنبل ، ووثقه الأكثر من وروى له مسلم فى صحيحه ، وهو كاف فى الاحتجاج به ولم يضمفه أبو داود مع قاعدته التى قدمنا بيانها . قالوا ووجه الدلالة من هذا الحديث أن كسر العظم وشق الجوف فى الحياة لا يجوز لاستخراج جوهرة وغيرها ، فكذا بعد الموت . وحكى الرافعى عن أبى المسكرم صاحب العدة « وهو غير صاحب العدة أبى عبد الله الحسين بن على الطبرى الإمام المشهور الذى ينقل عنه صاحب البيان وأطلقه أنا فى هذا الشرح » أنه قال يشق جوفه إلا أن يضمن الورثة قيمته أو مثله فلا يشق فى أصح الوجهين ، وهذا النقل غريب . والمشهور للأصحاب إطلاق الشق من غير تفصيل . أما إذا بلع جوهرة لنفسه فوجهان مشهوران ذكر المصنف دليلهما قل من بين الأصح منهما مع شهرتهما ، فصحح الجرجاني فى الشافى والعبدرى فى الكفاية الشق ، وقطع المحاملى فى المقنع بأنه لا يشق ، وصححه القاضى أبو الطيب فى كتابه المجرى . قال الشيخ أبو حامد فى التعليق : وقول الأول إنها صارت للوارث غلط ، لأنها إنما تصير للوارث إذا كانت موجودة ، فأما المستهلكة فلا ، وهذه مستهلكة . وأجاب الأول عن هذا بأنها لو كانت مستهلكة لما شق جوفه بجوهرة الأجنبي . وحيث قلنا يشق جوفه وتخرج ،

فلودفن قبل الشق نبش لذلك . هذا تفصيل مذهبنا . وقال أبو حنيفة وسحنون المالكي : يشق مطلقا . وقال أحمد وابن حبيب المالكي : لا يشق » .

من هذا يعلم أن الميت في احترامه ووجوب عدم إهاتته كالحي سواء بسواء ، فإذا مات لا تجوز إهاتته بعد موته كما لا تجوز إهاتته في حياته وإن اختلف العلماء في الشق وعدمه في مواضع ، لكن الذي يؤخذ من كلامهم جميعا وجوب احترام الإنسان ميتا كوجوب احترامه حيا . وبناء على ذلك فلا يجوز شق بطن أى ميت كان إلا في المواد المتقدمة . وأن التشریح الذى من لوازمه شق البطن بلا سبب سوى بحث الأعضاء ومعرفة وظائفها وما بها من الأمراض فهذا لا يسوغ ولا يجوز فتح بطن الإنسان بعد موته ويمكن الوقوف على وظائف الأعضاء بواسطة فتح بطن حيوان آخر غير الإنسان ، لأن كل الحيوانات متساوية في وظائف الأعضاء الحيوانية .

والأصل في ذلك كله ما جاء في الحديث الصحيح ، قال في سنن أبي داود قال حدثنا القعنبى حدثنا عبد العزيز بن محمد عن سعد يعنى ابن سعيد عن عمرة بن عبد الرحمن عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كسر عظم الميت ككسره حيا » قال في عون المعبود في ص ٣٠٤ من الجزء الثالث : « قال السيوطى في بيان سبب الحديث : عن جابر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس النبي صلى الله عليه وسلم على شفير القبر وجلسنا معه فأخرج الحفار عظما - ساق أو عضد - فذهب ليكسره فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تكسرها فإن كسرك إياه ميتا ككسرك إياه حيا ولكن دسه في جانب القبر » قال في فتح الودود ككسره حيا يعنى في الإثم كما في رواية . قال : الطيبي : إشارة الى أنه لا يهان ميتا كما لا يهان حيا . قال ابن الملك : والى أن الميت يتألم . قال ابن حجر : ومن لوازمه أن يستلذ بما يستلذ به الحى اه وقد أخرج بن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : « أذى المؤمن في موته كأذاه في حياته . قال في المرقاة وقال المنذرى والحديث أخرجه ابن ماجه » .

وقال في التعليق المحمود شرحا على هذا الحديث في صفحة ٣٥٨ من الجزء الثانى

مثل ما ذكره بعون المعبود . وفيما قاله ابن الملك وابن حجر نظر ، لأن الميت بالموت يفقد الإحساس بالمرة فلا يمكن أن يتألم بحال أو يلتذ بحال بالألم واللذة المعروفين في الحياة الدنيا ، ولذلك اقتصر صاحب فتح الودود على قوله « في الاثم » واقتصر الطيبي على التسوية في عدم الإهانة .

وقال في الهداية في صفحة ٩٩ من الجزء الرابع : « ومن قال لا آخر إن ضربتك فمبدي حر فمات فضربه فهو على الحياة ، لأن الضرب اسم لفعل مؤلم يتصل بالبدن والإيلام لا يتحقق في الميت ، ومن يعذب في القبر توضع فيه الحياة في قول العامة » قال ابن الهمام عليه : « ومن قال إن ضربتك فمبدي حر فهو على الحياة حتى إذا مات فضربه لا يمحنت ، لأن الضرب اسم لفعل مؤلم يتصل بالبدن . أو استعمال آلة التأديب في محل قابل للتأديب والإيلام والأدب لا يتحقق في الميت لأنه لا يحس » وقال في موضع آخر بعد ذلك : « وإلا فلا يتصور من عاقل القول بالعذاب مع عدم الإحساس » وقال مثله في المعنى في الكنز وفي الدر أيضا .

ومن ذلك يعلم أن قول ابن الملك إنه يتألم ، يجب تأويله بأنه يتألم لو كان حيا ويسكون إشارة الى أن إهانة الميت إنما تكون بما يهان به حيا ، فما يؤلمه حيا يمنع فعله به ميتا . ومن هذا يعلم أن التشریح الذي من لوازمه فتح البطن كما قلنا لا يجوز . نعم فتح البطن لأجل العلاج الطبي يجوز لأنه للمحافظة على الحياة فلا إهانة فيه . والله الموفق ؟

مفتي الديار المصرية سابقا

إمضاء : محمد نجيب المطيعي الحنفي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين

أقول : هذا هو نص الفتوى التي جاءني منه رحمه الله ، وهي موجودة عندي لمن أراد الاطلاع عليها ، ومضمونها أن التشریح لا يجوز ، فإذا يقول أستاذنا الجليل الشيخ يوسف الدجوى في هذه الفتوى مع بيان وجهة نظره ؟

وقد رأيت من النصيحة أن أبين لأخواني القراء بعض اصطلاحات فقهاء الشافعية

حتى يفهموا المراد من عبارة الإمام النووى التى نقلها عنه مفتينا رحمه الله وبيان درجة حديث المغيرة :

قال الامام النووى فى المجموع ص ٣٠٠ من الجزء الخامس : « حديث المغيرة ضعيف غريب . قال الحاكم أبو أحمد ، وهو شيخ الحاكم أبو عبد الله : لا يصح هذا الحديث » اهـ

وقال فى مقدمة المجموع ص ٦٥ ، ٦٦ ماملخصه « فصل فى بيان القولين والوجهين والطريقتين » فالأقوال « للشافعى ، و « الأوجه » لأصحابه المنتسبين الى مذهبه يخرجونها على أصوله ويستنبطونها من قواعده . و « الطرق » اختلاف الأصحاب فى حكاية المذهب . وبهذا يتبين معنى قول الشافعية : فى المسألة قولان أو وجهان ، أو جزم به الأصحاب فى كل طرفهم ، أولا يجوز قولاً واحداً أو وجهاً واحداً ، أو فى المسألة طريقتان الخ . أسأل الله أن يهيننا من خشيته ما به نعرف حرمة المسلمين أمواتاً وأحياء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد عبد الوهاب بحيرى

السُّودى

قيل لقيس بن عاصم : بم سودك قومك ؟ قال : بكف الأذى ، وبذل الندى ، ونصر المولى . وقال رجل للأحنف بن قيس : بم سودك قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً ، ولا أصبهم وجهاً ، ولا أحسنهم خلقاً ؟

قال له الأحنف : بخلاف ما فيك يا ابن أخى .

قال الرجل : وما ذاك ؟

قال الأحنف : بتركى من أمرك ما لا يعينى ، كما عناك من أمرى ما لا يعينك .

وقال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لرجل : من سيد قومك ؟ قال أنا . قال الفاروق : كذبت لو كنت كذلك لم تقله .

وسال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين روح بن زنباع عن مالك بن مسمع . فقال :

لو غضب مالك ، لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحد منهم لم غضبت .

فقال عبد الملك : هذا والله هو السُّودى .

الاسلام و الطب

إننا منذ عدة أشهر نوالى نشر مقالات إسلامية طبية وعلمية لحضرة الطبيب النطاسى الكبير الدكتور عبد العزيز بك اسماعيل ، وقد أرسل لنا مقدمة لها بعد نشر ما سبق نشره منها ، فرأينا أن نثبتها فى المجلة لبيان مراميه من هذه المقالات القيمة ، ثم نعود الى نشر ما بقى منها .

مقدمة :

أنزل الله القرآن الكريم هدى للناس فى أمور دنياهم وأخراهم ، وقد جعل معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن إعجازه فصاحته التى اعترف بها العرب وهم أعلى الأمم كمبا فى البيان . أما المتأخرون أمثالنا فأكثرهم لا يقدر الفصاحة حق تقديرها لعدم تبهرهم فيها ، ولذا كان من الضروري إظهار إعجاز القرآن من نواح أخرى . فالقرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه يشير أحيانا الى سنن طبيعية ترجع الى هذه العلوم . وبما أنه صادر من واضع السنن كلها ، كان جميع ما جاء فيه حقا لاشية فيه ، وإن لم يكن ذلك مدركا وقت نزوله إلا على طريق الإجمال أو التأويل ، لعدم استبحار العلوم إذ ذاك . ولكن مع الترقى فى العلوم قل ما كان يعتمد الى تأويله ، وكثير ما وجب أخذه على ظاهره فى ذلك العهد .

فقوله تعالى : « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » : هذه الآية لا يمكن أن يكون العرب الأولون قد فهموها إلا من طريق التأويل المؤدى الى معنى خضوع كل شئ لعظمة الله حتى الجماد ، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع فى ذرات كل شئ ، لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر . وقوله تعالى : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » : شبه الحيوان المنوى بالعلق مع أنه لا يرى

إلا بالميكروسكوب، والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعدها بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب .

كل هذه الآيات الكريمة وكثير مثلها لا يفهم شيء من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة . ومن يفعل ذلك يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من فصاحته، لأنه عالم بيمض العلوم وجاهل بالفصاحة .

وهكذا يؤمن بالقرآن من لم يؤمن به، ويزداد إيمان المؤمنين .

ويجب أن أنبه إلى نقطة هامة، وهي أن العلوم مهما تقدمت فهي عرضة للزلل، فينبغي أن لا يطبق على الآيات الكريمة إلا ما يكون قد ثبت ثبوتاً قطعياً ولم يقبل الشك . فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل، وهذه لا يجوز تطبيقها على الآيات حتى ولو اتفقت مع ظاهرها، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها . فرقم 5×10^25 لا يمكن أن يكون غير ذلك مهما تقدمت العلوم، وكذلك كثير من نظريات الطبيعة والهندسة، وقليل من الطب . أما النظريات الكثيرة مثل نظرية الذرات والجاذبية والنسبية ومذهب دارون وأغلب نظريات الفلك، فلم تتمتع بطور النظريات، وقد تتغير وتبديل .

وكما يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي « يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كي تفسرها ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » .

إن العالم كثير الاغترار بعلمه، فإذا لم يتفق ظاهر الآية وما يعرفه من النظريات ركن إلى علمه وشك في الآية أو أولها، مع أن كل علوم العصر الحاضر لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لحقائق الأشياء . فقد انتفع الإنسان بالكهرباء والحرارة والضوء، ولكنه لا يعرف شيئاً عن حقائقها، فهو يعرف كثيراً عن سنها، ويزداد معرفة بها بتقدم العلوم، ولكنه لا يعرف عن كنهها أكثر مما يعرف عن الروح والحياة ونظام الكون .

فكل آية كريمة لا تتفق ونظريات العلوم يجب أن تترك حتى تتقدم هذه العلوم .
خفاق آدم من طين مثلاً لا يتفق ومذاهب دارون وغيره ، ولكن الأخيرة قائمة
على نظريات ، وهي كما قدمنا عرضة للتغيير ، ولم أعر للآن على آية واحدة لا تتفق وأية
حقيقة علمية .

ولمعرفة مقدار الخطأ والبعد عن الحقيقة الذى تتعرض له النظريات ، أضرب مثلاً
بسيطاً لذلك :

إذا جلس شخص عاش منذ مائة سنة لا يعرف شيئاً عن الراديو أو التليفون
فى غرفة فيها آلة تليفون متصلة بمحطة إذاعة للراديو ، وبالعرفة المجاورة آلة راديو ، حتى
إذا تكلم الشخص سمع صوتاً يجيبه فى الغرفة المجاورة ، فلا شك أنه يجزم بأن هناك
إنساناً عاقلاً يتكلم ، وقد يجهد عقله ويعمل فى ذلك تجارب كثيرة . وبما أن ذلك المتكلم
يجيبه على كل سؤال يوجهه إليه فلا يبقى فى ذهنه أى شك فى أن الغرفة المجاورة فيها
إنسان . ومصدر الخطأ أن الوسيلة للتأكد من وجود إنسان فى الغرفة المجاورة ليس
فقط حاسة السمع ، ولكن النظر واللمس أيضاً . وبما أن كل التجارب التى قام بها الشخص
توجب عليه اعتقاد وجود شخص بالغرفة على حسب معلوماته القاصرة ، فالنظرية التى بنى
عليها ذلك الحكم بعيدة عن الحقيقة إلا اتصال الغرفة بإنسان ، مع أن الفرق بين وجود
إنسان بالغرفة المجاورة وبين شئ متصل بإنسان ربما كان فى لندن ، فرق كبير جداً .

ولا يمكن اتقاء مثل هذا الخطأ ، لأن الشخص لا يعرف واسطة اتصال مثل
التليفون والراديو قبل وجودهما . كذلك أغلب نظريات علم الفلك وغيره ، فقد تقدم علم
الفلك حتى صدقت تنبؤات العلماء بعد مئات السنين وبدقة مذهشة ؛ وقد أقاموا على
تجاربههم نظريات ؛ وكلما اجتهدوا فى التجارب جاءت النتيجة محقة لما كانوا يتوقعونه
فى أكثر الحالات . ولكن كما أن الشخص الذى كان يحاول معرفة مصدر الصوت
كانت تجاربه تأتى صادقة كما لو كان هناك إنسان فى الغرفة المجاورة ، كذلك كانت

تجارب العلماء في كثير من النظريات تأتي مصدقة لما كانوا يتصورون . وقد تكون خطأ في أساسها ، ولكن فيها اتصال بعيد بالحقيقة بمد الشخص الموجود في لندن عن الغرفة المجاورة .

وبالاختصار فالطريقة الوحيدة للتثبت من وجود شيء ، ليست هي الاستنتاج العقلي ، ولكن استعمال كل الحواس المجردة وغير المجردة . ومع ذلك فلا تكون النظريات عرضة للزلل ، لأن مدارك الإنسان محدودة ، وهو لا يتصور ما غاب عنه .

يتضح مما سبق أن هناك آيات كثيرة لم تتقدم العلوم لتفسيرها للآن ، ولم أحاول أنا ذلك ، فقله تعالى : « فانظروا كيف بدأ الخلق » لم تتقدم العلوم لمعرفة تفصيلات معانيها . وقد حاولت أن أفسر بعض الآيات المتعلقة بعلم النفس أيضا ، لأن ذلك من اختصاص الطبيب ، وكل ما أرجوه أن يقتدى بي إخواني الاختصاصيون في العلوم الأخرى ، على شرط أن يلاحظوا القواعد التي أسلفتها ، وأن لا يفسروا من الآيات إلا ما يتفق والحقائق الثابتة .

بالمناقشة مع إخواني وجدت أن هناك سؤالين يجب الإجابة عليهما قبل البدء بالتفسير لعلاقتها المباشرة به :

(أولهما) ما الغرض من خلق هذا الكون ، وما حكمة وجودنا ؟ إن طبيعة عقل الانسان أن يسأل عن حكمة وجود كل شيء ، ولا يستثنى من ذلك الكون كله ، مع أن مادة العقل التي يريد بها أن يكشف الكون هي جزء من هذا الكون نفسه وتلعب دورا فيه ، واللاعب لا يمكنه أن يمثل دور المتفرج .

ولنضرب مثلا : شخص من أواسط أفريقيا حضر ليمثل دورا بسيطا جدا في رواية ذات فصول عديدة في لندره ، وهو لا يعرف شيئا عن اللغة ولا عن الرواية ، ولكنه يمثل دوره المطلوب منه ، فإن كان ذكيا فقد يفهم معنى الأشياء المادية التي تشترك معه في دوره ، فيعلم معنى صور الجبال والأودية والحيوانات الخ ، ولكنه من المستحيل

أن يفهم معنى الرواية ، لأنه يمثل دورا لا يمد شيئا مذكورا فيها ، وهو جاهل باللغة التي كتبت بها ، وغائب عن المسرح أغلب الوقت . كذلك الانسان مهما ارتقى عقله فقد يعرف كثيرا من السنن الطبيعية المتعلقة بالمادة ، ويعرف أشياء عن الكواكب الخ ، ولكنه لا يعرف لغة هذا الكون وسننه غير المادية ؛ ولذا لا يمكنه أن يفهم شيئا عن الوجود الذي هو جزء صغير منه ، ومدة حياته لا تبلغ جزءا من مئات الملايين من عمر الكون . وكل ما يمكن الانسان أن يظفر به هو أن يعرف المهمة التي يقوم بها فيه ، وأن يتقنها . وهذه المهمة قد علمها الله لنا بقوله : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون »

وأما حكمة وجود الكون وعظمته فلم نعط الحواس اللازمة لمعرفة . وما أسعد الشخص الذي يؤدي ما ندب اليه ؛ ولعمري إن ذلك يستغرق كل قواه العقلية والمادية ، ولا يترك له أى بقية يشتغل بها فى أشياء أخرى « كل ميسر لما خلق له » « وخلق كل شئ فقدره تقديرا » ويقول الطبيعيون : « الطبيعة لا تسرف » .

(ثانيهما) ما معنى القضاء والقدر مع أن اختيارنا ظاهر ، وما معنى مجازاتنا على ما نفعله إذا كان هناك قضاء وقدر ؟

إن علماء الطب يمكنهم أن يعرفوا سير الأمراض ومدتها الخ بمعرفة بعض السنن الطبيعية ، فإن أخطأوا فلنقص في علمهم . كذلك المهندس عندما يشيد جسرا يعرف مقدار السنين التي يمكنها إذا عرف مقدار الضغط عليه يوميا والعوامل الطبيعية الأخرى .

فالمبدع الأول خلق الانسان من طين ، وعلم ما يدخل فى تركيبه ، وسن له سنة التناسل ، وخلق له الأحوال المحيطة به ، ووضع لها سننا ، وقدر تأثيرها عليه ، وهل أفعال الانسان فى الحقيقة إلا خضوع منه لهذه الأحوال والسنن وإن توهم أن له اختيارا فيها ؟ فإذا أتى البرد وكان عنده ملابس ثقيلة فإنه يلبسها ، هذا العمل ظاهره الاختيار ، ولكنه

عمل مضطر عليه عند ذى العقل السليم أوجبه البرد . ولنضرب مثلاً آخر : تاجر مضطر لبيع بضاعته وتعرض عليه قيمتان لها ١٠٠ قرش و ١٥٠ قرشاً ، فلا شك أنه يبيع بأكثر القيمتين ويعد عمله اختيارياً . ولكنه في الحقيقة اضطرارى ومطابق لسنن لا تتبدل ، وإن لم يفعل ذلك عد مجنوناً . وقد تتعقد أفعال الانسان ويضطر أن يفكر كثيراً قبل الإقدام عليها ويعد عمله هذا اختيارياً ، ولكنه مبنى على سنن مقررة ، ونتيجة لكل اختياراته الماضية ، وتركيب مخه والأحوال المحيطة به ، ولوعلم شخص تفاصيل الأمور لا خبر بما سيستقر عليه الرأى فى كل منها ، كما يعلم الكيماوى نتيجة التفاعل بين مادتين إذا علم تركيبهما .

هذا ما أجمع عليه علماء النفس . وخالق الوجود والسنن كلها عالم بكل ما سيحصل للكائنات فى مستقبل حياتها .

فالعلاقة الصغيرة (النطفة) التى يقل قطرها عن عُشر المليمتر الواحد ، تمثل ملايين الصفات . وعلاقة القرد مثلاً والانسان لا يختلفان ظاهراً فى الشكل مع أن كلا منهما تمثل كل الصفات التى تميز الواحد عن الآخر ، وهذه لاحدهما . كذلك لا تختلف علاقة شخص عن شخص آخر ، مع أن الزمن والتغذية كفيلاً أن يثرا عليهما أن يصيرا شخصين مختلفين تماماً ، وذلك طبقاً لسنن ثابتة لا حصر لها . فالفرق المتنوعة التى تملأ مجلدات قد اختزلت فى حجم النطفة .

فإنه جلت قدرته وقت بدء الخلق علم كل ما سيحدث للانسان وغيره من الكائنات . ومستقبل الكون مقدّر منذ بدء الخلق ، ولكننا على مقتضى عقولنا نفرق بين الحاضر والمستقبل . ولكن الله وقت خلق النطفة خلق الانسان الكامل ، ولكننا لضعف إدراكنا لا نعرف ذلك ، فنقف عند الحاضر ، ولكن البدع الحكيم يعرف مستقبله كله جملة وتفصيلاً . والانسان فى ضعفه وقصر نظره كالتفرج على (السينما) يرى النظر الحاضر ويعدده حاضراً ، مع أن المناظر المستقبلية موجودة ومعلومة لصاحب السينما ،

ولكنها غيب بالنسبة للمتفرجين . فالخالق ، وله المثل الأعلى ، عند ما بدأ الخلق قدّر كل ما سيحدث فيه ، وهذه التقادير تتولى إبرازها السنن التي سلطها الله عليه منذ وجوده . وهذا معنى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » هذا هو معنى القضاء والقدر ، ولا معنى له غير ذلك .

قد يقال : وما الفائدة من عقولنا وتفكيرنا أمام هذا القضاء والقدر ؟
الجواب : أن تفكيرنا هو هذا الجزء الاختياري الذي ميز الله الانسان به عن سائر المخلوقات وجعله أساسا للجزاء ، وقد يكون هو المقصود من الآية الكريمة « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » والله أعلم . ولكن هذا التفكير لا تأثير له في سير القضاء والقدر . فالإنسان حر في أن يفكر كما يشاء ، ولكن لا يمكنه أن يأتي أفعالا لم تقدّر عليه « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

والسؤال الثاني وهو « لم نجازي على ما قدر لنا » ؟

الجواب أننا نجازي على ما يقع عليه اختيارنا ، سواء أتم أم لم يتم . وسأضرب لذلك ثلاثة أمثلة :

(أولها) شخص يريد القتل ويفكر فيه ويتربص الفرص لتنفيذه ، حتى إذا سحقت له ارتكب الجريمة . فهذا لاشك مجرم بتفكيره أي يجزئه الاختياري ، وقد أنفذ جريمته لأن القدر وافق ما عزم عليه .

(ثانيها) شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، ولكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة أضاع معها رشده فارتكب جريمة القتل ، فلما ناب اليه رشده ندم على فعلته ، فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولكنه لم يقتل بضميره ، فقد ثبت طبيا الآن أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات في بعض

الغدد الصماء تؤثر على الضغط الدموى وعلى المخ، وقد تحدث تشنجا عصبيا أو شللا وقتيا في قوة الإدراك (غيوبة)، يأتي الشخص في أثنائها من الأفعال ما يستنكره في حالته العادية. والخالق يعلم حالته، ويعلم أنه قتل لأن القتل كتب عليه ولا مفر له من ذلك، ولكنه لم يقتل بضميره.

و (ثالثها) شخص عاص لربه ينتهز الفرصة للقتل، ولكن الفرصة لا تسنح له، فهو مجرم بضميره ولو أنه لم يقتل ظاهرا. والحقيقة أنه لم يقتل لأن القتل لم يقدر عليه. ومن لم يقدر عليه القتل فلا يمكن أن يقتل مهما حاول ذلك. والله يعاقبه بما يشاء على نيته «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء». فقد يغفر لصاحب الذنب الواقع ويعذب من لا ذنب له في الظاهر، والله يعلم ما يحول بين المرء وقلبه «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا». وإذا أيقنا أن عجلة القضاء تسير سيرها رغم إرادتنا، اطمانت قلوبنا وعلمنا السر في أن المتقين قد يصابون كما يصاب غير المتقين. ولكن الفرق أن تفكيرهم وصبرهم يحول مصائبهم الى نعم في نظرهم «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» (أى امتحانا) «ونبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين».

الخلاصة: أن الخالق الذي يقول: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» والذي يعلم السر في السموات والأرض، لا يظلم أحدا. فلتطمئن قلوبنا، ولنثق بعهده، ولنكتف بأن نستعين بإحدى السنن غير المادية وهي الدعاء، تالين قوله تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»

وبعد: فإنني في هذا المقام أعترف بفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكرم الشيخ المراغى، لأنه أول من شجعتني على نشر هذه المقالات، وكان يستمر في التشجيع كلما ظهر شيء منها، ويمدني بأفكاره القيمة التي كنت أقدرها كما يقدرها الناس كافة كل التقدير، وكذلك أشكر صاحب المزة الأستاذ فريد بك وجدى لتشجيعه وتصحيحه الكتابات والآيات، ولأنه معروف للكل أنه خلق للعلم وحده، ونعم عمل العاملين؟

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْاوَى

الرضاع

ورد الى إدارة المجلة من لجنة الفتوى بالجامع الأزهر هذه الفتاوى :

ما قولكم فى بنت رضعت مع ولد صغير من أم الولد مرة أو اثنتين أو ثلاثا على الأكر. فهل يجوز لأخيه الأكبر أن يتزوجها ؟ أرجو إفادتي بالجواز على أى مذهب مع تبين وجه كل مذهب من المذاهب الأربعة . حسن سليمان حسن

الجواب

إذا كان الرضاع فى مدته الشرعية فذهب الحنفية والمالكية أنه لا يجوز لهذا الأخ الأكبر أن يتزوج تلك البنت إذا كانت أم الولد الصغير أماله ، أو كانت امرأة أبيه صاحب اللبن ، لأنها أخته من الرضاع قل الرضاع أو أكثر ، أخذا بالإطلاق فى قوله تعالى : « وأخوانكم من الرضاعة »

ومذهب الشافعية والحنابلة أنه يجوز لهذا الأخ الأكبر أن يتزوج تلك البنت لأنها ليست أخته من الرضاع ، فان التحريم بالرضاع لا يكون إلا بخمس رضعات متفرقات أخذا بالأحاديث التى قيدوا بها الإطلاق فى قوله تعالى : « وأخوانكم من الرضاعة » والله أعلم

صبي غابت عنه أمه ليلا ، فأعطته امرأة أخرى ثديها ، فوضع ونام ، وفى الصباح أعطته ثديها مرة أخرى فأبى الرضاع ، فهل تعد هذه المرأة أمه من الرضاع ، وتحرم عليه ابنتها التى رضعت قبله بثلاث سنوات ؟ محمد عبد الحميد السلاوى

الجواب

الرضعة الواحدة في مدة الرضاع الشرعية تحرم عند الحنفية والمالكية ، لإطلاق قوله تعالى : « وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة » . ولا يحرم عند الشافعية والحنابلة إلا خمس رضعات متفرقات ، وذلك للأحاديث التي قيدوا بها الإطلاق المذكور .

فعند الحنفية والمالكية تكون هذه المرأة المرضع أمًا لهذا الصبي من الرضاع ، وتكون ابنتها أختاله من الرضاع ، وعند الشافعية والحنابلة لا تكون هذه المرأة المرضع أماله من الرضاع ، ولا تكون ابنتها أختاله من الرضاع . والله أعلم ؟

شاب يريد الزواج بشابة ، وكلاهما من أب وأم شرعيين ، ولم يسبق لأم من الأمين أن أرضعتهما ، وليست هناك موانع شرعية من عقد زواجهما ، غير أن للشاب أخا أصغر منه قد رضع من ثدي أم خطيبة الشاب حينما كانت ترضع ابنة أخرى غير المخطوبة ، فهل رضاعة ذلك الأخ تحرم زواج الشاب الأول بالشابة الأولى مع أنهما لم يرضعا من مرضع واحدة ؟

محمود شاروده

الجواب

إن تلك الشابة تحل شرعا لمريد زواجها ، ولا يؤثر في ذلك أن أخاه الأصغر قد رضع من أمها سواء أكان رضاعه منها حينما كانت ترضع ابنة أخرى غير هذه الشابة كما ورد في السؤال أم لم يكن ، لأنها ليست أخت مريد الزواج من الرضاعة ، بل هي أخت أخيه من الرضاعة ، فلم تشملها أدلة التحريم بالرضاع . والله أعلم ؟

رجل يريد التزوج بامرأة رضع أخوها الأكبر معه من امرأة ليست أمها ولا هي أمه ، ثم رضع أخوها الثاني من أم من يريد الزواج بها ، ولم يحصل بينهما من الرضاع خلاف ذلك ، مع العلم بأنها أصغر إخوتها ، وبين أخوها الأولين المذكورين خمسة إخوة ، فهل هناك مانع شرعى من تزوجه بها ؟ عواد ابراهيم رزق

الجواب

يحل لهذا الرجل أن يتزوج تلك المرأة ، إذ لم يكن قد رضع من ندى أمها ولم تكن قد رضعت من ندى أمه ، ولم يسبق لهما رضاع من ندى امرأة واحدة .

ولا يؤثر في حلها له أن يكون أخوها الأكبر أو غير الأكبر قد رضع مع مرید الزواج من ندى أمه أو من ندى امرأة أخرى ، فإنها في هذه الحال ليست أختا لمريد الزواج من الرضاعة ، فلم تشملها أدلة التحريم بالرضاع ، ولا فرق بين أن تكون تلك المرأة أصغر إخوتها - كما جاء في السؤال - وألا تكون . والله أعلم ؟



شخص رضع من امرأة عمه مع ابن عمه من ندى واحد رضعة واحدة ، ويرغب في الزواج بشقيقته التي هي أصغر منه ، ولم يرضع معها ، فهل يجوز زواجه بها على مذهب من مذاهب الاسلام ؟
سليم عبد الوهاب زيتون

الجواب

يجوز للرجل الذي رضع من امرأة عمه رضعة واحدة أن يتزوج بنت عمه المذكورة في السؤال على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، لأن التحريم عنده لا يثبت بالرضعة الواحدة ، وإنما يثبت بخمس رضعات متفرقات في الحولين ، قال رضى الله عنه : « ولا يحرم من الرضاع إلا خمس رضعات متفرقات كلهن في الحولين » وذلك للأحاديث التي أخذ بها . والله أعلم ؟



رجل يريد الزواج ببنت ، مع أن هذا الرجل رضع رضعة واحدة من امرأة متزوجة
والد البنت ، والمرأة التى أرضعته أرضعت أختها لهذه البنت من قبل ، فهل يحل له
الزواج بهذه البنت أو تحرم عليه ؟ والافتاء يكون على مذهب الإمام الشافعى .
حامد ابراهيم السنكرى

الجواب

لا يثبت التحريم بالرضاع فى مذهب الشافعى رضى الله عنه بأقل من خمس رضعات .
قال الشافعى : « ولا يحرم من الرضاع إلا خمس رضعات متفرقات كلهن فى الحولين » .
وله على ذلك أدلة من الحديث ، فلا يحرم على الرجل الذى رضع رضعة واحدة فى الحولين
من امرأة أبى البنت أن يتزوج تلك البنت ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون
والد البنت هو صاحب اللبن الذى رضع منه يريد الزواج وألا يكون هو صاحب اللبن ،
لأنه إن كان هو صاحب اللبن لم يكمل عدد الرضعات المحرم ، وإن لم يكن هو صاحب
اللبن فالبنت أجنبية ، أما أن المرأة أرضعت أخت البنت فلا تأثير لذلك فى حل
تلك البنت ، لأن نصوص التحريم بالرضاع لا تشملها . والله أعلم .



تزوجت ابنة خالتى ، ورزقت منها ولدا ، مع العلم أنها رضعت من والدتى مع أخى
الأصغر منى سنا ، وبينى وبينه أخ آخر أكبر منه سنا وأصغر منى ، كما رضعت أنا
مع أختها الكبرى من والدتى ، وكنت أعتقد قبل الزواج أنها تجوز لى ، وتحرم على
أخى الذى رضعت معه فقط ، كما تحرم على أختها الكبرى ، فهل هذا الزواج جائز ؟

حسين جاسر المهندس

الجواب

يحرم عليك الزواج بابنة خالتك هذه عند الحنفية والمالكية - قل الرضاع أو أكثر لأنها أخت لك من الرضاع ، قال الله تعالى : « وأخوانكم من الرضاعة »
ويوافقهم في ذلك الشافعية والحنابلة إذا كانت ابنة خالتك قد رضعت من أمك
خمس رضعات متفرقات فأكثر ، أما إذا كانت الرضعات أقل من خمس ، فإنها تحل
لأنها ليست أختا لك من الرضاع ، والله أعلم ٥



ابنة خالتي وراضعة على أخى الذى هو أصغر منى وأريد الزواج بها ، فهل تجوز لى
حسب الشرع ؟
أحمد بدوى طنطاوى

الجواب

إن كانت ابنة خالتك قد رضعت من أمك ، كما هو ظاهر السؤال ، فذهب الحنفية
أنها لا تحل لك قل الرضاع أو أكثر ، ويوافقهم فى ذلك المالكية وأحمد فى رواية ، عملاً
بإطلاق قوله تعالى : « وأخوانكم من الرضاعة »
أما الشافعية فلا يرون حرمتها عليك إلا إذا رضعت من أمك خمس رضعات
متفرقات ، ويوافقهم فى ذلك الامام أحمد فى ظاهر المذهب ، عملاً بأحاديث يرون أنها
تقييد للإطلاق المذكور .

وإن كانت ابنة خالتك قد رضعت مع أخيك من الخالة ، فإن زواجهما لا يحرم عليك
لأنها ليست أختا لك من الرضاع . والله أعلم ٥

الصلاة على الميت

توفيت إحدى بناتى ، ومن شدة تأثير وقع المصيبة ، ورغبتي فى مواراة الجثة التراب ، حيث نقلت من بلد الى بلد بعيد ، دفنت ولم تؤد صلاة الجنازة عليها سهوا .
فأقول الشرع فى ذلك ؟

عبد المحسن سليمان
يوزباشى بالجيش بالا ورطة الثانية

الجواب

الصلاة على الميت المسلم فرض كفاية ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «صاوبوا على صاحبكم» فإنه أمر ، والأمر للوجوب ، وترك النبو صلى الله عليه وسلم الصلاة على «صاحبهم» يدل على أنها فرض كفائى . وقد انعقد الاجماع على ذلك . وذكر النووى أن ما حكى عن بعض المالكية من أنها سنة متروكة عليه ، لا يلتفت اليه .

فإذا دفن الميت بلا صلاة عليه ، كما جاء فى السؤال ، لزمت الصلاة عليه كما يأتى بيانه :

فالصحيح عند الحنفية أنه يصلى عليه وهو فى قبره ما لم يغلب على الظن تفسخه . ومذهب المالكية أنه يخرج من قبره ويصلى عليه ما لم يظن تغيره ، فان ظن تغيره صلى عليه وهو فى قبره ما لم يغلب على الظن فناؤه .

والراجح فى مذهب الحنابلة أنه يخرج ويصلى عليه ما لم يخش تفسخه أو تغيره ، فإن تفسخ أو تغير صلى على القبر ، وفى رأى للحنابلة أنه يصلى على قبره مطلقا ، ويحرم إخراجه .

والأصح عند الشافعية أنه يصلى عليه وهو فى قبره ، ولو بلى ، بشرط أن يكون المصلى من أهل فرض الصلاة وقت الدفن .

ومما سبق يعلم أن ترك الصلاة على الميت عمدا بغير عذر حرام ، أما تركها سهوا
كما جأ في السؤال فلا إثم فيه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتي
الخطأ والنسيان ، وما استكروها عليه » ولكن عند التذكر تجب الصلاة كما بينا .
والصلاة على الميت وهو في قبره ، تتأدى عند القبر ، والقبر أمام المصلي الى القبلة .
والله أعلم

نصاب الجمعة

ما قولكم في بلد يريد أهله إقامة صلاة الجمعة ، ولكن فريقا من الأهالي يتكاسلون
عن أداء صلاة الجمعة لشغل أو لغيره ، وجميع أهل البلد على مذهب الامام مالك رضى
الله عنه ، فإذا اجتمع لصلاة الجمعة أقل من العدد المشرع في مذهب الامام مالك ،
وهو اثنا عشر شخصا ، بأن كانوا عشرة أو أقل من ذلك ، والامام الذى سيخطب
الناس حاضر ليؤم الناس ويخطبهم ، فهل ننتظر الى صلاة العصر ، ونصلي الجمعة رجاء
أن يحضر العدد المفروض ، أو نصلي الجمعة بأى عدد ممكن ، أو نترك الجمعة ونصليها
ظهرا ، وماذا يكون العمل ؟
عمر محمد صالح خطاب

الجواب

مذهب المالكية أن الجمعة لا تصح بأقل من اثني عشر رجلا غير الامام ، فليس
لأهل هذا البلد أن يصلوا بأقل من هذا العدد ، وليس لهم أن يصلوا ظهرا ماداموا
راجين تمام العدد ، وإنما ينتظرون ، إلا أن يخافوا دخول وقت العصر ، فإن خافوا دخول
وقت العصر ، صلوا ظهرا أربعا .

ولكن مثل هذا التكاسل قد يؤدي الى ترك الجمعة مع أنها تصح بأربعة أحدهم
الامام عند أبي حنيفة ، وعند أحمد بن حنبل في رواية ، وعند الثوري والليث والأوزاعي
وأبي ثور ، وهو قول للشافعي في القديم ، ورجحه المزني من أصحاب الشافعي ، كما حكاه

عنه الأذرى فى القوت ، ورجحه أيضا ابن المنذر من أئمة الشافعية ، وهذه المسألة ألحقها بعض علماء الشافعية بالمسائل التى صحح فيها النووى القول القديم للشافعى .
فلا أهل هذا البلد أن يعملوا بهذا ، ولا يتركوا إقامة الجمعة . والله أعلم ؟

فى الميراث

بنت توفيت عن أم وجدة لأب ، وأخوين شقيقين ، فما نصيب كل منهم ؟
محمد محمد بهنسى

الجواب

لا شىء للجدّة المذكورة ، لأنها محجوبة بالأُم ، وللأُم السدس ، وللأخوين الشقيقين باقى التركة : لكل منهما الصنف ، والله أعلم ؟

فى البيع

اشتريتُ جلد أحذية بالقدم ، وبعته لصانع الأحذية برغبته ، وعن كل قدم خمسة مليمات مكسبه ، فهل تعد هذه الخمسة المليمات حلالا أو تعد حراما ؟ فإن بعض الناس أخبرنى أن ذلك ربا .
حافظ اسماعيل

الجواب

إن مثل هذا البيع جائز إذا كان المبيع والثمن معلومين . ويدل لجوازه عموم قوله تعالى : « وأحل الله البيع » فالرجح فيه قليلا كان أو كثيرا حلال لا شىء فيه من الربا .
والله أعلم ؟

مصين والى
رئيس لجنة الفتوى

أسرار التشريع الاسلامي وفلسفته

الوقف والهبة

اختلف الفقهاء القائلون بالوقف وصحته على رأيين ، فذهب الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من يجب أن تصرف تلك المنفعة اليه . فالتصدق بالمنفعة يظهر أثره في حالة ما إذا وقف الواقف العين مثلاً من أول الأمر على جهة من جهات البر التي لا تنقطع كالفقراء والمساجد والملاجئ والمدارس والمستشفيات وما الى ذلك مما تتوزع فيه المنفعة حصصاً . وصرف المنفعة يظهر في حالة ما إذا وقف الواقف حصته على غنى أو أغنياء حتى إذا انقرضوا انتهت تلك المنفعة الى جهة بر لا تنقطع ، فإنه يكون والحالة هذه وقفاً قبل انقراض الأغنياء الموقوف عليهم ، ولا يمكن أن يعتبر صدقة كما هو ظاهر . وذهب الصحابان أبو يوسف ومحمد الى أن الوقف معناه : حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، والتصدق بمنفعتها ابتداء وانتهاء أو انتهاء فقط . وتظهر الحالة للأولى جلية واضحة فيما إذا وقف الواقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع . والتصدق انتهاء فقط يظهر فيما إذا وقف الواقف على من يحتمل الانقطاع والفناء واحداً كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ، ثم جعلها من بعدهم لجهة بر لا تنقطع كما لو وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم للفقراء والمساكين ، فاذا آل الى جهة البر الدائمة صار وقفاً خيراً . والقسم الأول يسمى وقفاً أهلياً ، والثاني يسمى وقفاً خيرياً . وتلك التسمية الاصطلاحية تسمية حديثة .

ثم إن حكم الوقف عند أبي حنيفة أنه جائز غير لازم ، وهو بمنزلة العارية ، فيجوز للواقف أن يرجع عنه ويتصرف في الموقوف بالبيع والهبة والرهن وسائر أنواع التصرفات ، فإذا مات يورث عنه ، كما للمعير أن يرجع في عاريته ويتصرف فيها تصرف

المالك فيما يملك ، فإذا مات المير قبل استرداد عاريتة قسمت بين ورثته . فإذا كانت العين الموقوفة باقية على ملك الوقف ولم تخرج عن ملكه بالوقف ، كان للواقف حق التصرف فيها بالبيع وسائر أنواع التصرفات ، فإذا لم يتصرف فيها حال حياته ثم مات كان لورثته قسمتها بينهم بالميراث الشرعى كسائر أملاك المورث . وهذا معنى عدم لزوم الوقف عنده .

أما حكم الوقف عند الصاحبين فعنايه أنه لازم بمجرد تمام أركانه وتحقق شروطه ، فلا يجوز للواقف أن يرجع عنه ، وإذا مات فلا يورث عنه ولا يعتبر من تركته ، لأنه بالوقف الذى أتمه صحيحا حال حياته قد أخرج الموقوف عن ملكه ، فتوزع أنصبتة على الجهات التى عينها الوقف . ثم إن للوقف شروطا أربعة .

(أولها) أن يكون الموقوف مملوكا للواقف متمينا غير مجهول مقطوعا بمحصول فائدة لا تفوت العين عند استيفائها ولا تضيع تلك الفائدة حال استغلالها .

(الثانى) أن يكون الموقوف عليه أهلا للهبة والوصية إن كان شخصا معينا ، وقربة من القرب إن كان جهة عامة كالفقراء والمساكين ، فن لا تصح الهبة منه والوصية له كالجنين مثلا فلا يملك عينا ولا منفعة ، ولأن ما لم يكن قربة كإحدى الجهات العامة التى يتحقق فيها الغرض من الوقف كقطاع الطريق لا يمكن أن تتحقق فيهم مصلحة فى الانتفاع بحبس العين عليهم .

(الثالث) أن تكون صيغته بلفظ صريح ، كوقفت هذه العين ، وشرطت هذه الشروط وحبست تلك الغلة على فلان أو فلانة ، فإن لم يكن صريحا وجب أن يكون مقترنا بالنية الدالة على صراحته ، ومحاطا بقرائن تدل على تعين ما وقف دون لبس وإيهام . (الرابع) أن يكون الوقف مؤبدا منجزا ملتزما . فلو كان غير مؤبد كوقفته عاما أو كان

غير منجز بأن يقول الواقف إن جاء شهر رمضان مثلا وقفت على فقراء كذا ضيعة كذا من ضياعي . أو كان غير ملتزم بأن قال الواقف وقفت كذا من العقار الذى

أملكه محددًا بمحدوده على أنى بالخيار فى الرجوع عنه ، كان ذلك كله بمنأى عن الغرض المقصود من الوقف ، لأن الغرض المقصود من الوقف إنشاء حالة تستتبع عينا ذات غلة ينتفع بها الفقراء ومن فى حكمهم ، وتكون تلك المنفعة مستمرة البقاء .
أما الهبة فأركانها ثلاثة :

(الأول) الصيغة فيما يصح أن تجرى فيه .

(الثانى) صحة بيع الموهوب والتصرف فيه .

(الثالث) قبض الموهوب وإيصاله الى يد الموهوب له تفاديا من شقاق يفضى الى خصومة . فإن مات الواهب قبل إقباض الموهوب له كان لورثته حق الخيار فى الإقباض ، لأن الهبة لم تثبت بفقدان شرط من شرائطها ، ولأن الموهوب لم يصل الى يد الموهوب له .

(رابعها) ألا يسترد الواهب ما وهب ، لأن استرداده ينبىء بشح بعد جود أو أسف على ما كان من خير ، أو إرادة إضرار بمن وهب له ، وكل أولئك من الأخلق الذميمة والدنايا الممقوتة التى ينبغى المؤمن أن ينزه عنها ويصون كرامته من قدرها ، ذلك فضلا عما يغرسه الاسترداد من الضغينة والحقد ، ويشيده من القطيعة والتباغض . فيكون المسترد مضيقا للحكمة التى شرعت لها الهبة حاملا لضدها ، ولهذا أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبح هذه الحالة بإبانة لاختفاء معها إذ قال : « العائد فى هبته كالكتاب يعود فى قيئه ليس لنا مثل السوء » أى لا يليق بالمسلمين ارتكاب هذه الرذيلة .

(خامسها) ألا ينخص والد بعض أولاده بمنفعة ، لأن ذلك يوقع الحقد بينهم .

أما العارية وصورها والفرق بينها وبين الهبة الشرعية وما يتصل بهما من أحكام القانون المدنى ، وأقوال الشراح فيها ، فوعدنا بالكلام عن ذلك كله فى الأعداد التالية ، إن شاء الله .

فى فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

تتحدث الى الفارئ اليوم عن شوق النفس الى فضائلها الصادرة عنها، وكيف أن النفوس تجنح الى فضائلها وتحذب عليها حذب الأمم الرءوم على واحدتها . والفضيلة التى تكون سائر الفضائل لا بد أن تكون مستندة الى عناية الانسان بتحصيل العلوم ثم تحصيل النفس من الطغيان الشهوانى الذى إذا أصاب النفس فى صميمها قتل فيها روح الاستعداد للخير ومحضها للشر . فهذه الفضيلة تقوى وتزايدهم بعمل الانسان ذاته وتوافره على أفضل المثل العليا يتخذها عنوانا على كل ما يصدر عنه من الأفعال . فقد يبدو للانسان لأول وهلة أن ما يقع تحت سلطان المشاعر كالمآكل والمشارب وما اليها من صنوف المتع داخل فى عداد الفضائل ، ولكنه إذا راجع نفسه يتبين أن تلك اللذائذ لا يصح أن تعتبر فضائل ولا تسوغ أن تكون شعارا للانسان الناطق .

فكل موجود من حيوان أو جماد أو نبات، وكذا بسائطها والأجرام العلوية، كل أولئك له قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود الكائن (هو ما هو) و (أى شىء هو) وبها يتميز ذلك الموجود عن كل ما عده . كما أن له قوى وملكات وأفعالا بها يشارك ما عده . والانسان بطبيعة تكوينه هو الذى يلتمس له الخلق المحمود بوصف كونه نفسا مفكرة ناطقة ذات سلطان على الموجودات . وهذا مصداق قوله جل من قائل : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . من أجل ذلك ليس لنا أن ننظر نظرا تحليليا مصحوبا بالتمحيص والتدليل الى تلك القوى وتلك الملكات التى يشارك الانسان فيها سائر الموجودات ما دمنا بصدد الكشف عن الفضائل والخيرات التى يجب أن تكون مميزات للنفس الناطقة ومقومات لها . ولسنا الآن

بصدد بيان شيء منها لأن بحث الأخلاقيين مقصور على بيان القوى والملكات والأفعال للانسان ، فتتناول بحوثهم قوى الانسان وملكاته وأفعاله من حيث صدورها عنه واتصالها به ، ويسمونهم العلوم الإرادية باعتبارها حاصلة بمحض اختيار الانسان وإرادته ، وهي التي بها تتعلق قوة الفكر والتمييز . والنظر فيها وفي مقدماتها ونتائجها وآثارها المترتبة عليها يسمى الفلسفة العلمية ، ويرتبون على تلك النظرية ضرورة انقسام الأفعال الصادرة عنه الى الخيرات والشرور ، وبالتالي الى الفضائل والرذائل . ذلك لأن الغرض المعين من وجود الانسان إذا اتجهت النفوس اليه فخصلته ، هو تركيز الفضائل في تلك النفوس ، والعمل لإتمامها وإذكاء أسبابها وبواعثها ، وهو الذي يسمى الانسان به وعند تحصيله إياه خيراً ، فإذا عاقته عن تحصيل تلك الفضائل العوائق وصرفته عنها الصوارف كان هو الشرير لا محالة ، لاستحالة خلو نفس الانسان من كلا المتقابلين في آن واحد .

وبدهى أن كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل خاص لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء في مشخصاته ومميزاته ، فلا يجوز أن يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك الفعل صلاحية الانسان الذي اجتمعت له تلك الشخصيات وتلك المميزات . وهذا حكم مطرد البقاء في العوالم السفلية والعالية .

فإذا الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص صادر عنه لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزه المقرونة بالروية .

وإذا يكون كل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أمثل كان أوعى لأسباب إنسانيته وأجمع لمقوماتها . وقد يتدلى الانسان بالقياس الى ما يصدر عنه من الأفعال حتى ينحط الى مرتبة ليس دونها مرتبة . وأفضل الناس من كان أقدر على تصريف أفعاله الخاصة به ، وأشد تمسكاً بشرائط الفضائل وحدودها ، وأكبح لجاح نفسه عن الاسترسال في غوايتها والركون الى شهواتها .

ومما لامرية فيه أن الانسان كلما رقى يجوهر نفسه الى الكمالات ، كان أعم إنسانية

وأعود فائدة على هذا المجتمع . والأنبياء والرسل صلوات الله عليهم يدينوا السنن والطرائق لكل ما يصدر عن الانسان من خير أو شر ، فقالوا هذا حلال وهذا حرام وبينهما أمور مشتبهة . وجاء العلماء على أقدامهم فأوضحوا السبيل وأقاموا بين الناس حدودا فاصلة حاسمة . فالانسان بقدر ما يغترف من تلك الفيوضات الالهية يكون مبلغ استحقاقه للاتصاف بوصف الانسانية ، فإذا انحط عن تلك المراتب المرسومة الحدود كان خليقا أن لا يكون إنسانا .

وإذ تبين أن سعادة كل موجود إنما هي بالقياس الى ما يصدر عنه من العلوم الارادية والأفعال الاختيارية التي تميزه عما عداه وترسم حده التام بين ثنايا الخلود التي لا يتناكر فيها الأشخاص ولا يطغى فيها بعض الناس على البعض الآخر ، لا مناص من اعتبار الروية أعلى سببا من الأسباب المكونة لمراتب السعادات كلها . فان لهذه السعادة مراتب كثيرة متفاوتة بحسب الروية والروى فيه وهو الانسان . من أجل ذلك قالوا أفضل الروية ما كان في أفضل مروى ، ثم ينزل رتبة رتبة الى أن ينتهى الى النظر في الأمور الممكنة التي تقع تحت سلطان العالم الحسى ، فيكون الناظر في تلك الأشياء قد مارس رويته وأعمل قريحته ، فحصل على الصورة الخاصة التي بها أمسى سعيدا مستقاهلا للملك الأبدى والنعيم السرمدى . وقد تواضع علماء الأخلاق على أن هناك أجناسا من السعادات والشقاوات . وأن الخيرات والشرور في الأفعال الارادية هي إما باختيار الأفضل والعمل به ، وإما باختيار الأذون والميل اليه .

على أن هذا المجتمع لا يشمر ثمرته المرجوة له إلا بتضافر الأيدي العاملة في بنائه . فاما لبنه في أساسه إلا وهي محتاجة الى يد تحكمها بتدبير وتحيطها بحزم وتنميتها بروية ، فلا يتم بناؤه إلا باجتماع الأيدي وتضافر القوى . من أجل ذلك أوصت الشرائع الناس بالتحاب والتراحم والتواصل لتبقى له حياته وتدوم عليه نعمة الوجود الذي يحبى الناس من ورانه أطيب الثمرات وأبرك الفوائد ؟

الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد

ظهر الجزء الثالث من هذا الكتاب ومعه كتاب بلوغ الاماني من أسرار الفتح الرباني لحضرة الأستاذ الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وهو يظهر على شكل كراسات شهرية . وقد تم طبع ثلاثة أجزاء منه يقع الجزء في نحو ٣٢٠ صفحة في القطع الكبير . وقد نقل الأستاذ مكتبته الى عطفة الرسام رقم ٧ بالقاهرة .

الاسلام في الحبشة

كتاب جليل القيمة في تاريخ الاسلام في الحبشة الفه حضرة الاختصاصي الجليل في الآثار العربية الأستاذ يوسف افندي احمد مفتش تلك الآثار سابقا ومدرس الخط الكوفي الآن في مدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة . هذا الكتاب يعتبر أطروفة في التاريخ الاسلامي لم يفرد موضوعه بالتأليف الى اليوم . فنشكر لحضرة مؤلفه هذه الخدمة العلمية ، تولى الله مكافأته عليها .

تيسير المنفعة

بكتابي : مفتاح كنوز السنة ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لا يزال حضرة الأملعي الفاضل الأستاذ محمد افندي فؤاد عبد الباقي دأباً على تكميل عمله الجليل في ترجمة فهرسات المستشرق فنسنت التي وضعها لأربعة عشر كتاباً من كتب الحديث . فبعد أن ترجم تلك الفهرسات تحت اسم مفتاح كنوز السنة رأى أن يتبعها بفهرسات خاصة بكل كتاب من كتب الحديث . والذي دعاه الى ذلك أن هذه الكتب غير معدودة الكتب والأبواب (ماعدا صحيح البخاري) فاضطر الى تقسيم كل أصل الى كتب ثم تقسيم كل كتاب الى أبواب ، ووضع أرقاماً لكل كتاب وباب اللهم إلا في كتاب مسلم وموطا مالك فقد قسم كل كتاب منهما الى أحاديث ووضع لكل حديث رقماً مسلسلًا .

ولما كانت طبعات كل أصل من هذه الأصول تختلف في عدد الكتب والأبواب صار هذا الأمر لا يمكن تداركه إلا بنشر فهرس لكل أصل تكون أرقام كتبها وأبوابها وأحاديثها مطابقة لأرقام كتب وأبواب وأحاديث النسخ الأصلية التي قسمها وعددها واضعو المعجمين المذكورين .

فنشكر لحضرة هذه الخدمة القيمة ، ونرجو الله أن يوفقه لأمثالها .

woman perform the ghusl⁽¹⁾ if she hath an erotic dream ? ” “ Yes ”, said the Prophet (Allâh bless him and give him peace) “ if she observeth the substance ejaculated. ” ⁽²⁾

I then covered myself, that is to say my face, saying : “ O Apostle of Allâh, doth a woman then have such emissions in her dream? ” “ Yes”, replied he, “ bless thee !⁽³⁾ How else could her child resemble her ? ”

2. We are informed by Ismâ'îl, who had it from Mâlik, through ‘Abdullâh b. Dinâr, through ‘Abdullâh b. ‘Umar that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

“ There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim. Tell me which this tree is ? ” The Faithful mentioned various trees of the desert. It occurred to me (said ‘Abdullâh) that it was the palm-tree, but I was prevented by shyness ⁽⁴⁾ from saying so At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : “ It is the palmtree . ”

‘Abdullâh added that when he told his father what had occurred to him, he replied: “ It would have given me greater pleasure for thee to have said it than to possess untold wealth ”

Translated by I. H. EI-MOUGY

وَقَالَتْ « يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَتَحْتَلِمُ
الْمَرْأَةُ ؟ » قَالَ : نَعَمْ تَرَبَّتْ بيمينك ،
فَبِمَ يُشَبِّهُهَا وَلَدُهَا ! »

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك
عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إِنِّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ
لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ ،
حَدَّثُونِي مَا هِيَ » فَوَقَعَ النَّاسُ
فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِ أَهْلِهَا
الذُّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ ،
فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِهَا ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« هِيَ الذُّخْلَةُ »

قال عبد الله فحدثت أبي بما
وقع في نفسي ، فقال : « لَأَنْ تَكُونِ
قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي
كَذَا وَكَذَا . »

(1) غسل = purification by total immersion. as considered necessary before prayer.

(2) i.e. if she finds a trace of it on her garment upon waking.

(3) تَرَبَّتْ بيمينك = literally, may thy right hand be humbled in the dust—an idiom current among the Arabs, not intended as a curse, but said playfully.

(4) The reference in this case is nodoubt to a combinadim of shyners and *Modeshy*

entire dependence on this alone.”⁽¹⁾

CHAPTER 92.

On false modesty in acquiring Knowledge ; and on the words of Mujâhid : “He shall not acquire Knowledge who is over- modest or too proud (to ask). ”

And on the words of A'ishah : “ How excellent are the women of the Ansâr, for over- modesty hath not prevented them from perfecting themselves in religious knowledge ! ”

We are informed by Muhammad b. Salâm, who was told it by Abu Mu'âwiyah, who had it from Hishâm through his father, through Zainab bint Umm Salamah, through her mother, who stated that Umm Sulaim came up to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and said :

“O Apostle of Allâh, verily Allâh is not ashamed of the truth. Should a

قال « لا ، إني أخاف أن يتكلموا »

بابُ الْحَيَاءِ فِي الْعِلْمِ ،

وَقَالَ مُجَاهِدٌ « لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ

مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٍ » وَقَالَتْ

عَائِشَةُ : « نِعِمَّ الدُّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ

لَمْ يَمْنَعْنَهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ »

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ أَخْبَرَنَا

أَبُو مُعَاوِيَةَ قَالَ حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ

عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ

قَالَتْ : جَاءَتْ أُمُّ سَلِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ :

« يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي

مِنَ الْحَقِّ ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ

غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ ؟ » قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ »

فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ ، تَغْيِي وَجْهَهَا ،

(1) This hadith is one of the most important from a doctrinal standpoint. It might appear that Mu'adh had disobeyed the Prophet in revealing the hadith on his death-bed; but no doubt he considered that it was intended for the elect and not for the multitude. Moreover, by the time of Mu'adh's death Islâm had become established, and the danger of the misconstruction of the hadith had diminished. The inference of the sufficiency of the mere "Shahâdah" for salvation supports the Murji'ite position. The key of Sunnite position, however, is in صدقاً من قلبه (truly from his heart), since good works are implicit in sincere faith. According to some commentators "immunity from Hell" means "immunity from eternal damnation" in the case of sinful Muslims, who are certain to reach Paradise eventually, whatever their sins.

Prophet said :

“ No one testifieth truly from his heart that there is no deity but, Allâh and that Muhammad is His Apostle, but Allâh shall make him immune from Hell-fire, ”

“ O Apostle of Allâh, “ replied Mu‘âdh. “ Shall I not inform the Faithful of this, that they may rejoice at the glad tidings ? ”

“ Then, “ replied the Prophet, “ they would place entire dependence on this alone. ⁽¹⁾

Mu‘âdh transmitted this hadith on his death-bed, thus avoiding the sin of withholding Knowledge. ⁽²⁾

2. We are informed by Musaddad, who had it from Mu‘tamir, who heard it from his father, who heard it from Anas, who stated that it was related to him that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said to Mu‘âdh :

“Whoever meeteth⁽³⁾ Allâh without associating aught with him, shall enter Paradise.”

“ Shall I convey the glad tidings to the people ? ” asked Mu‘âdh.

“ No, ” replied the Prophet, “ I fear they would place

قال : يا معاذ ، قال : لبيك

يا رسول الله وسعديك ثلاثا ، قال :

« ما من أحد يشهد أن لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً

من قلبه إلا حرمه الله على النار .

قال : يا رسول الله أفلا أخبر

به الناس فيستبشروا ؟

قال : إذا يتكلموا .

وأخبر بها معاذ عند موته تماماً .

حدثنا مسدد قال حدثنا معتمر قال

سمعت أبي قال سمعت أنسا قال ذكر

لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ :

« من أتى الله لا يشرك به شيئاً

دخل الجنة »

قال : « ألا أبشركم الناس ؟ »

(1)—and neglect their religious duties.

(2) Cf. Surah 2, VV. 154 & 155 & Surah 3, V. 187.

(3)—either in the hour of death or in the Resurrection.

بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ

قَوْمِ كَرَاهِيَةٍ أَنْ لَا يَفْهَمُوا

CHAPTER 91.

On him who imparteth Knowledge to certain people to the exclusion of others whom he feareth may misapprehend it ;

and on ‘Ali’s saying : “Speak to people in a way they can understand do ye wish Allāh and his Apostle to be considered perverstes of the truth?”

This Athar⁽¹⁾ was transmitted to us by ‘Ubaidullāh b. Mûsa, through Ma‘rûf b. Kharrabûdh through Abut-Tufail, from ‘Ali .)

1. We are informed by Ishâq b. Ibrâhim, who had it from Mu‘âdh b. Hishâm, who received it from his father, through Qatâdah, who was told by Anas b. Mâlik that Mu‘âdh was once mounted behind the Prophet (Allāh bless him and give him peace) as he rode. The Prophet (Allāh bless him and give him peace) said:

“ O Mu‘âdh b, Jabal ! ”

“ I am at thy command, O Apostle of Allāh, and gladly obey thee,” replied Mu‘âdh.

This call and answer were repeated three times. Then the

وَقَالَ عَلِيٌّ « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ »

(حدثنا عبد الله بن موسى عن)

معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل
(عن علي بذلك)

حدثنا اسحق بن ابراهيم قال
حدثنا معاذ بن هشام قال حدثني أبي
عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك
أن النبي صلى الله عليه وسلم ومُعَاذٌ
رَدِيْقُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ :

يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ !

قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

وَسَعَدَ نِيكَ !

(1) A tradition traced back—not to the Prophet—but to a Companion, or to a successor

the reading they followed. (1)

CHAPTER 90.

On him who renounceth a better course for fear that certain people may be too unintelligent to understand it, and thus fall into a worse case.

We are informed by 'Ubaidullāh b. Mûsa, through Isrâ'îl, through Abu Ishâq, through Al-Aswad, who stated that Ibn Az-Zubair said to him :

'A'ishah used to confide many secrets to thee. What did she tell thee about the Ka'bah ? Al-Aswad replied : " She told me that the Prophet (Allāh bless him and give him peace) said :

" O 'A'ishah, were it not that thy people were recently (in unbelief—adds Az-Zubair), I should have pulled down the Ka'bah, and rebuilt it with two doors, one for ingress and one for egress. "

This was subsequently carried out by Ibn Az-Zubair.

قَالَ الْأَنْعَمُ هَكَذَا فِي قِرَاءَتِنَا.

بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الْأَخْتِيَارِ

خُفَاةٌ أَنْ يَقْصُرَ فَعَهُمْ بَعْضُ النَّاسِ عَنْهُ
فِيَعَمُوا فِي أَشَدِّ مِنْهُ :

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى عَنْ

إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ عَنِ الْأَسْوَدِ

قَالَ قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ :

كَانَتْ عَائِشَةُ تُسَرُّ إِلَيْكَ كَثِيرًا،

فَأَحَدَتْكَ فِي الْكَعْبَةِ ؟ قُلْتُ : قَالَتْ

لِي : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ

عَهْدُكُمْ (قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : بِكَفْرِ)

لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ،

بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ »

فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ .

(1) The Qur'ân has اوتينم instead of اوتوا here. For is reason the commentators consider these words, not as a quotation from the Qur'ân, but as a Companion's tradition! saying (خبر)

We are informed by Qais b. Hafs, who received it from ʿAbdul-Wāhid, who had it from Al-Aʿmash Sulaimān, through Ibrāhīm, through ʿAlqamah, through ʿAbdullāh, who said :

While I was walking with the Prophet (Allāh bless him and give him peace) in the ruined ⁽¹⁾ quarter of Al-Madīnah, as he was leaning on a stick ⁽²⁾ which he carried with him, he passed a group of Jews who said to one another : “ Ask him about the spirit ”. ⁽³⁾ “ No ”, said one of them, “ do not ask him, lest he give an answer that ye resent.” Another said : “ We will certainly ask him”. Then one of them arose and said : “ O Abul-Qāsim, what is the soul ?” The Prophet was silent and I thought that a revelation was coming upon him. I stood still, ⁽⁴⁾ and when his agony had passed, he uttered these words “They ask thee about the spirit. Say: ‘Thespirit pertaineth unto my Lord⁽⁵⁾, and they are not given aught of Knowledge but a little.”

Al-Aʿmash states that such was

عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال :

بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَرْبِ الْمَدِينَةِ

وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصِيبٍ مَعَهُ قَرَّ

بِقَرِّ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

« سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ » وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ »

تَكَرَّهُونَهُ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ « لَنَسْأَلَنَّهُ »

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ

مَا الرُّوحُ ؟ » فَسَكَتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ

يُوحَى إِلَيْهِ فَقُلْتُ فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ

قَالَ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتُوا

مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

(1) Elsewhere خرب is given by Al-Bukhari as حرت , apparently the difference being due to a confusion in the diacritical points.

(2) Made from a palm-branch.

(3) Some commentators suggest the Revelation, others the Angel Gabriel.

(4) Either in order not to disturb the Prophet, or to stand between him and the Jews.

(5) Or—is created at the command of Allāh.

Salamah, through Az-Zuhri, through
Isa b. Talhah, through Abdullâh b.
Amr, who said :

I saw the Prophet (Allâh bless
him and give him peace) being ques-
tioned on the occasion of the hurling
of the stones ⁽¹⁾ . One man said :
“ O Apostle of Allâh, I have sac-
rificed before I have thrown
the stones. ” The Prophet replied :
“ Throw them *nevertheless*, there is
no sin. ” Another said : “ O Apostle
of Allâh, I have had my head shaved
before I have sacrificed . ” The
Prophet replied : “ Sacrifice *never-*
theless, there is no sin.”

So the Prophet was never ques-
tioned as to whether anything should
be done sooner or later but he an-
swered : “ Do so, there is no sin.”

CHAPTER 89.

On the revelation of the word of
Allâh (be He exalted) : “ Ye have
been given but a little part of know-
ledge.” ⁽²⁾

ابن أبي سلمة عن الزهري عن عيسى بن
طلحة عن عبد الله بن عمرو قال :

رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عِنْدَ الْجَمْرَةِ وَهُوَ يُسْأَلُ فَقَالَ رَجُلٌ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ تَحَرَّتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ،
قَالَ : « أَرْمِ وَلَا حَرَجَ » قَالَ آخَرُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَتَحَرَّ ،
قَالَ : « أَتَحَرَّ وَلَا حَرَجَ » فَأُسْئِلَ عَنْ
شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ : افْعَلْ
وَلَا حَرَجَ .

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « وَمَا
أَوْفَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » :

حدثنا قيس بن حفص قال حدثنا
عبد الواحد قال حدثنا الأعمش سليمان

(1) The definite article ال in الجمرة denotes the particular occasion of the stoning known
as بجرة العقبة , Al-Aqabah being a height overlooking the valley of Minâ.

(2) Surah 17, V.85

CHAPTER 87.

On one who, standing, asketh questions of a professor who is seated.

We are informed by ʿUthmān, who had it from Jarīr, through Abu Musa, who said :

A man came to the Prophet Allāh bless him and give him peace) and said : " O Apostle of Allāh, what is fighting in the cause of Allāh - for each one of us fighteth either in anger or for honour's sake?." The Prophet then raised his head towards him, (the narrator states that he did so only because the man was standing) and said : " He who fighteth that the word of Allāh may prevail, his fight is in the cause of Allāh (be He magnified and glorified).

CHAPTER 88.

On asking for a fatwā and receiving the reply during the stoning of Satan in the valley of Minā.

We are informed by Abu Nuʿaim, who had it from ʿAbdul-ʿAziz b. Abu

بَابُ مَنْ سَأَلَ وَهُوَ قَائِمٌ

عَالِمًا جَالِسًا :

حدثنا عثمان قال أخبرنا جرير عن

منصور عن أبي وائل عن أبي موسى قال :

جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله

عليه وسلم فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ

مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَإِنْ أَحَدُنَا

يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، فَرَفَعَ

إِلَيْهِ رَأْسَهُ (قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ

رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا) فَقَالَ :

« مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

بَابُ السُّؤَالِ وَالْفُتْيَا عِنْدَ رَمَى

الْجِمَارِ :

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا عبد العزيز

forgetfulness. However, they set out again, and beheld a lad who was playing with his mates. Al-Khadir seized him by the crown and tore off his head with his hands.

"What" said Moses. "Thou hast slain an innocent soul guiltless of another's blood,"

"Did I not tell thee that thou wouldst not be able to bear with me?" replied Al-Khadir. (Ibn 'Uyaynah adds that this is more asserative)⁽¹⁾

However, they journeyed on until they came to a village and asked the inhabitants for food, but they refused them hospitality. In the village they found a wall tottering to its fall, so Al-Khadir put it upright (setting it straight by a wave of his hand).

Then Moses said to him: "Hadst thou willed, thou couldst have received a poyment for this."

"This meaneth a separation between me and thee,"replied Al-Khadir.

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) added : "May Allâh have mercy on Moses ! How we should have liked him to have had enough patience so that we could have been told more of their adventures."⁽²⁾

قال : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ .
فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا ،
فَانْطَلَقَا فَاذْأُ غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ
فَاَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَاَقْتَلَعَ
رَأْسَهُ بِيَدِهِ .
فَقَالَ مُوسَى : اَقْتَلْتَ نَفْسًا
زَكِيَّةً بَغَيْرِ نَفْسٍ !
قال : اَلَمْ اَقُلْ لَكَ اِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا (قال ابن عُيَيْنَةَ : وَهَذَا وَكَدْ)
فَاَنْطَلَقَا حَتَّى اِذَا تَابَا اَهْلَ قَرْيَةٍ
اسْتَطْعَمَا اَهْلَهَا فَاَبَوْا اَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ،
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ اَنْ يَنْقُصَ
فَاَقَامَهُ (قال الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَاَقَامَهُ)
فَقَالَ لَهُ مُوسَى : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ
عَلَيْهِ اجْرًا .
قال : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .
قال النُّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى ، لَوْ دِدْنَا لَوْ
صَبَرَ حَتَّى يُعْصَى عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَا

(1) He means the use of لك -thee- which was not used in the first case .

(2) The explanation of Al-Khidr's surprising actions is given in the Qur'ân, Surah 18, VV, 79 sqq. This hadith has given occasion for the inference that apparently unlawful actions may be justified by the conscience, a view which is generally regarded as heretical. It is claimed that Khadir's actions, however lawless in appearance, were nevertheless in conformity with the divine purpose .

man and I shall not gainsay thee in aught."

At this, having no ship the twain set out walking along the water's edge, when a boat drew near them. They negotiated with the sailors to take them on board. Recognising Al-Khadir, they took them on board without any fare. Suddenly a bird came and perched on the edge of the boat, dipping its beak once or twice into the water. Then Al-Khadir said: "O Moses, my knowledge and thine have diminished⁽¹⁾ from Allâh's Knowledge but as a drop such as hath been taken up in the beak of this bird diminishes the ocean.

It came to pass that Al-Khadir wilfully took hold of one of the ship's planks and tore it out.

"What !" said Moses. "Here are people who have taken us on board without payment, and now thou hast deliberately scuttled their boat to drown all on board !"

"Did I not say that thou wouldst not be able to bear with me?" replied Al-Khadir.

"Reprove me not for my forgetfulness," said Moses.

This was Moses' first act of

صَبْرًا يَا مُوسَى ، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ
عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَيْنِهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ
عَلَى عِلْمٍ عِلْمَكَ لَا أَعْلَمُهُ .
قَالَ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا
أَعْصِي لَكَ أَمْرًا .

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ
لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ
فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا ، فَعَرَفَ
الْخَضِرُ فَحْمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَجَاءَ
عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَذَقَرُ
نَقْرَةً أَوْ نَقَرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ الْخَضِرُ :
يَا مُوسَى مَا تَقْصُ عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ
اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ .
فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْأَوْحِ
السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ ، فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ
حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ
فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .
قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ؟

(1) In another reading خُذ is given for نَقَص ; since Allâh's Knowledge cannot be diminished — نَقَص being taken approximatively.

fatigue until he went past the place which had been appointed unto him.

His attendant then said to him :
"Behold ! When we took shelter by the rock, I forgot about the fish."

"That is what we were seeking," replied Moses.

Thereupon they went back, retracing their footsteps, and when they reached the rock, they beheld a man wrapped in a cloak. ⁽¹⁾

"Peace be upon thee," said Moses.

"Whence did peace come upon thy land ?" answered Al-Khadir.

"I am Moses," replied he.

"Moses, the Prophet of Israel?" asked Al-Khadir.

"Yea, verily!" said Moses. "May I follow thee on condition that thou instruct me out of the guided knowledge that thou hast received?"

"Truly thou wilt not be able to bear with me, O Moses ! I possess Knowledge from that of Allāh which He hath taught me, that thou knowest not ; likewise thou possessest Knowledge which He hath taught thee, that I know not."

Moses answered: "If it be the Will of Allāh thou shalt find in me a patient

وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ
حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ
فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا
إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ،
قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي.
فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَلَمَّا
اُنْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذْ أَرَجَلُ مُسَجَّى
بِثُوبٍ (أَوْ قَالَ: نَسَجَى بِثُوبِهِ).
فَسَلَّمَ مُوسَى.
فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بَارَزْتُكَ
السَّلَامُ؟

فَقَالَ: أَنَا مُوسَى
فَقَالَ: مُوسَى بَنَى إِسْرَئِيلَ؟
قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتْبَعُكَ عَلَى
أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا؟
قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

(1) The narrator is doubtful whether the words مسجى بثوبه or نَسَجى بثوبه were used.

“One of My servants who is *now* at the confluence of the two rivers⁽¹⁾ is more learned than thou.”

Moses replied : “O Lord, how shall I meet him ?”

Then it was said unto him: “Carry a fish in a basket, and where thou lovest it, there shalt thou find him.”

So he set out, taking with him his attendant Joshua the son of Nun. They carried a fish in a basket until, when they came to the rock,⁽²⁾ they laid down their heads upon the rock and fell asleep. The fish slipped out of the basket and found its way to the water. This filled Moses and his attendant with wonder, but they continued their journey for the rest of the day and the *following* night.⁽³⁾

At daybreak Moses said to his attendant : “Fetch us our meal, for indeed we have suffered fatigue from this journey of ours.”

Now Moses had suffered no

الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قَالَ : يَارَبِّ وَكَيْفَ بِهِ ؟

فَقِيلَ لَهُ : أَجْمَلْ حُوتًا فِي مِكَتَلٍ
فَإِذَا أَفْقَدْتَهُ فَهُوَ تَمَّ .

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ يَفْتَاهُ يُوشَعَ
ابْنُ نُونٍ ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكَتَلٍ خَنِيَّ
كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا
وَنَامَا ، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكَتَلِ
فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ، وَكَانَ
لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ
لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا .

فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : آتِنَا
غَدَاةَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ،

(1) مجمع البحرين — This has been variously interpreted, opinion varying between “Seas” and “rivers”. Among those who prefer “Seas” some have suggested the junction of the Red Sea and the Indian Ocean, the Mediterranean and the Atlantic, and other places less reasonable. Those who accept two rivers suggest the Blue and White Nile. The Jordan and the Dead Sea are also suggested, to say nothing of the rivers flowing into the Persian Gulf, etc. Of these the view of the two Niles is the most probable, owing to Moses well-known connection with Egypt and Ethiopia, to which country his wife belonged, and which he seems to have visited according to accounts in Rabbinical literature. Other views are that the union of the two Seas is to be taken as figurative, referring either to the Old and New Dispensations, or to the seas of human and divine Knowledge.

(2) i.e. the rock where the expected meeting was to take place .

(3) According to commentators. The day and night are reverses in the text; but as أصبح can only be used of dawn following a night, it has been necessary to make this change .

CHAPTER 86

بَابُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا
سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَيَكِلُ الْعِلْمَ
إِلَى اللَّهِ :

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا
سفيان قال حدثنا عمرو قال أخبرني سعيد
ابن جبير قال :

قلت لابن عباسٍ إنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ
يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي
إِسْرَآئِيلَ إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ فَقَالَ :
« كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ ! حَدَّثَنَا أَبِي بِنُ
كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
قَامَ مُوسَى الْقَبِيضِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي
إِسْرَآئِيلَ فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟
فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ ، فَغَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ
إِلَيْهِ أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي يَجْمَعُ

On the most commendable answer
a learned man should give on being
asked who is the most learned among
men, namely that he should attribute
all Knowledge to Allâh.

We are informed by ‘Abdullâh b.
Muhammad, who had it from Sufiân,
who received it from ‘Amr, who was
told it by Sa‘id b. Jubair, who stated

I once said to Ibn ‘Abbâs that
Nawf Al-Bikâli alleged that Moses
was not the Moses of the Israelites
but another Moses. “ He lied, the
the enemy of Allâh, ” (1) replied Ibn
‘Abbâs, “ for I was informed by
Ubayy b. Ka‘b from the Prophet
(Allâh bless him and give him peace)
who said :

‘ Moses the Prophet once rose
to preach to the Israelites. He
was asked who was the most learned
among men, and replied that it was
he himself; Allâh then reproved Moses
for not ascribing *all* knowledge to
Him, giving him this revelation :

[1] This forcible language must not be taken as a personal attack; it is meant merely
to stress the error and reprimand the utterer of it.

him peace) two bagfuls ⁽¹⁾ of *Hadith* one of them I have spread abroad ; as for the other, if I did so, I should have this throat of mine cut. ”⁽²⁾

عليه وسلم وعاءين ، فأمّا أحدهما
فبنتته ، وأمّا الآخر فلو بنتته
قُطِعَ هذا البلعومُ

CHAPTER 85.

On the attentive silence to be observed in the presence of traditionists .

We are informed by Hajjāj, who had it from Sūq̄bah, who received it from ‘Alī b. Mudrik, through Abu Zur‘ah, through Jarīr that :

The Prophet (Allāh bless him and give him peace) said to him while on the farewell pilgrimage : “ Call the people to silence.” He then said :

“ Beware of acting like infidels after my death, cutting each other's throats.”

بَابُ الْأَنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ :

حدثنا حجاج قال حدثنا شعبة قال
أخبرني علي بن مُدْرِك عن أبي زُرْعَةَ عن
جرير :

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ
لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ »
فَقَالَ : « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا
يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »

(1) The usual meaning of وعاء is a vessel or a container, but as kindred hadiths have the variant جرابين it may be presumed that the meaning here is “ bags ”. The metaphor is of two kinds of Knowledge, which, if written down, would fill two bags.

(2) The first Category contained hadiths relating to religious rites and morality in general ; the second, hadiths of a mystical nature, foretelling future tribulations, the signs of the Hour—including the trials of the Faithful under Quraishite tyrants, whom Abu Hurairah was ab'e to name, but he feared for his life. Abu Hurairah—as is shown in the following prayer—insinuated personages without naming them :

(أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان)

“ I take refuge in Allāh from the year 60 A.H. and the rule of boys.” As Abu Hurairah died in 59 A.H. a year before the accession of the boy Khalif, Yazid b. Mu‘āwiyah, it is clear that his prayer was granted.

attached myself to the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) for my daily bread ; and so I witnessed that which they never saw, and committed to memory that which they never heard."

2. We are informed by Ahmad b. Abu Bakr Abu Mus'ab, who had it from Muhammad b. Ibrahim b. Dinar, through Ibn Abu Dhi'b, through Sa'id Al-Maqburi, through Abu Hurairah, who stated that he said :

" O Apostle of Allāh, I hear from thee many hadīths which I afterwards forget. " " Spread out thy gown, " said he. I did so, and then he made as if to scoop with his hands out of the abundance of Allāh into my gown, saying: Clasp it to thy breast, I did so, and I never forgot anything after that.

Al-Bukhāri adds that he also had this hadīth from Ibrahim b. Al-Mundhir, who received it from Ibn Abu Fudaik, who gave the variant : " scooped with his hands in it (the gown)"— adding the words "in it."

3. We are informed by Ismā'il, who had it from his brother, through Ibn Abu Dhi'b, through Sa'id Al-Maqburi through Abu Hurairah, who said :

I have learnt from the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give

كَانَ يَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لِشَيْعِ بَطْنِهِ ، وَيَخْضُرُ مَا لَا
يَخْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ »

حدثنا أحمد بن أبي بكر أبو مصعب
قال حدثنا محمد بن إبراهيم بن دينار عن
ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن
أبي هريرة قال قلت :

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ
حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ ، قَالَ : « ابْسُطْ
رِدَاؤَكَ » فَبَسَطْتُهُ قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ
ثُمَّ قَالَ « ضُمَّهُ » فَضَمَمْتُهُ ، فَمَا نَسِيتُ
شَيْئًا بَعْدَهُ .

حدثنا إبراهيم بن المنذر قال حدثنا
ابن أبي فديك بهذا ، أو قال « غَرَفَ
بِيَدِهِ فِيهِ »

حدثنا اسماعيل قال حدثني أخى عن
ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن
أبي هريرة قال :

حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

CHAPTER 84.

بَابُ حِفْظِ الْعِلْمِ :

On the committal of Knowledge to memory .

1. We are informed by «Abdul-
«Aziz b. «Abdullâh, who had it from
Mâlik, through Ibn Shihâb, through
Al-A'raj, through Abu Hurairah, who
stated :

“ People say that Abu Hurairah
relateth too many traditions. Nay, were
it not for two verses which are in the
Book of Allâh, I should not transmit
a single hadîth.” Then Abu Hurairah
recited *the verses*: “Verily they that
conceal the evident proofs and the
Guidance that We have sent down”
..as far as “The Most Merciful”.⁽¹⁾

Abu Hurairah went on to say :
“Our brethren of the Muhâjirîn were
engaged in transactions ⁽²⁾ in
the markets, and our brethren of the
Ansâr were engaged in working
their property,⁽³⁾ while I, Abu Hurairah

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال
حدثني مالك عن ابن شهاب عن الأعرج
عن أبي هريرة قال :

إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو
هُرَيْرَةَ ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ
اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ، ثُمَّ يَتْلُو «إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَى ، إِلَى قَوْلِهِ «الرَّحِيمُ»

إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ
يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ ، وَإِنَّ
إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ
الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ

(1), Surah 2, Verses 154 & 155: “As to those that conceal the evident proofs and the Guidance that we have sent down, after what We have so clearly shown to men in the Book of Moses, these Allâh shall curse, and they that curse shall curse them; But as for those who repent of concealment and make amends and propagate the truth, unto these will I turn in forgiveness, for I am He that accepteth repentance, the Most Merciful.”

(2). الصفق — Bargains were clinched by clasping hands.

(3). The Muhâjirîn [the Meccan refugees] were engaged in Commerce, the Ansâr (the Medinite supporters) in Agriculture.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٦

دعوته الى القيام بخلافة الله فى الأرض

لا يوجد تعليم من التعاليم الإصلاحية ، ولا مذهب من المذاهب الفلسفية ، ولا نظام من النظم الاجتماعية ، رفع من شأن المجتمع الانسانى وناط به أعظم المهام العالمية ، الى المستوى الذى رفع اليه الاسلام المجتمع الاسلامى . فالاسلام بعد أن أقام مجتمعه على الأصول الأدبية الخالدة ، والمبادئ الخلقية العامة ، أصبح من المعقول أن يسكل اليه ما يتناسب وهذه الأصول والمبادئ من المهام الكريمة ، والخطط الشريفة .

ولتفصيل هذا الإجمال نقول : إن المجتمعات الانسانية كلها قامت على الحاجات المادية ، والمصالح القومية ، مجردة عن كل اعتبار أدبى ، أو أصل روحانى . ولما استطاعت تلك الجماعات بفضل تكافل أفرادها أن تأمن شر الغوائل ، من عدو مغير أو مجاعة مهلكة ، نشأت فيها بحكم الفطرة الانسانية نزعة الى ترقية آدابها ، وتهذيب أخلاقها ، ولكنها اعتبرت ذلك خاصا بأحاديها . فخرمت عليهم العدوان على الأموال والأعراض والأنفس ، وحضنتهم على خصال من الرفق والعطف والمعدلة ، ولكن كل جماعة قصرت كل ذلك على نفسها ولم تسره على غيرها ، فكانت تعاقب من يقتل واحدا من مواطنيه بالقتل ، ولكنها كانت تجازى من يقتل أجنبيا بالايعاجب والمدح . فالأخلاق التى كانت لدى الأمم فى أرقى عهودها كانت لا تعدو أخلاق الناس من قطاع الطرق . وكانت الأخلاق الصحيحة التى يحملها اليها الأنبياء والمرسلون تشوه وتحرف ، أو ترفض رفضا باتا .

وعلى هذه الحال نفسها كانت أرقى الأمم التي انتزعت منها الأمة الإسلامية خلافة الأرض ، قالت دائرة معارف لا روس جوابا على ما تساءلت عنه من حقيقة نظم تلك الأمم على وجه الإجمال : « كانت نظاماتها الوحشية والقسوة موضوعة في قوالب قانونية . أما من جهة فضائلها كالشجاعة والمسكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق الجعاعة ، فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية . فكان لا يرى فيها إلا شره مفرط للمال ، وحقد على الأجنبي ، وضياح للإحساس بالشفقة الإنسانية . أما العظمة والفضيلة فيها فكانت إعمال السوط والنسيب في العالم ، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالرق ، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر ، انتهى .

على هذه الحال كانت الأمم المشهود لها بالرسوخ في المدنية حتى إلى العهد الذي ظهر فيه الاسلام ، أفلا يكون من مصلحة الإنسانية ، وهي على وشك تطور جديد يلائم مواهبها العلية ، أن يحيي الله أمة من وسط هذه الرمم ، ويجعل ترابط آحادها قائما على أرقى الأصول الأدبية ، لتكون مثلاً تحتذيها الجماعات في تكوين بنيتها الاجتماعية ، وأن يجعلها من القوة الحيوية ، والسطوة المادية ، بحيث تظهر على الأمم كافة ، وتدفعها لإعادة النظر في روابطها القومية ، وسيرتها الدولية ؟

نعم : لقد كان ذلك ، وظهرت من بقعة هي أبعد البقاع الأرضية عن الألفة والاجتماع أمة رابطتها الفضيلة الخالصة من الشوائب ، المطلقة من القيود ، لا تشوبها روح القوميات ، ولا فروق اللغات والجنسيات ، فهي عالمية حسا ومعنى ، لم تقم على مثل الأصول التي قامت عليها أمة من قبل ، ولا ينتظر أن تفوقها في هذه المزايا أمة من بعد .

هذا حادث تاريخي جليل يجب أن ينوّه به المسلمون في كل ناحية يحلون منها من نواحي الأرض ، فهو فضلا عن أنه يعلى من قدر الاسلام إلى أرفع محل ، يضيف إلى علم

الاجتماع صفحة مجيدة فى تاريخ الروابط الانسانية ، وحالة فذة من حالات قيام الجماعات ، وهى قيام أمة عالمية غير ملحوظ فى تكوينها ما كان يعتبر أساسا للاجتماع من وحدة الجنس واللغة والبيئة . فهى أمة مبادئ وأصول ومقاصد عامة ، لا أمة جنس ولا لسان ولا وطن .

هذه الأمة العالمية هى المثل الأعلى لما سيكون عليه سكان الكرة الأرضية قاطبة ، حين تسمو عقلياتهم ، ويدركون أن الأرض لله ، وأن هذه الفروق بين أهالها فى اللون واللغة والبيئة ليست فروقا طبيعية توجب بينها اختلاف والتناحر ، ولكنها فروق سطحية أوجبها سعة الأرض ، وبعد الاتصالات ، وتباين الاهجات . فإذا بلغت الجماعات البشرية هذه الدرجة من الفهم ، حدث تعارف عام بين البشر ، وتلاه سلام لا يعكر صفوه معكر من أى نوع كان . فإن لم يصل العالم كله الى هذه الدرجة من السمو ، وصلت اليه على القليل جماعات راقية يمكنها أن تبلغ المدنية الى أرفع مكاناتها ، وتحميها شر عدوان المناذير لها .

فهذا المثل الحى الذى ضربه الاسلام للناس ومضى فى تحقيقه الى أبعد حد ، يجب أن يدونه علم الاجتماع فى أوجه صفحاته ، ولا يكون ذلك إلا إذا أدركه المسلمون ونوهوا به ، ودينوا صحته بالأدلة القاطعة . وأى مسلم تعوزه الأدلة على هذا الأمر المقرر فى النصوص الكتابية ، والمعزز بالحوادث التاريخية ؟

ومما هو أبعد من كل ما مر أثرا فى تنزيه المجتمع الاسلامى من شوائب الرعونات البشرية ، أن الله طبعه بطابع إلهى ، فجعل مهمته القيام على خلافته فى الأرض . وهذه تقتضى التخلق بأخلاق الله فى معاملة عباده ، والسير على سنته فى العناية بمخلوقاته . وهى مهمة خطيرة ذات تبعات كبيرة ، فيقول تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم (أى ليختبركم به) إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى ندب هذه الأمة لخلافة إلهية عالمية ، أنه ناطبها مهمة الهيمنة على الناس كافة ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

فالأمة الاسلامية أمة منتدبة من الحق لخلافة الله في الأرض ، وليس في هذا الأمر ما يجرح كبرياء أمة من الأمم ، ولا ما يحط من عزتها وكرامتها ، لأن واضح هذا الانتداب سبحانه ، لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ، ولا وقفا على جنس من الأجناس ، ولم يشترط له بيئة من البيئات ، ولكنه جعله للجماعة التي تدين بشرائطه المقررة ، وأصوله للمعينة من أي جنس كان آحادها ، وفي أي بقعة من الأرض تأسست دولتها : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

ولم يجعل الله تلك الأصول والمبادئ مناسبة لأمة دون أمة ، أو مسارية لعادات قوم دون آخرين ، ولكنه فرضها أصولاً أولية خالدة ، ومبادئ أساسية عامة ، مما تعترف كل أمة بأنها أرقى الأصول وأقوم المبادئ ، لا تصلح لزمان دون زمان ، ولا تلائم حالا دون حال . وقد درسنا كل ذلك في مقالاتنا تحت هذا العنوان بتوسع لا مزيد عليه ، فليرجع من شاء اليه .

إن ندب مثل هذه الأمة لتمثيل الحق الخالص والقيام به ، لو نظر اليه نظراً فلسفياً لوجد طبيعياً من كل وجه ، فإن الحقائق العلمية ، والفتوح العقلية ، لا تفتأ تجمع قلوب الأيقاظ من الناس حولها في كل بيئة من بيئات الأرض ، وتؤلف منهم أمة شائعة في جميع الأمم ، بحيث لو اجتمعوا في صعيد واحد لكونوا أمة مختارة تدين للحق وتعبد ، وتمتعش الى المزيد من نوره ، وتعمل على إقامة دولته في الأرض .

والاسلام في حقيقته ، كما قررناه مراراً ، خروج من جميع التقاليد ، وتجرد من كل النسب والملابسات ، ومواجهة للحق بالقلب خالصاً من جميع الصور الذهنية ، لتنطبع فيه الحقائق الإلهية في إطلاقاتها الذاتية ، وليصبح مستعداً لسواها مما يفتح به عليه

فى أدوار جهاده فى سبيلها ، فهو والعلم يستهدفان غرضاً واحداً هو النور الذى يعيش اليه كبار النفوس من كل أمة فى كل زمان وفى كل بيئة .

وعليه فجميع هؤلاء الرجال الشائعين فى جميع الأمم يدينون بالاسلام بغير علم منهم ، فهم على حد قول الفيلسوف الألمانى العبقري الكبير جوت (Goethe) وقد اطلع على أصول الاسلام : « لو كان الاسلام هو هذا فنحن إذا فيه » .

فإذا قام المسلمون بدعوة الى دينهم مؤسسة على التنويه بهذه الأصول الأولية فى الاسلام فانها تؤثر فى العقول والقلوب بوصفين : أولهما بوصف أنه دين ، وثانيهما بوصف أنه إصلاح عالمى عام . فالاسلام كدين لا يحتاج الى أكثر من أن يعرف التعريف الجدير به ، وهو لقيامه على الفطرة الانسانية واستناده الى العقل والعلم ، يحل من الأفتدة محل الحقائق الأولية ، فلا يكاد يجد مقاومة إلا من أسرى الأهام الذين لا يبالون بأحكام العقل ومقررات العلم . والاسلام كإصلاح اجتماعى ، نظام بالغ أقصى درجات السمو ، بل هو أرفع مثل أعلى يتطلبه نظام الاجتماع ، وتمتعش اليه كل نفس نقية من شوائب الحيوانية . فمن الناس من لا يجب أن تعلق كلمة الله فى الأرض ، وأن يسود الحق فيه سيادة يسقط معها كل باطل ، ويضمحل كل زور ، وتزول جميع الفروق بين الناس ؟ فلنعمل مجتمعين على بيان هذه الحقائق بكل وسيلة يصل اليها إمكاننا ، وقد وعد الله تعالى ببيانها فقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ؟ » .

* *

هذه خاتمة المقالات التى نشرناها تحت عنوان (مهمة الدين الاسلامى فى العالم) .
فترجو الله أن يوفقنا لبحث إسلامى جديد فى ناحية من نواحي هذا الدين القويم ،
والله يهدينا الى سواء الصراط م

محمد فريد ومبرى

التفسير

سورة الرعد

- ٩ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ، جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

لقد طالعت من أول السورة هذه الآيات البينة، بل الكواكب الساطعة والأنوار اللامعة، وتجلت لك الحجج البالغة والبراهين الدامغة، فلم يبق إلا أن تكون هناك عيون تبصر وقلوب تمقل، فهل يستوى من أبصر الهدى والرشاد، ومن عميت بصيرته فلم ير ما أمامه وسار يتخبط في ظلمات الجهالة؟ هل يستوى من اهتدى فغم وسلم، ومن ضل فضاغت عليه الفوائد التي عرضت عليه، وكان جناها داني القطوف بين يديه؟ هل يستوى من سار السير السوى وسلك الطريق الرضى فوصل إلى السعادة

ورزق الحسنى وزيادة، ومن تنكب الصراط المستقيم وسار يحدّ وهو كلما جدّ في سيره ابتعد عن قصده، وربما خبط في سيره فأتلف على نفسه ما قد كان سليماً له؟ حقا إنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وليس الذي يعلم أن ما أنزله الرب الكريم الرحمن الرحيم هو الهدى والرحمة المهداة فأخذه شاكراً، كذلك الأعمى الذي يضع يده على ما يظنه مطلبه وإذا هو يقبض على آفة مهلكة، ويشتط في السير وإذا هو يتردى في بئر. ولا يتذكر وينتفع بالذكرى إلا أولو الأبواب والمقول الصافية الخالصة، كما قال تعالى: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد». وعسى أن لا تغفل عن حسن موقع الفاء في قوله «أفمن يعلم» فإن معناها أبعد ما سمعت من تلك الآيات البينة والأمثال الحكيمة، وبعد أن تجلى الأمر ووضح الصبح لذى عينين يتوهم استواء الأعمى والبصير؟

قال تعالى: «الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» الآيات: هذه الآيات والتي بعدها في قوله تعالى: «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» تفصيل وتصريح بما تضمنه هذا المثل الجليل المذكور في قوله عز من قائل: «أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق» الخ، فالجملتان مستقلتان بالفائدة كل في بابها، ولكنهما بسبب متين من ذلك المثل السابق، حتى ظن بعض المفسرين أن قوله: «الذين يوفون» الخ يدل من قوله «أولو الأبواب» أو من قوله «أفمن يعلم أن ما أنزل» الخ. وهذا من شدة الارتباط بين المثل على إجماله، وبين ما سيق لشرحه وتفصيله، وإنما هما جملتان كما سمعت، أولاها فيها مبتدأ موصوف بتسع صفات بينة، وخبره هو قوله: «أولئك لهم عقبي الدار»، وثانيتهما مبتدؤها قوله: «والذين ينقضون عهد الله» الخ، وخبره قوله: «أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار». ولكن الآية الشريفة في القرآن الكريم تراها من قوة الارتباط كأنها كلام واحد وجملة واحدة، فتتنقل في فوائدها المتنوعة المتكررة، وكأنك لا تزال في الكلام الأول. وهذا من أقوى الميزات التي امتاز بها القرآن الكريم.

قلنا إن النوع الأول قد جاء موصوفاً بتسع صفات جليلة ، ونحن نجلوها لك
مفصلة :

الأولى قوله تعالى : « يوفون بعهده الله » وقد نقل في تفسيرها قولان : (الأول) عن
ابن عباس أن المراد بعهده الله ما عقده على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته ، وهو ما أشير
إليه في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على
أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » . و (الثاني) أن المراد بالعهده ما أقام الله الحجة العقلية
أو السمعية على صحته في المعتقدات ، وعلى طلبه في الأعمال حتى صار كأنه عهد بين الله
وبين عباده . ويقرب من هذا أن المراد بالعهده الشرائع التي أمر الله بها عباده ، فقد
أقام عليها حجته ، وقررها بآياته على السنة رسله عليهم السلام . ولقد يلوح لي أن القولين
مرجهما واحد ولا خلاف بينهما ، فلقد سبق في هذه المجلة أن بينّا أن ما أشهد الله
بنى آدم عليه واعترفوا به في قوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » هو
ماركبه في فطرهم من إدراك ما هم عليه من حاجة إلى تعهد القدرة الإلهية لهم بالإيجاد
والتربية والتكميل ، وما أودعه فيهم من الشعور بأنهم لا قيام لهم إلا بإرادة الخالق القيوم ،
ولا كمال لهم إلا أن يؤتيهم الله الكمال من واسع رحمته ، وأن كل شيء فيهم شاهد بأن
ربهم الله ، ولا متصرف فيهم وفي هذا العالم أجمع إلا هو وحده لا شريك له ، فتكون
شهادة حال على ما بينّا ذلك مفصلاً في موضعه ، فليطلبه من أراد الاستيفاء والاستقصاء
في هذه النقطة الدقيقة من موضعه في الجزء الأول من هذه السنة .

والقول الثاني ، وهو كما قلنا راجع إلى هذا القول ، أن المراد بعهده الله ما أقام الله
تعالى الحجة القاطعة على صحته أو على لزومه ووجوبه ، وذلك يشمل جميع التكاليف .
وكان التعبير عنها بأنها عهد الله إشارة إلى أنه لما كان من شأن العبد الخضوع لربه أن
يعترف بما قرر حقيقته ، ويمتثل ما أوجبه وفرضه ، وأنه لا مندوحة له أن يكون مطيعاً
لخالقه ، ومن رحمة الله بعبده أن يتعمده بالهداية والإرشاد ، كان ما يقوم عليه البرهان

القاطع والحجة البينة بمثابة عهد ارتضاه الطرفان وأقراه بينهما ، ويكون القيام به امتثالا وانتهاء واعترافا ، وفاء بذلك العهد الذي ينبغي أن يكون مستقرا لاحتالة بين العبد وربّه . هذا ولا شك معنى عام شامل لكل فروع الشريعة وأصولها ، فما من باب من أبواب الشرع ولا فضيلة في الخلق ولا عدالة في المعاملة ولا مجاملة في المعاشرة إلا وهو داخل في عهد الله ، والقيام به من باب الوفاء بعهد الله . وإنك لتجد في إضافة العهد الى الله من تربية الداعية للامتثال والحفز على الوفاء ما هو غنى عن البيان ، فهو عهد إن لم يكف فيه أنه عهد فيكفيه أنه عهد الله . ولفظ الجلالة متضمن لكل صفات العظمة والجلال ، فهو يجمع الصفات المتجلية في أسمائه الحسنى عز وجل ، وأيضا فإنه لا يسمى الشخص موفيا بعهد الله إلا إذا قام بكل ما كلفه به الله ، فإن من حلف على أشياء لا يخرج عن الحنث ولا يسمى بارا في يمينه إلا إذا أتى بها جميعها ، فلا خلال بشيء واحد منها يسمى نكثا لليمين وحنثا فيه ونقضا للعهد .

الثانية من الصفات التسع ما ذكر في قوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » وهو وإن كان قريبا من الوصف الأول وهو الوفاء بعهد الله إلا أن بينهما شيئا من الفرق ، فالأول ظاهر فيما أمر الله به ابتداء ، والثاني يتبادر منه ما أكده المرء بميثاق أعطاه على نفسه ، سواء أكان فيما بينه وبين ربه كالأيمان والنذور ، أو بينه وبين الخلائق كأنواع العقود والمعاهدات . وأيضا فإن قوله : « ولا ينقضون الميثاق » فيه تأكيد لاستمرار وفاء العهد المستفاد من صيغة الجملة الفعلية التي للاستقبال ، فقد قرر علماء البلاغة أنها تشعر بالاستمرار ، ولكن التصريح بأنهم لا ينقضون الميثاق أوفى بالدلالة على ذلك .

ولقد جاء الحث على وفاء العهد والتنفير من نقض المواثيق في غير ما آية وحديث ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وقال تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة

فانذِرْ إِلَهُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ أَىٰ فَاذْنَبْهُمْ أَنَّ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنْ عَهْدٍ قَدْ نَبَذَ بِسَبَبِ مَا بَدَرُ مِنْهُمْ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ غِيلَةٌ وَعَلَىٰ غُرَّةٍ . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصْمَتُهُ : رَجُلٌ أُعْطِيَ عَهْدًا ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا اسْتَوْفَىٰ عَمَلَهُ وَظَلَمَهُ أَجْرَهُ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حَرًّا فَاسْتَرْقَّ الْحَرُّ وَأَكَلَ ثَمَنَهُ » .

وتكاد تجمع العقول والشرائع على استنكار الغدر مهما كانت دواعيه وفوائده ، روى أن ملكاً أعياه خارج عليه فلم ير بداً من أن يؤمنه ليأمن شره ، فوثق به الخارج وأسلم قياده ، فغدر به ، فلما اشتفى منه وأمن على مملكته خاطب بعض خواصه مبهتجاً فقال : كيف رأيت ، لقد استرحنا من هذا الخارج ، فأجاب به : بأن ما خسره الملك أضعاف ما ربحه بالراحة منه ، فقد أضعت الثقة بمهالك فلا يطمئن إليك بعدها أحد ، فكان سبباً عظيماً لأسفه وندامته .

الصفة الثالثة ما ذكر في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » . وهذا وصف عام يتناول أحوالاً عديدة قد أمر الله بصلتها ، ففيه صلة الرحم ، وصلة القرابة ، وحسن الجوار ، وإكرام الجار ، ومراعاة حقوق أخوة الإيمان المذكورة في قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وفيه صلة الأغنياء للفقراء بالإحسان إليهم ، والعطف على الأيتام والحنو عليهم ، وفيه التواد بين الناس ، وفيه وهو من أعظمها صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمناصرة والمؤازرة ونصرة دينه ، ومحبتة حتى يكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين ، بل أحب إليه من نفسه ، وفيه وهو أعمها صلة الإيمان بالعمل والإحسان . فإذا قيل في تفسير الآية بواحد من هذه المذكورات فالآية متسعة لجميعها ، ولا وجه لتضييق الفائدة مع اتساع الآية للجميع ، فيدخل فيه جميع الحقوق الواجبة الرعاية بين العباد ، بل حتى الرفق بالحيوان وما مائل ذلك .

ولقد يقال : أليس هذا داخلا في الوفاء بعهد الله وعدم نقض البيثاق ، لا سيما إذا فسر العهد بالشرائع التي أمر الله بها ؟ أليس هذا وما بعده داخلا فيما أمر الله به في شرائعه ؟ وجوابه أن هذا تقرير وتنصيب على أمم الأمم التي قد يغفل عنها بعض المكلفين مع أهمية شأنها ، ومقام الإرشاد وتربية النفوس لا يكفى فيه عام عن خاص ولا مجمل عن مفصل ، فذكر هذه الصفة وما يمددها للإشادة بها ، وتربية النفوس على الأخذ بها والتزامها .

الرابعة والخامسة ما في قوله تعالى : « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » . والمعنى فيهما أن هذه الصفات السابقة على جلالها إنما تكون موجبة لرضاء الحق واستحقاق المثوبة ودخول صاحبها في أولى الأبواب للتذكير الذين علموا أن ما أنزل إليك من ربك الحق ، إذا كان الباعث لهم على الإيمان بها خشية ربهم وخوفهم من حسابه يوم يقوم الناس لرب العالمين . والخشية والخوف متقاربان في المعنى وإن فرق بعضهم بينهما ببعض الفروق ، مثل أن الخشية خوف يصحبه تعظيم وإجلال للمخشى وإن كان الخاشي أيضا عظيما ، والخوف يرجع الى ضعف الخائف وإن كان المخوف منه أمرا يسيرا ، ومثل أن الخشية ترجع الى من يصدر عنه الأمر الضار المؤلم ، والخوف يتعلق بنفس ذلك الأمر المؤلم أو بمصدره ، تقول : خفت الأسد وخفت اغتياله ، وتقول : خشيت الأسد ، ولا يقال خشيت اغتياله إلا على وجه التوسع ، غير أن الاستعمال الفصيح قد جاء فيه الوجهان ، فقد قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » إلا أن إشعار الخشية باستعظام المخشى منه ، والخوف باستصغار الخائف أمر نفسه ، يكاد يكون واضحا في أغلب الاستعمالات . وقد عرفت أن المراد بهذين الوصفين لفت النظر الى أن محل الاعتداد شرعا بما ذكر من الصفات إنما هو حينما يكون الباعث عليها امتثال أمر الله .

الصفة السادسة ما في قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » . والصبر

مِلَاك العبادات ، بل مجمع الفضائل كلها . وقد ورد فيه « الصبر نصف الايمان » .
وقد ذكر في القرآن الكريم نيفا وسبعين مرة . ولقد قيد بقوله « ابتغاء وجه ربهم »
لأن الصبر كثيرا ما يدعو اليه دواعى من حظوظ النفس ، كالصبر تجلدا ، والصبر
حبا للمحمدة ، والصبر اتقاء شماتة الأعداء ، والصبر لعله أن الجزع لا يعيد عليه
فائتا ، وليس شئ من هذا بالصبر المحمود في نظر الشرع ، وإنما الصبر الذى أثنى الله
عليه وحث عليه ودعا اليه هو الصبر ابتغاء وجه الله أى طلبا لمرضاة ، ويقع هذا على
وجوه : أحدها أن يصبر على البلاء لأنه قسمة من الحكيم العلام يجب الخضوع لها
والإذعان رضا بحكم قاسمها . وثانيها أن يصبر على ما يكرهه لعله أنه من تصرفات
الحكيم العليم الذى لا يفعل إلا عن حكمة ، وكل ما صدر منه فهو خير وجيل في ذاته
وموافق للمصلحة العامة والنظام العالمى ، فيكون جمالا مرضيا محبوبا . وثالثها أن يصبر
لأن الله أمره بالصبر ، فهو يرجو ثواب الله بامتثال أمره . ورابعها ، ولعله أعلاها ،
أن يصبر عن رضا بل عن حب لمن اختصه بهذه التصرفات ، فهو يرى فيها تذكيرا
بالعظمة الإلهية ، فينتقل نظره من البلية الى المبتلى بها فيستغرق في شهوده ويتلذذ
بتذكره ، على نسق ما يقول المحب لحبيبه : هذه هى الكلمة التى يلذ لها سمعى وإن ضمنت
شتمى . ولعل هذا المقام الأخير يستشعر به من قوله تعالى : « ابتغاء وجه ربهم »
فكانهم رأوا فيما أصابهم ما يجعلهم يحصرون كل تفكيرهم في تذكر جلال ربهم حتى
كانهم يشاهدونه ، فهم يبتغون بالصبر شهود وجه ربهم ، وهذا مقام ذوق من ذاقه
عرفه . نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل معرفته .

ويحسن أن ننبهك لما فى اختيار صيغة الماضى فى قوله « صبروا » من الإشارة الى
أن فضيلة الصبر ينبغى أن تكون حاصلة مستقرة ثابتة لا تزول ولا تنزل ، وأما الأعمال
التي سبقت فعبّر عنها بصيغة المضارع لأنها تتجدد حيناً بعد حين لكل مناسبة
كالوفاء بالعهد ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل .

الصفة السابعة والثامنة ما في قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » وإن أكثر ما تذكر الصلاة بلفظ إقام ، للإشارة الى أن المطلوب في الصلاة استيفاء أركانها وإقامة أعمالها حتى تكون كالبناء المتناسك القائم على أحسن حال وأجل هيئة . وحسبك في هذا ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي أساء صلاته : « صل فإنك لم تصل » فقد جعل العمل الذي لم يستوف ما طلب منه هدرا ملغيا كأنه لم يكن . وكذلك أكثر ما تذكر الصلاة مقترنة بالزكاة . وهذا ما جاء هنا في قوله : « وأنفقوا مما رزقناهم » وفي التعبير بقوله : « مما رزقناهم » تربية لداعية الإنفاق ، فكأنه يقول لهم : إن ما دعوناكم للإِنفاق منه هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم في مخالفة أمرنا والشح به على عبادنا .

وقوله : « سرا وعلانية » لبيان أن الإنفاق على كل حال حسن جميل ، وقد يطلب كل منهما في مقامه اللائق به ، فربما كان الإنفاق في السر أفضل حينما يخشى الرياء أو يكون المنفق عليه يستحي ويتأذى من إعلان إعطائه ، وقد يكون الإنفاق علنا أفضل كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره . ومنهم من حمل الإنفاق سرا على الصدقة النافلة ، والإنفاق علنا على الزكاة المفروضة ، وهو وجه أيضا . وقد جاء في حديث « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ورجل أنفق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

الصفة التاسعة في قوله تعالى : « ويدرون بالحسنة السيئة » . ومعنى يدرون يدفعون ، وذلك أيضا يحى ، على وجوه ، فمنها أن يقابل الشر بالخير كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس إلا إحسان أن تحسن لمن أحسن اليك وإنما الإحسان أن تحسن الى من أساء اليك » . ومنها أن ينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة . ومنها أن يستل بغض المبغض بالمعروف حتى يصيره خيرا بعد أن كان شريرا . ومنها أنه إذا بدرت منه سيئة أتبعها بالحسنة حتى يغفرها الله له « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

هذه هي الصفات التي وصف الله بها عباده المتقين بعد أن وصفهم بأنهم أولو الأبواب الحقيقتون بأن يتذكروا وتنفعهم الذكرى، والجديرون بأنهم علموا أن ما أنزل الى النبي صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق. وقد أخبر عنهم بعد ما ساق صفاتهم الجليلة ونعوتهم الجميلة بأن لهم عقبى الدار. وإعادة ذكرهم بقوله «أولئك» كأنه يشير اليهم حتى يراهم العقل شاخصين بصفاتهم السابقة، فيفيض عليهم هذا الجزاء الآو في من أجل تلك الصفات التي جلاهم بها.

ومعنى عقبى الدار: العاقبة الجميلة لهذه الدار التي لا تخلو من الأكدار، فهي عاقبة خالية من أكدار هذه الحياة، وهي عاقبة خالدة مستقرة، فهي الحياة الحقيقية، وأما هذه الحياة فهي متاع زائل، وإن الدار الآخرة هي الحيوان. فهذه الكلمة على حد قول الناس في مخاطباتهم: فلان هو الفائر في النهاية، هو الذي كسب آخرًا، وأمثال ذلك، والله المثل الأعلى.

وأردفها بقوله تعالى: جنات عدن، وهي منزلة وسط الجنة، أو جنات عدن بمعنى الإقامة والاستقرار، من عدن بالمكان أقام به واستقر فيه، ومنه المعدن لمستقر الجواهر والنفائس.

قال تعالى: «يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» وهاهنا يتبادر أن تقوى الآباء تفيد أبناءهم وأزواجهم وذرياتهم إذا كانوا صالحين أى مؤمنين وإن قصرُوا عن أعمال آبائهم بعض التقصير، فيصح أن يكرم الله عباده الأتقياء الصالحين برفع درجات ذريتهم وأزواجهم الى منازلهم وإن قصرُوا عنهم، حتى يكون للتكريم وجه، فإنه إذا كان الذراري لا ينالون تلك المنزلة وهي جنات عدن إلا إذا عملوا لها العمل الكامل، فن أين يكون تكريم آبائهم بتكريمهم؟ فهم حينئذ يكونون قد أكرموا لأنهم استحقوا ذلك بأنفسهم. نعم قيد الصلاح أى الإيمان لا بد منه، لقوله تعالى: «ومن صلح» ولا يمنع هذا قوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» فإن هذه

المنزلة التي نالها أولئك المؤمنون المقصرون ، نالوها بفضل من الله لا باستحقاق ، وفصل الكريم واسع ، وإن كان لا ينبغي الاعتماد على هذا والاستخفاف بالتكاليف ، فانه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وقوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » إشارة الى التكريم والتحية التي يمنحهم الله إياها ، حتى يفوزوا بالنعيم والتكريم . وقوله : « من كل باب » يحتمل أن يكون إشارة الى سعة ما أعد لهم حتى صار له أبواب عدة يتوافد عليهم منها الملائكة للتحية . ويحتمل أن تكون الأبواب إشارة الى تعدد أبواب البر والخير والتقوى التي قاموا بها في دنياهم فاستحقوا بسببها تحية الملائكة وتوافدهم عليهم .

وقوله : « سلام عليكم بما صبرتم » أى يحبونهم بهذه المقالة ، وكان اختيار السلام لأنه بمعنى الأمان من كل ما يخاف . فكأنه يقال لهم : قد أصبحتم بأمن من كل المخاوف ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

وقوله : « بما صبرتم » إنما خص الصبر بالذكر لما قدمنا لك من أن الصبر عماد التكليف كلها وقطب دارتها ، فما من تكليف إلا ومرجه الى الصبر على عمل شاق ، أو الصبر عن مشتهى تميل اليه النفس . « فنعم عقبي الدار » ثناء أجل ثناء على ما فازوا به بما صبروا .

نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زميرتهم ، وأن يحققنا بصفاتهم ، إنه سميع الدعاء .
محجب النداء محقق الرجاء . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأتى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

رؤية الهلال

عند الغروب وبعد الفجر

- ٢ -

ذكرنا في مقالنا السابق أن الاسلام يسرّ سمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا، وغايته التي يرى اليها من قرب أو بعد هي إصلاح القلوب وغرس مراقبة الله فيها، وأبغض الأشياء اليه هو الفرقة والانقسام، ولذلك وسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهادهم، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد. بل بينهم من التفاوت في الاستعداد والتخالف في التكوين والتباين في الدرجات والاختلاف في الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى. ونصحنافيهامفطرين الذين عملوا بحكم القاضى الذى شهد أمامه شهود المساء برؤية هلال شوال، وللصائمين الذين يقولون إنهم رأوا الهلال صباحا واعتقدوا أن اليوم من رمضان.

نصحناهم جميعا ألا يتنازعوا فيه فشلوا وتذهب ربحهم، وقلنا إن كلا يعمل على اعتقاده وما أداه اليه اجتهاده. ونصحنا للقاضى أن يتحرى ويحتاط، فإن عليه تبعه كبرى إذا تهاون فى ذلك، وعلى القضاة أن يعرفوا أحوال الناس، وأن يكون لهم فراسة صادقة، وبصيرة نافذة، بحيث لا يخفى عليهم أحوال المجتمع الذى هم فيه. فليمدققوا فى أمر الشهود، وليعلموا أن الأمر جلل والخطب كبير والناقد بصير.

وقد أذكرنى ذلك قول بعض المفسرين فى قوله تعالى : « يادادوإناجعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبّع الهوى » : إنما نهاه الله عن اتباع الهوى بعد أن أمره أن يحكم بالحق لأن الحكم بالحق لا يخرججه عن المسئولية إلا إذا حكم بالحق لأجل كونه حقا، فإذا حكم به لأجل كونه موافقا لهواه لا لكونه حقا، لم يكن من قضاة الحق بل من قضاة الهوى.

ولنذكر لك بعد ذلك الخلاصة التي يجب التعويل عليها في رأينا ثم نعقبها بكلام بعض العلماء ، فنقول :

خلاصة الرأي الذي نرتئيه أنه لا يمكنني بحال من الأحوال أن أقول إنه يصح للإنسان أن يقدم على أمر وهو يعتقد حرمة ، أو أن يخالفه وهو يعتقد وجوبه ؛ ولا أن أقول إن الدين يخالف حقيقة علمية قررها العلم وقام عليها البرهان ؛ ولا يصح أن نعرض الدين لهزاء المهازئين وسخرية الساخرين في عصر لا داعي للإطناب في شرحه وبيان ما فيه .

ولا نزال نكرر أن الله لم يكلفنا بالواقع « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وقد قررنا أن المجتهد يجب اتباع ظنه ، ولا يجوز مخالفته . وذكر الفقهاء أن من رأى طير الخلف بالطلاق أنه غراب مثلا ، فنظر إليه آخر خلف بالطلاق أنه حداة ، ثم لم يتبين أمر ذلك الطائر ، لم يحكم بوقوع الطلاق على واحد منهما ، حيث لم يحلف إلا عن اعتقاد لم يتبين خلافه .

ولو سافر اثنان واشتبهت عليهما جهة القبلة ومخالفا في أمرها لوجب على كلٍ الأخذ بما أدى إليه اجتهاده ورأيه وتحريره ، ولا يجوز لأحدهما أن ينكر على صاحبه . فإن هذا هو الواجب في حق كل منهما ، ولا لوم على من فعل ما وجب عليه . فإن مبنى الدين على إظهار العبودية والامتثال لأوامر الربوبية . وماذا نريد من التسامح بعد ما قال كثير من العلماء : إن الحق يتعدد ؟ فإن الواجب في حق كل مجتهد ما آداه إليه اجتهاده .

وسره ما بينناه في النهيد من أن الله يعلم ضعف البشر ، فلم يكلفهم بإصابة الواقع ، وإنما كلفهم أن يحترموا أوامره ويحذروا نواهيه ، ولا يخرجوا عليه ولا على رسوله فيما يعتقدون .

أما من كان بعيدا عن تلك المباحث ، ولم يقع في نفسه صدق إحدى الفرقتين وكذب الأخرى من أولئك الرائيين ، فعليه أن يتبع حكم الحاكم ، ويكون مع السواد الأعظم .

ولا يفوتنا أن نقول :

إن الشافعية يرون أن الحاسب يعمل بمقتضى حسابه في حق نفسه . وكذلك من قلده مصداق له في حسابه معتقداً أنه الواقع . ولقد أرى أن التقليد في مثل هذا إذا أمكن أن يرفع به الخلاف ويحصل به الوفاق أولى من الفرقة والانقسام والتنازع بالألقاب . ولا أزال أكرر أن الله لا يبغيض شيئاً مثل الشقاق والانقسام ، ولا يحب شيئاً مثل الألفة والوئام ، وقد كانت وجوه الخلاف على عهد السلف الصالح لا تكاد تحصر ، ولم يكن بينهم تباغض ولا تشاتم ، فكانوا ورثة الأنبياء حقاً يجب بعضهم بعضاً ويثنى بعضهم على بعض .

وقد طلب المنصور من الامام مالك أن يحمل الناس على الموطأ فأبى ، علماً منه رضى الله عنه أن الأمر في الفروع هين ، وأن الظن فيه كاف ، وأن الخطأ فيه مأجور ، وأنه يجوز أن يكون الصواب مع غيره لا معه . وهذا هو شأن أئمة الهدى ، العارفين بأنفسهم وضعفها ، العالمين بسماحة الشريعة وسعتها .

هذا ما أملاه علىّ وارد الوقت بدون مراجعة ولا تعمق . ولا أزال أكرر أنني أحب من القضاة أن يتحروا غاية التحري ، فإننا في زمان كثير فيه الزور وطم فيه الفجور . وبعد كتابة ما تقدم رأيت في المسألة نصاً صريحاً لابن عابدين الحنفى في حاشيته على الدر المختار ، وكذلك لمولانا الشيخ محمد عlish في فتاويه ، فرأيت من النصيحة للدين أن أنقل ذلك للقراء وإن خالف ما تقدم لنا . واليك ما قال ابن عابدين :

« أما إذا رُئِيَ يوم التاسع والعشرين قبل الشمس ثم رُئِيَ ليلة الثلاثين بعد الغروب وشهدت بيعة شرعية بذلك ، فإن الحاكِمَ يحكم برؤيته ليلاً كما هو نص الحديث ، ولا يلتفت إلى قول النجمين إنه لا يمكن رؤيته صباحاً ثم مساءً في يوم واحد . وكذا لو ثبتت رؤيته ليلاً ثم زعم زاعم أنه رآه صبيحتها فإن القاضى لا يلتفت إلى كلامه » .

وفي فتاوى مولانا الشيخ محمد عlish ما يتفق هو وما ذكره العلامة ابن عابدين

في النتيجة وطرح كلام المنجمين . (وبعض العلماء يحتج بقوله عليه السلام : « نحن أمة أمية » الخ . ويمكننا أن نجمل الحديث حجة لنا ، فإنه يشير الى أننا إذا أصبحنا غير أميين تغير الحكم ووجب أن نعمل بما يقتضيه العلم) .

ولكني بعد هذا كله مصمم على ما قلته أولاً من أن الدين الاسلامي لا يخالف حقيقة علمية متفقاً عليها متى تبينت ، فليكن البحث والتحرى عن تلك المقررات التي أجمعوا عليها مدى العصور والدهور .

ومسألتنا مسألة محسوسات ومشاهدات لامسألة تنجيم وتخمين . فإن ادعى مدع أن المشاهدات على غير هذا فعليه البيان . والدين الاسلامي لا يناقض الحقائق على كل حال متى تبينت . وهؤلاء العلماء مع إجلالي البالغ لهم ، أقول إنهم ليسوا إخصائيين في علم النجوم . وقد قال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . مع ملاحظة ما تقدم لنا من أن هناك أموراً ظنية أو تخمينية لا يجوز الأخذ بها ولا التمويل عليها ، وأموراً قطعية لا شك فيها لا يجوز إهمالها ولا العدول عنها . (وعدم رؤية الهلال في الصباح والمساء آخر الشهر مما أجمعوا عليه) . ولا تنس ما قدمنا لك من أن كل إنسان في الفروع يعمل بما وصل اليه بحجة وانطوى عليه اعتقاده ، فلا يصح له مثلاً أن يفطر وهو يعتقد وجوب الصوم ، ولا أن يصوم وهو يعتقد وجوب الفطر . ومن لم يتكوّن له اعتقاد فعليه باتباع السواد الأعظم وما قضى به القاضي ، الى آخر ما أسلفناه .

فالدين الاسلامي يسع ذلك كله ، وليس يريد من الناس إلا أن يحترموا أوامر الله فيما يعتقدون ولا يخرجوا عليها . ولا يمكنني أن أحيد عن ذلك . وليختر كل ما شاء . ولا أزال أكرر أنه لا بد أن نفرق بين ما هو قطعي عند علماء النجوم وما هو ظني أو تخميني . غير أنني أرجو ألا يتنازعوا ذلك التنازع الذي يكرهه الله ورسوله . والله يتولى هدايتنا جميعاً بمنه وكرمه

برسوف الدجوي

من هيئة كبار العلماء

الاسلام والطب الحديث

كلام في المعجزات وخوارق العادات

لما كانت المعجزات بما فيها من خرق للنواميس الطبيعية والانفعالات النفسانية تدخل في اختصاص الطبيب أكثر من غيره ، جئت أخلص هنا ما وصلت إليه من قواعد أساسية في كل ما ورد في القرآن منها :

١ - المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف كل ما تراه بوميا من عظة وعظمة : كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فانه مع إعجازه يأتي مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل النواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك مع عظمتها لا يحدث صدمة لتعودنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للانسان مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

٢ - لا نحصل المعجزات إلا على أيدي الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين فهي أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

٣ - لمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيئ الله الظروف لتحملها ، ويهيئ النبي نفسه لقبولها ، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها ، فأمر الله لسيدنا موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها فتكون بيضاء ليس إلا تهيئته للمعجزات الأخرى . وكذلك عدم استطاعة سيدنا زكريا الكلام ثلاثة أيام قبل حدوث الحمل عند امرأته .

وقد سبق الكلام على تهيئة الحاضرين والمستمعين ، وهذا هو السبب في أن المعجزات تظهر دائما ملطفة بمقادير مختلفة ، وهذا سر ذكر قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى في سورة مريم .

٤ - ليس للعقل البشرى أن يحكم على أى المعجزات أعظم من الأخرى ، ولا أن يتكلم عن الطريقة التى تحصل بها المعجزات ، لأنه يتكلم عن شىء كله مجهول له ما دامت المعجزة من صنع الله ، وما دام الانسان وعقله من صنع الله كذلك على مقتضى سننه ، ولا يستطيع المخلوق أن يفهم السنة التى خلق عليها ، وإلا لا استطاع الانسان أن يخلق نفسه بنفسه ، وأن يتحكم فى خلق غيره .

وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل الى صنعها الانسان مهما ارتقى ، وأغلبها ينتهى الى شىء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة ، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى . والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئاً عضوياً حياً لا يمكن استعاضته ، ومن أمكنه استعاضته شىء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعويض الشكل . وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يومياً فهذا يحدث فى الأحوال العصبية غير العضوية ، وبواسطة أطباء العيون ، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى ، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلاً إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد الخ . وكذلك صنع أرجل جديدة ، فالجراح يصنع رجلاً صناعية ، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الانسان أن يمشى عليها ، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلاً من لحم ودم .

وصفوة القول أنه لا يمكنه أن يصنع جزءاً حياً مهما صغر حجمه ، لأن الجسم بمجموع ملايين من الخلايا ، وصنع واحدة كصنع الشكل ، وهذا معنى قوله تعالى : « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الانسان . ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط ، ولكنها كلها من نوع واحد . وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه .

وقد يقول البعض إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجوداً فى مدة الأنبياء لعدت معجزات . وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقى للمعجزات لم يفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية

على قواعد علمية لا تتغير ، فاذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها ، فإن وجدها لا ينطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج من هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية . فالسنن الالهية أو القواعد العلمية (أو قواعد الطبيعة) كما يسميها الطبيعيون ، لا حد لها ، ولا تتغير أبداً . وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتماً على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أيضاً . وكل ما يظهر مدهشاً في نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ، هو من الاستعانة بهذه القواعد . فالذى يتكلم فى أوربا ويسمعه آخر فى مصر بواسطة الراديو ، استطاع ذلك لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج الى العالم كله ، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسعروها لا غرضهم . ولذلك مهما عظمت النتائج فى المخترعات فإن طريق الوصول اليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوله نهراً يجرى ، فانه لم يخلق نهراً ولكنه استعان بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فانها من طراز آخر ، وهى مهما صغرت نتائجها خلق سنة جديدة .

وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم . ولزيادة الإيضاح أضرب مثلاً قصة سيدنا ابراهيم وعدم احتراقه بالنار ، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطى الانسان بشيء غير قابل للاحتراق ويضعه فى النار فلا يحترق ، وهذا يشبه المعجزة ، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية . أما المعجزة فهى أن تضع الانسان كما هو جسماً ولحمياً فى النار ، فيكون عدم احتراقه هنا ، أى المعجزة ، خرقاً للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم إذا وضع فى النار ، وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه ، ولكنه فى الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته ، لأن جسم الانسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار ، والفرق بين الاثنين ظاهر ، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع . ويمكن تطبيق هذه النظرية فى معجزة « ذى النون » لأن الانسان يمكنه أن يعيش أياماً فى الغوصات تحت البحر ، ولكنه يفعل ذلك بالاستعانة بالنواميس الطبيعية ،

وأما المعجزة فتكون بخرق القوانين . وهكذا مكث ذو النون في بطن الحوت بدون هواء صناعي ، معرضاً لأن يهضم ويتحول جسمه مثل باقي المواد .

والطبيب الذي يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيي الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية .
وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن . ويتساءل كثيرون : هل المعجزات ضرورية ؟
والجواب أنها ضرورية لإيمان الانسان بقدره الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبداً ، وهذا ما يسمى « بالطبيعة » ولا فرق بين الاثنين . وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفي للآن شيء مدهش ، حتى إن الانسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ما الحاجة بي لأن أقول إن هناك صانعاً أزلياً مادامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟ وهنا كانت حكمة الله في أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود . ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الانسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية في ثقب فيها فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبداً آلاف السنين ، فإن الانسان يشك في صانعها الأول ، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها ، يقول : من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، وإذا رأى يوماً ما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيهِ آلة صغيرة تزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعاً ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين ، لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذي منه خلق العالم الانساني كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التي لا تبدل فيها .

وصفوة القول أن أساس المعجزة وعظمتها ليس في نتائجها وغرائبها . فالدّهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة في طريقة صنعها بدون السنن الاعتيادية ، وهي لذلك لا تتكرر أبداً إلا بإذن الله ، لأن الانسان لا يعرف قاعدتها ولا يدرك طريقة صنعها . أما الاختراع فإنه اكتشاف لنا موس إلهي (طبيعي) ولذلك هو يتكرر دائماً في الظروف نفسها على يد كل إنسان .

نظرة

في تفسير قوله تعالى: « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى »

الدكتور عبد العزيز اسماعيل ممن أنجبتهم مصر فكان لها فخرا، وكان لأبنائها نفعاً بما وهبه الله من نعمة التبريز في الطب والتوفيق في العلاج. ونرجو أن ينفعه الله أضعاف ما ينفع به.

لم يشأ أن يقف عند حد علاج الأجسام من أمراضها، بل أضاف إلى ذلك مبرة جديدة يضاعف الله ثبوته عليها، وهى علاج النفوس من أمراض الجهالة، فاستعان بما تبهر فيه من علوم الطب وما يتصل بها على مباحث يحلوها للقراء في تفسير القرآن الكريم على حسب ما يرشد إليه العلم الحديث والاستكشافات الجديدة. والقرآن لا تنقض عجائبه، وكلما ازداد الناس علما ازدادوا فيه استبصارا، وأنجلي لهم من أسرارهم ما لم يكونوا يعلمون. فנסأل الله أن يجزى حضرة الدكتور على ذلك خير الجزاء.

ولقد قرأت له فيما قرأت كلمة في مجلة الأزهر ساقها في تفسير قوله تعالى: « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » قال فيها « قيل في التفسير: إنشاء الحى من النطفة والنطفة من الحيوان، ولكن النطفة هى حيوانات حية وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير »

ثم قال حضرته: « والتفسير الحقيقى هو « إخراج الحى من الميت » كما يحصل من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره والغذاء شىء ميت، ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت الخ ». ونحن مع شكرنا لحضرة الدكتور هذه العناية التى لا يريد منها إلا خدمة العلم والدين، نلاحظ أن ما فسر به الآية الكريمة يبتعد عما يتبادر إلى الذهن من لفظ (يخرج)،

فإن الظاهر أن هذا الذى أخرج شئ جديد مستقل الوجود . لا أنه نمو وكبر لشئ موجود فى الأصل ، وأن المشار اليه فى الآية الكريمة هو قانون التوالد السارى فى الحيوان . وإن شئت فقل : قانون التوالد فى الحيوان والنبات . ذلك أن الحيوان المتولد قد تولد من شئ لا بد أن تنتهى سلسلة التوالد فيه الى حلقة ميتة ، فإن لم يصح أنها النطفة لأن النطفة حيوانات حية أو فيها حيوانات حية ، فليكن هو الغذاء الذى نشأت عنه النطفة ، ولاشك أنه شئ ميت كما قرر حضرة الدكتور . فاذا قيل إن الغذاء حيوان أو نبات وكل منهما فيه معنى الحياة فى الجملة ، قلنا فلنرجع الى ما امتصه النبات حتى نمأ ، فلا بد من الوصول البتة الى شئ ميت خرج منه هذا الحى ، ويشاهد ذلك كل يوم . فالحياة تتجدد فى الأحياء وتستمد مادتها فى ماضى سلسلتها حتى تصل الى شئ ميت ، ولو كان هو التراب الذى يمد النبات .

وأما ما ذكره حضرته عن بعض المفسرين فلعل وجهه أن هذا هو ما كان معروفا للمخاطبين قبل اتساع المعلومات الدقيقة الفنية . والآية تحمل على ما يفهمه جمهور المخاطبين بها . ومزية القرآن الكريم أنه صالح فى الفهم والفائدة لكل الطبقات ، لا يتوقف فهمه على متعمق فى العلم . فاذا ما كشف العلم حقيقة كانت غائبة تجلى فهم القرآن العظيم بمظهر أرقى ، وهكذا لا تنقضى عجائبه . وما يدريك فلعل قائل يقول إن التراب الذى يغذى النبات يحتوى على جراثيم فيها نوع حياة تهتز وتربو حين ينزل عليها الماء فتغذى النبات فيخرج منها خروج حى من حى ، فنقول له حينئذ : وهذه الجراثيم خارجة من تراب ميت ، فلا بد أن تصل الى إخراج الحى من الميت . فالحياة ألبتة طارئة بعد موت . وكما تطرأ الحياة بعد الموت يطرأ الموت بعد الحياة ، فتعاقب الأوطار على المادة الواحدة بقدرة القادر المختار . وأطوارها متلاحقة ، ودرجات التفصيل بينها خفية ، فتفهم منها كل طبقة بحسب مقدارها كما بيناه فى تفسير قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » . والله أعلم

ابراهيم الجبالى

الحياة الادبية عند العرب

وعدنا في المقال الثاني من مقالات « تاريخ الألفاظ » بالتحدث عن الحياة الأدبية عند العرب ، واختلاف لغاتهم ، وقيمة النصوص الأدبية المعزوة الى العصر الجاهلي ، ووفاء بذلك الوعد نبداً هذا المبحث بهذا المقال :

القرآن الكريم أصدق المصادر في الإنباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين ، فاذا حدثنا القراء ان بشيء عن العرب أخذناه أخذ الوائق بصحته ، المطمئن الى صدقه ، ثم نتبع مقالات التاريخ والأدب ونمحس منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل الى نتيجة علمية واضحة .

وصف القرآن الحكيم العرب بالفصاحة ، وذراية اللسان ، فقال في قوم أظهروا الإيمان والودادة ، وأضرموا الكفر والعداوة : « أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَأَذا جاءَ الْخَوْفُ سَلِّقُوكمُ بِالسِّنَةِ حِدَادِ » . ونعتهم بالطول في البلاغة فقال : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ » . وخصهم بالفوق في البيان فقال : « وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ » . قال الزمخشري : « وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة ، وفصاحة الألسن » . ووسمهم بقوة العارضة والدهاء إذ قال : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وسجل عليهم اللدد في الخصومة ، والجدل في المحاوراة بقوله : « وقالوا أآلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » وبقوله : « فأنما يسرناه بلسانك لتبشِّرَ به الْمُتَّقِينَ وتُنذِرَ به قوماً لداً » وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونهى فقال : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » قال في الكشف : وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى .

والقرآن أيضا تحدى العرب أن يأتوا بمحدث مثله لما بهتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقول القرآن من عند نفسه ، فهل كانت تلك الأوصاف كلها ، وهذا التحدى للعرب وهم فارغون من أدب حتى يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاسير بما يخلب الألباب ، ويستميل الأسماع ، من منطق حسن ، وكلام بليغ ، وبيان بديع في فنون من المعارف الانسانية الأدبية ، يستحقون بها تلك الأوصاف ، ويصح أن يتوجه اليهم هذا التحدى ، وكيف يقع التحدى الصارم لقوم ذوى عيٍّ وحصر ، وضعف في النُتة العقلية يعيشون عيشة أولية في حياة جاهلة بليدة ؟

ليس القرآن الحكيم كتاب خطابة يلقي بالقول على عواهنه ، وإنما هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ولكن بعض الباحثين يحلوهم أن يعيشوا حول أدب العرب ، وتاريخ العرب ، وأن يصوروه أمة لا تشعر بالحياة إطلاقا ، بله حياة الأدب التى تليق بهم كأمة لها تاريخ مجيد ، وحضارة زاهية يقول عنها ابن خلدون : « وما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجبالهم من الملك ، ودول عاد وثمود والعمالة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » . وقال فى موضع آخر : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترفع ، مثل عاد وثمود والعمالة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع فلم قبل بيلاء الدولة » .

فإذا قال العرب : تلك آثارنا تدل علينا ، وهذا أدبنا بين أيديكم فاقروا ، ثم احكموا ، ازورّ هؤلاء الباحثون ، وأنفضوا رءوسهم قائلين : هذا شعر مصنوع منحول ، وذلك النثر باطل الأباطيل ، وتلك الشخصيات أبطال روائية انتزعها الخيال انتزاعا

ولا وجود لها في التاريخ، وهذه مغامرة في البحث لا يسوغها النقد الدقيق للتاريخ إلا لمن يأخذون تاريخ العرب بعيدا عن منابعه، ويتلقفونه من غير مصادره.

فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا في حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها، نعم وإنما كان فريق منهم في طور بداوة طارئ عليهم، غير متأصل فيهم. ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذا بعضها بأطراف بعض، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارها قوية قائمة في اليمن والشام والعراق حتى جاء الاسلام، وأولئك الذين لحقهم الاسلام في طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد، فهم إما عدنانيون انشقت عنهم نبعة جرهم اليمنية بتلقيح أزكى دم من أشرف بيت وأكرم أرومة في الأرض، أرومة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، وإما قحطانيون جاءوا الى الحجاز إثر حادث سد مأرب بعد أن رتموا في مجبوحة الحضارة أزمانا طويلة هذبت عقولهم، وصفت نفوسهم، وصقلت ألسنتهم، فكانت لهم معارف تليق بملكهم، وكان لهم أدب يناسب حضارتهم ورتوه أبناءهم من بعدهم.

وهل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك في قديمهم كما قال ابن خلدون — ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة؟ هذا بعيد، لا يقره التاريخ، ولا ترضى به أصول علم الاجتماع.

قال أحمد بن فارس في كتابه الموسوم (بالصاحي): « وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها، وأنهم لم يعرفوا نحوها ولا إعرابا، ولا رفعا ولا نصبا ولا همزا. قالوا: والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له: أتهمز إسرائيل؟ فقال: إني إذا لرجل سوء. قالوا وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضمط والعصر. وقيل لآخر: أتجر فلسطين؟ فقال: إني إذا لقوى. قالوا وسمع بعض فصحاء العرب ينشد:

نحن بنى علقمة الأخيارا

فقيل له : لم نصبت « بنى » ؟ فقال : ما نصبته ، وذلك أنه لم يعرف من نصب
إلا إسناد الشيء ، قالوا وحكى الأخفش عن أعرابي فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة
على الدال ، فقال : وما الدال ؟ وحكى أن أبا حية النخعي سئل أن ينشد قصيدة على
الكاف فقال :

كفى بالنأى من أسماء كاف وليس لسقمها إذ طال شاف
قلنا والأمر في هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء . فأما من حكى عنه من الأعراب
الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فإننا لم نزع أن العرب كلها مدرا ووبرا قد
عرفوا الكتابة كلها ، والحروف بأجمعها . وما العرب في قديم الأزمان إلا كمنحن
اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط ويقرأ . والذي نقوله في الحروف هو قولنا
في الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا ، وأن القوم تداولوا الإعراب ،
أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شافتك أظعان لليب لى دون ناظرة بواكر

ف نجد قوا فيها كلها عند الترنم والإعراب تجي . مرفوعة . ولولا علم الخطيئة بذلك
لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد ، لا يكاد
يكون . فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات أن أبا الأسود أول من وضع العربية ،
وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك بل نقول إن هذين
العلمين قد كانا قديما وأنت عليهما الأيام ، وقلا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان
الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب .

وأما العروض فن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن
المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم : إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة
منكرا عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه ، وكذا

وكذا ، فلم أره يشبه شيئا من ذلك ، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ انتهى كلام ابن فارس ، وإنما سقناه على طوله ليعرف الباحثون المعاصرون أن العلماء الأقدمين عنوا بالبحث في حياة العرب العلمية ، ووصلوا حديثهم بتقديمهم ، وكان حذاقهم مؤمنين بأن العرب كانوا على جانب من المعارف الفكرية والعلوم الأدبية ، وإذا كان هذا الذي قاله ابن فارس صحيحا في حق العرب الأقدمين على ما هو فرض كلامه ، فهل يصح في الأذهان النيرة أن يكون للأولين من العرب تلك الحياة العلمية ثم لا يكون لأبنائهم وأحفادهم ووارثي مجدهم حياة أدبية ؟

وإذا كان قد باد من العرب أجيال فقد عاصرتهم أجيال لم يأت عليها الفناء جملة أخذت عنهم معارفهم ونقلتها الى من بعدهم ، على ما هو الشأن في كل أمة تتفرع من دوحة واحدة ، وتعيش في وطن واحد ، ظل بهم ذلك الوطن عامرا طوال أحقاب التاريخ ، ولم يزعم أحد من المؤرخين أن جزيرة العرب أتى عليها حين من الدهر خلت فيه من ساكنيها ، ولا أن العرب انقرضوا قضهم بقضيتهم .

غير أن الحجازيين من العرب سكان الشمال بالجزيرة كان لهم من طبيعة وطنهم ما صبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة إخوانهم في اليمن والحيرة والشام ، لأن الحجاز إقليم تخالف طبيعته طبيعة تلك البلاد ، فلم تقم فيه حياة اجتماعية متحضرة كالتى قامت في اليمن والعراق ، بل غلبت على أهله البداوة وما يتصل بها من أخلاق وعادات .

صادق إبراهيم عربزور

» للبحث بقية «

في وجوب التحفظ

قال بعض الحكماء : من عرض نفسه للتهمة فلا يامن من أساء الظن .
وقال الشاعر :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
مقالة السوء الى أهلها أمرع من منحدر سائل

تعليق من مدير المجلة

على المقالة السابقة

ظهرت في أفق الدراسات الأدبية في هذا العهد الأخير كتابات ترفع من شأن العرب على عهد الجاهلية ، وتصورهم في مستوى لا يتفق والحقائق التاريخية .
لقد كننا نقرأ ما كتبه بعض مؤرخي العرب من المبالغات عن الدول العربية القديمة ، فنعزوه لنقص في أسلوبهم التمهيدى ، فأصبحنا اليوم أمام مبالغات من طراز جديد يرتكبها بعض الذين يكتبون في الأدب ، عليها مظهر الدراسات التحليلية وليست منها فى شئ .

فنحن حيال ما كتبه أولئك المؤرخون عن قبيلة عاد من أن طول الرجل منها كان سبعين ذراعا الى مائة ذراع ، وأن رأس أحدهم كان كالقبة العظيمة ، وعينه تفرخ فيها السباع ، وأن أول ملوكها وهو عاد قدم ملك ألفا ومائتى سنة ، وأنه تزوج بألف امرأة ، وولده أربعة آلاف ولد ذكر ، الخ ، نحن حيال هذه المبالغات لا نشعر بأقل حرج ، فإن علاجها فيها كسكل شئ . يصور خارجا عن حدوده الطبيعية ، ولكننا حيال الكتابات التى عليها مظهر الأسلوب العلمى نشعر بكثير من الضيق ، لأنه مظهر خلاب يسلك الى الأذهان الخالية من ملكة النقد ، فيرسخ فيها وينتج نتائج خطيرة على الدين والعلم معاً .

فأما نتائجها على الدين ، فالنقض من قيمة الرسالة المحمدية ، فإذا كان صحيحا ما يقوله ابن خلدون عن العرب القدماء ، وهو : « ما كان لأحد من الأمم فى الخليفة ما كان لأجيالهم من الملك » ، وقوله فى موطن آخر عن العرب الأولين فى اليمن والبحرين وعمان والجزيرة : إنهم « بلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والمالقة ، وحير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها

وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلاء الدولة». وإذا كان صحيحا أيضا ما عقب به الأستاذ الشيخ صادق عرجون على هذا وهو قوله: «فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا في حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها. نعم، وإنما كان (فريق منهم) في دور بدواة (طارئ عليهم) غير متأصل فيهم. ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذاً بعضها بأطراف بعض، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارها قوية قائمة في اليمن والشام والعراق (حتى جاء الاسلام). وأولئك الذين لحقهم الاسلام في طور البدواة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد».

قلنا إذا كان هذا كله صحيحا فلا تكون الرسالة المحمدية قد أخرجت العرب من الظلمات الى النور، ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ما كانوا يعرفونها، ولا بثت فيهم من الأخلاق والآداب ما كانوا في أشد الحاجة اليه، ولا آتتهم دستورا أفضى بهم السير عليه الى تبوء خلافة الله في العالم قرونا كثيرة، غيروا فيها وجه الأرض، ونشروا علما وحرية ومدنية فضت على كل ما كان متحجرا غير صالح للحياة في العالم كله. ولكن ما ذكره ابن خلدون وغيره وتابعهم فيه الأستاذ الشيخ عرجون ومن تقدمه من السكاكين المعاصرين كله غير صحيح، والصحيح منه مبالغ فيه مبالغة لا تحتمل النقد والتحصيل.

نحن لا ننكر أنه قامت لبعض قبائل العرب البائدة (دول قبلية)، فاشتهر بنو عاد وثمود والعمالة وطسم وجدليس وأميم وجرم وحضر موت بتأسيس دول، لها ملوك يتوارثون العروش، ومدنية مناسبة للزمان الذي وجدوا فيه.

وقد سميت هذه الطبقة الأولى من العرب بالبائدة، لأنها انقرضت منذ زمان بعيد، وغض تاريخها الى حد أن العرب أنفسهم لم يعرفوا منه شيئا يذكر غير مبالغات وخزعبلات تخيلها الخراصون تخيلا على النحو الذي نقلته عنهم في صدر هذه المقالة. وقد ظل العرب يجهلون أنه قامت في اليمن في بعض عصورها دولة يقال لها المعينية حتى قام

المستعرب هاليفي مستهديا بما ورد عنها في كتاب المؤرخ اليوناني القديم استرابون، فارتاد بلاد الحوف شرق صنعاء، واكتشف أنقاض معين، ووجد بها كتابات بالقلم المسند دلته على أسماء ستة وعشرين من ملوكها .

فتاريخ هذه الطبقة البائدة من العرب يجب أن يغفل في بحث حالة العرب قبل الاسلام لغموضه وتفغله في القدم ، ولما حدث من الانقلاب الذريع في كيان الأمة العربية بعده ، حتى سميت تلك الطبقة بالبائدة ، ومن بقى بعد تلك الانقلابات سموا بالعرب المستعربة . والذي نحب أن يلاحظه القراء أن الحالة القبيلية في الأمة العربية لازمتها في كل عهودها ، حتى جاء الاسلام فوحد دينها وجعل منها أمة : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

فالذين يذكرون الدول العربية مضطرون أن يسردوا أسماء قبائل ، فيقولون : عاد وثمود وجديس وطسم وأميم وحضر موت الخ . حتى إن اليمن ، وهي البلاد التي كان يصح أن تقوم فيها أمة موحدة ، لم تبلغ الى هذه الدرجة . فقد كانت منذ أقدم أزمانها تقسم الى محافد ، وكل محفد الى قصور ، والقصر حصن يحيط به سور يقيم فيه أمير مستقل يوضع أمام اسمه لفظ (ذو) . وهؤلاء الأمراء يعرفون بالأذواء . وربما اجتمعت عدة محافد تحت أمير واحد متغلب فيسمى (قَيْل) . وكان الأقبال كثيرا ما يتقاتلون . وكان يتفق أن يكبر شأن قيل فيدخل جميع الأقبال تحت دولته ، ويورث الملك أعقابها ، ولكنها تجيء دولة يغلب على مزاجها البدوية والأمية . فقد دلنا التاريخ على قيام أربع دول في اليمن : المعينية ، والسبائية ، والحيرية ، والتبابعة . ولم تنقرض الأخيرة إلا في القرن السادس أي قبيل ظهور الاسلام بمدة قليلة ، فلم يصلنا من واحدة منها كتاب مخطوط ، ولا أنا خبر عن وجود أنارة من علم فيها ، وقد وصلنا عن أمم كثيرة غيرها مؤلفات وضعت قبل ستة آلاف سنة ، وأسماء علماء وفلاسفة وفنانين كانوا عاشرين في تلك العصور البعيدة .

والآن ننظر الى الحالة التي كانت عليها الأمة العربية على عهد البعثة المحمدية :
كان ببلاد العرب في ذلك العهد ثلاث ممالك : أولاها اليمن ، وثانيها دولة اللخمين
بالعراق ، وثالثها الغساسنة بمشارف الشام ، ومن بقى فكانوا كلهم على الحالة البدوية .
فأما اليمن فكانت مستعمرة فارسية و اجبا وال اسمه الهرمزان ، وكانت قبل أن
يستولى عليها الفرس مملوكة للأحباش .

وأما دولة اللخمين فكانت تابعة للفرس أيضا ، تغلبوا عليها واستمروا متسلطين
فيها أجيالا حتى ظهر الاسلام .

وأما الغساسنة فكانوا يحملون نير الرومانيين ليس لهم من أمر أنفسهم شيء .
ولا بد لنا هنا أيضا أن نذكر أن هذه الدول كانت محتفظة بوصفي عهد الجاهلية
العربية ، وهما : البداوة والأمية . نعم إنه كانت لما لكهم مدن ولملوكم قصور ، ولكن
الرعية كان أكثرها على الحالة البدوية . وكان عدد المدن لا يتناسب وسعة الأراضى
التي تقوم عليها تلك الممالك . وجزيرة العرب التي تساوى مساحتها ستة أضعاف مساحة
فرنسا ليس فيها غير عدد من المدن يعد على الأصابع (راجع الخريطة) .

ومما تجب ملاحظته أن الأمية كانت أثيرة عندم الى حد أن هذه الدول على
مجاورتها للفرس والرومان ، ووقوعها تحت نيرهم أجيالا ، لم تأخذ أخذهم في العلوم والفنون ،
فلم يشتهر فيها فلسكى أو طبيب أو فنان ، ولم يصلنا منها صفحة واحدة باللغة العربية حتى
ولا ما يتعلق بالشئون الدينية . قال الله تعالى : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما
أرسلنا إليهم قبلك من نذير » : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ » .

أما بقية العرب وهم السواد الأعظم في سائر جزيرة العرب ، فكانوا يعيشون على حالة
بداوة وأمية ، بأوسع ما تحتمله هاتان الكلمتان ، من يوم أن خلقهم الله الى عهد البعثة
المحمدية ، ولم يكن من الممكن أن يكونوا على غير هذه الحالة ، لأن قوام المدنية الزراعة
والصناعة والتجارة والعلم ، وأين هذه من أكثر العرب في عهد جاهليتهم ؟

يريد الأستاذ صادق عرجون وهو يعالج الكتابة في الأدب أن يجعل له قُدْمة عند الأمة العربية في عهد الجاهلية ، فهو يقول :

« هل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك في قديمهم — كما قال ابن خلدون — ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء ، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمة جاهلة ؟ »

ونحن نقول : إن الذى وصفها بالأمية والجهل هو القرآن نفسه ، الذى يسلم الأستاذ صادق عرجون بأنه أصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب قبل البعثة المحمدية : قال الله تعالى : « هو الذى بعث فى (الأميين) رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أتوا الكتاب (والأميين) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنا علىك البلاغ والله بصير بالعباد » .

فالأمة كانت الوصف المميز للأمة العربية من أقدم أيامها الى أن أرسل اليها والى العالم كافة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إن الجاليات الأجنبية التى كانت معاشرة لهم كانوا يطلقون عليهم هذا اللقب . قال الله تعالى : « قالوا (يريد اليهود) ليس علينا فى الأميين سبيل » أى ليس علينا ذم إن ظلمناهم لأنهم ليسوا من ديننا . فأطلقوا عليهم وصف الأميين وقد كان كافيا فى الدلالة عليهم .

فاذا كان العرب أمة أمية ، وهو ما لا سبيل الى إنكاره ، فكيف يعقل أن يكون لديهم أدب بمعناه الفنى ؟ أين عهد مثل هذا الأمر ، وفى أى جيل ، حتى يعهد عند الأمة العربية ؟

المعهود حسيا أن الأمة إذا كانت أمية كانت فى أحط درجات الجهل ، فاذا تحركت لأن ترتفع عما هى عليه درجة واحدة فأول وسيلة تتخذها هى أن تتعلم أن تكتب

ما تلفظه وأن تقرأه . وليس في الأرض أمة من أول وجودها الى اليوم إلا كانت فاتحة نهوضها رفع الأمية عنها أو عن عدد كبير من آحادها . فاذا ارتفعت الأمية عن قسم منها تدرج هذا القسم في الارتقاء ، فنشأ فيها أدب ساذج وعلم في درجته . ثم لا تلبث أن تتقدم الى الأمام خطوة أخرى حتى ينضج أدبها وعلمها بعد حين . هذه سنة الله في الخلق ، ولا يعقل أن تتخلف على الإطلاق . وقد اعتبر الله تخلفها خرقاً للعادة ، وجعلها معجزة خاتم رسله ، فقال تعالى : « وما كنت تتلون من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، إذا لا رتاب المبطلون » أى لو كنت يا محمد غير أى لارتاب المبطلون في إتيانك بالقرآن ، أما وأنت أى لا تقرأ ولا تكتب فكيف يعقل أن تأتى بكتاب تمليه على غيرك ؟

ربما اعترض علينا معترض فقال : ألم يصلنا عن الجاهلية شعر ، أليس الشعر فنا من فنون الأدب ؟ .

نقول : نعم ، ولعامتنا شعر ، ولعوام كل أمة أشعار بلغاتها المختلفة ، ولكن هل مجرد قرض الشعر يدل على عدم الأمية وعلى وجود الأدب بمعناه الفنى ؟ .

الهم لا ، فالشعر الجاهلى ، وهو كل ما يستطيع الاحتجاج به ، لا يدل على وجود الفن الأدبى فى الجاهلية ، كما لا يدل كل شعر لأمة أمية على وجود هذا الفن لديها . فعراب الجاهلية لم يكن لديهم أنارة من علم ، كما يقول الكتاب عنهم ، يمكن أن يُدُلُّوا بها الى غيرهم ، كما لم يكن ولا يكون عند أية أمة أمية أنارة من علم تدلى به الى غيرها . قال تعالى : « اثنتونى بكتاب من قبل هذا أو أنارة من علم إن كنتم صادقين » . وقال سبحانه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرون »

وقد عاش اليمنيون فى اليمن واللخميون فى العراق والغساسنة فى جنوب سورية تحت سلطان الفرس أو مجاورين لهم وللرومان ، ولم يأخذوا إخدم فى رفع الأمية عنهم ،

لذلك لم تصلنا منهم ورقة واحدة مكتوبة ، فلو كان عندهم أى فن أدبى أو غيره لنقله عنهم رواة اللغة الذين اختلطوا بهم وبغيرهم من القبائل ولبثوا بين ظهرانيهم سنين . فهل كان هؤلاء الرواة يحرصون على الألفاظ والأساطير هذا الحرص كله ولا ينوهون بكلمة عن أدب العرب وعلومهم ، وهم رواد الأدب العربى ، وقد جشموا أنفسهم الحياة وسط القبائل سنين لدراسة أسبابه ، فلم يجدوا غير ألفاظ اللغة فحفظوها عنهم ونقلوها إلينا ؟

ألم يكن جميع العرب الذين أسلموا جاهليين فى أمسهم ، فلو كان لديهم إثارة من علم فى أى موضع من المواضيع مما كانوا يمارسونه على عهد الجاهلية ، أما كانوا يحملونها معهم فى الاسلام فتعرف عنهم وتنسب إليهم ، لاسيا والاسلام يحض على طلب العلم ويعِد أهله بالدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ؟

ولو كان فى اليمن أو العراق أو مملكة غسان أو فى قبائل نجد أو تهامة أو غيرها ، من التى قصدها رواة اللغة ، مسكة من علم ، لنقلها أولئك الرواة إلينا وقد بالغوا فى نقل كل شئ ، وجدوه لدى العرب حتى أخبار خيولهم وكلابهم .

ونحن فى القرن العشرين الميلادى اليوم ولدينا كتب وألوف من صحف لأُم كانت موجودة منذ ستة آلاف سنة ، وليس لدينا ولا صحيفة واحدة باللغة العربية عن أقرب عهد لجاهليتها . ذلك لأن الأمة العربية كانت أمية ، وكانت الأمية من صفاتها المميزة ، ناهيك بأمة ليس لديها أثر مكتوب فى شئونها الدينية ، على حين أن لجميع الأمم التى لعبت دورا فى التاريخ كتبها مدونة فيها ولو كانت وثنية .

لا نقول هذا غمطا لحق الأمة العربية ، ولكننا نقرر حقيقة تاريخية ، وهى أن الأمة العربية طبعتها طبيعة بلادها والأحوال التى أحاطت بها بطابعين : الحالة القبلية ، والأمية . لذلك لم تستطع جهة من جهاتها أن تحفظ استقلالها أمام الأمم المعاصرة لها ، فاستولى الفرس والرومانيون على الأقطار المجاورة لهم منها ، حتى حدثت الحبشة نفسها بفتح

اليمين ، ونفذت ما صممت عليه ، وعجز أهل اليمن عن إجلالهم عنها ، فاستغاثوا بالفرس فأرسلوا جيشا وطرد الأحابش وحلوا محلهم فيها ، وما زالوا حاكمين فيها حتى أنقذها الاسلام منهم ، كما أنقذ العراق ودولة غسان أيضا .

فالاسلام وحده هو الذي وحد قبائل العرب وأسقط ما بينهم من فروق قبيلية ، ومن إحن وضمائن جعلت جماعاتهم أشبه بالأمم المتعادية ، لا تفر عن التناحر والتناهب طرفة عين . والاسلام هو الذي رفع عنهم طابع الأمية ودفعهم لطلب العلم دفعا لا هوادة فيه . وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم برفع هذا الطابع بعمل لم يسجل مثله لمصلح في الأرض . وذلك أنه جعل فداء الأسير الذي كان يعرف القراءة والكتابة في وقعة بدر ، وهي أول الوقائع الاسلامية ، أن يعلمها نفر من المسلمين ، ففعل . فبفضل الاسلام استقامت الأمة العربية على نهج الأمم التي كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات العالمية ، مما لا يوجد له نظير في الأرض . وبفضل الاسلام يسجل التاريخ للأمة العربية أنها كانت محمية العلوم الدارسة ، والفنون الطامسة ، وأنها كانت سببا لا يقاظ البشرية من سبائها العميق ، ودفعها في سبيل الحياة والمدنية . وفوق هذا كله فحن أبناء الاسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم ، قد وحد بيننا الاسلام وأهدر في سبيل هذا التوحيد قومياتنا وجنسياتنا ، تذرعا لتكوين أمة عالمية كانت وستكون مثالا أعلى للاجتماع الانساني الصحيح . وقد بارك النبي صلى الله عليه وسلم هذا العهد بقوله : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بأبائها » . فلا تقبل أن نמידها جذعة ، فترغم التاريخ على أن يقول في جاهليتنا ما ليس بحق . وقد مضت تلك الجاهليات مرذولة مذمومة الى حيث لا تعود : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقد أنجز الله وعده ، فكانت هذه آية الاسلام الكبرى الى يوم الدين .

واجب الشباب نحو ربهم

إن قلنا واجب الشباب نحو ربهم ، كان معنى ذلك واجبهم نحو الكمال المطلق والخير المحض والمثل العليا في كل أمر ، فإن الله جل وعز لم يكلفنا إلا بما فيه صلاحنا وفلاحنا ، وتكاليفه أيا كانت عبادات أو آدابا ، المقصود بها تربيته عالية ، وإعدادنا لرجولة صحيحة ، وإيصالنا الى الحقائق التي ترتبط بها سعادتنا المرجوة من طريق العلم والعمل والفضيلة .

مضى الزمان الذي كان يعتبر الدين فيه سخرة ، أو تقييدا للحرية الصحيحة ، أو حرمانا للنفس من مشتهياتها في الحدود العلمية ، وهذا زمان تجلى فيه بالدليل القاطع أن الدين حاجة أولية للروح لا معدى لها عنه . وإذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمي المؤسس على علم النفس . ولا يتسع لي المجال الآن لبيان ذلك على وجه يوفى بالحاجة العقلية من كل نواحي هذا الأمر الجلل ، ولكنني أستطيع أن أقول على عجل إن الفلسفة المادية التي حاولت في خلال قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الانسان وما فوق المادة ، قد منيت بفشل حاسم لا قيام لها بعده من طريق العلم الطبيعي نفسه لامن طريق العلوم الدينية ، فقد توصل العلم الى إحالة المادة الى قوة أى الى إثبات أن لا وجود لها ، وأنها عرض من أعراض القوة . وبزوال هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الانساني انفتحت أمامه باحة لا حد لها الى عالم القوى التي هي مصدر كل موجود في عالم الشهادة .

نعم إن زوال هذه العقبة لم يخرج العلوم من مجالها الطبيعي ، ولكن كان من آثار زوالها اتساع هذا المجال الطبيعي بحيث لا يتصور العقل له نهاية ، وهذا وحده كان ذا أثر بعيد في تأديب الانسان وردعه عن البت فيما ليس من شأنه أن يبت فيه ، وفي تشكيكه في كل ما أسسه من الأصول العلمية ، وإعادة وضعها في الميزان تحت ضوء النقد الصارم

والتحصيل الدقيق . فسقط بذلك العجب الذي كان يخيّل للعلماء أنهم أدركوا حدود كل شيء ، وأصبح لهم الحق في الحكم بالوجود أو بالعدم على كل ما يعرض لهم البحث فيه ، حكماً لا يقبل المراجعة ، ولا يحتمل التشكيك .

يقول قائل : وما تأثير كل هذا في تقوية عاطفة الدين ؟

نقول له : في ذلك أبلغ تأثير ، فإنه بعد أن كانت تعتبر المادة مبدأ ومرجعاً لكل مخلوق ، انتقل هذا السلطان للقوة ، وعالم القوى أرفع من عالم المادة بما لا يقدر ، ونواميسه أعلى وأعم بقدر هذا التفاوت بينهما ، والمحتملات التي تنشأ من هذا الانتقال لا تقف عند حد . وإذا أردت أن تقف على مبلغ التحول الذي طرأ على مذاهب العلماء من حدوث هذا الاكتشاف ، فأليك على عجل :

قال الدكتور (فيلبون) في مجلة (العلم والحياة) صفحة ٤٥١ من مجلة سنة ١٩١٧ :
« لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة (المادة) فإيدرينا هل تحل كلمة (روح) محل كلمة (قوة) ؟ هذه المسألة المحيرة لا تزال سرا من أسرار المستقبل »
وقال العلامة (جوستاف لوبون) في كتابه تحول المادة :

« دامت العقيدة في صحة المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على العلم العصري أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه نهائياً ، فإن الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية قد تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت المتناقضات والمحاولات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من إخفاء بحيث لا تبلغها الظنون ، فأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضا واهية تمجج تحت غشاها جهلاً لا يسبر له غور ؟ »

ثم نقل الأستاذ (جوستاف لوبون) قول العلامة الرياضي (لوسيان بوانكاريه)

وهو : « لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً ، ويجمع عليها المجهريون إجماعاً عاماً ، بل يسود اليوم عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى »
وعقّب عليه الأستاذ (جوستاف لوبون) بقوله : « من حسن الحظ لاشيء أكثر ملائمة للترقى العلمى من هذه الفوضى ، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى (تأمل) ، فلا يمكن عمل خطوة للامام إلا بعد أن تتفكك عرى الآراء السابقة »

تقول : يظهر مما قدمناه أن تأثير سقوط صرح المادة كان بليغاً الى أقصى ما يمكن تخيله ، فهل تتأدى العقيدة فى القوة التى تنحل إليها المادة الى العقيدة فى روحانيتها ، فيكون ثمرة هذا الهدم والبناء فى مصلحة الروح من كل وجه ؟

هذا ما يبدو صريحاً من أقوال أقطاب العلم ، فقد جاء فى دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية تحت كلمة (مادة) بعد أن عرضت جميع المذاهب عليها ما يأتى :

« على هذا جميع الفروض التى فرضت للآن تعجز عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث . فإذا نستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلمية عن المادة ، وهى تتفاوت فى صلاحيتها كوسائل للترتيب والتحليل ، لا نستطيع أن نزعّم أنها الحقيقة المطلقة . وهذه الفروض باعتبار أنها لا وظيفة لها إلا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة ، لا يمكن أن تكون حتماً لارمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها »

ثم ختمت الدائرة الفرنسية هذا الفصل بقولها :

« وعلى هذا فلو صرفنا النظر عن المذهب اللا أدرى الذى هو عبارة عن رفض أى محاولة لتفسير الحوادث ، فإن المذهب الذى يرمى اليه علماء العلل الأولية هو : أن المادة باعتبار أصلها تنحل ، كما فكر فى ذلك (لبنتز) ، الى وجود روحانى (تأمل)

طبيعته كطبيعة الوجود الذى يتجلى لوجد اننا . والمسألة التى تبقى بعد ذلك غير محققة
هى أن نعرف : هل الوجود مؤلف من ذرات روحية متميز بعضها عن بعض ، أو أنه
كائن واحد عام لا يقبل الانقسام ومستمر على الدوام ، وأنه العلة والمعلول العام ؟
نقول : إن أثر تدهور الصرح المادى كان بعيدا الى حد أن حلت الروح محلها
فى التعليقات العلمية الطبيعية كما ترى ، فهل بعد هذا إهابة بالعاطفة الدينية الى اليقظة
والعمل فيما خلقت له ؟

الانسان يتألف من جسد وروح ، ولكل منهما مطالب ، فكما يألم الجسد إن قطع
عنه المدد المادى ، كذلك تألم الروح إن قطع عنها المدد الروحانى . وحرمان الجسد من
مقوماته يفضى الى تعطل وظائفه والى تحلله ، وحرمان الروح من مقوماتها يؤدى الى
الحيلولة بين إشراقها وبين صاحبها ، وفى تلك الحيلولة كل ما يتخيل من اضطراب
النفس ، وفساد القلب ، وغلظ الشعور ، والسقوط الى الحيوانية الباحثة ، بل الى ما هو
أسفل منها . فتجدد المبتلى بهذا الحرمان من المدد الروحانى يستسجى ارتكاب القبائح ،
ومقارفة الدنيا ، والانغماس فى الخسائس ، والخروض فى المقاذر ، ظنا منه أن فى هذه
الإباحة الجنونية سكنا لنفسه الجامحة ، ومتنسما لقلبه المحترق ، ولكنه لا يزداد إلا هلما
على هلع ، ولا يزال يعالج هذه النيران المتسعرة فى باطنه حتى ينتهى أجله ، ويذهب الى
حيث يذهب التائهون .

ماذا تتطلب أعصى العقول على الدين بعد أن ألقى الإلحاد سلاحه كجبرى على رءوس
الأشهاد ؟ وماذا تنتظر أن ترى من أعلام الحق بعد أن صرح العلم بأن المادة تنتهى
الى روح ، وأن الروح هى أصل الخلق ومنتهاه ؟

فهل ننقذ أنفسنا من سيادة المادة علينا ، لا باحتقارها ولا بالهرب منها ، ولكن
بإخضاعها لسلطان الروح ، حتى لا تطغى علينا فتقودنا من شهواتنا الى حيث تفقدنا
كرامة الانسانية ، وشرف العمل على إقامة دولة المدنية الفاضلة فى الأرض .

عمل الانسان لا إقامة دولة الروح هو في الحقيقة خدمة لنفسه وللانسانية وللعلم والمدنية « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » فإن الله غنى عن العالمين .
فإن كلفنا الله بطاعته فإنما يكلفنا بما يحيينا ويرقينا ويشرفنا ، ويتناسب وقرارنا الفطرية
« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم
لعلكم تشكرون » .
محمد فريد ومهدى

ما قيل في تأديب الصغار

قال بعض حكماء المسلمين : من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا .
وقالوا : اطبع الطين ما كان رطبا ، وقوم العود ما كان لدا .
وقالوا : من أدب ولده ، أرغم حسده .
وقال ابن عباس رضى الله عنه : من لم يجلس في الصغر حيث يكره ، لم يجلس في الكبر حيث يجب .

وقال حكيم : ما أشد فطام الكبير ، وأعسر رياضة الهرم .
وقال صالح بن عبد القدوس شعرا :

وإن من أدبته في الصبا	كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا	بعد الذى أبصرت من يده
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد له جهله	كذى الصبا عاد الى بلمه
ما تبلغ الأعداء من جاهل	ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقال شاعر غيره :

إذا المرء أعتبه المروءة ناشئا فطلبها كهلا عليه شديد

وقال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك ولدى إصلاحك لنفسك ، فإن
عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت .

أسرار التشريع الإسلامى وفلسفته

الوقف : صفته ، مشروعيته ، شروطه المصححة له

أسلفنا فى البحث السابق لمعة وجيزة عن الوقف بنوعيه الأهلى والخيرى ، وعن حكمه المنظم له ، وعن مختلف الآراء الفقهية فى وقوعه وانعقاده . والآن نعرض للكشف عن مشروعيته وصفته وشروطه المصححة له وآراء الفقهاء التفصيلية فيها :

ليس خلاف بين الفقهاء رضوان الله عليهم فى أن الوقف بنوعيه جائز مشروع بوصف كونه عملاً من أعمال البر ، وقربة من القربات الى الله تعالى .

ويؤكد مشروعيته من ناحية العقل أنه نظام من الأنظمة الصالحة للمجتمع ، يبعث عليه البر بالإنسانية المعذبة ، حتى مع غض النظر عن وروده بلسان الشريعة ، فقد نقل صاحب كتاب « أنفع الوسائل » أن زيد بن ثابت رضى الله عنه يقول : « لم أر خيراً فى هذه الدنيا من الحبوس يحبسها الأغنياء على الفقراء ، سواء فى ذلك الأموات والأحياء » . فأما الليت فيجرى أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ينتفع بغلتها ، وتمف يده بها عن السؤال ، ويتقى بها كرائه الدهر وعاديات الليالى .

فنظام الوقف فى الشريعة الإسلامية من أو فى الأنظمة الاجتماعية بحاجة الناس ، وأحفلها بالمنفعة الدائمة المستمرة ، وأعودها بالخير الثابت على طائفة من البشر .

نعم إن بعض نظار الأوقاف قد يبالغون فى أكل أموال المستحقين بشتى الوسائل ، وضجت بتصرفاتهم المحاكم الشرعية ، حتى قام بعض ذوى الآراء الرشيدة فى مصر يطالب بإلغاء الوقف ، ولكن ذلك على كل حال لا يقدح فيما لمشروعية الوقف من الفوائد الجلى . وكل ما هنالك أن تشريعاً تسنه وزارة الحفانية يكفى للقضاء على تصرفات بعض نظار الأوقاف والأخذ على أيديهم .

وإذا كان الوقف تصرفاً من التصرفات الجائزة شرعاً صادرة من الإنسان ، كان لابد

أن يكون متصفا بحكم من الأحكام الشرعية، بمعنى أن حكما من هذه الأحكام الخمسة يعرض له ويكون صفة من صفاته، فتارة يكون مباحا لاثواب في فعله ولا عقاب في تركه، وذلك في حالة ما إذا لم تصحبه نية التقرب الى الله تعالى، كما لو وقف الواقف على قوم أغنياء أو على ذريتهم ثم من بعدهم للفقراء، رغبة في المحافظة على العين الموقوفة من الضياع من جهة، وقصدا الى عدم تمكينهم من التصرف فيه بعد موته من جهة أخرى.

وقد يكون مندوبا فيثاب على فعله دون أن يعاقب على تركه، كما لو نوى به الواقف التقرب الى الله سبحانه وتعالى، فتصح ولو كان الوقف على ذريته وذوي قرابته امتثالا لبعض الأحاديث الصحيحة، من أن الوقف على بعض أهل الواقف صدقة، لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

وقد يكون واجبا فيثاب على فعله ويعاقب على تركه، وذلك فيما إذا كان التصرف في الوقف مندورا، كأن يقول أحد الناس: إن برئت من مرضى هذا فله على أن أقف ضيعة كذا على طلبة العلم. فإن الوقف في هذه الحالة يكون واجبا عند تحقق الشرط لوجوب الوفاء بزوال العلة. تطبيقا لقوله تعالى: « وليوفوا نذورهم » وأخذا من آراء فقهاء أبي حنيفة.

والعلة في صحة نذر الوقف على ما ذهب اليه الامام السكال بن الهمام في الفتح القدير أن من جنسه واجبا من الواجبات، فيجب على إمام المسلمين أن يتخذهم مسجدا من بيت مال المسلمين، فإن لم يكن ذلك ميسورا اتخذهم مسجدا من أموالهم.

وقد يكون الوقف حراما فيعاقب على فعله، كما لو قصد الواقف إيذاء دائنيه أو بعض ورثته.

وأنا أعرف قاضيا شرعيا كبيرا رفض أن يسمع إشهادا بوقف لعين علم أنها مدينة وأن الغرض من وقفها إيذاء الدائنين وتقويت المنفعة عليهم وتبديد ديونهم بطريقة قانونية. فإن الإضرار بالغير حرام لقوله صلى الله عليه وسلم: « لا ضرر ولا ضرار

فى الاسلام. ومع أن هذا الوقف حرام على هذه الصورة فهو لازم وصحيح ترتب عليه آثاره، لأن الحرمة طرأت لوصف عارض منك لا تنافى صحة التصرف ولا تناقض مشروعيته عند فقهاء الحنفية كما هو الثابت فى أصولهم، وذلك كالبيع وقت صلاة الجمعة وكالصلاة فى الأرض المنصوبة، وكالصيام مع ملابس أنواع المهجر وأساليب المنكرات التى تجرى بها الألسنة. فإن هذه الأنواع لازمة ومتحققة الأثر مع اقترانها بالحرمة. وذهب مالك رضى الله عنه الى عدم صحة الوقف إذا لابسته معصية، كما إذا وقف الواقف على بنيه دون بناته، لأنه تصرف يشبه فعل الجاهلية الذى جاء الاسلام بالقضاء عليه، وكما لو وقف على بناته وشرط أن من تزوجت منهن خرجت من الوقف دون رجعة اليه، حتى ولو تأيمت، فتظل محرومة من الوقف والانتفاع بغلته متى تزوجت، سواء دامت الزوجية أو انقطعت. وهذا القول عن مالك رضى الله عنه رواه ابن القاسم فى حاشية الدسوقي على الشرح الكبير فى فقه المالكية.

ثم إن الفقهاء قد اشتراطوا لصحة الوقف شروطاً أُلغنا إليها فى البحث السابق بما فيه الغناء، وهى تعتمد فى مجموعها شروطاً أربعة: واقف، وموقوف عليه، وموقوف وصيغة يتأدى بها المعنى المراد. ولكل من هذه الشروط الأربعة شروط لتحقيقها لأنها إذا تحققت تتحقق حقبة الوقف، فتتأكد المنفعة المقصودة منه، ويتأكد الثواب للواقف الذى قصد اليه بهذا التصرف المشروع.

فيشترط فى الواقف شروط، وفى الموقوف عليه شروط، وفى الموقوف شروط وفى الصيغة شروط. فأما الشروط التى اشترطها الفقهاء فى الواقف فأهمها أن يكون الواقف أهلاً للتبرع، بأن يكون حراً عاقلاً بالغاً غير محجور عليه لسفه أو غفلة أو دين. والكلام عن محترزات هذه الشروط ومقابلاتها طویل الذيل كثير التفاريع لا يتسع له هذا البحث. لذلك آثرنا أن نرجى الكلام عن تلك الشروط ومحترزاتها وعن آراء الأئمة وتعليقات كبار المؤلفين الى العدد القادم، إن شاء الله تعالى.

الاسلام والفلسفة

- ٣ -

أشرنا في الفصلين السابقين الى ما استقبل به الاسلام الفلسفة من رحوبة الصدر وطلاقة الوجه اللتين لا طمع بعدهما لمستزيد، وذكرنا كذلك شيئا من الآيات الكريمة التي لخص التنزيل فيها عناصر الفلسفة الثلاثة، وهي : (١) عظمة المظاهر الكونية . (٢) الأسباب والعلل وارتباطها بمسبباتها ومعلولاتها . (٣) النفس البشرية وما انطوت عليه من خفايا وأسرار .

ذكرنا هذه الآيات الجوامع، وأبنا أن أهم موضوعات المعرفة الفلسفية هو النظر في المظاهر الكونية والعلل الفعالة والنفس البشرية، وأن الغاية المثلى من هذا النظر هي الاهتداء الى حقيقة الحقائق ومنشأها ومنتهىها، وألف الأكوان وبأها، وهو المبدع الأول جل جلاله، فاذا وصل الفيلسوف بوساطة النظر الى هذه الغاية العالية، فقد عرف الله حق معرفته، أو أصبح جديرا باسم الحكيم، وهو في نظرهم من توفرت لديه الفضائل الأربع : (الحكمة والعدالة والعفة والشجاعة) . فبالحكمة يعرف الانسان خالقه ونفسه، ويكتنه الشيء الكثير من أسرار الوجود وخفاياه، ويرى ببعيرته أنه صاعد على درجات السلم الأشرف الذي سيلحق عن طريقه بأصله وأصل الموجودات جميعا، وأن هذا هو الفوز الأكبر الذي لا يعدله كل ما في الحياة من لذائذ ومسرات فتصغر الدنيا في عينه ولا يعيرها نظرة ولا لفتة . وبالعدالة يتشبه بالمنشئ الأول الذي لا يظلم ولا يحور . فيحدث له من هذا الشبه قرب من خالقه تنتج عنه لذة لا تدرك العقول مداها، لعظمها واختلافها عن اللذات المادية . وبالعفة يرتفع عما يكتظ به هذا الوجود من دنيا الشهوات التي هي أس كل ما فيه من رذائل وسقطات . وبالشجاعة يحتمل أرزاء الحياة ونسكباتها هادئا مغتبطا، لأنه يكون على يقين من أن تصرفات

الأقدار لا تسير إلا بحكمة سامية لا يتضجر منها إلا كل جاهل أو جحود، كما يكون واتقا من أن الأقدار قد سلكت معه هذا المسلك الشائك لتبتيه، فإن صبر وشعر بالسعادة الروحية أنالته درجة أعلى من التي هو عليها، وإن ضجر ونقم أنزلته الى مصاف العامة الذين ليس لهم عند الله خاصية ولا امتياز.

هذه هي الموضوعات الجوهرية للفلسفة وما أحقها وأجلها من موضوعات، وتلك هي الغاية المثل لها، وما أشرفها وأسمأها من غاية؛ وهل في القرآن موضوع أكثر جوهرية من النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، ومن النظر في حكمة الأسباب وارتباطها بمسبباتها، أو في النفس البشرية وما اشتملت عليه من أسرار ومخبات؟ وهل للقرآن غاية أسمى من الاهتمام الى وجود الله ووحدانيته وكماله؟

الفلسفة الحقبة إذاً، هي ما كانت موضوعاتها وغايتها على النحو الذي ذكرناه ووقفت الى إدراك هذه الغاية، وهي لا تصطدم مع الاسلام في شيء، لأن الحق لا يصطدم مع الحق في أية خطوة من خطواتهما، بل هما دائماً متحابان متصافيان متكاتفان على قمع الباطل واستئصال شأفته.

أما أولئك الذين يزعمون أن الفلسفة من حيث هي متعادلة مع الدين فهم واهمون، بل سطحيون مقلدون، لأن العقل - وهو الموثل الأعلى للفلسفة - لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين، فإذا أحسن المرء استخدامه في البحث والاستنتاج كان أجل نعم الباري عليه، وإذا أساء التصرف في استعماله بأن عطل ملكته الناطقة أو أخضعه للهوى والأغراض ومال مع كل ربح ذات اليمين وذات الشمال، كان شر النقم التي تهوى بصاحبها الى الخضيض، ولكن الذي خدع أولئك المقلدين المعاصرين عندنا وجعلهم يدينون بفكرة عداة الدين والفلسفة، هو أنهم قرءوا هذا الرأي للعلماء الأوربيين فخا كورم في ذلك محاكاة البغاء. ولو أنهم دققوا النظر لوجدوا أن كلمة الدين في كتب

الأوربيين معناها (المسيحية) لا الدين في ذاته ، وإذًا ، فهي لا تنطبق على الاسلام في أى شئ ، لأن البواعث التي حدث الغربيين الى هذا الرأى عن المسيحية لا توجد في الاسلام .

أما عذر القدماء الذين كانوا يدينون بهذا الرأى من المسلمين ، فهو — كما أسلفنا في المقال الأول — أن قوماً آمن لا دين ولا خلاق لهم اندسوا بين المشتغلين بالفلسفة وأخذوا يروجون للزندقة والإلحاد ، فأساءوا الى أنفسهم والى أمتهم والى الفلسفة نفسها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن مشاهير فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد قد قدسوا بعض النظريات اليونانية الخاطئة ، فهووا في نظر المؤمنين هويا أفعم قلوب الأمة الاسلامية بالريب والشكوك في الفلسفة كلها ، كما يتضح ذلك من كتابات الامام الغزالى وأمثاله من الأتقياء .

وهانحن أولاء سنذكر في هذه الفصول فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة الاسلام بعد الامام بحياته الشخصية ، ثم نبين ما اهتدى اليه كل واحد منهم من آراء صائبة ونظرات قيمة ، ثم نعقب على ما نظن أنه خاطئ من تلك الآراء بما يوضح تلك الأخطاء ويرد عليها . وسنبداً بأول مشاهير أولئك الفلاسفة وأسبقهم الى خوض معمعان النظريات العقلية وإن كان أقل خطراً ممن أتوا بعده ، وهو يعقوب الكندى الفيلسوف العربى الخالص :

يعقوب الكندى - نسبه وحياته :

هو يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندى ، ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان ، ولد في واسط ، ولا يعرف أحد من المؤرخين تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته بالضبط ، وكل ما يعرفونه عنه هو أنه عاش في القرن التاسع الميلادى .

درج الكندى بين أحضان أسرة ماجدة كان لها السيادة والإمارة منذ زمن بعيد ، فأبوه اسحاق بن الصباح كان أميراً على الكوفة في عهدى المهدي والرشيد ، وجده أشعث بن قيس كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاسلام ، وكان في الجاهلية ملكاً على كندة كلها ، ورث المملكة عن آبائه وأجداده .

وراسته :

بدأ الكندى حياته العلمية في البصرة ، ثم ارتحل الى بغداد عاصمة العلم والثقافة العالمية إذ ذاك ، ففيها تهذب وتأدب ، ومن معارفها انتهل حتى أصبح رأسه دائرة معارف كبرى حوت من الفلسفة والأدب والطب والفلك والموسيقى وفن الألحان والرياضة والطبيعيات والكيمياء ، ما تعجز عن احتوائه عشرات الرؤس .

افتتن الكندى بالفلسفة اليونانية افتتاناً جعله لا يتورع عن أن يعلن في بعض كتبه أن جده الأعلى : قحطان ، كان شقيق يونان أصل اليونانيين . ويقول بعض مؤرخي الفلسفة العربية : إن هذه الدعوى قد وجدت رواجاً وتصديقاً في بيئة العباسيين ، لأنهم مع تبجرهم في فلسفة اليونان كانوا يجهلون تاريخهم . وقد أسلفنا مناقشة هذه النقطة في المقال الأول .

كان الكندى أيضاً معجباً بالحكمة الهندية والمعارف الفارسية إعجاباً شديداً ، حتى أنه عكف على كل هذه المنتجات القيمة يلتمسها في نهم لم يعرف العرب له نظيراً من قبل ، ولهذا كان هو أول من دُعي بالفيلسوف العربي .

مؤلفاته :

أوصل بعض المؤرخين مؤلفات الكندى الى ثلثمائة وخمسة عشر كتاباً ، والبعض الى مائتين وواحد وثلاثين . وقد سرد الكثير منها ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء » سرداً بلا ترتيب ولا نظام . وقد قسمت في كتاب « تاريخ الحكماء » تقسيماً أفرد كل فصيلة منها على حدة . وقد وضع بعض المؤلفين لهذه الفصائل الأرقام الآتية :

٢٢ - فلسفة	٧ - موسيقى	١٢ - سياسة
١٩ - نجوم	٥ - نفس	٣٣ - طبيعيات

١٦ - فلك	٥ - مقدمة المعرفة	٩ - منطق
١٧ - جلد	١١ - حساب	١٠ - أحكام
١٤ - أحداث	٢٣ - هندسة	٨ - أبعاد
٨ - كريات	٢٢ - طب	

ولكن مع الأسف الشديد أن هذه الكتب لم يبق منها إلا الزر اليسير الذي لا يستطيع أن يعطينا صورة واضحة عن فلسفة الكندي، وإن كان من المعروف أنها مزيج من فلسفات « أفلاطون » و « أرسطو » و « أفلوطين » منسوبة كلها الى « أرسطو » كما يقول الثقات من المؤرخين .

أعداؤه :

كان للكندی أعداء كثيرون، شأن كل العباقرة المبرزين في العلوم والفنون . وقد استطاعوا أن يضروه في سمعته العلمية والدينية وفي حياته الخاصة . فمن هؤلاء الأعداء : محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر اللذان دسا للكندی عند المتوكل ، وساعدهما على بغيتهما أولاً ما عرف عن الكندی من الآراء الاعتزالية ، وثانياً حماقة المتوكل وتسرعه ، فضربه وأرسل الى منزله من استولوا على كل كتبه ، ثم ردت اليه كل هذه الكتب بعد زمن ، كما ذكر ذلك ابن أبي أصيبعة في قصة طويلة .

ومن الذين تأثروا بكتابة أعدائه المعاصرين له القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الذي حمل على الكندی فيما بعد في كتاب « طبقات الأئمة » ووصف كتبه بأنها لا تفيد المطلعين عليها ، لكونها تشتمل على كليات غامضة ليس فيها تحليل للجزئيات ، ولكون تراكيها غامضة معما لا يستفيد منها إلا من صرن على دراسة المنطق حتى أصبح عنده مقدمات عديدة تمكنه من فهمها . ويضيف الى هذه المعاني قوله : « ولا أدري ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة : هل جهل مقدارها أو ضن على الناس بكشفه ؟ وأي هذين كان ، فهو نقص فيه ، وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم جمة ظهرت له فيها آراء فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة » .

ويلحق ابن أبي أصيبعة على رأى هذا القاضى المغرض أو المقلد بقوله : « أقول : هذا الذى قاله القاضى صاعد عن الكندى فيه تحامل كثير عليه ، وليس ذلك مما يحط من علم الكندى ولا مما يصد الناس عن النظر فى كتبه والانتفاع بها » (١) .

ومن هؤلاء الأعداء أيضا : أبو معشر الذى كان من كبار المشنعين عليه والم شهرين به ثم أصبح أحد تلاميذه المختارين .

وعلى الرغم من كل هذه الدسائس التى حاكها أعداء الكندى حول شهرته العلمية ، فإن اسمه ظل نجما ساطعا فى تاريخ الفلسفة العربية ، وبقي إمام الفلاسفة وأول المتبحرين فى الحكمة .

أهمرقه الشخصية :

يروى ابن أبي أصيبعة للكندى وصية أوصى بها ابنه تدل على أنه كان شديد البخل الى حد الشح المغالى الذى لا يمنع صاحبه من الإحسان فحسب ، بل يحول بينه وبين الإنفاق على نفسه . ومن هذه الوصية قوله : « قول لا ، يصرف البلاء ، وقول نعم ، يزيل النعم ، وسماع الغناء برسام حاد ، لأن الانسان يسمع فيطرب ، وينفق فيسرف فيفتقر فيعقم فيعتل فيموت . والدينار محموم ، فإن صرفته مات ، والدرهم محبوس ، فإن أخرجته فر ، والناس سخرة ، فخذ شيئهم واحفظ شيئك » (٢) .

وأنا أميل الى القول بأن هذه الجمل قد تكون مدسوسة على الكندى من أعدائه للتشهير بأخلاقه العملية ، كما شهرها بقيمته العلمية ، لأن من يتبحر فى الفلسفة اليونانية ويدرس الحكمة الهندية المغالية فى الزهد والاستخفاف بالحياة المادية دراسة ذات أثر فعال كدراسة الكندى إياها ، يبعد أن يكون فى أخلاقه العملية شحوا الى هذا الحد الذى رموه به ، وإن كان ذلك ليس مستحيلا ، لأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم كثيرون .

(١) صفحة ٢٠٨ من الجزء الاول من كتاب «عيون الانباء» (٢) صفحة ٢٠٩ من الكتاب المذكور.

فلسفته - الرباط :

يرى الكندى أن العالم مخلوق لله ، متأثر به تأثر المسبب بسببه السابق عليه ، وقد حدث هذا التأثير من الله في العالم مرتباً على النحو الآتى :

خلق الله العقل الأول وأسكنه عالم الحقيقة ، مزوداً بالقدرة على التأثير فيما يليه وعلى تصوير المادة كما يريد ، وعن هذا العقل الأول فاضت النفس الكلية التى نشأت عنها النفس الانسانية ، كما نشأ عنها عالم الأفلاك المادى .

ومما لا ريب فيه أن الكندى تأثر بفلسفة أرسطو الإلهية فى نفيه عن البارى التأثير المباشر فى المادة ، وفى إسناده هذا التأثير الى النفس الكلية التى هى أحد آثار العقل الأول . وأرسطو بدوره متأثر فى هذه النظرية بتلك القاعدة القديمة التى أشرنا إليها فى المقال السالف ، وهى « أن الكامل من كل وجه لا يصدر عنه إلا كامل » ، ولما كان العقل الأول كاملاً ، ولكن لا من كل وجه لسابقة البارى عليه وافتمقاره الى هذا البارى ، فقد ساغ أن تنشأ عنه النفس الكلية التى ثبت كمالها من بعض الوجوه ، لتجردها كالعقل الأول من المادة ، وانتفت عنها الكمالية من كل وجه ، لتأثرها بالعقل الأول المتأثر بالبارى ، فقد صح أن تباهر هذه النفس الكلية التأثير فى عالم الأفلاك المادى الناقص ، وبهذا التحمل المتكلف الذى بدأ الكندى استنانه فى الفلسفة العربية قد حسب أنه وفق بين الاسلام وتلك القاعدة القديمة الخاطئة التى أبنّا أن « أفلوطين » الاسكندرى قد وجه إليها من سهام النقد ما أصابها فى الصميم ، والتي سنعرض لها مع بقية القواعد القديمة فى شىء من التفصيل عند الكلام على فلسفات الفارابى وابن سينا وابن رشد ، إن شاء الله .

ولما كان أسلوب الكندى غامضاً من جهة وكتبه قد فقدت إلا أقلها من جهة أخرى ، فلم نجد فى فلسفته تصريحاً واضحاً بأزلية المادة كما وجدنا ذلك عند غيره من فلاسفة المسلمين ، بل لعله كان يؤمن بحدوثها متأثراً فى ذلك بتلك الرسالة المكذوبة

التي عزاها الاسكندريون قصدا الى أرسطو وهي في الحقيقة مزيج من آراء « أفلاطون » و « أفلوطين » .

وكان الكندي يقول بوحدة واجب الوجود وبساطة وجوده ، ومعنى هذا إنكار الصفات بتاتا ، لأنها تخرج الى تعدد القدماء كما يقول المعتزلة الذين كان الكثيرون منهم معاصرين للكندى . وصرح بأن الله قادر بذاته وهلم جرا . ولا شك أن « أرسطو » قد سبق المعتزلة الى نفي جميع الصفات عن البارى .

النفس الانسانية عنده :

يرى الكندي أن النفس الانسانية جوهر بسيط خالد هبط من عالم العقل الى عالم الحس فاستوطنه مرغما ، ثم هو لا يزال يشعر بقربته ويحن الى العودة الى أصله ، ليستريح من هذا العذاب الذى يعانيه بسبب الحرمان من تحقق الميول العالية التى فطر عليها عالم الأرواح ، والتى ليس فى مكنته الوصول إليها ، وهو فى داخل أغلفة الأجسام الكثيفة ، فإذا أراد الانسان أن يقل من تلك الكثافة ، ليتيح للروح فرصة فوزها ببعض ما تشتهى وقربها من محب ، فاعليه إلا أن يسلك سبيل اتباع الفضائل واجتناب الرذائل ، وهى تتحقق فيما أمر الله به ونهى عنه ، وعند ذلك يصل الى نيل بغيته من السعادة الروحية والكمال النفسى ، وهذا هو الذى صدر عنه الكندي فى آرائه الأخلاقية ، وهو متأثر فيه أيضا بمذهبي : « أفلاطون » و « أفلوطين » المعزومين زورا الى « أرسطو » فى هذه النظرية . وقد انخدع فى هذا رأى كل فلاسفة الاسلام وحسبوه لأرسطو حقا ، فأشادوا به وذكروه فى معرض التباهى بمعلمهم الأول ، وسجله ابن سينا فى قصيدته الشهيرة التى يقول فى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

طريق المعرفة عنده :

يذهب الكندي الى أن طريق المعارف كلها هى الحواس والعقل ، فأما الحواس

فهى خاصة بالمحسّات والجزئيات الموجودة فى العالم المادى . أما العقل فانه يدرك مع كل ذلك ما يوجد فى العالم المعقول من الكليات بأجناسها وأنواعها . والكندى يقسم العقل الى أربعة أقسام : العقل الحقيقى ، والعقل الكامن ، والعقل المستفاد ، والعقل الفعال أو المبرز . فأما العقل الحقيقى أو جوهر الموجودات فى الكون ، فهو الموجود الأول أو النفس الإلهية . وأما الثانى ، فهو العقل الكامن فى النفس البشرية أو استعدادها العقلى . وأما الثالث وهو العقل المستفاد فهو ملكة النفس المكتسبة من خبرتها والمرشدة لها . وأما الرابع وهو الفعال فهو مبرز الأعمال الى حيز الوجود . والعقلان : الثانى والثالث أى الكامن والمستفاد هما من فعل الله . وأما الرابع أى المبرز ، فهو من عمل الانسان البحث . ونستطيع أن نوضح رأى الكندى فى هذه النقطة بصرف النظر عن الوجود الأول الذى تكلمنا عنه فى قسم الإلهيات ، فنقول : إن هذا الفيلسوف يقسم النفس البشرية الى ثلاث قوى : الأولى العقل الكامن أو ملكة الاستعداد للعقل أو العقل بالقوة . والثانية العقل المكتسب الذى يبرز من الكمون الى تكييف النفس بالفعل وليس مستفادا من الحياة إلا بروزه كعادة مكتسبة ، أما عنصره فهو موجود دائما فى النفس البشرية . والثالثة هى القوة الفعالة التى نستطيع أن نسميها الآن بالإرادة الفاعلة أو المنفذة . والقسمان الأول والثانى آتيان الى النفس من البارى ، والثالث من خلق الانسان نفسه . وهذا هو عين ما كان المعتزلة يقولون به من أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

هذا ، ويعتبر الكندى أولى طلائع الفلسفة العربية التى لم تلبث أن ازدهرت على أيدي الفارابى وابن سينا وابن رشد الذين سنحدثك عنهم على التتالى فى فصول مقبلة .

الدكتور محمد غمرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فلسفة الاخلاق

صلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك في المجتمع الانساني العام

مضيفنا بالقارىء في العدد السابق في شطر غير قليل من الفروق المتفاوتة في بني الانسان وأن النفوس تتفاضل بتفاضل البدأه واختلاف الثقافات، والآن نريد أن نعرض للانسان من حيث كونه مصدر الخير أو الشر، وكيف تلقى هذا الخير أو الشر، وكيف يكون إقلاعه عنهما بطيئاً أو سريعاً.

فالانسان بما أسبغ الله عليه من نعمة التفرد بجوهره عما يشاركه فيها من العوالم الأخرى حتى صار — كما نعته الرئيس — ملكاً قائماً على عالم الأجرام، وخليفة لله في أرضه، يستجمع بين حواسه الظاهرة والباطنة ويدخر في قواه المفكرة وحركاته الإرادية، ما يدبر به تلك المملكة، ويتصرف بمقتضاها تصرفاً هو أجدى أنواع التصرفات وأروح لسائر الكائنات، وأبرز وجوداً وأطول خلوداً.

من أجل ذلك يذهب الأخلاقيون الى أن كل ما يصدر عن الانسان من حيث كونه كذلك يجب أن يكون تاماً في فعله ووصفه، وهذا ضروري، لأن صناعة الأخلاق قائمة على تركيز الخلق في الانسان، وإحاطته بسياس صفيق، واتخاذ الفضائل الأربعة التي أسلفنا للقارئ كثيراً من فيوضاتها حتى يقاوم الخير في النفوس بما ركز فيها من خلق عادات الشر وغوائل الطبيعة، ومتى أحكم ذلك السياج المنيع بتدبير من الروبة وإلهام من الخير، وجب أن يكون الانسان في مملكته أعلى المثل الطبيعة في جميع ما يصدر عنه.

فاذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف، نظراً لما يصدر عنها من آثار ضارة أو نافعة، كانت بالقياس الى ما تنزع اليه شريفة أو وضيعة.

أما الانسان من بين هذه الموجودات فهو متحل بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات، وليس ينبغي أن يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة،

وهذا شيء يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه عند الكلام بإسهاب عن تلك الفروق ، غير أن ما يجب أن يعلم الآن وقبل كل شيء هو أن وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة خالقه ومنشئه سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير . غير أن تجويد ذلك الجوهر بوسائل قمع الشهوات وإحلال أضدادها مكانها ، وتمحيض ذلك الجوهر للخير قدر الجهد حتى يصهر النفوس الشريرة من علائقها ، ويكبح فيها ملكة الجوح ، ويحييها الى نوع من السعادات ، إنما هو من عمل الانسان ، ومتعلقات قدرته ، وأثر من آثار إرادته . ومما لامية فيه أن الأخلاقيين معنيون أبدا بتعرف أن نفوسنا ماهي ولأى شيء هي ، وأن لكل جوهر موجود كما لا خاصا به وفعل لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء .

لذلك كنا نحن أيضا معنيين بمعرفة الكمال الخاص بالانسان ، والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره من حيث هو إنسان ، لنحرص على طلبه وتحصيله ، فنسعى في البلوغ الى قته . ولما كان الانسان في حقيقة أمره مركبا لا يتجزأ إلا من حيث ما يصدر عنه ، كان واجبا أن يكون مفهوم ما صدور تلك البسائط في أفعاله الصادرة عنه . فأفضل الناس هو أقدرهم على إظهار فعله الخاص وأزهمهم له وأدومهم عليه ، من غير تلون فيه ، ولا إخلال به في وقت دون وقت .

وبذلك إذا عرف الأفضل يعرف الآن نقص ، على اعتبار ملاحظة الضد ، فالكمال الخاص بالانسان ينحل في الحقيقة الى كمالين ، ذلك أن للانسان قوتين : إحداها العاملة والأخرى العاملة . فإحدى القوتين يشتاق الى المعارف والعلوم ، وبالأخرى الى نظم الأمور وتنسيقها ، وبها تين القوتين سما الانسان الى معارج الكمال ، وتحلل من أسر المادة وعلائقها ، فقبض بكلتا يديه على مؤسسة هذا الوجود ، وأخضعها لتصرفاته التي تعتبر أثرا من آثاره ، ونموذجا صالحا من نماذج الانسانية الفاضلة والخلق الكريم . فان للانسان في ترتيب هذه الآداب وتلك الفضائل وسياقها أولا فاولا الى الكمال الأعلى طريقا طبيعيا يشتهه فيها بفعل الطبيعة ، بأن ينظر الى القوة التي تحدث فينا

أيها أسبق الينا وجودا، وأمضى بين أظهرنا قدما، فيبدأ بتقويهما ثم بما يلها على النظام الطبيعي، وهو بين جلي . ذلك أن أول ما يحدث فينا هو الشئ . العام الذي يحدث للحيوان والنبات بنوع عام، ثم هو لا يزال يختص بشئ . بعد شئ . يتميز به عن نوع بعد نوع حتى يستحيل الى الانسانية .

من أجل ذلك يذهب الأخلاقيون الى ضرورة أن نبدأ أولاً بالشوق الذي يحصل فينا بواسطة الغذاء فنقومه ، ثم بالشوق الذي يحدث فينا الى الغضب ومحبة الأثرة والتسلط فنقومه ، ثم بآخر مراتبه وهو الشوق الذي يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه ، وتلك المرتبة الأخيرة هي المستخلصة للانسان ، فهي مرمى طرفه ، وراحة كفه ، وهي التي يسعد بها في السعداء ويشقى بها في الأشقياء ، فإذا قومها فإنما يقوم أسبابها وينسق عليها . وليس معنى ذلك أن يقومها كما قومها في المرتبتين الأولىين ، فإن الانسان إذا اشتاقت نفسه الى العلوم والمعارف قبل أن يقطع شوط الطفولة وما يقرب من حد المراهقة واليفوغة ، كان ذلك على غير قانون الأخلاقيين ، فكان ضروريا أن يلحق في تلك المرحلة من مراحل مبادئ ذلك القانون رويدا رويدا حتى تستحكم عراه وتتأخذ علله وأسبابه ، وهذا الترتيب طبيعي لما يبدو في الانسان من أول نشوئه من الشعور بأنه يكون جنينا ثم يكون طفلا ثم يكون رجلا كاملا ، فكان بدهيا أن تحصل فينا تلك القوى مرتبة على منازل ثلاثة . ومن أجل ذلك كان الانسان في آخر دور من أدوار وجوده حامل الرسالة ، ومؤدى الأمانة ، وخليفة الله في أرضه .

ومما هو غنى عن البيان أن الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم كانوا أشرف الناس بالقياس الى شرف ما يصدر عنهم من كرائم الخصال وبيض الفعال ، لأنهم أحاطوا عقولهم ونفوسهم بتلك المثل العليا للفضائل ، فورثهم ذلك النبوغ الأخلاقي استحقاقهم لأن يقبضوا على ناصية هذا الوجود ، وأن يسمعوا فيه أضواء رسالاتهم وتعاليم وحيمهم بين الناس جميعا ، فكانوا المثل الكامل في الانسان الكامل .

وأذن في الناس بالحج

إنه نظرا لاقتراب موسم الحج، نهيب بكل مسلم الى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء هذه الفريضة، لاسيما وقد تيسرت سبل الوصول الى البلاد المقدسة الآن، وأصبح الحاج يستطيع أن يجد حتى في البلاد العربية من وسائل الراحة مالا كان يحلم به أبائنا من قبل .

وقد فرض الله الحج على المستطيعين له، الذين تتوافر لهم الصحة والمقدرة المالية، فن آنس في نفسه الاستطاعة المشروعة وخف اليه، فقد وقع أجره على الله، وأصبح في كلالته وحمايته بفضلته وكرمه .

ونحن نريد في هذه المناسبة أن نذكر كلمة في الحج نضمنها ضروبا من الفوائد العلمية والحكم الاسلامية، فنقول :

تاريخ الحج :

الحج من الشئون الدينية التي كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم، فاما من أمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تخرج اليها، وحادا أو جماعات، في وقت واحد أو أوقات متعددة .

فكان لقدماء المصريين والسريان هياكل مقدسة يحجون اليها .
وكان الصينيون ولا يزالون يحجون الى هياكل معينة في بلاد التبت وبلاد التتار وغيرها .

أما الهنود فخرجهم الى هيكمل تحت الأرض في جزيرة اليفانتا على سواحل مالابار، أو الى هيكمل جاجرنات أوغيرها .

أما اليونانيون القدماء فكان لهم في بلادهم وفي مستعمراتهم بآسيا هياكل

يقصدونها ليمضوا فيها وقتا في العبادة والنسك ، أشهرها هياكل جوبتير وديانا ومنيرفا الخ .

وقد أمر الإسرائيلون أن يؤموا أورشليم ليمضوا فيه عيد الفصح متعبدين مخبتين . ولما جاءت المسيحية جعلت أمكنة الحج في أول عهد هاقبور الأولياء والشهداء . ثم حولته الى أورشليم ، فكانوا طوال عهد القرون الوسطى يقصدونها لأداء هذا الواجب . الحجاج من أهل الملل السابقة على الاسلام كانوا يرون أن من وجوه الزلفى من الله أن يتكبدوا في حجهم حرجا شديدا ، فكانوا يتعمدون إرهابا أبدانهم ، كأن يقصدوا مواطن الحج مشيا على الأقدام ، أو حفاة تدمى أرجلهم الرمضاء . ومنهم من كانوا يتوجهون الى الحج موقرين بسلاسل حديدية تهد القوى ، أو يقطعون اليه المسافات الشاسعة وهم داخل أكياس ليتعثروا في كل خطوة من خطواتهم .

أما الأتقياء من الصينيين فيندرون أن يطوفوا بتلك الهياكل زحفا على بطونهم ، معتمدين على مرافقهم ، أو حاملين أثقالا باهظة على ظهورهم . وكان على السكمان أن يعينوا لهم أى أنواع الإرهاب الجنائى أحب الى الله من غيره .

الحج في الاسلام :

كان العرب قبل الاسلام كسائر الأمم يحجون في عهد جاهليتهم الى البيت الذى بناه ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام في مكة ، حتى أن أبرهة عامل أحممة ملك الحبشة باليمن ابتنى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بنحو أربعين سنة كنيسة في صنعاء ، وحاول أن يحمل العرب على الحج اليها . فلما لم ينجح في محاولته اعتزم أن يهدم الكعبة ، فقصدها على رأس جيش ممتطيا صهوة فيل له ، فردده الله عنها ، ولم يبلغ مراده منها .

ولما جاء الاسلام جعل الحج ركنا من أركانه الخمسة ، وهو أشد أركانه كلفة ، لذلك أحاطه بكثير من وجوه الإعفاء جريا على أسلوبه الحكيم في دفع الحرج عن متبعيه

مصدقا لقوله تعالى : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » . فاشترط له الاستطاعة من صحة ومال ، وكره أن يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعا وتطلبا لزيادة الأجر . فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا ماشيا يتهادى بين ولدين له يريد الحج ، فسأل عن شأنه ، فقيل : يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشيا . فقال : « كلا ! إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احموه » أى على بعير .

قلنا : أقر الاسلام الحج ، ولكنه لم يدعه على ما كان عليه في عهد الجاهلية ، فإن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجساد رجالا ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وقد سجل الله عليهم ذلك ، فقال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » . المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وأمر النبي صلى الله عليه وسلم لما قوى سلطان الاسلام أن لا يدخل البيت عريان .

ونظم - سلام الله عليه - الحج فجعل له أميرا يتقدم الناس ويتقدم ، ويدفع بوائق الطريق عنهم ، حتى إذا انتهوا الى البيت تولاهم هو وخطبائه بالارشاد خيري الدنيا والدين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تعميم العلم بأمر من الأمور خطب به الناس في الموسم ، أو أوعز الى أميره أن يخاطب الناس به هنالك .

فحول الاسلام الحج على هذا الوجه من عبادة جسدية لا روح فيها ، الى عبادة اجتماعية روحية ذات أثر بليغ في ترقية شئون المسلمين . وقد أشار الله تعالى الى هذه المزايا العظيمة بقوله تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » الآية . وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معا . وهذا شأن الاسلام في كل ما فرضه على الناس : يراعى فيه مصلحة الحياتين جميعا .

فلو أردنا أن نستقصى ما يمكن أن يشمره الحج للمسلمين كافة من وجوه المنافع

الأدبية والمادية لضاق علينا المجال ، فإن لم يكن فيها إلا تعارف الشعوب الاسلامية ، وإلزام بعضها بحاجات بعض ، لكفها ذلك عاملا قويا في دفعها الى تبادل الوسائل والتعاون على سد المفارق ، ولوصلت جميعا على هذا النحو من التكافل الى مستوى رفيع بين شعوب العالم .

ولكن هذه الثمرات الاجتماعية الجليلة لا يمكن أن تكون إلا إذا تطورت فكرة الحج لدى المسلمين حتى تبلغ المفهوم من مراد الله من الحج . فإن المشاهد لدى أكثر المسلمين الآن أنهم لا يلحظون فيه إلا الناحية الروحية وحدها ، وكان لتجريد هذه الناحية أثر ظاهر في حصره في طبقة من المسلمين لا تتمتعها إلا نادرا . إذا تقرر هذا كان من أوجب واجباتنا أن نفوه بمنافع الحج للدين والدنيا معا ، وأن نكثر من ترويج هذه الحقيقة في الأذهان ، وأن ننبه خطباء المساجد الى ملاحظة هذا الأمر الجلل في شهور الموسم من كل عام .

ولكننا نعلم من ناحية أخرى أن هذه الدعوة لا تنتج كل مايرجى منها إلا بارتقاء العمران في البلاد المقدسة ، وتيسير سبيل الوصول اليها . أما الشطر الثاني من هذا الشرط فقد تم بما خصص للحج من بواخر إسلامية تعنى جد العناية براحة الحجاج في ذهابهم وإيابهم ، مما أصبح مفخرة لمصر ، ونرجو أن يحذو حذوها جميع الأقطار الإسلامية . وأما الشطر الأول منه وهو انتشار العمران في البلاد المقدسة فأدعى للعناية . فقد مر على الناس زمان كانت الشقة بين مكة والمدينة مخوفة الى حد أنه كان من المخاطرة بالنفس اجتيازها . هذا فضلا عن أنها كانت تقطع على الأبل فتظل هذه الحيوانات تسير سيرها الوئيد اثني عشر يوما ، ويضطر من عليها من الشيوخ والنساء أن يمضوا لياليها في وسط فياف جرداء ، أو وديان موحشة ، محرومين من جميع وسائل الإسماف . وقد تغير ذلك اليوم ، فتعلم أذكياء العرب تسيير الأتومويلات ، فصارت تقطع تلك الشقة في ثلاث . ولكن الثلاث كثيرة على الناس أيضا في مثل

هذا العصر ، فلا بد من اختصارها الى يوم واحد بواسطة خط حديدي يمد بين مدينتي الحرمين ، يكون فيه كل وسائل الراحة لقاصدي أداء هذه الفريضة .

ويجب أن تنشأ في مكة والمدينة فنادق على الطراز الحديث ، وأن يستكثر فيهما من عدد الأطباء والعديدلات ، وأن يدخل اليهما جميع المستحدثات النافعة من الأنوار الكهربائية والخطوط التلغرافية والتليفونية ، السلكية واللاسلكية ، والبريد الجوية ، حتى لا يشعر الحجاج بانقطاعهم عن العالم .

نم : إن هذه التجديدات سائرة هنالك بحيث يرجي لها أن تنتهي الى هذه النهاية ، ولكن يجب العمل على تنشيطها بكل ما يستطيعه المسلمون من وسيلة ، سواء أكان ذلك بتأليف الشركات ، أو بالتبرع بالمال لجامعة تنتدب لإحداث هذه الأعمال . بهذه الوسيلة يتضاعف عدد الحجاج ، فبعد أن يكون أكبر عدد للحجاج مائتي ألف من سائر الأقطار قد يبلغ المليونين بل أكثر من ذلك ، وفي هذا رواج عظيم للشركات التي تقوم بهذه المنشآت ، وباب رزق واسع للعرب الذين يعتبرون موسم الحج حيلتهم الوحيدة في الحياة .

ربما يرى بعضهم أنه كلما كثرت المشاق من أداء فريضة الحج ازداد ثواب الحاج . هذا لا مشاحة فيه ، ولكن لا يجوز الإبقاء على هذه المشاق لمصلحة بعض المتطوعين في سبيل حرمان أكثر المسلمين من أداء هذه الفريضة ، إذ ليسوا كلهم من قبيل هؤلاء المتطوعين ، والاسلام جاء باليسر في كل شيء ، ورفع الحرج عن كل ما يتعلق بالدين ، فهو دين الكافة لا دين طائفة من الناس ، وقد بنى على التيسير لحكمة عالية وغرض عظيم .

فهل خير للمسلمين أن يحج عدد قليل يجازفون بحياتهم لينالوا أكبر حظ من الثواب بسبب المشاق والأخطار التي يتعرضون لها ، أم أن يحج منهم عدد كبير

لا يتكبدون مثل هذه المشاق ، ولا يتعرضون لمثل تلك الأخطار ، مكتفين بشواب القائلين بما فرضه الدين ؟

لا أظن أن يحدث خلاف في أي هذين الأمرين خير للمسلمين ، لا لأن المصلحة تقضى به ، ولكن لأنه يوافق روح الاسلام من الرفق والتيسير ودفع الحرج والعنت في كل شيء ، عملا بقوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .
محمد فريز ومجدي

هما قيل في الرأي والهوى

قال بعض الحكماء : فضل ما بين الرأي والهوى ، أن الهوى يخص والرأي يعم ، وأن الهوى في خير العاجل ، والرأي في خير الآجل ، والرأي يبقى على طول الزمان ، والهوى سريع الدثور والاضمحلال ، والهوى في حيز الحس ، والرأي في حيز العقل .

وأوصى بعض الحكماء رجلا فقال : أمرك بمعاودة هواك ، فانه يقال : إن الهوى مفتاح السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكل أهوائك لك عدو ، وأهواها هوى يكتملك في نفسه ، وأعداها هوى يمثل لك الائم في صورة التقوى ، ولن تفصل بين هذه الخوصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لا يشوبه وهن ، وصدق لا يطمع فيه تكذيب ، ومضاء لا يقاربه التثييط ، وصبر لا يغتاله جزع ، ونية لا يتقسمها التضيع .

وقد قيل : ما أين الخير والشر في مرآة العقل ما لم يصدئها الهوى ! وقيل أيضا : من جرى مع هواه طلقا ، جعل عليه للذل طرعا .

الاسلام والمسيحية (١)

كانت الملكة زبيدة امرأة ذات مواهب، وشاعرة مطبوعة. وإن مكة لتدين لها بالقناة المسماة باسمها. وكانت الأوانس في العصر العباسي يشتركن في الحروب ويقدن الجيوش. وقد ترأست والدة المقتدر محكمة الاستئناف العليا، وكانت تقابل السفراء والمبعوثين. وكانت الشبيخة شهدة تحاضر في بغداد في القرن السادس الهجري في التاريخ والأدب. ومن بين مشاهير المتفقيات زينب بنت المؤيد التي تعلمت على أشهر فقهاء عصرها وأعطيت إجازة بتدريس القانون. ولم تقل منزلة النساء الثقافية والتهديبية تحت حكم الأمويين عن منزلتهن تحت حكم العباسيين، فقد أخرجت غرناطة وقرطبة من مجليات النساء من اشتهرن في الفنون وفي العلوم، مثل نزون وزينب وحمرة وحفصة وصفية ومارية.

وبحسن بي في هذا المقام أن أقول: إن الاسلام قد اعتبر المرأة مستقلة في نظر القانون، وأعطاهما حق حيازة الملك وجعلها مسئولة عما تدخل فيه من الالتزامات. وتعلمون أن الحال ليست كذلك في نظر أوربا المسيحية، ففي أغلب الممالك الأوربية تنتقل ملكية أملاك المرأة الى زوجها عند الزواج، وفي انجلترا تصبح المرأة في نظر القانون العام، هي وزوجها شخصا واحدا، ليس لها الحق وحدها في التملك أو الدخول في الالتزامات. ثم جاء قانون سنة ١٨٨٢ لملكية النساء المتزوجات، فأعطاهن الحق الذي لم يتمتعن به من قبل، فأصبحت المرأة مسئولة عما تدخله من الالتزامات والتعهدات بقدر أملاكها الخاصة، إلا أن هذا القانون لم يجعل الزوج خاليا من تبعة تصرفات زوجته، فإن للمدعي حق الاختيار بين مقاضاة الزوجة بمفردها أو إشراك زوجها معها.

(١) بقية ما نشر بهذا العنوان في العدد الثامن من هذه السنة.

وإذا لم يكن للزوجة مال خاص أمكن المدعى مقاضاة الزوج بصفته مسئولاً عن تصرفات زوجته .

نستنتج من ذلك أن فكرة الاسلام في اعتبار المرأة مستقلة أمام القانون سبقت كل ما أحدثه فقهاء الغرب . ثم إننا نجد غير ذلك أن كل شخص ، ذكرًا كان أو أنثى ، له الحق في الميراث ولا يمكن سلبه هذا الحق . فإذا قارنا ذلك بالحربة المطلقة في الوصية في القانون الانجليزي ، نحمد الله على ما هدانا اليه من ضرورة الاعتراف بحقوق الأسرة .

لقد اضطررت في هذا العرض الموجز أن أغفل ذكر الحضارة العالية التي بلغها مسلمو إيران والهند ، ولكن يحسن بي أن أشير الى أنه لولا دخول العرب في الهند لكان للتاريخ شأن آخر غير شأنه الحالي ، فقد دخل العرب بلاد السند بقيادة محمد بن قاسم واستولوا على مولتان واحتلوا البنجاب حتى بيز ، ثم استقر مقامهم هناك تحت إمرة محمد الغزني . ولسنابالغ إذا قلنا إنه لولا العرب لما أنجبت إيران رجالاً كعمر الخيام والنظامي والرومي والسعدي وحافظ والفردوسي ، ولما أنجبت الهند من الحكم أمثال بابر وأكبر وشاه جاهان وأورانجزب ونورجاهان والفيضي . ولولا الاسلام لما بُني (تاج محل) لؤلؤة المجهودات الأدمية في بحر الوجود ، والدليل الساطع على ما لا يمكن وصفه من الآلام ، والبرهان الخالد على حب أمبراطور لشريكته في الحياة والملك . ولولا الاسلام لما وجدت مباني فيتيبور سكري الدالة على عظمة فن البناء واستطاعته التعبير عن حالة طارئة من طبيعة الملك أكبر العجيبة . ولولا الاسلام لظلت ملايين العمال من الهنود تعبد الملايين من الأصنام دون الله ، وظلت اللعنة النازلة بالنبوذين عامة في جميع البلاد ، ولما قامت الديمقراطية بالهند ، كما كانت وكما هي الآن ، تناوى لنظام الطبقات وليد البرهمية غير الشرعي .

ولننتقل الآن الى القارة المظلمة حيث نجد في بعض جهاتها آثاراً من آثار الاسلام

ذى التاريخ العظيم؛ فنجد في نيجيريا وأكانتى وكينيا وتنجانيقا ونحوم السودان والصحراء، إمارات من البربر والزوج المسلمين يسبقون جيرانهم المتوحشين في أسباب المدنية، بإطاعتهم للقوانين واتخاذهم سنننا خلقيا، وغير ذلك مما يبرزهم على القبائل الممجية، حتى أن المستعمر الأوربي لهذه الجهات لم يجد صعوبة في تنظيمها وإدارتها، لوجود نوع من نظام الحكم بها قبل الاستعمار، فكان المستعمر يترك لهم قوانينهم المدنية كما هي في أغلب الأحيان، ويستبدل قوانينهم الجنائية والحرية بغيرها. وأسأل المبشرين في تلك الأصقاع بخبروك أنهم لا يلاقون نجاحا بها، لأن القبائل هناك قد عرفت التهذيب قبل معرفة الرجال البيض بقرون، فإن تجار العرب، لاسيما في عصر الاسلام الذهبي، كانوا قد حملوا الى كثير من تلك القبائل رسالة السلام والمدنية لا كرسى للاستغلال الاقتصادي والسياسي كما يحدث اليوم، ولكنهم جاءوا وهم مخلصين يبلغونهم الرسالة التي أمرهم رسول الله بإبلاغها الى الناس.

وقد يسأل سائل فيقول: وما علاقة ما وصل اليه المسلمون في العصور الأولى للاسلام بالاسلام نفسه؟ والجواب على ذلك أن العلاقة كائنة في كل شيء، فلقد كانت بلاد العرب قبل الاسلام غارقة في بحور من الجهل والذائل، فلما جاء الاسلام تبوأ بجدارة ذرا التقدم والثقافة. وكانت تعاليم الاسلام هي الداعية الى هذا التغيير وسبب هذا الانقلاب العظيم، قال رسول هذه التعاليم: «مداد العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء». وقال أحد الكتاب المحدثين: «حفظ العرب التراث الذي خلفه المتقدمون من العلم والمعرفة، ولولا عملهم هذا لضلت سفينة العلم في بحر الظلمات. فعملينا أن نشكر للعرب إتقادهم تلك البضاعة النفيسة من الآداب والفلسفة اليونانية وحفظهم إياها خمسمائة سنة. كانت الأمبراطورية الاسلامية، ولم يمض على وفاة النبي غير تسعين سنة، تمتد من جبال الهملايا الى جبال البرنات، ولقد صحت عزيمتهم

لما كانوا عليه من الكبرياء العقلی والطموح وسعة التصور ، على أن يدركوا سر الروح أيضا في فتوحاتهم »

من ذلك نعلم أنه لولا الاسلام لظل الناس يتخبطون في ظلمات الجهل والهمجية ، فقد كان مصباح المعرفة ذبالة لا تسكاد تضيء ، وكانت تلك الذبالة تنذر بالافول . ولولا الاسلام لما حدثت النهضة بأوربا ، ولما بدد النور ظلام العصور المظلمة . إذن فالفضل يرجع للعرب في بقاء شعلة الثقافة والمدنية مشتعلة ، وفي مساهمتهم بما أضافوه من المعلومات التي زادت من سعادة الناس ورخائهم ، ولم يكن عملهم موقوتا بل كان باقيا .

والآن أنناول مسألة أخرى ، وهي : هل المدنية الحديثة من ناحيتها الصالحة تدين بوجودها الى المسيحية ؟ ولكني قبل الخوض في هذا الموضوع أود أن أنبه حضراتكم الى حقيقة تاريخية هامة ، وهي أن المسيحية بدأت حياتها وسط مدنية عظيمة ، مهما قيل إنها كانت مدنية متداعية ، فبدل أن تحيها عجبت سقوطها ثم بقيت ، على حد تعبير جونسون ، ملكة الليل عدة قرون . ولم تظهر البلاد المسيحية علائم الحياة المدنية إلا بعد أن انتشرت المدنية الاسلامية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب . وليس هذا مجال بيان كيفية مساعدة المدنية الاسلامية على نشوء الحضارة الأوربية الحديثة . فإذا كان من حضراتكم من يريد الاطلاع على تلك الناحية فعليه الالتجاء الى كتاب « تطور أوربا العقلی » تأليف دريبر ، فهو يساعد على فهم هذا الموضوع . وإذا حدثتكم عن منهج المسيحية نحو تقدم الحضارة الحديثة فلن أحدثكم عن تلك القصة الروعة بالتفصيل ، لأن كل مطلع على تاريخ العصور الوسطى يعرف عنها ما فيه الكفاية ولكني سأقفكم على النتائج التي وصل اليها ليكي (Lechey) بعد بحوثه المستفيضة في هذا الموضوع ، قال :

« كان كل اتجاه فكري تمده الفلسفة جوهريا في تقدم الأبحاث ، موصوما بكونه

معصية، كما أن كثيرا من الرذائل الفكرية الفظيعة كان معتبرا من الفضائل، وظل الحال كذلك حتى القرن السابع عشر. كان الشك في الآراء التي يلقنها الطفل قبل سن التمييز معصية. وكانت الفضيلة أن يعتقد فيها الانسان اعتقادا راسخا دون سؤال أو تمحيص. كان الاعتراض على تلك الآراء أو ملاحظة العيوب المشتملة عليها معصية. وكانت الفضيلة إخماد أى اعتراض عليها بتهمة صدوره من الشيطان. كان من الاجرام البحث فى أى شىء بحسب حرا بريئا من الأغراض، ومن الاجرام اتباع ما ترشد اليه العقول المستنيرة، ومن الاجرام أن يدلى الانسان برأيه أو أن يعترف بكفاية خصوم الآراء السائدة حينذاك. وبكلمة واحدة كان رجال الدين يعتبرون كل ميل الى التخلص من قيود العقائد السائدة وحب التفكير إهانة موجهة الى الله جل وعلا. ولقد نجحوا مدى زمن طويل فى شل حركة العقل الأوربي تقريبا، وفى إقناع الناس أن البحث الحر الخالى من الأغراض من أخط الرذائل؛ نجحوا فى ذلك بإبادة كل كتاب يمكن أن يشير مناقشة موضوعه، وبيث روح التصديق الأعمى فى كل فرع من فروع المعرفة، وباضطهاد المختلفين معهم فى الرأى اضطهادا مروعا.

وأخيرا أنقذت أوروبا المؤثرات الفكرية التي أوجدت (النهضة) بفضل أولئك الفلاسفة الذين وضعوا شروطا للبحث، وأولئك المجددين الذين جروا على مناهضة الأفكار العتيقة، ولم يخفهم استشهاد برونو وفانيني أمام عيونهم. فانتشرت روح الفلسفة، وإن شئت فسمها روح الحقيقة. وضعفت روح التعصب الفكرى.

وطالما كانت روح التعصب الفكرى سائدة كان الاضطهاد عاما نازلا بالناس بلا رحمة، مسلما بضرورته. ولما قويت روح الفلسفة اضمحلت عادة الحرمان من رحمة الله، وضعف الاضطهاد، وغير طريقه، فبعد أن كان عملا يجرى فى العلانية أضحي ميلا عاما فقط. ففى عصر من عصور الاضطهاد كانت الخوارج تحرق، وكانوا يرهقون بالقوانين

الجنائية في عصر آخر من عصوره . وفي عصر ثالث كانوا يجرمون من المراتب والمكاسب . وفي عصر رابع كانوا ينبذون من المجتمع . وكان كل عصر من تلك العصور مصحوبا بما يناسبه من اضمحلال روح التمصب الفكرى ، وبما يناسبه من ازدياد قوة الحقيقة .

من الواضح أن أحكام ليكى السابقة لا نحاول بأى حال من الأحوال نسبة المدنية الحديثة الى المسيحية بأعلى معانيها . ويمكننا أن نقول إن المدنية الحالية جاءت على الرغم من المسيحية ولم توجد بفضلها . ولكن الحال غير ذلك فيما يتعلق بالحضارة الاسلامية ، فقد انتشرت وانتعشت فى الوقت الذى انتشر فيه الدين الذى أوجدها ، واضمحلت حينما وقف تقدم الدين وسكن .

وهنا نسأل لماذا فقد الاسلام حيويته ونشاطه ؟ والجواب على ذلك قريب : إن الدين يبق من عصر الى عصر ، ولكن الأمة لا تستطيع أن تظل كذلك . فالأمة كأي كائن من الكائنات الحية ، لها ميلاد ولها شباب ، ثم تموت . أما الدين ، إذا كتب له البقاء ، فينتقل من بلاد الى بلاد لا يظهر نفسه . وطالما كان الاسلام ينتقل من مكان الى مكان ظل حيا وظل نشطا . وفي اللحظة التى وقف فيها انتشاره بدأ ضعفه .

ونذكرون حضراتكم أن اعتناق الشعوب الجرمانية الباسلة الدين المسيحي جعل للمسيحية ما لها الآن من مجد وحضارة . فهم الذين احتجوا على المسيحية الأصلية ، وهم الذين أحدثوا الإصلاح فى اتجاه تفكير الناس ، وأوجدوا عناصر التفكير الفلسفى الجرى ، والبحث الحر ، وكل الدوافع التى كوّن مجموعها الحضارة الحالية . ألم يكن الآباء الحجاج هم الذين أوجدوا أمريكا الحديثة ؟ على ذلك كان دخول الدين بلادا جديدة من أهم العوامل فى حياة هذا الدين . وقد تنبّهت الى هذه الحقيقة المنسية البلاد الاسلامية الغافية ، وعولت على اليقظة والتوسع مرة أخرى . والدليل على ذلك أن المسلمين من الهندود ، على الرغم من كونهم رزحوا تحت نير مزدوج ، ينشئون

الارسلالات التبشيرية ورسولونها الى بلاد الغرب . فإن في ذلك ما فيه من قوة العزم والرغبة في التضحية من أجل هذا الغرض النبيل . ويسأل المسيحيون أنفسهم : هل في وسمهم أن يدلوا على مثل هذه العزيمة بين صفوفهم فيما يتعلق بدينهم ؟ وهل هم متفائلون في مستقبل دينهم كتفاؤلنا في مستقبل ديننا ؟

إن أول ما يبدو للانسان هو قوة العقيدة الاسلامية وتأصلها في النفوس . وهذه بلا شك ظاهرة جديرة بالنظر . ولقد أصاب كارليل حينما قال في هذا الموضوع : « إن الدين الاسلامي يجد مكانه في صميم الأفتدة . وإن العرب يؤمنون بدينهم ، ويمشون به على عكس المسيحيين الذين لم يتمسكوا بدينهم تمسك المسلمين بدينهم ، منذ أيام المسيحية الأولى . والمسلمون يرددون عبارة (الله أكبر) فيتجدد إيمانهم بالاسلام يوما بعد يوم » . ومهما قيل في عدالة كارليل ككاتب أو ناقد فإنه لم يعارض رأيه هذا كاتب من الكتاب حتى الذين عرفوا بمهاجرتهم للاسلام . ولكنى لا أقصد من قولى هذا أن عيسى كان كاذبا أو أن الدين الذى جاء به ليس ديننا حقيقيا . فإنا أبعد هذا عما أعتقد ؛ فإننى أعتقد مع جميع المسلمين أن عيسى رسول الله ، وأنه لم يأت بما لم يوح به الله . إلا أننى أقول مع ذلك إن الديانة المسيحية وتعاليم الكنيسة المسيحية ، في نظر المسلمين ، شيثان مختلفان . فليس للمسيحيين من عقيدة إلا في عيسى الذى خلقته مخيلاتهم . وفي هذارد المسلمين على السؤال الآتى : « لماذا لا يكون للمسيحية من السلطان على أتباعها مثل ما للاسلام من السلطان على معتنقيه ؟ » . وقد يسأل سائل فيقول : وماهى مساوىء المسيحية على ماهى عليه الآن ، وماهى مزايا الاسلام ؟ والجواب على ذلك أن المسيحية كماهى الآن لا تسد مطالب الدين الصحيح . فالدين الصحيح يجب أن يقدم للناس حولا معقولة للمشاكل والمعضلات التى تعترض حياتهم . والاسلام وحده يقدم هذه الحلول الى الفرد وإلى الجماعة على السواء . أما المسيحية فإنها فى محاولتها تعريف الشئ تقسمه أقساما ، ولا أكثر من ذلك . وسأسرد على حضراتكم بعض الأمثلة توضيحا لما أقول :

فلنبداً بموضوع الله :

إذا أردنا تفسير الفوضى في الخليقة لا بد من إثبات وحدتها، وقد جاء الاسلام بهذا، قال الله تعالى : « قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد » . ولكن المسيحية بتقسيمها الخالق الى ثلاثة أقسام جعلت من مسألة عويصة مسألة أعوض منها، فلن يستطيع إنسان أن يقول، ويدها على صدره : إن نظرية الثالوث معقولة أو مصدقة .

وخذوا مثلاً آخر: مسألة للمادة والروح اللتين تعدهما المسيحية قوتين متعارضتين، ولا بد من قتل الأولى لحياة الثانية . إن هذا، بلا شك، لا تقبله العقول المنطقية المتفائلة . على أن الأمر على غير ذلك في الإسلام، فلا تعارض هناك بين المثل الأعلى وبين الواقع . ولا أجل أن يحيا الانسان حياة مثالية، ليس عليه تطبيق الواقع بتاتا، ولكن عليه مداومة السعى وراء المثل الأعلى حتى يرتفع الواقع الى مستوى المثل الأعلى . وفي عبارة أخرى يعتبر الاسلام المادة روحا، ولكنها روح تعبر عن نفسها في مجالى الزمان والمكان . قال تعالى :

« والله ملك السموات والأرض والله على كل شئ قدير » . وقال : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » .

لقد قدر نيتشه الفيلسوف الألماني تلك الحقيقة في الاسلام فقال : « إذا كان الاسلام يحتقر المسيحية فهو محق ألف مرة، لأنه اعترف بوجود الانسان » . لها بقية .

أدب العيادة

دخل كثير عزة على عبد العزيز بن مروان وهو مريض فقال له :
لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسلم لدعوت ربى أن يصرف ما بك الى، ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية، ولى فى كنفك النعمة .
فضحك عبد العزيز وأمر له بجائزة

الفهرس العام

للسنة السادسة (١٣٥٤ هـ) من مجلة الزهر

المقالات

الوضوع	بقلم	صفحة
(١)		
آيات الله فى الكون	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٤٨
آثار المدينة المنورة	٣٦٦
الاخلاص فى القول والعمل	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	٤٩٣
أداء الحق مع رعاية الأدب	٢٩٢
الأدب العربى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم	قلم الترجمة	٣٥٩
أساطيل المسلمين وحروبهم البحرية	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٩٨
الأستاذ الأ كبر — خفلة التكريم	٢٧٠
الأستاذ الأ كبر — خطبة فى الجامع الأزهر	١٠٢
الأستاذ الأ كبر — خطبة فى تحفيظ القرآن	٥٠٠
الأستاذ الأ كبر — زيارته لأقسام الأزهر	١٨٧
الأستاذ الا كبر — شكر	١٨٩
استدراك	٣٥٢
أسرار التشريع الاسلامى	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	٣٤٤ ، ٢٦٣
الاسلام والعلوم الحديثة	حضرة الدكتور عبد العزيز اسماعيل بك	٥٧٩ ، ٤٢٣ ٦٥٠ ٢٥٩

الفهرس العام — المقالات

صفحة	بقلم	الموضوع
٤٧٦ ، ٤١٨ ٦٣٤ ، ٥٦٢ ٦٧٦	حضرة الدكتور عبد العزيز اسماعيل بك	الاسلام والطب الحديث
٦١٥ ، ٤٦١ ٧٠٣	» » محمد غلاب	الاسلام والفلسفة
٧٢١ ، ٥٧٠	قلم الترجمة	الاسلام والمسيحية
٦٢١	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	أسلوب القرآن الحكيم
٣١١	» » يوسف الدجوى	أفعال العباد
٥٠٨	» » محمد الاسمر	الله جل جلاله
(ب)		
٢١٠	حضرة الأستاذ احمد غلوش افندى	بيان من جمعية منع المسكرات
(ت)		
٤٩٥ ، ٤٢٦ ٥٥٦	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	تاريخ الألفاظ فى اللغة العربية
١٢٩	قلم الترجمة	تاريخ العلوم المدنية فى الأدب العربى ...
٢٠٣	» »	تاريخ الصوفية فى الأدب العربى
٢١٥	تأسيس مدرسة بالزيتون
٣٥٣	فضيلة الأستاذ الشيخ رمضان محمد غنيم	تعليم اللغات فى الأزهر
٦٨٧	حضرة الأستاذ مدير المجلة	تعليق على مقال
١٩	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	تفسير آية « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم »
١٥٢ ، ٧٩ ٣٠٣ ، ٢٢٤ ٤٤٨ ، ٣٧٥ ٥٩١ ، ٥٢٠ ٦٦٢	» » »	تفسير سورة الرعد

صفحة	بقلم	الموضوع
		(ح)
٧١٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الحج
٤١١	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	حرية الرأي في الاسلام
٣٩	حضرة الأستاذ مدير المجلة	حكم العلم على الفلسفة المادية
٦٠١	فضيلة الأستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر	حكمة الصيام
١٠٩	حضرة الأستاذ مدير المجلة	حقوق الجوار في الاسلام
١٣٦	حياة محمد — تقریظ
٦٨٢	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	الحياة الأدبية عند العرب
		(د)
٥٤٥ ، ٣٣٧ ٦٠٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	دحض شبهات عن الاسلام
		(ر)
٥١٠	رثاء عالم جليل
٥٨٣	رثاء عالم جليل
١٦٤	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	الرحمة
٤٨١	» » صادق عرجون	روح الاسلام والمذاهب الفلسفية
		(ش)
٢٣٥	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	الشجاعة
٣٨٨	» » »	الشرك وعقوبته الآخروية
٣٨٨	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الشرك وعقوبته الآخروية

صفحة	بقلم	للموضوع
		(ف)
٣	حضرة الأستاذ مدير المجلة	فاتحة السنة السادسة
١٢٠	حضرة الأستاذ مدير المجلة	فتح المسلمين لأسبانيا
٤٣٨ ، ٢٥٤		
٥٦٧ ، ٥٠٥	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	فلسفة الأخلاق
٧١٢ ، ٦٥٣		
٥٣٤	» » يوسف الدجوى	الفيلسوف والنبي
		(م)
٦٥	قلم الترجمة	مآثر العرب فى العلوم المدنية
٤٣١	» »	مآثر العرب فى علم التاريخ
٣٣٤	فضيلة الشيخ محمد عبد السلام القبانى	مؤتمر تاريخ الأديان
٤٤٠	مجلة الأزهر
٤٦٩	فضيلة الأستاذ الشيخ عمر الجندى	محارب المساجد
٩٢ ، ٣٠	» » الشيخ يوسف الدجوى	الحبة وأنواعها
٦٠	حضرة الأستاذ مدير المجلة	المدنية الفاضلة فى الاسلام
٤٨٥	» » »	المرأة : هل لها أن تتعلم العلوم العالية ...
١٣	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم
٧٣	» » »	أغراضه الاجتماعية
		مهمة الدين الاسلامى فى العالم
		تطور الأمم فى فهم خير الروابط الاجتماعية
١٤٥	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم
		توجيه قوى الاجتماع الى الاصلاح ...
٢١٧	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم
		مراعاة الحقوق الطبيعية

صفحة	بقلم	الموضوع
٢٩٧	حضرة الأستاذ مدير المجلة	مهمة الدين الاسلامى فى العالم دعوته الى تعرف السنن الالهية
٣٦٩	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم دعوته الى المحافظة على السمو الروحانى
٤٤١	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم دعوته الى العمل على إقامة العمران ...
٥١٣	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم دعوته الى تأسيس مدينة عالمية فاضلة ...
٥٨٥	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم المدنية الفاضلة فى الاسلام
٦٥٧	» » »	مهمة الدين الاسلامى فى العالم دعوته الى القيام بخلافة الله فى الأرض
١٩٠	» » »	المولد النبوى — ذكرى
(ن)		
٦٨٠	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	نظرة فى تفسير آية
٣٥٥	» » الشيخ صادق عرجون	نهضة الأدب العربى
(هـ)		
٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الهجرة النبوية — ذكرى
٥٨٢	هندى يدعى المعجزات
(و)		
٦٩٥	حضرة الاستاذ مدير المجلة	واجب الشباب نحو دينهم

الفتاوى

صفحة	بقلم	الموضوع
		(أ)
٢٤٨	الشيخ عبد الحفيظ الدفتار } فضيلتي الأستاذين « حسين البيومي	الابراء مما في الذمة
٣٢٨	حضرة الفاضل الأستاذ خضر الحسيني الجبني	استيضاح لفتوى
١٧٩	الشيخ قنديل قنديل } فضيلتي الأستاذين « عبد السلام شرف	الأذان وقت الدفن
٤٥	الشيخ يوسف المرصفي } « « « حسين البيومي	الاذن في التكاح
١٧٩	الشيخ قنديل قنديل } « « « عبد السلام شرف	أعلام المنبر وسيف الخطيب ...
		(ب)
٢٤٦	الشيخ محمد السيد أبوشوشه } فضيلتي الأستاذين « عبد الله موسى	البوالة — حكمها
٦٤٩	لجنة الفتوى	البيع
٢٤٨	الشيخ قنديل قنديل } فضيلتي الأستاذين « عبد السلام شرف	بيع الشجر
		(ت)
٥٧٧، ٤٧٢	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	تشریح الميت
٦٢٧	حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الوهاب بحيرى	تفريح الميت وفتوى المرحوم الشيخ بجيت
		(ح)
٢٤٤	الشيخ محمد السيد أبوشوشه } فضيلتي الأستاذين « عبد الله موسى	الحلف الكذب

صفحة	بقلم	الموضوع
١٧٩	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	الحيض—وطء المرأة قبل الاغتسال منه (خ)
١٧٧	الشيخ حسن علي مرزوق » علي ادريس	خلف الوعد (ذ)
٢٤٣	الشيخ محمد السيد أبو شوشه » عبد الله موسى	الذبيح — من هو ؟ (ر)
٦٧٢، ٦١٠	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	رؤية الهلال
٦٤٢	لجنة الفتوى	الرضاع (ز)
١١٧	الشيخ يوسف المرصفي » مصطفى الشريبي	زكاة الذهب والفضة
٢٥٣	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله يوسف	الزكاة
٥٤	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	الزكاة — الصرف منها على المستشفيات
١٧١	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	الزنا بخالة الزوجة أو أمها (ش)
١٧١	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	شرح آية

صفحة	بقله	الموضوع
١٧٩	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	شرح ايتين (ص)
٢٤٤	الشيخ محمد السيد أبوشوشه » عيد الله موسى	الصدقة - مصرفها
١١٦	الشيخ يوسف المرصفي » مصطفى الشرييني	الصلاة والصوم لسكان القطبين ...
١١٨	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	صلاة الجمعة في البيوت والمساجد المتعددة
١٧٦	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	صلاة الليل
١٧٩	» » »	صلاة الجمعة - حكم تركها
٢٤٩	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله يوسف	صلاة الجمعة قبل الزوال
٦٤٨	لجنة الفتوى	صلاة الجمعة - نصابها
٦٤٧	» »	الصلاة على الميت
١٧١	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	الصور - حكم النظر اليها (ط)
١١٥	الشيخ يوسف المرصفي » مصطفى الشرييني	الطلاق وكنائياته (ع)
١٧٩	الشيخ قنديل قنديل » عبد السلام شرف	عذاب القبر

صفحة	بقلم	الموضوع
٤٦	الشيخ عبدالسلام العسكري فضيلتي الاستاذين } حسين البيومي	العشر — الحصة العشرية والسماد الكيماوى (ق)
١٨٣	فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى	القراض
١٧٧	الشيخ حسن على مرزوق فضيلتي الاستاذين } على إدريس	القرض فى الطعام
١٧١	الشيخ قنديل قنديل عبد السلام شرف	القصص الخيالية
٢٤٤	الشيخ محمد السيد أبوشوشه عبد الله موسى	قضاء رمضان والنذر
٥٨	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	الكلب - حكم أكله فى مذهب المالكية (م)
٢٤٧	الشيخ عبد الحفيظ الدفتار حسين البيومي	مخازن الغلات
٣٢٤	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	معاملة التجار وما فيها من الربا ...
١١٨	الشيخ يوسف المرصنى مصطفى الشريبنى	ميراث — مسألة
٦٤٩	لجنة الفتوى	ميراث
١٧٧	الشيخ حسن على مرزوق على إدريس	النفقة على الزوجة والأولاد ...
		(ن)

الموضوع	بقلم	صفحة
(و)		
ولد الصلب	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى	٤٧٣
(ى)		
اليانصيب	فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى	٣٣٠



الخطأ والصواب

صواب	خطأ	ص	س	صواب	خطأ	ص	س
خطونا	لخطينا	١٣	٤٢٨	واذكروا إذ كنتم	واذكروا نعمة الله	١١	٢٢
شيزر	شيزار	١٤	٤٣٣	عليكم إذ كنتم	أعداء		
حصن كيفا	حصن حيفا	١٩	٤٣٣	أعداء			
وصيف شاه	واصف شاه	٩	٤٣٥	فتمن	٢٢ فتمن	٤٧	٢٢
ابن الزاهب	ابن الرحيب	٩	٤٣٧	وازدراة	وازدراء	٩	٥٣
إربل	أربلا	١٩	٤٣٧	أبواها	أبويها	١٠	٥٣
ال نصف	ال نصف	٩	٦٤٩	أن اصطناع	إن اصطناع	٢٠	١١٩
وليم نعمته	وليم نعمته	٦	٧٢٠	في كل كبد رطبة	في كبد كل رطبة	١٠	١٦٤
(القسم الانكليزي)				من النقود ،	من النقود من	٢٠	١٨٥
				مسارعتة	مسارعتة		
٢١ ٢٤	وصوم رمضان	وصوم رمضان		سبقت	سبقت	١٠	٢٤٨
أمرهم من	أمرهم من	٨	٣٣	ثم انظروا	ثم نظروا	٧	٣٠٢
الاعمال	الاعمال			فتنفذ مشيئته	فتنفذ مشيئة	٢٠	٣١٤
تَنْبَتُ الحبة	تَنْبَتُ الحبة	١٠	٣٥	فأما الذين في قلوبهم	وأما الذين في قلوبهم	٤	٣١٨
في امرأتك	في امرأتك	١٤	٧١	ظريفا عاقلا ماجدا	ظريفا ماجدا	٧	٣٣٠
				الذي علن	التي علقت	١٠	٤٢٣

p. 150, l. 9 *for* have thrown *read* threw

p. 151, i. 9 *for* ruined *read* desolate

p. 151, ll. 14, 24, 25 *for* spirit *read* soul

p. 151, ll. 3, 2 from bottom *read* – they have been given but a little
part of Knowledge

p. 152 *insert* (2) after last word of the hadith

and add footnote (2) :

The Prophet was afraid that recent converts would misunderstand the demolition of the Karbah, for which they had great veneration, and relapse into unbelief. For this reason he was obliged to give up the course which seemed to him the best, and to refrain from telling them. (See Al-Qastallâni and Ibn Hajar)

p. 153, l. 17 sqq. *read* :

Murâdh was once riding pillion behind the Prophet, (Allâh bless him and give him peace), who said :

p. 154, ll. 12, 13 and also last line of hadith *read* “ They would take advantage of it ”

p. 155, l. 5 *for* over - modest *read* falsely modest

p. 155, l. 9 *for* over - modesty *read* false modesty

p. 156, l. 20 *for* mentioned *read* conjectured

p. 156, l. 3 from bottom *for* would have given *read* would give

ERRATA

We much regret to state that the preceding section of the translation of the hadith has appeared with a considerable number of printer's errors and other mistakes for which the translator is not responsible. We must therefore request anyone who wishes to criticise the text to refer to the author of the translation before expressing any criticism. For the future, arrangements have been made which, we trust, will make the recurrence of such errors impossible.

We accordingly content ourselves for the present with calling attention to some of the more important cases :—

P. 124, l. 2 *for* take off and throw *read* throw off

P. 128, l. 3 from bottom « reviewing « indictment

P. 136, note (4) « strewing in « packing

P. 138, note (3) *read* : Either figuratively in the sense of mercy, or literally in the sense of the treasures of Byzantium and Persia, which, as foreseen by the Prophet, would accrue through the victorious wars with those empires.

p. 140, l. 12 *for* prayed *read* performed

p. 141, l. 4 from bottom « transactions « striking bargains

p. 141, l. 2 from bottom « working their property « husbandry

p. 142, l. 3 *after* peace) *insert* — *with whom I was content*

p. 147, ll. 5, 24 *for* boat *read* ship

p. 147, l. 5 « drew « passed

p. 147 *for* ll. 15—17 *read* : but as a drop in the ocean such as
hath been taken up in the beak of
this bird.

p. 148, l. 22 « a payment « a fee

p. 149, l. 1 *place* standing *after* questions

p. 149, l. 5 *after* Jarir *insert* through Mansûr, through Abu Wâ'il

p. 150, l. 4, sqq. *read* :

I saw the Prophet when he was being asked questions

p. 150, ll. 8, 14, 15 *for* sacrificed *read* slaughtered the victim

I was once spending the night in the house of my maternal aunt Maimûnah, when the Prophet (Allâh bless him and give him peace) went to sleep⁽¹⁾ during the early part of the night; and then later in the night he rose and performed a light wudû' from an old water-skin that was hanging there (according to 'Amr the wudû' was light and cut short).⁽²⁾ After that he stood up to pray, so I performed the wudû' just as he had done, and then I went and stood at his left;⁽³⁾ he made me change sides, placing me on his right. He then prayed to his heart's content,⁽⁴⁾ after which he lay down and slept until his breathing became stertorous. Later on, the muezzin came to him and called him to prayer, joining him in it, and the Prophet prayed without performing a fresh wudû'.

Sufiân said to 'Amr: "Certain people say that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) sleepeth in his eyes but not in his heart." 'Amr replied: "I have heard Ubaid b. 'Umar say: 'The dreams of Prophets are revelations.' " Then he recited: "Verily I have seen in my dream that I must slaughter thee".⁽⁵⁾

«بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً
فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ
اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَوَضَّأَ
مِنْ شَنْ مُعَاتَى وَضُوءًا خَفِيفًا -
يُخَفِّفُهُ عَمْرُو وَيَقْلِلُهُ - وَقَامَ يُصَلِّي
فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ ثُمَّ جِئْتُ
فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ (وَرُبَّمَا قَالَ
سُفْيَانُ عَنْ شِمَالِهِ) فَهَوَّلَنِي
فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ
اللَّهُ ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ
أَنَاهُ الْمُنَادِي فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ فَقَامَ
مَعَهُ إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأَ .
فَنَامَا لِعَمْرُو إِنْ نَاسًا يَقُولُونَ :
« إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ » قَالَ عَمْرُو
سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ مُمْنَرٍ يَقُولُ :
رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحُصِيَ « ثُمَّ قَرَأَ
« إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ » .

1. The variant {نَامَ} for {قَامَ} as suggested by Ibn As-Sakan and supported by Al-Qadi 'Iyâd and others is more suitable to the sense. Cf. another reading :

(فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل)

2. i.e. performing the ablution only once for each part,—the minimum required for its validity.

3. "Sufiân states that perhaps the word شِمَالُهُ may have been used instead of يَسَارُهُ " This sentence was interpolated in the text by 'Ali b. Al-Madini.

4. This is the meaning implied by the Arabic idiom مَا شَاءَ اللَّهُ (Whatsoever Allâh willed).

5. Surah 37, v. 102.

had it from Sufiân, who was told it by Az-Zuhri, through Sa'îd b. Al-Musayyab, through 'Abbâd b. Tamîm, through his paternal uncle who complained to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) of the case of a man who imagined that he had committed an irregularity during his prayer.

The Prophet replied :
 " Let him not interrupt it⁽¹⁾ so long as he hath not heard any sound or perceived any smell."

CHAPTER 5.

On the admissibility of alleviating the wuddû.

We are informed by 'Ali b. 'Abdullâh, who had it from Sufiân, through 'Amr, who was told it by Kuraib, through Ibn 'Abbâs that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) once slept (or perhaps Sufiân said : "he lay down") until his breathing became stertorous, after which he rose and performed his prayer.

We ⁽²⁾ have been repeatedly informed by Sufiân, through 'Amr, through Kuraib, through Ibn 'Abbâs, who said:

حدثنا الزهري عن سعيد بن المسيب
 عن عباد بن تميم عن عمه أنه شكّا إلى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل
 الذي يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ
 فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ :

« لَا يَنْقُتِلْ أَوْ لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى
 يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا »

باب التَّخْفِيفِ فِي الْوُضُوءِ :

حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا
 سفيان عن عمرو قال أخبرني كريب
 عن ابن عباس :

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَامَ
 حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ صَلَّى - وَرُبَّمَا قَالَ
 اضْطَجَعَ حَتَّى نَفَخَ - ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى .
 ثُمَّ حَدَّثَنَا بِهِ سُفْيَانُ مَرَّةً بَعْدَ
 مَرَّةٍ عَنْ عَمْرِو عَنْ كَرِيبٍ عَنْ ابْنِ
 عَبَّاسٍ قَالَ :

1. Or- leave it off ; the narrator is uncertain as to which word was used.

2. The narrator here is 'Ali b. Al-Madîni, Al-Bukhârî's informant. He means that Sufiân related the hadîth more than once, sometimes in a shortened, and sometimes in an extended, form

the excellence of those from whose brow and limbs a glory shineth in consequence of the wudû'.⁽¹⁾

We are informed by Yahyâ b. Bukair who had it from Al-Laith, through Khâlid, through Sa'îd b. Abu Hilâl, through Nu'aim Al-Mujmir who said :

I once went up with Abu Hurairah on to the roof of the Mosque⁽²⁾, and when he had performed his wudû' he said: "I have heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say : 'My people shall be called to the Day of Resurrection⁽³⁾ with glory shining from their brow and limbs in consequence of the wudû'. So let him of you that is able to extend the glory of his brow,⁽⁴⁾ do so.' "

CHAPTER 4.

On him who need not perform the wudû' through doubt until he have made sure.

We are informed by 'Ali who

حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا

الليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال

عن نعيم المجر قال :

رَقِيتَ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى

ظَهْرِ الْمَسْجِدِ فَتَوَضَّأَ فَقَالَ : إِنِّي

سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

« إِنَّا أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

غُرًّا مُجَلِّينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ ، فَمَنْ

اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ

فَلْيَفْعَلْ »

بَابُ : لَا يَتَوَضَّأُ مِنَ الشَّكِّ

حَتَّى يَسْتَيْقِنَ :

حدثنا علي قال حدثنا سفيان قال

1. The metaphor is of the white spots on a horse's forehead and legs, and refers to the spiritual reward of those who have performed conscientious wudû'.

2. At Al-Madinah.

3. Or — shall be named on the Day of Resurrection glorious-browed and shining-limbed.

4. i.e. to the rest of his face. The glory of the limbs is here inferred.

CHAPTER 2.

Prayer is not accepted by *Allâh* without ritual purification.

We are informed by Ishâq b. Ibrâhîm Al-Hanzali, who had it from 'Abdu-R-Razzâq, who was told it by Ma'mar, through Hammâm b. Munabih that he heard Abu Hurairah, say that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

" Prayer is not accepted from one who hath suffered an accidental impurity ⁽¹⁾ until he have performed a fresh wudû'."

A man of Hadramaut asked Abu Hurairah what this accidental impurity was, and he replied : " Silent or audible breaking of wind. "⁽²⁾

CHAPTER 3.

On the merit of the wudû' and

بَابُ لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طَهْوَرٍ :

حدثنا اسحق بن ابراهيم الحنظلي قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ » قَالَ رَجُلٌ مِنْ حَضَرَ مَوْتَ مَا الْحَدَّثُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ : « فُسَاءٌ أَوْ ضَرَاطٌ » .

بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ وَفَضْلِ الْغُرَّةِ الْمُحَجَّلَيْنِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ :

(1) Scil.—during prayer.

(2) Pollution nullifying the validity of prayer is of two degrees—major and minor. The former includes all forms of seminal emission through sexual contact or otherwise, women's courses and child-birth, all of which call for ghusl and wudû'; the latter includes pollution through the excretory organs or bleeding, and (according to the Shâfi' School) touching the opposite sex—all of which require wudû'.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب الرابع

كتاب الوضوء

IN THE NAME OF ALLAH THE
ALL-LOVING, THE MOST MERCIFUL.

BOOK IV OF RITUAL ABLUTION.

CHAPTER 1.

On what hath been expounded on ritual ablution⁽¹⁾ and the word of Allāh (be He exalted): “ *O ye that believe! When ye rise up unto prayer, wash your faces and your hands as far as⁽²⁾ the elbows, and stroke your heads with your wet hand and wash your feet as far as the ankles.* ”⁽³⁾

Abu ‘Abdullāh (Al-Bukhārī) adds : “ The Prophet (Allāh bless him and give him peace) hath shown that the prescribed duty of wudū‘ is to be performed once for each several part; but he also did it twice and thrice, never exceeding three times.

The doctors of Islām have disapproved of exaggeration in it, that is,⁽⁴⁾ they have been averse from exceeding the action of the Prophet (Allāh bless him and give him peace).

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْوُضُوءِ وَقَوْلِ
اللَّهِ تَعَالَى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : « وَبَيْنَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ فَرَضَ
الْوُضُوءَ مَرَّةً مَرَّةً ، وَتَوَضَّأَ أَيْضًا
مَرَّةً ثِنْتَيْنِ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا ثَلَاثًا ، وَلَمْ يَزِدْ
عَلَى ثَلَاثٍ »
وَكَرِهَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْإِسْرَافَ
فِيهِ وَأَنْ يُجَاوِزُوا فِعْلَ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

1. There are two chief degrees of purification ; the first is called غسل (Ghust) i.e. the washing of the whole body with clean running water ; the second is termed (wudū‘) i.e. the washing of the hands, face, arms and feet in a specified manner as a pre-condition of prayer .

2. Scil.—and including.

3. Surah 5, v. 6.

4: The () here is meant to place the following sentence in apposition.

also said : ' The people of Yaman shall start from Yalamlam. ' For my part, (continued Ibn 'Umar) I have not learned⁽¹⁾ this last pronouncement from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace).

CHAPTER 95.

On one who answereth a questioner more fully than he requireth.

We are informed by Adam, who had it from Ibn Abu Dhi'b, through Nâfi' through Ibn 'Umar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and also through Az-Zuhri, through Sâlim, through Ibn 'Umar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that :

A man once asked him saying : " What should a Muhrim⁽²⁾ wear ? " He replied : " He shall not wear a shirt, nor a turban, nor drawers, nor a burnous, nor any garment touched by " wars " ⁽³⁾ or saffron. If he cannot find sandals, he may wear boots, but he must have them cut in such a way that they come below the ankle-bones."

The end of the Book of Knowledge

« وَيَهْلُ أَهْلُ الْيَمَنِ مِنْ يَلَمَلَمَ »
وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : لَمْ أَفْقَهُ هَذِهِ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

بَابُ مَنْ أَجَابَ السَّائِلَ بِأَكْثَرِ
مِمَّا سَأَلَهُ :

حدثنا آدم قال حدثنا ابن أبي ذئب
عن نافع عن ابن عمر عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، وعن الزهري عن
سالم عن ابن عمر عن النبي
صلى الله عليه وسلم :

أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ : مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ ؟
فَقَالَ : « لَا يَلْبَسُ الْقَمِيصَ وَلَا الْعِمَامَةَ
وَلَا السَّرَاوِيلَ وَلَا الْبُرُنُسَ وَلَا تَوْبًا
مَسَّهُ الْوَرَسُ أَوْ الزَّعْفَرَانُ ، فَإِنْ
لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الْخُفَّيْنِ
وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ
الْكَعْبَيْنِ » .

انتهى كتاب العلم

[1] Al-Bukhâri in another version of this hadith cited under " Pilgrimage " gives the variant (لَمْ أَسْعِ) for (لَمْ أَفْقَهُ)

[2] One in a state of ihrâm.

[3] An aromatic plant of Yaman used as a yellow dye and a lotion ; the idea being that the garment allowed to a Muhrim of either sex, must not be dyed or perfumed. The ihrâm garb is intended to symbolise humility, privation and the thought of death.

ance on the subject. He did so, and the Prophet replied : ' This requires ritual ablution.' ”

صلى الله عليه وسلم فسأله، فقال :
« فِيهِ الْوُضُوءُ »

CHAPTER 94

On discussing Knowledge and answering questions in the mosque.

We are informed by Qutaibah b. Sa'îd, who had it from Al-Laith b. Sa'îd, who received it from Nâfi' the freedman of 'Abdullâh b. 'Umar b. Al-Khattâb, through 'Abdullâh b. 'Umar that :

A man got up in the mosque and said : " O Apostle of Allâh, from what starting-point dost thou ordain that we should assume the state of the ihrâm?⁽¹⁾ " The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) replied : " The people of Al-Madinah shall begin their ihrâm from Dhul-Hulaifah; the people of Syria from Al-Juhfah ; the people of Najd from Qarn. "

'Abdullâh b. 'Umar adds : " It is asserted that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace)

بَابُ ذِكْرِ الْعِلْمِ وَالْفَتْيَا
فِي الْمَسْجِدِ :

حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا
الليث بن سعد قال حدثنا نافع مولى
عبد الله بن عمر بن الخطاب عن عبد الله
ابن عمر :

أَنَّ رَجُلًا قَامَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيْنَ تَأْمُرُنَا أَنْ
نُهْلَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« يَهْلُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ
وَيَهْلُ أَهْلُ الشَّامِ مِنَ الْجُحْفَةِ وَيَهْلُ
أَهْلُ نَجْدٍ مِنْ قَرْنٍ » .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَيَزُومُونَ أَنْ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

[1] اِهْلَال = literally raising the voice in the recitation of the talbiyah (the labbaika formula) on starting on the pilgrimage, combined with which is the ihrâm — a ceremonial state during which the pilgrim is subject to certain prohibitions, and is attired in the appropriate garb.

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للمستاذ ابراهيم مسهم المومني

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

CHAPTER 93.

On one who, being overcome by shame, chargeth another to ask a question for him.

We are informed by Musaddad who had it from Abdullāh b. Dāwūd, through Al-A'mash, through Mundhir Ath-Thawri, through Muhammad b. Al-Hanafiyyah, through 'Ali who said:

" I was subject to prostatic secretions, ⁽¹⁾ so I charged Al-Miqdād to ask the Prophet (Allāh bless him and give him peace) for his ordin-

بَابُ مَنْ اسْتَحْيَا فَأَمَرَ غَيْرَهُ
بِالسُّؤَالِ :

حدثنا مسدد قال حدثنا عبد الله
ابن داود عن الأعمش عن منذر الثوري
عن محمد بن الحنفية عن علي قال :

كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً فَأَمَرْتُ
الْمِقْدَادَ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ

(1) المني = a viscous fluid exuding from the sexual organs as excited by caresses, not amounting to a regular seminal discharge. Such exudation calls for ritual ablution (وضوء), whereas seminal discharge (المني) requires total immersion (غسل). In the Prophet's words : من المني الوضوء ومن المني الغسل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مولد النـبى
صلى الله عليه وسلم

مبدؤنا

يبحث المؤرخ المنصف تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم فيرى أمرا جللا : يرى نبيا أرسل بشريعة لهداية الخلق كافة ، وأيد بالآيات ، فلم يمض على رسالته كبير زمان حتى أسس على أنقاض الجاهلية الأولى دولة أصبحت بعد سنين معدودة ، سيدة الدول في العلم والحضارة ، كما أنشأ من فلول الأمم المتباغضة ، أمة كان لها تاريخ حافل بالمعظائم وجلال الأُمور .

وأخيرا يرى أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم من ضروب الإصلاح الاجتماعى قد فُهم على أصل راسخ عام صالح لكل الأزمان ، ولكل الأمم والبيئات .

فإذا قارن المؤرخ هذه الأصول بما أتى به بعده كبار المجددين لم يجد لهم شيئا مذكورا . هذا قول لم يمله علينا التحمس للعقيدة ، ولكنه يعبر عن حقيقة يسهل التدليل عليها من طريق عملى محسوس ، لامن طريق الاستنتاج الذى يمكن أن تقبل مقدماته التعديل أو التجريح .

نعم : إن محمدا أوجد أمة ، ولكن أية أمة ؟ هنا مجال فسيح للكلام يقف حياله علم الاجتماع حائرا ، لخروجه عن دائرة النواميس المعروفة ، ولدلالته على مؤثرات علوية لم تدخل فى نطاق معلوماته وتجاربه بعد .

وهو مؤسس دولة ، ولكن أية دولة ؟ هنا أيضا ميدان بعيد الأرجاء للقول يرى علم السياسة نفسه إزاءه ضئيلا ، حتى ليكاد يعتقد أنه لا يزال فى الهدى .

وهو صاحب شريعة ، ولكن أية شريعة ؟ وهذا موطن للبيان لو عرض على صاغة القوانين ، وفلاسفة الاشتراع لحاروا فى فهم كيف تتولد أصول هذه الشريعة قبل أن

تولد مقتضياتها ولم تنضج لها الشؤون الاجتماعية بعد ؟ وكيف تبلغ أقصى ما يتخيله العقل من العدل المطلق ، ولم يتحقق هذا الخيال في أرقى الأمم الى اليوم ؟ وهو رسول ديانة ، ولكن أية ديانة ؟ وهذه باحة قصية الأكناف تقوم تجاهها فلسفة الأديان حيرى لا ندرى كيف تروج أصول هذه الديانة السامية في شعب كان بالألمس مضرب المثل في الفوضى والجهل ؟

وهو واضع أصول إصلاح عام شمل جميع ما قام به العباقرة بعده من التجديدات في سائر فروع النشاط الانساني في خلال قرون متوالية الى يومنا هذا . وهذا موطن يجد علم النفس فيه أنه من القصور بحيث لا يستطيع أن يفهمه فضلا عن أن يدلى فيه برأى .

أمة محمد :

أندري ما هي أمة محمد ؟ هي أمة رابطتها الاجتماعية الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية ، لا الحاجات المادية ، ولا الضرورات المعاشية . فهي أول أمة في تاريخ العالم قامت على هذه القواعد الخالدة . وهذه الرابطة بهذا الوصف وضعت لتسع العالم كافة ، بصرف النظر عن اختلافهم في البيئات والألوان واللغات ، خلافا للروابط الاجتماعية المبنية على الحاجات المادية ، فهي لا تصالح إلا لقوم تجمعهم بيئة واحدة ، وتؤلف بينهم مقتضيات مشتركة . فالأولى رابطة جامعة لآمة ، والثانية خاصة مفرقة .

لهذا السبب جمعت الرابطة الاجتماعية الاسلامية بين آحاد من قوميات شتى ، وأجناس ليس بينها أدنى صلة من لون ولا لغة ولا تاريخ . فالأمة التي تقوم عليها يصح أن توصف بأنها عالمية عامة .

ولما كانت رابطتها المبادئ الأدبية ، والأصول الخلقية ، كانت بنيتها تأني الاعتداد بالفوارق القومية ، وبالطبقات الاجتماعية ، ولا تعمل إلا على شئ واحد وهو الفضائل الشخصية وقد أشار الله الى ذلك بقوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم

من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو بعمل صالح ،
كلكم من آدم وآدم من تراب » .

هذا لعمرى أجل من أن يقال فيه إنه ترقى في رابطة الاجتماع ، لأنه فذ في نوعه
لا يمت إلى الروابط الاجتماعية بأدنى صلة . فأين تلك الروابط التي تقوم على الحاجات القومية
التي أثرها الفرقة والعداوة ، من هذه الرابطة الإسلامية التي تقوم على الناموس الأدبي
ويكون من أثرها التسوية بين الناس ، ومعاملتهم كافة بالعدل والإحسان ، ورفع
الأصالح إلى أعلى مكانات الشرف ولو كان عبدا حبشيا ، أو أسود زنجيا ، أو زبلا أعجميا ،
أو مجهول الأصل ؟

فهذه أول أمة في تاريخ العالم وصل فيها الذين كانوا عبدانا بالأئس إلى ولاية
الخطط الحكومية ، وإلى سيادة الأقاليم في العلم والإمامة .

فكم تقدر أن يمر من الزمن حتى تصل أرق الأمم إلى مثل هذه الحالة الاجتماعية
المبنية على العدل المطلق ، والحقوق الطبيعية ؟

دولة محمد :

دولة محمد صلى الله عليه وسلم ديموقراطية دستورية بأوسع ما يحتمله مدلول هاتين
الكلمتين : فهي ديموقراطية لأنها كانت شعبية محضة تحققت فيها الفروق الطائفية ،
والامتيازات الأرستوقراطية . ووجه الخطاب فيها إلى الشعب كافة لا إلى طبقة منه
خاصة ؛ ووزعت الحقوق والواجبات فيها على الأفراد على حد سواء ، لا فرق بين ذكر
وأنتى ولا بين سيد ومولى ؛ وفتحت آفاق الوصول إلى الغايات البعيدة أمام المتنفسين
من كل جنس ولون وبيئة ، ينال قصب السبق فيها من سَمَتْ به همته وكفايته إليها
لا يصده حائل من أى نوع كان . ألم يول النبي صلى الله عليه وسلم بلالا على المدينة
وفيهما جلة العرب من الأنصار والمهاجرين وهو عبد حبشى اشتراه أبو بكر وأعتقه ؟

أولم يسند عليه السلام الى مهران الفارسي ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، فلما مات أسندها الى ابنه ؟ أو لم يقل صلوات الله عليه وسلامه : « سلمان منا أهل البيت » وهو فارسي لا تزال العجمة تعتور لسانه ؟

وقد جرى أصحابه وأتباعه على هذا المبدأ لأنه أصل من أصول الاسلام . قال الحسن البصري رضى الله عنه : حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبوسفيان ابن حرب في نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من أولئك الموالي (أى الذين كانوا بالأمس عبيدا) وقد شهدوا بدرًا . فخرج إذن عمر لأولئك الموالي وأخر أولئك السادة . فقال أبوسفيان : لم أراكليوم قط : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ؟ ! فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إني والله أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟

وكانت دولة محمد صلى الله عليه وسلم دستورية ، لأن الحكومة قيدت فيها بكتاب إلهى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذه أخص صفات الأمم الدستورية . وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية : فجعل الحكم شوريا ، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية ، ومحا ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات ، ووحد الشريعة ، وأخضع لها الكافة لا فرق بين حاكم ومحكوم . رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو يطوف على الناس رجلا وامرأة على فاحشة ، فخار فى أمره ، فجمع الناس وخطبهم وقال : ما قولكم إذا رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فنهض اليه على بن أبى طالب وقال : يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء ، وإلا فيقام عليه حد القذف .

الله أكبر ! أرايت قوما فى جميع أدوار الحكومات أرسخ أقداما ، وأقوى إيمانا فى الدستور من هؤلاء ؟

هذه هي الدولة التي وضع محمد أساسها، وشيد بنيانها قبل أن يعرف الناس حقيقة الدستور ومعنى الديمقراطية الصحيحة بنحو اثني عشر قرناً.

شريعة محمد :

شريعة محمد صلى الله عليه وسلم أساسها المساواة والعدل بأخص معانيها تين الكلمتين : المساواة والعدل بين الأغنياء والفقراء ، وبين الشرفاء والوضعاء ، وبين العلماء والجهلاء ، بل وبين المؤمنين والكافرين ، لا ينضم فيها حق ضعيف لضعفه ، ولا يجاني فيها مؤمن لا يمانه . حدث وعمر بن العاص واليا على مصر أن أحد ولده ضرب رجلاً من العامة لأمر بدر منه قائلًا له : أنا ابن الأكرمين . فلما كان موسم الحج تكلف المجنى عليه مشقة الانتقال إلى المدينة ليرفع أمره إلى أمير المؤمنين نفسه . فبينما كان عمر في حشد من رجال دولته وفيهم عمرو بن العاص وابنه ، قام ذلك الرجل ورفع أمره إلى الخليفة ، وأقر الضارب بما فعل . فناول أبو حفص الشاكى درته (عصاه) وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، فصعد الرجل بما أمر به حتى اشتفى . فالتفت أمير المؤمنين إلى المشكو منه وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

انظر كيف ساوى عمر بين ابن قائد من أكبر قواد دولته ، وبين رجل من عامة الناس لا يمت إلى أحد بصلة ؟ ولكن مبدأ المساواة الذي أوجبه الإسلام على القائمين بالأمر هو الذي دفع عمر إلى ما فعل ، ولم يصادف فعله اعتراضاً من أحد ، بل أعجب به الكافة ، وجعلوها منقبة من مناقبه .

وحدث أيضاً أن يهودياً شكاً على بن أبي طالب إلى عمر في أمر كان بينهما ، فأحضرهما أمير المؤمنين للنظر في شأنهما . فلما عرّض قضيتهما التفت الخليفة إلى علي وقال له : قم يا أبا الحسن (قف بجانب خصمك ، فلاح على محيا على شئ ، من التأثر . فقال له عمر : أكرهت يا علي أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ولكني رأيتك لم تسو بيني وبينه ، إذ عظمتني بالتكنية ولم تكنه .

ما أجلّ هذه الآداب وأكرمها، وما أولى مثل هذه الأمة بسيادة الأئم، وقد نصب الخصوم أنفسهم على المبادئ العالية حراسا، وعلى حرم العدالة حفظة !
 وغرض شريعة محمد صلى الله عليه وسلم العدل المطابق لا المقيّد ببيئة أو طائفة أو أوى امتياز لأحد . فليس أمام هذه الشريعة شريف ووضع ، ولا أبيض وأسود ، بل ولا مؤمن ومشرّك ، ولكن أمامها أن تصل الى العدل الخالص من الشوائب في كل ما يُستنزَل فيه حكمها . أتريد أعجب من وصايتها بالعدل حتى في مواطن البأس حيث تهاوى السيوف على الرقاب، وتتسابق الرماح الى الصدور، وتغلى الدماء في رؤوس الأبطال طلبا لا لحدى الحسنيين ؟ !

نعم : تطالب شريعة الإسلام أهلها بالعدل حتى في هذه المواطن، وتنذر المقصرين في جنبه بالعقاب الشديد . أرايت شيئا بهذا العدل في تاريخ الشرائع الوضعية حتى لدى الأئم الأخذة بأكبر قسط من المدنية ؟ قال الله تعالى : « ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمِ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا (أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم) اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

حقاً لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد في العدل ، ولا أبعد مدى في المساواة واحترام الحقوق والحياة الانسانية، من الشريعة الاسلامية . ويخيل لى أنه قد تنقضى أجيال كثيرة ليصل التطور الاجتماعى بالناس الى فهم كنه هذه العدالة الالهية .

دِيَانَةُ مُحَمَّد :

ديانة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للبشر كافة ، قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أ أكثر الناس لا يعامون » « يأبىها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

ربما يستبعد بعض السطحيين أن يكون للناس دين عام تسكن له نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وهم يتخالفون عواطف وميولا ووجهات وأغراضا ، وقد قضي عليهم هذا التخالف بأن يتخالفوا في أديانهم ونحلهم الى ما بعد الحدود المعقولة حتى بلغ عدد الأديان في الأرض المئين الكثيرة . ولكن لو دقق هؤلاء السطحيون في هذه المسألة لرأوا أن كل هذه الخلافات عرضية اقتضتها أحوال عرضية مثلها ، الزمان كفيل بإزالتها ، ومتى زالت استقر أمر الانسان على الحقائق الطبيعية .

ولتفصيل هذا الإجمال نقول : إن الانسان منقاد في نشاطه الأدبي والمادى الى عاملين : فطرته الانسانية ، وعقله فأما فطرته فهي جملة الغرائز والميول والعواطف التي طبع عليها ، وهي مشتركة في جميع أفراد نوعه . وأما عقله فهو ذلك النور العلوى الذى منحه ليستضى به في ظلمات هذا العالم ، ويفرق به بين الحق والباطل والحسن والقبيح لمصلحة وجوده وترقيه .

نعم : كثيرا ما يفسد الناس فطرتهم بالتعاليم الضارة والعادات المردولة ، ويطمسون نور عقولهم بالعقائد الباطلة ، والموروثات المضلة ، ولكن ناموس الترقى دائب على تخليص الفطرة والعقل من شوائب التريبة الناقصة ، وحجب الوراثة والتقاليد الساقطة . وقد لوحظ أثر ذلك الناموس في كل زمان ومكان ، وهذا الأثر اليوم أصبح جليا واضحا بتقدم العلوم ، وارتقاء المدنية ، حتى إننا لنجد أن سليمة الفطرة والعقل من كل نحلة يؤلفون أسرة عالمية قد توحدت ميولهم ، وتساوت عقولهم ، فتوافقت مذاهبهم ، وتلاءمت مداركهم ، وأصبحوا على بعد الديار إخوانا كأنهم اشتقوا من نبتة واحدة . وسيكثر عديدهم على مر الزمان بشيوع العلوم حتى تكون لهم الغلبة في العالم كله .

فإذا كان هذا التأخى بين الناس في المذاهب والمراى نتيجة طبيعية لسلامة الفطرة وصحة العقل ، فإن الله قد أقام دينه العام عليهما ، فقال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبدل خلقى الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن

أكثر الناس لا يعلمون . وقد أكثر من الإشادة بذكر العقل نختم عشرات من الآيات بقوله تعالى : « أفلا تعقلون » « لعلمهم يعقلون » . وقال تعالى في الهالكين : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » وحصر الخير كله في العقل فقال : « إنما يتذكر أولو الألباب » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له » .

والدين الاسلامي في ذاته سيؤيده حتما جهاد الانسان وراء العقيدة الجامعة العادلة التي يصبو اليها ، ويمكن أن تتفق كلمة العالم كافة عليها ، فتزول من بينهم هذه الخلافات التي فرقهم شيعا ، وأحلت التناكر بينهم محل التعارف ، والتزاحم محل التعاطف . فالديانة الاسلامية تفتضى القائم على صراطها أن يعترف بأن دين الله واحد لا يتعدد ، وأنه قديم كقدم العالم ؛ وأن الخلاف المشاهد بين أصحاب الأديان قد أتى من بغى قادتها ، في تحريف بيناتها ، وتأويل آياتها ، وأن الدين الجامع لميول العالم كافة هو الذي ينص على الايمان بجميع رسل الله وكتبه لا يفرق بين أحد منهم ، وأن يستقيم على جادة العقل والعلم حتى يصل الى السكك الذي دُفع بفطرته للوصول اليه . فأُنزل الله الاسلام موفيا بهذه الحقائق العلمية فقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع (أى فادع لهذا التوحيد في الدين) واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

وقال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . »
وقال تعالى : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . »

وقال تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . »

فالدين في نظر الإسلام كل لا يتجزأ ، يجمع كل من أرسله الله للأمم من رسل ، وما أنزل إليها من كتب ، فهو عام في جوهره ، شامل للإنسانية كلها بطبيعته . قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسوله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً . »

هذا هو الإسلام الذي جعله الله ديناً عاماً للبشر ، أفلا ترى أن انتهاء الناس إليه سيكون كنتيجة طبيعية لمحاولاتهم الأدبية ، متى خلصت فطرهم وعقولهم من الشوائب التي رانت عليها ، وتجلت لها آيات الله بتقدم العلوم واستبحار الحكمة ؟
نعم : وهذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . »

بل صرح الكتاب بأن الإنسانية ستتأدى إلى هذا تحت تأثير ناموس التطور العام طوعاً وكرهاً ، فقال تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . »

« فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . »

إتيان النبي بجميع أصول الاصطلاح العالمى :

إن من مميزات الشخصية المحمدية أنها تلقت من طريق الوحي المباشر كل أصول التطورات الأدبية والفلسفية والعلمية مما ألهم ببعضه كبار العباقرة على توالى العصور ، واعتبروا بسببه فاتحين لا فاق جديدة في وجه الانسانية .

فا (ديكارت) في وضعه الشك أساسا للبحث ، وما (بيكون) طارد الظنون والأوهام من حظيرة العلم ، (وما أوجوست كومت) واطع الدليل على أساس المحسوسات ، ما هوأء جميعا وغيرهم إلا مسبوقون بالنبي صلى الله عليه وسلم قرونا كثيرة . ويجرى هذا المجرى كل ما حدث فى الأمم من الانقلابات الاجتماعية التى كان من ثمراتها تحرير العامة من أسر الخاصة ، والاعتراف بالسيادة للحق لا للقوة ، والتسوية بين الأقوياء والضعفاء فى الحقوق المدنية والسياسية ، وإبطال امتيازات الطوائف والطبقات الاجتماعية ، وتحرير العقل من أسر التقاليد الوراثية ، وفرض حقوق للمحرومين فى أموال الطبقات الثرية الخ الخ من ضروب الإصلاحات التى تمت فى الأمم عقب ثورات دموية . كل هذه الانقلابات فى أحوال الأمم وشئونها أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه ، ومضى فى تطبيقها على العمل . وقد أفردنا لتفصيلها فصولا فى هذه المجلة لا يتسع المقام لإعادتها هنا .

إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، استنادا الى هذه الدلائل المحسوسة القاطعة ، يعتبر بحق أكبر نبي أنجبته الانسانية ، وهو الرجل الوحيد الذى تزداد عظمته كل يوم ظهورا بتقدم العلوم وارتقاء العقلية الانسانية . وسوف ينتهى العالم تحت سائق من العلم الى الاعتقاد برسالته العامة للبشر كافة ، والى اعتبار الكتاب الذى جاء به وحيا إلهيا « لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . محمد فريز ومهدى

عظمة الاسلام ونبي الاسلام

من يحلل أوامر الاسلام تحليلاً صحيحاً، ثم يرجع بعد هذا التحليل على ذلك القلب الذي خرجت منه ينابيع تلك السعادة، أمكنه أن يعرف شيئاً من عظمته وعظمة دينه صلى الله عليه وسلم. ومن ينظر الى ما أُنحِبتَه تعاليمه من علماء وحكماء وعظماء، وما وصلت اليه أمته من العظمة شرقاً وغرباً عند ما كانت متمسكة بشريعته منقاداً لإرشاده، يعلم أن شأنه أكبر من كل تعبير، وأعظم من كل بيان.

وناهيك بعظمة لم تكن قاصرة على صاحبها، بل فاضت على من لا يحصى من أصناف البشر فصيرتهم كبراء عظماء، خصوصاً أمة العرب التي كانت أحط الأمم على الإطلاق في أخلاقها وعاداتها، فصارت بفضل تعاليمه صلى الله عليه وسلم أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق، في علمها وعدلها وآثارها وكل شئونها. وقد قال جوستاف لوبون الفرنسي في حق الأمة الإسلامية: إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال: جيل التقليد، وجيل الحضرة، وجيل الاستقلال؛ وقد شذ العرب فوصلوا الى الاستقلال في جيل واحد وقال أيضاً: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب. وقد أذكرني ذلك قول صاحب الهمزية في أصحابه صلى الله عليه وسلم:

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

ولعمر الحق إن كل من نظر بعقله السليم ورجع الى وجدانه الصحيح، علم أن رفع الأمة العربية من حضيض الجهل الى أوج العلم، ومن دركات الذل الذي كانت فيه الى أعلى درجات العز، وتربيتهم بأحسن التعاليم وأخذهم الى مكارم الأخلاق من كل باب، حتى صار الواحد منهم أمة وحده، بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية: يأكل قوتهم ضعيفهم، ويثدنون بناتهم، الى غير ذلك من الفظائع التي لا تفعلها الحيوانات المتوحشة،

ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة في أقل قليل من الزمن ، ثم ينشر ذلك النور في كل أنحاء الأرض ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدر ذلك هو مثال الخير وشخص السكّال .
والفضائل لا تفيض من الانسان على غيره إلا على قدر رسوخه فيها .

وقد رأينا تاريخ الفلاسفة وغيرهم من عظماء الملوك والعلماء والحكماء والفواد ، فلم نر تاريخاً يماثل تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم أو يدانيه ، مع ملاحظة أنه قد نشأ بين قبائل العرب المتوحشة وطوائفها الجاهلة ، مما يكفي دليلاً وحده على أنه صلى الله عليه وسلم بلغ من سمو الاستعداد وشرف التسكوبين ما خرق به العادة ، وعلا به على تلك النواميس المعروفة بين الناس .

أما الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو بغية الأرواح ، وطلبة الأشباح ، ومهبط السكينة ، ومستقر الطمأنينة ، وضلالة العقول ، وخلاصة المعقول والمنقول ، وأمنية القلوب ، ورأس كل مطلوب . وهل للناس مطلب غير أن يسعدوا في ظاهريهم وباطنيهم ودنيائهم وأخراهم ، سعادة تدفع عنهم شرور الحياة ومكارهها ، ثم تفيض عليهم من أنواع السرور وشرح الصدور وبهجة الأسرار وصفاء الأنوار ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ثم تسامهم بعد ذلك الى نعيم لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال ، وملاك ليس فيه عناء ولا له انقضاء ؟ ثم هو فوق هذا يدعو الى الديمقراطية الحققة والمساواة الصحيحة ، فلا يرى فضلاً لأحد على أحد إلا بالتقوى .

وهنا يجدر بنا أن نسمعك شهادة رجلين عظيمين للاسلام ونبي الاسلام ، فنقول :
قال برناردشو أحد عظماء انجلترا ما ترجمته :

« إنني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بآجمه اليوم لم ينجح في حكمه ، ولقاده الى الخير ، وحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وقال الوزير الفرنسى والشاعر الطائر الصيت (لامرتين) بعبارة الطائية وأسلوبه الجذاب :

«أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس، وصاحب باطل ومين؟ كلاً بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته، فإن الخداع والتدليس الباطل والمين: كل أولئك من نفاق العقيدة، وليس للنفاق قوة العقيدة، وليس للكذب قوة الصدق. وإذا كانت قوة الصعود والرمى في علم الطبيعة والحركات الآلية هي المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر في الأفق من القذيفة، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث، في علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الانسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التى تنفذ الى مكان بعيد وتبقى زمناً طويلاً وتمشى في الحياة أبداً رخيّة. وهى لاريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص، وعلمها الأكبر الحق والصدق. ولا بد أن تكون معقولة يقبها اللب ويعتمدها الذهن. ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالاته والوحي الذى تنزل عليه. فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وشهامته وجراته وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وثنائه وبقاءه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته في وسط أعدائه، وهرّة خصومه في قلب مكة ونواذيرها ومجامع أهلها، وتقبله سخريّة الساكخين وهزؤه بهزء الهازئين، وحميته في نشر رسالته، وتوافره على السعى في إظهار دعوته، وحرابه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته، واطمئنانه ورباطة جأشه في الهزائم، وأناته وصبره حتى يحرز النصر، وطماعته وتطلعه الى إعلاء الكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الاسلاميّة. لا فتح الدول وإنشاء الأمبراطورية وإقامة القيصرية، ونجواه التى لا تنقطع مع الله، وقبض الله إياه الى جواره مع نجاح دينه بعد موته. كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل

ومين . بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضى في قلبه ، وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد الى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله ، والثانية تنفى ما ألصق الوثنيون به . الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة ، والأخرى فتحت طريقا جديدا الى الفكر ومهدت سبيلا للنظر .

« فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفتح أقطار الفكر ، وراد الانسان الى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد : ذلكم هو محمد . فأى رجل لعمركم قيس يجمع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ » انتهى كلام لامرئين .

شئ من شمائل محمد صلى الله عليه وسلم :

لذلك رأينا أن نذكر للقارىء الكريم شيئا من شمائله صلى الله عليه وسلم ، فنقول وبالله التوفيق :

كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس ، حُمل اليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فارد سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال : ما عندى شئ ، ولكن اتبع على فإذا جاءنا شئ فضيئناه . فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله : أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلا . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه . وكان أصبر الناس على أذى الناس . وكان أبغض الأخلاق اليه الكذب . كان إذا رأى على أحد من أهل بيته

كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة . وكان إذا رفع بصره الى السماء قال :
يا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك .

كان إذا مشى لم يلتفت . كان أكثر أيمانه : لا ومقاب القلوب . أى لما يعلم من
سرعة قلب القلب وعدم ثباته على حال واحد ، كما قال : إن القلوب بين أصبعين من
أصابع الرحمن . فكان يغلب عليه هذا المشهد ، صلى الله عليه وسلم . كان فى بعض غزواته
فأصابته أصبعه حجر فقال متمثلا : هل أنت إلا أصبع دمية ، وفى الله ما لقيت .
كان طويل الصمت ، قليل الضحك . كان أسمح الناس وأطيهم نفسا .

كان يقول للخادم : ألك حاجة ؟ كان لا يضحك إلا تبسما . كان لا يواجه أحدا بشيء
يكرهه . كان يأتى ضعفاء المساكين وبزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنازتهم ، ويداعب
صبيانهم .

فمن أنس رضى الله عنه أنه كان يداعب أخا صغيرا له يسمى أبا عمير ، فكان يقول له :
يا أبا عمير ما فعل النفير ! (والنفير طائر صغير كان يلعب به أبو عمير) . وكان يقبل بوجهه
وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك . كان يكثر الذكر ويدع اللغو ويطول الصلاة
ويقصر الخطبة . وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد
حتى يقضى لهم حاجتهم .

كان أحلم الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، لم تمس يده قطيد امرأة لا يملك
رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، وكان أكثر الناس تواضعا ،
وأسكنهم فى غير كبر ، وأبلغهم فى غير تطويل ، وأحسنهم بشرا ، لا يهوله شيء من
أمر الدنيا . كان يجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل ، ويتألف
أهل الشرف ، ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . لا يحتد
على أحد ، يقبل معذرة المتعذر اليه .

كان يمزح ولا يقول إلا حقا . كان يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا

ينكره . كان لا يمضى له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه . كان لا يحتقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب مَلِكًا لملكه . كان لا ينتقم لشيء صنع قط إلا أن تنتهك حرمة الله . وما خُبر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عنه ، وما يأتيه أحد حرا كان عبدا أو أمة إلا قام معه في حاجته . كان لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . وكان أبعد الناس غضبا وأقربهم رضا . كان أَرَأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس . ولم تكن ترفع في مجالسه الأصوات .

كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا . وكان أصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله . كان يقول : لا يباغنى أحد منكم شيئا أكرهه ، فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان دائم البشر في جلسائه . كان أكثر الناس تبسما ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ . كان لا يذم أحدا ولا يتطلب عوراته . كان إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكث تكلموا .

كان إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : بَشُّوا ولا تنفَّروا ويسَّروا ولا تعسَّروا . كان إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل : ما بال فلان يقول كذا وكذا ، رحمة به ، وسترا عليه . كان يقلل من الطعام ويقول : يكفي ابن آدم لقيات يُقمن صلبه . كان إذا جلس مجلسا أكثر فيه الاستغفار ، وإذا أراد أن يقوم استغفر عشرا إلى خمس عشرة . كان يقول : أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغها فإن من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر . كان يحدث حديثا إذا أعده العاد أحصاه . كان إذا غزا قال : اللهم أنت عضدى وأنت نصيرى ، بك أصول وبك أجول وبك أقاتل ! كان إذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع .

كان إذا فقد الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده . كان إذا أهمله أمر قال : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . كان إذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ويقول : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . كان لا يرد أحدا سأل به يعطيه إن كان عنده وإلا وعدة . كان طويل الصمت قليل الضحك . كان لا يدخر شيئا لغد . كان لا يقوم من مجلس إلا قال : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . كان لا يكاد يقول لشيء : لا ، فإذا هو سئله فأراد أن يفعل قال : نعم ، وإن لم يرد أن يفعل ، سكت .

كان يذكر الله في كل أحيائه . كان يردف خلفه ، ويضع طعامه على الأرض ، ويجب دعوة المملوك ، ويركب الحمار . كان يعجبه الرجل يخدم أصحابه فيصلى ويدعوه له . كان يعجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه . كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل . كان يحلب شاته ويخدم نفسه .

دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ما ذا أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث الى فكتبت له ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقوم من الليل حتى تودمت قدماه .

كان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي كان يقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . كان لا يستأثر بشيء مما كان يجيىء على كثرته ويقول : ما يسرنى أن لى أحدا ذهباً يبيت عندي دينار منه إلا ديناراً أرصده لدينى . كان يقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه .

أما تعلقه بالله ورجعه كل شيء الى الله فقد كان يقول إذا جاءه أمر يحبه : الحمد لله

الذى بنعمته تم الصالحات ، وإذا جاءه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال ، وإن أراد أمرا قال : اللهم خرنى واخترنى ، وإن أراد نوما قال : باسمك اللهم وضعت جنبى وباسمك أرفعه ، وإن استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماننا واليه النشور ، وإن لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذى رزقنى ما أنجمل به فى حياتى ، وإن أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنا وأسقانا وجعلنا مسلمين ، وإن شرب قال : الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجابذنوننا ، وإذا أفطر من صومه قال : الحمد لله الذى أعاننى فصمت ورزقنى فأفطرت ، وإذا تقلب من الليل فى فراشه قال : لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار . وإذا هب من نومه ليلا قال : رب اغفر وارحم ، واهدنى السبيل الأقوم ؛ وإذا خاف قوما قال : اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ؛ وإذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أذل أو أذل ، أو أجهل أو يجهل على ؛ وإذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد آمنت بالذى خلقك ، وإذا عصفت الرياح قال : اللهم إنى أسألك خيرا وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به .

وهكذا فى شأنه كله كان غريقا فى النظر الى الله ، والاستعداد من الله ، والالتجاء الى الله ، لا يرى لنفسه ولا لغيره حولا ولا قوة . ولذلك كان يقول إذا أصابه هم : حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرازق من المرزوقين ، حسبي الله وهو حسبي ، حسبي الله ونعم الوكيل . الى آخر شمائله الرفيعة التى لا يأتى عليها المد ولا يحصرها البيان .

نسأل الله أن يرزقنا محبة ذلك الرسول الأعظم ، والاقتداء به ، وأن يميئتنا على ملته

ويحشرنا فى زمرة بمنه وكرمه

يوسف الرموى
من هيئة كبار العلماء

على هامة الدنيا

على هامة الدنيا يطول به الفخر
وماذا كيلاذ النبي محمد
نبي إذا ما الصالحات تقدمت
أضياء به الحق الصريح على الوري
لك الله مولودا لك الله يافعا
يتيم أعز الله في الناس يتمه
يشب فلا الدنيا تميل بقلبه
ولكن رسول الله ينهض في الحجا

وتخلد ذكره ويستشرف القدر
إذا طاب في الناس الأحاديث والذكر
إلى الأرض كانت عن يديه لها صدر
وبادت عن العقل الغياهب والأسر
لك الله في الشبان تحلو إذا مروا
فلا عابه يتم ولا شأنه فقر
ولا فعله ذام ولا قوله هجر
فتيا وبمشى ملء أنوابه طهر



إلى « جبل النور » المنيف ثواؤه
يحدثنا منها « حراء » وغاره
مشاهد فيها الحق ثاو وفارح
أطاف به روح من الله مرسل
فقام خفيف الصدر يأوى لبيته
يبث الى الزوج الصديق فؤاده

وفي « جبل النور » الطرائف والذخر
و« زمزم » و« البيت المقدس » و« الحجر »
وفي كل ربع من مراتبها سر
وفي يده الآي الحكيمة والذكر
لينظر ما هذا ؟ وما هو ذا الأمر
وعند ذوات الخدر قد بودع السر



« خديجة » ما هذا الذي أنا واجد
أرى رجلا لا كالرجال وسيدا
يقول لهم اقرأوا وما أنا قارئ

وما مثله سر ولا مثله جهر
صبيح المحيا مثله بيننا نزر
ولكن أمرا نافذا ذلك الأمر

قُرأت كلاماً كالآمانى حلاوة ولكنه كالندور ليس له ستر
تبارك ربى ما أجل كلامه من الصدق والحق البطائن والظهر

* *

أجل : ليس يخزبك إلا له فإنما لأنت قليل فى الرجال وهم كثر
فإنك تقرى الضيف والضيف طارق وتحمل فىنا الكل أثقله الدهر
ويقصدك المكروب فأماع كربه ويمرح فى جدواك عاف ومعتز
على بأن تلقى « ابن نوفل » إننى أرى الخير يأتينا وليس بنا ضير
ألا يا ابن عم انظر فإنك عالم يكن عندنا عن ذلك الخبر الخبر
فقال وقد ألقى وأنعم سائلا لأنت رسول الله تم لك الأمر
فا زال يدعو ليله ونهاره الى الله ترعاه العناية والصبر
وكم حـزبه والأسنة شرع وكم أجنوه والخطوب لها إصر
فصا برهم والله غالب أمره وجاوبهم والحق صولته قهر :
لئن كانت الشمس البهية فى يدى يعنى وفى اليسرى الكواكب والبدر
لأترك هذا الأمر ما أنا تاركا الى الموت أو ألقى وفى يدى النصر
وفى الحق عن كل الذائد غنية لمن كان ذا قلب وكان له ذكر
ومن كان فى الله مناه وهمه تدبى له الدنيا ويطمأن الصخر

* *

فأبلغ موفور الكرامة شرعة يفيض الهدى فى الناس وهى له نهر
وكفل للدنيا سعادة أهلها حنيفة غراء منبتها اليسر
يصوغ من الأيام - والشرملوها - رياض العلا فى جوها عبق الزهر
من البر والتقوى حياة وطيدة الى الخلد لا تبلى وليس بها عسر
وغير وجه الأرض إى فى ثلاثة وعشرين عاما لا يقاس بها عمر

فلو زرع الزيتون ما طاب غرسه ولا جادنا زيتنا ولا حسن العصر
ولكن رسول الله أنشأ أمة هي المثل الأعلى هي السادة الغر
فأعجز حتى المرسلين بعزمه ومن ذا سواهم أن يكون له ذكر ؟

* *

أروني ضلالا حال هديا وحكمة وقوما يرون الرجس دينا وشرعة
يبدلهم خلقا جديدا مبدل ويرزجى بهم في كل واد ومنزل
وفوضى على آكامها ينبت الخير حياتهم بغى ومعروفهم نُكر
ويفرغهم في قالب كله بر مصاييح سود الأرض من نورها قمر

* *

سقام من الاسلام روحا روية مشوا في فجاج الأرض كالغيث كلما
وبين يديهم للكتاب منائر تقي الى « دار السلام » وتنتهي
الى الملأ الأعلى الى « الله » وحده فأعمالهم صدق وأخلاقهم در
أناف على واد فأثوابه خضر يضيء على أنوارها البر والبحر
الى الخلد لا برد هناك ولا حر فيا ظلمة الإشراك قد طلع الفجر

* *

رويد بنى الدنيا رويد غلاتها ملائمت حياة الناس إثمها وفطنة
وسعرتموها كالبحيم مؤججا وألهبتم الشهوات في كل جانب
ملائمت طباق الأرض بهجة ناظر تمزقها الأهواء كل مُمزق
لقد جاءكم في كل شيء رشاده فشأنكمو شأن وأمركمو أمر
وصيرتم الدنيا هي الظلم والضر فأولها نار وآخرها جمر
من الجسم حتى لا يسان لها سر ولكن صدور العالمين هي القبر
ويفسدها الإلحاد والغل والمكر فليس لغاؤ بعده أبدا عذر

هدايتكم لله في الدين فاعلموا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فالكفر

* *

سلامٌ رسولَ الله لستُ ببالغ
سلامٌ رسولَ الله إنا على هدى
سلامٌ رسولَ الله صفو مبارك
قليلًا ولو أوفى وطاوعنى الشعر
وإنك مولانا وسيدنا البر
تردده الدنيا وينشره الحشر

عبد الفتاح بدوى
المدرس بكلية اللغة العربية

شذور من كلامه

صلى الله عليه وسلم

من كلامه صلى الله عليه وسلم المتضمن بقليل من المباني ، كثير المعاني ، قوله للانصار :
إنكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع . ومن كلامه عليه السلام : المسامون تنكافأ
دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة .
إياكم وخضراء الدمن . كل الصيد في جوف القرا . الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم
في الاسلام إذا فقهوا . المؤمن للعوم كالبنيان يشد بعضه بعضا . المرأة كالضلع إن رمت
قوامها كسرتها وإن داريها استمتعت بها . اليد العليا خير من اليد السفلى . مطل الغنى ظلم .
يد الله مع الجماعة . الحياء شعبة من الايمان . أربعة من كنوز الجنة : كتمان الصدقة ، والمرض ،
والمصيبة ، والفاقة . الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . كفى بالسلامة داء . إنكم لن تسعوا الناس
بأموالكم ، فسعواهم بأخلاقكم . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . كل ميسر لما خلق له . اليمين
حنت أو مندمة . دع ما يريبك الى ما لا يريبك . انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما . احتسروا
من الناس بسوء الظن . الندم توبة . انتظار الفرج عبادة . نعم صومعة الرجل بينه . المستشار
معان والمستشار مؤتمن . المرء كثير بأخيه . إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد ، وجلاؤها
الاستغفار . اليوم الرهان وغدا السباق ، والجنة الغاية .

خاتم المرسلين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .
رواه البخارى ومسلم .

إذاً مهمة الرسل واحدة ، وغاياتهم متفقة ، وإن اختلفت أزممتهم ، وتفاوتت مناهجهم .

مهمتهم الإصلاح فى الأرض ، على أساس العقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ، وإخلاق الفاضل الكريم .

مهمتهم أن يعيش الإنسان أخاً للإنسان ، وينتشر السلام فى ربوع المعمورة ، وأن تكون للناس حدود يتعاملون على أساسها ، ونظم يسمعون بالمحافظة عابها ، وعبادات هى وسائل تهذيب نفوسهم ، وإصلاح أخلاقهم .

مهمة الرسل إشعار النفوس أن لها رباً له من السلطان القاهر ، والقدرة النافذة ، والعلم الشامل المحيط ، والحكمة النامة ، ما ليس لأحد من المخلوقين ؛ وأن ذلك الإله لم يخلق الناس عبثاً ، ولا يتركهم سدى ، بل جعل لهم حياة وراء هذه الحياة ، هى حياة الجزاء العادل .

غير أن الناس متفاوتون فى استعدادهم ، لتفاوتهم فى أزممتهم ومقدار ثقافتهم ، فكان من الحكمة أن يكون إصلاح الرسل متمشياً مع استعداد القوم ، متناسباً مع مؤهلاتهم ؛ وكان من المعقول أن يجرى الإصلاح المحمدى ، وهو آخر إصلاح سماوى ، بضروب لم تكن فيما تقدمه من الأديان ؛ وأن يتم به بنیان ذلك البيت الذى بدأه الرسل السابقون .

احترام الدين للعقل :

لم نجد في الاسلام أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها . ولم يقل لنا : يجب أن نعتقدوا أولاً بما فرض عليكم بدون نظر ثم اجتهدوا بعد ذلك في فهم ما اعتقدتم . وإنما جاء الاسلام وأول أساس وضع عليه هو النظر العقلي . حتى قال قائلون من أهل السنة : إن الذي استقصى جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . واتفق أهل الملة الاسلامية على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بمادل عليه العقل . وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله في علمه .

والثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبذلك مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيلت من طريقه جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد .

جاء الاسلام فرفع من شأن العقل الى ذلك المدى ، وأمر بالتفكير والنظر في ملكوت السموات والأرض ، وجعل الذين لا يعقلون ولا يفقهون كالأنعام بل أضل « ولقد زرأنا لهم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

تأهلي الدين مع العلم :

كما عني القرآن الكريم بالعقل وذكرت فيه هذه الكلمة أكثر من خمسين مرة ، عني بكلمة (علم) منكورة ومعروفة وذكرت فيه كذلك فيما يناهز المائة ، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك . وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها .

فمن العلم المطلق قول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » . لا تحكم بالقيافة والظن ، ولا تتبع ما لم يتعلق به

علمك تقليدا أو رجما بالغيب ، فإن الله أعطاك وسائل العلم ، وهى الله سبحانه والبصر والفؤاد ، وهو سائلك كما يسألك عن سائر نعمه عليك .

وقال الله تعالى فى بيان ضعف علم البشر وقلته : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وقال فى شأن علم طبيعة ذلك الكون : « ومن آياته خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاجْتَلَلَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ » .

يلفتنا الله بذلك الى دراسة سنة الله فى نشأة اللغات وكيف تولد بعضها من بعض ، ويتبع ذلك دراسة الأمم والشعوب كيف تولدت وتشعبت ؛ أو يرشدنا الى أجناس النطق وأشكاله .

لا تكاد تسمع منطقيين متفقيين فى همس الحروف وجهارتها ، وحدتها ورخاوتها ، وفصاحتها ولكننتها ، ونظمها وأسلوبها . بل جعل الله لكل نطق وحدته ومميزاته ، وذلك يرجع الى اختلاف مخارج الحروف وأعضاء الصوت ، غلظة ورقة ، وضيقا وسعة ، وقوة وضعفا ، وما الى ذلك .

وكذلك يرشدنا الى دراسة سنة الله فى الألوان ، وتفاوتها بتفاوت البيئات والجواء ، وتوارث الأبناء أشباههم عن الآباء ، وغير ذلك من الأسباب . ولدقة هذه السنن أضافها الى العلماء .

ثم ألا ترى القرآن الكريم يُعلم من شأن علماء الكون ويكبر من قيمتهم ، حتى حصر الخشية من الله فيهم فيقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفا ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبٌ سَوْدٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وهل للعلماء معنى فى هذا المقام سوى الذين درسوا سنن الله فى النبات وعرفوا لماذا اختلفت

ألوانه؛ ودرسوا سننه في الجبال ولماذا كان فيها الأبيض والأحمر والأسود الغريب؛ ودرسوا نظام الله في الدواب والأنعام ولماذا تباينت في ألوانها إلى الحد الذي نرى. ألا نشعر بعد ذلك بأن خشيتنا من الله تعالى وإجلالنا إياه تكون على قدر علمنا بآياته ووقوفنا على نواميس هذا الكون؟

ثم نرى القرآن الكريم بعد ذلك يقول: «يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» ويعلمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يطلب المزيد من العلم «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

فلا عجب بعد ذلك إذا لم تجد أمة كالأمة الإسلامية في اعتنائها بالعلم، واهتمامها بشأنه، وإتقان وفير أمورها ونفيس أزماتها في تأسيس قواعده، وتشجيع بنيانه، وتلمس مكانه، وترجمة كتبه، وجمع شوارده، وتحقيق مسائله، وتذليل صعابه، واسترضاء أربابه، على اختلاف مللهم ونحلهم، وتحالف أذواقهم ومشاربهم، وتباين بلادهم ومنازلهم.

إزالة الفوارق:

من أفضل ما امتاز به الاسلام إزالة الفوارق بين الأفراد والجماعات، وجعل المؤمن أخًا للمؤمن. فليس في دين الله سلطة لرؤساء دينيين: ما حكموا بإيمانه في الأرض يكون هو المؤمن في السماء، وما حكموا عليه بالكفر يكون هو الكافر. إنما المحكم في دين الله كتاب ربهم، وسنة رسوله الصحيحة. ولا فرق بين مسلم وآخر في دين الله إلا ما فضل به بعضهم على بعض في العلم والعمل، وامتاز به في الإحسان والتقوى «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» «ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا» «يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ليتعارفوا» إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»

فالمسلمون على اختلافهم وكثرتهم، حكومتهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله،

في حدود اللغة التي جاء بها الكتاب الكريم . وإذا اختلفوا بعد ذلك لأن هناك مجالا للخلاف كان على كلٍّ أن يعذر صاحبه ، ويكل أمره في دينه الى ربه وخالقه .

جمع الدين بين مصالح الجسم والروح :

إن صاحب هذا الدين لم يقل « لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » ولم يقل : « إنه يعسر على غنى أن يدخل الى ملكوت السموات » . بل أنزل الله عليه « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

ولم يقل كذلك لأحد من الأغنياء : « بع مالك واتبعني » وإنما قال لسعد بن أبي وقاص وقد استشاره فيما يتصدق به من ماله : « الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » . وأنزل الله تعالى عليه فيما أنزل « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

وكان كثيرا ما يقول للمتشدد في دينه : « إن لأهلك عليك حقا ولبدنك عليك حقا » . وكان يقول : « إني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآتي النساء وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني » مما يدل على أن الاسلام دين وسط جمع بين مصالح الجسم والروح . أباح للجسم أن يتمتع بالطيبات في حدود القصد والاعتدال ، ولم يكلف الانسان من العمل إلا ما يطيق بدون إعنات ولا إرهاق .

ومادام الاسلام ينهانا أن ننسى نصيبنا من هذه الحياة ، وأباح لنا التمتع بطيباتها

في حدود القصد والاعتدال، فلا عجب أن يعرفنا قيمة المال، ويرينا أنه لا يصح أن نتركه في أيدي السفهاء، يعبثون به، وهو أساس هذه الحياة، وعليه تقوم مصالحها الدينية والدنيوية «ولا تُؤْتُوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً» .

لا عجب أن يرينا الله أن المال لا ينبغي أن يسلط عليه يتيم لا يحسن رعايته، ولا يصلح لحياطته. ويجب أن نجعل عليه قياً ينوب عنه في حفظ ماله ورعاية مصالحه، ولا ندفع المال ليتيم بعد بلوغه إلا بعد اختباره وإيناس الرشد منه «وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ». ذلك من الإصلاح المحمدي الذي أتى به خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

كان الرق عادة فاشية في الأمم السابقة، وكان يُضرب بأسباب كثيرة، منها الأسر في الحرب أياً كان الغرض منها. وكان اليونان والرومان يعدون الأمم المغلوبة عبيداً. وكان القانون الروماني يبيح تجريد بعض المذنبين الأحرار من حريتهم فيصبحون أرقاء، كما كان المسترقاق بتخطف النساء والأطفال. وكانت معاملة الرقيق غاية في القسوة: يكلف من الأعمال أشقها، ويعاقب على الهفوة أشد العقاب، ولسيده أن يقتله أو يبقيه، لا يسأله في ذلك أحد .

جاء الاسلام والرق على ذلك الحال، فأهدر جميع أسبابه إلا سبباً واحداً هو الأسر في حرب دينية. ثم أوصى المالكين أن يحسنوا إلى الأرقاء، ويعتبروهم إخواناً لهم، ونهاهم أن يسموهم عبيداً أو إماء. وفي الحديث: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكفوهم ما يغلبهم، فإن كاتبتموهم فأعينوهم». وأباح الاسلام للرقيق أن يشتري نفسه من مالكة بمال يدفعه ولو أقساطاً. ويسمى ذلك في لسان الشرع كتابة ومكاتبة. وأمر المالكين بمكاتبتهم وإعانتهم «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم

فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم . وجعل في مال بيت المسلمين الذي يتكون من الزكاة نصيبا يصرف في إعانة أولئك المساكين على فك رقابهم .

وحكم الاسلام بسرمان العتق الى جميع العبد إذا أعتق سيده بعضا منه وكان عند السيد من المال ما يفي بعتق بقية العبد . وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم على من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه أن يعتقه بسبب ذلك التعذيب ، وجعل عتقه كفارة لعمله . ومن وسائل تضييق أبواب الرق أن جعل عتق الرقبة كفارة في قتل الخطأ ، وفي ظهار الرجل من زوجته ، وإفساده صومه عمدا ، وحشته في اليمين . وأن الجارية التي تلد لسيدها ولدا تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، ولا يجوز له بيعها في حياته . كل ذلك إصلاح غير قليل في نظام الرق امتاز به الاسلام عما سبقه من الشرائع .

محمد العدوي

من علماء الازهر

من جوامع كلمه

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم واختصرت لي الحكمة اختصارا » ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . دع ما يريبك الى ما لا يريبك . خيركم من لم يترك دنياه لا آخرته ولا آخرته لدنياه . الناس بزمانهم أشبه . العدة عطية . الخير كثير وقليل فاعله . لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما . المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وقال عليه الصلاة والسلام :

أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهلهم . من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه . أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق . اقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألون ويؤلقون .

املأ الأرض نورا

واملأ الأرض يا (محمد) نورا واغمر الناس حكمة والدهورا
 حجبك الغيوب سرا تجلّي يكشف الحجب كلها والستورا
 عبّ سيلُ الفساد في كل واد فتدفق عليه حتى يغورا
 جئتَ ترى عبابه بعباب راح يطوى سُيولُه والبحورا
 ينقذ العالم الغريق ويحمي أم الأرض أن تذوق الثبورا
 زاهر يشمل البسيطة مدا ويعم السبع الطباق هديرا
 ولدتك الكواكب الزهر فجراً هاشمي السّفا ، وصبحا منيرا
 يصدع الغيبَ المجلل بالوحى الملقى ويكشف الديجورا
 أنكر الناس ربهم وتولّوا يحسبون الحياة إفكا وزورا
 أين من شرعة الحياة أناس جعلوا البغي شرعة والفجورا ؟
 تلك أربابهم ، أتملك أن تند فغ مئقال ذرة أو تضيرا ؟
 قهروها صناعة ، أعجبُ الأُر باب ما كان عاجزاً مقهورا
 مالدی (اللات) أو (مناة) أو (العزى) غناء لمن يقيس الأمورا
 جاء دين الهدى وهبّ (رسول الله) يحمى لواءه المنشورا
 ضرب الكفر ضربة زلزلته فتداعى ، وكان خطباً عسيرا
 جمعت حوله الحصون وظن القوم ظن الغباء أن لن تطيرا
 هدّها ذو الجلال حصناً فخصناً بالحصون العلى ، وسوراً فسورا
 بالرسول الهادى وبالصفوة الأمّة جاد يقضون حقه الموفورا
 يهرقون النفوس ، تلقى الردى المهدى راق مثل الغدير يلقى الغديرا

إِن فِي الْقَتْلِ لِلشُّعُوبِ حَيَاةً وارفًا ظلَّها ، وخيرًا كثيرًا
ليس من يركب الدُّنْيَا يَخْشَى مركب الموت بالحياة جديرًا

* *

أَمِنَ الْحَقُّ أَنْ تَصَدَّ قَرِيشٌ عَنْ فِتْنَاهَا وَأَنْ تُطِيلَ النُّكْرَا ؟
سَلِّ (أَبَا جَهْلَهَا) وَقَوْمَا دَعَا فَاسْتَجَابُوا جَهَالَةً وَغُرُورًا ؟
أُولِعُوا بِالْأَذَى فَأَلْفُوا رَسُولَ اللَّهِ جَلْدًا عَلَى الْبَلَاءِ صَبُورًا
كَلِمًا أَحْدَثُوا الذُّنُوبَ كِبَارًا وَجَدُوهُ لِكُلِّ ذَنْبٍ غَفُورًا
مَا بِهِ نَفْسُهُ فَيَغْضَبُ بِرِضَاهَا وَتَرْضِيهِ نَاعِمًا مَسْرُورًا
إِنَّهُ اللَّهُ لَا سِوَاهُ ، وَدِينُهُ مَلَكُ النَّفْسِ ، وَاسْتَرَقَ الشُّعُورَا
يَجِدُ النَّفْسَ وَالْمَقَادِيرَ فِيهِ وَيَرَى مَا عَدَاهُ شَيْئًا يَسِيرَا
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا هُوَ الْقَتْلُ يَمِيطُ الْأَذَى وَيَشْفِي الصُّدُورَا
كَذَّبُوا ، مَا دُمُ الْهَيْزَبِ أَمَانِي مَهَازِيرَ يَكْثُرُونَ الْمَهْرِيرَا
إِنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ أَمْنَعُ جَارَا مِنْ طَوَاغِيَتِهِمْ وَأَقْوَى مَجِيرَا

* *

رَبِّ آتَيْتَهُ عَلَى الْقَوْمِ نَصْرَا فَتَبَارَكَتْ حَافِظَا وَنَصِيرَا
أَنْتَ نَجَّيْتَهُ فَهَاجَرَ يَقْضَى حَقُّ لَاحِائِنَا وَلَا مَذْعُورَا
يَوْمَ ضَجَّتْ جِبَالُ (مَكَّة) ذَعْرًا وَتَمَتَّ هَضَابُهَا أَنْ تَمُورَا
تَتَنَرَّى أَسَى وَتَمْسُكُهَا تَمَدُّ نَعْمَا مِنْ وَرَائِهِ أَنْ تَسِيرَا
هِيَ لَوْلَاكَ لَا رَمَتْ تَقْذِفُ الصَّخْرَ وَتَرْجِي هِبَاءَهَا الْمَنْشُورَا
هَاجَهَا مِنْ جَوَى الْفِرَاقِ وَحَرَالِ وَجَدَ مَا هَاجَ بَيْتُكَ الْمَعْمُورَا
كَادَ يَهْفُو فَرْزَدَتُهُ مِنْكَ رُوحَا فَانْثَى رَاجِحَ الْجَلَالِ وَقُورَا

يالها من (محمد) نظرات زخرت رحمةً وجاشت سعيها
 نظرات شجية لاتعد الـ أهل أهلا ولا ترى الدور دورا
 قال : ما في البلاد أكرم من مكـمة أرضاً ولا أحبّ عشيرا
 فاسكني يا هموم نفسي إن الله أمضى قضاءه المقدورا
 وتولى وللأمور مصير يشتري ربّه ، ويرجو المصيرا
 يوم يمشى (الصدق) في نوره الزاهي ، يوالى رواحه والبكورا
 لا يوى دونه حياة ولا يرهب في الله لائما أو نذيرا
 ينصر الحق نائرا يمنع الباطل أن يستقر أو أن يشورا
 دائم الكرك والصرع ملحاً لا يطيق القرار حتى يبورا
 أقبل القوم يسألون : أتحت الـ أرض أم جاور الطريد النسورا
 نفضوا الهضب والجبال وشقوا الـ أرض طرّاً رمالها والصخورا
 ويح (أسماء) إذ يشد (أبو جهل) على خدرها المصون مغيرا
 صاح : أسماء أين غاب (أبو بكر) أجيبى ، فقد سألنا الخبيرا
 قالت : العلم عنده ، ما عهدنا أجم الأسد تستشير الخدورا
 فرماها بلطمة تُعرض الأجيال عن ذكرها صوادم صورا
 قذفت قرطها بعيداً ، ورضت من وجوه النبي وجهها نصيرا
 (غار ثور) أعطاك ربك مالم يعط من روعة الجلال القصورا
 أنت أطلعت للممالك دنيا ساطعاً نورها ، وديننا خطيرا
 صننته من ذخائر الله كنزا كان من قبل عنده مذكورا
 مخفّر الحق لاجئاً يتوق قام فيه (الروح الأمين) خفيرا
 وقفت حوله الشعوب حيارى من وراء العصور تدعو العصورا

اهدنى أيها الشعوب فإن الـ حق أعلى يداً وأقوى ظهيرا
لا تراعى فتلك دولته العظمى تناديك أن أعيدى السريرا

*
*
*

(صاحب القائم) المتوج بالعز : بوركت صاحباً ووزيرا
أنت واليته وعاديت فيه من توخى الأذى وأبدى النفورا
ليت شعري : أصبت حية واد تنفث السم ، أم أصبت حريرا ؟
نفثت سمها فما هز (رضوى) من وقار ، ولا استخف (تبيرا)
خفت أن توظف النبي فما ير ضيك أن تضعف القوى أو تخورا
أكرم الله ركبتك لقد أعد طاك سبجانه فأعطى شكورا
أي رأس حملت يا حامل الأيدى مان سمحا والبر صفوا طهورا

*
*
*

اتق الله يا (سراقه) وانظر إنما الرأى أن تكون بصيرا
أظن الجواد قد خرق الأرزض يحاييك أم تظنه مسحورا
أم هو الله ذو الجلال رماه يمسك الشر راكضا مستطيرا
غرك القوم فانطلقت ترجيد به خسيسا من الجزاء حقيرا
وضح الحق فاعتذرت وأولا لك الرسول الأمين حظا وفيرا
فزت بالمهد فاغتنمه وأبشر (بسوارى كسرى) فديت (البشيرا)
قل لأهل (النياق) أوتيت أجرى جلسلا ، فابتغوا سواى أجيرا
ليس من رام رفعة أو سناء مثل من رام ناقة أو بعيرا

اصمد محرم

سيدنا محمد هادم الأصنام

كانت الأصنام عند الناس معبودة، وكانت محبوبة كل الحب، ومقدسة كل التقديس، ومرهوبة أعظم الرهبة. وكانوا يقربون إليها القرابين. وكانوا يحرقون حولها البخور، ويرخون عليها السكّل والستور، ويركعون لها ويسجدون، ويبتهلون إليها ويصلون. فكم عفروا أمامها من جباه، وكم حنوا من أصلاب، وكم جثوا أمامها خاضعين خاشعين.

كانت خرساء لا تنطق، وصماء لا تسمع، ولكنها مع خرسها كانت توحى إليهم كل شر، وتنفض فيهم كل زور، ومع صممها كانت تُرفع عندها الأصوات، وتكثر لديها الدعوات. كان لها سدة، وكان لها كهان، وكانوا يتكلمون عنها، وينطقون بلسانها، ويبلغون عبيدها ما تريد.

هكذا كانت الأصنام في جزيرة العرب فيما قبل سنة (٥٧١ م). وهكذا كان العرب: أرباب ومريوبون، وحكام ومحكومون، توحى إليهم بكل فتنة وزور، وتفسد عليهم كل شيء في الحياة. وقد كانت من القوة بحيث لا يحدث أحد نفسه أن يرومها بسوء. وكانت من الثبات بحيث تزول الجبال ولا تزول. وكان من يقينهم بها أنهم لا يقبلون فيها شكاً ولا جدلاً. وكان من حبهام لها وتفانيهم فيها أن تسيل أنفسهم على ظبابة السيوف وأطراف الرماح فداء لها. وما هي إلا دورة من دورات الفلك حتى اقتلعت من أماكنها العالية، ومنازلها السامية، ورُمي بها بين التلال والوهاد.

خلت معابدها من الراغبين والراهبين، والراكمين والساجدين. وصفرت أماكنها من أصوات الداعين، وعجيج المبتهلين، وهممة المستغفرين. انقطعت سبلها من الحاجين إليها، فلا غاد ولا رائج، ولا حاج ولا قاصد. أطفئت من حولها الشموع، وانقطع دخان

البخور ، ومزقت الأستار والكَلَل . رغب عبادها عن تقديم القرابين ، وذبح الضحايا وإراقة الدماء . ذهب سلطانها على النفوس فلا سلطان ، وراح إجلالها واحترامها فلا إجلال ولا احترام ، وذهبت عزتها وجبروتها فلا عزة ولا جبروت .

ليت شعري ما الذى أزال سلطانها، وهذ أركانها، وزلزل قواعدها، وحطم عروشها، وحى الإنسانية شرورها وآلامها ؟

لقد اقتضت إرادة الله الحكيم أن يحى الإنسانية من كيدها ويخفف عنها ويلاتها، فأثار الوجود بطلعة سيدنا وسيد البشر محمد بن عبد الله ، وأرسله الى العالم على رأس الأربعين ، فخارب الأصنام، وزلزل الأوهام، وجاهد فى سبيل الله جهادا محمودا، وسعى فى إعلاء كلمة الله سعيا مشكورا، حتى تمت له الغلبة، وكانت كلمة الحق والخير هى العليا، وكلمة الباطل والشر هى السفلى .

حاربها صلى الله عليه وسلم بسيفين : سيف الحق ، وسيف الحديد . ودفع فى ركنها بقوتين : قوة الإقناع ، وقوة القهر . وكانت قوة الإقناع أشد تأثيرا ، فقد أبان لهم أن الإله المعبود يجب أن يكون أقوى وأكمل ما فى الوجود، وهذه الأصنام المعبودة أصغر ما فى الوجود شأنًا وأضعفه أمرا، فهى مؤوفة لا تسمع نداء الداعين ، ولا تبصر عبادة العابدين ، وهى عاجزة لا تدفع الأذى عن نفسها ، ولا ترد من أرادها بسوء .

« أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ، فادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا السَّكْمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَمْ يَأْتِ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ » .

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا .
يَا أَبَتُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ
الْتِمَازِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مِنْ فَعَلِ هَذَا
بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى آعُيْنِ
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكَسُوا
عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ
شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

لم يبق بعد قيام هذه الحجج القيمة ، وسطوع هذه الدلائل النيرة إلا هدم هذه
الأوثان وتحريقها .

فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، دخل المسجد والأصنامُ
منصوبة حول الكعبة ، فجعل يطعن بسية قوسه في عيونها ووجوهها ويقول : « جاء
الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . ثم أمر بها فكسفت على وجوهها ،
ثم أخرجت من المسجد فخرقت ، فقال في ذلك راشد بن عبد الله السُلَمي :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى الإله عليك والاسلام

أو ما رأيت محمدا وقبيله بالفتح حين تكسر الأصنام

لأريت نور الله أضحي ساطعا والشرق يغشى وجهه الإِظلام

وكان لثقيف صنم يسمى اللات ، فلما جاء وفدكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسلموا

كان فيما سألوه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى ذلك عليهم، فأبرحوا يسألونه سنة بسنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى. فسألوه ألا يكسروه بأيديهم فقال: أما كسروا وأنكم بأيديكم فسنعفيكم منه.

فلما توجه الوفد الى بلاد ثقيف بعث معه المغيرة بن شعبه وأبا سفيان لهدم الطاغية، حتى إذا قدموا الطائف تقدم المغيرة لهدمها وقال لأبي سفيان: ألا أضحكك من ثقيف! فقال: بلى، فأخذ المعول وضرب به اللات ضربة ثم صاح وخر على وجهه، فارتجت الطائف بالصياح سرورا بأن اللات قد صرعت المغيرة، وأقبلوا يقولون: كيف رأيتموها يا مغيرة! دونكها إن استطعت، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها؟ ونجكم ألا ترون ما تصنع؟ فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم: يا خبيثاء والله ما قصدت إلا الهزء بكم! ثم أقبل على هدمها حتى استأصلها، وأقبلت عجائز ثقيف تبكي حولها وتقول أسلمها الرضاع، إذ كرهوا المصاع - أي أسلمها اللثام حين كرهوا القتال. ثم أخذ مالها وحليها وذهب به الى النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانت سمرات يقال لها العزى على يمين المصعد من مكة الى العراق قد عظمها العرب وعبدوها وبنوا عليها بيتا، وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون لها بالذبح، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائيق العلى، وإن شفاعتهن لترجي.

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فخرها فيما حقر من الأصنام ونهاهم عن عبادتها. ونزل القرآن فيها: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان». والحساية الآتية تدلنا على ما كان لها من سلطان عند قريش:

لما مرض سميد بن العاص بن أمية مرضه الذى مات فيه ، دخل عليه أبو لهب يعودوه فوجده يبكى ، فقال ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟ قال : لا ، ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى ! قال أبو لهب : والله ما عبدت حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ، وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها .

فلما افتتح النبي مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : ائت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى ، فأتاها فعضدها . فلما جاء اليه عليه السلام قال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية . فأتاها فعضدها . ثم أتى النبي عليه السلام فقال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا ، قال فاعضد الثالثة . فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها وخلفها سادنها ، فلما رآها خالد ضربها ففلق رأسها ، ثم عضد الشجرة وقتل سادنها . ويظهر أن هذه المرأة كانت تدخل البيت وتكلم الناس فيظن الناس أنها العزى .

ثم رجع خالد الى النبي وأخبره بما كان ، فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ، أما إنها لن تعبد بعد اليوم .

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث أصحابه الى أصنام العرب فيكسرونها ويحرقونها . وكان بعض العرب يكسرونه ويلحق النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم . يروى أنه كان لمزينة صنم يقال له نهم فلما سمع سادنه بالنبي صلى الله عليه وسلم نار الى الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت الى نهم لأذبح عنده عقيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقابها أهذا إله أبكم ليس يعقل
أبيت فدينى اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل
ثم لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وضمن له إسلام قومه .

وما زال الأمر كذلك حتى طهر الله الجزيرة العربية من الأصنام ، وطهر نفوس أهلها من عبادتها .

لقد كان مما يخزى الانسانية ويلطخ جبينها بالعار ، أن تعمد الى أحجار لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، فتذل لها وتخضع .

فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ففسل هذا العار ، وأزال هذه الوصمة عن جبين الانسانية ، ومحا سلطان هذه الأصنام المستبدة . وهذا خير عالمي لا يخص أمة دون أمة ، ولا جنسا دون جنس . فمن الحق على العالم أجمع : مسامحه وكافره ، ومؤمنه وجاحده ، أن يحتفل بذكر مولد سيدنا محمد ، وأن يذكر في ليلة مولده من كل عام بالتعظيم والإجلال محطم الأصنام ، ومكسر الأوثان ، وماحى الشرك ، ومقيم التوحيد ، ومطهر الانسانية من دنسها ، ومقي لها من عثرتها ، ورافعها من سقطتها ، وماحى عنها ما كانت فيه من ذل وعار . عليه الصلاة والسلام

محمد عرفه
من علماء الأزهر

من أخلاقه

صلى الله عليه وسلم

قال أنس رضى الله عنه : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا قال لشيء صنعت لم صنعت ، ولا لشيء تركته لم تركته .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساما ، ضحكا .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى سفر وأمر أصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلقها ، وقال آخر : على طبخها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا يا رسول الله : نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفونى ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه .

تحية المولد النبوى الشريف

رأى البرق مكيا فشبت أضالعهُ وعأوده وهنا ففاضت مدامعهُ
فتى ذكر الاسلام مذ كان ناشئا وأم القرى مصطفىه ومرابعه

* *

تذكر مجد الدين والدين يافع فتيا كنفصل السيف يهتز لامعه
تذكر ميلاد الرسول فهزه لأم القرى وجد وهاجت نوازعه
رسول الهدى والناس في غيب الدجى ومكة مسراه وفيها مطالعه

* *

لقد جاء والدنيا تموج بأهلها من الظلم والحكام فيها صنائعه
فكان على الدنيا سلاما ورحمة وكانت على الأيام ينما طواله
وبدل بؤس الناس نعمى وفقرهم غنى ثم هبت في الأنام شرائعه
ففي الفرس آيات وفي الروم مثلها وفي الشام من بصرى تجلت سواطعه

* *

وفي نشأة المختار أحسن قدوة تسامت بها في العالمين طبائعه
فقد لقبوه بالأمين ولم يكن له فيهمو إلا محب يوادعه
فلما دعا للحق عاداه أهله وأصبح لا يلقى الذي لا ينازعه
كذلك أنوار اليقين إذا بدت تنازعها شارى الضلال وبائعه

* *

وناصبه القوم العداء بقسوة فصابرهم والقلب شتى منازعه

ومن لم يجد بين العشيرة ناصرا
يعاونه نذت عليه مضاجعه
ومن لم يجد من أقرب الناس ساعدا
رأى الحزم أن يسعى الى من يشايه

* *

فهاجر بسم الله تحدوه قوة
من الله يفنى دونها من يقارعه
وسار وجبريل يحوط ركابه
وأجناده فى كل خطو تتابعه
وفى وجهه نور النبوة ساطع
تجلى غيابات الظلام لوامعه

* *

لقد جمع الكفار جيشا عرمرما
وبادرت الاسلام منه طلائعه
فما لبثوا أن أظهر الله دينه
وأخنت عليهم فى الظلام قواطعه
فكانوا حصيدا خامدين أذلة
يضيق بهم رحب البسيط وواسعه
وطه مع الصديق فى الغار رفقة
وقد شيدت حصنا عليه سواجعه

* *

كأنى بكبش القوم يبدى جلادة
وقد دميت من لهفتيه أصابعه
ومن ينصر الرحمن لم يخش كثرة
ولم يرهب الخضم الألد ينازعه
ومن يكن القهار ضلل سعيه
فليس بمجديه لدى الخطب وازعه

* *

لقد كان هذا الشرق مهبط حكمة
على حين كان الغرب قفرا مرابحه
فإن كان فى الغرب الذى ساد أنجم
ففى الشرق بدر بالحجاز مطالعه
وإن كان فى الغرب الرشيد ملاسن
ففى الشرق إعجاز وفيه مصاقعه

* *

عنا الغرب للشرق النبيل وأرهفت
الى حكمة الهادين منا مسامعة
بنا كسب الغرب المعارف حقبة
فنا مزاياه ومنا مصانعة



ألا سيد يجرى على نهج قومه ويهديه من هدى الكتاب روائعه
عسى أن يعود المجد للشرق عودة فيسمو بأهله وتصحو هواجعه !
فيا مولد المختار يا خير مولد لنيل العلا والعز ما الشرق صائعه ؟
سمونا الى الجوزاء باسم محمد ولا يضع المخلوق ما الله رافعه

عبد الرحيم العدوى
من علماء الازهر

من صفاته

صلى الله عليه وسلم

قال هند بن أبى هالة يصف النبي عليه الصلاة والسلام :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئا : فلم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضى طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » .

وقال الجاحظ يصف منطقه صلى الله عليه وسلم :

هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف ، لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق .

محمد رسول الحياة

في مثل هذا اليوم منذ ألف وأربعمائة سنة وسبع سنين تفتحت أبهى زهرة في روض الحياة ، ولمع النجم الثاقب في سماء الوجود ، وأشرقت طلعة محمد صلى الله عليه وسلم تطل على الكون الممتلئ بالمظالم والشرور والشهوات ، لتشرّف على تنظيمه وتنسيقه ، ولتنتشله مما كان فيه من الظلام الدامس الى النور والهداية والعرفان والكمال . واستقبل العالم وجهها جديدا يفيض بسنا النور الإلهي الذي كشف الله تعالى عنه لإضاءة الدنيا وتبصير الناس بسعادتهم وهناءتهم وخيرهم ورفاهتهم ، فاتجه الأنام منذ ذلكم اليوم اتجاها غير الذي كان فيه ، واتخذ سبيلا غير التي كان عليها ، وتطورت نظم الحياة وسنن الشرائع وأوضاع الانسانية ، وجرت عبرها في مدارج الرقي والعظمة الى ما هي عليه الآن ، والى ما يشاء الله لها من بعد . فهذا إذا هو اليوم الخالد ، وهو يوم الحياة . والحياة يا سادة أسمى ما أبرزته العناية الإلهية ، وأنفس ما اشتملت عليه الدنيا من المظاهر ، وأجل ما تراه عين وتمسه يد ويشعر به قلب ، وأعز ما تقوم به الأشياء وما يحتويه الوجود . فيها جمال الجميل ، وجلال الجليل ، وممتعة المتمتع . هي الكون وما في الكون .

فالذي يحس حياة الناس بالخير ويتمهدها بالثقيف ويكنفها بالهداية ويمهد طريقها ويعبدها الى السعادة والرخاء كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم لهو أعظم البشر ، وهو رسول الله الى الحياة .

ولقد تكلم كثير من ذوى الأقلام والعقول في حياة محمد صلى الله عليه وسلم فأحسنوا أو أساءوا على حسب نياتهم واستعدادهم ، وقدرهم وأقدارهم ، في العلم والمعرفة ، وفي الراحة والبعد عن الهوى .

وستظل حياته صلى الله عليه وسلم ينبوعاً فياضاً لكل مفكر وقائل ، وستظل فياحة عطرة أبد الآباد ، لأنها نابعة من الأزل ومنتهية الى الأبد ، وليس للأزل والأبد وما بينهما فناء .

فلتعطر هذه الحياة السامية الوجود وما فيه على ممر السنين والأيام ، ولنستنشق نحن من عيرها المبارك لنتحدث اليكم عن الحياة في نظر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمداً رسول الحياة .

تنشأ الحياة في الجنين لدنة ناعمة لينة يخاف عليها من الأذى ومن أقل الأضرار وأصغر المالبسات ، فيتعهد بها محمد صلى الله عليه وسلم بالعناية الساهرة والرعاية الواعية ، فيطلب الى الأم أن تعني بجنينها ، لأنه أساس الحياة ، والنواة التي تتركز فيها قوة الوجود ، والعماد الذي تركز اليه الانسانية ، ويقول لها في لهجة المشفق الحريص : إذا خفت على الجنين أذى فاتركي كل شيء يؤدي الى هذا ، لا من أمور العادات فقط ، بل من العبادات حتى الصوم ، ولتكن هذه النسمة المودعة محل العناية والتقدير والاعتبار .

وتتطور الحياة طفلاً فيستقبله محمد صلى الله عليه وسلم بالبشر والسرور ، لأن كوكبا من كواكب الوجود استهل ، وزهرة تفتحت عنها الأكام ، وهو يمد الناس - إلا من هدى الله - يفرقون في عطفهم وحنانهم بين الابن والبنت ، فيعيب عليهم هذا الخلق الشائن المزرى ، ويقول لهم ما يقول الله تعالى : « وإذا بُشِّرْ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » ويقرر في صراحة حازمة أن الحياة في حاجة الى الذكر والأنثى على السواء ، وأن العدل بينهما واجب ، كما في الحديث الشريف « اعدلوا بين أولادكم ولو بشق تمرة » بل يسمو الذوق والوجدان التشريعي في العناية بالأولاد الى كل ما يلتصق بهم في التربية حتى الأسماء واختيارها ، فيطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الآباء والأمهات أن يسموا أبناءهم بالأسماء الحسنى ، ويطلب الى الناس أن يدعوه

بأحب الأسماء إليهم، ويجعل للبنات من هذا ما يدل على أنها حتى في نظر الشرع عنوان اللطف والجمال، فيقرر أن خير الأسماء في الذكور ما عبد وما حمد مثل عبد الله ومحمود، وأن خير الأسماء للبنات ما كان لطيفا عفيفا. فلتفرح البنات كما فرح الذكور، وليتعرف الجميع فضل الله على الناس برسول الحياة.

وتشب الحياة وتترعرع، فإذا هي فتاة أوفى، وإذا هي الجسم وقوته، والدم وحرارته والعضل ومتانته، والقلب ومرته، والشباب وجماله، والأيد واحتماله، والمعدة وحميتها، والكبد وطرأتها، والحشايا وسلامتها؛ وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يلف هذا كله في الحكمة البالغة والكلم الجوامع، فيقول: «المؤمن القوى عند الله خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير». فسلام على الرياضة البدنية الشريفة. ونعمتها أنها ينبوع الحياة، وأنها في كفالة محمد صلى الله عليه وسلم يرعاها بشرعه ويكأوها بتقنيته، لأن فيها عظمة الأمم وقوة الأوطان وسلامة الأديان. وما مثل الأجسام الضعيفة إلا كالعظام النخرة هياكل مائلة، ولكن الويل لمن يعتمد عليها أو يركن إليها.

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد يوما فوجد جبلا مشدودا إلى سارية من سواربه وعمود من عمده، فقال: ما هذا الجبل في هذا المكان؟ فقيل له: يا رسول الله إنه لفلاة، وإنها بدينة وتحب الصلاة، فهي تصلى حتى إذا تعبت استندت إلى الجبل فتقوم فتصلي. فرثي الغضب في وجهه عليه الصلاة والسلام، وأمر بفك الجبل، وقال: ليس هكذا! إذا تعبت فلتكف، وإن الله لا يعمل حتى تملوا.

والإسلام الحنيف مملوء بالجمع المتألقة في تشريعه السامي، تعظيما لأغراض البدن، وحاجات الجسم، ومطالب الأعضاء، في حدود الأدب والسمو والشرف. وفي جماع هذا كله يقول صلى الله عليه وسلم: «إن لبدنك عليك حقا».

وها هم أولاء دعاة المدنية الحديثة وأنصار الرق الحاضر: ينادون ملء أفواههم ومبلغ قوتهم وطاقة دعوتهم إلى خدمة الجسم والعناية به، وإلى ترويضه، حتى يكون جلدا

مواتيا، نجدا مسعفا، فهل دروا أنهم بذلك مسبوقون، وأنهم في هذه الغاية تابعون، وأن الفضل لمحمد رسول الحياة؟

والقوة الفكرية هي الغرض الأسمى والمقصد الأتم للإسلام، والسعى وراء ما ينميها ويزيد في سعتها ويزكيها ويمد في مقدار سيطرتها على ذخائر الكون، كل أولاء من وجهة الإسلام في الترتيبية وغرضه في التشريع، دأبا عليها لا بنى، فإنه يشجع العلم ويحث عليه، ويسكفي عليه بالثواب العاجل والنعيم الآجل. ففي الحديث الشريف «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم؛ ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة». وماذا بعد الجنة؟ وماذا غير النعيم المقيم؟

تطالعنا الأخبار العلمية كل يوم يجديد هو آخر ما وصل إليه العلم في خدمة الإنسانية: في نظم المعيشة، وطرائق الاجتماع، وتدير الأسر والبيوتات والممالك؛ وتأخذنا الدهشة إذ نجد هذا جميعه مبثوثا في تضاعيف الشرع الإسلامي، كأنما العلماء لا يبحثون في مكاتيبهم أو معاملهم، وإنما هم يفيثون إلى الإسلام فيدلهم ويعلمهم. ولا غرو فحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن واضعا ولا مقننا من تلقاء نفسه، ولكنه كان متلقيا عن السماء وفي السماء أسرار الحياة.

ومن الناس من ينقبض للحياة ويضيق بها صدره وتلتوى عليه مسالكها، فهو عابث لها، متبرم بها، متزمت عنها، له في الطعام غصص وفي الشراب شرقي، ولا يجدها إلا هكذا تصور، وهكذا تكيف، فهو يحرم نفسه اللذائذ، ويحرم عليها المتاع، ويأخذها بكل شاق مكروه حتى لا تطيقه الحياة؛ وقد يزعم أنه زاهد، وقد يزعم أنه متقشف. ومن الناس غير هذا من يجري في الحياة سهيلا، وينصرف إليها مطلقا، يتلقاها ماجنا ويشربها حلوا وأجنا، له في كل طرف هجوم، وفي كل مدخل ولوج، فهو يقضم من كل طعام، ويكرع من كل شراب، ويستسيغ كل علاقة حتى تغيض عنه الحياة، وقد يزعم أنه مستمتع بالدنيا لعب.

وليس لواحد من هذين أن يدعى أنه قد أصاب الحياة أو نعم بها، وإنما أصاب كل واحد منهما طرفاً وأخطأ معاً الوسط، والخير كله في اللباب .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرسم للحياة أدق طرقها وأسمى غاياتها، ويعلن على رءوس الأَشهاد أن الحياة متعة ولذائذ، وكنوز ونفائس، وبشر وسعادة، ويدعو الناس إلى الاستمتاع من كل ذلكم بأحسن ما فيه، والانتفاع بخير ماله « قل مَنْ حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيباتِ من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة » فهو يريد الناس أن يأكلوا هنيئاً ويشربوا مريئاً، ولا يجمعوا عليهم في الدين من حرج، وليتأثقوا ما بآدمهم إلا إسراف وجانبهم الشطط، وليجمعوا إلى هذه الأناقة في الطعام والشراب أناقة في الهندام والملابس، فالله تعالى يقول : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حسنوا هيئاتكم حتى تكونوا كالإشامة بين الناس » والإشامة يا سادتي علامة الحسن وشارة الوضوء والجمال، فالبيت المسلم حقايق من الأناقة والبداعة، وهو مستقر الحياة ومستودعها، رسم تصميمه وأحكم وضعه رسول الحياة .

والحياة عند محمد صلى الله عليه وسلم جد وعمل، وجلاد وكفاح، ومكابدة للدنيا وما فيها، على رحمة ورفق، وفي تودة وبصر . وهي حقل واسع موفور الخصب سخي الثربة، أشجاره تؤتي زوجاً من الثمرات ونوعين من الجنى عاجلها طيب وآجلها طيب، والناس بعد زرع في هذا الحقل مستثمرون له مستخلصون ما فيه، فالسكيس العاقل المحبوب من استفرغ جهده وتعمد زرعته وتوفر على واجبه، فهو إما عامل لدنياه وإما عامل لآخرته . أما السكع العاقل المضائع الذي يقتل باللهو وقته، ويقتل بحياته بوقته وفراغه، فهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يكره الرجل الفارغ لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته » .

أُمُّ رَأَيْتُمْ هذه الحياة التي كنفها محمد ورعاها وتولاها منذ كانت نواة في ظلمات

الأحشاء ، الى أن صرعت الأرض فاستخرجت كنوزها ، وسخرت الهواء فركبت متونه ، وشقت الماء فجرت عليه في الفلك أو غاصت فيه الى مسارب الحيتان ؟ أليس للإنسان هذه الحياة يتصرف فيها وفق إرادته وطوع هواه ؟ ألا يملكها صاحبها يلبسها إذا شاء ويخلعها إن أراد ؟ .

إن الذي ربى هذه الحياة فرفهها ، وغذاها فأحسن غذاءها ، وكفلها فأوفى كفالتها ، يسمو بها الى مراتب الانسانية العالية ، ويرتفع بها عن الأغراض الشخصية والمصالح الذاتية ، ويقرر في صراحة حاسمة أن الحياة ليست ملكا خالصا لصاحبها ولا نحلة لنفسه ، إنما الحياة للأمة والوطن ، إنما الحياة ملك للحياة ، وأن الانتحار لا يجوز مهما كانت الأسباب وعليه أشد أنواع العذاب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » .

إن للحياة منابع كمنابع النيل لا تخلص الينا مياهها عذبة صافية إلا إذا طهرت تلك المنابع وحرصنا على ولايتها . والمرأة منبع الحياة والكم الذي يتفتح عن زهرها اليانع وثمرها الشهي وجناها الجنى . ولذلك كانت عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بها أعظم وأرقى . فالسلام يعز المرأة ويحلمها ، ويرفها ويدللها ، ويبالغ في إعزازها حتى يجعلها أتمن شيء في الحياة وأنفس ما ترتاح اليه نفس ، حتى المال الذي هو المعيار العالمى للأرض وما عليها . قال صلى الله عليه وسلم : « تبا للذهب تبا للفضة ! قالوا : فماذا تتخذ يا رسول الله ؟ قال : بحسب أحدكم زوجة صالحة تعينه على أمور دينه ودنياه » . وما أسمى أن تكون المرأة خيرا من كل متاع العالم وزخرفته حتى الأبيض البراق والأصفر الزنان ! ولقد وهب لها من الحقوق فأجزل الهبة ، وأعطاهما فأكبر العطاء ، وولاهما حتى مناصب الفتية . ولعل أوفق في أوقات آخر أتحديث فيها اليكم بتوفية وإسهاب عن شئون المرأة المسلمة وما لها في الشرع الاسلامى من سمو المنزلة وموفور الكرامة معالجنا مسائل الزواج

والطلاق والميراث، وبناء الأسرة الاسلامية على أمتن الدعائم وأحسن الأساس . وإنما الذى يعنيننا الآن أن الحياة فيض من المرأة، وأن المرأة كنزها الفاخر، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي وأكبر وأعلى كنز الحياة .

إن كان ناس يحسبون الحياة فترة تمضى وزمانا ينقضى وانتعاشا مؤقتا لقطعة من المادة هى الجسم وأعضاؤه، ثم يكون بعد هذا خمود لا قيامة بعده وركود لا ينتهى، ثم هم بناء على هذا الاعتقاد إما متبرم ساخط لا يجد لها لذة ولا يعرف غرضا يتولاه الفاق ويشغله الاضطراب، وإما طاغية متدبر يتمرد على العالم وما فى العالم من نظم وقوانين ويخرج فتنا كما يجترح الماسم من كل لون لأنه لا يخشى رقيبا ولا يعرف مصيرا، وكلا الصنفين خطر على العالم محيق — إن كان الأمر كذلك فإن محمدا صلى الله عليه وسلم يشرح الحياة على حقيقتها، ويقررها على واقعها، ويثبت أنها حلقة من سلسلة الأبدية تتصل بالماضى قبلها وتفضى الى المستقبل الممتد البعيد بعدها، وأن الفينة التى بينهما إنما هى حالة تطور وانتقال الى عالم أسعد وأجل، كما تحتبى الحشرة فى فيلجها فترة ثم هى تخرج فراشة جميلة ترفرف زاهية بديعة الألوان .

وحينئذ تطمئن القلوب من الخوف على أعز ما تملك أن تبتلعه ظلمات الغناء، ويشعر الناس بالحساب والعاقبة، فلا يفرط أحد فى حق ولا يفرط فى واجب، ومن ثم يعتدل ميزان الحياة بيد محمد رسول الحياة .

لما نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع صلى الله عليه وسلم أهله وعشيرته، وكان مما خطبهم قوله : « والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا » فلا سلام يبين حقيقة الحياة وأنها أبدية لانهاية لها، ويثلب الأفتدة بدوام البقاء، وبحوط الحياة العامة بالحكم الغوالى .

الحياة جسم وفكر . الحياة جد وعمل . الحياة متعة ولذة . الحياة حق الأمة . الحياة

سلسلة الخلود . صلى الله عليه وسلم مدى الحياة !

عبد الفتاح بدوى

مدرس بكلية اللغة العربية

معجزتان علميتان

لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

يكشف عنهما المؤتمر الدولي التاسع عشر في بلجيكا



تكثرت احتفالات المسامين في هذا الشهر المبارك بإحياء ذكرى سيد الانام وخاتم الرسل الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فيتذاكرون فيما بينهم فضل رسول الله عليهم وعلى الناس أجمعين .

أوليس هو الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والناصر الحق بالحق ، والهادي الى صراط الله العزيز الحميد ؟

على أن القصد من تحرير هذا البيان لقراء نور الاسلام أن أذكر لحضراتهم بمناسبة إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف أمر معجزتين من معجزات نبينا قد كشف عنهما المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المسكرات ، وقد عقد في مدينة أنفوس من أعمال المملكة البلجيكية ، وكنت منتدبا من قبل الحكومة المصرية لتمثيلها رسميا فيه في صيف عام ١٩٢٨

فكان من بين البحوث التي أزمع أن يعالجها المؤتمر بثمان لآسقفين عظيمين من رجال الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية . وكان بين المحاضرات المقرر سماعها موضوعات ثلاثة :

الأول بحث مستفيض مقدم من اللجنة العلمية الطبية للمؤتمر ، وخلاصته أن المشاهدات الطبية قد أثبتت عدم فائدة الخمر في تدفئة الأجسام ووقايتها من أثر البرد . والثاني بحث آخر لهذه اللجنة العلمية الطبية ، وموضوعه (جرعة طود) . وجرعة طود هذه شراب من الوسكي المعتق كان يقتنى ويتخذ علاجاً للضعف والفتور .

وكان هناك بحث ثالث مقدم من اللجنة الاجتماعية للمؤتمر ، ومداره (الحرية الصححية

وتحريم الخمر) فأثبت مقرر هذه اللجنة أن تحريم الخمر وإن ترتب عليه منع الناس من أمر يالفونه وشراب يهوونه، لا يعتبر مصادرة للحرية الشخصية، وإنما هو صون لها وللحريات العامة جميعا، فهو هو الحرية الصحيحة بعينها، لأن هذه الحرية لا تكون إلا حيث يصابن لأفراد المجتمع حرياتهم العامة؛ والخمر مجلبة للعدوان وإثارة البغضاء والشقاق، فهي تحمل أصحابها على الاعتداء على حقوق غيرهم بلا سبب سوى أن الخمر بطبيعتها تفقد شاربها مزية التبصر في العواقب.

فلما جاء دور الكلام في الخمر والدين المسيحي، تكلم الأسقفان المسيحيان بما شاء الله أن يتكلم، وقد حاولا في كلامهما أن يدللا على أن المسيحية الحقبة إنما تحرم على أتباعها شرب الخمر، فلم أجد فيما سمعته منهما ما يبعثني على التعليق على قولهما، فأثرت التريث حتى تلقى محاضرات المقررين الطبيين في موضوع الخمر وعدم فائدتها في تحمل البرد، ثم موضوع التداوى بها، فكان مقرر الموضوع الأول كبير أطباء مستشفى فيينا، فذكر أن رجال الطب كانوا على خطأ وشطط عظيمين مذ كانوا يوصون بتعاطي جرعات من المشروبات الكحولية للاستعانة بها على مقاومة البرد لما كان يبدو من تأثيرها الظاهر في تدفئة الجسم عقب تناولها، حتى لا يكاد شاربها يتصبب عرقا من شدة الحرارة إبان البرد، فذكر أن هذا الشعور بالدفء إنما هو شعور كاذب، إذ يعقبه انخفاض في درجة الحرارة في الجسم، فإن التجارب العلمية الحديثة قد أثبتت عكس ذلك.

وبعد الانتهاء من محاضراته فتح باب المناقشة والتعليق على أقواله، فقام رجل فأيده النظرية الطبية التي فصلها المحاضر، ومما ذكره أن جزيرة إيسلندا وهي من أشد البلدان بردا، كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات الروحية، فكثرت بينهم الوفيات إلى حد أقلق بال ولاية أمورهم، فألفوا لجنة لتبحث في الأمر وتتعرف أسبابه، فأثبتت أن كثرة الوفيات في الجزيرة راجع إلى أن القوم يستنفدون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر، فيصعد الدم بتأثير الكحول من داخل الجسم إلى سطح الجلد

فتبيده برودة الجو تدريجاً حتى تأتى على آخره، فتنتهى الحياة بانتهاء الحرارة من الجسم، ومن ثم عرض الأمر على برلمان ايسلندا فقرر الموافقة على سن قانون يقضى بتحريم تعاطي المسكرات على أهل البلاد.

ثم قام بعده مبعوث آخر من بلاد إسوج فتكلم مؤيداً من سبقه قائلاً: إنه يريد لفت أنظار المؤتمر الى ما حدث لأصحاب الرحالة العظيم الدكتور سكوت حين ذهب في منطاد لارتياذ القطب الجنوبي، فقد أدرك سوء تأثير الحر في الأجواء الباردة، فأوصى أصحابه بالألا يشربوا خمرًا لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد.

قال الرجل: فلما صار الدكتور سكوت ورفاقه على مقربة من القطب الجنوبي وشعر أصحابه بأثر البرد الشديد، نسى بعضهم نصيحة صاحبهم فعمد الى زجاجات الوسكى واحتسى منها. قال: فكانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت في مذكراته أن الذين اتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم.

فهنا بدلى أن هذا المؤتمر قد كشف عن معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن قد جاء الأوان لأدل المؤتمرين عليها، فطلبت أن يؤذن لى فى الكلام، ثم قمت وذكّرت أن الضحايا البشرية التى قال الخطباء هنا إن عددها أكثر من أن يحصى بسبب الجهل الذى كان متفشياً فى أوربا قد سلم المسلمون من أمرها ومن تكبد مثلها بسبب اتباعهم أوامر نبيهم، فقد حذرهم من شرب الخمر، وأخبرهم بأنها لا تنفع لمقاومة البرد. قلت: وهما كم المستند التاريخى إثباتاً لما أقول، وهو منقول حرفياً من كتب السنة عندنا، ثم ترجمت لهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك، وهذا نصه:

« عن ديلم الحميرى قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم قلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً، وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا. قال: هل يسكر؟ قلت: نعم. قال: فاجتنبوه. قلت: إن الناس غير تاركيه. قال: فإن لم يتركوه فقاتلوه » رواه أبو داود وصححه.

فكانت دهشة السامعين عظيمة جدا، وقوبلت أقوالى بمصاففة من الهتاف، وجاء الى الكثيرون منهم عقب رفع الجلسة يريدون أن ينقلوا عنى نص الحديث الشريف .
وحدث فى اليوم التالى أن خطب الخطباء فى تبيان أن العلم الحديث أثبت أن جرعة طود أو سواها من الجرعات التى أساسها الخمر لا فائدة منها فى التداوى، وأن فكرة التداوى بالخمر كانت فكرة خاطئة . قال الخطيب : فهناك آلاف الآلاف من المرضى كئنا معشر الأطباء نوصيهم ونصف لهم أنواعا من الخمر تعجىلا لشفائهم، فكئنا فى الواقع نعجل بالقضاء عليهم .

فانهزت هذه الفرصة أيضا لطلب الكلام، فقامت وقلت : وهذه معجزة أخرى لنبي المسلمين صلى الله عليه وسلم، فهو لم يقض فى التجارب الطبية ولا يوما واحدا، بله عشرات السنين التى لا بد من قضائها لمعرفة أثر أى نبات أو شراب أو عقار فى الجسم، وإنما عرف بطريق الوحي والنبوة أن الخمر لا تنفع للتداوى، ونقلت اليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك، وهذا نصه :

« عن طارق الجعفى رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر فنهاه عنها، فقال : إنما أصنعها للدواء . فقال : إنه ليس بدواء ولكنه داء » . رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

قلت : وهذا الإرشاد النبوى جاء به نبينا منذ نيف وألف وثلاثمائة من السنين، قلت : ونحن معشر المسلمين نتمسك بهذا النصح الثمين، حتى أيفضل أحدا أن يقضى نحبه على أن يشرب دواء فيه مسكر حذرا من مخالفة الله ورسوله . وما إن انتهيت من كلامى هذا حتى بدت علائم السرور والاستحسان على وجوه السامعين جميعا، ونقل الكثيرون منهم هذا الحديث عنى .

ومما يذكر أنه كان بين المؤتمرين قسيس كان مبعوث حكومة إيرلندا، فجاء يحيمينى ويشد على يدى، وقال : أراك يا عزيزى قد أفلحت تماما فى توجيه الأنظار نحو دياتك

المحمدية، فأهنتك على هذا النجاح . فتبسمت وقلت : أما أنا فأشكر المؤتمر ورجاله على أن كشفت أبحاثهم عن معجزتين عظيمتين لنبي المسامين . فقال قائل : وهل لنبيكم هذا أقوال مأثورة في شئون الحياة العامة ؟ قلت : وكيف لا وهو لم يدع شأننا من الشئون ولا أمراً من الأمور التي تهتم الناس في سعادتهم في هذه الدنيا وفي الآخرة إلا بينها وفصلها تفصيلاً ؟ فقال : وهل توجد هذه الأقوال في كتاب انجليزى مثلاً ؟ فقلت : أعرف أن الحكومة البريطانية عنيت منذ مدة مديدة بترجمة كتاب (مشكاة المصابيح) الى اللغة الانجليزية، وهو يحتوى على ماشرعه نبينا من الشرائع في مختلف شئون الحياة، وقد اطلعت على نسخة منه فوجدت ترجمته الانجليزية قريبة جداً من الأصل العربى بحيث يصح الاعتماد عليها، فأخذ القوم يكتبون اسم هذا الكتاب ويغفروننى بعبارات التقدير والشكر الكثير .

ثم لما جاء دور الكلام فى موضوع (تحرير الخمر والحرية الشخصية) أثبت المحاضر المقرر لهذا الموضوع خطأ الرأى القديم الذى كان يقول بأن فى تحرير الخمر مصادرة للحرية الشخصية ، ومما قاله فى ذلك : تباً لنا معشر الأوربيين إذ كننا لا نطبق صبرا على من يقول بغير هذا الرأى الفاسد ! ولكننا الآن نرفع الصوت عالياً وننادى فى الخافقين غير مبالين بأنه بعد أن بدا للعيان ما بدا من مساوئ الخمر ومن مآسئها وضحاياها مما لا تقاس به ضحايا الأوبئة والحروب ، يجب منع الناس عن إدمان الخمر ولو بالاجوء فى ذلك الى استعمال الإكراه والقوة .

وبعد أن انتهى الخطيب من كلامه هذا طلبت الإذن فى الكلام للتعليق على ما سمعته فقلت : أيها السادة : لعلمكم والحالة هذه لا تنفرون من الدين الاسلامى إذا علمتم أنه يوجب حد شارب الخمر بجلده ثمانين جلدة، فهذا الدين لم يكتف بتحرير الخمر: شرها وبيعها وصنعها وحملها وتقديمها وأكل ثمنها، بل إنه لم يترك الناس وشأنهم فيها، بل أنزل بشارب الخمر عقوبة بدنية زجراله وصوناً للحرية العامة من أن تكون عرضة لاعتداء مدمنى

الخير . فعلا هتاف المؤتمرين وأبدوا من الاستحسان أشد مما هتفوا واستحسنوا من قبل ، فعدت الى مكاني والبشر والسرور يملأ جوانحي ، والأبصار بحمد الله ترمقني . وحدث قبل رفع جلسات المؤتمر واختتامها أنني دعيت لتناول الشاي والحلوى في منزل بعض وجهاء البلجيكيين فلبيت الدعوة ، وهناك لقيت جمعا كبيرا من مختلف الأجناس ، وقد حضروا ليستزيدوني إيضاها وبيانا عن دين الإسلام وتاريخ صاحب الشريعة المحمدية عليه أفضل الصلاة والسلام ، فذكرت لهم طرفا من ذلك حسبما اتسع له وقتنا المحدود ، وكنت أحرص دائما في قولي على أن أصلي وأسلم على سائر الأنبياء والمرسلين ، وأذكرهم بالتعظيم والتبجيل ، وأقول : إننا معشر المسلمين لا نفرق بين أحد منهم أبدا .

وأقسم لحضرات القراء إنه لو كانت الظروف مواتية ، وكنت أقمت بين ظهراني أولئك القوم عاما أو بعض عام ، لأمكن هداية الكثيرين منهم الى الديانة الاسلامية . فالحمد لله الذي منّ علينا بنعمة الاسلام ، وجعلنا من أتباع هذا الرسول العظيم ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين

احمد غابري

رئيس جمعية منع المسكرات العامة
بالقطر المصري

هدى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » وقال عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر في الدنيا فلم يثب منها حرما في الآخرة فلم يستقها » . وقال : « الحياء من الايمان » وقال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »

النبي محمد

صلى الله عليه وسلم

في مثل هذه الليلة منذ ألف وأربعمائة وستة أعوام قرية أو ألف وثلاثمائة وثلاث وستين سنة شمسية، اهتزت الكرة الأرضية هزة عنيفة، ولكنها ليست مادية كهزة الزلازل والبراكين، وإنما هي حركة معنوية قوية تغلغلت آثارها في أعماق النفوس، واتصلت معانيها بجباب القلوب فجعلتها تحس إحساسا قويا صادقا بأنه قد بزغ الليلة في سماء الوجود الانساني هلال وضاء لا نظير له في عالم الكائنات، وأنه حين يكتمل نوره ويصير بدرا، ستلتهم أقباس أشعته الحادة اللامعة فحة هذا الظلام الدامس الذي شمل الكون وخيم على الوجود.

وقد سمعت الأرواح في تلك الليلة صوتا عاليا ينبعث من عالم المعنويات مناديا : يا رواد العلم والمعرفة، يا طلاب الهدى والرشاد، يا أنصار الرقي والمدنية، يا عشاق الأخلاق والفضيلة، يا هؤلاء جميعا : طيبوا نفوسا، وقرروا عيوننا، فقد تحققت آمالكم، وصحت أحلامكم، ووضعت الأقدار الليلة الحجر الأساسي في بناء معقل أمنيتهكم الجليلة التي طالما فاضت بها النفوس، وجاشت الصدور، ذلك لأن أمانة بنت وهب بن عبد مناف أرملة عبد الله بن عبد المطلب، زعيم قريش وسيدهم، قد قذفت الليلة الى معترك الحياة بطفل خطير سيجتمع له من مكارم الأخلاق وجلائل الصفات ما لو نشر جزء منه على آية الليل لمحاها وأحاله الى ضوء يعشى العيون، ويفرق الحدق والجفون. ستجتمع لهذا الوليد صفات : الصدق والأمانة، والحلم والحياء، والمروءة والسخاء، والشهامة والوفاء، وحسن الخلق ولين الجانب، ورقة الشمائل، وطلاقة المحيا، وقوة العزيمة وصلابة الارادة، وستدين لعظمته العروش، وتغنو لجلاله الصوارج والتيجان. سيجتمع له كل هذا وسر آخر لا أريد أن أبوح به الآن، وإنما كل ما يمكنني أن أقوله

هو أن حياته ستكون آية الآيات ، ومعجزة المعجزات . ولو أن القياصرة والأكاسرة عرفوا أن هذا الطفل الذى ولد الليلة سيكون هو القدر المحكم ، والقضاء المبرم ، على سلطانهم وجبروتهم ، لفتشوا عنه فى كل مكان ، ولبدلوا الغالى والنفيس فى سبيل الحصول عليه ، لكى لا تعدو على ممالكهم العوادي ، ولا تدور على أمبراطورياتهم دوائر الأيام ، ولكن القدر يريد أن يغير وجه الزمان ، وأن يرسل الى هؤلاء الجبارين طوارئ الحداث ، وأن يدير عليهم يدي هذا الوليد رحا الدهر الطحون ، وأن يثير على ضلالتهم عواقي الرياح الزبون ، فشاءت إرادة الله أن تكون مكة محط الرحال ، ومنبت الآمال ، ومنبع الرحيق السلسال ، ومهبط النور والجلال ، ومصرع الجبارين والأقيال .

ألا تدرون لماذا ؟ هذا هو السر الذى لا أريد أن أبوح به الآن . ولو درى عظماء مكة وأبطالها أن وليد الليلة اليتيم الذى لا ناصر له فى الظاهر ولا معين ، ولا ثروة عنده ولا قوة لديه ، سيدعوهم يوما الى ترك تراث آبائهم الأولين ، واعتناق ما أتى به من الحق المبين ، والصراط القويم ، وأنه سيقبم لهم أنصع الحجج وأسطع البراهين على تسفيه أحلامهم باتباعهم خطى أسلافهم الغابرين بلا تفكير مستقل ولا منطق سليم ؛ وأنه سيدعوهم فى رفق ولين الى ما آمن بأنه الحق الذى لا مشاحة فيه ولا مماراة ، فيضيقون ذرعا ، ويتبرمون بما أتى به ، ويسخرون منه ومن أنصاره أول الأمر ، ولكنهم لا يلبثون أن يروا نجمه آخذا فى التألق واللمعان ، وحظه سائرا الى التقدم والرفعة ، فعند ذلك يشعرون بخطورة الأمر وحروجة الموقف ، ويحسون بأن التهمك والسخرية لا يجديانهم نفعا ، فيصممون على عمل حاسم ، فيرسلون اليه من يساومه على مال أو جاه أو سلطان ، فيجيبهم بهذه الآية الجميلة المخيفة : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ » .

فلا يسع هذا المساوم إلا أن يتراجع خوفا وفرقا ، ويصفر ارتجافا وذعرا ، فيذهبون

الى عمه أبى طالب منذرين متوعدين ، فيطلب إليه التخلي عن هذا المذهب الجديد فيجيبه في قوة إرادة وصلابة عزيمة بهذه الجملة الهائلة التي تزن كل مافى العالم من جل وكلمات ، وهى : « والله لو وضعت الشمس في يمينى والقمر في يسارى لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ، فإذا استيأسوا من إقناعه وفشلوا في إرجاعه الى صفوفهم ، أخذوا يدسون له ويكيدون ، وجعلوا عليه يخنقون ، وبه يتآمرون ، فبهجر مسقط رأسه ومستنشق أول أنفاسه ، ليطلب المعونة فى غير هذه البيئـة القاسية ، وليبحث عن قوم أرق قلوبا وأنبل شعورا ، وأصدق إحساسا ، ولا يلبث أن يعثر فى يثرب على ضالته المنشودة ، وغايته المقصودة ، ثم يعود بعد بضعة أعوام الى مكة فيدخلها دخول الفاتح الظافر ، ويستولى عليها استيلاء المنتصر القاهر ، وإذ ذاك يحطم أولئهم ويهشم معبوداتهم التى كانت الى الأمس القريب معظمة ، وينحنى أمامه عظماءهم ومتكبروهم الذين كانوا يرون منذ زمن غير بعيد أنه لا يستحق منهم نظرة ولا لفتة . وسوف لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل سيصبح أبناء أعدائه من أشد الناس إيمانا بما جاء به ، وأكثرهم دفاعا عنه وانتصارا له ، وأن بعض هؤلاء الأبناء سيصيرون خلفاء مبجلين ، والبعض الآخر ملوكا متوجين على الأمبراطورية العربية التى سيخلقها هذا الوليد من عدم ، وينشأها من (اللاشئ) ، ويخضع لها أقاصى الأمم وأداني الشعوب فى الشرق والغرب .

أقول : لو درى أهل مكة كل هذا لاستبدلوا عنفهم بلين ، وقسوتهم برحمة ، وحنقهم بهدوء وارتياح ، وحقدهم بحبة واحترام ، وسخطهم برضا واغتيباط ، ولأجلوه من أعماق نفوسهم ، وعظموه من كل قلوبهم ، ولكنهم لا يدرون ، وسيدعولهم هذا الوليد بقوله : « اللهم اهد قوى فإنهم لا يعلمون » .

أفتدرون لم كل هذا الانقلاب الغريب ؟ إنه نقطة السر التى لا أريد أن أبوح بها الآن ، والتى سيعلم بها بعد أربعين عاما كل سابحة فى الأرض وسائحة فى السماء ، حين

تبلغ شهرة هذا الوليد أقاصى الآفاق ، وتسمو على مسارح الأفلاك ، وتقضى قضاء أخيرا على كل مضالم أفاك .

هكذا كان يقول الصوت الخفى الذى نادى الناس فأسمع منهم الأفتدة والأرواح دون أن تدركه العيون ، أو تتبينه الآذان .

وقد كان كل ما تنبأ به هذا الصوت الخفى ، فدعا محمد الى أرقى الأخلاق وأنبأ الفضائل ، وشرع أصلح القوانين وأخلدها على الدهر ، وأوقفها بأحوال الأمم ، وروج لدين لا أريد أن أصفه بأكثر مما وصفه العلامة مؤلف كتاب (دراسات فى التاريخ الدينى) : « ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشائمة التى تسقط من ضربة واحدة ، لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدره تامة » .

الى أن يقول :

« إنك لو رجعت بالدين الاسلامى الى قواعده الأصلية ومبادئه الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطرى إلا نبوءات محمد وإدراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر ، وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعتبر صفة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم ودقة شعورهم أنهم فى احتياج شديد الى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق وخطة محكمة أكثر مما يعتبر عقيدة من العقائد أو أصلا من أصول الإيمان » ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، فقعدهم العجز ، وشملتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الإخراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب .

وأريد أيضا أن أستعيض لك هنا عن رأيى فى القرآن برأى المسيو « لبون » فيه حتى تثق بأن هذا الرأى مبغته النزاهة والإخلاص ، لا التعصب والعناد ، وهالك جملته : « حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه

لم تستطع أن تجفف — ولو بعض الشيء — من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس .

ولم يكن هذا النبي الجليل داعيا للأخرة وحدها، ولكنه أمر أتباعه أن يأخذوا بنصيحتهم من هذه الحياة ، فكان كما يقول المسيو (بلانشيه) العالم الفرنسى المشهور : « إن النبي محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى : أنه أحيا شعبا ، وأنشأ أمبراطورية ، وأسس ديناً » .

هذا ، وإن طوال الفصول ، بل ضخام المؤلفات لا تتسع لذكر بعض صفات هذا النبي العظيم وما أثره ، غير أننا آثرنا أن نأتى بهذه العجالة الوجيزة ، لنقوم بجزء صغير مما هو فوق عاتقنا من واجب الاعتراف بالجميل لـ الدكتور محمد غمرب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وصيته بالجار

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما حق الجار ؟ إذا استعان بك أغنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن مرض عدته ، وإن مات شيعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه مصيبة عزيتة ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بأذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها » .

وقال : « أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » .

حضارة الدنيا له مدينة

أهلا بيوم مستفيض البشرِ كفرحة الجنة بعد الحشرِ
يوم مبارك ذكىّ النشـر وليلة ضمت ليالىّ القدر
يوم به قد ولد المختارُ فعمت الرحمة والأنوار
واخضرت الربوع والقفار وساد في الخليقة استبشار
ومكة موطن هذا الفخرِ

محمد أنعم به من اسم حلاوة في نطقه والرسم
ما كل من أسمى كهذا يُسمى مطهر في روحه والجسم
والمثل الأعلى لكل طهر

حضارة الدنيا له مدينة مدينة لساكن المدينة
وإننا حين ندين دينه تنزل في قلوبنا السكينة
مثل سفينة رست في البر

فدينه لأهله اطمئنانُ ودينه الرحمة والحنان
والصفح والرافة والغفران والأمن والعزة والإيمان
وأن يعيش المرء حر الفكر

من قبله كانت عبادة الصنم يدنس الشركُ برجسها الحرم
وكان ضيق وعذاب وألم ففخرج الله به كرب الأمم
وجاءها باليسر بعد العسر

يأمر بالعدل وبالأحسان ينهى عن الفحشاء والكفران
يدعو الى عبادة الديان وقلبه بالوحي والقرآن
أنواره تضيء كل قطر

فُفْتُحَتْ مغالق الأبواب وظهرت معالم الصواب
وأقبل للمبعوث بالكتاب من ربه يهdy أولى الأبواب
بحكمات من حكيم الذكر

وخذلت عبادة الأصنام والشرك وسواس من الأوهام
وملة التوحيد فى اعتصام بقوة من خالق الأنام
تكتسح الشرك كموج البحر

من قبله قد كانت الجزيرة ظالمة لنفسها شريرة
فبث فيها روحه الكبيره فهضت عظيمة قديره
غازية مخفوفة بالنصر

وظفرت بالروم بعد الفرس بقوة الدين وطهر النفس
فوق السروج أصبحت وتمسى فاتحة الحصون ذات البأس
من رامها عاد حليف القهر

عاشت فكانت أمة القلوب من مشرق الشمس الى الغروب
قوية فى السلم والحروب رحيمة مغفورة الذنوب
لربها قائمة بالأمر

وغير الأئى وجه الأرض وشاد بين طولها والعرض
منارة من سنة وفرض تبقى دواما والقرون تمضى
مسرعة فى كرها والفر

معلم ولم يزل أميا ومرسل من ربه نبيا
لو شاء كان ملكا قويا وكانت الدنيا له سويا
لكن عند الله حسن الأجر

محمد فرض علينا حبك قد ضمنا في الصالحات قلبك
لسوف يعطيك قترضى ربك شفاعة يفوز فيها شعبك
بالخلد في موقف يوم الحشر

سألت ربى أن يعود العيد والمسلمون كلهم سعيده
وكلهم لربهم جنود تخفق حرة لهم بنود
بنفحة في كل قلب تسرى

يارب بارك مصر في البلاد واجعل جميع الخير في «فؤاد»
واحفظ «ولى العهد» فى إسعاد فإنه رجا أهل الوادى
واعقد على السكل لواء النصر

أبوالوفاء

محمود رمزى نظم

شجاعته

صلى الله عليه وسلم

قال على رضى الله عنه : كننا إذا حمى البأس ، واحمرت الحديق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو اقرب الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

محمد منقذ الانسانية

يتحدث الناس عن القواد والملوك والولاة، ويعجبون بعظم الثروة والجاه، وبذكرون بالثناء من وُفق الى اختراع مفيد في هذه الحياة، ويُطرون الحكيم يبت في قومه آراءه الصائبة وأفكاره القيمة . أفلا نتحدث اليك في هذه العجالة عن منقذ الانسانية ، وهادى البشر الى السعادة الأبدية ؟ أتدرى من هو ذاك ؟ هو مولود ولد في ربيع الأول من عام الفيل ، ذلكم العام الذى وقى الله فيه بيته كيد الكائدين ، وصان رمز العبادة للإله الحق من سوء يراد به ، فكان ذلك إيذاناً بأن ناصر الحق قد أشرف على الظهور كوكبه ، ودنا مطلعاه . وكان ولادته في ربيع ربيع الكون وغوثة المرتقب . ذلكم المولود الذى نتحدث عنه في ميقات مولده ، هو محمد بن عبد الله خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم !

ولعل قائلًا يقول : ماذا أفاد بنو الانسان من تعاليمه التى جاء بها بعد أن بلغ أشده واصطفاه الله لرسالته حتى دعوته منقذ الانسانية ، وهادى البشر الى السعادة الأبدية ؟ فأقول : أليس جديرًا بهذا اللقب أول من قرر المساواة بين الناس أبيضهم وأسودهم ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بحسن العمل ؟

أعلن محمد صلوات الله وسلامه عليه في خطبته ثانى يوم من فتح مكة أن « الناس من آدم وآدم من تراب » . فبين بذلك أن الناس في الانسانية سواسية كأسنان المشط ، ومن قبل كانت الأمم إذا سرق فيهم الشريف أو زنى أكرموه وخففوا عنه العقوبة ، وإذا أتى ذلك الخسيس فيهم لم يحابوه وأوفوه عقابه .

وقال محمد عليه الصلاة والسلام : « والله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقَت لقطعتُ يدها » . وقال : « يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » . وبعض الشعوب المعاصرة لنا

لا تعترف بهذه المساواة، فجعلت الشرقيين لا ينبغي لهم أن يلحقوا الغربيين وأن يدركوا فضلهم لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض !

وكيف لا يكون محمد صلى الله عليه وسلم منقذ الانسانية وقد أبطل التعاضل بالآباء والتفاخر بالأحساب حين قال في خطبته تلك أيضا : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء » ؟ وبهذا يحترم الناس بعضهم بعضا ، ولا يحقر شعب شعبا ولا فرد فردا .

كيف لا يكون منقذ الانسانية وقد أعلن أن الأموال والأفئدة والأعراض مصونة محترمة ، لا يصح لامرئ أن يبغي فيها على غيره ؟ وقد كانت العرب وغيرهم يبغي قلوبهم على ضعيفهم ويسلب ما له ويستبيح حرمة .

ما أكثر بر محمد بالانسانية حين ضرب للناس أعظم مثل عملي للعفو عند القدرة ! فقد تجاوز قريش يوم الفتح بعد أن مكن الله له في الأرض عما أوصلت إليه من أذى وما ألحقت به من ضرر . وكانت قد وضعت القذى على ظهره وهو ساجد لربه ، وحاصرت في الشعب ثلاث سنين ، وقال له قائلهم : « تبال لك لهذا جمعتنا » ؟ وأخرجوه من موطنه بعد أن أزمعوا قتله ، وأغرقت به ثقيف الصبيان في رجوعه من الطائف يقذفونه بالحجارة . قال لهؤلاء الذين لقي منهم كل تلك الإساءات : يا معشر قريش ويا أهل مكة : ما ترون أنني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته : لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

أوليس هادى البشر للسعادة الأبدية من دعا للديموقراطية الصحيحة ، وقرر الحكم الشورى بعمله وكتابه الذى أنزله الله عليه ، وجعله دستورا يتلى للعمل به أبدا ؟ .

فقد استشار أصحابه امثال لا أمر الله له في قوله سبحانه : « وشاورهم في الأمر » ، وأثنى القراءان الذى جاء به على المستشيرين في شئونهم بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » وبذلك قضى على كل حكم استبدادى مطلق .

ثم ألا يكون منقذ الانسانية وقد منع الحكام أن يجعلوا من سلطانهم ومنصبهم أداة لحيازة المل بغير حق؟ فقد روى البخارى ومسلم أن الرسول عليه السلام استعمل ابن اللثيمية على صدقات بنى سليم، فلما جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وحاسبه، قال: هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟ وفى بقية الحديث أنه قام فخطب الناس ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه.

فبئس بئج! ما أجل أن يحمل محمد عليه السلام الحكام على أن يعفوا عما فى أيدي الناس ولو كانوا يدعون هدية. فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء التى لا توافق مسماها! وقد ورد: هدايا العمال سحت.

ماذا نذكر لك أيها القارئ الكريم من بر محمد صلى الله عليه وسلم بالمجتمع؟ هل نذكر لك ترغيبه فى الزواج، وإرشاده لاختيار الزوجة التى تصاح لتكوين الأسرة، ومشاطرة الزوج أعباء الحياة فى تدبير منزلها وتنشئة أطفالها على الأخلاق القويمة، والتى تحفظ غيب زوجها فى نفسها وماله؟ أم نحدثك عن حثه على الاتحاد بقوله: «وكونوا عباد الله إخواناً»؟ أم نحدثك عن ترغيبه فى العمل فى هذه الحياة وضربه المثل العملى للناس فى عمارة الأرض؟ فاسمع شيئاً فى ذلك كى تعرف أن من يرمى دين الاسلام بالحض على الجمل وترك العمل فهو جاهل بالاسلام أو عدوله:

استعاذ الرسول عليه السلام من العجز والكسل قائلاً ما رواه مسلم: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل». وقال ما رواه البخارى وغيره: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». وقال ما رواه البخارى ومسلم فى تفضيل الحرف الصغيرة على السؤال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بجملة حطب فيبيعهما فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». ونوه بفضل الغرس والزرع بقوله فيما رواه البخارى ومسلم

والترمذى : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فياً كل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » . ولما قدم المدينة شرع في بناء مسجده وجعل صلى الله عليه وسلم يبني مع أصحابه وينقل اللبن والحجارة بنفسه ، وجعلوا يرتجزون وهم ينقلون اللبن ويقول بعضهم في رجزه :

لئن قمعدنا والرسول يعمل لَذَاكَ مِنَّا العمل المضمِّل
أَمْ نَحْدُثُكَ عَنْ احْتِرَامِهِ لِلْمَرْأَةِ ، وَإِحْسَانِ مَعَامِلَتِهَا ، وَبَيَانِهِ لِحُقُوقِهَا ، وَحُثِّهِ عَلَى حَسَنِ
مَعَاشَرَتِهَا ، وَإِصْصَائِهِ بِهَا ؟

فقد كان عليه السلام يحسن معاشرة أزواجه . ومكن السيدة عائشة رضى الله عنها من رؤية الأَحَابِيشِ وهم يلعبون وهي متكئة على منكبيه تنظر . وكان يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » . وجعل المرأة حق التصرف في مالها . وبين نصيبها في الميراث . وجعل لها النفقة والكسوة بالمعروف : وكانوا في الجاهلية يضارئون بها بطلاقها الى غير حد ثم يسكنونها كلما قاربت العدة ، فحدد القرآن عدد الطلاق ، ونهى عن مضارة النساء ؛ ونفر الرسول من الطلاق لغير ضرورة بقوله : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » .

وكانوا يرثون الذكور دون الإناث ، فجاء القرآن بحقها في الميراث وقال : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً » . وكانوا يرثون النساء كرهاً ، فإذا مات زوج المرأة ألقى ابنه من غيرها أو أقرب عصبة الزوجة ثوبه عليها فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق ، وإن شاء زوجها بغيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً ، وإن شاء عضلها (منعها من التزوج) لتفتدى منه . فخطم الاسلام الذى جاء به محمد أغلالها ، ومتمعها بحريتها ، حيث قال القرآن الكريم : « يأبى الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن » الى قوله : « وعاشروهن

بالمعروف . وفي الحديث المتفق عليه : « واستوصوا بالنساء خيرا » . وفي خطبته في حجة الوداع : « واستوصوا بالنساء خيرا » أو : « واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » . وجعل للمرأة الحرية في الرضا بمن تزوجه ، فالتيب تستأمر في زواجها ولا بد من إذنهما الصريح ، والبكر يكتفى في معرفة رضاها بسكونها إذا استحييت أن تجيب . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » قالوا يا رسول الله : وكيف إذنهما ؟ قال : « أن تسكت » متفق عليه .

وروى أحمد وأبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن جارية بكرة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباهما زوجها وهي كارهة ، فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعلها المرادة بما أخرجه النسائي عن عائشة : أن فتاة دخلت عليها فقالت : إن أبى زوجنى ببن أخيه يرفع بى خسيسته وأنا كارهة . قالت : اجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأرسل الى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها . فقالت يا رسول الله : قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ؛ والمراد بنفى الأمر عن الآباء نفي التزويج للكرهية ، لأن السياق في ذلك ، لا نفي كل أمر . وهذه بريرة : كانت زوجة مملوكة وزوجها عبد ، فلما أعتقت وصارت حرة خيرها رسول الله فاختارت نفسها ولم ترض ببقائها زوجة للعبد . فقال لها الرسول عليه السلام : إنه زوجك وأبو ولدك . قالت : تأمرنى يا رسول الله ؟ قال : لا ، إنما أنا شافع : لا حاجة لى فيه . فلم يفضب الرسول لعدم قبولها شفاعته ؛ وفي الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها وهي كارهة وكانت ثيباً ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها . فأية حرية هذه التي جعلها محمد للمرأة ؟ وهل بعد هذا يقول قائل : الاسلام لم يحترم المرأة وجعلها كالسبعة ؟ انطقي يا حقائق وأجيبى ! !

أم نحدثك عن ترغيبه في الرفق بالحيوان بقوله في حديث الصحيحين : « في كل كبدة رطبة أجر » وعن الأمر به في قوله : « فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » وعن أمره بإكرام المماليك والخدم في حديث الصحيحين : « إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ؟ »

وهذه قطرة من بحر ، وغيض من فيض إرشاداته السامية وإصلاحاته الجملة لشئون المجتمع . ولوعرفت من أخلاقه وصفاته أنه كان كما ذكر الثقات : أحسن الناس خلقا ، وأصدق الناس لهجة ، وألين الناس عريكة ، وأكرم الناس عشرة : وأسخى الناس كفا ، وأعرف الناس بالله وأخشاهم لله ، وأنه لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها . فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له . لا يتكلم في غير حاجة ، ويعرض عن تكلم بغير جميل ، ويحزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويسكرم كل كريم قوم ويوليهم عليهم . وما ضرب امرأة ولا خادما . يزور ضعفاء المسلمين ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم . وكان من تواضعه في غير مذلة أنه يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، ويعمر بالصبيان فيسلم عليهم ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس .

لو عرفت هذا أيضا ، وهو قل من كثر من شمائله صلى الله عليه وسلم ، لا اعتقدت يقينا لا يعرفه تردد أنه رسول الله حقا ، وأنه منقذ الانسانية وهادى البشر إلى السعادة الأبدية ، وأنه أحق بالتمجيد ، وأولى بالتنويه بشأنه من الحكماء وذوى الاختراعات ، وأن الكون قد سعد بولادته ، وأن دينه سيمظهره الله على الدين كله : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

محمد عبد الله الجزار

أستاذ بالمعهد الدينى بالاسكندرية

روح من الملأ العلى

حُورٌ أَصْبَنَ مِنَ الْفُؤَادِ مَقَانِلًا وَتَرَكْنَ قَلْبَكَ فِي دُمُوعِكَ سَائِلًا
بَلْ ذَكَرِيَّاتٍ حُلُوةٍ قَدْ هَاجَهَا مَرَّ الصَّبَا حَمَلَتْ إِلَيْكَ رَسَائِلًا
فَأَنَارَتْ الشُّوقَ الْكَمِينَ بِأَضْلَعِ طَارَ الرَّقِيبُ بِهَا فَعُدْنَ ثَوَاكِلًا

* *

يَارِجٌ نَجْدٌ إِنْ وَصَلْتَ إِلَى الْحِمَى فَفَقِنِي بِطَيْبَةِ وَالْحِجَازِ رَوَاحِلًا
وَتَرْقُبِي شَمْسَ الْجَلَالَةِ وَالْهَدَى طَابَتْ سَنَا رَأْدَ الضُّحَا وَأَصَائِلًا
طَلَعَتْ عَلَى الْأَيَّامِ فَانْقَشَعَتْ بِهَا سَحَبَ الْجَهَالَةِ وَانْتَضَمْنَ فُضَائِلًا
رُوحٌ مِنَ الْمَلَأِ الْعَلِيِّ تَبَسَّمَتْ فَأَنَارَتْ الْأَفْهَامَ دَهْرًا كَامِلًا

* *

مَنْ مَبْلَغُ الْجَهَالِ أَنْ « مُحَمَّدًا » خَيْرُ الْوَرَى عَفَوْا وَخَيْرُ نَائِلًا ؟
وَلَدْتَ بِمَوْلَدِهِ الْحَيَاةَ نُضِيرَةً قَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا سِوَاهُ مَجَاهِلًا
وَعَدَا بِهِ مُلْكُ الْمُسْكَامِ ثَابِتًا لَوْ لَمْ يَعْلَمْ كَانَتْ مَلَكَا زَائِلًا
رَجُلٌ هُوَ الدُّنْيَا ، وَلِلْآخِرَى بِهِ مَجْدٌ يَرِفُ عَلَى النُّجُومِ مَطَاوِلًا

* *

قَدْ جَاءَ وَالدُّنْيَا ظِلَامٌ حَالِكٌ فَأَحَالَ ظَلَمَتَهَا نَهَارًا حَافِلًا
قَمِ سَائِلُ الْأَعْرَابِ لَمْ تَعْرِفْ حَجَا يَوْمًا وَكَانَتْ لِلضَّلَالِ مَعَاوِلًا
عَبَدُوا الْحَجَارَةَ يَا لِسَقَمِ نَفُوسِهِمْ هَلْ فِي الْحَجَارَةِ مِنْ يَجِيبِ السَّائِلًا ؟
وَأَدَاوُا الْبَنَاتِ وَتِلْكَ خَلَّةُ ظَالِمٍ فَاقُوا بِهَا فَعَلَ الْوَحُوشُ رَذَائِلًا
لَمْ أَلْقَ وَحْشًا عَادِيًا فِي أَهْلِهِ وَرَأَيْتُ رَبْعَهُمْ بِذَلِكَ آهْلًا

* *

ما زال يهديهم لشرعة ربه حتى غدوا للواردين مناها
وغدت بهم تلك الجزيرة روضة وغدوا وهم زهر الرياض شمائل

* *

كم في حياة محمد من آية لو رحت أحصيتها قصمت الكاهلا
هو كالخضم وقد تلاطم موجه لا يرقب الملاح فيه ساحلا
لوراح «كولمب» لكشف محيطه أو رام رؤيته لكان الخاملا

* *

يا ليت لي من فيض أحمد نبعة فأكون منها للفصاحة ناهلا
وأرتل الآيات في تمجيده وأبرز في مدح الغمام الهاسلا

محمد عبد النعم سالم
المدرس بالمدراس الابتدائية

مثل من مكارم أخلاقه

صلى الله عليه وسلم

دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب فارتاع من هيئته ، فقال عليه الصلاة والسلام : خفض عليك ، فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

ولما وفد عليه وفد بنوعامر ، قال أحدهم : أنت سيدنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : السيد الله تبارك وتعالى . فقالوا : أفضلنا وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان .

ووفد وفد للنجاشي فقام النبي صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك ، فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإني أحب أن أكافئهم .

وقال ابن الطفيل : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام ، إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه ، فبسط لها رداءه ، وجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التي أرضعته .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله : مادعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : لبيك .

التعبد في غار حراء

مواضع العبرة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً بحيث لا أرى من السهل على عدها في عجالي هذه، ولقد خبرت منها نقطتين أود الإشارة إليهما إشارة سطحية هي أقرب إلى الإلمام منها إلى الاستقصاء والاستيفاء .

(أولاهما) التعبد في غار حراء . فقد أتيت لي في حجتي في العام الهجري الفارط أن جربت الصعود إلى ذلك الجبل الصاعد في الجو بشموخ وعظمة ، وصعوده رأسي لا التواء فيه ولا عوج .

ففي صبيحة يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ (١٩ مارس سنة ١٩٣٥) أفطرت في سفح الجبل مع كشافة العراق ، وبعد الإفطار شرعنا نرتقي الجبل ، وكان رئيس الكشافة يسير وراءنا حائلاً على عدم التخلف ، فأخذنا نسير ونتعب ، ثم شرعنا نستريح وشرع بعضنا يحس بالإعياء عن متابعة التصعيد في ذلك الجبل الشاهق ، وأعلن كثير منا إفلاسه عن القدرة على الصعود ، وأحسست بالكلل وكدت أستسلم لليأس ، وما كدت أجلس قليلاً حتى أهاب بي هاتف نفسي يقول : ها أنت ذا في الأربعين من عمرك وقد جئت لتشهد أول مكان هبط فيه الوحي على خير خلق الله صلى الله عليه وسلم فعار عليك أن تعود إلى بلادك معلناً إفلاسك . فوقفت وأهبت بفتيان الكشافة : أيها الفتيان عار عليكم أن تستسلموا لليأس ، فهيا بنا نصعد ، وها أنا أكبركم سناً وأصل التصعيد . فلقيت كلمتي آذاناً مصغية من كثير من الفتيان ، ووصلنا إلى الغار وقلوبنا تكاد تقفز من أمكنتها من شدة التعب والنصب ، ولا يكاد الواحد منا يحسن التكلم من شدة ما لقيه من الإعياء والبهَر .

هذا هو مكان العزلة الذي كان يتخيره النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقطع إليه مسافة طويلة من مكة المكرمة ما شيا على قدميه ، وأما نحن فقد ركبنا السيارات

وكنا جماعة كبيرة يحث بعضنا بعضا على متابعة السير ، ومع ذلك لم نبغله إلا بشق النفس وبعد ما تصبب العرق منا فصارت ثيابنا تعصر عصرا من كثرة العرق ، ولقد ثقل وزن طربوشى من كثرة ما امتص من العرق !!

أرأيتُم أيها القراء ، يا من أحببتم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين اختار عزله ؟ فقد اختارها في ذلك المكان الشاهق ، في ذلك المكان الجاف الهواء ، البعيد عن شرور الناس ، وأنفاس الناس ، وآثام الناس .

أرأيتُم كيف كان ذلك العود صلبا ، وكيف كان ذلك القلب قويا ، وكيف كان ذلك العزم حديدا ، وكيف كانت تلك الإرادة مذللة للمصاعب والخطوب ؟ فالغار الذى صعدناه في أكثر من أربعين دقيقة وكادت أنفاسنا تنقطع في صعوده كان مذللا لتلك الإرادة التى تذلل كل الصعاب . ويعلم الله أننا لو لم نستمد العون من الله والتأسى بقوة إرادة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يحفزنا حبه ، لما سهل علينا الوصول الى منتصف الجبل .

فله تلك الارادة وتلك العزيمة وذلك الجلد ! فلولاها لما قامت للعرب قائمة ولما سمع لنا ذكر في العالمين . ولقد كان صحبه صلى الله عليه وسلم يتأسون به . وهذا هو سر انتصارهم وفوزهم وفتحهم البلاد المعصورة في أيامهم .

أردت من سرد ما تقدم أن أقدم لشبابنا قدوة في الجلد الذى تحلى به النبي صلى الله عليه وسلم . فهل لهم أن يعودوا أنفسهم على تحمل أمثال هذه المشاق لتكون لهم ذخيرة في مستقبل أيامهم تنفعهم في حياتهم ، كما كانت سببا في فتح العالم ، وتهذيب النفوس ، وإدراج الخير والبركات على العالمين ، وحمل علم الخلق الطيب والعلم المفيد في تلك الحقبة من الدهر ؟ فقد كانت الهجرة المحمدية حدا فاصلا بين الجبروت والعدل ، والعلم والجهل ، والفساد والصلاح ، وسجلت في تاريخ البشرية أسطع الصفحات الوضاعة بنور الهدى والرحمة والانسانية ، فهى لم تدوخ العالم كما اعتاد بعضهم أن يعبر عن فتوحات رجال

الحروب ، وإنما هدته وعبدت سبيل العلم والخلق القويم ، وعلمت العالم أحسن درس في الرحمة ونكران النفس ، وعلمته كيف يخدم الملك شعبه والحاكم محكوميه .

ولو اتسع لى المجال لبينت شيئاً من كل ذلك من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان يحرم أعز الناس عليه شيئاً من النعيم في سبيل الترفيه على سائر المؤمنين . وأما وصاياه عن الرقيق والمرأة والذميين والعدل مع كل أولئك ، فهي مضرب للمثل للخلق أجمعين .

وإن خير ما نتعلمه الصبر والجلد في تحمل العناء ونكران النفس ، لتعود سيرتنا الأولى من المجد والسؤدد . والله الموفق لما فيه لم شملنا واستعادة عزنا ومجدنا .

محى البرين رضا

بلاؤة وحلمه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئء يواريه إبط بلال .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كسرت رباغيته وشج وجهه يوم أحد ، شق ذلك على أصحابه شديداً وقالوا : لودعوت الله عليهم ! فقال : إني لم أبعث لعانا ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

وقال أنس رضي الله عنه : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال الأعرابي : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعتاء .

ولما رجع من حين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة ، فخطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لتقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً .

خصوصيات خاتم المرسلين^(١)

سادتى الأفاضل : فى هذه الليلة يقوم الخطباء والوصافون بذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تقدمه وما صحبه من الإرهاصات ، ويسهبون فى هذا السبيل إسهابا شديدا ، ويطنبون إطنابا عظيما ، ويذكرون ما ثبت وما لم يثبت ، ولا يرسمون لأنفسهم حدا ينتهون اليه أو غاية يقفون عندها . وإنى فى موقفى هذا أرانى قد أتيت على الغاية الصحيحة من ذلك فى مواقى التى وقفها فى مثل هذه الليلة من السنوات الخوالى . وأريد فى هذه الليلة أن أقدم لحضراتكم لونا آخر يتعلق بناحية من نواحي عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باذلاً الوسع فى تصوير تلك الناحية من نواحيه ، متوخيا الحق الذى يؤيده الواقع ويدعمه البرهان . والله ولى التوفيق :

١ — إن الحق سبحانه وتعالى قد قص علينا طرفا صالحا مما أفاضه جل جلاله على عبده ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم : من العظمة وفاضل الأخلق وجميل السجايا وكريم الشيم ، لم يذكر أنه منحه أحدا من خلقه ، تفضلا منه وإحسانا وتعظيما لأمره وتنويعا بقدره ، قال تعالى فى آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . فقله تعالى : من أنفسكم (بضم الفاء) أى يعرفونه ويتحققون مكانته ويعلمون صدقه وأمانته ، فهو ليس موضعا للاتهام بالكذب أو بالتقصير فى بذل النصيحة لهم . وقد قالوا : إنه لم يكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ولادة أو قرابة . وقد قرئ من أنفسكم (بفتح الفاء) والمعنى عليه من خيركم . وهذا نهاية المدح ، وغاية فى التنويه بقدره لا تدرك .

٢ — ثم وصفه بعد ذلك بأوصاف بارعة بقوله : « عزيز عليه ما عنتم » أى شديد

(١) هذه خطبة ألقاها فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بدار جمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية

فى ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم .

عليه أن تقموا في عنت أو تصيبكم مشقة ، أو يمسمكم ضيق أو عقاب من مقارفة معصية . « حريص عليكم » أى على هدايتكم ورشدكم وفلاحكم بدخولكم في دين الله الحق وهو الاسلام ، وهو دين الله في كل الأمم ، وعليه وبه أرسل جميع أنبيائه ورسله ، كما قال جل شأنه : « إن الدين عند الله الاسلام » . وقد منحه الله تعالى اسمين من أسمائه أوصفتين جليلتين من صفاته ، وذلك في قوله : « بالؤمنين رؤوف رحيم » . فقد كان صلى الله عليه وسلم في أمته كالراعى الرفيق في رعيته : يرد الضال ، ويحبر المهيض ، ويعصب الكسير ، ويداوى الجريح ، ويرشدها الى جيد المراعى .

قال جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين : علم الله عجز خلقه عن طاعته فعرّفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته ، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة ، وألبسه من نعمته الرأفة والرحمة ، وأخرجه الى الخلق سفيرا صادقا ، وجعل طاعته طاعته وموافقته موافقته ، فقال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . ٣ — قال الله تعالى في سورة الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فهذه الآية في أن رسالته عليه السلام رحمة للإنس والجن والملائكة . أما الإنس والجن فبهداية من اهتدى منهم ، حتى إن رسالته تعتبر لمن وافقه أو خالفه ، فهي رحمة للمؤمنين بالهداية ، وللمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون خلافه بنجاتهم من القتل والقتال ، ورحمة للكفار بتأخير عقابهم في الدنيا الى اليوم الآخر . وقد كانت أمم الأنبياء متى جاءتهم الرسل بآيات الله تعالى يخالفوا حلّ بهم العقاب وعجل لهم الجزاء في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

وأما المخالفون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخر أمر حسابهم الى القيامة ، فبمئته رحمة لهم لأن في تأخير عقابهم مهلة يتذكر فيها من يتذكر .

وأما الملائكة فقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل : هل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم : كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل على بقوله في سورة التكوير : « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » .

٤ — إن الله تعالى جعل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا ، ولم يقل الله تعالى ذلك لنبي قبله ، فقال في سورة المائدة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام » وقال تعالى في سورة الأحزاب : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » .

ويقول عنه أشعيا : « أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمى لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة » . وهذا كما قال تعالى في كتابه الكريم في أول سورة إبراهيم : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

٥ — من أسمائه تعالى الحق المبين ، وقد سمي نبيه عليه الصلاة والسلام الحق وسماه المبين بقوله : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » وقوله : « قل إني أنا النذير المبين » وقوله : « قل يأيتها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » وقوله : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم » . قد فسر العلماء الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفسروا المبين كذلك برسول الله . ومعنى كونه الحق : أى الرسول الثابت الرسالة ، أو ذو الحق . والمبين أى الثابت أمره الظاهر شأنه ، أو المبين عن الله ما أنزل إليه كما قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

٦ — من أسمائه تعالى العليم وعلام الغيوب ، وقد منح رسوله قسطا من علمه برع به كل ذى علم ، فقد قال تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وقال تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . وقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

فانظر الى عظيم لطف الله بنبيه وبأفاده من العلم وهو أى لا يقرأ ولا يكتب ما أهله لأن يتلو عليهم آيات الله تعالى ، ويطهرهم من أوضار الشرك وآثام

الجاهلية التي كانوا غارقين فيها، ويعلمهم الكتاب والحكمة وقد كانوا قبل ذلك في ضلال ظاهر لا يمتري فيه أحد. وهذا منه جل وعلا تفضل وإحسان إلى رسوله وإلى المؤمنين، وتنويه بقدر الرسول دونه كل تنويه.

٧ — من أسمائه تعالى العزيز، ومعناه الممتنع الغالب والذي لا نظير له، أو المعز لغيره، وقد قال تعالى: «إن الله عزيز ذو انتقام». وقد نوه الله تعالى بقدر رسوله وأعظم محله وأجله إجلالا كبيرا إذ أفاض الله تعالى عليه وعلى المؤمنين من عزته فقال: «يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعرض منها الأذل» ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

٨ — وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه مبشر فقال: «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم» وقال: «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين» وقال: «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى». وقد أعلى الله ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم إذ جعله مبشرا في قوله تعالى: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا».

٩ — من أسمائه تعالى الولي والمولى، قال تعالى: «فالله هو الولي» وقال: «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم». وأشاد الله بذكر نبيه صلى الله عليه وسلم إذ أفاض عليه وعلى أمته من صفته وسماء باسمه إذ قال: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا».

١٠ — وهذه نكتة قل من تنبه إليها: ذلك أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه غضبان أسفا، لما زاغ قومه عن طريق الحق واتخذوا من حلهم عجلا جسدا له خوار يعبدونه من دون الله، ولما وعظهم هارون وقال لهم: «يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى» وأجابوه بقولهم: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» وأخبرهم موسى أن توبتهم في أن يقتل بعضهم بعضا ففعلوا وتاب الله عليهم، ذهب فريق منهم كانوا سبعين اختارهم موسى لميقات ربه ليعلموا توبتهم لله من

ذلك الذنب، ولكنهم لما جاءوا الى الموعد عند جبل الطور وسمعوا موسى وهو يسمع من الله ويخاطبهم، عاودهم تمردهم وسوء طاعتهم، وقالوا لموسى: ان تؤمن حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم الى بعض وهم يتهاونون على الأرض موتى، فسأل موسى ربه أن يحييهم، وكان فيما قاله لربه: «ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين». ثم استمر في الدعاء لقومه فقال: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هُذنا إليك». فكان من مراجعة ربه له أن قال له: «عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء، فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون». ثم وصف له الأمة التى سيكتب الله لها رحمته التى وسعت كل شىء بقوله: «الذين يتبعون الرسول النبى الأُمّى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون».

فأنتم ترون أن الله تعالى كان يباهى موسى وأُمته بالنبى صلى الله عليه وسلم وأُمته قبل أن يوجد بنحو أنى سنة، ووصفهم بأنهم يؤمنون بآيانه، أى لا يتعنتون تعنت بنى إسرائيل الذين مع موسى ولم يرضوا بالإيمان إلا بعد أن يروا الله جهرة.

١١ - إن الله تعالى شرح صدره أى وسعه لوعى العلم وتلقى الوحي، ووضع عنه وزره، أى ما كان فى أيام الجاهلية من آصار، وما كان يجد من ثقل أيام الجاهلية من رؤيته غير الله يعبد، فبالنبوة وضع عنه ذلك الحمل الثقيل، ورفع الله له ذكره، فلا يذكر الله تعالى فى أذان أو صلاة إلا ذكر محمد عبده ورسوله. وكفى بذلك تنويعا بقدره وإعظاما لشأنه مما لم يعطه نبى من الأنبياء. اقرءوا: «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك»

١٢ - إن الله تعالى جعل إقامته بين أعدائه وقاية لهم من إحلال سخطه بهم وإنزال النعمة عليهم، قال تعالى في سورة الأنفال: « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »

١٣ - إن الله تعالى ما كان يخاطبه ويناديه إلا بألفاظ فيها إعظام لشأنه وإجلال لقدره، كقوله في سورة الأحزاب: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » وفي سورة المزمل: « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » وفي سورة المدثر: « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ » وفي سورة المائدة: « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ». وكان الله ينادى رسله وأنبياءه بأسمائهم، فقال في سورة هود: « يَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » وفي سورة الصافات: « يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وفي سورة يوسف: « يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ». وقال في سورة هود: « يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » « يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا » وقال في سورة البقرة: « يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » وقال في سورة مريم: « يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ » وفيها أيضا: « يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ » وقال في سورة المائدة: « يَا عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ».

١٤ - إن الله قد أقسم به في كتابه الكريم ولم يقسم بأحد من أنبيائه بقوله في سورة الحجر: « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »

فهذا كله من التنويه بقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعظام شأنه وإجلال محله لم يتله أحد من الأنبياء، أكرمهم الله به. فهذا الذي قلته طرف صغير مما أفاضه الله على رسوله من الإِعْظَامِ والإِجْلَالِ، استحق به أن يكون خاتم النبيين وإمامهم، وإن كان قد جاء آخرهم، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة تليق بجنازه الشريف وقدره المنيف. والله تعالى نسأل أن يوجه نياتنا إلى الخير، ويلحقنا بالسابقين من أمته، ويدخلنا في شفاعته. إنه سميع مجيب. آمين

عبد الوهاب النجار

العالم في واحد

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

تقوم في العالم الانساني ذكريات كثيرة لرجالات يرى الناس أنهم مدينون لهم بعقيدة دينية، أو بقاعدة فلسفية، أو بحقيقة علمية، أو بخطة سياسية، أو برابطة اجتماعية، أو بإصلاح في مذهب، أو بتجديد في أمر من الأمور. وقُلَّ أن تجد رجلا واحدا منهم جمع بين شأنيين أو ثلاثة من هذه الشئون الانسانية، إلا محمدا صلى الله عليه وسلم، فقد جمع بينها جميعا، فهو مؤسس الديانة العامة التي تسع الخلق كافة، ومقوم الحكمة، وواضع أكل أساليب العلم، وأعدل طرق السياسة، وأرق ربط الاجتماع، ومصلح جميع المذاهب، ومجدد كل الأمور التي تهتم الانسانية. فالأمة التي تحتفل بذكرى ميلاده اليوم مدينة له بوجودها، وبعقيدها، وفلسفتها، وعلمها، وسياستها، وروابطها، ومذاهبها، وكل أمر من أمورها. وعشر معشار هذه المزايا كلها في الأمم السابقة كانت تحملها على تأليه مصاحبيها، ولكن لم يفت محمدا هذه النزعة البشرية، فاحتاط لها أيما احتياط بأقواله وأعماله، حتى حمى أمته من أن تلتاث بهذه الخرافة، فكان ذلك مما يضاف الى مناقبه، ويزاد على مآثره، ويستنزل التعجب من بعد نظره، وثقوب فكره.

كان بعض من أرسل محمد اليهم يطلبون اليه أن يحدث لهم الآيات، وقد غاب عنهم أنه هو نفسه أكبر آية لله في خلقه، فكل آية بعده قليلة الخطر، تخفى في جانبه كما تخفى الكواكب بجانب القمر.

لقد عاشت على سطح الأرض أمم، ونبغ فيها رجال من كل صنف، وحُفظت عنهم ذكريات لا تزال الأمم تعترف بحقهم عليها، فهل تصادف واحدا منهم يمكن أن توازن مناقبه مناقب محمد، أو تقارن أعماله بأعماله؟ اللهم لا، ولا كرامة؛

لندع الأنبياء والمرسلين، فقد أمرنا أن نؤمن بهم، وأن لا نفرق بينهم، وهات لى المصلحين المقدمين، والعباقرة المعدودين، ممن سبقوا محمداً وأتوا بعده الى يومنا هذا . واعرض أمثلهم طريقة، وأبعدهم صيتاً، ووازن بين عمله وعمل خاتم النبيين لتدرك أنك لا تستطيع الى ذلك سبيلاً . وهل يوازن الدرهم بالقنطار، أو الجدول بالبحر ؟

استعرض أولاً كبار الفلاسفة والمشرعين عند اليونانيين الأقدمين، واختار من انتهت اليهما الحكمة والزعامة منهم: أفلاطون وأرسطو، فأنا لا أريد أن أذكر لك سقوط فلسفتيهما، وأنهما أصبحتا من قبيل الأمور الأثرية في تاريخ العقلية الانسانية، ولكنى أريد أن أذكرك بأن هذين العبقرين كانا يقرران في شريعتيهما أن العمال والصناع والموالى يجب أن يحرروا من الحقوق المدنية، لا نحطاط ما يمارسونه من الأعمال اليدوية . فقارن بين هذا الأصل المبني على قاعدة بعيدة القرار في الإجحاف، وبين الديمقراطية الاسلامية التي جعلت التمايز بالمزايا لا بالمال ولا بطبيعة الأعمال، وساوت بين السكافة في الحقوق بصرف النظر عن الألوان والأجناس واللغات، حتى ارتفع تحت ظلها الى منصات الزعامة العميد السود وأصحاب المهن من كل صنف، ومن كانوا لا يملكون بيت ليلة: « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » الحديث .

وهات من العباقرة القرييين منا ديكارت، فلا أود أن أحدثك عما صادفته فلسفته من النقد، وما أصابها من السقوط، ولكنى أذكر لك من مقرراته أنه كان يعد الحيوان آلة محضة، مقودا بالفطرة الطبيعية، وأنه مجرد من كل تعقل وإدراك . قابل هذا بما ورد في الاسلام عن الحيوان، قال الله تعالى: « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون . » وفي الحديث الشريف: « عاتبوا الخليل فإنها تعتب » . فأين الحكم بأنها آلات لا تعقل

من الحكم بأنها أم أمثال الأمم الإنسانية ، وأن لها عقلا تعقل به العتاب وتتجنب بسببه ما أوجبه ؟

وأما ما بقي قائما الى اليوم من مذهب ديكارت ، وهو تقديم الشك أمام كل بحث ، فقد سبقه الاسلام اليه ، فإنه حرم التقليد وحث على البحث وتعقل الأمور ، وجعل عمادها الدليل ، وهذا كله لا يمكن أن يكون إلا بتقديم الشك قبل الحكم على شيء . ومن العبارة المحدثين (سيكون) واضع الأسلوب العلمى ، فقد اشتهر بتفرقته بين ما هو علم وما هو رأى ، وقرر بأن المعلوم لا يجوز رفعه الى درجة العلم الحق إلا إذا قام عليه دليل محسوس ، وما عدا ذلك فهو رأى ، والرأى يُتمسك به حتى يقوم الدليل المحسوس على صحته فيضاف الى المقررات ، أو على فسادهِ فيقذف به الى عالم الآوهام والظنون . وقد سبقه الاسلام الى وضع هذا الأسلوب العلمى : فقرر أولاً أن أكثر ما عليه الناس أكاذيب وظنون ، فقال تعالى : « وإن تُطعْ أكثرَ مَنْ فى الأرض يُضِلُّوكَ عن سبيل الله ، إن يتَّبِعُونَ إلا الظن وإن هم إلا يَخْرُصُونَ » وقال تعالى : « وما يتَّبِعْ أكثرهم إلا ظننا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . فكل ظن لا يسمى فى الاسلام علما ، لأن العلم فى اصطلاحه هو ما يكون دليله الحس أو ما تتصل مقدماته بالحس . ومن كبار المجددين فى العهد الحديث (أجوست كومت) مؤسس الفلسفة الوضعية ، وواضع علم الاجتماع . فأما الفلسفة الوضعية فقد سبقه الى أصولها علماء كثيرون تقدموه من أول أرسطو الى (سيكون) فليس له فيها من فضل إلا صلبها فى قالب مذهب . وأما علم الاجتماع فكسابقه أيضا درس موضوعاته علماء كثيرون وكان من أمثلهم ابن خلدون من مؤرخى المسلمين فى القرن السابع الهجرى حتى عد أنه واضع لهذا العلم . ولكن الواضع الأول لعلم الاجتماع البشرى الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه . وهذا العلم يقوم على أساس أن جميع الحوادث البشرية تابعة

لنواميس طبيعية مقررة لا تتخلف . وقد سبق الكتاب الكريم الناس كافة الى تقرير هذا الأساس الذي بنى عليه علم الاجتماع ، فقال تعالى : « سَنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِّن رَّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسِنَّتِنَا تَحْوِيلًا » وقال تعالى : « فَمَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »

وقد عيب على (أجوست كومت) وضعه حدا لما يمكن أن يصل اليه الانسان من المعارف الكونية، وعدم مما لا يستطيع الانسان أن يبلغه إدراك نوع المادة التي تتألف منها الكواكب ، فلم يعض على وفاته خمس سنين حتى اخترعت آلة السبكتروسكوت وهي آلة تحليل الأشعة التي تصل اليها من الأجسام المختلفة ، والاستدلال بها على المواد التي تنعكس علينا تلك الأشعة منها ، وبتطبيقها على الأشعة التي تصل اليها من الكواكب عرف أنها مؤلفة من مواد لا تختلف في شيء عن المواد الأرضية ، ففيها حديد ونحاس وقصدير الخ الخ ، فكان في هذا الاكتشاف دحض للأصل الذي وضعه (أجوست كومت) . ولكن الاسلام لم يضع للمعلومات التي قد يكشفها الله للانسان حدا ، فإذا سئل مسلم عما يمكن أن يتأدى الى علم الانسان وما لا يمكن ، لم يستطع أن يضع لذلك حدا لقوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » .

هذا قصور أكبر العباقرة حيال التعاليم غير المحدودة التي أفيضت على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، نسوق مقتضياته على سبيل المثال لا الحصر ، إذ لو عنيينا بالأمم الثاني لما كفانا فيه مجلد ضخم .

ومن ناحية أخرى لو نظرنا الى الذكريات التي يحتفل بها لتجديد كبار العقول وأصحاب العبقريات ، لو وجدناها نشرًا لصفحات مطوية من التاريخ ، لا دخل لها في الحياة الراهنة . فهم أصحاب آراء ومذاهب اعتبرت في زمانها طريفة ، وكانت مقدمة لآراء ومذاهب أرجح منها ، فعاشت هذه وذابت تلك ، فينوء بالآولى وبأصحابها باعتبار أنهم أول من أتى ببادئها أو بمقدماتها ، لا على أنها حقائق مطلقة تبقى على الدهر ولا يلبسها الزمان .

فمحمد هو الانسان الوحيد الذى يحتفل بذكراه على أن ما جاء به حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن تعاليمه هى الروح المدبر الذى يجب أن يقود حركات الجماعات البشرية ، ويكيف كيائها على النحو الذى كان يدعو اليه ويقرره . فإن فى الأرض أربعمائة مليون مسلم يرون حياتهم فى العود الى حظيرة التعاليم المحمدية ، وليس فى العالم أمة ترى مثل هذا الرأى فى مصلاح بينها وبينه أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد الناس أن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليمه بغير تعديل ولا تنقيح ، ويرون أنها بالغة أقصى درجات الكمال الى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قيمتها ، ويطمس من لآئها . وهذه مكانة لم تسم اليها أية تعاليم فى الأرض . فكل فيلسوف أو مصلاح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به ، ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشا فيه ، مما يجعل تعاليمه تستدعى الاصلاح والتهديب الى حدود بعيدة . لهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الاصلاحية ، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة ، وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل اليه الكافة من الثقافة العلمية ، إلا التعاليم المحمدية ، فإنها لا تزال جديدة كأنها صيغت فى هذا العصر ، بل يرى فيها ما لم تنضج العقول للعمل به ، وإن كانت تدرك أنه سام السموكله . فمن الأمم المتمدنة اليوم تستطيع أن تسوى بين الأبيض والأسود ، وبين المواطن الصميم والأجنبي الأعجم ، وأن تبتعد عن العدوان فى الحرب على غير المحاربين ، وأنت تراها تعد العدد لا هلاك النساء والولدان والمهرمى والمرضى بالغازات السامة ؟ إن كنت تعجب من الفرق بين هذين المذهبين فأزيدك عجبا فى هذا الوطن بأن الاسلام يحرم على الغزاة أن يقتلوا خدمة أعدائهم فى ساحة الوغى . أترى أبعد من هذا مدى فى احترام الحياة الانسانية ، وأرقى مذهبا فى حصر نار الحرب فى أضيق الحدود حتى لا ينقلب الأمر الى جاهلية جهلاء ، تُنكر فيها المبادئ الأدبية ، وتهدر الكرامة البشرية ؟

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يرى أجنب عن هذا الدين في القرن العشرين، وهم من الرجال الآخذين بأوفي حظ من العلوم الاجتماعية، أن العالم كله لا ينتعش من كبوته إلا إذا أخذ بتعاليم الديانة الإسلامية، وأنه لا بد منته إلى هذه النتيجة في نحو قرنين من الزمان. قال بذلك كثير، منهم برناردشو الفيلسوف الانجليزي، وقد دوناه في مقالة سابقة هنا. فهل رأيت في كل ما رأيت مثل هذه الخصوصية لواحد من أصحاب المذاهب الإصلاحية؟

هذا عجيب كل العجب، وأعجب منه أن يوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو في صحراوات بلاد العرب بأن التعاليم التي جاء بها ستزداد ظهوراً على مر الأجيال، بتسوي إلى الآيات الدالة على صلاحيتها لكل زمان ومكان، وعلى بلوغها أقصى غايات السكال، فقال تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»؟

أو ليس من العجب العاجب أن يطلب طالب بعد هذه الآيات البينات كلها دليلاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأى دليل يبلغ في القوة والإقناع مبلغ هذا الدليل؟ رجل نهض في بقعة قاصية من الأرض لا عهد لأهلها بإصلاح اجتماعي، ولا بكتاب سماوي، فأخذ يدعوهم إلى دين وصفه بأنه دين الانسانية كلها، قائلاً إنه يوحى إليه كتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه خاتم الأنبياء وما جاء به آخر ما يتفضل به الله على الناس من الوحي. فاستهزأ به قومه وسخروا منه فلم يرفع باستهزائهم رأساً، فاشتدوا عليه واضطهدوه فلم يقم لاضطهادهم وزناً، فهددوه بالقتل فلم تلن له قناة، ولم تنثن لهم صريمة، واتبعه نفر من قومه فلقوا من مما لآتهم له ما يلقي أهل الحق من شيعة الباطل، ثم هاجر إلى قوم آخرين وهاجر معه من آمن به، فتألب عليه خصومه واستثاروا معهم من استثاروه من أحلافهم، وتقصدوا القضاء عليه وعلى من معه دفعات متوالية: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»، فنصره الله عليهم،

ثم ما هي إلا سنون معدودة حتى عمت دعوته جزيرة العرب كلها، فلم يستهوه التفرد بالسلطان، ولم تستغوه فواتن الملك الى أن يغير من بساطته، وطرز معيشته، واستمر داعيا العالم كله الى دينه، مبشرا قومه بأن الله سيعطيهم خلافة الأرض، وزعامة الأمم، ماداموا عاملين بكتاب الله وسنته: « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ». فاهي إلا سنون معدودة حتى تحقق هذا الوعد، وإذا بالعرب الذين كانوا بالأمس مضرب المثل في الجاهلية والفرقة قد أصبحوا للعالم سادة، ولشعوبه وأئمة قادة، فنظر الناس الى الدين الذي أبلغ أهله هذه المرتبة فإذا به مطمأن النفوس، وسكن الأرواح، وبلسم القلوب، ونور العقول، فدخلوا فيه أفواجا أفواجا، بل ملايين ملايين، فلم يمس عليه جيل واحد حتى كان المؤذن في مسجد المدينة يقول: حي على الفلاح، فيتابعه زميله عند أسوار الصين بمثلها.

ثم تهادى الزمان، وتطاولت الأيام، وإذا بالأمم الإسلامية التي بليت بالفقر أجيالا، تهب مذعورة على أبواب المدينة الأوربية وطبولها، ففتحت أعينها فإذا هي حيال علوم عالية، وفلسفات مغرية، وآلات محيرة، ومخترعات مدهشة، فوجت برهة، ثم أخذت تلقى بنظرها على ما تركته وراء ظهرها من تراث الآباء، فإذا ما حيرها الساعة وأضاع رشدها، وليد ما خلفه أولئك الآباء وثمره جهودهم، فإن زيد عليه شيء فما اقتضاه الفرق بين العصرين، والتباين بين العهدين، فأصبحت لديهم العقيدة التي كادت تنزعزع، يقينا لا يعتريه شك، في أن الفتور الذي كانوا فيه هو نتيجة لتعاميهم عن التعاليم التي أورثوها، فأقبلوا عليها أيما إقبال، ورأوا نجاتهم في العود إليها على كل حال. وشجعهم الأجانب عنهم على هذه العقيدة بما كتبوه من تاريخ أسلافهم، وما تبينوه من دراسة دياتهم.

أريد الطالب دليلاً أسطع من هذا على النبوة ؟
 ألا سقيماً وزعياً لكارلايل المؤرخ الفيلسوف الانجليزي الكبير ، لقد قال في كتابه
 الأبطال وديانة الأبطال : « أريد دليلاً ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبني لك
 داراً تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قروناً طويلة ، لا يعتريها تصدع ،
 ولا يعتورها أقل تداع ؟ كذلك هل يطلب طالب الى مدعى النبوة دليلاً أقوى
 من أن ينشر ديناً بين ملايين من البشر يستمرون عليه قروناً طويلة ويتحمسون له
 تحمساً كبيراً ؟ فمحمد قال بأنه رسول من عند الله وبرهن على صدق قوله بدين نشره
 في الناس أخذ به مئتان من الملايين ومضى عليهم فيه اثنا عشر قرناً ، وهم يحبون دينهم
 هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فإذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟
 » ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنك نوت ، فالحقيقة منها تتداول بين
 الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تتخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح
 أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق . انتهى
 هذا حق ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين محمد فريز ومبرى

جودة

صلى الله عليه وسلم

قال ابن عباس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله أجود بالخير من الرياح المرسله .

وقال سيدنا على رضى الله عنه فيما يصف النبي صلى الله عليه وسلم : كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

محمد النبي العربي

خاتم المرسلين ، ورسول الله للناس أجمعين

قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . وقال عز وجل : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

إن الكمال المحمدي أوسع من أن تحيط به عبارة بليغ ، وما من وصف كمال يجدر بالإنسان إلا وقد أحرز منه صلى الله عليه وسلم القسط الأوفر ، مع استعداده لجماليات لا يحيط بها الحصر .

وإننا نحاول في كلمتنا هذه أن نعرض لشأن من شئونه صلى الله عليه وسلم من ناحية نسبه الشريف على وجه الإجمال ، وحكمة اختيار الشعب العربي لأن يصطفى من خياره رسول الله للناس أجمعين ، ومن ثم ختمت الرسالة ، واكتملت على يده الشريعة العامة .

وإننا نرى مناسبة عظيمة بين عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وكونه خاتم النبيين ، وبين اختياره من الشعب العربي ، سنتلونها عليك مستمدين من الله التوفيق :

إن دعاوى كلما كانت خطيرة الشأن ملازمة للغير بواجب من الواجبات ، لا يمكن الاعتداد بها ولا التفات إليها ما لم تقم عليها الحجج والبيانات . وإن أعظم دعوى تحتاج إلى أقوم برهان وأكمله ، هي دعوى النبوة والرسالة إلى الخلق عن رب العالمين .

نظريّة لا يشك فيها عاقل ، ولم تتخلف في دعوى نبوة صادقة ؛ فما من نبي أرسل من ربه إلى قوم إلا كان معه من البيانات والبراهين ما يفهم المعارضين ويلزم المكذبين ، ولا يبق على مخالفته إلا فئات المكابرين .

تلك البيانات والبراهين هي ما نسميه بالمعجزات : ذلك أن يؤيد الله سبحانه وتعالى

نبيه بأن يجري على يديه أمراً لا تتناوله القُدْر البشرية ، فيعلم أن الذي أجرى على يديه هذا الأمر هو واهب القوى والقُدْر ، وأنه ميزه بذلك على جميع البشر ، ليعلم أنه مؤيده ومصدقه بهذا التمييز .

ولقد جرت عادة العليم الحكيم في تأييد رسله أن يجعل ذلك الأمر من جنس ما غلب على البشر الاتجاه إليه وكال العناية به في العصر الذي بعث فيه النبي ، حتى يكون علمهم بما اشتملت عليه المعجزة من معنى إعجاز البشر علماً يقينياً صادراً عن بصيرة وبيّنة ، وحتى يكون عجزهم وهم أصحاب التفوق في هذا الشأن برهاناً على عجز من سواهم من باب أولى .

من أمثلة ذلك مجيء معجزات موسى عليه السلام من جنس ما يشبهه السحر ، فإذا علم السحرة أنه خارج عن القوى السحرية كان اعترافهم بالمعجز حجة على عجز من سواهم ممن هم دونهم في ذلك الشأن .

وكذلك معجزة عيسى عليه السلام : لما كان قد ساد في عصره فن الطب ، جاءت معجزته متفوقة على ذلك الجنس تفوقاً لا يدركه أتم إدراك إلا أهل هذه الصناعة ، فجاء عيسى مبرئاً للأكمة والأبرص ، بل جاء يحيياً للموتى .

إذا تقرر هذا فالمتتبع لأخبار العرب والباحث عن شئونهم يجد لهم صفات امتازوا بها وانقطعوا لإحرازها وغلبت عليهم ، تلك الصفات هي الجِد والسمي لإحراز الفخر والمجد وحسن الأحدث . تنطق بذلك أشعارها وتواريخها . ونوادرها وعوائدها . فن حى الذمار الى إكرام الجار الى التفانى في الكرم والشجاعة ، والمطاولة في المصاولة ، الى صدق الحديث ، الى وفاء الوعد ، الى صدق العزيمة ، الى قوة الارادة ، الى ثبات المبدأ . كل هذه الصفات وما يمت إليها كانت صفات العرب التي تتفانى دون إحرازها ، ولا ترى لها وجوداً وحياة إلا بها . لهذا السبب انفرد العرب بإقامة محكمين للمفاخرة ، فكانت الجماعات والأفراد تلجأ إليها لحسم النزاع في أى الفريقين أو الفردين أمجد وأحق بالفخر من صاحبه .

وانظر الى ما كان يشور بينهم من حروب تمكث عشرات السنين ، تجد أسبابها ترجع للدفاع عن كرامة ، أو للزيادة عن سمعة . أفسمعت أن حرب البسوس التي مكثت زهاء أربعين عاما كان التعدي على ناقة تملكها امرأة كانت في حمى عزيز ، فاعتبر ذلك خفرا لذمته وجرحا لعزته ؟ أفسمعت أن حرب داحس والغبراء كان سببها اختلاف في أمر فرسين أيهما كان أسبق ؟

إذا تثبتنا من هاتين المقدمتين حق لنا أن ندخل باطمئنان في موضوع مقالنا ، فنقول والله المستعان :

لقد أراد جلت حكمته أن يرحم البشر بشريعة كاملة صالحة لكافة الأمم في كل دور من أدوار حياتها حضارة وبدعوة ؛ وأن تبقى شريعة خالدة مابقي الدهر ، لا ينسخها شرع ، وهي ناسخة لما سبقها من الشرائع ؛ وأن يكون السير فيها على بصيرة ونور لا على تقليد خال من التحقيق ؛ فكان لابد لها من برهان يسايرها في البقاء بنفسه لا بمجرد ذكرى لخبره . والدليل الباقي بنفسه هو ما كان من جنس الكلام المتلو ، فأيد الله نبيه بأعظم معجزة ، وهي القراءة الكريم ، وتكفل عز وجل بحفظه فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وإن شعبا جعل كل هم في الفخار وكسب الشرف هو في أشد حاجة الى إتقان البيان وصناعة اللسان ، فذلك أقوى عدة في كسب ذلك الميدان . وهذا ما حصل في الأمة العربية : فلقد عنيت بترقية قوة البلاغة فيها ، وإتقان البيان نثرا ونظما ، ما لم تكن به أمة أخرى في العالم .

فكان حكمة بالغة أن يجهزها ما يعجزها من جنس ما ملكت صولجانها ، ودعمت بنيانه ، فجاءها النبي العربي بمعجزة القراءة البليغة يتحداهم بأن يأتوا بمثله فمعجزوا ، فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله فمعجزوا ، فتنزل معهم حتى تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فمعجزوا « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

فكان القرآن معجزة باقية بذاتها لا تتناقل أخبارها، حتى تكون الشريعة دعوى معها برهانها، أو من قولهم: قضايا قياساتها معها، فكل من اعتنقها اعتنقها بدليلها، وسار فيها على يدنة ونور من ربه.

على أن إعجاز القرآن لم يقف عند حد الناحية البلاغية الحكمية، وإنما جاء من نواح عدة، فأينما وجهت النظر إلى باب من أبواب الثقافة وجدت فيه القدر المثلّي. فقد جاء في باب التشريع المناسب للدوام، الكافل للعدالة بأوسع معانيها. جاء بما لا يعرف مقداره إلا المشترون.

فإذا رجعت إلى الأخلق وما أرشد إليها، فسل عن ذلك علماء النفس وفلاسفة الأخلق: هل وصلوا إلى عشر معشار ما جاء به؟

وانظر إلى غير ذلك من شئون العلوم، تجد ما يعترف به أهل العلم من الإشارة إلى دقائقها بما يحيرهم ويهرهم.

فإن أبيت إلا شيئاً يشترك فيه البليغ والمشتري والطبيب وغيرهم من كل من له عقل وفهم، فدونك الأخبار عن المغيبات من أخبار الأمم الماضية كأخبار بني إسرائيل وغيرهم، والحاضرة كما جاء في قوله تعالى: «السم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون، في بضع سنين». فإذا يدريه أنهم سيفعلون فيما دون العشر من السنين؟

على أن معجزاته صلى الله عليه وسلم لم تقف عند هذا الحد، بل له معجزات أخرى توارت بالتواتر المعنوي وإن لم تكن مما نحن فيه.

أما مناسبة عموم رسالته لاصطفائه من هذا الشعب فتعرفه حين تستعرض ما قدمناه لك من صفات العرب التي عرفوا بها واشتهرت عنهم: من قوة العزيمة، وثبات الإرادة، واحتقار رغد العيش، والاعتناء بتنفيذ ما أرادوا، والاهتمام بكسب الشرف. ذاك أن شعباً هذا شأنه هو الجدير بأن يناط به أن يحمل للعالم أجمع هذه المهمة العامة: مهمة

تبليغ الشريعة الإلهية للناس كافة . فمن أحقُّ بذلك من شعب لم يأكل الرفه والنعيم قوته ، ولا تعود أن يخلد الى السكينة ، يعمل تحت قيادة رسول كريم يرسم له الوحي ما يجب أن يعمل ، مُمداً من رعايته بما وعده به من النصر والتأييد ؟

وهذا ما حصل ، فلقد نهض الشعب العربي تحت نور الوحي الإلهي بحمل رسالة محمد الى أطراف العالم ، حتى فاز بذلك على وجه لم يشهده التاريخ سرعة وثباتاً ، بفضل ما به الاسلام في روعه من الروح العلوى والخلق الحكيم .

أتدري لماذا ثبتت تعاليمهم عند الأمم الذين استجابوا لدعوتهم ؟ إنما كان ذلك لأنهم لم يأخذوهم في الدعوة بالقوة كما يزعم الجاهلون ، وإنما أخذوا فيها بالبيان والحجة ، والاستضاءاة والتبصرة ، ولو دعوهم للإيمان بالإرهاب والإكراه وخالفوا قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » زالت الدعوة بأسرع من لمح البصر ، وعادت كل أمة الى ما كانت عليه بمجرد ضعف الدولة العربية . وقد ضعفت بعد قرن من النبوة ، ولكن الدعوة الاسلامية ما ازدادت إلا قوة .

أما الجهاد الذي قام به المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ومن على شاكتهم من أمراء الاسلام وملوكه ، فلم يكن الغرض منه إلا حماية الدعوة الى الاسلام ، أى أن يتمكن الداعي من أن يبث دعواه بالحجة والبرهان . وهذا معنى : يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا . أى من نادى بها ودعا إليها لا يلتقي من يسكته ويخرسه ، وإنما هو متمكن من أن يدعو الى الله ، لا أن يكرهه على التدين بهذا الدين فإنه لا إكراه في الدين .

ولعلنا بهذا استطعنا أن نجلو لك الحكمة التي تتجلى في هذا الاصطفاء كما نريد . ونسأل الله تعالى أن يشرح صدرنا للاسلام ، ويهدي قلوبنا للإيمان ، ويوفقنا للاحسان ، إنه سميع مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

رسول الطهارة حسا ومعنى

إذا كنت ممن تهياً له واتسق أن يتخلى حيناً عن التعصب لهذا الدين الحنيف والتعصب عليه ، والحمية له والاحاد فيه ؛ وكنت حكماً ذا نصفه ومعدلة ، لا يميل بك الهوى كل تميل عن الشيء أو اليه ؛ وكنت رجلاً خيراً شريفاً ، كريم العنصر ، صافى النفس ، لطيف الحس ؛ ثم أحببت أن تستطلع طلع هذا الدين وتقف على مراميه ومقاصده ، وتطلع الى سيرة هذا النبي الأسمى الكريم ، والى مدارس شمائله الكريمة الطاهرة ؛ ثم حاولت أن تستخلص من كل ذلك معنى تستروح اليه ، ومثلاً أعلى تتمثله ، وتحتذى عليه ، فسوف ترى كما رأيت معنى قد تظنه بادى الرأى وعند النظرة الأولى لا بال له ولا خطر ، وهو فى الحقيقة القطب الذى تدور عليه رحى الخير كله ، بل الفلسفة العملية القدسية التى تُغيّر فى وجه كل فلسفة ^(١) وإن شئت قلت هو دستور هذا الوجود وناموسه . أتدرى ما هو هذا المعنى ؟ هو الطهارة . ولك أن تقول : النظافة . النظافة بكل معانيها وسائر مجالها . نظافة العقل ، نظافة الروح ، نظافة البدن ، « إنما المشركون نجس » . « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً » « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . النظافة من الإيمان .

كان العالم قبيل ظهور المصطفى صلوات الله وتسليماته عليه ، وخمناً قذراً مستوبلاً ، غارقاً لأذقائه فى قذارة عقلية ، وقذارة روحية ، وقذارة بدنية ، لا تمتدح عن استنقاذه منها وتطهيره من أوضارها ، وانتياشه من بوائقها وشروها . وبالحرى تنبيه الانسان الى المعنى الإلهى الفارق فيه ، وإعدادة وتهيئته بهذا التطهير لأن يسمو الى المستوى الجدير به ، المقدر له فى عالم الغيب والشهادة .

(١) غير فى وجهه سبقه وبزه وأنار فى وجهه الفبار .

كانت قذارة عقله في اعتقاده تلك العقائد البدئية الصبغانية الممعة في الجاهلية : من نحو الشرك ، وعبادة الأصنام ، ومن سائر العقائد الفاسدة والترهات البسباس التي عششت وباضت ، ثم أفرخت وشاعت بين العرب وغير العرب في سائر أُمم العالم القديم ، والتي لا تزال آثارها باقية الى اليوم بين من لا يدينون بالاسلام الصحيح .

وكانت قذارة روحه في تخلقه بالأخلاق الرذلة المقيتة ، من نحو الكذب ، والرياء والنفاق والجبن ، والبخل والطمع والأثرة ، وما الى سائر الرذائل ؛ وفي حيوانيته وإسفافه وانغمسه في الشهوات البهيمية . وكانت قذارة بدنه في تركه نفسه هملا كالعجماءات . وليلاحظ أنى هنا أجمل القول إجمالاً دون تفصيل ، فإنما هي عجالة الراكب ، وإعجالة الحالب ، كالمنبهة الى ما يجمل بطالب الحق نشدانه من هذا الدين .

جاء الاسلام والعالم على هذه الحال من الدنس والقذارة والرجز ، فشن غارته المقدسة ، وحمل حملته الشعواء على هذه الأوبئة التي تجتاح العالم ، ودعا الناس أول مادعا الى تطهير عقولهم من العقائد الفاسدة ، والترهات المنتنة الجامدة . نهام عن الشرك ودعاهم الى التوحيد ، وبحسبك هو من عقيدة ، أصل الفضائل ومنبع المحامد ، والمعنى الذى يسمو بالانسان الى الملأ الأعلى ، ويصل روحه مباشرة بالذات الأقدس « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

ودعا الناس الى تطهير أرواحهم ، فسن لهم من مكارم الأخلاق ما سن ، وشرع لهم من الشرائع ما اشترع ، مما تراه مبثوثا مستوفى في تعاليم الاسلام وفي هدى المصطفى عليه السلام . وما كان له أثر أى أثر في تطهير أرواح المسلمين وتنزيه نفوسهم من كل ما علق بها من أقذار الجاهلية ، حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس .

فالنظافة الحسية والمعنوية هي روح الاسلام الذى يرفرف حول عقائده وشرائعه وآدابه ؛ وهي الغرض الأسمى الذى يتراى اليه ، والمثل الأعلى الذى يحث على التمسك به والتعاق عليه .

كان صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى للنظافة في سائر مظاهرها . كان عقله أنظف عقل ، إذ كان عليه السلام من استحكام العقل ورجحانه بحيث ينبو عن كل ما هو غير جدير بالكمال والمثل الأعلى . وقد أجمع أصحابه وكل من رآه على أنهم لم يروا عقلاً كعقله ، ولا سمعوا بمثله أو بما يقاربه . وإن من كان مثله في نشأته الأولى التي لم يشبها شوب من دنس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم ، ولا شارك قومه في عيد من أعيادهم ، ولا ذاق لحوم قرايينهم ، ولا انغمس فيما انغمسوا فيه من ضلالاتهم وحمقاتهم . أقول : إن من كان مثله في نشأته هذه ، وفي كياسته وحسن سياسته ، وبديع تديره ، حتى أعطاه العرب مقادتهم ، وهم من هم حمية ونعرة وعُجْبة ، وخشونة مراس وركوب راس ، وشدة شكيمة ، وتوعر خاق وجفاء طبع ، دع ما أفاضه الله عليه من العلم والعرفان ، وأوحى إليه من القوانين والشرائع والآداب ، وهو النبي الأُمِّي الذي لم يجلس إلى الأساتيد ، ولم يختلف إلى المدارس والجامعات — إن من كان هذا شأنه لا بد من أن يكون عقله فوق مستوى العقول .

ومن هنا حفل كتاب الله وأحاديث المصطفى من التنويه بالعقل والاشادة بذكوره ، والخص على اللجوء إليه ، والتعويل في سائر الأمور عليه ، بالكثير الكثير من الآيات والأحاديث : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السميع »

وكانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنظف أخلاق وأسماءها وأجائها ، حتى قال الله تعالى فيه : « وإنك لعلی خلق عظیم » أي رسول الله : لقد فضلك ربك على الناس كافة فكنت خيرة الله من خلقه ، واصطفاك لوحيه وإبلاغ رسالته ، فكنت عند العهد بك ، وبلغت ما أنزل إليك على أبداع وجهه وأكمل تبليغ .

لقد كنت يا رسول الله بسيرتك وأقوالك وأفعالك وشمائلك مثلاً أعلى لم تجد الأقدار بمثله ولن تجود أبد الدهر ، فكنت في الحق خاتم النبيين ، وكنت واسطة عقد المرسلين .

لقد جاهدت حق الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وحوربت وعوديت وشوقفت وضوررت وأوذيت أيما إيذاء ، فلم يثن ذلك من عزمك ، ولم يقل من إرادتك ، بل مضيت قدما لا تلوى على شيء ، فكنت بذلك حقا من أولى العزم ، وكان ذلك منك مصداقا لما قلت لعلمك إذ طلب اليك أن تترك هذا الأمر اتقاء شر قریش ، فقلت كلمتك الخالدة التي ردها الدهر ، وارتجفت بها دفتا الشرق والغرب ، ووجفت لها القلوب واشترأت لها القبائل والشعوب : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه حتى يظهره الله ما تركته » .

أي رسول الله : لقد قت بالمهمة العظمى خير قيام ، وتركت لنا ديننا جمع بين خيري الدنيا والآخرة ، فقد نظرنا في حكمة الأولين وفلسفة الآخرين ، فلم نر فلسفة أجمع ولا أسمى وأروع من الاسلام « إن الدين عند الله الاسلام » ومن يتبع غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . لا أقول إننا لا ننظر في علوم الدنيا وكل ما يجدي علينا في مرافقتنا ومعايشنا وإصلاح حالتنا من العلوم والفنون وسائر ضروب المعارف والصناعات ، حاشا ، فان ذلك أيضا مما يقتضيه الاسلام ويحث عليه . « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « اطلبوا العلم ولو بالصين » « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

أما ما يتعلق بتطهير العقول من كل ما يشينها ويزري بها من العقائد والآراء ، وبتطهير النفوس من كل ما يسف بها من شتى الرذائل ، وبتطهير الأبدان من سائر الأقدار ، فقد تركت لنا سراجا وهاجا يضيء لنا الطريق ، فإذا نحن استضأنا به واهتدينا بهديه وسرنا على ضوئه ، سلمنا وأمننا الطريق ، وحمدنا الشرى . وإن نحن تركناه وسرنا على غير هدهاء ولقينا في الطريق من العثرات والعقبات والحفر والهوات ما لا نأمن معه على أنفسنا ، فالذنب إذ ذاك ذنبنا ولا يلومن امرؤ إلا نفسه . والسلام على من

اتبع الهدى

عبد الرحمن البرقوقي

المنتدب بإدارة المجالس الحسبية بالحقانية

محمد منجد الارقاء

يشير مولد محمد صلى الله عليه وسلم في النفس ، ذكرى تطهير الأرض من الرجس ، وتخليص العقيدة من الشرك ، وتحرير العقل من إفسار التقليد ، وفك الرقبة من ذل الاستعباد ، ووضع نظام للحكم أساسه العدل ، وقوامه الحق ، ودستوره المساواة .

ذكريات مجيدة لأعمال عظيمة خالدة ، اعترضت سير الدهر فحولات مجرى التاريخ ، وخلقت من عرب الجاهلية — في أقل مما يقدر من الزمن — دولة بسطت نفوذها على معظم بقاع الأرض ، سادت وشعوبا كانوا من قبل سادة ، وأقامت حضارة سمت بأهلها الى ذروة الكرامة .

ذكريات تتجدد كل عام ، فتتجدد معها حاجة الانسانية الى من يحلها كلها أو بعضها ، لتستخلص العظة ، وتتمسك النور ، فتمضي على ضوئها الى غايتها في غير زلل ولا عثار . ومهما يؤت الباحث من بلاغة في القول ، وبيان في التعبير ، فلن يوفي على الغاية مما يريد . لذلك تتناول — في ضعف وقصور — ناحية من نواحي الانسانية كانت مهيبضة معذبة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام ، وأولاهها محمد رحمته وعنايته ، غدت في نعيم أو ما يشبه النعيم ، ونعنى بها حالة الرقيق .

الرق قبل الاسلام :

كان الرق في الدنيا منذ تولدت للانسان أطاع وتملكته شهوة ، وتوسع في تطبيق مبدأ الحق للقوة . وكان منتشر اعاما لم تخل منه أمة ، ولم تخل مدينة الرومان ، ولا فلسفة اليونان ، ولا حكمة الفرس ، دون وقوعه . ولم يكن تحت سلطان الديانات الكبرى خيرا منه فيما سبقها من عهود .

كان الرقيق ذليلا — وهو إنسان — لا يؤاكل سيده ، ومحتقرا لا يماشيه

ولا يجالسه . وكان ضيقا ليست له قيمة ، إن جنى عليه أحد لا يقتص له منه ، وإن جنى هو على أحد سيم أشد العذاب .

إن سب حرا سلب لسانه ، وإن هزئ به أُدخل في فمه خنجر محمى طوله عشرة أصابع ، وإن سرق منه أُحرق . وكثيرا ما كان يناله من سيده لأقل هفوة تبدر منه الجلد بالسياط ، والطحن على الرحي . فإذا لم يطق صبرا على العذاب وأبق جزاؤه السكى بالحديد المحمى على جبهته .

وكان فوق ما تقدم « متاعا » ليس غير ، لا يصاهر الأحرار ولا يصاهره . فالحر الذى يتزوج أمة عند بعض الأُم يسترق ويستعبد ، والحرّة التى تتزوج عبدا ينالها هذا العقاب ؛ بل كان جزاء هذا الجرم عندهم أن تحرق الحرّة وزوجها العبد وهما على قيد الحياة .

لا شخصية له فى القانون : فلا تسمع شهادته على الحر ، ولا توجه اليه اليمين تقديسا للقسم ، ولا يؤخذ له رأى فى وضع تشريع أو إقامة نظام .

تلك صورة مصغرة لما لقيه الرقيق من هوان قبل الاسلام وبعده عند الأُم التى لم تدن به . نعم : كان يظهر فى بعض الأحيان من المصلحين الاجتماعيين من كان يشفق عليه فيدعو الى الترفيه عنه بوسائل قد تبلغ درجة قانون . غير أن روح الانتقام والشر المتسلطة على السادة الأحرار لم يكن يجدى معها قانون أو نداء ، بل ظل يعانى ألم الذل وقسوة العذاب ، حتى أظله الله بالاسلام .

الرق فى الاسلام :

فلما جاء الاسلام وأشرق نور محمد عليه الصلاة والسلام على الوجود ، تغيرت النظم ، وانقلبت الأوضاع ، وأخذ العبيد مكانهم بجانب السادة الأحرار .

أجل : لم يبلغ الاسلام الرق ، وما كان له أن يلغيه طفرة دون أن يضطرب نظام

الحياة الاجتماعية العامة ، فقد كان الرق عنصرا من عناصر وجودها لا غنى لها عنه على أى حال .

غير أنه قيد من إطلاقه ، وضيق حدوده ، فخصر أسبابه في حالة واحدة : حالة الحرب لإعلاء كلمة الله . وترك الأمر في أسرى الحرب لتقدير القائم بالأمر بين الناس : إن رأى الخير في المن أطلق الأسرى ، وإلا فالفداء أو الأمر . على أن العارف ببلاغة القرآن والواقف على روح التشريع فيه يرى أن تقديم المن على الفداء في قوله تعالى : « فَإِذَا مَنَّآ بَعْدُ وَإِذَا فَدَاءُ » يدل على أن المن محبب الى الله .

فإذا اختار الإمام الرق فإن في قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقية » في كفارة الظهار ، وفي قوله : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقية مؤمنة » في كفارة القتل ، وفي قوله : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقية » في كفارة اليمين ، وفي قوله : « فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ : فَكَ رُقِيَّةٌ » في التخويف من هول يوم القيامة ، إن في ذلك كله مجالا لإخلاء سبيل الرقيق ، والتسكرم عليه بنعمة الحرية . وما بقي بعد ذلك في الرق منهم « فإخوانكم في الدين ومواليكم » : نحسن لهم العشرة ونعتبرهم إخوانا لنا في الدين . ذلك مبلغ عناية الاسلام بالرقيق ، وتقريره لحقوقه ، وحده عليه . وفيما يأتي متابعة النبي لما أنزل اليه من ربه :

جاءه مرة رجل يقول : دلني على عمل يقربنى من الجنة ويبعدني من النار . فقال : « أعتق النسمة وفك الرقية » قال الرجل : يا رسول الله أوليسا واحدا ؟ قال : « لا : عتق النسمة أن تنفرد بعقتها ، وفك الرقية أن تعين في ثمنها » . وقال في تحبيب العتق الى نفوس الناس : « من أعتق رقية مؤمنة أعتق الله بكل عضومنه عضوا من النار » وقال يُعلم الناس حسن مخاطبة العبيد : « لا يقل أحدكم : عبي ، أمتي ؛ وليقل : فتى وفتاتى

وغلامى . وقال ينهى عن أذى العبيد : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .
وكان آخر ما قاله وهو يجود بنفسه : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

تلك فقرات من الدستور الذى وضعه الاسلام نظاما لحياة الرق فيه . وهو نظام لم تر البشرية ما يدانيه ولا ما يقرب منه . وقد كان لتنفيذه أثر فعال فى حياة ذلك الرقيق سماه الى مرتبة القواد والسفراء والملوك . ومن لم يظفر بهذه المرتبة عاش كبقية الأفراد : آمنا على نفسه وماله ، سعيدا لا يلهب ظهره سوط ، ولا يناله عقاب ، إلا فى حدود الدين الحنيف .

وهذه طائفة صالحة من الأمثال نضربها ليعلم من لم يكن يعلم أن المسلمين فى عصور ازدهار الاسلام وتمسكهم بنصوصه وتخليقهم بأخلاقه ، لم يفرقوا بين أنفسهم وبين الرقيق ، ولم يفوتوا عليه غرضا تأهل له ، ولم يحرموه حقا اكتسبه ، وكان التفاضل بينهم بالتقوى ليس غير : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

استرق زيد بن حارثة فى سبي فى الجاهلية وملكته خديجة زوج محمد صلى الله عليه وسلم ، فوهبته له ، فلما علم أهل زيد بأمره ذهب منهم أبوه وعمه ليفتدوه من الرسول ، فلما جاءوا خيرّه النبي بين الانصراف مع أهله حراً وبين إقامته معه ، فآثر جوار النبي على جوار أبيه ، فأعتقه النبي وأكرمه !

فأية معاملة هذه من النبي لزيد جعلته يفضل البقاء معه على المضى مع أبيه ؟ وأى أثر يتركه صنيع النبي هذا فى نفوس أتباعه والمصدقين به ؟ !

وهذا أسامة بن زيد هذا : يفسح له الإسلام من صدره ويمده بروح منه ، فيتبوأ منصب القيادة لجيوش المسلمين فى عهد النبي ، وفى جيشه أبو بكر الصديق .

وعبادة بن الصامت الذى كان أسود فاحما : يرسل على رأس وفد ليضع مع « المقوقس » عظيم القبط فى مصر شروط الصالح مع العرب .

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين: يعامل غلامه معاملة النند للنند، فيتعاقبان في ركوب الدابة وهو ذاهب الى بيت المقدس ليحدث البطريك في أمر تسليمها للعرب، ويشاء القدر العادل أن يدخل المدينة « بيت المقدس » والغلام على الدابة وعمر الخليفة يسعى بين يديه !

وقد تبوأ عرش مصر « كافور الأشمي » وعدد عديد من الجراكسة، وهم جميعاً من الأرقاء المستعبدين .

وبعد : أفصح بعد هذا الذي ذكرنا - وهو قطة من بحر - أن يتهم الإسلام بتأييد الاسترقاق، وينسب لغيره ظلماً بطولية التحرير ؟ !
ابراهيم عمار
من علماء الأزهر بمجلة نور الإسلام

عطفه على الرقيق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم » وقال : « اتقوا الله في الضعيفين : المملوك والمرأة . » وقال : « إخوانكم خولكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس » وقال : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » . وقال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها ، كان له أجران في الحياة والاخرى : أجر بالنكاح والتعليم ، وأجر بالعق »

وعن أبي مسعود الأنصاري أنه قال : بينا أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي : اعلم يا أبا مسعود - مرتين - فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفت السوط من يدي ، فقال : « والله الله أقدر عليك منك على هذا ! »

وقال عبد الله بن عمر : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : كم نعفو عن الخادم . فصمت عنه رسول الله ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة »

تبشيره بفتح الممالك

إن يكن للعظمة أثر يقوم على صفة في بعض أفذاذ الرجال ، أو خيال يلوح من وراء خصلة حميدة ائسم بها أحد من بنى الانسان فأعطى من أجلها لقب عظيم ، فإنها تجسمت في محمد صلى الله عليه وسلم ، واشتملت عليه روحاً وجسداً ، ليكون مثالا ينسج العالم على منواله في الأعمال ، وأسوة حسنة يقتفى أثره في الأقوال والأفعال .

حقاً إن الكاتب مهما علا كعبه في تنميق الكلام ، ورسخت قدمه في تزيين وجوه البيان ، ومارس الأدب حتى أدرك غوره ، فجعل يستخرج من نفيس لآلئه فينظم العقود الشعرية ، ويرسع بها محبرات القمع النثرية ، فإنه حيال وصف ناحية من نواحي حياة محمد صلى الله عليه وسلم لقاصر ، وعن تناول نعت من نعوته لعاجز .

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم اللهم إلا ما كان مقدار ما يعلق بمنقار طائر من البحر المحيط ، أو ما يخيل لناظر شبح (السينما) كأنه حقيقة .

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء هذا يوم الأحزاب يظهر من شجاعته وثباته ما تتطامن أمامه الشم الرواسى ، وتذوب من روعته الصم الصلداء — بلغه عليه السلام أن عشرة آلاف مقاتل من قريش والنضير وغطفان ومرة وأشجع وسليم وأسد ، يقودهم أبو سفيان بن حرب ، ويزحف بهم نحو المدينة لمحاربتة والنيل منه ، فأخذ عليه السلام يستشير صحبه فيما يصنع : أيبقى في المدينة ، أم يخرج لمقابلته ؟ فأشار سلمان الفارسى بحفر خندق يمنع العدو من احتلال العاصمة (المدينة) فقبول هذا الرأى بالاستحسان والقبول ، فأمر عليه السلام بعمله وشرعوا في حفره ، وقد لقوا فيه أنواع المتاعب ، وقاسوا في حفره صنوف المصاعب ، لأنهم لم يكونوا يومذاك في سعة من العيش حتى يسهل عليهم هذا العمل الشاق .

أرض صلبة ، مع قلة عدد و قليل عدد ، أضف الى هذا أن عددهم النزر البالغ ثلاثة آلاف لم يخل من منافقين قد أظهروا ما كانت تكنه صدورهم قبل ، وانسحبوا معتذرين بقولهم : « إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا » وكذا مساكنهم من يهود بنى قريظة قد نقضوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول وجماعة المسلمين ، وانضموا الى هاته الجيوش الجرارة .

كل هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم باش الوجه طلق الأسارير ، باسم الثغرى الجنان ، ماضى العزيمة متين الارادة . هاهو ذا يوزع القوى فيرسل مسلمة بن أسلم في مائتين ، وزيد بن ثابت بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفا على النساء والذراري ، ويبث العميون ليستجلى أخبار العدو ، ويقوم بعد هذا بنقل التراب من الخندق كواحد من صحابته وهو يرتجز متمثلا بقول ابن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أينا

ثم تراه بعد هذا وذاك يبشر أصحابه بالنصر والظفر ، ويعدم الخير إن هم صدقوا الله وأخلصوا له الأعمال ، بل يرسم لهم مصور الممالك التي ستفتح عليهم وتدخل تحت حوزتهم في حديث رواه الامام أحمد والنسائي عن البراء ، قال :

لما كان حين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لنا صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكيننا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء فأخذ المعول فقال : بسم الله ، ثم ضرب ضربة فنشر ثلثها وقال : الله أكبر : أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة ! ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فقال : الله أكبر : أعطيت مفاتيح فارس ، وإني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ! ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر : أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء في مكاني الساعة . انتهى .

أين هذا النصر الذي كان يبنى به محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ولم يكن لهم ثم أدنى أمل في السلامة من شر تلك الجموع ، فضلا عن الظفر بهم ؟ أم أين تلك الممالك العزيزة السلطان التي كان يبشر أصحابه الضعفاء بأن ستفتح عليهم ، ولم يكن ساءتئذ يهياً لهم قرص الشعير ساعة زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديداً ، إذ جاءهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظنوا بالله الظنون ، وقالت المنافقون : « ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » .

أجل : كل ذلك قد كان ، فقد صدق الله رسوله جميع ما فاه به وبشر .

هذا نعيم بن مسعود الأشجعي صديق الأحزاب يعتنق الاسلام ، في حين انفض المنافقون من حول النبي والتحقوا بالمشركين خوف الخذلان ، وحرصا على الكفر والعصيان ، فهو يقوم بمجدة التخذيّل والتفريق بين الأحزاب ، ويوقع بينهم الشكوك والريب ، حتى تصبح كل فرقة لا تأمن مكر الأخرى ، وكل حزب لا يأمن غدر الآخر . هذا والرسول صلى الله عليه وسلم يتهل الى ربه الذي لا ملجأ منه إلا اليه ، ويضرع اليه داعياً بقوله : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب : اهزم الأحزاب : اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ! » فيستجيب الله دعاءه فيرسل عليهم في ليلة مظلمة ريحا شديدة باردة ، فكفأت لهم القدور ، وأسفت عليهم الرمال ، وداخلهم الرعب حتى بلغ من خوفهم وذعرهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم : ليتعرف كل منكم أخاه ، وليمسك ييده خوفاً من تدخل عدو بينهم ، ثم يحل بعيره ويؤذن بالرحيل . وبذلك أراح الله عن نبيه والمؤمنين هذه الغمة . ثم حقق أيضاً ما كان أراه سبحانه من فتح الممالك ، فقد قام خلفاؤه عليه السلام بعده مقتفين أثره في ماضى عزمته ، مهتدين بمشكاة هدايته ، ففتحوا البلاد ، وسادوا العباد ، وساسوا بالعدل ، وامتلكوا بالفضل ، حتى أصبح ملكهم مترام الأطراف ، ودولتهم سيادة الدول ، في القوة والمنعة والرفعة والعظمة ، لا ينازعها في ذلك منازع ، ولا يزاهاها السلطان مزاحم « ولقد كتبنا في الزبور من بعد ذلك أن الأَرْض يرثها عبادي الصالحون » .

محمد على شقيقه بجاه — سوربة

محمد اعظم عظماء العالم

من خطبة للأستاذ فارس بك الخورى

جاءت تلغرافات خاصة للجرائد المصرية صبيحة ليلة المولد النبوى تفيد أن المدن السورية كلها احتفلت بتلك الليلة الكريمة احتفالاً باهراً جداً لم يسبق له مثيل ، وأن مسيحي تلك المدن شاركوا إخوانهم المسلمين في تلك الاحتفالات العظيمة . وهو نزوع نحو الوحدة الاجتماعية بين أبناء بلد واحد لم يكن موجوداً في الأيام السالفة . ولسنا بصدد بيان ما يبتنى على هذه العاطفة الشريفة من النتائج الاجتماعية فنفيض في الكلام فيه ، ولكننا بسبيل الإشادة بذكر هذه المشاركة المحموده ، والتنويه بكلمات أثرنا تدوينها في مجلة نور الاسلام ، جاءت في عرض خطبة ألقاها سعادة فارس بك الخورى أحد وزراء سوريا المسيحيين في إحدى تلك الحفلات التي أقيمت بدمشق لإحياء ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، نقلها عن جريدة المقطم الصادرة في ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٥ تحت عنوان (وزير مسيحي يصف الشريعة الاسلامية) .

قال فارس بك الخورى من خطبة في ذلك الاحتفال :

« إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجئ الدهر بعد بمثله ، والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية . ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

» إن محمداً الذي تحتفلون به وتكرمونه ذكراه ، أعظم عظماء الأرض سابقهم وللاحقهم ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

كيف كان العالم قبل محمد

بقلم المستشرق جول لا بوم (١)

«لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات ، يلزمه أولاً الإلمام بمجال الداعي في ذاته ؛ ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه هيمته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصناها للمشتري العربي ، مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

«حوالى ميلاد محمد في القرن السادس الميلادى كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن ، فكان شعب (الوزيغو) الآريين في إسبانيا وفرنسا الجنوبية يحاولون الملك ؛ وأما كلوفيس وأولاده الكاثوليكيون فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة أمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو جوستينيان ، ثم أجبروا على الدخول معه في حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاءوهم بتلك المساعدة ، فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين .

«أما في فرنسا فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين ؛ وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الوزيغوتية (برونهو) والملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيء للتاريخ أشد الصعائف إثارة للأسى والكمد .

«أما في إنجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم

(١) الاستاذ جول لا بوم واضع فهرست مطول للقرآن الكريم . وقد وضع هذا البحث في صدر كتابه .
فأينما أن ننشره هنا لانه يمثل رأى العلم فيما كان عليه العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه دليل على ما كانت الحاجة ماسة اليه من دعوة عامة للإصلاح الاجتماعى وهي ما قام به خاتم المرسلين وحدث بسببها ما حدث من الانقلابات العظيمة بين الامم كافة وتوجهت بسببها الى وجهة الترقى التي ستؤديها حتما الى المدينة الفاضلة .

للوقوف في مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الخالصة .

« أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشاخص قد فقد خطورته القديمة ، وكانت رومه ، وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم ، « يعنى مملكة الرومان » في حالة تمللها من استعالة أمرها الى مركز ديني بسيط ، ترج وتضطرب كلما لم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا . وكانت تهى نفسها لأن تكون مركزا للبابوية ، وهي تلك السلطة الزمنية ، كما اقتضت سياسة (شارلمان) أن تجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيروليين) و (الاوستروغوتيين) وبراطرة المملكة الرومانية (واللومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً .

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم ، فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية ، مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء ، وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق ، فكان (الاسكندنافيون) و (النورفيجيون) و (الدانماركيون) يتزاحمون في الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة .

« في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى ، وهي تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية . و التصوير البديع الذى جادت به قريحة الميسو (رينان) لبيان مركز الأمبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصيرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ فى الأوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهذاً بالاً من أوروبا في شيء، فمملكة « تيبِت » و « الهند » التي اقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها، والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية، وبعبارة أخضر أغرب المسائل الاجتماعية، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية.

« أما السفح الشمالى من الهضبة الآسيوية العالية التي في حوزة روسيا الآن، فكان غير معروف على الإطلاق . وأما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصاً من لدن تجريدة الإسكندر المقدوني، فكانت مشتبكة في حروب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية . «أما في أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم، وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة، دائبين على امتصاص دم مصر، وعاملين على جعلها، وهى المملكة العالمية ذات المجد القديم، كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبية وقتئذ، الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي « الفندالين » .

« والخلاصة : كان جو العالم الأرضى متلبداً بسبب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ؛ وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير .

« وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك، ولم يكن يأخذ بعواطف ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وإن كان وقتياً إلا شيء واحد، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحرب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة، وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الترقى في المستقبل،

لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، واستحات الى وحشية محضة .

«مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة : ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا إلا عن بعد، وما كان يصلها ذلك اللغظ إلا في غاية الضعف والضعف، وكانت تجهل وجود الهند والصين، فإن علاقاتها مع آسيا لم تكن تتعدى حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من روسيا الى تبعية أمبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها .

«على أن ذلك الوادى الأخير كان يهيم بلاد العرب جداً، لأن أنبائها كانوا يذهبون إليه للتجارة، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربى من نهر الفرات، وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين . ومما يشبه المسابير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة، ولم ينجلوا عنه تماماً إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانه المتأخرين، وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

«أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة أو علاقة، فهي بلاد الحبشة، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين، والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنذايين، فكانوا لا يحامون بوجودها»

ثم قال : قال الميسو (كوسان دوبر سوفال) في كتاب تاريخ العرب :

« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحرارا لا سلطة عليهم ؛ وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه . »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أى دين من الأديان . قال المسيو (دوزى) في كتابه (تاريخ عرب إسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية ، والعيسوية ، والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم ، وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم . نعم يندران تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد فنسبوا الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون . وكان المتذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وكانت هذه الديانات تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . » أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعا لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم تتحقق أخبارهم بالمغيبات ، أو لوعولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظلية بعد أن نذروا لها نعمة . وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس : فكنعمان كانت تدين للقمر والدبران ، وبنو ظلم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنو طى يدعون سهيلا . وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية .

قال «كوسان دوبرسوفال» في كتابه تاريخ العرب :

«كان منهم من يعتقد بفناء الانسان إذا رحل من هذا العالم، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة، فكان هؤلاء إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهي نوع من البوم لا تبرح طير بجانب قبر الميت، نائمة ساجدة، تأتيه بأخبار أولاده، فإذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة: اسقوني، ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه.

«وكانت طبائع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عند بل القبيلة أيضا، وهي نقطة تلفت النظر، تهتم اهتماما عظيما بحفظ ساسلة نسبها، ولو لم يكن، وهو أمر أغرب من سابقه، إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا الى الالتفات بنوع أخص»

ثم قال مباشرة: «قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات للمتقدمة:

«كان العرب مغرمين بشرب الراح. ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به وبلعب الميسر. وكان من عوائدهم أن الرجل إن تزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية، كان له أن يطلقهن متى شاء هو، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها. ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب، وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا.

«وكان هنا لك عادة أفظع من كل ما مرّ وأشدّ معارضة للطبيعة، وهي وأد الأهل لبناتهم «أي دفنهم أحياء»

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جفاً ، ويمارسون فئات الكرم وبذل القرى .
 « الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أدنى من الأمة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب ، كانوا قليلي العدد جداً ، ولا يظهر أنهم كفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالآثرة الشعبية على مثال الصينيين واليبانيين والمصريين ، لا يرى منهم لليوم خاصة التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأموال المالية . ولئن شوهده أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لا اشتراكهم فى الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة بين الأمتين ، تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم فى حب الكسب ، وتأزدهم فى الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل مال أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى :

« أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين . ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت البصر تألقه ، وفى حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج منه ، فإنه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجليل الشديد الوطأة ، ولد محمد

ابن عبد الله فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » م

ترجمه عن الفرنسية

محمد فريير وهيرى

لو وضعوا الشمس في يميني

للأم الحية الناهضة ولوع بتتبع نواحي العظمة في آحاديها، لتكتسب من جلال
أعمالهم روحاً وثابة تدفع بها إلى أوج الكمال، وذروة الرقي .

تلك هي حال الأم مع غير المعصومين من أبنائها، فكيف بنا إذا وقفنا أمام جلال
العصمة والوحي في الأنبياء والمرسلين، وخاصة أمام خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .
لئن أمكن أن يجد الباحث في بعض الممتازين شجاعة الفارس، وبذل الكريم،
وعطف الرحيم، وخلق الفاضل، وعدل المنصف، فكيف يمكنه أن يجد جميع صفات
الكمال مجمعة في رجل واحد، أحاطت عظمته بجملة الفضائل وكريم الخصال ؟

هذه حال خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ولا بد في بيانها من ذكر الأمثال
لكشف بعض الجوانب التي ظهر فيها محمد المثل الأعلى، والقُدوة الصالحة :

ولد محمد صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، لعشرين خلت
من شهر إبريل عام إحدى وسبعين وخمسة من الميلاد. وتدرجت به الأيام حتى أشرقت
به الدنيا بعد أن طوى أبوه في جوف الثرى، ولم يلبث إلا قليلاً حتى فقد والدته، فاحتضنه
جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب، وهكذا مرت به الأيام حتى جاءت الرسالة على رأس
الأربعين، بعد أن نضج عقله، ووسع الناس فضله وعلمه وأمانته، فدعا الناس جهرًا إلى
عبادة الله بعد أن دعاهم سرًا مدة ثلاث سنين، فاتبعه من أنار الله بصائرهم. ولم يزل دأبًا
على نشر دينه لا يحفل بالأهوال حتى حنقت عليه قريش، وأكل الغيظ أكباده،
فذهبت على هيئة مظاهرة حربية مروعة إلى عمه أبي طالب تطلب منه في غير هوادة
أن يكف ابن أخيه عن دعوته أو يسلمه إليهم ليتولوا منعه، فما كان من أبي طالب إلا أن
عرض الأمر على ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، فأجابه بكلمة دوت في فم الدنيا

ولا تزال تدوى الى اليوم، فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» .

إذا ذهبنا لنتمس مكانة محمد صلى الله عليه وسلم في خبرته بثئون الحرب، ودرايته بقواعد المنازلة، واستحواذه على أساليب السياسة، وجدنا منه قائدا حالفه النصر والظفر، واستطاع أن يضم الى هذه الصفات صبرا لا ينفد، وعزيمة لا تسكل، وعارضة لا تضعف. وإن موقفه في غزوة أحد لا صدق برهان على تلك البطولة الفذة النادرة. فلم تكن هذه الغزوة إلا امتحانا قاسيا خرج منه المسلمون بعظة بالغة، شقت لهم طريقا يهتدون به في كل عقبة تقف في سبيل الدعوة الاسلامية، وأرثهم كيف يكون الندم عند مخالفة الجيش لأمر قائده.

كيف ينسى التاريخ موقف محمد صلى الله عليه وسلم حين جرح في وجهه، وكسرت رباعيته اليمنى، وشقت شفته، وقذفت عليه الحجارة حتى وقع في حفرة حفرها المشركون فأخذ على يديه؛ ونشبت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته، وأحرق الخطر به وبأصحابه، وإذا به يغسل الدم عن وجهه، ولا ينسى القيام بشعائر دعوته، ويستقر على صخرة من الجبل فيصلي بالموءنين، مشعرا لهم بأن أمر الهزيمة لم يثن من عزمه، ولم يلوه عن الخطئة التي رسمها لنفسه، مستهينا بالموت إن وقف حائلا دون غايته.

من ذا الذي لا يعجب من موقفه أمام عدوه أبي سفيان إذ صعد الجبل بعد هزيمة المسلمين في تلك الغزوة وأطل على الرسول وصحبه مناديا لهم: «الحرب سجال، يوم أحد بيدر» وانصرف وهو يقول: «موعدكم بدر العام القابل» فقال محمد صلى الله عليه وسلم: «قولوا له: هو بيننا وبينكم». وقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم مع شدة الهزيمة أن يوقظ روح الحماس في جيشه المتفرق، حتى لا يمكن العدو من القضاء عليه؛ وسجل النصر في تلك الغزوة لكفار قريش، كما سجل النصر في غزوة بدر للمسلمين قبل ذلك. وتتابع الغزو بين الفريقين الى أن جاء فتح مكة، وأصبحت حياة كفار قريش

وموتهم معلقة بكلمة واحدة يخرجها الرسول صلى الله عليه وسلم من بين شفثيه . لكن محمدا صلى الله عليه وسلم استطاع بروحه السامية أن يترك الانتقام والحقد في تلك اللحظة ، ويرتفع بالطبع البشرى الى درجته العليا ، فقرأ يقول لقريش الذين ناصبوه العداة وأذاقوه كأس المشقة هو وأصحابه من يوم بعثه ، وقد أصبحوا اليوم في قبضة يده يحدد مصيرهم كيف شاء : « يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم . » فقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

أى نفس بشرية تستطيع أن تحكم عواطفها ، وتكظم غيظها ، وتدفن غلها ، وتقف من عدوها الضعيف المهزوم المغلوب على أمره هذا الموقف الذى يدل على منتهى الرأفة والرحمة ، إلا نفس محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وأى فاتح منتصر يظفر بعدوه فيمنحه العفو التام عند المقدرة على الانتقام منه ؟

إن من أهم العوامل فى حفظ الاتزان الاجتماعى تحديد الرابطة بين الأفراد ، وتمييز الحقوق التى لبعض الأشخاص على الآخرين ، ومعرفة أداء الواجب الانسانى نحو الأمة لتعيش متحضرة بمجهورات أعضائها العاملة يضع كل فرد منها لبنة فى بناء صرح الحياة العامة . من أجل هذه الغاية النبيلة وضعت القوانين وسنت الشرائع . وما شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلا العزة اللامعة فى جبين الشرائع السماوية والوضعية ، فقد أمدته العناية الإلهية بدستور لا تخلق على توالى الأيام جدته ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وجمع الى جانب هذا الكتاب المحكم سنة بينت ما فيه من إجمال ، وخصصت ما فيه من عموم ، الى غير ذلك . وقد ضم الى هذين الأصلين فى التشريع الاسلامى أصلان جليلان : الإجماع والقياس . وبهذه الأصول التشريعية سجل الخلود لهذه المسلة السمحة ، واستطاعت سن أحكام ملائمة لمن انضم تحت لوائها طوال الحقب الماضية ، حتى لم يكن هناك عدوان لبعض الطبقات على بعض . بل استطاعت فوق هذا أن تحدد علاقات الأمة الاسلامية مع غيرها من الأمم على ضرب من التسامح ما سمعت إذن الدهر به فى الأجيال السالفة ولن تسمع من الأمم الحديثة .

أى أمة في القرن العشرين تعطى الأجنبي من الحقوق مثل رعاياها إلا الأمة الإسلامية التي جعلت للذمي من الحقوق مثل ما للمسلم، وحفظت نفسه وماله وأعطته حرية التصرف؟ أى شرعة حرية عرفها البشر منذ وجوده احتفظت للضعيف بالرحمة والرفقة في الساعات العصبية: ساعات القتال، وتطاعن الفرسان، وصلصلة الصوارم، حتى نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المرأة والصبي والهرم والأعمى والمريض؟ أين هذه الحقوق اليوم إذ تغلبت المادية، حتى استباح القوى أن يسلب الضعيف حرية الوجود، تاركا وراءه الواجبات الانسانية، غير مكترث بأنين المحتاج الذى عضه الدهر بنابه، يسعى جهده في أن يمتص دمه، ويسلب عقله، ويسخره كيف شاء، ليحصل على إشباع شهوته وإرضاء ميوله؟

ولئن ذهبنا نسرد الصفات الخلقية الفاضلة: من أمانة وعفة، ومروءة ووفاء، وحياء وتواضع، ورحمة وصبر، الى غير ذلك، لوجدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد تحلى بها وجمع كرائعها، إذ يقول الله تبارك وتعالى في خطابه له صلى الله عليه وسلم: «إنا لكلى خلق عظيم». ولقد حثنا القراء ان الكريم على الافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذَكَرَ الله كثيرا».

لم يهمل محمد صلى الله عليه وسلم فى تعاليمه ناحية من نواحي التكوين الانسانى على وجه يأخذ بيد الانسانية لتعيش متنعمة بسعادة حقة ورفاهية كاملة إلا أنى بها، فقد طلب من الانسان قلبا عامرا بالايمان، وخلقنا ساميا يحمى صاحبه من الانغماس فى حمأة الرذيلة، وحدله حدودا، ووضع له قوانين أمر بالسير عليها حتى يحفظ حق غيره وحق ربه، وتعاليم ما عملت بها أمة، وخصالا ما تحلى آحاد بها، إلا تبوأَت أسمى مكانة بين الأمم، ونالت سلطانا عاليا، ورفرف عليها علم العدل، وبسقت فى تربتها شجرة العزة

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

عبد الله مصطفى محمد
متخصص فى الشريعة

محمد رسول الله

منقذ الإنسانية وناشر السلام في الأرض

التاريخ أثبت الثقة بحدثنا عن العالم قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم أن الفوضى والريذة قد اكتسحتا من أقطاره الطمأنينة ومكارم الأخلاق، فزلزل السلام زلزالاً عظيماً، واضطرب جبل الأمن، وشاع في الناس المنكر والبغى.

حدثهم أيتها الحرب المستعرة بين القبائل في البوادي، وبين الملوك والشعوب في أقطار المدينة عن توافه الأسباب وصغائر العلل التي كفت من أجلها جحماً وعذاباً أليماً. حدثهم أيتها الموءودة عن أليك الظالم العاتي، حين أبدى عن ذراعه وكشف عن ساقه، وتحجر قلبه، فاحتفر لك بعزيمة فولاذية قبراً، وأنت له ناظرة، لا تدري أنه بك غادر، ولقد ساء لك وجهه يتصبب عرقاً فكننت تمسحينه، وثوبه امتلاً غباراً فكننت تنفضينه، حتى إذا شق لك أخذوداً أسلمك فيه إلى الموت الأحمر، بعد أن كنت تنعمين بالعيش الأخضر!

حدثهم يا بنت الحان ماذا صنعت بالعقول، فأكسبت الأوزار، وأفسدت الأخلاق، وأضعت الأموال، وأثرت الحروب، وهتكت الأعراض، وجلبت الأوصاب والأمراض.

حدثهم أيتها الإباحة السافرة، والشيوعية الفاجرة، عما مزقت من جماعات. ثم حدثهم أيتها المواخير العلنية، عما كان بين جدرانك وفوق أرضك من فاحشة، وفضيحة وعار.

حدثهم أيتها الخشونة في الطباع عن حُمّك التي أفسدت مزاج عيشهم، حتى زجت بهم في نار تلظى من التناكر والتنازع والعيش المرير.

في غلس تلك الآثام الجسام ، وبين هذه المدلهيات العظام ، بزغت شمس في جزيرة العرب ، من أفق العلا ورفيع الحسب ، فأضاءت أشعتها الخافقين .

أجل : ولد المصطفى الهادي لدى يقظة الصباح في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول . وما أجل هذا الفأل الباسم ، أن يشق الرسول صلى الله عليه وسلم غياهب الدجى ، فيخرج منها في بياض الإصباح .

مباة اليتيم :

توفى والده عبد الله ، وانقطعت من عبد المطلب أبيه حبال الرجاء فيه ، فاستقبل من ورائه ألما ممضاً أسال الشئون وأثار الشجون ، ورجعت آمنة أمه وأخلصت لربها التسليم .

وضعت آمنة وليدها يتيمًا ، وأرضعته أياما معدودات ، وأخذت نساء بنى سعد يَطْوُفنَ بمكة ملتزمات فيها الرضعا ، في سنة مجدية شهباء ، وكن معنيات بالمال والثراء ، وما منهن واحدة إلا عرض عليها اليتيم فصدھن عنه يتمه ، أما حليلة السعدية ذات الأنان العرجاء ، والناقاة المسنة فقالت : « والله ما بقى من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما لم أجد غيره قلت لزوجى : « والله إنى لا كره أن أرجع من بين صواحي ليس معى رضيع ، لا نطلقن الى ذلك اليتيم فلا خذنه »

رضيتها أمه ظئرا ، فأمرت يدها برفق على صدر الرضيع النائم ، ووجهه الجميل يشع من نور ، فأعطته نديها الأيمن الذى لم يرتضع من سواه ، فروى وروى أخوه من بعده ، ثم احتملته الى مستقرها قريبة العين به .

رداء بمقه الرماء :

كان قد أصاب البيت العتيق سيل جارف ، فخلله وصدعه ، فرأت قريش هدمه وإعادة ريفعا مستقوفا ، والتجديد يقتضى استئصال البناء البالى ، فن يطبق هدمه ، ومن تستطيع يده تسليط المعول عليه ؟

في هذا الموقف الرهيب تقدم الوليد بن المغيرة متكلفا الجرأة ، وأعمل فيه معوله قائلا: « إن الله لا يهلك المصلحين » . فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس إسماعيل . وتولى حمل الأحجار للبناء أشرف قريش تيمنا وتبركا ، وكان فيهم العباس ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وسنه إذ ذاك خمس وثلاثون سنة .

ضاقَت النفقة عن إتمامه على قواعد إبراهيم ، فأخرجوا الحجر وبنوا عليه جدارا قصيرا ، ولما أتموا في بنائه ثمانية عشر ذراعا بزيادة سبعة أذرع عن أصله ، أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه ، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه ، وأصبح بعضهم لبعض خصما ، ومكثوا على الجفاء أربع ليال ، فقال أبو أمية المخزومي عم خالد بن الوليد ، وكان أَسَنَّ رجل في قريش : احقنوا دماءكم ، وتحاكموا الى من يعيد السيوف في أغمادها ، فرضوا حَكَمًا أول داخل من باب بني شيبية ، فكان لحسن حظهم سيد العقلاء محمد صلى الله عليه وسلم أول من أرسلته العناية ليحكم بينهم .

فبسط رداءه الشريف ، ووضع يده الكريمة فيه الحجر ، ودعا ممثل كل فخذ من قريش أن يأخذ منه بطرف ، فرفعوه حتى انتهوا الى موضعه ، فأخذ الرسول ووضعه فيه . وبذلك هدأت الثائرة بكياسة الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

الرسالة :

لما بلغ صلى الله عليه وسلم الأربعين ، وأكمل الله فيه العبقرية الفطرية والهبات النبوية ، أوحى اليه عن طريق الناموس جبريل أن كن أستاذ العالم ومربي الفضائل فيه ، كن مصلح ما فيه من خلل ومعالج ما فيه من علل ، كن رسول الله وخاتم النبيين . حدثني بأبيك عن خطورة تلك المهمة التي ندب الله رسوله اليها : أمطيتها ذلول وطريقها مأمونة ؟

لا والله إنها المهمة إذا تجلت للجيل جعلته دكا ، ناهيك أنها مهمة تغيير الأوضاع السقيمة التي تواضع الناس عليها ، وأصبحت منهم عقائد راسخة من مشارق الأرض ومغاربها .

نهض الرسول بأعباء الدعوة مستعيناً بقوة الله تعالى ، مستهيناً بما يعرض له من الصعاب والأهوال ، وكان أمام تـمرد أمته عليه كالطود الأشـم : لا تزعزعه العواصف ، ولا تهزه الرياح القواصف .

المراتب :

أندرى بم قابل القرشيون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مع ما اشتهر به فيهم من الصدق والأمانة ، والحكمة والاستقامة ؟ قابلوها بالتكذيب والإهانة ، وبآتهامه بالسحر والشعر ، وبالعتـه والجنون .

جميل أن تـعلو في ضوضاء الشك وجلبته شهادة الحق ، وجميل أن يـحترق ديجور التكذيب اعتراف ألد الأعداء بالفضل .

جميل أن يقول النضر بن الحرث العبدري أخبث أعداء الرسول : « قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر » !

المحنة :

بدأ رسول الله بدعوته سرا ، فاستجابت له خديجة زوجته ، وأعلى ابن عمه ، وأبو بكر صديقه ، ورجال آخرون .

ولما أربى العدد على الثلاثين ، ونزل عليه صلى الله عليه وسلم « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » جهر بالدعوة ، فلقى هو والمسلمون في سبيل الله أذى كثيراً . أجل : لقد ابتلى الله رسوله والمؤمنين بالشدائد والبلايا يصبها عليهم أعداؤهم صبا ، وهم على الأذى صابرون ، وبحكم الله راضون ، ولنصره تعالى منتظرون .

لنذكر نمودجا مصغرا النوع من أنواع التعذيب :

فهذا خباب بن الأرت : سبي في الجاهلية فاشتريته أم أنمار وكان حدادا ، ولما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم استجاب لدعوته ، فكانت مولاته تحمي الحديد فتجعلها على

ظهره ليكفر، فلا يزيد ذلك إلا إيماناً، وجاء خباب مرة والرسول متوسد بردة في ظل الكعبة فقال: يا رسول الله: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه السلام محمراً وجهه وقال: «إنه كان من قبلكم ليمسك أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه».

قال ذلك وهو من قلة عدد المؤمنين بحيث رأيت، فانظر كيف حقق الله نبوءة رسوله صلى الله عليه وسلم.

النصر:

لما أصيبت عقول القرشيين بالعمى، فرض الله على رسوله والمؤمنين الهجرة إلى المدينة، وهنالك صادفت الدعوة قلوباً واعية، وعقولاً صافية، حيث لا حسد يضعف اليقين ويحول دون الخير، ومن هذه البقعة المباركة رفرق لواء النصر على رؤوس المؤمنين، وانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها «ولله العزة ولرسوله والمؤمنين».

مصطفى محمد الحديدي الطير
المدرس بالمعهد الأزهرى

من كلامه

صلى الله عليه وسلم

من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. نعم الرجل الفقيه في الدين: إن احتجج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه.

لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً.

ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

ذكري محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

منذ أربعة عشر قرناً استقبلت الحياة في بطن الجزيرة العربية مولوداً تبسم ميلاده
للدنيا عن نور باهر الأشرار، جذاب الالتعاف، وافترّ وجوده عن هداية سَمحة أوضحت
للإنسانية سبيل الفرار من المهالك، والنجاة من الشرور، والبعد عن ظلم النفس والحاح
الهوى، وطغيان الوسواس .

ذاك نور الله أرسله الى الناس كافة ؛ وهذه هدايته حبايمها رحمة ونعمة . فاعرفت
البشرية في أدوار حياتها وتاريخ وجودها أسطع من ذلك النور التما، ولا خبرت
أقدس روحانية وأبلغ تأثيراً من هذه الهداية الجديدة .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، فتداولته في الكفالة أيدي عبد المطلب وأبي طالب ،
وكان تأديب الله له وتحصينه إياه سبباً في نفاره من الوثنية وأنفته من الشرك ، واجتنابه
لنقائص القوم وما تفشى بين ظهرانيهم من الخلق المعوج والأدب الزائف . وظل محمد
يتنقل في فضائل نفسه وخلق من حسن الى أحسن ، حتى استعدت مواهبه ، وتهيأت
عقليته ، ونضج تكوينه للرسالة الجديدة ، وهو في سن الأربعين .

نتخطى من تاريخ الزمن أربعين عاماً ، ونطوى بساطها بما عليه من آداب وفضائل
تنقطع دونها الهمم ، وتقف أمامها العقول معجبة مكبرة ، نترك ذلك كله لتسمل
الى دعوة محمد صلوات الله عليه ، فنتناول الكلام عليها من أطرافها وحواشها ، رعاية
للمقام ، وحثاً للنفوس وحقراً للهمم على الإكباب على سيرة الرسول وحياة الرسول
وجهاد الرسول ، فهي غذاء العقل ، وريّ العاطفة ، ونماء الوجدان .

بعث محمد صلى الله عليه وسلم والأخلاق في فساد وتدهور ، والآداب الاجتماعية
والفردية في تحلل وتفكك ، وقلوب العالمين في ظلمة واستغلاق . ران عليها الشرك ،

ودنست طهارتها الوثنية ، وقادتها الشموات الى مهاوى الاثم ومرادى الفجور والاتضاع . فإذا نور يصرع الظلام في غير فتور ، وهداية تبدد الضلالة في غير هوادة . وإذا رشاد يعمر جنبات الجماعة الانسانية ، ويسطو على ما بها من غواية وضلال .

صدع النبي بأمر ربه وأنذر عشيرته الاقربين ، فتطارت اليه من الاقربين والابعدين نيران الاحقاد والاكثار ، وتوجهت صوبه سهام العدوان والاذى ، من أناس تأبت نفوسهم على الانقياد ، واستمعصت قلوبهم على الهداية . ثم قام في الناس جميعا جاهرا بدعوته مبشرا برسالاته ، فكانت الحرب بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر وبين الايمان والكفر . ولم ترع نفس محمد ولم ترهب ، ولكنه ظل يكافح الظلم ويجهاد ما تنضح به نفوس الناس من حسد دفين وعصبية نوكاء جاهلية ، جاهرا بلسان النبوة البرة الرحيمة : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

ولم يكن يريد لا أولئك الذين آذوه وضاقوا به وأخذوا عليه السبيل ، إلا أن يفتحوا عيونهم للنور ، ويرهفوا آذانهم للسمع ، ويوجهوا قلوبهم للمرشد ، ليرفعوا إنسانيتهم من حضيضها ، ويسمو بنفوسهم عن نزغاتها . ولكنهم كانوا بين رجل طبعته نفسه على الاستسلام والجلود على ما درج عليه الآباء والجدود ، ورجل عرف الحق وأبت عليه الحمية المستشرية والحسد الوضع أن يؤمن .

وإذا شئنا أن نتلمس مظاهر الكبرياء والحسد وما جرت به من تبديد ومكائد فلنتلمس ذلك في قولهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وهذا أمية بن أبى الصلت : يوقن أن نبوة جديدة قد أطل زمانها ، فكان يترقبها لنفسه . فلما أن ظهرت النبوة وتحققت الرسالة لغيره كان أول الجاحدين حنقا وغيظا وهذا عامر بن الطفيل : يفد على النبي هو وأربد بن قيس ، وقد قال له قومه : إن الناس قد أسلموا فأسلم . فقال لهم : إن الناس يدينون لى بالسيادة ويجمعون لى على الخضوع

أفأُتبع عقب هذا الفتى من قریش؟ ثم قال لأُربد: إذا قدمنا على هذا الرجل فإني شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف. فلما قدما على النبي صلى الله عليه وسلم جعل عامر يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فلم يف بما أَراده عليه. فلما آنس عامر جود أربد، قال للنبي: أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر بعدك فأسلم؟ فقال له رسول الله: ليس هذا لك ولا لقومك. فانصرف عامر وهو يقول: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجلا!

إزاء هذا التهديد الذي أعقب المساومة، لم يكن من النبي إلا أن قال: اللهم اكفني عامر بن الطفيل!

ويشاء الله لهذا الطاغية عامر أن يصاب بوباء فانك فلا يستطيع جبروته دفعه فيموت في بيت امرأة من بنى سُلول في الطريق غير مبكى ولا مأسوف عليه. هذا هو الاستقبال للدعوة الجديدة. فهل تراها وقفت حائرة مترددة؟ لا، لا، فقد كانت كل يوم تمازج قلبا جديدا، وكل يوم يشرح الله للإسلام صدرا نقيا، وتعتقه نفس برة خيرة.

كان الدين طهورا من الدخل، وثاقا للنفوس التي آمنت به. فكان يراد الرجل من المسلمين على الكفر ويعذب عذابا وحشيا، فلا ترداد نفسه إلا استمساكا بدينه، وتوثقا بروابطه، وإيثارا للاستشهاد في سبيله. وكان يمر صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهم يمزبون فيقول: صبرا فإن موعدكم الجنة. وكان هو ذاته يعذب وتدعى عقباه بالحجارة فيقول: اللهم إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي.

إن هذا الاستمساك ليمد أبر شاهد على صدق الدين وصحته. وقد قال هرقل لو فد العرب عليه حين قدموا وسألهم: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا، قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

على أن التعاليم السامية التي جاء بها محمد صلوات الله عليه لم تكن مما يشغل على

النفس ويرتفع فوق الجهد ، وإنما هي من اليسر والسهولة بحيث تتجلبب اليها الميول ، وتتملق بها الرغبات . قال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الدين يسر لا عسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

كانت الدعوة دعوة صادقة الى التجرد من ظلمة العقل وظلمة القلب وظلمة الروح الى ترك الأوثان وهجر الأنصاب ، والتوجه بكامل الخشوع والخضوع والعبادة الى إله واحد قادر ، يثيب المحسن ويعاقب المسيء .

ومما حثت عليه هذه الدعوة حثا جازما أن يعود الغنى على الفقير بفضل من ماله ، وينزل له عن جزء من حقه ، محاربة للفقر ، واجتثانا للقلة والعوز ، وإهلا كالجرائم الإجرام ، وإمالة بواعث الشغب والقلق .

كان طبعيا أن يستجيب للدعوة من سبقت لهم الحسنى ، وأن يصدقها من تجرد من الهوى وبرئ من الغرض . فقال أبو بكر الصديق من أول الأمر : صدقت يارسول الله . وقال ورقة بن نوفل (وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب) قال : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعا (يعنى فتيا) إذ يخرجك قومك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أوخرجني هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

وقال ضمام بن ثعلبة حين سأل النبي عن حقيقة الدعوة وعرف سموها وقوتها : أشهد بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي اليك . وجمع أكرم بن صيني خطيب العرب ، وفارس حلبة البيان في الجاهلية قومه وقال : وإن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأنا تاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، يأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى توحيد الله عز وجل ، وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف

ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعوا اليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه . . . إن الذي يدعوا اليه محمد لو لم يكن ديننا لكان في باب الأخلاق حسنا .

وقد رأى على بن أبي طالب رسول الله يسجد لربه فقال له : ماذا تفعل ؟ قال : أسجد لله رب العالمين ، ألا تفعل كما أفعل ؟ فقال : يا محمد أمهلني الى الغد حتى أستشير أبا طالب . وقضى الفتى الحدث ليله يطارد أشباح الخواطر ويجاهد أهوام النفس الى أن أصبح الصباح ، فنهض الى ابن عمه يقول : يا محمد إن الله قد خلقني من غير أن يشاور أبا طالب فإنا حاجتي أنا الى مشاورته لكي أعبد الله ؟

لم تقف همة محمد صلى الله عليه وسلم عند حد دعوة أفراد من قومه وعشائر من بني جنسه ، فتطلع الى أكبر من ذلك ، مدفوعاً بأمر ربه ، فبعث الى هرقل يقول : « أسلم تسلم يؤثك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فمليك إثم الأريسيين . وبعث الى كسرى وإلى عماله وعمال هرقل على الإمارات والمقاطعات ، وأتاح الله لدينه أن ينتشر ، وأن يظهر على الدين كله ولو كره المشركون ، وأراد للانسانية أن تنتعش بعد اختناق ، وأن تعز بعد ذل ، وتتقدم بعد تقهقر ، فسرت فيها هداية الاسلام . وما يزال نوره يشرق ويلتسع ، ولن يزال يشع للناس تبصيرا ، ويوجههم الى الخير والسعادة توجيها الى ما شاء الله . والآن إذ أجبنا هذا الاجال في ظهور الدعوة وهبوب ريحها وانتشارها في الخافقين ، لننظر في آدابها نظرة عاجلة نتعرف فيها ما تحمله من حكمة ، وما تضمه بين أثنائها من خلق :

لقد جاء فيما جاء عن الله : « ووصينا الانسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » . جميل هذا الأدب الإلهي الذي يطلب الى المرء أن يحسن الى والديه وهما أول من أحسنوا اليه . وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، حث على تكوين الجماعة وتوثيق الرابطة بين الأفراد ، لإعزاز الكلمة وبسط السيادة . « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » نهام عن داء استحك بهم فأضعف الأخلاق وقتل المروءة ، وقضى على البر والنجدة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخذ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره »
 « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . « كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه
 وعرضه » . وتكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فوقع في عرض أخيه ، فلما أرادوا
 الصلاة قال له النبي : تخلل أيها الرجل . فقال لم آكل لحم جزور يا رسول الله . قال :
 « ولكنك أكلت لحم أخيك » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بشراركم ؟
 قالوا : بلى . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من
 ذلكم من لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟
 من يبغض الناس ويبغضونه » .

وجاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فخبذه من رداءه حتى حز في عنقه وقال : يا محمد
 أعطني من مال الله فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك . فتبسم النبي صلى الله
 عليه وسلم وقال : نعم ولكن يقاد منك يا أعرابي ؟ فقال : لا يا رسول الله لأنك لا تجزى
 بالسيئة السيئة .

مظهر جميل من التسامح وحسن المعاملة ، يرقق أجنى الطباع ، ويلطف أغلظ العادات ،
 ويهذب أخشن النفوس .

بهذا السمو وبتلك القداسة طلع النور الجديد على الانسانية ، وبذلك اللين والرفق
 نفذت هداية النبي صلى الله عليه وسلم الى القلوب المغلقة المظلمة ، وبذلك الكف الندى
 قرعت أبواب الصدور الموصدة ، فاستجابت لها غرائز الخير ، وانقادت عواطف البر ،
 وأخذ دين محمد بن عبد الله سبيله في الحياة .

يا رسول الله ، يا نبي الوجود ، يا منقذ الانسانية ! في يوم ميلادك تنحني الرؤوس
 وتخضع النفوس وتستبصر العقول وتتيقظ الهمم الغافلة .

عليك أفضل الصلوات وأطيب التحيات — آمين .

عبد الحميد محمود المسامحة

بكلية اللغة العربية

